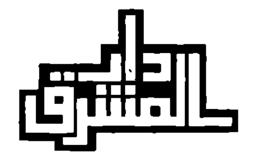

2020
8.1.2020
عارف حجاوي
تجدد الشعر
زبدة الشعر العباسي
من بشار إلى البحتري
دار المشرق

تجدُّد الشعر

زبدة الشعر العباسيّ، من بشار إلى البحتريّ

عارف حجاوي



تجدُّد الشعر

الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار المشرق

حجاوي، عارف
تجدُّد الشعر: زبدة الشعر العباسيّ، من بشار إلى البحتريّ/ عارف حجاوي.
٧٦٦ص.
١. شعر. أ. العنوان.
892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٧

دار المشرق

القاهرة - المعادي - شارع المعراج

almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

يضم هذا الكتاب ألفاً ومئتي قطعة. تكون القطعة بيتاً وتكون قصيدة كبيرة، أو أي شيء بينهما. هي أشعار انتخبتها من دواوين عشرة شعراء حملوا الشعر العربي وانطلقوا به عالياً كي يحلق في مدار جديد.

البدء ببشار الشاعر المتهتِّك المتمرد، وكل شعرائي متهتكون متمردون، جزئياً أو كلياً، وانتظر أسطراً وسترى. ظل بشار «يتخيل» أنه يحن إلى دين أجداده عبدة النار «الأرض مظلمة والنار مشرقة/والنار معبودة مذ كانت النار»، هذا رغم نشوئه في أحضان العربية التي لم يعرف لغة غيرها. كان بشار رغم عماه شهوانياً ـ ومن قال إن الأعمى أبعد عن الشهوانية من أخيه المبصر؟ ـ، وعبر بشار عن شهوانيته في أشعار كثيرة نقلنا منها الكثير. يحدثنا عن فتاته: «تقول وقد خلوتُ بها:/ تكلمْ واكفِني يدكا».

والمتهتك الثاني مجن سنوات قلائل ثم انعكس انعكاسة غريبة أنتجت لنا أطرف دواوين الشعر العربي. هذا أبو العتاهية. عاش طويلاً، وعاش وهو في مطلع كل صباح، ومطلع كل قصيدة، يذكر الموت. كان يعشق الحياة عشقاً أنساه أن يعيشها. سوف يلومني بعض القراء لأنني أخذت من أشعار العتاهي كثيراً، ولكنني كنت وأنا أطالع ديوانه أقف حيال معانيه الموتية وقفاتٍ اندهاشية كثيرة.. من أين يأتي هذا الشاعر بكل هذا الدفق من المعاني في موضوع واحد شديد الضيق. الحياة عامرة بالمعاني، والموت معنى واحد. أبو العتاهية يرى موتاً في الحياة «ما ارتد طرف امرئ بلحظته/إلا وشيء يموت في جسده»، وهو يمر بالمقابر ويقول لنفسه «معقول! أمن المعقول؟ أيعقل أن هؤلاء كانوا ذات يوم بشراً؟» هذا ما أترجمه أنا عنه لا ما قاله فعلاً.. قال: «ألا تعجبون لأهل القبور/ كأنهم لم يكونوا بشرْ».

ونستريح عند شاعر صحب هارون الرشيد في حله وترحاله، فهو حاضر في مجلسه، ومرافق له ضمن الحاشية. لكنه قصر شعره على الغزل. هذا شاعر عذري في زمن غير عذري. حتى عندما اصطحبه الرشيد معه إلى خراسان فقد تململ وقال شعراً في ذلك، فأعطاه الرشيد مالاً وأذن له بالعودة إلى بغداد. نسيت أن أذكر لكم اسمه، هو العباس بن الأحنف. تعجبني للعباس أبيات بالعشرات انتخبتها لك ضمن ما انتخبته. ولكنني أذكر لك بيتاً ترنمت به قديماً، وبيتاً أترنم به اليوم كثيراً. بيت اليوم هو «وحدثتني يا سعد عنها فزدتني/ جنوناً، فزدني من حديثك يا سعد». والبيت القديم كنت قرأته في إذاعة لندن، البي بي سي، أيام عملت بها. كنت أنشدته مترنماً ممتلئاً بمعناه: «يا من تمادى قلبه في الهوى/ سال بك السيل ولا تدري»، وصادف أن كنت في القاهرة أحضر معرض الكتاب، وجاء من أقصى المعرض رجل يبحث عني، وعندما وجدني قال لي: «يا من تمادى قلبه في الهوى/ سااال بك السيل ولا تدري» وأنشد البيت مثلما كنت أنشدته، ثم انصرف هازاً رأسه.

ثم تقلب الصفحة إلى فصل يضم أشعار مسلم بن الوليد. هذا الشاعر الذي فتح ورشة لصناعة الشعر وبدأ يصوغ الأبيات مقتنصاً فيها ما استطاع من المحسنات. لم أستطع أن أحبه من النظرة الأولى، غير أنني وقفت ببيت له، أطلت الوقوف، وأطلت التعجب: «يا ليت ماء الفرات يخبرنا/ أين تولت بأهلها السفن». ومضيت أحرث ديوان مسلم، وأفك معمياته، وأرهقني. وسعدت بما جنيت منه، ثم شقيت بشرح ما اقتنصته مثلما تشقى وأنت تحل مربع الكلمات المتقاطعة اللغزي. وهذا النوع، عنيت «اللغزي» مشهور في اللغات الأوروبية. يقول لك، مثلاً: مدينة فيها العدل وفيها وحل، ١١ حرفاً. وعليك أن تقول في مخك إن العدل هو «القسط» وإن الوحل «طين»، فالمدينة إذن «القسط ن طين ية».

كان صديقي الشاعر محمد مسعد، جاراً لي في الأيام الخوالي، وكنا نتبادل مربعات الكلمات المتقاطعة، نقطع بها أياماً طويلة من أيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى. ذات يوم ثرت به ثورة عارمة، فقد كتب لي «ارتعاش»، وكان علي أن أحزر أن المقصود هو الزعيم الهندي «راجيف غاندي». فكأن الارتعاش يجب أن يوحي بالرجفة ثم براجيف. وعندما أصبحت ذات سنة رئيساً لتحرير الصحيفة الرسمية للبلد، كنت أقعد، بعد «تسكير» الصفحة الأولى،

أرتب الكلمات المتقاطعة لنشرها في الأعداد المقبلة. ولما قررنا أن نجعل للفائزين جوائز ساق القدر إليَّ عدداً من مهووسي هذا العبث فسعدت بهم أيما سعادة، ولم أكن أضع اسمي بالطبع على هذه الألغاز، فقد كنت أصطنع وقاراً لا بد منه. غير أن خلف وقاري، في كل شؤون حياتي، عبثاً كامناً لن أعفيك منه في أي صفحة من صفحات هذا الكتاب.

عمن كنا نتحدث؟ عن مسلم بن الوليد. قد لخصته لك تلخيصاً وشرحته شرحاً احتسبت تعبي فيه.

ثم نأتي إلى أبي نواس. فهل اقتبسنا شيئاً مما أفحش فيه؟ نعم، قد فعلنا. أشياء لا شيئاً واحداً. كان عصرهم ذاك ـ عصر هارون الرشيد ـ عصر استرخاء الدولة، كان «يوم الزينة» في حياة الأمة العربية الإسلامية. وابتلي صاحبنا بالخمر، وبما هو أوبق منها. وحدثناك عنه بحب. قد مات أبو نواس واختلطت عظامه بتراب الأرض، وظل العرب يصرون على التغني بشعره، فعاش. وحقق ديوانه تحقيقاً ممتازاً سليم قهوجي، وأفدنا من تحقيقه ومن شرحه. والديوان ينطلق بالقصيدة الهمزية المشهورة: «دع عنك لومي فإن اللوم إغراء/ وداوني بالتي كانت هي الداء». وقد جعلها قهوجي عشرة أبيات مسقطاً منها بيتاً وجده فاحشاً. نحن لم نسقط البيت.

هذا الكتاب، وكثير مما أكتب، واقع تحت الاتهام بالخروج. الشعر خروج وتمرد. وما كان منه متصالحاً مع المجتمع فهو الشعر الضعيف. لي صاحب يذكر الشاعر الصالح فيترحم عليه، ويذكر الفاسق فيستنزل عليه اللعنة. أنا مخلوق خلقةً أخرى. والسلام.

بعد أبي نواس يأتي دِعبل الخزاعي. وأنا أرتب الشعراء حسب سنة المولد، لا الوفاة كما درج بعض الدارسين، فالسنوات الأولى من حياة الشاعر هي التي يختمر فيها شعره. عاش دعبل خمساً وتسعين سنة، عاش خمسين منها وهو. . «أحمل خشبتي على كتفي ولا أجد من يصلبني عليها». كيف لا وهو قد هجا ستة خلفاء ونصفاً. هجاهم بالترتيب من الرشيد إلى المتوكل. فأما النصف فهو إبراهيم بن المهدي الذي نصب نفسه خليفة فيما بين مقتل الأمين وقدوم المأمون إلى بغداد. ونال نصيبه من لسان شاعرنا. استقبل دعبل تنصيب الخليفة المعتصم بقوله «ملوك بني العباس في الكتب سبعة/ ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب// كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة/ خيار إذا عدوا وثامنهم كلب»،

ومات المعتصم وقام الواثق، فاستقبله دعبل بقوله «خليفة مات لم يحزن له أحد/وآخر قام لم يفرح به أحد». ومن صناعة دعبل البيت المشهور «لا تعجبي يا سلم من رجل/ضحك المشيب برأسه فبكى».

ظل يعجبني بيت آخر لدعبل، عن قبيلته خزاعة: «كانت خزاعة ملء الأرض ما اتسعت/فقص مر الليالي من حواشيها». وكنت في كل مرة أقلب الكتب باحثاً عن هذه القصيدة ناسياً من قالها، فقد عشت ردحاً من الزمن قبل غوغل، ثم ها أنذا أقيد هذه القصيدة تقييداً. ولعل القارئ يحس إحساساً دفيناً بأنني كتبت هذا الكتاب لنفسي لا له. إحساس صادق. أنا منذ سنين كثيرة ألملم الشعر الجميل كي آتنس به، وفي هذا الكتاب فصول كتبتها قبل بضع سنين وأخرى كتبتها قبل بضعة أسابيع، وإنما أسعى في إخراج هذا للناس كي يزيد أنسي بمشاركة محبي الأدب إياي، وكي أزيد حياتي عرضاً، عاجزاً عن زيادتها طولاً. ولعل القارئ أن يظن أن من بعض أسباب طباعتي لهذا الكتاب أن أضع اسمي على غلافه وأسمي نفسي مؤلفاً. صدق ظنك. أرى القارئ يحدس ببراعة ويعرف كل شيء قبل أن أقوله، تبارك الله.

يمكنني أن أنشر هذا الكتاب على الإنترنت، لكنني أريد الحصول على «مصداقية الورق». فما زال الكتاب الورقي هو الكتاب.

يأتيك بعد دعبل الشاعر الذي قتل زوجته، وهو ديك الجن الحمصي. ولأنه ارتكب هذه الجريمة أسْطَره الناس، وسار ذكره صاعداً تلال السنين هابطاً وديانها حتى وصل إلينا. ووصل إلينا من شعره ما يشهد له بالشاعرية، وبالوحشية، وبالرقة، وبقلة الدين. قتل زوجته شاكاً فيها ثم رثاها بحرقة «لو كان يدري الميت ماذا بعده/بالحي حل، بكى له في قبره». ولا نظن زوجته «ورد» بكت له في قبرها، ولكننا ـ نحن ذكور هذا العالم الناطق بالعربية ـ نبكي لأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا لِما يصادفن من شبه الوأد.

ولئن سمع كثيرون باسم ديك الجن فلعل من سمع باسم علي بن الجهم قلة من الناس. هذا رجل مشاكس، شديد الفخر بنفسه وبعائلته، يمدح بعنف ويرثي بعنف، ويتوجع لما أصابه بعنف. وقد لقي الحبس والصلب والضرب واستصفاء الأموال، وظل يقول شعراً من أعلى الشعر. يعرف له الناس «عيون المها بين الرصافة والجسر/جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري»، لكن له قلائد غيرها لا تقل عنها بحال، وله من الشعر ما يفوق هذه القصيدة جمالاً.

شرحنا شعره شرحاً وافياً.. ولعلك تلاحظ أننا فيما أوردنا لأبي العتاهية لم نشرح إلا قليلاً، ذلك أن شعره كالماء. شعر ابن الجهم كالخمر المعتقة.

الشعراء هم الذين يصنعون اللغة. المعنى لجبران. وشعرائي العشرة في هذا الكتاب هم الذين حفروا في ساحة العربية آباراً، وبنوا فيها قصوراً، وجعلوها لغة عامرة كبيرة، وحمَّلوا كلماتها بالمعاني. والشاعر الذي قرر أن يفكك اللغة العربية ثم يبنيها من جديد، مثلما فكك ستالين مليون مصنع ثم أعاد تركيبها شرقاً أمام زحف هتلر، هو أبو تمام.

هو صاحب «السيف أصدق أنباء من الكتب»، وصاحب «ما الحب إلا للحبيب الأول». وأبو تمام قد صعد فوق كتفين عاليتين: كتف مسلم وكتف أبي نواس، وتعملق في شعره، وجهز كتفيه كي تحملا بعد حين المتنبي.

وكان لأبي تمام تلميذ نابه التقى به قليلاً. والتلميذ النابه لا يحتاج من أستاذه إلى دروس.. يحتاج فقط إلى الإلهام وإلى أن يرى الأستاذ عالياً في السماء حتى يشرئب إليه، ويزاحمه بين النجوم. التلميذ هو البحتري.

كأستاذه كان البحتري معجباً بشعره، يصفه في شعره. يقول «فإذا ما بنيت بيتاً تبخترت.. كأني بنيت ذات العماد». وكان أستاذه أبو تمام جعل قوافي القصيدة يغار بعضها من بعض، فهذه قافية استقرت مستريحة في نهاية البيت، وتلك أخرى تريد أن تقعد مكانها، ويكاد الأمر يصل إلى الاقتتال «تغاير الشعر فيه إذ سهرت له/ حتى كأن قوافيه ستقتتل».

عاش البحتري ثمانين سنة، ضعف عمر أستاذه. وجاد في أخريات سنيه بقصيدته السينية التي وصف فيها إيوان كسرى. وهي قصيدة تستمد بعض جمالها من أن شاعرنا قالها لا يمدح أحداً ولا يطلب عليها عطاء من أحد. ذهب إلى الإيوان مع ولده وقعد هناك، ورأى وتعجب مما رأى، وقال قصيدة لم تعرف العربية سينية أجمل منها. والطريف أن البحتري بعد حين مدح أحد الأمراء الفرس بقصيدة أحاله فيها على قصيدته في مدح إيوان كسرى، كأنما ندم على أن فوت تلك القصيدة دون أن يضمنها مدحاً يجر عليه بعض المال (قد مدحنا إيوان كسرى وجئنا/ نستثيب النعمى من ابن ثوابة).

هؤلاء شعرائي العشرة الذين جددوا الشعر العربي ونقلوه من البداوة إلى الحضارة. وبقيت فيهم من البداوة بقية، فالناقة ظلت وسيلة المواصلات

المهمة، وبلاد العرب التي قيل فيها هذا الشعر، العراق والشام، كانت، وما زالت، صحراء. لقد نقل هؤلاء اللغة العربية والشعر العربي نقلة قوية، ولكنهم أضمروا حنيناً للشعر القديم وظلوا، في القصيدة بعد القصيدة، يتلمظون باللغة القديمة، ويدخلونها في أشعارهم. مثلما ظللنا نفعل حتى اليوم. فالفصحى ضاربة الجذور على عمق ألف وخمسمئة سنة، وفي هذا مشكلتها، وفيه جمالها.

في هذه الحقبة العباسية من تاريخ أدبنا العربي أخذنا عن بلاط كسرى مفهوم «الخدمة». فصار الشاعر إذا سخر منه الخليفة طأطأ رأسه ورأى في هذا تأديباً لا عار فيه ولا شنار، وصار الشاعر إذا اقترب من الخليفة بعض الاقتراب اجترأ على الوزير. لكنه يمدح الوزير، ويخلط في قصيدته المدح بالعتاب وبقليل من شبه الهجاء. فإذا ابتعد الشاعر عن البلاط فهو ماجن متهتك، أو غاضب متهور. شعراؤنا العشرة فيهم العربي وفيهم نصف العربي، وكلهم أبناء هذه اللغة الكبيرة، كلهم خلقوها خلقة جديدة، وحرصوا ألا ينسفوها نسفاً، بل خلقوها من جوفها.

هذا كتابي الثاني من أصل خمسة كتب أعرض فيها للشعر العربي من امرئ القيس إلى إيليا أبو ماضي. فأما الكتاب الأول واسمه «أول الشعر»، فمضيت فيه إلى آخر دولة بني أمية. وسيأتي الكتاب الثالث ليصف عصراً تألق فيه الشعر وتوهج كالنجم الذي يسطع بقوة وهو يفنى. وفني الشعر بضع مئات من السنين، ثم انطلق من تحت رماده ليحيا من جديد، وليكون كتاب رابع يبدأ بالبارودي ويضم، فيما يضم، شوقياً وحافظاً والرصافي والزهاوي. ثم يأتي آخر الشعر العمودي فيصدح إيليا أبو ماضي وبدوي الجبل وأبو ريشة والشابي وعرار وغيرهم كثيرون. ثم يقف الشعر العمودي وقفة طويلة.. وما زال يقفها. ولم أعرض للشعر الحديث لأنه حديث لم تغربله السنين. قلت لنفسي: ليكن هذا الكتاب بأجزائه الخمسة حفل تأبين للشعر العمودي.

كلمة شكر

عرفت الصديق الأديب محمد عبد العزيز الهجين قبل نحو سنتين، وصار كلما التقيت به أهداني كتاباً. وصرت لا أذكر له كتاباً إلا وجدته قد قرأه أو قرأ عنه. وعندما علم أنني بصدد إنهاء كتاب لي باسم «أول الشعر» تصدى لموضوع النشر، وظل يعجلني في إرساله حتى لقد أنساني أن أذكره بكلمة شكر في مقدمة الكتاب. وصنع الصنيع نفسه في هذا الكتاب «تجدد الشعر». أقول له إنني على

سفر، فيقول هات الكتاب، وأقول له مساء الخير، فيقول هات الكتاب. لكن، هاإنني أجد فسحة أكتب فيها أن لقائي به، وما أجده فيه من الذوق المرهف والخلق المتين والثقافة العريضة، كان من حسن طالعي.

أيَّتُما غلطة تجدها في هذا الكتاب فالمسؤول الأول عنها صديقي الشاعر عِمران القَفِّيني. فقد صحح لي مئات كثيرة من الأغلاط في النحو، والإملاء، وفي فهم المعنى، وفي دقة الأسلوب، وفي الترقيم، وجعل هذا كله في رسالة من خمس وعشرين صفحة كبيرة. كما أثرى الكتاب بنظرات ثاقبة تنم عن تذوق مرهف للشعر. فاما ما أشار إليه من أغلاط فلن تراه، وأما نظراته وآراؤه فقد فرقتها في أماكنها من الكتاب. وفي مقدمتي للفصل الضافي عن البحتري ذكرت شاكراً جهد اللغوي المدقق الصديق أحمد عبد الرحيم.

مُلحة الوداع

كنت راكباً في السيارة بالخرطوم قبل نحو سنتين متوجهاً إلى حفل انتهاء دورة من تلك الدورات الإعلامية التي ابتلي الناس بها. وكتبت على قصاصة أبياتاً لفتيات الخرطوم اللائي ظللن يخطفن بجمالهن الأخاذ على مدى أسبوع نظر العبد الفقير، وألقيت الأبيات وسط هتاف الفتيات والفتية، وسعادتي بهن وبهم. ثم إن فتاة منهن أخذت القصاصة وصورتها وفسبَكتها، ووصل خبري إلى كل مكان قبل أن تحط بي طائرة القفول، فكانت فضيحة صغيرة في المؤسسة الإعلامية التي أعمل بها. وبقيت في الذاكرة أبيات من تلك الأبيات:

مـر الـزمـان عـلـى رأسـي وخـلانـي	بغير ستر، وتحت الشمس ألقاني
يا صاحب الرحل لا تعجل على رجل	قد أنفق العمر في هم وأشجان
ضيعت قلبيَ في «الخرطوم» في «بحري»	والعقل ضيعته في «أم درمان»
بين الظباء أضاع العمر حجاوي	الحور أنتن، هذا عمريَ الثاني
أقسمت بالخمس من أنغام سلمكم	أن الجمالَ بوادي النيل رباني
دع مصر دع سوريا دع شط لبنان	يا صاحب الرحل إن الحسن سوداني

عارف حجاوي

الدوحة ١٠ يوليو/تموز ٢٠١٦

٥ شوال ١٤٣٧

بشَّار بن بُرْد
(٩١هـ ـ ١٦٧هـ)

وقف بشار بن برد على الجرف القاريِّ بين حقبتين كبيرتين في مسيرة الشعر العربي، لكن قدميه كانتا راسختين في الحقبة المقبلة. أكثروا من القول إنه أول المحدثين وإنه رئيسهم وإنه سيدهم. صدقوا.

جاء على رأس زلزال سياسي كبير هو قيام الدولة العباسية، وكان هذا الحدث نعمة مباركة على دارسي الأدب العربي فقد منحهم فرصة ثمينة لتقطيع العصور الأدبية بالسكين. فكأنَّ الله ساق أبا العباس السفاح رحمة لشوقي ضيف.

والحقيقة أن الزلزال العباسي ترافق بشكل طيب مع الزلزال الأدبي، لأنه هو الذي جلبه لا لأنها كانت صدفة.

انظر إلى كبار الشعراء في العصر السابق، الأموي، ترهم عرباً من تميم والأزد وتغلب. وانظر إلى الشعراء الذين جاءوا مباشرة بعد أن أهوى العباسيون بالسكين سنة مئة واثنتين وثلاثين: فماذا ترى؟ بشاراً ومسلماً وأبا نواس وأبا العتاهية ثم ابن الرومي.. كلهم من الموالي. ويختلطون بالعرب.. فهناك ابن الأحنف ودعبل وابن الجهم والبحتري.

في العصر الإسلامي والأموي قعد مئات الآلاف من الفرس مئة سنة يدخلون في الإسلام وفي اللغة العربية. تكلم الأجداد بكلمات عربية قليلة، وتكلم الآباء بعربية مرطونة، وجاء الجيل الثالث عربي اللسان.. ومختلط الثقافة والاعتقاد. جاء العصر العباسي ـ سياسياً ـ لأن البيت الأموي استهلك قوته العربية الدافعة. وجاء البيت العباسي عربياً مهجناً، يرفع راية الدين عالياً ويلح عليها لأنه يقوم على عصبية مزدوجة عربية خراسانية، فلا سبيل إلى جعل

عصبية الدم أساس الدولة. لا تنس أن مؤسس السلطة العباسية الحقيقي، أبا جعفر المنصور، ولد لأم غير عربية.

كان الحكم العباسي اجتثاثاً للعهد السابق.. شكلياً مثَّلت هذا الاجتثاثَ مذبحةُ نهر أبي فطرس، شمالي يافا بفلسطين، التي ذبح فيها السفاح وجوه بني أمية. وعلى النطاق الأوسع استطاعت راية الدين أن تُظل جموع الخراسانيين الذين برز منهم كثيرون ممن تعربت ألسنتهم، وكان أبو مسلم الخراساني عربي اللسان فصيحاً. قويت شوكة الأعاجم في حضن الثقافة الأدبية العربية، غير أنهم حملوا لهذه الثقافة ولهذه اللغة الكثير من الروح الفارسية.. وحملوا في أعماق عقولهم آثاراً من أديان أجدادهم. وكان في كل هذا ثراء لهذه اللغة ولهذه الثقافة.

نحن في المئة سنة الأولى من العصر العباسي. وسنرى حضوراً قوياً للفرس ولخراسان، وخراسان منطقة تضم في جغرافية اليوم أفغانستان وتضم معظم إيران وتركمانستان ومساحات من دول مجاورة أخرى.. وعندما نقول الفرس فإنما نقولها على التوسع، فثمة مزيج من الأمم في هذه المناطق الشاسعة. وليت أني مؤرخ حتى أدرس لك هذا الخضم البديع من الشعوب التي جمعتها البوتقة العباسية في شرق الدولة. غير أني لست به، فكل ما أعرضه إنما هو صورة عامة.

كان عصراً حافلاً بالنظم الاجتماعية، فمن الموالي من هو عبد سُبي في حرب، وأخذ يتردد في أسواق النخاسة في البصرة ثم في بغداد، وهناك الإماء اللائي كن من أنصاف البشر يؤخذن لمتعة الأثرياء وذوي السلطان أو للخدمة، أو لهما معاً، فإذا أتقنت الجارية الغناء والشعر فهي نصف بشر يتقن الغناء والشعر، يزيد هذا في ثمنها ولا يزيد في حريتها. ويعشن ويَقبلن بوضعهن، مثلما يقبل كل إنسان بوضعه.

رويتُ عن سجينة سياسية في بلد عربي شقيق، أنها تلقت نصيحة من سجينة سياسية أقدم منها، قالت لها: لا عليك يا أختي، عندما يطلبونك للتحقيق، فلا تقاومي، افتحي رجليك، وفكري في أي شيء آخر، وعيشي حياتك.

كان في سواد العراق أنباط هم أقنان الأرض لسيد الأرض، فإذا كان السيد كسرى فهم أقنان كسرى، وإن كان المنصور فهم أقنان المنصور. وكانت

لهم لغاتهم ولم يندمجوا سريعاً. فأما الفرس ممن كانت لهم ثقافة عريضة قبل الإسلام فقد سهل عليهم أن يصبوا إرثهم الثقافي في اللغة العربية.

أحسن فلهاوزن عندما سمى كتابه عن الدولة الراشدية ودولة بني أمية «الدولة العربية»، فهكذا كانت. فأما الدولة العباسية فهي الإمبراطورية الإسلامية.

بشار بن بُرْد

سُبي يُرجوخ جد بشار من طُخارستان في شمال أفغانستان. سباه المهلب بن أبي صفرة في أواسط العصر الأموي. وظل عبداً، وزوجه أسياده بأمة من إمائهم لينجب لهم عبيداً آخرين، وجاءه بُرْد، وكأنما أخذ برد من أسياده الإذن بمزاولة مهنة فكان طياناً يعمل في بناء وترقيع البيوت بالبصرة. وتزوج أمة لعلها كانت رومية. وأنجب بشيراً وبشراً وبشاراً. وولد بشار أعمى. فنال بشار الحرية، ولعل أخويه تحررا أيضاً، إما بالمكاتبة ودفع مال أو لأنهما كانا يشكوان، كما ذكر القدماء، من علل خلقية كأخيهما الأعمى، قيل كان أحدهما أعرج والآخر أبتر مقطوع اليد. وعملا في الجزارة. وزعم بشار أن أجداده كانوا من سادة الفرس، وانتمى لكسرى من جهة أبيه ولقيصر من جهة أمه الرومية. بخٍ بخٍ. صدَّقناك.

وتزوج بشار، وكانت له جارية أو أكثر. وكان عماه قبيحاً، وجسمه كبيراً. وكان ذا شخصية. نشأ مدللاً بين نساء بني عُقيل بعد أن حرره القوم من الرق. والأعجمي الفقير لا بد له من ولاء.. لا بد أن يلتصق بقوم من العرب.. نظام اجتماعي مكين في العصر الأموي، وكان مولد بشار وطفولته وشبابه في العصر الأموي. وقد ظل لهذا النظام أثر في العصر العباسي.. إلى أن قويت شوكة الفرس فيما بعد.

تربى بشار بين النساء لأنه أعمى، وسمع كلامهن، وسرعان ما تبين أن هذا الصبي الكفيف رجل بمشاعره، ليس فيه ليونة ولا خنوثة. فبعثته العقيليات إلى الرجال يعتنون بشأنه.

في سيرته الذاتية «بيت النار» يقول ابن بلدي نابلس الشاعر علي الخليلي إن أمه كانت تصطحبه إلى حمام السوق طفلاً. وذات مرة تحسس بيده فخذ امرأة، فصاحت بأمه: الولد كبر، لا تأتي به معك من بعد. أو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الكتاب ليس بين يدي الآن.

ولعل بشاراً ارتحل مع بعض بني عقيل إلى مضاربهم في البادية. كان لسانه فصيحاً. لم يعرف كلمة من لغة أجداده، بل هو عربي اللسان، فصيح، عقيلي النشأة، كأحسن ما يكون الفصيح العقيلي العامري.

ولكنه يعرف من هو: هو مولى، وأصله من طخارستان.

سمع بشار وهو في العاشرة في مجالس بني عُقيل في البادية أن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد مات. وبعد عمر تولى يزيد الثاني، والدولة في أحسن حال. ورجع بشار إلى البصرة، وكانت مسرح شعر وأدب، بلغ بشار الخامسة عشرة وبدأ عهد هشام بن عبد الملك الطويل. وسمع بشار قصائد جرير في مدح الخليفة، وأعجبه في شعر جرير أكثر من المدح تلك الخفة والفكاهة ولا سيما في أبيات الهجاء. أحب جريراً لأنه ينطلق من أسرة متواضعة ضمن قبيلة تميم، ويتنطح لهجاء أصحاب النسب العالي وخصوصاً الفرزدق، ويزعم أنه أعلى منهم شرفاً، ويرميهم بكل فرية. وكان جرير يأتي البصرة وربما مكث فيها زمناً. وكان عشرات الشعراء يتناوشون جريراً بالهجاء ويرد عليهم، ويفحمهم لكنه أيضاً يرفع ذكرهم. وجرب بشار حظه فهجا جريراً، ولكن جريراً استصغره ولم يرد عليه. وظل بشار يتألم لهذا الإهمال نفسياً، لكن الألم الحقيقي كان لضياع الفرصة: فلو رد جرير عليه لأثبت بشار قدمه الشعرية في العصر الأموي بشهادة موثقة، ولكان من شعراء عصر الاحتجاج. لكن القدر شاء أن يكون لبشار تصنيف آخر: فهو رئيس المحدثين وسيدهم. وكفاه. غير أنه كان يرى أوائل النحويين يستشهدون على قواعدهم هذه التي بدأوا يضعونها بأبيات لجرير وللفرزدق، ولا يستشهدون بأبياته هو. ذلك أنه استطاع أن يبقى على قيد الحياة ولحق بالعصر العباسي، وهو مولى، وهم قرروا قاعدة أخرى غير نحوية: هي أن العصر الذي يمكن فيه الاحتجاج بالشعر هو العصر الأموي، وأن كل ما جاء بعده محدث فسدت فيه اللغة. ولكن بشاراً عاش أربعين سنة في العصر الأموي قال فيها شعراً عظيماً رددته الناس. لا، هو مولى. ولم يسلم النحاة من لسانه، فتنازل بعضهم و«تمثل» بشيء من شعره.

تطاول العصر الأموي ومدح بشار فيه القادة، ووصل في نهايته إلى مدح آخر الخلفاء، مروان بن محمد. مدحه وكأنَّ العصر الأموي سيدوم قروناً. ولكن الدعوة العباسية جاءت من خراسان.. من موطن أجداد بشار، كي تهزم آخر خلفاء بني أمية.

وأسرع بشار، وهو الآن في الأربعين من العمر، وكتم ما استطاع من شعره القديم ولا سيما قصيدة كان قد شمت فيها بمقتل إبراهيم الإمام العباسي. وتهيأ لاستقبال العهد الجديد. لكنه لم يحظ عند المنصور، وكان المنصور منشغلاً بتوطيد الأمر لبني العباس، ثم انشغل ببناء عاصمته بغداد. ولعل بشاراً هجاه فعلاً بقصيدة. ثم لعله فعلاً خاف أن تكون في هذه القصيدة نهايته، فاغتنم فرصة إيقاع المنصور بأبي مسلم الخراساني، فنقل القصيدة إلى هجاء أبي مسلم، وغير فيها وبدل. وربما أن القصيدة كلها كانت فعلاً نفاقاً للمنصور بهجاء قتيله أبي مسلم. وصلتنا القصيدة، واقتبسنا منها هنا أبياتاً.

ولما تولى المهدي الخلافة بعد أبيه المنصور استبشر بشار، فالمهدي يحب الشعر ويسمع الشعراء. وبشار أشهر شاعر في البلاد. رحل بشار إلى بغداد، واتصل بالخليفة الجديد ومدحه، ونال أعطياته. ومدح وهجا في بغداد الجديدة.. مدينة عمرها خمس عشرة سنة.. مملة. أين هي من البصرة؟

يستذكر أيامه بالبصرة.. كان له بيت عامر بالأنس وبالأصدقاء. يأتي الرجال فيسمعون منه آخر أشعاره في هجاء غريمه حماد عجرد، ويروون له ما قال حماد فيه. ويأتيه تلميذه الشاعر سلم الخاسر، ويسمع منه آخر القصائد.

ويحدث أن يقول سَلْم بيتاً جميلاً، بيتاً سار في كل البلاد وفي كل القرون حتى ليزعم صاحب هذه الأسطر أن القارئ، كائناً من كان، قد سمع بهذا البيت، أو بنصفه الأول. قال سلم: (من راقب الناس مات غماً/ وفاز باللذة الجسور). وفار مرجل بشار غضباً، وحلف ليقاطعن سلْماً، وليفعلنَّ ويفعلنَّ. وجاء الصحب بسلم إلى بشار. فشتمه أقذع شتم، قال له: تسرق بيتي وتضعه في كلام سهل حتى يسير بيتك ويخمل بيتي! فأنا قلت: (من راقب الناس لم يظفر بحاجته/ وفاز بالطيبات الفاتك اللهج) وتأتي وتسرق المعنى. لكن، في الواقع ليس مع بشار حق. فالقانون الذي تواضع عليه النقاد هو أن من يسرق المعنى ويضعه في حلة أجمل كان أولى به.

اعتذر سلم لبشار بحرارة، وقال له: أنا تلميذك وخريجك يا أبا معاذ. فرضي بشار. كان طيب القلب، وكان يحب أصحابه وتلاميذه، على شراسة في خلقه وحدة في مزاجه، وعلى سلاطة في لسانه.

يتذكر بشار أيام البصرة الجميلة، هذه المدينة العتيقة، ليست عتيقة جداً ولكنها عتيقة حقاً بالمقارنة مع بغداد. البصرة التي شهد فيها بعينيه، عفواً

بأذنيه، جريراً والفرزدق يتهاجيان في المربد، البصرة التي هواؤها وخم ومستنقعاتها ترسل على الناس أسراب البعوض، والتي يشرب الناس فيها الماء عذباً تارة وملحاً تارة، البصرة التي فيها تشكيلة غريبة من القبائل، وفيها النبط وفيها الجواري.

يتذكر كيف كانت تأتيه أُمامة جارية بني فلان، وتصحبها عاتكة الفتاة الصغيرة ابنة سيدتها، وتأتيه عبدة جارية بني علان، وفلانة وفلانة من الجواري يأخذن نهار عطلة من الخدمة في بيوت علية القوم، ويأتين بشاراً ويجلسن إليه فيسمعهن شعره وأحاديثه التي فيها من الأحماض ما يضحكهن ويثير في نفوسهن أموراً لا يحسن ببنات الحرائر أن يشعرن بها. كان مجتمع البصرة يتأفف من هذا الضرير الذي تأتيه الجواري.. لكن، لا بأس، هن جوارٍ. فإذا ذكر في شعره بنتاً من بنات الأحرار، كان السخط كبيراً. لكن يقل هذا السخط حين يعلم الناس أنه كذاب في تعشُّقه الحرائر، ثم لا بأس.. هو أعمى.

جل هذا الشعر الذي قاله في الغزل كان في العصر الأموي. وكان فيه من جزالة الشعر الأموي، ومن ألفاظه، ولكن.. كان فيه أيضاً كل ما في نفس بشار المتوقدة من بوهيمية ومن خيال جامح ومن شهوانية ومن قلة اكتراث بالمعتقدات، ومن حنين لحرية قديمة لم يعرفها لا هو ولا أبوه في ظل دين قديم. كان شعراً عربياً في لغته وجديداً في روحه. شعر بذيء بقدر ما في الطبقية القاسية والعبودية من بذاءة. ولعل قصائده في البنات الصغيرات من الحرائر كانت تعبر عن اشتهاء لإيذاء هذا الطهر الذي حرمه المجتمع منه.

ليس لأنه سليل عبودية زائلة كان بشار بذيئاً، بل هو رجل خلقه الله غير رومنسي. هو شهواني وكفى. لكنه أيضاً ذو خيال ومقدرة، وعقله يحمل ثقافته العربية المتينة، ويحمل أيضاً تلك الأحاسيس بأنه ضيف على ثقافة العرب، وبأن العمق الثقافي له كائن هناك في ثقافة أسلافه الذين زعم أنهم من سلالة كسرى.

لم يكن مرتاحاً في بغداد رغم أن الخليفة المهدي نفسه سمح له بالدخول إلى جواريه كي يحادثهن، فهو أعمى ولا ضير. ولم يسلم الخليفة من سلاطة لسانه، هجا بادئاً وزير الخليفة يعقوب بن داود، ثم كأن الخليفة حرمه من الصلة مرة بعد مرة، فهجا الخليفة ببيتين. وأي شعر يقوله بشار، حتى لو همس به همساً في حلقة يونس النحوي، لا بد أن ينبت له جناحان. فشعر بشار فيه اللسعة التي تجدها في نبيذ العنب ولا تجدها في عصير العنب.

وأوصل الوزير يعقوب بن داود البيتين إلى المهدي. فهلك بشار.

سأل عنه المهدي فقيل له هو بالبصرة.. قد عاد إليها. فانحدر الخليفة إلى البصرة بسفينته. وجيء ببشار فضرب سياط التلف. قال لهم الخليفة اجلدوه حتى الموت. فجلدوه وهو يقول حسٍّ، ومعناها أَخّ بعربية البدو. قالوا له: ألا تقول الحمد لله؟ فقال لهم: أهو ثريد فأحمد الله عليه؟

تتعدد الروايات في مقتل بشار ولكنها تجمع على أنه قتل قتلاً. وأن جثته ألقيت في الوحل، فأخذه من أخذه وشيعه. ويقولون إن جنازته كانت مكونة من جارية سندية، مشت خلف نعشه تقول: واسيداه! ويقولون إن أهل البصرة تصدقوا عندما علموا بموته، لما كان يلحق بهم من الأذى من شعره ومن سلوكه. كان قد أسن وبلغ الخامسة والسبعين أو نحوها، ولم يعد حديثه مسلياً، كان فقط الشيخ البذيء الذي لا نملك نحن أهل البصرة سوى السكوت عليه لأنه ضرير.

مات بشار، ولكن أهل الأدب ظلوا يتناقلون شعره. قيل جمعوه في كتاب، وقيل بل لم يجمعوه. ولكن أهل الأدب جمعوا بعد سنين طويلة مختارات من شعر بشار أكثر من مرة، فالأغلب والحال هذه أن يكونوا اختاروا ما اختاروه من ديوان. وفي الخمسينات (بين ١٩٥٠ و١٩٥٧) نشر الشيخ الطاهر بن عاشور التونسي نصف ديوان بشار. إذن لا بد أنه كان هناك ديوان مكتمل.

وحتى يومنا هذا لم نعثر على النصف الثاني.

المخطوط الذي ورثه الشيخ بن عاشور عن جده كان مرتباً على أبجدية المشارقة ويصل بشعر بشار إلى أواسط حرف الراء. ويعلم محبو الشعر القديم أن حرف الراء يقع غالباً في منتصف الدواوين. فلا بد أن الديوان الكامل مجلدان. وكان في نشرة الشيخ الجليل، وهو فقيه كبير ومفسر وعالم بالعربية، غَناء، خاصة وأنه ألحق بها ما التقطه من أشعار بشار من كتب الأدب. وجاء بعد الشيخ عاشور من زاد زيادات، وصحح شاكر الفحام ـ في كتاب من مئتي صفحة ـ بعض أوهام الشيخ، ونشر الديوان إحسان عباس نشرة فيها بعض تصحيحات استفاد فيها من الفحام وزاد زيادة قليلة.

فهذا ما بأيدينا من شعر بشار بن برد.

وقد ترجم له صاحب الأغاني واعتنى به. فكان لبشار في الأغاني مئات الأبيات.

يمكن القول إن ما وصلنا من شعر الرجل سبعة آلاف بيت، وهذا ليس بالشيء القليل للكشف عن طبيعة شعره وشخصيته. ولا ننس أن ما اقتبسته كتب الأدب، في زمن كان فيه شعره موجوداً بين الأيدي، إنما هو من صفوة شعره.

ومن كل هذا اخترنا لك ما سترى بعد هذه الصفحات.

١ أبيات فرائد

ولستُ بِالحاسِبِ بَذْلَ النَّدَى   إن البخيلَ الكاتِبُ الحاسِبُ

* * *

وقد هَمَمْتُ بِيَحيَى ثم أَدركَني   حِلْمي، فأَمْسَكْتُها مُحْمَرَّةً لَهَبا

هل كنتَ في مجلس استحق فيه أحدهم منك كلمة جارحة، لكنَّك أمسكتها؟ لا بد أنها ظلت جمرة حلقك

* * *

تَرجُو غداً؟ وغَدٌ كَحَامِلَةٍ   في الحيِّ لا يَدْرُونَ ما تَلِدُ

الغد كالمرأة الحامل، وأنت لا تدري ما سيأتي به الغد

* * *

ما كُلُّ زَلَّةِ صَاحِبٍ   أَغْدُو لها أَتَوَثَّبُ

ستجد أدناه كثيراً من الشعر لبشار في الإغضاء عن هفوة الصديق. لكن أقل كلمة كان يقولها لأصحابه يا ابن الفاعلة. لي صديق لا أقول كلمة إلا فسرها تفسيراً عجيباً ووثب عليَّ يلوم ويعاتب.. شهوة قلبه العتاب، لا يترك صغيرة ولا أصغر منها.. فعلاً أحس أنه يثب على كلامي وثباً.. ووالله إنني لأراعيه مراعاة كرتونة البيض وأنا أحملها من السوبرماركت إلى البيت.. لا فائدة

* * *

إنِّي مَدَحْتُكَ كاذباً فأَثَبْتَني   لَمَّا مدحتُكَ ما يُثَابُ الكاذِبُ

* * *

فإن قلتَ: «إنِّي مَاجِدٌ وابْنُ مَاجِدٍ»   فقد قالَ خِنزيرُ السَّوَادِ: أنا الأَسَدْ

إن مدحت نفسك فلعل الخنزير في سواد العراق يقول: أنا الأسد

* * *

لا أَشْتَهِي السَّلْوَةَ، إِنِّي امْرُؤٌ   زَيَّنْتُ نَفسي بِهَوى مَنْ هَوِيْتْ

السلوة: نسيان الحبيب

* * *

كَبِكْرٍ تَشَهَّى لَذيذَ النِّكَاحِ   وتَفْرَقُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ

الصولة: الهجمة. تشبيه كهذا لا يخرج إلا من فم بشار

* * *

وكانَ جَواري الحَيِّ إذْ كنتِ فِيهِمُ   قِبَاحاً، فلمَّا غِبْتِ صِرْنَ مِلاحَا

الجمال نسبي.. عجبت للفتيات يقبلن على رفقة بنت جميلة جداً.. تكشفهن

* * *

في حُلَّتي جِسْمُ فتىً نَاحِلٍ   لو هبَّتِ الريحُ له طَاحَا

* * *

ويُعطيكَ ذُلّاً إذا رُعْتَهُ   كما ذَلَّ لِلقَدَمِ المِرْبَدُ

يهجو حماد عجرد. رعته: أخفته. المربد: سوق بالبصرة كان يرتاده أهل الأدب

* * *

يَزْدَحِمُ الناسُ على بَابِهِ   والمَوْرِدُ العذبُ كثيرُ الزِّحَامْ

* * *

إذا ابْتَسَمَتْ جَادَتْ جُفوني بِوَابِلٍ   مِنَ الغَيْثِ أَجْرَتْهُ بُرُوقُ المَبَاسِمِ

كأن في مبسمها برقاً لبياض أسنانها.. وبعد البرق يأتي وابل المطر، والمطر دموع شاعرنا

* * *

إذا حَسَرَ الشبابُ فَمُتْ جَميلاً   فما اللَّذاتُ إلَّا في الشبابِ

حسر: انحسر وتلاشى، مت جميلاً: انسحب من حلبة العشق بكرامتك

* * *

إذا أَنشدَ حَمَّادٌ   فقُلْ أَحْسَنَ بَشَّارُ

يتهم حماد عجرد بسرقة معاني شعره

* * *

وَلَلموْتُ خيرٌ مِنْ حياةٍ على أَذَىً   يَضيمُكَ فيها صاحبٌ وتُرَاقِبُهْ

يضيمك: يظلمك. تراقبه: تراه

* * *

دَعاني شِنِقْنَاقٌ إلى خَلْفِ بَكْرَةٍ   فقلتُ اتْرُكَنِّي فَالتَّفَرُّدُ أَحْمَدُ

شنقناق: شيطان من شياطين الشعراء، وبشار لا يريد أن يكون رديفاً على الناقة وراء شيطان شعري، يريد التفرد

* * *

ويكادُ يُظْلَمُ حين يُغْشَى بيتُه   مِنْ لينِ جَانبِهِ ولينِ حِجَابِهِ

هذا الممدوح يكتظ عليه طالبو المعروف، فكأنهم يظلمونه، ويستقبلهم ببشاشةٍ للين جانبه، أي طيبته، ولين حجابه، أي سهولة الدخول عليه وسماحة حاجبه

* * *

الأرضُ مُظلِمَةٌ والنارُ مُشرِقَةٌ   والنارُ مَعبودةٌ مُذْ كانتِ النَّارُ

بقية من مجوسية الأجداد الذين عبدوا النار

* * *

متَى تَأْبَ الكرامةَ مِنْ كَريم   فَمَا لَكَ عندَه إلَّا الهَوانُ

الكريم يغضب على من يرفض معروفه.. ولاً سيما إن كان المعروف رمزياً. فإذا دعاك زعيم إلى غداء وقلت له إنك شبعان، فسوف ينتظر فرصة يهينك فيها. رح وكل

* * *

متى يَبْلُغُ البُنيانُ يوماً تَمَامَهُ   إذا كنتَ تَبْنيهِ وغَيْرُكَ يَهْدِمُ؟

* * *

أَعْمَى يَقُودُ بَصيراً لا أَبالَكُمُ   قد ضَلَّ مَنْ كانتِ العُمْيانُ تَهديهِ

قصة البيت أن رجلاً جاء يسأل عن مكان فلم يستطع أحد من الجلوس أن يدله، فقام بشار وأمسك بيده وأخذه إلى المكان

* * *

ما قَامَ أَيْرُ حِمارٍ فامْتَلا شَبَقاً   إلَّا تَحَرَّكَ عِرْقٌ في اسْتِ تَسنيمِ

خطر البيت، الذي يحتاج إلى نقطة، ببال بشار.. وإذا بتسنيم يدخل، فجعله بشار في القافية. وغضب تسنيم فقال له بشار: قعدت في طريق القافية

* * *

عَـرِّضَـنْ لـلـذي تُـحِـبُّ بِـحُـبٍّ   ثـم دَعْـهُ يَـرُوضُـهُ إِبْـلـيـسُ

بيت أغضب ولاة الأمر كثيراً. فهموا معناه. الرجل يرمي كلمة، ويترك الفتاة مع كلمته ومع إبليس، وبعد حين تلين الفتاة. رأيت فتيات يصنعن ذلك مع الرجال. لكن الرجل ليس في حاجة إلى إبليس. هو إبليس

* * *

يا صاحِ لا تَجْرِ في لَوْمي وتأنيبي   ما كُلُّ مَنْ لـم يُجِبْ قوماً بِمغلوبِ

٢ نُتَف

كثرت النتف ـ والنتفة هي البيتان لا ثالث لهما ـ في شعر بشار لأن نصف ديوانه ضاع، والتقط الناس الأبيات المفرقة في كتب الأدب وألحقوها بنصف الديوان الموجود. وكتب الأدب كثيراً ما تقتبس بيتين بيتين حتى تبرز حرارة القافية

إن عَـمْـراً فـاعـرِفـوهُ   عَـربـيٌّ مِـنْ زُجـاجِ

مُـظْـلـم الـنِّـسـبـةِ، لا يُـعْـ   ـرَفُ إلَّا بِـالـسِّـراجِ

عمرو يدعي أنه عربي قح، لكنه عربي من زجاج ما أسهل أن ينكسر. ونسبته، أي نسبه، مظلم غير واضح.. أهو عربي أم نبطي أم فارسي.. ويحتاج نسبه إلى مصباح

* * *

خَليليَّ مِنْ كَعْبٍ أَعِينَا أَخاكُما   عـلى دهـرِهِ إن الـكـريـمَ مُـعـيـنُ

ولا تـبـخَـلا بُـخْـلَ ابنِ قُـزْعَـةَ إنَّـهُ   مَـخَـافَـةَ أن يُـرْجَـى نَـدَاهُ حَـزيـنُ

شبيه بهذا ما يصنعه المدير عندما يدخل عليه موظف محتج على حرمانه من العلاوة.. يكتسي وجهه بالحزن، ويسبق الموظف إلى الشكوى من سوء الأحوال

* * *

مِنْ حُبِّـهـا أَتَـمَـنَّـى أن يُـلاقِـيَـنـي   مِـنْ نَـحْـوِ بَـلـدتِـهـا نَـاعٍ فَـيَـنْـعَـاهـا

كَـيْـمَـا أَقُـولَ فِـراقٌ لا لِـقَـاءَ لـه   وتُـضْـمِـرُ النفسُ يَـأْسَـاً ثم تَـسْـلاهـا

* * *

قـالـوا الـعَـمَـى مـنـظـرٌ قـبـيـحٌ   قـلْـنـا بِـفَـقْـدي لَـكُـمْ يَـهُـونُ

تَـالـلَّـهِ مـا فـي الـبـلادِ شـيءٌ   تَـأْسَـى عـلـى فَـقْـدِهِ الـعُـيـونُ

* * *

تَـمْـرُكُـمْ يـا سـهـيـلُ دُرٌّ، وهَـلْ يُـطْـ   ـمَـعُ في الـدُّرِّ مِـنْ يَـدَيْ مُـتَـعَـتِّ؟

يهجو سهيلاً، فتمره كأنما هو اللؤلؤ. وهل يطمع المرء في لؤلؤ من يدي صاحب عتوٍّ وتجبر؟

فاحْبُني يا سهيلُ مِنْ ذلكَ التَّمْـ ـرِ نَـوَاةً تـكـونُ قُـرْطـاً لِـبِـنْـتـي

فأعطني نواة لا تمرة لتكون حلقاً في أذن بنتي

* * *

يا أَيُّها الناسُ قد ضَاعَتْ خِلافَتُكُمْ إن الـخـلـيـفـةَ يـعـقـوبُ بـنُ دُاوِدِ

ضَاعَتْ خلافَتُكُمْ يا قَومُ فالتَمِسُوا خـلـيـفـةَ الـلَّـهِ بـيـن الـزِّقِّ والـعُـودِ

يعقوب هذا كان من خاصة المهدي، ولعله كان فعلاً بين الزق، خابية الخمر، والعود، أي كان يحضر مجالس الطرب. قيل إن البيت تسبب في قتل شاعرنا

* * *

والـجِـدُّ لـيس بِـزَائِـدٍ فـي رِزْقِ مَـنْ يَـسْـعَـى، ولـيـس بِـنَـائِـمٍ عـن نَـائِـمِ

ويَـمُـوتُ رَاعـي الـضَّـأْنِ عـنـد تَـمـامِـه مَـوْتَ الـطـبـيـبِ الـفـيـلـسـوفِ الـعـالِـمِ

الجِد بالكسر المثابرة، فهي لا تزيد رزق الساعي. والرزق نفسه لا ينام عمن ينام عن السعي بل يأتيه رزقه. كل شيء مقدر، والموت مقدر علينا كلنا

* * *

طَـرَقَـتْـنَـا ذَاتُ الـبَـنـانِ الأَحَـمِّ حَـبَّـذا الـنـومُ لِـلـخـيـالِ الـمُـلِـمِّ

لـو سَـقَـتْـنـي سُـمَّـاً لـقُـلْـتُ دَعـوُهـا لا يَـضُـرُّ الـحُـوارَ وَطْـأَةُ أُمِّ

طرقتنا، أي جاءتنا ليلاً ذات البنان الأحم، أي الأنامل المسودة من الحناء، وما أجمل النوم في انتظار طيفها الملم، الزائر. ولو سقتني سماً فلن أتضرر. فالحوار، الجمل الصغير لا يضره أن تدوس عليه أمه.. معنى قديم سرقه بشار

* * *

ودَعْـجَـاءِ الـمَـحـاجِـرِ مِـنْ مَـعَـدٍّ كَـأَنَّ حَـديـثَـهـا ثَـمَـرُ الـجِـنَـانِ

إذا قَـامَـتْ لِـمَـشْـيَـتِـهـا تَـثَـنَّـتْ كـأَنَّ عِـظَـامَـهـا مِـنْ خَـيْـزُرَانِ

رب دعجاء المحاجر، واسعة العينين، من شعب معدّ، ذات حديث حلو، وتتثنى إذ تقوم كأن عظامها من خيزران

* * *

رُبَّـمـا يَـثْـقُـلُ الـجَـلـيـسُ وإن كـا ن خـفـيـفـاً فـي كِـفَّـةِ الـمـيـزانِ

قد يكون الجليس ثقيل الظل وإن كان خفيفاً في الميزان، أي تافهاً

كـيـف لا تَـحـمـلُ الأمَـانـةَ أرضٌ　　حـمـلَـتْ فـوقَـهـا أبـا سُـفـيـانِ

الآية حمَّلت الإنسان الأمانة بعد أن أبتها السموات والأرض والجبال. وبشار يتعجب كيف أبت الأرض حمل الأمانة وقد حملت هذا الثقيل البغيض المكنى بأبي سفيان

* * *

يا قومُ أُذْني لِبعضِ الحَيِّ عَاشِقَةٌ　　والأُذْنُ تعشقُ قبلَ العينِ أَحيانا

قالوا بِمَنْ لا تَرى تَهذي فقلتُ لَهُمْ　　الأُذْنُ كالعينِ تُؤْتي القَلْبَ ما كانا

الأذن تؤتي القلب: تؤدي إليه ما كان من أمر

* * *

خَـلـيـفَـةٌ يَـزنـي بِـعَـمَّـاتِـهِ　　يَـلْـعَـبُ بِـالـدَّبُّـوقِ والـصَّـوْلَـجـانْ

أَبْـدَلَـنـا الـلَّـهُ بِـهِ غَـيْـرَهُ　　ودَسَّ مُـوسَـى فـي حِـرِ الـخَـيْـزُرَانْ

الخليفة: المهدي، وهو في زعم بشار يلهو بلعبة الدبوق والصولجان، وهي مثل البولو.. عصا يحملها رجل فوق فرسه ويلاحق الكرة، وكان لها ميادين خاصة في ذلك العصر. موسى الهادي: ولي العهد، والخيزران أمه. والحر، بغير شدة: متاع المرأة. ولم يخبرنا لا الطبري ولا صاحب الأغاني شيئاً عن عمَّات المهدي. وكثير من المصادر القديمة تؤكد أن هذين البيتين هما، دون غيرهما، سبب قتل بشار

* * *

أُنْـسٌ غَـرائِـرُ مـا هَـمَـمْـنَ بِـريـبَـةٍ　　كَـظِـبـاءِ مَـكَّـةَ صَـيْـدُهُـنَّ حَـرامُ

يُحْسَبْنَ مِنْ لينِ الحديثِ زَوانِياً　　ويَـصُـدُّهُـنَّ عـن الـخَـنـا الإِسْـلامُ

أنس غرائر: فتيات أنيسات بريئات، ما نوين علاقة مريبة. لكن حديثهن فيه غنج ولين حتى ليحسبهن المرء زانيات، لكن الإسلام يمنعهن من الخنا، أي الفحش

* * *

مِـنَ الـمَـفـتُـونِ بَـشَّـارِ بـنِ بُـرْدٍ　　إلـى شَـيْـبَـانَ كَـهْـلِـهِـمُ ومُـرْدِ

فـإنَّ فَـتَـاتَـكُـمْ سَـلَـبَـتْ فُـؤادي　　فَـنِـصْـفٌ عـنـدَهـا والـنِّـصْـفُ عِـنـدي

رسالة من بشار إلى كهول قبيلة شيبان ومردها، أي شبابها الذين لم تنبت لحاهم.. نص الرسالة في البيت الثاني. لو قال «شطرت فؤادي» لكان أليق

* * *

لَمَسْتُ بِكَفِّي كفَّه أَبتغي الغِنَى　　ولـم أَدْرِ أنَّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعدي

فـلا أنـا مـنْـهُ مـا أَفَـاد ذَوُو الـغِـنَـى　　أَفَدْتُ، وأَعْداني فَأَفْنَيْتُ ما عِندي

* * *

إن سَـلْـمَـى خُـلِـقَـتْ مِـنْ قَـصَـبِ   قَـصَـبِ الـسُّـكَّـرِ، لا عَـظْـمِ الـجَـمَـلْ
وإذا أَدْنَـيْـتَ مـنـهـا بَـصَـلاً   غَـلَـبَ الـمِـسْـكُ عـلـى ريـحِ الـبَـصَـلْ

يفسر القصب، فهو قصب السكر اللين وليس عظم الجمل (والقصب العظمُ أيضاً، ألا نسمي اللحام قصاباً). والبيت الثاني من فكاهات بشار، ولم يفهم النقاد الغلاظ الطبع الفكاهة فانتقدوا بشاراً

* * *

كـيـف يـبـكـي لِـمَـحْـبَـسٍ فـي طُـلُـولِ   مَـنْ سَـيُـفْـضـي لِـحَـبْـسِ يـوم طَـويـلِ
إنَّ فـي الـحَـشْـرِ والـحِـسابِ لَـشُـغـلاً   عـن وُقـوفٍ بِـكُـلِّ رَسْـمٍ مُـحـيـلِ

كيف يبكي رجل يحبس نفسه عند أطلال الأحبة، وهو سينتهي إلى حبس طويل يوم الحساب ينسيه كل رسم محيل، كل طلل متحول إلى خراب

* * *

قُـلْ لِـشهـرِ الـصِّيام أَنْـحَـلْـتَ جِـسـمـي   إن مـيـقَـاتَـنـا طُـلـوعُ الـهِـلالِ
اِجْـهَـدِ الآنَ كُـلَّ جَـهْـدِكَ فـيـنـا   سـتَـرى مـا يـكـونُ فـي شَـوَّالِ

ميعادنا يا رمضان هو هلال شوال، فاصنع بنا الآن ما تشاء من جوع ومنع عن اللهو، وسترى ما نصنع في شوال

* * *

بِـئْـسَ الـمُـروءَةُ مِـنْ ذَوي حَـسَـبٍ   جَـاعَـتْ قَـرابَـتُـهُـمْ وقـد ثَـمِـلُـوا
شِـبَـعُ الأمـيـرِ وجُـوعُ صـاحِـبِـهِ   عـارُ الـحـيـاةِ، فَـأَطْـعِـمُـوا وكُـلُـوا

يجوع أقرباؤهم فأما هم فيأكلون ويشربون الخمر حتى الثمالة، والحكمة في النهاية موجزة إيجازاً حلواً: أطعموا وكلوا

* * *

لـمَّـا رأَيْـتُ الـحـظَّ حَـظَّ الـجَـاهِـلِ   ولـم أَرَ الـمَـغْـبُـونَ غَـيْـرَ الـعَـاقِـلِ
شَـرِبْـتُ خَـمْـسـاً مِـنْ كُـرومِ بَـابِـلِ   فَـبِـتُّ مِـنْ عَـقـلـي عـلـى مَـراحِـلِ

لما رأيت الجاهل محظوظاً وغنياً، ورأيت العاقل مغبوناً، مهضوم الحق، شربت خمس كؤوس من خمر بابل، وابتعدت عن عقلي مراحلَ. والمرحلة هي المسافة بين موضع وموضع يتم فيهما تبديل بغل البريد أو إراحته

* * *

ومِـثْـلُـكَ قـد سَـيَّـرْتُـهُ بِـقَـصـيـدةٍ   فَـسـارَ ولـم يَـبْـرَحْ عِـراصَ الـمَـنـازلِ

رَمَيْتُ به شَرقاً وغَرباً فأصبَحَتْ   به الأرضُ مَلأى مِنْ مُقيمٍ ورَاحِلِ

مثلك يا هذا! قد نشرت مخازيه بشعري فسارت سيرته، فكأنه قد سار بنفسه وهو لم يبرح عراص المنازل، ساحاتها، لكن امتلأت الأرض شرقاً وغرباً بذكره، يسمع به المقيم والمسافر

* * *

يـا ابـنَ نِـهْـيـا رأسـي عـلَـيَّ ثَـقـيـلُ   واحـتـمـالُ الـرأسـيـنِ خَـطْـبٌ جَـلـيـلُ

أُدعُ غـيـري إلـى عِـبـادَةِ رَبَّـيْـ   ـنِ، فـإنِّـي بِـواحِـدٍ مَـشـغـولُ

يتهم بشارٌ ابن نهيا، حماد عجرد، بأنه يعبد إلهيْ الخير والشر على دين المانوية، ويزعم بشار أنه هو يعبد إلهاً واحداً

* * *

أَتَـتْـنـي الـشـمـسُ زائِـرةً   ولـم تَـكُ تَـبْـرَحُ الـفَـلَـكـا

تـقـولُ وقـد خَـلَـوْتُ بِـهـا: تَـكَـلَّـمْ واكْـفِـنـي يَـدَكَـا

هذه لا يعرف الشاعر يقولُها إلا إن سمعها فعلاً من فتاة «حاوَلَ معها»

* * *

عَـجْـزَاءُ مِـنْ سِـرِّ بَـنـي مَـالِـكٍ   لَـهَـا حِـرٌ مِـنْ بَـطْـنِـهـا أَرْفَـعُ

زُيِّـنَ أعـلاهُ بِـإشـرافِـهِ   وانـضَـمَّ مِـنْ أَسْـفَـلِـهِ الـمَـشْـرَعُ

يصف ما لا يوصف من فتاة من سر بني مالك، من أوساطهم، فهي عجزاء ذات عجيزة كبيرة، ولها حر، ذلك الشيء الناتئ عن بطنها والمشرف.. إلخ

* * *

خَـلـيـلَـيَّ إن الـمـالَ لـيـس بِـنـافِـعٍ   إذا لـم يـنـلْ مـنـهُ أَخٌ وصَـديـقُ

وما خَابَ بين اللَّهِ والناسِ عاملٌ   له في التُّقَى أو في المَحَامِدِ سُوقُ

* * *

لـو نُكِحَ الليثُ في استِه خَضَعا   ومـات جُـوعـاً ولـم يَـنَـلْ طَـمَـعـا

كـذلـكَ الـسـيـفُ عـنـدَ هَـزَّتِـهِ   لـو بَـصَـقَ الـنـاسُ فـيـهِ مـا قَـطَـعـا

معنى دقيق: الإقدام يكون مع الشرف

* * *

إن العُروقَ إذا اسْتَسَرَّتْ في الثَّرى   أَنْدَى النَّباتُ بِها وطَابَ المَزْرَعُ

وإذا جَـهِـلْـتَ مِـنَ امْـرِئٍ أَعـراقَـهُ   وقَـديـمَـهُ فـانـظُـرْ إلـى مـا يَـصْـنَـعُ

الجذور التي استسرت، اختفت عميقاً في الأرض، تجعل النبات يطيب ويينع؛ وكذا الإنسان، فإن جهلت امتداد أصله فانظر إلى أفعاله فإن كانت حميدة دلت على أن له أصلاً متيناً

* * *

قـالـتْ لِـتِـربَـيْـهـا اذهـبـا فَـتَـحَـسَّـسَـا   مـا بَـالُـهُ تَـركَ الـسـلامَ وأَعـرضَـا

قـد ذُقْـتُ أُلْـفَـتَـهُ وذُقْـتُ فِـراقَـهُ   فوجدْتُ ذا عَسَلاً وذا جَمْرَ الغَضَا

طلبت من رفيقتيها التحسس، وهو يشبه التجسس، لمعرفة سبب تركه التحية. وقالت لهما: ذقت قربه وذقت هجره، فقربه عسل وهجره جمر الغضا، والغضا شجر كبير يصير إلى حطب صلب

* * *

إبْـلـيـسُ خَـيْـرٌ مِـنْ أَبـيـكُـمْ آدَم   فَـتَـنَـبَّـهُـوا يـا مَـعْـشَـرَ الـفُـجَّـارِ

إبْـلـيـسُ مِـنْ نـارٍ وآدمُ طـيـنَـةٌ   والأرضُ لا تَـسـمُـو سُـمُـوَّ الـنـارِ

قيل إن الناس دسوا البيتين على بشار كي تلتصق به تهمة الزندقة

* * *

يـا خَـلـيـلَـيَّ أَصـبِـبَـا أو ذَرَا   لـيـس كـلُّ الـبـرقِ يُـهْـدي مَـطَـرا

ذَهَـبَ الـمـعـروفُ إلَّا ذِكْـرَهُ   رُبَّـمـا أَبْـكَـى الـفَـتَـى مـا ذُكِـرَا

* * *

لا أَظْـلِـمُ الـلـيـلَ ولا أَدَّعـي   أن نـجـومَ الـلـيـلِ لـيـسـت تَـغُـورْ

لـيـلـي كـمـا شـاءتْ: فـإن لـم تَـزُرْ   طـالَ، وإن زَارَتْ فَـلـيْـلـي قَـصـيـرْ

لا أقول كالشعراء إن النجوم لا تغرب وإن الليل طويل. فطوله وقصره رهن بزيارة المحبوبة

* * *

وأُعْـرِضُ عـن مَـطـاعِـمَ قـد أَراهـا   فـأَتْـرُكُـهـا وفـي بَـطـنـي انْـطِـوَاءُ

فـلا وأَبـيـكَ مـا فـي الـعـيـشِ خـيـرٌ   ولا الـدُّنـيـا إذا ذهـبَ الـحَـيـاءُ

انطواء: جوع

* * *

وعَـيَّـرنـي الأَعْـداءُ والـعَـيْـبُ فـيـهِـمُ   ولـيـس بِـعـارٍ أن يُـقـالَ ضَـريـرُ

إذا أبـصَـرَ الـمـرءُ الـمُـروءَةَ والـتُّـقَـى   فـإن عَـمَـى الـعـيـنـيـنِ لـيس يَـضـيـرُ

* * *

اِرْفِقْ بِعَمْرٍو إذا حَرَّكْتَ نسبتَهُ فإنه عَرَبِيٌّ مِنْ قَوارِيرِ
إن جازَ آباؤُهُ الأَنْذَالُ في مُضَرٍ جَازَتْ فُلوسُ بُخَارَى في الدَّنَانِيرِ

عمرو هذا يزعم أنه عربي، ولكن رفقاً بانتسابه هذا فهو من قوارير، زجاج. وإن جاز، أي دخل، أجداده ضمن قبيلة مضر، فلا غرابة أن تختلط فلوس بخارى بالدنانير دون تميزها عنها

* * *

إذا اعتذَرَ الجاني إليَّ عذرتُهُ ولا سِيَّما إن لم يَكُنْ قد تَعَمَّدَا
فَمَنْ عاتَبَ الجُهَّالَ أَتْعَبَ نفسَه ومَنْ لامَ مَنْ لا يَعرِفُ اللومَ أَفْسَدا

* * *

خُلِقْتُ على ما فِيَّ غيرَ مُخَيَّرٍ هَوايَ، ولو خُيِّرْتُ كنتُ المهذَّبا
أُريدُ فلا أُعطَى، وأُعطَى ولم أُرِدْ وقَصَّرَ عِلمي أن أنالَ المُغَيَّبا

* * *

رَبَابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ تَصُبُّ الخَلَّ في الزَّيْتِ
لها عَشْرُ دَجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

بيتان قالهما عن جارته «ربابة» وكانت تطعمه من بيض دجاجاتها. وسئل بشار عن هذا الشعر الخفيف، فقال: هذا عندي أحسن من «قفا نبك»

* * *

طَرَقَتْني صَباً فَحَرَّكَتِ البَا بَ هُدُوّاً فارْتَعْتُ منه ارتِيَابا
فكأنّي سمعتُ حِسَّ حَبيبٍ نَقَرَ البابَ نَقْرَةً ثم غابا

ريح الصبا طرقتني، جاءت ليلاً، فطقطق الباب طقطقة خفيفة، فأحسست بخوف.. كان الصوت كأنه صوت حبيب نقر الباب نقرة ثم غير رأيه ولم يكررها. مثل هذا المعنى الحضري الرهيف لا نجده في الشعر ما قبل بشار.. وعنده من مثل هذه اللقطات الكثير.. بيد أنه فصيح متين اللغة، لذا عدُّوه آخر المتقدمين وأول المحدثين

* * *

قلْ للأميرِ جزاكَ اللّهُ صالحةً لا يُجمَعُ، الدَّهْرَ، بين السَّخْلِ والذِّيبِ
السَّخْلُ غِرٌّ وهَمُّ الذِّئبِ غَفْلَتُهُ والذِّئبُ يعلمُ ما في السَّخْلِ مِنْ طِيبِ

كلف الأمير حماد عجرد بتأديب ولده، فها هو بشار يحذره من ميول حماد. والسخل صغير العنز وهو غر، بريء، والذئب يعرف ذلك. تكملة القصة أن الأمير سمع البيتين وصرف حماداً

* * *

إني وإن كان جمعُ المالِ يُعجِبني ... ما يَعْدِلُ المالُ عندي صِحَّةَ الجسدِ
المالُ زَيْنٌ، وفي الأولادِ مَكْرُمَةٌ ... والسقمُ يُنسيكَ ذكرَ المالِ والولدِ

* * *

تَوَدُّ عَدُوِّي ثم تَزْعُمُ أنني ... صديقُكَ، إن الرأيَ عنكَ لَعَازِبُ
وليس أخي مَنْ وَدَّني رَأْيَ عينِه ... ولكنْ أخي مَنْ وَدَّني وَهْوَ غائبُ

تتودد إلى عدوي وتزعم أني صديقك.. الرأي الصحيح عازب عنك، مجانب لك. وليس أخاً لي من أظهر المودة في حضوري، بل من بقي على وده وهو غائب عن عيني أيضاً

* * *

وأَبْثَثْتُ عَمْراً بعضَ ما في جَوانِحي ... وجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرِّ مَا أَتَجَرَّعُ
ولا بدَّ مِنْ شكوَى إلى ذي حَفيظَةٍ ... إذا جَعَلَتْ أَسْرارُ نَفْسي تَطَلَّعُ

أبثت عمراً، بُحت له، بما في نفسي.. وجعلته يشاركني في مرارة ما أتجرعه من مشكلات، والمرء لا يستغني عن الشكوى لذي الحفيظة، صاحب المروءة، عندما تفيض مكنونات نفسه وتتطلع للخروج. لقطة ذكية.. ولا سيما تحميلك صديقَك بعض مشكلاتك

* * *

خَاطَ لي عَمْرٌو قَبَا ... ليتَ عَيْنَيْهِ سَوَا
قلتُ شِعراً ليس يُدْرَى ... أَمديحٌ أم هِجَا

القصة أن عمراً الخياط، وكان أعور، خاط لبشار قباء، ثوباً، وقال له: هذا لا تعرف له وجهاً من قفا. فقال له بشار سأقول فيك بيتين لا تعرف لهما وجهاً من قفا، أي مدحاً أم ذماً: جعل الله عينيك متساويتين

* * *

تركتُ على ابنِ الكَسْكَرِيِّ غَضَاضَةً ... وسَيَّرْتُهُ بالشعرِ شَرَّ مَسيرِ
وقد عَنَّ لي الخُنْثَى، فَقُلْ لِبَعوضَةٍ: ... سَقَطْتِ ولم أشعُرْ، وطِرْتِ فَطيري

غضضت من الكسكري، طأطأت منه وخفضت رأسه وأذللته، ونشرت سيرته بالشعر. وهو مخنث وقد عَنَّ لي، تعرض لي.. فقل لبعوضة: وقعتِ علي ولم أشعر ثم طرت.. فطيري

* * *

ونَدمَانِ صِدْقٍ قد وصلْتُ حديثَه ... بِأَزْهَرَ مَجَّاجِ المُدَامَةِ نَبَّاحِ

إذا فرغَتْ كأسُ امْرِئٍ خَرَّ ساجداً ... وصَبَّ لنا صَفراءَ في طيبِ تُفَّاحِ

استكملت حديث الندمان، أي النديم، بصوت إبريق أزهر، أبيض ولعله من فضة، وهو مجاج، نافث باصق، للخمر وله صوت خرير. وكلما فرغت كأس أحدهم ثنى الإبريق رأسه وخرَّ، وقع، كأنه يسجد، وصب خمراً

* * *

صَرِّحْ بِإِحْدى كِلْمَتَيـ ... ـنِ وخُذْ أَمَانَكَ مِنْ جِهادي

صِدْقُ البَخيلِ يَسُرُّني ... ويَسُوءُني كَذِبُ الجَوادِ

أيها الممدوح المتأخر في الدفع: قل نعم أو لا. وعليك الأمان، ولا تجمجم الكلام.
البخيل الصادق خير من الجواد الكاذب

* * *

وأُجيبُ قَائِلَ كيفَ أنتَ؟ «بِصَالِحٍ» ... حتى مَلِلْتُ ومَلَّني عُوَّادي

ومَقَالَ عَاذِلَتي وقد عَايَنْتُها ... إنَّ المُرَعَّثَ رَائِحٌ أو غَادِ

مللت وأنا أجيب سؤال السائلين عن حالي بكلمة «أنا صالح وبخير». ومل عوادي، زواري، ومللتهم، ومللت من قول اللائمة، كلما رأيتها: إن المرعث، لقب بشار، مصبح أو ممسٍ، وعلى وشك الموت.. أو كما يقول أهل بلدنا: ماؤه على النار، أي الماء الذي سيغسل به

* * *

عَليَّ أَلِيَّةٌ، وعَليَّ نَذْرٌ ... أَمَسَّكِ طَائِعاً إِلَّا بِعُودِ

أَتَيْتُكِ زَائراً فَوَضَعْتُ كَفِّي ... على أَبْرٍ أَشَدَّ مِنَ الحَديدِ

علي أليَّة، أي يمين، ألا ألمسك إلا بعود. فقد جئتك زائراً فوضعت يدي على ذلك العضو وهو صلب. والقصة قصة امرأة أكثر بشار من التودد إليها، فدعته إلى بيتها، وأجلست بشاراً وأمسكت يده ووضعتها ـ وبشار أعمى ـ على متاع زوجها. كان عصرهم عصر عبث حقاً

* * *

ليتَ حَظِّي مِنَ العِبادِ، ومِمَّا ... خَلَقَ اللَّهُ لَذَّةً لِلعِبادِ

رِيقُ «حُبَّى» أَحْسُوهُ سَبْعَةَ أَيَّا ... مٍ شفاءً لِقَرْحَةٍ بِالفُؤادِ

ليت حظي من الملذات ريق الحبيبة أرتشفه سبعة أيام ليشفي جرحَ قلبي

* * *

أَعْتِقِيني مِنَ الهوى ... أو عِدي منكِ مَوعِدا

أَطـمِـعـيِـنـا كـيْـمـا نَـعـيــ ـشَ وقُــولــي لــنــا: «غــدا»

تقول فيروز: «تعا، ولا تجي، واكذب علي، الكذبة مش خطية»

* * *

إنـي وعَـيشِـكِ يـا عَـبَّادُ فـاستَمِعيِ لـو أَبْتَغي فوق هـذا الحبِّ لـم أَزِدِ

ما هَـبَّتِ الـريحُ مِن تِلقاءِ أَرضِـكُـمُ إلَّا وَجَـدْتُ لـهـا بَـرْداً عـلـى الـكَـبِـدِ

يا عبدة، وحياتك، لا مزيد على حبي لك

* * *

لَـعـمـرُكَ مـا تـركُ الـصـلاةِ بـمـنـكَـرٍ ولا الـصـومِ إنْ زارَتْـكَ «أمُّ مـحـمـدِ»

تـكـادُ إذا قـامـتْ لِـشـيءٍ تـريـدُه تَـمـيـلُ بـهـا الأردافُ مـا لـم تَـشَـدَّدِ

* * *

لـيـتـنـي مُـتُّ قـبـلَ حُـبِّـكِ يـا قُـرَّ ـةَ عيْنـي، أو عشتُ في غيرِ حُبِّ

فَـرغَ الـنـاسُ مِـن مُـعـالَـجَـةِ الـنَّـا ـسِ جَـمـيـعـاً، وأنـتِ هَـمِّـي وربِّـي

* * *

ديـنـارُ آلِ سـلـيـمـانٍ ودِرهَـمُـهُـمْ كـالـبَـابِـلِـيَّـيْـنِ حُـفَّـا بِـالـعَـفـاريـتِ

لا يُـوجَـدَانِ ولا يُـرْجَـى لِـقَـاؤُهُـمـا كـمـا سَـمِـعْـتَ بِـهـاروتٍ ومَـاروتِ

الدينار والدرهم عند هؤلاء القوم لا يظهران للناس أبداً مثل هاروت وماروت الملَكين اللذين يعلمان الناس السحر، ولا سبيل إليهما، وحواليهما العفاريت

* * *

أَطْـوي الـشَّـكـاةَ ولا تـصـدِّقُـنـي وإذا اشـتـكـيـتُ تـقـولُ لـيِ: كَـذَبـا

عَـسُـرَتْ خلائـقُـهـا عـلـى رجـلٍ لَـعِـبَ الـهـوى بِـفـؤادِهِ لَـعِـبَـا

أطوي الشكاة: أكتم مرضي بحبها والشكاة هي السقم، وهي لا تصدق أنني لا أشكو، فإن اشتكيت بلساني فعلاً قالت إنني أكذب. خلائقها: طباعها. و«لعب الهوى بفؤاده لعبا» شطر جميل في بساطته، ما رأيت شيئاً كهُ في شعر العصور السابقة

* * *

لا تُـفْـشِ سِـرَّ فَـتـاةٍ كـنـتَ تـألَـفُـهـا إن الـكـريـمَ لـهـا راعٍ وإن تـابـا

واسعدْ بما قالَ في الحِلْمِ ابنُ «ذي يَزَنٍ» يلهُو الكرامُ ولا يَنْسَوْنَ أحسَابا

الكريم يرعى حرمة فتاته حتى لو تاب عن العشق وافترقا. ولا أدري إن كان ابن ذي يزن قد قال شيئاً كهذا ولكنه حليم، والتقى بوفد قريش وقيل إنه بشر عبد المطلب ببعثة محمد

* * *

عَجِلُ الركُوبِ إذا اعتَرَتْهُ نَافِضٌ فإذا أَفَاقَ فليس بِالرَّكَّابِ

وتَراهُ بعدَ ثلاثَ عَشْرَةَ قائماً مِثْلَ المُؤَذِّنِ شَكَّ يومَ سَحَابِ

يصف متاع الرجل، والنافض هي الحمى التي ينتفض لها الجسم، فإن انتفض صنع شيئاً وإن أفاق فهو لا يصنع. والثلاث عشرة هي ـ فيما أحسب ـ ركعات التراويح، وبعدها يكون لهذا الموصوف شأن. والتشبيه في الشطر الأخير خلاب، ولا سيما حين يأتيك من أكمه، مولود أعمى. ترى مؤذن القرية فوق مئذنته يريد أن يرفع الأذان وينظر للشمس فلا يراها، فهو يحرك جسمه يميناً وشمالاً يريد أن يلمح الشمس في ذلك اليوم الغائم

* * *

وَيْحَ نفسي، أَكُلَّما دَبَّ واشٍ بِحديثٍ وَثَبتِ للهجرِ وَثْبا

ما كذا يَصنعُ المُحِبُّ فَقَرِّي، أينَ مِنَّا مَنْ لا يُقارِفُ ذَنْبا؟

قري: اهدأي

* * *

عُبَيْدَةُ هَمُّ النفسِ إن يَدْنُ حبُّها، وإن تَنْأَ عنها فَارقَ النفسَ روحُها

المحبوبة «عبدة» هي هم نفسي إن دنت، وإن فارقتني فارقتني روحي

فلا هِيَ مِنْ شَوْقٍ إليها تُريحُني ولا أنا مِنْ طولِ الرجاءِ أُرِيحُها

لا تريحني من شوقي إليها، ولا أريحها من طول ما أحتفظ برجائي فيها ولا أيأس

* * *

لا يُؤْيِسَنَّكَ مِن مُخَدَّرَةٍ قولٌ تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحَا

لا تيأس من مخدرة، فتاة محجوبة في سترها، إذا أغلظت لك القول وصدتك

عُسْرُ النساءِ إلى مُيَاسَرَةٍ والصعبُ يُمْكِنُ بعدما جَمَحَا

فالفتاة ستلين، أليس الجمل الصعب يمكِنُ صاحبه من ركوبه بالترويض، بعد أن يكون جامحاً

٣ سقى الله تلك الأيام

هـجـرتُ الآنـسـاتِ وهُـنَّ عـنـدي   كـمـاءِ الـعـيـنِ فَـقْـدُهُـمـا سَـواءُ

فقدُهما، أي فقد الآنسات وفقد ماء العين، سواء عندي

وأَطـبَـقَ حـبُّـهُـنَّ عـلـى فـؤادي   كما انطبقتْ على الأرضِ السماءُ

فـقـلْ لِـلـغـانـيـاتِ يَـقَـرْنَ إنـي   وَقَـرْتُ، وحـانَ مِـنْ غَـزَلـي انـتـهـاءُ

يقرن: يرعوين ويهدأن

وإن أكُ قـد صـحـوتُ فـربَّ يـوم   يَـهُـزُّ الـكـأسُ رأسـي والـغِـنـاءُ

لئن كنت صحوت الآن، أي فارقت الغزل والشراب، فقديماً كان الكأس والغناء يهزان رأسي

أروحُ عـلـى الـمـعـازِفِ أَرْيَـحِـيَّـاً   وتـسـقـيـنـي بِـرِيـقَـتِـهـا الـنـسـاءُ

كنت أغشى دور القيان، حيث العزف والغناء بأريحيةٍ وبذلٍ للمال، وكنت أعاشر النساء وأرتشف ريقهن

٤ أين يسقط الطير؟

يمدح عُقْبة بن سَلـم:

حَـيِّـيـا صـاحـبـيَّ أمَّ الـعـلاءِ   واحـذَرا طَـرْفَ عـيـنِـهـا الـحَـوْراءِ

الحوراء: التي سوادها حالك في بياض ناصع

إنَّ فـي عـيـنِـهـا دَواءً وداءً   لِـمُـلِـمٍّ، والـداءُ قـبـل الـدواءِ

الملم: الزائر

اِعـرِضَـا حـاجَـتـي عـلـيـهـا وقـولا: أَنَـسـيـتِ الـسِّـرارَ تـحـتَ الـرِّداءِ

السرار: المناجاة، ويبدو أنه كان يشملهما رداء وهو يناجيها

ومُـقـامـي بـين الـمـصَـلَّـى إلى الـمنـ   ـبرِ أبـكـي عـلـيـكِ جَـهْـدَ الـبـكـاءِ

فـاتَّـقِـي الـلَّـهَ في فتىً شَـفَّـهُ الـحُـبُّ ـ   وقـولُ الـعِـدَى، وطـولُ الـجَـفـاءِ

حَـرَّمَ الـلَّـهُ أن تَـرى كـابـنِ سَـلـم   عُـقْـبَـةِ الـخـيـرِ مُـطـعِـمِ الـفـقـراءِ

ينتقل إلى المدح. فقد قضى الله أن تكرار عقبة أمر محرم

يَسْقُطُ الطيرُ حيثُ يَنتَثِرُ الحَبُّ ـ   وتُـغْـشَـى مـنـازلُ الـكُـرَمَـاءِ

يسقط الطير: يحط، تغشى: تزار

لـيس يُعْـطيكَ للرجاءِ ولا الخَوْ   فِ، ولـكـنْ يَـلَـذُّ طـعـمَ الـعـطـاءِ

لا، ولا أن يقالَ «شيمتُهُ الجو ... دُ»، ولكنْ طبائعُ الآباءِ

إنَّما لذةُ الجوادِ ابنِ سَلمٍ ... في عَطاءٍ ومَركَبٍ للِّقَاءِ

لذته أن يعطي الناس مالاً، وأن يركب للقاء الخليفة المنصور

لا يَهابُ الوغَى، ولا يَعْبُدُ الما ... لَ، ولكنْ يُهينُه للثَّناءِ

يهين ماله للحصول على مدح الشعراء

أَرْيَحِيٌّ له يَدٌ تُمطِرُ النَّيْـ ... ـلَ، وأخرى سُمٌّ على الأعداءِ

النيل: العطاء ينيله الأمير مادحيه والمستجيرين به

قائمٌ باللِّواءِ يَدفَعُ بِالمو ... تِ رِجالاً عن حُرْمَةِ الخُلَفاءِ

وكان عقبة كثير التقتيل للناس في البحرين وعمان والبصرة

فَعَلى عُقْبَةَ السلامُ مُقيماً ... وإذا سارَ تحتَ ظِلِّ اللِّواءِ

٥ الوضَّاءة

عَلِّليني يا عَبْدَ، أنتِ الشفاءُ ... واتركي ما يقولُ لي الأعداءُ

عبد: محبوبته عَبْدَة. علليني، أي صبِّريني تصبيراً، ببذل بعض الوصل فأنت شفائي، واتركي ما يقوله لي، أي عني، الأعداء

كلُّ حيٍّ يُقالُ فيه، وذو الحِلْـ ... ـمِ مُريحٌ، ولِلسفيهِ الشَّقاءُ

مريح: مستريح

أنا مَن قد علمتِ: لا أَنقُضُ العهـ ... ـدَ، ولا تَستَخِفُّني الأهواءُ

نَعِمَتْ في الصِّبَا فلما اسْبَكَرَّتْ ... خَفَّ قُدَّامُها وجَلَّ الوَراءُ

اسبكرت: طال قوامها، خف قدامها: صار بطنها ضامراً، جل الوراء: العكس

زانَها مُسْفِرٌ وثَغْرٌ نَقِيٌّ ... مثلُ دُرِّ النظامِ فيه استِواءُ

زانها وجه مسفر بلا قناع وفم نقية أسنانه بيض مستوية كأنها اللؤلؤ المنظوم في سلك

وحديثٌ كأنَّهُ قِطَعُ الرو ... ضِ ففيه الصَّفراءُ والحمراءُ

وإذا أقبَلَتْ تَهادَى الهُوَيْنَى ... اِشْرَأَبَّتْ ثم استَنارَ الفضاءُ

إذا أقبلت تتهادى الهوينى، على مهلها، اشرأبت الأعناق، أي ارتفعت لرؤيتها، وبدا في الفضاء نور. هذا شيء رأيته بعيني في قاعة فيها نحو مئة شخص، ودخلت سيدة وضاءة، فكان أن الأنظار توجهت نحوها، وتشكل نوع من التناغم والاستقطاب فلم يكن ممكناً للمرء إلا أن يوجه نظره تلك الوجهة، فشعرت أن القاعة أضيئت بوجه تلك الحسناء

وسألتُ النساءَ: أَبْصَرْنَ ما أبـ ـصرتُ مِن حُسْنِها؟ فقال النساءُ:
دونَ وجهِ البَغيضِ وَحْشَةُ هَوْلٍ وعلى وجهِ مَنْ تُحِبُّ البَهاءُ

هذا بالطبع سلخ لقول عمر بن أبي ربيعة: «حسن في كل عين من تودّ»

٦ يا ماضغ الماء

قال يهجو يحيى بن صالح:

ألزمتَ عينَكَ مِن بغضائِنا حَوَلاً لو قد وَسَمْتُكَ عادتْ غيرَ حَوْلاءِ

قد صرت تنحرف بنظرك عنا بسبب كرهك لنا، فكأنها حولاء؛ لو قد وسمتك، أي طبعت عليك علامة الذل كتلك التي يسمون بها الماشية، لعادت عينك سليمة. سمج هذا البيت يقوله أعمى

أُطْلُبْ رِضايَ ولا تطلبْ مُشَاغَبتي لا يَحْمِلُ الضَّرِعُ المُقْوَرُّ أعبائي

الضرع: الضعيف، المقور: المطلي بالقار، يعيره بالسواد

أنا المُرَعَّثُ لا أَخْفَى على أحدٍ ذَرَّتْ بِيَ الشمسُ للدَّاني وللنائي

المرعث: لقب بشار لقرط كان في أذنه وهو طفل. ذرت الشمس بي: طلعت الشمس إذ طلعتُ فلم أكن خافياً على أحد

يَغدُو الخليفةُ مِثلي في محاسِنِهِ ولستَ مِثلي، فَنَمْ يا مَاضِغَ الماءِ

المعنى الملموح: يبكر الخليفة لاستقبال من هم مثلي وهو في محاسنه وهيبته، وأنت لست من أمثالي. .

٧ الدار وسكانها

أقولُ والعينُ بها غُصَّةٌ مِن عَبْرَةٍ هَاجَتْ ولم تُسْكَبِ

دمعة ترقرقت ولم تنزل

إنْ تَذهبِ الدارُ وسكانُها فإن ما في القلبِ لم يذهبِ

يا صاحِ لا تسألْ بِحُبِّي لها وانظرْ إلى جسميَ ثم اعْجَبِ

٨ التلعابة

لا تَخْشَ غَدري ولا مُخَالَفَتي كلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ إلى حَسَبِهْ
يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ لِلنَّدِيِّ كما يَخرجُ ضَوْءُ السراجِ مِنْ لَهَبِهْ

يصف نفسه: يخرج الكلام من فمه للنديّ، للحاضرين في منتداه، كأنه النور الذي يتولد من لهب السراج

تِلْعَابَةٌ تَعْكِفُ النساءُ به   يأخذنَ مِنْ جِدِّهِ ومِنْ لَعِبِهْ

لعوب والنساء يحففن به ويستمتعن بشعره الجاد وبعبثه

يَزدحِمُ الناسُ كلَّ شَارِقَةٍ   بِبابِهِ مُشْرِعِينَ في أَدَبِهْ

والناس يزدحمون كل مشرق شمي، كل يوم، مشرعين في أدبه، واردين وناهلين

٩ اخضبها على الأقل

وقال يعاتب يعقوب بن داود وزير المهدي:

«يعقوبُ» قد وَرَدَ العُفَاةُ عَشِيَّةً   مُتعرِّضِينَ لِسَيْبِكَ المُنْتَابِ

ورد العفاة، الفقراء، يطلبون سيبك، عطاءك، المنتاب، الذي يأتيهم ويتتابعهم

فَسقَيْتَهُمْ وحَسِبْتَني كَمُّونَةً   نَبَتَتْ لِزارِعِها بِغيرِ شَرابِ

سقيتهم كما يسقي المرء الزرع، وحسبتني نبتة كمون (والكمون قليل الحاجة للماء) فأنت لا تسقيني

تُعطِي الغَزيرةُ دَرَّها، فإذا أَبَتْ   كانت مَلامَتُها على الحَلَّابِ

الناقة الغزيرة اللبن تمنح لبنها، وإذا لم تعط فاللوم على الحلاب لأنه لا يحلب جيداً.. وأنا لا لوم علي لأنني حاولت معك

طَالَ الثَّواءُ بِحاجَةٍ مَحبُوسةٍ   شَمَطَتْ لَديكَ، فَمُرْ لها بِخِضَابِ

طال الثواء، المكوث، بهذه الحاجة التي حبستها عندك كما يحبس الرجل ابنته بلا زواج حتى تصبح شمطاء قد اختلط سواد شعرها ببياض، فعلى الأقل هل لك أن تأمر لهذه الحاجة بخضاب من حناء مثلاً، بما أنك لم تحقق الطلب الأصلي

١٠ عدمتك يا قلب

عَدِمْتُكَ عاجِلاً يا قَلْبُ قَلبا   أَتجعلُ مَن هَوِيتَ عليكَ رَبَّا

رباً: مالكاً

كأنَّكَ لا ترى حَسَناً سواها   ولا تلقَى لها في الناسِ ضَرْبا

ضرباً: ضريباً، مثيلاً

فما لَكَ في مودتِها نصيبٌ   سوى عِدَةٍ، فخُذْ بيديْكَ تُرْبا

لا نصيب في يدك منها سوى الوعود، وخير من ذلك أن تأخذ بيدك تراباً

رأيتُ القلبَ لا يأتي بَغيضاً   ويؤثِرُ بالزيارةِ مَنْ أَحَبَّا

١١ الغالبة بالدلال

غَـلَـبَـتْـكَ «أمُّ مـحـمـدٍ» بـدلالِـهـا والـمُـلْـكُ يُـمْـهَـدُ لـلأعَـزِّ الـغـالـبِ

لها الملك والسيطرة عليك لأنها عزيزة غالبة بقوة دلالها

عِـلـلُ الـنـسـاءِ إذا اعـتَـلَـلْـنَ كـثـيـرةٌ وسَـمـاحُـهُـنَّ مِـنَ الـعـجـيـبِ الـعَـاجِـبِ

أعذار النساء كثيرة، وتلبيتهن الدعوة للوصال شيء عجيب نادر

ورَضِـيـتُ مِـنْ طُـولِ الـرجـاءِ بِـيَـأْسِـه والـيـأسُ أَمْـثَـلُ مِـنْ عِـداتِ الـكـاذبِ

رضيت بدل الرجاء باليأس، واليأس أفضل من الوعود الكاذبة

١٢ تردد وتعلق

ألا قلْ لتلكَ الـمـالـكـيَّـةِ أَصْـحِـبِـي وإلَّا فَـمَـنِّـيـنـا لِـقـاءَكِ، واكْـذِبـي

أصحبي: اقبلي صحبتي، أو على الأقل امنحيني الأمنيات باللقاء، ثم اكذبي

عِدِينا، فإن النفسَ تُخْدَعُ بِالـمُـنَـى وقـلـبُ الـفـتـى كـالـطـائـرِ الـمـتـقـلِّـبِ

إذا يـئـسـتْ نـفـسُ امْـرِئٍ مِـن قَـرِيـنَـةٍ تَـبَـدَّلَ أخـرى مـرَكَـبـاً بـعـدَ مَـرْكَـبِ

مثلما يبدل المرء ناقته يمكنه أن يبدل الصاحبة

وإنِّـيَ ـ لـو شَـمَّـرْتُ ـ أولُ ظـاعِـنٍ بِـرحْـلِـيَ عن جَـدْبٍ إلى غيرِ مُجْدِبِ

لو نويت فلن أكون أول ظاعن، راحل، عن المكان الجديب، المقفر، إلى المكان الخصيب

ولكنني أُغضي جُفوناً على القَذى وأَحفظُ ما حَمَّلْتِني في الـمُـغَـيَّـبِ

لكنني لا أنوي الفراق، وأغمض جفوني على القذى، أي أتحمل دلالك، وأحفظ ما بيننا غير فاضح له

١٣ كأنني غريب

إذا نَـطَـقَ الـقـومُ الـجُـلـوسُ فـإنـنـي أُكِـبُّ كـأنـي مِـن هَـواكِ غَـريـبُ

أجلس وسط المتحدثين صامتاً مكباً، مطرقاً، كأنني غريب لما بقلبي من شغل بكِ

لقد شغلتْ قلبي «عبيدةُ» في الهوى فـلـيـس لأخرى في الـفـؤادِ نـصـيـبُ

عبيدة: أي حبيبته عبدة

يقولون: لو عَزَّيْتَ قلبَكَ لارْعَوَى فـقـلـتُ: وهـل لِـلـعـاشِـقـيـنَ قُـلـوبُ

ارعوى: تراجع وثاب إلى رشده

١٤ شد وجذب

بِـأبـي وأُمـي مَـنْ يُـقـارِبُـنـي ... فـيـمـا أقـولُ ومَـنْ أُقـارِبُـهُ
عَـجِلُ الـمَـلامَـةِ حـيـن أُغـضِـبُـه ... فـإذا غـضـبـتُ يـلـيـنُ جـانِـبُـهُ
إن الـمُـحِـبَّ تَـلـيـنُ شـوكـتُـه ... يـومـاً إذا مـا عَـزَّ صـاحـبُـهُ

المحب يلين لمحبوبه إذا رآه قد عز، قوِيَ عليه

١٥ حديث مع التراب

ولـمـا فـارقـتْـنـا «أمُّ بـكـرٍ» ... وشـطَّـتْ غُـرْبـةٌ بـعـد اكـتِـئـابِ

شطت: ابتعدت

خَطَطْتُ مِثالَها وجلستُ أَشكو ... إليها ما لقيتُ على انتحابِ

خط في التراب شكلاً شبيهاً بها

أُكَلِّمُ لَمحةً في التُّرْبِ منها ... كلامَ المُسْتَجيرِ مِنَ العذابِ
كـأنِّـيَ عـنـدهـا أشـكـو إلـيـهـا ... هـمـوميَ والـشَّـكاةُ إلى الـتَّـرابِ

١٦ هجاء بالجملة

قال يمدح روح بن حاتم:

إذا لم ترَ الذُّهْلِيَّ أَنْوَكَ فَالْتَمِسْ ... له نسباً غيرَ الذي يَتَنَسَّبُ

إذا لم تجد ابن قبيلة ذهل أنوك، أي أحمق، فلا بد أن له نسباً آخر.. فكلهم حمقى

وفي جَحْدَرٍ لؤم، وفي آلِ مِسْمَعٍ ... صَلاحٌ، ولكنْ دِرهَمُ القومِ كَوكَبُ
وأمَّا بنو قيسٍ فإن نبيذَهُمْ ... كثيرٌ، وأمَّا خيرُهُمْ فَمُغَيَّبُ
وسيِّدُ تَيْمِ اللَّاتِ عندَ غَدَائِهِ ... هِزَبْرٌ، وأمَّا في اللقاءِ فَثَعْلَبُ

أسد يحمي طعامه وقت الغداء، لكنه في اللقاء، المعركة، ثعلب جبان

وقد كان في شَيْبانَ عزٌّ فحلَّقَتْ ... به في قديمِ الدهرِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

عز شيبان القديم طارت به عنقاء مغرب، طير خرافي، وزال إلى الأبد

لقد سادَ أَشرافَ العِراقِ ابنُ «حاتِمٍ» ... كمَا سادَ أهلَ المَشرِقينِ «المُهَلَّبُ»

١٧ رثاء ابن

وقال يرثي ابنه محمداً:

أَجَارَتَنا لا تَجْزَعي وأَنيبي ... أَتاني مِن الموتِ المُطِلِّ نَصيبي

أنيبي: عودي إلى الصبر والهدوء

كأَنّي غريبٌ بعد موتِ «محمدٍ» ... وما الموتُ فينا بعدَهُ بِغريبِ

لَعَمْري لقد دافعتُ موتَ «محمدٍ» ... لوَ انَّ المنايا تَرْعَوي لِطَبيبِ

كنت حاولت درء الموت عن ابني لو أن الموت يرعوي، يتراجع، بتدخل الطبيب

فأَصبحتُ أُبْدي لِلعيونِ تَجَلُّدَاً ... ويَا لَكَ مِن قلبٍ عليه كَئيبِ

دعَتْهُ المنايا فاستجابَ لِصوتِها ... فلِلّهِ مِن داعٍ دعا ومُجيبِ

عَجِبْتُ لإِسراعِ المنيَّةِ نحوَهُ ... وما كان لو مُلِّيتُهُ بِعجيبِ

أسرع إليه الموت، ولو كان بقي لكي أتملاه، وأسعد برؤيته، لكان هذا أمراً عادياً

رُزِئْتُ بُنَيَّ حين أَوْرَقَ عُودُه ... وأَلقى عليَّ الهمَّ كل قَريبِ

فقدت ابني حين أورق عوده، كبر واشتد، وحسدني الأقارب

وقد كنتُ أَرجُو أن يكونَ محمدٌ ... لنا كافياً مِن فارسٍ وخطيبِ

نُؤَمِّلُ عيْشاً في حياةٍ ذَميمةٍ ... أَضَرَّتْ بِأَبْدانٍ لنا وقلوبِ

هذه القصيدة بذرة ستخرج شجرة باسقة عند ابن الرومي عندما سيرثي ولده محمداً

١٨ بنات اليون

يمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك:

فلا مَذهبٌ عنكمْ له، شَطَّ أو دَنَا، ... سِوَاكِ، وفي الأرضِ العريضةِ مَذهبُ

يتغزل قبل المدح: لا مكان لي غيركم شط أو دنا، ابتعد أم اقترب، مع كثرة الأماكن في هذه الأرض

على النَّأْيِ مَحزونٌ وفي القربِ مُغْرَمٌ ... فيَا كَبِدَا! أَيُّ الطَّريقَيْنِ أَرْكَبُ

في بعدكم أنا حزين، وفي قربكم مغرم، وكلاهما مركب صعب

له كُلَّ عامٍ غَزوَةٌ بِمُسَوَّمٍ ... يَقودُ المنايا رَايُهُ حيْث يَذهبُ

يمدح: يغزو كل عام على فرس مسوم، به علامة الحرب، ورايُهُ، أي راياته،
تحمل معها الموت للعدو أينما ذهب

كَـراديـسُ خـيْـلٍ لا تـزالُ مُـغـيِـرَةً بِـهـا الـمَلِكُ الـرومِيُّ عَـانٍ مُـعَـذَّبُ

كراديس الخيل، جماعاتها، تظل تشن الغارات وملك الروم عان، مرهق، منها

كَـأنَّ بَـنـاتِ «الْـيُـونَ» بـعـدَ إِيَـابِـهِ مُـوَزَّعَـةٌ بـيـن الـصَـحَـائِـبِ رَبْـرَبُ

بنات ملك الروم اليون يؤخذن أسيرات ويتم توزيعهن بين المقاتلين كأنهن الربرب، قطيع الظباء

مَـواهِـبُ مَـغـبُـوطٌ بِـهـا مَـنْ يَـنـالُـهـا صـفَـايـا سَـبَـايـا الـرُّومِ بِـكْـرٌ وثَـيِّـبُ

مواهب، هدايا، يسعد بها من ينالها، وهن صفايا، غنائم، من سبايا الروم من بين فتاة بكر وغير بكر

١٩ قصيدة التشبيه المعجز

يمدح مروان بن محمد:

أخـوكَ الـذي إن رِبْـتَـهُ قـال إنَّـمـا أَرَبْـتُ، وإن عـاتَـبْـتَـهُ لانَ جـانِـبُـهْ

صديقك الحقيقي هو من إذا ربته، صنعت معه ما يريب، جعل الذنب لنفسه وظن أنه هو المخطئ، وإن عاتبته على إساءة لان لك

إذا كـنـتَ في كـلِّ الـذُّنـوبِ مُـعـاتِـبـاً صـديـقَـكَ لـم تَـلْـقَ الـذي لا تُـعَـاتِـبُـهْ

إن عاتبت الصديق في كل شيء فلن تجد صديقاً أصلاً كي تغير طبعك معه فلا تعود تعاتبه

فعِشْ واحـداً أو صِـلْ أَخـاكَ، فـإنـه مُـقَـارِفُ ذَنْـبٍ تـارةً ومُـجَـانِـبُـهْ

الصديق يذنب مرة ويجتنب الذنب مرة، فإما أن ترضى بذلك أو تعيش بغير صديق

إذا أنتَ لم تَشربْ مِراراً على القَذَى ظَمِئْتَ، وأيُّ الناسِ تَصفُو مَشَارِبُهْ

إن لم تشرب مرة بعد أخرى رغم وجود قذى من قشة أو نحوها في الماء فسوف تظمأ، وليس في الناس أحد يجد الصفاء في مشربه دائماً

ومن ذا الذي تُرضي سجاياهُ كلُّها؟ كـفـى الـمـرءَ نُـبْـلاً أن تُـعَـدَّ مَـعـايِـبُـهْ

سجاياه: خصاله، يكفي المرء نبلاً أن تكون عيوبه قليلة بحيث يمكن عدها

إذا رَكِـبُـوا بِـالـمَـشْـرَفِـيَّـةِ والـقَـنـا وأَصـبـحَ مَـرْوَانٌ تُـعَـدُّ مَـواكِـبُـهْ

المشرفية: السيوف، القنا: الرماح

فـأَيُّ امْـرِئٍ عَـاصٍ وأيُّ قـبـيـلـةٍ وأَرْعَـنَ لا تَـبـكـي عـلـيـه قَـرائِـبُـهْ؟

العصاة من أفراد وقبائل، والأرعن، أي الجيش، الذي يقاتل الخليفة.. كل أولئك ستبكي عليهم أقاربهم عندما يزحف مروان بجيشه عليهم

وسَامٍ لِمَروانٍ ومِنْ دُونِهِ الشَّجَا   وهَوْلٌ كَلُجِّ البحرِ جَاشَتْ غَوارِبُهْ

ورب سام، متنطح مواجه، لمروان ودون مسعاه الشجا، الشوك في الحلق.. وسيواجه من الهول مثل لج البحر وقد جاشت غواربه، أي ماء النهر العظيم وقد ارتفعت أمواجه.. وكانت حروب مروان ضد مخالفيه في الشام وفي العراق

أَحَلَّتْ به أمُّ المَنايا بَناتِها   بِأَسْيافِنا، إنَّا رَدى مَنْ نُحارِبُهْ

أم المنايا جعلت بناتها، أي الميتات المختلفات طعنا وضرباً ودوْساً، حلالاً للعدو تزوجه بهن بفعل سيوفنا، فنحن الموتُ لمن نحاربه

وما زالَ مِنَّا مُمْسِكٌ بِمَدينَةٍ   يُراقِبُ، أو ثَغْرٍ تُخَافُ مَرازِبُهْ

نحن، رغم العصاة والمتمردين في الداخل، نمسك بالمدن والثغور، أي المواقع الحدودية التي يشملها الخوف من المرازب، قادة حفظ الحدود العجم في زمن كسرى

إذا المَلِكُ الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ   مَشَيْنا إليهِ بِالسُّيوفِ نُعَاتِبُهْ

إذا صعر الملك المتجبر خده، أمال رأسه تكبراً، نعاتبه بالسيوف لا بالكلام.
والملك في ذلك العصر هو الوالي الذي يملك مقاطعة، وكان عدد من الولاة قد خرجوا على مروان الثاني وتجبروا وفرضوا سيطرتهم على مناطقهم وقضى مدة خلافته وهي خمس سنين يقارعهم

وكنَّا إذا دَبَّ العَدُوُّ لِسُخْطِنا   ورَاقَبَنا في ظاهِرٍ لا نُراقِبُهْ

لا نراقب العدو بل نهاجمه

رَكِبْنا له جَهْراً بِكُلِّ مُثَقَّفٍ   وأَبْيَضَ تَسْتَسْقي الدِّمَاءَ مَضارِبُهْ

نركب وبأيدينا الرماح المثقفة، المقومة، والسيوف البيض التي تطلب نصالها أن تُسقى بالدماء

وجَيشٍ كَجُنْحِ الليلِ يَزْحَفُ بِالحَصَى   وبِالشَّوْكِ والخَطِّيِّ حُمْرٍ ثَعَالِبُهْ

رب جيش كأنه الليل يزحف بالحصى، بالعدد الكبير، وبالشوك، السلاح، والخطي، الرماح، التي ثعالبها حمراء.. وثعلبة الرمح طرف عصاه التي تدخل في السنان الحديدي

غَدَوْنا له والشَّمْسُ في خِدْرِ أُمِّها   تُطالِعُنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذَائِبُهْ

بكرنا لملاقاته والشمس ما تزال في ستر أمها تنظر إلينا بطرفها كالفتاة الخجول تطل برأسها من جانب الستر، لم تشرق الشمس، ولم يسِلِ الطل، الندى

بِضَرْبٍ يَذُوقُ الموتَ مَن ذاقَ طَعمَهُ   وتُدرِكُ مَنْ نَجَّى الفِرارُ مَثالِبُهْ

مشينا لهم بضرب مميت لمن أصابه، ومن نجا بالفرار أصيب بالمثالب، العار

كأنّ مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رُؤُوسِهِمْ   وأَسْيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كَواكِبُهْ

النقع، أي الغبار، الذي أثير فوق رؤوس الأعداء كالليل، وترى خلاله سيوفنا تهوي على رؤوسهم كأنها الكواكب تهوي في السماء. وهذا معنى لبشار غير مسبوق ولا ملحوق. وكل شاعر مهم أتى بعد بشار حاول أن يصنع بيتاً يأكل بيت بشار أو يساويه، أو يقترب منه، وظل بيت بشار هذه السنوات الألف والثلاثمة صامداً

بَعثْنا لَهُمْ مَوْتَ الفُجاءَةِ، إنَّنا   بنُو الموتِ خَفَّاقٌ علينْا سَبَائِبُهْ

قتلناهم، ونحن من لا يهاب الموت، وسبائبه، أي راياته، منشورة تخفق فوقنا

فَراحُوا: فَريقاً في الإسَارِ ومِثْلُهُ   قَتيلٌ ومِثْلٌ لاذَ بِالبَحْرِ هَارِبُهْ

أسر بعضهم، وقتل بعض، وبعضهم رمى نفسه في النهر. وسنرى بعد قليل أن هذا هو بالضبط ما حدث لجيش مروان نفسه عندما هزم على الزاب

وأَرْعَنَ يَغْشَى الشَّمْسَ لونُ حديدِهِ   وتَخْلِسُ أبصارَ الكُمَاةِ كَتائِبُهْ

ورب أرعن، جيش كبير، يسد الشمس فيغلب لون حديده عليها، وتحير أبصار الكماة، المحاربين، كتائبه

تَغَصُّ بهِ الأرضُ الفضاءُ إذا غدَا   تُزَاحِمُ أركانَ الجبالِ مَناكِبُهْ

تمتلئ به الأرض السهلة، ويزاحم الجبال بضخامته

تركنا به كَلباً وقحطانَ تبتغي   مُجيراً مِنَ القتلِ المُطِلِّ مَقانِبُهْ

أصبحت قبائل كلب وقحطان العاصية تطلب من يجيرها منه، حيث القتل مطل عليهم بمقانب هذا الجيش، أي جماعات الخيل

٢٠ مدح المهدي

فَتَى قريشٍ ديِناً ومَكْرُمَةً   وَهَبْتُ وُدِّي له بِمَا وَهَبا

أعطيه ودي، يقصد مدحي، مقابل ما يهبه من مال

لمَّا رآني بَدَتْ مَكارِمُهُ   نُوراً على وجهِه، وما اكْتَأَبا

كأنَّما جئتُه أُبشِّرُه   ولم أجِئْ رَاغِباً ومُخْتَلِبا

كأنني جئت أبشره بنيل شيء، لا أنني جئت راغباً في ماله ومختلباً له.. أي خادعاً له.. وكان الخلفاء والأمراء يحبون أن يصفهم الشاعر بأنه ينهل خداعهم لكي يعطوا المال، فهذا من صفات الكريم المتغاضي

٢١ وأبي كسرى

هَـلْ مِـنْ رَسُـولٍ مُـخْـبِـرٍ عَـنِّـي جـمـيـعَ الـعَـرَبِ
مَـن كـان حـيَّـاً مـنـهُـمُ ومَـنْ ثَـوَى فـي الـتُّـرُبِ
جَـدِّي الـذي أَسْـمُـو بـه كِـسْـرَى، وسَـاسَـانُ أَبـي

أسمو: أرتفع

وقَـيْـصَـرٌ خَـالـي إذا عـدَدْتَ يـومـاً نَـسَـبـي

قيل إن أم بشار سبية رومية

كـمْ لـي وكـمْ لـي مِـنْ أَبٍ بِـتَـاجِـهِ مُـعْـتَـصِـبِ

معتصب: لافٌّ رأسه

يَـسْـعَـى الـهَـبَـانـيـقُ لَـهُ بِـآنِـيَـاتِ الـذَّهَـبِ

الهبانيق: الخدم، الآنيات: الأواني

لـم يُـسْـقَ أَقْـطَـابَ سِـقَـىً يَـشْـرَبُـهـا فـي الـعُـلَـبِ

أقطاب سقى: أخلاط ماء ولبن، العلبة: إناء من جلد يحلبون ويشربون به

ولا حَـدا قَـطُّ أَبِـي خَـلْـفَ بَـعـيـرٍ أَجْـرَبِ

حدا: تغنى بالشعر وهو يسوق الجمل

إنَّـا مُـلُـوكٌ لـم نَـزَلْ فـي سَـالِـفَـاتِ الـحِـقَـبِ
نـحـن جَـلَـبْـنَـا الـخـيْـلَ مِـنْ بَـلْـخٍ بِـغَـيـرِ الـكَـذِبِ
حـتـى إذا مـا دَوَّخَـتْ بِـالـشَّـامِ أَرْضَ الـصُّـلُـبِ

الصلب: الصلبان، وكان جل أهل الشام من قبائل عربية مسيحية

سِـرنـا إلـى مِـصْـرَ بِـهـا فـي جَـحْـفَـلٍ ذي لَـجَـبِ

في جحفل ذي لجب: في جيش ذي ضجيج

حـتـى اسْـتَـلَـبْـنَـا مُـلْـكَـهَـا بِـمُـلْـكِـنـا الـمُـسْـتَـلَـبِ

سلبنا ملك مصر بدلاً من ملكنا الذي سلبه العرب

ثـمَّ رَدَدْنـا الـمُـلْـكَ فـي أَهْـلِ الـنَّـبـيِّ الـعَـربـي
نَـغْـضَـبُ لـلَّـهِ ولِـلْـ إِسْـلامِ أَسْـرَى الـغَـضَـبِ

أسرى: أكثر سرواً، والسروُ هو الشرف

٢٢ لا أحب الشريك

إن تَكُوني غَنيتِ عنَّا فإنَّا   عنكِ أغْنى، فيَمِّمي حيث شِيتِ

إن استغنيتِ عنا فنحن أكثر استغناء، فيممي، أي اذهبي، حيث شئت

يا ابنةَ العَامِريِّ قد كان عهدٌ   بينَنا في الهوى، ولكنْ نَسيتِ

فاذكُري وُدَّنا، وذُوقي سِوانا   تَذْكُرينَا وتَنْدَمي ما بَقيتِ

وإذا ما أَرَدْتِ وُدِّي هنيئاً   فصِلِيني بِالصَّبْرِ عَمَّنْ لَقيتِ

إن أردت نيل مودتي بهناء فعليك أن تواصليني بأن تصبري عن الآخرين وتهجريهم

أنتِ يَاقُوتَةٌ قَدَرْتُ عليها   لا أُحِبُّ الشريكَ في اليَاقُوتِ

٢٣ لم أستطع الخروج

وجاريةٍ يَسُورُ بنا هَواها   كما سَارتْ مُشَعْشَعَةٌ كُمَيْتُ

يسور بنا حبها، أي يثب بنا ويهاجمنا، مثلما تسور الخمر المشعشعة، الممزوجة، الكميت، الداكنة. فمزج الخمر بالماء يولد في الكأس حركة وفقاقيع كأن بين الماء والخمر حرباً

يُزَيِّنُ وجهُها خَلْقاً عَميماً   وزَيَّنَ وجهَها حَسَبٌ وَبَيْتُ

وجهها الجميل يزين خلقها العميم، جسمها الكبير، ووجهها هذا مزين بحسبها وبيتها، أي علو نسبها

نَسَجْتُ لها القَريضَ بماءِ وُدِّي   لِتَلْبَسَهُ، وتَشربَ ما سَقَيْتُ

ودَسَّتْ في الكتابِ إلَيَّ: إنِّي   ـ وَقَيْتُكَ ـ لوْ أرَى خَلَلاً مَضَيْتُ

دست لي في رسالتها عبارة دعاء (وقيتك)، وقولها إنها لو رأت خللاً، فرصة أو فرجة، لمضت من بيت أهلها وزارتني

يَقولونَ: انْعَمي، ويَرَوْنَ عاراً   خُروجيَ إنْ رَكِبْتُ وإن مَشَيْتُ

أهلها يقولون: استريحي، ويرون خروجها من البيت مشياً أو ركوباً عاراً

ومِنْ طَرَبي إليكَ خَشَعْتُ فيهِمْ   كما يَتَخَشَّعُ الفَرَسُ السُّكَيْتُ

ومن طربي، لحزني واشتياقي لكَ، خشعت فيهم، سكت لا أنبس ببنت شفة، كأنني الفرس السكيت الذي جاء آخراً في السباق

٢٤ التاج الكريه

لَوَتْ حَاجَتي عند اللقاءِ، وأَنكَرَتْ   مواعيدَ قد صَامَتْ بِهِنَّ وصَلَّتِ

لوت حاجتي: حجبتها، وأنكرت مواعيد كانت حلفت عليها بصومها وبصلاتها

وما سُمْتُهَا هَوْناً فتَأْبى قَبُولَهُ ولكنَّما طَالَ الصَّفاءُ فَمَلَّتِ

ليس السبب أنني سمتها هوناً، عرضتها لما هو مهين، حتى ترفضه، فقط ملّت لطول الصفاء بيننا واشتاقت إلى بعض المناكفة

فَيَا عَجَباً زَيَّنْتُ نفسي بِحُبِّها وزَانَتْ بِهَجْرِي نفسَها وتَحَلَّتِ

أزين نفسي، أفتخر، بحبي لها، وتفتخر بهجرها إياي وتتخذ هذا حِليةً

فَبِيني كما بانَ الشبابُ إذا مَضَى وكانتْ يَدٌ منهُ عليَّ فَوَلَّتِ

فبيني، فارقي، كما فارقني الشباب الذي كانت له عليَّ يد، أي نعمة، ثم ولت وذهبت هذه النعمة

فقد كنتُ في ظلِّ العذَارىَ مُرَفَّلاً أُحَبُّ وأُعْطَى حاجتي حيث حَلَّتِ

كنت مدللاً بين البنات مرفلاً، كمن يمشي ويجر ثوبه، وأنال حاجتي فوراً

فغَيَّرَ ذاك العيشَ تاجٌ لَبِسْتُهُ وطَاعَةُ وَالٍ حَرَّمَتْ وأَحَلَّتِ

فغير الأحوال تاج الشيب، وأنا أصبحت أتهيب الوالي الذي يحرم ويحلل الأشياء

٢٥ امتناع بأمر الخليفة

يا مَنظراً حَسَناً رأيتُهْ مِن وجهِ جاريةٍ فَدَيْتُهْ

وَدَعانِيَ الرَّشَأُ الغَرِيـ ـرُ إلى اللِّعَابِ فما أَتَيْتُهْ

الرشأ الغرير: الغزال البريء، اللعاب: لعبة الغزل والحب

بَعَثَتْ إِلَيَّ تَسُومُني لَعِبَ الشبابِ وقد طَوَيْتُهْ

تسومني: تطلب مني

واللَّهِ ربِّ محمدٍ ما إن غَدَرْتُ ولا نَوَيْتُهْ

إن الخليفةَ قد أَبَى وإذا أَبَى شيئاً أَبَيْتُهْ

وكان الخليفة المهدي منع بشاراً من التمادي في الغزل

٢٦ وصال مقابل الحسنات

تلكَ أَسقامي، وبُرْئي مِنْ سَقامي لو تُوَاتي

شفائي أن تواتيني، أي تطاوعني

فإذا قُمتُ أُصَلِّي عَرَضَتْ لي في صَلاتي

لـيـتَـنـي أُعْـطِـيـتُ مـنـهـا   لـيـلـةً فـي حَـسَـنـاتـي

ليتني لقيتها مرة مقابل الحسنات التي أنالها في ليلة عامرة بالعبادة

بَـلَـغَـتْ بـي مِـن هَـواهـا   فـوقَ مـا سَـرَّ عُـدَاتـي

هواها ألحق بي من الأذى أكثر مما يتمناه لي أعدائي

٢٧ حديث المسواك

«خُشَّابُ» جُودي جَهاراً أو مُسَارَقَةً   فقد بَلِيتُ، ومَرَّتْ بِالمُنَى حِجَجُ

أيتها الحبيبة خشابة جودي علي بوصلك سراً أو جهراً، فأنا قد بليت، أي هلكت، وقد مرت حجج، أي سنوات، على أمنياتي بالوصال

حتى متى أنتِ يا خُشَّابُ جَالسةً   لا تَخرُجينَ لنا يوماً ولا نَلِجُ

إلام أنت جالسة في بيتك لا تخرجين لي ولا ألج، أي أدخل

لا خيرَ في العيشِ إنْ كُنَّا كذا أبداً   لا نلتقي، وسبيلُ الملتَقَى نَهَجُ

سبيل الملتقى نهج: متيسر

مَنْ راقبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بِحاجتِهِ   وفازَ بِالطيِّباتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ

يخاطب نفسه: من راقب الناس، أي التفت إليهم، لم يحقق أمنيته؛ ويفوز بالطيبات الفاتك، المقدام، اللهج، المواظب المولع

وقد نَهَاكِ أناسٌ، لا صَفَا لَهُمُ   عيشٌ، ولا عَدِمُوا خَصْماً، ولا فَلَجُوا

ينهاك عن وصالنا يا خشابة أناس، ويدعو عليهم ألا يصفو عيشهم وألا يعدموا خصوماً، وألا يفلجوا، ألا ينجحوا

قالوا: حَرامٌ تَلاقِينا، فقد كَذبوا   ما في التِزَامٍ ولا في قُبْلَةٍ حَرَجُ

الالتزام: الضم

يا ربِّ لا صبرَ لي عن قُرْبِ جَارِيَةٍ   تنأَى دَلالاً، وفيها إن دَنَتْ غُنُجُ

تَجلُو بِمِسْواكِها عن بَارِدٍ رَتِلٍ   كذاكَ خَبَّرَني مِسْواكُها الأَرِجُ

تلمّع بالمسواك صف أسنانها الرتل، أي المستوي، وبالمناسبة هذا ما أخبرنيه مسواكها الأرج، العطِر

٢٨ أكرمتَ ثم أمسكت

لَقد زيَّنَ الإسلامَ مُلْكُ محمدٍ   وفي الحربِ لِلأعداءِ نَارٌ تَأَجَّجُ

زينت الإسلام بملكك أيها الخليفة محمد المهدي، وأنت نار متأججة على العدو

إمامَ الهُدى أَمْسَكْتَ بعدَ كَرامَتي وقد كنتَ تُعطيني ووجهُكَ أَبْلَجُ

أيها الإمام لقد أمسكت، امتنعت عن عطائي، بعد أن كنت أكرمتني، وكنت إذ تعطيني مسروراً ووجهك أبلج، مشرق

لَعمْري لقد أَشْمَتَّ بي غيرَ نائِم فَنَامَ، وَهَمِّي سَاهِرٌ يَتَوَهَّجُ

جعلت الحاسدين يسهرون غيظاً، والآن بعد أن أقصيتني جعلتهم يشمتون بي، وناموا مستريحين، وبقي همي ساهراً متوهجاً بالرغبة

٢٩ مات من يتزوج

وقد زادَني وَجْداً عليها، وما دَرَتْ، مَجَامِرُ في أَيْدِي الجَواري تَأَجَّجُ

زادني وجداً عليها، رغبة فيها وحزناً، تلك المجامر التي تتأجج وتشتعل بالبخور بأيدي البنات في عرس الحبيبة

فلمَّا دَنَا منها بَكَتْ مِنْ دُنُوِّهِ وقلنَ لها: قومي اركبي، الصُّبْحُ أَبْلَجُ

دنا منها الفرس الذي سيحملونها عليه فبكت، والبنات يشجعنها على الركوب، ويقلن إن الصباح رباح

وفَدَّيْنَها كيْما تَخِفَّ، فَأَعْرَضَتْ تَجَشَّمُ مِمَّا سُمْنَها وتَغَنَّجُ

قلن لها «نفديك» كي تخف، تنهض للركوب، فامتنعت تتجشم، تعاني، مما سمنها، فرضن عليها، وتتغنج، تبدي دلالاً

وما زِلْنَ حتى أَشْرَفَتْ لِعيونِهِمْ وغَنَّى المُغَنِّي واليَراعُ المُفَلَّجُ

وظللن يقنعنها حتى صعدت وأشرفت، ارتفعت، وبدت لعيون الناس، وغنى المغني وعزف اليراع المثقب، الناي

إذا رَكِبَتْ منَّا بِليلٍ فقلْ لها: عليكِ سلامٌ مَاتَ مَنْ يَتَزَوَّجُ

يتأسف عليها فلا غرام بعد اليوم..

ولو مُتُّ كان الموتُ خيراً مِنَ الشَّقَا وما لِلفَتى ممَّا قَضَى اللَّهُ مَخْرَجُ

ويكاد لغيظه يرى الموت أهون من الشقاء بفراق الحبيبة. ألا إن أغنيات العرس أغنيات حزن وشجن للفتاة ولرجال كثر يتحسرون. الزواج أن تمشي بقدميك إلى سجن قد يكون أبدياً.
ردد معي «مات من يتزوج»، الزواج نهاية لا بداية

٣٠ الصديق الحقيقي

خَيرُ إِخْوانِكَ المُشارِكُ في المُرِّ - وَأَينَ الشَّريكُ في المُرِّ أَيْنا؟

اَلـذي إن شَهِدْتَ سَرَّكَ في الحَيِّ - وإنْ غِـبْـتَ كـان أُذْنـاً وعَـيْـنـا

أنـتَ في مَعشرٍ إذا غِبْتَ عنهُمْ بَـدَّلـوا كـلَّ مـا يَـزيـنُـكَ شَـيْـنـا

أنت تعاشر قوماً إن تغب عنهم يبدلوا حسناتك سيئات و«يَحُشُّون فيك»

وإذا مـا رَأَوْكَ قـالـوا جـمـيـعـاً أنـتَ مِـنْ أَكْـرَمِ الـرجـالِ عـلـيْـنـا

٣١ كأمِّ العروس

بَـلَـوْتُ ابْـنَ نِـهْـيـا فَـمَـا عـنـده سـوى أن سـيـأكُـلُ أو يَـسْـلَـحُ

بلوت، أي اختبرت ابن نهيا، كنية حماد عجرد، فكل شأنه أنه يأكل ويتغوط

إذا شـئـتَ لاقَـيْـتَـه رَابِـضـاً عـلـى ظَـهْـرِهِ رجـلٌ يَـسْـبَـحُ

تراه وعلى ظهره رجل

تَـراه يُـسَـرُّ بِـبَـيْـكِ ابـنِـهِ عـلـى أنَّـه سُـبَّـةٌ تَـفْـضَـحُ

وهو مسرور بأن يكون هذا الشيء مع ابنه أيضاً رغم أن هذا الأمر عار فاضح

ومـا كـان إلّا كَـأُمِّ الـعَـروسِ إذا نُـكِـحَـتْ بِـنْـتُـهـا تَـفْـرَحُ

قالوا في المثل «فلانة مثل أم العروس: فاضية ومشغولة»، وفعلاً لم يقولوا لنا قط إنها حزينة

٣٢ السعي والحظ

يَـعـيـشُ بِـجَـدٍّ عـاجِـزٌ وجَـلـيـدُ وكُـلُّ قَـريـبٍ لا يُـنـالُ بـعـيـدُ

يعيش بحظه العاجز والقوي، وكل شيء قريب لا يستطاع الوصول إليه بعيد في الواقع

يَفوتُ الغِنَى قوماً يَخِفُّونَ لِلْغِنَى ويَـلْـقَـى رَبَـاحـاً آخـرونَ قُـعـودُ

يفر الغنى من أناس يخفون له، وينهضون لتحقيقه، ويغتني ويربح آخرون قاعدون غير ساعين

ولا يَدْفَعُ الموتَ الأطباءُ بِالرُّقَى وسِيَّـانَ نَـحْـسٌ يُـتَّـقَـى وسُـعُـودُ

لا يمنع الأطباء الموت بالرقى، الحجب والتمائم، والنحس والسعد سواء فالقدر جار لا يلتفت إلى كل ذلك

٣٣ بشار عذرياً

يـا ربَّ قـائـلـةٍ يـومـاً لـجـارتِـهـا: إن الـمُـرَعَّـثَ هَـمِّـي غـابَ أو شَـهِـدا

تقول لجاراتها إن المرعث، لقب بشار، هو منتهى أملي حاضراً كان أم غائباً

غابَ القَذَى فشَرِبْنا صفوَ ليلَتِنا   حِبَّيْنِ نلهُو ونَخشَى الواحدَ الصَّمَدا

غاب القذى، ما يلوث العين أو الماء من قشة أو نحوها، فشربنا في ليلتنا الصفو من اللقاء، ونحن حبيبان نلهو ولكننا نتقي الله

قـالـتْ: فـأَنَّـى - بِـنـفـسـي - جـئـتَ   مُسْتَرِقاً مِنَ العَدُوِّ تَخَطَّى الوَعْرَ والجَدَدا

تقول له: كيف جئت خفية، ولم يرك العدو؟ وتخطيت الوعر والجدد، الطريق الممهد

جَوْرٌ أَتَى بِكَ أم قَصْدٌ؟ فقلتُ لها: ما زلتُ أَقصِدُ لو تُدْنِينَ مَن قَصَدا

هل جوراً جئت، انحرافاً عن الطريق بالصدفة، أم قصدتني قصداً، ويرد عليها بأنه يقصدها، لكن ليتها تقرب القاصد

لا تَعجَبِي لاجْتِيابِي الليلَ مُنْسَرِقاً   ما كنتُ قبلَكِ رِعدِيداً ولا بَلِدا

لا تعجبي من اجتيابي الليل، قطعي المسافة، خفية، فلم أكن قط رعديداً، جباناً، ولا بلداً، متبلداً كسولاً

قامَتْ تَهادَى إلى أهلٍ تُراقِبُهُمْ   مشيَ البَهيرِ ترى في مَشْيِهِ أَوَدَا

ثم إنها قامت تتهادى لترقب الأهل كي لا يكونوا قد رأوا الحبيب المتسلل، ومشت مشي البهير، المنقطع النفس، الذي في مشيه أود، أي ميل

وقُمْتُ لم أَقْضِ منها إذْ خَلَوْتُ بها   إلَّا الحَديثَ وإلَّا أن أَمَسَّ يَدا

وقمت، ولم يجر بيننا إلا الحديث وإلا لمس اليد

٣٤ الدمَّل

يمدح عقبة بن سلم:

يَا طَلَلَ الحَيِّ بِذاتِ الصَّمْدِ

يا طلل القوم في موضع ذات الصمد

بِاللَّهِ حَدِّثْ: كيفَ كنتَ بَعدي؟

كيف أصبحت بعد عهدنا؟

أَوْحَشْتَ مِن دَعْدٍ وتِرْبِ دَعْدِ

صرت موحشاً بمغادرة دعد وصويحباتها

عَهْداً لنا، سَقْياً له مِن عَهْدِ

إذ نَحنُ أَخْيافٌ بِما نُؤَدِّي

كنا أخيافاً، مختلفين..

يُــخْــلِــفْــنَ وعــداً ونَــفــي بِــوَعْــدِ
فــنــحــن مِــنْ جَــهــدِ الــهــوى فــي جَــهْــدِ

فكان الغرم مرهقاً للقلب لكثرة إخلافهن الوعود

واهَــاً لِأَســمــاءَ ابــنَــةِ الأَشَــدِّ

حسرةً على المحبوبة الثانية «أسماء ابنة الأشد»

قــامــتْ تَــراءَى إذْ رَأَتْــنــي وَحْــدي
كــالــشَّــمْــسِ بــيــن الــزِّبْــرِجِ الــمُــنْــقَــدِّ

قامت تعرض طولها وأنا وحدي، وبدت كالشمس بين الزبرج المنقد، السحاب المنفرج تبدو من خلاله الشمس

ضَــنَّــتْ بِــخَــدٍّ وجَــلَــتْ عــن خَــدِّ

وكالشمس المطلة من بين السحاب بدا منها خد وضنت، بخلت، بالخد الآخر

مــا ضَــرَّ أَهْــلَ الــنَّــوْكِ ضَــعْــفُ الــكَــدِّ

يغير الموضوع: لا يضر أهل النوك، الحمق، ضعف الكد، المثابرة

وَافَــقَ حَــظَّــاً مَــن سَــعَــى بِــجَــدِّ

فالذي يسعى بجد، ببخت، يوافق نصيباً من التوفيق

الــحــرُّ يُــلْــحَــى والــعَــصــا لــلــعــبــدِ

الحر يكفيه أن تلحاه، تلومه، والعبد لا يرعوي إلا بالعصا

ولــيــس لِــلــمُــلْــحِــفِ مــثــلُ الــرَّدِّ

وليس من علاج للملحف، الملحّ، سوى الرفض الواضح. لكنّ مثلنا يقول: «لُحَّيح غلب مُطَّيل» أي أن الملحاح يغلب المماطل

وصَــاحِــبٍ كــالــدُّمَّــلِ الــمُــمِــدِّ

رب صاحب كأنه الدمل الممد، الذي حشر داخله المدة، القيح

أَرْقُــبُ مــنــهُ مــثــلَ يــومِ الــوِرْدِ

أرقبه متخوفاً كما أرقب يوم الورد، يوم رجوع الحمّى

حَــمَــلْــتُــهُ فــي رُقْــعَــةٍ مِــنْ جِــلْــدي

هذا الصاحب هو كالدمل الذي أحمله في رقعة من جلدي

حتى انْطَوَى غَيرَ فقيدِ الفَقْدِ

فإن ذهب فلا أفتقده بأسىً

ومَا دَرَى مَا رَغْبَتي مِنْ زُهْدي

يفارقني دون أن أكون أشعرته أأنا فيه راغب أم زاهد فيه كاره له

اسْلَمْ وحُيِّيتَ أَبَا المِلَدِّ

يحيي الممدوح عقبة بن سلم، وكنيته أبو الملدّ

ما كان مني لَكَ غيرُ الوُدِّ

ثم ثَناءٌ مثلُ ريحِ الوَرْدِ

كلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِمَا يُؤَدِّي

كل امرئ ينال بقدر ما يقدم، والممدوح سخي فهو ينال المدح

ورُبَّ ذي تَاجٍ كريمِ المَجْدِ

كَآلِ كِسْرَى وَكَآلِ بُرْدِ

ورب صاحب تاج ومجد، كأنه من آل كسرى أو آل برد

أَنْكَبَ جَافٍ عن طَريقِ الرُّشْدِ

وهذا المتوج أنكب، منحرف، وجاف، مبتعد عن طريق الرشد

فَصَلْتَهُ عن مَالِه والوُلْدِ

وأنت أيها الممدوح الشجاع قتلته وفصلته عن عياله. وقصة القصيدة أن عقبة بن رؤبة بن العجاج الراجز ألقى أرجوزة في مجلس الأمير فأثنى عليه بشار بأدب جم. فقال عقبة: هذا شيء لا تحسنه يا أبا معاذ. فقال له بشار: بل أُحسن منه ما لا يحسن أبوك وجدك. وأبو عقبة هذا هو رؤبة وجده العجاج وهما من أشهر الرجاز. وانصرف بشار مغضباً، وصنع لليلته أرجوزة طويلة، هي التي اقتطفنا أجملها أعلاه. وغدا بأرجوزته على الأمير، وكان في المجلس عقبة الراجز. كعادته بصق بشار عن يمينه ثم بصق عن شماله، وابتدأ يرتجز. حتى أتم أرجوزته الفاخرة، فأجازه الأمير وخرج عقبة ـ وكان راجزاً ضعيفاً ـ خزيان. والرجز بحاجة إلى مزاج مختلف عن القصيد، وإليك رجزاً معاصراً قاله الضعيف عندما كان يعمل في مؤسسة جلبت موظفيها من بعيد، ثم عينت مديراً أخذ يضع الهياكل الإدارية ويقيْمُ الناس، ثم يفصل منهم من يفصل، وبعض المحظوظين من أتباعه يبررون أفعاله. وستر الضعيف الفقير اسم المؤسسة: (جاءوا بنا من آخر الآفاق/ براتب حُدد باتفاق/ ثم أتانا قاطع الأرزاق/ جاءوا به من جزر الوقواق/ فرَازَنا والساق فوق الساق/ وهيكلَ الجميع في سياق/ ثم إذا بَلَغَتِ التراقي/ جاءوا يطالبوننا بالباقي/ وصاحت الغربان غاقِ غاقِ/ وانعقد الحبل على الخِناق/ ما الخنجر المغروس في أعماقي/ ولا الرصاص عند الاختراق/ كنظرة المشنوق للشناق/ ويبسمون لحظة التلاقي/ ويذرفون دمعة الفراق/ قد خجل النفاق يا رفاقي)

٣٥ التقلب فوق الوسائد

ولــقــدِ رأيــتُ بــهــا الــخَــرا ئِـدَ يَـتَّـصِـلْـنَ إلـى الـخَـرائِـدْ

رأيت بالديار الخرائد، الفتيات الناعمات، كثيرات

أيــامَ عَــبْــدَةُ وَسْــطَــهُــنَّ كــأنَّــهــا أمُّ الــفَــرائــدْ

وعبدة وسطهن كأنه أم الفرائد، اللؤلؤة الكبيرة وسط العقد

يَـحْـسُـدْنَ فـضـلَ جـمـالِـهـا لا تَـعْـدَمـي حَـسَـدَ الـحَـواسِـدْ

يــا شــوقَــهــا لِــفــراقِــنــا وتَــقَــلُّــبــي فــوقَ الــوَســائِــدْ

لا تُــنْــجِــزيــنَ مَــواعِــدي وَيْــلــي عــلــى تــلــكَ الــمَــواعِــدْ

٣٦ الصلاة بالحصى

ثم قـالـتْ: نـلـقـاكَ بـعـدَ لَـيـالٍ والـلـيـالـي يُـبْـلِـيـنَ كـلَّ جَـديـدِ

عندها الصبرُ عن لقائي، وعندي زَفَـراتٌ يَـأْكُـلْـنَ قـلـبَ الـحَـديـدِ

الحديد: الرجل الشديد، وأحب أن أفهمها على أن الحديد هو الحديد

مـا أُصَـلِّـي إلَّا وعـنـدي رَقـيـبٌ قـائـمٌ بِـالـحَـصَـى يَـعُـدُّ سُـجـودي

منشغل الذهن بها فلا أدري كم ركعة أصلي، لذا فأنا أطلب من بعضهم أن يرقبني ويضع حصاة عند كل ركعة.. ولم يكن بشار يرى الحصى طبعاً، لأنه أعمى، فلا شك في أن صاحبه كان يعد بصوت عالٍ.. كثير من شعر بشار فيه إشارات لا تصلح لضرير

٣٧ الشابع أخو الجائع

يـا عَـبْـدَ بَـاهِـلَـةَ الـذي يَـتَـوَعَّـدُ أَعَـلَـيَّ تُـبْـرِقُ إذْ شَـبِـعْـتَ وتُـرْعِـدُ؟

أنت يا باهلي كالعبد تهددني وتبرق وترعد وتحس في نفسك القوة عندما تشبع. لا ينجو الشابع من كلام الناس، يحسبونه بطراً أشراً؛ ولا ينجو الجائع، يقولون: هذا سيختلس. ويفضلون صاحب العز القديم الجديد، من هو من عائلة عريقة، ومن يتمتع بالمال والجاه. أملى مؤسس البنك العربي في مذكراته أنه كان كلما فتح فرعاً لمصرفه في مدينة راح يبحث عن رجل من «أحسن» عائلات المدينة وأعرقها وأغناها لكي يكون مديراً للفرع

عَـوَّدْتَ نـفـسَـكَ أن تُـضـامَ فَـخَـلِّـهـا كـلُّ امْـرِئٍ رهـنٌ بِـمـا يَـتَـعَـوَّدُ

عودت نفسك أن تُظلَم، فابق على ذلك، فأنت تستحق ما تعودت عليه

وأَبَى لـكَ الـحَـسَـبُ الـلَّـئـيـمُ نَـبَـالَـةً وكَـسـاكَ ذِلَّـتَـهُ أَبُـوكَ الـقُـعْـدُدُ

القعدد: الجبان

٣٨ الهائمات بي

أَرْسَلْنَ في لُطْفٍ إِلَيَّ أنِ ائْتِنا غَابَ الرقيبُ، وما تَخافُ وَعيدا

أرسلن في لطف، خفيةً، أن تعال وجالسنا فالرقيب غائب، ولا تهديد

فَأتيتُهُنَّ معَ الجَرِيِّ يَقُودُني طَرَباً، ويَا لَكَ قائداً ومَقُودا

جئت تلبية لرسالتهن مع الجري، الرسول، يقودني

لمَّا التقيْنا قُلْنَ: هاتِ فقد مضتْ سنةٌ نُؤَمِّلُ أن نراكَ قَعِيدا

ظللنا سنة نتطلع إلى أن تجالسنا

حَدِّثْ فقد رَقَدَ الوُشاةُ، وليْتَهُمْ حتى القِيامةِ يَلبثونَ رُقُودا

قلتُ: اقْتَرِحْنَ مِنَ الهوى، فَسَأَلْنَني طُرَفَ الحديثِ فُكاهَةً ونَشيداً

حدثتهن بالطرائف وأنشدتهن شعراً

حتى إذا بَعَثَ الأذِينُ فِراقَنا ورأيتُ مِن وجهِ الصباحِ خُدودا

الأذين: المؤذن

جَرَتِ الدموعُ، وقُلْنَ: فيكَ جَلادَةٌ عنَّا، ونَكْرَهُ أن نَراكَ جَليدَا

فيك جلادة وصبر عن لقائنا، ونريدك أن تكون متشوقاً دائماً غير صابر

٣٩ بعد أن زاغت عينه

إن نَبَتْ عيني وكانتْ زَلَّةً فاغفِريها قبلَ أن أَلْقَى الرَّدَى

إن انحرفت عيني ونظرت لغيرك فاغفري قبل أن أموت

حِلْمُ ذي القُدْرَةِ حَظٌّ زَانَهُ والبَلايَا لا تُحَاشِي أَحَدا

الحلم، والسماحة، عند ذي القدرة زين، والخطأ لا يستثني أحداً فاغفري خطأي

رِيمُ قد تُبْتُ وطَالَتْ عَبْرَتي شَهِدَ اللَّهُ، ودَمْعي شَهِدا

وأنا أتوب عن التطلع إلى غيرك

٤٠ الثوب الجديد

بِجَدِّكَ يا ابْنَ قُزْعَةَ نِلْتَ مالاً أَلا إن اللِّئامَ لَهُمْ جُدُودُ

بحظك نلت المال، واللئام ذوو جدود، حظوط

كَسَوْتُكَ حُلَّةً مِمَّا أُسَدِّي ... بُروداً لا تُقارِبُها بُرودُ

كسوتك ثياباً مما أسدي، مما أنسج.. ثياباً ليست كالثياب

ملابِسُ لا تَرِثُّ على اللَّيالي ... ولا تَبْلَى وإن بَلِيَتْ جُلُودُ

فهي لا ترث، لا تهترئ، مع الزمن، ولا تبلى وإن بليت الجلود

جَلَسْتُ أَحُوكُها والليلُ دَاجٍ ... مُحَبَّرَةً تُبيدُ ولا تَبيدُ

جلست ساهراً في الليل الداجي، المظلم، أُخيط هذه الحلة المحبرة، المنمقة، التي تُبيد لابسها ولا تبيد هي. إنها قصيدة هجاء

يُوَرِّثُها بَنُوكَ بَني بَنيهِمْ ... إذا هَلَكُوا، ومَنْشَرُها جَديدُ

يتوارثها أعقابك، وتظل جديدة ذات أثر.. وتخزيكم جيلاً بعد جيل

كَذاكَ الدهرُ يُبْلِي كلَّ شيءٍ ... ولا يَفْنَى على الدهرِ القَصيدُ

٤١ نصيحة للقصيدة

شَرِبْنَا مِنْ بَناتِ الدَّنِّ حتى ... تركنا الدَّنَّ ليس له فُؤادُ

شربنا الخمر من الكؤوس التي هي بنات الدن، خابية الخمر الكبيرة، فلم نترك خمراً في الدن فكأننا أخذنا قلبه

وجدتُ لِبعضِهِمْ جُوداً وبَعْضٌ ... كماءِ البَحْرِ أَكْدَرُ لا يُرَادُ

لا يُراد: لا يُطلب

وليس الجودُ منتَحَلاً ولكنْ ... على أَحسَابِها تَجري الجِيَادُ

الجود ميزة لا ينتحلها المرء، يستحدثها، فالجياد، الخيل، تجري في السباق بأحسابها، فالسوابق هي ذات الأصيلة

وجَارِيَةٍ مِنَ الغُرِّ الغَوَالي ... تُزَفُّ إلى الملوكِ ولا تُقَادُ

رب قصيدة هي كالفتاة من الغر الغوالي، الوضيئات الغاليات الثمن، تزف إلى الملوك عروساً، ولا تقاد جاريةً

تَسُرُّكَ بِاللِّقاءِ ولا تَراها ... ويُعطِي مالَه فيها الجَوادُ

هي لا ترى، لأنها قصيدة تسمع، ولكن السخي يبذل فيها المال

أقولُ لها وقد خَرجَتْ بِليْلٍ ... مُناصَحَةً ولِلنُّصْحِ اجتِهادُ

أنصح قصيدتي التي خرجت وأنا ساهر لها ليلاً..

رِدِي رَوْحاً فلن تَجِدي كَرَوْحٍ إذا أَزِمَتْ بِكِ السَّنَةُ الجَمَادُ

اقصدي روح بن حاتم، فليس هناك مثله إذا أزمت بك، ضاقت بك، السنة الجماد، الشدة والمحل

٤٢ الشوكة المحسودة

إنْ يَحسُدُوني فإني غيرُ لائِمِهِمْ قَبْلي مِنَ الناسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدُوا

فَدامَ لي ولَهُمْ مَا بي ومَا بِهِمُ وماتَ أكثرُنا غَيْظاً بِمَا يَجِدُ

ما يجد: ما في نفسه من وجد وغيظ

أنا الذي وَجَدُوني في حُلُوقِهِمُ لا أَرْتَقِي صَعَداً منها وأُزْدَرَدُ

وجدوني في حلوقهم كالشوكة لا أصعد ولا أُبلَع

٤٣ العود المشقوق

أَقُبَيْصَ لستَ، وإن جَهِدْتَ بِبالِغٍ سعيَ ابنِ عمِّكَ ذي النَّدَى دَاوِدِ

يهجو قبيصة بن روح ويمدح ابن عمه داود بن يزيد: يا قبيصة لن تبلغ سعي، همة، ابن عمك ذي السخاء داود

داودُ محمودٌ وأنتَ مُذَمَّمٌ عجباً لِذاكَ، وأنتُما مِنْ عُودِ

ولَرُبَّ عُودٍ قد يُشَقُّ لِمَسجدٍ نِصْفاً، وسَائِرُهُ لِحُشٍّ يَهودي

الحش: الكنيف، أي المرحاض

٤٤ السخي والشجرة

ظِلُّ اليَسارِ على العباسِ ممدودُ وقلبُه أبداً بالبخلِ معقودُ

اليسار: الغنى، العباس: هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب

إن الكريمَ لَتَخْفَى عنك عُسْرَتُهُ حتى تَراهُ غنياً وَهْوَ مجهودُ

يخفي الكريم افتقاره، فتراه غنياً وهو متعب في إخفاء فقره

وللبخيلِ على أموالِهِ عِلَلٌ زُرْقُ العيونِ عليها أَوْجُهٌ سودُ

البخيل له علل، حجج، يتحجج لعدم الإنفاق بحجج غير مقبولة عقلاً، كأنها العيون الزرق في الوجوه السود

إذا تَكَرَّهْتَ أن تعطيَ القليلَ ولم تقدِرْ على سَعَةٍ لم يَظهرِ الجودُ

إذا كنت غير قادر على التوسع في العطاء فامتنعت عن العطاء القليل فلن يظهر سخاؤك. السخاء أن تعطي دائماً وبقدر ما عندك

أَوْرِقْ بِخيرٍ تُرَجَّى للنَّوالِ فما   تُرجَى الثمارُ إذا لم يُورِقِ العودُ

أخرج يا هذا القليل، فالشجرة في بدء أمرها تورق فيرجى منها الثمر، وبلا ورق فلا ثمر

بُثَّ النوالَ ولا تمنعْكَ قِلَّتُهُ   فكلُّ ما سَدَّ فقراً فَهْوَ محمودُ

أخرجِ النوال، العطاء، حتى لو كان قليلاً، فما سد حاجة فهو جيد

٤٥ مكيدات النساء

لِخَدَّيْكَ مِنْ كفَّيْكَ في كلِّ ليلةٍ   إلى أن ترى وجهَ الصباحِ وِسَادُ

تضع خديك كل ليلة متوسِّداً كفيك متفكراً

تَبيتُ تُراعي الليلَ تَرجُو نَفَادَه   وليس لِليلِ العاشِقينَ نَفَادُ

ترجو نفاد، انتهاء، الليل.. وليل العاشقين لا ينفد

إذا قلتُ إنِّي قد لَقيتُ شَقاوةً   بِحُبِّكِ قالتْ لِي: وسوف تُزادُ

قالوا بشار لم يسرق أبداً من غيره، وهذا من جميل بثينة

(إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي/من الحب قالت ثابت، ويزيد)

لَنا غِلْظَةٌ منها ولِينُ مَقَالَةٍ   ولَوْعَةُ هَجْرٍ مَرَّةً ووِدادُ

فَواللَّهِ ما أدري، وكلٌّ مُصيبةٌ،   بِأيِّ مَكيداتِ النساءِ نُكادُ؟

كل هذا الذي ألاقيه منها ـ الغلظة واللين واللوعة والهجر والوداد ـ مصائب، ولا أدري بأي مكيدات النساء نصاب؟

٤٦ ابنتي والأعرابية

تقولُ ابْنَتي إذْ فَاخَرَتْها غَرِيبَةٌ   مُؤَزَّرَةٌ بِالوَبْرِ في شَوْذَرٍ قَدَدْ

ابنتي تفتخر عليها فتاة غريبة الشكل مؤزرة بثوب من وبر، وتلبس شوذراً قدداً، خيعلاً مقدود الأكمام.. قميصاً حَفْراً

لها والدٌ رَاعٍ إذا راحَ عندها   بِأَشْوِيَةٍ مِنْ قَلْبِ ضَبٍّ ومِنْ كَبَدْ:

أبوها راع يروح، يأتي مساء، ومعه المشاوي من قلب الضب، الحيوان الصحراوي الزاحف، وكبده

أَبي نَجْلُ أَمْلاكٍ وزَوْرُ خَليفةٍ   يَلينُ له بابُ الهُمامِ إذا وَفَدْ

تقول لها ابنتي: أبي ابن أملاك، ملوك، وزور خليفة، يزور الخليفة، ويفتح له باب الهمام، الزعيم، إذا وفد عليه

٤٧ مدية الهوى

غَرَّاءُ كالقَمرِ المشهورِ حين بدتْ   لا بل بدا مثلَها حين استوى القمرُ

وضاءة كالقمر، بل هو مثلها إذ استوى في وسط السماء

لمَّا رأيتُ الهوى يَبري بِمُدْيَتِهِ   لَحمي، وخَلَّانيَ الزُّوَّارُ والسَّمَرُ

مديته: سكينه. الحب يجعله هزيل الجسم نحيلاً

أَصبحتُ كالحائمِ الحرَّانِ محتَبَساً   لم يَقْضِ وِرْداً ولا يُرْجَى له صَدَرُ

أصبحت كالطائر الذي يحوم حران يريد أن يشرب، ويحبسه عن الماء الصائد، فلا يرد الماء ولا يعود عنه

قَالتْ عُقَيْلُ بنُ كَعْبٍ إذ تَعَلَّقَها   قلبي فَأَضْحَى بهِ مِنْ حبِّها أثَرُ:

قالت لي قبيلة عقيل وقد تعلق قلبي بالمحبوبة وأثرت فيه

أَنَّى ـ ولم تَرَها ـ تَصبُو؟ فقلتُ لَهُمْ:   إنَّ الفؤادَ يَرى ما لا يَرى البَصَرُ

كيف تصبو، أي تعشق، وأنت لم ترها.. قلت لهم: رأيتها بفؤادي

٤٨ إغواء

حسبي وحَسْبُ التي كَلِفْتُ بها   مِنِّي ومنها الحديثُ والنظرُ

يكفيني الحديث والنظر ممن كلفت بها، تعلقت بها

أو قُبْلَةٌ في خلالِ ذاكَ ولا   بأسَ إذا لم تُحَلَّلِ الأُزُرُ

وربما قبلة في هذه الأثناء، ولا يضيرني عدم حل الأزر، الثياب

أو لَمْسُ ما تحتَ مِرْطِها بِيَدي   والبابُ قد حَالَ دونَه السُّتُرُ

ربما لمس ما تحت ثوبها، مجرد لمس، والباب عليه ستائر تحول دون التلصص

والسَّاقُ بَرَّاقَةٌ خَلاخِلُها   والصوتُ عالٍ فقد عَلا البُهُرُ

وبساقها خلخال، ولها صوت إذ علا البهر، تقطع الأنفاس

واسْتَرخَتِ الكَفُّ للغزالِ وقد   قالَ الْهُ عَنِّي والدمعُ مُنْحَدِرُ

كفه مسترخية مع الفتاة، وهي تقول اله عني، ابتعد، ودمعها يجري

اِذْهَبْ فما أنت كالذي ذَكروا،   أنت ورَبِّي مُعَارِكٌ أَشِرُ

اذهب فأنت لست كما قالوا شاعر رقيق، بل أنت معارك فاتك

وغَابَتِ اليومَ عنكَ حَاضِنَتي فاللَّهُ لي اليومَ منكَ مُنْتَصِرُ

ووصيفتي غائبة وأنت تستغل الموقف فالله يأخذ بحقي منك

يا ربِّ خُذْ لي فقد ترى ضُعُفي مِنْ فَاسِقِ الكَفِّ مَا له شُكُرُ

أَهْوَى إلى مِعْضَدي فَرَضَّضَهُ ذُو قُوَّةٍ ما يُطَاقُ مُقْتَدِرُ

تقول: هذا الفاسق يمسك معضدي، أعلى الذراع، ويرضضه

يُلْصِقُ بي لحيةً له خَشُنَتْ ذاتُ سَوادٍ كأنَّها الإِبَرُ

حتى علاني وإِخْوَتي غُيُبٌ ويْلي عليْهِمْ لو أنهُمْ حَضَروا

أُقْسِمُ بِاللَّهِ ما نَجَوْتَ بها إِذْهَبْ فأنتَ المُساوِرُ الظَّفِرُ

المساور: المهاجم

كيف بِأُمِّي إذا رأَتْ شَفَتي وكيف إن شاعَ منكَ ذا الخبرُ

قلتُ لها عند ذاكَ يا سَكَني لا بأسَ إِنِّي مُجَرِّبٌ حَذِرُ

قُولي لَهُمْ بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ إن كان في البَقِّ ما له ظُفُرُ

فكاهة سمجة طبعاً. وقد أنفق النويهي صفحات كثيرة وهو يقدم إدانة أخلاقية لبشار على هذه القصيدة، فلئن كان مغتفراً الغرام فليس يغتفر إغواء طفلة

٤٩ الاستدراج

بَكِّرا صَاحِبَيَّ قبلَ الهَجيرِ إن ذاكَ النَّجاحَ في التَّبكيرِ

بكرا بالرحيل قبل الهجير، الحر..

وثِقالُ الأعجازِ قَطَّعْنَ قلبي بحديثٍ لَذٍّ، ودهرٍ قَصيرِ

ورَضيتُ القليلَ مِنْهُنَّ، إني مِنْ قليلٍ لَواثِقٌ بِكَثيرِ

يطمع بعد نيل القليل بالتدرج إلى الكثير

ليس كلُّ السُّرورِ يبقى نَعيماً رُبَّ غَيٍّ يَدِبُّ تحتَ السُّرورِ

ذهبتْ لَذَّةُ النساءِ فلا أَلْـ ـقى نعيماً إلَّا حَديثَ الذُّكورِ

٥٠ هجاء الأعراب

سأُخبرُ فَاخِرَ الأعرابِ عَنِّي وعنهُ حين بَارَزَ لِلفَخارِ

سأخبر المفتخر من الأعراب، ويقصد العرب

أنـا ابـنُ الأكْـرَمِـيـنَ أبـاً وأمَّـاً   تـنَـازَعَـنـي الـمَـرازِبُ مِـنْ طُـخَـارِ

أنا ابن الأكارم أباً وأما، وقد تجاذب نسبي أجداد من مرازب طُخارستان، والمرزبان هو القائد الحدودي في جيوش كسرى، وطخارستان في شمال أفغانستان اليوم

إذا انـقـلـبَ الـزمـانُ عَـلا بِـعَـبْـدٍ   وسَـفَّـلَ بِـالـبـطـاريـقِ الـكـبـارِ

البطاريق: قادة الروم، والقادة من غير العرب عموماً

مَـلَـكْـنـاكُـمْ فَـغَـطَّـيْـنـا عـلـيْـكُـمْ   ولـمْ نَـنْـصِـبْـكُـمُ غَـرَضـاً لِـزَارِ

كنا قد ملكنا العرب قديماً فسترنا أحوالهم ولم ننصبهم غرضاً لمن يزري عليهم ويؤذيهم (وكان الفرس قد سيطروا في الجاهلية على اليمن، وكانت لهم سطوة في العراق حيث تبعتهم دولة المناذرة)

أَحـيـنَ لَـبِـسْـتَ بـعـدَ الـعُـرْيِ خَـزّاً   ونَـادَمْـتَ الـكـرامَ عـلـى الـعُـقَـارِ..

أعندما لبست الخز، الحرير، بعد أن كنت عارياً، وحين نادمت الكرام على العقار، الخمر..

تُـفـاخِـرُ يـا ابْـنَ راعِـيَـةٍ ورَاعٍ   بَـنـي الأَحْـرارِ؟ حَـسْـبُـكَ مِـنْ خَـسَـارِ

تفاخر أيها الراعي بني الأحرار، والأحرار كلمة وصف بها بقايا الفرس في اليمن عندما جاء الإسلام، فقد أسلموا ولم يدخلوا تحت نير العبودية

وكـنـتَ إذا ظَـمِـئْـتَ إلـى قَـرَاحٍ   شَـرِكْـتَ الـكـلـبَ فـي ذاكَ الإِطَـارِ

كلما ظمئت إلى ماء قراح، صاف، شاركت الكلب في الإطار، الوعاء

وتُـدْلِـجُ لِـلـقَـنـافِـذِ تَـدَّرِيـهـا   ويُـنْـسِـيـكَ الـمَـكـارِمَ صـيْـدُ فَـارِ

وتدلج، تخرج ليلاً، للقنافذ تدريها، تخدعها لتصيدها، وتصيد فئران الصحراء من اليرابيع

وتَـغْـبِـطُ شَـاوِيَ الـحِـرْبَـاءِ حـتـى   تـروحُ إلـيـهِ مِـنْ حُـبِّ الـقُـتَـارِ

وتحسد من يشوي الحرباء حتى لتذهبُ إليه وانت تتشمم القتار، رائحة الشواء

وفَـخْـرُكَ بـيـن يَـربُـوعٍ وضَـبٍّ   عـلـى مِـثْـلِـي مِـنَ الـحَـدَثِ الـكِـبـارِ

وفخرك، أنت يا من يصيد الضباب واليرابيع، أي فئران البر، حدث كبير

٥١ الجفون القصار

وقال يفخر بمضر وقتل إبراهيم الإمام العباسي سنة ١٣١هـ:

يُـرَوِّعُـهُ الـسِّـرَارُ بِـكُـلِّ أمْـرٍ   مَـخَـافَـةَ أن يـكـونَ بِـهِ الـسِّـرَارُ

هذا العاشق يخيفه السرار، حديث الوشوشة بين الناس، لأنه يظنهم يتحدثون عنه

كـأنَّ فـؤادَهُ كـرةٌ تَـنَـزَّى حِذَارَ البَيْنِ لو نَفَعَ الحِذَارُ

كأن قلبه كرة تنزى، تقفز، خوفاً من الفراق

أقولُ وليلتي تَزدَادُ طُولاً أمَا لِلَّيْلِ بعدَهُمُ نَهارُ
جَفَتْ عيني عن التَّغميضِ حتى كأنَّ جفونَها عنها قِصَارُ
لنَا بَطحاءُ مكةَ والمُصَلَّى وما حازَ المُحَصَّبُ والجِمَارُ

لنا، ويقصد قبائل مضر من عرب الشمال ومنهم قريش، وكان ولاء بشار في عُقيل المضرية، بطحاء مكة، سهلها حيث سكن أشرافها، وما ضمه ذانك الموضعان المحصب والجمار

وميراثُ النبيِّ وصاحِبَيْهِ تِلاداً لا يُباعُ ولا يُعارُ

ولنا إرث النبي وصاحبيه أبي بكر وعمر، وهذا تلاد، إرث

كأنَّ الناسَ حين نَغيبُ عنهُمْ نَباتُ الأرضِ أَخْلَفَها القِطَارُ

الناس بدوننا كنبات الأرض التي أخلفها، تأخر عنها القطار، أي المطر

ألم يَبْلُغْ أبَا العباسِ أَنَّا وَتَرْنَاهُ وليس به اتِّئَارُ

أبو العباس السفاح وهو أخو إبراهيم الإمام الذي قتله آخر خلفاء بني أمية، وقد وترناه، جعلنا له ثأراً بقتلنا أخاه، ولكن ليس به اتئار، لا سبيل لأخذه الثأر

قَتَلْنا السَّكْسَكِيَّ بِلا قَتِيلٍ وهل مِنْ مَقتلِ الكلبِ اعتِذارُ

وقتلنا معاوية السكسكي الذي نقض بيعة مروان بن محمد بحمص وقاتله فقُتل

إذا ما أَقْبَلُوا بِسَوَادِ جَمْعٍ نفخْنا في سَوادِهِمُ فَطارُوا

يقبل الأعداء علينا أفواجاً ويظهرون من بعيد كالسواد.. ونهزمهم

طَرائِدَ خيلِنا حتى كَفَفْنا هَوادِيَها وليس بها ازْوِرَارُ

طاروا مطرودين بخيلنا التي تتبعهم، نطاردهم بعد كسرهم إلى أن نكف هوادي الخيل، أي أعناقها، دون أن يكون بها ازورار، أي انحراف عن المضي

لنَا نَارٌ بِشَرْقِيِّ المَعَالي مُضَرَّمَةٌ وبِالغَرْبِيِّ نارُ

أوقدنا نارنا شرقاً وغرباً، والنار علامة شرف وكرم عند العربي فهو بها يعلن عن وجوده واستعداده لإيواء المستجير وإطعام الضيف

٥٢ لم يأتني خبر

حَسْبي بما قد لَقيتُ يا عمرُ لم يأتِني عن حبيبتي خبرُ

يا ليت شِعْري ماتتْ فأنْدُبُها   أم أحدَثَتْ صاحباً فأنتحرُ
لا أستطيعُ الهوى وهِجْرَتَها   قلبِي ضعيفٌ، وقلبُها حَجَرُ

لا أستطيع تحمل الهوى وهجرها لي معاً

٥٣ وسم بالنار

أَجَرْنا البَاهِلِيَّ مِنَ المَنايا   فلم يشكرْ لنَا كرمَ الجِوارِ
يفاخِرُنا ونعمتُنا عليهِ   وفيمَ الباهِلِيُّ مِنَ الفَخَارِ
دَنَوْتَ مَعَ الكِرامِ ولستَ مِنهُمْ،   تأَخَّرْ يا ابنَ بَائِكَةِ الحِمارِ

يعير أمه بمعاشرة حمار، ولك أن تضع نقطة ليتم لك المعنى الخسيس، لا تفعل!

خُلِقْنا سَادَةً وخُلِقْتَ كلباً   ككلبِ السُّوءِ يَلحَقُ بالقِطارِ

أنت كالكلب الذي يلحق القطار، القافلة

إذا أَنْكَرْتَ نِسبةَ بَاهِلِيٍّ   فَرَفِّعْ عنهُ نَاحِيَةَ الإِزَارِ

إذا تحيرت في نسب شخص من قبيلة باهلة فارفع طرف ثوبه

على أَسْتَاهِ سَادَتِهِمْ كِتَابٌ   «مَوالِي عَامرٍ» وَسْمٌ بِنارِ

على مؤخرة سادتهم مكتوب بوسم، كالوسم بالحديدة المحمَّاة على الإبل لبيان صاحبها: موالي قبيلة عامر. وزعم هارون الرشيد لجليسه أن هذا أهجى بيت

سَعَى لِيَكونَ مِثْلِيَ بَاهِلِيٌّ   وكيف سَعَى بِمَجْدٍ مُسْتَعارِ
أرادَ بلؤْمِه تدنيسَ عِرضي   وأينَ الشمسُ مِنْ دَنَسٍ وعَارِ

٥٤ الأسد الجائع

ما بالُ حَمَّادِ بْنِ نِهْيا يَشتَهي   مَوْتي كَأَنِّي بِاسْتِهِ بَاسُورُ

ما لي أرى حماد عجرد يشتهي موتي؟ فكأني في مؤخرته الباسور

نُبِّئْتُ آكِلَ خُرْئِهِ يغتابُني   عند الأميرِ، وهلْ عَلَيَّ أميرُ
ولِيَ المَهَابَةُ في الأحبَّةِ والعِدَى   وكأنَّني أسدٌ له تَامُورُ

التامور: عرين الأسد

غَرِثَتْ حَليلَتُهُ وأخطأَ صيْدَهُ   فلَهُ على لَقَمِ الطريقِ زَئيرُ

وكأن هذا الأسد ترك حليلته، زوجته، غرثى أي جائعة، ولم يتمكن من الصيد، فهو على لقم الطريق، واللقم الطريق الواضح، يزأر متهيئاً للافتراس

ويَسُرُّني سَبْقُ الجوادِ إلى النَّدَى   قبلَ السؤالِ، فإن ذاكَ سُرورُ
وإذا أَقَلَّ لِيَ البخيلُ عَذَرْتُهُ   إن القليلَ مِنَ البَخيلِ كثيرُ

٥٥ أنا وعبدة والناس

يُزَهِّدُني في حبِّ عَبْدَةَ معشرٌ   قلوبُهُمُ فيها مُخالِفَةٌ قَلبي

يزهدني في حبها: يقلل حبها في عيني

فقلتُ: دَعُوا قلبي وما اختارَ وارْتَضَى   فبِالقلبِ لا بالعينِ يُبْصِرُ ذو اللُّبِّ
وما تُبصِرُ العينانِ في موضِعِ الهوى   ولا تسمعُ الأُذْنانِ إلَّا مِنَ القلبِ

٥٦ مدح واصل بن عطاء

تَكَلَّفُوا القَوْلَ والأَقوامُ قد حَفِلُوا   وحَبَّرُوا خُطَباً ناهِيكَ مِنْ خُطَبِ
فقامَ مُرتَجِلاً تَغْلي بَداهَتُهُ   كَمِرْجَلِ القَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ

قام واصل بن عطاء يرتجل ببديهة حارة كأنها تنور القين، الحداد، المحاط باللهب

وجانَبَ الرَّاءَ لم يَشعُرْ به أحدٌ   قبل التَّصَفُّحِ والإغْرَاقِ في الطلبِ

وتجنب حرف الراء، وكان واصل يلثغ بالراء، في كل كلماته، ولا يشعر أحد بهذا إلا بعد طول تفكير وتنقيب. هذا عن مدح بشار لواصل بن عطاء، فأما واصل فقد وصله عن بشار ما يقوله في الغزل الفاحش فقام وخطب خطبة أخرى ـ وتجنب فيها الراء ـ وقال: (أما لهذا المشنف المكني بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله.) فقال المشنف ولم يقل المرعث، وقال أبا معاذ ولم يقل بشاراً، وقال الغالية ولم يقل الرافضة، وقال يبعج بطنه لا يبقره، متجنباً الراء في كل كلامه

٥٧ زُر غباً تزدد حباً

لا تَجْعَلَنْ أحَداً عليكَ إذا   أحبَبْتَه وهَوِيتَهُ رَبَّا

رب: سيد

وَصِلِ الخليلَ إذا شُغِفْتَ بِه   واطْوِ الزيارَةَ دونَهُ غِبَّا

اطو الزيارة دونه غباً: قم بزيارات متفرقة، ولا تكثر

فَلَذَاك خيرٌ مِنْ مُوَاصَلَةٍ   ليستْ تَزيدُكَ عنده قُرْبا

٥٨ صحبة أبدية مع الحزن

أَبْكي الذين أَذاقُوني مَوَدَّتَهُمْ حتى إذا أَيْقَظوني في الهوى رَقَدُوا
واسْتَنْهَضُوني فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِباً بِثِقْلِ مَا حَمَّلُونِي وُدَّهُمْ قَعَدُوا

يوقعونني في شرك الحب ثم لا يكملون المشوار معي

لأَخْرُجَنَّ مِنَ الدنيا وحبُّهُمُ بين الجوانحِ لم يشعُرْ به أَحَدُ
أَلْقَيْتُ بيني وبينَ الحزنِ معرفَةً لا تَنْقَضي أبداً أو يَنقضي الأبدُ

٥٩ إخفاء البكاء

شَكَوْتُ إلى الغَواني ما أُلاقي وقُلْتُ لَهُنَّ مَا يَومي بَعيدُ

قال لهن إن يومه قريب وسيموت عشقاً

فَفاضَتْ عَبْرَةٌ أَشْفَقْتُ منها تَسيلُ كأنَّ وَابِلَها الفَرِيدُ

نزلت دموعي كأنها الفريد، حبات اللؤلؤ

فَقُلْنَ بَكَيْتَ؟ قُلْتُ لَهُنَّ كلَّا وقد يَبكي مِنَ الشَّوْقِ الجَليدُ

الجليد: المتماسك

ولكنِّي أصابَ سَوادَ عَيْني عُوَيْدُ قَذىً له طَرَفٌ حَديدُ

أصاب سواد عيني عود طرفه حديد، أي حادّ

فَقُلْنَ: فَمَا لِدَمْعِهِمَا سَوَاءً أَكِلْتَا مُقْلَتَيْكَ أصابَ عُودُ

قلن له: دمع عينيك سواء، أي متساو بين المقلتين.. فهل أصاب عود كلتا عينيك؟ يا كذاب!

فَقَبْلَ دُموعِ عينِكَ خَبَّرَتْنا بِمَا جَمْجَمْتَ، زَفْرَتُكَ الصَّعُودُ

وقبل أن تبكي أخبرتنا بما جمجمت، بما قصدت أن تقول ولم تحسن التعبير، زفراتُك الصعود، الصاعدة من صدرك

٦٠ استخفاف

وإنَّني في الصَّلاةِ أَحضُرُها ضُحْكَةُ أهلِ الصَّلاةِ إن شَهِدُوا
أَقْعُدُ في سَجْدَةٍ إذا رَكَعُوا وأَرْفَعُ الرأْسَ إنْ هُمُ سَجَدُوا
أَسْجُدُ والقومُ راكعونَ معاً وأُسرِعُ الوَثْبَ إن هُمُ قَعَدُوا
ولستُ أَدْري إذا إمَامُهُمُ سَلَّمَ كَمْ كانَ ذَلِكَ العَدَدُ

٦١ الحج إلى زرارة

أَلَمْ تَرَنِي ويَحيَى قد حَجَجْنا وكان الحجُّ مِنْ خيرِ التِّجارَةْ
خَرجْنا طَالِبَيْ خيرٍ وبِرٍّ فمَالَ بِنا الطريقُ إلى زُرَارَةْ

زرارة: خمار من الخمارين

فَعادَ الناسُ قد غَنِمُوا وحَجُّوا وأُبْنا مُوقَرِينَ مِنَ الخَسَارَةْ

عدنا موقرين: محمَّلين

٦٢ أنا وفطمة

عَجِبَتْ فَطْمَةُ مِنْ نَعتي لها هل يجيدُ النَّعْتَ مكفوفُ البَصَرْ
بنتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قُسِّمَتْ بينَ غُصْنٍ وكَثيبٍ وقَمَرْ

الغصن قدها المياس، والكثيب مؤخرتها، والقمر وجهها

دُرَّةٌ بَحْرِيَّةٌ مَكْنُونَةٌ مَازَها التاجرُ مِنْ بينِ الدُّرَرْ

درة بحرية، أي لؤلؤة، كانت مكنونة في الصدفة، فلما رآها التاجر كبيرة وثمينة مازها، نحاها جانباً

أَذْرَتِ الدمعَ، وقالتْ: وَيْلَتي مِنْ وَلُوعِ الكَفِّ رَكَّابِ الخَطَرْ

قالت وقد أذرت الدمع وسكبته: ويلي من هذا المولع باللمس الذي لا يبالي الخطر

أُمَّتَا بَدَّدَ هَذا لُعْبَتي ووِشَاحِي حَلَّهُ حتى انْتَثَرْ

يا أمي قد خرب هذا الرجل لعبتي وحل وشاحي ونثره

فَدَعِيني مَعَهُ يا أُمَّتَا عَلَّنا في خَلْوَةٍ نَقضي الوَطَرْ

فاتركيني معه قليلاً حتى نقضي غرضنا!

أَقْبَلَتْ مُغْضَبَةً تَضْرِبُها واعْتَرَاها كَجُنونٍ مُسْتَعِرْ
بِأَبِي واللَّهِ مَا أَحْسَنَهُ دمعُ عينٍ يَغسِلُ الكُحْلَ قَطَرْ

٦٣ قناديل السماء

فَأَبْلِغْ بَني زيدٍ وقُلْ لِسَرَاتِهِمْ وإن لم يكنْ فيهِمْ سَرَاةٌ تُوَقَّرُ

قل لسراتهم، سادتهم، وإن لم يكن فيهم سادة يمكن توقيرهم واحترامهم

لِأُمِّكُمُ الوَيْلاتُ إنَّ قَصائِدي   صَواعِقُ، منها مُنْجِدٌ ومُغَوِّرُ

قصائدي صواعق تصل النجود، المرتفعات، والأغوار، المنخفضات

ولو فارقُوا ما فيهِمُ مِنْ دَعَارَةٍ   لَمَا عَرفَتْهُمْ أُمُّهُمْ حين تَنْظُرُ

يريدونَ مَسْعاتِي ودونَ لِقائِها   قناديلُ أبوابِ السماواتِ تَزْهَرُ

يريدون الوصول لمسعاتي، مجدي، وأقرب من ذلك عليهم قناديل السماء أي النجوم التي تزهر، تلمع

٦٤ بكاء صديق زنديق

لَعَمْري لَئِنْ أَصبحْتَ فوق مُشَذَّبٍ   طويلٍ تُعَفِّيكَ الرياحُ مَعَ القَطْرِ..

لئن أصبحت مصلوباً مرفوعاً فوق عود مشذب تعفيك، تمحو ملامحك، الرياح والقطر، أي المطر..

لقد عِشْتَ مبسوطَ اليدينِ مُبَرِّزاً   وعُوفيتَ عند الموتِ مِنْ ضَغْطَةِ القبرِ

فإنك عشت ويداك مبسوطتان بالمعروف، ومتفوقاً.. وقد تخلصت بالصَّلْب من ضغطة القبر وضيقه

وأَفْلَتَّ مِنْ ضِيقِ التُّرابِ وغَمِّهِ   ولم تفقِدِ الدُّنْيا، فهلْ لَكَ مِنْ شُكْرِ

أفلتَّ من التراب، وبقيت في الدنيا، أي فوق الأرض غير مدفون، فاشكر ذلك

فما تَشتَفِي عيناي مِنْ دائمِ البُكَا   عليكَ ولو أنِّي بَكَيْتُ إلى الحَشْرِ

سأبكيك حتى يوم القيامة

فَطُوبَى لِمَنْ يَبكِي أخاهُ مُجَاهِراً   ولكنَّني أَبْكي لِفَقْدِكَ في سِرِّي

مبارك من يبكي أخاه جهراً، غير أنني مضطر لبكائك سراً، لأنك اتهمت بالزندقة وأخاف أن تلصق بي التهمة

٦٥ ثواب على الهجاء

على وَاسِطٍ مِنْ رَبِّها أَلْفُ لَعْنَةٍ   وتِسْعَةُ آلافٍ على أَهْلِ وَاسِطِ

واسط مدينة بالعراق بناها الحجاج

أَيُلتَمَسُ المعروفُ مِنْ أهلِ واسِطٍ   ووَاسِطُ مَأْوَى كلِّ عِلْجٍ وسَاقِطِ

العلج: الرجل الجلف من غير العرب

وإنِّي لَأرجُو أن أنالَ بِشَتْمِهِمْ   مِنَ اللَّهِ أَجْراً مثلَ أَجْرِ المُرابِطِ

المرابط: المقاتل يرابط في بلدة ثغرية حدودية طلباً للأجر

٦٦ من عظم الرقبة

عَبْدَ إنـي إليـكِ بـالأشـواقِ   لِتَـلاقٍ وكيـف لـي بِـالتَّـلاقـي

قيل هذا أول شعر قاله في حبيبته عَبْدَة.. إني إليك: أي مائل إليك

أنا واللَّهِ أَشتَهي سِحْرَ عينيْـ   ـكِ وأَخشَـى مَصارِعَ العُشَّاقِ

أحبوا هذا البيت ورددوه على مسامعي، وقرأته مرة ومرة، ولا أدري هل أحبه بذوقي أنا أم بذوق استعرته من الناس

فاصبِري مثلَما صبرتُ فإن الصَّـ   ـبْرَ حَظٌّ مِنْ صَالِحِ الأخلاقِ

إنني مِنْ بَني عُقَيْلِ بنِ كَعْبٍ   مَوْضِعِ السيفِ مِنْ طُلَى الأَعْناقِ

يفتخر بالقبيلة التي هو من مواليها فهو من هذه القبيلة بموضع السيف من الطلى، أي الأعناق. وأهل الأردن يقولون لمن يحبونه «أنت من عظم الرقبة» أي أنت منا، وسمعتها من أخي جميل عازر عندما التحقت بهيئة الإذاعة البريطانية، وعرفت الرجل بعدها ثلاثين سنة فما رأيت منه إلا كل خير

٦٧ شهادة أطراف المساويك

يا أَطيبَ الناسِ ريقاً غيرَ مُخْتَبَرٍ   إلَّا شهادةَ أطرافِ المَساويكِ

ريقها طيب ولكنها لم تقبل أحداً فلم يختبر أحد ريقها اللهم إلا من رائحة مسواكها

قد زُرْتِنا مَرَّةً في الدهرِ واحدةً   عودي ولا تَجعَليها بَيْضَةَ الدِّيكِ

زعموا أن الديك يبيض مرة واحدة في العمر

يا رحمةَ اللَّهِ حُلِّي في مَنازِلِنا   حسبي بِرائحةِ الفِرْدَوْسِ مِنْ فيكِ

رحمة الله: رحمة الرب، و«رحمة» اسم هذه الفتاة. تورية ساذجة استعملها بعده أبو نواس مشيراً إلى سلفه في الشعر والتهتك

٦٨ الأَكْمَهُ

إذا وُلِدَ المولودُ أعمَى وجدتَه   وجِدِّكَ أَهْدَى مِنْ بَصيرٍ وأَجْوَلا

وجدك: وحياتك، أجول: أكثر حيلة وتجوالاً

عَمِيتُ جنيناً والذكاءُ مِنَ العَمَى   فجئتُ عَجيبَ الظنِّ لِلعلمِ مَعْقِلا

عمي في بطن أمه أي أنه ولد أعمى، فهذا هو الأَكْمَهُ، وهو عجيب الظن أي قوي الحدس ومعقل العلم أي موطنه

وشِعْرٍ كَنَوْرِ الرَّوْضِ لاءَمْتُ بَيْنَهُ   بِقَوْلٍ إذا ما أَحْزَنَ الشعرُ أَسْهَلا

إذا أحزن الشعر، توعر وصار معقداً، فشعري يسهل

٦٩ عشق حمار

وأنشد له في الأغاني أنه مات له حمار فرآه في النوم فقال له: لماذا مت، ألم أكن أحسن إليك؟ فقال الحمار:

سـيِّـدي خُـذْ بـي أَتَـانـاً   عـنـد بـابِ الأَصـبَـهـانـي

يقول الحمار الذي مات عندما جاء بشاراً في الحلم: سيدي خذ بي، أي خذ بثأري، أتاناً، حمارة، تقف عند باب الأصبهاني

تَـيَّـمَـتْـنـي بِـبَـنَـانٍ   وبِـدَلٍّ قـد شَـجَـانـي

تيمتني وولهتني ببنانها، إن كان للحمارة بنان، وبدلٍّ، أي دلال، قد شجاني، وأحزنني

تَـيَّـمَـتْـنـي يـومَ رُحْـنـاً   بِـثَـنـايـاهـا الـحِـسـانِ

وبثناياها الحسان، أي أسنانها الجميلة

وبِـغُـنْـجٍ ودَلالٍ   سَـلَّ جِـسْـمـي وبَـرانـي

ولـهـا خَـدٌّ أَسـيـلٌ   مِـثْـلُ خَـدِّ الـشَّـيْـفَـرانِ

سئل بشار: يا أبا معاذ، وما الشيفران؟ فقال هذا من غريب الحمار.. أي من الألفاظ المهجورة في قاموس الحمير

فَـلِـذا مُـتُّ، ولـو عِـشْـ   ـتُ إذَنْ طَـالَ هَـوانـي

لهذا مت، ولو عشت لطال هواني، أي ذلي (من هجْر الحبيبة وليس لأنه حمار)

٧٠ كأنَّ ما كان لم يكن

ولـمَّا رأيتُ الدارَ وَحْشاً، بِها المَها   تَـرودُ وخـيـطَـانُ الـنَّـعـامِ تَـجُـولُ

وجدت أطلال الدار موحشة وفيها المها، أي بقر الوحش، ترود، أي تتجول، وخيطان النعام، أي قطعان النعام، تتجول

ذَكَرْتُ بِـهـا عيشاً فقلتُ لِصاحبي   كـأنْ لـم يَـكُـنْ مـا كـانَ حـينَ يَـزُولُ

بدا لـيَ أنَّ الـدهـرَ يَـقْدَحُ في الـصَّـفَـا   وأنَّ بَـقـائـي إنْ حَـيِـيـتُ قـلـيـلُ

الزمن يقدح في الصفا، أي الصخر. أي أن الزمن يأتي على كل شيء فلا شك أنني لن أبقى طويلاً

٧١ قم يا عمر

وَنُبِّئْتُ قوماً بِهِمْ جِنَّةٌ   يقولونَ مَنْ ذا وكنتُ العَلَمْ

قوم بهم جنة، أي جنون، يسألون من أنا، وأنا علم، أي جبل، أي أنني مشهور

ألا أيُّها السَّائِلي جاهِداً   لِيَعْرِفَني أنا أنفُ الكَرَمْ

أنا أنف الكرم: قمة الكرم، والأنف هو العلو والشموخ ومنه الأَنَفة أي الإباء

نَمَتْ في الكرامِ بني عامِرٍ   فُروعي، وأَصلِي قريشُ العَجَمْ

فروعي نمت في بني عامر الذين ربيت فيهم، وأصلي أكرم قوم في العجم، ويقابلون قريشاً عند العرب

فإنِّي لأُغْني مَقامَ الفَتَى   وأُصْبِي الفتاةَ فما تَعْتَصِمْ

أغني مقام الفتى، أسد مسد الفتى في الفتوة والنخوة، وأصبي الفتاة، أغويها، فلا تعتصم، تمتنع مني لما عندي من الأصل الطيب و.. الجاذبية

دَعاني إلى عُمَرٍ جُودُه   وقَوْلُ العَشيرةِ بَحْرٌ خِضَمّ

بحر خضم: متدفق كرماً

ولولا الذي زَعَمُوا لم أَكُنْ   لأَمْدَحَ رَيْحَانَةً قبلَ شَمّ

لولا ما قالوا عنك لما مدحتك، فأنا لا أمدح رجلاً قبل أن أنال عطاءه، مثلما لا يقول المرء «الله» قبل أن يشم رائحة الريحانة الزكية

فَقُلْ لِلخليفَةِ إن جِئْتَهُ   نَصوحاً، ولا خَيرَ في مُتَّهَمْ:

إذا أَيْقَظَتْكَ حروبُ العِدا   فَنَبِّهْ لها عُمَراً ثمَّ نَمْ

بيت مشهور جداً. أيها الخليفة إذا قلقت من حروبك مع الأعداء فنبه عُمَر بن العلاء لكي يكفيكهم ونم ناعم البال

فتىً لا ينامُ على ثأْرِهِ   ولا يَشْرَبُ الماءَ إلَّا بِدَمْ

٧٢ هتكنا حجاب الشمس

أَبى طَلَلٌ بِالجَزْعِ أن يَتَكَلَّما   وماذا عليهِ لو أجابَ مُتَيَّما

الطلل في موضع الجزع أبى أن يتكلم، وماذا كان يخسر لو أجاب المتيم الذي وقف به يسائله عن قوم المحبوبة أين رحلوا؟

وبِالفَرْعِ آثارٌ بَقِينَ، وبِاللِّوَى   مَلاعِبُ لا يُعْرَفْنَ إلَّا تَوَهُّما

وهناك آثار بقيت بالفرع، بالتل، وهناك ملاعب، أي السهول التي تلعب فيها الرياح، في موضع اللوى.. ولا يعرفها المرء إلا توهماً بغير يقين لأنها تغيرت كثيراً

إذا ما غَـضِـبْـنـا غَـضْـبَـةً مُـضَـرِيَّـةً   هَتَكْنا حِجَابَ الشمسِ أو تُمْطِرُ الدَّمَا

يفخر بقبيلة مضر الكبرى، وولاؤه في بني عُقَيل وهم من مضر، وغضبة مضر تجعلها تهتك حجاب الشمس، فكأن الشمس فتاة انتصرنا على قومها وهتكنا الستر عنها وسبيناها، وإلا فإننا نجعل السماء تمطر دماً يسيل من سيوفنا ورماحنا. دع عنك الشرح فهو يقلل أثر البيت: هذا فخر فاخر

إذا مَـا أَعَـرْنـا سـيِّـداً مِـنْ قـبـيـلـةٍ   ذُرَى مِـنـبـرٍ صَـلَّـى عـلـيْـنـا وسَـلَّـمَـا

إذا سمحنا لسيد من قبيلة بأن يتولى ولاية وقام يخطب الجمعة فهو يصلي علينا ويسلم، فهو يصلي على النبي، والنبي مضري منا

وإنَّـا لَـقَـوْمٌ مـا تـزالُ جِـيـادُنـا   تُـسـاوِرُ مَـلْـكـاً أو تُـنَـاهِـبُ مَـغْـنَـمَـا

خيولنا دائبة في مساورة الملوك، مهاجمتهم، وانتهاب المغانم

خَـلَـقْـنـا سـمَـاءً فَـوقَـنا بِـنُـجُـومِـها   سيوفاً ونَقْعاً يَقْرِضُ الطَّرْفَ أَقْتَمَا

خلقنا سماء فوقنا من النقع، الغبار في المعركة، الذي يقرض الطرف، أي يؤذي العين، وهو أقتم، مسود، وفي هذه السماء نجوم هي بريق سيوفنا

٧٣ ليل قصير ونوم قليل

لـم يَـطُـلْ لـيـلـي ولـكـنْ لـم أَنَـمْ   ونَـفَـى عـنِّـي الـكَـرَى طـيـفٌ أَلَـمّ

رأى طيفها الذي ألم به، أي أتاه، في نومه فصحا

وإذا قـلـتُ لَـهـا جُـودي لَـنـا   خـرجَـتْ بِـالـصـمـتِ عـن لا ونَـعَـمْ

يقول لها جودي لنا بالوصل، فتتخلص من القبول أو الرفض بمخرج آخر هو.. الصمت

نَـفِّـسـي يـا عَـبْـدَ عَـنِّـي واعْـلَـمـي   أنـنـي يـا عَـبْـدَ مِـنْ لَـحْـم ودَمْ

إنَّ فـي بُـردَيَّ جِـسْـمـاً نـاحِـلاً   لـو تَـوَكَّـأْتِ عـلـيـه لانْـهَـدَمْ

في ثوبيَّ جسم ناحل لو توكأت عليه لسقط. وكان بشار طويلاً عريضاً متيناً، قال له رجل من المدينة: كيف تقول هذا وأنت بهذه الخلقة، ولو بعث الله الريح التي عصفت بقوم عاد وثمود ما حركتك؟ قال له بشار: ما زلت أعرف أنكم ثقلاء يا أهل المدينة. أو كما قال. (تعليق عمران القفيني: طبخ المتنبي هذا المعنى على طريقته. وكل «نحول» يقودنا فوراً إلى المتنبي). المؤلف: ستكون لنا مع المتنبي وقفة طويلة في الجزء الثالث الذي نوينا أن نسميه «تألق الشعر»

خَـتَـمَ الـحـبُّ لـهـا فـي عُـنُـقـي   مَـوْضِـعَ الـخَـاتِـمِ مِـنْ أَهْـلِ الـذِّمَـمْ

لها في عنقي ختم بالمحبة مثل الختم الذي في أعناق أهل الذمة، وكانوا يضعون ختماً على من يستوفون منه الجزية. شيء شبيه بحبر الانتخابات

أبا مُسْلِمٍ ما طُولُ عَيْشٍ بِدائِمِ ولا سالِمٌ عمَّا قَليلٍ بِسَالِمِ

قال هذه القصيدة في هجاء أبي جعفر المنصور وكان مطلعها «أبا جعفر..» ثم حولها إلى هجاء أبي مسلم الخراساني الذي قتله المنصور، فغير فيها هنا وهناك أشياء.. هذا ما قالته بعض الأخبار التي جاءت في الكتب القديمة

على المَلِكِ الجبَّارِ يَقتَحِمُ الرَّدَى ويَصْرَعُهُ في المَأْزِقِ المُتَلاحِمِ

الموت يقتحم على الملك الجبار ويصرعه في المعركة عند التحام السيوف

كأنَّكَ لم تسمعْ بِقتْلِ مُتَوَّجٍ عظيمٍ، ولم تسمعْ بِفَتْكِ الأعاجِمِ
تَقَسَّمَ كِسرَى رَهْطُهُ بِسيُوفِهِمْ وأَمْسَى أَبُو العَبَّاسِ أَحْلامَ نَائِمِ

كسرى المقتول هو يزدجرد آخر الأكاسرة، حكم عشرين سنة، وقتل وهو هارب بعد هزيمة جيشه على يد المسلمين. أبو العباس: الوليد بن يزيد الخليفة الأموي المتهتك الذي قتل قتلاً ١٢٦هـ

مُقِيمَاً على اللَّذَّاتِ حتى بَدَتْ له وجوهُ المَنَايا حَاسِراتِ العَمائِمِ

المقيم على اللذات هو الوليد بن يزيد، ثم رأى وجوه المنايا، الموت، وقد حسرت العمائم وبدت واضحة

وقد تَرِدُ الأيامُ غُرَّاً وربَّما وَرَدْنَ كُلُوحاً بَادِياتِ الشَّكائِمِ

الأيام تأتي غراً، أي غراء مشرقة، أو كلوحاً، كالحة مكشرة، باديات الشكائم، كأنها الحصان يكشر فتبرز شكيمته وهي الحديدة التي في فمه

ومَروانُ قد دَارَتْ على رأسِهِ الرَّحَى وكانَ لِمَا أَجْرَمْتَ نَزْرَ الجَرائِمِ

ومروان الثاني آخر خلفاء بني أمية دارت عليه رحى الموت، وكان بالمقارنة مع جرائمك نزر الجرائم، أي قليلها

فأَصبَحْتَ تَجرِي سَادِراً في طريقِهِمْ ولا تَتَّقِي أَشبَاهَ تِلكَ النَّقَائِمِ

تجري سادراً، مستهتراً، في طريق أولئك المقتولين، ولا تتقي أن يقع بك مثل تلك النقائم، المصائب

تَجَرَّدْتَ لِلإسلامِ تَعْفُو سبيلَهُ وتُعْرِي مَطَاهُ لِلُّيوثِ الضَّرَاغِمِ

تجردت، تفرغت للإسلام تعفو سبيله، تمحو طريقه، وتعري مطاه، تُعَرِّي ظهره، لكي تفترسه الأسود

فمَا زِلْتَ حتى استَنْصَرَ الدينُ أَهْلَهُ عليكَ فَعادُوا بالسيوفِ الصَّوَارِمِ

ظللت كذلك حتى طلب الدين النصرة من أهله فجاءوك بالسيوف القواطع

لَحَى اللَّهُ قَوماً رَأَّسُوكَ عليْهِمُ ... وما زِلْتَ مَرْؤُوساً خَبيثَ المَطَاعِمِ

لحى الله، لعن، من جعلوك رئيساً عليهم، وأنت مجرد مرؤوس لا رئيس وخبيث المطاعم، تطعم الناس الخبيث من الطعام مثلما يفعل اللئام

أقولُ لِبَسَّامٍ عليهِ جَلالَةٌ ... غدا أَرْيَحِيَّاً عاشِقاً لِلمَكَارِمِ

مِنَ الهَاشِمِيِّينَ الدُّعَاةِ إلى الهدى ... جَهاراً، ومَنْ يَهْدِيكَ مِثْلُ ابْنِ هَاشِمِ

هنا يمدح أبا جعفر المنصور وهو هاشمي، وقيل إن الكلمة في أصل القصيدة «من الفاطميين.. وابن فاطم» وكانت في مدح العلويين أبناء فاطمة الزهراء

إذا بَلَغَ الرأْيُ المَشُورَةَ فاسْتَعِنْ ... بِرأْيِ نَصيحٍ أو نصيحةِ حَازمِ

يحض على الاستشارة، واستشارة من هو نصيح أمين، أو رجل حازم

ولا تجعلِ الشُّورَى عليكَ غَضَاضَةً ... فإنَّ الخَوافي قُوَّةٌ لِلقَوَادِمِ

لا تجعل مشاورة الآخرين انتقاصاً لسيطرتك وسلطاتك.. فالخوافي، الريشات الداخلية في جناح الطائر تعطي القوادم، الريشات الظاهرة، قوة.. وكذا المشورة فهي تقوي السلطان الظاهر

وما خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الغُلُّ أُخْتَها ... وما خَيْرُ سيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائِمِ

لا خير في كف يمسك الغل، القيد، أختها.. فيد واحدة ضعيفة ولا تصفق.. ولا خير في سيف لا قائم له، لا مقبض.. ولا خير في زعيم لا يقوي نفسه بالمشورة

وخَلِّ الهُوَيْنا للضعيفِ، ولا تَكُنْ ... نَؤُوماً فإن الحزمَ ليس بِنائِمِ

الهوينا: التباطؤ

وحارِبْ إذا لم تُعْطَ إلَّا ظُلَامَةً ... شَبَا الحربِ خيرٌ مِنْ قَبولِ المَظَالِمِ

حارب إذا لم تعط إلا ظلامة، ظلماً وانتقاصاً لحقك، فشبا الحرب، والشبا هو حد السنان، خير من القبول بالظلم

وأَدْنِ على القُرْبَى المُقَرِّبَ نَفْسَهُ ... ولا تُشْهِدِ الشُّورى امْرَأً غيرَ كَاتِمِ

قرب لك من يقرب نفسه ويريد أن يكون حليفاً، ولا تستشر إلا الكتوم

فإنَّكَ لا تَسْتَطْرِدُ الهَمَّ بِالمُنَى ... ولا تَبْلُغُ العَلْيَا بِغيرِ المَكَارِمِ

الهم لا يمكن طرده بالأمنيات، والعلياء لا تُنال إلا بمكارم الأفعال

وما قَارَعَ الأقوامَ مثلُ مُشَيَّعٍ ... أَرِيبٍ ولا جَلَّى العَمَى مِثْلُ عَالِمِ

لا يقارع الأقوام وينجح في محاربتهم كمن هو مشيع، ذو حلفاء يشايعونه، وأريب داهية، ولا يكشف المستور ويتغلغل في بواطن الأمور مثل الذي عرف كل المعلومات

٧٥ فقْد

وفَـتـىً يَـشـرَبُ الـمُـدَامَـةَ بـالـمـا ... لِ، ويَـمـشـي يَـرومُ مـا لا يُـرَامُ

رب فتى يشرب الخمر ويفني ماله فيها، ويطلب من الأمور المستحيل..

كـان لـي صَـاحِـباً فَـأَوْدَى بـه الـدهـ ... ـرُ وفَـارَقْـتُـه، عـلـيـه الـسَّـلامُ

كان صاحبي وأودى به الدهر، أماته الدهر، فعليه السلام

يا ابْنَ مُوسَى فَقْدُ الحَبيبِ على العيْـ ... ـنِ قَـذَاةٌ وفـي الـفـؤادِ سَـقَـامُ

يخاطب ابن موسى: فقد الحبيب مثل القذاة في العين، القشة أو الشعرة أو حبة الرمل في العين هذه هي القذاة

كـيـف يَـصـفُـو لِـيَ الـنـعـيـمُ وحـيداً ... والأَخِـلَّاءُ فـي الـمَـقـابِـرِ هَـامُ

هام: موتى، والهامة في الأسطورة العربية شبح يخرج من قبر الميت

نَـفِـسَـتْـهُـمْ عَـلَـيَّ أُمُّ الـمَـنـايـا ... فـأَنَـامَـتْـهُـمْ بِـعُـنْـفٍ فَـنَـامُـوا

نفستهم علي، استكثرتهم علي وحسدتني، أم المنايا فأماتتهم، وبشار يجعل للموت أماً، وقد جعلها في قصيد سابق تزوج بناتها من الناس

٧٦ وعيد

مـا زالَ مـا مَـنَّـيْـتَـنـي مِـنْ هَـمِّـي

ما زال الوعد الذي منيتني إياه من طموحي

الـوعـدُ غَـمٌّ فـاسْـتَـرِحْ مِـنْ غَـمِّـي

والوعد بالنسبة لك غم يلازمك فاسترح منه بالوفاء به

إن لـم تُـرِدْ مَـدْحـي فَـراقِـبْ ذَمِّـي

فإذا كنت زاهداً في مدحي فراقب، انتظر، ذمي وهجائي

٧٧ لا تكُ كالعذراء

أَرِحْني بِيَأْسٍ أو بِتعجيلِ حاجةٍ ... وَأَيْتَ بِها ليس النَّدَى بِمُحَرَّمِ

أرحني بأن تجعلني أيأس من عطائك، أو بتعجيل حاجة كنت وأيتَ بها، وعدت بها، والسخاء ليس محرماً بالمناسبة

وإلَّا فَبَيِّنْ لي بِها وَجْهَ مَخْرَجٍ   كَفَى بِبَيانٍ مِنْ فَصيحٍ وأَعْجَمِ

وإن لم ترد هذا ولا ذاك، فأفهمني مخرجك من هذا الأمر، ما تبريرك؟ التوضيح يكفيني سواء من فصيح أم من أعجم عيي

ولا تَكُ كَالعَذْراءِ يومَ نِكاحِها   إذا استُؤْذِنَتْ في نفسِها لم تَكَلَّمِ

لا تكن كالفتاة البكر يوم تزويجها يسألونها عن قبولها أو رفضها فلا تتكلم. هذا لعمري أول سهم في قصيدة هجاء

٧٨ المقرب نفسه

علي وجهِ معروفِ الكريمِ بَشاشةٌ   وليس لِمعروفِ البخيلِ بَهاءُ

كأن الذي يأتيكَ مِن راحتَيْهِما   عروسٌ عليها الدُّرُّ.. والنُّفَساءُ

الذي يأتيك من يد الكريم كالعروس المزدانة باللؤلؤ، ومن يد البخيل شيء قميء كالمرأة النفساء

وخيرُ خَليلَيْكَ الذي في لقائه   رَواحٌ وفيه حين شَطَّ غَناءُ

خير صاحبيك من تستريح للُقياه، وحتى لو شط، أي ابتعد، ففيه لك غناء، أي فائدة

وما القُربُ إلا للمُقَرِّبِ نفسَه   ولو وَلَدتْهُ جُرْهُمٌ وصَلاءُ

القريب من المرء هو من يقرب نفسه حتى لو كان بعيداً خافي النسب كأن يكون من قبيلتي جرهم البائدة وصلاء

ولا خيرَ في وُدِّ امرئٍ مُتَصَنِّعٍ   بما ليس فيه، والوِدادُ صَفاءُ

سَأُعْتِبُ خُلّاني وأعذِرُ صَاحبي   بما غَلَبَتْهُ النفسُ والغُلَواءُ

سأعتب أصحابي، أي أرضى عتابهم، وأعذرهم فيما يبدر منهم لأن النفس غلبتهم فأساءوا وغالوا، أي بالغوا في بعض الأمر

وما ليَ لا أعفُو وإن كان ساءَني؟   ونفسِي بما تَجني يَداي تُسَاءُ

وكيف لا أعفو حتى لو ساءني أمرهم؟ فأنا نفسي أشعر بالإساءة التي تجنيها يداي على الآخرين

عِتَابُ الفتى في كلِّ يوم بَلِيَّةٌ   وتَقويمُ أَضْغَانِ النساءِ عَناءُ

مشكلة أن أشغل نفسي بعتاب الأصدقاء كثيراً، هذا مثل محاولة المرء تقويم أضغان، أي أحقاد، النساء. والمرأة ـ في المجتمع الذي يكبتها ـ تنفس عن وضعها بمداومة الشكوى وبالتنفيس عن مشاعر مضطربة

تَزِلُّ القَوافي عن لِساني كأنَّها   حُمَاتُ الأَفاعي رِيقُهُنَّ قَضاءُ

وعندما أغضب فعلاً فالقصائد تخرج عن لساني كأنها حمات الأفاعي، والحُمَة إبرة اللسع وهي أيضاً السم نفسه

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

أبو العتاهية
(١٣٠هـ ـ ٢١١هـ)

نشأ إسماعيل بن القاسم في الكوفة وعرف من أهله أنهم من قبيلة عنزة. لكن أقرانه عيروه بأن أصلهم من النبط، أولئك الفلاحين الذين كانوا مرتبطين بالأرض يملكهم من يملكها. لكنه نشأ بين العرب لا يعرف إلا العربية، ولم يكن لأهله شغل في الفلاحة بل كانوا يصنعون الجرار من الفخار. ويقول له أهله إنهم عرب تأخر إسلامهم فسباهم خالد بن الوليد وألحقهم بعنزة.

ربما كان إسماعيل يقف في السوق يبيع الجرار لأهله، وربما حملها في قفص على ظهره وطاف بها كما زعم بعضهم، على أنه كان يحضر حلقات الفقهاء في مساجد الكوفة. وكان أيضاً يرافق طلاب الملذات من الشباب ويجاريهم بعض المجاراة. وكان في هؤلاء شعراء فصحاء سنراهم بعد حين يملأون العراق بشعر عذب متهتك بعد أن ينضم إليهم أبو نواس.

على أن إسماعيل بن القاسم، وشهرته أبو العتاهية، فارقهم سريعاً. ووجدناه يرتحل إلى بغداد تاركاً الجرارَ لأخ له، والتهتكَ لأهل التهتك، وكان دون الثلاثين. نراه في أوائل الثلاثين من عمره ينثر شعره السهل في بغداد نثراً. فيقول بعض السامعين إن كلامه نثر لا شعر، وإنهم لو أرادوا لقالوا مئات القصائد من هذا الطراز دونما عناء، ويتعصب له من يعرفون السهل الممتنع، وبعضهم من كبار أهل اللغة كابن الأعرابي، ويقولون إن شعره في غاية الفصاحة.

ويقف أبو العتاهية بباب الخليفة المهدي مع الشعراء، ويؤذن له، ويقول قصيدة يبدأها بالغزل بجارية المهدي، ويتعجب من جرأته بشار بن برد، شيخ الشعراء وكان بلغ السبعين أو نحوها، وكان حاضراً ذلك المجلس.

لكز بشار تلميذه أشجع السلمي في خاصرته، وقال له: أويَستنشد الخليفة هذا الكوفي «الملقب» قبلنا؟ لا جزى الله خيراً من جمعنا به.

أنشد أبو العتاهية أبياتاً يتغزل فيها بعُتْبة جارية المهدي. فقال بشار لتلميذه: لا أدري من أي أمريْهِ أعجب: من ضعف شعره، أم من تغزله بجارية الخليفة يسمع ذلك بأذنه؟ ثم أخذ أبو العتاهية في أبيات المدح، وقال «أتته الخلافة منقادة/إليه تجرر أذيالها» فما فرغ حتى قال بشار لتلميذه: ويحك يا أخا سُلَيْم! أترى الخليفة طار عن سريره طرباً لما يأتي به هذا الكوفي؟

وانقضى المجلس ولم يخرج أحد بجائزة سوى أبي العتاهية. (ملاحظة: والله عارف أنني قصصت هذه القصة في أكثر من موضع. . أطلب المعذرة).

ولم يأبه الخليفة المهدي ـ وكان غيوراً ـ لذكر أبي العتاهية جاريته عتبة في شعره لأن الجارية إنما كانت جارية زوجته، وليست من حرمه، ولأن الرجل طلبها وألح في طلبها، وسعى المهدي بنفسه في تزويجها منه، ولكن الجارية رفضت بشدة. فكانت القصة معروفة في بغداد.

ثم كانت بين أبي العتاهية وبشار، الذي يكبره بأربعين سنة مودة، وكان بينه وبين أبي نواس الذي يصغره بعشر سنين مودة. ومدح أبو العتاهية القادة، وحمُق فهجا بعضهم هجاء من النوع الذي لا يقوله الشاعر في ذوي السلطان. فأنت تهجو صاحب السلطان بالبخل، وتتفنن في ذلك، فيعطيك فترضى، أو يحرمك ويكون بخل بهجاء والسلام. ولكن أبا العتاهية أفحش وأضحك في هجائه لابن معن بن زائدة عبد الله، وأخيه يزيد. وقيل إن عبد الله بن معن بن زائدة أتى بالشاعر وجعل غلمانه يرتكبون فيه الفاحشة. ثم عرض عليه الصلح والمال فقبل شاعرنا صاغراً. تلك قصة من القصص سقناها كما ساقوها، ولا سبيل إلى معرفة نصيبها من الصحة. غير أن الشعر الذي قاله صاحبنا في ابني معن بن زائدة يدل على شهوة قوية كانت في نفس الشاعر للتشفي، وفي هذا الشعر ـ وقد اقتبسناه لك ـ شيء ندر وجوده عند أبي العتاهية، وهو الهجو القائم على جعل المهجو أضحوكة.

ومات المهدي وجاء الرشيد، وبقي في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة، وكان يؤثر أبا العتاهية على كل شاعر. قيل حتى على أبي نواس. ودخل أبو العتاهية في مزاج الزهد. وسجنه الرشيد لأنه أمره أن يقول شعراً في الغزل فامتنع. ثم تغزل صاحبنا بزوجته، على سبيل الحيلة، فأطلقه الرشيد وقد عرف أن أبا

العتاهية قد فرغ من أمر الدنيا. فهل كان شاعرنا يهيء نفسه للآخرة؟ تلك مسألة شغلت الناس بعض الشغل.

رأى الناس شعر أبي العتاهية مليئاً بذم الدنيا، لكنه لا يشي بالشوق للآخرة. فاتهموه بالانحراف عن الدين، فأظهر لهم أبياتاً تكذب ظنونهم، فمنهم من صدق ومنهم من أقام على اعتقاده في اعتقاد الرجل. ونحن نظن أن أبا العتاهية كان يسب الدنيا من فرط محبته لها، ومن عدم يقينه بما يكون من ورائها.

مات الرشيد وجاء الأمين فمدحه أبو العتاهية، ثم جاء المأمون فمدحه.. كل هذا وهو على مذهبه في الزهد وكره الدنيا. لكنه كان يجمع الدنيا في أكياسٍ في بيته. وكان بخيلاً.

هذا شاعر قديم.. أقدم من البحتري والمتنبي والمعري. فكيف ـ وهو الأقدم ـ كانت لغته سهلة سهولة تجعل الشارح يتحير ماذا يقول؟

استمد أبو العتاهية مفرداته من معجمه الطبيعي، واستمد الشعراء الذين ذكرناهم مفرداتهم من معاجم مستعارة. وفي هذا شيء من إبداع العتاهي، فهو لم يوسِّع على نفسه كي يخرج من مضايق الوزن والقافية باللجوء إلى الكلمات الغريبة.

كل واحد فينا له معجمه الذي يكتب منه. وقد يختار بعض الكاتبين والناظمين أن يكتب بمعجم طبيعي، ثم قد يزخرف عباراته بأن يحشد فيها التشبيهات الغريبة والمجازات، دون أن يخرج عن المفردة السهلة المأنوسة. هذا صنعه في زمننا نزار قباني. فأما أبو العتاهية فلم يلجأ حتى إلى غريب التشبيه والمجاز، ولزم البساطة وجعل يدهشك بدقة الفكرة. هذه بضع فكرات دقيقة من العتاهي: «كلما رمشت عينك مات جزء منك»، «نل كل المال، ونل كل الأمان أيضاً.. وآخر هذا كله ماذا؟ الموت»، «انظروا إلى ساكني القبور.. كأنهم لم يكونوا بشراً»، «سيكرمونك يا هذا بعد موتك فلا تحمل هماً، وغاية ما سينالك من كرم.. أن يهيلوا التراب عليك»، «الله عزيز قوي ذو جبروت.. ونعصيه.. ولكن الصفح عنده مأمول». هذه أفكار تحتوي على مفارقات، فيها معان لطاف. فإن أرفقت هذا بتلك اللغة السهلة فها هنا عبقرية أبي العتاهية. ويزداد انتباهنا لهذه العبقرية إذ نرى الرجل جعل كل شعره يدور على موضوع واحد هو الموت.

كان أبو العتاهية الفتى فقيراً منشغلاً بمعاشه، يعين أهله في بيع الجرار، ويقول الشعر ويعجب به أصحابه، وبسرعة وصل إلى الخليفة المهدي، وإلى المال. وككل من نشأ في الحاجة أمسك العتاهي، ولم ترض نفسه ببذل المال. ولو ظل يبيع الجرار لما تدفق بهذا الشعر الموتي، فهو بعد الثراء قد عدم الشغل، وقعد. قعد يفكر في الموت، قعد في عصر ازدهار لم يشهد له العرب مثيلاً. كان كأنه يعيش في حفل بهيج لا ينتهي، فبماذا يفكر؟ أيشغل نفسه بسعي لا نهاية له في التقرب إلى السلطان؟ لا، فقد نال من القرب ما يكفي وزيادة، وبائع الجرار السابق لا يريد أكثر من أن يكون جليس الخلفاء، بل لقد نال من ذلك أكثر من بغيته. أيغرق نفسه في بحيرة من الخمر كما فعل بعض معاصريه من قلقي المثقفين؟ لا، فبائع الجرار السابق ذاق لذة المجون في شبابه ولم يعجبه أن يتخذه طريقة حياة. فأين يجد بالوعة لتصريف القلق؟ لم يجد. فقعد في بيته ممتعاً بأمان من الفقر تضمنه أكياس المال، وقعد يفكر في الموت. وكلنا يفكر في الموت إن عدم التفكير في غيره.

يقول الفقير المذنب، وقد حصل له من الرزق ما وجد معه أماناً، وبنى بيتاً، وكُفيَ أمر عياله، وراح ينتظر الموت، ويراقب كل عارض يعرض لجسمه. يقول وقد ودَّع دُمَّلاً كان أطل برأسه من جلده:

قد سلَّم اللَّهُ، لا طِبٌّ ولا جزعُ ... فالآن شمِّر، فما في العمر متَّسَعُ
قد راعك الدمَّل الكذاب آونة ... يا رُبَّ دمَّلِ صدقٍ سوف يتَّبعُ
دع الهواجس واغرس كلما بزغت ... في أرض عمرك ذكرى ليس تُقتلع
أطل حياتك بالذكر الجميل فكم ... تنبهوا للصدى، والصوتَ ما سمعوا
واجعل نشاطك ترساً دون وهمك، قد ... يفجأك الموت لا وهم ولا هلع
أما إذا استل داء سيفه وأتى ... وأنت للشغل والإنجاز منقطع
فالشغل سيفك فاشهره بلا وجل ... سيف لسيف، ولا يعنيك ما يقع
نسعى، وأشغالنا تسعى بنا، شيعاً ... وكلنا في ظلام القبر نجتمع
نسعى، وخير لنا نسعى، فإن قعدت ... بنا الهموم أتانا الموت يختمعُ

حقق ديوان أبي العتاهية شكري فيصل ونشره ١٩٦٤. وكان الديوان قد نشر مراراً قبل ذلك؛ لكنْ، في طبعات هزيلة. وقد كفانا شكري فيصل مؤونة تقليب الطبعات القديمة.

١ أبيات فرائد

عَجِبْتُ لِمنْ يَموتُ وليس يبكي عـجـبـتُ لِـمَـنْ تَـجِـفُّ لـه دُمـوعُ

أعجب للإنسان الذي مصيره الموت ولا يبكي

* * *

وإذا انقضَى هَمُّ امْرِئٍ فقد انقضَى، إن الـهُـمُـومَ أَشَـدُّهُـنَّ الأَحْـدَثُ

إذا انصرف الهم فقد انصرف فعلاً حتى لو كان كبيراً، فأشد همٍّ ليس أكبر همٍّ بل أحدث الهموم عهداً

* * *

وأفضلُ الزهدِ زُهدٌ كان عن جِدَةٍ وأَفضَلُ العفوِ عَفْوٌ عندَ مَقدِرَةِ

الجدة: الثراء (أي أن يجد المرء لديه مالاً)

* * *

مَنْ لم يَكُنْ بِالكَفافِ مقتنعاً لم تَكْفِهِ الأرضُ، كلُّها ذَهَبُ

* * *

نَلْ كلَّ ما شِئْتَ وعِشْ آمِناً آخِرُ هذا كلِّه الموتُ

* * *

ولقد مَررْتُ على القبورِ فَما مَيَّزْتُ بين العبدِ والمَوْلى

المولى: السيد (والكلمة من الأضداد، وتأتي أيضاً بمعنى التابع أو العبد)

* * *

رُبَّ أمرٍ يَسُوءُ ثم يَسُرُّ وكذاكَ الأُمورُ حُلْوٌ ومُرُّ

* * *

ألم تَرَ أنَّ الفقرَ يُرجَى له الغِنَى وأن الغِنَى يُخْشَى عليهِ مِنَ الفقرِ

* * *

ما أَحمَقَ الإنسانَ في فخرِهِ وَهْوَ غداً في حُفْرَةٍ يُقْبَرُ

* * *

أمَا تَعجبونَ لِأَهلِ القبورِ كأنَّهُمُ لم يكونوا بَشَرْ

* * *

ألــيــس الــمــوتُ غــايَــتَــنــا فــأيــنَ الــخــوفُ والــحــذرُ

* * *

إنَّ الــبــخــيــلَ وإنْ أفــادَ غِــنــىً لَــتَــرى عــلــيــهِ مَــخَــايِــلَ الــفــقــرِ

مخايل: علامات

* * *

عــزمَ الــلــيــلُ والــنــهــارُ عــلــى أنْ لا يَــمَــلَّا تَــفــريــقَ كــلِّ جَــمَــاعَــةْ

* * *

ولا خيرَ فيمَنْ لا يُواسي بِفضْلِهِ ولا خيرَ فيمَنْ لا يُرى وجهُهُ طَلْقَا

وجه طلق: بشوش

* * *

سيَأْتيك يومٌ لستَ فيهِ بِمُكْرَمِ بِأكْثَرَ مِنْ حَثْوِ الترابِ عليْكَا

سيأتيك يوم يكون منتهى تكريمكَ فيه أنهم سيهيلون عليك من التراب،
فيا له من يوم ويا لها من كرامة

* * *

لم يُشْغَلِ الموتُ عنَّا مُذْ أُعِدَّ لنا وكلُّنا عنه بِاللَّذَّاتِ مَشغولُ

* * *

كــلُّ حَــيٍّ عــنــد مــيــتَــتِــهِ حَــظُّــهُ مِــنْ مَــالِــهِ الــكَــفَــنُ

* * *

وكمَا تَبْلَى وُجوهٌ في الثَّرى فكَذا يَبْلَى عَلَيْهِنَّ الحَزَنْ

* * *

كم زمانٍ بَكَيْتُ منهُ قَديمٍ ثم لمَّا مَضى بَكَيْتُ عليْهِ

* * *

ولا خيرَ فِيمَنْ لا يُوَطِّنُ نفسَهُ على نائباتِ الدهرِ حينَ تَنُوبُ

* * *

قد شابَ رأسي ورأسُ الحِرْصِ لم يَشِبِ إن الحريصَ على الدنيا لَفي تَعَبِ

* * *

شِيَمٌ فَتَّحَتْ مِنَ المَدْحِ مَا قد كان مُسْتَغْلَقاً على المُدَّاحِ

هذا الممدوح له شيم، أي صفات، فتحت للشعراء المادحين أبواباً من المدح كانت حتاذاك الوقت مغلقة دونهم

* * *

أرى الأمسَ قد فاتَني ردُّه ولستُ على ثِقَةٍ مِنْ غَدِ

* * *

ألا يا عتبةُ الساعةْ أموتُ الساعةَ الساعةْ

بيت شنعوا به على أبي العتاهية كثيراً.. قيل كان أبو العتاهية يكاثر الناس بالشعر، فيقولون له: لو أن شعرنا من مثل «ألا يا عتبة الساعة» لقلنا وأكثرنا

* * *

ما طارَ طَيْرٌ وارتَفَعْ إلَّا كما طارَ وَقَعْ

* * *

عجباً لامْرِئٍ يَذِلُّ لِمَخْلو قٍ ويَكفيهِ كلَّ يومٍ رغيفُ

* * *

يا عُتْبُ مَا لي ولَكِ يا لَيْتَني لم أَرَكِ

* * *

قال وقد ضربه المهدي لتغزله بعتبة، فأفاق ورآها تطل من سطح:

بَخٍ بَخٍ يا عُتْبُ مَنْ مِثْلُكُمْ قد قَتَلَ المَهْدِيُّ فيكُمْ قَتِيلْ

بخ بخ: هنيئاً لك. يطالبني عمران القفيني بأن أوضح هذا البيت.. حسناً ها قد شرحت البخبخة في أوله، فما عساي أضيف؟ أن أبا العتاهية رجل يتفصد شعراً، وبكلمات سهلة، وأنك إذا أردت السهل الممتنع فلا تتجاوز أبا العتاهية؟

* * *

لم يبقَ مِنِّي إلَّا القليلُ ومَا أَحْسَبُها تَتْرُكُ الذي بَقِيَا

* * *

الموتُ بين الخَلْقِ مُشتَرَكُ لا سُوقَةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ

سوقة: كلمة تطلق على كل من ليس بملك، والملك هو الشخص المتصرف في شأنه وشؤون الناس من والٍ أو أمير أو حتى خليفة، والسوقة قد يكون شاعراً أو جوهرياً يملك الملايين

٢ نتف

أَلا نحن في دارٍ قليلٍ بقاؤُها ... سريع تَداعيها وَشيكٍ فَناؤُها
غداً تَخرَبُ الدنيا ويَذهَبُ أهلُها ... جميعاً، وتُطوَى أرضُها وسماؤُها

* * *

ولقد يُكَلِّمُكَ الزمانُ بِأَلْسُنٍ ... عربيةٍ وأراكَ لستَ تُجيبُ
أَمَعَ المَماتِ يَطيبُ عيشُكَ يا أَخي ... هيهاتَ ليس مَعَ المَماتِ يَطيبُ

* * *

ما لِي مررتُ على القبورِ محيِّياً ... قَبْرَ الحبيبِ فلم يَرُدَّ جَوابي
لو كان ينطِقُ بِالجَوابِ لَقالَ لي: ... أَكَلَ الترابُ مَحاسِني وشبابي

* * *

كلُّ نَفْسٍ سَتُوَفَّى سَعيَها ... ولَها ميقَاتُ يومٍ قد وَجَبْ
جَفَّتِ الأَقلامُ مِنْ قَبلُ بِمَا ... خَتَمَ اللَّهُ علينا وكَتبْ

أي أن المكتوب على الإنسان في اللوح المحفوظ قد كتب وجفت به الإقلام فالإنسان لا يصنع شيئاً إلا المقدَّر عليه من قبل

* * *

ألا كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قريبُ ... ولِلأَرْضِ مِنْ كلِّ حَيٍّ نَصيبُ
أَراكَ لِدُنياكَ مُسْتَوْطِناً ... ألم تَدْرِ أنَّكَ فيها غريبُ

* * *

تَبْغي مِنَ الدنيا الكثيرَ وإنَّما ... يَكفيكَ منها مثلُ زادِ الرَّاكِبِ
لا يُعْجِبَنَّكَ ما تَرى فكأنَّهُ ... قد زالَ عنكَ زَوالَ أَمْسِ الذَّاهِبِ

* * *

يا نفْسُ تُوبي قبلَ أن ... لا تَستطيعي أن تَتُوبي
أمَّا الحَوادِثُ فالرِّيَا ... حُ بِهِنَّ دَائِمَةُ الهُبوبِ

* * *

نَسِيتُ الموتَ فيما قد نَسِيتُ ... كأنِّي لا أَرَى أَحداً يَمُوتُ

أَلـيـسَ الـمـوتُ غَـايَـةَ كـلِّ حَـيٍّ   فـمـا لـيِ لا أُبَـادِرُ مـا يَـفُـوتُ

بما أن الموت هو نهاية كل إنسان فلماذا لا أبادر بالصلاة وفعل الخير وهي أمور تفوت ثم لا ترجع

* * *

نَـحِـنُّ مِـنَ الـدنـيـا إلـى كـلِّ لَـذَّةٍ   ولـكِـنَّ آفَـاتِ الـزَّمـانِ كَـثـيـراتُ

وكـم مِـنْ أُنـاسٍ قـد رأيْـنَـا بِـغِـبْـطَـةٍ   ولـكِـنَّـهُـمْ مِـنْ بعـدِ غِبْطَـتِـهِـمْ مَـاتُـوا

* * *

أَلـيـس قـريـبـاً كـلُّ مـا هُـوَ آتِ   فـمـا لـيِ ومـا لِـلـشَّـكِّ والـشُّـبُـهـاتِ

أُنـافِـسُ في طـيِـبِ الـطـعـامِ، وكُـلُّـه   سـواءٌ إذا مـا جَـاوَزَ الـلَّـهَـواتِ

اللهوات: الحلوق

* * *

تَـمَنّى الـمُـنَى حتى إذا ما بلغتَـها   سَـمَـوْتَ إلـى مـا فـوقَـهـا فَـتَـمَـنَّـيْـتـا

تمنى: أي تتمنى، سموت: طمحت

وما لـكَ مِـمَّا يَـلبَـسُ النـاسُ غيرُ مَـا   كَـسَـوْتَ وإلَّا مَـا لَـبِـسْـتَ فَـأَبْـلَـيْـتـا

ليس يحسب لك من الملابس في حسناتك إلا ما كسوت به فقيراً وإلا ما لبسته أنت فأبليته.. فأما الثياب الفاخرة التي تملأ خزائنك فليست لك بل عليك

* * *

دَعَـتْـنِـي إلى الـدنـيا دَواعٍ مِـنَ الـهوى   فـأرسـلـتُ دِيـنـي مِـنْ يَـدِي وأَتـيْـتُـهـا

أرسلت ديني من يدي: تركته

أقولُ لِنفسيِ إذ شَكَتْ ضيِقَ بيتِها   كأنِّي بها في القبرِ قد ضاقَ بَيْتُها

* * *

لـيتَ شِـعـريِ وكـيـف أنـتَ مُـسَـجَّـىً   تـحـتَ رَدْمِ حَـثَـاهُ فـوقَـكَ حـاثِ

يا ترى كيف تكون وأنت ممدد تحت ردم من تراب حثاه، أي أهاله، فوقك من حثاه

لـيتَ شِـعـريِ وكـيـف أنـتَ ومَـا حَـا   لُـكَ فـيـمـا هـنـاكَ بـعـدَ ثَـلاثِ

يا ترى كيف يصبح جسمك بعد ثلاث ليال من الدفن؟

* * *

لـيـس يَـرجُـو الـلَّـهَ إلَّا خـائِـفٌ — مَنْ رَجا خَافَ، ومَنْ خَـافَ رَجَا
قَـلَّـمـا يَـنـجُـو امْـرُؤٌ مِـنْ فِـتـنـةٍ — عـجـبـاً ممَّـنْ نَـجَـا كـيـف نَـجَـا

* * *

إذا العبدُ لم يَمْدَحْهُ حسنُ فَعَالِهِ — فـليس لـه، والـحـمـدُ لـلـهِ، مَـادِحُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ لم يَصْفُ عَيْشُهُ — وما يستطيبُ العيشَ إلَّا المُسَامِحُ

* * *

أُؤَمِّـلُ أن أُخَـلَّـدَ، والـمـنـايـا — يَـثِـبْـنَ عـلـيَّ مِـنْ كـلِّ الـنَّـواحـي

يثبن: يقفزن

ومـا أدري إذا أَمْـسَـيْـتُ حـيَّـاً — لَـعَـلِّـي لا أعـيـشُ إلـى الـصـبـاحِ

* * *

إنِّـي لَأَكْـرَهُ أن تـكـو — نَ لِـفَـاجِـرٍ عـنـدي يَـدُ
فَـتَـجُـرُّ مَـحْـمَـدتـي إلَـيْـ — ـهِ ولـيـسَ مِـمَّـنْ يُـحْـمَـدُ

الفاجر: الجريء الفتاك الأناني الذي لا يراعي لأحد حرمة. وأكره أن يكون له علي يد، أي فضل، فلو حدث هذا لشكرته مضطراً وهو لا يستحق الشكر

* * *

أرى الأمـسَ قـد فـاتَـنـي رَدُّهُ — ولـسـتُ عـلـى ثِـقَـةٍ مِـنْ غَـدِ
وإنِّـي لَأَجْـرِي إلـى غـايـةٍ — وأَسـتـقـبـلُ الـمـوتَ مِـنْ مَـوْلـدي

منذ مولدي وأنا أجري نحو هدف محدد هو الموت

* * *

سـلامٌ عـلـى قـبـرِ الـنـبـيِّ مـحـمَّـدٍ — نبيِّ الـهـدى والـمـصـطـفـى والـمُـؤَيَّـدِ
وكـان رسـولُ الـلَّـهِ أفـضـلَ مَـنْ مَـشَـى — عـلـى الأرضِ إلَّا أنـه لـم يُـخَـلَّـدِ

* * *

هَـوِّنْ عـلـيـكَ فـلـيـس كـلُّ الـ — ـنـاسِ يُـعْـطَـى مـا يَـوَدُّ
إن كـان لا يُـغْـنِـيـكَ مـا — يَـكْـفِـيـكَ مـا لِـغِـنـاكَ حَـدُّ

* * *

يـا أَيُّـهـذا الـذي سـتَـنْـقُـلُـهُ الـ — أَيَّـامُ عـن أهـلِـهِ وعـن وَلَـدِهْ

ما ارتَدَّ طَرْفُ امْرِئٍ بِلحظَتِهِ إلَّا وشيءٌ يَموتُ مِنْ جَسَدِهْ

ما طرفت عين الإنسان إلا تغير جسمه تغيراً يقربه من الموت

* * *

يا عجباً لي أقمتُ في وطنٍ ساكِنُهُ كلُّهُمْ على سَفَرِ

ساكنه: سكانه

يا سَاكني بَاطِنِ القُبورِ أَما لِلوارِدينَ القُبورَ مِنْ صَدَرِ

أليس لواردي القبور من صَدَر، أي من عودة

* * *

طلبتُ المُستَقَرَّ بِكلِّ أرضٍ فلم أرَ لي بِأرضٍ مُستَقَرَّا

أَطَعْتُ مَطامِعي فاسْتَعْبَدَتْني ولو أنِّي قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُرَّا

* * *

لو عَقَلْنا إذِ النَّهارُ يَسوقُ الـ ـليْلَ، والليلُ إذْ يسوقُ النَّهارا

لَرأيْناهُما بِمَرٍّ حَثيثٍ يَطويانِ الأعمارَ والآثارا

بمر: بمرور، الآثار: ما يخلفه الإنسان من بيوت ومتاع

* * *

ليتَ شِعري فإنني لستُ أَدْري أيُّ يومٍ يكونُ آخِرَ عُمْري

وبِأيِّ البلادِ تُقبَضُ رُوحي وبِأيِّ البِقاعِ يُحْفَرُ قبري

* * *

أُمَمٌ مَزروعَةٌ مَحصُودَةٌ كلُّ مَزروعٍ فَلِلْحَصْدِ زُرِعْ

إنَّما الدنيا على ما جُبِلَتْ جيفَةٌ نحنَ عليها نَصْطَرِعْ

* * *

يا جَامِعَ المالِ في الدنيا لِوارِثِهِ هل أنت بِالمالِ بعد الموتِ تَنْتَفِعُ

لا تُمسِكِ المالَ واسْتَرْضِ الإلَهَ به فإنَّ حَسْبَكَ منه الرِّيُّ والشِّبَعُ

* * *

كلٌّ يُحاوِلُ حِيلةً يرجُو بها دَفْعَ المَضَرَّةِ واجتِلابَ المنفعَةْ

والــمـرءُ لا يــأتــيـــهِ إلَّا رِزْقُــهُ فـاقْـنـعْ بـمـا يـأتـيـكَ مـنـهُ فـي دَعَـةْ

* * *

مـا كلُّ رأيِ الفتَى يدعُو إلى رَشَدٍ إذا بـدا لَـكَ رأيٌ مُـشْـكِـلٌ فَـقِـفِ
لـلَّـهِ أهـلُ قُـبـورٍ كـنـتُ أعـهـدُهُـمْ أهلَ القِبابِ الرُّخَامِيَّاتِ والغُرَفِ

* * *

لا تُــكْــذَبَــنَّ، فــإنَّـــهُ مَــنْ يَـجـتـمِـعْ يَـتَـفَـرَّقِ
لا تُكذبن: لا تدع أحداً يكذب عليك..

والـمـوتُ غـايـةُ مَـنْ مـضَـى مِـنَّـا، ومـوعـدُ مَـنْ بَـقـي

* * *

إذا اعتَصَمَ المخلوقُ مِنْ فِتَنِ الهوى بِـخـالـقِـهِ نَـجَّـاهُ مِـنْـهُـنَّ خـالِـقُـهْ
ومَنْ هـانَـتِ الـدنـيـا عـلـيه فإنـنِـي لـه ضَـامِـنٌ ألَّا تُـذَمَّ خَـلائِـقُـهْ

* * *

أصـبـحـتُ والـلَّـهِ فـي مَـضـيـقِ فـهـل سـبـيـلٌ إلـى طـريـقِ
أفٍّ لِـدُنـيـا تَـلاعـبَـتْ بـي تَـلاعُـبَ الـمـوجِ بِـالـغَـريـقِ

* * *

خـيـرُ أيَّـامِـكَ إنْ كـنـتَ تَـدرِي يومَ تُغْشَى يُرْتَجَى الخيرُ مِنْكَا
أحسن أيامك يوم تؤتى ويرجى منك المعروف

اِغْـتَـنِـمْ حـاجَـاً لِـراجيـكَ فـيـهـا قـبـلَ أنْ يُـغْـنِـيَـهُ الـلَّـهُ عـنْـكـا
اغتنم حاجة لمن يرجوك فيها، فبعد حين قد يصبح مستغنياً عنك وتضيع فرصة فوزك بالإحسان إليه.. الإحسان للغير مغنم لا مغرم

* * *

إذا كنتَ تَبغِي البِرَّ فاكْفُفْ عنِ الأَذَى ومـا الـبِـرُّ إلَّا أن تَـكُـفَّ أذاكـا
أخوكَ الذي مِنْ نفسِهِ لَكَ مُنْصِفٌ إذا المَرْءُ لم يُنصِفْكَ ليس أَخاكا

* * *

إنَّ أخـاكَ الـصِّدْقَ مَـنْ كـانَ مَـعَـكْ ومَـنْ يَـضُـرُّ نـفـسَـهُ لِـيـنـفـعَـكْ
الصدق: الحقيقي

ومَـنْ إذا رَيْـبُ الـزمـانِ صَـدَعَـكْ   شَـتَّـتَ فـيـهِ شَـمْـلَـهُ لِـيـجـمَـعـكْ

* * *

مـا اختَـلَـفَ الـلـيـلُ والـنـهـارُ، ولا   دارتْ نـجـومُ الـسـمـاءِ في الـفَـلَـكِ
إلَّا لِـنَـقْـلِ الـسـلـطـانِ عـنْ مَـلِـكٍ،   قـد انـقَـضَـى مُـلْـكُـهُ، إلـى مَـلِـكِ

* * *

ما أقرَبَ الموتَ مِنْ أهلِ الحياةِ، ومَا   أَحْجَى اللبيبَ بِحُسْنِ القولِ والعملِ

ما أحجى: ما أجدر

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا   وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بِالرجلِ

* * *

أرى الـمَـقَـاديِرَ تَـعـمَـلُ الـعـمَـلا   والـمـرءُ مـا عـاشَ آمِـلٌ أمَـلا
كـلٌّ لـهُ عِـلَّـةٌ يَـفُـوهُ بِـهـا   سبـحـانَ رَبِّـي مـا أكـثـرَ الـعِـلَـلا

علة: حجة يتحجج بها المرء لتجنب ما يريد تجنبه من عمل

* * *

الـلَّـهُ أَكـرمُ مَـنْ رَجَـوْتَ نَـوالَـهُ   والـلَّـهُ أعـظـمُ مَـنْ يُـنـيِـلُ نَـوالا
مَـلِـكٌ تَـواضَـعَـتِ الـمُـلـوكُ لِـعِـزِّهِ   وجَـلالِـه، سـبـحـانَـه وتَـعَـالـى

* * *

يـا رُبَّ شَـهـوةِ سـاعـةٍ قـد أَعْـقَـبَـتْ   مَـنْ نَـالَـهـا حُـزنـاً هـنـاكَ طَـويـلا

أعقبته حزناً: سببت له حزناً

فـإذا دَعَـتْـكَ إلـى الـخَـطيـئـةِ شَـهـوةٌ   فاجعلْ لِطَرْفِكَ في السماءِ سبيلا

طرفك: نظرك

* * *

أَجَلَّكَ قومٌ حين صِرْتَ إلى الغِنَى   وكـلُّ غَـنِـيٍّ فـي الـعـيـونِ جـلـيـلُ
إذا مالَـتِ الـدنيا إلى المرْءِ رُغِّبَتْ   إلـيـه، ومَـال الـنـاسُ حـيـثُ يَـمـيـلُ

إذا مالت الدنيا إلى أحدهم رغب فيها، ومال الناس معه

* * *

خليليَّ ما الدنيا بدارِ فُكَاهَةٍ ولا دارِ لَذَّاتٍ لِمَنْ صَحَّ عقْلُهُ
ولِلحَقِّ أَهْلٌ ليس تَخْفَى وجُوهُهُمْ يَخِفُّ عليْهِمْ حيثُما كان حَمْلُهُ

حمله: أي حمل الحق

* * *

وإذا ما الفقيرُ قَنَّعَهُ اللَّـ ـهُ فَسِيَّانَ بُؤْسُهُ والنَّعِيمُ

قنعه الله: جعله قنوعاً

إنَّما الناسُ كالبَهائِمِ في الرِّزْ قِ سَواءٌ جَهولُهُمْ والعَلِيمُ

* * *

ألا إِنما التَّقْوى هِيَ العِزُّ والكَرَمْ فَحُبُّكَ للدنيا هُوَ الذُّلُّ والعَدَمْ

العدم: الفقر

وليس على عبدٍ تَقِيٍّ نَقيصَةٌ، إذا صَحَّحَ التَّقْوَى، وإن حَاكَ أو حَجَمْ

لا انتقاص من شأن التقي الذي تصح تقواه حتى وإن اشتغل حائكاً، خياطاً، أو حجَّاماً، يحلق للناس ويعالجهم بفصد الدم

* * *

وشَرُّ الأَخلَّاءِ مَنْ لم يَزَلْ يُعاتِبُ طَوراً وطَوراً يَذُمّ
يُريكَ النصيحةَ عند اللقاءِ ويَبريكَ في السِّرِّ بَرْيَ القَلَمْ

* * *

نحنُ في دارٍ يُخَبِّرُنا عن بِلاها نَاطِقٌ لَسِنُ

بلاها: خرابها

دارُ سَوْءٍ لم يَدُمْ فَرَحٌ لامْرِئٍ فيها ولا حَزَنُ

* * *

كم مِنْ أَخٍ لَكَ نالَ سُلْطانا فَكَأَنَّهُ ليس الذي كانا
ما أسكَرَ الدنيا لِصاحِبِها وأَضَرَّها لِلعقلِ أحيانا

* * *

كل امْرِئٍ فَكَما يَدينُ يُدانُ سبحانَ مَنْ لم يَخْلُ مِنْهُ مَكانُ
مَلِكٌ عَزيزٌ لا يُفارِقُ عِزَّهُ يُعْصَى، ويُرْجَى عندَه الغُفْرانُ

* * *

يـا رَبِّ أنـتَ خـلـقْـتـنـي   وخَـلَـقْـتَ لـي، وخَـلـقْـتَ مِـنِّـي

خلقتني، وخلقت لي رزقاً، وخلقت من صلبي أبناء

مـا لـي بِـشُـكْـرِكَ طـاقـةٌ   يـا سـيِّـدي إن لـم تُـعِـنِّـي

يطلب من الله أن يعينه على أداء واجب الشكر

* * *

وما الناسُ إلَّا مِنْ مُسِيءٍ ومُحْسِنٍ   وكم مِنْ مُسِيءٍ قد تَلافَى فَأَحْسَنا

تلافى: أي تلافى إساءته وتداركها

أليسَ إذا هَانَتْ على المَرْءِ نفسُه   ولم يَرْعَها كانتْ على الناسِ أَهْوَنا

* * *

أَفَقِهْتَ عن عِبَرِ الزمانِ صِفاتِها   هَيْهاتَ، لَسْتُ أَراكَ عنها تَفْقَهُ

إن القلوبَ إذا طَوَتْ أَسرارَها   أَبْدَتْ لكَ الأسرارَ منها الأَوْجُهُ

* * *

أَغْضِ عن المَرءِ وعَمَّا لَدَيْهِ   أَخُوكَ مَنْ وَفَّرْتَ ما في يَدَيْهِ

أغض، أي اصرف النظر، عن المال الذي عند صاحبك، فإذا وفرت عليه ماله فأنت أخوه الصديق الصدوق

مَنْ ظَنَّ بي الرغبَةَ في شيئِهِ   بَاعَدَني مِنْهُ دُنُوِّي إِلَيْهِ

* * *

ما أَذَلَّ المُقِلَّ في أَعيُنِ النا   سِ لإقلالِهِ، ومَا أَقْمَاهُ

المقل: الفقير، أقماه: أقمأه وأحقره

إنَّما تنظُرُ العيونُ مِنَ النا   سِ إلى مَنْ تَرجُوهُ أو تَخْشَاهُ

* * *

يا وَاعِظَ الناسِ قد أصبحتَ مُتَّهَماً   إذْ عِبْتَ منهُمْ أُموراً أنتَ تَأْتِيها

وأَعظَمُ الإثمِ بعد الشِّرْكِ نَعْلَمُه   في كلِّ نَفْسٍ عَمَاها عن مَسَاوِيها

* * *

عِلْمي بِأَنِّي أذوقُ الموتَ نَغَّصَ لي   طِيبَ الحَياةِ فما تَصْفُو الحياةُ لِيا

يَبْلَى معَ المَيْتِ ذِكْرُ الذَّاكِرينَ لهُ مَنْ غابَ غَيْبَةَ مَنْ لا يُرْتَجَى نُسِيا

* * *

لَأَبْكِيَنَّ على نفسي وحُقَّ لِيَهْ يا عينُ لا تَبخَلي عَنِّي بِعَبْرَتِيَهْ
لَأَبْكِيَنَّ لِفِقْدانِ الشبابِ وقد نَادى المَشيبُ عن الدنيا بِرِحْلَتِيَهْ

نادى المشيب بدنو رحلتي، أي ارتحالي، عن الدنيا

* * *

يمدح يزيد بن مزيد:

وإنَّ أميرَ المُؤمنينَ وغيرَه لَيَعلَمُ في الهيجاءِ فضلَ غَنائِكا

الهيجاء: الحرب، غنائك: قيامك بالمطلوب

كأنَّكَ عندَ الكَرِّ في الحربِ إنَّما تَفِرُّ مِنَ السِّلْمِ الذي مِنْ وَرائِكا

* * *

يمدح الرشيد:

خيرُ مَنْ يُرجَى ومَنْ يَهَبُ مَلِكٌ دانَتْ له العَرَبُ
وحَقيقٌ أن يُدَانَ له مَنْ أَبُوهُ لِلنَّبِيِّ أَبُ

أبو الرشيد، أي جده الأعلى، العباس عم النبي، والعمومة كالأبوة

* * *

يقولُ أُناسٌ لو نَعَتَّ لنا الهوى ووالله لا أدري لهُمْ كيف أَنعَتُ
إذا اشتَدَّ ما بي كانَ أفضلُ حيلَتي له وَضْعَ كَفِّي فوق خَدِّي وأَسْكُتُ

* * *

اللَّهُ بَيْني وبينَ مَوْلاتي أَبدَتْ لِيَ الصَّدَّ والمَلالاتِ
لا تغفِرُ الذنبَ إن أسأتُ ولا تقبلُ عُذْري ولا مُؤَاتاتي

* * *

يهجو يزيد بن معن:

بَنَى مَعْنٌ ويَهْدِمُهُ يَزِيدُ كذاكَ اللَّهُ يفعلُ ما يُريدُ

معن بن زائدة من مشاهير الأسخياء الشجعان وقد بنى مجداً، ويقول الشاعر إن ابنه يزيد يهدم هذا المجد. وقد هجا أبو العتاهية أخا يزيد هذا بهجاء مر (القطع ٩٣، و٩٥، و٩٦)

فـمـعـنٌ كـان لِـلـحُـسَّـادِ غَـمَّـاً   وهـذا قـد يُـسَـرُّ بِـهِ الـحَـسُـودُ

* * *

قال وقد أهدى إلى الفضل بن الربيع نعلاً:

نـعـلٌ بَـعـثـتُ بِـهـا لِـتَـلْـبَـسَـهـا   تَـسْـعـى بـهـا قَـدمٌ إلـى الـمـجـدِ

لـو كـان يـصـلُـحُ أن أُشَـرِّكَـهـا   خَـدِّي جَـعَـلْـتُ شِـراكَـهـا خَـدِّي

لو نفع أن أصنع من خدي شراكاً لنعلك، والشراك سير من جلد على ظهر النعل يمسك بالقدم، لفعلت. بيت أعجب القدماء فرأيت أن أختاره كي يرى القارئ الطبيعة الكسروية للحكم في هذا العصر، هذا التذلل للحاكم الذي لم يكن موجوداً في عصر بني أمية، فتسرب إلى دولة بني العباس بالاتصال بالفرس. قبض الشاعر على البيتين عشرة آلاف درهم

* * *

الشيبُ كُرْهٌ، وكُرْهٌ أن يُفَارِقَني   أَعجِبْ بِشيءٍ على البغضاءِ مَوْدُودِ

يَمضي الشبابُ وقد يَأتِي له خَلَفٌ   والشيبُ يَذهبُ مَفقوداً بِمفقودِ

* * *

ولـئـن نـدمـتَ عـلـى سكـوتِـكَ مرةً   فـلـقـد نـدمـتَ عـلـى الـكـلامِ مِرارا

إن الـسـكـوتَ سَـلامَـةٌ ولـرُبَّـمـا   زَرَعَ الـكـلامُ عـداوةً وضِـرارا

* * *

وقال يخاطب الشاعر سَلْماً الخاسر، وقد حج العتاهي وكانت محبوبتُه عتبة حاجَّةً:

والـلَّـهِ والـلَّـهِ مـا أُبـالـي مـتـى   مـا مُـتُّ يـا سَـلْـمُ بـعـدَ ذا الـسَّـفَـرِ

أَلَيْسَ قد طُفْتُ حيثُ طَافَتْ وقبَّـ   ـلْتُ الـذي قَـبَّـلَـتْ مِـنَ الـحَـجَـرِ

* * *

يا خَاضِبَ الشيْبِ بالحِنَّاءِ تستُرُهُ   سَلِ الـمَـلِيكَ لـه سَـتْـراً مِـنَ الـنَّـارِ

لن يَرْحَلَ الشيبُ عن دارٍ يَحِلُّ بها   حتى يُرَحِّلَ عنها صاحبَ الدارِ

* * *

كـأنَّ عَـتَّـابَـةَ مِـنْ حُـسْـنِـهـا   دُمْـيَـةُ قَـسٍّ فَـتَـنَـتْ قَـسَّـهـا

عتابة هي محبوبته عتبة، وكأنها تمثال من تماثيل النصارى لحسنها، وقد فتن بها القس

يـا رَبِّ لـو أَنْـسَـيْـتَـنِـيـهـا بِـمـا   فـي جَـنَّـةِ الـفِـرْدَوْسِ لـم أَنْـسَـهـا

* * *

قال في السحاقيات:

لَـعَـنَ الإلـهُ سَـواحِـقَ الـرأسِ فـلـقـد فـضَـحْـنَ حَـرائِـرَ الإنْـسِ
أَبْـدَيْـنَ حَـربـاً لا طِـعَـانَ بِـهـا إلّا اتّــقَـاءُ الـتُّـرْسِ بِـالـتُّـرْسِ

* * *

اِلبَسْ جميعَ الناسِ محتَمِلاً لِلعالَمينَ، وكنْ لَهُمْ أَرْضَا

البس الناس: تحملهم، مثلما تتحمل الأرض كل شيء، فكل شيء وقع على الأرض لا وقوع له من بعد

فلئنْ غضِبْتَ لِكلِّ حادثةٍ تُرمَى بِها، فَلَقلَّما تَرضَى

* * *

كتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف:

أبا جعفَرٍ هلَّا اقتَطَعْتَ مَودَّتي فكنتَ مُصيباً فيَّ أجراً ومَصْنَعا

هلا قبلت مودتي إقطاعاً لك، أي منحة، ولك في هذا أجر ومصنع، أي معروف تصطنعه

فكمْ صَاحِبٍ قد جَلَّ عن قَدْرِ صاحبٍ فألقَى له الأَسْبابَ فارتَفَعا مَعَا

الأسباب: الحبال. يقول له اربطني بك فنرتفع معاً

* * *

قال للرشيد وقد ألزمه بقول الغزل وترك النسك:

يا ابنَ عَمِّ النبيِّ سمْعاً وطاعةْ قد خَلَعْنا الكِساءَ والدُّرَّاعَةْ

الدراعة: كساء الزهاد

ورجعْنا إلى الصِّناعَةِ لَمَّا كان سُخْطَ الإمامِ تَرْكُ الصِّناعَةْ

الصناعة: قول الشعر

* * *

قال في عتبة:

كأنَّها مِنْ حُسْنِها دُرَّةٌ أخرَجَها اليَمُّ إلى السَّاحِلِ
كأنَّ في فِيها وفي طَرْفِها سَواحِراً أَقْبَلْنَ مِنْ بَابِلِ

سواحر: جمع ساحرة. أي أن كلامها ساحر، وعينيها ساحرتان

* * *

قال في أبي جعفر أحمد بن يوسف:

فِي عِدادِ المَوتَى وفي سَاكنِي الدنـ ـيا أبو جعفرٍ أخِي وخَليلي
لم يَمُتْ ميتَةَ الوفَاةِ، ولكنْ ماتَ عن كلِّ صَالِحٍ وجَليلِ

* * *

حجبه عمرو بن مَسعدة مراراً، ثم طلبه، فلم يجبه أبو العتاهية، وقال:

كسَّلَني اليأسُ مِنْكَ عنكَ، فمَا أَرْفَعُ طَرْفِي إليكَ مِنْ كَسَلِ
إنِّي إذا لم يَكُنْ أخي ثِقَةً قَطَّعْتُ منهُ حبائِلَ الأملِ

* * *

قال في أبي جعفر أحمد بن يوسف، وقد حجبه بدعوى أنه نائم:

لَئِنْ عُدتُ بعدَ اليومِ إني لَظالمٌ سَأَصْرِفُ نفسي حيثُ تُبْغَى المَكارِمُ
متى يَظْفَرُ الغَادي إليكَ بِحاجَةٍ ونصفُكَ محجوبٌ ونصفُكَ نائمُ

* * *

قال يرثي حُميد بن عبد الحميد الطوسي:

أبا غانمٍ أمَّا ذَرَاكَ فواسِعٌ وقَبْرُكَ معمورُ الجوانِبِ مُحْكَمُ

ذراك: ساحتك وكنفك

وما ينفعُ المقبورَ عُمْرانُ قَبْرِهِ إذا كان فيهِ جِسْمُهُ يَتَهَدَّمُ

* * *

من لم يَذُقْ لِصَبابَةٍ طَعْمَا فلقد أَحَطْتُ بِطَعْمِها عِلْما
يا عُتْبُ مَا أنَا عن صنيعِكِ بي أَعْمَى، ولكنَّ الهوى أَعْمَى

* * *

تلاعَبْتِ بي يا عُتْبُ ثم حَمَلْتِني على مَرْكَبٍ بين المنيَّةِ والسُّقْمِ
يُصابُ فؤادي حينَ أُرْمَى ورَمْيَتي تَعودُ إلى نَحري ويَسلمُ مَنْ أَرمي

* * *

يا خَاطِبَ الدنيا إلى نفسِها تَنَحَّ عن خِطبَتِها تسلَمِ
إنَّ التي تَخْطِبُ غَرَّارةٌ قريبةُ العُرْسِ مِنَ المَأْتَمِ

* * *

كان المأمون يرسل إليه كل سنة دراهم ودنانير جدداً، ثم أخلفه سنة، فقال:

خَبَّروني أنَّ مِنْ ضَرْبِ السَّنَةْ جُدُداً بِيضاً وصُفْراً حَسَنَةْ
أُحْدِثَتْ لكنَّني لم أَرَها مِثْلَما كنتُ أرى كلَّ سَنَةْ

ووصل الشعر إلى المأمون فعجل بإرسال المال

* * *

يا خَليلَيَّ مِنْ بني شيبانِ أنا لا شكَّ مَيِّتٌ فابْكِيَاني
إن روحي لم يبقَ منها سوى شي ءٍ يَسيرٍ معلَّقٍ بِلِسَاني

* * *

عِزَّةُ الحبِّ أَرَتْهُ ذِلَّتي في هَواهُ ولَهُ وجهٌ حَسَنْ
ولِهذا صِرْتُ مَمْلُوكاً له ولهذا شاعَ ما بي، وعَلَنْ

* * *

يا مَنْ تَبَغَّى زَمَناً صالِحاً صلاحُ هارونَ صلاحُ الزَّمَنْ
كلُّ لِسانٍ هُوَ في مُلْكِهِ بِالشكرِ في إِحسَانِهِ مُرْتَهَنْ

* * *

هَزَزْتُكَ لا أَنِّي وجدتُكَ نَاسِياً لِوَعْدٍ ولا أَنِّي أردْتُ التَّقاضِيا

هززتك: أي دعوتك للعطاء محركاً فيك الأريحية

ولكنْ وَجَدْتُ السيفَ عند انتضائِهِ إلى الهَزِّ مُحتاجاً وإن كان مَاضِيا

* * *

ما لِي أَرَى الأَبصارَ بي جَافِيَةْ لم تلتفِتْ مِنِّي إلى نَاحِيَةْ
لا ينظرُ الناسُ إلى المُبْتَلَى وإنَّما الناسُ مَعَ العَافِيَةْ

٣ سؤال اللحية

أراكَ وكُلما أغلقتَ باباً مِنَ الدنيا فتحتَ عليكَ بابا
ألم تَرَ أن كلَّ صباحِ يومٍ يَزيدُكَ مِنْ مَنِيَّتِكَ اقترابا
ومَا مِنْكَ الشبابُ ولستَ مِنْهُ إذا سألَتْكَ لِحْيَتُكَ الخِضَابا

سألتك: طلبت منك، الخضاب: الصبغ

٤ بعد مسير خمسين

إذا ما خَلَوْتَ، الدَّهرَ، يوماً فلا تقلْ خَلَوْتُ، ولكنْ قلْ عَلَيَّ رقيبُ

ولا تَحسَبَنَّ اللَّهَ يُغفِلُ ما مَضَى ولا أن ما يَخْفَى، عليهِ يَغيبُ

إذا ما مَضَى القَرنُ الذي كنتَ فيهِمُ وخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فأنتَ غَريبُ

القرن: الجيل

وإنَّ امْرَأً قد سارَ خَمسينَ حِجَّةً إلى مَنهلٍ، مِنْ وِرْدِهِ لَقَريبُ

المنهل: موضع الماء، الوِرد: الورود والإتيان

٥ الواثبون

لكلِّ أَمْرٍ جَرى فيه القضَا سَبَبُ والدهرُ فيهِ وفي تَصريفِهِ عَجَبُ

ما الناسُ إلَّا معَ الدنيا وصاحبِها فكيفَما انْقلَبَتْ يوماً به انْقَلَبُوا

يُعَظِّمُونَ أخا الدنيا، وإن وَثَبَتْ يوماً عليه بما لا يشتهي وَثَبُوا

٦ لا غنيمة ولا إياب

ألا لِلَّهِ أنتَ متَى تَتوبُ وقد صَبَغَتْ ذوائِبَكَ الخُطوبُ

ذوائبك: خصلات شعرك.. صبغتها المصائب باللون الأبيض، الشيب

لَعَمْرُكَ ما تَهُبُّ الريحُ إلَّا نَعاكَ مُصَرِّحاً ذاكَ الهُبوبُ

أراكَ تَغيبُ ثم تَؤُوبُ يوماً ويوشِكُ أن تَغيبَ ولا تَؤُوبُ

٧ ألا ليت الشباب..

بكيتُ على الشبابِ بِدمعِ عيْني فلم يُغْنِ البكاءُ ولا النَّحيبُ

فيَا أسَفَا أَسِفْتُ على شبابٍ نَعاهُ الشيبُ والرأسُ الخَضيبُ

عَرِيتُ مِنَ الشبابِ، وكان غَضّاً كما يَعْرَى مِنَ الوَرَقِ القَضيبُ

غضّ: طري

فيا ليتَ الشبابَ يَعودُ يوماً فأُخْبِرَهُ بما فعلَ المشيبُ

٨ الهجوم الثاني

لِدُوا لِلموتِ، وابنُوا لِلخرابِ فكُلُّكُمُ يَصيرُ إلى تَبابِ

لدوا: أنجبوا الأولاد، تباب: هلاك

لِمنْ نَبْني ونحن إلى ترابٍ نَصيرُ كما خُلِقنا مِنْ تُرابِ

ألا يا مَوْتُ لم أَرَ منكَ بُدّاً أَبَيْتَ فلا تَحيفُ ولا تُحابي

تحيف: تظلم، تحابي: تخص المرء بأكثر مما يستحق

كَأنَّكَ قد هجمْتَ على مَشيبي كما هجمَ المشيبُ على شبابي

٩ الحفر المستَّرة

ما لِلمقابِرِ لا تُجيـ ـبُ إذا دَعَاهُنَّ الكَئيبُ

حُفَرٌ مُسَتَّرةٌ عَلَيْـ ـهِنَّ الجَنادِلُ والكَثيبُ

الجنادل: الصخور، الكثيب: كوم الرمل

فيهِنَّ وِلْدانٌ وأَطْـ ـفالٌ وشُبَّانٌ وشِيبُ

كم مِنْ حبيبٍ لم تكنْ نَفسي بِفُرقَتِهِ تَطيبُ

غَادرْتُهُ في بَعْضِهِنَّ ـ مُجَدَّلاً وَهُوَ الحَبيبُ

مجدلاً: مطروحاً صريعاً

وسَلَوْتُ عنه، وإنَّما عهدي بِرُؤْيَتِهِ قَريبُ

١٠ انبتات الصلات

ولم أَرَ فضلاً تَمَّ إلّا بِشيمَةٍ ولم أَرَ عقلاً صَحَّ إلّا على أَدَبْ

شيمة: خلق

ولم أَرَ في الأعداءِ حين خَبَرْتُهُمْ عَدُوّاً لِعَقْلِ المرءِ أَعْدَى مِنَ الغضبْ

ولم أَرَ بين اليُسْرِ والعُسْرِ خِلْطَةً ولم أَرَ بين الحَيِّ والمَيْتِ مِنْ سَبَبْ

١١ الطالب والمطلوب

المرءُ يَطلُبُ والمنِيَّةُ تطلُبُهْ ويدُ الزمانِ تُديرُهُ وتُقلِّبُهْ

ليس الحريصُ بِزائِدٍ في رزقِهِ اللّهُ يَقسِمُه له ويُسَبِّبُهْ

اَلـمـوتُ حَـوْضٌ لا مَـحَـالَـةَ دُونَـه   مُـرٌّ مَـذاقَـتُـهُ كَـريـهٌ مَـشْـرَبُـهْ
وتَرى الفَتى سَلِسَ الحَديثِ بِذِكْرِهِ   وَسْـطَ الـنَّـدِيِّ كَـأَنَّـهُ لا يَـرْهَـبُـهْ

النديّ: المجلس

مَنْ كـانـتِ الـدنـيا مِـنَ اكبَـرِ هَـمِّهِ   نَصَبَتْ له مِنْ حبِّها ما يُتْعِبُهْ
فاصبِرْ على الدنيا وطولِ غُمومِها   ما كلُّ مَنْ فيها يَرى ما يُعْجِبُهْ
مـا زالـتِ الأيـامُ تَـلـعـبُ بِـالـفَـتـى   طَـوْراً تُـخَـوِّلُـهُ وطَـوْراً تَـسْـلُـبُـهْ

تخوله: تمنحه الخَوَل أي الخَدَم

مَنْ لـم يَزَلْ مُتَعَجِّباً مِنْ كُلِّ مَا   تَـأتِـي بـهِ الأيـامُ طـالَ تَـعَـجُّـبُـهْ

١٢ لا مفرّ

نُنافِسُ في الدنيا ونحن نَعيبُها   لقد حَذَّرَتْنَاها لَعَمْري خُطوبُها

نتنافس على خيرات الدنيا مع أننا نلعنها، وقد حذرتنا منها مصائبها

أَيَا هَادِمَ اللَّذَّاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ   تُحَاذِرُ نَفسي منكَ ما سَيُصيبُها

هادم اللذات: الموت

كأنّي بِرَهْطي يَحمِلونَ جِنازتي   إلى حُفْرَةٍ يُحْثَى عليَّ كَثيبُها

يحثَى: يهال، والكثيب: الرمل

فكم ثَمَّ مِنْ مُسْتَرْجِعٍ مُتَوَجِّعٍ   وبَاكِيَةٍ يَعْلُو عليَّ نَحيبُها

مسترجع: قائل «إنا لله وإنا إليه راجعون»

ودَاعِيَةٍ حَرَّى تُنادي وإنّني   لَفي غَفْلَةٍ عن صوتِها ما أُجيبُها
رأَيْتُ المنايا فَرَّقَتْ بين أَنْفُسٍ،   ونَفسي سَيأْتي بَعْدَهُنَّ نَصيبُها

١٣ هذا إن ثبت

نحن في دارِ بَلاءٍ وأَذًى   وشَقَاءٍ وعَنَاءٍ وعَنَتْ

العنت: العناء

مَنزِلٍ ما يَثْبُتُ المرءُ بِهِ   سالماً إلّا قليلاً. . إنْ ثَبَتْ
بينما الإنسانُ في الدنيا لَهُ   حركاتٌ مُسْرِعَاتٌ. . إذْ خَفَتْ

١٤ قلة الأصدقاء

أُحِبُّ مِنَ الإِخْوَانِ كُلَّ مُؤَاتِ ... وفيٍّ يَغُضُّ الطَّرْفَ عن عَثَراتي

مؤات: موافق

يُوافِقُني في كلِّ خيرٍ أُريدُهُ ... ويحفَظُني حيّاً وبعدَ وَفَاتي

تَصَفَّحْتُ إخواني فكانَ أقلُّهُمْ ـ ... على كَثْرَةِ الإِخْوَانِ ـ أَهْلَ ثِقَاتِ

١٥ كان فمات

إيتِ القُبورَ فَنَادِها أَصْواتَا ... فإذا أَجَبْنَ فَسائِلِ الأَمْوَاتَا:

أين الملوكُ بَنُو الملوكِ؟ وكلُّهُمْ ... أَمْسَى وأصبحَ في التراب رُفَاتَا

كم مِنْ أبٍ وأبي أَبٍ لَكَ بينَ أَطْـ ... ـبَاقِ الثَّرَى، قد قيلَ كانَ فَمَاتَا

١٦ المَكارِه والسرور

كم مِنْ مُؤَخِّرِ غَايَةٍ قد أَمْكَنَتْ ... لِغَدٍ، وليس غَدٌ له بِمُؤَاتِ

مؤات: موافق

حتى إذا فاتتْ وفاتَ طِلابُها ... ذهبتْ عليها نفسُه حَسَراتِ

تأتي المَكارِهُ حين تأتي جُمْلَةً ... وأرى السُّرورَ يجيءُ في الفَلَتَاتِ

١٧ المتزاهد

أَلا مَنْ لِنفسٍ في الهوى قد تَمادَتِ ... إذا قلتُ قد مالتْ عن الجهلِ عَادَتِ

تَزاهَدْتُ في الدنيا وإنِّي لَراغِبٌ ... أرى رغبتي ممزوجَةً بِزَهادَتي

تزاهدت: تظاهرت بالزهد

وعَوَّدْتُ نفسي عادةً فَلَزِمْتُها ... أراهُ عظيماً أن أفارقَ عَادتي

١٨ انصراف العوائد

عِشْ ما بَدا لَكَ أن تعيشَ بِغِبْطَةٍ ... ما أقربَ المَحْيا الطويلَ مِنَ المماتِ

أينَ الملوكُ ذوو المنابرِ والدسا ... كرِ والعساكرِ والقصورِ المُشْرفاتِ

الدساكر: العِزَب، القرى الصغيرة بما فيها من أقنان، المشرفات: العاليات

هل فيكُمُ مِنْ مُخْبِرٍ حيث استقرَّ ـ قـرارُ أَرواحِ الـعِـظـامِ الـبـالِـيـاتِ؟

هل من يخبرني أين استقرت الأرواح التي كانت تلازم الناس بعد موتهم واهتراء عظامهم؟

فَلَقَلَّـمـا لَبِثَ الـعَـوائدُ بَعـدَكُـمْ ولَقَلَّـمـا ذرفتْ عيونُ الـبـاكيـاتِ

بعد موتكم لا تمكث العوائد، زائرات المريض، إلا قليلاً، والبكاء عليكم يكون قليلاً

١٩ لا انفلات

أنسـاكَ مَـحْـيَـاكَ الـمَـمـاتـا فـطـلـبـتَ فـي الـدنـيـا الـثَّـبـاتـا

يـا مَـنْ رأى أَبَـوَيْـهِ، فـيــ ـمـا قـد رأى، كـانَـا فَـمَـاتـا

هــل فـيـهِـمـا لَـكَ عِـبـرةٌ أم خِـلْـتَ أنَّ لَـكَ انْـفِـلاتـا

٢٠ الرائح الغادي بيننا

أَحْـسَـنَ الـلَّـهُ بِـنـا أنَّ ـ الـخَـطـايـا لا تَـفُـوحُ

الحمد لله أن الخطايا ليست بذات رائحة، وإلا كانت رائحتها قتلتنا

سَـيـصـيـرُ الـمـرءُ يـومـاً جـسـداً مـا فـيـهِ روحُ

بـيـنَ عَـيْـنَـيْ كـلِّ حَـيٍّ عَـلَـمُ الـمـوتِ يـلـوحُ

كُـلُّـنـا فـي غَـفْـلَـةٍ والـ ـمـوتُ يَـغْـدُو ويَـروحُ

نُـحْ عـلـى نـفـسِـك يـا مِـسـ ـكـيـنُ، إن كـنـتَ تَـنـوحُ

لَـتَـمُـوتَـنَّ وإنْ عُـمِّـ ـرْتَ مـا عُـمِّـرَ نـوحُ

٢١ البرهان

أَلَا إنَّـنـا كـلَّـنـا بَـائِـدُ وأيُّ بَـنـي آدمٍ خَـالِـدُ

فـيـا عـجـبـاً كـيـف يَـعـصـي الإلـ ـهَ أم كـيـفَ يَـجْـحَـدُهُ الـجَـاحِـدُ

ولـلَّـهِ فـي كـلِّ تـحـريـكَـةٍ عـلـيـنـا وتَـسْـكِـيـنَـةٍ شـاهـدُ

وفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ عـلـى أنَّـهُ واحِـدُ

آية: برهان

٢٢ السهام الصائبة

الـموتُ لا وَالـداً يُـبْـقِـي ولا وَلَـدا ولا صـغـيـراً ولا شـيـخـاً ولا أحـدا

كان النبيُّ فلم يَخْلُدْ لِأُمَّتِهِ ... لو خَلَّدَ اللَّهُ حيّاً قبلَهُ خَلَدا
لِلْموتِ فينا سهامٌ غيرُ مُخْطِئَةٍ ... مَنْ فَاتَهُ اليومَ سهمٌ لم يَفُتْهُ غَدا
ما ضَرَّ مَنْ عَرَفَ الدنيا وغِرَّتَها ... أَلَّا يُنافِسَ فيها أهلَها أبدا

غرتها: خداعها

٢٣ كأنهم ما كانوا

كأنَّ أهلَ القبورِ لم يَسْكُنُوا الدُّ ـ ... ورَ، ولم يَحْيَ مِنْهُمُ أحدُ
ولم يكونوا إلا كَهَيْئَتِهِمْ ... لم يولَدوا قبلَها ولم يَلِدُوا
يا ناسِيَ الموتِ وَهْوَ يذكُرُهُ ... هل لَكَ بِالموتِ إن أتاكَ يَدُ
تَبكي على مَنْ مَضَى وأنتَ غداً ... يُوْرِدُكَ الموتُ في الذي وَرَدُوا

٢٤ جِدًّا

ما أقربَ الموتَ جِدًّا ... أتاكَ يَشتَدُّ شَدًّا
يا مَنْ يُراحُ عليهِ ... بِالموتِ طَوْراً ويُغْدَى

يراح عليه ويغدى: يؤتى مساء وصباحاً

هل تستطيعُ لِمَا قد ... مَضَى مِنَ العيشِ رَدًّا
تَموتُ فَرْداً وتأتي ... يومَ القِيامَةِ فَرْدا

٢٥ لا تمدَّها

ستُسلِمُكَ الساعاتُ في بعضِ مَرِّها ... إلى ساعةٍ لا ساعةٌ لكَ بعدَها

مرها: مرورها

مَدَدْتَ المُنَى طولاً وعرضاً، وإنَّها ... لَتَدْعُوكَ أن تَهدا وأنْ لا تَمُدَّها
ومَالَتْ بِكَ الدنيا إلى اللَّهْوِ والصِّبا ... ومَنْ مالَتِ الدنيا به كان عَبْدَها
لِنفسِكَ قبلَ الناسِ فَاعْنَ فإنَّها ... تَموتُ إذا ماتتْ وتُبعَثُ وحْدَها

فاعن: فكن معنياً

٢٦ المتبَختِر

يا أيُّها الأشْيَبُ الذي قد ... حَذَّرَهُ شَيْبُهُ وأنْذَرْ

خذْ ما صَفَا مِنْ جميعِ أمرِ الدُّ ـ   نـيـا وَدَعْ عـنـكَ مَـا تَـكَـدَّرْ
والْـطُـفْ لِـكُـلِّ امْـرِئٍ بِـرِفْـقٍ   واقْـبَـلْ مِـنَ الـنـاسِ مـا تَـيَـسَّـرْ
يـا رُبَّ ذي أَعْـظُـمٍ رُفَـاتٍ   كـانَ إذا مـا مَـشَـى تَـبَـخْـتَـرْ

رفات: محطمة. أي رب صاحبٍ عظام بالية مسجى في قبره، قد كان في حياته يمشي ويتبختر

٢٧ الأنس بالأذى

إذا أنا لـم أَقبلْ مِنَ الدهرِ كلَّ مَا   تكرَّهْتُ منهُ طالَ عَتْبِي على الدهرِ
تَعودْتُ مَسَّ الضُّرِّ حتى أَلِفْتُهُ   وأَحْوَجَنِي طولُ العَزاءِ إلى الصبرِ
ووَسَّعَ صَدْرِي بِالأَذَى الأُنْسُ بِالأذى   وقد كنتُ أحياناً يَضيقُ بِهِ صَدْرِي

الأنس بالأذى: تعوُّده

وصَيَّرنِي يَأسِي مِنَ الناسِ راجياً   لِسرعةِ لُطْفِ اللَّهِ مِنْ حيثُ لا أَدرِي

٢٨ النتيجة.. تعادل

طُوبَى لِـمَـنْ هَـمُّـهُ الـمَـعـادُ ومَـا   أَخْـبَـرَهُ الـلَّـهُ عـنـهُ مِـنْ خَـبَـرِهْ

بورك من اهتم لأمر المعاد، البعث والحساب، واهتم بما أخبره الله من خبر المعاد وكيفيته، فهو مؤمن مصدق.. كأني أرى أبا العتاهية يقول: ليتني كنت مصدقاً لتفاصيل المعاد

قـد يـنـبـغـي لِامْـرِئٍ رَأَى نَـكَـبـا   تِ الـدَّهـرِ أَلَّا يَـنـامَ مِـنْ حَـذَرِهْ
بِـقَـدْرِ مـا ذاقَ ذائِـقٌ لِـصَـفَـا   ءِ الـعـيـشِ يـومـاً يـذوقُ مِـنْ كَـدَرِهْ
إذا ثَـوى فـي الـقـبـورِ ذو خَـطَـرٍ   فَـزُرْهُ فـيـهـا وانـظـرْ إلـى خَـطَـرِهْ

ذو خطر: ذو نفوذ

ما أسرعَ الليلَ والنهارَ على الـ   إنسـانِ فـي سَـمْـعِـهِ وفـي بَـصَـرِهْ
وفـي خُـطَـاهُ وفـي مَـفـاصِـلِـهِ   نَـعَـمْ وفـي شَـعْـرِهِ وفـي بَـشَـرِهْ

البشر: البَشَرة

٢٩ المرارة في القاع

الـمَـرْءُ يـأْمُـلُ أن يـعـيــ   ـشَ وطـولُ عُـمْـرٍ قـد يَـضُـرُّهْ
تَـفْـنَـى بـشـاشَـتُـهُ ويـبـ   ـقَـى بـعـد حُـلْـوِ الـعـيـشِ مُـرُّهْ

وتــخــونُــهُ الأيــامُ حــتــ ــى لا يَــرى شــيــئــاً يَــسُــرُّهْ

٣٠ الانقراض

قــد أردْنــا فــأَبَــى الــلَّــهُ لــنــا   وأرادَ الــلَّــه شــيــئــاً فــمَــضَــى

مضى: حدث

رُبَّ أمْــرٍ بِــتُّ قــد أبــرَمْــتُــهُ   ثم مـا أصـبـحـتُ حتى انـتَـقَـضـا

رُبَّ عــيــشٍ لِأُنــاسٍ سَــلَــفُــوا   كــان، ثـم انـقَـرضُـوا وانـقَـرَضـا

٣١ من ليس يشبع

ألـمْ تَـرَ أنَّ الـنـاسَ في غَـفَـلاتِـهِـمْ   وأنَّ الـمـنـايـا بـيـنَـهُـمْ تَـتَـقَـعْـقَـعُ

أَيـا بانِيَ الـدنـيـا! لِغيرِكَ تبتَني   ويا جامعَ الدنيا! لِغيرِكَ تَجْمَعُ

أرى الـمَرءَ وَثَّاباً على كلِّ فرصَةٍ   ولِـلـمرءِ، يوماً، لا مَحالَةَ مَصْرعُ

تَبارَكَ مَنْ لا يَملِكُ المُلْكَ غيْرُه   متى تَنْقَضي حاجاتُ مَنْ ليس يَشْبَعُ؟

ومَا هُوَ إلّا النَّعْشُ لو قد دَعَوْا بِه   تُـقَـلُّ فَـتُـلـقَـى فـوقَـهُ ثـم تُـرْفَـعُ

ومـا زِلْـتُ أُرْمَـى كـلَّ يـومٍ بِـعِـبـرَةٍ   تـكـادُ لـهـا صُـمُّ الـجـبـالِ تَـصَـدَّعُ

فـمـا بـالُ عَيـنـي لا تَـجودُ بـمـائِـهـا   ومـا بـالُ قـلـبـي لا يَـرِقُّ ويَـخْـشَـعُ

٣٢ صعوبة الزهد

قد بَـلَـوْنـا الـنـاسَ في أخـلاقِـهِـمْ   فَـرأَيْـنَـاهُـمْ لِـذي الـمـالِ تَـبَـعْ

بلونا: جربنا

أَحـمَـدُ الـلَّـهَ عـلـى تـقـديـرِهِ   قَـدَّرَ الـرزقَ فـأعـطَـى ومَـنَـعْ

سُـمْـتُ نـفـسـي وَرَعـاً تَـصْـدُقُـهُ   فـنـهـاهـا الـنَّـقْـصُ عـن ذاكَ الـوَرَعْ

سمت نفسي، أي أجبرتها، على الورع وعلى أن تصدق فيه، ولكن النقص الذي جبل عليه الإنسان نهاني عن الورع

فَلِـنَـفْـسـي عِـلَـلٌ لا تـنـقـضـي   ولـهـا مَـكْـرٌ لَـطـيـفٌ وخِـدَعْ

ولِـنـفـسـي غَـفَـلاتٌ لـم تَـزَلْ   وَلـهـا بِـالـشَّـيءِ أحـيـانـاً وَلَـعْ

ولِـنـفـسـي حـيـن تُـعْـطَـى فَـرَحٌ   واضْـطـرابٌ عـنـد مَـنْـعٍ وجَـزَعْ

٣٣ اليوم الفظيع

حُـبِّـبَ الأكـلُ والـشـرابُ إلـيْـنـا   وبـنـاءُ الـقـصـورِ والـتَّـجـمـيـعُ
وصـنـوفُ الـلَّـذَّاتِ مِـنْ كـلِّ لَـوْنٍ   والـفَـنَـا مـقـبـلٌ عـلـيـنـا سَـريـعُ
كـلُّ حَـيٍّ سَـيَـطْـعَـمُ الـموتَ كُـرْهَـاً   ثـم خَـلْـفَ الـمـمـاتِ يـومٌ فَـظـيـعُ

يطعَم: يأكل

٣٤ الصراع على الجيفة

أمَّـا بُـيـوتُـكَ فـي الـدنـيـا فـواسِـعَـةٌ   فـلـيـتَ قـبـرَكَ بـعـد الـموتِ يَـتَّـسِـعُ
ما لِي أرى الناسَ لا تَسْلُو ضَغائِنُهُمْ   ولا قـلـوبُـهُـمُ فـي الـلَّـهِ تَـجْـتَـمِـعُ

تسلو ضغائنهم: تهمد أحقادهم وكأنها نسيت أن تظهر

إذا رأيـتَ لـهُـمْ جـمـعـاً تُـسَـرُّ بـه   فـإنَّـهُـمْ حـيـن تَـبْـلُـو شَـأنَـهُـمْ شِـيَـعُ

حين تبلو: حين تجرب، شيع: أحزاب متصارعة

٣٥ الحصاد

حـتـى مـتـى يَـسـتَـفِـزُّنـي الـطَّـمَـعُ   ألـيـس لـي بِـالـكَـفـافِ مُـتَّـسَـعُ
ما أفـضـلَ الـصـبرَ والـقـنـاعـةَ لِـلـنـ ـ   ـاسِ جـمـيـعـاً لـو أنـهُـمْ قَـنِـعُـوا
وأخْـدَعَ الـلـيـلَ والـنـهـارَ لِأقْـ ـ   ـوامٍ أراهُـمْ فـي الـغَـيِّ قـد رَتَـعُـوا
لـلـهِ دَرُّ الـدنـيـا لـقـد لَـعِـبَـتْ   قـبـلـي بِـقـومٍ فـمـا تُـرى صَـنَـعُـوا
بَـادُوا ووَفَّـتْـهُـمُ الأهِـلَّـةُ مـا   كـان لَـهُـمْ والأيـامُ والـجُـمَـعُ

بادوا وأعطتهم الأهلة، جمع هلال أي الشهور، والأيام والجمع، أي الأسابيع، أعطتهم ما كان لهم من عمر وافياً

أَثْـرَوْا فـلـم يُـدْخِـلُـوا قـبـورَهُـمُ   شـيـئـاً مِـنَ الـثَّـرْوةِ الـتـي جَـمَـعُـوا
غَـداً تُـوَفَّـى الـنـفـوسُ مـا كَـسَـبَـتْ   ويَـحْـصُـدُ الـزارعـونَ مـا زَرَعُـوا

٣٦ الترقيع

اَلـمـرءُ فـي شَـهَـواتِ غَـفْـلَـتِـهِ   والـدهـرُ يَـخْـفِـضُـهُ ويَـرْفَـعُـهُ
ومُـدافِـعٌ لـلـشَّـيْـبِ يَـخْـضِـبُـهُ   والـشـيـبُ نـحـو الـموتِ يـدفَـعُـهُ

رب شخص يدفع الشيب بعيداً عنه بالخضاب، الصبغ، والشيب يدفعه نحو نهايته

والعيشُ كُلُّ جديدِهِ خَلَقٌ ... كلٌّ له عَيْشٌ يُرَقِّعُهُ

كل شيء يجدُّ في الحياة خَلَق، ثوب عتيق، وكلنا يرقع عيشته ترقيعاً

٣٧ الطمع هم وغيظ

طلبتُ الغِنَى في كلِّ وَجْهٍ فلم أَجِدْ ... سبيلَ الغِنَى إلَّا سبيلَ التَّعَفُّفِ
إذا كنتَ لا تَرضَى بِشيءٍ تَنالُهُ ... وكنتَ على ما فاتَ جَمَّ التَّلَهُّفِ
فلستَ مِنَ الهَمِّ العريضِ بِخارِجٍ ... ولَستَ مِنَ الغيظِ الطويلِ بِمُشْتَفِ

٣٨ قانون السماحة

أَوْدَى الزَّمانُ بِأَسْلافي وخَلَّفَني ... وسوفَ يُلحِقني يوماً بِأَسْلافي
لا تَمْشِ في الناسِ إلَّا رَحمَةً لَهُمُ ... ولا تعامِلْهُمُ إلَّا بِإنصافِ
واقطعْ قُوَى كلِّ حِقدٍ أنت مُضْمِرُهُ ... إن زَلَّ ذو زَلَّةٍ أو إنْ هَفا هافِ
وارْغَبْ بِنفسِكَ عمَّا لا صَلاحَ له ... وأَوْسِعِ الناسَ مِنْ بِرٍّ وإِلْطافِ

ارغب بنفسك، أي ابتعد، عن الأمر الذي لا سبيل إلى إصلاحه

وإن يَكُنْ أَحَدٌ أَوْلاكَ صالِحَةً ... فَكافِهِ فوقَ ما أَوْلَى بِأَضْعافِ

إن أولاك، أعطاك، أحدهم صالحة، معروفاً، فكافئه بأضعافها

ولا تُكَشِّفْ مُسيئَاً عن إساءَتِهِ ... وصِلْ حِبالَ أخيكَ القاطِعِ الجَافي
ما أحسَنَ الشُّغْلَ في تَدبيرِ مَنفعَةٍ ... أهلُ الفَراغِ ذوو خَوْضٍ وإِرْجَافِ

انشغال المرء، جيد في تحصيل المنافع، فأما أهل الفراغ الذين ليس لهم شغل يشغلهم فهو يخوضون في شؤون الآخرين، ويرجفون، ينشرون الذعر

٣٩ رغم كثرتهم

طلبتُ أخاً في اللّهِ في الغربِ والشرقِ ... فَأَعْوَزَني، هذا على كَثْرَةِ الخَلْقِ
فَصِرْتُ وحيداً بينَهُمْ متصبِّراً ... على الغَدرِ منهُمْ والمَلالَةِ والمَذْقِ

المذق: الغش

وكم مِنْ أخٍ قد ذُقْتُهُ ذا بَشاشَةٍ ... إذا ساغَ في عيني يَغَصُّ به حَلْقي
ولم أَرَ كالدنيا وكَشْفي لِأَهلِها ... فما انكشفُوا لي عن وفاءٍ ولا صِدْقِ

٤٠ يوم العَرق

يا مَنْ بَنَى القصرَ في الدنيا وشيَّدَهُ ... أَسَّسْتَ قصرَكَ حيثُ السَّيْلُ والغَرَقُ
كُلُّ امْرِئٍ ولـه رِزْقٌ سيَبْلُغُهُ ... واللَّهُ يَرزُقُ لا كَيْسٌ ولا حُمُقُ

الكيس: الكياسة

والحمدُ للَّهِ شُكراً لا نَفادَ له ... الناسُ في غفْلَةٍ عمَّا له خُلِقُوا

وفي الدين أن الناس خلقوا ليعبدوا الله، «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

ما أغفلَ الناسَ عن يومِ ابْتِعاثِهِمُ ... ويومَ يُلْجِمُهُمْ في المَوقِفِ العَرَقُ

الناس غافلون عن يوم يبعثون من قبورهم للحساب، ويوم يلجمهم العرق، أي يسكتهم كأنه اللجام.. فقد روى بعضهم أن العصاة يعرقون بتفاوت فثمة من يعرق حتى عقبيه أو حتى ركبتيه أو صدره.. وثمة من يصل العرق إلى فمه فيلجمه إلجاماً، في الموقف، أي يوم القيامة

٤١ أحسنت يا إبليس!

كُلُّ رِزقٍ أَرجوُهُ مِنْ مخلوقٍ ... يَعتريهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّعْويقِ
وأنا قائِلٌ، وأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ـ ... مِثالَ المَجازِ لا التَّحقيقِ
لستُ أَرْضَى مِنْ فِعلِ إبليسَ شيئاً ... غيرَ تَرْكِ السُّجُودِ لِلمخلوقِ

٤٢ نموذج الحسن

إنَّ المَليكَ رآكِ أَحْـ ... ـسَنَ خلقِهِ ورأى جَمالَكْ..

الله رآكِ أحسن خلقه ورأى جمالَكِ..

فَحَذَا بِقُدْرَةِ نفسِهِ ... حُورَ الجِنانِ على مِثالَكْ

فحذا، أي قص وصنع، حور الجنان متخذاً إياك شابلونة

٤٣ الباكون المقتسمون

أتطمَعُ أن تُخلَّدَ لا أَبالَكْ ... أَمِنْتَ مِنَ المنيةِ أن تَنالَكْ
أمَا واللَّهِ إنَّ لَها رَسُولاً ... وأُقسمُ لو أَتاكَ لَمَا أَقالَكْ
كَأَنِّيَ بالترابِ عليكَ رَدْماً ... وبِالباكينَ يَقْتَسِمونَ مالَكْ

٤٤ ألوان الكذب

إيَّاكَ مِنْ كَذِبِ الكذُوبِ وإِفْكِهِ ... فلَرُبَّما مَزَجَ اليَقينَ بِشَكِّهِ

وَلَرُبَّما ضَحِكَ الكذوبُ تَكَلُّفاً … وبَكَى مِنَ الشيءِ الذي لم يُبْكِهِ
ولربما صمتَ الكذوبُ تَخَلُّقاً … وشَكا مِنَ الشيءِ الذي لم يُشْكِهِ
ولربما كذبَ امْرُؤٌ بِكلامِهِ … وبِصَمْتِهِ وبُكائِهِ وبِضِحْكِهِ

٤٥ الزمان المؤدِّب

الآنَ يا دنيا عرفتُكِ فاذْهبي … يا دارَ كلِّ تَشَتُّتٍ وزَوالِ
قَطَّعْتُ مِنكِ حَبائِلَ الآمالِ … وحَطَطْتُ عن ظهرِ المَطِيِّ رِحالي

قطعت حبل الأمل منك، وأنزلت رحالي ومتاعي عن ظهر المطي، أي الأبل، فأنا لا أريد الرحيل نحوك.. أي أنه يريد هجران الدنيا

والآنَ صارَ لِيَ الزمانُ مُؤَدِّباً … فغَدا عليَّ وراحَ بِالأمثالِ
وإذا تَنَاسَبَتِ الرجالُ فما أَرى … نَسَباً يُقاسُ بِصالِحِ الأعمالِ

تناسبت الرجال: أخذت تذكر أنسابها

لِلَّهِ يومٌ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ … وتَشيبُ منه ذوائبُ الأطفالِ
يومُ النوازِلِ والزلازِلِ، والحَوا … ملُ فيهِ إذْ يَقْذِفْنَ بِالأَحْمَالِ

يوم النوازل، أي المصائب، يوم القيامة عندما تسقط الحوامل أجنتها

٤٦ إن اضطررت!

حِيَلُ ابنِ آدَمَ في الحياةِ كثيرةٌ … والموتُ يقطعُ حِيلَةَ المُحتالِ
قِسْتُ السؤالَ فكان أعظمَ قيمَةً … مِنْ كلِّ عَارِفَةٍ جَرَتْ بِسُؤَالِ

سؤال الناس صعب وهو أعظم من أي عارفة، معروف، تناله بسؤالك

فإذا ابْتُلِيتَ بِبَذْلِ وجهِكَ سَائِلاً … فابْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ المِفضالِ
وإذا خَشِيتَ تَعَذُّراً في بَلدةٍ … فاشدُدْ يَديْكَ بِعاجِلِ التَّرحَالِ

٤٧ الرحيل الرحيل

ما أثقلَ الحقَّ على مَنْ نَرى، … لم يَزَلِ الحقُّ كريهاً ثقيلْ
تَزَوَّدَنْ لِلموتِ زاداً فقد … نَادَى مُنادِيهِ: الرَّحيلَ الرَّحيلْ
ما أَقْتَلَ الدنيا لأَزواجِها … تَعُدُّهُمْ عَدّاً قتيلاً قَتيلْ

٤٨ تعالى الله

نَعَى نفسي إلَيَّ مِنَ اللَّيالي تَصَرُّفُهُنَّ حالاً بعد حالِ
فما لي لستُ مشغولاً بنفسي وما لِي لا أخافُ الموتَ ما لي
لقد أيقنتُ أنِّيَ غيرُ باقٍ ولكنِّي أرانِيَ لا أُبالي
سأَقْنَعُ ما بَقِيتُ بِقُوتِ يومٍ ولا أبغي مُكاثَرَةً بِمَالي

المكاثرة: التفاخر بالكثرة

تَعالى اللّهُ يا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الحِرصُ أَعناقَ الرجالِ

سلم بن عمرو هو الشاعر الملقب بالخاسر. والحرص: البخل. وقد كان سلم يقول إن أبا العتاهية أشعر الجن والإنس، ثم لما سمع هذا الشعر غضب، وقال: ويلي على ابن الفاعلة الزنديق، زعم أني حريص، وقد كنز المال، وأنا لا أملك غير ثوبي هذين. ورد سلم بشعر: (ما أقبح التزهيد من واعظ//يزهد الناس ولا يزهد) وانحرف عن أبي العتاهية

هَبِ الدنيا تُساقُ إليكَ عَفْواً أليس مَصيرُ ذاكَ إلى الزَّوالِ

هب: افرض، عفواً: بسهولة

٤٩ معاداة الرجال

خَبِرْتُ الناسَ قَرناً بعد قَرْنٍ فلم أرَ غيرَ خَتَّالٍ وقَالِ

قرن: جيل، ختال: غادر، قالٍ: هاجر

وذُقْتُ مَرارَةَ الأشياءِ طُرّاً فمَا طعْمٌ أمرَّ مِنَ السُّؤالِ
ولم أرَ في الأمورِ أشَدَّ وقْعاً وأصعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرجالِ
ولم أرَ في عيوبِ الناسِ عيباً كنقْصِ القَادرينِ على الكَمالِ

وهذا البيت يشبه بيت المتنبي، فكأن المتنبي سرقه. ولكن البيت ليس موجوداً في كل نسخ ديوان أبي العتاهية، أفلا يكون أعداء المتنبي دسوه على أبي العتاهية في نسخة متأخرة ليكون شاهد زور على سرقة لم يرتكبها المتنبي؟

٥٠ سؤال عن الزاد

يا ساكنَ القبرِ عَنْ قَليلِ ماذا تَزَوَّدْتِ للرحيلِ

عن قليل: بعد قليل

إنَّا لَمُستوطِنونَ داراً نحن بها عابِرُو سبيلِ

دارَ أَذىً لـــم يَـــزَلْ عـــلـــيـــلٌ يَـــشـــكُـــو أذاهـــا إلـــى عـــلـــيـــلِ

٥١ القيل والقال

أبـقـيْـتَ مَـالَـكَ مـيـراثـاً لِـوَارِثِـهِ فليتَ شِعريَ ما أَبْقى لَكَ المالُ

الـقـومُ بَـعـدَكَ فـي حالٍ تَـسُـرُّهُـمُ فكيف بَعْدَهُمُ دارتْ بِكَ الحالُ

مَلُّوا البُكاءَ، فما يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ واسْتَحْكَمَ القِيلُ في الميراثِ والقَالُ

أنت تتخيل أنهم بعدك سيقتلون أنفسهم بكاء، وسينسون أن هناك ميراثاً؟ يا مسكين! اقرأ شعر أبي العتاهية

٥٢ لا أرى أحدا

كـــم مِـــنْ عـــزيـــزٍ قـــد رأيْـــ ـــتُ الـــحـــرصَ صـــيَّـــرهُ ذلـــيـــلا

فـــتـــجـــنَّـــبِ الـــشَّـــهَـــواتِ واحْـــ ـــذَرْ أن تـــكـــونَ لـــهـــا قـــتـــيـــلا

فَـــلَـــرُبَّ شـــهـــوةِ ســـاعـــةٍ قـــد أَوْرثَـــتْ حـــزنـــاً طـــويـــلا

مَـــنْ لـــم يـــكـــنْ لَـــكَ مُـــنـــصـــفـــاً فـــي الـــودِّ، فـــابْـــغِ بـــه بـــديـــلا

كَـشَّـفْـتُ أخـلاقَ الـرجـا لِ، وذُقـتُـهُـمْ جـيـلاً فـجـيـلا

اِضـرِبْ بِـطَـرْفِـكَ حـيـثُ شـئـ ـتَ فـلا تـرى إلَّا بـخـيـلا

٥٣ السراب

يَجري الجديدانِ والأقدارُ بينَهما تَـغـدُو وتَـسـري بِـأرزاقٍ وآجَـالِ

الجديدان: الليل والنهار، أي الزمن. والأقدار تغدو صباحاً وتسري ليلاً ضمن الزمن فتوزع الرزق والموت أيضاً

يا مَنْ سلا عن حبيبٍ بعد غيْبَتِهِ كم بعدَ موتِكَ مِنْ ناسٍ ومِنْ سَالِ

كـأنَّ كـلَّ نـعـيـمٍ أنـت ذائـقُـهُ مِنْ لَذَّةِ العيشِ يَحكي لَمْعَةَ الآلِ

الآل: السراب

٥٤ الحرام ألذّ

أَحـمَـدُ الـلَّـهَ عـلـى كـل حـالِ إنَّـمـا الـدنـيـا كَـفَـيْءِ الـظِّـلالِ

رُبَّ مُـغْـتَـرٍّ بـهـا قـد رَأَيْـنـا نَـعْـشَـهُ فـوقَ رِقَـابِ الـرجـالِ

عـجـبـاً مِـنْ راغـبٍ فـي حَـرامٍ لـم تَـضِـقْ عـنـهُ وُجـوُهُ الـحَـلالِ

٥٥ القليل مع الكرامة

أَتَـدرِي أَيَّ ذُلٍّ فـي السُّؤَالِ ... وفـي بَـذلِ الـوجوهِ إلـى الـرجالِ
إذا كـان الـنوالُ بِـبَـذْلِ وَجـهـي ... فَـلا قُـرِّبْـتُ مِـنْ ذاكَ الـنـوالِ
مَـعَـاذَ الـلَّـهِ مِـنْ خُـلُـقٍ دَنِـيءٍ ... يَكـونُ الـفضـلُ فيه عَـلَـيَّ لا لـي
إذا كـان الـقـلـيـلُ يَـسُـدُّ فـقـري ... ولـم أَجِـدِ الـكـثـيـرَ فـلا أُبـالـي

٥٦ مجيء الغاسل بعد استرخاء المفاصل

وكـم قـد عَـزَّ مِـنْ مَـلِـكٍ ... يَـحُـفُّ بـه قَـنَـابِـلُـهُ

قنابله: جماعات من خيوله

يَـخـافُ الـنـاسُ صَـوْلَـتَـهُ ... ويُـرْجَـى مـنـه نَـائِـلُـهُ
ويَـثْـنـي عِـطْـفَـهُ مَـرَحـاً ... وتُـعْـجِـبُـهُ شَـمـائِـلُـهُ
فـلـمَّـا أن أتـاهُ الـحَـقُّ ـ ... وَلَّـى عـنـه بَـاطِـلُـهُ
فَـغَـمَّـضَ عـيـنَـهُ لِـلْـمـوتِ ... واسْـتَـرْخَـتْ مَـفـاصِـلُـهُ
فـمَـا لَـبِـثَ الـسِّـيـاقُ بـه ... إلـى أن جـاءَ غَـاسِـلُـهُ

السياق: الاحتضار.. ما طال احتضاره حتى مات وجاء من يغسله

٥٧ الخلاصة الزهدية

رَجَعْتُ إلى نفسي بِفِكري لعلَّها ... تُـفـارِقُ مـا قـد غَـرَّهـا وأَذَلَّـهـا
فقلتُ لها يا نَفْسِ ما كنتُ آخِذاً ... مِنَ الأرضِ لو أَصْبَحْتُ أَمْلِكُ كلَّها؟
فهلْ هِيَ إلَّا شَبعَةٌ بعدَ جَوْعَةٍ ... وإلَّا مُنىً قد حانَ لي أن أَمَلَّها
ومُدَّةُ وقتٍ لـم يَدَعْ مَرُّ مَا مَضَى ... عَـلَـيَّ مِـنَ الأيـامِ إلَّا أَقَـلَّـهـا
أَرَى لَكَ نفساً تبتغي أن تُعِزَّها ... ولَسْتَ تُعِزُّ النَّفْسَ حتى تُذِلَّها

٥٨ غضب وغضب

إذا غَـضِـبَ الـحَـلـيـمُ فَـفِـرَّ عـنـهُ ... وإن غَـضِـبَ الـلَّـئـيـمُ فـلا تُـبَـالِـهْ
ولـم تَـرَ مُـثْـنِـيـاً أَثْـنَـى عـلـى ذي ... فِـعَـالٍ قَـطُّ أَفْـصَـحَ مِـنْ فِـعَـالِـهْ
وأَسـرَعُ مـا يـكـونُ الـشيءُ نَـقْـصـاً ... فَـأَقْـرَبُ مـا يـكـونُ إلـى كَـمَـالِـهْ

٥٩ سنة محمد

أهلاً وسهلاً بالمَشيبِ مؤدِّباً ... وعلى الشبابِ تحيةٌ وسلامُ

ولقد غَنيتَ مِنَ الشبابِ بِغِبطَةٍ ... ولقد كساكَ وقَارَهُ الإِسلامُ

ومحمدٌ لَكَ إن سَلَكْتَ سبيلَهُ ... في كلِّ خيرٍ قائدٌ وإِمامُ

ما كلُّ شَيْءٍ كانَ أو هُوَ كائِنٌ ... إلَّا وقد جَفَّتْ بِهِ الأَقلامُ

أي كل ما حدث أو سيحدث إنما هو مرقوم في اللوح المحفوظ قد كتب وجفت به الأقلام

٦٠ موعدنا القيامة

أمَا واللَّهِ إن الظلمَ لُومُ ... وما زالَ المُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ

لوم: لؤم

إلى دَيَّانِ يومِ الدينِ نَمضي ... وعند اللَّهِ تجتمعُ الخُصومُ

ستَعلَمُ في الحسابِ إذا التقَيْنا ... غداً عند الإلَهِ مَنِ المَلُومُ

٦١ شرط الصحبة

أَيا مَنْ بينَ بَاطِيَةٍ ودَنٍّ ... وعُودٍ في يَدَيْ غَاوٍ مُغَنٍّ

يا من يقضي وقته بين باطية، وعاء خمر، ودن، خابية خمر كبيرة، وعود في يدي مغنٍ ضال

إذا لم تَنْهَ نفسَكَ عن هَواها ... وتُحْسِنْ صَوْنَها، فَإِلَيْكَ عَنِّي

إليك عني: ابتعد عني

وأيُّ قَبيحٍ اقْبَحُ مِنْ لَبيبٍ ... يُرى مُتَطَرِّباً في مِثلِ سِنِّي

٦٢ شكوى

فيا رَبِّ إنَّ الناسَ لا يُنْصِفونَني ... وكيفَ، ولو أَنْصَفْتُهُمْ ظَلموني

وإن كان لي شيءٌ تَصَدَّوْا لِأَخذِهِ ... وإنْ جِئتُ أَبْغي شَيئَهُمْ مَنَعوني

وإن نَالَهُمْ رِفدي فلا شُكْرَ عندَهُمْ ... وإنْ أنا لم أَبْذُلْ لَهُمْ شَتَموني

وإن وَجدُوا عندي رَخاءً تَقَرَّبوا ... وإن نَزلَتْ بي شِدَّةٌ خَذَلوني

وإن طَرَقَتْني نَكبةٌ فَكِهُوا بِها ... وإن صَحِبَتْني نِعمَةٌ حَسدوني

سَأَمنعُ قَلبي أن يَحِنَّ إِلَيْهِمُ ... وأَحْجُبُ عنهُمْ ناظِري وجُفُوني

٦٣ السجون

يـا لـيـت شِـعـري إذا مـا ... دُفـنـتَ كـيـفَ تَـكـونُ

إن الـقُـبـورَ سُـجـونٌ ... مـا مِـثْـلُـهُـنَّ سُـجـونُ

مـا فـي الـمـقـابـرِ وَجْـهٌ ... عـن الـتُّـرَابِ مَـصُـونُ

لا تـدفـعُ الـموتَ عَـمَّـنْ ... حَـلَّ الـحُـصـونَ الـحُـصـونُ

الحصون لا تمنع الموت أن ينزل بمن حلها

مـا لِـلـمـنـايـا سُـكـونٌ ... عـنَّـا، ونَـحْـنُ سُـكـونُ

ليس للموت سكون، ونحن عنه سكون، أي ساكنون ساكتون

٦٤ انعدام الوفاء

يـا خـلـيـلـيَّ لا أَذُمُّ زَمـانـي ... غـيـرَ أَنِّـي أَذُمُّ أهـلَ زمـانـي

لستُ أُحْصي كم مِنْ أخ كان لي منـ ... ـهُمْ قَليلَ الوفاءِ حُلْوَ اللِّسانِ

لـم أَجِـدْهُ مُـؤَاتِـيـاً فَـتَـصَـدَّقْـ ... ـتُ بِحظِّي منهُ على الشَّيْطانِ

لـيتَ حَظِّي منهُ ومِنْ مِثْلِهِ أنْ ... لا تَـراهُ عَـيْـنـي وأن لا يَـرانـي

٦٥ مودة بميزان الذهب

لِـلَّـهِ دَرُّ أبـيـكَ أيُّ زمـانِ ... أصبحتَ فيهِ وأيُّ أهـلِ زَمـانِ

كـلٌّ يُـوَازِنُـكَ الـمَـوَدَّةَ دائِـبـاً ... يُعطي ويَأْخُذُ منكَ بِالميزانِ

فـإذا رأى رُجْـحَـانَ حَـبَّـةِ خَـرْدَلٍ ... مَـالَـتْ مَـوَدَّتُـهُ مَعَ الـرُّجْـحَـانِ

وقال مثلنا: «كل شيء قرضة ودين، حتى دموع العينين». والمعنى عند شاعرنا أدق، فبعض خلق الله يضن عليك بالكلمة الطيبة

٦٦ دعاء

إلَـهـي لا تُـعَـذِّبْـنـي فَـإنِّـي ... مُـقِـرٌّ بِـالـذي قـد كـان مِـنِّـي

ومَـا لـيَ حـيـلَـةٌ إلَّا رَجَـائـي ... وعَفْوَكَ إن عفوتَ وحُسْنَ ظَنِّي

فـكـم مِـنْ زَلَّـةٍ لِـيَ فـي الـبَـرايَـا ... وأنـتَ عَـلَـيَّ ذو فـضـلٍ وَمَـنِّ

إذا فـكَّـرْتُ فـي نَـدمـي عـلـيـهـا ... عَـضَـضْـتُ أنامِلي وقَـرَعْـتُ سِنِّي

يَـظُـنُّ الـنـاسُ بـي خَـيْـراً وإنِّـي ... لَشَرُّ الناسِ إنْ لـم تَـعْـفُ عَـنِّـي

٦٧ أريدك للدنيا

أَما عَلِمْتَ جَزاكَ اللَّهُ صَالِحَةً ... وزَادَكَ اللَّهُ خَيراً يا «ابنَ يَقطينِ»
أَنِّي أُريدُكَ للدنيا وعاجِلِها ... ولا أُريدُكَ يومَ الدينِ للدينِ
حتى متى، لَيتَ شِعري، يا ابنَ يَقطينِ ... أُثني عليك بِشَيْءٍ لستَ تُولِيني؟

حتى متى أثني عليك بالسخاء وأنت لا توليني، تمنحني، مِن هذا الذي أثني عليك به شيئاً؟

إن السلامَ وإن البِشْرَ مِنْ رجلٍ ... في مثلِ ما أنتَ فيهِ ليسَ يَكْفِيني

السلام والبشاشة من رجل في مركزك لا يكفيان، فلا بد من عطاء

٦٨ كأنك لم تكن

يا أيها المُتَسَمِّنُ ... قلْ لي لِمَنْ تَتَسَمَّنُ
وغداً تصيرُ إلى القبو ... رِ مُحَنَّطٌ ومُكَفَّنُ
أَحْدِثْ لِربِّكَ تَوبةً ... فَسبيلُها لَكَ ممكنُ
فَكأنَّ شخصَكَ لم يكنْ ... في الناسِ سَاعةَ تُدفَنُ

عند دفنك تصبح كأنك لم تكن موجوداً أصلاً

وكأنَّ أهلَكَ قد بَكَوْا ... جَزعاً عليكَ ورَنَّنُوا

رننوا: ناحوا

فإذا مَضَتْ لَكَ جُمْعَةٌ ... فكأنهُمْ لم يحزَنُوا
الناسُ في غَفَلاتِهِمْ ... ورَحَى المَنِيَّةِ تَطْحَنُ

الرحى: حجر الطاحون

٦٩ العزيز والذليل

ما أَنا إلَّا لِمَنْ بَغانِي ... أَرى خَليلي كما يراني
لستُ أرى ما مَلَكْتُ طَرْفِي ... مَكانَ مَنْ لا يَرَى مَكاني

لن أرى ـ ما دمت أملك عينين ـ مكاناً واحتراماً لمن لا يرى لي مثل هذا

ولِي إلى أن أَمُوتَ رزقٌ ... لو جَهِدَ الخَلْقُ ما عَداني

ما عداني: ما تعدَّاني وتخطاني

لا تَرْتَجِ الخيرَ عند مَنْ لا   يَصْلُحُ إلَّا على الهَوانِ

لا خير في شخص لا يستقيم حاله إلا إذا أهين وتعرض للتوبيخ والتأنيب. بعض الناس «يسمنون على الإهانة» كما يقول المثل في بلدي. الواقع أن بعض الناس لا يتقبلون احترامك لهم، ويفضلون أن تعاملهم بترفع، فهذا يعفيهم من المسؤولية. . هذا اختيار. هناك ناس هكذا بالطبع أو بالتربية. وأبو العتاهية يحذرنا من التماس الخير عند هؤلاء

فالمالُ مِنْ حِلِّهِ قِوامٌ   لِلعِرْضِ والوجهِ واللسانِ

من حله: من موضع يكون فيه حلالاً. . فالمال يقيم الشرف، ويقي المرء بذل وجهه، ويقي لسانه السؤال

والفقرُ ذُلٌّ عليهِ بابٌ   مِفتَاحُهُ العَجْزُ والتَّوَاني

يا رَبِّ لم نَبْكِ مِنْ زمانٍ   إلَّا بَكَيْنا على زمانِ

كلما بكينا من قسوة الزمن الحاضر بكينا أسفاً على زمن ماضٍ كان أفضل

٧٠ علامة الضياع

إن كان عِلمُ امْرِئٍ في طولِ تَجرِبةٍ   فإنَّ دونَ الذي جَرَّبْتُ يَكفيني

ومِنْ عَلامَةِ تَضْييعي لِآخِرَتي   أنْ صِرْتُ تُغضِبُني الدنيا وتُرضيني

يا مَنْ تَشَرَّفَ بالدنيا وطينَتِها   ليس التَّشَرُّفُ رَفْعَ الطينِ بالطينِ

من أصبح شريف القدر بما نال من خير الدنيا الذي هو طين فهذا ليس الشرف الحقيقي لأن الإنسان مخلوق من طين، فالطين لا يرفع قدر الطين

إذا أردْتَ شَريفَ الناسِ كُلِّهِمُ   فانظرْ إلى مَلِكٍ في زِيِّ مِسكينِ

ذاكَ الذي عَظُمَتْ في اللَّهِ حُرْمَتُهُ   وذاكَ يَصلُحُ لِلدنيا ولِلدينِ

٧١ الناس مع الواقف

ما الناسُ إلَّا لِلكثيرِ المَالِ أو   لِمُسَلَّطٍ ما دامَ في سُلطانِهِ

فإذا الزمانُ رَمى الفتى بِمُلِمَّةٍ   كان الثِّقَاتُ عليهِ مِنْ أَعوَانِهِ

واعلَمْ بِأنَّكَ لا تُلائِمُ كلَّ مَنْ   أَلقَى إليكَ تَلَهُّفاً بِلِسَانِهِ

وإذا تَوانَى عن صِيانَةِ نفسِهِ   رَجُلٌ تُنُقِّصَ واسْتُخِفَّ بِشَانِهِ

٧٢ الفضة والذهب

واعمِدْ إلى صِدْقِ الحديـ   ـثِ فإنَّهُ أَزْكَى فُنونِهْ

والصمتُ أجملُ بالفتى ... مِنْ مَنطِقٍ في غيرِ حينِهْ
لا خيرَ في حَشْوِ الكلا ... مِ إذا اهْتَدَيْتَ إلى عُيُونِهْ

٧٣ سيستكملونها

ألا رُبَّ آمالٍ إذا قيلَ قد دَنَتْ ... رأيتَ صُروفَ الدهرِ قد حُلْنَ دُونَها
لَعَمْرُكَ ما تَنْفَكُّ تُهدي جِنازَةً ... إلى عَسْكَرِ الأمواتِ حتَّى تَكُونَها
ذَوي الوُدِّ مِنْ أهلِ القبورِ عليْكُمُ ... سلامٌ، أما مِنْ دَعوَةٍ تَسمَعُونَها
سَكَنْتُمْ ظهورَ الأرضِ حيناً بِنَضْرَةٍ ... فمَا لَبِثَتْ حتَّى سكنْتُمْ بُطُونَها
ولِلناسِ آجَالٌ قِصَارٌ سَتنقَضي ... ولِلناسِ أرزاقٌ سَيَسْتَكْمِلُونَها

٧٤ الاستغناء

أرى الدنيا لِمَنْ هِيَ في يديْهِ ... عَذاباً كلَّما كَثُرَتْ لَديْهِ
تُهِينُ المُكْرِمينَ لَها بِصُغْرٍ ... وتُكرِمُ كلَّ مَنْ هانَتْ عليْهِ
إذا استغنَيْتَ عن شيءٍ فَدَعْهُ ... وخُذْ ما أنتَ محتاجٌ إليْهِ

٧٥ اللعبة يريدها الطفل

ما كُلُّ مَا يَتَمَنَّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ ... رُبَّ امْرِئٍ حَتْفُهُ فيمَا تَمَنَّاهُ
ما أقربَ الموتَ في الدنيا وأفْظَعَهُ ... ومَا أَمَرَّ جَنَى الدنيا وأَحْلاهُ
كم نَافَسَ المرءُ في شيءٍ وكايَدَ فيـ ... ـهِ النَّاسَ ثم مَضَى عنهُ وخَلَّاهُ

٧٦ أهزوجة الاحتضار

وإذا أَفْنَى سِنِيهِ الـ ... ـمَرْءُ أَفْنَتْهُ سِنُوهُ
وكَأَنْ بِالمَرْءِ قد يبـ ... ـكي عليه أَقْرَبُوهُ
وكَأَنْ بِالقَوم قد قا ... مُوا فقالوا أَدْرِكُوهُ
سَائِلُوهُ كَلِّمُوهُ ... حَرِّكُوهُ لَقِّنُوهُ
فإذا اسْتَيْأَسَ منهُ الـ ... ـقومُ قالوا حَرِّفُوهُ

حرفوه: أميلوه ووجهوه إلى القبلة فيموت على هذه الهيئة

حَـــرِّفُـــوهُ وَجِّـــهُـــوهُ   مَـــدِّدُوهُ غَـــمِّـــضُـــوهُ
عَـــجِّـــلُـــوهِ لِـــرَحِـــيـــلٍ   عَـــجِّـــلُـــوا لا تَـــحْـــبِـــسُـــوهُ
ارْفَـــعُـــوهُ غَـــسِّـــلُـــوهُ   كَـــفِّـــنُـــوهُ حَـــنِّـــطُـــوهُ
فـــإذا مَـــا لُـــفَّ بِـــالأكـــ   ـفـــانِ قَـــالـــوا فَـــاحْـــمِـــلُـــوهُ
أَخْـــرِجُـــوهُ فـــوق أعـــوا   دِ الـــمَـــنـــايـــا شَـــيِّـــعُـــوهُ
فـــإذا صَـــلَّـــوْا عـــلـــيـــهِ   قـــيـــلَ هَـــاتُـــوا واقْـــبُـــرُوهُ
فـــإذا مـــا اسْـــتَـــوْدَعُـــوهُ الـــ   أرضَ رَهْـــنـــاً تـــرَكُـــوهُ
خَـــلَّـــفُـــوهُ تَـــحْـــتَ رَدْمٍ   أَوْقَـــرُوهُ أَثْـــقَـــلُـــوهُ

أوقروه: أثقلوه

أَبْـــعَـــدُوهُ أَسْـــحَـــقُـــوهُ   أَوْحَـــدُوهُ أَفْـــرَدُوهُ

أسحقوه: عمَّقوا له

ودَّعُـــوهُ فَـــارَقُـــوهُ   أَسْـــلَـــمُـــوهُ خَـــلَّـــفُـــوهُ
وانْـــثَـــنَـــوْا عـــنـــه وخَـــلَّـــوْ   هُ كـــأنْ لـــم يَـــعْـــرِفُـــوهُ
يُـــكْـــرَمُ الـــمـــرءُ، وإنْ أَمْـــ   ـلَـــقَ أَقْـــصَـــاهُ بَـــنُـــوهُ

أملق: افتقر

لـــو رأى الـــنـــاسُ نَـــبِـــيَّـــاً   سَـــائِـــلاً مـــا وَصَـــلُـــوهُ
وهُـــمُ لـــو طَـــمِـــعُـــوا فـــي   زَادِ كَـــلْـــبٍ أَكَـــلُـــوهُ
أَفْـــضَـــلُ الـــمَـــعْـــروفِ مـــا لـــم   تُـــبْـــتَـــذَلْ فـــيـــه الـــوُجُـــوهُ
أنـــتَ مـــا اسـتَـغْـنَـيْـتَ عـن صـا   حِـــبِـــكَ الـــدهـــرَ أَخُـــوهُ
فـــإذا احْـــتَـــجْـــتَ إلـــيـــهِ   ســـاعَـــةً مـــجَّـــكَ فُـــوهُ

مجك: لفظك. القصيدة فيها تكرار يليق بالموقف.. فالرجل في موقف تخويف وتفظيع وإرهاب وتحذير وحسرة قابضة للقلب.. وهو يترنم بهذه الألفاظ مثلما تترنم الثكلى بلحن سريع فيه فرح وهي تندب، والنادبات قد يقلن كلاماً ككلام أبي العتاهية يصفن فيه الميت.. سمعت نائحة تنوح على ميت كان في الصباح قد طلب مبراة يبري بها قلماً.. ثم مات.. فقعدت النائحة تقول كلاماً سخيفاً عن المبراة والقلم في لحن سريع فرح.. وظننت هذا مما لا يجوز إلى أن سمعت الشيخ إمام يندب غيفارا في مقطع «عيني عليه ساعة القضا من غير رفاقة تودعه» فإذا هو يصنع صنيعها في لحنه

٧٧ يوميات زاهد

رغـــيـــفُ خـــبـــزٍ يـــابـــسٍ تـــأكُـــلُـــهُ فـــي زَاوِيَـــةْ
وكـــــوزُ مَـــــاءٍ بـــــارِدٍ تَـــشْـــرَبُـــهُ مِـــنْ صَـــافِـــيَـــةْ
وغُـــرفَـــةٌ ضَـــيِّـــقَـــةٌ نَـــفْـــسُـــكَ فـــيـــهـــا خَـــالِـــيَـــةْ
أو مَـــسْـــجِـــدٌ بِـــمَـــعْـــزِلٍ عـــن الـــوَرَى فـــي نَـــاحِـــيَـــةْ
تَـــدْرُسُ فـــيـــه دَفـــتـــراً مُـــسْـــتَـــنِـــداً لِـــسَـــارِيَـــةْ
مُـــعْـــتـــبِـــراً بِـــمـــا مَـــضَـــى مِـــنَ الـــقُـــرونِ الـــخَـــالِـــيَـــةْ
خـــيـــرٌ مِـــنَ الـــســـاعـــاتِ فـــي فَـــيْءِ الـــقـــصـــورِ الـــعَـــالِـــيَـــةْ
فـــاســـمَـــعْ لِـــنُـــصْـــحِ مُـــشْـــفِـــقٍ يُـــدعَـــى أَبـــا الـــعَـــتَـــاهِـــيَـــةْ

٧٨ أرجوزة «ذات الأمثال»

الـحـمـدُ لـلَّـهِ عـلـى تـقـديـرِهِ وحُـسْـنِ مـا صـرَّفَ مِـنْ أُمـورِهِ
الـحـمـدُ لـلـهِ بـحـسـنِ صُـنْـعِـهِ شـكـراً عـلـى إعـطـائِـهِ ومـنـعِـهِ
حسبُكَ مِمَّا تبتغيهِ القوتُ ما أكثرَ القُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ
إن كان لا يُغْنِيكَ ما يَكفيكَا فكُلُّ ما في الأرضِ لا يُغنيكا

يغنيك: يقنعك

الفقرُ فيما جاوزَ الكَفافا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ رَجَا وخَافا
اللَّهُ حَسْبي في جميعِ أَمْرِي بِهِ غَنائي وإلَيْهِ فَقري
لن تُصْلِحَ الناسَ وأنتَ فاسِدُ هَيْهَاتَ ما أبعَدَ ما تُكابِدُ
لِكُلِّ ما يُؤْذي وإن قَلَّ أَلَمْ ما أطوَلَ الليلَ على مَنْ لم يَنَمْ
مَنْ جعلَ النمَّامَ عيناً هَلَكا مُبْلِغُكَ الشرَّ كَباغيهِ لَكا
المَكْرُ والخِبُّ أَداةُ الغَادِرِ والكَذِبُ المَحْضُ سِلاحُ الفَاجِرِ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ أُمورِي كُلَّها إن لم يكُنْ ربِّي لها فَمَنْ لَها؟
مَا عَيْشُ مَنْ آفَتُهُ بَقاؤُهُ نَغَّصَ عَيْشاً طَيِّباً فَناؤُهُ
إِنَّ الشبابَ والفَراغَ والجِدَةْ مَفسَدَةٌ لِلْمَرءِ أَيُّ مَفْسَدَةْ

الجدة: الغنى، فمن «وجد» المال فهو ذو «جدة»

يَا لِلشَّبابِ، المَرَحِ، التَّصَابي رَوائِحُ الجنَّةِ في الشبابِ

كان الجاحظ يترنم بهذا البيت. تجسر على الشباب وعلى المرح وعلى التصابي، أي اللهو

هِيَ المَقاديرُ فَلُمْني أو فَذَرْ إن كنتُ أَخْطَأْتُ فما أَخْطَا القَدَرْ

إن الفسادَ ضِدَّهُ الصَّلاحُ ورُبَّ جِدٍّ جَرَّهُ المِزَاحُ

ما تَطْلُعُ الشمسُ ولا تغيبُ إلَّا لِأَمْرٍ شأْنُهُ عجيبُ

لِكُلِّ شيءٍ مَعْدِنٌ وجَوْهَرُ وأَوْسَطٌ وأَصغَرٌ وأَكْبَرُ

مَنْ لَكَ بِالمَحْضِ وليس مَحْضُ يَخْبُثُ بعضٌ ويَطِيبُ بَعْضُ

المحض: الصافي.. والصافي من كل شيء غير موجود، لا من بشر ولا من أشياء

إنَّكَ لو تستَنْشِقُ الشَّحِيحَا وجَدْتَهُ أَنتَنَ شَيءٍ رِيحا

يا عاشِقَ الدنيا تَسَلَّ عنها وَيْلي على الدنيا ووَيْلي منها

لِلْمَوْتِ بي جِدٌّ وأَيُّ جِدٍّ ولَسْتُ لِلمَوْتِ بِمُسْتَعِدٍّ

أَفلَحَ مَنْ كان له تَفَكُّرُ ما كُلُّ ذي عَيْشٍ يَرى ما يُبْصِرُ

ذي عيش: إنسان

ما انتَفَعَ المرءُ بِمثلِ عقلِهِ وخيرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فعلِهِ

نَطْلُبُ أن نَبْقَى وليس نَبْقَى كلٌّ سَيَلْقَى اللَّهَ حَقَّاً حَقَّا

لا تَبْغِ ما يُجْزِيكَ منهُ دُونَهُ وإنْ رَأَيْتَ الناسَ يَطْلُبُونَهُ

يجزيك: أي يجزئك أي يعوِّضك. والمعنى: لا تطلب شيئاً يعوضك عنه شيء أقل منه، واكتف بالموجود ما دام يسد الحاجة

ما زالتِ الدنيا لنا دارَ أَذَىَ مَمْزُوجَةَ الصَّفْوِ بِأَلوانِ القَذَى

لِيَسْلَمِ الناسُ جميعاً مِنْكَا وارْضَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرضَى عَنْكَا

يا رَبِّ أَسْعِدني بِمَا عَلَّمْتَني ولا تُهِنِّي بعدَ إذْ أَكْرَمْتَني

قَدِّمْ لِمَا بين يَدَيْكَ قَدِّمِ أُفٍّ وتُفٍّ لِعَبيدِ الدِّرْهَمِ

لا سَعَةٌ أَوْسَعُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقْ مَنِ اعتَدَى تَاهَ ومَنْ تَاهَ حَمُقْ

أَسْلَمَ مَقْبُوراً مُشَيِّعُوهُ إنْصَرَفُوا عنه وخَلَّفُوهُ

ساعَةَ سَوَّوْا تُرْبَهُ عَلَيْهِ وَلَّوْا ولم يَلْتَفِتُوا إلَيْهِ

خَلا أَخٌ عنكَ فَلا تُخَلِّهْ مَنْ لَكَ يَوماً بِأَخيكَ كُلِّهْ

*** * * تكملة الديوان/غير الزهد/ولا يخلو المقبل من زهد وأكفان.. هذا أبو العتاهية * * ***

٧٩ استراق البكاء

مَــنْ لــم يَــذُقْ حُـرَقَ الـهـوى ... لــم يَــدْرِ مــا جَـهْـدُ الـبَـلاءِ

كـم مِـنْ صـديـقٍ لـي أُسـا ... رِقُـهُ الـبُـكـاءَ مِـنَ الـحَـيـاءِ

فــإذا تَــفَــطَّــنَ لامَــنــي ... فــأقــولُ مــا بِــيَ مِــنْ بُــكــاءِ

لــكــنْ ذَهــبْــتُ لأَرْتــدي ... فَـطَـرَفْـتُ عـيـنِـيَ بِـالـرِّداءِ

حــتــى أُشَــكِّــكَــهُ فَــيَــسْــ ... ـكُـتَ عـن مَـلامـيَ والـمِـراءِ

المراء: المجادلة

٨٠ قطع السحاب

يمدح الرشيد وقد فتح هرقلة:

أَلَا نـادَتْ هِـرَقْـلَـةُ بِـالـخَـرابِ ... مِنَ الـمَـلِـكِ الـمُـوَفَّـقِ لـلصَّـوابِ

هرقلة: مدينة في بلاد الروم غزاها الرشيد وخربها بعد قصته مع نقفور قائد الروم

غـدا هـارونُ يُـرْعِـدُ بِـالـمَـنـايـا ... ويُـبْـرِقُ بِـالـمُـذَكَّـرَةِ الـقِـضَـابِ

المذكرة القضاب: السيوف

ورَايـاتٍ يَـحِـلُّ الـنَّـصْـرُ فـيـهـا ... تَـمُـرُّ كـأَنَّـهـا قِـطَـعُ الـسَّـحـابِ

أميرَ الـمُـؤمنينَ ظَفِرْتَ فاسْلَـمْ ... وأَبْـشِـرْ بِـالـغـنـيـمـةِ والإِيـابِ

٨١ تستعطف قاتل ابنها

قال على لسان زبيدة يخاطب المأمون، وكان المأمون قتل الخليفة محمد الأمين أخاه لأبيه وابن زبيدة:

أَصابَتْ بِرَيْبِ الدهرِ مِنِّي يَدي يَدي ... فَسَلَّمْتُ لِلأقدارِ، واللَّهَ أَحْمَدُ

وقُلْتُ لِريبِ الدهرِ إن هَلَكَتْ يَدٌ ... فقد بَقِيَتْ والحمدُ للهِ لي يَدُ

إذا بَقِيَ المأمونُ لي فالرَّشيدُ لِي ولِي جَعْفَرٌ لم يُفْقَدا، ومُحَمَّدُ

بقاؤك أيها المأمون يجعلني أشعر أن أباك الرشيد بقي لي وبقي لي جعفر أبي ومحمد ابني. كذا نساء القصور اللائي عرفن طعم السلطان. . هذه سيدة هاشمية جليلة، أبوها جعفر بن المنصور وزوجها هارون الرشيد وابنها محمد الأمين الخليفة الذي قتله أخوه المأمون. وبعد مقتل ابنها وجدت جفاء من الخليفة الجديد ـ ابن ضرتها المأمون ـ فبعثت إلى أبي العتاهية أن يرقق قلبه بشعر، فكانت هذه القصيدة. وسمعها المأمون فدخل على زبيدة وقبل رأسها وعطف عليها

٨٢ استعطاف السجين

يا رَشيدَ الأَمْرِ أَرْشِدْني إلى وَجْهِ نُجْحي لا عَدِمْتَ الرَّشَدا

أيها الخليفة الرشيد، الذي أموره رشيدة، أرشدني إلى وجه نجحي، طريق خلاصي

لا أَرَاكَ اللَّهُ سُوءاً أبداً ما رَأَتْ مِثْلَكَ عينٌ أَحَدَا

وابَلائي مِنْ دَعَاوَى أَمَلٍ كُلَّما قلتُ تَدانَى بَعُدا

يا للبلاء من أمل يدعوني إليه فأقول قد دنا الإفراج، ثم يبتعد الأمل ويطول سجني

كَمْ أُمَنَّى بِغَدٍ بَعْدَ غَدٍ يَنفَدُ العمرُ ولم أَلْقَ غَدا

٨٣ ولاة العهد

قال حين عقد الرشيد لأولاده الأمين والمأمون والمؤتمن ولاية العهد:

تَجافَى عن الدنيا وأَيقَنَ أنها مُفارَقَةٌ ليستْ بِدارِ خُلودِ

ابتعد الرشيد عن الدنيا لأنه أيقن أنها مفارِقَة، سيفارقها المرء

وشَدَّ عُرى الإِسلامِ منهُ بِفتيَةٍ ثَلاثَةِ أَمْلَاكٍ وُلاةِ عُهودِ

وعين ثلاثة ولاة للعهد شد بهم عرى الإسلام، والعروة هي الأنشوطة يشدها المرء على عنق الدابة فتضيق فلا تفلت الدابة، وفي لغتنا اليوم العروة هي الفُتحة التي يدخل فيها الزر

بَنُو المُصْطَفى هَارونَ حَوْلَ سَريرِهِ فَخَيرُ قِيامٍ حَولَهُ وقُعُودِ

تُقَلِّبُ أَلْحَاظَ المَهابَةِ بينَهُمْ عُيونُ ظِباءٍ في قُلُوبِ أُسودِ

نظرات الهيبة تقلبها عيونهم الجميلة التي كعيون الظباء لكن ترفدها قلوب شجاعة

٨٤ رسالة السجين إلى سجانه

كتب للرشيد حين حبسه:

أنا اليوم لِي والحمدُ للَّهِ أَشْهُرُ يُراحُ عَلَيَّ الهَمُّ مِنْكُمْ ويَبْكُرُ

تَذَكَّرْ أمينَ اللّهِ حَقِّي وحُرْمَتي وما كنتَ تُولينِي، لَعَلَّكَ تَذْكُرُ

تولیني: تعطيني

ليالِيَ تُدْني منكَ بِالقُرْبِ مَجلِسي ووَجْهُكَ مِنْ ماءِ البَشاشَةِ يَقْطُرُ

فمَنْ لِيَ بِالعينِ التي كنتَ مَرَّةً إلَيَّ بها في سَالِفِ الدهرِ تَنْظُرُ

٨٥ تضاحك في الميدان

جَرى لَكَ مِنْ هارونَ بِالسَّعْدِ طَائِرُهْ إمَامُ اعتِزامٍ لا تُخَافُ بَوادِرُهْ

جرى لك يا أبا العتاهية طائر السعد، رمز التفاؤل، من الخليفة هارونٍ الرشيد، وهو إمام ذو عزيمة ولا يخشى المرء بوادره، أي مفاجآته غادراً

وأَوْسَطُ بَيْتٍ في قُريشٍ لَبَيْتُهُ وأولُ عِزٍّ في قُريشٍ وآخِرُهْ

وزَحْفٍ له تَحكي البُروقَ سُيوفُه وتَحكي الرُّعُودَ القَاصِفاتِ حَوَافِرُهْ

لمعان سيوفه كالبروق، وأصوات حوافر خيله كالرعود

إذا حَمِيَتْ شمسُ النهارِ تضاحكتْ إلى الشمسِ فيه بَيْضُهُ ومَغَافِرُهْ

كأن البِيْض، أي الخُوَذ، والمغافر، بقايا الخوذ المنسدلة عند القذال خلف الرأس، تتبادل الضحكات مع الشمس

إذا نُكِبَ الإسلامُ يوماً بِنكبَةٍ فَهارُونُ مِنْ بينِ البَرِيَّةِ نَاصِرُهْ

٨٦ الليل الطويل

يا رُبَّ ليلٍ طويلٍ بِتُّ أرقُبُهُ حتى أضاءَ عمودُ الصبحِ فانفَجَرا

ما كنتُ أَحسَبُ، إلّا مُذْ عَرفْتُكُمُ، أنَّ المَضاجِعَ مِمَّا يُنْبِتُ الإبَرا

والليلُ أطولُ مِنْ يومِ الحِسابِ على عينِ الشَّجِيِّ إذا ما نَومُهُ نَفَرا

٨٧ الجنة الأرضية

لَهَفي على الزمنِ القصيرِ بينَ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ

إذ نحنُ في غُرَفِ الجنا نِ نَعومُ في بحرِ السُّرورِ

في فِتيةٍ مَلَكُوا عِنا نَ الدَّهرِ، أمثَالِ الصُّقُورِ

يَتَعاوَرُونَ مُدامَةً صَهباءَ مِنْ حَلَبِ العصيرِ

يتعاورون: يتبادلون

عــــذراءَ رَبَّـــاهـــا شُــــعــــا ... عُ الـشـمـسِ في حَرِّ الـهَـجيرِ
لــــم تُـــدْنَ مِـــنْ نــارٍ ولــم ... يَـعْـلَـقْ بـهـا وَضَـرُ الـقُـدورِ

لم يطبخ عنب تلك الخمر، ولم يقترب من وضر، وسخ، القدور

ومُـقَـرْطَـقٍ يَـمـشـي أمـا ... مَ الـقـومِ كـالـرَّشَـأِ الـغَـريـرِ

رب فتى يلبس قرطقاً، قميصاً أبيض، كأنه الرشأ الغرير، الظبي الصغير البريء، وهو يمشي بـ..

بِـزُجَـاجَـةٍ تَـسـتَـخْـرِجُ الـسِّـ ... ـرَّ الـدفـيـنَ مِـنَ الـضـمـيـرِ

يمشي بزجاجة، أي بكأس، خمر تجعل الشارب يبوح بسره

ومُـخَـصَّـراتٍ زُرْنَـنـا ... بـعـد الـهُـدُوِّ مِـنَ الـخُـدورِ

مخصرات: ذوات خصور نحيلة، وجئن بعد الهدو، العَتَمة، من خدورهن، من وراء ستورهن

رَيَّـا رَوادِفُـهُـنَّ يَـلْـ ... ـبَسْنَ الـخَـواتِـمَ فـي الـخُـصُـورِ

الأرداف ريا كبيرة، والخصور نحيلة حتى ليكدن يلبسن فيها الخواتم

مُـتَـنَـعِّـمـاتٍ فـي الـنـعـيـ ... ـمِ مُـضَـمَّـخَـاتٍ بِـالـعَـبـيـرِ
مـا إنْ يَـرَيْـنَ الـشـمـسَ إلَّا ... الـفَـرْطَ مِـنْ خَـلَـلِ الـسُّـتـورِ

لا يرين الشمس إلا الفرط، قليلاً، من الشقوق بين الستور

٨٨ اهتزازها من تحت الثياب

إذا مـا بَـدَتْ والـبـدرَ لَـيـلـةَ تِـمِّـه ... رأيتَ لـهـا فـضـلاً مُبِيناً على البدرِ

إذا ظهرت المحبوبة «عُتبة» مع البدر أدركتَ أنها أجمل منه

وتـهـتزُّ مِنْ تحتِ الثيابِ كأنها ... قضيبٌ مِنَ الريْحانِ في وَرَقٍ خُضْرِ
أبَـى الـلَّـهُ إلَّا أن أمـوتَ صَـبـابَـةً ... بِساحِرةِ العيْنينِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

النشر: الرائحة

٨٩ فتنفست

قـال لـي أحـمـدٌ ولـم يَـدْرِ مـا بـي ... أتُـحِـبُّ الـغَـداةَ عُـتْـبَـةَ حـقَّـا
فـتـنفَّـسْـتُ ثـم قـلـتُ نـعـمْ حُـبَّـ ... ـاً جرى في العُروقِ عِرْقاً فَعِرْقا
قد لَعَمْرِي مَلَّ الطبيبُ ومَلَّ الـ ... ـأهلُ مِنِّي مِمَّا أُقَاسي وأَلْقَى

لـيتَـنـي مُـتُّ فـاسـتـرَحْـتُ فـإنِّـي   أبـداً مـا حـيـيـتُ مـنـهـا مُـلَـقَّـى

ملقى: مصاب بالشرور

٩٠ الشوق إلى قعيدة بيتي

حبسه الرشيد واشترط عليه أن يقول في الغزل حتى يطلقه، وأصر أبو العتاهية ألا يفعل، ثم تغزل بزوجته حتى ينال حريته:

مَـنْ لِـقـلْـبٍ مُـتَـيَّـمٍ مُـشـتـاقِ   شَـفَّـهُ شَـوْقُـهُ وطـولُ الـفِـراقِ

طـالَ شَـوقـي إلـى قَـعـيـدَةِ بَـيْـتـي   لـيتَ شِـعْـري فـهـلْ لَـنـا مِـنْ تَـلاقِ

هِـيَ حَـظِّـي قـد اقـتَـصَـرْتُ عـلـيْـهـا   مِـنْ ذَواتِ الـعُـقـودِ والأطـواقِ

الطوق: العقد الضيق، كطوق الحمامة. وفي زمننا أطلقوه على قوس يحبس الشعر فوق رأس الفتاة

جَـمَـعَ الـلَّـهُ عَـاجِـلاً بِـكِ شَـمْـلـي   عـن قـريـبٍ وفَـكَّـنـي مِـنْ وِثَـاقـي

٩١ خبز بلا إدام

قال يذم السحاقيات:

ألا يا ذَوَاتِ السَّحْقِ في الغربِ والشرقِ   أَفِقْنَ فإنَّ النَّبْكَ أَشْفَى مِنَ السَّحْقِ

ذاك الشيء المكتوب مصحفاً أشفى، أكثر إرواء، مما أنتن فيه

أَفِقْنَ فـإن الـخُـبْـزَ بِـالأُدْمِ يُـشْـتَـهَـى   وليس يَسُوغُ الخبزُ بالخبزِ في الحَلْقِ

الأدم: الإدام

أَراكُـنَّ تَـرقَـعْـنَ الـخُـروقَ بِـمـثـلِـهـا   وأيُّ لَـبـيـبٍ يَـرقَـعُ الـخَـرْقَ بِـالـخَـرْقِ

وهـلْ يَـصْـلُـحُ الـمِـهْـراسُ إلَّا بِـعُـودِهِ   إذا احـتِـيـجَ مـنـه ذاتَ يـومٍ إلـى الـدَّقِّ

المهراس: الهاون الذي فيه تدق الأبزار والبن

٩٢ شكوى المطايا

يمدح عمر بن العلاء، من قادة المهدي:

إنِّـي أَمِـنْـتُ مِـنَ الـزمـانِ ورَيْـبِـهِ   لـمـا عَـلِـقْـتُ مِـنْ الأمـيـرِ حِـبـالا

لـو يـسـتـطـيـعُ الـنـاسُ مِـنْ إجْـلالِـهِ   لَـحَـذَوْا لـه حُـرَّ الـوُجـوهِ نِـعـالا

لشدة تعظيمهم له لا يمانعون أن يحذوا، أي يقصوا، حر وجوههم، أي أواسطها، نعالاً له

ما كانَ هذا الجودُ حتى كنتَ يا عمرٌ، ولو يَوماً تَزُولُ لَزَالا

إن المَطايا تَشْتَكيِكَ لأنَّها قَطَعَتْ إليكَ سَباسِبَاً ورِمالا

قطعت الإبل السباسب، الصحارى، كي نلقاك أيها الممدوح

فإذا أتَيْنَ بِنا أتَيْنَ مُخِفَّةً وإذا رجعنَ بِنا رجعنَ ثِقالا

تأتي بنا الإبل خفيفة وتعود ثقيلة بما حملنا عليها من عطاياك

٩٣ ما تصنع بالسيف؟

يهجو عبد الله بن معن بن زائدة:

لقد بُلِّغْتُ ما قَالا فما بالَيْتُ ما قَالا

فَصُغْ ما كنتَ حَلَّيْتَ به سَيْفَكَ خَلْخَالا

فما تَصْنَعُ بالسَّيْفِ إذا لم تَكُ قَتَّالا

٩٤ أتته الخلافة منقادة

يمدح المهدي:

ألا ما لِسيِّدَتي مَا لَها أدَلّاً؟ فأحْمِلُ إدْلالَها

ما للمحبوبة؟ أهو الدلال الذي يجعلها تصد عنا؟ فهذا نتحمله بسرور

وإلّا فَفيمَ تَجنَّتْ، وما جَنَيْتُ، سَقَى اللَّهُ أطلالَها

فإن لم يكن مجرد دلال فلماذا تتجنّى عليَّ؟ وماذا جنيت أنا، ويدعو لبيوتها بالسقيا

ألا إنَّ جارِيَةً لِلإما م قد أُسْكِنَ الحُسْنُ سِربَالَها

يتغزل بعتبة وهي جارية من جواري الإمام، أي المهدي، وكان المهدي حاول تزويجها من أبي العتاهية فرفضت الجارية بشدة، يقول: الجمال سكن في سربالها، أي ثوبها

مَشَتْ بينَ حُورٍ قِصَارِ الخُطا تُجاذِبُ في المَشْيِ أكْفَالَها

مشت بين صويحباتها اللائي يمشين ببطء بخطا قصيرة، وهي تجذب أكفالها يميناً وشمالاً

وقد أتْعَبَ اللَّهُ نَفْسي بِها وأتْعَبَ بِاللَّوْمِ عُذَّالَها

كأنَّ بِعَيْنيَّ في حَيْثُما سَلَكْتُ مِنَ الأرضِ تِمثالَها

أتَتْهُ الخِلافَةُ مُنقَادَةً إليهِ تُجَرِّرُ أذْيالَها

يمدح المهدي:

ولم تَكُ تَصْلُحُ إلَّا لَهُ ولم يَكُ يَصْلُحُ إلَّا لَها

ولــو رَامَـهـا أحـدٌ غَـيْـرَه لَـزُلْـزِلَـتِ الأرضُ زِلـزَالَـهـا
ولو لـم تُطِعْهُ بنـاتُ القُـلوبِ لَـمـا قَـبِـلَ الـلَّـهُ أَعْـمَـالَـهـا
وإنَّ الـخـلـيـفـةَ مِـنْ بُـغْـضِ «لا» إلـيـه لَـيُـبْـغِـضُ مَـنْ قَـالَـهـا

واستحسن بشار أبيات المديح في هذه القصيدة التي هي من أشهر قصائد أبي العتاهية

٩٥ أخت بني شيبان

قال يهجو عبد الله بن معن بن زائدة:

سُبحانَ مَنْ خَصَّ ابنَ مَعْنٍ بِما أرى بِـهِ مِـنْ قِـلَّـةِ الـعَـقْـلِ
قـال ابـنُ مَـعْـنٍ وجَـلا نـفـسَـه عـلـى الـقَـرابـاتِ مـن الأَهـلِ

يشبهه بالمرأة التي تجلو نفسها، أي تظهر نفسها بكل زينتها، على صويحباتها مدلةً بجمالها

أَنـا فَـتـاةُ الـحَـيِّ مِـنْ وَائِـلٍ فـي الـشَّـرَفِ الـشَّـامِـخِ والـنُّـبْـلِ

تفتخر بأنها من خير فرع في قبيلة وائل

ما في بَنِي شيْبَانَ أهْلِ الحِجَا جَـارِيـةٌ واحِـدَةٌ مِـثـلـي

وقبيلة شيبان من وائل، أهل الحجا: أهل العقل

يـا لَـيْـتَـنـي أبـصـرتُ دَلَّالَـةً تَـدُلُّـنـي الـيـومَ عـلـى فَـحْـلِ
ويْـلِـي ويـا لَـهْـفـي عـلـى أَمْـرَدٍ يُـلْـصِـقُ مِـنِّـي الـقُـرْطَ بِـالـحِـجْـلِ

الأمرد: الشاب لم تنبت بعد لحيته، تريده أن يلصق قرطها، حَلَق أذنها، بحجلها، بخلخالها

صَـافَـحْـتُـهُ يـومـاً عـلـى خَـلْـوَةٍ فـقـال دَعْ كَـفِّـي وخُـذْ رِجْـلـي

يقول أبو العتاهية إنه صافح عبد الله هذا في خلوة، وهما وحدهما، فأراد منه عبد الله أن يترك كفه ويأخذ برجله

أُخْـتُ بَـنِـي شَـيْـبـانَ مَـرَّتْ بِـنَـا مَـمْـشُـوطَـةً كُـوراً عـلـى بَـغْـلِ

يعود إلى تشبيهه بالفتاة التي مرت راكبة بغلاً، والكور مما يوضع فوق ظهر الدابة

تُـكْـنَـى أبـا الـفضـلِ ويـا مَـنْ رَأَى جَـارِيَـةً تُـكْـنَـى أبـا الـفَـضْـلِ
قـد نَـقَّـطَـتْ فـي وَجْـهِـهـا نُـقْـطَـةً مَـخـافَـةَ الـعـيـنِ مِـنَ الـكُـحْـلِ
إن زُرْتُـمـوهـا قـال حُـجَّـابُـهـا نـحـنُ مِـنَ الـزُّوَّارِ فـي شُـغْـلِ
مـولاتُـنـا مَـشـغُـولَـةٌ عـنـدَهـا بَـعْـلٌ ولا إِذْنَ عـلـى الـبَـعْـلِ

يا بِنتَ مَعْنِ الخيرِ لا تَجْهَلي وأيـن إِقْـصـارٌ عـن الـجَـهْـلِ

لا تكوني متهورة حانقة، وإن كان الإقصار والكَفُّ عن الجهل بعيداً منك

أَتَـجْـلِـدُ الـنـاسَ وأنـتَ امْـرُؤٌ تُـجْـلَـدُ في الـدُّبْـرِ وفـي الـقُـبْـلِ

يعود إلى مخاطبته بضمير المذكر: كيف تجلد الناس، ويبدو أن الرجل أمر بجلد أبي العتاهية، وأنت تتلقى الجلد هنا وهنا!

مـا يـنـبـغـي لِـلـنـاسِ أن يَـنْـسِـبُـوا مَـنْ كـان ذا جـودٍ إلـى الـبـخـلِ

لا ينبغي اتهامك بالبخل..

يـبـذُلُ مـا يَـمـنَـعُ أهـلُ الـنَّـدَى هـذا لَـعَـمـري مُـنْـتَـهـى الـبَـذْلِ

فأنت تسخو بما يمنعه أهل الندى والسخاء.. أنت تبذل الفاحشة..

مـا قـلـتُ هـذا فـيـكَ إلّا وقـد جَـفَّـتْ بِـهِ الأَقْـلامُ مِـنْ قَـبْـلـي

٩٦ يلحس بصقته

قال في صلحه مع عبد الله بن معن بن زائدة، وكان عبد الله جاء بأبي العتاهية وأمر غلمانه ففعلوا به الفاحشة لأنه هجاه، ثم قال له هل لك في عشرة آلاف درهم ويكون الصلح أم تقيم على الحرب؟ فاختار العتاهي الصلح، فقال له عبد الله: أسمعني ما تقول في الصلح، فقال:

عَـذَلـونـي فـي اغْـتِـفَـاري لابـنِ مَـعـنٍ واحـتِـمَـالـي
كـلُّ مـا قـد كـان مـنـهُ فَـلِـقُـبْـحٍ مِـنْ خِـلالـي

خلالي: صفاتي

إنَّـمـا كـانَـتْ يَـمـيـنـي صَـرَمَـتْ جَـهـلاً شِـمـالـي

صرمت: قاطعت وهجرت

قُـلْ لِـمَـنْ يَـعـجَـبُ مِـنْ حُـسْـ ـنِ رُجُـوعـي وانـتِـقَـالـي
قـد رأيْـنـا ذا كـثـيـراً جـارِيـاً بـيـن الـرجـالِ
رُبَّ وَصْـلٍ بـعـدَ صَـدٍّ وقِـلَـىً بَـعـدَ وِصَـالِ

القلى: الهجر

٩٧ أفول الأصمعي

أَسِفْتُ لِفقْدِ الأَصمَعِيِّ، لقد مَضَى حميداً، لهُ في كلِّ صَالِحَةٍ سَهْمُ
تَقَضَّتْ بَشاشاتُ المَجالِسِ بعدَهُ وودَّعَنا، إذْ وَدَّعَ، الأُنْسُ والعلمُ

ودَّعَنا الأنسُ والعلم إذ ودَّعَنا الأصمعي

وقد كان نجمَ العِلمِ فينا حيَاتَهُ فلمَّا انقضَتْ أيامُهُ أَفَلَ النَّجْمُ

٩٨ حجبوها عن الرياح

حجَبُوها عنِ الرياحِ لِأَنِّي قلتُ يا ريحُ بَلِّغيها السَّلاما
لو رَضُوا بِالحِجابِ هَانَ، ولكنْ مَنَعُوها يومَ الرَّحيلِ الكَلاما

وزاد ماني الموسوس:

فتَنَفَّسْتُ ثم قلتُ لِطَيْفي وَيْكَ لو زُرْتَ طَيْفَها إلْمَاما
حَيِّها بِالسَّلامِ سِرَّاً، وإلَّا مَنَعُوها لِشِقْوَتي أن تَنَاما

أبيات يغنى بها في زمننا

٩٩ أنت أكبر همي

قُلْ لِمَنْ لَسْتُ أَسَمِّي بِأَبي أنتَ وأُمِّي
بِأَبي أنتَ لقد أصـ ـبحتَ مِنْ أكبرِ هَمِّي
مَنْ يَكُنْ يَجْهَلُ ما ألـ ـقَى فإنَّ الحبَّ سُقْمي
إن رُوحي لَبِبَغْدَا دَ وبِالكُوفَةِ جِسمي

١٠٠ غدر الزمان وأهله

أَجَفَوْتَني فِيمَنْ جَفاني وجعلتَ شَأنَكَ غيرَ شَاني
ولَطالَما أَمَّنْتَني مِمَّا أرى كُلَّ الأَمَانِ

أمنتني الأمان كله مما أرى من مصائب

حتى إذا انقَلَبَ الزما نُ عَلَيَّ صِرْتَ مَعَ الزمانِ

١٠١ الشجيّ والخليّ

أخِلَّايَ بي شَجْوٌ وليس بِكُمْ شَجْوُ ... وكلُّ امْرِئٍ عن شَجْوِ صَاحِبِهِ خِلْوُ
وما مِنْ محبٍّ نالَ مِمَّنْ يحبُّهُ ... هَوىً صادقاً إلَّا سَيَدْخُلُهُ زَهْوُ

المرأة إذا أوقعت الرجل في حبها تزهو وتفتخر وتصدّ

وعُلِّقْتُ مَنْ يزهُو عَلَيَّ تَجَبُّراً ... وإنِّي على كلِّ الخِصَالِ له كُفْوُ
رأيتُ الهوى جَمْرَ الغَضَا غيرَ أنَّهُ ... على كل حالٍ عند صاحِبِهِ حُلْوُ

١٠٢ الانتصار على نقفور

يمدح الرشيد بعد أن أخضع نقفور:

لك اسْمانِ شُقَّا مِنْ رَشَادٍ ومِنْ هُدَىً ... فأنتَ الذي تُدْعَى رَشِيدَاً ومَهْدِيَّا
قضَى اللَّهُ أَنْ يبقَى لِهَارونَ مُلْكُهُ ... وكان قضاءُ اللَّهِ في الخلقِ مَقْضِيَّا
تَحَلَّبَتِ الدنيا لِهارونَ بِالرِّضَا ... وأصبحَ نِقْفُورٌ لِهارونَ ذِمِّيَّا

تحلبت: سالت، ذمياً: أي تابعاً يدفع الجزية

١٠٣ مدح الأمين

قال حين جلس الأمين في الخلافة:

يا ابنَ عَمِّ النبيِّ خيرِ البَرِيَّةْ ... إنَّما أنتَ رحْمَةٌ للرَّعِيَّةْ
يا إمامَ الهُدى الأَمينُ المصفَّى ... يا لُبابَ الخِلافةِ الهَاشِمِيَّةْ
لكَ نفسٌ أَمَّارَةٌ لَكَ بِالخيـ ... ـرِ وكفٌّ بِالمَكْرُماتِ نَدِيَّةْ

١٠٤ أصدقاء وقت الرخاء

أرى قوماً وجوهُهُمُ حِسَانٌ ... إذا كانت حوائِجُهُمْ إلَيْنا
وإن كانتْ حوائجُنا إليْهِمْ ... يُقَبِّحْ حُسْنُ أَوْجُهِهِمْ علَيْنا
فإن مَنَعَ الأَشِحَّةُ ما لَدَيْهِمْ ... فإنَّا سوف نَمنحُ ما لديْنا

١٠٥ الواعظ والمتعظ

أَلَا مَنْ لي بِأُنْسِكَ يا أُخَيَّا ... ومَنْ لي أن أَبُثَّكَ ما لَدَيَّا

طَوَتْكَ خطوبُ دهرِكَ بعد نَشْرٍ   كذاكَ خطوبُه نَشْراً وطَيَّا

فلو نَشَرَتْ قُواكَ لِيَ المَنايا   شكوْتُ إليكَ ما صَنَعَتْ إِلَيَّا

بكيتُكَ يا عليُّ بدمعِ عيني   فمَا أغنى البكاءُ عليكَ شَيَّا

كفَى حُزْناً بِدفنِكَ، ثم إنِّي   نَفَضْتُ تُرابَ قبرِكَ مِنْ يَدَيَّا

وكانتْ في حياتِك لي عِظاتٌ   وأنتَ اليومَ أَوْعَظُ منكَ حَيَّا

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

العباس بن الأحنف
(١٣٣هـ ـ ١٩٢هـ)

يقول ريجيس بلاشير في تصديره لديوان العباس بن الأحنف، مخاطباً تلميذته محققة الديوان عاتكة الخزرجي: «لعل العباس لم يحيَ في مغامراته التي أنشدها في شعره، ومن المحقق أنه لم تكن لتلك المغامرات ما رسمه من صور، ولكنه تخيلها في ألوان رقيقة مثلتْها له أشواقه العُلوية، فلما استحالت شعراً أصبحت حقيقة، ولذا فقد حافظ شعره على ميزة نادرة، وهي قدرته على أن يثير أصداء حية في وجداننا العصري، وهو بالغ ذلك دون عناء، على جَناح لغة سلسة لا تكلف فيها.. هو صوت يتردد بنبرات صافية لا ثقل فيها ولا فضول». اهـ

ونحن نوافق على حكم بلاشير على شعر العباس بن الأحنف، فإن كنت قرأت لنا نقداً لحكم هذا المستشرق عينه على شعر المتنبي فذلك لأن بين شعر المتنبي وشعر العباس بَوْناً. فبلاشير الفرنسي المتأدب بآداب العربية منذ يفاعته، يفهم العربية ويحسنها، وقد تربى تربية فرنسية فهو يفهم المشاعر الرقيقة التي يشترك فيها كل البشر الموجودة في شعر العباس، ولكننا لم نأمنه على شعر المتنبي الذي هدم اللغة العربية ثم بناها بناء جديداً، والذي عبر عن مشاعر تختلط فيها حرية البداوة بثقافة عريضة وفرها له عصره. باختصار وحتى لا يقعد كلامي على قلبك: المتنبي شيء آخر.

فأما العباس بن الأحنف فشاعر رقيق وشخص رقيق. ولئن تقدم العباسُ المتنبي بمئة وخمسين سنة فإن لغته كانت أسهل من لغة المتنبي، بل هي كانت أسهل بسبب ذلك التقدم. فما وصلت اللغة العربية إلى زمن المتنبي في النصف الأول من القرن الهجري الرابع حتى كانت قد تضمخت بالثقافة والسياسة

والحضارة. فأما شاعرنا العباس فقد عاش في الزمن الأول من أزمنة التأليف، ومات ولما يكتب الجاحظ كتابيه الكبيرين «الحيوان» و«البيان والتبيين».

جولة في الإنترنت

قد جُلت جولة في الإنترنت فرأيت ما فيه عن العباس بن الأحنف من نُقولٍ عن الأغاني والديوان. ولم أجد سوى قلة ممن تنبهوا إلى النسخة المحققة المتينة من الديوان. جلت هذه الجولة حتى أضمن أن أقدم لك في هذه المقدمة شيئاً مختلفاً. وكنت قبلئذ وعيت ما قالته الكتب القديمة عن العباس، وهو قليل. وقرأت ما كتبه بلاشير في «موسوعة الإسلام» المستشرقية عن شاعرنا. ويبقى تحقيق عاتكة الخزرجي للديوان (صدر بمصر ١٩٥٤) أهم المراجع. نضيف إليه الصفحات العشرين التي في الأغاني. وما سوى ذلك مما في كتب الأدب القديم فالنتفة بعد النتفة، والاقتباسات الكثيرة من شعره، هنا بيتان وهناك ثلاثة، وهلم جرّا. وفي ذلك نفع لنا عظيم. فنحن من خلال هذه المقتبسات نرى القدماء يعرضون علينا أذواقهم، ونتفاعل معهم ويتعمق شعورنا بروعة البيت الفلاني، أو ننفر من البيت الفلاني لأنهم ما أكثروا اجترارِه إلا لنكتة بلاغية سطحية. ولا يندر أن يلفتنا القدماء إلى بيت لم نكن نتذوق فيه شيئاً حلواً، فنتأثر بهم ونعثر على ذلك الشيء الحلو، وهماً منَّا، أو لمعنىً خفيٍّ في ذلك البيت كان فاتنا التنبُّه إليه.

ونحن هنا في شرحنا لما اخترناه من أبيات لا نقول لك تحت كل بيت إن هذا مما استحسنه فلان، ولا نقص عليك تلك الحكايات التي ألصقها القدماء بأبيات بعينها، فاستيفاء ذلك يقتضي منا بحثاً أطول مما نريد، كما يقتضي الخوض في شتى الروايات، فلكل قصة ولكل أسطورة روايات. ونحن ندرك أن مما يزيد متعة المتأدبين أن يعرفوا رأي الأصمعي وابن المعتز وأبي نواس في هذا البيت أو ذاك، وفي هذه القصيدة أو تلك. لم نورد من ذلك إلا القليل. مجالنا مجال شعر لا مجال نوادر. وكتبنا الأدبية القديمة عامرة بالنوادر، فقد كانت في معظمها كتب «محاضرة». وضعها واضعوها كي يزودوا الناس بمادة «يحضرون» بها المجالس ويروحون بها عن الأمراء والكبراء. عليك بالأغاني والشعر والشعراء والموشح والكامل والإمتاع والمؤانسة والعقد الفريد، فهناك النوادر.

حياة العباس بن الأحنف

كان عم أبيه «حاجب بن قدامة»، وأبوه «الأحنف بن الأسود بن قدامة» من صغار المتصرفين التابعين للأمير العجوز نصر بن سيار الوالي الأموي في خراسان. والعائلة من بني حنيفة، فهم مثل الوالي الأموي عرب أقحاح، وكانت خراسان في دولة بني أمية محكومة بالعرب كما هو الحال في معظم مناطق الدولة الأموية. وأصبح هؤلاء العرب يديرون البلاد الشاسعة بصعوبة مع بروز العناصر الوطنية واكتسابها اللغة العربية ودخولها في الجيوش. على أن المنافس الحقيقي للوالي الأموي كان عربياً أيضاً. . كان هذا المنافس الدعوة العلوية التي لا تفتأ تبرز بين الحين والحين على شكل خروج على السلطان يقوده أحد العلويين. ثم اشتدت الدعوة العباسية، وتحالف العباسيون والعلويون، أو قل إن العباسيين تولوا عن العلويين أمر الثورة، وخرجوا على السلطان باسم العلويين، تحت راية هاشمية عريضة.

ويبدو أن حاجباً الحنفي، العمّ، انحاز إلى رجال الثورة العباسية فكان من رجال أبي مسلم الخراساني، وأبو مسلم رجل عربي الثقافة خراساني الأصل. وخراسان آنذاك تضم أفغانستان الحاضرة وجزءاً من إيران وأجزاء من الدول المجاورة. ولعل والد شاعرنا أيضاً انضم إلى الدعوة العباسية. على أنه مع انتصار هذه الدعوة في عام ١٣٢هـ تحول إلى البصرة. وفي البصرة ولد العباس سنة ١٣٣هـ.

نشأ العباس بن الأحنف في البصرة. ولم يطرأ عليه ولا على أسرته اضطراب نعرفه عندما قَتَل الخليفة المنصور أبا مسلم، وللعباس أربع سنين. فقد كانت الأسرة قد خرجت من الولاء لأبي مسلم، ودخلت في ولاء الدولة العباسية التي سرعان ما استقرت. ولعل هذه الأسرة تنفست الصعداء بمقتل باني الدولة العباسية، فما مات أبو مسلم إلا بعد أن قتل ستمئة ألف إنسان (قيل قتلهم كلهم صبراً أي إعداماً، ولا نصدق الرقم، فلنجعله ستين ألفاً، أو حتى ستة آلاف؛ هذا كثير حقاً).

لعل الأحنف والد العباس حمل ولده إلى بغداد بعيد إنشائها، فقد أتم الخليفة المنصور تشييد عاصمته الجديدة في عام ١٤٩ ونزلها مع قواده، وتأخر سكن العامة فيها بضع سنين.

كان العباس، شاعرنا، في السادسة عشرة من عمره عندما انتقلت الأسرة

إلى بغداد. وسرعان ما توفي الوالد. وبقي العباس مع أعمامه في بغداد، يتعلم كما يتعلم أبناء الطبقة الوسطى على أيدي المؤدبين، أو يحضر الدروس في المساجد. ولعله كان يساجل في الشعر بعض أنسبائه من آل الصولي الذين كان قد بدأ يعلو نجمهم في دولة الأدب ودولة السياسة.

فمن المؤكد على هذا أن إجماع المصادر على عبارة «نشأ في بغداد» ليس صحيحاً. ومن طرائف بعض «الباحثين» أنه جعل ميلاد العباس قبل بناء بغداد بخمسين سنة، ثم قال بعد سطر واحد إنه نشأ ببغداد.

غير أن العباس تعلم الشعر في البصرة بالتأكيد، فهو معاصر أبي نواس الذي تعلم الشعر بالبصرة على أيدي مجانها. فأما العباس فلم يختلط بالمجان، فيما نحسب، ولكننا على شبه يقين من أنه سمع شعرهم، وسمعوا شعره. سمع بشار شعره وقال فيه عندما سمع قصيدته «أرأيت عيناً للبكاء تعار»: «ما زال غلام بني حنيفة يدخل نفسه فينا ويخرجها حتى قال هذا الشعر». وكان بشار قد ملأ البصرة شعراً.

في بغداد ـ التي تصر كل المراجع على أن العباس نشأ فيها، ولم ينشأ فيها بل دخلها يافعاً ـ كان العباس من «أولاد الذوات». كانت أسرته على صلة بدار الخلافة. ولكن العباس نشأ شاعراً، فلم تشأ له جيناته أن يصبح قائداً ولا وزيراً ولا عاملاً.

نعرف أنه اتصل بهارون الرشيد، وأن الرشيد كان يسمع أشعاره ويقدرها، غير أن الخليفة العباسي الخامس كان يفضل أبا العتاهية على العباس بن الأحنف.

للعباس بن الأحنف مواقف في مجلس الرشيد، ففي هذا المجلس كانت له مع الأصمعي مناكفة. وأحب المغنون شعر العباس حباً جماً، فكأنه شعر وضع كي يغنى فيه. لذا كان للعباس حضور مضاعف في مجالس الخليفة فهو حاضر على حناجر كبار المغنين أحياناً، وحاضر بجسمه أحياناً. واصطحبه هارون الرشيد إلى خراسان، مثلما يصطحب السلطان المرافقين الذين تسميهم الكتب «الحاشية». وعندما أراد الرشيد أن يمضي إلى أرمينية قال العباس شعراً يشكو فيه من هذه الصحبة الطويلة «قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا، ثم القفول. فقد جئنا خراسانا!» فقال له الرشيد: قد اشتقت يا عباس! وأذن له بالعودة، ومنحه ثلاثين ألف درهم.

كان العباس من حاشية هارون الرشيد الذي تولى الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة. وكان شاعر الغزل الذي لا يطلب منه مدح الخليفة. كان للرشيد شعراء كثر، ولم يكن بحاجة إلى شاعر آخر، لا يحسن المدح أصلاً.

والتقى العباس بأبي نواس الذي كان أيضاً شاعر الرشيد المدلل، وكان النواسي يتفلت من مجلس الخليفة كراهةً لما يوجبه هذا المجلس من أصول ورسميات.

عاش العباس لشعره. وقصر شعره على الغزل. لا يصدق بلاشير مغامرات العباس بن الأحنف. ونصدقها. فلا بد أن هناك تلك الفتاة التي سماها العباس فوزاً. شعره فيها صرخات عشق لا نظنها تنبعث من فراغ. نصدق أنهما تبادلا القبلات صغاراً كما صرح في قصيدة. ثم حجبوها. ثم بدأ يراسلها، ونشأ بينهما ذلك الحب الذي يمكن وصفه بأنه من طرف واحد ونصف. فهي تبادله الغرام، ولكن نصف مبادلة، والنصف الباقي تسلية. وشاعرنا.. يتقلّى.

لعل العباس بن الأحنف كان راضياً بهذه العلاقة رضى أحمد رامي بعلاقته بأم كلثوم. فقد كان بها مغرماً، ويتقلّى ويبدع القصائد، وكانت هي تنتفع بعذاباته الصغيرة. كانا يلعبان لعبة الحب اليائس، وينتجان فناً.

لعل العباس تزوج، ولعله اقتنى جارية، ولعله كان يفرغ طاقته الجنسية كيفما شاء. لكن فوزاً ظلت حبه اليائس الذي يساعده في «إنتاج» الشعر. لم يكن ذاك هيام قيس، ذلك الهيام الذي تحول إلى بقعة دم جامدة في قلب المجنون، أودت به في النهاية. ولم يكن غرام جميل بثينة الذي شرده غرامه عن وطنه، لا ولم يكن غرام عمر بن أبي ربيعة الذي هو هيام بالحسن وبالمرأة. كان شيئاً بين جميل وعمر. فصاحبنا ابن الأحنف أحب فتاة أخرى هي «ظلوم». وأغلب الظن أنه أحبها بعد أن تزوجت فوز، أو ارتحلت مع أهلها إلى الحجاز. وكان حبه لظلوم شبحاً باهتاً من حبه لفوز. وكان يجفوها مثلما تجفوه، ولعلها كانت من جواري القصور. فأما فوز فيغلب على الظن أنها كانت ابنة عائلة ترى نفسها فوق عائلة العباس، فلم يكن من سبيل إلى الزواج، ولا إلى الوصال. وفي بعض شعره ما يوحي بأن ظلوم كانت جارية لفوز، وأنها كانت المرسال بينهما، فعندما ذهبت فوز ارتضى جاريتها عشيقة.

في هذا الذي كتبناه عن حياة العباس بن الأحنف بعض الافتراضات. نحن لا نعلم يقيناً أن فوزاً تزوجت، ولا أنها ارتحلت إلى الحجاز، بعضهم ذكر

ذلك على كل حال. وحديثنا عن كونه من أولاد الذوات إنما يستند إلى علاقته بالخليفة، وإلى وصف معاصريه لأناقته وسلوكه الملوكي، وترفه، وتهذيبه البالغ.

وكل هذا الذي ذكرناه من سيرة شاعرنا قليل الأهمية. فالرجل لم يصنع التاريخ، بل صنع شعراً. لذلك فديوانه هو ما يهمنا حقاً.

هذه آهات عاشق ملوع الفؤاد، يذل لمعشوقته، ويترضاها طول الوقت، وهي عنه لاهية. وأحب الناس هذا النمط. لا نقول إن العباس بن الأحنف مؤسس هذا اللون من ألوان الغزل. فعند عمر وجميل شيء من هذا. ولكن البيئة المدينية البغدادية المترفة جعلت العباس يوصل هذا اللون إلى غايته. وسيظل الشعراء يضعون خدودهم على الأرض لكي تدوس المحبوبة عليها ألف سنة من بعد العباس بن الأحنف. سامحه الله.

ديوانه كما وصلنا متوسط الجرم، وقالوا إنه ضاع من شعره كثير. لا بأس، فما بقي هو أفضل شعره. والرجل، بعدُ، لم يكن من عبيد الشعر. كان من فئة الهواة، ونحشره مع علي بن الجهم وديك الجن من أبناء زمنه، وعمر أبو ريشة وإبراهيم طوقان من أبناء زمننا. هناك شعراء يقولون الشعر احترافاً واكتساباً كأبي تمام والبحتري والمتنبي، وهناك الهواة الذين يعيشون حياتهم مستمتعين بها ويقولون القصيدة بعد القصيدة.

مات العباس بن الأحنف عن ستين عاماً كما يموت الناس، فإن شئت الأساطير فثمة من اخترع بعضاً منها كي يجعل ميتة شاعرنا ميتة شاعرية. والخوض في هذه الأساطير ليس من شرط عملنا.

باب الوقيعة في الأكاديميين

نبدأ بحمد من يستحق الحمد. تلك عاتكة الخزرجي التي حققت ديوان العباس بن الأحنف، وأهدته «إلى أستاذنا الشيخ الجليل والعلامة الكبير المستشرق الفرنسي الشهير، ر. بلاشير». فهذه الفتاة العراقية تنال دكتوراه الدولة من السوربون عن هذا التحقيق وهي في الثلاثين من العمر. ثم تمضي لكي تكون الشاعرة المعروفة. لكنها عندما توفيت عام ١٩٩٧ عن ثلاث وسبعين سنة كانت مغمورة؛ بسبب أحداث العراق، وبسبب نازك الملائكة. فقد التزمت عاتكة الشعر العمودي، وشهدت موته على يد أبناء بلدها السياب ونازك

الملائكة والبياتي. على أن لها شعراً في حب بغداد جميلاً حقاً، وفصيحاً جداً، وذا قوافٍ بديعة، وفيه فيض حب بريء. وهي فصيحة جداً، وعربيتها مما تقرأه لكي تحس به، وتفهمه، ولكي. . تتفرج على حسنه.

ترى في تحقيقها للديوان شرحاً في غاية الإيجاز، لكنه شرح صادق. تشرح لك الكلمة الصعبة، لا كأولئك الدجالين الذين يشرحون الكلمة السهلة ويتركون الصعبة. وهي دقيقة في هوامشها وإحالاتها وفهارسها. تحقيق حقيقي.

ذهب ذلك الجيل، وجاء جيل من الأكاديميين الرقعاء، ولم نسمِّ أحداً منهم هنا. لو كنتَ زائراً قادماً من المريخ وأردت أن تزور الجامعات العربية فسوف نقول لك: تفضل إلى الصحراء. في العلوم المادية أبدع أكاديميونا في استخراج شهادات الدكترة من الجامعات العربية والأجنبية لكي يصبحوا مجرد معلمي صبيان، ولا ابتكار ولا اختراع، ولا مختبرات حقيقية ولا مشاركة في التصنيع. يعلمون طلبتهم المعادلات ويمتحنونهم، ويشهدون لهم، كي ينطلق الطلبة لتعليم تلاميذ المدارس، ولا ارتباط بين تلك العلوم وبين المصنع. ونظل نستورد كل شيء. وفي العلوم الإنسانية يلقي الأكاديميون دروسهم على الطلبة، ويكتبون لهم دوسيهات حقيرة يسمونها كتباً. وينقلون عن القدماء، أو عن الأجانب نقلاً مختلاً. ويذهب الأستاذ بعد انتهاء المحاضرات إلى منزله كي يتغدى ويتمدَّىَ. ثم لا شيء. ثم يموت. ويترك الأكاديميون تحقيق كتب التراث لصبية المطابع. وبالمناسبة فإن صبية المطابع يحملون أيضاً شهادات الدكتوراه. ما هذه المصيبة التي نحن فيها؟

هي حالة من التردي شاملة.

١ أحق من الموتى

لَعَمري لأَهلُ العشقِ فيما يُصيبُهُمْ أحقُّ بأنْ يُبكَى عليهِمْ مِنَ الموتى

٢ إذا خلا ببكائه

ما يصنعُ الصبُّ الحزيـ ـنُ جفاهُ أهلُ صفائِه
لا شيءَ إِلّا صبرُه حتى يموتَ بدائِه
أو يشتفي ممَّا يُجِنُّ ـ إذا خلا ببكائِه

يجن: يكتم

٣ حلم يقظة

إنَّ الهوى لو كانَ يَنـ ـفُذُ فيه حُكمي أو قضائي

لَطلبتُه وجمعتُه مِن كلِّ أرضٍ أو سماءِ

فقسمتُه بيني وبيـ ـنَ حبيبِ نفسي بالسَّواءِ

فنعيشُ ما عِشنا على مَحْضِ المودَّةِ والصفاءِ

حتى إذا مُتْنا جميـ ـعاً، والأمورُ إلى فَناءِ

ماتَ الهوى مِنْ بعدِنا، أو عاشَ في أهلِ الوفاءِ

٤ حلم واثق بالجنة

أَيا فَوْزُ لو أبصرتِني ما عرفتِني لِطولِ شجوني بعدَكُمْ وشُحوبي

وأنتِ مِنَ الدنيا نصيبي، فإِنْ أَمُتْ فلَيْتَكِ مِنْ حُورِ الجِنانِ نَصيبي

٥ العاذلات الكائدات

وقد قالَ لي ناسٌ: تحمَّلْ دلالَها فكلُّ صديقٍ سوفَ يرضى ويغضبُ

وإني لأَقلي بَذْلَ غيرِكِ فاعلمي وبُخْلُكِ في صدري ألذُّ وأطيبُ

أقلي: أتجنب

وإنِّي أرى مِنْ أهلِ بيتِكِ نِسْوَةً شببْنَ لنا في الصدرِ ناراً تَلَهَّبُ

عرفنَ الهوى منَّا فأصبحنَ حُسَّداً يُخَبِّرْنَ عنَّا مَنْ يجيءُ ويذهبُ

وإنِي ابتَلاني اللّهُ منكُمْ بخادِمٍ تُبَلِّغُكُمْ عنِّي الحديثَ وتَكذبُ

٦ الحبيبة الغضوب

وإنَّ الوُدَّ ليسَ يكادُ يبقَى إذا كَثُرَ التَّجَنِّي والعتابُ

خَفَضْتُ لِمَنْ يلوذُ بكُمْ جناحي وتَلقَوْني كأنَّكُمُ غِضابُ

تقربت من القريبين منك إكراماً لك، وتلقينني كأنك غاضبة

٧ دعاء عليها بالحب

وقائلةٍ بالجهلِ: يا ليتَ أنَّها تُلاقي الذي تَلقَى مِنَ الجَهدِ والكَرْبِ

إحدى قريباتي تقول، ويا لجهلها، ليت أنك يا محبوبتي تلاقين من الجهد (التعب) والكرب (البلاء) ما ألقى

فقلتُ لها: ما أَشتهي أن يُصيبَها   بلائي، ولكنْ بعضُ ما بي مِنَ الحُبِّ

٨ دعاء على الحب

أباحَ حِمَى قلبيِ الهوى فأَذَلَّه   ألا ليتَ لم أُخلَقْ ولم يُخلَقِ الحبُّ

٩ العاتب والملول

لو كنتِ عاتبةً لَسَكَّنَ لوعتي   أَمَلي رضاكِ، وزُرْتُ غيرَ مُراقِبِ

غير مراقِب: غير مهتم بالأمر، لأنه مجرد عتب

لكنْ مَلَلْتِ، فلم تكُنْ ليَ حيلةٌ،   صَدُّ المَلولِ خِلافُ صَدِّ العاتبِ

١٠ فرح بخبر

إذا قيلَ تُقريكَ السَّلامَ تماسَكَتْ   حُشاشَةُ قلبي، وانْجَلَتْ غَمْرَةُ الكَرْبِ

حشاشة قلبي: البقية الباقية منه، غمرة الكرب: سحابة الغمّ

١١ قلبي الذاهب

كيف احتيالي لإنسانٍ بُليتُ به   يَجني الذُّنوبَ فإنْ عاتبتُه غَضِبا؟

يهوى خِلافي، فلوْ أني أُكلِّفُه   على الظَّما مِنْه شُرْبَ الماءِ ما شَرِبا

تخالفني لمجرد الخلاف، فلو قلت: اشربي، وهي عطشى، لما شربت

أَبكي ظَلومَ وأبكي ما فُجِعْتُ به   منها، وأبكي على قلبيِ الذي ذَهَبا

١٢ دائي الطبيب

أَعْيانِيَ الشَّادِنُ الرَّبيبُ   أَكتبُ أَشكو ولا يُجيبُ

الشادن: ولد الغزالة، الربيب: المنعم في حضن والديه

مِنْ أَين أَبغي دواءَ ما بي   وإنما دائيَ الطبيبُ

١٣ حاضر في قلبي

أمَا والذي لو شاءَ لم يَخْلُقِ النوى   لئنْ غِبْتَ عن عيني لَمَا غِبتَ عن قلبي

١٤ أنتِ الدنيا

غضِبتُ عليكِ سيدتي   وما لِلعبدِ والغَضبِ

هَـجـرتُـكِ عـاديـاً طَـوْرِي		فـلـم أَرشُـدْ ولـم أُصِـبِ
أَمَـا والـلَّـهِ ربِّ الـبـيـ		ـتِ والأسـتـارِ والـحُـجُـبِ
لـقـد طـابـتْ بـكِ الـدنـيـا		ولـولا أنـتِ لـم تَـطِـبِ

١٥ العيش على الرجاء

**رجاءٌ كشِبْهِ اليأسِ أَمسى يَقُوتُني		أَذُبُّ بـه عـنِّـي الـرَّدى وأُغـالِـبُـه**

أرجو وصل الحبيب ولكنه رجاء يشبه اليأس لضعفه، ولكنه يقوتُني (يعيشني)، وأذب (أدفع) به الموت عن نفسي، وأغالب الموت (أقاومه)

١٦ حب من طرف واحد

مـا زلـتُ أَسـخـرُ مـمَّـن		يُـحِـبُّ مَـنْ لا يُـحِـبُّـهْ
حـتـى ابـتُـلـيـتُ بـمـن لا		يُـحِـبُّـنـي وأُحِـبُّـهْ
يَـهـوى بِـعـادي وهَـجـري		ومُـنـيـتـي الـدَّهـرَ قـربُـهْ

الدهرَ: طولَ الدهرِ

فَـلـيـتَ قـلـبـي لـه كـا		ن مـثـلَ مـا لـيَ قـلـبُـهْ

١٧ القصيدة الواغلة

نسب صاحب المستطرف إلى العباس بن الأحنف أبياتاً، وقد استطاب مصطفى الشكعة هذه الأبيات جداً ضمن خمسين صفحة عقدها للعباس في كتابه «الشعر والشعراء في العصر العباسي»، ونقلت الأبيات عاتكة الخزرجي في تحقيقها للديوان، ولم ينقلها كرم البستاني، فلعله رأى فيها ما نراه من أن عليها مِيسم عصر الإبشيهي (ويبعد سبعمئة سنة عن عصر العباس) (لا نظن العباس ولا عصر العباس يقولان: «كل شيء ضده»، و«مبغوضاً»، و«نبحت عليه»، و«كشرت أنيابها»)، على أننا ننقل الأبيات لطرافتها، وللشطر الثاني من البيت الثاني:

يـمـشي الـفـقـيرُ وكـلُّ شيء ضـدَّه		والـنـاسُ تُـغـلـقُ دونَـه أبـوابَـهـا
**وتـراهُ مـبـغُـوضـاً ولـيـس بِـمـذنـبٍ		ويـرى الـعـداوةَ لا يـرى أسـبـابَـهـا**
حـتـى الـكـلابُ إذا رأتْ ذا ثـروةٍ		خـضـعـتْ لـديه وحـرَّكـتْ أذنـابَـهـا
وإذا رأتْ يـومـاً فـقـيـراً عـابـراً		نـبـحـتْ عـلـيه وكـشَّـرت أنـيـابَـهـا

١٨ حلاوة الهجران

وأحسنُ أيّامِ الهوى يومُكَ الذي　　تُرَوَّعُ بالهِجرانِ فيه وبالعتْبِ
إذا لم يكنْ في الحبِّ سخطٌ ولا رِضاً　　فأينَ حلاواتُ الرسائلِ والكتْبِ

١٩ دعاء في الصلاة

يا فوزُ هل لي منكُمُ مجلسٌ　　تَقَرُّ عيني فيه قبلَ المماتْ
يا بِأَبي أنتِ لقد سرَّني　　ما كان مِنْ قولِكِ للعاذلاتْ
واللَّهِ لا أسمعُ في حبِّكُمْ　　حتى أذوقَ الموتَ قولَ الوُشاةْ
هَمِّي مِنَ الدنيا خُلُوِّي بها　　بذاكَ أدعُو خَالقي في الصَّلاةْ

٢٠ قصة عاشق وعاذلة

إنَّ التي حدَّثَتْكِ قد كذبَتْ　　وأدركتْ عندكِ الذي طلبتْ
اِستفهِمي قصتي وقصَّتَها　　أُخبرْكِ عنها بِقُبْحِ ما صَنعتْ
أَقبَلْتُ أسعى إليكِ مكتَتِماً　　فأعرَضَتْ دونَكُمْ وقد عَلِمَتْ . .
أنْ ليسَ شيءٌ في الأرضِ يعدِلُكُمْ　　عندي، وتوكيدَ أمرِنا شَهِدَتْ . .

هذه المرأة اعترضت طريقي وأنا مقبل عليكِ، وتأكدت مما بيننا من الحب، وأرادتني لنفسها . .

فقلتُ كالمشتهي لِمَا ذَكَرَتْ:　　اِنطَلِقي اتَّبِعْكِ فانطلَقَتْ

فتظاهرت بأنني قابل لعرضها، فقلت اذهبي وسوف أتبعكِ . .

أَخلفتُها وعدَها وجئتُكُمُ　　فعندَها يا حبيبتي غضِبتْ

ولم أذهب إليها بل جئتك أنتِ، فغضبتْ هي

فأَقسَمَتْ لا تزالُ جاهدةً　　تُفسِدُ ما بيننا. وقد فَعَلَتْ

قصة صغيرة من توافه قصص المحبين، وهنا جمالها، وقيمتها الأدبية

٢١ عبد المرأة

ولقد قلتُ والهمومُ رُكُودُ　　ودموعي على الرِّداءِ تجودُ

الهموم راكدة فوق صدري، ودموعي تبل ردائي

يا بَني آدمٍ تعالَوْا نُنادي:　　إنَّما نحنُ للنِّساءِ عبيدُ

مَنْ يَلُمْني على النساءِ أَلُمْهُ أنا وَاللَّهِ للنساءِ وَدُودُ

٢٢ البكاء بماء البحر

لقد شَقِيتُ لَئِنْ دُمْنا كذا أَبدَا إذا سَعَيْتُ لإصلاحِ الهوى فَسَدا
ما تَطْرِفُ العينُ إلّا وهْيَ واكِفَةٌ لو كنتُ أَبكي بماءِ البحرِ قد نَفِدا

واكفة: تسيل بالدمع

ولا تنفَّسْتُ إلّا ذاكراً لكُمُ لا شيءَ يشغَلُني عن ذكْرِكُمْ أبدا
يا رُبَّ ذي حَسَدٍ يا فَوْزُ يُظهِرُه، لو كان يعلمُ حظِّي منكِ ما حَسدا

٢٣ دلال المريضة

قالت مرضتُ فعدتُها، فتبرَّمَتْ وَهِيَ الصحيحةُ، والمريضُ العائدُ

العائد: زائر المريض

واللَّهِ لو أنَّ القلوبَ كقلبِها ما رقَّ للولدِ الصغيرِ الوالدُ
لما رأيتُ الليلَ سُدَّ طريقُه عنِّي، وعذَّبني الظلامُ الرَّاكدُ

الراكد: الجاثم، الضاغط على الصدر

والنجمُ في كَبِدِ السماءِ كأنَّهُ أَعمَى تحيَّرَ ما لديْهِ قائدُ
ناديْتُ مَنْ طَرَدَ الرقادَ بنومِه عمَّا أعالِجُ، وهْو خِلْوٌ هَاجِدُ

ناديت حبيبي الذي أبعد عن عيني الرقاد لأنه نام عما أعالج، أي أهمل همومي، وهو خليٌّ من الهموم هاجد نائم

يا ذا الذي صَدَعَ الفؤادَ بِصدِّهِ أنتَ البَلاءُ طَرِيفُهُ والتَّالِدُ

الطريف: الجديد، التالد: القديم

يَقعُ البلاءُ وينقضي عن أهلِهِ وبلاءُ حبِّكَ كلَّ يومٍ زائدُ

٢٤ لا حديث له سواها

يا مَن شكا شوقَهُ مِن طُولِ غيبتِه اِصبِرْ لعلَّكَ أن تلقَى الحبيبَ غدا
لن يستطيعَ الفتى كِتمانَ خُلَّتِه حتى يحدِّثَ عنها أَيْنَما قَعَدا

خلته: مشكلته

هِيَ المُنى لِيَ أهواها وأطلُبُها   وسائرُ الناسِ يهوى المالَ والوَلَدا

٢٥ شيء بين الجوانح

أَبكِي الذين أَذاقوني مودَّتَهُمْ   حتى إذا أَيْقظوني لِلهوى رَقَدُوا
واستَنْهضوني فلمَّا قمتُ منتصباً   بِثِقْلِ ما حمَّلُوا مِنْ وُدِّهِمْ قَعَدُوا
جارُوا عليَّ ولم يُوفُوا بعهدِهِمُ   قد كنتُ أَحْسَبُهُمْ يوُفون إنْ عَهِدُوا
لأَخرُجَنَّ مِنَ الدنيا وحبُّهُمُ   بين الجوانحِ لم يشعُرْ به أحدُ
ألفيتُ بيني وبين الهمِّ مَعرفةً   لا تنقضي أبداً أو ينقضي الأبدُ

٢٦ ختم الحب

إنِّي لأَحْسَبُ، والأقدارُ غالبةٌ   أَنِّي وإيَّاكِ مثلُ الروحِ والجسدِ
حتى سَعَتْ بيننا يا فَوْزُ ساعيةٌ   مشهورةٌ عُرفَتْ بالنَّفْثِ في العُقَدِ

النفث بالعقد: السحر، يعني الكيد

يا فوزُ لا تَسمعي مِنْ قولِ واشيةٍ   لو صادفَتْ كَبِدي عَضَّتْ على كَبِدي
إنَّ المُحِبِّينَ قومٌ بين أَعيُنِهِمْ   وَسْمٌ مِنَ الحبِّ لا يَخْفَى على أَحَدِ

٢٧ أحس بأنني ملك

مَا إنْ لِمَا بي دواءٌ غيرُ رُؤْيَتِها،   داوءُ ما بي عزيزٌ غيرُ موجودِ

ما إن لما بي دواء: ليس لما أعانيه دواء

يا شُغْلَ نفسي عن الدنيا وبهجتِها   ما تَأْمُرين بِصَبِّ القلبِ مَعْمُودِ

يخاطبها، فهي شغل نفسه، معمود: مبتلى بالحب

كأَنَّهُ يومَ يأتيهِ رسولُكُمُ   قد نالَ مُلْكَ سليمانَ بنِ داودِ

٢٨ يا سعد

وحَدَّثْتَني يا سعدُ عنها فزِدْتَني   جنوناً، فزِدْني مِنْ حديثِكَ يا سعدُ
هواها هَوىً لم يعلمِ القلبُ غيرَهُ   فليس له قَبْلٌ وليس له بَعْدُ

٢٩ الحب الخالد

كُـلَّ يـومٍ لـنـا عِـتـابٌ جـديـدُ   وهَـوانـا عـلـى الـعِـتـابِ يـزيـدُ
كـلُّ حُـبٍّ يَـبـيـدُ يـومـاً فـيَـفْـنَـى   وهَـوَانـا وهـجـرُنـا لا يَـبـيِـدُ

٣٠ وظيفة الدموع

أَبِـيـتُ مُـسَـهَّـداً قَـلِـقـاً وِسَـادي   أُخَـفِّـفُ بـالـدمـوعِ عـن الـفـؤادِ

٣١ منتهى اليأس

يـا مُـوقِـدَ الـنَّـارِ بـالـهِـنْـديِّ والـغَـارِ   هـيَّـجـتَ لـي حَـزَنـاً يـا مُـوقِـدَ الـنَّـارِ
بـيـن الـرُّصَـافَـةِ والـمـيـدانِ أرقُـبُـهـا   شُـبَّـتْ لِـغَـانِـيَـةٍ بـيـضـاءَ مِـعْـطـارِ

أرقب ناراً أخرى بين هذين المكانين، وقد أُوقدت لتلك الغانية، كأنما يصف مشاعل قصرها ليلاً

هَـاجَـتْ لـيَ الريحُ منها نَفْحَ رائِحَةٍ   أَحْيَتْ عِظامي وهَاجتْ طُولَ تَذكاري
أُخَـبِّـرُ الـنـاسَ أَنّـي قـد سَـلَـوْتُـكُـمُ   واللّهُ يَعلـمُ ما مَكنونُ إِضْمـاري
ما تَطْعَمُ النومَ عيني مِنْ تَذَكُّرِكُمْ   فَـمـا أَنـامُ إذا مـا نـامَ سُـمَّـاري
أنـا وعَـمُّـكِ مِـثـلُ الـمُـهْـرِ يَـمـنـعُـه   مِنْ قُوتِهِ مَرْبِضُ المُسْتَأْسِدِ الضَّاري

عمها يمنعه الزواج منها، فكأن شاعرنا مهر، وعمها الأسد الضاري الذي يحول بينه وبين مرعاه

لـو كُـنْـتَ يـا عـمَّـهـا حَـرَّانَ سَـرَّكَ أَنْ   تَـحْـيَـا بـإِظْـمَـاءِ إِيـرَادٍ وإِصـدَارِ

المعنى الملموح: لو جربت العطش لسرَّك أن ترد الماء، أليس كذلك؟

فـمـا أَخُـو سَـفَـرٍ فـي الـبـيِـدِ مُـرْتَـهَـنٍ   قـد كـانَ فـي رُفَـقٍ شـتَّـى لأَمْـصَـارِ

بداية تشبيه طويل. هذا مسافر رافق أقواماً مختلفين في بلاد شتى

أَخْطَا الطريقَ وأفنَى الزادَ وانقطعتْ   عـنـه الـمـنـاهـلُ فـي يَـهْـمَـاءَ مِـقْـفـارِ

وفي الصحراء انفرد عن رفاقه وتاه. وانقطعت عنه مناهل الماء،
في هذه اليهماء المقفار (الصحراء الجافة)

يَـدعُـو بِـصـوتٍ شَـجِـيٍّ لا أَنـيـسَ لـه   قـد غـابَ عـنـه أنـيـسُ الأهـلِ والـجـارِ
حـتـى أَتَـى الـمـاءَ بـعـد الـيـأسِ تُـحْـرِزُهُ   رَبْـدَاءُ مَـكْـسُـوَّةٌ أَطـواقَ أَحـجـارِ

ثم وجد ماء، والماء تحرزه (تحفظه) ربداء (بئر قديمة غطاها التراب) حولها طوق من حجارة

لـمَّـا تـبـيَّـنَ أَنْ لا دَلْـوَ حَـاضِـرَةٌ   ولا رِشَــاءَ ولا عَــهْــدٌ لآثَــارِ

اكتشف أن لا دلو ولا رشاء (حبل)، وليس هناك آثار أقدام لناس حول البئر

دَلَّى عِـمامـتَـه حـتَّـى إذا انـقـشـعَـتْ   غَـمَـامَـةُ الـمـاءِ عـن عـذبٍ ومَـوَّارِ

دلَّى عمامته في البئر حتى إذا انزاحت طبقة الغبار التي على سطح الماء وتبين أن تحتها ماء عذب موار (متحرك)

أَهْوَى يُقَلِّبُها في الماءِ مغتَبطاً   يَـكُـرُّهـا فـيـهِ طـوْراً بـعـد أَطـوارِ

بدأ يقلب العمامة حتى تتشرب بالماء

حـتـى إذا هُـوَ روَّاهـا وأخـرجَـهـا   وقـالَ قـد نِـلْـتُ يُـسْـراً بـعـد إعـسـارِ

وجرَّها، صَوَّبَتْ في البئرِ راجعةً   واستقبلَتْ نفسُه الدنيا بإنكارِ

وهو يخرجها صوبت (رجعت) إلى البئر، فغامت الدنيا في عينيه

يوماً بِأَجْهَدَ مِنِّي حين تمنعُني   لِـغـيـرِ جُـرْمٍ لُـبـانـاتـي وأَوْطـاري

هذا الشخص الذي قصصت قصته ليس أكثر تعباً مني وأنت تمنعني لباناتي (حاجاتي) وأوطاري (حاجاتي)

٣٢ ادفنوني عندكم

يا أهلَ فَوْزَ ادفِنونِي بين دُورِكُمُ   نَفسِي الفداءُ لِتلكَ الدُّورِ مِنْ دورِ

٣٣ الأمور الكبار

نَزَفَ البكاءُ دموعَ عينِكَ فاستَعِرْ   عـيـنـاً لِـغـيـرِكَ دمـعُـهـا مِـدْرارُ

مَنْ ذا يُعيرُكَ عينَه تبكي بها،   أرَأَيْتَ عـيـنـاً لـلـبـكـاءِ تُـعـارُ؟

الـحُـبُّ أوَّلَ مـا يـكـونُ لَـجَـاجَـةٌ   تــأتــي بــه وتــســوقُــه الأقــدارُ

لجاجة: إلحاح طارئ

حتى إذا اقتحَمَ الفتَى لُجَجَ الهوى   جـاءتْ أمـورٌ لا تُـطـاقُ كِـبـارُ

وإذا نـظَـرْتَ إلـى الـمـحـبِّ عرفتَـه   وبـدَتْ عـلـيـه مِـنَ الـهـوى آثـارُ

قـلْ مـا بـدا لـكَ أن تـقـول فـربـمـا   سـاقَ الـبـلاءَ إلـى الـفـتـى الـمِـقـدارُ

يـا فَـوْزُ هـل لـكِ أن تـعـودي لـلـذي   كـنَّـا عـلـيـهِ مـنـذُ نـحـنُ صِـغَـارُ

هـل تَـذكُـريـنَ بِـدارِ بَـكْـرٍ لَـهـوَنـا   ولـنـا بِـذاكَ مَـخـافـةٌ وحِـذَارُ

مُتَطاعِمَيْنِ بِريقِنا في خَلْوَةٍ   مثلَ الفِراخِ تَزُقُّها الأَطيارُ

أمْ تذكُرينَ لِدُلْجَتي متنَكِّراً   وعَلَيَّ فَرْوَا عاتِقٍ وخِمارُ

تذكرين دلجتي (دخولي ليلاً) وأنا أضع فرويْ عاتق (فروتين تلبسان على العاتق أي الظهر) وخُماراً، يبدو انه أراد إخافتها في الليل وهما صغيران

فَوَدِدْتُ أنَّ الليلَ دامَ، وأنَّهُ   ذهبَ النَّهارُ فَلا يكونُ نهارُ

ليت تلك الليلة طالت

ما تَأْمُرينَ، فَدَتْكِ نفسي، في فَتىً   ما تلتَقي لِجُفونِه أشفارُ

أي أن رموش عينيه لا تلتقي فهي مفتوحة فهو ساهر لا ينام

صَرَمَ الأحبَّةُ حبلَه فكأنَّهُ   إذْ غادَرُوهُ وضَرَّهُ الإضْرارُ..

صرم، قطع، الأحبة حبله، أي هجروه، وفي هذا ضرر

رجلٌ تَطَاوَلَ سُقمُه في غُربةٍ   نَزحتْ بِهِ عن أهلِه الأسفارُ..

بدأ هنا تشبيهاً طويلاً، فهو مثل رجل مرض في الغربة

حتى أُتيحَ له، وذاكَ لِحَيْنِه   رَكْبٌ رَمَتْ بِهِمُ الفِجَاجُ تِجَارُ..

فأتيح له ركب، أي قافلة، من التجار رمت بهم الفجاج (الطرق). وهذا لحينه (لهلاكه)، وسنرى كيف ذاك..

حَمَلُوهُ بينهُمُ نحيلاً جسمُه   عاريِ العظامِ ثيابُه أَطْمَارُ..

الأطمار: الثياب المهترئة

فَثَوى تُقَلِّبُهُ الأَكُفُّ مُلَقَّفاً   ولهُ تُشَدُّ وتُوضَعُ الأكوَارُ..

ثوى (مكث) يتلقفونه محاولين حمله على الجمل، ويشدون الأكوار (أخشاب الرحل) كي يركب هذا المريض

حتى إذا سَلَكُوا به في مَهْمَهٍ   قَفْرٍ تَضِلُّ به القَطَا وتَحَارُ..

ومشوا به في مهمهٍ (طريق موحشة) تضل به القطا وتحار (والقطا من طير الصحراء فإذا ضلت في الطريق فهو موحش جداً لا شك)

غَرِضُوا مِنَ النِّضْوِ العليلِ فَعَطَّلُوا   منه الرِّكَابَ، وخَلَّفُوهُ وسَارُوا

في هذا الطريق غرضوا من النضو (ملُّوا من المريض)، فخلصوا منه القافلة وتركوه وساروا

٣٤ بشارة وحيرة

ولـمَّا رأتْ أنْ لا وُصولَ إلى الهوى   تراءَتْ مِنَ السطحِ الرفيعِ المُحَجَّرِ

يبدو أنها أطلت عليه من سطح بيتها

فقلتُ لها يا فَوْزُ هل لي إليكُمُ   سبيلٌ فقالتْ بالإشارةِ أَبْشِرِ
وقفتُ لها في ساحةِ الحَيِّ ساعةً   أُشيرُ إليها بالرِّداءِ المُعَصْفَرِ
نَظَرْتُ إلى ما لم تَرَ العينُ مثلَه   إلى قمرٍ في رَازِقِيٍّ ومِئْزَرِ

الرازقي: ثوب كتان أبيض، والمئزر: الثوب

إذا مَاتَ عباسٌ وفوزُ فإنَّهُ   يموتُ الهوى واللَّهوُ مِنْ كلِّ مَعشَرِ

٣٥ الحب قدري

أُخفِي الهوى وَهْو لا يَخفَى على أحدٍ   إنِّي لَمُستَتِرٌ في غيرِ مستَتَرِ

كأنني مستتِر لكن بلا مستَتَر (استتار)

فأَكثِروا أو أَقِلُّوا مِنْ ملامِكُمُ   فكُلُّ ذلكَ محمُولٌ على القَدَرِ

الحب الذي يعذبني هو قضاء وقدر، فلا تزيله إرادتي فكفوا عن اللوم

٣٦ سال بك السيل

يَا مَنْ تمادَى قلبُه في الهوى   سالَ بِكَ السَّيْلُ ولا تَدري

يحذَرُ العرب من النوم في مجرى السيل، لأنه يفاجئ، ويجرف جرفاً

إنَّ الذي أُظْهِرُ عند الذي   أُضْمِرُ كالنقطةِ في البحرِ

ما أظهره من العشق هو بالنسبة لما أضمره نقطة في بحر

اليومُ مثلُ العامِ حتى أرى   وجهَكِ، والساعةُ كالشهرِ
أفسَدَ قلبي شَادِنٌ أَحْوَرٌ   يَسحَرُ بِالعينينِ والثَّغْرِ
كنتُ أُهَادِيه سَلامي فلا   يدخُلُه شيءٌ مِنَ الكِبْرِ
حتى إذا خاطبتُه بالهوى   خاطبني بالسبِّ والزَّجْرِ
فَليتَه عادَ وعُدْنا له   بمثلِ ما كنَّا إلى الحَشْرِ

٣٧ ملء البصر

وأَحْذَرُ أن تَطغَى إذا بُحْتُ بالهوى   فأكتُمها جَهْدِي هَواها، ويَظهرُ

وما عَرضتْ لي نظرةٌ مُذْ عرفتُها   فأنظُرَ إلّا مُثِّلَتْ حيثُ أنظُرُ
فيَا واثقاً مِنّي بِما قد بَدا له،   وأكثَرُ منه مَا أُجِنُّ وأُضْمِرُ..
تَفَكَّرْ! فما تدري، لعلَّكَ تُبتَلى   بما بي، ويصحُو عنكَ قلبي ويصبِرُ
ألا أيُّها النَّاهُونَ عنها سَفاهَةً   قد ازدادَ وجدي مُذْ نَهَيْتُمْ، فأَقْصِرُوا

٣٨ أفاعي الصدر

قد ضاقَ بالحبِّ صدري   وأَنْفَدَ الشوقُ صبري
أنفد: أفرغَ

في الصدرِ حَيَّاتُ هَمٍّ   بينَ الجوانحِ تَسري

٣٩ الحزن الخالد

إذا ما دعوتُ الصبرَ بعدَكِ والبُكا   أجابَ البُكا طَوْعاً، ولم يُجِبِ الصبرُ
فإنْ تقطَعي مِنْكِ الرجاءَ فإنه   سيبقَى عليكِ الحزنُ ما بقيَ الدهرُ

٤٠ الحورية

يا فَوْزُ يا منتهى هَمّي وغايتَه   ويا مُنايَ ويا سَمْعي ويا بصري
صارتْ رسالتُكُمْ يا فَوْزُ نادرةً   بعد التَّتابُعِ بالآصالِ والبُكَرِ
يا مَنْ يُسائِلُ عن فَوْزٍ وصورتِها   إن كنتَ لم تَرَها فانظرْ إلى القمرِ
لم يخلُقِ اللَّهُ في الدنيا لها شَبَهاً   إني لأَحسَبُها ليستْ مِنَ البشرِ

٤١ فاسق النظر

أتأْذَنونَ لِصَبٍّ في زيارتِكُمْ   فعندكُمْ شَهَواتُ السَّمْعِ والبصرِ
لا يُضمرُ السُّوءَ إنْ طالَ الجلوسُ به   عَفُّ الضميرِ ولكنْ، فاسِقُ النظرِ
أفاض القدماء في مدح هذا البيت، وهلل له زكي مبارك في كتابه «العشاق الثلاثة»

٤٢ القمر والحجر

أَيا مَنْ وجهُهُ قمرُ   ويا مَنْ قلبُهُ حجرُ
ويا مَنْ ليس في الدنيا   لِنفسي، غيرَه، وَطَرُ

أغــــرَّكَ أنَّ حــبَّـــك فـــي صـمـيـمِ الـقـلـبِ يَـسْـتَـعِـرُ

٤٣ أنت الناس

ما أسمَجَ الناسَ في عيني وأقبحَهُمْ إذا نظرتُ فلم أُبصرْكَ في الناسِ

حتى متى كَبِدي حَرَّىَ مُعْطَّشَةٌ ولا يلينُ لِشيءٍ قلبُكَ القاسي

يا قادِحَ الزَّنْدِ قد أعيا قَوادِحَهُ اِقْبِسْ إذا شئتَ مِنْ قلبي بِمِقْباسِ

يا من يقدح الزند (حجر النار) الذي أعجز القادحين خذ شعلة من قلبي بمقباس (بعود أو نحوه)

٤٤ لا شيء مثله

جرَّبتُ منْ هذه الدنيا شدائدَها ما مَرَّ ـ مثلَ الهوى ـ شيءٌ على راسي

٤٥ انصداع القلب

عَدْلٌ مِنَ اللَّهِ أَبكانِي وأضحكَكُمْ فالحمدُ للَّهِ عدلٌ كلُّ ما صنعا

اليومَ أبكي على قلبي وأَندُبُه قلبٌ أَلَحَّ عليه الحزنُ فانصَدَعا

٤٦ الود بشفاعة

إذا أنتَ لم يعطِفْكَ إلَّا شفَاعةٌ فلا خيرَ في وُدٍّ يكونُ بِشافِعِ

٤٧ ليتني كنت الميت

الحسنُ منكِ سجيَّةٌ مَطبوعَةٌ ومِنَ النساءِ تَخَلُّقٌ وتَصَنُّعُ

يومَ الجِنازَةِ لوْ شَهِدْتُ تمتَّعَتْ عيني بِها ولَقَلَّما تتَمتَّعُ

خَرجَتْ ولم أَشْعُرْ بذاكَ فَليْتَني كنتُ الجِنَازَةَ، وَهْيَ فِيمَنْ يتبَعُ

٤٨ اليأس بعد التعشيم

قلبِي إلى ما ضرَّنِي داعِ يُكْثِرُ أسقامِي وأَوْجاعي

كيف احتِراسِي مِنْ عَدُوِّي إذا كان عَدُوِّي بين أضلاعي

ما أَقتلَ اليأْسَ لأهلِ الهوى لا سيَّما مِنْ بعدِ إطماعِ

اليأس من الفوز بقلب الحبيب صعب، وخاصة إذا كان الحبيب أطمَعَك (عشَّمك) في وصله

٤٩ المحطة الأخيرة

طافَ الهوى بعبادِ اللَّهِ كلِّهِمُ حتى إذا مرَّ بي مِنْ بينِهِمْ وقَفا

إذا جحدْتُ الهَوى يَوماً لأدفِنَه في الصدرِ، نَمَّ عَلَيَّ الدمْعُ مُعْتَرِفا

لم أَلْقَ ذا صفةٍ للحُبِّ ينعَتُهُ إلّا وجدْتُ الذي بيِ فوقَ ما وصفا

٥٠ أملي أراك

إنِّي لآمُلُ أن أراكِ، وإنني مِنْ أنْ أموتَ ولا أَراكِ لَخائِفُ

يا غايةً في الحُسْنِ إنِّيَ غايةٌ في الحب. ليس يُطِيق ما بيَ وَاصفُ

٥١ كان لي قلب

نامَ مَنْ أَهْدَى لِيَ الأَرَقا مُستريحاً سَامَنِي قَلَقا

كان لي قلبٌ أعيشُ به فاصْطَلَى بالحبِّ فاحتَرقا

٥٢ الطريق المسدود

يا فَوْزُ قد طالتْ بكُمْ شِقوتي يا فَوْزُ قد حُمِّلْتُ ما لا أُطيقْ

واكُرْبَتَا مِنْ حَرِّ هذا الهوى كأنَّما في الجوْفِ منهُ حريقْ

لا يَهتَدي قلبيِ إلى غيرِكُمْ كأنما سُدَّ عليه الطريقْ

٥٣ أتنشقها

وأكبرُ حظِّي منكِ أَنِّي إذا جرتْ ليَ الريحُ مِنْ تِلقائِكُمْ أَتَنَشَّقُ

٥٤ احتراق

أنا الذي لا تنامُ عينيِ، ولا تَرْقَا دُموعيِ ما دامَ بيِ رَمَقُ

ترقأ: تجف

صِرْتُ كأَنِّي ذُبالَةٌ نُصِبَتْ تُضِيءُ للنَّاسِ وَهْيَ تحترقُ

ذبالة: ما ظهر من فتيل المصباح

٥٥ متعلق بقشة

هلَّا رحِمْتُمْ موقِفي بِفنائِكُمْ متحيِّراً، لِنَسيمِكُمْ أَتَنَشَّقُ

مُـتَـلَـدِّداً أَرْنُـو إلـى مَـنْ مَـرَّ بـي مـثـلَ الـغـريـقِ بِـمَـا لَـقِـي يَـتَـعـلَّـقُ

متلدداً: متلفّتاً

٥٦ الدموع الفاضحة

يـمـنـعُـكَ الـصـبـرَ إذا رُمْـتَـهُ تَـذْكـارُ مَـنْ خَـلَّـفْـتَ بِـالـرَّافِـقَـةْ

الرافقة: الرَّقّة العراقية، على الفرات

قد كنتَ عن وصفِ الهوى ساكتاً فَـفَـضَـحَـتْـكَ الأدمُـعُ الـنـاطـقـةْ

٥٧ ظنونهم

عن ابن خلكان أن ابن المعتز قال: أحسن الشعر قول العباس بن الأحنف: (وليست في الديوان)

قد سَحَّبَ الناسُ أذيالَ الظُّنونَ بنا وفـرَّقَ الـنـاسُ فـيـنـا قـولَـهُـمْ فِـرَقـا

فـكـاذبٌ قـد رَمَـى بـالـظَّـنِّ غـيـرَكُـمُ وصـادقٌ لـيـس يـدري أنـه صـدَقـا

٥٨ طبل تحت الثوب

وإنـيَ وإيَّـاهـا كـمـا شَـفَّـنـا الـهـوى لأَهْـلُ حِـفـاظٍ لا يُـدَنَّـسُ بـالـجـهـلِ

وإنـيَ وكِـتـمـانـيَ هَـواهَـا وقـد فَـشـا كَذي الجهلِ تحتَ الثوبِ يَضربُ بالطَّبلِ

أنا وكتماني لحبي إياها، بعد إذ ذاع أمر ذلك الحب،
كمن يخفي الطبل تحت ثوبه ويضرب به

٥٩ قصتنا تطول

كـأَنّـيَ لـم أكُـنْ شَـجَـنـاً لِـفَـوْزٍ ولـم يَـكْـثُـرْ عَـلَـيَّ لَـهـا عَـوِيـلُ

ولـم نـجـلـسْ جـمـيـعـاً فـي خَـلاءٍ نُـسَـرُّ بـمـا أقـولُ ومـا تـقـولُ

ولـو حُـدِّثْـتُـمُ عـنِّـي وعـنـهـا عـلـمـتُـمْ أنَّ قـصَّـتَـنـا تَـطـولُ

وكُـنَّـا آيـةً لـلـنـاسِ دَهـراً إذا وُصِـفَ الـخـلـيـلـةُ والـخـلـيـلُ

وكـنـتُ أظُـنُّ أنَّـا سـوف نَـبْـلَـى ومـا بـيـنـي وبـيـنَـكِ لا يـزولُ

أَلَا يـا فـوزُ أنـتِ صَـرمْـتِ حَـبـلـي وصَـرْمُـكِ عـنـدنـا خـطـبٌ جـلـيـلُ

٦٠ أثقلني حِملي

يقولونَ لي واصِلْ سِواها لعلَّها تَغارُ، وإلَّا كان في ذاكَ ما يُسْلي

يقولون: اعشق غيرها حتى تغار، وإن لم تغر ففي عشق سواها ما يُسلِيك (ينسيك)

ووَاللَّهِ ما في القلبِ مِثقالُ ذرَّةٍ لأُخرى سِواها، إنَّ قلبي لَفي شُغْلِ

حَمَلْتُ الهوى حتى إذا قمتُ بالهوى خَرَرْتُ على وَجهي وأثقَلَني حِملي

بِحُرْمَةِ ما قد كانَ بيني وبينَكُمْ مِنَ الوُدِّ إلَّا ما رجعتُمْ إلى الوصلِ

وإلَّا اقتُلُوني أَسْتَرِحْ مِنْ عذابِكُمْ عذابُكُمُ عندي أشَدُّ مِنَ القتلِ

وكم مِنْ عدوٍّ رَقَّ لي وتكشَّفتْ حُزُونَتُهُ لي عن ثَرىَ جانِبٍ سَهْلِ

لشدة ما ألقى من عذاب العشق رق لي قلب الأعداء، فكثيراً ما اكتشفت عدوّاً تحولت حزونته (وعورته) لي إلى أرض سهلة

ومُجتهداتٍ في الفسادِ حواسِدٍ لَها، وَهْيَ ممَّا قد أَرَدْنَ على جهلِ

تآزَرْنَ فيما بينهُنَّ فجِئْنَها، على وجهِ إلقاءِ النصيحةِ، لِلْمَحْلِ

للمحل: للخداع

يُعَرِّضْنَ طَوراً بالتغاضي، وتَارَةً يُعاتِبْنَها بالجِدِّ منهُنَّ والهَزْلِ

وما زِلْنَ حتى نِلْنَ ما شئنَ بالرُّقى وحتى أَصَاخَتْ لِلخديعةِ والخَتْلِ

الرُّقى: التعاويذ، يقصد كثرة الزَّنِّ عليها، أصاخت: أصغت

وحتى بَدَتْ منها المَلالةُ والقِلَى وعهدي بِفَوْزٍ لا تَمَلُّ ولا تَقْلي

القِلى: التجنُّب

فلمَّا انقضَى الوَصْلُ الذي كان بينَنا شَمِتْنَ جميعاً واسترَحْنَ مِنَ العَذْلِ

وأَرْضَتْ بِسُخطي معشَراً كان سخطُهُمْ يهُونُ لديْها في رِضَايَ ومِنْ أَجْلي

٦١ أنا لها وحدها

سأَهجُرُ طائعاً في حبِّ فَوْزٍ نساءَ العالمينَ ولا أُبالي

٦٢ التمادي

يقولُ عَواذِلي عَنْكَ التَّمَادي فإنَّكَ مِنْ هوى فوزٍ قتيلُ

عنك: دع عنك

فقلتُ لَهُمْ دَعُوا نُصْحي ولوْمي فإنِّي حيثُما مَالَتْ أميلُ

٦٣ الملول ملول

سبحانَ مَنْ خلقَ المَلولَ مَلولا لا يستطيعُ إلى الوفاءِ سبيلا

لو كنتُ أصبِرُ، ما كتبتُ صحيفةً يوماً إليكِ ولا بعثتُ رسولا

٦٤ الحب المستحيل

لَعَمري لقد جَلبَتْ نظرتي إليكِ علَيَّ بَلاءً طويلا

فيَا وَيْحَ مَنْ كَلِفَتْ نفسُه بِمَنْ لا يُطيقُ إليهِ سبيلا

هِيَ الشمسُ مَسْكنُها في السماءِ فَعَزِّ الفؤادَ عزاءً جميلا

فلنْ تستطيعَ إليها الصُّعودَ ولنْ تستطيعَ إليكَ النزولا

٦٥ عن أصدقائي

حفِظَ اللَّهُ معشراً فارَقُوني لا يُطِيعونَ في الهوى مَنْ يَلومُ

إن يَكُنْ ينفعُ البكاءُ عليهِمْ فابْكِ حتى تموتَ يا محرومُ

لا تُطيقُ الجبالُ يا معشرَ النا سِ مِنَ الحبِّ ما تُطيقُ الجُسومُ

هل لكُمْ أن نقومَ نَبكي جميعاً ونَشُقَّ الجُيوبَ؟ بِاللَّهِ قُومُوا

لا وَرَبِّ الوُفودِ للبيتِ تَهوِي بِهِمُ العِيسُ قد بَرَاها الرَّسيمُ..

وربِّ الوافدين إلى الكعبة الذين تهوي (تسرع) بهم العيس (الجمال) التي برى أخفافها الرسيم (السير السريع)..

ما تَغيَّرْتُ بعد فَوْزٍ، ولا كا ن فؤادي بِغيرِ فَوْزٍ يَهيمُ

إن عددْتُمْ هوايَ ذنباً فإنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ أنَّ ذنبي عظيمُ

٦٦ ظلوم

أَناسِيةٌ ما كان بيني وبينَها وقاطعةٌ حبلَ الصفاءِ ظَلُومُ

تعالَيْ نجدِّدْ دارِسَ الوصلِ بيننا كلانا على طولِ الجَفاءِ مَلُومُ

٦٧ نائم ويقظان

بَـلِّـغـي يـا ريـحُ عـنَّـا   أهــلَ بــغــدادَ الــسَّــلامَــا
بِـأبـي مَــنْ حَــرَّمَ الــنَّــوْ   مَ عــلــى عــيــنــي ونَــامــا
إنَّ مَــنْ نــامَ لَــعَــمْــري   يَــحْــسَــبُ الــنَّــاسَ نِــيــامــا

٦٨ يعرف مكان السهم

قـالـتْ ظَـلُـومُ سَـمِـيَّـةُ الـظُّـلْـمِ   مـا لـي رأيـتُـكَ نـاحِـلَ الـجـسـمِ
يـا مَـنْ رَمَـى قـلـبـي فَـأَقْـصَـدَهُ   أنـتَ الـعَـلـيـمُ بِـمَـوقِـعِ الـسَّـهـمِ

أقصده: أصابه في مقتل

٦٩ وأنفك راغم

تَحَمَّلْ عظيمَ الذَّنبِ مِمَّنْ تحبُّهُ   وإن كنتَ مَظْلُوماً فقُلْ أنا ظالِمُ
فإنَّكَ إلَّا تغفِرِ الذَّنبَ في الهوى   يفارِقْكَ مَنْ تَهوى، وأَنْفُكَ راغِمُ

٧٠ شيء بيننا وحدنا

تُحَدِّثُ عنَّا في الوجوهِ عيونُنا   ونحن سُكوتٌ والهوى يتكلَّمُ
ونَغضبُ أحياناً ونرضَى بِطَرفِنا   وذلك فيما بينَنا ليس يُعلَمُ

هذا كلام المحبين بلغة العيون، يعرف هذه اللغة من عشق

٧١ المستخفة بي

إن كانَ ينفعُكُمْ ما تصنعونَ بِنا   وسرَّكُمْ طُولُ ما نَلْقَى فَزِيدُونَا
يا فَوْزُ مَا مَلَّني حَقّاً رسولُكُمُ   حتى مَلِلْتُمْ، وما كنتُمْ تَمَلُّونا
ولا استَخَفَّ بِأَمْرٍ لي أُعَظِّمُهُ   حتى رآكُمْ بِأَمْري تستَخِفُّونا
وأَنتُمْ أهلُ وُدِّي قد شُغِفْتُ بِكُمْ   تَبْلَى عِظامي وأنتُمْ لا تُبَالونا
وما مَرَرْتُ بقومٍ في مجالِسِهِمْ   إلَّا سمعتُهُمُ فينا يخُوضُونا
وقد أَمِنَّا على أسرارِنا نَفَراً   كانوا كأولادِ يَعقوبٍ يَخُونُونَا

أولاد يعقوب خانوه وألقوا أخاهم يوسف في الجُبّ

وَيْحَ المحبِّينَ ما أشقَى جدودَهُمُ   إن كان مثلُ الذي بي بِالمحبِّينا

جدودهم: حظوظهم

يَشْقَوْنَ في هذهِ الدنيا بِعشقِهِمُ   لا يُدركونَ به دُنْيا ولا دِينا

٧٢ كرامة وهوان

ورَاضِي القَلْبِ غَضْبانِ اللِّسانِ   له خُلُقانِ ما يَتَشابَهانِ

يُسِرُّ مودَّتي ويُطِيلُ غَيْظي   ويَمْزُجُ لي الكَرامَةَ بِالهَوَانِ

٧٣ الحزن الحقيقي

سبحانَ ربِّ العُلا ما كان أَغفَلَني   عمَّا رمتْني به الأيامُ والزَّمَنُ

مَنْ لم يذُقْ فُرقةَ الأحبابِ ثم يَرى   آثارَهُمْ بَعدهُمْ لم يدْرِ ما الحَزَنُ

٧٤ الحب شيء..

والحُبُّ شيءٌ قَلَّ مَنْ   يَقْوَى على كِتْمَانِهِ

٧٥ غريب الدار

يا غَريبَ الدَّارِ عن وَطنِهْ   مُفْرَداً يَبكي على شَجَنِهْ

شَفَّهُ ما شَفَّني فبَكى   كلُّنا يبكي على سَكَنِهْ

ولقد زادَ الفؤادَ شَجاً   طائرٌ يبكي على فَنَنِهْ

كلَّما جَدَّ البكاءُ به   دَبَّتِ الأَسقامُ في بَدَنِهْ

قيل هذا آخر شعر قاله. رأى طائراً يغرد فوق غصن فخاطبه

٧٦ .فقد جئنا خراسانا

قَالوا خُراسَانُ أقصَى ما يُرادُ بِنا   ثُمَّ القُفُولُ. فقد جِئنَا خُراسانَا!

صحب العباس هارون الرشيد إلى خراسان، واستطال المكث فيها، فقال هذا الشعر فسمعه الرشيد، وأذن له بالرجوع إلى بغداد. بيت فيه من الدلال والإدلال الكثير. يقول: «قلتم لي سنصل إلى خراسان ثم نعود. طيب! ها قد وصلنا خراسان!»

متى يكونُ الذي أرجوُ وآمُلُهُ   أمَّا الذي كنتُ أخشاهُ فقد كانا

ما أَقْدَرَ اللَّهَ أن يُدْنِيِ على شَحَطٍ جيرانَ دِجلَةَ مِنْ جيرانِ جَيْحَانا

على شحط: على بُعدٍ

يا ليتَ مَنْ نَتمنَّى عند خَلْوَتِنا إذا خَلا خَلْوَةً يوماً تَمَنَّانا

٧٧ أعز من الأمنيات

يا أيُّها السَّائلُ عن وصفِها لقد وَصَفْنَا لو بَلَغْناها

إنَّكَ لو أبصرْتَها مَرَّةً أَجْلَلْتَها أنْ تَتَمَنَّاها

لم نَدْرِ ما الدنيا ومَا طِيبُها وحسنُها حتى رأَيْناها

فقُلْ لِقَوْمِ حُرِمُوا أنْ يَرَوْا وَجْهَ ظَلُومَ اسْتَرْزِقُوا اللَّهَ

فهرس القوافي
(القافية فرقم القطعة)

مسلم بن الوليد
(١٣٥هـ - ٢٠٨هـ)

كرهت مسلم بن الوليد ثم أحببته، ثم كرهته ثم أحببته، مرات كثيرة. وآخر كَرْهة كرهتُهاهُ كانت قبل ساعتين، وآخر حب كان قبل ساعة.

كرهته لكثرة ما يتلاعب بالألفاظ ولكثرة ما يصر على أن يحشو أبياته بالمعاني حشواً فيه اقتسار، وفيه صنعة. وكنت أنصرف عنه انصرافاً عندما يكون مزاجي رائقاً، وأكون محتاجاً إلى أن أقرأ شعراً فيه لمسة وجدانية. وكنت أنصرف عنه عندما يكون مزاجي متوتراً، ذلك أنني أكون بنصف قواي العقلية فلا أريد أن أنشغل بحل ألغازه.

وكنت أحبه عندما أكون في مزاج معابثة، وما أكثر ما يعتادني هذا المزاج.

وقبل ساعة أقبلت على شعر مسلم باسماً، وجعلني أقبل عليه أنني تذكرت ذلك الألماني روكارت الذي ترجم إلى لغته ديوان امرئ القيس والحماسة ومقامات الحريري، وكنت قصصت قصته في كتابي السابق «أول الشعر» الذي تناولت فيه العصر الجاهلي والإسلامي والأموي. وأعيد عليك فقط قصة صغيرة عن روكارت: لقد نزل الثلج على قريته في شمال بافاريا ذات سنة في نيسان/ أبريل.. حادثة غريبة، والأغرب منها أن صاحبنا نظم فيها ثمانيَ وثلاثين قصيدة. كان روكارت مجنون شعر.. كان يلعب باللغة، ولا يكاد يجد فرقاً بين شعر فيه ألاعيب وشعر عاطفي. فذاك يهز العقل، وهذا يهز الوجدان.

أقبلت على شعر مسلم أقرأ وأبتسم لهذه الألاعيب البديعية، والبيانية.. فقد قرر علماء اللغة أن البديع هو المحسنات اللفظية من جناس وطباق، بينما البيان يتضمن المحسنات المعنوية من تشبيه وتورية. ولا أرى كبير فرق.

أقبلت أشرح أشعار الرجل فإذا هي كومة خيوط دقيقة تعقدت وتشلبكت.. نعم حتى تلك التي اخترتها بنفسي. في فكها متعة، وفيه عناء. ومن ذا قال إن الشعر وجدان فقط. على أن في شعر مسلم بن الوليد شهوانية، وفيه انصراف عن الشهوانية، وفيه بعض عبث، ومدح غث لكنه حافل بتلك الألاعيب. وفيه بعض انقباض. وكان في الرجل، كما قالوا لنا، انقباض.

كان مسلم يحكك شعره، ولا يرسله على السجية كبشار بن برد. كان يجري في شعره على أساليب القدماء في اللفظة ومعناها المباشر، لكنه أسرف في الصناعة إذ يركب الألفاظ لتنتج المعاني الثانوية.

والد مسلم كان مولى للخزرج، ودرج الناس على تسمية شاعرنا «مسلم بن الوليد الأنصاري». وقد ولد بعيد ولادة الدولة العباسية، وما شب حتى كان للموالي شأن في الدولة، وكان منهم الشعراء والقادة وعلماء اللغة، فسيبويه يصغر شاعرنا بعشر سنين أو عشرين، وبشار المولى كان كهلاً عند ميلاد مسلم، ومن معاصريه ولِداتِه أبو نواس وأبو العتاهية.

لم يشعر مسلم بما شعر به بشار من حنين إلى أديان الفرس القديمة، ولا إلى الثقافة المغلوبة. قد انخرط في هذه الثقافة الجديدة للدولة الناشئة، أو قل انسلخ عن أصول لا يربطه بها رابط قوي. ساعده في ذلك أنه ألحق نفسه بقوة بمواليه الأنصار، وأنه حقق النجاح في بلاط الخليفة، وفي مجالس الوزراء.

سار على سنة النابغة وزهير وكل شعراء العرب في أن يمدح ويهجو ويعاتب ويستجدي.

استطراد قصير

كدت أظن شعرنا العربي تخلص من المديح في هذا الزمن لولا أنني رأيت شعراء يقولون شعراً ظاهره مدح الوطن وباطنه مدح الحاكم.

تهتك مسلم بعض التهتك وساير أبا نواس، ولكنه لم ينخرط في المجون. ولم ينحرف نحو وصف مجالس الخمر والعبث إلا تظرفاً. وعرفنا أنه تزوج وأنجب، وأحب زوجته، ورثاها بحرقة. كان تلميذه دعبل الخزاعي يلم به ويتعلم منه، ولكن دعبلاً شخصية قلقة، وقد فارق أستاذه وتعاتبا بعد سنين بشعر يشبه الهجاء.

نجح مسلم في بلاط الرشيد نجاح أبي نواس، ولكنه لم يكن مقرباً للأمين، ولم نعرف له حضوراً في بلاط المأمون. فمع انقضاء عهد الرشيد كان مسلم في نحو الستين من العمر، ونال من الفضل بن سهل، وكان يمدحه ويمدح أباه، تعييناً في جرجان: قيل جعله الفضل على البريد هناك. وترك مسلم الشعر، كأنما استوفى ما في جعبته من الألاعيب البيانية، واسترخى في جرجان. وبها مات وقد تجاوز السبعين.

تريد أن تشهد الليلة التي دخل فيها البديع إلى الشعر العربي من الباب الواسع، حسناً.. معك ههنا مسلم بن الوليد، اخترت لك أجمل شعره. وفي هذا الشعر أبيات جميلة، وفيه صنعة كثيرة وذكية، وهو الشعر الذي أسس تأسيساً لاتجاه الإغراق في البديع، فإن كنت تعرف أن هذا الاتجاه أصبح سيلاً عارماً جرف الشعر العربي معه قروناً فيما بعد، فأنت الآن تعرف من الذي شق لهذا السيل طريقه من أعلى الجبل إلى أسفل الوادي. مراراً وتكراراً يقول لك ابن المعتز في كتابه «البديع» ـ وهذا اسم الكتاب ـ إن البديع موجود في اللغة شعرها ونثرها وقرآنها منذ القدم. ونقول له: موجود نعم، ومسلم بن الوليد لم يخترعه، ولكن مسلماً هو الذي نقل البديع نقلة نوعية: نقله من التأنق العفوي إلى الصنعة. جعله همه وشغله الشاغل. ونحن لا نذكر لك في شرحنا الألاعيب اللغوية ولا نسميها بأسمائها.. نحن نشرح البيت وأنت تدرك ما فيه من تورية أو استعارة. قد عاهدنا أنفسنا في هذه الأشياء التي نكتبها في عرض الشعر القديم وشرحه ألا ننحرف بالشرح عن المعنى، وألا ندخل في النحو ولا في البلاغة ولا في التاريخ ولا العروض إلا إذا دعا داعٍ لصيق بالمعنى.

نشر شعر مسلم بن الوليد سامي الدهان بشرح قديم للطبيخي الأندلسي، وانتفعنا بالشرح على تصريده. ونحن في شرحنا لهذه المختارات فعلنا العكس، فأسرفنا في التفسير واللغو، لما كنا نحس به من صعوبة وتعقد هذا الشعر، ولعل هذا أن يُضجر القارئ الذي له ألفة بالشعر القديم، فهذا اعتذار له.

استطراد آخر

قد حسبت السنين.. ورأيت أنني سأبدد الكثير منها وأنا اشرح مثل هذا الشرح المفصل لشعراء كثر ـ وأنا بصدد شرح مختاراتي من اثنين وأربعين شاعراً ـ فقر قراري على أن أقلل في مقبل الأعمال من الشرح كثيراً.. وأن أكتفي

بشرح ما هو مغلق أو ما فيه كلمات مهجورة. وسنرى إن كنت سأنفذ هذا. **حقاً** شعرت بأنني أكتب لمن لا يريدون أن يسمعوا، فلأسترح قليلاً.

١ أبيات فرائد

أرادُوا لِيُـخـفُـوا قـبـرَهُ عـن عـدوِّهِ ... فَطِيبُ ترابِ القبرِ دَلَّ على القبرِ

* * *

قَبُحَتْ مناظِرُهُ فحينَ خَبِرْتُهُ ... حَسُنَتْ مناظِرُهُ لِقُبْحِ المَخْبَرِ

* * *

فالكلبُ إن جَاعَ لم يُعْدِمْكَ بَصبَصَةً ... وإن يَنَلْ شِبْعَةً يَنبَحْ على الأَثَرِ

البصبصة تحريك الذنب

* * *

يمدح الرشيد:

يَـغـدُو عـدوُّكَ خـائـفـاً فـإذا رأى ... أن قد قَدَرْتَ على العِقابِ رَجَاكا

* * *

أُقِرُّ بِالذنبِ مِنِّي لَستُ أعرِفُهُ ... كيْما أَقولَ كما قالتْ فَنَتَّفِقُ

* * *

سَبَقْتَ بِمعروفٍ وصَلَّى ثَنائِيا ... فلمَّا تَمادَى جَرْيُنا صِرْتَ تَالِيَا

سبقتني بالعطاء، فصلّى ثنائي، أي جاء ثانياً. . والمصلي هو الحائز على المرتبة الثانية في سباق الخيل، فلما تمادى بنا السباق وطال صرت أنت بعدي أي أن مدحي لك صار أكثر من عطائك

* * *

مُسْتَعْبِرٌ يَبْكي على دِمْنَةٍ ... ورأسُهُ يضحكُ فيهِ المَشيبْ

مستعبر: باكٍ، دمنة: خربة. هذا معنى سرقه دعبل، تلميذ مسلم. انظر البيت الثاني من القطعة رقم ٣٧ من باب «دعبل» في هذا الكتاب

* * *

رفعتْ «بنُو النجَّارِ» بَيْتِيَ فيهِمُ ... ثم انتَمَيْتُ فأفْسَحُوا في المجلسِ

رفع بنو النجار من الأنصار بيتي ضمن عشيرتهم، وكنت بعد ذلك كلما انتميت، أي ذكرت نسبي الأنصاري، أفسح الأقوام لي في مجالسهم

* * *

وأكثرُ ما تلقَى الأَماني كَواذِباً فإن صدقَتْ جازَتْ بِصاحِبِها القَدْرا

الأمنيات كاذبة غالباً، فإذا صدقت تجاوزت بالمتمني القدر، أي القدر المتوسط، فنال أكثر مما تمنى

٢ نُتَف

ثَناءٌ كَعَرْفِ الطِّيبِ يُهدَى لِأَهلِهِ وليس له إلّا بَني خَالِدٍ أَهْلُ

عَرف الطيب: رائحته الذكية، ولا يستحق هذا الثناء إلا بنو خالد

فإنْ أَغْشَ قوماً بعدَهُمْ أو أَزُرْهُمُ فَكَالوَحْشِ يُدنيها مِنَ القَانِصِ المَحْلُ

إن غشيت غيرهم، أتيتهم، فللضرورة فقط.. مثلما يقرب المحل والقحط الوحش، من ظبي أو حمار وحش، من قانصه، أي صائده

* * *

يهجو العباس بن الأحنف الشاعر:

بنُو حنيفةَ لا يَرضَى الدَّعِيُّ بِهِمْ فاترُكْ حَنيفَةَ واطْلُبْ غيرَها نَسَبا

الدعي، المدفوع النسب، نفسه لا يرضى ببني حنيفة فاترك هذه القبيلة يا عباس

واذهبْ إلى عَرَبٍ تَرضَى بِنِسبَتِهِمْ إنِّي أرى لَكَ خَلْقاً يُشبِهُ العَرَبا

هجاء مزدوج: للشخص بأنه دعيّ، وللقبيلة بأنها خسيسة لا يرضى حتى الأدعياء الانتساب إليها؛ ومع هذا فقد سيق في ثوب النصيحة. الهجاء العباسي فيه هذا التفنن وتعقيد المعنى، وانتظر لترى ما سيصنع دعبل وأبو تمام والبحتري، وكلهم في هذا الكتاب؛ ثم انتظر ما سنورده عليك في كتابنا المقبل «تألق الشعر» من أهاجي سيد الهجائين ابن الرومي

* * *

يمدح يزيد بن مزيد الشيباني:

سَلَّ الخليفةُ سيفاً من «بَني مَطَرٍ» يَمضي فيخترقُ الأجسادَ والهاما

الهام: الرؤوس

كالدهرِ لا ينثَني عمَّنْ يَهُمُّ بِهِ قد أَوْسَعَ الناسَ إِنْعاماً وإرْغاما

هذا القائد مثل الدهر لا يتراجع عمن ينوي الإيقاع به، فيزيد بن مزيد قد أوسع الناس، أي ملأهم، بالنعمة للصديق وبالإرغام، الإذلال، للعدو

* * *

يمدح هارون الرشيد:

وَقَفْتَ على النَّهْجِ الظُّنُونَ فَصَرَّحَتْ   وأدَّى إِليكَ الحكمَ كلُّ مُشَرَّدِ

أوقفتَ الظنون والتوقعات على النهج الصحيح فصرحت هذه الظنون، أي صارت وقائع صريحة، وكل من كان مشرداً عن الطاعة مبتعداً عنها أدى إليك مقاليدها

إذا اختلفتْ أَهواءُ قومٍ جمعتَهُمْ   على العفوِ أو حَدِّ الحسامِ المهندِ

تجمع الناس عندما تضطرب الأهواء والميول، إما بالعفو عنهم أو بالسيف للعصاة

* * *

يمدح الفضل بن جعفر بن يحيى البرمكي:

أبوكَ استَرَدَّ الشامَ إذْ نَفَرَتْ بِهِ،   مُلَقَّحَةً، شَعْواءُ ليس لها بَعْلُ

أبوك استرد الشام بعد أن نفرت وابتعدت بالشام فتنة شعواء، أي منتشرة، وقد نفرت وهي ملقحة (والحرب تَلْقَحُ أي تهيج) مع أنه ليس لها بعل

بِجَيشٍ كأنَّ الليلَ بعضُ حديدِهِ   تَهادَى الرَّدَى فيهِ الفَوارِسُ والرَّجْلُ

بجيش يسير في الليل فتحسب سواد الليل بعض حديد الجيش، وتتهادى، تتبادل أخذاً وإعطاءً، الفرسان والمشاة في هذا الجيش الموت مع الأعداء

* * *

رَآني بِعينِ الجُودِ فانتَهَزَ التي   طَلَبْتُ، ولم أفتحْ إليه بها فَمَا

رآني بعين سخائه فانتهز، أي استبق، طلبي قبل أن أطلب

ظَلَمْتُك إن لم أَجْزِكَ الشكرَ بعدَما   جعلتَ إلى شُكريِ نَوالَكَ سُلَّما

جعلت عطاءك السلم والوسيلة لنيل شكري ومدحي

* * *

ويُخطِئُ عُذْرِي وَجْهَ جُرْمِيَ عندها   فأَجْنِي إليها الذنبَ من حيث لا أَدري

اعتذر لها بشيء لا يتعلق بالذنب الذي أذنبته، فأحمل ذنباً آخر دون أن أدري

إذا أذنبَتْ أَعدَدْتُ عذراً لذنبِها   فإن سَخِطَتْ كان اعتِذاري مِنَ العُذْرِ

وعندما تذنب هي فأنا أتهيأ بعذر لها لأنها ستغضب وعليَّ أنا دائماً أن أعتذر، فإن سخطت من عذري كان علي أن أعتذر من هذا العذر.. كذا دلال الحبيبة

* * *

سَقى اللّهُ أياماً لنا لَسْنَ رُجَّعَاً　　وسَقْياً لِعَصرِ العَامِرِيَّةِ مِن عصرِ
لَياليَ أجْرَرْتُ البِطَالَةَ مِقوَدي　　تَمُرُّ الليالي والشُّهورُ ولا أَدري

لياليَ، أي في ذلك الزمن، أجررت البطالة مقودي.. أعطيت اللهو المقود كي يذهب بي أنى شاء

* * *

وَاكَبِدَا! أَحرَقَ الهوى كَبِدي　　عِيلَ اصْطِباري، وخَانَني جَلَدي
أَعْشَبَ خَدِّي من البكاءِ، وقد　　أَوْرَقَ غصنُ الهوى على كبِدي

* * *

أَمُرُّ بِالحَجَرِ القاسي فأَغْبِطُهُ　　لِأَنَّ قلبَكَ عندي يُشبِهُ الحَجَرا

أغبطه: أحسده

أحْبَبْتُ مِن حبِّها مَن كان يُشبِهُها　　حتى لقد صِرْتُ أَهوَى الشَّمسَ والقَمَرا

ولماذا «حتى»؟ كلنا نحب الشمس والقمر

* * *

وكمْ مِنْ مُعِدٍّ في الضميرِ لِيَ الأذى　　رآني فَألقَى الرُّعْبُ ما كان أَضْمَرا
هَداهُ لِقَصْدِ الحِلمِ جَهْلٌ جَهِلْتُهُ　　عليهِ، ولو حَالَمْتُهُ لَتَجَبَّرا

أرشده للتأني جهل جهلته، أي رعونة من جانبي وتهور، ولو كنت تلطفت به لتجبر

* * *

جَلَبْتُ لَكَ الثَّناءَ فَجَاءَ عَفْواً　　حَيَاةً لِلمكارِمِ والمَعالي

أمدحك عفو الخاطر لأن في ذلك إحياء للمكارم وليس لغرض آخر

وتَرجِعُني إليك ـ وإن نأَتْ بي　　دِيارِي عنكَ ـ تَجْرِبَةُ الرِّجالِ

* * *

طَرَفْتُ عيونَ الغَانِياتِ، ورُبَّما　　أَمَلْنَ إليَّ الطَّرْفَ كُلَّ مَميلِ

الآن منظري يؤذي عيون الحسان كأنه يطرفها، وكن في الماضي يملن إلي بعيونهن إعجاباً

وما الشيبُ إلّا شَعرةٌ، غيرَ أنه　　قليلُ قَذاةِ العينِ غيرُ قليلِ

الشيب شيء صغير.. مجرد بياض في الشعر، ولكن القذاة في العين مؤذية وإن صغرت

* * *

ذَاكَ ظبيٌ تَحَيَّرَ الحُسنُ في الأَرْ   كانِ منهُ، وحَلَّ كلَّ مَكانِ
عَرَضَتْ دونَهُ الحِجَالُ فمَا يلْـ   ـقاكَ إِلّا في النومِ أو في الأماني

حالت دون الوصول إليه الحجال، الستور، فلا تراه إلا في المنام أو الأمنيات

* * *

ألا يَا نخلةً بِالسَّفْـ   ـحِ مِنْ أَكنافِ جُرجَانِ
ألا إنِّي وإيَّاكِ   بِجُرْجَانَ غَريبانِ

قالهما في جرجان بعيداً عن الوطن

٣ الجماجم تيجاناً

يمدح يزيد بن مزيد الشيباني:

أُجْرِرْتُ حبلَ خليعٍ في الصِّبا غَزِلِ   وشَمَّرَتْ هِمَمُ العُذَّالِ في العَذَلِ

أُجررتُ، أي تُرك لي الحَبل لأصنع ما أشاء فكنت خليعاً، مستهتراً كأولئك الذي كانت تخلعهم قبائلهم وتتبرأ منهم، وكنت غزِلاً، أي متغزلاً بالنساء، وشمَّر العذال بهمة يلومونني

عاصَى العَزاءَ غداةَ البينِ مُنهَمِلٌ   من الدموعِ جَرى في إثرِ مُنهَمِلِ

عاصى العزاء، منع التعزي والنسيان، صبيحة الفراق الدمع المنهمر يجري بعضه إثر بعض

لولا مُداراةُ دمعِ العينِ لانكشفتْ   مِنِّي سَرائرُ لم تظهَرْ ولم تُخَلِ

ولولا أن داريت دمعي لانكشفت سرائر، مشاعر دفينة، لم يكن قط متوقعاً أن تظهر

ماذا على الدهرِ لو لانَتْ عَريكَتُهُ   ورَدَّ في الرأسِ مِنِّي سَكْرَةَ الغَزَلِ

ماذا يضيرك يا زمن لو لانت عريكتك، كنت ليناً لطيفاً معي، ورددت في رأسي ذلك الإحساس

قد كان دهرِي ـ وما بِي اليومَ مِن كِبَرٍ ـ   شُرْبَ المُدامِ وعَزْفَ القَيْنَةِ العُطُلِ

كان زمني الماضي ـ ولست مسناً الآن ـ شرب الخمر والاستماع إلى القينة العطل، المغنية غير المحلاة بالعقود وربما أيضاً غير المحلاة بكثير من الثياب

إذا شكوتُ إليها الحبَّ خَفَّرَها   شَكوَايَ فاحمَرَّ خدَّاها مِنَ الخجلِ

خفرها: جعلها تخجل

فِيمَ المُقامُ وهذا النجمُ معترضاً   دَنَا النَّجاءُ وحانَ السيرُ فارتَحِلِ

لماذا أبقى هنا، فها قد اعترض النجم في السماء، وفي الليل يكون السفر لبرودته، وقد دنا النجاء، سير الإبل، فهيا للرحيل

يا مَائِلَ الرأسِ إنَّ اللَّيْثَ مُفترِسٌ   مِيلَ الجَماجِمِ والأعناقِ، فاعتَدِلِ

يا مائل الرأس تيهاً وتكبراً.. الليث يفترس الرؤوس المائلة والأعناق فاعتدل

حَذارِ مِنْ أَسَدٍ ضِرغامَةٍ بطلٍ   لا يُولِغُ السيفَ إلَّا مُهجَةَ البطلِ

هذا الأسد لا يولغ السيف، لا يجعله يلغ أي يلعق، إلا في دم البطل من الأعداء

سَلَّ الخليفةُ سيْفاً مِنْ «بني مَطَرٍ»   أقامَ قائِمُهُ مَنْ كان ذا مَيَلِ

سل الخليفة يزيد بن مزيد من بني مطر، سله سيفاً أقام قائمه، أي مقبضه،
من كان مائلاً ومنحرفاً عن الحق

سَدَّ الثغورَ «يزيدٌ» بعدما انفَرَجَتْ   بِقائِمِ السيفِ لا بِالخَتْلِ والحِيَلِ

سد يزيد الثغور، حمى الحدود، بعد أن انفرجت وانكشفت للعدو، وقد سدها بالقتال لا بالختل،
الخداع والمفاوضات

يَغشَى الوَغَى وشِهابُ الموتِ في يدِهِ   يرمِي الفَوارِسَ والأبطالَ بِالشُّعَلِ

يأتي المعركة وبيده سيف كشهاب يحمل الموت ويرمي به الأعداء

يَفْتَرُّ عند افْتِرارِ الحربِ مبتَسماً   إذا تغَيَّرَ وجهُ الفارِسِ البطلِ

عندما تفتر الحرب، تفتح ثغرها، فهو يفتر، يفتح فمه بابتسامة، بينما تتغير وجوه الأبطال وتكون عابسة

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ   كأنه أَجَلٌ يَسْعَى إلى أَمَلِ

يأتي على مهج الناس، أي قلوبهم، في يوم ذي رهج، أي غبار، كأنه الأجل الذي يبدد أمل الأعداء

يَنالُ بِالرفقِ ما يَعيَا الرجالُ به   كالموتِ مُستعجلاً يأتِي على مَهَلِ

بسرعة ولطف يحقق ما يعيا، يعجز عنه الرجال، فهو كالموت مستعجل ولكنه متمهل واثق

إن شِيمَ بارِقُهُ حَالَتْ خَلائِقُهُ   بينَ العطيَّةِ والإمْساكِ والعِلَلِ

إن شيم بارقه، اختبر برقه إن كان يحمل مطراً أم لا، حالت خلائقه، حالت طباعه، ووقفت حائلاً بين العطية من جهة وبين الإمساك والمنع والعلل، أي الحجج، من جهة أخرى. فطباعه تمنع التحجج والبخل من الوقوف في وجه السخاء. إن كنت رأيت بارقه وخلائقه، ومهج ورهج في البيت قبل السابق، وهذا الالتواء في التعبير باتخاذ شتى المحسنات فهذا هو مسلم بن الوليد الذي أسرف في البديع وفتح الطريق لأبي تمام كي يأتي ويجنن الناس

يَقْرِي المَنِيَّةَ أَرواحَ الكُماةِ كما   يَقْرِي الضيوفَ شُحومَ الكُومِ والبُزُلِ

يقري: يطعم الضيف، الكماة: المسلحون، الكوم: الجمال الكبيرة، البزل: الجمال التي بزلت أي خرجت أسنانها. يقول: يزيد يقدم الأعداء المسلحين طعاماً للموت، مثلما يطعم الضيوف شحم الجمال

يَكسُو السيوفَ دِماءَ الناكِثينَ بِهِ   ويجعلُ الهَامَ تيجَانَ القَنا الذُّبُلِ

الذي ينكثون بالعهد ويثورون على الدولة يكسو سيوفه بدمائهم، ويجعل للقنا الذبل، أي الرماح المجففة، تيجاناً على أسنتها من هام، أي رؤوس الأعداء

يَغدُو فتَغْدُو المنايا في أَسِنَّتِهِ   شَوارِعاً تَتَحَدَّى الناسَ بِالأَجَلِ

الموت يمشي معه في أسنة الرماح، والرماح شوارع، أي مشرعة ممدودة، تتحدى الناس بتقريب آجالهم

قد عَوَّدَ الطيرَ عَاداتٍ وَثِقْنَ بِها   فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كلِّ مُرْتَحَلِ

عود النسور عادات مؤكدة هي أنه سيقتل الأعداء،
فالجوارح تتبعه في كل ارتحال له كي تأكل من الجثث

تَراهُ في الأمنِ في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ   لا يأْمَنُ الدهرَ أن يُدْعَى على عَجَلِ

حتى في حال الأمن يكون لابساً درعاً مضاعفة النسج، فهو الدهر، أي طول الدهر، لا يأمن من أن يستدعَى على عجل للقيام بمهمة

فافْخَرْ فمَا لَكَ في شَيْبَانَ مِنْ مَثَلٍ   كذاكَ ما لِبَني شَيْبَانَ مِنْ مَثَلِ

للَّهِ مِنْ «هاشِم» في أرضِهِ جبلٌ   وأنتَ وابْنُكَ رُكْنا ذلكَ الجبلِ

لبني هاشم، ومنهم العباسيون، جبل متين في حكمهم، ويزيد وابنه ركنا هذا الجبل، قمتان فيه

يا رُبَّ مَكْرُمَةٍ أصبحتَ واحِدَها   أَعْيَتْ صَناديدَ رَامُوها فلم تُنَلِ

الصناديد: الشجعان، راموها: حاولوا نيلها

تَشاغَلَ الناسُ بِالدُّنيا وزُخْرُفِها   وأنتَ مِنْ بَذْلِكَ المَعروفَ في شُغُلِ

صَدَّقْتَ ظَنّي وصَدَّقْتَ الظُّنونَ بِهِ   وحَطَّ جُودُكَ عَقْدَ الرَّحْلِ عن جَمَلي

صدقت ظني بسخائك، وصدقت ظنون الآخرين بظني، فهم سينالون مني بعض ما أعطيتني.
وجودك جعلني أنزل الرحل عن جملي، إذ لن أحتاج للرحيل والبحث عن رزق آخر فقد كفيتني

٤ راكب الليل ومركوبه

سَلِ الناسَ إنِّي سائلُ اللَّهِ وَحدَهُ   وصائِنُ عِرضي عن فُلانٍ وعنْ فُلِ

نحن اليوم نقول فلان وعلان

إذا رَكِبَ الليلُ الضِّعافَ رَكِبتُهُ   زَميلي السُّرَى والرِّدْفُ عَزمي ومُنْصُلي

الليل يركب بهمومه الضعاف، فأما أنا فأركبه ويزاملني السرى، أي سير الليل، ويكون ردفي، أي رفيقي الذي أردفه خلفي، العزم والمنصل، أي نصل السيف

وقد عَجَمَتْ مِنِّي الخُطوبُ ابنَ هِمَّةٍ   متى ما تُرِيهِ مَنزِلَ السُّوءِ يَرْحَلِ

لقد عجمت، أي جربت، الخطوب في شخصي ابن همة، صاحب طموح، متى أرته الخطوب منزلاً يسيء إليه فسرعان ما يرحل

بَلَغْنا «بِسَهْلٍ» ثَرْوَةً وَوسيلَةً   إلى وَفْرِ مالٍ وَاسعٍ وتَفَضُّلِ

حصلنا من سهل على ثروة و«واسطة» تقربنا من الخليفة مما سيعود علينا بوفر وفضل كبيرين

فتًى كَرَمٍ يُعطي وإن قَلَّ مَالُه   ولا يَتَّقي طُلَّابَهُ بالتَّعَلُّلِ

يعطي المال حتى وإن قل بيده، ولا يتقي طلابه، لا يحتمي من طالبي العطاء، بالتعلل، بالتحجج

ولَستُ بِهَجَّاءٍ إذا السَّيْبُ رَاثَني   ولا حَامِلٍ مَدحي على غيرِ مَحْمَلِ

ولست هاجياً إذا السيب، العطاء، راثني، تأخر علي، ولست أحمل مدحي على محمل العتاب مثلاً أو الوعيد المبطن

٥ الماشي في الوحل

أَدِيرا عليَّ الراحَ لا تَشْرَبا قَبلي   ولا تَطْلُبا مِنْ عندِ قَاتِلَتي ذَحْلِي

يخاطب صاحبيه: أديرا علي كؤوس الخمر ولا تشربا قبلي، وأنتما تعلمان أن هذه الفاتنة ستقتلني بحبها فلا تطلبا عندها ذحلي، أي ثأري

أُحِبُّ التي صَدَّتْ وقالتْ لِتِربِها: دَعيهِ! الثُّرَيَّا منهُ أَقْرَبُ مِنْ وَصْلي!

أحبها وهي تصد عني وتقول لتربها، أي رفيقتها، اتركيه فنجوم الثريا أقرب إليه من وصلي

أَمَاتَتْ وأَحْيَتْ مُهْجَتي، فَهْيَ عندَها   مُعَلَّقَةٌ بينَ المَواعيدِ والمَطْلِ

أماتتني وأحيتني، فمهجتي، أي قلبي، معلقة بين المواعيد، والمطل، التسويف

وما نِلْتُ منها نائلاً غيرَ أَنَّني   بِشَجْوِ المُحِبِّينَ الأُلَى سَلَفُوا قَبْلي

لم أنل منها شيئاً.. وقد خرجت من هذه العلاقة بشجو، أي حزن، المحبين الذين سبقوني، يشير على الأغلب إلى مشاهير العشاق الذين أحبوا ولم ينالوا شيئاً، ولعله يشير إلى محبي هذه الفتاة الذين خرجوا من حبهم لها بلا طائل ولا نائل

كَتَمْتُ تَباريحَ الصَّبابَةِ عَاذِلي   فلم يَدْرِ ما بِي فاسْتَرَحْتُ مِنَ العَذْلِ

كتمت تباريح، آلام، الصبابة، العشق، عن العاذل اللائم فاسترحت من لومه

ومَانِحَةٍ شُرَّابَها المُلْكَ قَهْوَةٍ   مَجُوسِيَّةِ الأَنْسَابِ مُسلِمَةِ البَعْلِ

ورب قهوة، خمر، تمنح شاربيها شعوراً بأنهم ملوك، وهي مجوسية الأنساب، قد بدأ تعتيقها أيام عز فارس في ظل المجوسية، ولكن شاربها وشاربها مسلم فهو بعلها الذي ملكها وتزوجها

رَبيبَةِ شَمْسٍ لم تُهَجَّنْ عروقُها بِنارٍ، ولم يُقْطَعْ لها سَعَفُ النَّخْلِ

الخمر ربيبة شمس، نضج عنبها في كرومه فهي ابنة الشمس، ولم تهجن بالنار، لم يعبها الطبخ بالنار.. وكانوا ربما ساعدوا في تفكيك العنب بطبخه مع عروقه قبل تعتيقه، فهذا يعطيك طعم مزازة زائداً من عصارة العروق، وأما الخمر الجيدة فيعصرون عنبها عصراً رفيقاً فلا يتسلل طعم العروق إلى الخمر؛ ولم يقطع سعف النخل لجني ثمارها، فهي ليست نبيذ التمر الذي أحله بعض فقهاء العراق، بل خمر العنب

تَصُدُّ بِنفْسِ المرءِ عمَّا يَغُمُّهُ وتُنْطِقُ بالمعروفِ أَلْسِنَةَ البُخْلِ

تبتعد بالنفس عن الغموم وتجعل لسان البخيل ينطق بالمعروف، السخاء

بَعثْنا لها منَّا خطيباً لِبُضْعِها فجاءَ بها يَمشي العِرَضْنَةَ في مَهْلِ

بعثنا رجلاً كي يخطب بُضعها، يطلب يدها.. والبضع فرج المرأة يستحله الرجل بالزواج، فجاء بها مفتخراً يمشي العرضنة، مشية المفتخر المتمايلة

مُعَتَّقَةً لا تَشْتَكي وَطْءَ عَاصِرٍ حَرُورِيَّةً في جوفِها دَمُها يَغلي

معتقة، ولم تعانِ من دوس العاصر برجليه، فخير الخمر ما سال عصير عنبها قبل الدوس بالأرجل، وهي حرورية، متهيجة كالرجل الحروري أي الخارجي المتحمس للقتال، وكأن دمها يغلي

أَقامَتْ لنا الصَّهْباءُ صَدْرَ قَناتِها ومَالَتْ علينا بِالخَديعَةِ والخَتْلِ

أقامت لنا صدر قناتها، أي رمحها، فكأنها المحارب يرفع الرمح عالياً ولا يصوبه تصويباً.. فكأنه يطلب المهادنة، لكنها مالت علينا بعد ذلك بالخديعة والختل، الخداع، فصرعتنا دون طعن

إذا ما عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ المُقَيَّدِ في الوَحْلِ

إذا ركبت ذؤابة الشارب، أي أعلاه.. أي لعبت برأسه، فهي تجعله يمشي مترنحاً كأنه الرجل الذي في ساقيه قيد ويمشي في الوحل. تعجب هارون الرشيد من هذا البيت وقال لمسلم: ما أرضاك أن قيدته حتى جعلته يمشي في الوحل

وسَاقِيَةٍ كَالرِّيمِ هَيفاءَ طَفْلَةٍ بَعيدةِ مَهْوَى القُرْطِ مُفْعَمَةِ الحِجْلِ

رب ساقية كالريم، الغزال، هيفاء، ضامرة البطن، طفلة، طرية بضة، بعيدة مهوى القرط، قرطها الذي يزين أذنها إذا هوى فهو يهوي مسافة حتى يصل إلى كتفها.. كناية عن طول عنقها، مفعمة الحجل، مليئة الخلخال، أي أنها غليظة الساق

تَنَزُّهُ طَرْفي في مَحاسِنِ وَجْهِها إذا احتُثَّتِ الطَّاسَاتُ يُغْني عن النُّقْلِ

تنزه نظري في جمال وجهها عندما نسرع بشرب الكؤوس يغنيني عن النقل، المازة.. أي ما يرافق الشرب من خفيف المآكل

هلِ العيشُ إلّا أن أَرُوحَ معَ الصِّبَا وأَغْدُو صَرِيعَ الرّاحِ والأَعْيُنِ النُّجْلِ؟

هل لذة العيش سوى أن أروح، أمسي، مع الصبا، اللهو، وأن أغدو، أصبح، صريعاً للخمر وللأعين النجل، الواسعة؟ سمع الرشيد البيت فقال لمسلم بن الوليد: فأنت صريع الغواني. والتصق به اللقب

٦ القاتلة الماكرة

وساحِرَةِ العيْنينِ ما تُحْسِنُ السِّحْرا تُواصِلُني سِرّاً وتَقْطَعُني جَهْرا

هي ليست ساحرة حقاً لكن عينيها تسحرانني، وهي تواصلني في السر وتصد في العلن

أَتَتْني على خوفِ العيونِ كأنَّها خَذُولٌ تُراعي النَّبْتَ مُشْعَرَةٌ ذُعْرَا

أتتني تسللاً خوفاً من الرقباء، فكأنها ظبية خذول، متخلفة عن القطيع، تأكل العشب وهي تشعر بالذعر لانفرادها

إذا ما مَشَتْ خَافَتْ نَميمَةَ حَلْيِها تُداري على المَشْيِ الخَلاخِيلَ والعِطْرا

تخاف أن ينم ما تلبس من الحلي عليها إذ تمشي، فهي تتحسب من صوت الخلاخيل ومن فوحان عطرها

فَبِتُّ أُسِرُّ البَدْرَ طَوْراً حديثَها وطَوْراً أُناجِي البَدْرَ أَحْسَبُها البَدْرا

بت وأنا أكلمها مخفياً حديثي عن القمر، ثم بعد ذلك أكلم البدر نفسه وأنا أظن البدر محبوبتي. بيت مصنوع جئنا به كي نريك ما الذي بدأ يصنعه مسلم بن الوليد بالشعر

وبِنْتِ مَجُوسِيٍّ أَبُوها حَليلُها إذا نُسِبَتْ لم تَعْدُ نِسبَتُها «النَّهْرا»

رب خمرة كأنها ابنة لهذا المجوسي إذ هو يربيها بتعتيقها، وأبوها هو حليلها، زوجها، فهو قد اشتراها وأصبحت ملكه.. واعتقد المسلمون أن الرجل عند المجوس يحل لنفسه الزواج بابنته.. ونسبة هذه الخمر هي النهر، فهي تنتسب إلى ماء النهر الذي سقاها.. أو أن النهر اسم موضع قريب. تفسير آخر من الشارح القديم، أبي العباس الطبيخي: هذه الخمر أبوها الذي سقاها في كرومها هو الماء، والماء هو حليلها الذي تمزج به قبيل شربها

أَخَصُّ النَّدامَى عندها وأَحَبُّهُمْ إليها الذي لا يعرفُ الظُّهْرَ والعَصرا

تحب الخمر النديم الذي يقعد لها ولا يصلي

بَعثتُ لها خُطَّابَها فَأَتَوْا بها وسُقْتُ لها عنهُمْ إلى رَبِّها المَهْرا

خطبتها من عند بائعها ودفعت المهر

وما زالَ خَوفاً منهُمُ في جُحُودِها يُقَرِّبُهُمْ فِتراً ويُبْعِدُهُمْ شِبرا

وكان الذين ذهبوا للإتيان بها يخشون أن تجحدهم وترفض طلبهم، وكان خوفهم يقربهم فتراً ويبعدهم شبراً وهم ذاهبون مترددين لجلبها

إلـى أنْ تَـلاقَـوْهـا بِـخَـاتِـمِ رَبِّـهـا مُـخَـدَّرَةً قد عُـتِّقَتْ حِـجَـجاً عَـشْرا

ثم وجدوها مختومة بخاتم ربها، كأنها البنت البكر، وهي مخدرة، محجوبة كالمرأة، وقد عتقت عشر سنين

إذا مَـسَّـهـا الـسـاقـي أعَـارَتْ بَـنَـانَـهُ جَلابيبَ كالجَادِيِّ مِنْ لونِها صُفْرا

يمس الساقي الكأس فترتدي أصابعه جلابيب صفراً كالجادي، أي الزعفران. . فالخمر تعكس لونها على أصابعه

قُلُوبُ النَّدامَى في يَدَيْها رَهِينَةٌ يَصِيدُونَها قَهْراً، وتقتُلُهُمْ مَكْرا

قلوب الشاربين مرهونة للخمر وهم يصيدونها بالقوة بشرائها،
وهي تقتلهم بالمكر إذ تتسلل إلى رؤوسهم

ودَارَ بِـهـا ظَـبْـيٌ مِـنَ الإنْـسِ نَـاعِـمٌ تَـرُودُ عُـيونُ الشَّـرْبِ جَانِبَهُ شَـزْرَا

يدور بكؤوس الخمر ظبي إنسي، أي فتاة، وينظر الشرب، أي الشاربون، إلى الساقية شزراً، بأطراف عيونهم، يسترقون النظر استراقاً. قد نيفت على الستين، ولكنني لم أصلْ بعد إلى أن أقول ما قاله ونستون تشرتشل وهو عجوزٌ فانٍ لإحدى الجميلات في حفل، قال لها: وجهك جميل جداً هل تضيقين بأن أحدق فيك؟ ما زلت مثل مسلم بن الوليد أسترق النظر استراقاً

٧ رسالة الخمر إلى الضمير

لا تَـسْقِـنِـي الـمـاءَ الـقَـراحَ، وهَـاتِـهـا عـذراءَ صـافِـيَـةَ الأديـمِ شَـمُـولا

لا تسقني الماء الصافي، وأعطني خمراً عذراء قد فُض دنها للتو، صافية الأديم، والأديم الجلد. . فخمره ليست بها شوائب، وهي شمول باردة

بَعثَتْ إلى سِرِّ الـضـمـيـرِ فـجاءَهـا سَـلِـسـاً عـلـى هَـذْرِ الـلِّـسَانِ مَـقُـولا

ترسل الخمر رسالة إلى الضمير، ما يخفيه الإنسان، فتأتيها الأسرار سلسة يقولها اللسان

لَـطُـفَ الـمِـزَاجُ لَـهـا فَـزَيَّـنَ كـأْسَـهـا بِـقِـلادَةٍ جُـعِـلَـتْ لـهـا إكـلـيـلا

بمزجها بالماء أصبحت ألطف على الحلق، وتزين كأسها بقلادة من الفقاقيع جاءت كالإكليل على أعلى الكأس

لـو أنَّ قـومـاً يُـخْـلَـقُـونَ مَـنِـيَّـةً مِنْ بِأْسِهِمْ كانوا «بني جبريلا»

ينصرف إلى المديح: لو أن قوما خلقهم الله موتاً للأعداء لشدة قوتهم وبأسهم لكانوا بني جبريل

قومٌ إذا حَمِيَ الهَجيرُ مِنَ الوَغى جعلوا الجَمَاجِمَ لِلسيوفِ مَقِيلا

إذا حمي الهجير، القيظ. . الشمس، في الوغى، المعركة، فإن السيوف يكون قد حان وقت قيلولتها. . وهي تجد المقيل، مكان قيلولتها، في رؤوس الأعداء

إذ لا حِمَى إلَّا الرِّماحُ وبينَها   خَيْلٌ يَطَأْنَ بِقاتِلٍ مَقْتُولا

ولا مكان يحتمي به المرء إلا في ظل الرماح، وبين الرماح ثمة خيول تطأ المقتولين وعلى صهواتها يركب القاتلون

٨ السيوف الراضية

لولا سيوفُ «أبي الزُّبَيْرِ» وخيلُهُ   نَشَرَ «الوَليدُ» بِسَيْفِه «الضَّحَّاكَا»

لولا سيوف وخيول أبي الزبير، يزيد بن مزيد، لكان الوليد بن طريف الشاري ذلك المتمرد على الدولة قد نشر، أي بعث من القبر، ذلك العاصي القديم الضحاك الخارجي الذي تمرد على الأمويين وقُتل في زمن مروان الثاني

رَضِيَتْ سيوفُكَ عنكَ يومَ لَقيتَهُمْ   وأجَبْتَ دَاعيِ الموتِ حين دَعَاكا

كنت شجاعاً وأرضيت سيوفك، وخضت المعركة غير عابئ بالموت. وقد قتل يزيد بن مزيد الوليد بن طريف ورثته أخته بقصيدة «شجر الخابور»، وشرحنا الحلو من أبياتها في كتابنا «أول الشعر»

إن الرِّفَاقَ أَتَتْكَ تلتمسُ الغِنَى   والبحرُ لو يَجِدُ السبيلَ أَتاكا

يأتونك يلتمسون المال، وأنت بحر سخاء،
ولكن البحر نفسه كان سيأتيك التماساً لعطائك لو استطاع

٩ نظرات المحبين

أَدِيرِي عليَّ الراحَ سَاقِيَةَ الخَمْرِ   ولا تَسأَلِيني واسْأَلِي الكأْسَ عن أمري

ستخبرك الخمر بكل أموري.. فعندما أسكر أبوح بكل شيء

كأنَّكِ بي قد أَظهَرَتْ مُضْمَرَ الحَشَا   لَكِ الكأسُ حتى أَطلعَتْكِ على سَرِّي

جعلْنا علاماتِ المودَّةِ بينَنا   مَصَايِدَ لَحْظٍ هُنَّ أَخْفَى مِنَ السِّحْرِ

أصطاد الحبيبة وتصطادني بالنظرات الخفية خفاء أسرار السحر

فأَعْرِفُ منها الوصلَ في لِينِ طَرْفِها   وأعرفُ منها الهجرَ بِالنَّظَرِ الشَّزْرِ

إذا نظرت نظرات لينة فهذا بشير بالوصل، وإذا نظرت من جانب العين، شزراً، فهذا نذير بالهجر

وفي كُلِّ يومٍ خَشْيَةٌ من صُدُودِها   أَبيتُ على ذنبٍ وأَغْدُو على عُذْرِ

في كل يوم خوف من صدودها عني، أبيت شاعراً بالذنب، وأغدو،
أي أصبح صباحاً، وأنا متهيئ بعذر

١٠ السخي المقتدر والسخي الهيوب

خُـذْ مِـنْ شَـبـابِـكَ لـلـصِّـبَـا أَيَّـامَـهُ   هل تـسـتـطيعُ اللَّـهْـوَ حين تَـشيبُ؟

الصبا: اللهو

وإذا الـزمـانُ عَـدا عـلـيـكَ كَـفـاكَـهُ   مِـنْ آل سَـعْـدانٍ أغَـرُّ نَـجِـيـبُ

إذا ضامك الزمن فإن سيداً أغر، وجيهاً أبيض مشهوراً، نجيباً من آل سعدان سيكفيك ضيمه

يُـعـطِـيـكَ مُـقْـتَـدِراً عـلـى أمـوالِـهِ   لا كـالـذي يُـعـطـيـكَ وَهْـوَ هَـيُـوبُ

١١ خلق من الريح

دَلَّتْ على عيبِها الدنيا وصَدَّقَها   ما اسْتَرجَعَ الدهرُ مِمَّا كان أعطاني

الدنيا دلتني بنفسها على عيبها، وأبرز لي صدقها استرجاع الدهر ما كان أعطانيه من شباب وسرور. زعم مسلم أنه أخذ معنى بيته هذا من التوراة

إمَّا تَـرَيْـنـي أُزَجِّـي الـعـيِسَ مـنـتَـظِـراً   وَعْدَ المُنَى أَرْتَعِي في غيرِ أَوْطاني..

إن تري أنني الآن أزجي العيس، أدفع بالنياق إلى بلد غريب، وأقعد فيه أنتظر العطاء، وأنا أرتعي، أرتزق بالكفاف، في غير وطني..

فـقـد أَرُوحُ نَـديـمَ الـدهـرِ يَـمْـزُجُ لـي   كـأسَ الـهـوى ويُـحَـيِّـيـنـي بِـرَيْـحـانِ

.. فقد كنت في الماضي راضياً عن الزمن، وكان الزمن نديمي ويمزج لي الخمر في كأس الهوى، ويحييني بعروق الريحان كما يحيي الندماء بعضهم بعضاً

أَيَّـامَ لِـلْـعَـذْلِ إكـثـارٌ ومَـعـصِـيَـةٌ   والـراحُ تُـسْـرِعُ في عقـلـي وأحـزانـي

أيامئذ كان اللوم كثيراً وكنت أعصي اللائمين وأستمر في لهوي، والخمر تسرع في مسح عقلي ومسح أحزاني

ولـيـلـةٍ مـا يَـكـادُ الـنـجـمُ يَـسْـهَـرُهـا   سـامـرْتُـهـا بِـقَـتُـولِ الـدَّلِّ مِـفـتَـانِ

رب ليلة طويلة لا يكاد النجم نفسه يسهرها، وقد سامرتها بفتاة قتول الدل، مغناج، مفتان، فاتنة

فـالآنَ أقـصَـرْتُ إذْ رَدَّ الـزمـانُ يَـدِي   ونَـافَـرَتْـنـي الـلَّـيـالـي بـعـد إذْعَـانِ

الآن أقصرت، كففت، فقد رد الزمان يدي، كفها عن اللهو، ونافرتني الليالي، عاداني الزمن، بعد أن كان مذعناً مطيعاً لي

إلـى الإمـامِ تَـهَـادَانـا بِـأَرْحُـلِـنـا   خَلْقٌ مِنَ الرِّيحِ في أَشْبَاحِ ظُلْمَانِ

تتهادانا بأرحلنا، تأتي بنا نحن ومتاعنا، إلى الإمام، الخليفة هارون الرشيد، خلق من الريح، إبل كأنها مخلوقة من الريح لسرعتها، ولكنها إبل مهزولة لطول السفر فكأنها أشباح ظلمان، والظلمان جمع ظليم وهو ذكر النعام

لم يُغْمِدِ السيفَ مُذْ نِيطَتْ حَمائِلُهُ   يـومـاً ولا سَـلَّـهُ إلّا عـلـى جَـانِ

لم يغمد الخليفة سيفه في قرابه منذ أن عُلقت حمائله بكتفه، ولم يسله إلا لمعاقبة أحد الجناة

١٢ لا سراويلات

ويـوم مِنَ الـلـذّاتِ خَـالَـسْـتُ عَـيْشَهُ   رَقـيـبـاً عـلـى الـلـذّاتِ غـيـرَ مُـغَـفَّـلِ

رب يومٍ خالست عيشه رقيباً، سرقت العيش في لذاته سرقةً من رقيب، وكان الرقيب منتبهاً غير مغفل غير أنني غافلته

فكنتُ نَديمَ الكأسِ حتى إذا انقضَتْ   تَعوَّضْـتُ عنهـا رِيقَ حَوْراءَ عَيْطَلِ

وصاحبت كأس خمر، حتى إذا نفدت الخمر، استعضت عنها بريق فتاة حوراء، شديدة سواد العينين في شدة بياض، وهي عيطل أي غير مرتدية الحلي لاستغنائها عنها بجمالها

نَـهـانـيَ عـنـهـا حُـبُّـهـا أن أَسُـوءَهـا   بِـلَـمْـسٍ، فـلـم أَفْـتِـكْ ولـم أَتَـبَـتَّـلِ

لحبي للفتاة لم أتمادَ معها لمساً، فلم أكن فاتكاً معتدياً.. لكنني لم أكن متبتلاً شديد التعفف

أخذتُ لِطَرْفِ العينِ منها نصيبَهُ   وأَخْلَيْتُ مِنْ كَفِّي مَكانَ المُخَلْخَلِ

أخذت لعيني نصيبها من النظر، لكنني أخليت كفي، منعتها، من مكان الخلخال.. أي لم ألمس للفتاة ساقاً

سَقَتْني بِعيْنَيْها الهوى وسقيتُها   فدَبَّ دبِيبَ الراحِ في كلِّ مَفْصِلِ

الهوى دب في جسمينا وتغلغل كما تدب الخمر بعد أن تساقيناه بالعيون

وإنْ شئتُ أن أَلْتَذَّ نَازَلْتُ جيِدَها   فعانقْتُ دونَ الجيِدِ نَظْمَ القَرَنْفُلِ

كنت أنازل، أغالب وأصارع عنقها، وأعانق تحت العنق العقد المنظوم من القرنفل

أنـازِعُـهـا سِـرَّ الـحـديـثِ وتـارةً   رُضَاباً لذيذَ الطَّعْمِ عَذْبَ المُقَبَّلِ

أنازعها، أبادلها، الحديث الحلو، وأحياناً الرضاب، الريق اللذيذ من المقبل العذب، والمقبل هو الثغر أي الشفتين

١٣ الريح الحَيْرى

وقال يمدح داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب:

لا تَدْعُ بي الشوقَ إنِّي غيرُ مَعْمُودِ   نَهَى النُّهَى عن هَوى الهيِفِ الرَّعَادِيدِ

لا تقل يا صاحبي إنني ذو شوق، فأنا غير معمود، غير عاشق، وقد نهاني النهى، أي العقل، عن حب الفتيات الهيف، جمع هيفاء، الرعاديد، المرتجات المؤخرات

لا أَجمَعُ الحِلْمَ والصَّهْباء، قد سَكَنَتْ نَفسي إلى الماءِ عن ماءِ العَناقِيدِ

لا أجمع ما بين حلمي ووقاري وبين الخمر، وقد سكنت نفسي ورضيت بالماء بديلاً عن ماء العنقود، أي الخمر

لـم يَـنْـهَـنـي فَـنَـدٌ عـنـهـا ولا كِـبَـرٌ لكنْ صَحَوْتُ وغُصْني غيرُ مَخْضُودِ

ليس الذي نهاني عن الخمر الفند، أي اللوم، ولا الكبر في السن.. لكنني صحوت وتركتها وغصني غير مخضود، مكسر ضعيف، فقد تركتها في عنفواني

ومَجْهَلٍ كاطِّرادِ السيفِ مُحْتَجِزٍ عـن الأدِلَّاءِ مَـسْجُـورِ الـصَّـيَـاخِـيـدِ

ورب مجهل، خلاء.. مفرد مجاهل، أملس صحراوي كأنه امتداد السيف الصقيل، وهو محتجز عن الأدلاء، حتى الدليل المرشد يكون محتجَزاً غير قادر على الاهتداء به، وهذا القفر مسجور الصياخيد، أي مشتعل الصخور لشدة الحر

تَـمشـي الـريـاحُ بـه حَـسْـرَى مُـوَلَّـهَـةً حَـيْـرَى تَـلُـوذُ بِـأَكْـنـافِ الـجَـلامـيـدِ

تمشي الرياح فيه حسرى مولهة، متعبة حزينة، حائرة، وهي تلجأ إلى أكناف، جهات، الجلاميد، أي الصخور.. فلا شجر ولا بشر في هذا القفر فالريح لا تجد أغصاناً تلاعبها فكأنها تكتفي بالتمسح بأطراف الصخور

قَـرَيْـتُـهُ الـوَخْـدَ مِـنْ خَـطَّـارَةٍ سُـرُحٍ تَـفْـرِي الـفَـلاةَ بِـإِرْقَـالٍ وتَـوْخـيـدِ

قريته، قدمتُ لهذا القفر، الوخد، السير السريع، من ناقة خطارة سرح، مشاءة خفيفة، تفري الفلاة، تقطع الصحراء، بالإرقال والتوخيد، وهما نوعان من سير الإبل

إلـى بَـنـي حَـاتِـمٍ أَدَّى رَكَـائِـبَـنـا خَوْضُ الدُّجَى وسُرَى المَهْرِيَّةِ القُودِ

خوض الدجى، الليل، والسرى، سير الليل، على ظهور المهرية القود، الإبل الكريمة الذلول المطيعة، أدى بركائبنا ومطايانا وأوصلها إلى بني حاتم

لَـمَّـا نَـزلْـتَ عـلـى أدنـى بِـلادِهِـمُ أَلْقَى إلـيـكَ الأَقَـاصِـي بِـالـمَـقَـالـيـدِ

يخاطب الممدوح داود المهلبي: لما نزلت في أول بلاد العدو فإن أقصى هذه البلاد ألقى إليك بالمقاليد، المفاتيح، فسلموا لك خوفاً

لَـمَـسْـتَـهُـمْ بِـيَـدٍ لِـلـعَـفْـوِ مُـتَّـصِـلٍ بِـهـا الـرَّدَى بـيـنَ تَـلْـيـيـنٍ وتَـشـديـدِ

لمستهم بيدك التي تحمل العفو عنهم، لكن هذه اليد تعرف كيف تقتل أيضاً، وكنت ذا حيلة تمارس اللين والشدة

تَجُودُ بِالنفسِ إذْ أَنْتَ الضَّنينُ بِها والجودُ بِالنفسِ أَقْصَى غايةِ الجُودِ

تجود بنفسك في المعركة غير خائف من الموت، في حين أنت ضنين بنفسك، حريص عليها، وهذا منتهى السخاء

إذا عَزَمْتَ علـى أَمْرٍ بَطَشْتَ بـه   وإن أَنَلْتَ فَنَيْلاً غيرَ تَصْريدِ

إذا حسمت أمرك فأنت تأخذ الأمور غلاباً وببطش، وإن أعطيت الناس فأنت تجعلهم ينالون العطاء بغير تصريد، بدون تقليل وتقتير

عَوَّدْتَ نفسَكَ عَاداتٍ خُلِقْتَ لها   صِدْقَ الحديثِ وإِنجازَ المواعيدِ

١٤ يا ليت ماء الفرات يخبرنا..

أيـا سُـرورٌ وأنـتَ يـا حَـزَنُ   لِمْ لَمْ أَمُتْ حينَ سارتِ الظُّعُنُ

أيها السرور وأيها الحزن لماذا لم أمت عندما سارت الظعن، النساء الراحلات

أطالَ عمرِيٍ؟ أمْ مُدَّ في أَجَلي   أم ليس في الظاعنينَ لي شَجَنُ؟

هل لأن عمري طويل بقضاء وقدر، أم مد الله في أجلي كي أرى رحيلهم؟ أم أنني لا أشعر بحزن

يا ليتَ ماءَ الفُراتِ يُخبِرُنا: أينَ تَوَلَّتْ بِأهلِها السُّفُنُ؟

ألنا وحدي الذي يرى في هذا البيت جمالاً وفتنة؟

ما أحسَنَ الموتَ عند فُرْقَتِهِمْ   وأقبحَ العيشَ بعدما ظَعَنُوا

ظعنوا: رحلوا

هَذي الحَماماتُ إن بَكَتْ وَدَعَتْ   أَسْعَدَها في بكائِها الفَنَنُ

الحمام إذ يبكي ويدعو، أي ينادي.. وقيل الحمام ينادي ابناً له ضاع منذ سنين، أسعدها الفنن، أي ساعدها الغصن بحركته وميلانه بها

فمَنْ على صَبْوَتي يُسَاعِدُني   إذا جَفَاني الحبيبُ والسَّكَنُ؟

فمن يساعدني على صبوتي، عشقي، وقد تركني الحبيب الذي كنت أسكن إليه؟

عَذَّبَني حُبُّ طَفْلَةٍ عَرَضَتْ   فيها وفي حبِّها لِيَ الفِتَنُ

عذبني حب فتاة طفلة، طرية بضة، وكان لي فيها وفي حبها فتنة

إذا دَنَتْ للضَّجيعِ لَذَّ له   منها اعتِناقٌ ولَذَّ مُحْتَضَنُ

يستمتع النائم بجانبها بالعناق وبالضم

كَحلاءُ لم تَكْتَحِلْ بِكَاحِلَةٍ   وَسْنَانَةُ الطَّرْفِ ما بِها وَسَنُ

كحلاء بكحل رباني، وطرفها وسنان، أي فاتر، وليس بها وسن، أي نعاس

قيلَ لها إنَّهُ أَخُو كَلَفٍ   بِحُبِّكُمْ هَائمٌ ومُفْتَتَنُ

قيل لها إنني صاحب كلف، غرام، ومفتون بها

فَأعرَضَتْ لِلصُّدودِ قائلةً: يقولُ ما شاءَ، شاعِرٌ لَسِنُ

فصدت وقالت: فليقل ما شاء فهو شاعر ذلق اللسان

ما كانَ فيما مضَى بِمُؤتَمَنٍ على هَوانا فكيفَ يُؤتَمَنُ؟

لم يكن في السابق مؤتمناً على حبنا، فلا نأتمنه الآن

١٥ دوام ليلي

وقال يمدح زيد بن مسلم الحنفي من وائل:

إذا شئتُما أن تسقياني مُدامةً فلا تقتُلاها، كلُّ مَيْتٍ مُحرَّمُ

لا تقتلا الخمر، بمزجها بالماء، فالميتة، أي الذبيحة التي ماتت قبل ذبحها، يحرم تناولها

وقافيةٍ أحييتُ في أَخَواتِها وفيها نجومَ الليلِ والناسُ نُوَّمُ

رب قصيدة أحييت فيها الليل ساهراً أنظمها

بَعثتُ لها قلباً ذكياً وفِطنةً وقولَ لِسانٍ صادقٍ ليس يُفْحَمُ

فلمَّا أَتَتْني مُستقيماً قَريضُها مُثَقَّفَةَ البُنيَانِ والأُسُّ مُحْكَمُ..

لما جاءتني القصيدة وقريضها، شعرها، مستقيم، وبنيانها مثقف، مشذب، وأساسها محكم متين..

حَبَوْتُ بها زَيْداً فَزَيَّنْتُ ذِكْرَهُ كما زَيَّنَ السِّلْكَ الجُمانُ المُنَظَّمُ

حبوت بها زيداً، أهديتها إليه، فزينت ذكره وسمعته مثلما يزين اللؤلؤ المنظوم السلك الذي يسلكونه فيه

إذا القَرْمُ زيدٌ لم يَقِفْكَ على النَّدَى فمُتْ، فالنَّدَى مِنْ غيرِ زيدٍ مُحَرَّمُ

إذا القرم، السيد، زيد لم يقفك على الندى، لم يعرفك بالسخاء، فمت بلا ارتزاق، فالسخاء محرم على غير زيد، ولا يحسنه أحد كزيد

١٦ سكر وعبث

لقد تَركَ الوجدُ نفسي بها تموتُ مِراراً وتحيا مِرارا

الشغف بالمحبوبة جعلني أموت وأحيا مراراً بين الحزن والأمل

كلانا محبٌّ ولكنني على الهجرِ منها أقلُّ اصطِبارا

أنا أقل صبراً منها على البعد

شربتُ ونادَمَني شادِنٌ صغيرٌ، وإنِي أحبُّ الصِّغارا

شادن: صغير الظبي

فـمـا زِلْـتُ أَسـقـيـهِ حـتـى إذا ثَـنَـى طَـرْفَـهُ نَـشْـوَةً واسْـتَـدارا
سقيتها حتى ثنت طرفها، أي مالت بعينيها، من النشوة، النشوة هي السكر، واستدارت

نَـهَـضْـتُ إلـيــه فَـقَـبَّـلْـتُـهُ وعــانَـقْـتُـهُ وحَـلَـلْـتُ الإِزَارا
الإزار: الثوب دون الخصر

١٧ الواثقة برأسمالها

وقـد قـالـتْ لِـبـيـضٍ آنِـسـاتٍ يَـصِـدْنَ قُـلُـوبَ شُـبَّـانٍ وشـيـبِ:
قالت لزميلاتها البيض الآنسات، الوديعات، اللائي يصدن قلوب الشباب والكهول:

أنـا الشـمسُ الـمُـضِـيئَةُ حين تَبدو ولـكـنْ لـسـتُ أُعـرَفُ بِـالـمـغـيـبِ
أنا شمس، ولكنني لا أغيب كالشمس

بَـرانــيِ الـلَّـهُ رَبـي إذْ بَـرانـي مُـبَـرَّأةً سَـلِـمْـتُ مِـنَ الـعُـيـوبِ
براني: خلقني

فـلـو كَـلَّـمْـتُ إنـسـانـاً مـريـضـاً لَـمَا احتاجَ المريضُ إلى الطبيبِ
وخَـلْـقـي مِـسْـكَـةٌ عُـجِـنَـتْ بِـبـانٍ فـلـسـتُ أُريـدُ طـيـبـاً غـيـرَ طـيـبـي
أنا مخلوقة من مسك معجون بزيت البان العطري، فلا أحتاج إلى الطيب

وجِـلْـديَ لـو يَـدِبُّ عـلـيــهِ ذَرٌّ لأَدْمَـى الـذَّرُّ جِـلـديَ بِـالـدَّبـيـبِ
وأنا ناعمة وجلدي حساس لو يمشي عليه النمل الصغير لأدماه بمشيه عليه. كانت عمتي رحمها الله تقول عن الفتاة المعتزة بجمالها: رأسمالها قوي

١٨ الخروج من الجنة

مـا زالَ يـدعُـونـي بِـمُـقـلـةِ سـاحِـرٍ مِـنـهُ ويَـنْـصِـبُ لِـلـفـؤادِ حِـبـالا
ظل يدعوني بعينيه الساحرتين، وينصب حبالاً، مصائد، لقلبي

حـتـى خـضـعـتُ لِـحُـبِّـهِ فـاقْـتَـادَنـي وأذلَّـــنـــي بِـــصُـــدودِهِ إِذْلالا
حتى خضعت فاقتادني ثم أذلني بصدوده

مَـا مَـرَّ بـي شـيءٌ أَشَـدُّ مِـنَ الـهـوى سـبـحـانَ مَـنْ خَـلَـقَ الـهـوى وتَـعَـالَـى

يـا رُبَّ خِـدْنٍ قـد قَـرَعْـتُ جَـبـيـنَـه بِـالـطَّـاسِ والإِبـريـقِ حـتـى مَـالا
رب خدن، صاحبة، قرعتُ جبينها بالطاس والإبريق، سقيتها حتى الثمالة، فمالت سكراً

أَنْهَضْتُهُ مِنْ بعدِما أَسْكَرْتُهُ   فمَشَى كأنَّ بِرجْلِهِ عُقَّالا

أوقفتها ساكرة فمشت وكأن برجلها عقالاً، والعقال داء في قوائم الإبل يمنعها المشي القويم

بارَزْتُهُ وسِلاحُهُ خَلْخَالُهُ   حتى فَضَضْتُ بِكَفِّيَ الخَلخَالا

بارزت المعشوقة وسلاحها الذي تقاومني به خلخالها، أي لا مقاومة لديها،
وفضضت الخلخال بكفي

هذا النعيمُ فكيف لي بِدَوَامِهِ   أَنَّى يَدُومُ وعَيْشُهُ قد زَالا

هذا كان جنتي.. وكيف تدوم وقد زال العيش الذي يصلح به ذلك الحال بزوال الشباب

أصبحتُ كالثوبِ اللَّبِيسِ قد اخْلَقَتْ   جِدَّاتُهُ منهُ فَعادَ مُذَالا

أصبحت كالثوب الملبوس الذي أخلقت جداته، اهترأ ولم يعد جديداً، وصار مذالاً، بالياً

وبَقِيتُ كالرَّجلِ المُدَلَّهِ عقلُهُ   أَشْكُو الزمانَ وأَضرِبُ الأَمثالا

وبقيت مدلهاً، مولهاً ذاهب العقل، كلامي شكوى الزمان وضرب الأمثال

١٩ ليلة بقمرين

يا ليلةً نِلتُ فيها اللهوَ والوَطَرا   كُرِّي علينا وإلَّا فاطْرُدي الذِّكَرا

أيتها الليلة التي لهوت فيها ونلت فيها الوطر، الحاجة، ارجعي لنا.. أو على الأقل اطردي
الذكريات عنكِ التي تجعلنا نتحسر

لَمَّا التقيْنا افْتَرَعْنا في تَعاتُبِنا   مِنَ الحديثِ ومِنْ لَذَّاتِهِ العُذْرا

لما التقينا افترعنا العذر، فضضنا الأختام وتفاتحنا، في العتاب والحديث

سَأَدَّعي ذَنْبَ غيري كي يُصَدِّقَني   مَنْ لا أُرَجِّي لديهِ العَفْوَ إن قَدَرا

كي يصدقني المحبوب سأعترف بذنب ارتكبه غيري.. فهو لا يصدق قط أنني بريء

أَسْهَرْتُموني أَنامَ اللَّهُ أعيُنَكُمْ   لَسْنا نُبالي إذا ما نِمتِ مَنْ سَهِرا

أسهرتني بحبها.. لكنني أدعو لها بالنوم الهنيء

فاستَضْحَكَتْ ثم قالتْ: لا تَكُنْ نَزِقاً   واكْتُمْ حديثَكَ لا تُعْلِمْ به بَشَرا

تضاحكت وقالت: لا تكن نزقاً متوتراً ودعك من حديث الذنب هذا

فقد غَفَرتُ لكَ الذنبَ الذي زَعَمُوا   لا بَارَكَ اللَّهُ فيمَنْ بعدَ ذَا غَدَرا

غفرت لك ما زعموه ذنباً، ولا بارك الله فيمن يغدر بصاحبه

وقَصَّرَ الليلُ عن حاجاتِ أَنْفُسِنا كذاكَ ليلُ التَّلاقي رُبَّما قَصُرا

ما بنا من شوق لم يسعه الليل بطوله

لَمَّا بدا القمرُ اسْتَحَيْتْ فقلتُ لها: بَعضَ الحياءِ، فإن الحبَّ قد ظَهرا

خجلت لما كشف وجهها وجسمها نور القمر، فقلت لها: بعض الحياء، أي كفي عن هذا الخجل، فقد بدا ما بك من عشق

ألقَتْ على وجهِها هُدَّابَ خَامَتِها ونَازعَتْني بِكأسِ الوَحْشَةِ الخَفَرا

ألقت هداب خامتها، أي طرف ثوبها الذي به الأهداب، على وجهها وتبادلت معي الخفر، أي الخجل، وبيننا وحشة لما ألم بنا من مشاعر متأججة.. المعنى الملموح

تُكَاتِمُ القَمَرَ الوَجْهَ الذي ضَمِنَتْ والوَجْهُ منها تَرى في مَائِهِ القَمرا

تخفي عن قمر السماء الوجه الذي ضمنته، أي الذي خبأت، وإنك لترى في ماء وجهها، في نضارته، قمراً

قَامَتْ تَمَشَّى الهُوَيْنا نَحْوَ قُبَّتِها وقُمْتُ أَمْشي خَفِيَّ الشخصِ مُسْتَتِرا

ثم قامت تمشي ببطء نحو قبتها، خيمتها، وقمت مستخفياً كي أغادر خلسة

قالوا: اشتُهِرْتَ، فقلت: الحبُّ صاحِبُهُ مَنْ لا يزالُ به في الناسِ مُشْتَهِرا

٢٠ فلتخرب

وقال يمدح محمداً الأمين:

شُغْلي عن الدارِ أبكيها وأَرثِيها إذا خَلَتْ مِنْ حَبيبٍ لِي مغانِيها

لن أنشغل بالدار فأرثيها وأبكيها إذا خلت مغانيها، ربوعها، من الحبيب

دَعِ الرَّوَامِسَ تَسْفِي كُلَّمَا دَرَجَتْ تُرابَها ودَعِ الأَمطارَ تُبْلِيها

دع الرياح تسفي التراب كلما درجت على الديار المهجورة، ودع الأمطار تخربها

إن كان فيها الذي أهوى أقمتُ بها وإن عَداها فما لِي لا أُعَدِّيها

إن نزل بها المحبوب نزلت، وإن عداها، وتركها، فلماذا لا أتركها أنا؟

أحقُّ منزلةٍ بالتَّرْكِ منزلةٌ تَعَطَّلَتْ مِنْ هَوى نفسِي نَوادِيها

أحق مكان بالترك المكان الذي تعطلت نواديه، خَلَت مجالسه، من حبيب القلب

وقلتُ حين أَدارَ الكأسَ لِي قمرٌ: الآنَ حين تَعاطَى القوسَ بَارِيها

حين أدارت الكأس علينا فتاةٌ قمرٌ قلت: الآن أخذ القوس باريها، أي قام بالأمر الشخص المناسب

يا أَملَحَ الناسِ كفًّاً حين يَمزُجُها وحين يأخُذُها صِرفاً ويُعطيها

أملح الناس حين يمزج الخمر، وحين يتناولها ويناولها صرفاً غير ممزوجة

ومُخْطَفِ الخصرِ في أَردَافِهِ عَمَمٌ يَميسُ في خَامَةٍ رَقَّتْ حَواشيها

رب حبيب خصره مخطف، نحيل، وأردافه عميمة كبيرة، يميس، يتمايل في خامة، ثوب، رقيق الحواشي

إذا نَظرتُ إليهِ تَاهَ عن نَظَري وإن شَكَوْتُ إليهِ زَادني تِيها

أنظر إليه فأراه قد تاه، ضل وابتعد، عن نظري، وأشكو إليه فيزيدني تيهاً، أي تكبراً

حَلَّتْ قُرَيْشُ العُلا مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ وحَلَّ بَيتُكَ في أعلى أعاليها

هذا بيت مدح: قريش في أعلى المكارم، وبيتك الهاشمي في أعلى الأعالي

٢١ لا تفاضل بيننا

يمدح الحسن بن عمران بن عمر الطائي:

وإِنّيَ لا أَقْفُو الثَّناءَ بِغيرِهِ ولا أَبْتَغِيهِ قبلَ أن يُبْتَغَى عندي

أنا لا أتبع المدح بهجاء، ولا أطلب مدح شخص ما لم يسع إلى نيل مدحي

أَهِبْ يا ابْنَ عِمْرانٍ بِشُكري فَإِنَّني سميعٌ إلى الدَّاعي قَريبٌ على البُعْدِ

أهب بشكري، ارفع الصوت شاكراً لي، فأنا قريب وسامع

فما مِنْ يَدٍ قَدَّمْتَها قلتُ مُثْنِياً عليكَ، ولكِنّي هَزَزْتُكَ لِلمَجْدِ

فأنا لم أمدحك لقاء يد قدمتها، مقابل عطاء، ولكنني هززتك للمجد، حركتك حتى تدفع المال مقابل نيل مجد المديح

فإن شئتَ أَلْقَيْنا التَّفاضُلَ بَيْنَنا وقُلنا جميلاً واقتصَرْنا على الوُدِّ

والآن وقد امتنعت فإذا شئت فلنترك التفاضل بيننا، فلا أنت أفضل مني ولا أنا أفضل منك، ولنقل قولاً حسناً ولتقتصر علاقتنا على الود

٢٢ المحبوب الذميم

يهجو سعيد بن سلم:

وأَحْبَبْتُ من حُبِّها الباخِليـ ـنَ حتى وَمَقْتُ ابْنَ سَلْمٍ سَعيدا

لحبي لهذه الفتاة البخيلة بوصلها صرت أحب البخلاء فومقت، أحببت، سعيدَ بن سلْم. هذا هجاء مغلف بغلاف مختلف، فكأن الهجاء غير مقصود، لكنه هو فقط المقصود. هذا الأسلوب سماه أبو تمام «الاستطراد»، وتعلمه منه البحتري، وجئنا في شرحنا لأبي تمام بعدة قطع فيها هذا الأسلوب

إذا سـيِـلَ عُـرفـاً كَـسَـا وَجْـهَـهُ ثِـيابـاً مِـنَ الـلُّـؤْمِ حُـمْـراً وسُـودا

الآن هجاء صريح: إذا سئل بذل معروف أخذ وجهه يتلون بالحمرة والسواد من لؤمه وشعوره بالحرج لأنه لا يريد أن يعطي شيئاً

يُـغـيِـرُ عـلـى الـمـالِ فِـعْـلَ الـجَـوادِ وتَـأْبَـى خَـلائِـقُـهُ أن يَـجُـودا

هو يشن غارة على الأموال فينهبها، وتأبى له خلائقه، أي طباعه، أن يجود بالمال

٢٣ شكوى لصورتها

وإنِّـي لَأَخْـلُـو مُـذْ فَـقَـدتُـكِ دَائـبـاً فَأَنْقُشُ تِـمثَـالاً لِوَجْهِكِ في التُّرْبِ

يخلو بنفسه دوماً منذ فقد وصالها، ويخط صورتها في التراب

فَأَسقيهِ مِنْ عَيْنِي وأَشْكُو تَضَرُّعاً إليـهِ بِـمـا أَلـقَـاهُ مِـنْ شِـدَّةِ الـكَـرْبِ

فيسقي صورتها بدمعه ويشكو تضرعاً، تذللاً، لشدة ما نزل به من كرب وبلاء

فَـوالـلَّـهِ مَـا أَدري بِـمـا أنـا مُـذنِـبٌ إليكِ سوى الإفراطِ في شدَّةِ الحبِّ

فـإن كـان ذا ذنـبـي الـذي تـدَّعـيـنَـه فلا فَـرَّجَ الـرحـمنُ ذَلِكَ مِـنْ ذَنـبـي

٢٤ مفقوداً بمفقود

نـامَ الـعـواذلُ واسْـتَـكْـفَـيْـنَ لائِـمـتِـي وقد كَفَاهُنَّ نَهْضُ البيضِ في السُّودِ

نامت العاذلات، كففن عن لومي، وكفاهن اللوم قيام الشعرات البيض وسط السود في رأسي.. فهذا إيذان بانتهاء الغزل

الـشـيـبْ كُـرْهٌ وكُـرْهٌ أن يُـفَـارِقَـنـي أَعْـجِـبْ بِـشـيءٍ على البغضاءِ مَوْدُودِ

أكره الشيب وأكره أن يفارقني بالموت، فما أعجب هذا الشيء الذي توده رغم البغضاء، الكره

يَمضِي الشبابُ وقد يأتي له خَلَفٌ والـشـيـبُ يـذهـبُ مَـفـقـوداً بِـمـفـقـودِ

الشباب يذهب، وقد تخلفه عيشة هانئة في الشيخوخة، بيد أن الشيب يذهب مفقوداً وأنا مفقود معه

٢٥ هجاء قريش

هجا مسلم قريشا وفخر بالأنصار فقال:

فَـاخَـرَتْـنـا لَـمَّـا بَـسَـطْـنـا لـهـا الـفَـخْـ ـرَ قُـريـشٌ، وفَـخْـرُهـا مُـسْـتَـعـارُ

تفخر قريش علينا، نحن الأنصار، ونحن من سبَّبَ لها الفخر، ففخرها مستعار منا

ذَكَـرَتْ عِـزَّهـا ! ومـا كـان فـيـهـا   قـبـلَ أن تَـسْـتَـجـيـرَنـا مُـسْـتَـجَـارُ

تتكلم قريش عن عزها . . لكن لم يكن لديها مستجار، قوة تجير بها أحداً، قبل أن تطلب منا أن نجيرها. فقد أجارت الأنصار النبي وصحبه بعد الهجرة

فَـلَـنـا الـعِـزُّ قـبـلَ عِـزِّ قُـرَيْـشٍ   وقُـرَيْـشٌ تِـلْـكَ الـدهـورَ تِـجَـارُ

فلنا عز سابق على عز قريش في وقت كانت فيه قريش جماعة من التجار

٢٦ الميت المنشور

أمَّـا الـقُـبـورُ فـإِنَّـهُـنَّ أَوَانِـسٌ   بِـجِـوارِ قَـبْـرِكَ والـديـارُ قُـبـورُ

القبور المجاورة لقبرك تشعر بالأنس، وأما البيوت التي خلت من وجودك فهي موحشة كالقبور

عَـمَّـتْ فَـواضِـلُـهُ وعَـمَّ مُـصَـابُـهُ   فـالـنـاسُ فـيـهِ كُـلُّـهُـمْ مَـأْجُـورُ

فواضله، عطاياه وفضله، كانت قد عمت الناس فبموته عم الناس الشعور بالحزن والمصيبة. . لذا فكل الناس ينالون أجراً بحزنهم وصبرهم على المصيبة، وفي الإسلام أن الصابر على مصيبته ينال ثواباً. هذا البيت والذي بعده نسبا لغير مسلم في حماسة أبي تمام. انظر القطعة رقم ١٠٢ فيما اخترناه من الحماسة في كتابنا «أول الشعر»

رَدَّتْ صَـنـائِـعُـهُ إلـيـهِ حـيـاتَـهُ   فـكـأَنَّـهُ مِـنْ نَـشْـرِهـا مَـنْـشُـورُ

صنائعه، إحسانه، ردت إليه الحياة لأنه مذكور على كل لسان. فكأنه من نشرها، من رائحتها، منشور، أي مبعوث حياً

٢٧ تنويم البدر

فَـوَالـلَّـهِ مَـا أَدري، وإنـي لَـسـائِـلٌ   بِمَكَّةَ أَهلَ العِلمِ هل في الهوى وِزْرُ

سأسأل علماء مكة هل في العشق ذنب

وهل في اكتحالِ العينِ بالعينِ رِيبَةٌ   إذا ما التقى الإِلْفَانِ؟ لا بل بهِ أَجْرُ

وهل في اكتحال العين بالعين، رؤية المرء عيني محبوبه فكأنه يكحل عينيه بعينيه، هل في هذا ريبة، شبهة ارتكاب معصية، عندما يلتقي الإلفان، الحبيبان؟ لا والله بل فيه أجر وثواب

وبِتْـنـا عـلـى رَغْـمِ الـحَـسُـودِ وبـيـنَـنـا   حديثٌ كَريحِ المِسكِ شيبَ به الخَمْرُ

بتنا معاً رغم الحاسد، وبيننا كلام كأنه رائحة المسك التي شيب بها، خلط بها، الخمر

فَـوَسَّـدْتُـهُ كَـفِّـي وبِـتُّ ضَـجـيـعَـهُ   وقلتُ لِليلي: طُلْ فَقَدْ رَقَدَ البَدْرُ

جعلت كفي وساداً للحبيب واستلقينا معاً، وقلت لليل طل كما شئت أن تطول فإن البدر نائم

فَلَمَّا أَضَاءَ الصبحُ فَرَّقَ بينَنا وأيُّ نَعيمٍ لا يُكَدِّرُهُ الدهرُ

ضوء الصبح فرق بيننا.. والزمن يكدر كل سعادة

٢٨ هل كان يحلم شاعر عن شاعر؟

وقال في الحَكَم ابن قنبر الشاعر وكانت بينهما مهاجاة قاسية:

حَلُمَ ابنُ قَنْبَرَ حين أَقْصَر جَهْلُهُ هَل كان يَحْلُمُ شَاعِرٌ عن شَاعِرِ؟

حين قصَّر ابن قنبر في الجهل، الرعونة، أراد أن نتعامل بالحلم واللين، فهل كان الشاعر يرفق بالشاعر؟ لا بل هي الهزيمة

لا تُرْتِعَنْ لَحْمِي لِسانَك بعدَها إنِّي أَخَافُ عليكَ شَفْرَةَ جَازِرِ

لا تُرتع لحمي لسانك، لا تجعل لحمي مرتعاً للسانك أي لا تذكرني بسوء بعد اليوم، فأنا أخاف عليك أن أغضب فأذبحك بهجائي الذي كأنه شفرة جازر، سكين قصاب

واسْتَغْنِمِ العَفْوَ الذي أُوتيتَهُ، لا تَأْمَنَنَّ عُقوبَةً مِنْ قَادِرِ

واغتنم فرصة العفو التي نلتها. والشطر الثاني حكمة: لا تأمنِ العقوبة ممن يقدر عليها

٢٩ أبكيك

وقال في مرثية، وجاءت الأبيات في الشعر والشعراء:

أَبكيكَ لِلأيامِ حين تَجَهَّمَتْ طلبي، ولم يَكُ لِي وراءَكَ مَنْجَعُ

أبكيك وقد رأيت الزمن قد تجهم طلبي، كشر في وجه رغباتي، وكنت لي في حياتك المنجع، الملاذ، ولم يكن لي ملاذ غيرك

قد كنتَ لِي سَيْباً وغَيْثاً صائِباً ويداً أَضُرُّ بها العدوَّ وأنفَعُ

كنت لي سيباً، عطاءً، ومطراً صائباً، والصوب هو المطر، ويداً، أي قوة، أضر بها العدو وأنفع، أي أنفع الصديق.. لكنه حذف اكتفاء

فَاصْعَدْ إلى الغُرُفَاتِ، يومُكَ وَاقِعٌ بِالشَّامِتينَ، لِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فاصعد إلى غرفات الفردوس، وليكن يومك، موتك، واقعاً بمن شمتوا فيك، وكل إنسان له يومه

٣٠ التصادق والتنافق

ولا خيرَ في وُدِّ امْرِئٍ مُتَكَارِهٍ عليكَ، ولا في صاحبٍ لا تُوافِقُهْ

لا خير في ود صاحب يصحبك وكأنه كاره لصحبتك، ولا في آخر ينعدم بينكما التوافق

إذا المرءُ لم يَبْذُلْ مِنَ الوُدِّ مِثْلَما بَذَلْتُ له فاعلَمْ بِأنّي مُفارِقُهْ

اعلم أنني سأفارق من لا يبادلني الود بمثله

فإن شِئتَ فَاصْحَبْهُ فلا خيرَ عندَهُ وإن شِئتَ فاجْعَلْهُ صَديقاً تُمَاذِقُهْ

إن صحبت من لا يبادلك الود بالتساوي فاعلم أنه لا خير عنده، وربما جعلته صديقاً تماذقه، تبادله الود نفاقاً.. تتنافقان

٣١ طليق عرضه

يرد على دعبل، وكان دعبل تلميذه، فجفاه مسلم فتهاجيا هجاء خفيفاً، وكان دعبل يدعى وهو صغير مياساً:

مَيَّاسُ! قُلْ لِيَ أينَ أنتَ مِنَ الوَرَى لا أنتَ مَعلومٌ ولا مَجْهولُ

قل لي يا مياس، ما وضعك في الورى، أي الناس، فلا أنت معلوم بفعل خير، ولا أنت مجهول لأن مخازيك كثيرة

لو كنتَ مَجْهولاً جَعَلْتُكَ مُعْلَماً أو كنتَ مَعْلُوماً لَغَالَكَ غُولُ

ولو كنت مجهولاً حقاً فسوف أعرّف الناس بمخازيك، وإن كنت معلوماً فسوف يهجم عليك قولي هجوم الغول

أَمّا الهِجَاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دونَهُ والمدحُ عَنْكَ - كما علمتَ - جَلِيلُ

الهجاء صعب فيك لأن شرفك دقيق لا يصمد للهجاء، والمدح - وأنت خير العارفين - كبير عليك

فاذهبْ فأنتَ طَليقُ عِرضِكَ إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ بِهِ وأنتَ ذَليلُ

فاذهب فأنت طليق عرضك، أنت حر بسبب رداءة عرضك، فهو عرض نجوت بسببه وإن كان يلحق بك الذل

٣٢ تفاحة

تُفَّاحَةٌ شَامِيَّةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ غَزِلِ

الغزل: المقبل على الغزل المستمتع به

ما خُلِقَتْ مُذْ خُلِقَتْ تِلكَ لِغيرِ القُبَلِ

التفاحة حرام فيها الأكل، فلشبهها بالخدود لا تصلح إلا للتقبيل

كأنَّما حُمْرَتُها حُمْرَةُ خَدٍّ خَجِلِ

٣٣ صريع الغواني

وسأله رجل لم تدعى صريع الغواني فقال:

إنْ وَردَ الخدودِ والحَدَقَ النُّجْـ ـلَ ومَا في الثُّغُورِ مِنْ أُقْحُوانِ..

الخدور الوردية والعيون الواسعة، والأقحوان الذي في شفاه الحسان..

واعْوِجاجَ الأَصْدَاغِ في ظَاهِرِ الخدِّ ـ وَمَا في الصدورِ مِنْ رُمَّانِ..

واعوجاج الشعر في الأصداغ، السوالف، ورمان الصدور..

تَركَتْني بين الغَوانِي صَريعاً فَلِهَذا أُدْعَى صَريعَ الغَواني

كل هذا تركني صريعاً، ملقى أرضاً، بين الغواني، الحسان اللائي استغنين بجمالهن عن الزينة، فهذا سبب تلقيبي بصريع الغواني

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

أبو نواس

(١٤٠هـ ـ ١٩٩هـ)

أرجأت هذه المختارات من أبي نواس سنتين قضيتهما كسلان. وقد أتممتها وأنا أجر رجليَّ جرًّا. وقبل أن أكتب هذه المقدمة كافأت نفسي بيومي كسل، مضيت فيهما إلى الدكتور صموئيل جونسون الناقد والأديب الإنجليزي الذي مات قبل نحو مئتين وثلاثين سنة (١٧٨٤). جددت عهدي بسيرته المشهورة التي كتبها مريده بوزويل، وأحدثت عهداً بكتابِهِ عن شعراء الإنجليز. والرجل تناول في كتاب ضخم اثنين وخمسين شاعراً ممن زينوا اللغة الإنجليزية وصنعوها على مدى قرنين ونصف، وأنا ماض في اصطفاء أشعار اثنين وأربعين من أعاظم شعراء العربية على مدى ألف وخمسمئة سنة. يضاف إلى هؤلاء الشعراء ثمانية مجاميع شعرية رأيتها تنصف الشعراء المغمورين أو المقلين، فقد تم لي بهذا خمسون فصلاً، تقارب في العدد فصول الدكتور جونسون.

يقول جونسون، وكان كسولاً مشهوراً بالتسويف، إن الأحمق فقط هو من يكتب حرفاً إلا من أجل المال. وبالفعل لا نراه يكتب إلا بعد أن يثق من أن ما سيكتبه سيأتيه ببعض المال. ليس أنه كان حصيفاً، فقد طلب في كتابه عن شعراء الإنجليز مئتي جنيه، ويكاد النقاد المعاصرون يجمعون على أنه لو طلب الألف لنالها.

أما أنا فأكتب هذا للتسلية فقط. فالناشر العربي عندما يراك داخلاً من باب مكتبه يسألك، قبل «كيف الحال»، كم ستدفع؟

لنغادر سريعاً رنة الشكوى هذه، فقد أسمعتك شبيهاً لها في أماكن أخرى مما كنت كتبت. أعجبتني أمور كثيرة في كتاب صموئيل جونسون عن شعراء بلاده. فهو يحلل بعمق، وينقد. وهو يبحر في الكتب لكي يقدم لك المعلومات

الدقيقة عن مولد الشاعر وعن اسم أمه وأبيه وأجداده، ووضعه الاجتماعي. وهو يقتبس من الأشعار ما يناسب المقام، ويقدم نقداً جارفاً. وقد شابه جونسون في طريقته نقادنا القدامى في جانب مهم. قد تراه يكره شخصية الشاعر، ويبغض سلوكه، ويخالفه في معتقده الديني (وكان جونسون أنجليكانياً متشدداً، يَعُدُّ التدين رأس الفضائل)، لكنك تراه يفصل فصلاً قوياً بين شعر الشاعر وبين شخصيته ومعتقداته. كذا كان ابن قتيبة الناقد والفقيه، ففي كتبه يورد أشعار المجان في الخمر والعشق، وفي الزنا واللواط أيضاً، ويحكم على الشعر بالجودة إن كان جيد السبك حسن سياقة المعنى، ومثله كان أستاذه الجاحظ، ومثلهما كان نقاد الأدب عندنا في العصور الزاهرة. وعندما ذَوَتْ حضارتنا ذوى التسامح في النقد الأدبي.

لا أمعن في النقد مثلما أمعن جونسون، ذلك أنني شرطت على نفسي أن أنتخب لكل شاعر خير ما عنده. ولا أسجل حياة الشاعر بدقة مثلما كان يفعل جونسون، فعصرنا عصر الإنترنت، والتفاصيل ثَمّ، كما أن شعراءنا الذين أتناولهم أعتق كثيراً من شعراء جونسون، ولم يصلنا من تفاصيل حياتهم إلا قليل.

أنا في دراستي أبا نواس عِيَالٌ على عبد الرحمن صدقي. فهذا الأديب المصري المغمور قد كتب كتابين عن أبي نواس أحدهما عن حياته، والثاني عن خمرياته ومجونه.

عبد الرحمن صدقي أولاً: هذا رجل مظلوم. له أسلوب طه حسين لكن بلا ثرثرة، والمنفلوطي لكن مع ثقافة واسعة ضاربة في أعماق الأدب العربي والأدب الفرنسي والجغرافيا والكيمياء. اسمعْه يصف «دساكر الخمارين» في عصر أبي نواس: «وكان أصحاب هذه الدساكر لا يدَعون سبباً من أسباب الفتنة يجتذب إليهم القوم ويغريهم بإطالة المقام والتخرُّق في النفقة إلا توسَّلوا به. فهم يتخذون في حاناتهم السقاة المُردان، والساقيات الشاطرات الحسان. ويزيد بعضهم فيُحضِرونهم المسمِعاتِ العازفات من الجواري القيان، والملهين من ضُرَّاب الطنابير والعيدان، ليستخف القومَ الطربُ ويحلو لهم مجلس الشرب فيكثروا من الشراب، ويَحيفوا على أنفسهم فيه، يُفرغونه في أجوافهم أرطالاً شُرباً دِراكاً لا يفتُرون عنه، ولا يزالون كالمولهين يقربون بين الأقداح يستحثونها من أيدي الملاح، على ترجيع الغناء ونقر الدفوف ونغم الأوتار الفصاح، حتى

تغلبهم على عقولهم العقار، فيخلعوا ما بقي من حشمة وفضل عذار.» اهـ.

من عبد الرحمن صدقي أَقبَلُ السجع، فهو لا يمضي به إلى الغاية بل يترنم به بين الحين والحين، ثم تراه يصف لك أنواع النبيذ وصفاً مفصَّلاً لم أر أحداً قاربه فيه، فما احتاج إليه في «علم الخمر» من كلمات فرنسية أو حتى لاتينية ساقه، ثم يظل في العصر العباسي واصفاً كل نوع وصفاً دقيقاً.

وكنت صددت عن كتاب صدقي هذا، واسمه «ألحان الحان»، سنوات بسبب عنوانه. فقد رأيت في سجعة العنوان غثاثة، ولكنني فوجئت به عندما بدأت أقرأه.

وكتاب عبد الرحمن صدقي الآخر عن حياة أبي نواس فيه أسلوبه الجميل، وفيه كثير من ملء الفراغات. فالمؤلف يروي حياة أبي نواس وكأنه عاصره، وكلما وجد ثُغرة تخيل أحداثاً تسد الخلل.

وقبل أن ننصرف عن عبد الرحمن صدقي نذكر لك أن له كتاباً عن الشاعر الفرنسي بودلير وآخر عن الشاعر الألماني غوتة، وكتاباً بعنوان «ألوان من الحب»، وآخر عن طاغور شاعر الهند، وله شعر رقيق.

قد انتهينا من جونسون ومن صدقي. فهل آن أن نفرغ لأبي نواس؟

لا.

قد طوَّحت بي النَّوَى في الآفاق. ووجدت نفسي قعيد فندق في مشرق بلاد العرب. ولا يسعُني أن آنِس بديوان أبي نواس في هذه الغربة لأنني عاكف على تأليف كتاب يشبه كتاباً آخر للدكتور جونسون. فها قد عدنا إلى الرجل.

وأبدأ بكتاب جونسون ثم أحدثك عن كتابي.

اجتمع ستة من ناشري لندن وقرروا أن يطبعوا قاموساً للُّغة الإنجليزية التي كانت مفرداتها لعهدهم بعر شياه منثوراً في الفناء، كل امرِئٍ يرسم كل كلمة على هواه ويحمِّلها من المعنى ما يشاء. كأنما لم يكن في أدب شكسبير الذي هلك قبل مئة وأربعين سنة ما يضبط اللغة. وقبِلَ جونسون. وبعد تسع سنين ولد معجمه المشهور الذي صار نقطة البداية للمعجم الإنجليزي الحقيقي، وجعل كل ما سبقه مجرد دفاتر مفردات باهتة.

أنا قاعد في الدوحة أكتب قاموساً. لكنه ليس أول قاموس عربي محكم.

فلغتنا تعرف هذا اللون من التأليف قبل الإنجليز بقرون. وجهد جونسون المعجمي كان أصيلاً وعميقاً، فقد اتَّبع طريقة ابن منظور والمعجميين العرب الكبار في استخلاص معاني المفردات من النصوص. جمع جونسون، يساعده ستة من الناسخين والباحثين، آلافاً مؤلفة من الفِقَر المنتخبة من كتب الأدب خاصة، ومن أعلى ما كتب في اللغة الإنجليزية بياناً، ومنها استخلص معانيَ الكلمات. وكان رجلاً راسخ العلم في اللاتينية والإغريقية، فأثقل الإنجليزية بالمأخوذ عن تيْنِكَ اللغتين، وكان لديه ناشرون اجتمعوا عليه ودفعوا له كي يؤلف القاموس.

ها قد عدنا إلى الشكوى.

لا، بل أنا قاعد هنا أكتب قاموسي ولي على قعدتي مرتب.

وقاموسي قاموس صغير لا يذكر الكلمات كلها ولا يذكر كل معاني المفردات التي اخترتها. هو قاموس لغوامض اللغة، ولما يخطئ فيه الناس. كتاب يعين المذيع والمحرر ويسرد معلومات عن مهنة الإعلام. فلا يتوهمنَّ أحد أنني سأخرج عليه بكتاب من أمهات الكتب. هو كتاب والسلام. (ملاحظة مقحمة فيما بعد: صدر هذا الكتب باسم «اللغة العالية» في أربعمئة صفحة وتتمة ملزمة. ولقي صدى حسناً) وأشتهي أن أعود إلى أبي نواس فأكتب له مقدمة جليلة. فإن عدتُ فستراها في الصفحات المقبلة، وإلّا فإنني عصرت لك ديوانه عصراً جاعلاً رواية الصولي بتحقيق خليل سليم قهوجي الممتاز المرفق بشرح واف إماماً، ورواية حمزة الأصبهاني بتحقيق المستشرقين الألمان ونشر دار المدى سنداً. على أنني وجدت أشعاراً كثيرة للنواسي منثورة في كتب الأدب وغير موجودة في أي من الروايتين، فكنت أتحرج من تضمينها إلا ما ندر. وأبو نواس، بعد، من أكثر الشعراء الذين حُمل عليهم شعر.

وما أقوله لك عن حياة أبي نواس، الحسن بن هانئ، بضاعة أنقلها لك نقلاً من كتاب أبي هِفَّان «أخبار أبي نواس» بتحقيق عبد الستار فراج، وفضيلة الكتاب أن المؤلف عاصر أبا نواس وعرفه، ونقيصته أنه عتيق، فالكتاب مطبوع عن نسخة يتيمة كتبت قبل قرنين ونصفاً والأصل مكتوب قبل هذه النسخة بتسعمئة سنة، فلو عبث كل ناسخ بكلمة لما سلم من الكتاب كلمة. على أنك تشم في الكتاب رائحة بغداد أيام الرشيد، وتجد فيه ما لا تجد في كتاب ابن منظور عن أبي نواس من ألفاظ وطريقة عيش العباسيين الأوائل في بغداد. ولا

ننس أن بغداد التي نزلها أبو نواس بعد البصرة فالكوفة، كانت عاصمة جديدة لم يمض على بنائها سوى سنوات. خذ هذه الطرفة من أبي هِفَّان: «كان أول اتصاله بالرشيد أن دخل وهو شاب بعض المساجد عِشاء فوجد الإمام في الصلاة فصلَّى خلفه فقرأ الإمام: قل يا أيها الكافرون، فقال أبو نواس: لبيك. فتواثب الناس إليه وشهدوا عليه بالكفر. ورفع خبره إلى الرشيد.» وتتمة الخبر أن ابن حمدويه صاحب الزندقة قال إن هذا الشاب «يُشْبِهُ أنه رجل ماجن ليس بزنديق»، فأطلقه الرشيد.

وأمضي بك إلى كتاب عبد الرحمن صدقي الذي جعل مولد أبي نواس في سنة ١٤١هـ، وحقق ذلك تحقيقاً حسنا في الهامش، حتى يحفظ على متن كتابه، الذي يسير كالجدول الرقراق مكتوباً بأعذب أسلوب وأحلاه، رونقه. ولد في قرية بيت النار بفارس، لأب لعله كان حقاً من قبيلة حكم اليمنية، ولعله كان من مواليها، ولأم فارسية هي جلبان.

ارتحل أهل أبي نواس، أمه وأبوه وثلاثة إخوة سواه أو أربعة، إلى البصرة ولشاعرنا سنتان من العمر. وسرعان ما مات أبوه، فعملت أمه مرضعاً، أرضعت غلاماً من ثقيف بلبان أبي نواس. ثم عملت في الحرفة القديمة. كنا نود لو سترنا عليها، ولكن حرفتها أثرت في حياة ابنها وفي نفسيته. ليس أننا نشايع الدكتور محمد النويهي في إنفاقه نحواً من ثلاثمئة صفحة وهو يطبق نظريات علم النفس الحديثة على أبي نواس تطبيقاً فيه كثير من الطرافة، وكثير من التعسف، ولا أننا نشايع العقاد في تطبيقه نظريات علم النفس على شاعرنا بطريقة مختلفة في كتابه عنه، ونلفتك إلى معركة أدبية صغيرة خاضها من طرف واحد الدكتور النويهي مع العقاد الذي نشر كتابه بعد كتاب النويهي بأشهر عديدة، واشتركا في تناول أبي نواس تناولاً عِلْمَنَفْسيٍّ محض، غير أن العقاد لم يشر إلى كتاب النويهي الذي كان قد لقي بعض الصدى وكتب عنه طه حسين في الأهرام. ولعل العقاد كان فعلاً يستحق اللوم، غير أن النويهي لم يقل أبداً إن العقاد نقل عنه لا فكرة ولا نصاً. وأغلب ظني أن كتاب العقاد كان شبه مكتمل عندما صدر كتاب النويهي، فعز على العقاد أن يقر بأنه مسبوق. ويُقرأ الكتابان كلاهما لما فيهما من طرافة تطبيق النظريات النفسية الحديثة على شاعر عتيق لم يصلنا عنه الكثير، وحمل عليه شعر كثير فلا نكاد نجزم بأن هذا البيت أو ذاك له، اللهم إلا ما أورده معاصروه الذين وصلتنا كتبهم بنسخ متواترة حسنة التوثيق

كالجاحظ. والجاحظ ينقل كثيراً عن معاصره أبي نواس، ويحب أبياتاً كثيرة له. ويعرف قدره. نُقل عن الجاحظ أنه قال: «أنا أسنُّ من أبي نواس بسنة». ولا نصدق هذه العبارة، فهي تجعل حياة الجاحظ تمتد مئة وخمس عشرة سنة. على أننا نرى جميلاً أن يذوق الجاحظ أدب معاصره هذا الذوق وأن يقدره.

نرى في زمننا نحن الذي برز فيه شاعر انفتح له من أبواب المجاز والتشبيه ما لم ينفتح لغيره في كل العصور، عَنَيتُ نزار قباني، نرى النقاد والشعراء والكتبة يتسابقون إلى رمي نزار قباني بكل تهمة: فهو شعبوي وابن شارع في الأدب، وهو زير نساء، وهو ليس بشيء. ليس فيهم جاحظ واثق بنفسه لا يقوم حجاب المعاصرة بينه وبين أهل الأدب.

قلت: لا أشايع النويهي والعقاد في إمعانهما في تطبيق نظريات علم النفس الحديثة على أبي نواس، ولهما العذر في أن عصرهما، النصف الأول من القرن العشرين، كان عصر فرويد؛ وكان، في مصر، عصر الاهتمام المبالغ فيه بعلم النفس حين ترجمت وألفت كتب كثيرة في كل منحى من مناحي هذا العلم - أهو علم بالمناسبة؟ -، وقامت جمعيات تعنى كل منها بفرع معين من فروعه. ثم إن الكاتبين رأيا رجلاً فيه شذوذ جنسي يعيش في عصر مليء بالشذوذ الجنسي والتهتك والخلاعة، عصر استرخاء الخلافة العباسية وتنعمها في ظلال الاستقرار وتدفق الثروات على بغداد، فهالهما الأمر لأن عصرهما هما لم يكن عصر تهتك كعصر أبي نواس. والرجلان عبَّا من أدب الأنجلوسكسون الكثير، وعرفا الإنجليز معرفة عميقة؛ النويهي عاشرهم، والعقاد عاقرهم في كتبهم. على أن إنجلترا الخمسينات كانت ترتجف رعباً من المثلية الجنسية، إنجلترا التي سجنت أوسكار وايلد لمثليته، والتي لم يجرؤ ابنها الروائي سومرست موم على البوح بمثليته الجنسية حتى مات، ومات سنة ١٩٦٥، وإنجلترا التي انتحر فيها أبو الحاسوب ألان تورينغ عام ١٩٥٤ بعد أن جرَّموه بالشذوذ الجنسي.

غير أننا عرفنا تلك البلاد في التسعينات وفي أوائل القرن الحادي والعشرين، فرأينا فيها ممثلاً مشهوراً هو ستيفن فراي يقول: مذ خرجت من رحم أمي صممت ألا أعود إلى ذلك المكان. ورأينا كثيرين من المثليين، ومن الثنائيين، ورأينا المجتمع يسعى إلى إقناع نفسه بتقبلهم. ولم نستهجن ذلك، ولم نبحث له في كتب فرويد عن نظريات.

مفيد أن يقرأ المرء كتابي النويهي والعقاد. وممتع جداً أن يقرأ ذلك النوع

من الكتابة وذينك الأسلوبين الجميلين. أحقاً كان في العرب من يكتب بهذا الجمال وبهذا التدفق. معهم حق الذين سموا ذلك الزمن بالزمن الجميل. وعلى القارئ أن يحترس من الأحكام الجارفة التي أطلقها الكاتبان.

نعم، دخل القلق نفْس أبي نواس عندما رأى أمه تجمع الرجال والنساء في بيتها. وعندما تزوجت رجلاً يقال له العباس أحس الفتى أن أمه لم تعد له. وقد عيره لِداته بأمه، ولم يجد في جَعبته رداً سوى أن ينخلع من كل النظام الأخلاقي السائد في حواري ومساجد البصرة، وأن يعلنها: أمي زانية وأنا زان وابن زانية، فاستريحوا. لم يقل ذلك، لكن نحن نقولها على لسانه.

لقد أحسنت إليه أمه أن دفعته وهو طفل صغير إلى مكتب حَفْص المؤدب. فتعلم الكتابة والقراءة، وكان ذكياً. وشعر بتفوقه وهو طفل لم يبلغ. وعندما صح له أن يوصف بالصبي كان يتردد على مؤدب حضرمي علمه حِسْبةً، ما تقاضى أجراً، وخرَّجه وقال له: اذهب فأنت أقرأُ أهل البصرة. وعى أبو نواس القرآن كأحسن ما يكون، وانصرف إلى اللغة والشعر. كان يحضر حلقات أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة وهما أعلم الناس بالعربية، ثم انثنى إلى مجلس خلف الأحمر أشهر راوية للشعر في البصرة. فكيف إذا عرفت أن البصرة كانت أهم حاضرة عربية في ذلك الزمن؟ ذلك زمن لم يكن فيه لبغداد بعد شأن فهي مدينة وليدة. والبصرة قد سبقت الكوفة في العلم زمناً. وعمل أبو نواس صبيَّ عطَّار. ومن دكان العطار التقطه الشاعر الماجن والبة بن الحُباب، وأخذه إلى الكوفة وهو فتى في نحو الخامسة عشرة من العمر، وهذا تقدير «صدقي».

هناك في الكوفة اكتملت حلقة المجان: مطيع بن إياس، وحماد عجرد، ويحيى الحارثي، وكلهم ماجن متهتك، وما منهم أحد إلا وله في الغلمان مثلما له في الجواري من فاحش القول. ولا ندري عن الفعل. ثم جاءهم والبة بأبي نواس الذي سيغرس عما قليل راية المجون على قمة لم يبلغها أحد قبله ولا بعده.

لقد أفسد والبة الغلام أبا نواس، ولكن شاعرنا كان متهيئاً لذلك مقبلاً عليه، ولا نظن أنهما كانا كالذئب والحمل كما زعم عبد الرحمن صدقي.

كان خماسي المجون هذا: النواسي ووالبة وحماد عجرد ويحيى الحارثي ومطيع بن إياس، يقضي الوقت الطويل في تناشد الأشعار على السكر مجوناً وهجاءً وعبثاً، فكان شعراً سهلاً فيه فن القول وليس فيه تلك المعاني والألفاظ

الصلبة التي أصر شعراء العرب على أن يتوارثوها. على أن ما تعلمه أبو نواس من أهل اللغة في البصرة، وما حفظه من الشعر القديم، وكان في سعة الحفظ أسطورة، جعله أفصح القوم لساناً وأقومهم عربية، وأعرفهم بإرث الشعر العربي، وتمكن فيما بعد من أن يقول شعراً يجمع السهولة والمتانة على نحو لم يسبقه إليه أحد، وتبعه فيه نزار قباني في عصرنا الذي كان شعره من البلاغة بمكان تقصر دونه الأعناق، مع سلاسة نادرة.

أحب أبو نواس جارية في الكوفة، وقال فيها: «حامل الهوى تعب يستخفه الطرب»، وقيل إن هذا من أول ما عمل من شعر. ولعله في هذه الفترة كان قد استقر جنسياً على «الثنائية» الجنسية مع الازدواج إن صحت عندك هذا العبارة. فهو ثنائي يشتهي الغلام والفتاة، ومزدوج يشتهي أن يؤتى وأن «ياتي»، قَوْلَةَ الشاعر.

ثم قالوا إن أبا نواس رحل إلى بادية بني أسد وأقام سنة. ثم عاد إلى البصرة التي بها نشأ. وعاد إلى حلقات الدرس، وفيها سيبويه والخليل بن أحمد والأخفش ويونس وأبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي والجاحظ وبشار بن برد. وأبو نواس قد «نظر في نحو سيبويه» ـ عبارة صاحب نزهة الألباء ـ، لكنه ربما كان فعل ذلك بعد حين، إذ لا نعلم بالضبط متى دوَّن سيبويه علمه وعلم الخليل وعلم يونس في هذا الكتاب المشهور. كانت العلوم العربية في طور التكوين أو إن شئت التدوين، وكانت البصرة مهد العلوم العربية. على أن الأستاذ الذي لزمه أبو نواس كان خلفاً الأحمر الذي قيل إنه معلم الأصمعي، وكان «أفرس الناس ببيت شعر»، وقيل إنه وضع شعراً كثيراً على شعراء قدماء ثم تاب ونسك. وقيل إن خلفاً هو الذي كنَّى الحسن بنَ هانِئٍ بأبي نواس.

وسوى علوم اللغة والأدب كان القوم آنذاك قد بدأوا يتداولون علوم الهند وفارس واليونان، ونشأت في البصرة مدرسة فلسفية عظيمة الأثر في الفكر العربي والإسلامي كله هي الاعتزال، وعرف شاعرنا أحد كبار رؤوسها وهو إبراهيم النظام، وتعرض له في شعره. كان المعتزلة الرد الإسلامي على الزنادقة. الفكر الاعتزالي متحرر يذهب في تأويل النص بعيداً، لكنه كان إسلامياً وإن استفاد من منطق اليونان، وكان أبو نواس وعصبته الماجنة في برزخ بين الاعتزال وبين الزندقة، فسلمت لهم رؤوسهم عندما أثخن المهدي في الزنادقة. وفي عصر هارون الرشيد كان المجون من آلة الفتى فأما الزندقة فهي

كفر بالدولة، فالزنادقة هم من يحملون في صدورهم حنيناً إلى الأديان القديمة: المزدكية والزردشتية والمانوية. وأما الماجنون فليصنعوا ما شاءوا حتى لو مدحوا إبليس، المهم ألَّا يتزندقوا، فهذا قدحٌ في الملك. قد عرف أبو نواس سجن الزنادقة، ولكنه كان يتزندق تظرفاً لا اعتقاداً.

في البصرة أحب أبو نواس جنان، وهي جارية. وتخبرنا أشعاره أن ذلك الحب كان صادقاً. وهام بها، ولم يظفر بها. وكانت قصة حب عذري، وانتهت برحيل الشاعر إلى بغداد بعد يأسه من جنان. وجعل طريقه على الكوفة، ولم يترك حانة أو ديراً يقدم الخمر إلا حل به وشرب أياماً، كأنما أراد أن يغرق خيبته في الحب في كؤوس الشراب. ويروي لنا الجاحظ في البخلاء حكايةً عن أبي نواس وهو مقبل على بغداد في سفينة، وفيها إشارة إلى أن الرجل قد ألمَّ بعلم الكلام إلماماً حسناً.

انسل العلماء والأدباء من البصرة إلى بغداد، وكان أبو نواس معهم. جذبهم كلهم بلاط المهدي ثم هارون الرشيد. ويبدو أن أبا نواس وصل إلى بغداد متأخراً، وصلها مع وصول الرشيد إلى سدة الخلافة، ذلك سنة ١٧٠هـ.

وبعد عشرين سنة في بغداد كان فيها يلهو ويغشى الخمارات في القرى المجاورة، ويمدح الرشيد بين الحين والحين ويمدح ثم يهجو البرامكة، توجه إلى مصر في سنة ١٩٠. وفيها مدح عامل خراجها الخصيب. ولعله مكث في مصر سنة أو سنتين. ثم رجع إلى بغداد ماراً بحمص التي أعجبه ما فيها من خمر. ومضى في طريق عودته إلى بغداد يتنقل من حانة إلى حانة ومن دير إلى دير. وفي بغداد حبسه الرشيد لأبيات بلغته، ثم حبسه لأبيات أخرى. لكنه كان يحبه. ومات الرشيد سنة ١٩٣، وأبو نواس في الحبس. وخلفه ابنه الأمين، فجاء العصر الذهبي لأبي نواس. كان المهدي فابنه الرشيد فابنه الأمين ممن يتذوقون الشعر العربي أحسن تذوق. فجعل الأمين أبا نواس نديمه. وكان للأمين قدرة على الشراب لا يسبقه فيها سوى أبي نواس. فإذا سكر الأمين عربد على جلسائه.

وصنع أبو نواس في الخمر والعبث بالعقائد القصائد الكثيرة في هذا الزمن، وناله من العقاب في عهد الأمين ما كان ناله في عهد الرشيد، فحبس مراراً، فرغم أن الأمين متهتك ماجن فقد آذاه سياسياً انتشار أشعار أبي نواس، إذ كان أخوه المأمون الخارج عليه في خراسان يتخذ من ذكر أبي نواس

وأشعاره دعاية سياسية ضد أخيه الخليفة ببغداد. ولم يطل عهد الأمين فقد أحدقت به في بغداد جيوش المأمون، وقتل في عام ١٩٨هـ. وعاش بعده أبو نواس سنة، ثم مات في عام ١٩٩.

من متذوقي شعر أبي نواس المعاصرين طه حسين، وله في حديث الأربعاء نظرات نافذة نقلنا بعضها ونحن نشرح لك ما اخترناه من الشعر.

أبو نواس شاعر قديم، وشعره قديم. وفي شعره حلاوة لا نجدها في شعر معاصريه، كان شعوبياً حيناً متعصباً للعرب اليمانية حيناً. لكنه كان في كل شأنه عابثاً، يحب الحياة ويحمل على كتفيه ثقل فكرة الفناء، فكان يقرض الأبيات الزهدية كلما مل من العبث. عاش تسعاً وخمسين سنة. . ضائعاً. ولو عرفنا سرَّ الحياة للُمنا أبا نواس.

أبو نواس عبقرية شعرية. وعندنا من الشعراء العباقرة ما ليس عند أمة. هنيئاً لنا.

وبعد، فهذه باقة من شعر أبي نواس، مرتبة على حروف المعجم. وأغراضها قليلة محصورة في ذكر الخمر والغزل بنوعيه، فلا حاجة إلى كشاف أغراض. وقد لبثت هذه المجموعة بين يديَّ ثلاث سنين، لا أقدر على إتمام العمل فيها، فاقبلْها مني على عوارها. وقد آذني تشكيلها وكرهتها، ولم أكن منشرح البال وأنا أشرحها. صرت أحن إلى زمن كان المرء فيه يمسك بالقلم ويكتب ولا يعاني من «تجدد» برامج الطباعة على الحاسوب ما أعانيه.

اغفر لي ـ إن استطعت ـ هذه الركاكة وهذا التشتت الذهني اللذين منعاني، في هذه المقدمة، من أن أقص عليك قصة حياة أبي نواس بسلاسة.

قد انتفعت في فهم أشعار أبي نواس وشرحها بالديوان الذي حققه قهوجي، وحاولت ألا أسرق كلامه ولا عناوينه، فإن فعلت وأخذت منه عبارة فهي بين إشارتي تنصيص، وهي منسوبة إليه.

١ كأني قد هجوت الأدعياء

يَهجو الهيثم بن عَدِي:

مـررتُ بـهـيـثَـمَ بْـنِ عَـديَّ يـومـاً، وقِـدْمـاً، كـنـتُ أمـنـحُـهُ الـصَّـفـاءَ

قِدماً: سابقاً، فيما مضى

فـأعـرضَ هـيـثـمٌ لـمـا رآنـيِ، كـأنّـي قـد هَـجَـوْتُ الأدْعِـيـاءَ

الأدعياء: (مفردها دَعِيّ) المنسوبون إلى غير آبائهم

وقـد آلـيـتُ لا أهـجُـو دَعِـيّـاً، ولـو بَـلَـغَـتْ مُـروءَتُـهُ الـسَّـمَـاءَ

آليت: حلفت

٢ دع عنك لومي

دَعْ عنكَ لَوْمي، فَإنَّ اللَّوْمَ إغراءُ وداوِني بالتي كانتْ هِيَ الدَّاءُ

اترك اللوم، فاللوم يغريني بالتمادي؛ وداوني من أثر الخمر بالخمر. قالوا إن خير دواء لصداع السكر عند الصحو شرب بعض الخمر

صفراءُ لا تنزِلُ الأحزانُ ساحتَها، لو مسَّها حجرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

سراء: سرور

قامَتْ بِإبْريقِها، والليلُ مُعْتَكِرٌ، فَلاحَ مِنْ وجهِها في البيتِ لألاءُ

وقفت الساقية وبيدها الإبريق لجولة جديدة، والليل معتكر (مظلم) فلاح (ظهر) من وجهها الجميل لألاء (بريق) في جو البيت

فأَرسَلَتْ من فمِ الإبريقِ صافِيَةً، كأنَّما أَخْذُها بالعينِ إغْفَاءُ

فأرسلت (صبت) من فم الإبريق خمراً صافية، كأن أخذك هذه الخمر بعينيك (رؤيتك لها) إغفاء

رَقَّتْ عن الماءِ، حتّى ما يلائِمُها لَطافَةً، وجَفَا عن شَكْلِها الماءُ

الخمر أرق من الماء ـ الذي لا شيء في رقته وشفافيته ـ، حتى إنه لم يعد يلائمها لطافةً، فجفا عنها (لم يختلط بها). أبو نواس يصف ضرباً من الويسكي العباسي، ومزج الويسكي بالماء يصنع في الكأس منظراً يظهر فيه عدم الاختلاط الفوري بينهما

فلوْ مَزَجْتَ بها نُوراً لمازَجَها حتّى تَوَلَّدَ أنوارٌ وأَضْوَاءُ

فأما لو مزجت بالخمر نوراً فسيمتزج بها لأنه من شكلها، فتولد (تتولد) حينئذ أنوار وأضواء. ستسمعني في التسجيل الصوتي أجعل «تولد» مرفوعة.. كأنني أردت أن أنأى بها عن الفعل الماضي

دَارَتْ على فِتيةٍ دانَ الزمانُ لَهُمْ، فما يُصيبُهُمُ إلّا بِمَا شَاءُوا

دارت الخمر على فتية دان (خضع) الزمان لهم. نشوة الخمر تجعل المرء يظن أن المصائب مستحيلة الوقوع

مِنْ كَفِّ ذاتِ حِرٍ في زِيِّ ذي ذَكَرٍ لـهـا مُـحـبَّـانِ لُـوطِـيٌّ وزَنَّـاءُ

تدور الخمر من كف فتاة ذات حر (فرج)، ترتدي زي فتى ذي ذكر (عضو الذكورة)، ولذا يحبها اللوطي والزناء (الممارس مع النساء). وهذا البيت قد تحرج قهوجي من إثباته، وأثبتناه نحن، ليس حرصاً على الأمانة العلمية، بل لأننا أحببناه

لِتِلْكَ أَبكي، ولا أَبكي لِمَنزِلَةٍ كـانـتْ تَـحُـلُّ بـهـا هِـنْـدٌ وأَسْـمـاءُ

أبكي إذ أتذكر مجلس الخمر، ولا أبكي كبقية الشعراء لمنزلة (منزل) كانت تنزل بها هند وأسماء

حاشَا لِدَرَّةَ أَنْ تُبْنَى الخيامُ لها، وأَنْ تَـرُوحَ عـلـيـهـا الإبْـلُ والـشَّـاءُ

دَرَّة (الخمرة) أعلى قدراً من أن تبنى لها الخيام، وأن تروح عليها (تعود إليها من مراعيها) الإبل والشاء (الأغنام). ونزع عن «درة» أل التعريف لجعله إياها علماً، كقولك: رأيت أسامة، تعني الأسد. وسموها «درة» لأنها محلوبة من العنب، كما يدر حليب الناقة. وخالفنا قهوجي الذي جعلها «دُرَّة» أي لؤلؤة

فقلْ لمن يَدَّعي في العلمِ فلسفةً حفِظْتَ شيئاً، وغَابتْ عنكَ أشياءُ

قل لمن يتفلسف (ويعني إبراهيم النظام المعتزلي): حفظت شيئاً (من ظاهر الدين)، وغابت عنك أشياء (من المقاصد والجوهر)

لا تَحْظُرِ العفوَ إنْ كنتَ امرأً حَرِجاً فـإنَّ حَـظْـرَكَـهُ بـالـدِّيـنِ إزْراءُ

لا تحظر العفو لمجرد أنك حرج (متشدد)، فهذا الحظر إزراء (استخفاف) بالدين

٣ صلاة السكارى

ونَـدمَـانٍ يَـرى غَـبْـنـاً عـلـيـهِ بِـأَنْ يُـلْـفَـى، ولـيـس بـه انْـتِـشَـاءُ

رب ندمان (نديم) يرى غبناً عليه (ظلماً له) بأن يلفَى صاحياً ليس به انتشاء (سكر)

إذا نَـبَّـهْـتَـهُ مـن نَـوْمِ سُـكْـرٍ، كَـفَـاهُ مَـرَّةً مـنـكَ الـنِّـدَاءُ

إذا أردت إيقاظه من نومة سكر، فناده مرة واحدة برفق

فـليـس بِـقَـائِـلٍ لـك: إيـهِ دَعْـنـي! ولا مُـسْـتَـخْـبِـرٍ لَـكَ: مـا تَـشَـاءُ؟

فهو لن يقول لك: اتركني، ولن يقول لك: ما الذي تريد

ولـكـنْ سَـقِّـنـي؛ ويـقـولُ أيـضـاً: عـلـيـكَ الـصِّـرْفَ، إنْ أَعْـيَـاكَ مَـاءُ

ولكن، سيقول لك: سقني (اسقني)، ويضيف: هات خمرة صرفاً إن أعياك الحصول على ماء

إذا مـا أدركَـتْـهُ الـظُّـهْـرُ صـلَّـى، ولا عَـصْـرٌ عَـلَـيْـهِ، ولا عِـشَـاءُ

إذا لحقته الظهر (صلاة الظهر) صاحياً صلاها، ولا يصلي ما بعدها

يُصَلِّي هذهِ في وَقْتِ هَذي، فكلُّ صلاتِهِ أبَداً قَضاءُ

يصلي بلا مراعاة لأوقات الصلوات، وكل صلواته قضاء (يقضي صلاة في وقت أخرى)

٤ أسماؤها الحسنى

أثْنِ على الخَمْرِ بآلائِها، وسَمِّها أحْسَنَ أسْمائِهَا

امدح الخمر بآلائها (نعمها التي تسبغها علينا)، وسمها بأحسن أسمائها. التفت طه حسين في حديث الأربعاء إلى ما في هذا من تحدٍّ للدين، فالآلاء آلاء الله، والأسماء الحسنى أسماء الله

لا تَجْعلِ الماءَ لها قاهراً، ولا تُسلِّطْها على مَائِها

لا تزد الماء فيطغى على الخمر، ولا تولله كثيراً فتطغى هي عليه

كَرْخِيَّةٌ، قد عُتِّقَتْ حِقْبَةً، حتَّى مَضَى أكْثرُ أجزائِها

هذه خمر كرخية (من محلة الكرخ ببغداد)، معتقة، وقد تبدد معظمها وبقيت خلاصتها

فلم يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَّارُها منها سِوى آخرِ حَوْبائِها

فكأن صاحب الخمارة لحقها في النزع الأخير فأدرك آخر حوبائها (روحها)

دَارتْ فأحْيَتْ، غيرَ مَذْمُومَةٍ، نُفوسَ حَرَّاها وأنْضَائِها

دارت فأحيت، نفوس حراها (العطاش لها) وأنضائها (المتعبين لتأخرها عنهم)

والخمرُ قد يشربُها مَعشرٌ لَيْسُوا، إذا عُدُّوا، بِأكْفَائِها

وللأسف فالخمر يشربها بعض الناس الذي ليسوا أكفاءً لها. والكفء هو الرجل الموازي للمرأة نسباً ومالاً فيمكنه الزواج بها

٥ التعلل بالأماني

رَسولي قال: أوْصَلْتُ الكتابا، ولكن، ليس يُعْطُونَ الجوابا

فقلتُ: أليس قد قَرأُوا كتابي؟ فقالَ: بَلى، فقلتُ: الآنَ طَابَا

الآن طاب خاطري

فَأَرْجُو أن يَكونُوا هُمْ جوابي، بِلا شكٍّ، إذا عَرفوا الخِطابا

أُجِدُّ لَكَ المُنَى، يا قَلْبُ، كيْ لا تموتَ عليَّ غمّاً واكتئابا

أُجِدّ: أجَدِّد

٦ شربت من عينيه

أعـاذِلَ، أَعْـتَـبْـتُ الإمـامَ، وأَعْـتَـبـا وأَعْربْتُ عمَّا في الضَّميرِ، وأَعرَبا

يا عاذلتي (لائمتي) لقد أعتبت الإمام (أرضيته)، فأعتبني (رضي عني)، وأعرب كل منا عما يريد

وقُلْتُ لِساقِينا أَجِزْها، فلم أَكُنْ لِيَأْبَى أميرُ المؤمنينَ وأَشْرَبا

وقلت للساقي أجزها (مرِّرْها عني، ولا تقدم لي كأساً)، فليس لي أن يرفض الخليفة شربي الخمر وأخالفَه

فَجَوَّزَها عَنِّي عُقَاراً تَرى لها إلى الشَّرَفِ الأَعْلى شُعَاعاً مُطَنَّبا

فجوزها عني (مر بالخمر دون أن يسقيني)، وهي عقار (خمر) ترى لها شعاعاً مطنباً (مرتفعاً) إلى الشرف (العلو) الأعلى

إذا عَبَّ فيها شَارِبُ القومِ خِلْتَهُ يُقَبِّلُ، في دَاجٍ مِنَ الليلِ، كوكبا

إذا عب (شرب) الشارب منها حسبته يقبل كوكباً في ليل داج (مظلم). فالكأس تلمع في ظلمة المجلس كالكوكب، والشارب كأنه يقبّله

تَرى، حيثُما كانتْ من البيتِ، مَشْرِقاً، ومَا لم تَكُنْ فيهِ من البيتِ، مَغْرِبا

في مكان الخمر في زاوية البيت يوجد شروق، وفي كل مكان غيره غروب

يَدُورُ بِها سَاقٍ أَغَنُّ تَرى لَهُ على مُسْتَدَارِ الأُذْنِ صُدْغاً مُعَقْرَبا

يدور بكؤوس الخمر ساقٍ فيه صوته غنة، وترى عند مستدار الأذن (دائراً حول أذنه) صدغاً معقرباً (سالفاً تلتف خصلة شعر منه كأنها العقرب)

سَقَاهُمْ، ومَنَّاني بِعَيْنَيْهِ مُنْيَةً، فكانتْ، إلى قلبي، أَلَذَّ وأَطْيَبا

سقاهم الساقي خمراً، وأرسل لي غمزة فيها وعد بتحقيق أمنية أخرى غير الشراب، فكانت غمزته ألذ من الخمر بالنسبة إلي

٧ حسرتي على أيام البصرة

عَفَا المُصَلَّى، وأَقْوَتِ الكُتُبُ مِنِّيَ، فَالمِرْبَدَانِ، فَاللَّبَبُ

عفا (امحى) المصلى (مكان في البصرة) وأقوت (صارت مقفرة خالية) الكتب من وجودي وكذا خلا مني المربدان واللبب (مواضع في البصرة)

فالمسجدُ الجامعُ المروءةَ والدِّ ـ ـينَ عَفَا، فَالصِّحانُ، فَالرُّحُبُ

وعفا المسجد الذي يجمع المروءة والدين، وكذا الصحان (الساحات) والرحب (الساحات)

مَـنــازِلٌ قـد عَـمَـرْتُـهـا، يَـفَـعـاً، حـتـى بـدا فـي عِـذارِيَ الـشَّـهَـبُ

هذه منازل (أماكن) عمرتها (استوطنتها) يفعاً (فتىً) إلى أن ظهرت في عذاري (سالفي) الشَّهَب (بوادر الشيب)

فـي فِـتـيـةٍ كـالـسُّـيـوفِ، هَـزَّهُـمُ شَـرْخُ شـبـابٍ، وزَانَـهُـمْ أدَبُ

كنت ضمن فتية قوام كل منهم كالسيف، وقد هزهم شبابهم، وتزينوا بالأدب

ثـمَّ أَرابَ الـزمـانُ، فـانْـصَـدَعُـوا أَيْـدِي سَـبَـاً فـي الـبـلادِ، فـانْـشَـعَـبُـوا

ثم أرابَ الزمان (غدر) فانصدعوا أيدي سبا (تعبير معناه: تشتتوا كقوم سبأ) فانشعبوا (تفرقوا)

لـن يُـخْـلِـفَ الـدهـرُ مـثـلَـهُـمْ أبـداً عـلـيَّ، هـيـهـاتَ، شَـأْنُـهُـمْ عَـجَـبُ

لم يخلف (يعوض) الدهر علي بمثلهم، وكان شأنهم عجباً (يعجب الناس)

لـمَّـا تَـيَـقَّـنْـتُ أنَّ رَوْحَـتَـهُـمْ، لـيـس لـهـا، مـا حَـيِـيـتُ، مُـنْـقَـلَـبُ. .

عندما أيقنت أن ذهابهم ليس له منقلب (عودة). .

أَبْـلَـيْـتُ صـبـراً، لـم يُـبْـلِـهِ أحـدٌ، واقْـتَـسَـمَـتْـنِـي مَـآرِبٌ شُـعَـبُ

أبليت بلاء حسناً في الصبر، وتوزعتني مآرب (أغراض) شعب (متشعبة)

قُـطْـرَبُّـلٌ مَـربَـعِـي، ولـي بِـقُـرَى الـ ـكَـرْخِ مَـصِـيـفٌ، وأُمِّـيَ الـعِـنَـبُ

قطربل (قرية كثيرة الخمارات) مربعي (موطني)، وأقضي الصيف في قرى الكرخ، وأمي هي العنب التي منها تُعتصر الخمر

تُـرْضِـعُـنِـي دَرَّهَـا، وتَـلْـحَـفُـنِـي بِـظِـلِّـهـا، والـهَـجِـيـرُ يَـلْـتَـهِـبُ

وهذه الأم ترضعني درها (حليبها)، وتلحفني بلحاف ظلها في كرومها، بينما الهجير (القيظ) يلتهب

فَـاسْـتَـوْسَـقَ الـشُّـرْبُ لـلـنَّـدامى، وأَجْـ ـراهَـا عـلـيْـنـا الـلُّـجَـيْـنُ والـغَـرَبُ

استوسق الشرب (تم) للندامى، وأجرى الخمر علينا اللجين (الفضة) والغرب (الذهب). أي أنهم شربوا بكؤوس فضية مذهبة

أَقُـولُ لـمَّـا تَـحـاكَـيَـا شَـبَـهـاً أَيُّـهُـمـا، لـلـتَّـشَـابُـهِ، الـذَّهَـبُ

أقول وقد تحاكيا (تشابها) أيهما الذهب؟ أهو ذلك الطلاء أم الخمر نفسها؟

مُـلْـسٌ، وأَمـثـالُـهـا مُـحَـفَّـرَةٌ، صُـوِّرَ فـيـهـا الـقُـسُـوسُ والـصُّـلُـبُ

الكؤوس ملساء وثمة كؤوس محفرة بالنقوش عليها صور القسوس وصلبانهم

يَـتْـلُـونَ إنـجـيـلَـهُـمْ، وفـوقَـهُـمُ سَـمَـاءُ خَـمْـرٍ، نُـجُـومُـهـا الـحَـبَـبُ

الحبب: الفقاقيع

كــأنَّـــهــا لُـــؤلـــؤٌ تُـــبـــدِّدُهُ   أَيْدي عَذارىَ أَفْضَى بِها اللَّعِبُ

كأن الفقاقيع، وهي تنفجر ويتصاعد رذاذها لآلىء تبددها (تقذف بها) أيدي العذارى اللاهيات. تالله لقد كانوا يشربون الشمبانيا!

٨ تأليف النسب

يهجو أشجع السُّلَمِيّ:

ألا يـــا حـــادثـــاً فـــيـــهِ،   لِـمَـنْ يـتـعـجَّـبُ، الـعَـجَـبُ

لأَسْـــمَـــاءٍ يُـــسَـــمِّـــيـــهِـــنَّ ـ   «أَشْـجَـعُ» حـيـنَ يَـنْـتَـسِـبُ

أسماء أجداده عجيبة

تـــعـــلَّـــمَـــهـــا وإِخْـــوَتُـــهُ،   فـــكُـــلُّـــهُـــمُ بِـــهـــا ذَرِبُ

لقد تعلم، هو وإخوته، هذه الأسماء تعلّماً، وكلهم ذرب (سريع اللسان) في تردادها

لـــقـــد زَنَّـــوْا عَـــجُـــوزَهُـــمُ   ولـــو زَنَّـــيْـــتُـــهـــا غَـــضِـــبُـــوا

ولأنها ليست أسماء أجدادهم الحقيقية فكأنهم يتهمون عجوزهم (أمهم) بالزنا؛ ولكن، لو اتهمتها أنا بالزنا لغضبوا مني

٩ قمة السكر

ونَدمَانِ صِدْقٍ بَاكَرَ الراحَ سُحْرَةً،   فأَضْحَى، وما منه اللسانُ ولا القلبُ

رب ندمان (نديم) صدق (صادق) بكر إلى الراح (الخمر) عند السحر (قبيل الفجر) فما جاء الضحى إلا ولسانه وقلبه ليسا منه (أي صار سكران طينة)

تَأَنَّيْتُهُ كـيْمَـا يُـفـيـقَ، ولـم يُـفِـقْ   إلى أن رأَيْتُ الشمسَ قد حازَها الغَرْبُ

تأنيته (ترفَّقت به) كي يفيق، فلم يفق حتى الغروب

فقامَ يَخَالُ الشمسَ لَمَّا ترحَّلَتْ،   فنادى: صبوحاً! وهْيَ قد قَرُبَتْ تخبو

ثم أفاق وهو يخال (يظن) الشمس لم تشرق بعد، فنادى صبوحاً (عليَّ بشراب الصباح)، هذا بينما الشمس في الواقع كادت تخبو (تنطفئ وتغيب)

وحاولَ نحوَ الكأسِ مَشْياً، فلم يُطِقْ،   من الضعفِ، حتى جاءَ مختَبِطاً يحبو

ومن سكره صار يحبو مختبطاً (متمايلاً) نحو الكأس

فقلتُ لِسَاقِينا اسْقِهِ، فانبَرى له،   رَفيقٌ بِمَا سُمْنَاهُ من عَمَلٍ، نَدْبُ

فأمرت الساقي بأن يسقيه، فانبرى الساقي له مترفقاً بما سمناه (كلفناه) من عمل، وندب (نشيط)

فناوَلَهُ كأساً جَلَتْ عن خُمارِهِ، وأَتْبَعَها أُخرى، فَثَابَ لهُ لُبُّ

فسقاه كأساً جلت عن خماره (ذهبت بصداع السكر)، وكأساً أخرى أرجعت له عقله

١٠ لها حق الانتخاب

ما هوىً إلا لهُ سببُ يَبتدي منهُ، ويَنْشَعِبُ

فَتَنتْ قلبي مُحَجَّبَةٌ وجهُها بالحسنِ مُنتقِبُ

تعليق عمران القفيني: أليس من هنا أخذ المتنبي «على الوجه المكفن بالجمال»؟

خُلِّيَتْ والحسنَ، تأخذُهُ.. تنتقي منه وتنتخِبُ

تُركت مع الجمال وصارت تنتقي أجمل الجمال ليكون لها

١١ بين الحليب والخمر

دَعِ الأَطلالَ تَسفيها الجَنوبُ وتُبلي عهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ

اترك الأطلال تسفيها (تثير ترابها) ريح الجنوب، ودعها كي تبلي الخطوب (الأحداث) جديدها وتجعله بائداً

وخَلِّ لِراكِبِ الوَجْناءِ أرضاً تَخُبُّ بِها النَّجيبَةُ والنجيبُ

واترك لراكب الناقة الوجناء (القوية) تلك الأرض الصحراوية التي تخب (تسير) بها الناقة النجيبة (الأصيلة) والجمل النجيب

بلادٌ نَبْتُها عُشَرٌ وطَلْحٌ، وأَكثرُ صَيدِها ضَبُعٌ وذيبُ

تلك بلاد نباتها عشر (شجر صمغي) وطلح (نبات شائك)،
وأكثر ما يُصاد فيها الضبع، والذئب

ولا تأخُذْ عنِ الأعرابِ لهواً، ولا عَيْشاً، فعيشُهُمُ جَديبُ

دَعِ الألبانَ يَشْرَبُها رجالٌ، رَقيقُ العيشِ بينَهُمُ غريبُ

العيش الرقيق غريب عند هؤلاء البدو

إذا رابَ الحليبُ فبُلْ عليهِ ولا تَحْرَجْ، فَمَا في ذاكَ حُوبُ

راب: تخثر، لا تحرج (لا تخش حمل إثم)، فما في هذا حوب (إثم)

فأطيَبُ منه صافِيةٌ شَمُولٌ، يَطوفُ بِكَأْسِها سَاقٍ أديبُ

شمول: خمرة باردة

أقـامَـتْ حِـقْـبَـةً فـي قـعـرِ دَنٍّ، تَـفُـورُ، ومـا يُـحَـسُّ لـهـا لـهـيـبُ

أقامت: مكثت، دنٌّ: وعاء التخمير الكبير المختوم

كـأنَّ هـديـرَهـا فـي الـدنِّ يَـحـكـي قِـرَاةَ الـقَـسِّ قـابَـلَـهُ الـصَّـلـيـبُ

يحكي: يشبه، قراة: قراءة

تُـمَـدُّ بِـهـا إلـيـكَ يـدا غـلامٍ أَغَـنَّ، كـأنَّـهُ رَشَـأٌ رَبـيـبُ

أغن: في صوته غنة أنفية مستعذبة، رشأ: ولد الغزال، ربيب: مدلل

يَـنـوءُ بِـرِدْفِـهِ، فـإذا تَـمَـشَّـى تَـثَـنَّـى فـي غـلائِـلِـه قـضِـيـبُ

ينوء (يتعب) وهو يحمل أردافه، فإذا مشى تثنى بداخل غلائله (ملابسة الواسعة) قضيب (غصن)

يَـمُـدُّ لـكَ الـعِـنـانَ، إذا حَـسـاهـا، ويـفـتـحُ عَـقْـدَ تِـكَّـتِـهِ الـدَّبـيـبُ

يمد هذا الغلام لك العنان (الحبل) ويتساهل معك إذا حساها (شربها)، ويفتح عُقدة تكته (حزام وسطه) الدبيب (تغلغل أثر الخمر في جسمه) كذا فسرها قهوجي، وتالله لأبو نواس أوسخ من هذا خيالاً، وللدبيب معنى آخر هو أن يحبو المرء في ظلام المجلس، والسكارى غافون على أرائكهم، في اتجاه محبوبه لينال منه

يَـكـادُ مـنَ الـدَّلالِ إذا تَـثَـنَّـى عـلـيـكَ، ومِـنْ تَـسـاقُـطِـهِ يَـذوبُ

يكاد هذا الغلام لكثرة دلاله وتساقطه (من تأثير الخمر يسقط رأسه على صدرك، وتسقط يداه في حجرك، ولك أن تتخيل تهاوي أعضاء الساكر لارتخاء مفاصله)، وهذا التثني والتساقط يجعلك ترى كأن الغلام.. يذوب

فـهـذا الـعـيـشُ لا خِـيَـمُ الـبـوادي، وهـذا الـشُّـرْبُ لا الـلَّـبَـنُ الـحـلـيـبُ

١٢ حامل الهوى تعب

حـامـلُ الـهـوى تَـعِـبُ يـسـتَـخِـفُّـهُ الـطَّـرَبُ

الطرب: الحزن، أي لشدة حزنه يصير مرتعش السلوك

إن بَـكـى يَـحِـقُّ لـه لـيـس مـا بِـهِ لَـعِـبُ

فيروز تقول «يحُق له» بضم الحاء، وهذا وجه قاله اللسان، وهيهات أن تغلط فيروز في اللغة؛ على أنها بعد أن مات زوجها وأشاحت عن سِلفها، زلت زلتين

كـلَّـمـا انـقـضَـى سـبـبٌ مـنـكِ عـادَ لـي سـبـبُ

تَـعـجـبـيـنَ مـن سَـقَـمـي صِـحَّـتـي هِـيَ الـعَـجَـبُ

تـضـحـكـيـنَ لاهِـيـةً والـمـحِـبُّ يَـنـتـحـبُ

١٣ كي أكون صادقاً..

نسب في بعض النسخ إلى أبي نواس:

سقاني أبو بِشْرٍ من الراحِ شَرْبةً ... لـهـا لـذَّةٌ مـا ذقـتُـهـا لِـشَـرابِ

ومـا طَـبـخـوُهـا غـيـرَ أنَّ غـلامَـهُـمْ ... سَـعَـى لـيـلـة في كَـرْمِـهـا بِـشِـهـابِ

شهاب: مصباح

١٤ خمر وقينة

قامَتْ تُرِيني، وأَمْرُ الليلِ مجتَمِعٌ، ... صُبْحاً تَولَّدَ بين الماءِ والعِنَبِ

قامت تريني، والليل قد تكاثف ظلامه، ضوءاً كضوء الصبح تولد من خلط الماء بالخمرة التي أصلها من العنب

كأنَّ صُغْرَى وكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِها ... حَصْباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

كأن فواقعها (فقاقيعها) الصغيرة والكبيرة حصباء در (حصى من لؤلؤ) منثورة على أرض من الذهب

كأنَّ تُرْكاً صُفوفاً في جوانِبِها، ... تُوَاتِرُ الرَّمْيَ بالنُّشَّابِ مِنْ كَثَبِ

وتنفجر الفقاقيع تباعاً فكأنها على وجه الكأس جنود من الأتراك يصطفون ويواترون (يواصلون) الرمي بالنشاب (بالسهام) من كثب (من قرب)

مِنْ كَفِّ سَاقِيَةٍ، نَاهِيكَ سَاقِيَةً، ... في حُسْنِ قَدٍّ، وفي ظَرْفٍ، وفي أَدَبِ

كـانـتْ لِـرَبِّ قِـيـانٍ ذي مُـعَـالَـنَـةٍ ... بِالكَشْخِ مُحْتَرَفٍ، بالكَشْخِ مُكْتَسِبِ

هذه الجارية الساقية كان يملكها رب قيان (رجل يحتفظ في بيته بالمغنيات لتسلية الناس بأجر)، وهو ذو معالنة (يعلنها صراحة ولا يستتر)، فهو محترف الكشخ (بذل نسائه/ الدياثة) ومكتسب به

فقد رَأَتْ وَوَعَتْ عنهُنَّ، واختَلَفَتْ ... ما بيْنَهُنَّ ومَنْ يَهْوَيْنَ بالكُتُبِ

وكان من شأنها وهي عند ذلك الرجل أن خبرت أحوال القيان، وأن اختلفت (ترددت رائحة جائية) بينهن وبين من يحببن بالكتب (بالرسائل)

حتَّى إذا ما غَلا مَاءُ الشَّبابِ بِها، ... وأُفْعِمَتْ في تَمَامِ الجِسْمِ والقَصَبِ

فعندما غلا ماء شبابها (فارت)، وأفعمت (امتلأت وتكوَّرت) وتم جسمها وقصبها (عظمها)

وجُمِّشَت بِخَفِيِّ اللَّحْظِ، فانْجَمَشَتْ، ... وَجَرَّتِ الوعدَ بين الصِّدْقِ والكَذِبِ

وعندما جمشت (دوعبت) بخفي اللحظ (بالنظرات المسروقة) فانجمشت (تجاوبت مع المداعبة)، وعندما أصبحت ناضجة في الحرفة تعطي أنصاف الوعود للعشاق

تَمَّتْ، فلمْ يَرَ إنسانٌ لها شَبَهاً، في مَنْ بَرَى اللّهُ مِنْ عُجْمٍ ومن عَرَبِ

عندئذ اكتملت فلم يعد لها شبيه فيمن خلق الله من عجم أو عرب

تلكَ التي لو خَلَتْ مِنْ عَيْنِ قَيِّمِها، لم أَقْضِ منها، ولا مِنْ حُبِّهَا أَرَبي

مثل هذه الجارية، حتى لو خلت من عين قيمها (لو تخلصت من مراقبة قوادها)، لما اكتفيت منها لشدة شغفي بها

١٥ إن طاوعني قلبي

وفاتِنٍ بالنَّظَرِ الرَّطْبِ يضحَكُ عن ذي أُشُرٍ عَذْبِ

فتى في عينيه نداوة يضحك فتبدو أشره (أسنانه ذات التحزيز لصغر السن)

خالَيْتُهُ في مجلسٍ لم يَكُنْ ثالثُنا، فيهِ، سِوى الرَّبّْ

خاليته (اختليت به)

فقالَ لي، والكَفُّ في كفِّهِ، بعدَ التَجَنّي مِنْهُ والعَتْبِ

تُحِبُّني؟ قلتُ مُجيباً لهُ: وفوقَ ما ترجو مِنَ الحبِّ

قالَ اتَّقِ اللّهَ، ودَعْ ذا الهوى فَقُلْتُ: إنْ طاوَعَني قلبي

١٦ كيف أكلك للضب؟

إذا ما تميميٌّ أتاكَ مُفَاخِراً فقُلْ: عَدِّ عن ذَا، كيفَ أكْلُكَ للضَّبِّ؟

عد عن ذا: دعنا من هذا الكلام، والتميمي مضري من عرب الشمال، وأبو نواس يتزين بالانتساب إلى اليمنية

تُفَاخِرُ أبناءَ الملوكِ سَفاهةً، وبَوْلُكَ يجري فوقَ ساقِكَ والكَعْبِ

فنحن مَلَكْنا الأرضَ شرقاً ومغرباً، وشَيْخُكَ ماءٌ في التَّرائب والصُّلْبِ

نحن أهل اليمن، وربما عنى الفرس، ملكنا الأرض وشيخك (جدك الأعلى) ما زال لم يولد موجوداً نطفة في الترائب (عظام بأعلى الصدر) والصلب (الظهر)

١٧ عن تجربة

لا تَحْمَدَنَّ امْرَأً حتى تُجَرِّبَهُ، ولا تَذُمَّنَّهُ من غيرِ تجريبِ

١٨ الرغيف الرديد

قد علا الديوانَ كَابَةْ، مُذْ تَوَلَّى ابنُ سِيَابَةْ

كابة: كآبة

يا غُرابَ البيْنِ في الشُّؤْ مِ، ومِيزابَ الجَنابَةْ

ميزاب: مسيل ماء

يا رغيفاً رَدَّهُ البَقَّـ ـالُ يُبْساً وصَلابَةْ

أعاده البقال للخباز ولم يرض بتسويقه في دكانه

١٩ رثاء والبة بن الحُباب

فاضتْ دموعُكَ ساكِبَةْ جَزَعاً لِمَصْرَعِ وَالِبَةْ

قَامَتْ بِمَوْتِ أبي أُسَا مَةَ، في الرِّفَاقِ، النَّادِبَةْ

فُجِعَتْ بنُو أَسَدٍ به، وبنو نِزَارٍ قَاطِبَةْ

بِلِسَانِهَا، وزعيمِها، عندَ الأُمورِ الحَازِبَةْ

فجعت بشاعر كان ناطقاً عنها في الأمور الحازبة (الشديدة الحاسمة)

٢٠ احتضان الرغيف

رغيفُ سعيدٍ عندَهُ عِدْلُ نفسِه يُقَلِّبُهُ طَوراً، وطوراً يُلاعِبُهْ

ويُخْرِجُهُ مِنْ كُمِّهِ، فَيَشُمُّهُ، ويُجْلِسُهُ في حِجْرِهِ ويخاطِبُهْ

وإن جاءَهُ المِسْكِينُ يطْلُبُ فَضْلَهُ، فقد ثَكِلَتْهُ أمُّهُ وأقارِبُهْ

إن جاءه فقير يطلب فضلة (حسنة زائدة عن حاجته)، فهو يشتمه بثكلتك أمك

يَكُرُّ عليْهِ السَّوْطَ من كلِّ جانِبٍ، وتُكْسَرُ رجلاهُ، ويُنْتَفُ شارِبُهْ

٢١ الكلب الأفعى

لما تبدَّى الصُّبْحُ من حِجَابِهِ

كَطَلْعَةِ الأَشْمَطِ من جِلْبَابِهِ

الأشمط: الذي اختلط سواد شعره بياض

وانْعَدَلَ الليلُ إلى مَآبِهِ

تراجع الليل إلى مكان عودته

كـالـحَـبَـشِـيِّ افـتَـرَّ عـن أنـيَـابِـهِ
هِـجْنَـا بِـكـلْـبِ طـالَـمَـا هِـجْـنـا بِـهِ
هجنا بكلب: حركناه من موضعه

يَـنْـتَـسِـفُ الـمِـقْـوَدَ مِـنْ كَـلَّابِـهِ
ينتسف (ينتزع) المقود (الزمام/الحبل) من كلابه (قيّمه)

كَـأنَّ مَـتْـنَـيْـهِ لَـدَى انْـسِـلابِـهِ
كأن متنيه (جانبي ظهره) عند انسلابه (إسراعه)

مـتْـنَـا شُـجَـاعٍ لَـجَّ فـي انْـسِـيَـابِـهِ
كأنهما متنا (جانبا ظهر) شجاع (ثعبان) لج في انسيابه (أسرف في الزحف)

تَـرَاهُ فـي الـحُـضْـرِ، إذا هَـاهَـا بِـهِ
تراه في الحضر (الركض) إذا هاها (صاح) صاحبه به

يَـكَـادُ أن يَـخْـرُجَ مِـنْ إهَـابِـهِ
إهابه: جلده

٢٢ هجاء جعفر البرمكي

لقد غَرَّني من جَعْفَرٍ حُسْنُ بابِهِ ولـم أَدْرِ أن الـلُّـؤْمَ حَـشْـوُ إهَـابِـهِ
حسن بابه: سهولة الدخول عليه، حشو إهابه: ملء جلده

فَلَسْتُ، وإنْ أَخْطَأْتُ في مَدْحِ جَعْفَرٍ، بِـأَوَّلِ إنـسـانٍ خَـري فـي ثِـيَـابِـهِ

٢٣ بل نحن خير من قريش

وقيل حبسه الرشيد على هذه القصيدة، التي ستلي، حبساً طويلاً:

لـسـتُ لِـدارٍ عَـفَـتْ وغَـيَّـرَهـا ضَـرْبَـانِ من قَـطْـرِهـا وحـاصِـبِـهـا
لست ممن يبكي على طلول دار عفت (خربت) وتغيرت معالمها بضربين (نوعين) هما القطر (المطر) والحاصب (الريح ذات التراب والحصى)

بـل نـحـنُ أَرْبـابُ نَـاعِـطٍ، ولَـنـا صَـنْـعـاءُ، والـمِـسْـكُ في مَـحَـارِبِـهـا
نحن أرباب (أصحاب) ناعط (حصن باليمن) ولنا صنعاء التي يكثر المسك في محاربها (منازلها) دلالة على الثروة

أَحْبِبْ قُرَيْشاً لِحُبِّ أَحْمَدِها ، واعْرِفْ لها الجَزْلَ من مَواهِبِها

أحبب قريشاً (فلتحب يا هذا قريشاً) لحبك لأحمدها (الرسول)، واعرف لها الجزل من مواهبها (عطاياها الكثيرة)

إنْ فاخَرَتْنَا فلا افتِخَارَ لها إلا التِّجَارَاتُ من مكاسِبِها

وإنَّها إنْ ذَكَرْتَ مَكْرُمَةً جَاءَتْ تِجَارٌ لَها بِغَالِبِها

مكارم قريش سببها في الغالب التِّجار (التُّجَّار)

فاهْجُ نِزاراً وَأَفْرِ جِلْدَتَها ، وهَتِّكِ السِّتْرَ عن مثالِبِها

نزار: جد عرب الشمال، أفر جلدتها: قطّع، مثالبها: مساوئها

٢٤ مبهوت برؤية الحبيب

رَبْعُ البِلَى أَخْرَسُ، عِمِّيتُ، مُسْتَلَبُ الْمَنْطِقِ، سِكِّيتُ

ربع البلى (منزل الخراب/الطلل) أخرس أعمى

أَعارَهُ حَيْرَتُهُ عَاشِقٌ، رأى حَبِيباً، فَهْوَ مَبْهُوتُ

٢٥ من الجنس الثالث

يا لاعباً بِخَيَاتي وهاجِراً ما يُؤَاتي

يؤاتي: يطاوع

والقَدُّ قَدُّ غُلام، والغُنْجُ غُنْجُ فَتَاةِ

مُذَكَّرٌ حِينَ يَبْدُو مُؤَنَّثُ الخَلَوَاتِ

٢٦ منتهى التمرد

قالوا ظَفِرْتَ بِمَنْ تَهوى، فقلتُ لهُمْ: الآنَ أكثرُ ما كانتْ صَبَاباتي

ودَاهِرِيٍّ سَمَا في فَرْعِ مَكْرُمَةٍ من معشَرٍ خُلِقوا في الجودِ غاياتِ

وداهري (شاب من فرع داهر بكنانة) سما في فرع مكرمة (نشأ في سلالة كريمة)

فقلتُ والليلُ يجْلُوُه الصَّبَاحُ كما يجلُو التَّبَسُّمُ عن غُرِّ الثَّنِيَّاتِ:

غر الثنيات: الأسنان البيض

يا أَحمَدَ الْمُرتَجى في كلِّ نائِبَةٍ قُمْ، سَيِّدِي، نَعْصِ جَبَّارَ السَّمَاواتِ

يا أحمد الذي أرجو عونه في كل مصيبة، قم نشرب الخمر ما أكثر ما يقتبسون البيت، ثم يشتمونه رفعاً للإثم عن ظهورهم، أو خوفاً من التكفير، فهم كمن يأكل الرشا ثم ينفض ثوبه ويقول: تلك هدية. وتحليلنا النفسي لمن قال البيت ولمن نقله هو أن البيت صادم صارخ بالتمرد. وأي تمرد! ليس على الدين ولا على التقاليد بل على رب السماوات. والمرء يهفو للتمرد، ويلذ الوصول إلى أقسى غاياته، وحبذا لو كان الواصل إلى هذه الغايات شخصاً آخر حتى لا نحمل الإثم نحن. وقيل إن الرشيد اراد أن يعاقب أبا نواس على هذا البيت، فقال أبو نواس: لم أكفر، ففي البيت إقرار بجبار السماوات

٢٧ لا فرج الله عني

لا فَرَّجَ اللَّهُ عني إن رَفَعْتُ يَدي إلَيْهِ أَسْأَلُهُ مِنْ حُبِّكَ الفَرَجَا
ولا طَعِمْتُ بِكَ السُّلْوَانَ، يا أَمَلِي، وحَلَّ حُبُّكَ في قلبِي، وما خَرَجا

لا أطعمني الله السلوان (النسيان) وليحلّ حبك في قلبي مقيماً فيه لا يخرج

٢٨ يقتاتون المزاح والفكاهة

وخَدِينِ لَذَّاتٍ، مُعَلِّلِ صَاحِبٍ، يَقْتَاتُ منهُ فُكَاهَةً ومُزَاحا

رُبَّ خدين لذات (ملازم للملذات)، معلل صاحب (ساقٍ لصاحبه) يتسلى بفكاهاته

نَبَّهْتُهُ، والليلُ مُلْتَبِسٌ بِه، وأَزَحْتُ عنهُ حَشَاثَهُ فانْزَاحا

أيقظته والليل ملتبس به (مشوش لتفكيره ونظره) وأزحت عنه حثاثه (غفوته)

قال ابْغِني المِصْبَاحَ، قلتُ لهُ اتَّئِدْ! حَسبي وحسبُكَ ضَوْءُها مِصْبَاحا

اتئد: تروَّ

شَكَّ البِزَالُ فُؤَادَها، فكأنَّما أَهْدَتْ إليكَ بِرِيحِها تُفَّاحا

البزال: مثقب الدنّ، ريحها: رائحتها

٢٩ هدية من فرح

ومُدَامَةٍ سَجَدَ الملوكُ لها، بَاكَرْتُها، والدِّيكُ قد صَدَحا
صِرْفٍ، إذا اسْتَبْطَنْتَ سَوْرَتَها، أَهْدَتْ إلى مَعْقُولِكَ الفَرَحا

صرف: خالصة، سك بلا مزج، استبطنت سورتها: جعلت هياجها في بطنك، معقولك: عقلك

٣٠ ضمانة ضد الزمان

قال أبو نواس يمدح الفضل بن الربيع:

وَكَلْتَ بِالدَّهْرِ عيْناً غَيْرَ غَافِلَةٍ، من جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّما جَرَحا

كلفت عينك الساهرة بمتابعة مصائب الدهر، ورحت تأسو (تعالج)
بجودك ما يخلفه الدهر من جراح

أنت الذي تَأْخُذُ الأَيْدي بِحُجْزَتِهِ، إذا الزَّمَانُ على أولادِهِ كَلَحا

بحجزته: بحزامه، كلح: عبس

٣١ نسوة الزمن الثاني

أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ القَادِحُ وأَيَّ جِدٍّ بَلَغَ المازِحُ

ما هذه النار التي أشعلها مشعلها في رأسي شيباً، وما هذا الجد الذي بلغنا إليه مع الكهولة بعد
كل ذلك المزاح في الشباب

لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ واعِظٍ، وناصِحٍ، لَوْ سُمِعَ النَّاصِحُ

يأبَى الفَتى إلَّا اتِّبَاعَ الهَوى، ومَنْهَجُ الحَقِّ له واضِحُ

فَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إلى نِسْوَةٍ، مُهُورُهُنَّ العَمَلُ الصَّالِحُ

اسمُ: تطلَّعْ

لا يَجْتَلي الحَوْرَاءَ من خِدْرِها إلَّا امْرُؤٌ مِيزَانُهُ راجِحُ

مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، فَذاكَ الذي سِيقَ إليْهِ المَتْجَرُ الرَّابِحُ

شَمِّرْ، فَما في الدِّينِ أُغْلُوطَةٌ، ورُحْ لِمَا أنتَ له رَائِحُ

٣٢ من حديث القدح والإبريق

يا إخوَتي ذا الصَّباحُ، فاصْطَبِحُوا، فقد تَغَنَّتْ أَطْيَارُهُ الفُصُحُ

هُبُّوا خُذُوها، فقد شَكَانا إلى الـ إبريقِ، مِنْ طولِ نومِنا، القَدَحُ

صِرْفاً، إذا شَجَّها المِزَاجُ بِأَيْـ ـدي شَارِبِيها تَوَلَّدَ الفَرَحُ

تكون الخمر صرفاً (غير ممزوجة) فإذا شجها المزج (جرح رأسها) فرحت نفوس الشاربين. نعم
فمزج الخمر بالماء يلون الكأس كما يتلون رأس شججته بحجر

حتى تُرِيكَ الحَليمَ ذا طَرَبٍ، يَهُزُّهُ في مَكانِهِ المَرَحُ

٣٣ خمرة تذكر نوحاً

قال يمدح العباس بن عبيد الله الهاشمي:

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ، فاسْقِني ! طابَ الصَّبُوحُ
واسْقِني حتَّى تَراني حَسَناً عِندي القبيحُ
قَهوَةً تَذْكُرُ نُوحاً حين شادَ الفُلْكَ نُوحُ
أنا في دُنيا مِنَ العَبَّـ ـاسِ أغدو وأَرُوحُ
بُحَّ صوتُ المالِ مِمَّا مِنْكَ يشكُو، ويَصيحُ:
«مَا لِهذا آخِذٌ فوقَ يَديْهِ، أو نَصيحُ!»

آخذ فوق يديه: مانع إياه

٣٤ روحان في بدن

ما زلتُ أَسْتَلُّ رُوحَ الدَّنِّ في لُطُفٍ وأَسْتقي دمَهُ مِنْ جَوفِ مَجْرُوحِ

ظللت أسحب روح الدن (وعاء الخمر الكبير الذي يثقب وتؤخذ منه الخمر) وأشرب دمه من جو وهو مجروح

حتى انثَنيْتُ ولي رُوحانِ في بَدَنٍ والدَّنُّ مُنْطَرِحٌ جسماً بِلا رُوحِ

حتى انثنيت (أصبحت) وعندي روحان، ولم يعد في الدن خمر، فالخمر روحه

٣٥ سهر البارحة

تَفتِيرُ عينيْكَ دليلٌ على أنَّكَ تشكُو سَهَرَ البَارِحَةْ
عليكَ وجْهٌ سَيِّءٌ حَالُهُ، من لَيْلَةٍ بِتَّ بِها صَالِحَةْ
ونَفْحَةُ الخمرِ وأنفاسُها، والخمرُ لا تَخفى لها رائحةْ

٣٦ موجات من الحسن

وذاتِ خَدٍّ مُوَرَّدْ فَتَّانَةِ الْمُتَجَرَّدْ

المتجرد: المعرى

تَأَمَّلُ العينُ منها محاسِناً ليس تَنْفَدْ

تأمل: تتأمل

الحسنُ في كلِّ جزءٍ منها مُعادٌ مُرَدَّدْ

فَـبـعـضُـهُ يَـتـنَـاهَـى، وبـعـضُـهُ يَـتـولَّـدْ

٣٧ درع دون المصائب

قال يمدح عبيد الخادم مولى أم جعفر:

يا ابنـةَ القـومِ لا تُـراعـي بِـرَيْـبِ، واسْـلَـمـي رَخْـصَـةَ الأنـامـلِ رَوْدَا

رخصة الأنامل: لينة الأصابع، رَوْد: لينة

لا تَـخافي علـيَّ صَرْفَ اللَّـيالِي، إنَّ بَـيْـنـي وبـيـنَـهُـنَّ عُـبَـيْـدا

٣٨ عطشوا من عهد عاد

سُـمْـتُـهـا عـنـدَ يَـهـودِيٍّ ـ خَـصِـيـبِ الْـمُـسْـتَـرادِ

ساومت في الخمرة في حانوت يهودي كثير عنده المستراد (ما يريده الناس بشدة)

فَـشَـرِبْـنـا شُـرْبَ قـومٍ عَـطِـشـوا مـن عـهـدِ عَـادِ

٣٩ الثأر المتأخر*

يهجو هاشم بن حديج الذي كان جده قتل محمد بن أبي بكر الصديق:

يا هاشِمَ بْنَ حُدَيْجٍ ليس فخرُكُمُ بقَتلِ صِهْرِ رسولِ اللَّهِ بالسَّدَدِ

إن تقتُلوا ابْنَ أبي بَكْرٍ، فقد قَتَلَتْ حُجْراً بِدارَةِ مَلْحُوبِ بنو أَسَدِ

بنو أسد قتلوا في الجاهلية حجراً أبا امرئ القيس الشاعر وسيد قبيلة كندة

وطَرَّدُوكُمْ إلى الأَجْبَالِ مِنْ أَجَإٍ، طَرْدَ النَّعامِ إذا ما تَاهَ في البلَدِ

وكلُّ كِنْدِيَّةٍ قالتْ لجارتِها، والدمعُ يَنهلُّ من مَثْنىً ومِنْ وَحَدِ

من مثنى ومن وحد: يسيل الدمع من جهتي العينين أو من جهة واحدة فقط من كل عين

أَلهَى امْرَأَ القيسِ تشبيبٌ بِغانيةٍ عن ثأرِهِ، وصِفاتُ النُّؤْيِ والوَتَدِ

*العنوان للمحقق سليم قهوجي

٤٠ التصليب بالرغوة

سَقْياً لِغيرِ العلياءِ والسَّنَدِ وغيرِ أَطلالِ مَيَّ بالجَرَدِ

يستذكر بيت النابغة «يا دار مية بالعلياء فالسند»، ويطلب السقيا، رحمة السماء، لأي مكان سوى هذين المكانين، وسوى أطلال مي بالجرد (الأرض الخلاء)

ويا صَبيبَ السحابِ إن كنتَ قد جُدْتَ اللِّوى، مرةً، فلا تَعُدِ
صبيب السحاب: المطر

أَحسنُ عندي منَ انكِبابِكَ بالـ فِهْرِ مُلِحَّاً بهِ على وَتَدِ
الفهر: الحجر

وقوفُ رِيْحَانةٍ على أُذُنٍ، وسَيْرُ كَأْسٍ إلى فمٍ بِيَدِ
يسقيكَها من بَني العِبَادِ رَشاً مُنْتَسِبٌ عِيدُهُ إلى الأَحَدِ
بنو العباد: مسيحيون كانوا بالحيرة، رشا: ظبي

إذا بَنَى الماءُ فوقَها حَبباً، صَلَّبَ فوقَ الجَبينِ بالزَّبَدِ
الحبب: الفقاقيع

أَشربُ من كفِّهِ شَمولاً، ومِنْ فيهِ رُضَاباً يجري على بَرَدِ
الشمول: الخمر، الرضاب: الريق

٤١ لي نشوتان

لا تبكِ ليلَى، ولا تطربْ إلى هِندِ واشربْ على الوردِ من حمراءَ كالوَرْدِ
اشرب على الورد: كانوا حريصين في مجلس الشراب على وجود الرياحين

كأْساً إذا انحدَرَتْ في حَلْقِ شاربِها، أَجْدَتْهُ حُمرتَها في العينِ والخَدِّ
أجدته: أعطته. فيحمر من الخمر خدا وعينا شاربها (لمن لم يجرب)

فالخمرُ ياقوتةٌ، والكأسُ لؤْلؤَةٌ من كفِّ جاريةٍ ممشوقةِ القَدِّ
تسقيكَ من طَرْفِها خمراً، ومن يدِها خمراً، فما لكَ من سُكْرَيْنِ من بُدِّ
لِي نَشْوتانِ، وللنُّدْمانِ واحِدَةٌ، شيءٌ خُصِصْتُ به، من دونِهِمْ، وحدي

٤٢ لن تجد مثله

قولا لهارونَ إمامِ الهُدى، عند احتفالِ المجلسِ الحاشدِ
نصيحةُ الفضلِ وإشفاقُهُ أَخْلَى لهُ وجهَكَ من حاسِدِ
الفضل بن يحيى البرمكي لا حاسد له عندك لأنه صادق النصيحة ومشفق (حريص)

بِصادقِ الطَّاعَةِ، ديَّانِها، وواحدِ الغائبِ والشَّاهِدِ
طاعته لك صادقة، وهو ديان (منصف عادل)، وما يقوله في وجهك مثل ما يقوله في غيبتك

أنتَ، على ما بِكَ من قُدْرَةٍ، فَلسْتَ، مثلَ الفضلِ بِالواجِدِ

أوحَدَهُ اللَّهُ، فما مِثْلُهُ لِطَالِبِ ذاكَ، ولا نَاشِدِ

لَيسَ على اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أنْ يجمعَ العالَمَ في واحِدِ

تعليق الشاعر عمران القفيني: «ظل الشعراء يلوكون هذا المعنى.. آخرهم نزار قباني على ما أظن». وأظنه يقصد ما قاله نزار في رثاء جمال عبد الناصر، ١٩٧٠، قال: (قتلناك يا آخر الأنبياء/ قتلناك ليس جديداً علينا اغتيال الصحابة والأولياء/ فكم من رسول قتلنا، وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء/ فتاريخنا كله محنة/ وأيامنا كلها كربلاءُ)، والقصيدة طويلة ولك أن تتمتع بقوافيها الجميلة وبعذوبة نزار قباني، ولك أن تسمع رأياً في جمال عبد الناصر. أولاً رأي في نزار قباني: هذا شاعر كانت العربية بين يديه صلصالاً يصنع به أي شيء أراد، سبحان من خلقه. ورأيي في عبد الناصر رأي رجل حضر أيامه فتىً، وتعقب حسناته وسيئاته كهلاً. قد أحبه الوطن العربي كله، لأنه رأى فيه القوة والإخلاص. وأحبه المصريون لأنه بنى المصانع وفتح المدارس. شهدت حواراً بين صديق مصري ووالدته المتعلمة. كان يرمي عبد الناصر بأقبح النعوت وهي تترحم عليه، فلولا عبد الناصر لما كانت تعلمتْ. وكره عبد الناصر خصومه السياسيون الذين آذاهم، وكرهه عباس العقاد لأنه كان مستبداً، وقف العقاد عند كلمة عبد الناصر «لقد منحتكم الكرامة» وتقزز منها. صنع عبد الناصر دولة بوليسية، صنعها هو وشعبه، وصنعها وشعوب العرب تصفق. من يشتمون الرجل ومن يمدحونه سواء في قله بضاعتهم من الفطنة السياسية

٤٣ خمارة البلد

عاجَ الشَّقِيُّ على رَسْمٍ يُسَائِلُهُ، وعُجْتُ أَسْأَلُ عن خمَّارةِ البَلَدِ

عاج (مال) الشقي على رسم (طلل منازل الحبيبة) يكلمه، وملت أنا أسأل: أين خمارة البلد؟

يَبكي على طَلَلِ الماضِينَ من أَسَدٍ، لا دَرَّ دَرُّكَ، قُلْ لِي مَنْ بنُو أَسَدِ؟

لا در درك: عبارة تقريع، وهي عكس العبارة المألوفة «لله درك»

ومَنْ تَميمٌ؟ ومَنْ قَيْسٌ ولِفُّهُما؟ ليس الأعاريبُ عندَ اللَّهِ مِنْ أَحَدِ

لفهما: جماعتهما

لا جَفَّ دمعُ الذي يبكي على حَجَرٍ ولا صفَا قلبُ مَنْ يصبُو إلى وَتَدِ

كم بينَ ناعِتِ خمرٍ في دَسَاكِرِها وبينَ بَاكٍ على نُؤْيٍ ومُنْتَضِدِ

دساكرها: قراها (وكانت الخمارات في قرى محاذية للمدن)، النؤي: قناة حول الخيمة يحفرونها كي تمنع ماء المطر من الدخول للخيمة، منتضد: ساكن من السكان

دعْ ذا عـدِمْتُـكَ، واشـربْـهـا معـتَّـقَـةً   صـفـراءَ تَفْرُقُ بيـنَ الرُّوحِ والـجَـسَـدِ

تعليق عمران القفيني: كلمة صفراء قبيحة جداً. يقول المؤلف: فعلاً، أليست تذكِّر الإنسان السوي بالبول؟ على أن كارعي الويسكي قد يرون رأياً آخر، وهذا مشروب سكوتلندي قوي يجعل الحصان يمشي على اثنتين، والرجل على أربع

مـن كَـفٍّ مُـخْـتَـصِـرِ الـزُّنَّـارِ مُـعـتَـدِلٍ   كـغـصـنِ بـانٍ تَـثَـنَّـى غـيـرَ ذي أَوَدِ

مختصِر الزنار: واضع الحزام على خصره، وكان غير المسلمين ملزمين بالحزام تمييزاً لهم، غير ذي أود: غير معوج القوام

لـمـا رآنـي أبـوُهُ قـد قـعـدتُ لَـهُ   حَـيًّـا، وأيـقَـنَ أنـي مُـتْـلِـفٌ صَـفَـدي

صفدي: عطائي (ما نلته من مال كراتب أو كهبة)

فَـجـاءنـي بِـسُـلافٍ لا يَـحِـفُّ لَـهـا   ولا يُـمَـلِّـكُـهـا إلا يـداً بِـيَـدِ

سلاف: أجود الخمر، وهو ما يسيل أولاً عند عصرها،
لا يحف لها: لا يملأها حتى الحافة ضناً بها

واسْـتَـوْفَـتِ الـخـمـرُ أحْـوَالاً مُـجَـرَّمَـةً   وافْـتَـرَّ عَـيْـشُـكَ عـن لَـذَّاتِـكَ الـجُـدُدِ

أحوالاً مجرمة: أعواماً كاملة، افتر: تبسَّم

فاشرَبْ وجُدْ بالذي تحوي يَداكَ لها   لا تَذْخُرِ، اليومَ، شيئاً خوفَ فقرِ غَدِ

يـا عَـاذلـي، قـد أتـتْـنـي مـنـكَ بـادِرَةٌ   فـإنْ تَـغَـمَّـدَهـا عَـفـوي فَـلا تَـعُـدِ

أتتني منك بادرة: بدر منك قول

لـو كـانَ لـومُـكَ نُـصْـحـاً كـنـتُ أقـبَـلُـهُ   لـكـنَّ لـومَـكَ مـحـمـولٌ عـلـى الـحَـسَـدِ

٤٤ نفعل في المسجد

وعـاشِـقَـيْـنِ الـتَـفَّ خـدَّاهُـمَـا   عـنـدَ الـتِـثَـامِ الـحَـجَـرِ الأَسْـوَدِ

التثام: تقبيل

فـاشْـتَـفَـيـا مـن غـيـرِ أنْ يـأْثَـمـا،   كـأنَّـمـا كـانـا عـلـى مـوعـدِ

لـولا دِفَـاعُ الـنـاسِ إيَّـاهُـمَـا،   لـمـا اسْـتَـفَـاقَـا، آخِـرَ الْـمُـسْـنَـدِ

المسند: الدهر

ظِـلْـنَـا كِـلانـا سَـاتِـرٌ وَجْـهَـهُ،   مِـمَّـا يَـلـي جـانِـبَـهِ، بـالـيَـدِ

نفعلُ في المسجِدِ ما لم يكنْ   يـفـعـلُـهُ الأبـرارُ فـي الـمـسـجـدِ

٤٥ في عيد الأضحى

يـا فَـرْحَـةً جـاءتْ مـعَ الـعـيـدِ ... وفـى الـذي أَهْـوَى بِـمَـوْعـوُدي
جـاءَ مِـنَ الأَعْـيُـنِ مـسْـتَـخـفِـيـاً، ... مِـنْ بـعـدِ إِخْـلافٍ وتَـنْـكـيـدِ
حـتـى إذا الـراحُ جَـرَتْ بـيـنَـنـا، ... أَمِـنْـتُ مـن خُـلْـفٍ وتَـرْدِيـدِ
ظَـلَّ وَلِـيُّ الـعـهـدِ فـي خُـطْـبَـةٍ، ... وظِـلْـتُ بـيـنَ الـرَّاحِ والـعُـودِ
صـارَ مُـصَـلَّانَـا رَيـاحـيـنَـنـا، ... ونَـحْـرُنَـا بِـنْـتَ الـعَـنـاقـيـدِ

مكان صلاتنا أصبح الرياحين المنثورة في مجلس الشراب، وبدل أن ننحر شاة في عيد الأضحى نحرنا بنت العناقيد (الخمر). كانوا يثقبون الدن الكبير فتدفق منه الخمر حمراء

وصـارَ رِدْفُ الـظَّـبْـيِ لـي مِـنـبَـراً ... أَحـسـنَ مِـنْ عـوُدٍ عـلـى عـوُدِ
لـلـنـاسِ عـيـدٌ عَـمَّـهُـمْ واحِـدٌ، ... وصـارَ لـي عـيـدانِ فـي عـيـدِ

٤٦ لا عدمتَ تقويم مثلي

كتب في حبسه إلى الفضل بن الربيع، فسعى في إطلاقه:

أنتَ يا ابنَ الربيعِ أَلْزَمتَني النُّسْـ ... ـكَ، وعَـوَّدْتَـنـيـهِ، والـخيرُ عـادَةْ
فَارعَوَى باطِلي، وأَقْصَرَ جَهلي، ... وتَـبَـدَّلْـتُ عِـفَّـةً وزَهَـادَةْ

ارعوى: تراجَعَ، أقصر جهلي: عدت إلى الصواب

لَوْ تَراني ذَكَرْتَ بيِ الحسنَ البَصْـ ... ـرِيَّ في حُسْنِ سَمْتِهِ، أَوْ قَتَادَةْ

قتادة: بصري، من الحفاظ المعدودين

مـن خُـشـوعٍ أَزيـنُـهُ بِـنُـحُـولٍ، ... واصْـفِـرارٍ مثـلِ اصـفِـرارِ الـجَـرَادَةْ
اَلـمسابِيحُ في ذِراعيَّ، والْمُصْـ ... ـحَفُ في لَبَّتي، مَكانَ القِلادَةْ

لبتي: أعلى صدري

وإذا شـئـتَ أن تَـرى طُـرْفَـةً تَـعْـ ... ـجَبُ منها، مَليحَةً، مُسْتفَادَةْ
فَادْعُ بي، لا عَدِمْتَ تقويمَ مِثلي، ... وتَـفَـطَّـنْ لِـمَـوْضِـعِ الـسَّـجَّـادَةْ

السجادة: بقعة في الجبين من أثر السجود

تَـرَ سـيـمـا مِـنَ الـصَّـلاةِ بِـوَجْـهـي، ... تَـوقِـنُ الـنَّـفْـسُ أَنَّـهـا مِـنْ عِـبـادَةْ
لَـوْ رآهـا بـعـضُ الْـمُـرائـيـنَ يـومـاً، ... لاشْـتَـراهـا يُـعِـدُّهَـا لـلـشَّـهَـادَةْ

للشهادة: لتقبل شهادته أمام القاضي

ولـقـد طـالَ مـا شَـقِـيـتُ، ولـكـنْ أَدْرَكَـتْـنـي عـلـى يـديْـكَ الـسَّـعَـادَةْ

٤٧ شياطين الراح

وإذا رامَ نـــديـــمٌ عـــربَـــدَةْ فـاقْـرَعَـنْ بِـالـصِّـرْفِ مـنـهـا كَـبِـدَهْ

اسقه الخمر صرفاً غير ممزوجة لكي ينخمد ولا يعربد

كَـرِّرِ الـخـمـرَ عـلـيـهِ بَـحْـتَـةً كـيْ تُـبْـقِـيـمَ الـخـمـرُ مِـنْـهُ أَوَدَهْ

أوده: اعوجاجه

ثـــمَّ وَسِّـــدْهُ، إذا مـــا غَـــلَـبَـتْ سَـوْرَةُ الـرَّاحِ عـلـيـهِ، عَـضُـدَهْ

إذا غلبت شدة الخمر هذا العربيد فوسده عضده (اجعل من ذراعه وسادة له واتركه ينم)

خَـلَّـتَـا سُـوءٍ تَـشِـيـنَـانِ الـفَـتَـى حـيـثُـمَـا حَـلَّ: الـخَـنَـا والـعَـرْبَـدَةْ

الخنا: الفحش

٤٨ قفوا نشتم

يهجو هاشم بن حديج:

قِـفُـوا مَـعْـشَـرَ الـرَّاحِـلِـينَ اسْـمَـعوا، أَنَـبِّـئْـكُـمُ عَـــن فَـتـى كِـنْـدَةْ

أيها المسافرون، بدل أن أستوقفكم للبكاء على الأطلال قفوا اسمعوا خبر هاشم هذا المنتسب لقبيلة كندة

وَرَدْنـا عـلـى هَـاشِـمٍ مِـصْـرَهُ، فَـبَـارَتْ تِـجـارَتُـنـا عِـنْـدَهْ

رأَيْـتُـكَ عـنـدَ حـضـورِ الـخِـوانِ، شَـديـداً عـلـى الـعَـبْـدِ والـعَـبْـدَةْ

لـذا وَكْـزَةٌ مـنـكَ مَـعـلـومَـةٌ، وذَا نَـقْـفَـةٌ، ولِـذا قَـفْـدَةْ

وكزة: دفعة، نقفة: ضربة بالإصبع، قفدة: صفعة

وتَـحْـتَـدُّ حـتـى يَـخَـافَ الـجَـلـيـسُ شَـذَاكَ عـلـيـهِ مِـنَ الـحِـدَّةْ

شذاك: أذاك

وتَـخْـتِـمُ ذاكَ بِـفَـخْـرٍ عـلـيـهِ، بِـكِـنْـدَةَ، فـاسْـلَـحْ عـلـى كِـنْـدَةْ

اسلح: تغوَّط

فـإنَّ حُـدَيْـجـاً لَـهُ هِـجْـرَةٌ، ولـكـنَّـهـا، زَمَـنَ الـرِّدَّةْ

جدكم، أي نعم، من المهاجرين. لكن ليس مع الرسول بل زمن الردة

وما كـانَ إيـمـانُـكُـمْ بـالـرسُـولِ سِـوى قَـتْـلِـكُـمُ صِـهْـرَهُ بَـعْـدَهْ

وأجداد المهجو قتلوا محمداً بن أبي بكر الصديق

٤٩ سليل السادة

قال يمدح إبراهيم بن عبيد الله الحجبي:

قـلْ لِـمَـنْ سـادَ ثـم سـادَ أبـوه، قـبـلَـه، ثـم، قـبـلَ ذلـك، جَـدُّهْ

وأبـو جَـدِّهِ، فـسـادَ إلـى أنْ تَـتـلاقَـى نِـزارُهُ ومَـعَـدُّهْ

نزار ومعد: من أجداد العرب

فاهْتَبِلْ عندِيَ الصَّنيعَةَ واذْخُرْ ني لِـقـولٍ أُجـيـدُهُ وأُجِـدُّهْ

اهتبل: اغتنم، الصنيعة: المعروف، أجده: آتي به جديداً

٥٠ ضيوفاً عند الصقر

ذو غُـرَّةٍ، مـن يَـرَهُ يُـفَـدِّهْ

لهذا الصقر بياض في جبينه، فمن رآه قال: أفديه

يـرنُـو إذا الـصـيـدُ ارْتَـأَى مِـنْ بُـعْـدِهْ

ارتأى: بان

بِـمُـقْـلَـةٍ تَـلـحَـقُ قـبـلَ شَـدِّهْ

تسبق عينه شده: يرى طريقه الذي سيحلق فيه

فـصـادَنـا، قـبـلَ انـتِـصـافِ جَـهْـدِهْ

صاد لنا طيوراً قبل أن يبلغ نصف ما عنده من طاقة

خـمـسـيـنَ أَحْـصَـتْـهـا يـدَا مُـعْـتَـدِّهْ

صاد خمسين طيراً أحصتها يدا معتده (الذي يعد فرائسه)

فـنـحـنُ فـي نـائِـلِـهِ ورِفْـدِهْ

نحن ضيوف عند هذا الصقر نتمتع بنائله (عطاياه) ورفده (عطاياه)

أبـو عِـيَـالٍ قـاتَـهُـمْ بِـكَـدِّهْ

فـكُـلُّ خـيـرٍ عـنـدَهُـمْ مِـنْ عـنـدِهْ

٥١ حالة حصار

طـابَ الـهـوى لِـعـمـيِـدِهْ　　لـولا اعـتـراضُ صُـدودِهْ

العميد: الذي ملأ العشق عقله

وقـادَنـي نـحـوَ ريـمٍ　　مُـهَـفْـهَـفِ الـكَـشْـحِ، رُودِهْ

مهفهف الكشح: ضامر الخصر، روده: لينه (للمرأة حركة ليست للرجل، تحرك جذعها يميناً وعجيزتها يساراً، ويكون «محور الحركة» الخصر، فمن امتلكت الخصر النحيل كانت هذه الحركة عندها واضحة وخلبت بها عقول الرجال)

بـدا يُـدِلُّ عـلـيْـنـا،　　بِـمُـقْـلـتـيْـهِ وجـيِـدِهْ

فـاصـطـادَنـي لِـحِـمـامـي　　تَـخْـطَـارُهُ فـي بُـرُودِهْ

لحمامي: لموتي، تخطاره: تبختره، بروده: ثيابه

فـقـمـتُ نُـصْـبَ عَـدوٍّ　　قـاسـي الـفـؤادِ، كَـنـوُدِهْ

نصب: أمام، كنوده: جاحده

لا أسـتـطـيـعُ فِـراراً　　مـن بَـرْقِـهِ ورُعـودِهْ

حـتـى إذا سَـدَّ طُـرْقـي　　بـقـيِـتُ بـيـنَ سُـدُودِهْ

وعَـسْـكَـرَ الـحـبُّ حـوْلـي　　بِـخـيْـلِـهِ وجـنـودِهْ

فـإن عَـدلـتُ يـمـيـنـاً　　خَـشِـيـتُ وَقْـعَ وَعـيـدِهْ

وإن شِـمـالاً، فَـمَـوْتٌ،　　لا بـدَّ لـي مـن وُرودِهْ

وإن رجـعـتُ ورائـي،　　خـشِـيـتُ زَأْرَ أُسـودِهْ

ونُـصْـبَ عَـيْـنَـيَّ طَـوْدٌ،　　فَـكـيـفَ لـي بِـصُـعـودِهْ

طود: جبل

وتـحـتَ رِجْـلَـيَّ بَـحْـرٌ　　يَـجـرِي الـهـوى بِـمُـدُودِهْ

مدوده: مياهه المتقدمة نحو البر

وفـوقَ رأسـي كَـمِـيٌّ،　　مُـقَـنَّـعٌ فـي حَـديـدِهْ

كمي: شخص مسلح، مقنع في حديده: يلبس الخوذة الحديد التي يسيل منها زرد على جانبي الوجه

مُـجَـرِّدٌ لِـيَ سَـيْـفـاً، وِيْـلاهُ مِـنْ تـجـريـدِهْ
فـلـسـتُ أرفـعُ طَـرْفـي، حِـذارَ مـاضـي حَـديـدِهْ
طرفي: نظري، حذار ماضي حديده: حذراً من سيفه الحاد

ولـي خُـشـوعُ الْـمُـصَـلِّـي فـي دَيْـرِهِ يـومَ عِـيـدِهْ
كـأنَّـنـي مُـسْـتَـهـامٌ ضَـلَّ الـطـريـقَ بِـبـيـدِهْ
مستهام: هائم على وجهه لا يدري طريقه في البيد (الصحارى)

لـو لاحَ لـي مـنـهُ نـهـجٌ، ركـبـتُ نـهـجَ صَـعـيـدِهْ
نهج: طريق، نهج صعيده: طريقه المرتفع

فـالـويـلُ لـي كـيـفَ أنـجـو مِـنْ حُـمْـرِ مـوتٍ وسُـودِهْ!
الموت الأحمر بالسيف، والأسود خنقاً

٥٢ قوم تواصوا بالشر

قالوا تَنَسَّكَ بعدَ الحَجِّ، قلتُ لَهُمْ: أرجوُ الإلَـهَ، وأَخـشَـى طِـيـزَنـابَـاذَا
طيزناباذ: موضع عامر بالكروم والمعاصر والخمارات

أَخشَى قُضَيِّبَ كَرْمٍ أن يُنازِعَني فضلَ الخِطَامِ، وإن أَسْرَعْتُ إغْذَاذا
أخشى أن ينازعني فضل الخطام (طرف مقود البعير) غصن دالية عنب حتى وإن أسرعت إغذاذا (إسراعاً)

فإنْ سَلِمْتُ، وما قَلبي على ثِقةٍ من السلامةِ، لم أَسْلَمْ بِبغدَاذا
ما أبعَدَ النُّسْكَ من قلبٍ تَقَسَّمُهُ قُطْرَبُّلٌ فقُرَى بِنَّا، فَكَلْوَاذَى
هذه المواضع العامرة بالملاهي وبيوت الخمر تتقسم قلبي فيما بينها فلا يبقى فيه مكان للنسك

قومٌ تَواصَوْا بتركِ البِرِّ بَيْنَهُمُ، تقولُ ذا شَرُّهُمْ، بل ذاكَ، بل هذَا
تواصوا (أوصى أحدهم الآخر) بترك البر (الخير)، وتحار أيهم شر من أخيه

٥٣ ينابيع الخمر

وقائلٍ هلْ تريدُ الحَجَّ؟ قلتُ له: نَعَمْ، إذا فَنِيَتْ لذاتُ بغداذِ
أمَا وقُطْرَبُّلٌ منها بحيثُ أَرى فَقُبَّةُ الفِرْكِ مِنْ أَكنافِ كَلْوَاذِ
أماكن يكثر فيها بيع الخمور وتعاطيها، وتعاطي ما يصحبها من أمور اللهو

فَالصَّالِحِيَّةُ، فالكَرْخُ التي جمعتْ شُذَّاذَ بَغدادَ، ما هُمْ لي بِشُذَّاذِ

الشذاذ هنا من شذ عن قيم المجتمع

فكيفَ بِالحجِّ لي ما دمتُ مُنْغَمِساً في بيتِ قَوَّادَةٍ أو بيتِ نَبَّاذِ؟

نباذ: صانع نبيذ

وَهَبْكَ مِنْ قَصْفِ بغدادٍ تُخَلِّصُني، كيفَ التخلُّصُ لي مِنْ طِيزَنَابَاذِ؟

القصف: الجلبة في اللهو (يقول اللسان إن الكلمة ربما كانت مولدة)

٥٤ يا كبير الذنب

يا نُوَاسِيُّ تَوَقَّرْ وتَجَمَّلْ، وتَصَبَّرْ

ساءَكَ الدَّهْرُ بِشيءٍ، وبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرْ

يا كبيرَ الذنبِ، عفوُ الـ ـلـهِ من ذنبِكَ أكبرْ

ليسَ للإنسانِ، إلَّا ما قضَى اللَّهُ وقَدَّرْ

٥٥ التجاسر

لقد كنتُ، وما في النا سِ مِنِّي لِلهَوى أَسْتَرْ

كنت وليس أحد يستر الهوى مثلي

فلمَّا أَظْهَروا أمري، وقِدْماً كانَ لا يَظْهرْ

قدماً: قبل ذلك

وأُغْرُوا بِيَ تَأْنِيباً مِنَ الْمُقْبِلِ والْمُدْبِرْ

تَجاسَرْتُ، فَأَقْدَمْتُ على كشفِ الهوى الْمُضْمَرْ

٥٦ النغمة الحبيسة

إذا أنتَ لم يَدْعُ الهوى فتجيبَهُ، ولم تَأْتِهِ طوْعاً خَرجْتَ بِلا وَطَرْ

إذا أنت لم تلب نداء الحب، ولم تستجب له بملء إرادتك كانت حياتك بلا هدف (التفسير للمحقق القهوجي)

وخَلَّفَكَ الإيقاعُ تَطرَبُ سَادِراً، وصِرْتَ كَنَغْمٍ تاهَ في الحَلْقِ لم يَدُرْ

سادراً: هائماً

وما فوقَ ظَهْرِ الأرضِ أنعَمُ عِيشَةً، وأَعْرَضُ دُنْيَا مِنْ مُحِبٌ إذا اقْتَدَرْ
فإن قلتَ في الحبِّ الشَّقَاوَةُ والبَلا، وفيه مُقاسَاةُ الْمَكَارِهِ والغِيَرْ

الغير: المصائب

ففيهِ مُوَاتَاةُ الحبيبِ، وعطفُه عليكَ، وفيه الشَّمُّ والذَّوْقُ والنظرْ

٥٧ عندما نصبح عبرة

أيـنَ مَـنْ كـانَ قَـبـلَـكُـمْ مِـنْ ذوي الـبـأْسِ والـخَـطَـرْ
سَـائِـلُـوا عـنْـهُـمُ الْـمَـدا ئِـنَ واسْـتَـبْـحِـثُـوا الـخَـبَـرْ
سَـبَـقُـونـا إلـى الـرَّحـيـ ـلِ، وإنَّـا عـلـى الأَثَـرْ
مَـنْ مَـضَـى عِـبْـرَةٌ لَـنـا، وغَـداً نـحـنُ مُـعْـتَـبَـرْ
إنَّ لِـلْـمَـوْتِ أَخْـذَةً، تـسـبِـقُ الـلَّـمْـحَ بِـالـبَـصَـرْ
رَحِـمَ الـلَّـهُ مُـسـلِـمـاً ذَكَـرَ الـلَّـهَ، فـازْدَجَـرْ

٥٨ نار الشمس

دَعْ لِـبـاكـيـهـا الـدِّيَـارا، وانْـفِ بـالـخـمـرِ الـخُـمـارا

اشرب خمراً لنفي الخمار (صداع الخمر)

بـنـتُ عَـشْـرٍ لـم تُـعَـايِـنْ غـيـرَ نـارِ الـشَّـمْـسِ نـارَا

خمر عتقت عشر سنين، وغير مطبوخة إلا ما كان من حرارة الشمس على كرمها

٥٩ الجريء المفتري

أيا مَنْ بِحُبِّي علـيَّ اجْتَرَا، ومَـنْ بِـلِـسـانـي عَـلَـيَّ افْـتَـرى
ومَـنْ بِـيَـدي غَـلَّـنـي لِـلْـهـوَى، فـأَصـبـحْـتُ لـلـحُـبِّ مُـسْـتَـأْسَـرا

غلني: قيدني، وإنما قيدت نفسي بيدي، مستأسر: أسير

٦٠ ليل طويل ونهار طويل

مَلكتِ قلبيِ فَأَغْرَيْتِ الهمومَ بهِ، وقلتِ: لا تَعْدَمِ الأحزانَ والفِكَرا

لا تعدمِ: تدعو عليه بأن يلازم الحزن وطول التفكير

أرى نـهـاراً ولـيـلاً قـالَ ربُّـهُـمـا: طُـولا! فـقـد أَتَـيَـا مِنْ ذاكَ مَـا أَمَـرا

٦١ المركب الوعر

أَعِرْ شِعرَكَ الأطلالَ والدِّمَنَ القَفْرَا فقد طالَمَا أَزْرَى بِهِ نعتُكَ الخَمْرا

الدمن القفر: بقايا البيوت الخربة

دَعانِي إلى نعتِ الطُّلولِ مُسَلَّطٌ، تَـضِيقُ ذِراعِي أنْ أَجُوزَ لـهُ أَمْـرا

فَسمعاً أميرَ المؤمنينَ، وطاعةً، وإن كنتَ قد جَشَّمْتَنِي مَرْكَباً وَعْرا

٦٢ في ضيافة السموأل

وفِتْيانِ صِدقٍ قد صَرَفْتُ مَطِيَّهُمْ إلى بيتِ خَمَّارٍ نزلنا به ظُهرا

صرفت مطيهم (وجهت مطاياهم)

فلمَّا حَكَى الزُّنَّارُ أنْ ليس مسلماً، ظننَّا به خَيْراً، فَظَنَّ بِنا شَرَّا

كانوا يلزمون غير المسلم بزنار على خصره

فقُلنا: على دينِ المسيحِ بنِ مَريم؟ فأَعْرَضَ مُزْوَرّاً، وقالَ لنا هُجْرا

الهجر: الكلام غير اللائق

ولكنْ يَهُودِيٌّ، يُحِبُّكَ ظَاهِراً، ويُضْمِرُ في المَكْنونِ منهُ لَكَ الغَدْرَا

فقلتُ له: مآ الاسْمُ؟ قالَ: سَمَوْأَلٌ، ولكنني أُكْنَى بِعمْرٍو، ولا عَمْرا

كنيته أبو عمرو وليس له ولد بهذا الاسم

وما شرَّفَتْنِي كُنْيَةٌ عربيَّةٌ، ولا أَكْسَبَتْنِي لا سَنَاءً ولا فَخْرَا

سناء: علواً

ولكنَّها خَفَّتْ، وقَلَّتْ حُروفُها، وليستْ كأُخرَى إنَّما خُلِقَتْ وَقْرَا

أبو عمرو خفيفة على اللسان، وليست كالسموأل التي هي وقر (ثقل في السمع)

فقلتُ له عُجْباً بِظَرْفِ لِسانِهِ أَجَدْتَ، أبَا عَمْرٍو، فَجَوِّدْ لنا الخمْرا

فَأَدْبَرَ كالْمُزْوَرِّ، يَقْسِمُ طرْفَهُ لأَرْجُلِنَا شَطْراً، وأَوْجُهِنَا شَطْرَا

أدبر: استدار، المزور: المنحرف متحاشياً لنا

وقالَ: لَعَمْرِي لوْ أَحَطْتُمْ بِأَمْرِنا لَلُمْنَاكُمْ، لكنْ سَنُوسِعُكُمْ عُذْرَا

والله لو عرفتم ما عندنا من الخمر الجيدة للمناكم على استهانتكم بنا، ولكن لكم العذر لأنكم لم تذوقوا خمرنا بعد

فجاءَ بِها زَيْتِيَّةً، ذَهَبِيَّةً، فلمْ نَسْتَطِعْ دونَ السُّجُودِ لَهَا صَبْرا

خَرجْنا، على أنَّ الْمُقَامَ ثَلاثَةٌ، فَطَابَ لنا حتَّى أَقَمْنَا بِها شَهْرا

عِصَابَةُ سَوْءٍ لا تَرَى، الدَّهْرَ، مِثْلَهُمْ، وإنْ كنتَ مِنْهُمْ لا بَرِيئاً، ولا صِفْرَا

سوء: فساد، ليس مثلنا في طول الزمن، ولستَ بريئاً من صفاتنا ولا خالياً منها، ففي كل إنسان ما فينا من الإقبال على الشهوات

إذا مَا دنا وَقْتُ الصَّلاةِ رَأَيْتَهُمْ يَحُثُّونَها، حتى تَفُوتَهُمُ سُكْرَا

يحثون الخمر: يعجلون بكرعها

٦٣ فيم حبستني؟

كتب للخليفة محمد الأمين من حبسه:

تذكَّرْ، أمينَ اللَّهِ، والعهدُ يُذكَرُ مَقامِي، وإنشادِيكَ، والناسُ حُصَّرُ

حُصَّر: عاجزون عن الكلام

مضتْ لي شُهورٌ، مُذْ حُبِسْتُ، ثلاثةٌ كأنّيَ قد أَذنبْتُ ما ليس يُغفَرُ

فإن كنتُ لم أذنبْ، فَفِيمَ حبسْتَنِي؟ وإن كنتُ ذا ذنبٍ فعفوُكَ أكبرُ

٦٤ كلاكما بحر

يمدح الخصيب والي مصر:

أَنتَ الخَصِيبُ، وهذِهِ مصرُ فتدفَّقا فكِلاكُما بَحْرُ

لا تقعُدا بي عن مَدى أملِي شيئاً، فما لَكما بهِ عُذْرُ

يخاطب الخصيب ومصر: لا تقعدا بي (تقصرا)، عن إبلاغي مأمولي، فلا عذر لكما

ويَحُقُّ لِي، إذْ صِرْتُ بينَكما، أَلَّا يَحِلَّ بِساحَتِي فَقْرُ

٦٥ قل لي هي الخمر

أَلَا فاسْقِنِي خمراً، وقلْ لِي: هِيَ الخمرُ ولا تسقِنِي سرّاً إذا أمكَنَ الجَهْرُ

ولا تَسقِيَنْ منها الْمُرائِينَ قطرةً   لأنَّ رياءَ الناسِ عندي هُوَ الهُجْرُ

الهجر: الكلام البذيء

فعَيْشُ الفتى في سَكرةٍ بعد سَكرةٍ،   فإنْ طالَ هذا عندَهُ قَصُرَ الدَّهْرُ

وما الغَبْنُ إلَّا أنْ ترانِيَ صاحِياً،   وما الغُنْمُ إلَّا أن يُتَعْتِعَني السُّكْرُ

الغبن: الخسران، يتعتعني السكر: يفكفك مفاصلي

فَبُحْ باسمِ مَنْ أهوى ودعني مِنَ الكُنى   فلا خيرَ في اللَّذَّاتِ مِنْ دونِها سِتْرُ

ولا خيرَ في فَتْكٍ بِدونِ مَجَانَةٍ،   ولا في مُجُونٍ ليس يتبَعُهُ كُفْرُ

الفتك: الهجوم على الملذات المحرمة، المجانة والمجون: المجاهرة بالخروج على الخط المرسوم

بِكُلِّ أخي فَتْكٍ كأنَّ جبينَه   هلالٌ، وقد حَفَّتْ به الأَنْجُمُ الزُّهْرُ

أخو الفتك: صاحب الفتك الجريء على الملذات المحرمة، الزهر: المضيئة

وخَمَّارَةٍ نبَّهْتُها بعد هَجْعَةٍ   وقد غابَتِ الجوزاءُ، وارتَفَعَ النَّسْرُ

هجعة: رقدة

فقالتْ: مَنِ الطُّرَّاقُ؟ قلنا عِصابةٌ   خِفافُ الأَداوَى، تُبْتَغَى لَهُمُ خَمْرُ

الطراق: زوار الليل، عصابة: جماعة، خفاف الأداوى: فارغو أوعية الخمر. فهم يريدون ملأها

ولا بدَّ أن يَزْنُوا، فقالتْ: أوِ الفِدَا   بِأَبْلَجَ كالدِّينارِ في طَرْفِهِ فَتْرُ؟

قالت نفتدي النساء بشاب أبلج: وضيء الوجه كالدينار الذهبي، وفي عينيه فتور ودلال

فقُلنا لها هاتِيهِ، ما إنْ لِمِثلِنا،   فدَيْناكِ بالأَهلينَ، عن مثلِ ذَا، صبرُ

فجاءتْ به كالغصنِ يهتزُّ رِدْفُهُ،   تخالُ به سِحراً، وليس به سحرُ

لـه شبَهٌ بالبدْرِ ليلةَ تِمِّهِ،   مُهَفْهَفُ أعلى الكَشْحِ، في ثَغْرِهِ أَشْرُ

الأشر: تحزيز في الأسنان يكون عند الصغار

فقمنا إليهِ واحداً بعد واحدٍ،   فكان به، من صَوْمِ عُزْبَتِنا، الفِطْرُ

فَبِتْنا يَرانا اللّهُ شَرَّ عِصابَةٍ،   نُجَرِّرُ أذيالَ الفُسوقِ، ولا فَخْرُ

٦٦ فلك نجومه الطاسات

إذا الطاساتُ كُرَّ بِها علَيْنا،   تَكَوَّنَ بينَنا فَلَكٌ يدورُ

إذا دارت الكؤوس على الشاربين، كانت كأنها النجوم تدور في فلكها (جوها)

تَسيرُ نجومُه عَجَلاً ورَيْثاً، مُشَرِّقَةً، وتاراتٍ تَغورُ

٦٧ لا للعتاب

قد مَلِلْنا العتابَ وَهْوَ كثيرُ فاقصِدي قصْدَ ما عليْهِ نَدُورُ
واجعلي للعتابِ يوماً سوى ذا، وانهضي، لا لِوَجهِكِ التَّصغيرُ
واجعلي لِلفراشِ منكِ نصيباً، فَهْوَ مِمَّا به يَتِمُّ السُّرورُ
فاستَقَلَّتْ على الفراشِ بِبَزٍّ: حُلَلٍ حَشْوُهُنَّ طِيبٌ ونورُ

استقلت: صعدت، البز: الثياب

فَنَسِينا عِتابَنا وتَواهَبْـ ـنا إساءَاتِنا، وصَحَّ الضميرُ

تواهبنا إساءاتنا: وهب كل إساءته للآخر فتم التراضي

ما ذَكرنا مِنْ كلِّ ما كان شيئاً بعد أن دُمِّيَ الغزالُ الغريرُ

٦٨ مفضوح

كلُّ محبٍّ سِوايَ مستورُ، والناسُ، إلَّا عن قِصَّتي، عُورُ
كأنَّ طَرْفي عينٌ عَلَيَّ لَهُمْ، فَكُلُّ طَيٍّ، لَدَيَّ، منشورُ

كأن عينيَّ عين (جاسوس) لهم يخبرهم بما في قلبي

ما إنْ يَغُبُّ الفَعَالُ أفعَلُهُ، حتَّى تَهادَاهُ بينَها الدُّورُ

ما يكاد فعلي يغب (ينتهي) حتى تتهاداه (تتداوله) البيوت

يخرجُ من هذه، ويدخلُ في تلكَ، وعنه القِناعُ مَحْسورُ
فما احتيالي! وقد خُلِقْتُ فتىً تَجري بِمَا ساءني المقادِيرُ

٦٩ حوار مع إبليس

وقال أبو نواس وهي مما لم تتضمنه نسخة القهوجي (وهي عن الصولي):

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتْ عني الرسالاتُ منه والخبرُ
اِشتَدَّ شوقي فكادَ يقتلُني ذِكْرُ حبيبي، والهمُّ، والفِكَرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له، في خَلْوَةٍ والدُّموعُ تنهمرُ:
أَما ترى كيف قد بُلِيتُ، وقد أَقْرَحَ جَفني البكاءُ والسهرُ

أقرح: جرَّح

إن أنتَ لم تُلْقِ لي المودَّةَ في صدرِ حبيبي، وأنتَ مقتدِرُ،
لا قلتُ شعراً، ولا سمعتُ غِنا، ولا جَرى في مَفاصِلي السَّكَرُ

السكر: الخمر

ولا أزالُ القرآنُ أدرسُهُ أروحُ في درسِهِ وأبتَكِرُ
وألزمُ الصومَ والصلاةَ، ولا أزالُ، دهري، بالخيرِ آتَمِرُ
فما مضتْ بعد ذاكَ ثالثةٌ حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ

٧٠ أبو نواس في مصر

أَجَارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيورُ وميسورُ ما يُرجَى لديْكِ عسيرُ

أجارة بيتينا: يا جارتنا في السكن، وفي النسب

وإنِي لِطَرْفِ العينِ بالعينِ زاجِرٌ، فقد كدتُ لا يَخفَى عليَّ ضميرُ

أنا زاجر (ممارس للفراسة) أنظر لعيون الناس بعيني فأعرف مكنون ضمائرهم

تقولُ التي عن بيتِها خَفَّ مَركَبي: عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ،

تقول التي رحلت عنها: يصعب أن نراك تغادرنا

أما دونَ مِصْرٍ لِلْغِنى مُتَطَلَّبٌ؟ بَلى، إنَّ أسبابَ الغنى لَكَثيرُ
فقلتُ لها، واستعْجَلَتْها بوادِرٌ، جَرتْ، فَجَرى في جرْيِهِنَّ عبيرُ:

بوادر: دموع

ذَريني أُكَثِّرْ حاسِدِيكِ برحلةٍ، إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ
فتىً يَشتري حسنَ الثَّناءِ بمالِهِ، ويَعلمُ أن الدائراتِ تدورُ
فما جَازَهُ جودٌ، ولا حلَّ دونَهُ، ولكنْ يصيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ

الكرم لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، بل هو الكرم مجسداً

سَمَوْتَ لأهلِ الجوْرِ في حالِ أمنِهِمْ، فأضحَوْا وكلٌّ في الوِثاقِ أسيرُ

سموت: نهضت

فَمَنْ يَكُ أمسَى جاهلاً بمقالتي، فإنَّ أميرَ المؤمنينَ خبيرُ
وما زِلْتَ تُوليهِ النَّصيحةَ يافعاً إلى أن بَدا في العارِضَيْنِ قَتيرُ

ظللت تنصح أمير المؤمنين منذ أن كنت شاباً حتى بدا في عارضيك (جانبي رأسك) القتير (الشيب)

إذا غـالَـهُ أمـرٌ، فـإمَّـا كَـفَـيْـتَـهُ، وإمـا عـلـيـه بـالـكِـفَـاءِ تُـشـيـرُ

غاله الأمر: فاجأه

إلـيْـكَ رَمَـتْ بـالـقـومِ هُـوجٌ كـأنَّـمـا جآجِئُـهـا، تـحـت الرِّجـالِ، قُـبـورُ

رمتك بنا هوج (نياق مسرعات)، جآجئها (صدورها) تحت راكبيها مثل القبور

زَهَا بالخصيبِ السيفُ والرمحُ في الوغى وفـي الـسِّـلْـمِ يـزهُـو مِـنـبرٌ وسَـريـرُ

وإني جديرٌ، إذ بَلَغْتُكَ، بالـمنَى، وأنـتَ، بـمـا أمَّـلْـتُ مـنـكَ، جـديـرُ

فإنْ تُولِني منكَ الجميلَ فأهْلُهُ، وإلَّا فـإنـي عـاذرٌ وشَـكـورُ

إن أوليتني (أعطيتني) الجميل (المعروف) فأنا أهله (مستحق له)، وإن لم يحدث ذلك عذرتك وكنت لك شاكراً

٧١ أعطني كيلا يشمتوا بي

قال يمدح العباس بن عبد الله الهاشمي:

إليكَ غَدتْ بي حاجةٌ لم أَبُحْ بها، أخـافُ عـلـيـهـا شـامـتـاً، فـأُداري

فأَرْخِ عليها سِترَ معروفِكَ الذي سـتـرتَ بـه، قِـدمـاً، عـلـيَّ عَـوَاري

عواري: عيبي

٧٢ أبو نواس يقرأ ضمير جنان

يا ذا الذي عن جَنانٍ ظلَّ يخبرُني، بـاللَّـهْ قـلْ وأَعِـدْ، يـا طيِّبَ الـخـبـرِ

قالَ اشتكَتْكَ، وقالتْ: ما بُليتُ به؟ أَراهُ مِـنْ حـيـثُـمـا أقـبـلْـتُ في أثَري

ما هذا الذي ابتليت به؟ أراه في كل مكان يلاحقني

ويُعمِلُ الطَّرْفَ نحْوي إن مررتُ به حتى لَيُخجِلُني مِنْ حِدَّةِ النظرِ

وإن وقفتُ له كيما يُكَلِّمَني في الموضعِ الخِلْوِ لم ينطِقْ مِنَ الحَصَرِ

الحصر: انحباس الكلام

ما زالَ يفعلُ بي هذا، ويدمِنُهُ حتى لقد صارَ مِنْ همِّي ومِنْ وَطَري

٧٣ التعالي

ومستعْبِدٍ إخوانَه بثرائِه لَبِسْتُ له كِبْراً أَبَرَّ على الكِبْرِ

تكبرت عليه تكبراً أبر (زاد) على التكبر نفسه

إذا ضمَّني يوماً وإيَّاهُ مَحفِلٌ رأى جانبي وَعْراً يزيدُ على الوَعْرِ
أخالِفُه في شكلِه، وأُجِرُّهُ على المنطِقِ المنْزُورِ، والنظرِ الشَّزْرِ

أخالفه في شكله (في طبيعته)، وأجره
(أقطع لسانه/ وكانوا يُجرون لسان صغير الأبل حتى لا يرضع)
وأجبره على المنطق المنزور (الكلام القليل) والنظر الشزر (النظر من جانب العين)

وقد زادني تيهاً على الناسِ أنني أرانِيَ أغناهُمْ، وإن كنتُ ذا فقرِ
فواللَّهِ لا يُبدي لِسانيَ حَاجةً إلى أحدٍ حتى أُغَيَّبَ في قبري
فلا تَطْمَعَنْ في ذاكَ منِّيَ سوقَةٌ، ولا مَلِكُ الدنيا المحجَّبُ في القصرِ

المحجب: الذي اتخذ حاجباً

فلو لم أَرِثْ فخراً لكانَتْ صِيانتي فمي عن سؤالِ الناسِ حَسْبي مِنَ الفخرِ

لو لم يكن لدي مال موروث أفخر به فإنني أفخر بأنني أصون نفسي عن سؤال الناس

٧٤ ما مشَّاك في أثري؟

لا شيءَ أحسَنَ مِمَّنْ قالَ مُلتَفتاً وقد تَغَضَّبَ: ما مَشَّاكَ في أَثَري؟
كأنَّما كَلَّمتْنِي الشمسُ ضَاحِيَةً، إذ قالَ ما قالَ لِي، أو شِقَّةُ القَمَرِ

ضاحية: بارزة

ظبيٌ له من قلوبِ الناسِ نابِتَةٌ من المودَّةِ تُجْنِي أطيبَ الثَّمَرِ

نابتة: غرسة، تُجني: تؤتي

إذا بَدا رَمَتِ الأبصارُ جانبَهُ معاً، فلم تختلفْ عينانِ في النظرِ

٧٥ أنت دون أن تهجى

بما أهجوكَ؟ لا أدري! لساني فيكَ لا يجري
إذا فكَّرتُ في عِرضِـ ـكَ أشفقْتُ على شِعري

٧٦ في وصف طنجرة

رأيتُ قدورَ الناسِ سوداً مِنَ الصَّلَى، وقِدرَ الرُّقَاشِيينَ زَهْراءَ كالبدرِ

الصلى: اللهب، زهراء: بيضاء

تَبَيَّنَ في مِخْرَاشِها أنَّ عُودَهُ سليمٌ، صحيحٌ، لم يُصِبْهُ أذى الجَمْرِ

المخراش: أداة تقليب الجمر

يُبَيِّنُها للمُعتَفي بِفنائِهِمْ ثلاثٌ كَنَقْطِ الثَّاءِ من نُقَطِ الحِبْرِ

يبرز القدر للمعتفي (للفقير) ثلاثة حجارة صغيرة كأنها نقط حرف الثاء، وهي الأثافي التي توضع فوقها هذه القدر المتناهية الصغر

ولو جِئْتَها مَلأَى عبيطاً مجزَّلاً، لأَخرجتَ ما فيها على طَرَفِ الظُّفْرِ

العبيط المجزل: اللحم المقطع

إذا ما تنادَوْا للرَّحيلِ سعَى بها، أمامَهُمُ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ

الحولي: الذي مضى عليه عام، من ولد الذر: النمل. [والحولي من البهائم هو صغارها، وأما النمل فالحولي منها كبير العمر، ولعل أبا نواس قصد «صغار النمل» قياساً على الإبل]

٧٧ الحاطب على ظهر نفسه

حسْبي جَوىً إنْ ضاقَ بي أمري ذِكْرِي لِرَحْمَةَ وَهْيَ لا تَدري

و«رحمة» في أشعار أخرى فتى كان النواسي يتغزل به، لكن «رحمة» ههنا علم على جارية يبدو أنها كانت مملوكة لرجل يخرج قيانه للناس بثمن. يقول: يضيق صدري فأذكر رحمة هذه، وفي هذا ما يكفي من الجوى والحزن

وأخافُ أن أُبدي مودَّتَها، فيغَارُ مولاها ويسْتَشري

يستشري: يغضب

وأَكونُ قد سبَّبْتُ فرقتَنا، وحَطبْتُ مجتهداً على ظَهري

ويلومُني في حبِّها نَفَرٌ خَالونَ من شَجْوِي ومِنْ ضُرِّي

شجوي: حزني، ضري: معاناتي

لم يعرِفوا حقَّ الهوى، فَلَحَوْا، لو جَرَّبُوهُ تبيَّنُوا عُذْري

لحوا: لاموا

إنـي لأُبْغِضُ كلَّ مُصطَبِرٍ عن إلفِهِ في الوصلِ والهجرِ

اَلصَّبْرُ يَحْسُنُ في مواضِعِه، ما لِلفَتى المشتاقِ والصبرِ؟

٧٨ الله لا الجسد

يا سائلَ اللَّهِ فزتَ بالظَّفَرِ وبالنَّوالِ الهَنِيِّ لا الكَدِرِ

وارغَبْ إلى اللَّهِ، لا إلى جسدٍ مُنْتقِلٍ من صِباً إلى كِبَرِ
إن الذي لا يخيبُ سائِلُهُ جوهرُهُ غيرُ جوهَرِ البَشَرِ
ما لكَ بالتُّرَّهاتِ مشتَغلاً، أفي يديْكَ الأمانُ من سَقَرَ؟

٧٩ حديث خرافة

مما نسبه ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» إلى أبي نواس قائلاً: «ومما كفر فيه أو قارَبَ»، البيتان:

تُعَلَّلُ بالمنَى إذ أنتَ حَيٌّ وبعدَ الموتِ من لبنٍ وخَمْرِ
حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ حديثُ خُرَافَةٍ يا أمَّ عمْرِو

٨٠ السجن قبراً

قال أبو نواس يمدح الفضل بن الربيع (وقد شفع فيه فأطلقه من السجن):

إنِّي أتيتُكُمُ من القبرِ والناسُ محتَبِسُونَ للحشرِ
لولا أبو العباسِ ما نظرتْ عيني إلى وَلَدٍ، ولا وَفْرِ

لولا أنه أطلقني لما رأيت أولادي ولا تمتعت بوفري (مالي)

٨١ ينتقي كما يشاء من قلوبنا

إنِّي صرفتُ الهوى إلى قمرٍ لم تبتَذِلْهُ العُيونُ بالنَّظَرِ
مباحَةٌ ساحةُ القلوبِ له، يأخُذُ منها أطايِبَ الثَّمَرِ

٨٢ الزائدة الدودية

قلْ لمن يَدَّعي سُلَيْماً سَفاهاً لستَ منها، ولا قُلامَةَ ظُفْرِ
إنَّما أنتَ من سُلَيْمٍ كواوٍ أُلْحِقَتْ في الهِجاءِ ظُلْماً بِعَمْرِو

أنت بالنسبة لقبيلة سليم كالواو التي ألحقت في الهجاء (الإملاء) باسم «عمرو»، فهي واو زائدة لا تنطق

٨٣ التراضي الصامت

أَزورُ محمداً، فإذا التقيْنا تكلمتِ الضمائرُ في الصدورِ

فأَرجِعُ لم أَلْمْهُ، ولم يَلُمْني، وقد رضيَ الضميرُ عن الضميرِ
أمورٌ ليس يعرفُها سِوانا، يُحَيِّرُ لطفُها بَصَرَ البصيرِ

٨٤ بعد رد العارية

وعَظَتْكَ واعظَةُ القَتيرِ ونَهَتْكَ أُبَّهَةُ الكبيرِ

القتير: الشيب، أبهة: وقار

ورَدَدَتَ ما كنتَ استعَرْ تَ من الشَّبابِ إلى الْمُعِيرِ

٨٥ صفات النديم

قال أبو نواس وهو مما لم يورده قهوجي في نسخته المرفوعة إلى الصولي:

حقوقُ الكأسِ والنَّدمانِ خمسٌ فأوَّلُها التَّزيُّنُ بالوَقارِ

الندمان، بفتح النون الأولى: النديم

وثانِيها مسامحةُ النَّدامَى وكَمْ حَمَتِ السماحةُ من ذِمَارِ

ذمار: حمى (ما يحميه المرء من عرض ومال)

وثالثُها ـ وإن كنتَ ابنَ خيرِ الـ ـبَرِيَّةِ محتِداً ـ تركُ الفَخَارِ

ثالث الحقوق الواجبة على حاضر مجلس الشراب أن يترك الافتخار حتى لو كان ابن أفضل البشر محتداً، أي نسباً

ورابعُها فَلِلْنَّدْمَانِ حقٌّ سوى حقِّ القرابةِ والجِوارِ
إذا حدَّثْتَهُ فاكْسُ الحديثَ الـ ـذي حَدَّثْتَهُ ثوبَ اختِصَارِ

وانظر إلى ما في هذا البيت الذي يتحدث عن الاختصار من حشو

وخامِسُها يَدُلُّ به أخُوهُ على كرَمِ الطبيعةِ والنِّجَارِ

خامس هذه الصفات يدل به أخوه (صاحبه) على كرم النجار (الأصل)

كلامُ الليلِ يَنساهُ نهاراً فإنَّ الذَّنْبَ فيه للعُقَارِ

العقار: الخمر

ولعل القطعة مما أضيف إلى أبي نواس ففي رصف كلامها شيء من حذلقة يجل عنها الحسن بن هانيء، وإنما أوردناها لأن فيها دستور الشاربين

٨٦ العفو عند المقدرة

داوِ يـحـيـىَ مـن خُـمَـارِهْ ... بِـابْـنَـةِ الـدَّنِّ وقَـارِهْ
بِـشـرابٍ خُـسْـرَوِيٍّ، ... مـا تَـعَـنَّـوْا بـاعـتِـصَـارِهْ

خسروي: منسوب إلى خسرو (كسرى)، تعنوا: تعبوا. وأجود الخمر يسيل قبل أن يداس بالأرجل

طَـبَـخَـتْـهُ الـشـمـسُ لَـمَّـا ... بَـخِـلَ الـعِـلْـجُ بِـنَـارِهْ

العلج: غير العربي، غير المسلم

ونَـديـمـي كُـلُّ خِـرْقٍ، ... زَانَـهُ عِـتْـقُ نِـجَـارِهْ

خرق: سخي، عتق نجاره: طيب أصله

وغَـزَالٍ تَـشْـرَهُ الـنَّـفْـ ... ـسُ إلـى حَـلِّ إزَارِهْ
بَـسَـطَـتْـهُ سَـوْرَةُ الـرا ... حِ لـنـا بـعـدَ ازْوِرَارِهْ

سورة الراح: هجمة الخمر، ازوراره: نفوره

فـأَطَـفْـنَـا بِـنـواحِـيـ ... ـهِ، ولـم نَـعـرِضْ لِـدَارِهْ

٨٧ لا أذود الطير

يمدح العباس بن عبد الله الهاشمي:

أيـهـا الْـمُـنـتـابُ عـن عُـفُـرِهْ ... لـستَ مـن لـيـلـي، ولا سَـمَـرِهْ

أيها المنتاب (الزائر) عن عفره (بعد ابتعاده زمناً)، لست من أصدقاء ليلي ولا من ندمائي الآن.
وقالها أبو نواس في حبيبة خانته، ثم جاءت بعد زمن تزوره فصرفها

لا أَذُودُ الـطـيـرَ عـن شـجـرٍ، ... قـد بَـلَـوْتُ الْـمُـرَّ مـن ثَـمَـرِهْ

لن أحذر الآخرين من تلك الخائنة، كما لا يرعى المرء شجرة ذات ثمر مر ولا يذود (يبعد) الطير عنها

خـابَ مـن أَسـرَى إلـى بـلـدٍ ... غـيـرِ مـعـلـوم مَـدى سَـفَـرِهْ

محكوم بالفشل على من يبدأ علاقة لا يعرف منتهاها

فـامـضِ لا تَـمْـنُـنْ عـلـيَّ يـداً، ... مَـنُّـكَ الـمـعـروفَ مـن كَـدَرِهْ

فاذهب (يقصد اذهبي) ولا تمني علي بأيام لهو قضيناها، فالمن (تحميل الجميل) يكدر المعروف

وابـنُ عَـمٍّ لا يُـكـاشِـفُـنـا، ... قـد لَـبِـسْـنـاهُ عـلـى غَـمَـرِهْ

رب شخص لا يجاهر بعداوته، احتملناه على غمره (رغم رداءته)

كَـمَـنَ الـشَـنْـآنُ فـيـهِ لَـنـا ، كَـكُـمـونِ الـنـارِ فـي حَـجَـرِهْ

الشنآن (الكراهية) كامنة في صدره لنا، ككمون النار في حجر القدح. فكأن الشرر كامن في هذا الحجر البارد، ولكنه يتطاير فور ضرب الحجر بحجر آخر، تشبيه فتن القدماء واعترضوا كثيراً على تذكير أبي نواس لكلمة «نار»

ورُضَـابٍ بِـتُّ أَرْشُـفُـهُ، يَـنْـقَـعُ الـظَّـمْـآنَ مـن خَـصَـرِهْ

رب رضاب (ريق) بت أترشفه من فم المحبوب، وهو ينقع (يروي) العطشان من خصره (لبرودته)

عَـلَّـنـيـهِ خَـوْطُ إِسْـحِـلَـةٍ، لانَ مَـتْـنَـاهُ لِـمُـهْـتَـصِـرِهْ

عليه (سقاني إياه) خوط إسحلة (غصن شجرة المساويك «الإسحل»)، الذي لان (كان ليناً) متناه (جانباه) لمهتصره (لمن يجتذبه)

كـيـف لا يُـدنـيـكَ مـن أَمَـلٍ مَـنْ رسـولُ الـلَّـهِ مِـنْ نَـفَـرِهْ!

يمدح العباس، وهو من بني هاشم، : كيف لا يقرّبك من مأمولك هذا الرجل الذي رسول الله من نفره (من قومه)؟

فـاسْـلُ عـنْ نَـوْءٍ تُـؤَمِّـلُـهُ، حَـسْـبُـكَ الـعَـبَّـاسُ مِـنْ مَـطَـرِهْ

اسل (انس) النوء (المطر) الذي تؤمله (تنتظره)، وكفى بالعباس مطراً

تَـتَـأَيَّـا الـطـيـرُ غُـدْوَتَـهُ، ثِـقَـةً بِـالـشِّـبْـعِ مـن جَـزَرِهْ

تتأيا (تقصد) الطيور غدوته (خروجه صباحاً للقتال) لأنها تثق بأنْ ستشبع من جزره (قتلاه في الحرب)

٨٨ عند أطلال الساكرين

ودارِ نَدامَى عَطَّلوُها، وأَدْلَجُوا، بِـهـا أَثَـرٌ مـنـهُـمْ جـديـدٌ ودارِسُ

رب دار كان فيها ندامى وعطلوها (غادروها) وأدلجوا (انصرفوا ليلاً)، وبها أثر منهم ما زال جديداً، وأثر آخر قديم مهدم

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ على الثَّرى، وأضـغـاثُ رَيْـحـانٍ جَنِـيٌّ ويَـابِـسُ

مساحب: (ماذا تسمي آثار عجلات السيارة على الأسفلت بعد حفلة تقحيص، تفحيط، تخميس، أحياها شبان فرحون بشبابهم؟) أبو نواس يسمي الآثار التي يتركها سحب زقاق الخمر على الأرض المتربة «مساحب». وكان زق الخمر ـ كما وصفه الأعشى قبل مئة سنة ـ كبيراً مثل الجوالق ذي المئة كيلوغرام اليوم، «جوالق الخط الأحمر»، وكانت الخمر تنقل بمثل هذه الأوعية المطلية من الخارج بالزفت، «القار». وقد تحمل الخمر من فلسطين إلى الشام على ظهور الإبل في هذه الزقاق كما يخبرنا الأخطل. لنعدل عن هذا السانح ولنعد إلى تفسير البيت:
فآثار القوم كانت مساحب على التراب، وأضغاث (باقات) ريحان جني (حديث الجني/القطاف) ويابس

ولـم أَدْرِ مَن هُمْ غيرَ ما شهدَتْ به، بِشَرقِيِّ سَابَاطَ، الدِّيارُ البَسَابِسُ

لم أعرف شيئاً عن الذين كانوا هنا قبلنا سوى ما شهدت عليهم به ـ شرقي ساباط (مكان قرب إيوان كسرى) ـ الديار البسابس (المهجورة)

حَبَسْتُ بها صحبي فجدَّدْتُ عهدَهُمْ وإنِّي علـى أمثـالِ تلـكَ لَحَابِسُ

أوقفت صحبي بهذا المكان لكي نجدد عهد أولئك الندامي الذين هجروه

أقمْنا بهـا يومـاً، ويومـاً، وثالثـاً، ويـومـاً لـه يـومُ التـرَحُّلِ خَامسُ

أقمنا أربعة أيام، وفي الخامس رحلنا

أحسبه أقام مع صحبه ساعتين شربوا فيهما من باطية كانت معهم ثم انصرفوا، ولكن القافية (خامس) جعلته يحبس صحبه خمسة أيام

تَدورُ علَيْنا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ، حَبَتْها بألوانِ التَّصاويرِ فارِسُ

تدور علينا الخمر في كؤوس عسجدية (مذهبة)، حبتها حضارة فارس بأنواع من الرسوم والنقوش

قَرارَتُها كِسرَى، وفي جَنَبَاتِها مَهاً تَدَّرِيها بِالقِسِيِّ الفَوارِسُ

ففي الجزء الأسفل من الكؤوس صورة لكسرى، وفي الجوانب صور للمها (بقر الوحش) تدريها (تصيدها بالتخفي) الفرسان بالقسي (الأقواس)

فَلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ علَيْهِ جيوبُهُمْ، ولِلماءِ ما دارتْ عليه القَلانِسُ

وفي هذه الكؤوس تصب الخمر حتى الأزرار عند أعناق الفرسان، ويصب الماء حتى القلانس (أغطية الرأس). كان الجاحظ ـ معاصر أبي نواس ـ شديد الافتتان بهذه الأبيات

٨٩ إصلاحُه خلْقُه من جديد

يهجو العباس الخزاعي:

قُلْ لِبَني الأشعثِ لن تُصلِحوا، بـاللَّوْمِ، عنـدي، أمرَ عباسِ

حتـى تـردُّوهُ إلـى ربِّـهِ يَطْبَعُهُ خَلْقاً من الرَّاسِ

ألومُ عباساً على بُخلِهِ، كأنَّ عباساً من النـاسِ

وإنَّما العباسُ في قومِهِ، كالثُّومِ بينَ الوردِ والآسِ

٩٠ ذل المفلس

اَلحمدُ للَّهِ! ألم تَنْهَني تَجْرِبَةُ الناسِ عنِ الناسِ؟

فأمنعَ النَّفسَ هواهَا، فقد أذَلَّني للناسِ إفلاسي

ألم يحن الوقت لأمنع نفسي من طبيعتها في بذل المال

سكتُّ للدهرِ وأحداثِه، حتى خرىَ الناسُ على راسي

٩١ ما شمطت يدي

وإذا عددْتُ سِنيَّ كمْ هِيَ، لم أجدْ للشَّيْبِ عُذراً في النزولِ بِرَاسي

قالوا شَمِطْتَ، فقلتُ ما شَمِطَتْ يدي عن أنْ تَحُثَّ إلى فمي بِالكاسِ

شمطت: أصبحت أشمط يختلط بياض شعرك بسواده

فالرَّاحُ طَيِّبةٌ، وليس تَمامُها إلَّا بِطيبِ خَلائقِ الجُلَّاسِ

فإذا نَزَعْتَ عن الغوايةِ فلْيَكُنْ للَّهِ ذاكَ النَّزْعُ لا للناسِ

٩٢ اجلس، لا جلست!

قال أبو نواس (من كتاب حمزة الأصفهاني، بتحقيق إيفالد فاغنر):

قلْ لِمَنْ يبكي على رسم دَرَسْ واقفاً، ما ضَرَّ لو كانَ جَلَسْ

تَصِفُ الرَّبْعَ ومَن حلَّ به مثلَ سلمى ولُبَيْنَى وخَنَسْ

أتْرُكِ الربْعَ وسلمى جانباً واصطبحْ كَرْخِيَّةً مثلَ القَبَسْ

كرخية: خمر من الكرخ ببغداد

٩٣ الجوعى بخلاً

أماتَ اللَّهُ من جوعٍ رُقَاشاً، فلوْلا الجوعُ ما ماتتْ رُقَاشُ

يدعو عليهم بالموت جوعاً، فهم قوم لا يموتون بحرب لجبنهم

ولو أشْمَمْتَ موتَاهُمْ رغيفاً، وقد سَكَنُوا القبورَ، إذن لَعاشُوا

ومع ذلك، لو ماتوا، لقاموا من قبورهم إذا شموا رغيفاً

٩٤ هجاء البرامكة

إنِّيَ لولا شقاءُ جَدِّي ما ماتَ موسى كذا سريعا

لولا شقاء حظي لما مات موسى الهادي (الخليفة العباسي الرابع، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكان مبغضاً للبرامكة وسجن يحيى البرمكي زمناً)

ولا طوَتْه الْمَنُونُ حتى أرى بني بَرْمَكٍ جَميعا..

قـد دَسَّـمَ الـلَّـهُ مِـن خُـصَـاهُـمْ بِـشَـاطِـئَـيْ دِجـلـةَ الـجُـذُوعـا

ليت المنون (الموت) لم يأخذ موسى إلا وقد خصى البرامكة جميعاً وجعل خصاهم سماداً لجذوع النخيل على شاطئي دجلة. شرح قهوجي: صلبهم في الجذوع وتدلت خصاهم على هذه الجذوع تدسمها (تلطخها)

هـذا زمـانُ الـقـرودِ، فـاخـضَـعْ، وكُـنْ، لـهُـمْ، سـامـعـاً مـطـيـعـا

٩٥ المكاس ضراعة

أعـاذلَ! ما فـرَّطْـتُ فـي جَـنْـبِ لَـذَّةٍ، ولا قـلـتُ لـلـخـمَّـارِ كـيـف تـبـيـعُ؟

أُسـامـحُـه، إنَّ الـمِـكَـاسَ ضَـرَاعَـةٌ، ويَـرحـلُ عِـرضـي عنه وَهْـوَ جَـمـيـعُ

المكاس: الفصال وطلب الحطيطة من الثمن، ضراعة: ذل، جميع: غير مدنس

٩٦ رثاء خَلَف وهو حي

قال أبو نواس يرثي أستاذه خلفاً الأحمر، وهو حي. قال له خلف: ارثني، فرثاه أبو نواس بهذه الأرجوزة، فاستجادها خلف. قال له أبو نواس: مُتْ، ولك خير منها. قال خلف: كأنك قصرت؟ قال أبو نواس: لا، ولكن أين داعي الحزن؟:

أَوْدَى جِـمـاعُ الـعـلـمِ مُـذْ أَوْدَى خَـلَـفْ

مَـنْ لا يُـعَـدُّ الـعِـلْـمُ إلَّا مـا عَـرَفْ

قَـلَـيْـذَمٌ مِـنَ الـعَـيَـالِـيـمِ الـخُـسُـفْ

قليذم: بئر، العياليم: الآبار الصخرية الغزيرة، الخسف: العميقة.
والقليذم عند ابن فارس قلهذم لا غير

فـكُـلَّـمـا نَـشـاءُ مـنـه نَـغْـتَـرِفْ

رِوَايَـةً لا تُـجْـتَـنَـى مِـنَ الـصُّـحُـفْ

٩٧ انتظر حتى أشكرك

يمدح العباس بن عبد الله الهاشمي:

قـد قـلـتُ لـلـعـبـاسِ مـعـتـذراً، مـن ضـعـفِ شُـكْـرِهِ، ومُـعـتـرفـا:

أنـتَ امْـرُؤٌ جَـلَّـلْـتَـنـي نِـعَـمـاً، أَوْهَـتْ قُـوَى شُـكـرِي فـقـد ضَـعُـفـا

لا تُـسْـدِيَـنَّ إلـيَّ عـارِفَـةً، حـتَّـى أقـومَ بِـشُـكْـرِ مـا سَـلَـفـا

٩٨ الرغيف عند رفاء الثياب

قال أبو نواس يهجو إسماعيل بن نوبخت:

خُبزُ إسماعيلَ كالوَشْـ ـيِ إذا ما انْشَقَّ يُرْفَا

الوشي: النسيج الفاخر، يرفا: يخاط بقطب مخفية

عَجباً من أثَرِ الصَّنْـ ـعةِ فيهِ كيفَ يَخفَى

إنَّ رَفَّاءَكَ هذا، أحْذَقُ الأُمَّةِ كَفَّا

فإذا قَابَلَ بِالنِّصْـ ـفِ مِنَ الجَرْدَقِ نِصْفا

الجردق: الرغيف

يُلْصِقُ النصفَ بنصفٍ، فإذا قد صَارَ إلْفَا

إلف: متآلف متماسك

ألْطَفَ الصنعةَ، حتى لا تَرى مِغْرَزَ إشْفَى

إشفى: مخرز

مِثلَما جاءَ من التَّنُّـ ـورِ ما غَادَرَ حَرْفا

ولهُ في الماءِ أيضاً عَمَلٌ أبْدَعُ ظَرْفَا

مَزْجُهُ العَذبَ بِمَاءِ الـ ـبئرِ كيْ يَزْدَادَ ضِعْفَا

أبو نواس بصري النشأة، ولأهل البصرة مع الماء العذب والماء الملح قصص كثيرة رواها الجاحظ ابن البصرة ومعاصر أبي نواس. أليس في البصرة قد مرج الله البحرين يلتقيان؟

فَهْوَ لا يَسقِيكَ منه، مِثلَما يشربُ، صِرْفا

٩٩ رحى السرور

ورخيمُ الدَّلالِ كادَ من الرقَّـ ـةِ يُدمي أديمَهُ وَقْعُ طَرْفِ

هذا الصبي رخيم الدلال (لين التثني)، كاد لرقته يجرح أديمه (جلده) وقع الطرف (النظرة)

حلَّ منه الصَّليبُ في موضِعِ الجيـ ـدِ، فقد خَصَّهُ على كلِّ إلْفِ

إلف: صديق

فأدَرْنا رَحَى السُّرورِ ثلاثاً، ووصلْنا الخُصُورَ كَفّاً بِكَفِّ

كان أبو نواس يغشى الخمارات الملحقة بالأديرة، ويمكث ثمّ أياماً مع عصبة الفساق

١٠٠ الخمر في الرمق الأخير

ومُدامَةٍ تحيا النُّفوسُ بِها، جَلَّتْ مآثِرُها عن الوصفِ
قد عُتِّقَتْ في دَنِّها حِقَباً، حتَّى إذا آلَتْ إلى النِّصْفِ
سَلبُوا قناعَ الطينِ عن رَمَقٍ حَيِّ الحَياةِ، مُشَارِفِ الحَتْفِ

١٠١ يا ابن الموتى!

أخيِ، ما بالُ قلبِكَ ليس يَنْقَى؟ كأنَّكَ لا تظُنُّ الموتَ حَقَّا
ألَا يا ابْنَ الذين فَنُوا وبَادُوا، أمَا واللَّهِ، ما بَادُوا لِتَبقَى
وما لكَ، فاعْلَمَنْ، فيها مُقامٌ إذا اسْتكْمَلْتَ آجالاً ورِزْقا
وما لكَ غيرَ ما قَدَّمْتَ زادٌ إذا جعَلَتْ إلى اللَّهَوَاتِ تَرقَى

لا زاد لك إلا ما قدمت من تقوى إذا بدأت روحك ترقى (تصعد) إلى اللهوات (الحلق)

وما أَحَدٌ بِزادِكَ منكَ أَحْظَى وما أَحَدٌ بِذنْبِكَ منكَ أَشْقَى

١٠٢ القلب الطائر

أَيَا من سارَ منطلِقا، وزوَّدَ مقلتيِ الأَرَقا
سَلبْتَ الظبيَ مقلتَه ولم تتركْ له العُنُقا

أي أن عينك كعين الظبي وعنقك كعنقه

وقالوا مَنْ عشِقْتَ؟ فقلـ تُ: خَيْرُ وشَرُّ من عُشِقَا
فخيْرُهُمُ معاً خَلْقاً، وشَرُّهُمُ معاً خُلُقا
تَضَمَّخَ بالعبيرِ قميـ صُهُ حتى اشْتَكَى الغَرَقا
وسالَتْ مِنْ عقيصَتِهِ، سَلاسِلُ كُسِّرَتْ حَلَقَا

عقيصته: ضفيرته

على بَشَرٍ كَأَنَّ الدُّرَّ - يَعْلُوهُ إذا عَرِقَا

بشر: بشرة/ ظاهر الجلد

فلَوْ أَبْصرتَه لَخَرَرْ تَ عندَ دُنُوِّهِ صَعِقَا

من الآية: فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا. ومن الدو بيت قال الشاعر:

لـو صـادف نـوحُ دمـع عـيـنـي غـرقـا   أو جـرب لـوعـتـي الـخـلـيـل احـتـرقـا

أو حـمـلـت الـجـبـال مـا أحـمـلـه   صـارت دكـا وخـر مـوسـى صـعـقـا

وهذه أبيات كثيرة يغنونها بادئين بـ «يا غصن نقا مكللاً بالذهب»، غناها القدماء على الهزام، إيقاع آغر أقصاق التركي المعدل (٥ على ٤) وغناها بنو زماننا على إيقاع السنكين السماعي (٦ على ٤) فأخذوا بذلك نفَساً

١٠٣ يتعاطون النعاس

رَكْبٌ تَساقَوْا على الأَكْوارِ بَيْنَهُـمُ   كأسَ الكَرى، فانْتَشَى الْمَسْقِيُّ والسَّاقي

ركب (قوم مسافرون) تساقوا (سقى بعضهم بعضاً) على الأكوار (على سروج الإبل) كأس النعاس، فانتشوا جميعاً ونعسوا لطول السفر الليلي

كـأَنَّ أَرْؤُسَـهُـمْ، والـنـومُ واضِـعُـهـا   على المناكِبِ، لـم تُوصَلْ بِأَعناقِ

وضع النوم رؤوسهم على أكتافهم فكأنهم بلا أعناق ترفعها

خاضُوا إِلَيْكُمْ بِحَارَ اللَّيْلِ، آوِنَةً،   حتَّـى أَنَـاخُـوا إِلَـيْـكُـمْ فَـلَّ أَشْـوَاقِ

.. وصلوا عندكم وأناخوا إبلهم فل أشواق (مهزومين من شدة شوقهم)

والحُسْنُ منكِ يَطوفُ العاشقونَ به،   فـأنـتِ مـوسـمُ رُوَّادٍ وعُـشَّـاقِ

١٠٤ الطباخ ابن الذوات

قال في رجلٍ اسمه حمران، اضطرته ظروفه إلى تولي مطبخ الصقر بن الصفاق:

ذاكَ أمـيـرٌ جَـلَّ سـلـطـانُـهُ   فـي مـطـبـخِ الـصَّـقْـرِ بْـنِ صَـفَّـاقِ

فـلـو تَـرَاهُ وَهْـوَ فـي قُـرْطُـقٍ،   مُـشَـمِّـراً فـيـهِ عـنِ الـسَّـاقِ

قرطق: من ملابس الغلمان

تَـسْـمَـعُ لِـلْـمِـحْـوَرِ فـي كَـفِّـهِ   مـا شـئـتَ مـن طـاقٍ وطَـرْطَـاقِ

المحور: الشوبك الذي به يُرَقُّ العجين

إنْ رابَـهُ، مِـنْ نَـارِهِ، رَائِـبٌ،   أو نَـالَ مـنـهـا عـيْـنَـهُ فَـاقـي

إذا أحس بشك في النار وكانت غير معتدلة الاشتعال، لها شرر يفقأ العين لعدم استواء الحطب

بـاشَـرَهَـا بَـالْـحُـرِّ مِـنْ وَجْـهِـهِ،   لـيـسَ لـه، مِـنْ دونِـهـا، وَاقِ

يباشرها بصفحة وجهه يعالجها

أَبَعْدَ سِرْبَالِ امْرِئٍ عَالِمٍ، أَصْبَحْتَ في سِربَالِ مَرَّاقِ؟

سربال: ثوب، مراق: طباخ يعالج المرق

وبعدَ سَعْيٍ لاكتِسابِ العُلَى، تغدُو على زَنْدٍ وحُرَّاقِ

زند: عود الحك لإشعال النار، الحراق: القش الذي هو بدء الاشتعال

حاسِرَ كُمَّيْكَ على هَاوُنٍ لِدَقِّ ثُومٍ أو لِسُمَّاقِ؟

الهاون: المهراس، السماق: من الأبزار

إذا انتهَى القومُ إلى شِبْعِهِمْ فأنتَ في حِلٍّ مِنَ البَاقي

تأكل ما يفضل بعد أكلهم

١٠٥ الغلامية

قال أبو نواس في جارية اسمها معشوق:

غُلامٌ، وإلَّا فالغُلامُ شبيهُها، ورَيحانُ دنيا، لَذَّةٌ لِلمُعانِقِ

تَجَمَّعَ فيها الشَّكْلُ والزِّيُّ كلُّه، فليس يُوَفِّي وصفَها قولُ ناطِقِ

فِطَانَةُ زِنديقٍ، ولَحْظَةُ قَيْنَةٍ بعينِ الذي تَهوَى، ومُنْيَةُ عاشِقِ

وتَقْطِيبُ سِجْنِيٍّ، وتَكْرِيهُ شَاطِرٍ، ونَظْرةُ جِنِّيٍّ، وزِيُّ مُنَافِقِ

سجني: سجان، التكريه: إهمال اللباس، شاطر: لص

١٠٦ الاختناق الحق

يا عمرُو مَنْ لم يختَنِقْ بالبَيْنِ لم يَخْتَنِقِ

يا عمرُو، لا لاقيْتَ ما لاقيْتُ في مُنْطَلَقِي

ما سرتُ مذْ جَاوَزْتُ ميلاً دارَ ذاكَ الخَرِقِ

الخرق: الكذوب

إلَّا ودَاعي حُبِّهِ يَثْني إليهِ عُنُقي

١٠٧ النطف الخائفة

قال يمدح هارون الرشيد:

لقد اتَّقَيْتَ اللَّهَ حقَّ تُقَاتِهِ وجَهَدتَ نفسَكَ فوقَ جَهْدِ المُتَّقي

وأَخَفْتَ أهلَ الشِّرْكِ حتَّى إِنَّهُ   لَتَخافُكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ
وبِضاعةُ الشعراءِ إنْ نَفَّقْتَها   نَفَقَتْ، وإنْ أَكْسَدْتَها لم تَنْفُقِ

١٠٨ معاكسة

يا أيُّها المُبْطِلونَ مِعذِرَتي   أراكُمُ اللَّهُ وجهَ تَصديقي..

.. يا من ترفضون عذري.. أدعو الله أن يريكم صدقي..

نَمَّ بما كنتُ لا أبوحُ به   على لِسانٍ، بالدمعِ مِنْطيقِ

لقد نمَّ صدقي بسري على لسان فصيح مادته الدمع لا الكلام.
أي أن دمعه قام مقام لسانه في بيان عذره

شوقاً إلى حسنِ صورةٍ ظَفِرتْ،   مِنْ سَلسَبيلِ الجِنانِ، بالرِّيقِ

أبكي شوقاً إلى وجه حسن، أخذ صاحبة من سلسبيل الجنان (نبع الجنة) ريقه

وَصيفُ كأسٍ، مُحَدِّثٌ، ولَها   تيهُ مُغَنٍّ، وظَرْفُ زِنديقِ

هذه الفتاة ساقية، ومحدثة لبقة، ولها تيه (تكبر) مغن وظرف زنديق

ورِدْفُها كالكَثيبِ، نيطَ إلى   خَصْرٍ رَقيقِ اللِّحاءِ، مَمْشوقِ

ردفها ككثيب الرمل، وهو موصول بخصر رقيق اللحاء (قليل الشحم)

أَمشي إلى جنْبِها أُزاحِمُها   عَمْداً، وما بالطريقِ من ضيقِ

١٠٩ عدو في ثياب صديق

أَيا رُبَّ وجهٍ، في الترابِ، عَتيقِ   ويا رُبَّ حسنٍ، في الترابِ، رقيقِ

عتيق: جميل

أرى كلَّ حَيٍّ هالكاً وابنَ هَالِكٍ،   وذا نَسَبٍ في الهالِكينَ، عريقِ
فقلْ لِقريبِ الدارِ إنَّكَ ظاعنٌ   إلى منزِلٍ نائي المحَلِّ سَحيقِ

سحيق: بعيد

إذا امتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ   له عن عدوٍّ في ثيابِ صَديقِ

١١٠ عشق النصراني

عُلِّقْتُ من شِقوتي ومن نَكَدي   مُزَنَّراً، والصَّليبُ في عُنُقِهْ

مزنراً: متخذاً زناراً، فهو نصراني

فقلتُ: من أنتَ؟ بالمسيحِ وبالـ إنجيلِ سَطَّرْتَهُ على وَرَقِهْ
وبالصَّليبِ الذي تَدِينُ له، فقالَ: بدرُ السماءِ في أُفُقِهْ

١١١ لعلَّك!

كُنْ معَ اللَّهِ يَكُنْ لَكْ واتَّقِ اللَّهَ لَعَلَّكْ..

أي لعلك تنجو

لا تكُنْ إلَّا مُعِدَّاً لِلمنايا فَكَأَنَّكْ..

أي فكأنك قد لقيت الموت

١١٢ أحقاً أنك رحلت؟

أَحَقَّاً منكَ أَنَّكَ لن تراني، على حالٍ، وأَنِّي لن أَراكا
وأَنَّكَ غائبٌ في قعرِ لَحْدٍ، وما قد كنتَ تعلُوهُ عَلاكا
فلا ضَحِكَتْ، وقد غُيِّبْتَ، سِنِّي، ولا رَقَأَتْ مَدامِعُ مَنْ سَلاكا

رقأت: جفَّت

١١٣ عين الرضا*

فديْتُكَ قد جُبلْتُ على هَواكا، فنفسي لا تُنازِعُني سِواكا
فلَيْتَ الناسَ أُعْمُوا عنكَ، غَيْرِي، فَآمَنَ أن يَرَوْكَ كما أَراكا
ويَسْمُجُ مِنْ سِواكَ الشيءُ عندي، فتفعَلُهُ، فَيَحْسُنُ منكَ ذَاكا

*العنوان لقهوجي

١١٤ لن أهجوك.. لو تموت

قال يهجو الفضل الرقاشي:

قلْ للرُّقَاشِيِّ، إذا جئتَه، لو مُتَّ، يا أَحمقُ، لم أَهْجُكا
لأنني أُكْرِمُ عِرضيِ، ولا أقرِنُهُ يوماً إلى عِرْضِكَا
إن تَهْجُنيِ تَهْجُ فتىً ماجِداً، لا يرفعُ الطَّرْفَ إلى مِثْلِكا
دونَكَ عِرضيِ، فاهجُهُ راشِداً، لا تَدْنَسُ الأَعراضُ مِنْ هَجْوِكا

واللَّهِ، لو كنتُ جريراً لَمَا كنتُ بِأَهْجَى لَكَ مِنْ أَصْلِكا

١١٥ عبوس البخيل

رأيتُ الفضلَ مكتئِباً يناغي الخبزَ والسَّمَكا

يناغي: يكاغي، كما يكاغي المرء الوليد

فقطَّبَ حين أبصَرَني، ونَكَّسَ رأسَهُ، وبَكَى
فلمَّا أن حَلَفْتُ لهُ بِأَنِّيَ صائمٌ ضَحِكا

١١٦ كيمياء العشق

سمع أبو نواس من غلام كان يتعشقه كلاماً قاسياً فيه زجر وتأنيب فخاطب نفسه قائلاً:

عَجَزْتَ يا مَهْجُورُ أنْ تَذْهَلا ومِنْ ذَوِي نُصْحِكَ أن تَقبَلا

يا من هجرك الحبيب قد عجزت عن أن تذهل (تنسى)، وأن تقبل النصح

سَجِيَّةٌ لستَ لها تارِكاً، إذا تَوَلَّوْا عنكَ أن تُقْبِلا

عادة لا تقلع عنها وهي أن ينصرف المحبون عنك ولكنك تبقى مقبلاً عليهم

وتَذْرِفُ العينُ، إذا ما نَأَوْا، وإنْ أَساءُوا، الدَّهْرَ، أنْ تُجْمِلا

تبكي على بعدهم. وإن أساءوا لك طول الدهر فأنت تجمل (تُحسن) لهم

إنِّي، وإنْ لم أَكُ مُسْتَحْسِناً مِني لذا الهجرِ، وَمُسْتَجْمِلا

أنا ـ مع أنني لا أستحسن مقابلتي هجر الحبيب بهجر، ولا أراه لائقاً ـ..

فالموتُ أن يُزْرَى على عاشقٍ، يقالُ قد كانَ، ولكنْ سَلا

أرى الموت أسهل من أن يعاب علي بالقول إن هذا عاشق سابق، وقد سلا (نسي) الآن معشوقه

١١٧ حلو على علاته

يا مَنْ تَمَرَّهَ عمْداً فكانَ لِلعَيْنِ أَمْلا

تمره: لم يكتحل، أصبح أجمل ويملأ العين أكثر

وفي الشُّعُوثَةِ أَرْبَى، فكانَ أحلَى، وأحلَى!

وزاد في الشعوثة (ترك الهندام) فكان أحلى في العين

أردتَ أنْ تـــزدَرِيــك الـــ ـعيــونُ هــيــهــاتَ، كــلَّا!
تــركــتَ جــســمــي عــلــيــلاً، مـــن الــقـــلــيـــلِ أقَـــلَّا
يــكـــادُ لا يَــتَــجَـــزَّا، أقـــلَّ فـــي الـلــفــظِ مِـــنْ «لا»

نحل جسمي حتى صار مثل الذرة التي لا تتجزأ (وكان وصل إلى العباسيين من علم اليونان هذه الفكرة بأن الشيء يصل في نقطة معينة إلى جسيم لا تمكن تجزئته. وتُطيف بي فكرة تلحُّ علي إلحاحاً شديداً ملخصها: مثلما أن الكون واسع ويمكننا، بكثير من الصعوبة، أن نتخيله لانهائياً ـ ذلك أننا لا نفهم اللانهائي أبداً، فمفهوم اللانهائي غير موجود في أي شيء نعرفه ـ فكذلك ثمة لانهائية في الصغر، ولا حاجة للوقوف عند حد في تجزئة المادة إلا لغرض وظيفي. الفكرة موجودة في الرياضيات وفي الفلسفة، ولكن علماء الفيزياء يحبون التوقف في التجزئة في المحطات التي تخدم فرضياتهم. وقفوا طويلاً عند البروتون والنيوترون والإلكترون، ومنذ حين أخذوا يحطمون هذا ويضيفون إليه «دقائق» كثيرة أوصلها بيل برايسون إلى ١٥٠ جسيماً جديداً افترضوا وجودها داخل الذرة)

١١٨ كلم أخاك

كتب أبو نواس من سجنه لأخي كاتب الفضل بن الربيع مستشفعاً:

حَــيِّ الــدِّيَــارَ وأهــلَــهــا أهــلا واربَــعْ، وقُــلْ لِــمُــفــنِّــدٍ مَــهــلا!

اربع: أقم، المفند: العاذل

حُبُّ المدامَةِ، مُذْ لَهِجْتُ بِها، لـم يُبْقِ فيَّ، لِغيرِها، فَضْلا
إنِّـي نَـدَبْـتُ لِـحَـاجَـتـي رَجُـلاً صَافِي السماحَةِ، واحتَوى النُّبْلا
كَـلِّـمْ أخـاكَ يُـكَـلِّـمِ الـفَـضْـلا ولْـيَـبْـلُـنـي حَـسَـناً كـمـا أَبْـلَـى

ليبلني: ليختبرني

إنِّـي وصـلـتُ بـكَ الـرجـاءَ عـلـى بُـعدِ المـدى، إذ كـنـتَ لـي أَهْـلا
وإذا وصــلْــتَ بــعــاقِــلٍ أمَــلاً كـانـتْ نـتـيـجـةُ قـولِـكَ الـفِـعْـلا

١١٩ نسير نحوه

إنَّ الــذي رَدَّ الــشــبــابَ كُــهــولا لا آمِــلاً يُــبــقــي ولا مَــأمُــولا

١٢٠ لا مثيل له

مـا لـيَ فـي الـنـاسِ كـلِّـهِـمْ مَـثَـلُ مـائـي عُـقَـارٌ، ونُـقْـلِـيَ الـقُـبَـلُ

مائي عقار (خمر)، ونقلي (مازتي/ ما أتسلى به على الشراب) القبلات

دأْبِيَ، حتى إذا العيونُ هَدَتْ، وحَانَ نَوْمي فمَفْرَشي كَفَلُ

هذا هو دأبي (عادتي)، فإذا نام الناس وهدأت عيونهم وحان نومي فأنا أفترش كفل الحبيب

١٢١ تصبَّبْ وأنت ساكت

إنِّي وذِكْرِيَ مِنْ «حُسْنٍ» مَحاسِنَها، مثلُ الذي قالَ: ما أحْلاكَ يا عَسَلُ!

أُحَدِّثُ الناسَ أَنِّي قد وقعتُ لَهُمْ مِنْ وجهِ «حُسْنٍ» على الأمْرِ الذي جَهِلوا

قد اكتَفَى الناسُ مِنْ علمي بعلْمِهِمُ، فالردُّ مني عليهِمْ عِلْمَهُمْ ثِقَلُ

لا تفصِّلْ جمالها للناس فهذا ثقل (ثقل دم)، فكلهم رآها وأدرك محاسنها

١٢٢ حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً

لم يُنسِنِي السَّعيُ والطَّوافُ ولا الدَّ ـ اعُونَ لَمَّا ابتَهلتُ وابتَهلوُا

قَضيبَ بَانٍ إن قامَ يَنخَزِلُ، وإنْ تَولَّى فكُلُّهُ كَفَلُ

ينخزل: ينقطع

تخالُ خَدَّيْهِ لاحْمِرارِهِما يُفَتِّحُ الوردَ فيهِما الخَجَلُ

١٢٣ لِصِّي المفضل

نجوتُ مِنَ اللصِّ الْمُغِيرِ بسيفِه، إذا ما رَمَاهُ بِالتِّجَارِ سبيلُ

نجوت من قاطع الطريق إذا ما رماه الطريق (صادف) بالتجار

وسَلَّطْتُ خَمَّاراً عليَّ بِكأْسِه، فراحَ بِأَسْلابِي، ورُحْتُ أَمِيلُ

وسلطت علي صاحب الخمارة فذهب بأسلابي (ملابسي) وتمايلت سكراً

١٢٤ العتيقة

لا تُعَرِّجْ بِدارسِ الأطلالِ واسْقِنِيها رَقيقَةَ السِّرْبَالِ

رقيقة السربال: رقيقة الثوب، أي أن الخمر شفافة مركزة

ماتَ أربَابُها، وبَادَتْ قُراها، وبَرَاها الزَّمانُ بَرْيَ الخِلالِ

الخلال: المساويك، ويضرب بها المثل في الدقة بعد بريها

عُتِّقَتْ في الدِّنَانِ حتى استفادَتْ نُورَ شَمسِ الضُّحَى، وبَرْدَ الظِّلالِ

١٢٥ زيارة خمارة ليلاً

أَمَالِكُ، باكِرِ الصَّهْباءَ، مَالِ وإنْ غالَوْا بِها ثمناً فَغَالِ

مالِ: ترخيم مالك

وأَشْمَطَ، رَبِّ حانوتٍ، تَراهُ، لِنَفخِ الزِّقِّ، مُسْوَدَّ السِّبَالِ

وصاحب حانوت (خمارة) أشمط (اختلط سواد شعره ببياض) تراه مسود الشاربين لكثرة نفخه في الزق. ويبدو أنهم كانوا ينفخون في زق الخمر المطلي بالقار لاستخراج بقية ما فيه من خمر

دعوتُ، وقد تَخَوَّنَهُ نُعاسٌ، فَوَسَّدَهُ بِراحَتِهِ الشِّمَالِ

أتيته وقد تخونه (أخذه) النعاس فجعل هذا النعاس راحته اليسرى وسادة لرأسه

فقامَ لِدَعوَتي فَزِعاً مَرُوعاً، وأسرعَ نحوَ إشعالِ الذُّبَالِ

الذبال: الفتيل

فلمَّا بَيَّنَتْني النارُ حَيَّا تحيةَ وَامِقٍ لَطِفِ السؤَالِ

وامق: محب

وأَفْرَخَ رُوعُهُ، وأفادَ بِشْراً، وهَرْهَرَ ضاحكاً جَذْلانَ بالِ

أفرخ روعُه: هدأت مخاوفه، هرهر: قرقر وكركر كالقط مسروراً، جذلان البال: فرحان الخاطر

يُلائِمُني الحَرامُ، إذا اجتمَعْنا وأَجْفُو عن ملاءَمَةِ الحَلالِ

١٢٦ في وصف طنجرة أخرى

ودَهْمَاءَ تُثْفِيها رَقاشُ، إذا شَتَتْ، مُرَكَّبَةِ الآذانِ، أُمِّ عِيالِ

رب قدر دهماء (سوداء) تملكها عائلة رقاش التي تثفيها (تضعها على الأثافي/حجارة الموقد) عند الشتاء، والقدر ذات آذان وهي أم عيالهم التي تطعمهم

يَغَصُّ بِحَيْزُومِ الجَرادةِ صدرُها، ويُنْضِجُ ما فيها اتِّقَادُ ذُبالِ

صدر هذه القدر يغص (يمتلئ) لو وضع فيها حيزوم (صدر) جرادة، ويكفي لإنضاج ما فيها اتقاد ذبال (فتيل).. هذا لأنها قدر متناهية الصغر

وتَغلي بِذِكْرِ النارِ من غَيرِ حَرِّها، ويُنْزِلُها الطَّاهي بِغيرِ جِعالِ

لمجرد ذكر كلمة نار تغلي هذه القدر، وينزلها الطاهي عن حجارة القدر بدون جعال (خِرْقة)

ولو جئتَها ملأى عَبيطاً مُجَزَّلاً، لأَخرجْتَ ما فيها بِعودِ خِلالِ

ولو وجدتها ملأى بالعبيط المجزل (اللحم المقطَّع) لأخرجت محتوياتها على عود مسواك.

بيت مكرر مع تغيير كلمتين سننتظر بضعة عقود لنرى ابن الرومي يصنع العجائب على هذه الطريقة الكاريكاتيرية

١٢٧ ادفنوني تحت أرجلهم

قال أبو نواس، وليس في نسخة الصولي التي عنها أخذ قهوجي:

خَليلَيَّ باللَّهِ لا تحفِرا لِيَ القبرَ إلا بِقُطْرَبُّلِ
خِلالَ المعاصرِ بينَ الكُرُومِ ولا تُدنِياني منَ السُّنْبُلِ

يريد أن يدفن بين كروم العنب ومعاصره لا بين سنابل القمح

لَعلِّيَ أَسمعُ في حُفرتي إذا عُصِرَتْ ضَجَّةَ الأَرْجُلِ

وكانوا يعصرون العنب بدوسه بالأقدام

١٢٨ فضيحة العاشق

من رواية حمزة الأصبهاني:

دمعةٌ كاللُّؤْلؤِ الرَّطْـ ـبِ على الخَدِّ الأَسيلِ
قَطَرَتْ في ساعةِ البيْـ ـن مِنَ الطَّرْفِ الكَحيلِ
إنما يُفْتَضَحُ العا شقُ في وقتِ الرَّحيلِ

١٢٩ تجميش مبتكر

أزاحِمُهُ إذا صَلَّى لِتَمْسَحَ رجلَهُ رِجلي
وأطلُبُ تحتَه نَعلي وما إنْ تَحْتَهُ نَعلي
فهلْ أبصرْتُمُ شخصاً يُجَمِّشُ هكذا قَبْلي؟

يجمش: يداعب بخشونة تشبه خشونة كلمة «تجميش»

١٣٠ طيش الشباب والشيخوخة

كانَ الشبابُ مَطِيَّةَ الجهلِ ومُحَسِّنَ الضَّحِكاتِ والهَزْلِ

كان الشباب مركباً للجهل، وكان يجعل الهزل جميلاً

والبَاعِثِي، والناسُ قد رَقدُوا، حتى أكونَ خَليفَةَ البَعْلِ

في الليل كان الشباب يبعثني (يحملني) على أن أكون خليفة البعل (أن أنوب عنه في سرير الزوجية)

والآمِرِي، حتى إذا عَزَمَتْ نفسي أعانَ يَديَّ بالفِعْلِ

يأمرني الشباب بالعبث، ويساعدني عليه عندما أقرر

فــالآنَ صِــرْتُ إلــى مــقــارَبَــةٍ،   وحَطَطْتُ عن ظَهْرِ الصِّبَا رَحْلي
مقاربة: تقارب الخطوات، كمشي الشيخ

والـــراحُ أهْـــواهَـــا، وإن رَزَأَتْ   بُـلَـغَ الْـمَـعـاشِ، وقَـلَّـلَـتْ فَـضْـلـي
وأهوى الخمر حتى لو رزأت (خسفت) بلغ المعاش (بقايا المال)، وقللت فضلي (أضرت بسمعتي)

صَـفـراءُ، مَـجَّـدَهـا مَـرازِبُـهـا،   جَـلَّـتْ عـن الـنُّـظَـراءِ والْـمِـثْـلِ
المرازب: كبار قادة كسرى

فَــاعــذِرْ أخَــاكَ فــإنــه رجــلٌ   مَـرَنَـتْ مـسـامِـعُـهُ عـلـى الـعَـذْلِ

١٣١ خبز إسماعيل

على خُبزِ إسماعيلَ وَاقِيَةُ البُخْلِ   فقد حلَّ في دارِ الأمانِ مِنَ الأَكْلِ
ومـا خـبـزُهُ إلا كـآوَى يُـرَى ابـنُـهُ،   ولـم يُـرَ آوَى في حُزونٍ ولا سـهـلِ
«ابن آوى» حيوان معروف وموجود، ولكن «آوى» ـ أباه ـ ليس في الوجود، ففي اللغة «ابن آوى» حيوان معروف، وليس في اللغة «آوى» بهذا المعنى

ومـا خـبـزُه إلَّا كـعـنـقَـاءِ مُـغْـرِبٍ،   تُصَوَّرُ في بُسْطِ الملوكِ، وفي الْمُثْلِ
نشهد عنقاء مغرب في بسط الملوك وفي المثل (القصص) لكنها خرافية

يحَدِّثُ عنها الناسُ من غيرِ رؤْيَةٍ،   سوى صورةٍ ما إنْ تُمِرُّ ولا تُحْلي
ما إن تمر ولا تحلي: لا نفع منها، ولا حقيقة لها

ومـا خـبـزُهُ إلَّا كُـلَـيْـبُ بـنُ وائِـلٍ،   لَـيالِيَ يـحـمـي عِزُّهُ مَنْبِتَ الـبَـقْـلِ
خبز هذا الرجل محمي كمنبت البقل (المرعى) الذي كان كليب يمنعه بعزه وجبروته فلا ينال منه أحد

وإذْ هُوَ لا يَسْتَبُّ خصمانِ عندَه،   ولا الصوتُ مرفوعٌ بِجِدٍّ ولا هَزْلِ
كذا كانت هيبة كليب، فلم يكن ليجرؤ القوم على أن يتشاتموا في مجلسه

فإنْ خبزُ إسـمـاعيـلَ حَلَّ به الـذي   أصابَ كُلَيْبَاً لم يَكُنْ ذاكَ عن ذُلِّ
وكان جساس قد قتل كليباً

ولـكـنْ قـضـاءٌ لـيـس يُـسْـطـاعُ ردُّهُ   بِحِيلَةِ ذي مَكْرٍ، ولا فِكْرِ ذي عَقْلِ
أي أن خبزه لو تعرض لبعض الأذى فعن قضاء وقدر، وليس لأن إسماعيل هذا قصر في رد الأيدي عنه

١٣٢ المذكَّرة

يا رَبْعُ، شُغْلَكَ، إنِّي عنكَ في شُغُلِ لا ناقِتِي فيكَ، لو تدري، ولا جَمَلي

أيها الربع الذي فارقه أهله الزم شغلك فأنا عنك منشغل، وليس لي فيك ناقة ولا جمل

عـلـيَّ عـيـنٌ وأُذْنٌ مِـنْ مُـذَكَّـرَةٍ، مَوْصُولَةٍ بِهَوى اللُّوطِيِّ والغَزِلِ

علي من يراقبني في هوى هذه الفتاة الغلامية ذات القد الذكوري، وهي موضع عشق اللوطي والغزل (مغازل النساء)

١٣٣ الحرام والحلال

يا رُبَّ صاحِبِ حانةٍ قد رُعتُهُ، فبعثْتُهُ من نَومِه المتَزَمِّلِ

ربَّ خمَّار أخفته بزيارتي الليلة، فقام من نومه الذي تزمل (تلفَّف) فيه بالغطاء

عرفَتْ بَياتَ الطَّارِقينَ كلابُه، فَيَبِتْنَ عن سَنَنِ الطريقِ بِمَعزِلِ

كلاب هذا الخمار تعرف عادة الطارقين (زائري الليل)، فهي تنام بمعزل عن سنن الطريق (وسط ممر الحانة) تاركة طُرَّاق الليل يدخلون بسلام

ما زلتُ أمتحِنُ الدَّساكِرَ دونَه، حتى دُفِعْتُ إلى خَفِيِّ المنزلِ

ظللت أتفحص الدساكر (منازل القرى) دونه (قبل الوصول إليه)، ثم دلوني على المنزل الخفي (الخمارة المتوارية)

فَعرفْتُه، واللَّيلُ مُلْتَبِسٌ بِنا، بِرَفيفِ صَلعتِه وشيبِ الْمِسْحَلِ

عرفت الخمار ـ رغم أن الليل ملتبس بنا (مخالط لنا ويغطينا) ـ وذلك برفيف (لمعان) صلعته، وبشيب المسحل (جانب اللحية)

يا صاحبَ الحانوتِ لا تَكُ مُشْعِياً، إنَّ الشرابَ مُحَرَّمٌ كمُحَلَّلِ

يا صاحب الحانوت (الحانة) لا تكن مشعياً (مدقِّقاً)، أي لا تدقق في تفاصيل النبيذ المحرم (نبيذ العنب) والنبيذ المحلل بحسب بعضِ الفقهاء (نبيذ التمر والزبيب). فالمحرم في فعله مثل المحلل

فدَعِ التي نَبَذَتْ يداكَ، وعاطِني لِلَّهِ دَرُّكَ، من نبيذِ الأرْجُلِ

اترك النبيذ الذي نبذته (جعلته نبيذاً) يداك (وهو نبيذ التمر أو الزبيب)، وعاطني (ناولني) نبيذ الأرجل (نبيذ العنب الذي داسه النباذون بأرجلهم عصراً)

مِمَّا تَخَيَّرَهُ التِّجارُ؛ تَرى لها قَرْصاً، إذا ذِيقَتْ، كقَرْصِ الفُلْفُلِ

هات مما انتقاه التِّجار (تُجَّار الخمر)، خمرة تلسع اللسان كلسع الفلفل

وَلـهـا دبـيـبٌ فـي الـعِـظـامِ كـأنَّـهُ قَبْضُ النُّعـاسِ، وأخذُهُ بالْمَفْصِلِ

وتتسلل إلى العظام كما يتسلل النعاس ويرخي المفاصل

عَـبِـقَـتْ أكـفُّـهُـمُ بِـهـا، فـكـأنـمـا يـتـنـازعـونَ بـهـا سِـخَـابَ قَـرَنْـفُـلِ

فاح عبيرها في أكف الشاربين، فكأنهم إذ يتنازعون (يتبادلون كؤوسها) يتبادلون سخاب (قلائد) القرنفل

١٣٤ موقف نفسي

لأَعْـذِلَـنَّ فـؤادي أقـبـحَ الـعَـذَلِ حتى أُنَهْنِهَهُ عن مثلِ ذا العملِ

سألوم قلبي حتى أنهنهه (أكُفَّه) عما قام به

منَّانِيَ الصَّبرَ، لا يألُو، لِيوقِعَني حتى إذا صارَ بي في مَقْطَعِ السُّبُلِ

قلبي منَّاني بالصبر ولم يكن يألو (يقصر)، فكأن هدفه إيقاعي.
وقد أوقع بي وانقطع بي السبيل في العشق

إلى الذي لم يَشِنْهُ غيرُ واحدةٍ مَقالُهُ: ما لِبَاغِي الوصْلِ مِنْ عَجَلِ

ولا يشين (يعيب) الحبيب إلا شيء واحد هو قوله إن طالب الوصل لا يجوز أن يستعجل

فـمـا تَـذَكَّـرَ أهـلُ الـعِـشْـقِ بـيـنَـهُـمُ حسنَ الصفاءِ من الخُلَّانِ والخَلَلِ . .

كلما ذكر العاشقون في أحاديثهم حسن الصفاء الذي يلاقونه من الخلان، وحسن الخلل (الخصال). .

إلَّا نَـكَـتُّ حَـيـاءً سـاعـةً بِـيَـدي، وانضَمَّ بَعضِي إلى بعضٍ مِنَ الخَجَلِ

ما ذكروا ذلك إلا نكتُّ (عبثت بما أمامي/ دليلاً على الإطراق والخجل)، وانكمشت من الخجل

١٣٥ فاسق فاتك

وخـيـمـةِ نـاطـورٍ بِـرأسِ مُـنـيـفَـةٍ، تَـهُـمُّ يـدا مَـنْ رامَـهـا بِـزَلِـيـلِ

ربَّ خيمة ناطور (حارس زرع) في رأس منيفة (تلة) تكاد يدا من طلب صعودها أن تزل وتنزلق

حَطَطْنا بها الأثقالَ فَلَّ هَجيرَةٍ عَـبُـورِيَّـةٍ، تُـذْكَـى بِـغَـيـرِ فَـتـيـلِ

وضعنا متاعنا هناك فلَّ هجيرة (مُتعبي ظهيرة) عبورية
(هجيرة ظهرت في مساءاتها الشعرى العبور وهي النجم الذي يظهر عند اشتداد الحر)،
وهذه الظهيرة تشتعل من غير فتيل لشدة الحر

حَلَبْتُ لأصحابي بِها دِرَّةَ الصِّبا، بِصَفراءَ مِنْ ماءِ الكُرومِ شَمُولِ

حلبت لأصحابي بالخيمة درة الصبا (حليب الشباب/ يقصد الخمرة)، وهي عبارة عن خمرة صفراء شمول (باردة)

إذا ما أتتْ دونَ اللَّهاةِ مِنَ الفتَى،   دعـا هـمُّـه مـن صدرِه بـرحـيـلِ

إذا نزلت تحت اللهاة (لحمة الحلق) من الفتى تداعت الهموم في صدره إلى الرحيل

فلما تَوَفَّى الليلُ جُنْحاً مِنَ الدُّجَى،   تصابَيْتُ، واستجْمَلْتُ غيرَ جَميلِ

فلما توفى (استغرق) الليل جانباً من العتمة، تصابيت (تصرفت كأنني في سن الصبا)، واستجملت (استفحلت كالجمل) غير جميل (ولم أكن مجاملاً). المعنى الملموح أنه مع نزول الليل أبدى عن شهواته لمن معه

وَعاطَيْتُ من أَهْوى الحديثَ كما بَدا،   وذَلَّـلْـتُ صـعـبـاً كـان غـيـرَ ذَلُـولِ

وتبادلت مع الحبيب الحديث على عواهنه بغير تحفظ، وذللت البعير الصعب الذي لم يكن ذلولاً. يشير إلى أنه لين قلب محبوبه وأزال تحفظه

فأَنزلْتُ حاجاتي بِحِقْوَيْ مُساعِدٍ،   وإنْ كـان أدنَـى صَاحِـبٍ، ودَخيِـلِ

أنزلت حاجاتي (أفرغت شهواتي) بحقوي (خصري) شخص مساعد (معين لي وعير متمنع)، وإن كان أيضاً صاحباً ودخيلاً (خليلاً)

وأصبحتُ أَلحَى السُّكْرَ، والسُّكْرُ مُحْسِنٌ،   ألا رُبَّ إحـسـانٍ عـلـيـكَ ثـقـيـلِ

وصرت ألحي (ألوم) السكر، والسكر في الواقع قد أحسن إليَّ، ومن الإحسان ما يكون ثقيلاً في ميزان المعاصي

كَـفـى حَـزَنـاً أنَّ الـجـوادَ مُـقَـتَّـرٌ   عـلـيـه، ولا مَـعـروفَ عـنـد بـخـيـلِ

يكفينا حزناً أن الرجل الكريم مقتَّرٌ عليه (فقير)، والبخيل طبعاً لا يعطي

سأَبغِي الغنَى، إمَّا جَليسَ خليفةٍ   نَـقُـومُ سَـواءً، أو مُـخـيـفَ سبـيـلِ

سأسعى للغنى بمجالسة الخليفة نقوم سواء (يساويني بنفسه في مجلس اللهو)، أو مخيف سبيل (قاطع طريق)

بِـكـلِّ فـتـىً لا يُـسْـتَـطـارُ جَـنـانُـه،   إذا نَـوَّهَ الـزَّحْـفـانِ بـاسـمِ قـتـيـلِ

سأقطع الطريق بكل فتى لا يستطار جنانه (لا يخاف قلبُه)، إذا ذُكر القتل بين الفريقين. المعنى الملموح: يريد صحبة فتية لا يخافون قطع الطريق حتى مع خطر القتل

لنَخْمُسَ مالَ اللَّهِ من كلِّ فاجِرٍ   أخـي بِـطْـنَـةٍ لـلـطَّـيِّـبـاتِ أَكُـولِ

كي نأخذ الخُمس من أموال الفاجر (والخُمس هو ما فرض للرسول من الغنائم) أخي بِطنة (سمين) تعود أكل الطيبات

١٣٦ عاد خائباً

ولـو رَدَّتْ جَـنـانٌ ردَّ خـيـرٍ،   تـبـيَّـنَ ذاكَ فـي وجـهِ الـرَّسـولِ

١٣٧ دار زينب

يمدح الحسين الخادم مولى الرشيد:

يا خليليَّ، ساعةً، لا تَرِيمَا، وعلى ذي صَبابَةٍ، فأَقيما

لا تريما: لا تبتعدا، أقيما: ابقَيَا

ما مررْنا بِدارِ زينبَ، إلَّا فَضَحَ الدمعُ سرَّنا المكتوما

تتجافَى حوادثُ الدهرِ عَمَّنْ كان في جانبِ الحُسَيْنِ مُقيما

حوادث الدهر (المصائب) تتجافى (تبتعد) عمن كان ملازماً للحسين

قالَ لي الناسُ إذ هززْتُكَ لِلحا جَةِ: أبشِرْ فقد هَزَزْتَ كريما

كان الكرام يفتخرون بأن الناس يهزونهم (يخادعونهم عن أموالهم)، وبأنهم ينخدعون للناس

فاسْأَلَنْهُ، إذا سألتَ، عظيماً، إنَّما يُسْأَلُ العظيمُ العَظيما

١٣٨ شُمَّ ولا تَذُقْ

قالها بعد أن نهاه محمد الأمين عن شرب الخمر وعزم عليه أصحابه أن يتناولها:

أيها الرائحانِ باللوْمِ، لُوما لا أذوقُ الْمُدامَ إلَّا شَمِيما

لن أذوق الخمر، وحسبي رائحتها

نالني بالْمَلامِ فيها إمامٌ، لا أرى لِي خلافَهُ مُستَقِيما

لامني الإمام (الخليفة) في الخمر، ولست أرى مخالفته أمراً مستقيماً

فاصْرِفَاها إلى سِوايَ، فإنِّي لستُ إلَّا على الحديثِ نديما

كُبْرُ حَظِّي منها، إذا هِيَ دارتْ، أن أراها، وأن أَشُمَّ النَّسيما

فكأنِّي، وما أُزَيِّنُ منها، قَعَدِيٌّ يُزَيِّنُ التَّحكيما

كأنني إذ أشجع على الخمر قعدي (خارجي ممن لا يقاتل صاحب السلطة) ممن يزينون التحكيم (من أولئك الخوارج الذين عادوا عن الرأي القديم وأصبحوا يؤيدون التحكيم الذي حدث قديماً فيما بين علي ومعاوية)

كَلَّ عن حملِهِ السِّلاحَ إلى الحرْ بِ فأَوْصَى الْمُطيقَ ألّا يُقيما

هذا القعدي كَلَّ (عجز) عن حمل السلاح،
فأوصى من يطيقون القتال بألا يقعدوا بل يقاتلوا

١٣٩ إكرام المطايا

يمدح الأمين:

يـا دارُ، مـا فـعـلَـتْ بـكِ الأيَّـامُ ضَـامـتْـكِ، والأيـامُ لـيـس تُـضـامُ

ضامتك: ظلمتك

عَرَمَ الزمانُ على الذين عهِدتُهُمْ بِـكِ قـاطِـنـيِـنَ، ولـلـزَّمـانِ عُـرَامُ

عرم: قسا

أيَّـامَ لا أَغْـشَـى لأهـلِـكِ مـنـزلاً، إلَّا مُـرَاقَـبَـةً، عـلـيَّ ظَـلامُ

أغشى: أزور، ألا مراقبة: إلا وأنا مترقب حذِر

ولقد نَهَزْتُ معَ الغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ، وأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حيثُ أَسامُوا

نهزت: ألقيت الدلو، أسمت سرح اللهو: سرَّحت الماشية لترعى/أي أرسلت نفسي لتتمتع بالملذات

وبـلـغـتُ مـا بـلـغَ امْـرُؤٌ بِـشـبـابِـه، فـإذا عُـصَـارَةُ كـلِّ ذاكَ أَثَـامُ

وتَـجَـشَّـمَـتْ بـيِ هَـوْلَ كـلِّ تَـنُـوفَـةٍ، هَـوجَـاءُ فـيـهـا، جُـرْأَةٌ، إقْـدامُ

تجشمت (تحملت المشقة) بي أهوال كل تنوفة (صحراء) ناقة هوجاء (سريعة) فيها إقدام لجرأتها

تَـذَرُ الْـمَـطِـيَّ وراءَهـا، فـكـأنَّـهـا صـفٌّ تَـقَـدَّمُـهُـنَّ، وَهْـيَ إمـامُ

لسرعتها تترك المطي (الرواحل/المطايا) وراءها سابقة فكأن الأبل صف واحد وهي أمامهن كالأمام يقف أمام المصلين

وإذا الْـمَـطِـيُّ بِـنـا بـلـغْـنَ مـحـمـداً، فـظُـهـورُهُـنَّ عـلـى الـرِّحَـالِ حَـرامُ

إذا بلغت الإبل محمداً الأمين، فحرام وضع الرحال (السروج ولوازم السفر) على ظهورها إكراماً لها، ولأننا لن نسافر من بعد لأن كل الخير عنده

قَرَّبْنَنا من خيرِ من وَطِئَ الحَصَى، فـلَـهـا عـلـيْـنـا حُـرْمَـةٌ وذِمـامُ

هذه المطايا لها فضل أنها قربتنا من خير البشر، لذا فنحن نحفظ لها هذه الحرمة والعهد

١٤٠ أهابك

أموتُ، ولا تدرِي، وأنت قتلتَنِي، ولو كنتَ تدرِي، كنتَ لا بُدَّ تَرْحَمُ

أَهـابُـكَ أن أشـكُـو إلـيـكَ صـبـابـتـيِ فـلا أنـا أُبْـدِيـهـا، ولا أنـتَ تَـعـلَـمُ

١٤١ هجاء بمدح القِدر

يهجو الفضل الرقاشي:

أَطْرِفْ بِقِدْرِكَ لولا أنَّها غَبَرَتْ، وما تَطُورُ بِها نارٌ ولا دَسَمُ

ما أطرف (ما أجدّ/والطريف هو الجديد) قدرك، لولا أنها قديمة، ذلك أنها ما تطور (تقترب) منها نار ولا يقترب منها دسم. يقول: طنجرتك جديدة في شكلها مع أنها قديمة العهد، فهي لم تستعمل

كأنَّها البدرُ لولا خَالُ جبْهتِهِ، وما بِقِدْرِكَ لا خَالٌ ولا وَصَمُ

هي كالبدر إشراقاً ولمعاناً لولا خال (شامة سوداء) في جبهة البدر، فأما قدرك فلا خال فيها ولا وصم (أذى)

لو أنَّ عِرْضَكَ ذا في طُهْرِ قِدْرِكَ ما داناكَ في المجدِ لا كَعْبٌ ولا هَرِمُ

لو كان عرضك طاهراً كقدرك لما داناك (قاربك) كعب بن مامة ولا هرم بن سنان (وكعب هو الذي آثر صاحبه بآخر شربة ومات عطشاً، وهرم هو ممدوح زهير بن أبي سلمى)

١٤٢ مت بداء الصمت

خَلِّ جَنبَيْكَ لِرامِ وامضِ عنهُ بِسلامِ

اترك جسمك لمن يريد أن يرميه، ولا تعاد من عاداك

مُتْ بِداءِ الصمتِ، خيرٌ لَكَ من داءِ الكلامِ

ربَّما استفتَحْتَ بِالمز حِ مَغاليقَ الحِمَامِ

قد تفتح بالمزح أقفال الموت

إنما السَّالِمُ من ألْـ جَمَ فَاهُ بِلِجَامِ

فالبَسِ الناسَ على الصِّحَّـ ـةِ منهُمْ، والسَّقَامِ

البس الناس: خالطهم

شِبتَ يا هذا، وما تتْـ ـرُكُ أخلاقَ الغُلامِ

والمنايا آكلاتٌ، شاربَاتٌ للأنامِ

١٤٣ لو صُبَّت على الليل

اِسقِنا، إنَّ يومَنا يومُ رامِ ولِرامٍ فضْلٌ على الأيامِ

يوم رام: الحادي والعشرون من كل شهر، وكانت الفرس تجعله يوم سرور وشرب

مِنْ شَرابٍ أَلَذَّ من نَظَرِ الْمَعْـ ـشوقِ في وجهِ عاشقٍ بابتِسامِ

بَنْتُ عَشْرٍ صَفَتْ، ورَقَّتْ فلو صُبَّـ ـتْ على الليلِ راحَ كلُّ ظَلامِ

قد تريد أن تفعل فعل القدماء فتفهم: «صبت على الليل»، على أن الخمر صبت في الكؤوس «على الليل» أي «مع حضور الليل»، فـ «على» هنا بمعنى الباء (أي بالليل)، أو بمعنى في (في الليل/ كقوله على حين غفلة)، أو تعني المصاحبة (أي مع الليل/كقوله ويطعمون الطعام على حبه).
ولكننا نحس أن النواسي يريد أن يصب الخمر «فوق» الليل، فهذه وثبة خيال جامحة

١٤٤ أيها الشعراء

صِفَةُ الطُّلولِ بَلاغةُ الفَدْمِ فاجعلْ صِفاتِكَ لابْنَةِ الكَرْمِ

صفة (وصف) الطلول هي بلاغة الفدم (الأحمق)، فصف ابنة الكرم (الخمر). وكان الشعراء يعرضون بلاغتهم بوصف الطلول

لا تُخْدَعَنَّ عن التي جُعِلَتْ سُقْمَ الصحيحِ، وصِحَّةَ السُّقْمِ

لا تُخدَعنَّ: لا تكن منخدعاً

صَهباءُ فضَّلَها الملوكُ على نُظَرائِها بِفضيلَةِ القِدْمِ

صهباء: صفراء فاتحة اللون، وتفضلها الملوك للقِدْم (القِدَم). وهذه خمرة العنب التي تكون معتقة ولونها يميل للصفرة وهي أفضل من خمرة التمر التي حللها بعض الفقهاء

فَعَلامَ تَذْهَلُ عن مُشَعْشَعَةٍ، وتَهيمُ في طَلَلٍ، وفي رِسْمِ؟

تذهل عنها: تُغفلها، مشعشعة: التي تلمع بالمزج، رسم: طلل

تصِفُ الطُّلولَ على السَّماعِ بِها، أَفَذُو العِيانِ كأَنْتَ في العِلْمِ؟

أيها الشاعر الذي يصف الطلول تقليداً للشعراء القدامى،
وما رآها عياناً أأنت كمن عاين الشيء ووصفه

وإذا وصفْتَ الشيءَ متَّبِعاً، لم تَخْلُ من زَلَلٍ، ومن وَهْمِ

١٤٥ تأليب

يهجو إسماعيل بن صبيح كاتب الأمين (وكان أهله من موالي بني أمية):

ألا قُلْ لإسماعيلَ إنَّكَ شاربٌ بِكأسِ بني ماهانَ ضَرْبَةَ لازِمِ

بنو ماهان (لعل المقصود عيسى بن ماهان، وكان الرشيد عزله وحبسه غير أن الأمين أطلقه ورفعه لدن تسنمه الخلافة، ولعل القصيدة قيلت قبل تولي الأمين بقليل) ضربة لازم: بالتأكيد

أَتُسْمِنُ أولادَ الطَّرِيدِ ورَهْطَهُ، بِإهزَالِ آلِ اللَّهِ مِنْ نَسْلِ هاشِمِ

تعطي المال لكي يسمن أولاد الطريد
(مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وطورد بعد هزيمته بالعراق ثم قتِل في مصر)
ورهطه (قومه)، وذلك على حساب بني هاشم الذين هزلوا فقراً

وإن ذُكِرَ الجَعْدِيُّ أَذْرَيْتَ عَبْرَةً، وقلتَ أَدَالَ اللَّهُ مِنْ كلِّ ظالِمِ

الجعدي (مروان بن محمد، منسوباً إلى مؤدبه الجعد بن درهم وقد أعدم متهماً بالخروج عن الدين)، أدال الله: انتقم الله

فإنْ يَسْرِ إسماعيلُ في فَجَراتِهِ، فليس أميرُ المؤمنينَ بِنائِمِ

فإن مضى إسماعيل في فجراته (أفعاله الفاجرة) فالخليفة ليس نائماً عنه

١٤٦ ثم قصت قصة الأمم

يا شقيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمِ نِمْتَ عن ليْلي، ولم أَنَمِ

يا شقيق روحي من قبيلة حَكَم، قد نمت في هذا الليل الذي نصطحب فيه، وأنا صاح

نسبت القصيدة إلى والبة بن الحُباب، وقيل إن والبة يخاطب فيها أبا نواس
(وأبو نواس ينسب نفسه لقبيلة حكم اليمنية)

فاسْقني البِكْرَ التي اختمرتْ بِخِمَارِ الشَّيْبِ في الرَّحِمِ

اسقني الخمرة البكر (العذراء التي تم فض دنِّها الليلة) وكانت داخل الدن فكأنها كانت في رحم أمها، والدن وعاء كبير للخمر مطلي من الخارج بالقار الأسود، وكان الدن مكسواً بغبار أبيض
تفسير آخر: خمارها، أي غطاء رأسها، هو الشيب. يقصد الفقاقيع الفضية التي على وجه الكأس.
تفسير ثالث: دالية العنب تكون أوراقها مكسوة بزغب أبيض عندما تبدأ حبات العنب بالتكون، والعنب هو الخمر في رحم أمها

ثُمَّتَ انْصَاتَ الشَّبابُ لَها بعدما جَازَتْ مَدى الهَرَمِ

ثمت (بعدئذ) انصات (رجع) الشباب للخمرة عندما مزجت وأخرجت الفقاقيع بنشاط، وذلك بعد أن جازت (تجاوزت) مدى (غاية) الهرم (الشيخوخة)

فَهْيَ لِليومِ الذي بُزِلَتْ، وَهْيَ تِرْبُ الدَّهْرِ في القِدَمِ

فالخمرة يوم بزلت (ثُقب دنها كي تسيل) كانت تِرْبَ الدهر (من جيل الدهر.. عمرها كعمره)

عُتِّقَتْ حتى لو اتَّصَلَتْ بِلسانٍ ناطقٍ وفَمِ..

كانت قد عتقت، فلو اتصلت بلسان وفم (كان موصولاً بها لسان وفم)..

لاحْتَبَتْ في القومِ مائِلَةً ثمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ الأُمَمِ

لاحتبت (جلست القرفصاء وقد جمعت ركبتيها إلى ظهرها بشال) وسط القوم وقصت عليهم قصة الأمم الغابرة

قَرعَتْها بالْمِزاجِ يَدٌ خُلِقَتْ للسَّيْفِ والقلمِ

قرعتها (أصابتها) بالمزج يد رجل شجاع ومثقف

في نَدامَى سَادةٍ زُهُرٍ أَخَذوا اللَّذاتِ مِنْ أَمَمِ

يحدث هذا وسط ندامى من السادة الزهر (البيض، يعني ذوي الأصل الطيب)، الذين أخذوا اللذات من أمم (من أقرب سبيل)

فَتَمَشَّتْ في مفاصِلِهِمْ كَتَمَشِّي الْبُرْءِ في السَّقَمِ

فتغلغلت الخمرة في مفاصلهم مثلما يتسلل البرء (الشفاء) رويداً رويداً في السقم (المرض) فيحل محله

فَعلَتْ في البيتِ إذ مُزجتْ مثلَ فِعلِ الصبحِ في الظُّلَمِ

أضاءت المكان عندما مزجت بالماء وتلونت بألوان عدة

واهتَدى ساري الظلامِ بِها كاهتداءِ السَّفْرِ بِالعَلَمِ

السفر: المسافرون، العلم: الجبل يهتدي به المسافرون

١٤٧ خبير في الإسراف

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرْفِ، تَحسَبُ أنَّها حَديثةُ عهدٍ بالإفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ

يصف ساقية في حانة: تنقل طرفها (نظرها) من شخص إلى شخص ببطء (كذا يكون منتهى الدلال)، وكأنها قامت لتوها من مرض

تَفَوّقُ مالي مِنْ طَريفٍ وتَالِدٍ، تَفَوُّقِيَ الصَّهبَاءَ مِنْ حَلَبِ الكَرْمِ

تفوَّق مالي (تستنزفه) الطريف (المكتسب) والتالد (الموروث)، مثلما أتفوق أنا (أترشَّف) الخمر المحلوبة من كرم العنب

وإنِي لآتي الأمرَ مِنْ حيثُ يُتَّقَى، وتَعْلَمُ قَوْسِي، حينَ أَنْزِعُ، من أَرْمي

أنا آتي الأمر (أفعله) من حيث يتقى (يخشى الناس إتيانه)، وتعلم قوسي حين أنزع (حين أشد الوتر) أين هو الهدف

١٤٨ اعتذار عن هجاء

يعتذر لهاشم بن حديج الكندي وكان هجاه وهجا اليمن:

أهاشِمُ! خُذْ مِنّي رِضاكَ؛ وإنْ أتى رِضاكَ على نفسِي، فغيرُ مَلُومِ

خذ مني ما يرضيك، ولو أتى ذلك على نفسي (أهلكني) فلا لوم عليك

فَأُقْسِمُ ما جاوَزْتُ بالشَّتْمِ والِدي   وعِرضي، وما مَزَّقْتُ غيرَ أَدِيمي

فأنا شتمت نفسي بشتمك ومزقت أديمي (جلدي)

ولا كنتُ إلا كالَّذي كَشَفَ اسْتَهُ   بِمَرأى عُيونٍ مِنْ عِدىً وحَميمِ

فحين هجوتك كنت كمن كشف مؤخرته بمرأى من العدو والحميم (الصديق)، وفضح نفسه

فَعُذْتُ بِحِقْوَيِ هاشِمٍ، فأَجارَني،   كَريمٌ أراهُ فوقَ كلِّ كَريمِ

عذت بحقوي هاشم (لجأت إلى جَنْبَيْ هاشم) فحماني من انتقام قومه

وإن امْرَأً أغْضَى على مثلِ زَلّتي،   وإن جَرَحَتْ فيه، لَجِدُّ حَليمِ

١٤٩ بنينا على كسرى سماء مدامة

يمدح الفضل بن الربيع:

لِمَنْ دِمَنٌ تَزدادُ حُسْنَ رُسومِ   على طولِ ما أَقْوَتْ، وطيبَ نَسيمِ

لمن هذه الأطلال التي تزداد رسومها (خرائبها) حسناً رغم طول إقوائها (خلوها من السكان)

وكأسٍ كَعَينِ الدِّيكِ باتَتْ تَعُلُّني   على وجهِ معبودِ الجمالِ، رَخيمِ

رب كأس صافية مثل عين الديك باتت تسقيني الخمر وأنا أنظر إلى وجه رخيم (ناعم) لشخص جماله معبود

إذا قلتُ عَلِّلْني بِريقِكَ أَقبَلَتْ   مَراشِفُهُ، حتى يُصِبْنَ صَميمي

عللني: اسقني، مراشفه: شفتاه، صميمي: قلبي

بَنَيْنا على كِسرى سَماءَ مُدامَةٍ،   مُكَلَّلَةً حَافاتُها بِنُجومِ

الكأس مرسوم عليها صورة لكسرى، وقد بنينا فوقه سماء من الخمر (أي ملأنا الكأس) وحافات هذه السماء مكللة بالنجوم وهي الفقاقيع

فلو رُدَّ في كِسرى بنِ ساسَانَ روُحُهُ   إذنْ لاصْطَفاني دونَ كلِّ نَديمِ

١٥٠ القانص واليؤيؤ

قد أَغْتَدِي، والصبحُ في مُكْتَمِّهِ

أغتدي: انطلق باكراً، مكتمه: ظلمته

بِيُؤْيُؤٍ أَسْفَعَ يُدْعَى باسْمِهِ

يؤيؤ: طائر جارح يُتَّخذُ للصيد، أسفع: مسودّ اللون، وهو ذكي وينادى باسمه فيجيب

مَـــقُـــابَـــلٍ مِـــنْ خَـــالِـــهِ وعَـــمِّـــهِ

مقابَل: كريم النسب من جهتيه

وقَـــانِـــصٍ أَحْـــفَـــى بـــهِ مِـــنْ أُمِّـــهِ

قانص: صائد، أحفى به من أمه: أكثر اهتماماً باليؤيؤ من أم اليؤيؤ

لـــو يَـــســـتـــطـــيـــعُ قَـــاتَـــهُ بِـــلَـــحْـــمِـــهِ

لو استطاع أطعمه من لحم بدنه لشدة تعلقه به

يَـــقـــيـــهِ مـــن بَـــرْدِ الـــنَّـــدى بِـــكُـــمِّـــهِ
تَـــوْقِـــيَـــةَ الأُمِّ ابـــنَـــهـــا فـــي ضَـــمِّـــهِ

١٥١ الماء والخضرة والوجه الحسن وشيء رابع

أربـــعـــةٌ يَـــحـــيَـــا بِـــهـــا قـــلـــبٌ، وروحٌ، وبَـــدَنْ
الـــمـــاءُ، والـــبُـــســـتـــانَ، والـــخـــمـــرةُ، والـــوجـــهُ الـــحَـــسَـــنْ

١٥٢ رفض الصلح

دَسَّتْ له طيفَها كيْما تُصالِحَهُ، في النومِ حينَ تَأَبّى الصُّلحَ يَقظانا

رآها في المنام.. جاءت تصالحه

فلم يَجِدْ عند طَيْفي طيْفُها فَرَجاً، ولا رَثَـى لِـتَـشَـكِّـيـهِ، ولا لانَـا
حَسِبْتِ أن خيَالِي لا يكونُ، لِمَا أكونُ من أجلِهِ غضْبانَ، غضبانَا

هل ظننت أن خيالي، عقلي الباطن الذي يتجلى وأنا نائم، لا يغضب لغضب عقلي الواعي؟

جَنانُ لا تسألِيني الصلحَ مُسرعةً، فلم يكنْ هيِّناً منكِ الذي كانا

١٥٣ ربما تصدق الأحلام

إذا الـتَـقَـى فـي الـنـومِ طَـيْـفـانـا عـادَ لـنـا الـوَصْـلُ كـمـا كـانـا
يـا قُـرَّةَ الـعـيـنـيـنِ، مـا بَـالُـنـا نَـشـقَـى، ويـلـتَـذُّ خَـيـالانَـا؟
لو شئتِ، إذْ أحسنَتِ لي نائماً، أتْـمَـمْـتِ إحـسـانَـكِ يَـقـظـانـا
يا عاشِقَيْنِ اصطَلَحا في الكَرى، وأَصـبَـحـا غـضـبَـى وغـضـبـانـا
كَـــذلِـــكَ الأحـــلامُ غَـــرَّارَةٌ، وربـــمـــا تَـــصْـــدُقُ أحـــيَـــانـــا

١٥٤ سكراً أو صحواً، لكن لا بد!

وغـزالٍ عـاطَـيْـتُـهُ الـراحَ حـتـى فَـتَّـرتْ مـنـهُ مُـقـلَـةً ولِـسـانـا

عاطيته: ناولته، فتَّرت: أدخلت الفتور على العينين واللسان

قـال لا تُـسْـكِـرَنَّـنـي، بِـحَـيـاتـي! قـلـتُ: لا بـدَّ أن تُـرَى سَـكـرانـا

إن لـي حَـاجَـةً إلـيْـكَ، إذا نِـمْـ ـتَ، فإنْ شئتَ فاقْضِها، يَقظانا

فـتَـلَـكَّـا تَـلَـكُّـؤاً فـي انـخِـنَـاثٍ، ثـمَّ أصـغَـى لـمـا أردْتُ، فَـكَـانـا

١٥٥ الممتطي نعله

يمدح الفضل بن يحيى البرمكي:

أطالَ قصيرُ الليلِ، يا رَحْمَ، عندكُمْ؟ فإنَّ قـصيرَ الـليـلِ قد طـالَ عـنـدنَا

رحم: هو صديقه رحمة بن نجاح

ومـا يَـعرفُ الـليـلَ الـطويـلَ وغـمَّـهُ من الـنـاس، إلّا مـن تَـنَـجَّـمَ، أو أَنـا

تنجم: احترف التنجيم

خَلِيُّونَ من أَوْجَـاعِـنـا يَـعـذِلُـونَـنـا، يقـولـونَ لِـمْ تَـهْـوَوْنَ؟ قلـنَـا لِـذَنْـبِـنـا

يَقومونَ في الأَقْوامِ يَحْكُونَ فِعلَنا سَـفَـاهَـةَ أَحـلامٍ، وسُـخْـرِيَـةً بِـنـا

أولئك العذال يقفون وسط الناس يقلدوننا في حركاتنا سخرية منا

فلـو شـاءَ ربِّي لابْتَلاهُـمْ بِمَا بِه ابْـ ـتَـلانـا فـكَـانـوا لا عـلـيْـنـا ولا لَـنـا

لو شاء الله لابتلاهم بالعشق فكفوا أذاهم عنا

سَأشكُو إلى الفضلِ بنِ يحيىَ بنِ خالِدٍ هـواكَ، لـعـلَّ الـفـضـلَ يـجـمعُ بيْـنَـنـا

وقالوا إن الفضل عندما سمع هذا البيت قال لأبي نواس: ما زدت على أن جعلتني قواداً

إليكَ، أبا العباسِ، مِنْ دونِ مَنْ مَشَى عليْها، امْتَطَيْنا الحَضْرَمِيَّ الْمُلَسَّنا

دون كل الناس الذين يمشون في الأرض أتيناك وقد امتطينا الحضرمي الملسنا (النعل الحضرمي ذا الزائدة الملتوية إلى أعلى في مقدمه). يشكو أنه لا يملك راحلة أو بغلاً ويمتطي نعله أي يأتي ماشياً

قَلائِصَ لم تُسْقِطْ جنيناً مِنَ الوَجَى، ولـم تَدْرِ ما قَرْعُ الفَنِيقِ ولا الْهَنا

هذه النعال هي قلائص (إبل) لا تسقط حملها لأن السير أجهدها ولحق بها الوجى (الحفا/أي حفيت خفافها)، ولا هي تعرف قرع الفنيق (تلقيح الفحل لها)، ولا تعرف الهناء (أي القطران الذي تطلى الإبل به من الجرب)

١٥٦ شراب الطالحين

يـا ابـنـةَ الـشـيـخِ اصبَحـيِـنـا　　مـا الـذي تـنـتَـظِـريـنـا؟

اصبحينا: اسقينا خمرة الصباح

قـد جـرى فـي عـودِكِ الـمـا　　ءُ فَـأَجْـرِي الـخـمـرَ فـيـنـا

جرى في عودك الماء: أنتِ في ريعان الشباب

إنـمـا نـشـربُ مـنـهـا،　　فـاعْـلـمـي ذاكَ يَـقـيـنـا،

كـلَّ مـا كـانَ خِـلافـاً　　لِـشَـرابِ الـصَّـالِـحِـيـنـا

نشرب الخمر المحرمة لا شراب الصالحين (وكان بعض الصالحين يحلل شرب نبيذ التمر زاعماً حله)

واصْـرِفـيِـهـا عـن بَـخـيـلٍ،　　دانَ بـالإمـسـاكِ ديـنـا

١٥٧ ذاك عيش!

غَنِّنَا بـالـطُّلُولِ كـيـفَ بَلِيـنـا　　واسْقِـنـا نُعْطِكَ الثَّـنـاءَ الثَّمينا

غننا بشعر فيه ذكر الطلول وكيف بليت (خربت)

مِـنْ سُـلافٍ كـأنـهـا كـلُّ شـيءٍ،　　يـتـمـنَّـى مُـخَـيَّـرٌ أن يَـكـونـا

أكَلَ الـدَّهـرُ مـا تَـجَـسَّـمَ مـنـهـا،　　وتَـبَـقَّـى لُـبَـابَـهـا الْـمَـكْـنـونـا

تبقّى: أبقى

فـإذا مـا اجْـتَـلَـيْـتَـهـا، فَـهَـبَـاءٌ　　يَـمْـنَـعُ الـكـفَّ مـا يُـبـيـحُ الـعُـيـونـا

اجتليتها: نظرت إليها

ثـم شُـجَّـتْ، فـاسْـتَـضْـحَـكَـتْ عن لآلٍ　　لـو تَـجَـمَّـعْـنَ فـي يَـدٍ لاقْـتُـنـيـنـا

شجت: ضربت في رأسها، أي مزجت بالماء فتلونت بالحمرة، فضحكت الخمرة في كأسها مبدية أسنانها. وهذه ما هي إلا فقاقيعها الفضية التي هي مثل اللآلئ تماماً، ولو كانت تثبت في اليد لاقتناها الناس

فـي كُـؤوسٍ كـأنَّـهُـنَّ نُـجُـومٌ　　جَـارِيـاتٌ، بُـروجُـهـا أَيْـدِيـنـا

الكؤوس كأنها نجوم السماء التي تدور في مداراتها، وما بروجها (مواقعها السماوية) سوى أيدي الشاربين

طـالـعـاتٌ مـعَ الـسُّـقَـاةِ عـلـيْـنـا،　　فـإذا مـا غَـرَبْـنَ يَـغْـرُبْـنَ فـيـنـا

تطلع هذه النجوم مع بروز السقاة، وعندما تغرب فهي تغرب فينا إذ نبتلع ما فيها من خمر

لو تَرَى الشَّرْبَ حولَها مِنْ بعيدٍ، قلتَ قومٌ، مِنْ قِرَّةٍ، يَصْطَلُونا
الشرب: الشاربون، من قرة: من بَرْد، يصطلون: يتدفَّأون

وغزالٍ يديرُها ببَنانٍ ناعِماتٍ يَزيدُها الغَمْزُ لِينا
الساقي يدير كؤوس الخمر علينا بأصابع ناعمة يزيدها الغمز (عبثنا ولمساتنا) ليناً

كلَّما شِئْتُ عَلَّني بِرُضَابٍ، يَتركُ القلبَ للسرورِ خَدِينا
علني: سقاني، خديناً: خليلاً مصاحباً

ذاكَ عَيْشٌ لو دامَ لي؛ غيرَ أنّي عِفْتُهُ مُكْرَهاً، وخِفْتُ الأَمِينا
ذاك عيش (عيش جميل) لو كان دام، لكنني عفته (تركته) مضطراً خوفاً من الخليفة الأمين
(وكان نهاه عن الشرب في الحانات)

١٥٨ اعتذار للرشيد

كتب للرشيد من حبسه:

بِعَفوِكَ، بل بِجُودِكَ عُذْتُ، لا، بل بِفضْلِكَ، يا أميرَ المؤمنينا
فلا يَتَعَذَّرَنَّ عليَّ عَفْوٌ، وَسِعْتَ به جميعَ العَالَمِينا
فإنّي لم أَخُنْكَ بِظهرِ غَيْبٍ، ولا حَدَّثْتُ نفسي أنْ أَخُونَا
لقد أَرْهَبْتَ أهلَ الشِّرْكِ حتى تركتَهُمُ، وما يَتَرَمْرَمُونا
يترمرمون: يفتحون أفواههم بأي كلام

تَزُورُهُمُ بنفسِكَ، كلَّ عامٍ، زيارةَ وَاصِلٍ لِلْقاطِعينا
كان الرشيد يغزوهم بانتظام وكأنه يقضي حق الزيارة لمن قاطعوه فلا يزورونه

ولو شئتَ اكتَنَنْتَ إلى نعيمٍ، وقاسَى الأمرَ، دونَكَ، آخَرُونا
اكتننت: ركنت واسترحت

١٥٩ غزو وحج

يمدح الرشيد:

مَلِكٌ تَصَوَّرَ في القلوبِ مِثالُه، فكأنَّما لم يَخْلُ منه مَكانُ
ما تَنْطَوِي عنه القلوبُ بِفَجْرَةٍ، إلّا يُكَلِّمُهُ بها اللَّحَظَانُ
لا يخفي عنه أحد فجرة (خيانة) إلا اكتشفها من اللحظان (حركة العينين)

فـي كـلِّ عـامٍ غَـزْوَةٌ ووِفَـادَةٌ، تَـنْبَـتُّ، بيـنَ نَـواهُـمـا، الأَقْـرَانُ

في كل عامٍ غزوة ووفادة (حجة) وبين نواهما (المسافة بينهما) تنبتُّ (تتقطع) الأقران (الحبال)

١٦٠ إغواء

وذي حَلِفٍ بالرَّاحِ قلتُ له: اصْطَبِحْ، فـليسَ عـلـى أمثالِ تـلـكَ يَـمـيـنُ

رجل حلف ألا يشربها، ويدعوه إلى الاصطباح (شرب الصباح)
لأن القسم ساقط عن مثل هذا الأمر

شَمولاً، تخطَّتْها الْمَنوُنُ، فقد أتَتْ سِـنُـونٌ لـهـا فـي دَنِّـهـا، وسِـنُـونُ

اشربها شمولاً (باردة)، هرمت ولكن الموت لم يصبها

تُـرَاثُ أُنـاسٍ عـن أُنـاسٍ تُـخُـرِّمُـوا، تَـوارَثَـهـا بـعـدَ الـبَـنـيـنَ بَـنـونُ

هي موروثة عن أناس تخرموا (ماتوا)

فَغادَرَ منها الغابِرونَ حُشاشَةً، لـهـا هَـيَـجـانٌ، مَـرَّةً، وسُـكُـونُ

ترك لنا الغابرون (الماضون) حشاشة (بقية الروح)، وهي تهيج مرة وتسكن مرة إذ تسكب في كأسها

كـأنَّ سُـطـوراً فـوقَـهـا حِـمْـيَـرِيَّـةً، تـكـادُ وإنْ طـالَ الـزمـانُ، تَـبـيِـنُ

كأن ما ترسمه من فقاقيع سطور بالخط الحميري (ولم يكن العرب في عصر أبي نواس يفكونه)،
يكاد المرء رغم طول عهدها يتبين ما فيها من كلمات

فلمَّا رأى نَعتي ارعوىَ، واستَعادَني، فـقـلـتُ خَـلـيـلٌ عَـزَّ ثـمَّ يَـهُـونُ

ارعوى: تراجع عن يمينه، وطلب مني أن أكرر الوصف، فقلت في نفسي إنه صديق عز (تمنع) ثم
ها هو يهون (يصبح سلساً)

فَـصَـدَّقَ ظـنِّـي، صَـدَّقَ الـلَّـهُ ظَـنَّـهُ إذا ظَـنَّ خَـيْـراً، والـظُّـنُـونُ فُـنـونُ

وبالفعل صدق ظني، وما كل ظن يصدق فالظنون فنون وأشكال

١٦١ فخرُك نخلة وفخري سيف

قال وقد عابه ناس بالبصرة بعد أن خرج منها:

ألا كُـلُّ بَـصْـرِيٍّ يَـرى أَنَّـمـا الـعُـلَـى مُـكَـمَّـمَـةٌ سُـحْـقٌ لَـهُـنَّ جَـرِيـنُ

كل بصري يرى أن المجد هو في أشجار النخل المكممة (التي غطيت قطوفها) السحق (العالية)
التي لها جرين (بيدر لجمع المحصول)

فإنْ تَغرِسُوا نَخلاً، فإنَّ غِراسَنا ضِرَابٌ وطَعْنٌ في النُّحورِ سَخِينُ

نحن نغرس الضرب السخين (الموجع) بالسيوف والطعن بالرماح في النحور

وإنْ أَكُ بَصْرِيّاً، فإنَّ مُهَاجَرِي دِمَشْقُ، ولكنَّ الحديثَ شُجونُ

المهاجَر: موضع الهجرة الأصلي (وكان والد أبي نواس من جند آخر خلفاء بني أمية)

١٦٢ افتراء على زميل

يهجو الشاعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي:

جالَسْتُ يوماً أبَاناً، لا دَرَّ دَرُّ أَبَانِ

فقلتُ: سبحانَ ربي، فقال: سبحانَ ماني

ماني: نبي قال بإله للخير وإله للشر، وكان أتباعه ملاحقين عصرئذ

فقلتُ: موسى نَجِيُّ الـ ـمُهَيْمِنِ الْمَنَّانِ

النبي موسى نجي الله (الذي ناجاه الله وكلمه)

فقالَ: ربُّكَ ذو مُقْـ ـلَةٍ إذنْ، ولِسانِ!

وقمتُ أسحَبُ ذَيْلِي، عن هَازِلٍ بالقُرَانِ

القران: القرآن

عن كافِرٍ يَتَمَرَّى بِالكُفْرِ بالرَّحْمَنِ

يتمرى: يتجمل ويفتخر

يُريدُ أن يَتَساوَى بِالعُصْبَةِ الْمُجَّانِ

يكفر أبان متشبهاً بالماجنين

١٦٣ مجرد سؤال

أَسأَلُ القادِمِينَ مِنْ حَكَمانِ كيفَ خَلَّفْتُمُ أبا عثمانِ

حكمان: موضع بالبصرة. أبو عثمان: أخو مولى جنان محبوبة الشاعر، وصاحب رقها

وأبَا مَيَّةَ المهَذَّبَ والمأْ مُولَ والْمُرتَجَى لِرَيْبِ الزمانِ؟

أبو مية: مولى جنان

فيقُولونَ لِي: جَنانُ كمَا سَرَّ كَ مِنْ حالِها، فَسَلْ عن جَنَانِ

أسألهم عن ذينك الرجلين فيجيبون عن جنان لأنهم يعرفون أنها هي فقط من يهمني

ما لَهُمْ، لا يُبَارِكِ اللَّهُ فِيهِمْ، كيفَ لم يُغْنِ عندَهُمْ كِتماني؟
صرتُ كالتِّينِ يَشْرَبُ الماءَ، فيما قالَ كِسرى، بِعِلَّةِ الرَّيْحانِ

شجرة التين تقول لهم: اسقوا نبتات الريحان القريبة، وهي تريد أن تشرب الماء، فهي تشربه بعلة الريحان. ويزعم أبو نواس أن هذا المثل قاله كسرى. وأبو نواس يتحجج بالسؤال عن أبي عثمان لكي يجرهم إلى الحديث عن جنان

أو كما قيلَ قبلُ إِيَّاكِ أَعني فاسمَعُوا، يَا مَعاشِرَ الجيرانِ!

١٦٤ سماء تمطر ذهباً

يمدح الخصيب عامل خراج مصر للرشيد:

ذَكَرَ الكَرْخَ نازِحُ الأوطانِ فبَكَى صَبْوَةً، ولاتَ أَوَانِ

النازح عن وطنه ذكر الكرخ (موضع ببغداد)، فبكى صبوة (اشتياقاً)، وقد فات أوان ذلك العهد الطيب

ليس لي مُسْعِدٌ بِمِصْرَ على الشَّوْ قِ إلى أَوْجُهٍ هناكَ حِسَانِ

مسعد: مساعد يخفف عني

نَازلاتٍ من الصَّرَاةِ فَكَرْخَا يَا إلى الشَّطِّ ذي القُصورِ الدَّوَاني

يذكر مسير النسوة على ضفاف نهري الصراة وكرخايا في بغداد

إذ لِبابِ الأميرِ صَدْرُ نَهاري، ورَوَاحي إلى بُيوتِ القِيَانِ
يا ابْنَتي أَبْشِري بِميرَةِ مِصْرٍ، وتَمَنَّيْ، وأَسْرِفي في الأماني

ذكروا لأبي نواس أبناء، ولكنه هنا يوجه الخطاب إلى ابنة مجازية جرياً على عادة الشعراء في طمأنة عيالهم إلى أنهم سينالون الخير العميم من الممدوح ليعودوا به لأسرهم

أنا في ذِمَّةِ الخَصيبِ مُقيمٌ، حيث لا تهتَدي صُروفُ الزمانِ
كيف أخشَى عليَّ غَوْلَ اللَّيالي، ومكاني مِنَ الخَصِيبِ مَكاني
كلَّ يَوْمٍ عليَّ منهُ سَماءٌ ثَرَّةٌ، تَسْتَهِلُّ بِالعِقْيَانِ

ثرة: غزيرة، تستهل: تمطر، العقيان: الذهب

١٦٥ أراه ولا يراني

يمدح محمد بن الفضل بن الربيع:

أخذْتُ بِحَبْلٍ من حِبالِ محمدٍ أَمِنْتُ به مِنْ نَائِبِ الحَدَثَانِ

اتصلت بمحمد فكان لي أماناً من مصائب الزمن

تَغَطَّيْتُ مِنْ دهرِي بِظِلِّ جناحِه، فعيْنِي تَرى دهرِي، وليس يَراني
فلو تُسأَلُ الأيامُ ما اسْمِي لَمَا دَرَتْ، وأَيـنَ مكانِي، ما عَرَفْنَ مَكاني

١٦٦ فرد في الحسن

يــا ظــبــيَ آلِ سِــنــانِ وزيــنَ صَــفِّ الــقِــيــانِ

كان أبو نواس عند محمد بن سنان، فأخرج لصحبه قيانه يغنين، وجلس بينهن ولد لصاحب البيت جميل الطلعة، ففَتن أبا نواس

خُـلِـقْـتَ فـي الـحسـنِ فَـرْداً، فـمـا لِـحُـسْـنِـكَ ثَـانِ
كـأنـمـا أنـتَ شـيءٌ حَـوى جـمـيـعَ الـمـعـانـي
لَـيَـنْـعَـتَـنَّـكَ وَهـمِـي، إذْ كَـلَّ عـنـكَ لِـسـانـي
عَـلِـقْـتُ مَـنْ جَـلَّ عَـنِّـي وشَـأْنُـهُ غـيـرُ شَـانـي
مَـنْ لـيـس يَـطـمَـعُ فـيـهِ إلَّا فـلانُ الـفُـلانـي

١٦٧ فوق المدح

قال يمدح الأمين:

إذا نحنُ أَثْنَيْنا عليكَ بِصالِحٍ، فأنتَ كما نُثني، وفوقَ الذي نُثني
وإنْ جَرَتِ الألفاظُ يوماً بِمِدْحَةٍ، لِغَيْرِكَ إنساناً، فأنتَ الذي نَعْني

١٦٨ شبعت مني المعاصي

أَيَـا مَـنْ بـيـنَ بَـاطِـيَـةٍ وزِقٍّ وعُـودٍ فـي يَـدَيْ غَـاوٍ يُـغَـنِّـي

يا من يجلس بين باطية (قنينة خمر) وزق (قربة كبيرة تنقل فيها الخمر)

إذا لم تَنْهَ نفسَكَ عن هَواها، وتُحْسِنْ صَوْنَها فإليْكَ عنِّي

إليك عني: ابتعد

فإنِّي قد شَبِعْتُ مِنَ الْمَعاصِي، ومِنْ لَذَّاتِها، وشَبِعْنَ مِنِّي
ومَنْ أَسْوَا، وأَقْبَحُ مِنْ لَبيبٍ يُرَى مُتَطَرِّباً في مِثلِ سِنِّي؟

١٦٩ منتهى المجون

يـا سـلـيـمـانُ غَـنِّـنِـي، ومِـنَ الـراحِ فـاسـقِـنـي!

فـــإذا دارَتِ الــــزُّجَـــا جــةُ خُــذْهَــا، وأَعْــطِـــنـــي
عَـــاطِــنـــي كَـــأسَ سَــلْـــوَةٍ عـــــن أَذَانِ الــــمــــــؤَذِّنِ

ناولني كأساً أسلو بها، أي أنسى، الأذان

إسْـقِـنــي الــخــمــرَ جَـهْـرَةً وأَلِــطْــنـــي، وأَزْنِـــنـــي

١٧٠ خمرة في رقة ديني

إسـقِـنــي يــا ابــنَ أَذِيــنِ مِـــنْ سُـــلافِ الـــزَّرَجُـــونِ

ابن أذين: اسم الخمار، الزرجون: الكرْم

عُــتِّـقَــتْ فـي الــدَّنِّ حـتـى هِـــيَ فــي رِقَّــةِ دِيــنـــي

يصفون الخمر بأنها تصبح رقيقة وشفافة بعد تعتيقها، فهي في رقة دينه، ويصفون دين الماجن بأنه رقيق

ثـــم شُــجَّــتْ، فَـــأَدَارَتْ حَــولَــهــا مِــثْــلَ الــعُــيــونِ

مزجت فأخذت الفقاقيع تدور حولها كأنها العيون

حَـــدَقـــاً تَــرنُــو إلــيْــنــا، لــم تُــحَــجَّــرْ بِـــجُــفــونِ

هذه عيون تنظر إلينا لكن لا تحيط بها محاجر أو جفون

بِـــيَـــدَيْ ســاقٍ عــلــيــهِ حِــلْــيَــةٌ مــن يَــاسَــمِــيــنِ
وعــلــى الأُذْنَــيْــنِ مــنــهُ وَرْدَتَـــــا آذَرْيُـــــــونِ
غَــايَــةٌ فــي الــشَّــكْــلِ والــظَّــرْ فِ، وفَـــرْدٌ فــي الْــمُــجُــونِ

١٧١ خمرة وساق

وبِـكْـرِ سُـلافَـةٍ فـي قَـعْـرِ دَنٍّ، لَــهــا دِرْعَــانِ مِــنْ قَــارٍ وطـيـنِ

سلافة (خمرة جيدة) بكر (لم يثقب دنها من قبل) في قعر الدن (فمع القدم نقص حجمها) وهي تلبس درعين (قميصين) واحد من الطين (الفخار) وواحد من القار (الزفت)

تَحَكَّمَ علجُها، إذ قلتُ سُمْني، على غيْرِ البخيلِ، ولا الضَّنينِ

تحكم العلج (الخمار الأعجمي) عندما قلت له سمني (قدر علي الثمن)، وإنما تحكمه على رجل غير بخيل ولا ضنين بماله هو أنا

شَكَكْتُ بُزَالَها، والليلُ دَاجٍ، فَـدَرَّتْ دِرَّةَ الـوَدَجِ الـطَّـعِـيـنِ

ثقبتها من البُزال (موضع ثقب الدن) في ظلام الليل، فدرت (حلبت) كما ينزف الودج (أحد عرقين في العنق) الطعين (المطعون)

بِكَفِّ أَغَنَّ، مَخْتَضِبٍ بَنَاناً،   مُذَالِ الصُّدْغِ، مَضْفُورِ القُرونِ

سالت الخمر بكف غلام ساق ذو غنة في صوته، ومخضوب البنان بالحناء، وصدغه مذال أي له سالفان مسترسلان، وشعره مضفور القرون (الخصلات)

لنا منهُ بِعَيْنَيْهِ عِدَاتٌ،   يُخَاطِبُنا بِها كَسْرُ الْجُفُونِ

عدات: وعود

١٧٢ إهانتها إكرام لها

أَلَا دَارِها بِالماءِ، حتى تُلِينَها   فلن تُكْرِمَ الصَّهْباءَ حتى تُهِينَها

أُغَالِي بِها، حتى إذا ما ملكتُها،   أهنتُ لإكْرَامِ النديمِ مَصونَها

وصَفراءَ قبلَ الْمَزْجِ، بيضاءَ بعدَه،   كأنَّ شُعاعَ الشمسِ يَلقاكَ دونَها

وشمطاءَ حلَّ الدهرُ عنها بِنَجْوَةٍ   دَلَفْتُ إليْها، فاسْتَلَلْتُ جَنينَها

شمطاء (اختلط بياضها بسواد)، ههنا يصف خابية الخمر (الوعاء الكبير) فقد علا سواد قارها غبار أبيض، وقد ابتعدت عن يد الدهر فنجت منه، وقد دلف (دخل رويداً) أبو نواس فاستل جنين الخابية وهو الخمرة

١٧٣ فارسها وصريعها

يا ليلةً بِتُّها أُسَقَّاها   أَلْهَجَني طِيبُها بِذِكْرَاها

ألهجني (جعلني أكرر ذكرها)

نَغْلِبُها أَوَّلاً، وتغلِبُنا،   فنحنُ فُرسانُها، وصَرعَاها

تَلتَهِبُ الكَفُّ مِنْ تَلَهُّبِها،   وتَحْسُرُ العينُ أنْ تَقَصَّاها

تصطبغ كف شارب الخمر بلونها وهي في الكأس الشفافة، ولكن العين تحسر (تعجز) عن تأمل تفاصيلها لتلألؤها

كانَ لَهَا الدَّهْرُ مِنْ أَبٍ خَلَفاً،   في حِجْرِهِ صانَها، وربَّاها

خمرة قديمة جداً فليس لها أب، أبوها هو الزمن نفسه

١٧٤ خوف وخوف وأمان

قال للأمين وقد حبسه:

قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أَمَّنَني   من أنْ أخافَكَ خَوْفُكَ اللَّهَ

١٧٥ جلد على عظم ويتيه

لا تَفْرُغُ النفسُ مِنْ شُغْلٍ بِدُنيَاها رأيتُها لم يَنلْها مَنْ تَمَنَّاها
حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ لا يَعْلَقْكَ مِيسَمُهُ، فإنَّه مَلْبَسٌ نَازَعْتَهُ اللَّهَ

الكبر: التكبر، ميسمه: طابعه، والله وحده المتكبر، وهذا من أسمائه الحسنى

يا بُؤْسَ جِلْدٍ على عَظْمٍ مُخَرَّقَةٍ فيهِ الخُروقُ، إذا كَلَّمْتَهُ تَاها

يا لبؤس الإنسان وهو مجرد جلد علّى عظم وفيه خروق للعينين والأذنين، وإذا كلمه أحد تاه (استكبر)

يَرى عليكَ له فضلاً يَبِينُ به، إن نالَ في العاجلِ السُّلْطانَ والجَاهَا

يظن أن له الفضل عليك (أي هو أفضل منك) ويبين بهذا الفضل المزعوم (يجعل بينه وبينك بوناً) إن نال في العاجل (الدنيا) سلطاناً وجاهاً

مُثْنٍ على نفسِهِ، راضٍ بِسيرَتِها، كَذَبْتَ، يا خَادِمَ الدنيا ومَوْلاهَا

١٧٦ ليت الأرض تبتلعه

مُتَتَايِهٌ بِجَمالِهِ صَلِفٌ، لا يُسْتَطَاعُ كلامُهُ تِيهَا

متتايه (متكبر) صلف (متكبر)

للحُسْنِ في وَجَنَاتِه بِدَعٌ، ما إن يَمَلُّ الدَّرْسَ قَارِيهَا

ينظرون في وجهه بتفحص ودرس وتكرار ويقرأون آيات الجمال

لو تستطيعُ الأرضُ لانقَبَضَتْ حتّى يَكونَ جَمِيعُهُ فِيهَا

أمنية غريبة للأرض أن تبتلعه لكي تحتوي كل جماله، لعل هذه أمنية دفينة في نفس الشاعر أن يموت هذا الشخص الجميل لكي يتخلص الشاعر من توتره بالنظر إلى جماله البعيد المنال

١٧٧ نعصي الله ونطيعك أنت!

أيُّها العاتبُ في الخمـ ـرِ متى صرتَ فقِيهَا
لو أطَعْنا ذا عتابٍ لأطَعْنا اللَّهَ فيها

١٧٨ رقيقة الحاشية

لأَعْطِفَنَّ إلى الصَّهْباءِ عن دِمَنٍ، لم يبقَ مِنْ عهدِها إلا أثَافيها

لأعطفن (لأميلنَّ) ولأذهبنَّ إلى الصهباء (الخمر) كي أصفها مبتعداً عن وصف الدمن (الطلول) التي لم يبق من عهدها القديم سوى أثافيها (حجارة الموقد)

مَوصُوفَةٍ بِفُنونِ الطِّيبِ طَالَ لها عُمْرٌ، فلم تَعْدُ أَنْ رَقَّتْ حَواشِيها

الخمر موصوفة بفنون الطيب (أنواع شتى من الطيب من رائحة ومذاق) وقد طال عمرها ولكن هذا لم يفسدها بل رقق حواشيها (رقة الحاشية/أي الجنب كناية عن اللطف في الإنسان)

١٧٩ عديم المثال

لو صَحَّ عقلِي قَلَّ أَشْباهي أَجَلْ، ولَمْ أَلْهُ مَعَ اللَّاهِي

لو تعقلت لكنت عبقرياً لا شبيه له، ولما لهوت من اللاهين

لا تَتَناهَى النفسُ عن غَيِّها ما لم يكن منها لَهَا نَاهِ

لِلَّهِ دَرُّ الموتِ مِنْ خُطَّةٍ فيها اسْتَوى الأَحمَقُ والدَّاهي

إنَّا لَنَنْسَاهَا وقَدْ مُرِّنَتْ مِنَّا بِأَسْمَاعٍ وأَفْوَاهِ

ننسى خطة الموت (تدبيره) مع أنها ـ ولأنها ـ مرنت (كُرِّرت) على أسماعنا وفي أفواهنا

١٨٠ العاشق فاضح نفسه

ما رَأَيْنَا مَنْ قَلبُه في يَدَيْهِ لا، ولا عاشقاً هَواهُ إِلَيْهِ

مَرَّةً عاشقاً، وأخرى خَلِيَّاً، مُظْهِراً غيرَ ما الضَّميرُ عَلَيْهِ

ليس هناك عاشق يستطيع أن يخفي ما به من عشق

١٨١ التوبة

دَبَّ فِيَّ الفَناءُ سُفْلاً وعُلْوَا وأَرَانيِ أَمُوتُ عُضْواً، فَعُضْوَا

ليس مِنْ سَاعَةٍ مضتْ ليَ إِلَّا نَقَصَتْنِي بِمَرِّهَا بيَ جُزْوَا

جزواً: جزءاً

ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِطاعَةِ نَفسِي، وتذَكَّرْتُ طاعةَ اللَّهِ نِضْوَا

ذهب شبابي في طاعة شهواتي، وتذكرت طاعة الله مهزولاً مسنّاً

لَهْفَ نفسِي على لَيالٍ وأَيَّا مٍ تَمَلَّيْتُهُنَّ لَعْباً ولَهْوَا

تمليتهن: تماديت فيهن

قد أَسَأْنَا كُلَّ الإسَاءَةِ فَاللَّـ ـهُمَّ صَفْحاً عنَّا، وغَفْراً وعَفْوَا

١٨٢ ذل وخوف

قال يهجو غالب بن الصغدي:

مَنْ سَلَّطَ اللَّهُ، يا حُسَيْنُ، على ... مُهْجَتِهِ شَاعراً، فقد خَزِيَا

مهجته: نفسه

ويلٌ لِغَلْبُونَ، إنَّه شَقِيَا ... فكيفَ بالذُّلِّ والبَلا رَضِيَا

أَشْرَبْتُهُ الذُّلَّ والمَخافَةَ، مَا ... بَقِيتُ حَيّاً، لهُ، وما بَقِيَا

١٨٣ هجاء كأنه لابن الرومي

زُنبورُ يا خِنزيرُ يا ابنَ الزَّانِيةْ ... شرفٌ لأُمِّكَ أن تُسمَّى زانِيةْ

قد كنتَ، مِنْ هذا البَلاءِ، بِمَعزِلٍ، ... يا ابْنَ الزِّنَاءِ، فلم تَسَعْكَ العَافِيَةْ

فَلَتَأْتِيَنَّكَ مِنْ لِسانيَ شُرَّدٌ ... تَبْلَى الجِبَالُ وإِنَّها لَكَمَا هِيَهْ

شرد: قصائد سائرة في البلاد

١٨٤ أُخوَّة الشراب

وقال أبو نواس (من رواية حمزة الأصبهاني):

ولستُ بِقائلٍ لِنديم صِدْقٍ ... وقد أَخَذَ الشَّرابُ بِمُقْلَتَيْهِ

تَناوَلْها وإلَّا لم أَذُقْها ... فَيَأْخُذُها، وقد ثَقُلَتْ عليهِ

ولكنِّي أُدِيرُ الكأسَ عنه ... وأَصْرِفُها بِغَمزَةِ حَاجِبَيْهِ

وإن مَدَّ الوِسَادَ لِنومِ سُكْرٍ ... دَفَعْتُ وِسَادَتي أيضاً إليهِ

فذلِكَ ما حَيِيتُ لهُ، وإنِّي ... أَبَرُّ بِمِثْلِهِ مِنْ وَالِدَيْهِ

١٨٥ قتيل واقف بالباب

يا قمراً أبصرْتُ في مأتَم، ... يندُبُ شَجْواً بين أَتْرابِ

شجواً: حزناً، أتراب: أصحاب

يبكي فَيَذْرِي الدُّرَّ مِنْ نَرجِسٍ ... ويَلْطِمُ الوردَ بِعُنَّابِ

يبكي فيذري (يبدد) الدر (اللؤلؤ/الدمع) من نرجس (أي من عينيه، ويشبهون العين بالنرجس)، ويلطم الورد (خده) بعناب (ثمر كأطراف البنان محمر أعلاه كأنه محنَّى)

لا تبكِ مَيْتاً حَلَّ في حُفْرَةٍ، واَبْكِ قتيلاً لَكَ بالبابِ

١٨٦ يا رب

يا رَبِّ إن عَظُمَتْ ذُنوبِيَ كَثرةً فلقد علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعظَمُ
إن كانَ لا يرجوكَ إلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلوذُ ويستجيرُ المجرمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تَضَرُّعاً فإذا ردَدْتَ يدي فمَنْ ذا يَرحمُ
ما لي إليكَ وسيلةٌ إلَّا الرَّجا وجميلُ عفوِكَ، ثم إنِّيَ مُسلمُ

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

دِعْبِل الخزاعيّ
(١٤٨هـ ـ ٢٤٦هـ)

تصر كتب الأدب القديمة على أن دعبلاً مات عن ثمان وتسعين سنة قمرية، فهذه خمس وتسعون سنة شمسية. . وهذا كثير على شاعر قتل قتلاً بعد أن هجا ستة خلفاء ما تجرأ أحد من شعراء عصره على هجاء أحد منهم. لكنه نقل عن دعبل أنه قال إنه يحمل خشبته على كتفه منذ خمسين سنة لا يجد من يصلبه عليه. فزعنا إلى كتاب عمر فروخ الممتاز في تاريخ الأدب العربي، ثم عدنا ومسحنا عدسة النظارة ونظرنا في ديوان دعبل ـ الذي صنعه مما تيسر له من شعر دعبل المحقق المدقق عبد الكريم الأشتر، وصنعه صنعة تنم عن علم غزير وصبر على البحث والتنقيب قل أن تلقاهما حتى عند كبار المحققين، فأما الفسول الذي يسمون أنفسهم محققين للدواوين في هذه الأيام فننبذهم ظِهرياً، آملين أن نعود إليهم في فقرة مقبلة كي نلهب ظهورهم بالسياط ـ، فلم نجد في مقدمة المحقق للديوان ما يشكك في أن دعبلاً عُمِّر هذا التعمير. نظرت هنا ثم هنا، ثم قلت: أرى كيف حقق المستشرقون تاريخ ولادة شاعرنا وتاريخ وفاته، فوجدت المقالة عنه في دائرة المعارف الإسلامية مشحونة بالأغلاط مكتوبة بقلم مستسهل قليل المعرفة قليل التدقيق. وعلى كل حال فكل هؤلاء أجمع على أن دعبلاً عاش ثماني وتسعين سنة قمرية. فقلت قد عاشها، ألم يخنق الفرزدق التسعين؟

ولد دعبل في الكوفة أو قرقيسيا قرب دير الزور. وهو رجل عربي من خزاعة اليمانية. واسمه دِعْبِل بن علي بن رَزِين الخزاعي. رافق المجان في الكوفة في شبابه الباكر، وارتكب جريمة قتل فطلب بها فهرب، وعاش حتى مات كلُّ أولياء الثأر فرجع إلى الكوفة، وقد أسنَّ، آمناً.

تمذهب دعبل بالمذهب الشيعي، والتشيع ليس مذهباً دينياً فحسب؛ فحتى في ذلك الزمن المبكر، مطلع القرن الثالث الهجري، فقد غدا التشيع هوية وانتماء سياسياً وحالة نفسية. وأصبحت «مقاتل الطالبيين» جزءاً من العقيدة؛ فكل طالبي، من نسل أبي طالب عم الرسول، يخرج عن الخلافة ويقاتل ويقتل يترك وراءه خيطاً من الدم يدخل في نسيج العقيدة الشيعية. وقد بذل الخليفة المأمون جهداً نظنه صادقاً، رغم ما كان وراءه من هدف سياسي، في تمزيق هذا النسيج الدموي، واستفاد من جهده سياسياً، واستطاع أن يهدئ الأجواء، لكن ما صنعه كانت حبة أسبرين.

اتخذ شاعرنا من هذا الشرخ في الأمة الإسلامية ستراً هجا من ورائه الخلفاء، واجداً لنفسه أقواماً وأشرافاً يحمونه. كان دعبل يحتمي وراء التشيع ووراء خزاعة، وساعده في الإفلات من يد الطلب أن الخلافة كانت قد تمفصلت في عصر هارون الرشيد وازدادت تمفصلاً بعده فاستقل كل أمير ناحية بإمارته بعض استقلال.

مدح دعبل كثيراً وهجا أكثر، وكان عرف من أستاذه في الشعر مسلم بن الوليد أن الهجاء أعود على الشاعر من المدح، فهجاؤك أحدهم يجعل غيره يعطيك مسرعاً عندما تمدحه خوفاً من أن يهجى. وذكروا أن دعبلاً نظم قصيدة هجاء وتركها تنتظر المهجو المقبل، حتى إذا نشأت الحاجة إليها ركب فيها اسم المهجو وأذاعها.

جعل صاحب الأغاني سيرة دعبل في خمسين صفحة، وهي تصور لنا الشاعر شخصاً متمرداً له إيمان الأعراب بالدين، وهو إيمان خفيف، وله غرام بالمناكفة. مؤمن بموهبته وعارف بالشعر، فإذا ما وقف أمام جدار خرساني من موهبة فذة لشاعر يصغره بأربعين عاماً، عنينا أبا تمام، ناكف قليلاً ثم سلم تسليماً. ومضى يناكف غيره. خاض خصومة طويلة مع الشاعر أبي سعيد المخزومي، الذي كان يجاري دعبلاً في السفه، ويطاوله في الموهبة، ولكن دعبلاً أخمله.

سمع هارون الرشيد شعر دعبل، ودعبل يسير نحو الأربعين، وقربه وأعطاه. ومات الرشيد ودعبل في الخامسة والأربعين فهجاه بعد موته، وجاء الأمين فهجي الأمين. وجاء المأمون فسمع شعر دعبل وأجازه.. ليس يهم الملك أن تكون هجوت أباه وأخاه.

هذه قاعدة فاحفظها إن شئت.

ثم هُجي المأمون حياً، وكان سمحاً فلم يطلب دعبلاً، بل لقد كان يضحك كلما سمع شعر دعبل في هجاء كاتبه المتوتر الغضوب أبي عباد. سألَ المأمون جليسه يوماً عما أحدث «شاعر خزاعة»، فقيل له: من يعني أمير المؤمنين؟ أبا الشيص أم ابنه أم طاهراً أم عبد الله بن طاهر، أم دعبلاً؟ فقال المأمون: ومن عسى في هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل؟

أتى دعبل، وهو ابن خمسين، مصر ومدح أميرها المطلب بن عبد الله الخزاعي، فعينه على أسوان، ثم لما بلغه هجاء قاله دعبل فيه عزله شر عزل، فهجاه دعبل أمر هجاء.

وأقام دعبل زمناً في كنف علي بن موسى الرضا الإمام الثامن الذي ولاه المأمون عهده. وكان يكثر من زيارة قم، وكانت هذه المدينة بلد الشيعة، لم يكد يسكنها أحد من غيرهم، قديماً مثلماً حديثاً. كان هذا في حياة المأمون.

ومات المأمون وتولى المعتصم فنال من دعبل هجاء ما ناله خليفة قبله. وكان دعبل يحتمي وقتئذ في مدن وقرى فارس الشيعية دائم الترحال حاملاً خشبته على كتفيه ينتظر أن يصلبه أحد عليها. ومات المعتصم وجاء الواثق فنال من هجاء دعبل فور توليه الخلافة ما ناله سابقوه، على أن الواثق أحسن إلى الطالبيين وأكرمهم وقربهم، فلما مات جاء المتوكل فرفع عن الطالبيين ما كان أحاطهم به أخوه وسلفه الواثق من رعاية، فنال نصيبه من لسان دعبل، ولم يبلغنا من هجاء دعبل للمتوكل سوى بيت واحد: (ولست بقائل قَذَعاً، ولكن/ لأمر ما يُعَدُّ لك العبيدُ) ويروى البيت أيضاً (تعبَّدك العبيد)، يلمح إلى الأبنة، ولعله غير رأيه عندما بلغه أن لدى المتوكل أربعة آلاف جارية زعم الزاعمون أنه وطئهن كلهن.

وكان إبراهيم بن المهدي قد نصب نفسه خليفة في بغداد فيما بين مقتل الأمين وقدوم المأمون إلى العاصمة، ونال من دعبل سخرية ظل يحقدها عليه.. وظل المأمون يضحك منها زمناً.

وقد نقلنا لك بعضاً من كل ذلك الهجاء في المختارات التي تجدها بعد هذه المقدمة المفككة، التي رأينا ـ عجزاً وكسلاً ـ ألا نحكمها إحكاماً، فقد عاش شاعرنا قرناً ومرت به أحداث كثيرة، ولم نشأ أن نقتحم لجج التفاصيل.

والشعر الذي نورده عليك بعد أسطر مسرود بحسب ترتيب الديوان، ولم

نشأ أن نرتب الأشعار زمنياً، مع أن محقق الديوان وضع إشارات كثيرة إلى الزمن التقريبي الذي قيلت فيه أهم أشعار الديوان. فاقرأ شعر دعبل بما هو شعر، وحسبك ما في هذه المقدمة من معلومات عن حياة الشاعر.

غير أنك تريد أن تعرف كيف مات.

هجا دعبل مالك بن طوق التغلبي، هذا الأمير الذي كان من أركان الدولة منذ عهد الرشيد إلى ما بعد عهد المتوكل، والذي بلغ من مكانته أن مدحه أبو تمام والبحتري. هجاه دعبل مرات وبالغ في الشتم واصلاً إلى التزنية. فأخذه والي البصرة بإيعاز من مالك بن طوق، وضربه ضرباً مبرحاً وبلّعه سلْحه. وهرب دعبل إلى الأهواز، فبعث إليه مالك من اغتاله بحربة مسمومة.

١ من أين جاء؟

يهجو القاضي أحمد بن أبي دؤاد:

إن هـــذا الـــذي دُؤَادٌ أَبُـــوهُ ... وإِيَـــادٌ، قـــد أَكْـــثَـــرَ الأَنْـــبَـــاءَ

سَـــاحَـــقَـــتْ أُمُّـــه ولاطَ أَبُـــوهُ ... ليتَ شِعْرِي عنهُ، فَمِنْ أين جَاءَ؟

٢ كأسان وميزان

وكـأسٍ قـد شـربْـنـاهـا بِـلُـطـفٍ ... تَـخـالُ شـرابَـنـا فـيـهـا هَـواءَ

وَزَنَّـا الـكـأسَ فَـارغـةً ومَـلْأَى ... فـكـانَ الـوزنُ بـيـنـهـمـا سَـواءَ

أكثروا من وصف الخمر بأنها بلا وزن، كأنما لشدة صفائها، والماء أصفى

٣ خط الرجعة

قال لصديق جفاه:

فـلا تَـكُ كَـالـرَّاكِـبَ الـسَّـبْـعِ كـيْ ... يُـهـابَ، وأَنْـتَ لـهُ أَهْـيَـبُ

فـأَبْـصِـرْ لِـنـفـسِـكَ كـيـف الـنـزو ... لُ في الأرضِ عن ظهرِ ما تَرْكَبُ

٤ ثامنهم كلب

يهجو المعتصم:

بَكَى لِشَتَاتِ الدينِ مُكتَئِبٌ صَبُّ ... وفَاضَ بِفَرْطِ الدمعِ مِنْ عينِهِ غَرْبُ

الغرب: الدلو، والغرب أيضاً العين

وقـامَ إمـامٌ لـم يـكُـنْ ذا هِـدايَـةٍ   فـليـس لـه ديـنٌ ولـيـس لـه لُـبُّ
ومـا كـانـتِ الأنـبـاءُ تَـأتـي بِـمـثْـلِـهِ   يُـمَـلَّـكُ يـومـاً أَوْ تَـديـنُ لـه الـعُـرْبُ
مُلوكُ بنِي العباسِ في الكُتْبِ سَبْعَةٌ   ولـم تـأْتِـنَـا عـن ثَـامِـنٍ لَـهُـمُ كُـتْـبُ

والمعتصم هو ثامن خلفاء بني العباس

كذلكَ أَهلُ الكهفِ في الكهفِ سبعةٌ   خِـيـارٌ إذا عُـدُّوا وثَـامِـنُـهُـمْ كـلـبُ
وإنِّي لَأُعْلِي كلبَهُمْ عنكَ رِفْعَةً   لِأَنَّـكَ ذو ذنْـبٍ ولـيـس لـه ذَنْـبُ
لقد ضَاعَ أمرُ الناسِ إذ ساسَ مُلْكَهُمْ   وَصيفٌ وأَشْنَاسٌ وقد عَظُمَ الكَرْبُ

وصيف وأشناس من قادة الأتراك

٥ القدر الطروب

الحمدُ فَرَّقَ مَالِي في الحقوقِ، فما   أبقَيْنَ ذَمّاً، ولا أَبقَيْنَ لـي نَشَبَا

تفريقي المال لكسب الحمد لم يترك علي ذمًّا، لكنه أيضاً لم يترك لي نشباً، أي ثروة

قالتْ سَلامَةُ دَعْ هَذي اللَّبُونَ لَنا   لِصِبْيَةٍ مثلِ أفراخِ القَطا زُغُبَا

تطلب منه امرأته أن يترك الناقة الحلوب للصبية الضعاف كأنهم أفراخ طير القطا الزغب، التي بدأ ينبت ريشها

قلتُ احبِسِيها ففيها مُتْعةٌ لَهُمُ   إنْ لم يُنِخْ طَارِقٌ يَبغي القِرَى سَغِبا

قلت احبسيها للصبية كي يتمتعوا، يستفيدوا، من حليبها ما لم يأت طارق، زائر ليل، وينيخ دابته ببابنا وهو يطلب القرى سغباً، أي جائعاً

لما احْتَبَى الضيفُ واعْتَلَّتْ حَلُوبَتُها   بَكَى العِيالُ وغَنَّتْ قِدرُنا طَرَبا

وجاء الضيف، واحتبى، أي جلس وجمع ساقية إلى ظهره بشال، ولم يكن في ناقتنا حليب، فبكى العيال لأنني سأذبحها، ولكن القدر غنت طرباً بما فيها من ماء بدأ يغلي

هَذي سبيلِي، وهذا فاعلَمي خُلُقي   فَارْضَيْ بِهِ أو فَكُونِي بَعضَ مَنْ غَضِبا
أَسعَى لِأَطْلُبَهُ، والرزقُ يطلُبُني   والرزقُ أَكثرُ لي مِنِّي له طَلَبا

أطلب الرزق وهو يطلبني، بل يطلبني أكثر مما أطلبه

قومٌ جَوادُهُمُ فَرْدٌ، وفَارِسُهُمْ   فَرْدٌ وشَاعِرُهُمْ فَرْدٌ إذا نُسِبا

أنا من قوم جوادهم فرد، أي متفرد.. وهو حاتم الطائي ذلك أنه من قبيلة يمانية كدعبل، وفارسهم فرد، وهو عمرو بن معديكرب، وشاعرهم إذا نسبَ فرد، ونظنه عنى نفسه

٦ قدموني للجحيم

إنَّمـا الـعـيشُ فـي مُـنـادَمَـةِ الإخْـ ـوانِ، لا في الجُلوسِ عندَ الكَعَابِ

العيش الحقيقي هو في مجالسة الرجال لا في الجلوس عند الفتاة الكعاب، البارزة النهدين

وبِـصِـرْفٍ كـأنَّـهـا أَلْـسُـنُ الـبَـرْ قِ إذا استَعْرَضَتْ رَقيقَ السَّحَابِ

والعيش تناول خمر صرف، غير ممزوجة، لونها كألسنة البرق تلمع بين السحاب

إن تَـكـونـوا تَـرَكْـتُـمُ لَـذَّةَ الـعـيـ ـشِ حِذارَ العِقابِ يومَ العِقابِ

فَـدَعـونـي ومَـا ألَـذُّ وأهْـوى وادْفَعُوا بي في نَحْرِ يومِ الحِسابِ

٧ لا أُلِحّ

دخل على عبد الله بن طاهر، فقال:

جئتُ بِلا حُرْمَةٍ ولا سَبَبِ إليكَ إلّا بِحُرْمَةِ الأدبِ

فاقْضِ ذِمامي فإنني رجلٌ غيرُ مُلِحٍّ عليكَ في الطَّلَبِ

ذمامي: حقي

٨ كلب بافلوف الخزاعي

إذا نَبَحَ الأضيافُ كلبي تَصَبَّبَتْ يَنابيعُ مِنْ ماءِ السرورِ على قَلبي

ماء السرور هذا كماء الملام عند أبي تمام الذي دار عليه لغط كثير شاركْنا فيه فيما كتبناه عن أبي تمام

فَألْقَاهُمُ بِالبِشْرِ والبِرِّ والقِرَى ويَقْدُمُهُمْ نَحويَ يُبَشِّرُني كَلْبي

مثلما جعل بافلوف كلبه يربط شرطياً بين صوت الجرس وقدوم الطعام فيسيل لعابه قبل تقديم الطعام، كذا كلب دعبل يربط شرطياً بين قدوم الأضياف وتوفر الطعام الذي لا بد أن يصيب منه

٩ رزق الكلبة

يهجو المطلب بن عبد الله الخزاعي:

ولو خُصَّ بالرزقِ نَجْلُ الكِرامِ لَمَا نِلْتَ خَيْطاً ولا هُدْبَةْ

الهدبة: الخيط منسولاً من طرف الثوب

ولكنَّهُ رِزْقُ مَنْ رِزْقُهُ يَعُمُّ بِهِ الكَلْبَ والكَلْبَةْ

لكن هذا الرزق الذي نلته هو رزق الله الذي يعطيه حتى للكلب والكلبة

١٠ مدارس آيات

قصيدة ذات شهرة مدوية، أنشدها دعبل علي بن موسى الرضا الإمام الثامن:

مَـدارسُ آيـاتٍ خَـلَـتْ مِـنْ تِـلاوَةٍ　　ومـنـزِلُ وَحْـيٍ مُـقْـفِـرُ الـعَـرَصَـاتِ

أماكن لدرس آيات القرآن خلت من التلاوة، وموضع بالحجاز حيث كان ينزل الوحي أصبح مقفر الساحات بسبب المحن التي تعرض لها آل البيت

لِآلِ رسولِ اللّهِ بِالخَيْفِ مِنْ مِنَىً　　وبِـالـرُّكْنِ والـتَّـعْريـفِ والـجَـمَـراتِ

هذه أماكن في الديار المقدسة

قِفَا نَسأَلِ الدارَ التي خَفَّ أهلُها　　متى عهدُها بالصومِ والصَّلَواتِ؟

خف أهلها: رحلوا

وأينَ الأُلَى شَطَّتْ بِهِمْ غُربَةُ النَّوَى　　أَفَـانـيـنَ فـي الآفـاقِ مُـفْـتَـرِقَـاتِ؟

أين الذي شطت، ابتعدت، بهم غربة النأي والفراق أفانين، متفرقين

ومـا الـنـاسُ إِلَّا حَـاسِـدٌ ومُـكَـذِّبٌ　　ومُـضْـطـغِـنٌ ذُو إِحْـنَـةٍ وتِـرَاتِ

الناس إما حاسد لهم على منزلتهم العلية أو مكذب بحقوقهم أو مضطغن، حاقد، ذو إحنة، أي حقد، وترات، أي ثارات

إذا ذَكَـروا قـتـلَـى بِـبَـدْرٍ وخـيْـبَـرٍ　　ويـومِ حُـنَـيْـنٍ أَسبَـلُـوا الـعَـبَـراتِ

إذا ذكر الأعداء، قتلاهم ببدر وخيبر وحنين بكوا، وكان كثيرون من قريش وغيرها من أعداء الرسول في هذه المعارك قبل أن يسلموا، ولكنهم ظلوا يتذكرون هزائمهم قبل إسلامهم

وكـيـف يُـحِـبُّـونَ الـنـبـيَّ وأهـلَـهُ　　وقـد تَـرَكُـوا أحـشـاءَهُـمْ وَغِـراتِ

كيف يحبون النبي وأهله وقد تركوا أحشاء هؤلاء الأعداء وغرات، مثقلات بالحقد

لقد لايَنُوهُ في المَقَالِ وأَضْمَرُوا　　قُـلوبـاً عـلى الأحـقـادِ مُـنْـطَـوِيـاتِ

أسلموا ولانوا في كلامهم مع الرسول، والحقد في قلوبهم

مَـلامَـكَ فـي أهـلِ الـنـبـيِ فـإِنَّـهُـمْ　　أَحِـبَّـايَ مـا عـاشـوا وأهـلُ ثِـقـاتـي

كف عن لومك لأهل النبي

فـيـا رَبِّ زِدْنـي مِـنْ يَـقـيـنِـي بَـصـيـرةً　　وزِدْ حُـبَّـهُـمْ يـا رَبِّ فـي حَـسَـنـاتـي

وأَكْـتُـمُ حُـبِّـيكُـمْ مَـخـافَـةَ كَـاشِـحٍ　　عـنـيـدٍ، لِأَهْـلِ الـحـقِّ غـيـرِ مُـؤَاتِ

أكتم حبي لكم يا آل النبي خوفاً من كاشح، مضمر للعداوة، وليس مواتياً، أي موافقاً، لأهل الحق

لقد حفّتِ الأيّامُ حوْلي بِشرِّها وإنّي لأرْجُو الأمنَ بعد وَفاتي

يرجو الجنة بسبب نصرته لآل النبي

أرى فَيْئَهُمْ في غيرِهِمْ مُتقسِّماً وأيْدِيَهُمْ مِنْ فَيْئِهِمْ صَفِراتِ

فيء آل النبي، نصيبهم من الغنائم، مقسم في غيرهم، وأيديهم صفرات، خاليات، منه

فآلُ رسولِ اللّهِ نُحْفٌ جُسُومُهُمْ وآلُ زِيادٍ حُفّلُ القَصَراتِ

آل زياد، أخي معاوية بن أبي سفيان لأبيه، حفل القصرات، غلاظ الرقاب من النعمة

إذا وُتِرُوا مَدُّوا إلى واتِرِيهِمُ أكُفّاً عن الأوْتارِ مُنْقَبِضَاتِ

إذا وتروا، ووجهوا بالعداء وطلب الثأر، مدوا إلى الواترين، طالبي الثأر، أكفاً منقبضة عن الثارات

سَأقْصُرُ نفسي جاهداً عن جِدالِهِمْ كفانِيَ ما ألْقى مِنَ العَبَراتِ

لن أجادل الأعداء، وكفاني ما بي من دموع

أُحاوِلُ نقلَ الشمسِ مِنْ مُسْتَقَرِّها وإسْماعَ أحجارٍ مِنَ الصَّلِدَاتِ

فإقناعهم شبيه بنقل الشمس من مكانها أو إسماع الأحجار الصلدة، الصلبة

فَمِنْ عارِفٍ لم يَنْتَفِعْ ومُعانِدٍ يميلُ مع الأهواءِ والشَّهَوَاتِ

وهم بين عارف بحقوق آل البيت لكنه لم ينتفع بمعرفته، وبين معاند يميل مع أهوائه ومصالحه وشهوات الانتقام في نفسه

قُصارايَ مِنْهُمْ أن أؤوبَ بِغُصَّةٍ تَرَدَّدُ بين الصَّدْرِ واللَّهَوَاتِ

قصاراي، أقصى ما أناله، من جدالهم أن أؤوب، أي أرجع، بغصة في الحلق تتردد بين الصدر واللهوات، آخر الحلق

١١ أنا والضيف والقصيدة الصعبة

نفسي تُنافِسُني في كلِّ مَكْرُمَةٍ إلى المعَالي، ولو خالَفْتُها أبَتِ

وكم زَحَمْتُ طريقَ الموتِ مُعْتَرِضاً بالسيفِ صَلْتاً فأدّاني إلى السَّعَةِ

صلتاً: مسلولاً

والجودُ يَعلمُ أنّي منذُ عاهَدَني ما خُنْتُهُ وقتَ مَيْسُوري ومَعْسَرتي

ما يَرحَلُ الضيفُ عني غِبَّ ليلتِهِ إلّا بِزادٍ وتَشْييعٍ ومَعْذِرَةِ

يرحل الضيف غب ليلته، بعد قضائه الليلة عندي، وقد زودته بزاد لرحلته، وشيعته واعتذرت إليه عن أي تقصير

قالَ العَواذِلُ أَوْدَى المالُ، قلتُ لَهُمْ   مـا بـيـنَ أَجْرٍ أُلَـقَّـاهُ ومَـحْـمَـدَةِ

قال العاذلون: قد ذهب مالك، فقلت لهم: ألاقي عليه الأجر من الله، والحمد من الناس

أَفْسَدْتَ مالَكَ، قلتُ: المالُ يُفْسِدُني   إذا بَخِلْتُ به والجُودُ مَصْلَحَتي

لا تَـعْـرِضَـنَّ بِـمَـزْحٍ لامْـرِئٍ سَـفِـهٍ   مـا رَاضَـهُ قَـلْـبُـهُ أَجْـرَاهُ فـي الـشَّـفَـةِ

لا تمزح مع سفيه يفوه بكل شي يتردد في نفسه دون تفكير

فَـرُبَّ قَـافِـيَـةٍ بِـالـمَـزْحِ جـارِيَـةٍ   مَـشْـبُـوبَـةٍ لـم تُـرِدْ إِنْـمَـاءَهـا نَـمَـتِ

رب قصيدة جرت على لسانك مزحاً وهي حارة حادة، ولم تقصد إلى إشاعتها، لكنها شاعت.. المعنى الملموح

رَدُّ الـسُّـلَـى مُـسْـتَـتِـمًّـاً بـعـد قَـطْـعَـتِـهِ   كَـرَدِّ قَـافِـيَـةٍ مِـنْ بَـعْـدِمَـا مَـضَـتِ

إن رد السلى مستتماً، إعادة المشيمة بحالها سليمة، إلى جوف المرأة بعد أن قطعت عن الطفل مستحيل، وكذا رد قصيدة قيلت وانتشرت

إنِّـي إذا قـلـتُ بَـيـتـاً مـاتَ قـائـلُـهُ   ومـن يُـقَـالُ لَـهُ، والـبـيـتُ لـم يَـمُـتِ

١٢ البائدون العائدون

قال يهجو ابن أبي دؤاد:

تـرى طَـسْـمـاً تـعـودُ بِـهـا الـلَّـيـالـي   إلـى الـدنـيـا كـمـا رَجَـعَـتْ إِيَـادُ

لا عجب أن ترى قوم طسم الذين بادوا قد عادوا إلى الدنيا مثلما عادت قبيلة إياد

قَـبـائـلُ جُـذَّ أصـلُـهُـمُ فـبَـادُوا   وأَوْدَى ذِكْـرُهُـمْ زمـنـاً فـعـادُوا

هذه قبائل جذ، قطع، أصلهم وبادوا، وباد ذكرهم.. ثم عادوا

وكـانـوا غَـرَّزُوا فـي الـرَّمْـلِ بَـيْـضـاً   فَـأَمْـسَـكَـهُ، كـمـا غَـرَزَ الـجَـرادُ

كأنهم وضعوا في الرمل بيضاً فأمسكه الرمل مثلما يغرز الجراد بيضه في الرمل، وبعد أن يذهب الجراد يقوم من الرمل جراد جديد

غَـداً تـأتـيـكَ إِخْـوَتُـهُـمْ جَـدِيـسٌ   وجُـرْهُـمُ قُـصَّـراً، وتَـعُـودُ عَـادُ

وستعود على هذه الحال قبائل جديس وجرهم وعاد.. وكلها من العرب البائدة

فَـتَـعْـجِـزُ عـنـهُـمُ الأمـصـارُ ضِـيـقـاً   وتَـمْـتَـلِـئُ الـمـنـازلُ والـبـلادُ

ولـم أَرَ مِـثْـلَـهُـمْ قَـلُّـوا فَـزَادُوا   ولـم أَرَ مِـثْـلَـهُـمْ بَـادُوا فَـعـادُوا

لم أر مثل قبيلة إياد الذي قل عدد ناسها، ثم زادوا.. وبادوا ثم عادوا.. يشكك في نسب إياد التي ينتسب إليها المهجو

١٣ مات المشؤوم عاش المشؤوم

قال في موت المعتصم وقيام الواثق:

الحمدُ للَّهِ لا صبرٌ ولا جَلَدُ ... ولا عزاءٌ إذا أهلُ البَلا رَقَدُوا

لا حاجة إلى الصبر والجلد، الصبر، ولا إلى التعزي إذا أهل البلاء ماتوا.. فلا حزن عليهم

خليفةٌ ماتَ لم يَحزَنْ له أَحَدٌ ... وآخَرٌ قامَ لم يفرَحْ بهِ أَحَدُ

فَمَرَّ هذا ومَرَّ الشُّؤْمُ يتبَعُهُ ... وقامَ هذا فقامَ الهَمُّ والنَّكَدُ

١٤ هجاء العالمين

ذَمَمْتُكَ أوَّلاً حتى إذا ما ... بَلَوْتُ سِواكَ عادَ الذَّمُّ حَمْدا

بلوت: اختبرت

فلم أَحْمَدْكَ مِنْ خَيْرٍ ولكِنْ ... رأيتُ سِواكَ شَرّاً مِنْكَ جِدًّا

فَعُدْتُ إِلَيْكَ مُجْتَدِياً ذَلِيلاً ... لِأَنِّي لم أَجِدْ مِنْ ذَاكَ بُدَّا

مجتدياً: سائلاً

كَمَجْهُودٍ تَحَامَى لَحْمَ مَيْتٍ ... فَلَمَّا اضْطُرَّ عادَ إليهِ شَدَّا

مجهود: مرهق، شداً: مسرعاً

١٥ لا أرى أحداً

ما أكثرَ الناسَ لا بلْ ما أقَلَّهُمُ ... اللَّهُ يعلَمُ أنِّي لم أَقُلْ فَنَدَا

فندا: باطلاً

إِنِّي لأَفتَحُ عيني حين أَفْتَحُها ... على كثيرٍ ولكنْ لا أَرَى أَحَدا

١٦ قتلنا أخاك

قال يهدد الخليفة المأمون:

أَيَسُومُنِي المْأمونُ خُطَّةَ عَاجِزٍ ... أَوَمَا رأَى بِالأَمْسِ رأسَ مُحَمَّدِ؟

أيكلفني الخليفة المأمون أمراً أكون فيه العاجز.. ألم ير قبل حين رأس أخيه محمد الأمين؟

إنِّي مِنَ القومِ الذينَ سيوفُهُمْ ... قتَلَتْ أَخاكَ وشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ

أنا من بني خزاعة الذين قتلوا أخاك وشرفوك بالخلافة، وكان القائد طاهر الخزاعي، من قوم دعبل أو من مواليهم، قتل الأمين فآلت الخلافة للمأمون

رَفَعُوا مَحَلَّكَ بعد طُولِ خُمُولِهِ   واستَنْقَذُوكَ مِنَ الحضيضِ الأَوْهَدِ

قومي رفعوك إلى الخلافة بعد أن كنت خاملاً، مغموراً غير معروف، وأنقذوك من الحضيض الأوهد، الأسفل

١٧ أبو عبَّاد

قال يهجو أبا عباد ثابت بن يحيى كاتب المأمون:

أَوْلَى الأُمُورِ بِضَيْعَةٍ وفَسَادِ   أَمْرٌ يُدَبِّرُهُ أَبُو عَبَّادِ

يَسْطُو على كُتَّابِهِ بِدَوَاتِهِ   فَمُرَمَّلٌ ومُضَمَّخٌ بِمِدَادِ

مرمل: ملطخ بالدم

فَكَأَنَّهُ مِنْ دَيْرِ هِزْقِلَ مُفْلِتٌ   حَرِدٌ يَجُرُّ سَلاسِلَ الأَقْيَادِ

دير هزقل: بيت المجانين، حرد: غاضب. وكان المأمون يتذكر هذه الأبيات ويضحك كلما رأى كاتبه أبا عباد هذا

١٨ نصيحة للمماطلين

إِيَّاكَ والمَطْلَ أن تُقَارِفَهُ   فإِنَّهُ آفَةٌ لِكُلِّ يَدِ

إياك واقتراف المماطلة فهي تعيب كل يد، أي كل نعمة

إذا مَطَلْتَ امْرَأً بِحاجَتِهِ   فامْضِ على مَطْلِهِ ولا تَحِدِ

إذا ماطلت شخصاً فاثبت على المنع ولا تحد، لا تنحرف، ولا تعطه شيئاً

فلستَ تَلقاهُ شَاكِراً لِيَدٍ   قد كَدَّها المَطْلُ آخِرَ الأَبَدِ

فلو أعطيته بعد مماطلة لما وجدته شاكراً آخر الدهر لنعمة قد كدها، أتعبها، المطل

١٩ الذواقة

إنِّي وجَدْتُكِ في الهوى ذَوَّاقَةً   لا تَصبِرينَ على طعامٍ واحِدِ

٢٠ ذقتهم جميعاً

قد بَلَوْتُ الناسَ طُرًّا   لم أَجِدْ في الناس حُرًّا

بلوت: جربت، طراً: جميعاً

صارَ أحْلَى الناسِ في العيـ   ـنِ إذا ما ذِيقَ مُرًّا

٢١ عذر بني أمية

قال يرثي الإمام الثامن علي بن موسى الرضا:

لـو كـنـتُ أَركَـنُ لـلـدنـيـا وزيـنَـتِـهـا إذن بَكيتُ على الماضينَ مِنْ نَفَري

بـعـضٌ أقَـامَ وبـعـضٌ قـد أهَـابَ بـه داعـي الـمـنـيَّـةِ والـبـاقـي عـلـى الأَثَـرِ

بعض قومي أقام في الحياة، وبعضهم أهاب به، أي دعاه، داعي الموت، والباقون سيتبعون

أمَّا الـمُـقـيـمُ فـأَخْـشَـى أن يُـفـارِقَـنـي ولـسـتُ أَوْبَـةَ مَـنْ وَلَّـى بِـمُـنْـتَـظِـرِ

الأوبة: الرجعة

لـولا تَـشَـاغُـلُ نَـفـسـي بِـالأُلَـى سَـلَـفُـوا مِنْ أَهلِ بيتِ رسولِ اللَّهِ لـم أَقِـرِ

لولا انشغال فكري بمن سلف من آل البيت لما استقر بي الحال ولانشغلت بمن مات من أهلي.. المعنى الملموح

أَرى أُمَـيَّـةَ مَـعْـذُورِيـنَ أَنْ قَـتَـلُـوا ولا أَرَى لِـبَـنـي الـعَـبَّـاسِ مِـنْ عُـذُرْ

بنو أمية كانت لهم ثارات مع آل الرسول لذا قتلوا الحسين وغيره من بني علي، فما عذر بني العباس وقد قتلوا عدداً من العلويين؟

٢٢ اللطيف الخبير

ومِـنَ الـنـاسِ مَـنْ يَـحِـبُّـكَ حُـبَّـاً ظَـاهِـرَ الـوُدِّ لـيـس بِـالـتَّـقْـصـيـرِ

وإذا مـا خَـبِـرْتَـهُ شَـهِـدَ الـطَّـرْ فُ عـلـى حُـبِّـهِ بِـمَـا فـي الـضَّـمـيـرِ

الطرف: العين والنظر

وإذا مـا بَـحَـثْـتَـهُ قـلـتَ هـذا ثِـقَـةٌ لـي ورأسُ مَـالٍ كـبـيـرِ

فـإذا مـا سـأَلْـتَـهُ رُبْـعَ فَـلْـسٍ أَلْـحَـقَ الـوُدَّ بـالـلـطـيـفِ الـخـبـيـرِ

٢٣ الطوامير

يهجو ابن الزيات، ومدحه فلم يكافئه بما يرضيه، بل كان يستمع إلى المدح وهو يقلب لفافة ورق ويدنيها من شفته:

يـا مَـنْ يُـقَـلِّـبُ طُـومَـاراً ويَـلْـثِـمُـهُ ماذا بقَلْبِكَ مِنْ حُبِّ الطَّواميرِ

الطومار: الورقة الملفوفة بهيئة أسطوانة، كالتي نراها في المسلسلات التاريخية، يلثمه: يقبله

فـيـهِ مَـشَـابِـهُ مِـنْ شَـيءٍ تُـسَـرُّ بـه طُـولاً بِـطُـولٍ وتَـدْوِيـراً بِـتَـدْوِيـرِ

٢٤ السخاء الحق

لَئِنْ كنتَ لا تُولي يَداً دونَ أَمْرَةٍ فَلسْتَ بِمُولٍ نائِلاً آخِرَ الدَّهْرِ

إن كنت لا تولي، تعطي، يداً، نعمة، دون أمرة، أي رخاء وسعة في العيش، فلن تعطي نائلاً، عطاء، لأحد أبداً

فأَيُّ إِنَاءٍ لم يَفِضْ عندَ مَلْئِهِ وأَيُّ بَخيلٍ لم يُنِلْ سَاعَةَ الوَفْرِ

الإناء يفيض بشكل طبيعي عندما يمتلئ والبخيل إذا أثرى جداً فهو يعطي.. هذا ليس بالسخاء.. هذا مجرد تفريغ..

وليس الفَتى المُعْطِي على اليُسْرِ وَحدَهُ ولكنه المُعْطِي على العُسْرِ واليُسْرِ

الذي يعطي فقط عندما يكون موسراً لا يعد سخياً..
فالسخي حقاً من يعطي في حالي العسر واليسر

٢٥ أهزوجة

قال يهجو أبا سعد المخزومي:

يا أَبَا سَعْدِ قَوْصَرَةْ زَانِيَ الأُخْتِ والمَرَةْ

القوصرة: صندوق من قصب للتمر، وكانت الكلمة لقب أبي سعد المخزومي

أَبَدَ الدَّهرِ خَلْفَهُ فَارِسٌ في المُؤَخَّرَةْ

٢٦ دماؤهم مطلولة

يهجو مالك بن طوق:

دماؤُهُمْ ليس لها طَالِبٌ مَطْلُولَةٌ مِثْلَ دَمِ العُذْرَةْ

دماء قومك لا يطالب بها أحد فهي مطلولة، مهدورة، مثل دم العذرة، البكارة..
فأنتم ضعاف جبناء لا تأخذون بثأركم

وُجُوهُهُمْ بِيضٌ وأَحْسَابُهُمْ سُودٌ وفي آذانِهِمْ صُفْرَةْ

٢٧ الخطيب الأخرس

مَا كنتُ إذ طَلَبَتْ يَدايَ بِكَ الغِنَى إلَّا كَطالِبِ خُطْبَةٍ مِنْ أَخْرَسِ

كنت إذ طلبت منك مالاً كمن يطلب من الأبكم الأخرس أن يلقي خطبة

يا رَبِّ، إنَّ غِنَى اللئيمِ يَسوءُني فاصرِفْ غِناهُ إلى الجَوادِ المُفْلِسِ

٢٨ عصا لا سيف

يهجو أبا نصر بن حميد الطوسي:

إِنِّـي هَـزَزْتُـكَ لا آلُـوكَ مُـجتَـهِـداً   لو كنتَ سيفاً، ولكنِّي هَزَزْتُ عَصَا

هززتك للعطاء، مدحتك وحثثت أريحيتك على العطاء، لا آلوك، لا أقصر في الهز.. ظننتني أهز سيفاً ليقطع، فإذا بي أهز عصا

٢٩ مرتبات الجنود

يهجو إبراهيم بن المهدي، لما بويع بالخلافة وقل عنده المال فشغب عليه الجند:

يـا مَـعْـشَـرَ الأَجْـنـادِ لا تَـقْـنَـطُـوا   خُـذُوا عـطـايَـاكُـمْ ولا تَـسْـخَـطُـوا

أيها الجنود لا تيأسوا من نيل أعطياتكم

فـسـوف يُـعْـطِـيـكُـمْ حُـنَـيْـنِـيَّـةً   يَـلْـتَـذُّهـا الأَمْـرَدُ والأَشْـمَـطُ

سيعطيكم هذا الذي نصب نفسه خليفة، وهو مغنٍّ، حنينية، أغنية لحنين، يطرب لها الجميع من أمرد لم تنبت لحيته وأشمط، اختلط بياض شعره بسواده

والـمَـعْـبَـدِيَّـاتُ لِـقُـوَّادِكُـمْ   لا تَـدخُـلُ الـكـيـسَ ولا تُـربَـطُ

والمعبديات، أغاني المطرب المشهور معبد، للقواد، وهي نقود لا تدخل الكيس ولا يربط الكيس عليها

وهـكـذا يَـرْزُقُ أصـحـابَـهُ   خـلـيـفـةٌ مُـصْـحَـفُـهُ الـبَـرْبَـطُ

هكذا يعطي الخليفة الذي مصحفة البربط، العود، أصحابه مرتباتهم

٣٠ كنت ذراعي وقطعتها

كتب بها إلى مسلم بن الوليد، وكان دعبل قصده بجرجان فجفاه مسلم:

أبـا مَـخْـلَـدٍ كُـنَّـا عَـقـيـدَيْ مَـوَدَّةٍ   هَـوانـا وقَـلـبـانـا جـمـيـعـاً مـعـاً مـعـا

كنا عقيدي مودة، كانت تربطنا وتعقد بيننا المودة

أَحُوطُكَ بِالوُدِّ الذي أنت حائِطِي   وأَيْـجَـعُ إِشْـفـاقـاً لِأَنْ تَـتَـوَجَّـعـا

نتبادل الود، وأتوجع لما تتوجع منه

فَصَيَّرْتَنِي بعدَ انتِكاثِكَ مُتْهِماً   لِنَفسِي، عليها أَرْهَبُ الْخلقُ أَجمَعا

فلما انتكثت، قطعت العهد، جعلتني أتهم نفسي بأنني فعلت فعلة شنعاء، وصرت راهباً لكل الناس قلقاً

فلا تَعْذُلَنِّي ليس لِي فيكَ مَطْمَعٌ　　تَخَرَّقْتَ حتى لم أَجِدْ فيكَ مَرْقَعَا

فلا تلمني، لم يعد لي فيك مطمع، أمل،
فأنت كالثوب الذي تخرق حتى لم يعد يصلح فيه حتى الرقع

فَهَبْكَ بِمِينِي اسْتَأْكَلَتْ فاحْتَسَبْتُها　　وجَشَّمْتُ قلبِي قَطْعَها فَتَشَجَّعَا

افترِضْ أنك ذراعي اليمنى وقد استأكلت، التهبت وسرى فيها الشلل، فاحتسبتُ أجرها عند الله
وجشمتُ قلبي عناء قطعها فتحمل

٣١ الشرب على ذكراهم

قالها في زياد الساقي:

يقولُ زِيادٌ قِفْ بِصَحْبِكَ مَرَّةً　　على الرَّبْعِ. ما لِي والوُقُوفَ على الرَّبْعِ؟

لا يريد الوقوف على الأطلال

أَدِرْها على فَقْدِ الحبيبِ فرُبَّما　　شربتُ على نَأْيِ الأحبَّةِ والفَجْعِ

أدر الكأس ونحن نتذكر فقدنا للحبيب، وربما، أي كثيراً ما، شربت الخمر متذكراً نأي الأحبة
والفجع، حزن الفقد

فمَا بَلَغَتْنِي الكأسُ إلَّا شربْتُها　　وإلَّا سقيتُ الأرضَ كأساً مِنَ الدَّمْعِ

٣٢ وضيع بالخلقة

يهجو يحيى بن أكثم:

رُفِعَ الكلبُ فاتَّضَعْ　　ليس في الكلبِ مُصْطَنَعْ

اتضع: كان وضيعاً، مصطنع: مكان للمعروف

إنَّما قَصْرُ كلِّ شَيْءٍ إذا طارَ أنْ يَقَعْ

قصر كل شيء: نهايته

لَعَنَ اللَّهُ نَخْوَةً　　صارَ مِنْ بعدِها ضَرَعْ

النخوة: التكبر، الضرع: الذلة

٣٣ ضيف على الضيف

يا تارِكَ البيتِ على الضيفِ　　وهارِباً مِنْهُ مِنَ الخَوفِ

ضيفُكَ قد جاءَ بِزادٍ له　　فارجِعْ وكُنْ ضَيْفاً على الضيفِ

٣٤ الشكر للوسيط

قال وقد شفع له رجل في مسألة:

وإن امْـرَأً أَسْـدَى إلـيَّ بِـشَـافِـعٍ إِلَيْهِ، ويَرْجُو الشُّكْرَ مِنِّي لَأَحْمَقُ

الذي يسدي إلي، يعطيني مالاً، بعد أن اتخذت إليه شافعاً، واسطة،
ثم يرجو مني أن أشكره أحمق..

شَفِيعَكَ فاشْكُرْ في الحوائجِ إنه يصونُكَ عن مكروهِها وَهْوَ يَخْلُقُ

المرء يشكر شفيعه، واسطته، لأن الشفيع يصون وجهك عن ذل السؤال، ويخلق وجه نفسه، يذل نفسه وهو يشفع لك

٣٥ عشَّمتَني

استدعى والٍ من بني هاشم دعبلاً إلى الشام فجاءه دعبل، فجفاه الهاشمي:

دَلَّـيْـتَـنـي بِـغُـرورِ وَعْـدِكَ فـي مُـتَـلاطِـمٍ مِـنْ حَـوْمَـةِ الـغَـرَقِ

دليتني كالدلو في حومة الماء المتلاطم الموج إذ غررتني وخدعتني بوعدك..

وحَـسِـبْـتَـنـي فَـقْـعـاً بِـقَـرْقَـرَةٍ فَـوَطِـئْـتَـنـي وَطْءاً عـلـى حَـنَـقِ

ظننتني حقيراً كالفقع، الفطر النابت، في قرقرة، الأرض السهلة، فوطئتني،
دست عليّ على حنق، بقسوة

وظَـنَـنْـتَ أرضَ الـلَّـهِ ضَـيِّـقَـةً عـنِّـي، وأرضُ الـلَّـهِ لـم تَـضِـقِ

مِـنْ غـيـرِ مـا جُـرْمٍ سِـوى ثِـقَـةٍ مِـنِّـي بِـوعْـدِكَ حـيـن قُـلْـتَ ثِـقِ

مـا أَطْـولَ الـدنـيـا وأعْـرَضَـهـا وأَدَلَّـنـي بِـمَـسـالِـكِ الـطُّـرُقِ

٣٦ فاسق عن فاسق

قال في إبراهيم المهدي حين جعل نفسه خليفة:

إن كـان إِبْـرَاهـيـمُ مُـضْـطَـلِـعاً بِـهـا فَـلَـتَـصْـلُـحَـنْ مِـنْ بَـعـدِهِ لِـمُـخَـارِقِ

إن كان إبراهيم بن المهدي، وكان مغنياً، مضطلعاً بالخلافة، قادراً عليها، فلا جرم فهي تصلح بعد ذلك لمخارق المغني

أَنَّـى يـكـونُ ولـيـسَ ذاكَ بِـكـائِـنٍ يَـرِثُ الـخـلافـةَ فَـاسِـقٌ عـن فَـاسِـقِ

فكيف يرث الخلافة هذا الفاسق عن الفاسق الذي سبقه، محمد الأمين، وكان صاحب لهو أيضاً؟

٣٧ ضحك وبكاء

أيـنَ الـشَّـبـابُ وأيَّـةً سَـلَـكَـا؟ لا، أيْنَ يُطْلَبُ؟ ضَلَّ، بل هَلَكَا

أين الشباب، وأي طريق سلك وذهب؟ وهل يمكن طلبه واسترجاعه؟
لا، قد ضل، لا بل قد هلك هلاكاً

لا تَـعـجَـبـي يـا سَـلْـمَ مِـنْ رَجُـلٍ ضَـحِـكَ الـمَـشـيـبُ بِرَأْسِـهِ فَـبَـكَـى

يا سلمى.. لا تعجبي من رجل ضحك رأسه بالمشيب، فقد ابيض شعره كابيضاض الوجه عندما يفتر المرء عن أسنانه ويضحك، فبكى الرجل لضحك المشيب برأسه. سئل أبو تمام، وكان خصماً لدعبل: ما نسب دعبل؟ فقال: دعبل صاحب ضحك المشيب برأسه فبكى، فهذا البيت البديع نسب لصاحبه

قـد كـان يَـضْـحَـكُ فـي شَـبـيـبَـتِـهِ فـأتَـى الـمَـشـيـبُ، فَـقَـلَّـمَـا ضَـحِـكـا

يـا سَـلْـمَ مَـا بِـالـشَّـيْـبِ مَـنْـقَـصَـةٌ لا سُـوقَـةً يُـبْـقـي ولا مَـلِـكَـا

الشيب ليس عاراً فهو يلم بالسوقة، كل من لم يكن صاحب ولاية أو مُلك، وبالملك

يـا لـيـتَ شِـعـري كـيـفَ نَـوْمُـكُـمـا يَـا صَـاحِـبَـيَّ إذا دَمـي سُـفِـكَـا

كيف تنامان وقد قتلتني المحبوبة عشقاً؟

لا تَـأْخُـذَا بِـظُـلامَـتـي أحَـداً قـلـبـي وطَـرْفـي فـي دَمـي اشْـتَـرَكـا

لا تأخذا أحداً بظلامتي، لا تثأرا من أحد.. فقلبي وعيني اشتركا في سفك دمي

٣٨ منك الرؤوس ومنهم السيوف

يهجو المطلب بن عبد الله الخزاعي والي مصر:

أَمُـطَّـلِـبٌ أنـتَ مُـسْـتَـعْـذِبٌ حُـمَـاتِ الأفـاعـي ومُـسْـتَـقْـتِـلُ

أأنت ترى حمات الأفاعي، لدغاتها، عذبة، أتطلب لنفسك القتل بمعاداتي؟

فـإنْ أَشْـفِ مـنـكَ تَـكُـنْ سُـبَّـةً وإنْ أَعْـفُ عـنـكَ فـمـا تَـعـقِـلُ

إن شفيت نفسي منك بالهجاء فسوف يكون ذلك سبة وعاراً عليك، وإن عفوت عنك فستجن جنوناً.. المعنى الملموح

وَضَـعْـتَ رِجـالاً فَـمَـا ضَـرَّهُـمْ وشَـرَّفْـتَ قَـومـاً فـلـم يَـنْـبُـلُـوا

لقد وضعت رجالاً، أذللتهم، فما ضرهم ذلك، وشرفت قوماً فما صاروا نبلاء

تُـنَـوِّطُ مِـصْـرُ بِـكَ الـمُـخْـزِيـاتِ وتَـبْـصُـقُ فـي وجـهِـكَ الـمَـوْصِـلُ

تنوط، تعلق، مصر بك المخازي وتلفظك الموصل

ويَـومَ الـشُّـرَاةِ تَـحَـسَّـيْـتَـهـا   يَـطـيِـبُ لَـدى مـثـلِـهـا الـحـنـظَـلُ

يوم تصديت للشراة، أي الخوارج، تحسيتها، شربتها هزيمة نكراء، وكانت مرة فالحنظل بالنسبة إليها طيب

تَـوَلَّـيْـتَ رَكـضـاً وفِـتْـيَـانُـنـا   صُـدُورُ الـقَـنـا فـيِـهِـمُ تَـعْـسِـلُ

فررت ركضاً على فرسك، وشبابنا تندق فيهم رؤوس الرماح وتعسل، تتحرك متمايلة

إذا الـحـربُ كـنـتَ أمـيـراً لـهـا   فـحـظُّـهُـمُ مـنـكَ أن يُـقْـتَـلُـوا

فـمِـنْـكَ الـرُّؤُوسُ غَـدَاةَ الـلِّـقَـاءِ   ومِـمَّـنْ يُـحَـارِبُـكَ الـمُـنْـصُـلُ

المنصل: السيف

شِـعـارُكَ فـي الـحـربِ يـومَ الـوَغـى   إذا انـهـزَمُـوا: عَـجِّـلُـوا عَـجِّـلُـوا

٣٩ العنز

كتب إلى رجل بعث إليه بأضحيَّة مهزولة:

بـعـثْـتَ إلـيَّ بِـأُضْـحِـيَّـةٍ   وكـنـتَ حَـرِيَّـاً بِـأَنْ تَـفْـعَـلا

ولـكـنَّـهـا خَـرَجَـتْ غَـثَّـةً   كـأنَّـكَ أَرْعَـيْـتَـهـا حَـرْمَـلا

غثة: مهزولة، الحرمل: نبات كالسمسم لا ترعاه إلا المعزى

فـإِنْ قَـبِـلَ الـلَّـهُ قُـرْبَـانَـهـا   فـسُـبـحـانَ رَبِّـكَ مـا أَعْـدَلا

٤٠ سأخبرهم بالتأكيد

وكتب إلى عبد الله بن طاهر، وربما إلى أبي دلف العجلي:

ماذا أقولُ إذا انصرَفْتُ وقيلَ لي: ماذا أَفَدْتَ مِنَ الجوادِ المُفْضِلِ؟

إن قلتُ أَعطَانِي كذبْتُ، وإن أَقُلْ   ضَـنَّ الـجـوادُ بِـمالِـهِ لـم يَـجْـمُلِ

فاخْتَرْ لِنفسِكَ ما أقولُ فَإِنَّني   لا بُدَّ مُخْبِرُهُمْ، وإن لـم أُسْأَلِ

٤١ ابن الجوادة

قال يرد على مروان بن أبي حفصة:

قـل لابـنِ خَـائِـنَـةِ الـبُـعُـولِ   وابـنِ الـجَـوادَةِ والـبـخـيـلِ

قل لمن أمه تخون أباه، ومن أمه سخية على عشاقها بينما أبوه بخيل بماله

إنَّ الـمَـذَمَّـةَ لِـلْـوَصِـيِّ - هِـيَ الـمَـذَمَّـةُ لـلـرَّسُـولِ

من يذم الوصي، علي بن أبي طالب، كمن يذم الرسول، وكان مروان ناصبياً شديد العداء للطالبيين

٤٢ الرغيف في أمان الله

إن هـذا الـفَـتـى يَـصُـونُ رغـيـفـاً   مـا إلـيـهِ لِـنـاظِـرٍ مِـنْ سـبـيـلِ

هُـوَ فـي سُـفْـرَتـيْـنِ مِـنْ أَدَمِ الـطَّـا   ئـفِ، فـي سَـلَّـتَـيْـنِ، فـي مِـنـديـلِ

الرغيف ملفوف بسفرتين، والسفرة هي ما يبسطه المسافر تحت طعامه، من أدم الطائف، من جلد الطائف، وموضوع في سلتين وهما ملفوفتان بمنديل

خُـتِـمَـتْ كـلُّ سَـلَّـةٍ بِـرصَـاصٍ   وسُـيُـورٍ قُـدِدْنَ مِـنْ جِـلْـدِ فـيـلِ

كل سلة مختومة بالرصاص ومربوطة بسيور، شرائط، قطعن من جلد فيل. . الختم بالرصاص ظل شائعاً حتى عهد قريب: يُربط الشيء، أنبوبة الغاز مثلاً، بسلك والسلك عليه معدن الرصاص الطري وعلى المعدن ختم

في جِرابٍ في جَوفِ تَابُوتِ مُوسى   والـمـفَـاتـيـحُ عـنـد إسْـرَافـيـلِ

إسرافيل هو الذي سينفخ في الصور يوم القيامة

٤٣ دينار خالي

سـألْـتُـهُ مَـنْ أَبُـوهُ   فـقـال دِيـنـارُ خَـالـي

فـقـلـتُ ديـنـارُ مَـاذا؟   فـقـال والـي الـجـبـالِ

٤٤ بيت واحد ومقدمة له

سأَقضي بِبَيْتٍ يَحْمَدُ الناسُ أَمْرَهُ   ويَكْثُرُ مِنْ أهلِ الرِّوَايَةِ حَامِلُهْ

يَموتُ رَديءُ الشعرِ مِنْ قبلِ أهلِهِ   وجَـيِّـدُهُ يـبـقَـى وإن مـاتَ قـائِـلُـهْ

٤٥ لعل له عذراً

تَـأَنَّ ولا تَـعْـجَـلْ بِـلَـوْمِـكَ صاحِـبـاً   لـعـلَّ لـهُ عُـذْراً وأنـتَ تَـلُـومُ

٤٦ معادلة

اِضْرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحَاتِ مُبْتَدِئاً   بِلُؤْمِ مُطَّلِبٍ فـيـنـا وكُـنْ حَـكَـمَـا

طلحة الطلحات: طلحة الخزاعي أحد الأسخياء المعدودين، والمطلب المهجو: المطلب بن عبد الله الخزاعي. المعنى: اخلط كرم طلحة بلؤم المطلب واحكم. .

تَخْرُجْ خُزَاعَةُ مِنْ لُؤْمٍ ومِنْ كَرَمٍ فلا تَعُدُّ لها لُؤْماً ولا كَرَمَا

بعد هذا الخلط ستخرج قبيلة خزاعة لا لؤم لديها ولا كرم.. فبقدر ما عند طلحة من كرم يوجد عن المطلب لؤم

٤٧ المشغول بنسبه

قال يهجو مالك بن طوق التغلبي:

النَاسُ كلُّهُمُ يَسعَى لِحاجتِهِ ما بين ذي فرَحٍ منهُمْ ومَغْمُومِ

ومَالِكٌ ظَلَّ مشغولاً بِنِسْبَتِهِ يَرِمُّ منها خَراباً غيرَ مَرْمُومِ

نسبته: نسبه، يرم: يصلح

يبْني بُيوتاً خَراباً لا أَنِيسَ بِها ما بينَ طَوْقٍ إلى عمْرِو بْنِ كُلْثُومِ

يحاول المهجو أن يصل نسب أبيه طوق بنسب شاعر تغلب الجاهلي عمرو بن كلثوم.. وبينهما زمن بعيد ومالك هذا يبني بين النسبين بيوتاً خربة لوصل طرفي النسب

٤٨ محمد للمسلمين

قال ينقض قصيدة الكميت التي هجا فيها اليمن:

أَفيقي مِنْ مَلامِكِ يا ظَعِينا كفاكِ اللَّوْمَ مَرُّ الأَربَعِينا

أفيقي من لومك واتركيه يا ظعينَ، يا امرأة.. أما يغنيك عن لومي أنني جاوزت الأربعين؟

إذا لم تَتَّعِظْ بالشَّيْبِ نفسي فما تُغني عِظاتُ الواعظينا

على أنِّي وإن وَقَّرْتُ شَيْبي أُشَاقُ إذا لَقِيتُ الوَامِقِينا

أوقر شيبي ولكنني أحس بشوق كلما التقيت بالوامقين، المحبين

وأَهْوى أن تُخَبِّرَني سُلَيْمَى وأُخْبِرَها بِمَا كُنَّا لَقِينا

أَحَبُّ ذَخِيرَةٍ وأَحَبُّ عِلْقٍ إِلَيَّ الغَانِياتُ وإن غَنِينَا

أحب ما أدخره من ذكريات وأحب علق، شيء نفيس، إلى نفسي النساء حتى وإن غنين، استغنين عني

وكلُّ بُكاءِ رَبْعٍ أو مَشِيبٍ نُبَكِّيهِ فَهُنَّ بِهِ عُنِينا

كل بكاء نبكيه على أطلال أو لحلول المشيب فنحن نفعل ذلك لرغبتنا في النساء..

إيه يا دعبل.. إيه

أُحِبُّ الشَّيْبَ لَمَّا قيلَ ضَيْفٌ لِحُبِّي للضُّيوفِ النَّازِلينا

وما نَيلُ المَكارِمِ بِالتَّمَنِّي ... ولا بالقولِ يُبْلي الفاعِلُونا

يبلي: يفعل

لقد علِمَتْ نِزارُ أنَّ قَومي ... إلى نَصْرِ النُّبُوَّةِ سَابِقينا

قبائل نزار تعلم أن قومي، خزاعة وهي من قبائل اليمن، سبقوا إلى نصر النبوة، فالأوس والخزرج من اليمن

تَطَهَّرَ مِنْ أفاضِلِنا رجالٌ ... وحُبُّ اللَّهِ لِلمُتَطَهِّرِينا

وأنْزَلَ آيةً أن قَاتِلُوهُمْ ... يُعَذِّبْهُمْ بِأيْدِيكُمْ فُنُونا

يشير إلى الآية: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» ونزلت في قتال المسلمين لمشركي قريش

وَيُخْزِهِمُ ويَنْصُرْكُمْ عليْهِمْ ... ويَشْفِ صُدورَ قومٍ مُؤْمِنِينا

يكمل الآية

فإن قُلْتُمْ رسولُ اللَّهِ مِنَّا ... فإنَّ محمَّداً للمُسْلِمينا

مِنَ ايِّ ثَنِيَّةٍ طَلَعَتْ قُريشٌ ... وكانوا مَعْشراً مُتَنَبِّطينا

من أي ثنية، أي طريق جبلي، طلعت علينا قريش؟ وكانوا من المتنبطين، أشباه النبط الذين هم فلاحو العراق الكلدانيون الذي عوملوا أنصاف عبيد

٤٩ تعزَّ

تَعَزَّ فَكَمْ لكَ مِنْ أُسْوَةٍ ... تُبَرِّدُ عنكَ غَليلَ الحَزَنْ

تعز، التمس المواساة، فلك الكثير مما تتأسى به كي تبرد غليل حزنك، حرارته

بِمَوْتِ النبيِّ وقَتلِ الوَصِيِّ ... وذَبْحِ الحُسَيْنِ وسَمِّ الحَسَنْ

موت النبي وقتل علي بن أبي طالب وذبح الحسين بن علي ووضع السم للحسن بن علي.. كل هذا يجعلك ترى مصائبك صغيرة

٥٠ دعاء على مدينة

قال في بناء سر من رأى:

بَغدادُ دَارُ المُلوكِ كانتْ ... حتى دَهَاها الذي دَهَاها

ما سُرَّ مَنْ را بِسُرَّ مَنْ را ... بل هِيَ بُؤْسَى لِمَنْ يَراها

عَجَّلَ رَبِّي لها خَراباً ... بِرَغْمِ أنْفِ الذي ابْتَناها

والذي ابتناها المعتصم لجنوده الأتراك عندما ضاقت بهم بغداد

٥١ كانت خزاعة ملء الأرض

قال يرثي نصر بن حمزة الخزاعي:

كانتْ خُزَاعَةُ مِلْءَ الأرضِ ما اتَّسَعَتْ فقَصَّ مَرُّ اللَّيالي مِنْ حَواشِيها

قبيلتي خزاعة كان كبيرة فقص مرور الزمن أطرافها

هذا أبو القاسِمِ الثَّاوي بِبَلْقَعَةٍ تَسْفي الرياحُ عليهِ مِنْ سَوافِيها

هذا أبو القاسم الثاوي، الراقد، في بلقعة، أرض مقفرة، تسفي الرياح عليه التراب

هَبَّتْ وقد عَلِمَتْ أنْ لا هُبُوبَ بِهِ وقد تكونُ حَسِيراً إذ يُبَارِيها

هبت الرياح الآن وهي تعلم أنها لم تكن تجرؤ على الهبوب وهو حي لأنه يباريها وينافسها فتصبح حسيراً، ضعيفة.. وكانوا يطعمون الطعام إذا هبت الريح وجفت ضروع الماشية لعدم العشب، واشتهر الأسخياء الذين يطعمون الطعام لهبوب الريح، ومنهم الشاعر لبيد

أَضْحَى قِرىً لِلمَنايا إذْ نَزَلْنَ به وكان في سالِفِ الأيامِ يَقْرِيها

بعد أن كان يطعم الناس أصبح الفقيد قرى للمنايا، طعاماً للموت، وكان في سالف الزمن يقري المنايا، يطعمها من لحم أعدائه

رَمَتْ خُزَاعَةُ عنها قَوْسَ نَجْدَتِها لَمَّا أَمَاطَ الرَّدَى السَّهْمَ الذي فيها

رمت خزاعة بموته القوس التي فيها نجدتها، شهامتها ونخوتها، عندما أماط الموت، أزال، السهم الذي كان في تلك القوس. فضل البحتري دعبلاً على مسلم بن الوليد لأن طريقته في الشعر أشبه بطريقة العرب.. وهذه القصيدة أبرع مثال للشعر على الطريقة القديمة، فإن سألك سائل عن الشعر الجزل، فلا تجب.. أنشِدْه هذه الأبيات

٥٢ السائل عن دارهم

يهجو مالك بن طوق:

سَأَلْتُ عنكُمْ يا بَني مَالِكٍ في نازِحِ الأَرْضِينَ والدَّانِيَةْ

سألت عنك في نازح الأرضين، الأراضي البعيدة، والدانية، القريبة

طُرّاً فلم تُعرَفْ لكُمْ نِسْبَةٌ حتى إذا قلتُ بَنِي الزَّانِيَةْ..

طراً، جميعاً، فلم يعرفكم أحد.. ثم إنني قلت: بني الزانية.. فعرفوكم

قالوا فَدَعْ دَاراً على يَمْنَةٍ وتِلْكَها دَارُهُمُ ثَانِيَةْ

فقال لي الناس: أها.. اترك داراً عن اليمين، وتلك هناك دارهم الثانية

٥٣ قوة القصيدة

قال وقد حجب عن باب مالك بن طوق:

لَعَمْري لَئِنْ حَجَبَتْني العَبيدُ   لَمَا حَجَبَتْ دونَكَ القافيةْ

حجبني عبيدك، ولكنهم لن يحجبوا شعر الهجاء عنك

سَأرمي بها مِنْ وراءِ الحِجا   بِ شَنعَاءَ تَأتيكَ بِالدَّاهِيَةْ

تُصِمُّ السميعَ وتَعْمي البصير   ويُسْأَلُ مِنْ مِثلِها العَافِيَةْ

الذي يسمعها سيقول: اللهم عافنا

٥٤ عيرتني بالشيب

تعجَّبَتْ أن رَأَتْ شَيْبي فقلتُ لها   لا تَعْجَبي، مَنْ يَطُلْ عُمْرٌ به يَشِبِ

شَيْبُ الرِّجالِ لَهُمْ زَيْنٌ ومَكْرُمَةٌ   وشَيْبُكُنَّ لَكُنَّ العَارُ فَاكْتَئِبي

فِينا لَكُنَّ وإن شَيْبٌ بَدا أَرَبٌ   وليس فيكُنَّ بعدَ الشَّيبْ مِنْ أَرَبِ

الرجال يطلبون وصل المرأة وقد نزل بهم الشيب، وليس لهم أرب، غاية، عند امرأة شاب شعرها

٥٥ احتجاب ماتريوشكا

قال في هجاء كاتب:

إذا ما أَتَيْنَاهُ في حاجةٍ   رفعْنا الرقاعَ له والكُتُبْ

له حاجِبٌ دونَهُ حَاجِبٌ   وحَاجِبُ حاجِبِهِ مُحْتَجِبْ

٥٦ الإعضاض

في هجاء طاهر بن الحسين:

وذي يَمِينَيْنِ وعَيْنٍ وَاحِدَةْ

لقب المهجو ذو اليمينين

نُقْصَانُ عَيْنٍ ويَمِينٌ زَائِدَةْ

نَزْرُ العَطِيَّاتِ قليلُ الفائدةْ

نزر: قليل

أَعَضَّهُ اللَّهُ بِبَظْرِ الوَالِدَةْ

هذا من مسبات العرب أن يدعو المرء على غريمه بأن يعض ذلك الموضع من أم الغريم

٥٧ العُليجان

في هجاء دينار بن عبد الله ويحيى بن أكثم:

مَا زالَ عِصيانُنا للَّهِ يُسْلِمُنا حتى دُفِعْنا إلى يحيى ودِينارِ

إلى عُلَيْجَيْنِ لم تُقْطَعْ ثِمارُهُما قد طَالَمَا سَجَدا للشمسِ والنارِ

إلى عليجين: إلى علجين من المجوس، لم تقطع ثمارهما: لم يختنا لأنهما أسلما كبيرين

٥٨ ضيف عمرو

أَضيافُ سَالِمَ في خَفْضٍ وفي دَعَةٍ وفي شرابٍ ولَحْمٍ غيرِ مَمْنوعِ

سالم يكرم ضيوفه فهم في خفض، أي نعمة، ودعة، راحة

وضُيْفُ عَمْرٍو وعُمْرٌو يَسْهَرانِ معاً عَمْرٌو لِبِطْنَتِهِ والضيفُ للجُوعِ

عمرو يسهر لبطنته، لكثرة ما أكل وضيفه يسهر من الجوع

٥٩ محتار مع ضيفي

كيفَ احتِيالي لِبَسْطِ الضَّيْفِ مِنْ خَجَلٍ عند الطعامِ؟ فقد ضَاقَتْ بهِ حِيلَي

كيف أفعل لكي ينبسط الضيف ويترك خجله عند الطعام؟ قد أعيتني الحيلة

أَخافُ تَردَادَ قَولي كُلْ فَأُحْشِمُهُ والصمتُ يُنْزِلُهُ مِنِّي على البَخَلِ

أخاف أن أردد قولي له: كل، فأحشمه، أخجله، وإن صمتُّ ظنني بخيلاً

٦٠ النذير بعزرائيل

ألقَى عَصَاهُ وأرخَى مِنْ عِمَامَتِهِ وقال: ضيفٌ، فقلْتُ: الشيبُ؟ قال أَجَلْ

كأي ضيف ألقى عصا التسيار، وفك العمامة.. فإذا به الشيب..

فقلتُ أَخطَأْتَ دارَ الحَيِّ، قال: ولِمْ؟ مَضَتْ لَكَ الأَرْبَعُونَ الوُفْرُ، ثم نَزَلْ

قلت له أخطأت البيت، قال: لمَ هذا؟ لقد مضت لك أربعون سنة وافرة.. ثم نزل بي هذا الضيف

فمَا شَجِيتُ بِشَيْءٍ ما شَجِيتُ به كأنمَّا اعتَمَّ منهُ مَفْرِقي بِجَبَلْ

ما شجيت بشيء، حزنت له، مثلما حزنت بنزول الشيب،
فكأنما اعتم رأسي، تعمم بعمامة، هي الجبل ثقلاً

٦١ هي وساوس فقط

لا تَحْمَدَنْ حَسَناً بالجودِ إن مَطَرَتْ   كَفَّاهُ جَزْلاً ولا تَذْمُمْهُ إن رَزَمَا

لا تشكر «الحسن» على جوده إن مطرت كفاه بالعطاء الجزل، ولا تعبه إن رزم: ضم يده ولم يخرج شيئاً

فَلَيسَ يَبخَلُ إشفَاقاً على جِدَةٍ   ولا يَجُودُ لِفضلِ الجُودِ مُغتَنِما

فهو لا يبخل إشفاقاً، أي خوفاً، على جدةٍ، على مال، ولا يسخو اغتناماً منه لفضل السخاء

لكنَّها خَطَراتٌ مِنْ وَساوِسِهِ   يُعطي ويَمْنَعُ لا بُخْلاً ولا كَرَما

هي كلها وساس تعترية فلا هو بخيل ولا هو كريم

٦٢ المهين نفسه

إذا مَا أَهَانَ امْرُؤٌ نفسَهُ   فلا أَكْرَمَ اللَّهُ مَنْ يُكْرِمُهْ

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

ديكُ الجِنِّ الحِمْصِيّ
(١٦١هـ ـ ٢٣٥هـ)

في كثير من شعراء الشيعة اجتراء على الدين. كأنهم ـ في ظل حكم يتخذ السنة طريقاً ـ يتمردون على الحاكم وعلى مذهبه، وربما أيضاً على الأكثرية التي كانت في بقاع وعصور شتى على مذهب السنَّة. فتراهم لا يذكرون النبي إلا لأنه جد الحسين، ويتهاونون بالمعتقدات والعبادات، لأنها معقدات مشتركة بينهم وبين أهل السنة، فأين خصوصيتهم فيها؟ خصوصيتهم في أنهم لا يبجلون أبا بكر وعمر وعثمان، وفي أنهم يبكون الحسين بدموع أحر من التي يبكيه بها أهل السنة. وبكاء الحسين وعامة آل البيت فيه تنفيس عن «مظلومية» لا يفتأون يشعرون بها، وبعضها حق وبعضها مغالاة. وقد سار ديك الجن خطوة أخرى فأعلن شكه في صلب العقيدة. وقد سامحه أبو العلاء المعري فأدخله في «رسالة الغفران» الجنة، ربما لأنه كان مثله في هذا الأمر. وقد اهتم الشيعة حديثاً وقديماً بشعر ديك الجن اهتمام المسيحيين بشعر الأخطل، فكان في هذا الاهتمام حفظ لشعره واهتمام بالتنقيب عنه، وصنع له ديوانه بعض أبناء حمص واطَّلعنا من ذلك على ما صنعه مظهر الحجي (٢٠٠٤)، ولِمطلوب والجبوري نشرة للديوان (١٩٦٤).

على أن أهل السنة لم يقصروا في الاهتمام بشعر ديك الجن، ونظروا إليه من حيث هو شعر، هكذا فعل ابن خلكان في وفيات الأعيان.

ونحن في هذه المختارات لا نؤاخذ الشاعر على غلوه، وننظر إلى شعره. على أننا لا نحب في ديك الجن عنجهيته التي وصلت الذروة عندما قتل زوجته لمجرد أنه شك في إخلاصها.

ديك الجن الحمصي

هو عبد السلام بن رَغْبان. عربي الأصل، لكن جدّاً له سبي ـ ربما لأنه كان مع العرب الذين قاتلوا في جيش هرقل عند فتح الشام ـ فكان هذا الجد مولى قوم آخرين، أو لعله لم يكن، فنشأ ديك الجن غير معتز بنسبه العربي.

لقب ديك الجن لوصفه ديكاً أو لعينيه الخضراوين، وعاش في زمن الشعراء الكبار، فلقي أبا نواس وأبا تمام وعاصر البحتري، غير أنه لم يبرح حمص وجوارها. كان شاعر الأقاليم، ولم يحضر مجالس بغداد أيام كانت حاضرة الدنيا فقد عاصر ديك الجن، واعياً، هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق وحضر بضع سنوات من عهد المتوكل. كل هذا كان يحدث في بغداد وسامراء، وديك الجن قابع في حمص، قصاراه أن يلم بسَلَمِيَّة على بعد خمسين كيلومتراً فيمدح أخوين هاشميين وينال بعض العطاء. على أن شاعرنا ورث مالاً عن آبائه وأتلفه في ملذاته.

لئن لم يحظ ديك الجن بالشهرة لعدم وروده دار الخلافة فإنه حازها من طريق آخر. فقد قتل زوجته وحبيبته وقال في ذلك شعراً استطرفه الناس على مر الزمن وتناقلوه، وحاكوا حوله الأساطير.

تزوج فتاة نصرانية اسمها «ورد»، أو أن اسمها كان «دنيا»، واتهمها بخيانته فقتلها بسيفه دون أن يتثبت، فعاش مضطرب النفس، غير مستقر على يقين في أمرها. وليعش مضطرب النفس أو ليعش في جحيم، أليس قاتلاً؟ فأما تراثنا الأدبي ـ وأكاد أقول كله ـ فقد جعله بطلاً عاشقاً، وما رأيت أحداً التفت إلى أن هذا الشاعر الخليع المتوتر إنما ارتكب جريمة.

كان صاحب ملذات، قليل الإيمان بالآخرة، متشيعاً تشيعاً وصفوه بالحسن، وكان صحيح اللغة محلق الخيال، آخذاً في الشعر بمذهب مسلم بن الوليد في الاعتناء بالمحسنات، وقيل إنه كان قدوة أبي تمام. وقد اقتطف المتنبي من حديقته عدداً من المعاني.

١ مِشية الصهباء

وكأسِ صهباءَ صِرْفٍ ما سَرَتْ بِيَدٍ إلى فمٍ فَدَرَى ما طَعْمُ ضَرَّاءِ

رب كأس صهباء، خمر، صرف، خالصة غير ممزوجة، ما سرت، مشت، من يد إلى فم فدرى هذا الفم طعم الضراء، الأذى

كأنَّ مِشيَتَها في جِسْمِ شارِبِها   تَمَشِّيَ الصبحِ في أحشاءِ ظَلْمَاءِ

كأن مشيها التدريجي في جسم شاربها تسلل الصبح إلى أحشاء الظلمة

٢ مسؤول الصيانة

والسَّرْوُ تَحْسَبُهُ العيونُ غَوانِياً   قد شَمَّرَتْ عن سُوُقِها أثوابَها

السرو: شجر يسمق عالياً نحيلاً مستقيماً، والسوق: السيقان

ونَبَاتُ بِاقِلَّاءَ يُشْبِهُ لونُه   زُرْقَ الحَمامِ مُشيِلَةً أذنابَها

مشيلة: رافعة

لو كنتُ أَمْلِكُ لِلرياضِ صِيانةً   يوماً لَمَا وَطِئَ اللِّئامُ ترابَها

لو ملكت أن أصون الرياض لصنتها عن دخول اللئام إليها

٣ لا أريد أجراً

يرثي جعفر بن علي الهاشمي:

أَلَا أيها الرُّكْبانُ، والرَّدُّ واجِبُ،   قِفُوا حَدِّثُونا ما تقولُ النَّوادِبُ

قفوا أيها الراكبون إبلكم، وحدثونا بما تقوله النادبات في تعداد محاسن الفقيد

أَخاً كنتُ أَبكيهِ دَماً وَهْوَ نائمٌ   حِذاراً، وتَعْمَى مُقْلَتي وَهْوَ غائِبُ

كان لي أخاً، وكنت أبكيه دماً وهو نائم خوفاً عليه، وأما إن غاب فمقلتي تصاب بالعمى لشدة حزني عليه..

أَأَسْعَى لِأَحْظَى فيكَ بالأَجْرِ إنَّه   لَسَعْيٌ إذنْ مِنِّي لدى اللَّهِ خَائِبُ

والآن إذ مات هل أسعى في تشييعه طمعاً بأن أنال أجراً عليه؟ هذا سعي خائب

يقولونَ: مِقْدارٌ على المرءِ واجبٌ   فقلت: وإِعْوالٌ على المرءِ وَاجِبُ

يقولون الموت مقدر على الإنسان واجب الحدوث، وليس للمرء أن يبالغ في الحزن، فقلت لهم: والإعوال عليه واجب أيضاً

٤ شقيقة القمر

ومَجْدُولةٍ أمَّا مَلاثُ إِزَارِها   فَدِعْصٌ، وأما قَدُّها فقضيبُ

رب فتاة مجدولة القد، ملاث إزارها دعص، أي موضع لف التنورة من جسمها ككثيب الرمل، وقدها قضيب، غصن

لهَا القمرُ السَّاري شَقيقٌ، وإنَّها لَتَطْلُعُ أحياناً له فيغيبُ

القمر شقيقها وقد تطلع هي فيغيب حتى لا يقارن الناس بينه وبينها فتكون أجمل منه

٥ حليب الجمر

ودَمعةٌ في الخدِّ مَسفُوحَةٌ كأنها مِن جمرةٍ تُحْلَبُ

كأن الدمعة، لحرارتها، تُحلب من جمرة

ما امتَنَعَ الدمعُ وإِسبالُهُ عليَّ لَمَّا امتَنَعَ المَطْلَبُ

عندما امتنع حصولي على مطلبي من وصل الحبيبة فلن يمتنع علي إسبال الدمع وإسالته

٦ العارفون بقدري

ما شدَّةُ الحِرصِ مِن شأني ولا طَلَبي ولا المكاسِبُ مِن هَمِّي ولا أَرَبي

الحرص على العطاء ليس شأني، والمكاسب المادية ليس أربي، أي غايتي

لكنْ نَوائِبُ نَابَتني وحادِثةٌ والدهرُ يَطْرُقُ بِالأحداثِ والنُّوَبِ

لكنني أصبت بنوائب ونوب، أي بمصائب

وليس يَعرِفُ لي قَدْرِي ولا أدبي إلَّا امْرُؤٌ كانَ ذا قَدْرٍ وذا أَدَبِ

لا يُفْلِتَنَّكَ شُكرِي إذْ ظَفِرْتَ بِه فإِنَّها فُرْصَةٌ وَافَتْكَ مِن كَثَبِ

إن واتتك فرصة لنيل شكري، أي مدحي لك، فلا تفوتها

٧ زواج الطيور

مَن عَاشَ في الدنيا بغيرِ حبيبِ فحياتُه فيها حياةُ غريبِ

أَوَما تَرى الطَّيْرينِ كيف تَزاوَجا من غيرِ خَاطِبةٍ وغيرِ خَطيبِ

٨ عن أبي بكر وعمر

يا عينُ لا لِلغَضَا ولا الكُثُبِ بُكا الرَّزَايا سوى بُكَا الطَّرَبِ

لا تبكي يا عيني لشجر الغضا وكثبان الرمل حيث الأحبة، فبكاء الرزايا، المصائب الحقيقة، غير بكاء الطرب، أي الحزن لفراق الأحبة

يا عينُ في كَربلا مَقَابِرُ قد تَرَكْنَ قلبي مَقَابِرَ الكُرَبِ

في كربلاء مقابر لآل البيت جعلت قلبي مقبرة دفن فيها الكرب والحزن

لا بُـدَّ أن يُـحْـشَـرَ الـقـتـيـلُ وأنْ   يُـسْـأَلَ ذُو قَـتْـلِـهِ عـن الـسـبـبِ

لا بد أن يحشر الله القتيل وأن يسأل ذو قتله، الذي قتله، عن سبب القتل

مـا كـانَ تَـيْـمٌ لِـهَـاشِـمٍ بِـأَخٍ   ولا عَـدِيٌّ لِأَحْـمَـدٍ بِـأَبِ

تيم، جد قبيلة أبي بكر الصديق، ليس أخاً لهاشم، جد قبيلة هاشم التي منها الرسول، ولا عدي، جد قبيلة عمر بن الخطاب، من آباء أحمد، أي الرسول

قَـامـا بِـدعْـوَى فـي الـظُّـلْـمِ غَـالِـيَـةٍ   وحُـجَّـةٍ جَـزْلَـةٍ مِـن الـكَـذِبِ

قام الصديق وعمر بدعوى، هي طلب الخلافة، وهي ظالمة، وحجتهما فيها جزلة، صلبة كبيرة لكنها كاذبة

٩ القاتل الحزين

لـيـتَـنـي لـم أكُـنْ لِـعـطـفِـكِ نِـلْـتُ   وإلـى ذلـكَ الـوِصـالِ وَصَـلْـتُ

ليتني ما كنت أحببتك

قال ذُو الجهلِ قد حَلُمْتَ ولا أَعْـ   ـلَـمُ أنِّـي حَـلُـمْـتُ حتَّـى جَـهِـلْـتُ

الجاهل ظنني حلمت، صرت عاقلاً، لكنني ما عقلت حتى وقعت في الجهل، أي التهور

لائِـمٌ لـي بِـجَـهْـلِـهِ، ولِـمَـاذا   أنَـا وَحـدي أَحْـبَـبْـتُ ثـم قَـتَـلْـتُ

يلومني جاهلاً ويقول إنني أنا وحدي من أحب ثم قتل المحبوبة.. فهو لا يعرف السبب

سـوف آسَـى طـولَ الـحـياةِ وأبْـكـيـ   ـكِ عـلـى مـا فـعـلْـتِ لا مـا فـعـلْـتُ

سآسى، سأحزن، على فعلت أنتِ لا ما فعلتُ أنا

١٠ حدود المعشوقين

أعشَقُ الـمُـرْدَ والـنَّـكـارِيشَ والـشِّـيـ   ـبَ، وعِـنـدي مِـثْـلُ الـبَـنـيـنَ الـبَـنـاتُ

المرد: الفتية لم ينبت لهم شعر وجه بعد، النكاريش: الملتحون من الشباب، ولا فرق عندي بين البنين والبنات

حَـدُّ مـا يُـشْـتَـهـى ويُـعْـشَـقُ عِـنـدي   حَـيَـوانٌ تَـحِـلُّ فـيـهِ الـحَـيـاةُ

الحمد لله أنه لم يدخل النبات في المعادلة!

١١ ما فوق الشهوة الحيوانية

حَـدُّ مـا يُـنْـكَـحُ عِـنْـدي   حَـيَـوانٌ فـيـه روحُ

أنَا مِن قَولي مَليحٌ ... أو قَبيحٌ مُستَريحُ

ليس عندي قبيح ولا مليح

كلُّ مَن يَمشي على وجـ ... ـهِ الثَّرَى عِندي مَليحُ

١٢ مقت الحاسدين

فلو قالتِ الأيامُ هل لكَ حاجةٌ ... لقلتُ لها أن لا يُسَرَّ حَسودُ

١٣ رثاء ديك الإنس

دعَانا أبو عَمْرٍو عُمَيْرُ بنُ جعفرٍ ... على لَحْمِ ديكٍ دَعْوَةً بعدَ مَوْعِدِ

فقدَّمَ دِيكاً عُدْمُلِيًّاً مُلَدَّحاً ... مُبَرْنَسَ أثوابٍ مُؤَذِّنَ مَسجِدِ

قدم لنا ديكاً عدملياً، عتيقاً، ملدَّحاً، مضروباً جريحاً، مبرنس أثواب، ثوبه من الريش له برنس أي غطاء رأس هو عرف الديك، والديك يصيح وقت الفجر فهو كمؤذن المسجد

أَيُذْبَحُ بينَ المسلمينَ مُؤَذِّنٌ ... مُقيمٌ على دينِ النبيِّ محمدِ؟

١٤ جس الطبيب

ودَّعتُها ولهيبُ الشوقِ في كَبِدي ... والبينُ يُبعِدُ بين الروحِ والجَسَدِ

فكانَ أولُ عهدِ العينِ يومَ نَأَتْ ... بالدمعِ آخرَ عهدِ القلبِ بِالجَلَدِ

أول عهد عيني بالدمع لفراقها هو آخر عهد قلبي بالجلد، أي الصبر

جَسَّ الطبيبُ يَدي جَهلاً فقلتُ له: ... إن المحبَّةَ في قَلبي فَخَلِّ يَدي

١٥ رثاء المحبوبة القتيلة

قال يرثي زوجته بعد أن قتلها:

أَساكنَ حُفرةٍ وقرارِ لَحْدِ ... مفارقَ خُلَّةٍ مِنْ بَعدِ عهدِ

خلة: حبيب

أَجِبْني إن قَدَرْتَ على جوابي ... بِحَقِّ الوُدِّ كيف ظَلِلْتَ بَعدي

وأين حَلَلْتَ بعد حُلولِ قَلبي ... وأَحشائي وأَضْلاعي وكِبْدي

أَمَا واللَّهِ لو عَايَنْتَ وَجْدي ... إذا اسْتَعْبَرْتُ في الظَّلْماءِ وَحدي

لو رأيت وجدي، حزني، إذا استعبرت، بكيت، في الظلمة وحدي

وَجَدَّ تَنَفُّسي وعَلا زَفيري ... وفاضَتْ عَبْرَتي في صَحْنِ خَدِّي

إذَنْ لَعَلِمْتَ أنِّيَ عن قَريبٍ ... سَتُحْفَرُ حُفرتي ويُشَقُّ لَحدي

ويَعْذِلُني السَّفيهُ على بكائي ... كأنِّيَ مُبْتَلىً بالحزنِ وَحْدي

يقولُ: قَتَلْتَها سَفَهاً وجَهْلاً ... وتَبْكيها بُكاءً ليس يُجْدي

كَصَيَّادِ الطُّيورِ له انتِحابٌ ... عليها وَهْوَ يَذْبَحُها بِحَدِّ

١٦ تناولها من خده

بِها، غيرَ مَعذُولٍ، فَدَاوِ خُمَارَها ... وصِلْ بِعَشِيَّاتِ الغَبُوقِ ابتِكارَها

عالِج الخمار، أي صداع الخمر، بشرب مزيد من الخمر، وصل عشيات الغبوق، والغبوق شراب المساء، بالابتكار صباحاً والشرب

ونَلْ مِن عَظيمِ الوِزْرِ كلَّ عظيمةٍ ... إذا ذُكِرَتْ خافَ الحَفيظانِ نارَها

نل الذنب العظيم الذي يخاف حتى الحفيظان، الملكان القائمان على كتفيك، من النار التي ستشويك شياً بسبب هذه الذنوب

فقامَ تكادُ الكأسُ تُحرِقُ كَفَّهُ ... مِن الشمسِ أو مِنْ وَجْنَتَيْهِ استعَارها

قام المحبوب وبيده الكأس وفيها خمرة تلقي بلونها على كفه فكأنها تكاد تحرقها.. وكأنه استعار هذه الخمر من الشمس أو من وجنتيه الحمراوين

ظَلَلنا بِأَيْدينا نُتَعْتِعُ رُوحَها ... فتَأْخُذُ مِن أقدامِنا الرَّاحُ ثَارَها

نتعتع، نهز بعنف، ونهلك الخمر إذ نشربها، ولكنها تثأر من أقدامنا وتجعلنا نمشي متمايلين سكراً

مُوَرَّدَةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كأنَّما ... تَناوَلَها مِن خَدِّهِ فَأَدَارَها

قيل مر أبو نواس بحمص في طريقه إلى مصر، فعرج على ديك الجن، فلم يخرج إليه شاعرنا حتى لا يظهر أنه مقصر بالنسبة إلى أبي نواس، فقال أبو نواس للجارية: قولي له إنك فتنت أهل العراق بقولك «تناولها من خده فأدارها» فخرج ديك الجن واستقبل أبا نواس

١٧ النائم والصاحي

مَن نامَ لم يَدْرِ طالَ النَّوْمُ أم قَصُرا ... لا يعرفُ الليلَ إلَّا عاشقٌ سَهِرا

١٨ هجاء

وقال يهجو ابن عمه أبا الطيب:

سبحانَ مَنْ يُمْسِكُ السماءَ على الـ ... أرضِ وفيها أَخْلاقُكَ القَذِرَةْ

١٩ اسألا أو لا تسألا

سَلا هل كَمَجْديِ أو كَفَخْرِيِ لِفَاخِرٍ   وعندكُما مِنْ قبلِ أن تَسأَلا خَبَرْ

٢٠ الحق أبلج

وقال يمدح علياً ويرثي آله:

ما أنتِ مِنّي ولا رَبْعاكِ لي وَطَرُ   الهَمُّ أَمْلَكُ بي والشوقُ والفِكَرُ

الحبيب وربوع الحبيب ليست وطري، فقد ملكني الهم والشوق والتفكير

ورَاعَها أنَّ دمعاً فاضَ مُنتَثِراً   لا، أو تَرَى كَبِدي لِلحُزْنِ تَنتَثِرُ

راعها، أفزعها حزناً، أن ترى دمعي منتثراً على خديَّ، لا يكفيني هذا وجدير بها أن ترى كبدي تتشقق وتنتثر حزناً

أَينَ الحسينُ وقَتلَى مِنْ بَنِي حَسَنٍ   وجَعفرٍ وعَقيلٍ غَالَهُمْ غَمِرُ

اغتال هؤلاء الطالبيين غمر، جاهل حاقد

قتلَى يَحِنُّ إليها البيتُ والحَجَرُ   شَوقاً، وتَبكيهِمُ الآياتُ والسُّوَرُ

الكعبة والحجر الأسود يحنان شوقاً لهؤلاء وتبكيهم آيات القرآن وسوره

مَاتَ الحسينُ بِأَيْدٍ مِن مَغائِظِها   طُولٌ عليهِ وفي إشْفَاقِها قِصَرُ

مات الحسين بأيد طويلة لكثرة غيظها، ولكنها كانت قصيرة عن أي إشفاق أو رحمة

لا دَرَّ دَرُّ الأَعاديِ عندما وَتَرُوا   ودَرَّ دَرُّكِ مَا تَحْوِينَ يا حُفَرُ

وتروا: أنهضوا ثأراً

رِدُوا هنيئاً مريئاً آلَ فاطمةٍ   حوضَ الرَّدَى فارْتَضُوا بِالقتلِ واصطَبِرُوا

أَبكيكُمُ يا بَنِي بنتِ الرسولِ، ولا   عَفَّتْ مَحَلَّكُمُ الأنواءُ والمَطَرُ

لا عفت محلكم، لا خربته، الأنواء، أي الأمطار

مَا لِيِ فَرَاغٌ إلى عثمانَ أَنْدُبُهُ   ولا شَجَانِي أبو بَكْرٍ ولا عمرُ

كَفَى بأنَّ أَناةَ اللَّهِ واقعةٌ   يوماً، ولِلَّهِ في هذا الوَرى نَظَرُ

المعنى الملموح: الله يمهل ولا يهمل

مَن ذا الذي كَلَّمَتْهُ البِيدُ والشَّجَرُ   وسَلَّمَ الرَّبُّ إذ نَاداهُ والحَجَرُ

يصف مآثر علي بن أبي طالب ويعدد كراماته

حتى إذا أَبْصَرَ الأحياءُ مِن يَمَنٍ   بُرهَانَهُ آمَنوا مِنْ بعدِما كَفَروا

أمْ مَن حَوى قَصَباتِ السَّبْقِ دُونَهُمُ   يومَ القَليبِ وفي أعْناقِهِمْ زَوَرُ

يوم القليب: يوم بدر حين دفن قتلى قريش في القليب أي البئر، وقد ازورَّت، أي مالت، أعناقهم

أم مَن رَسَا يومَ أُحْدٍ ثابتاً قدَماً   وفي حُنَينٍ وسَلْعٍ بعدَما عَثَرُوا

سلع: جبل تحصن به المسلمون في غزوة الخندق، وعنده بارز عليٌ عمرو بن ود

أليس قامَ رسولُ اللّهِ يَخطُبُهُمْ   وقال: مَولاكُمُ ذا أيُّها البَشَرُ

أَضَبْعُ غيرِ عَليٍّ كانَ رَافِعَهُ   مُحمدُ الخيرِ أم لا تَعقِلُ الحُمُرُ؟

أما رفع الرسول ضبع علي، أي عضده، كي يراه الناس؟

دَعُوا التَّخَبُّطَ في عَشْواءَ مُظلِمةٍ   لم يَبْدُ لا كَوكَبٌ فيها ولا قَمَرُ

عشواء: ليلة لا يبصر المرء فيها

الحقُّ أَبْلَجُ والأعلامُ واضِحَةٌ   لو آمَنَتْ أَنْفُسُ الشَّانِينَ أو نَظَروا

أبلج: واضح، الأعلام: الجبال، الشانين: الشانئين الكارهين

٢١ خدور المعاصر

وراحٍ كَريحِ المِسْكِ يَنْزُو حَبَابُها   كنَزْوِ الدَّبَى مَطبوخَةٍ بِالهَواجِرِ

الخمر ينزو حبابها، تقفز فقاقيعها، كقفز الدبى، أي الجراد، مطبوخة بالهواجر، أي أن الجراد محترَّ من القيظ الشديد فلذا يقفز، وكذا ظن الأخطل، ونحن نظن الجراد قافزاً حتى لو في القطب الجنوبي

عَرُوسٌ تَبَدَّتْ في قَميصٍ مُعَصْفَرٍ   وفي كِلَّةٍ صَفراءَ ذاتِ جَبائِرِ

الخمر بدت عروساً في قميص معصفر، مصبوغ بالعصفر الأصفر المحمر، ويصف العروس فهي داخل كلة صفراء ذات جبائر، أي ستار منصوب بعصيّ

أَتَتْنا بِها الدَّاياتُ في يومِ عُرْسِها   تُزَفُّ إلينا مِن خُدُورِ المَعَاصِرِ

أتتنا الدايات، هنا الوصيفات، بالعروس وزفتها إليها.. لكن عروسنا لم تأت من خدور أهلها، والخدور هي الستور التي تختفي وراءها النساء في البيوت، بل جاءت عروسنا من خدور المغاصر.. إذ هي الخمر

٢٢ الصحراء

يا رُبَّ خَرْقٍ كأنَّ اللّهَ قالَ له   إذا طَوَتْكَ رِقابُ القومِ فانْتَشِرِ

الخرق: الصحراء. والصحراء لا تشبه الثوب الذي تطويه فينطوي، بل أنت تطويها فتراها انتشرت أمامك.. هي بلا نهاية.

٢٣ سابقوك وما سبقوك

أَصبَحْتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ وأَبِيتُ مُنْطَوِياً على الجَمْرِ

بلابل الصدر: همومه

إن بُحْتُ يوماً طُلَّ فيهِ دَمي ولئنْ كَتَمْتُ يَضِقْ بِه صَدري

مِمَّا جَنَاهُ على أبِي حَسَنٍ عُمَرٌ وصَاحِبُهُ أبُو بَكْرِ

أبو حسن: علي بن أبي طالب

جعلوكَ رابعَهُمْ أبا حسنٍ ظَلموا وربِّ الشَّفْعِ والوَتْرِ

«والشفع والوتر» من القرآن

وعلى الخِلافَةِ سابَقُوكَ ومَا سَبَقُوكَ في أُحُدٍ ولا بَدْرِ

٢٤ الضحك والبكاء

وتمايَلَتْ فَضَحِكْتُ مِن أَردَافِها عَجَباً، ولكِنِّي بَكَيْتُ لِخَصْرِها

اخترنا هذا البيت لترى سماجة الشعراء عندما يتغزلون بأرداف النساء

٢٥ الندم

قَمَرٌ أنا اسْتَخْرَجْتُهُ مِن دَجْنِهِ لِبَلِيَّتِي وجَلَوْتُهُ مِن خِدْرِهِ

استخرجت هذا القمر من دجنه، أي ظلمته، فكأنه أخذ القمر من وسط السماء المظلمة المحيطة به، وكانت «ورد» فتاة مسيحية أحبها فتزوجها، ولكنه اكتشف أنه ابتلى نفسه. جلوته من خدره: أي أبرزته من الستر الذي تستتر به المرأة

فقَتلْتُهُ وله عَلَيَّ كَرامةٌ مِلْءَ الحَشا ولَه الفُؤادُ بِأَسْرِهِ

عَهدِي به مَيْتاً كأَحْسَنِ نائِمٍ والحزنُ يَسْفَحُ عَبْرَتِي في نَحرِهِ

يسفح عبرتي: يسكب دمعتي

لو كانَ يَدري المَيْتُ ماذا بعدَه بِالحَيِّ حَلَّ، بَكَى له في قَبْرِهِ

غُصَصٌ تَكادُ تَفِيظُ منها نَفسُهُ وتَكادُ تُخْرِجُ قلبَهُ مِن صَدْرِهِ

تفيظ النفس: تخرج بالموت

٢٦ نصف ندم

قُلْ لِمَنْ كانَ وَجهُهُ كَضِياءِ الشَّـ ـمْسِ في حُسْنِهِ وبَدْرٍ مُنيرِ

كنتَ زَيْنَ الأحياءِ إذْ كنتَ فيِهِمْ ثـم قـد صِـرْتَ زَيْـنَ أهـلِ الـقُـبـورِ
بِـأبـي أنـتَ فـي الـحـيـاةِ وفـي الـمـو تِ وتَـحـتَ الـثَّـرى ويـومَ الـنُّـشُـورِ

أفديك بأبي في حياتك وموتك وإذ أنت دفين، ويوم النشور، أي البعث

خُنْتَني في المَغيبِ والخَوْنُ نُكْرٌ وذَمـيـمٌ فـي سَـالِـفَـاتِ الـدُّهـورِ
فَشَفاني سيْفي وأَسْرعَ في حَزٍّ - الـتَّـراقـي قَـطْـعـاً وحَـزِّ الـنُّـحُـورِ

التراقي: عظام أعلى الصدر

٢٧ قطرات النفس

ليسَ ذا الدمعُ دمعَ عيني، ولكنْ هِـيَ نـفْـسـي تُـذيـبُـهـا أنـفـاسـي

٢٨ عين اللص

يـرقُدُ الـنـاسُ آمِـنـينَ ورَيْـبُ الـدَّ - هـرِ يَـرعَـاهُـمُ بِـمُـقْـلَـةِ لِـصٍّ
أَنـا أُحْصـي فيِك النُّجومَ، ولَكـنْ لِـذُنـوبِ الـزَّمَـانِ لَـسْـتُ بِـمُـحْـصِ

ساهر بسببك أعد النجوم، وأما ذنوب الزمن الذي عذبني بحبك فلا حصر لها

٢٩ ندم بلا تبرير

وآنِسَـةٍ عَـذْبِ الـثَّـنـايـا وَجَـدْتُـهـا على خَطَّةٍ فيها لِذي اللُّبِّ مَتْلَفُ

آنسة عذبة الثنايا، الأسنان، وجدت أنها تتلف عقل الإنسان

فَأَصْلَتُّ حَدَّ السيفِ في حُرِّ وجهِها وقَلبي عليها مِن جَوَى الوَجْدِ يَرْجُفُ

أصلتُّ السيف، أي جردته، وجعلته في حر وجهها، أي وسطه، وقلبي يرتجف وجداً وحباً لها

فَخَرَّتْ كـمـا خَـرَّتْ مَـهَـاةٌ أَصَـابَـهـا أَخُـو قَـنَـصٍ مُـسْـتَـعـجِـلٌ مُـتَـعَـسِّـفُ

خرت، سقطت، كبقرة وحش أصابها أخو قنص، صائد، متعجل ومتعسف، ظالم

سَيَقْتُلُني حُزناً عـلـيـهـا تَـأَسُّـفـي وهيْهَاتَ، ما يُجدِي عَلَيَّ التَّأَسُّفُ

٣٠ المبتليك هو المعافي

إذا شَـجَـرُ الـمَـوَدَّةِ لـم تَـجُـدْهُ سَـمـاءُ الـبِـرِّ أَسْـرَعَ فـي الـجَـفَـافِ

تجده: تمطره

هِيَ الدُّنيا وقد نَعِمُوا بِأُخرى   وتَسويفُ النفوسِ مِن السَّوافِ

هذه دنيانا، ويتنعم الناس بتذكر الجنة في الآخرة، ولكن تسويف النفوس، تأخيرها، من السواف من الهلاك

فإنْ كَذَبُوا أَمِنْتُ وإن أَصَابوا   فإنَّ المُبْتَلِيكَ هُوَ المُعَافي

إن كذبوا بشأن الجنة فأنا آمن، وإن أصابوا وصدقوا فإن الذي ابتلاني بهذا الشك هو من يعافيني وينقذني من العذاب

وأَصْدَقُ مَا أَبُثُّكَ أنَّ قَلبي   بِتصديقِ القِيامةِ غيرُ صَافِ

٣١ المقسومة نصفين

ومُمَشَّقِ الحَركاتِ تَحسَبُ نِصْفَهُ   لولا التَّمَنْطُقُ مَائلاً عن نِصْفِهِ

لولا أنها تتخذ نطاقاً على خصرها لظننت جسمها مقسوماً نصفين

يَسعَى إلَيَّ بِكأْسِهِ فكأنَّما   يَسعَى إلَيَّ بِدُرَّةٍ في كَفِّهِ

٣٢ رثاء الحسين

جَاءُوا بِرَأْسِكَ يا ابنَ بنتِ محمدٍ   مُتَرَمِّلاً بِدمائِهِ تَرمِيلا

مترملاً : ملطخاً

وكأنَّما بَكَ يا ابْنَ بنتِ محمدٍ   قَتَلُوا جَهاراً عَامِدينَ رَسولا

قتلوكَ عَطْشاناً ولَمَّا يَرْقُبُوا   في قَتلِكَ التَّنزيلَ والتَّأْويلا

ويُكَبِّرونَ بِأَنْ قُتِلْتَ وإنَّما   قَتَلُوا بِكَ التكبيرَ والتَّهليلا

٣٣ مقام علي

إنَّ الرسولَ لم يزلْ يقولُ   والخيرُ ما قالَ به الرسولُ

إنَّكَ مِنِّي يا عَلِيُّ الأبي   بِحَيْثُ مِن مُوسَاهُ هَارونُ النَّبي

لكنَّهُ ليس نَبِيَّ بَعدي   فأنتَ خيرُ العَالَمِينَ عِندي

وأنتَ لِي أخٌ وأنتَ الصِّهْرُ   زَوَّجَكَ الذي إليهِ الأَمرُ

رَبُّ العُلَى بِفَاطِمِ الزَّهْراءِ   ذاتِ الهُدى سَيِّدَةِ النِّساءِ

٣٤ تعزية

يعزي جعفر بن علي الهاشمي في زوجته:

نَـغْـفَـلُ والأيَّـامُ لا تَـغْـفَـلُ ولا لـنـا فـي زَمَـنٍ مَـوْئِـلُ

موئل: ملاذ وملجأ

والـدهـرُ لا يَـسْـلَـمُ مِـنْ صَـرْفِـهِ أَعْـصَـمُ فـي الـقُـنَّـةِ مُـسْـتَـوْعِـلُ

لا يسلم من مصائب الزمن الوعل الأعصم، تيس الجبل الذي في معاصمه أسفل القوائم بياض، المحتمي بالقنة، أي القمة

يَـتَّـخِـذُ الـشِّـعْـرى شِـعـاراً لـه كـأنَّـمـا الأُفْـقُ لـه مَـنـزِلُ

هذا الوعل يتخذ من الشعرى، بعض النجوم، شعاراً له، والشعار اللباس الداخلي الملاصق لشعر البدن

جـادَ عـلـى قـبـرِكَ مِـن مَـيِّـتٍ بِـالـرَّوْحِ رَبٌّ لَـكَ لا يَـبْـخَـلُ

جاد: أمطر، الروح: الرحمة

غَـيـثٌ تَـرى الأَرضَ عـلـى وَبْـلِـهِ تَـضْـحَـكُ إلَّا أنـه يَـهْـمُـلُ

جاد قبرها الغيث، المطر، الذي تضحك الأرض من وبله، انهماره، لأنها تخرج الرياحين غب المطر، على أن المطر يهمل، يبكي.. اصطياد متعب للطباق

٣٥ الفادي الشجاع

ومَـن كَـعَـلِـيٍّ فَدَى الـمُـصـطفَـى بِـنَـفْـسٍ، ونـام فـمـا يَـحْـفِـلُ

افتدى علي النبي عندما نام في فراشه ليلة هجرة النبي من مكة

عَـشِـيَّـةَ جـاءتْ قُـريـشٌ لـه وقـد هَـاجرَ الـمـصطفى المرسَلُ

ومَـنْ كَـعَـلِـيٍّ إذا مـا دَعَـوْا نَـزَالِ، وقـد قَـلَّ مَـن يَـنْـزِلُ

دعوا نزالِ: صرخوا هيا للمبارزة

سَـطـا يـومَ بَـدْرٍ بِـقِـرْضَـابِـهِ وفـي أُحُـدٍ لـم يَـزَلْ يَـحْـمِـلُ

قرضابه: سيفه، يحمل: يشن حملة على العدو

ومِـن بَـأْسِـهِ فُـتِـحَـتْ خَـيْـبَـرٌ ولـم يُـنْـجِـهـا بَـابُـهـا الـمُـقْـفَـلُ

٣٦ ما الحب إلا للحبيب الأخير

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئْتَ فلن تَرى كَهوىً جَديدٍ أو كَوَصْلٍ مُقْبِلِ

مِقَتي لِمَنزِلِيَ الذي استحدَثْتُهُ   أمَّا الذي وَلَّى فليس بِمَنزِلي

مقتي: المِقَةُ هي الحب. وفي البيتين رد على أبي تمام القائل: نقل فؤادك حيث شئت من الهوى/ ما الحب إلا للحبيب الأول

٣٧ إن لم تكن ذئباً

لا تَقِفْ للزمانِ في منزلِ الضَّيْـ   ـمِ، ولا تَسْتَكِنْ لِرِقَّةِ حَالِ

لا تقف موقف ضيم تكون فيه مضيماً مظلوماً، وإياك والاستكانة لرقة الحال، أي الفقر

وإذا خِفْتَ أن يُرَاهِقَكَ العُدْ   مُ فَعُذْ بِالمُثَقَّفَاتِ العَوالي

إن خفت أن يراهقك، يرهقك باستمرار، العدم، أي الفقر، فعذ بالمثقفات العوالي، فالجأ إلى الرماح المشذبة

وأَهِنْ نفسَكَ الكَريمةَ لِلمو   تِ وقَحِّمْ بِها على الأَهوالِ

قحم: اقتحم

فَلَعَمْري لَلموتُ أَزْيَنُ لِلحرِّ -   مِنَ الذُّلِّ ضَارعاً لِلرجالِ

ضارعاً: ذليلاً

أيُّ مَاءٍ يَدورُ في وَجهِكَ الحرِّ -   إذا ما امْتَهَنْتَهُ بِالسُّؤَالِ

ماء الوجه: الكرامة، امتهنته بالسؤال: أهنته بالاستجداء

غَاضَتِ المَكْرُماتُ وانقَرَضَ النا   سُ، وبادَتْ سَحائِبُ الإِفْضالِ

غاضت المكرمات، جفت كما تجف مياه البئر، وانقرض الناس الكرام، وبادت غيوم الفضل والسخاء

فَقليلٌ مِنَ الوَرى مَن تَراهُ   يُرْتَجى، أو يَصُونُ عِرضاً بِمالِ

ذَهَبَ الناسُ فاطْلُبِ الرزقَ بالسَّيْـ   ـفِ، وإِلَّا فَمُتْ شَديدَ الهُزالِ

الناس، أي الناس الكرام، ومن هنا قول أحمد شوقي «أنتم الناس أيها الشعراء»

٣٨ التجمل بالحرام

أنا مَا لِي ولِلصِّيامِ وقد حا   نَ على المسلمينَ شهرُ الصيامِ

تَاركاً لِلجِهادِ والحَجِّ والعُمْـ   ـرَةِ والجِلِّ رَاغِباً في الحَرامِ

واسْقِني يا أخَا المُدامَةِ كأساً   منكَ مَمزُوجَةً بِماءِ الغَمامِ

واقِـفـاً بـيــن فَـتْـكَـةٍ ومُـجـونِ   رَاقِـصاً في الصَّلاةِ خلفَ الإمامِ
أنــا لا أطــلــبُ الــحــلالَ لِأنِّــي   قـد وجـدتُ الـحـرامَ خيـرَ طَـعـامِ

٣٩ المختفي عشقاً

قـد سَمِـعـتُـمْ أنـيـنَـهُ مِـن بَـعـيـدٍ   فاطلُبوا الشخصَ حيثُ كانَ الأنينُ

ابحثوا عن الشخص مستدلين عليه بأنينه

مــا تَـراهُ الـعـيــونُ إلّا ظُـنــونــاً   هُـوَ أَخْـفـى مِـنْ أن تَـراهُ الـعـيـونُ

فهذا العاشق صار نحيلاً فلم يعد يبدو للعين.. سيسبح المتنبي بعد عقود كثيرة في هذه البركة

لـم يَـعِـشْ أنَّـه جَـلـيـدٌ ولـكِـنْ   دَقَّ جِـدّاً فـمـا تَـراهُ الـمَـنُـونُ

هذا العاشق لم يستمر في الحياة لأنه صبور، بل لأن جسمه دق، صغر، إلى درجة أن الموت لم يعد يراه. مبالغة طريفة

٤٠ طاقية الإخفاء

ولـو أنَّ أحـداثَ الـزمـانِ أَرَدْنَـنـي   بِـخـيـرٍ وشَـرٍّ مـا عَـرَفْـنَ مَـكـانـي

لشدة هزال العاشق اختفى شخصه فلم تعد أحداث الزمن تعثر عليه

٤١ هو والصيام

ما زَال مِنْ بُغْضِ الصيامِ مُبَغَّضاً   يـومُ الـخـمـيـسِ إلَـيَّ والإثْـنـيـنِ

ومن أجبرك على صيامهما؟ قال الشاعر: إذا جحد الله والمرسلين فكيف نعاتبه في عمر؟

٤٢ أعرفُ نفسي

أيُّــهـــا الـــســـائـــلُ عَـنِّـــي   لَـــسْـــتَ بـــي أخـــبَـــرَ مِـــنِّـــي
أنـــا إنـــســـانٌ بَـــرانـــي الـــ   ـلـــهُ فـــي صـــورةِ جِـــنِّـــي
بـل أنـا الأَسْـمَـجُ فـي الـعـيـ   ـنِ، فـدعْ عـنـكَ الـتَّـظَـنّـي

التظني: التخمين

أنــا لا أَسْــلَــمُ مِــن نَــفــ   ــسـي فـمَـن يَـسْـلَـمُ مِـنّـي

٤٣ خنت سري فموتي علانية

قال يتهم زوجته القتيلة بالخيانة:

لــــكَ نَـــفْـــسٌ مُـــوَاتِـــيَـــةٌ والـــمَـــنَـــايَـــا مُـــعَـــادِيَـــةْ

نفسك مواتية، مقبلة على الحياة، ولكن الموت عدو يترصدك

أيُّـهـا الـقـلـبُ لا تَـعُـدْ لِـهـوى الـبـيـضِ ثَـانِـيَـةْ

البيض: الحسان

لـيـس بَـرْقٌ يـكـونُ أَخْـ ـلَـبَ مِـن بَـرْقِ غَـانِـيَـةْ

البرق الخلب، الذي لا يأتي بعده مطر، ليس أكثر خداعاً من الحسناء

خُـنْـتِ سِـرِّي ولـم أَخُـنْـ ـكِ فَـمُـوتـي عَـلانِـيَـةْ

٤٤ رثاء أبي تمام

فُجِعَ القَريضُ بِخاتَمِ الشُّعَراءِ وغَديرِ رَوْضَتِها حبيبِ الطَّائي

ماتا معاً فتجاوَرَا في حُفْرَةٍ وكذاك كانا قبلُ في الأَحياءِ

٤٥ الدخول في الإيمان من النافذة

بِـأَبـي فَـمٌ شَـهِـدَ الـضـمـيـرُ لـه قـبـلَ الـمَـذَاقِ بِـأَنَّـه عَـذْبُ

أفدي بأبي فماً عذباً أحس بعذوبته قبل القبلات. الشاعر العربي كان يتغنى بالشفاه وبالقبلات وبالريق العذب، ونسي أن القبلة إنما تعذب إذا استقبلها ثغر الحبيبة مشتاقاً إليها، يقول المثل الإنجليزي: لا بد من اثنين لرقصة التانغو

كَـشَـهـادَتـي لـلَّـهِ خـالِـصَـةً قـبـلَ الـعِـيَـانِ بـأنَّـه رَبُّ

العيان: الرؤية

٤٦ فتنة الحواجّ

فـوقَ الـعـيـونِ حَـواجِـبٌ زُجُّ تـحـتِ الـحَـواجِـبِ أَعْـيُـنٌ دُعْـجُ

زج: مزججات مدببات، الأعين الدعج: الواسعة السوداء في شدة بياض

وإذا نَـظَـرْنَ رَمَـقْـنَ عـن مُـقَـلٍ تَـسـبـي الـعـيـونَ فَـحَـشْـوُهـا غُـنْـجُ

وَافَـيْـنَ مـكـةَ لـلـحَـجـيـجِ فـلـم يَـسْـلَـمْ بِـهِـنَّ لِـمُـسـلـمٍ حَـجُّ

٤٧ خوش حجة

يــا بَـديــعَ الــدَّلِّ والــغَـنَـجِ   لَـكَ سـلـطـانٌ عـلـى الـمُـهَـجِ
إنَّ بــيـتــاً أنــتَ ســاكِــنُــهُ   غــيــرُ مــحــتــاجٍ إلــى الـسُّـرُجِ

السرج: جمع سراج

وجهُكَ المَعشوقُ حُجَّتُنا   يومَ يَأْتي الناسُ بالحُجَجِ

إذا طلبت منا حجة يوم القيامة لتبرير عشقنا وتغزلنا فوجهك هو الحجة لأنه لا يقاوم، سنقول لله: خلقت مثل هذا الوجه وتريدنا ألا ننظر؟

٤٨ من خده تعصر

وقَـهْـوةٍ كَـوكَـبُـهَـا يَـزْهَـرُ   يَـنْفَحُ منها المِسْكُ والعَنبرُ

يزهر: يضيء، قهوة: خمر، ينفح: تفوح رائحته

وَرْدِيَّـةٍ يَـحـمِـلُـهـا شـادِنٌ   كـأنَّـهـا مِـن خَـدِّهِ تُـعْـصَـرُ

الخمر وردية يحملها شادن، أي غزال، وخده أحمر فكأن الخمر عصرت من خده

٤٩ خرافة

أأَتْرُكُ لَذَّةَ الصَّهباءِ عَمْداً   لِمَا وَعَدُوهُ مِن لَبنٍ وخَمْرِ
حَياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ   حديثُ خُرافَةٍ يا أمَّ عَمْرِو

خرافة: اسم رجل كان يحدث الناس بالمستحيلات، فسموا كل حديث مستحيل «حديث خرافة» ثم صاروا يقولون «خرافة»

٥٠ التعفير ثم السعير

قال في نصرانية:

لَمَّا نظَرْتِ إلَيَّ عن حَدَقِ المَها   وبَسَمْتِ عن مُتَفَتِّحِ النَّوَّارِ

نظرتِ إليَّ بعينيك المشبهتين عيون بقر الوحش الواسعة، وبسمت عن ثغر كأنه الزهر المتفتح

وعَقَدتِ بين قَضيبِ بانٍ أهْيَفٍ   وكثيبِ رملٍ عُقْدَةَ الزُّنَّارِ

وعقدت بن جذعك الذي يشبه غصن البان وبين عجيزتك المشبهة كثيب الرمل بزنار

عَفَّرْتُ خَدِّي في الثَّرَى لَكِ طَائعاً   وعَزَمْتُ فيكِ على دُخولِ النَّارِ

٥١ المبادرة

وحَمْراءَ قبلَ المزجِ صَفراءَ بعدَهُ ... أتَتْ بين ثَوْبَيْ نَرجِسٍ وشَقَائِقِ

يصف الخمر وكيف يتغير لونها بالمزج وأنها تقدم في مجلس فيه النرجس والشقائق

حَكَتْ وَجْنَةَ المعشوقِ صِرْفاً فَسَلَّطُوا ... مِزاجاً عليها فاكتَسَتْ لونَ عاشقِ

كانت حمراء كوجنة المعشوق، خده، فمع المزج صارت صفراء كلون المريض عشقاً

فقُمْ واغتَنِمْ واشربْ على كلِّ روضةٍ ... وفي كلِّ بستانٍ وبينَ الحدائقِ

فما العمرُ إلَّا صِحَّةٌ وشَبيبةٌ ... وكأسٌ وقربٌ مِن حبيبٍ مُوافِقِ

ومَن عَرفَ الأيامَ لم يَغْتَرِرْ بها ... وبادَرَ بِاللَّذَّاتِ قبلَ العَوائِقِ

٥٢ موانع التوبة

يقولونَ: تُبْ والكأسُ في كَفِّ أَغْيَدٍ ... وصوتُ المَثاني والمَثالِثِ عَالِ

يقولون تب عن اللهو وأنا أرى الكأس في كف فتاة غيداء، متثنية غنجاً، وصوت المثاني والمثالث، الأنغام، عالٍ

فقلتُ لَهُمْ: لو كنتُ أَضْمَرْتُ تَوبَةً ... وعايَنْتُ هذا في المنامِ، بَدَا لي

قلت لهم: لو كنت نويت التوبة ثم رأيت هذا في المنام لبدا لي،
«بدا لي» معناها القديم «غيرت رأيي»

٥٣ حياة ثم موت ثم بعث

لا مُتِّ قَبْليَ، بل أَحيا وأَنْتِ مَعاً ... ولا أعيشُ إلى يوم تَموتينا

لكنْ نَعيشُ بِما نَهوى ونَأْمُلُهُ ... ويُرْغِمُ اللَّهُ فينا أَنفَ وَاشِينا

حتى إذا قَدَّرَ الرحمنُ ميتَتَنا ... وحانَ مِن أمْرِنا ما ليس يَعْدُونا

ما ليس يعدونا: ما لن نفر منه

مُتْنا جَميعاً كَغُصْنَيْ بَانَةٍ ذَبُلا ... مِن بعدِ ما نَضَرا واسْتَوْسَقا حينا

استوسقا: أثمرا

ثم السَّلامُ علينا في مضاجِعِنا ... حتى نعودَ إلى ميزانِ مُنْشينا

مضاجعنا: قبورنا، منشينا: خالقنا

فإن نَنَلْ عَفْوَهُ فالخُلْدُ يجمعُنا ... إن شاءَ، أو في لَظىً إن شاءَ يُلقينا

حتى يقولَ جميعُ الخَالِدينَ بِها يَا ليتَ أنَّا معاً كُنَّا مُحِبِّينا

سيحسدنا الخالدون في النار لأننا ظللنا معاً. كأنه واثق من أن هناك «اختلاطاً» في الجحيم!

٥٤ الأحلام والأماني

تَمَتَّعْ مِنَ الدنيا فإنكَ فَانِ وإنَّكَ في أيدِي الحوادثِ عَانِ

عان: أسير

فإنِّي رأيتُ الدهرَ يُسرعُ بالفَتى وينقُلُه حَالَيْنِ يَختلفانِ

فأمَّا الذي يَمْضي فأحلامُ نائِمٍ وأمَّا الذي يبقَى له فَأَمَانِي

٥٥ قتلتها لئلا يراها الحسود

يا طَلْعَةً طَلَعَ الحِمامُ عليها وجَنَى لها ثَمَرَ الرَّدَى بِيَدَيْها

يا لطلعتها البهية التي طلع عليها الموت، وجنى لها ثمرته، أي قطف لها ثمرة الموت، بسبب ما صنعته هي

رَوَّيْتُ مِن دَمِها الثَّرى ولَطَالَما رَوَّى الهوى شَفَتَيَّ مِن شَفَتَيْها

قد باتَ سَيْفي في مَجالِ وِشَاحِها ومَدامِعي تَجري على خَدَّيْها

وضعت سيفي في مكان وشاحها، عند خصرها

فَوَحَقِّ نَعْلَيْها، ومَا وَطِئَ الحَصَى شَيءٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِن نَعلَيْها

ما كان قَتْلِيها لِأَنِّيَ لم أكُنْ أَبْكي إذا سَقَطَ الذُّبابُ عليها

لم أقتلها لهوانها علي، بل لقد كنت أبكي جزعاً إذا سقطت عليها ذبابة

لكنْ ضَنَنْتُ على العيونِ بِحُسْنِها وأَنِفْتُ مِن نَظَرِ الحَسودِ إليها

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

عليُّ بن الجَهْم
(١٨٨هـ - ٢٤٩هـ)

أنام هذه الأيام على محيط المحيط.

أقول «هذه الأيام»، لا «هذه الليالي» لأنني لا أعرف متى أنام، ولا متى أصحو. أخلع ساعتي، ثم تضل ولا أهتدي إلى مكانها. فأتظاهر بأنني أبحث عنها، وإنَّ في قرارة نفسي لرغبةً جامحة في ألَّا أجدها. تضيع الساعة، ويتقد في قلبي الفرح.

توقد في قلبي شمس

ينسيني يومي أمس

قلبي عرس

تمضي الساعات لا أحس بها، تخبرني النافذة - التي يكاد يلتصق بها جدار البناية المجاورة التصاقاً - بأن الليل حل، وأمارس من عاداتي وهواياتي ما أمارس: أقرأ وأكتب وألحن وأتفرج في النت. وبعد حين أقول في نفسي: لعل الليل قد هبط الآن ثقيلاً؛ أنظر في معصمي الأيسر فلا أجد الساعة الضالة، فأنظر إلى النافذة فأرى جدار البناية الملاصقة أصفر لا أسود، وسرعان ما يؤكد لي المؤذن أنه الفجر الصادق.

وأتثاءب.. أليس قد بزغت الشمس!

وأتحايل على النعاس بشطيرة تشغل معدتي، فيطير النوم، وأتمنى أن أستطيع ما كنت أستطيعه في سنوات خلت من وصل الليل بالنهار، والبقاء في حضن الصحو ثماني وأربعين ساعة. غير أن كل ما أستطيعه اليوم هو أن أسرق من الصباح، بعد سهر الليل بطوله، بضع ساعات قد توصلني إلى الظهر قبل أن يفرض الفراش نفسه فرضاً.

وقد شقيت زمناً بمخدتين، أجعل الطرية منهما من تحتُ فتتقلقل المخدة الصلبة فوقها كأنها مركب يتهادى على سطح الماء، ثم أجعل الصلبة من تحتُ فيغوص رأسي في الطرية المحشوة بالصوف الصناعي فأحْترّ ويتصبب عرقي. ثم إنني صرت أجعل محيط المحيط تحت مخدتي الصلبة فأرقد على صلب فوق صلب.

ولا أضع محيط المحيط تحت مخدتي إلا بعد أن أقلب صفحاته ملياً. وهو يفعل فيَّ أحياناً فعل الشطيرة، فيحبس عني النوم ساعة أو أكثر.

هذا معجم كتبه بطرس البستاني قبل مئة وخمسين سنة، وطبعه في ألف صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير. وسأعود إلى الحديث عنه.

كان أول معجم اقتنيته «المنجد» للأب لويس المعلوف. وكان، بأحرفه الحديثة، وبما بذله فيه اليسوعيون من عناية، وما ألحقوا به من ملاحق، خير رفيق. ثم عرفت معجم مجمع القاهرة «الوسيط»، فاكتشفت أنه يلتقي مع المنجد في تعريفات كثيرة. ثم عندما عرفت القاموس المحيط للفيروزأبادي فهمت أن المنجد والوسيط شربا من نبع واحد. وكنت أمُرُّ بطبعة قديمة لمحيط المحيط في المكتبة العامة فلا أعيره كبير اهتمام، ربما لذلك البنط الطباعي البائد.

وصدرت طبعة جديدة لمعجم بطرس البستاني محيط المحيط، وصدرت تصويراً عن الطبعة الأصلية بتلك الحروف العتيقة نفسها، ولعلها ازدادت تآكلاً في التصوير بالأوفست، على أنني عندما اقتنيتها فرحت بها وبأنها صورة طبق الأصل. فلا أريد من أحد أن «يعتني» بهذا المعجم، ولا أن يغير فيه شيئاً. لقد سبق محيط بطرس منجد المعلوف بأربعين سنة، وسبق الوسيط بتسعين سنة. وكان أول معجم عربي يؤلَّف في زمن المطبعة.

في السطر الثاني من مقدمته ـ المكونة من صفحة واحدة ـ يقر المؤلف بأن معجمه مستند إلى قاموس الفيروزأبادي. لا بل هو يقر بذلك في اسم المعجم، فقد سماه محيط المحيط مذكِّراً بالقاموس المحيط. وليته لم يكن تواضع هذا التواضع. فبطرس صنع في كتابه العجب. لقد وصف اللغة كما هي في عصره، وأضاف إلى مفرداتها الكثير كي يصف ما ولدته العلوم الجديدة من مفاهيم وأدوات. وكان فحلاً من فحول علم الصرف. وكان محباً للشعر فاستشهد بنحو أربعة آلاف بيت (فتحت على الصفحة المئة، كعادتي كلما أردت فحص كتاب، فوجدت فيها أربعة شواهد شعرية، ثم على الصفحة مئتين فوجدت أربعة

شواهد، ثم على الصفحة ثلاثمئة فوجدت خمسة شواهد شعرية)، ولا تسل عن الشواهد القرآنية، ولا عن الأحاديث النبوية فهي بالآلاف.

في الشواهد الشعرية خرج المعلم بطرس عن قيد «عصر الاحتجاج» الذي يقف عند نهاية العصر الأموي، فتراه يستشهد بأبيات لكل شاعر فصيح من كل العصور، وهو بذلك قد جرح قاعدة سخيفة أساسها فكرة أن اللغة جامدة ويجب أن تبقى جامدة، وهو بهذا النوع من الاستشهاد الحر قد خرج من طوق الأبيات الشاذة التي كانت وبالاً على النحو، وعلى الصناعة المعجمية. وهو بذلك يعرض علينا ذوقه الطيب، فإذْ فسح لنفسه المجال راح يختار الأبيات التي لم يلجئ فيها الوزن والقافية الشاعر إلى ارتكاب الشذوذ، فكان استشهاده بريئاً وجميلاً. الرجل محب للأدب.

فإن علمت أن «المعلم بطرس» ـ وهذا لقبه وهو به جدير ـ كتب أيضاً ستة أجزاء هي نصف موسوعة علمية، مات عن نصفها الثاني، وتعرض فيها لقوانين الفيزياء وتفاصيل الكيمياء والأحياء، فقد عرفت أن صاحبنا ذو باع في المعرفة العامة أعانه في كتابة معجم حقيقي. فصاحب المعجم يجب أن يكون صاحب حياة لا نابش قبور، ويجب أن يكون صاحب معرفة عريضة لا أخا نحو وصرف وناقة وبعير.

وقد برئَ المعلم بطرس في معجمه من تشدد المعلوف إزاء المدارك الإسلامية. كان المعلوف يمر بالمفردات التي فيها رائحة الإسلام مرور الفار من ذئب مفترس. ولا كذلك المعلم بطرس. كان بطرس، كمعاصره وزميله في مهنة التعليم ناصيف اليازجي، محباً لثقافة الإسلام بما هي ثقافة عربية. لم يكن متشنجاً. وآية سماحته أنه عندما قامت المذابح الطائفية في لبنان، عام ١٨٦٠، كان من أهل المساعي الخيرة لنبذ الطائفية، وأنفق في ذلك العمر والمال، وسمى المدرسة التي أنشأها المدرسة الوطنية لتضم الطلبة من كل الملل. كانت المدرسة الوطنية تعلم الطلبة ست لغات، ولكنها جعلت العربية في الصدارة.

لعل بطرس البستاني كان يجامل الحكم العثماني في بلادنا بعض المجاملة ـ وقد نال من السلطان دعماً لطبع معجمه، ونال منه عليه الوسام المجيدي الثالث ـ بيد أن المعلم بطرس، الذي تكاد تحسبه حفظ القرآن حفظاً لكثرة استشهاده بآياته، وعب من كتب الحديث عباً، كان من القوم الذين تصالحوا مع اللغة العربية وهي تتشكل تشكلاً جديداً بعد الإسلام الذي منح لغتنا كتابها،

وكان ممن تصالحوا معها وهي تخوض في تعريب ما جد من مفردات في عصر العلم، وممن تصالحوا مع شعرائها القدامى والمحدثين الذي صنعوا لهذه اللغة ديوانها بما فيه من حكمة ووحشية وقتل وفضائل وحماقات.

قف لحظة وانظر إلى بعض المتشددين من مسلمين ومسيحيين ترهم يريدون العودة باللغة إلى عصر نأنأة الإسلام، هذا عن المسلمين، فأما بعض المتشددين المسيحيين فقد ودوا لو عادوا بها إلى الجاهلية فلا يكون فيها لا قرآن ولا حديث.

سعادتي ببطرس وهو يستمسك بالعربية كما تطورت متلذذاً باستشهاداته القرآنية وبإيراده المئات من الكلمات العامية للتعبير عن دقائق المعاني الحياتية، هي كسعادتي وأنا أراه يترجم الكتاب المقدس، ويصوغه بعربية حلوة للمؤمنين. وسعادتاي هاتان تشبهان سعادتين أخريين: سعادتي بمارون عبود وهو يرى في محمد بن عبد الله، نبي المسلمين، نبياً للعرب أيضاً ـ ومشى مارون خطوة أخرى فسمى ولده الثاني محمداً فقامت عليه القيامة ـ. وقد شاء لي الحظ الطيب أن التقيت بحفيد مارون عبود في بيت جده الذي صار متحفاً، وكان يحدثني عن العائلة ذاكراً، فيما ذكر، «عمِّي محمِّد». . كنت أراها تخرج من فمه غريبة حلوة في ذلك الجو المسيحي. وسعادتي الثانية بمارون عبود إذ أقرأه يكتب كتباً كثيرة عن قريته المسيحية وتراثها المسيحي وعن كتب الصلاة المكتوبة بالسريانية. لم يكن مارون تقياً ولا متديناً بحال، لا إسلامياً ولا مسيحياً، لكنه كان يحب تراثه بكل مكوناته.

لقد أنجزتُ وثائقياً تلفزياً عن نهوض لبنان باللغة العربية، هذه اللغة التي تتحول صورتها الفصحى في لبنان الآن إلى هيكل عظمي، وسميته مورِّياً «عظام العربية في لبنان». ولم أتعرض فيه بكلمة لا لبطرس البستاني ولا لعبد الله البستاني ولا لسليمان البستاني، ولا لوديع البستاني الشاعر العلامة الذي نعده نحن، الفلسطينيين، فلسطينياً لنضاله المشرف وتضحيته أمام الهجمة الصهيونية. خشيتُ أن أغرق في بحر المعرفة والتسامح والحب الذي أسبغه أبناء هذه الأسرة على الثقافة العربية، خشيتُ أن يأكلوا برنامجي. ضاق فتر عن مسير.

قد عرفتَ الآن لماذا أنام مرتاحاً. تحت رأسي معجم يغنيني عن القاموس المحيط، بل حتى عن لسان العرب.

شيء عن زراعة الشعر

سأنقلك من لبنان إلى الشام. سأعرفك برجل زرع الشعر في رأس أكبر شاعر عربي معاصر. والشعر يزرع مثلما يزرع مصحَّفُه.

أترك الشاعر الأكبر يحدثك عن أستاذه، كتب نزار قباني: «إنه لمن نعمة الله عليَّ وعلى شعري معاً، أن معلم الأدب الأول الذي تتلمذت عليه، كان شاعراً من أرق وأعذب شعراء الشام، وهو الأستاذ خليل مردم بك. هذا الرجل ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولى، حين أملى علينا في أول درس من دروس الأدب مثل هذا الكلام المصقول كسبيكة الذهب: «إنَّ التي زعمتْ فؤادكَ ملَّها خُلقت هواك كما خُلقتَ هوىً لها/ منعتْ تحيّتَها فقلتُ لصاحبي ما كان أكثرها لنا.. وأقلَّها». واستمر خليل مردم يقطف لنا من شجرة الشعر العربي عشر زهرات جديدة في كل درس من دروسه، حتى كانت ذاكرتنا الشعرية في نهاية العام بستاناً يموج بالأخضر، والأصفر، والأحمر. لقد جنَّبَنا هذا الشاعر الكبير، بذوقه المترف وإحساسه المرهف، السير على حجارة أكثر الشعر الجاهلي، ونباتاته الصحراوية الشائكة، ودلنا على طرقات ظليلة، وواحات في الشعر العربي، أنستنا متاعب الرحلة. ومن حسن حظي، أنني كنت من بين التلاميذ الذين تعهدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشعرية، وأخذهم معه في نزهاته القمرية، ودلَّهم على الغابات المسحورة التي يسكن فيها الشعر. إنني أدين لخليل مردم بك بهذا المخزون الشعري الراقي الذي تركه على طبقات عقلي الباطن. وإذا كان الذوق الشعري عجينة تتشكل بما نراه ونسمعه ونقرؤه في طفولتنا، فإن خليل مردم كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشعر تحت جلدي، وفي تهيئة الخمائر التي كوَّنت خلاياي وأنسجتي الشعرية».

الآن عرفتُ سر فصاحة نزار. كنت أغوص تحت سطح تشبيهاته المركبة، وتحت تعبيراته الراقصة، وتحت صنعته المبهرة، فأرى لغة عربية سليمة؛ صحيح أنها تتهادى لابسة شفوفاً معجِبة، وتعبق بعطور باريسية، غير أنها لغة صحيحة فصيحة ليس فيها خلل ولا زلل.

الآن عرفت من أين أتى نزار بهذا.

ألمست أنني أتحدث عن هؤلاء الكبار بلسان الحسد؟ قد أصبت. فأنا رغم سهر الليالي، أسعى في اتجاهات شتى، حركةً بلا بركة. فإذا ما وقع بين يدي أحد الكبار الذين دفعوا ثقافتنا ومعارفنا إلى الأمام وقفت وقفة لأداء

التحية، ولتأنيب نفسي، ولاستنهاض همة شاب يملك ما لم أعد أملكه من فسحة في العمر وسعة في الذاكرة وشحنة من الرغبة.

كبيرنا الثالث هو خليل مردم بك الذي كان معلماً وشاعراً، ثم وزيراً ثم رئيساً لمجمع دمشق العلمي الذي كان نشطاً قبل أن يذبحه الحزبيون والأكاديميون بالسكين.

كتب خليل مردم بك كتباً قليلة وصغيرة، أقرأها للاستمتاع بلغته الجميلة، ولأنه يقول ما يريد بكل أناقة، ولأنه قليل الادعاء. له عن شعراء الشام مقالة في نحو مئة صفحة، وله عن ناثري العراق، ابن المقفع والصاحب بن عباد وابن العميد، كتب تجد فيها قلم المؤرخ والأديب.

وقد حقق دواوين ابن الخياط وابن عنين وعلي بن الجهم. وموضوعنا الأصلي ـ بعد إذ أخذناك في الصفحات السابقة في الباص السياحي الذي يقلك من ميدان الطرف الأغر لتجد نفسك بعد ساعتين في. . ميدان الطرف الأغر ـ هو علي بن الجهم.

علي بن الجهْم

أولاً أحدثك عن تحقيق خليل مردم بك لديوانه. فهذا الشاعر الدمشقي، الذي علَّم نزار قباني الجمال، كتب مقدمة ضافية للديوان، وحققه ودققه بروح الأديب واللغوي معاً. وقد يلفتك بعبارة صغيرة إلى معنى جميل، وهو يشعرك وأنت تمسك بالديوان أن هذا الذي بين يديك هو ثمرة عمل رجل يحب عمله ويخلص له.

وقد كتب السيد أحمد صقر نقداً للتحقيق في مجلة الكاتب تضمن بعض الاجتهادات في قراءة بعض الكلمات. وأفدنا من بعض ذلك.

علي بن الجهم شاعر كبير.

يلوي الكلام ليَّ المتنبي، ويحمل المفردة أحياناً أكثر مما تطيق، فعلَ أبي تمام. لكن شاعريته تتجلى في أنه مدح صادقاً وهجا صادقاً ووصف ومجن وتوجع صادقاً. لقد جعل حياته ميداناً لشعره.

ولد علي بن الجهم عام ١٨٨هـ، فهو لدة أبي تمام. وشهد وهو صبي في العاشرة اضطراب بغداد الذي انتهى بقتل الخليفة الأمين وتغلب أخيه المأمون.

كان علي في هذا الوقت يغدو إلى الكُتَّاب مع أولاد و«بنات» الحي. وكانت قد بدت عليه أمارات النجابة وحب الشعر. وقد كان بيته عامراً بالثقافة والشعر والسياسة: أبوه ذو منصب كبير، وأخوه الأكبر محمد من كبار مثقفي بغداد، مولع بالكتب ولا سيما ما يتعلق بعلوم اليونان، غير أنه يروي الشعر. وبلغ من ثقافة هذا الأخ أن الجاحظ نقل عنه عدة آراء في أكثر من موضع، كما يخبرنا خليل مردم بك في مقدمته النفيسة للديوان.

كان الأخ الأكبر محمد هذا يحضر مجلس الخليفة الجديد المأمون، وعندما نبغ الأخ الأصغر علي في الشعر وصل خبره إلى مسامع الخليفة فسأل أخاه عنه، وبعث إليه معه دراهم.

الأسرة تنتسب إلى فرع ضعيف من قبيلة قريش..

أراني أكتب لك كتابة ضعيفة ركيكة وأنا أحدثك عن حياة شاعرنا، ذلك أن مقدمة خليل مردم بك تكبلني. فهي وافية ساطعة سامقة. ولكنني سأمضي في كتابتي الضعيفة، فلا أحب أن أنسخ نسخاً ما قاله المردم الكبير، ولا أن أقتبس اقتباسات طويلة مما سطره صاحب الأغاني. على أن لي بعض الآراء الخاصة التي لن أعفيك منها.

هذه الأسرة قرشية من فرع يسمى بني سامة أو بني ناجية أو قريش العازبة، أي الذاهبة بعيداً، ذلك أن هذا البطن القرشي نزح إلى البحرين قديماً. وبهذا النسب القرشي فخر شاعرنا كثيراً، وراح أعداؤه يشككون في انتساب بني سامة إلى قريش. على أن الأسرة كانت ذات جاه عريض.

وكانت الأسرة قد رحلت من البحرين إلى خراسان، (وخراسان هي اليوم في شرق إيران وتضم معظم أفغانسان وقطعة من تركمانستان وطاجيكستان ومعظم أوزبكستان) واستقرت في مرو (تركمانستان اليوم).

ومن خراسان انطلقت الدعوة العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني. وبانتساب أسرته إلى خراسان يفخر علي بن الجهم، فأهل خراسان هم من نصر الدعوة العباسية قبل مولده بأكثر من خمسين سنة.

مع تقلد والد شاعرنا المناصب المختلفة في الدولة انتقل إلى بغداد، وبها نشأ علي. وفي كتاتيبها ومساجدها تعلم الشعر وقاله. وكان يحضر مجالس المحدثين والفقهاء، وله في حلقة أحمد بن حنبل حضور موثق. وله مجلس

مشهور مع الشعراء في بغداد، ومما دار في هذا المجلس أن رجلاً غريباً التحق به ذات يوم وأنشد الناس فأعجبهم، فسألوه عن اسمه فقال: أنا أبو تمام، فرفعوا قدره ورحبوا به، وانعقدت بينه وبين علي بن الجهم صداقة وطيدة.

في حلقة أحمد بن حنبل وفي حلقات فقهاء بغداد ترسخ الاتجاه الفكري الديني للشاعر. كان المحدِّثون مضطهدين يتعرضون لمحنة طويلة على يد الخليفة المعتزلي المأمون وخلفه المعتصم ثم الواثق، وعلى يد وزرائهم الذين كانوا على مذهب الدولة وهو الاعتزال. فكان علي بن الجهم في صف المضطَهدين.

لقد مدح شاعرنا المعتصمَ وهنأه بفتح عمورية، ومدح الواثق بأبيات قليلة، وكان أخوه الأكبر محمد يتولى الشرطة في بغداد للواثق. لكن علياً ظل سنياً يكره الاعتزال ويكره التشيع. وكانت العامة من أهل بغداد تعطف على فقهاء السنة وتجد في ابن حنبل الزعيم الروحي.

ثم تولى الخلافة المتوكل، فأقصى المعتزلة وأعاد الدولة إلى حظيرة الإسلام السني. لم يكن الخليفة المتوكل فقيهاً ولا عالماً كما كان أخوه الواثق وعمه المأمون. كان يكره أخاه ووزير أخيه ابن الزيات كرهاً شديداً. كان شاباً لاهياً يطيل شعره كشباب اليوم، لكنه كان متمذهباً بمذهب الشافعي، ويؤثر أهل السنة. وفجأة مات أخوه الواثق رافضاً في مرضته الأخيرة أن يولي عهده أحداً، فأسرع القاضي أحمد بن أبي دؤاد وتحايل حتى وضع البيعة في رقبة المتوكل بن المعتصم أخي الواثق.

انطلقت أشعار علي بن الجهم مدوية في مدح المتوكل الذي أعاد الدولة إلى مذهب أهل السنة، وكرَّم ابن حنبل، وقرب المحدِّثين. ونادم ابن الجهم المتوكل سبع سنين. وله فيه مدح كثير. غير أن أبلغ شعره وأجمله سيأتي بعد أن يتعرض هو للمحنة.

كان مجلس المتوكل عامراً يحضره البحتري، والحسين بن الضحاك، ومروان بن أبي الجنوب من الشعراء، ويحضره من الكبراء طبيب الخليفة بختيشوع بن جبرائيل وفرج الرخجي وابن حمدون. وكان ابن الجهم متعالياً عليهم، يهجوه الشعراء فلا يجيبهم، ويهجو الكبراء مدلاً بنسبه وقربه من الخليفة. صنع من الأعداء ما يكفي لإسقاطه. شاعرنا لم يكن حصيفاً. كان

تياهاً كثير الاعتداد بنفسه، حتى لقد كان يعد الشعر ـ وهو بلا شك أثمن ما يملك ـ دون مستواه.

كان صاحب قيل وقال. كان ذلك الابن المدلل لعائلة ثرية ونافذة، تعتد بنسب قرشي. وحدث ما يجب أن يحدث. تآمر عليه أعداؤه، ولم يجد له صاحباً. أوغروا صدر الخليفة عليه، فأقصاه، ثم فرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية. ثم حبسه، ثم أمر به فقيد في محبسه، ثم أمر فصودرت أمواله. ولم يكتف الأعداء بذلك فقالوا للمتوكل إن علياً هجاه، وكان سهلاً أن يصدق المتوكل ذلك، فعلي بن الجهم اجترأ على ابن الزيات وزير الواثق وهجاه، فما يمنعه من أن يهجو الخليفة؟ فأمر المتوكل بنفي الشاعر إلى خراسان، وأمر واليه عليها طاهر بن عبد الله بن طاهر بحبس الشاعر، ثم بصلبه عارياً على مرأى من الناس يوماً كاملاً، ونفذ الوالي الأمر. وبعد حين كتب المتوكل بإخراجه من السجن.

لم يمدح شاعرنا المتعالي الوالي الذي نفذ الأمر بصلبه، ولم يهجه، فهو عبد مأمور، بل هدده تهديداً شعرياً بأنه سيهجوه إن لم يحسن إليه. فأحسن الوالي إليه وجعله في حاشيته، ومكث شاعرنا في خراسان زمناً. لكنه كان كئيباً، وشاهده بعضهم جالساً في مقبرة.

وعاد علي بن الجهم إلى بغداد. وبما لدى أسرته من مال وفير أخذ يلهو ويغشى بيوت القيان، وله في ذلك شعر من ضمنه قصيدة بديعة يصف فيه ما يشبه أن يكون ماخوراً من مواخير أهل اليسار. وله شعر يهجو فيه جلساءه الذين عربدوا عليه. لم يعد الشاعر إلى مجلس الخليفة في سامراء. كان قد أدرك أن منزلته سقطت. (إذا رفع السلطان قوماً ترفعوا/ وإن هدم السلطان مجداً تهدما).

مكث علي بن الجهم في لهوه سبع سنين بعيداً عن مجلس الخليفة حتى مات المتوكل. فقال شاعرنا قصيدة من أبدع الشعر في رثاء الخليفة الذي أعاد للدين رونقه. قصيدته في رثاء المتوكل تستحق وقفة تقدير لخُلق الشاعر، فبعد اضطهاد استمر سنوات بكى الشاعر المتوكل بحرقة. قد ربطته بالخليفة رابطة حب تشبه ما سيربط المتنبي بسيف الدولة.

كان علي بن الجهم يقترب من الستين عند مقتل المتوكل. ولم يسع شاعرنا إلى الاتصال بالخليفة الجديد، المنتصر بن المتوكل، الذي تآمر على

قتل أبيه. لا بل عرَّض في شعره بخيانة الابن لأبيه. ومات المنتصر بعد ستة أشهر، وظل شاعرنا في بغداد يعيش حياة اللهو. كان رجلاً وسيماً قوي البنية.. ولكن الستين جعلته برماً بحياته. فلما ثار الناس في بغداد لخبر جاءهم بأن الروم توغلت في أرض الإسلام انطلق علي بن الجهم غازياً.

وقبل الوصول إلى الثغر خرجت على الغازين جماعة من الأعراب في مكان يدعى خُسافاً. وقاتل علي بن الجهم بشجاعة. وخرج الأعراب عليهم مرة أخرى فقاتل وأصيب بجرح مميت. ونقلوا عنه بضعة أبيات وهو جريح. ومات فجراً.

مثلما سيكون أحسن شعر أبي فراس رومياته وهو في الأسر، فكذلك أحسن شعر علي بن الجهم ما قاله وهو في الحبس.

لم نرتب الأشعار زمنياً، وكان يسيراً علينا أن نفعل، بل تركناها تتوالى كما توالت في الديوان، فهذا الذي نقدمه لك كتاب شعر لا كتاب تاريخ. ولكل قصيدة أن تقف وحدها وتعلن عما فيها من شعر.

١ إمامي

قال علي بن الجهم يمدح المعتصم:

خَلِيلَيَّ الهوى خُلُقٌ كريمٌ ... تُقَصِّرُ عنه أخلاقُ اللِّئامِ

العشق يصحبه الخلق الكريم الذي لا يتحلى به اللئام

وفاءٌ إنْ نَأَتْ بالجارِ دارٌ ... ورَعْياً لِلْمَوَدَّةِ والذِّمَامِ

إن نأى المحبوب، أي ابتعد، فله الوفاء، وأرعى المودة والذمام، أي العهود

أَلا طَرقَتْ تلومُكَ أمُّ عمْروٍ، ... وما لِلْغانياتِ ولِلْملامِ!

طرقت: جاءت ليلاً، وجاءت تلوم..

أعاذلَ! لو أضافَكِ جنحُ ليلٍ ... إلَيَّ، وأنتِ واضِعَةُ اللِّثامِ..

يا عاذلتي لو كنت ضيفة لدي في الليل وأنت واضعة اللثام، أي سافرة، و«وضع» تعني ارتدى وتعني خلع..

لَسَرَّكِ أن يكونَ الليلُ شهراً ... وأَلْهاكِ السُّهَادُ عن المنامِ

لسررت بقربي وألهاك السهاد، السهر، عن النوم

أَعــاذِلَ مــا أَعَــزَّكِ بــي إذا مــا أتــاحَ الــليــلُ وَحْـشِـيَّ الـكَـلامِ

يا عاذلتي ما أكثر ما ستشعرين بعزتي إذا سهَّل لي الليل الكلام الوحشي، الغريب الذي فيه خلق وإبداع.. هذا المعنى الملموح

وعَــنَّــتْ كــلُّ قــافِـيَــةٍ شَــرُودٍ كـلـمـحِ الـبـرقِ أو لَـهَـبِ الـضِّـرام

وعنت، أي مرت ببالي، كل قصيدة شرود، سيارة يتناقلها الناس وتسير من بلد إلى بلد، كأنها البرق أو اللهب

عـلـى أَعْـجَـازِهـا قَـرْمٌ، إذا مـا عـنَـاهُ الـقـولُ أَوْجَـزَ فـي تَـمـامِ

وخلف هذه القافية قرم، سيد شريف، إذا نوى أن يقول فهو يوجز ويتمم المعنى

شَـوارِدُ إن لَـقـيـتُ بِـهِـنَّ جيـشـاً صَـرفْـنَ مَـعَـرَّةَ الـجـيـشِ الـلُّـهَـامِ

هذه الأبيات سيارة تواجه معرة الجيش اللهام، قسوة الجيش القوي الذي يلتهم كل ما أمامه

وإنْ نـازَعْـتُـهُـنَّ الـشَّـرْبَ كـانـتْ مُـدامــاً، أو أَلَــذَّ مِـنَ الـمُـدامِ

وإن تداولت الأبيات مع الشرب، جلساء الشراب، فالأبيات كأنها الخمر بل ألذ من الخمر

نَشَزْنَ على امْرِئِ القيسِ بنِ حُجْرٍ فـمـا أحَـدٌ يَـقـومُ بِـهـا مَـقـامـي

أبياتي نشزت على امرئ القيس، صعب عليه الإتيان بمثلها، وليس لها إلاي (رواية مردم بك «يثرن» ورأى ناقد تحقيقه أن نشزن أفضل)

لَأَنْـتُـمْ يـا بَـنـي الـعـبـاسِ أَوْلَـى بِـمـيـراثِ الـنَّـبِـيِّ مِـنَ الأَنـامِ

كان العلويون ينازعون بني العباس الشرعية نزاعاً خفياً أو غير خفي، والشاعر يثبت الشرعية لبني العباس فهم وارثو النبي من بين كل الأنام، أي الخلق

مَـودَّتُـكُـمْ تُـمَـحِّـصُ كـلَّ ذَنْـبٍ وتُـقْـرَنُ بـالـصـلاةِ وبـالـصـيـامِ

مودة الناس لكم تمحص، تزيل وتنفي، كل ذنب لهم فهي قرينة صلاتهم وصيامهم

ورافِضَـةٍ تـقـولُ: بِـشِـعْـبِ رَضْـوَى إمــامٌ؛ خــابَ ذلـكَ مِـنْ إمَــامِ

ورب رافضة (جماعة من الشيعة تبعوا زيد بن علي ثم تركوه عندما أبى التبرؤ من أبي بكر وعمر) وهؤلاء يقولون إن في شعب رضوى إماماً غائباً (قالوا إن محمد بن الحنفية لم يمت بل غاب، وسيعود)

إمـامـي مَـنْ لـهُ سـبـعـونَ أَلـفـاً مِـنَ الأَتـراكِ مُـشْـرَعَـةُ الـسِّـهـامِ

الإمام الذي يعترف به شاعرنا هو المعتصم الذي له جيش كبير. في نهاية الحرب العالمية الثانية قال تشرشل البريطاني لستالين السوفياتي إن عليه مراعاة رأي الفاتيكان فيما يتعلق برسم خريطة أوروبا الشرقية بعد الحرب، رد ستالين: «كم فرقة عسكرية يملك بابا روما؟»

٢ شقاء المال

وقال يمدح الواثق:

وَثِــقَــتْ بِــالـمَــلِــكِ الــوا   ثــقِ بِــالــلَّــهِ الــنُّــفــوسُ
مَــلِــكٌ يَـشــقَــى بــه الــمــا   لُ ولا يَــشــقَــى الــجــلــيــسُ

يشقى به المال لأنه يفرقه على الناس

يــا بــنــي الــعــبــاسِ يَــأبَــى الــ   ـلَّــــهُ إلَّا أن تَــــسُــــوسُــــوا

٣ التنصل

لَــو تَــنَــصَّــلْــتَ إلــيْــنــا   لَــغَــفــرنــا لَــكَ ذنــبَــكْ

التنصل: أن تزعم أنه لا ذنب لك، ومن فعل ذلك فكأنه يقر للآخر باليد العليا. كنت أشتغل في مصنع بألمانيا وأنا شاب. جئت متأخراً يوماً، فسألني كبيرهم عن سبب تأخري، فقلت له: راحت عليَّ نومة. ففصلني من العمل. فصلني لأنني لم أتنصل، ولم أكذب. فلو كذبت لرأى فيّ ذلك الخضوع المطلوب

لَــيــتَــنــي أمْــلِــكُ قَــلــبــي   مــثــلَــمَــا تَــمْــلِــكُ قــلــبَــكْ
ســيِّــدي مــا أبــغــضَ الــعــيــ   ــشَ إذا فــارقــتُ قُــربَــكْ

٤ الرافع الواضع

ولــمَّــا رَمــى بــالأربــعــيــنَ وراءَه   وقارعَ مِ الخمسينَ جيشاً عَرَمْرَما

لما تجاوز سنوات الأربعين وبدأ يقارع سنوات الخمسين وكأنه يقاوم جيشاً عرمرماً، كبيراً.. و«مِ» هذه اختصار لـ من

تذكَّرَ مِنْ عهدِ الصِّبا ما تصرَّما   وحَنَّ فلم يتركْ لِعَيْنَيْهِ مُسْجَما

تذكر ما تصرم ومضى من عهد الشباب، وحن فلم يدع لعينيه مُسجماً، أي دمعاً، إلا وسال

وجَرَّ خِطاماً أَحْكَمَ الشيبُ عقدَهُ   وقــدَّمَ رِجــلاً لــم تَــجِــدْ مُــتَــقَــدَّمــا

وجر خطاماً، حبلاً، قد عقده الشيب بعنقه عقداً، وقدم رجلاً ولكنها لم تجد لها موضعاً في أماكن اللهو

وأَنْــكَــرَ إغــفــالَ الــعــيــونِ مــكــانَــه   وقد كُنَّ مِن أشياعِهِ حيث يمَّما

واستهجن التجاهل الذي لقيه، وكانت العيون من أشياعه حيث يمم، تشايعه وتلاحقه أينما ذهب

خَليليَّ مِن فَرعَيْ قُريشٍ رُزِيتُما   فتىً قارَعَ الأيامَ حتى تَثَلَّما

يا صديقيَّ من فرعي قريش (من قريش البطاح وقريش الظواهر)، قد رزيتما، أي فقدتما، فتى تصدى للزمن وقارعه حتى تثلم وتفلل حده كالسيف الذي يتثلم لكثرة الضرب به

وأَحكَمَهُ التَّجريبُ حتى كأنما يُعايِنُ مِن أسرارِها ما تَوَهَّما

لكثرة ما جرب صار يرى أسرار الأيام بعينيه بعد أن كان يتوهمها مجرد توهم، فهو في صغره كان يحس ويحدس، وبعد التجريب صار يرى بيقين

ومَنْ ضَعُفَتْ أعضاؤُه اشتدَّ رأيُه ومَنْ قَوَّمَتْهُ الحادثاتُ تَقَوَّما

من كبر في السن وضعف جسمه قويَ رأيه وصار حكيماً، ومن ربته الأيام فإنه يتربّى

خُذَا عِظَةً مِن أَحْوَذِيٍّ تَقَلَّبَتْ به دُوَلُ الأيامِ بُؤساً وأَنْعُما

خذا عظة من أحوذي، داهية حاذق، تقلبت عليه الأيام وتداولته بين بؤس ونعيم

إذا رَفَعَ السلطانُ قَوماً ترفَّعُوا وإن هَدَمَ السلطانُ مجداً تَهَدَّما

خير من يسوق هذه الحكمة شاعرنا لكثرة ما لقي من عقوبات السلطان

ولم أَرَ فَرعاً طالَ إلَّا بِأَصلِه ولم أَرَ بَدْءَ العلمِ إلَّا تَعَلُّما

ومَنْ قَارَعَ الأيامَ أَوْفَرَ لُبَّهُ ومَنْ جاوَرَ الفَدْمَ العَيِيَّ تَفَدَّما

من صادم الأيام أوفر لبه، زاد في عقله وحكمته، ومن جاور الفدم، الغبي، أصبح مثله

ومَنْ طَلَبَ المَعروفَ مِنْ غيرِ أهلِه أَطالَ عَناءً أو أَطالَ تَنَدُّما

ومَنْ شَكَرَ العُرْفَ استَحَقَّ زِيادةً كما يستحقُّ الشكرَ مَنْ كان مُنْعِما

شاكر المعروف يستحق الزيادة، تماماً مثلما يستحق باذل المعروف الشكر

ومَنْ سَامحَ الأيامَ يَرْضَ حياتَه ومَنْ مَنَّ بِالمعروفِ عادَ مُذَمَّما

الإنسان السمح يعيش راضياً، ومن كدر معروفه بالمن وبالتذكير به كان مستحقاً الذم

ومَنْ نَاقَشَ الإِخوانَ قَلَّ صديقُهُ ومَنْ لامَ صَبّاً في الهوى كان أَلْوَما

من ناقش الإخوان، أي جادلهم وصمم على فرك قرن فلفل في عيونهم عندما يخطئون، قل صديقه، أي قل أصدقاؤه. ومن لام العاشق كان أحق باللوم منه. مجموعة حكم منظومة في سلك «من ومن ومن..» محاكاة لزهير في معلقته، محاكاة باهتة

٥ الفرح بالنعمة المقبلة

يمدح الخليفة جعفراً المتوكل (٢٣٢هـ ٢٤٧هـ):

قالوا أَتاكَ الأملُ الأكبرُ وفازَ بِالمُلْكِ الفَتى الأَزْهَرُ

الأزهر: الأبيض، والبياض صفة الرجل السيد عند العرب

واكتَسَتِ الدنيا جَمالاً به فقلتُ قد قامَ إذنْ جَعْفَرُ

ذاكَ الـذي كـانـتْ إلـى مُـلْـكِـه أبـصـارُنـا طـامِـحَـةً تـنـظُـرُ

٦ بركة تطلب ثأرها

يمدح المتوكل ويصف القصر الهاروني، (وهذه البركة نفسها وصفها البحتري في قصيدة مشهورة. ولن ندلك على موضعها من الكتاب لئلا تفعل فعل الأكاديميين إذ يطلبون من طلبتهم دراسة القصيدتين والمقارنة بينهما. اقرأ كل قصيدة وحدها واستمتع بهذا الشعر وبذاك الشعر):

ومـا زلـتُ أَسـمـعُ أنَّ الـمـلـو كَ تَـبـنـي عـلـى قَـدْرِ أَخْـطَـارِهـا

أخطارها: مقاماتها

وأَعـلَـمُ أن عـقـولَ الـرجـا لِ يُـقـضَـى عـلـيـهـا بـآثَـارِهـا

فـلـمَّـا رأيْـنـا بـنـاءَ الإمـامِ رأيـنـا الـخـلافـةَ فـي دارِهـا

وأنـشـأتَ تَـحْـتَـجُّ لـلـمـسـلـمـيـنِ عـلـى مُـلْـحِـديـهـا وكـفَّـارِهـا

ببنائك القصر أقمت الحجة على القائلين بأن المجد الحقيقي كان للفرس بمنشآتهم وقصورهم الدالة على حضارة زاهرة

بَـدائِـعُ لـم تَـرَهـا فـارسٌ ولا الـرُّومُ فـي طُـولِ أَعْـمَـارِهـا

صُـحُـونٌ تُـسـافِـرُ فـيـهـا الـعـيـونُ وتَـحْـسِـرُ عـن بُـعْـدِ أَقْـطـارِهـا

صحون: ساحات، وتحسر الأبصار: أي تنقطع دون رؤية أقاصي الساحات

وقُـبَّـةُ مُـلْـكٍ كـأنَّ الـنُّـجُـو مَ تُـفـضـي إلـيـهـا بـأسـرارِهـا

يبدو أن القبة كان فيه زجاج فالنجوم ترى منها

وفَـوَّارةٌ ثـأْرُهـا فـي الـسـمـاءِ فـلـيـسـتْ تُـقَـصِّـرُ عـن ثـارِهـا

يصف البركة تقذف بمائها فكأن للماء ثأراً في السماء وهو يطلبه. ولا ندري كيف جعل مهندسو البركة النافورة ترشق ماءها عالياً.. غير أننا نفترض أنهم جعلوا الماء في خزان في أعلى القصر، ووصلوا الأنبوب منه إلى أصل النافورة

تَـرُدُّ عـلـى الـمُـزْنِ مـا أَنـزلـتْ عـلى الأرضِ مِن صَوْبِ مِدرارِهـا

البركة تعيد للمزن، أي السحب، ما أنزلت السحب من صوب مدرارها، من مطرها المنهمر

تَـراهـا إذا صَـعِـدَتْ فـي الـسـمـاءِ تـعـودُ إلـيـنـا بـأَخـبـارِهـا

فـلا زالـتِ الأرضُ مـعـمـورةً بـعُـمْـرِكَ يـا خـيـرَ عُـمَّـارِهـا

تَبَوَّأْتُ بعدَكَ قَعْرَ السجونِ   وقد كنتُ أَرْثي لِزُوَّارِها

أما أنا - يقول الشاعر - فقد قعدت في السجن بعد أن كنت أرثي لنزلائه. وكان المتوكل سجن الشاعر أكثر من مرة

٧ الحسن الحيران

وقال في بركة القصر الهاروني:

أنشأْتَها بِرْكَةً مُباركةً   فبارَكَ اللَّهُ في عواقِبِها

بارك الله في عواقبها: جعل بناءها بركة لما يعقُب ويأتي من الأيام

كأنَّها، والرياضُ مُحْدِقَةٌ   بِها، عروسٌ تُجْلَى لِخاطِبِها

محدقة: محيطة

مِن أيِّ أقطارِها أتيتَ رأيْـ   ـتَ الحُسْنَ حَيرانَ في جَوانِبِها

من أي أقطارها، أي جوانبها أتيت فسترى الجمال ماشياً حيران لا يدري أين يذهب

قَدَّرَها اللَّهُ لِلإمامِ، وما   قَدَّرَ فيها عَيْباً لِعَائِبِها

٨ الوجه والقد

يمدح المتوكل:

اِغتَنِمْ جِدَّةَ الزمانِ الجديدِ   واجعلِ المِهرجانَ أَيْمَنَ عيدِ

وخُذِ الكأسَ مِن يَدَيْ كلِّ مَيَّا   سِ الخُطَى مُخْطَفِ الحَشا مَقْدُودِ..

مياس الخطى: متمايل المِشية، مخطف الحشا: ضامر البطن، مقدود: مقطوع.. وتكملة المعنى في البيت التالي

مِثْلَ قَدِّ القَضيبِ إن هَزَّ عِطْفَيْـ   ـهِ ومِثْلِ الغَزالِ في حُسْنِ جيدِ

هذا الساقي مقدود جسمه مثلَ قدِّ القضيب، أي الغصن، وعنقه كعنق الغزال

ما رأيْنا الوُجوهَ تَحْسُنُ إن لم   يَتَّصِلْ حُسْنُها بِحُسْنِ القُدودِ

حَبَّذا مجلسٌ تَدورُ علينا   فيه كأسانِ بينَ نايٍ وعودِ

مِن شَرابٍ يعافُهُ المسلمُ العَفُّ -   وتَحْظَى به أَكُفُّ اليهودِ

يا بَني هاشمِ بن عبدِ مَنافٍ   نِسْبَةٌ حُبُّها مِنَ التوحيدِ

أنتمُ خيرُ سادةٍ يا بنيِ العبَّـ -   ـاسِ فابْقَوْا، ونحن خيرُ عبيدِ

نحن أشياعُكُمْ مِنَ اهْلِ خُراسا نَ أُولُو قُوَّةٍ وبَأْسٍ شَديدِ

يذكر العباسيين بمبتدأ أمرهم حين كان أهل خراسان القوة التي أسست دولتهم

نحن أبناءُ هذه الخِرَقِ السُّو دِ وأهلُ التَّشَيُّعِ المَحمودِ

السواد في اللباس شعار بني العباس، ومثلما يتخذ موظف المصرف اليوم ربطة حول عنقه كان كل من يحضر لقاء رسمياً في العصر العباسي يتخذ «سواداً»: وشاحاً أو عمامة. . والمهم اللون. ويشير الشاعر إلى أن قومه أهل تشيع معتدل لا يصل إلى تفضيل العلويين على العباسيين

إن رضيتُمْ أَمْراً رضينا، وإن تَأْ بَوْا أَبَيْنا لَكُمْ إِبَاءَ الأُسُودِ

حَسْبُنا اللَّهُ والخليفةُ مِنْ بَعـ ـدُ ومِنْ بَعدِهِ وُلاةُ العُهودِ

غَرْسُ كَفَّيْكَ يا ابنَ عَمِّ رسولِ الـ ـلَّهِ أَنشَأْتَني وأَوْرَقْتَ عُودي

أورقت عودي: جعلت غصني يُخرج الورق بما أنعمت عليّ

أنتَ كثَّرتَ حَاسِدِيَّ، وقد كنـ ـتُ زماناً لا أَهْتَدِي لِحَسُودِ

من إنعامك علي كثر من يحسدني بعد أن كنت خاملاً غير محسود

٩ وليس من أبنائها

هذا العَقيقُ، فَعَدِّ أَيـ ـدي العِيسِ عن غُلَوائِها

يتشوق إلى المدينة المنورة وبها «العقيق»، فإن وصلت العيس، أي الإبل إليها فعد أيديها عن غُلوائها: أي امنع أيدي الإبل عن نشاطها وسيرها واجعلها تمكث في المكان

وامنعْ نَواجِيَها النَّجَا ءَ، فَلاتَ حينَ نَجَائِها

امنع النواجي، الإبل السريعة، النجاء، المسير سريعاً، فلات حين نجائها، أي انتهى وقت سرعتها لأننا وصلنا

وإذا مَرَرْتَ بِبِئْرِ عُرْ وَةَ فاسْقِني مِن مَائِها

بئر عروة في العقيق بالمدينة

واجْنَحْ إلى السَّمُراتِ أو لِلسفحِ مِن جَمَّائِها

امض بنا إلى السمرات، شجر السَّمُر الكبير، أو لسفح الجماء وهو جبل صغير قرب المدينة

إنَّا وعَيْشِكَ ما ذمَمْـ ـنا العيشَ في أَفنائِها

ما شكونا من العيش في أفناء ونواحي المدينة

أيـامَ لـم تَـجْـرِ الـنَّـوى بـيـن الـعَـصـا ولِـحَـائِـهـا

في تلك الأيام لم يتسرب البعاد إلينا كحالنا اليوم، إذ البعاد يجري بين الغصن وبين لحائه، أي أنه متغلغل فينا

سَـقْـيـاً لِـتِـلْـكَ مَـعـاهِـداً إذْ نـحـن فـي أرجـائِـهـا

سقى الله تلك المعاهد، الأماكن التي كنا نعهدها ونعرفها

مـا كـانَ آنَـسَـهـا وأَشْـ ـعَـفَ أُسْـدَهـا بِـظِـبـائِـهـا

ما كان أكثر أنس تلك البقاع، وما كان أشعف، والشعف مثل الشغف، أسودها بظبائها، الأسود الرجال والظباء النساء في التشبيه المعروف

وقَـصـيـدَةٍ غَـرَّاءَ يَـفْـ ـنَـى الـدهـرُ قـبـلَ فَـنـائِـهـا

رب قصيدة غراء مشرقة خالدة على الدهر

تَـبْـقَـى عـلـى الأيـامِ نُـصْـ ـبَ صـبـاحِـهـا ومـسـائِـهـا

تبقى ماثلة مع كرور الأيام منتصبة تشهد الصباح والمساء

لـم تَـسْـتَـمِـحْ أيـدي الـرجـا لِ بِـمَـدحِـهـا وهِـجـائِـهـا

لم تستمح، تلتمس، نيل العطايا من أيدي الرجال بما فيها من مدح أو هجاء
(والهجاء من وسائل الاستمناح أيضاً)

بَـاتَـتْ تُـصَـانُ، فـآنَ أنْ تُـهـدَى إلـى أكـفـائِـهـا

باتت القصيدة مصونة وآن أن تهدى لمن يستحقها.

حـتـى إذا كَـمُـلَـتْ وغـبَّ ـ الـرأيُ فـي إنْـقـائِـهـا

فإذا اكتملت لدي واستقر رأيي بعد تشذيبها. هذا هو المعنى الملموح، وقد وضع المحقق عدة احتمالات لقراءة البيت، وجاء ناقده فزاد عليها

خُـصَّ الـخَـلـيـفـةُ جَـعْـفَـرُ بْـ ـنُ مـحـمـدٍ بِـثَـنـائِـهـا

مَـلِـكٌ أَعَـدَّتْـهُ الـمُـلـو كُ لِـخَـوفِـهـا ورجـائِـهـا

مـا زالَ مُـذْ وَلِـيَ الـخـلا فـةَ وارتَـدى بِـردائِـهـا

مُـتَـوَكِّـلاً فـيـهـا عـلـى مَـنْ خَـصَّـهُ بِـسَـنَـائِـهـا

السناء: العلو

تُـدْنـيـهِ أُمَّـةُ أَحْـمَـدٍ لِـلـثـأرِ مِـن أعـدائِـهـا

مِـنْ بـعـدِ مَـا طَـعَـنَـتْ قُـرو   نُ الـشِّـرْكِ فـي أحـشـائِـهـا
وتَـحَـكَّـمَ الـزيَّـاتُ فـي   أمـوالِـهـا ودِمـائِـهـا

الزيات: محمد بن عبد الملك الزيات: وزير المعتصم فالواثق، وقد قتله المتوكل بعد أشهر من استخلافه

زَارٍ عـلـى سُـنَـنِ الـنَّـبـيِّ ـ   يَـجِـدُّ فـي إِطـفـائِـهـا

زارٍ: أي عائب. كان ابن الزيات على الاعتزال، مذهب الدولة، وتحولت الدولة مع المتوكل إلى طريقة أهل السنة

والـرُّخَّـجِـيُّ الأعْـوَرُ الـدَّ ـ   جَّـالُ مِـنْ أُمـرائِـهـا

الرخجي: عمر بن فرج الرخجي، من أعوان الواثق، وحبسه وصادره المتوكل بعد حين من استخلافه

يُـمْـضـي الأُمـورَ مُـعـانِـداً   لـلَّـهِ فـي إِمـضـائِـهـا
يُـغـري بِـقَـذْفِ الـمُـحْـصَـنـا   تِ، ولـيـس مِـنْ أبـنـائِـهـا

إيه يا ابن الجهم، والله إنك لهجّاء تعرف كيف تضع عدوك.. «وليس من أبنائها».. هذه لفتة هجو نادرة

كـانـتْ غَـيَـاهِـبُ فـتـنَـةٍ   والـنـاسُ فـي عَـمْـيـائِـهـا

كانت، أي حدثت، غياهب، أي ظلمات، فتنة وكان الناس في عميائها، أي ظلامها..

مُـتَـحَـيِّـريـنَ كـمـا تَـحـا   رُ الـبَـهْـمُ بـعـدَ رِعَـائِـهـا

البهم: صغار الضأن، تتحير بعد رعائها: بعد غياب الرعاة

بَـيْـنـا كـذلـكَ إذْ أَضـا   ءَ الـحـقُّ فـي ظَـلْـمـائِـهـا

بينا: أي بينما

واخـتـارَ ربُّـكَ جَـعْـفَـرَ بْـ   ـنَ مـحـمـدٍ لِـجَـلائِـهـا

١٠ مظلوم!

قال يمدح جعفراً المتوكل وهو في السجن:

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بِضَائِري   حَبْسٌ، وأيُّ مُـهَـنَّـدٍ لا يُـغْـمَـدُ؟

لا يضيرني الحبس مثلما لا يضير السيف أن يغمد، يدخل في قِرابه

أَوَمـا رأيـتِ الـلـيـثَ يـألَـفُ غـيـلَـهُ   كِـبْـراً، وأَوْبَـاشُ الـسِّـبـاعِ تَـرَدَّدُ

الأسد يألف غيله، غابته، كبراً، وأنفة، بينما أوباش السباع، أي الوحوش الصغيرة، تتردد وتسرح في البراري

والشَّمْسُ لولا أنَّها محجُوبةٌ   عن ناظِرَيْكَ لَمَا أضاءَ الفَرْقَدُ

والشمس تحتجب أيضاً، ولهذا يبدو لك الفرقد، من النجوم

والغيثُ يَحْصُرُهُ الغَمامُ فما يُرى   إلَّا وَرَيِّقُهُ يُراحُ ويُرْعَدُ

المطر يكون محصوراً في الغيوم، ثم ما يلبث ريقه، أوله، أن يراح، تهب عليه الريح، ثم يرعد، يصوت فيه الرعد فيهطل

والنارُ في أحجَارِها مَخْبُوءَةٌ   لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأزْنُدُ

والنار تكون كأنها مختبئة داخل حجر الصوان ولا يمكن الاصطلاء، أي الاستدفاء، بها إلا بعد أن تثيرها من مكمنها الأزند، آلات إشعال النار بالاحتكاك

والزَّاعِبِيَّةُ لا يُقيمُ كُعُوبَها   إلَّا الثِّقافُ وجَذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ

والرماح الزاعبية لا يتم تقويمها إلا بالثقاف، بالقَشر والتقويم، وبجذوة نار متقدة يعرَّض لها خشب الرماح.. يقول الشاعر إن الحبس ليس عاراً فكل تلك الظواهر التي ذكرها فيها اختفاء ثم ظهور، والرمح لا يصبح جيداً حتى يتعرض للقشر والنار

غِيَرُ اللَّيالي بَادِئاتٌ عُوَّدُ   والمَالُ عَارِيَةٌ يُفَادُ ويَنْفَدُ

مصائب الليالي تبدأ وتعود، والمال عارية، مستعار يملكه المرء فكأنه يقترضه، فهو يفيده، أي يكسبه، والمال بعد ذلك ينفد، يتبدد

ولِكُلِّ حَالٍ مُعْقِبٌ ولَرُبَّما   أجْلَى لَكَ المَكْرُوهُ عَمَّا يُحْمَدُ

لكل حال معقب، نتيجة، وربما أجلى الأمر المكروه، أي أبدى، عن أمر حميد

لا يُؤْيِسَنَّكَ مِن تَفَرُّجِ كُرْبةٍ   خطبٌ رَماكَ به الزَّمانُ الأنْكَدُ

يؤيسنك: يجعلك تيأس

كم مِن عَليلٍ قد تَخَطَّاهُ الرَّدَى   فنَجا وماتَ طبيبُهُ والعُوَّدُ

العوَّد: زوار المريض

صَبراً فإنَّ الصبرَ يُعْقِبُ راحةً   ويَدُ الخليفةِ لا تُطاوِلُها يَدُ

والحَبْسُ ما لم تَغْشَهُ لِدَنِيَّةٍ   شَنْعَاءَ، نِعْمَ المنزلُ المُتَوَرَّدُ

الحبس منزل جيد وروده إن لم تغشه، تأته، لدنية شنعاء، لذنب مخل بالشرف

بيتٌ يُجَدِّدُ للكريمِ كَرامةً   ويُزارُ فيه ولا يَزُورُ ويُحْفَدُ

يحفد: يخدم

لو لـم يَكُنْ في السجنِ إلّا أنَّه لا يَسْتَذِلُّكَ بِالحِجابِ الأَعْبُدُ

لو لم يكن للسجن من المزايا إلا أنه ليس فيه ذلك الذل الذي تعانيه من الحُجَّاب الأعبد، العبيد، على أبواب الأمراء.. لكان جيداً

يـا أَحـمَـدُ بـنُ أبـي دُؤَادٍ إنَّـمـا تُـدْعَـى لـكـلِّ عَـظيـمَـةٍ يـا أَحْمَدُ

يستنجد بالوزير أحمد بن أبي دؤاد.. وسنرى أنه بعد مدة سيهجوه هجاء مراً وسيشمت به

بَـلِّـغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ، ودُونَـهُ خَوْضُ العِدَى، ومَخَاوِفٌ لا تَنْفَدُ

بلغ رسالتي أميرَ المؤمنين، ودون وصولي إليه بحر من الأعداء عليَّ أن أخوضه، ومخاوف لا تنتهي

أَنـتُـمْ بَـنـي عَـمِّ الـنـبـيِّ مـحـمـدٍ أَوْلَـى بِـمَـا شَـرَعَ الـنـبـيُّ مـحـمـدُ

أنتم، يا بني عم النبي، أولى بشريعته.. ومن ضمنها العفو

مـا كـان مِـنْ حَـسَـنٍ فـأنـتُـمْ أهـلُـهُ طَابَتْ مَغارِسُكُمْ وطَابَ المَحْتِدُ

المحتد: الأصل

أَمِـنَ الـسَّـوِيَّـةِ يـا ابـنَ عَـمِّ مـحـمـدٍ خَـصْـمٌ تُـقَـرِّبُـهُ، وآخَـرُ تُـبْـعِـدُ؟

أمن السوية، العدل، تقريب أحد الخصمين وإبعاد الآخر.. وكان القاضي يسوي بين الخصمين ويسمعهما. وخصوم شاعرنا في بلاط الخليفة وجدوا من المتوكل إذناً مصغية، كما ستعلم بعد بيتين

إن الـذيـنَ سَـعَـوْا إلـيـكَ بِـبـاطِـلٍ أعـداءُ نِـعـمَـتِـكَ الـتـي لا تُـجْـحَـدُ

شَهِدُوا وغِبْنـا عنْهُـمُ، فتَحَكَّمُـوا فـيـنـا، ولـيـس كـغـائِـبٍ مَنْ يَشْهَدُ

لو يَجْمَعُ الخَصميْنِ عندَكَ مَشْهَدٌ يـومـاً لَـبـانَ لَـكَ الـطـريـقُ الأَقْـصَـدُ

الأقصد: الأعدل

فَلَئِنْ بقيتُ على الزمانِ وكان لي يوماً مِنَ المَلِكِ الخليفةِ مَقْعَدُ

لو أتيح لي يوماً مقعد، مكان، من الخليفة..

واحَتَجَّ خَصْمي واحتَجَجْتُ بِحُجَّتِي لَفَلَجْتُ في حُجَجِي وخَابَ الأَبْعَدُ

فلجت: غلَبت

والـلَّـهُ بَـالِـغُ أمـرِهِ فـي خَـلْـقِـهِ وإلـيـه مَـصـدَرُنـا غـداً والـمَـوْرِدُ

الله بالغ أمره، منفذ لمشيئته، ومنه مصدرنا وإليه موردنا

ولَئِنْ مَضَيْتُ لَقَلَّما يَبقَى الذي قد كادَني، ولَيَجْمَعَنَّا المَوْعِدُ

لئن مت فالذي دبر لي مكيدة لن يبقى طويلاً، وسيجمعنا الله يوم القيامة

فَبِأَيِّ ذَنْبٍ أصبحتْ أعراضُنا نهباً يُشيدُ بها اللئيمُ الأَوْغَدُ

يشيد هنا معناها ينشر

١١ سَلِ الدمع

سَلِ الدمعَ عن عيني وعن جسدي المُضْنَى وهل لَقِيَتْ عيناي بعدَكُم غُمْضا

وأين الهوى مِنِّي وقد عَضَّتِ النَّوى على كَبِدي الحَرَّى بِأنيابِها عَضَّا

كيف أصبحت حالي مع الحب بعد وقوع النوى، الفراق؟

تَكُدُّ بِنا بَرّاً وبَحْراً تَعَسُّفاً وتُورِدُنا أرضاً وتُصْدِرُنا أرضا

النوى ترهقنا في البر والبحر تعسفاً، أي سيراً شديداً

فَلَوْ أنَّ ما بي بِالجبالِ تَضَعْضَعَتْ وبالماءِ لم يَعْذُبْ وبِالنَّجْمِ لانقَضَّا

سَأَخْلَعُ ثوبَ اللَّهْوِ بعدَ أَحِبَّتي وأَرفُضُ طِيبَ العيشِ بعدَهُمُ رَفْضا

١٢ خلاخيل الرجال

خَليلَيَّ ما لِلحُبِّ يَزدادُ جِدَّةً على الدهرِ والأيامُ يَبْلَى جَديدُها

وما لِعهودِ الغانياتِ ذَميمَةً وليلى حَرامٌ أن تُذَمَّ عُهودُها

مواعيد الحسان مذمومة لكثرة ما يخلفن، فلماذا يحرم عليَّ أن أذم مواعيد ليلى؟

أَلَمَّتْ وجُنْحُ الليلِ مُرْخٍ سُدولَه ولِلسِّجْنِ أَحراسٌ قليلٌ هُجودُها

ألمت، زارت، في الليل، وللسجن حراس متيقظون قليلو النوم.. فالذي زاره هو طيفها في المنام

فقلتُ: لها أنَّى تَجشَّمْتِ خُطَّةً يُحَرِّجُ أنفاسَ الرِّياحِ وُرودُها

قلت لها: كيف تجشمت هذا القدوم الذي يحرج، أي يضيق الأنفاس حتى لو كانت أنفاس الرياح

فقالَتْ: أَطَعْنا الشوقَ بعدَ تَجلُّدٍ وشَرُّ قلوبِ العاشقينَ جَليدُها

قالت: أطعت شوقي لك بعد التجلد، والتصبر، وليس حسناً في قلوب العاشقين أن تكون صبورة

وأَعْلَنَتِ الشكوى وجالَتْ دموعُها على الخدِّ لمَّا التَفَّ بالجيدِ جيدُها

فقلتُ لها والدمعُ شَتَّى طَريقُهُ ونارُ الهوى بالشَّوْقِ يُذْكَى وَقُودُها

الدمع ينزل ويصنع طرقاً شتى، متعددة، على الخدين، يذكى: يوقَد

إذا سَلِمَتْ نفسُ الحبيبِ تَشابَهَتْ صُروفُ الليالي سَهلُها وشديدُها
فَلا تَجزَعي إمَّا رأيتِ قُيودَهُ فإنَّ خَلاخِيلَ الرجالِ قُيودُها
ولا تُنكِري حَالَ الرَّخاءِ وَفَوْتَهُ فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يُعيدُها

لا تنكري انقضاء أيام العز والرخاء، فأمير المؤمنين جدير بأن يعيد تلك الأيام

١٣ في بيت القيان

نزلْنا بِبابِ الكَرْخِ أفضلَ منزلِ على مُحْسِناتٍ مِنْ قِيانِ المُفَضَّلِ

نزلنا في «باب الكرخ»، وهو موضع ببغداد، نزولاً حلواً على مغنيات مجيدات يملكهن «المفضل» في بيته. وكان بعض «أشباه القوادين» يملكون في بغداد بيوتاً يغشاها سراة القوم للسماع ولغير السماع

فَلِابْنِ سُرَيْجٍ والغَرَيضِ ومَعْبَدٍ وَدَائعُ في آذانِنا لم تُبَدَّلِ

لدى أولئك المغنيات ألحان كبار الملحنين قد حفظنها،
وهن يستودعنها آذاننا يؤدينها كما هي بغير تبديل

أَوَانِسُ ما لِلضيفِ مِنْهُنَّ حِشْمَةٌ ولا رَبُّهُنَّ بِالمَهيبِ المُبَجَّلِ

فتيات أنيسات لا يحتشم ولا يخجل منهن الضيف، وربهن، صاحبهن، ليس ذا هيبة ووقار..
بل يسمح للضيف بالعبث

يُسَرُّ إذا ما الضيفُ قَلَّ حَياؤُهُ ويَغْفَلُ عنه وَهْوَ غَيْرُ مُغَفَّلِ

يسعد المفضل صاحب القيان إذا اجترأ الضيف، ويتغافل عنه، ولكنه ليس بالمغفل

ويُكْثِرُ مِنْ ذَمِّ الوَقارِ وأهلِه إذا الضيفُ لم يَأْنَسْ ولم يَتَبَذَّلِ

يذم المفضل الوقار تشجيعاً للضيف الذي لم يشعر بعد بالأنس ولم يتبذل، أي لم يأخذ راحته

ولا يَدفَعُ الأَيدي السَّفيهَةَ غَيْرَةً إذا نَالَ حَظَّاً مِن لَبُوسٍ ومَأْكَلِ

لا يردُّ أيدي الضيوف العابثة شرط أن ينال من ضيوفه الهدايا من ثياب وفواكه

ويُطْرِقُ إطراقَ الشُّجاعِ مَهابةً لِيُطْلِقَ طَرْفَ الناظِرِ المُتَأَمِّلِ

يطرق المفضل خافضاً بصره إطراق الشجاع، أي الثعبان الذي يغض بصره ولكنه منتبه لكل حركة، والغرض أن يطلق الضيف نظره ويتمتع بالقيان

فَأَعْمِلْ يَداً في بيتِهِ وتَبَذَّلَنْ وَعَدِّ عَنِ المَوْلَى، ومَا شِئْتَ فَافْعَلِ

فالمس بيدك، وتبذلن، اتركن الحياء، وافعل ما شئت معهن متجنباً المولى، سيد البيت

أَشِرْ بِيَدٍ واغْمِزْ بِطَرْفٍ ولا تَخَفْ   رَقيباً إذا ما كنتَ غيرَ مُبَخَّلِ

وأَعْرِضْ عن المِصباحِ والْهَجْ بِذَمِّهِ   فإنْ خَمَدَ المِصباحُ فادْنُ وقَبِّلِ

ابتعد عن المصباح، واشغل حديثك بذمه مشيراً إشارة غير مباشرة إلى ضرورة إطفائه،
فإن أطفئ فاقترب وقبل

وسَلْ غيرَ مَمنُوعٍ وقُلْ غيرَ مُسْكَتٍ   ونَمْ غيرَ مَذْعُورٍ وقُمْ غَيرَ مُعْجَلِ

لَكَ البيتُ ما دامَتْ هَدايَاكَ جَمَّةً   ودُمْتَ مَلِيَّاً بِالشَّرابِ المُعَسَّلِ

البيت بيتك ما دامت هداياك كثيرة، وما دمت ملياً، قادراً،
على الإنفاق على النبيذ الحلو

١٤ الخليفة الشهيد

يصف سحابة، ثم يرثي المتوكل. يقول محقق الديوان: «في القسم الأول من القصيدة موقف شعري عجيب يستدعي النظر والتأمل». هذه القصيدة تحفة من تحف الشعر العربي، تقف بجانب القصائد الشوامخ الكبرى.. وهي تبدأ بوصف مفصل لسحابة تمطر وتنعش العراق.. كأنما هي الخير العميم الذي ناله الشاعر من المتوكل، ثم يأتي بعد ذلك رثاء المتوكل:

وَسَارِيةٍ تَرتَادُ أرضاً تَجُودُها   شَغَلْتُ بِها عيْناً قليلاً هُجودُها

رب سحابة سارية، تسير ليلاً، ترتاد، تطلب، أرضاً تجودها، تمطرها؛ وقد شغلت بها عيني التي
قل هجودها، أي نومها

أَتَتْنا بها ريحُ الصَّبا وكأنَّها   فتاةٌ تُزَجِّيها عَجوزٌ تَقُودُها

جاءتنا بها ريح الصبا، فكأن السحابة فتاة لاهية تزجيها، أي تدفعها، عجوز هي الريح

تَمِيسُ بها مَيْساً فَلا هِيَ إن وَنَتْ   نَهَتْها ولا إن أَسْرَعَتْ تَسْتَعِيدُها

تميس، أي تتمايل، الريح بالسحابة، فإن ونت السحابة، أي أبطأت، لم تنهها عن الإبطاء، وإن
أسرعت لا تستعيدها، لا تطلب منها العودة. كأنه منظر عجوز في حديقة وأمامها حفيدتها ترقص
وتلعب والعجوز وراءها ترقبها بحب ولا تمنعها من اللهو

إذا فَارَقَتْها سَاعَةً وَلِهَتْ بِها   كَأُمٍّ وَلِيدٍ غابَ عنها وَلِيدُها

إذا ابتعدت السحابة ولهت العجوز، أي الريح، وقلقت كأم طفل غاب عنها طفلها

فَلَمَّا أَضَرَّتْ بالعيونِ بُروقُها   وكادَتْ تُصِمُّ السَّامِعينَ رُعودُها..

وبعد البرق الذي يخطف البصر، والرعد الذي يصم الآذان..

وكـادَتْ تَـمـيـدُ الأَرضُ إِمَّـا تَـلَـهُّـفـاً وإمَّـا جِذاراً أن يَـضـيـعَ مُـريـدُهـا..

وبعد أن كادت الأرض تميل: إما تلهفاً وشوقاً للمطر، وإما خوفاً من أن يضيع مريدها، أي هذا المطر الذي يريدُ الأرض ويبحث عنها

فَـلَـمَّـا رأَتْ حُرَّ الـثَّـرى مُـتَـعَـقِّـداً بِـمَـا زَلَّ منـهـا والرُّبَى تَـسْـتَـزِيـدُهـا..

لما رأت السحابة حر الثرى، وسط التراب، متعقداً بالرذاذ الذي سقط منها، ورأت الربى تريد زيادة من المطر..

وأَنَّ أَقـالـيـمُ الـعِـراقِ فَـقـيِـرَةٌ إلـيـهـا، أقـامَـتْ بِـالـعِـراقِ تَـجُـودُهـا

ولما رأت أن أقاليم العراق مفتقرة إليها.. مكثت بالعراق تجود أقاليمه، أي تمطرها.. والجَوْدُ هو المطر

فمَا بَرِحَتْ بَغدادُ حتى تَفَجَّرَتْ بِـأَوْدِيَـةٍ مـا تَـسْـتَـفـيِـقُ مُـدُودُهـا

ما لبثت بغداد أن تفجرت بسيول لا تستفيق مدودها، لا يكف جريانها

وحتى رَأَيْـنـا الـطـيـرَ في جَـنـبَـاتِـهـا تـكـادُ أَكُـفُّ الـغَـانِـيـاتِ تَـصـيِـدُهـا

رأينا الطير في جنبات السيول، نواحيها، تطير منخفضة حتى لتستطيع أيدي الفتيات الصغيرات الإمساك بها

وحتى اكْتَسَتْ مِن كلِّ نَوْرٍ كأَنَّها عَـرُوسٌ زَهَـاهـا وَشْـيُـهـا وبُـرُودُهـا

واكتست بغداد من كل نور، نوار النبات، كأنها عروس زهاها، ملأها زهواً، ما عليها من ثياب موشاة

ودِجْلَةُ كالدِّرْعِ المُضَاعَفِ نَسجُها لَـهـا حَـلَقٌ يَـبْـدُو ويَـخْفَى حَـديـدُهـا

غدا نهر دجلة متموج السطح كالدرع المنسوجة نسجاً مضاعفاً، تبدو أطراف حلقاتها وكأنها ليست من حديد

فَـلَـمَّـا قَـضَـتْ حَـقَّ الـعِـراقِ وأَهْـلِـهِ أَتَـاهـا مِـن الـرِّيـحِ الـشَّـمَـالِ بَـريـدُهـا

لما قضت السحابة حق العراق، أتاها بريد عاجل، هو عبارة عن ريح الشمال، ليسوقها مبتعدة

فَمَرَّتْ تَفُوتُ الطَّرْفَ سَبْقاً كأَنَّـما جُـنـودُ عُـبَـيْـدِ الـلَّـهِ وَلَّـتْ بُـنُـودُهـا

مرت السحابة مسرعة تسبق الطرف، النظر، فكأنها جنود عبيد الله وقد انصرفت بنودها، راياتها، هاربة. عبيد الله بن يحيى وزير المتوكل الذي جاءه خبر الهجوم على الخليفة فقرر ألا يفعل شيئاً، وقعد في زورق طلباً للنجاة

وخَـلَّـتْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ مُـجَـدَّلاً شـهـيـداً ومِـن خـيـرِ الـمُـلـوكِ شـهـيـدُهـا

تركت السحابة أمير المؤمنين مجدلاً، مطروحاً قتيلاً، شهيداً

وكانَ أَضَاعَ الحزمَ واتَّبَعَ الهوى وَوَكَّلَ غِرَّاً بِالجُيوشِ يَقودُها

المتوكل لم يكن حازماً عندما وكل غراً، غشيماً غير خبير، بقيادة الجيش

كأنَّهُمُ لم يَعْلَمُوا أنَّ بَيْعَةً أَحَاطَتْ بِأعنَاقِ الرجالِ عُقُودُها

كأنهم لم يدركوا أن البيعة للخليفة هي عهد في أعناق الرجال

فلمَّا اقْتَضاها ليلَةَ الرَّوْعِ حَقَّهُ جَرَتْ سُنُحاً سَادَاتُها ومَسُودُها

فلما اقتضى المتوكل في ليلة الخوف تلك من رجاله احترام البيعة والقيام بحقها جرت سنحاً، فرت سريعاً، السادات والأتباع

وبَاتَتْ خَبَايا كَالبَغَايا جُنودُهُ وفي زَوْرَقِ الصيادِ بَاتَ عَميدُها

واختبأت الجنود اختباء المومسات عن أعين رجال الشرطة، وعميد الجنود قعد في زورق صياد ناجياً بنفسه

بَلَى وَقَفَ الفَتْحُ بنُ خَاقانَ وَقْفَةً؛ فَأَعْذَرَ مَوْلَى هَاشِمٍ وتَلِيدُها

على أن الوزير الأول للمتوكل الفتح بن خاقان وقف وقفة شجاعة وقتل دون سيده. فأعذر، أي قدم العذر ورفع عن نفسه المذمة، هذا المولى لبني هاشم والتليد فيهم أي المولود بينهم

وجَادَ بِنَفْسٍ حُرَّةٍ سَهَّلَتْ لَهُ وُرودَ المَنايا حيثُ يُخْشَى وُرودُها

جاد بنفسه الحرة التي سهلت عليه الموت لأنها حرة أبية

وفَرَّ عُبَيْدُ اللَّهِ فيمَنْ أَطاعَهُ إلى سَقَرِ اللَّهِ البَطِيءِ خُمودُها

وفر عبيد الله فيمن، أي مع من، أطاعه من الجند، ومصيرهم جهنم

ولم تَحْضُرِ السَّادَاتُ مِن آلِ مُصعَبٍ فَيُغْنِيَ عنهُ وَعدُها ووعيدُها

ولم تحضر لنجدة المتوكل السادات من آل مصعب، أبناء عبد الله بن طاهر، فلم ينفعه ما لديهم من قوة الوعد والوعيد

ولو حَضَرَتْهُ عُصْبَةٌ طَاهِرِيَّةٌ مُكَرَّمَةٌ آباؤُها وجُدُودُها..

ولو حضره آل طاهر ذوو الأصل الماجد..

لَعَزَّ على أَيْدي المَنونِ اخْتِرامُه وإن كان مَحتُوماً عليهِ وُرودُها

لعز، أي صعب، على الموت اخترامه، قتله، رغم أن الموت مكتوب على كل إنسان

أولئِكَ أركانُ الخِلافَةِ إنَّما بِهِمْ ثَبَتَتْ أَطنَابُها وعَمُودُها

آل طاهر أركان الخلافة، وبهم ثبتت أطنابها، الأطناب حبال الخيمة، وعمودها

فَيا لِجُنودٍ ضَيَّعَتْها مُلوكُها ... ويَا لِـمُلُوكٍ أَسْلَـمَتْها جُنودُها

هذه جنود ضيعتها ملوكها، قادتها، ويا لملوك أسلمتها الجنود ولم تحمها

أَيُقْتَلُ في دارِ الخِلافَةِ جَعْفَرٌ ... على فُرْقَةٍ صَبْراً وأنتُمْ شُهودُها

أيقتل الخليفة في دار الخلافة صبراً، حبيساً، وأنتم متفرقون عنه وشاهدون على قتله

فلا طَالِبٌ لِلثأْرِ مِن بعدِ مَوْتِهِ ... ولا دَافِعٌ عن نفسِهِ مَن يُريدُها

لا أحد يطالب بثأره ولا أحد دافع عن نفسه من يريد سلب هذه النفس.. وكان المنتصر، ابن الخليفة المتوكل، متواطئاً على قتل أبيه

بَنُو هَاشِمٍ مثلُ النجومِ وإنَّما ... مُلوكُ بني العباسِ مِنها سُعُودُها

بنو هاشم كالنجوم، وملوك بني العباس هي نجوم السعد بين هذه النجوم (وفي الكواكب ـ ولا فرق عند القدامى بين نجم وكوكب ـ ما هو عنوان سعد كالمشتري، وما هو عنوان نحس كزحل، واختلفوا في المريخ)

بَني هَاشِمٍ صَبْراً فكلُّ مُصيبَةٍ ... سَيَبْلَى على طُولِ الزمانِ جَديدُها

عزيزٌ علينا أن نَرى سَرَوَاتِكُمْ ... تَفَرَّى بِأَيْدي النَّاكِثينَ جُلودُها

صعب علينا أن نرى سرواتكم، سادتكم، تفرى، تقطَّع، جلودهم بأيدي الناكثين بالبيعة. هذه نبوءة.. فبعد المتوكل أصبح قتل الخلفاء على أيدي قادتهم أو عبيدهم أمراً مألوفاً

ولكنْ بِأَيْديكُمْ تُراقُ دِماؤُكُمْ ... ويَحْكُمُ في أَرْحَامِكُمْ مَن يَكيدُها

بأيديكم تقتلون.. وفي هذا إشارة إلى تواطؤ ابن المتوكل مع قتلة أبيه

أَلَهْفاً وما يُغني التَّلَهُّفُ بعدَما ... أُذِلَّتْ لِضِبْعانِ الفَلاةِ أُسُودُها

ماذا يغني التلهف بعد أن ذلت الأسود لضباع الفلاة، الصحراء

عبيدُ أميرِ المؤمنينَ قَتَلْنَهُ ... وأَعْظَمُ آفاتِ المُلوكِ عبيدُها

١٥ القرفصى

علامَ قَعَدْتِ القُرْفُصَى تعذُلِينَني ... كَأَنِّيَ جَانٍ كلَّ ذَنْبٍ وجَارِحُهْ

أَقِلِّي فإنَّ اللومَ أَشْكَلَ واضِحُهْ ... وما مِن نَصيحٍ لا تُمَلُّ نَصائِحُهْ

خففي من لومك فإن دواعي اللوم أصبحت غائمة ذات إشكال، ولا يوجد ناصح إلا كانت نصائحه مملولة بعد حين

١٦ الصبر في الضيق

لـلـدهـرِ إدبَـارٌ وإقـبـالُ   وكـلُّ حـالٍ بـعـدَهـا حـالُ
وصـاحـبُ الأيـامِ فـي غَـفْـلَـةٍ   ولـيـس لـلأيـامِ إغـفـالُ
مـا أَحسـنَ الـصـبـرَ ولا سِيَّـمـا   بِـالـحُـرِّ إن ضـاقَـتْ بـه الـحَـالُ
يَـشْـهَـدُ أعـدائـي بِـأنِّـي فَـتـىً   قَـطَّـاعُ أَسْـبـابٍ وَوَصَّـالُ

قطاع أسباب وأوصال: مجرب داهية

لا تَـمْـلِـكُ الـشِّـدَّةُ عَـزمـي ولا   يُـبْـطِـرُنـي جـاهٌ ولا مـالُ

١٧ المتوكل يعود إلى السنة

وقـائـلٍ أيُّـهُـمـا أَنْـوَرُ   الـشـمـسُ أم سَـيِّـدُنـا جـعـفَـرُ
قلـتُ لقد أكبَرْتَ شمسَ الضُّحَى   جَـهـلاً، ومـا أنـصَـفْـتَ مَـنْ تَـذْكُـرُ

إذ شبهته بالشمس فقد عظمت قدر الشمس لأنه، بالطبع، أنورُ منها

قَـامَ وأهـلُ الأرضِ فـي رَجْـفَـةٍ   يَـخْـبِـطُ فيـهـا الـمُـقـبِـلَ الـمُـدْبِـرُ

قام المتوكل، أي أصبح خليفة، وفي الناس رجفة، فتنة، وهم يتخبطون (فدين الدولة الاعتزال والناس أميل إلى السنة، والعامة ببغداد تميل ميلاً شديداً عن الاعتزال وتؤثر مذهب أحمد بن حنبل)

ونَـبَـذَ الـشُّـورَى إلـى أهـلِـهـا   لـم يَـثْـنِـهِ خَـشْـيَـةُ مـا حَـذَّرُوا

ترك مشاورة كبار رجال الدولة، والاعتزال مذهبهم، ولم يخش ما حذروه منه إذا ترك مذهب الاعتزال

وانـفَـضَّـتِ الأعـداءُ مِـن حـولِـه   كَـحُـمُـرٍ أَنْـفَـرَهـا قَـسْـوَرُ

الأعداء خافوه وفروا من وجهه كحمر وحشية أنفرها قسور، شتت جمعها أسد، من الآية «كأنهم حمرٌ مستنفرة، فرت من قسورة»

وصَـاحَ إبـلـيـسُ بِـأَصْـحـابِـه: حَـلَّ بِـنـا مـا لـم نَـزَلْ نَـحـذَرُ
مَـا لـي ولِـلْـغُـرِّ بِـنـي هـاشِـمٍ   فـي كـل دهـرٍ مـنـهُـمُ مُـنْـذِرُ
أكُـلَّـمـا قـلـتُ خَـبَـا كَـوكَـبٌ   مِـنْـهُـمْ بـدا لـي كَـوكَـبٌ يَـزْهَـرُ
لـم يُـلْـهِـهِ عَـنِّـي الـشـبـابُ الـذي   يُـلْـهِـي ولا الـدنـيـا الـتـي تُـعْـمَـرُ
والـلَّـهِ لـو أَمْـهَـلَـنـا سـاعـةً   مـا هَـلَّـلَ الـنـاسُ ولا كَـبَّـروا

يقول إبليس: لو أمهلنا المتوكل قليلاً لنشرنا الكفر ولم يبق من يهلل، يقول «لا إله إلا الله»، ولا من يكبر

يـا أَعـظَـمَ الـنـاسِ عـلـى مُـسْـلِـمٍ   حَـقّـاً ويـا أَشـرَفَ مَـن يَـفْـخَـرُ
الـرِّدَّةُ الأُولـى ثَـنَـى أَهْـلَـهـا   حَـزْمُ أَبـي بَـكْـرٍ ولـم يَـكْـفُـروا
وهَــذِهِ أنــتَ تَــلافَـيْـتَـهـا   فـعـادَ مـا قـد كـادَ لا يُـذْكَـرُ

وهذه الردة الثانية على يد المعتزلة تلافيتها أنت فعاد الإيمان الصحيح الذي كاد ينتهي ولا يعود يذكره أحد

١٨ التوبة

عـفَـا الـلَّـهُ عـنـكَ أَلَا حُـرْمَـةٌ   تَـعُـوذُ بِـعَـفْـوِكَ أنْ أُبْـعَـدا؟

أليس لي حرمة تعوذ بعفوك، تلتجئ إليه، فلا ينالني الإقصاء؟

لَـئِـنْ جَـلَّ ذَنْـبٌ ولـم أَعْـتَـمِـدْهُ   فـأنـتَ أَجَـلُّ وأَعـلـى يَـدا

لم أعتمده: لم أتعمَّدْه

أَقِـلْـنـي أَقـالَـكَ مَـنْ لـم يَـزَلْ   يَـقـيـكَ ويَـصـرِفُ عـنـكَ الـرَّدَى
ألـسـتُ الـذي كـان يُـرضـي الـوَلِـيَّ   ويُـشْـجـي الـعَـدُوَّ إذا أَنْـشَـدا؟

ألست الذي كان يرضي الحليف ويشجي، أي يحزن، العدو بشعره؟

فَـصُـنْ نِـعْـمَـةً أنـتَ أَنْـعَـمْـتَـهـا   وشُـكْـراً غَـدا غـائِـراً مُـنْـجِـدا

صن النعمة التي أنعمتها علي، وصن شكري لك الذي أصبح منتشراً عبر شعري. . غائراً في الوديان ومنجداً في التلال

ولا عُـدْتُ أَعـصِـيكَ فـيـمَـا أَمَـرْتَ   بـه أو أُرَى فـي الـثَّـرى مُـلْـحَـدا

لا أعصي لك أمراً حتى يواريني التراب

١٩ كلهم ضدي

تـوكَّـلْـنـا عـلـى ربِّ الـسـمـاءِ   وسَـلَّـمْـنـا لأَسْـبـابِ الـقَـضـاءِ
ووَطَّـنَّـا عـلـى غِـيَـرِ الـلَّـيـالـي   نـفـوسـاً سـامَـحَـتْ بـعـدَ الإِبَـاءِ

وطَّنَّا نفوسنا، أي ذللناها، كي تتقبل غير الليالي ومصائبها، وهذه النفوس سامحت، أصبحت سمحة لينة، بعد الشموخ والإباء

وأَفْـنِـيَـةُ الـمـلـوكِ مُـحَـجَّـبَـاتٌ   وبـابُ الـلَّـهِ مَـبـذُولُ الـفِـنَـاءِ

ساحات الملوك عليها حُجَّاب، ولكن باب الله مفتوح لمن يدعوه

فَمَا أَرجُو سِواهُ لِكَشْفِ ضُرِّي   ولَمْ أَفْزَعْ إلى غيرِ الدُّعَاءِ

لا أرجو سوى الله، ولا أفزع، أي ألجأ، إلا إلى الدعاء

ولِمْ لا أَشْتَكِي بَثِّي وحُزْني   إلى مَنْ لا يَصَمُّ عن النِّدَاءِ

هِيَ الأيامُ تَكْلِمُنا وتَأْسُو   وتَجري بالسعادةِ والشقاءِ

الأيام تكلمنا، تجرحنا، وتأسو، تداوي..

فلا طولُ الثَّواءِ يَرُدُّ رِزْقاً   ولا يأتي به طولُ البَقاءِ

طول الثواء، المكوث، لا يرد الرزق ويحجبه، وطول العمر لا يضمن الرزق

ولا يُجْدِي الثَّراءُ على غنيٍّ   إذا ما كان مَحْظُورَ العطاءِ

لا فائدة للغني في ماله إذا كان مانعاً العطاء عن الناس

وليس يَبِيدُ مالٌ عن نَوَالٍ   ولا يُؤْتَى سَخِيٌّ مِن سَخاءِ

لا يفنى المال من النوال الذي يخرجه المرء للناس، ولا يؤتى، أي يصاب بضرر، السخي بسبب سخائه

كَمَا أنَّ السُّؤَالَ يُذِلُّ قَوماً   كذاكَ يَعِزُّ قَومٌ بالعَطاءِ

حَلَبْنا الدهرَ أَشْطُرَهُ ومَرَّتْ   بِنا عُقَبُ الشَّدائِدِ والرخاءِ

حلبنا الدهر أشطره، جربناه وخبرناه كمن يحلب ضروع الناقة حتى لا يبقى فيها شيء من لبن، ومرت بنا عقب، نتائج، أوقات الشدة وأوقات الرخاء

ولم نَدَعِ الحياءَ لِمَسِّ ضُرٍّ   وبعضُ الضُّرِّ يَذهَبُ بالحَياءِ

لم نترك حياءنا إذ وقعت بنا مصيبة.. وما أكثر ما تذهب المصيبة بالحياء

وجَرَّبْنا وجَرَّبَ أَوَّلُونا   فَلا شَيءٌ أَعَزُّ مِنَ الوفاءِ

أولونا: أجدادنا

تَوَقَّ الناسَ يا ابْنَ أبي وأُمِّي   فَهُمْ تَبَعُ المَخافَةِ والرَّجاءِ

احذر الناس يا أخي فهم بين خائف من بطش قوي وراج عطاء سخي، ولا مكان عندهم لحب يكون حباً في الله ولله، أو حباً يكون لك لذاتك وللأنس بحسن معشرك

ولا يَغْرُرْكَ مِنْ وَغْدٍ إخَاءٌ   لِأمرٍ مَا غَدا حَسَنَ الإخَاءِ

لا تغتر بإخاء وغد، فهو يؤاخيك لغرض

أَلَمْ تَرَ مُظْهِرِينَ عَلَيَّ غِشّاً   وهُمْ بالأَمْسِ إخْوانُ الصَّفَاءِ

ألا ترى الذين يظهرون لي الغش، وكانوا بالأمس يظهرون الصفاء؟

بُلِيتُ بِنَكْبَةٍ فَغَدَوْا وراحُوا   عَلَيَّ أَشَدَّ أَسْبَابِ البَلاءِ

بليت بنكبة فكانوا من أشد أسباب معاناتي

أَبَتْ أَخْطَارُهُمْ أن يَنْصُرونِي   بِمَالٍ أو بِجَاهٍ أو بِرَاءِ

أبت عليهم أخطارهم، مناصبهم، أن ينصروني بمال أو بجاه أو براء، أي برأي ومشورة

وخَافُوا أن يُقالَ لَهُمْ خَذَلْتُمْ   صَدِيقاً فادَّعَوْا قِدَمَ الجَفَاءِ

لئلا يتهمهم أحد بخذلان صديق أصبحوا يزعمون أن الجفاء بيني وبينهم قديم

تَضَافَرَتِ الرَّوَافِضُ والنَّصَارَى   وأَهْلُ الإعتِزَالِ على هِجَائي

تضافر وتعاون الروافض، أي المتشددون في التشيع، والنصارى (ومنهم الطبيب بَخْتِيَشوع) والمعتزلة على هجائي

فَبَخْتِيَشُوعَ يَشْهَدُ لابْنِ عَمْرٍو   وعَزُّونٌ لِهَارونَ المُرَائي
وعَابُونِي ومَا ذَنبِي إِلَيْهِمْ   سوى عِلْمي بِأَوْلادِ الزِّنَاءِ
إذا مَا عُدَّ مِثْلُهُمُ رِجالاً   فما فَضْلُ الرجالِ على النِّساءِ
عليْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ ابتِدَاءً   وعَوْداً في الصباحِ وفي المساءِ
إذا سَمَّيْتُهُمْ للناسِ قَالوا   أُولئكَ شَرُّ مَنْ تَحتَ السماءِ
أنا المُتَوَكِّلِيُّ هَوىً ورَأْياً   وما بالوَاثِقِيَّةِ مِن خَفاءِ

أنا من أنصارك أيها المتوكل، وأولئك كانوا حاشية الخليفة السابق الواثق.. وكان الواثق قد أذل أخاه المتوكل وأقصاه، وجاء المتوكل فكان كارهاً للواثق، كارهاً لمذهبه، الاعتزال

وما حَبْسُ الخليفةِ لي بِعَارٍ   وليسَ بِمُؤْيِسِي منه التَّنَائي

حبس الخليفة لي ليس عاراً.. ولن أيأس من عفوه رغم التنائي، البعد

٢٠ البديهة والفكرة

بديهَتُهُ وفِكْرَتُه سواءٌ   إذا ما نابَهُ الخَطْبُ الكبيرُ

الآراء المرتجلة لهذا الممدوح، وآراؤه الصادرة بعد تفكير، متساوية في حصافتها عندما تحل به مشكلة كبيرة

وأَحْزَمُ ما يكونُ الدهرَ رَأْياً   إذا عَيَّ المُشَاوِرُ والمُشِيرُ

وقد تميز بحزمه عندما عيَّ الناس، أي تبلبلت ألسنتهم وتحيروا،
سواء في ذلك الذي يستشير أو الذي يشير

وصـدْرٌ فـيـهِ لِـلْـهَـمِّ اتِّـسـاعٌ　　إذا ضَـاقَـتْ بِـمـا فـيـهـا الـصـدورُ

وصدره واسع يبتلع الهموم بينما تضيق صدور الناس

٢١ جاء من الدنيا

إلى اللَّهِ فيما نَابَنَا نرفعُ الشكوى　　ففي يدِهِ كشفُ الضَّرورَةِ والبَلْوَى

نابنا: حل بنا، الضرورة: الضرر

خرجْنا مِن الدنيا ونحن مِنَ اهْلِها　　فلسْنا مِن الأحياءِ فيها ولا الموتى

إذا جاءنا السجَّانُ يوماً لِحاجةٍ　　عجِبْنا وقلنا جاء هذا مِن الدنيا

ونفرحُ بالرؤْيا فَجُلُّ حديثِنا،　　إذا نحن أصبحنا، الحديثُ عن الرؤْيا

فإن حَسُنَتْ لم تأتِ عَجْلَى وأبْطَأَتْ　　وإن قَبُحَتْ لم تَحْتَبِسْ وأَتَتْ عَجْلَى

٢٢ في هجاء مغنٍّ

كنتُ في مجلسٍ فقالَ مُغَنِّي الـ　　ـقومِ كم بينَنا وبينَ الشتاءِ

هذا من شعر مجالس اللهو.. المغني ثقيل الظل وهو يسأل الحاضرين عن موعد قدوم الشتاء.. ولا نظنه سأل، بل هي توطئة للنكتة الباردة من شاعرنا

فذَرَعْتُ البِساطَ مِنِّي إليهِ　　قلتُ: هذا المِقْدارَ قبلَ الغِناءِ

مشيت على طول البساط مني إلى المغني.. وقلت له: بيننا وبين الشتاء بمثل هذا القدر.. أي أنك أنت الشتاء يا بارد يا ثقيل!

فإذا ما عَزَمْتَ أن تتغَنَّى　　آذَنَ الحَرُّ كلُّهُ بانقِضاءِ

فإذا بدأت تغني فقد حل بنا الشتاء لبردك وثقل دمك

٢٣ منتهى البخل

ما كنتُ أَحْسَبُ أن الخبزَ فَاكِهَةٌ　　حتى نَزَلْتُ على زيدِ بنِ منصورِ

خبزه عزيز لبخله فكأنه فاكهة

الحابِسِ الرَّوْثَ في أَعْفاجِ بغلتِهِ　　خوفاً على الحَبِّ مِن لَقْطِ العصافيرِ

هذا البخيل يحبس روث البغلة في أعفاجها، في أدنى مِعاها، خوفاً أن تلتقط العصافير حب الشعير المتخلف في الروث

٢٤ قاعدين يرضعون

الوردُ يَضْحَكُ والأَوْتَارُ تَصْطَخِبُ والنَّايُ ينـدُبُ أَشجاناً وينتحِبُ

والراحُ تُعْرَضُ في نَوْرِ الربيعِ كما تُجْلَى العروسُ عليها الدُّرُّ والذَّهَبُ

تقدم الخمر بين النوار الربيعي، وكانوا يجعلون في مجلس الشراب الرياحين

وكلَّما انسكَبَتْ في الكأسِ آنِيَةً أَقْسَمْتُ أن شعاعَ الشمسِ ينسَكِبُ

آنيةً: حارة. وقلما شربوا النبيذ حاراً، ولا سيما في وقت الربيع، ولعله رآها تزبد فكأنها تغلي، أو لعله قصد طعمها المز، فالخمر كأكل المطاعم الهندية يقدمونه بارداً وهو بتوابله حار

والقومُ إِخْوانُ صِدْقٍ بينَهُمْ نَسَبٌ مِنَ المَوَدَّةِ لم يُعْدَلْ بِه نَسَبُ

تَراضَعُوا دِرَّةَ الصَّهْباءِ بينَهُمُ وأَوْجَبُوا لِرَضيعِ الكأْسِ ما يَجِبُ

هم إخوة في الرضاع.. لكنه رضاع درة، أي لبن، واللبن الخمر.. وهم يحفظون ما يجب أن يحفظ لإخوة رضاعة الكأس

لا يَحفَظُونَ على السكرانِ زَلَّتَهُ ولا يَريبُكَ مِن أَخْلاقِهِمْ رِيَبُ

عندما ينطوي مجلس الشراب ينطوي ما دار فيه من عربدة أو سقطات لسان

٢٥ العاشق وطبيبه

تَنَكَّرَ حالَ عِلَّتِيَ الطبيبُ وقالَ أرى بجِسمِكَ ما يَريبُ

فما هذا الذي بِكَ هاتِ قُلْ لي فكان جَوابَهُ مِنِّي النَّحيبُ

وقلتُ أَيا طَبيبُ الهَجْرُ دائي وقلبي يا طبيبُ هُوَ الكئيبُ

فَحَرَّكَ رأسَهُ عَجَباً لِقولي وقال الحبُّ ليس له طبيبُ

٢٦ استرضاء

ما زِلْتُ أسترضيهِ مِن ذنبِهِ فليس يَرضَى وَهُوَ المُذنبُ

٢٧ الشرف طبع

ما الجودُ عن كَثرةِ الأمْوالِ والنَّشَبِ ولا البلاغةُ في الإكثارِ والخُطَبِ

النشب: المال

ولا الشجاعةُ عن جِسْمٍ ولا جَلَدٍ ولا الإِمَارَةُ إِرْثٌ عن أَبٍ فأَبِ

لـكـنَّـهـا هِـمَـمٌ أدَّتْ إلـى رِفَـعٍ وكـلُّ ذلـك طَبْعٌ غيرُ مكـتَسَبِ

٢٨ حكاية

قيل إن علي بن الجهم قال لامرأة:

قـالـوا عـشِـقْـتَ صَـغـيرةً فـأجبتُـهُـمْ أَشْـهَـى الـمَطِـيِّ إلَـيَّ مـا لـم يُـرْكَـبِ

يقولون إنك عشقت فتاة صغيرة، فأجبتهم: أشهى المطي، الدواب، إلى قلبي ما لم يُركب قبلي

كـم بـيـنَ حَـبَّـةِ لُـؤْلُـؤٍ مَـثْـقُـوبَـةٍ نُـظِـمَـتْ وحَـبَّـةِ لُـؤْلُـؤٍ لـم تُـثْـقَـبِ

واللؤلؤة المثقوبة والمنظومة في عقد أقل قيمة من لؤلؤة لم تثقب

وقيل إن المرأة أجابته قائلة:

إن الـمَـطِـيَّـةَ لا يَـلَـذُّ ركـوبُـهـا حـتـى تُـذَلَّـلَ بِـالـخِـطـامِ وتُـركَـبـا

الدابة لا يكون ركوبها لذيذاً إلا بعد تذليلها وترويضها بالخطام، المقود

والـدُّرُّ لـيـس بِـنـافِـعٍ أربَـابَـهُ حـتـى يُـجَـمَّـعَ فـي الـنِّـظَـامِ ويُـثْـقَـبـا

والدر، اللؤلؤ، لا ينفع أصحابه حتى ينظم في عقد بعد ثقبه. هي حكاية مما يضعه الناس للتسلية في المجالس

٢٩ أنت والمذنَّب!

لـمَّـا بَـدا أَيْـقَـنْـتُ بِـالـعَـطَـبِ فـسـألـتُ رَبِّـي خـيـرَ مُـنْـقَـلَـبِ

لما ظهر الحارثي أيقنت بالهلاك فسألت الله خير منقلب، خير مصير

لـم يَـطْـلُـعَـا إلَّا لِآبِـدَةٍ الـحـارثـيُّ وكـوكـبُ الـذَّنَـبِ

صادف أن جاء الحارثي في وقت بدا فيه كوكب الذنب، لعله مذنب هالي الذي كانوا يتشاءمون به، ولا بد أن الحارثي والمذنب ظهرا معاً لآبدة، لمصيبة وشيكة

٣٠ وصف سفينة

عـجـبـتُ كـلَّ الـعـجـبِ مِـن سَـيْـرِ هـذا الـمَـرْكَـبِ

ومـا لـه عـيـنٌ ولا رُوحٌ جَـرَتْ فـي عَـصَـبِ

لِـجَـامُـهُ مِـن خَـلْـفِـهِ مُـرَكَّـبٌ فـي الـذَّنَـبِ

يشبه السفينة بالدابة ولكن لجام السفينة، يقصد سكانها أي دفتها، من الخلف

إذا استَحَثَّتْهُ مَجَا ذيفُ لَهُ في الطَّلَبِ

إذا حثته المجاذيف على السير في الطلب، في طلب اللحاق بمن سبقه أو طلب الصيد

أَعْنَقَ فوق الماءِ في هَمْلَجَةٍ أو خَبَبِ

أعنق المركب، أي مد عنقه وأسرع، وسار سير الهملجة أو الخبب، وهما من أوصاف سير الإبل

للماءِ في حَيْزُومِهِ مِنْ صَوْتِ مَوجٍ صَخِبِ..

للماء في حيزومه، صدره، من صوت الموج الصاخب..

حَشْرَجَةٌ كَالرَّعْدِ في عارِضِ غَيْثٍ لَجِبِ

للماء حشرجة كالرعد في عارض، أي سحاب، مطر لجب، مصحوب بضجيج رعده

٣١ هجاء ابن الزيات

لَعائِنُ اللَّهِ مُتَابَعاتِ

متابعات: متلاحقات

على ابنِ عبدِ المَلِكِ الزَّيَّاتِ
عَرَّضَ شَمْلَ المُلْكِ للشَّتاتِ
وأنفذَ الأحكامَ جائراتِ
على كتابِ اللَّهِ زارِياتِ

أحكامه تزري، أي تعيب، كتاب الله، وذلك لمذهب ابن الزيات في الاعتزال ولبطشه المعروف

يَرمي الدَّواوينَ بِتوقيعاتِ
معقَّداتٍ كَرُقَى الحيَّاتِ

يوقع الوزير ابن الزيات ـ وهو شاعر فصيح، وفيه حذلقة ـ في ذيول الكتب الديوانية بكلام معقد كأنه الرقى، التعاويذ الشعوذية، التي يجعلونها في البيوت للوقاية من الأفاعي

هَارونُ يا ابنَ سيِّدِ السَّاداتِ

هارون: الخليفة الواثق

أمَا تَرى الأمورَ مُهْمَلاتِ
تَشْكُو إليكَ عَدَمَ الكُفَاةِ
فعاجِلِ العِلْجَ بِمُرهَفَاتِ

عاجل هذا العلج، الرجل الجافي الغليظ، بمرهفات، بسيوف

مِـن بـعـدِ أَلْـفِ صُـخَّـبِ الأَصْـواتِ

ولا تضربه بالسيف إلا بعد أن تجلده ألف جلدة ذات صوت صاخب

بِـمُـشْـمِـراتٍ غـيـرِ مُـورِقَـاتِ

اجلده بسياط في أطرافها عُقَد فكأنها الثمار، لكنها ثمار بلا أوراق

٣٢ بيت عن تسعين

أَحْسَنُ مِن تِسعينَ بيتاً سُدَى   جَمْعُكَ مَعْنَاهُنَّ في بيتِ

ما أحْوَجَ المُلْكَ إلى مَطْرَةٍ   تغسلُ عنه وَضَرَ الزَّيْتِ

الملك محتاج إلى مطر يغسل عنه وضر، وسخ، الزيت.. تعريض بالوزير ابن الزيات

٣٣ رق الهوى

أنفسٌ حُرَّةٌ ونحن عَبيدُ   إن رِقَّ الهوى لَرِقٌّ شَديدُ

٣٤ شماتة وتأليب

وقال لما قُبض على عمر بن الفرج الرخجي وأسلم إلى نجاح بن سلمة ليصادره، أي يعذبه لاستخراج ما عنده من مال:

أَبْلِغْ «نَجاحاً» فتى الفِتيانِ مَأْلُكَةً   تَمضي بها الريحُ إِصداراً وإِيرادا

مألكة: رسالة

لن يَخْرُجَ المالُ عفواً مِنْ يَدَيْ «عُمَرٍ»   أو يُغْمَدَ السيفُ في فَوْدَيْهِ إِغْمَادا

لن يبوح بمكان إخفائه المال إلا بتهديده بإغماد السيف في فوديه، سالفيه

الرُّخَّجِيُّونَ لا يُوفونَ مَا وَعدُوا   والرُّخَّجِيَّاتُ لا يُخْلِفْنَ مِيعَادا

تعريض بعفة نساء هذه الأسرة

٣٥ أنت وابنك

وقال يهجو القاضي أحمد بن أبي دؤاد الذي كان معتزلياً يقول بالعدل والتوحيد، ولكنه كان مَن نصب المتوكل خليفة فغفر له ماضيه واستبقاه بعد أن أقصى المعتزلة، ويهجو الشاعر ابن القاضي وكنيته «أبو الوليد»:

ما هذهِ البِدَعُ التي سَمَّيْتَها   بِالجَهلِ منكَ العدلَ والتَّوْحيدا؟

ما هذه البدع المعتزلية التي سميتها «العدل والتوحيد»؟

أَفسدتَ أمرَ الدينِ حينَ وَليتَهُ ورَمَيْتَه «بِأَبي الوليدِ» وليدَا

أفسدت الدين حين توليت أمره، ورميت الدين بابنك أبي الوليد وهو وليد، صغير السن، حين عينته على المظالم في سامراء

شَرِهاً، إذا ذُكِرَ المكارمُ والعُلا ذَكَرَ القَلايا مُبْدِئاً ومُعيدا

ابنك شره فإذا تذاكر القوم أحاديث المكارم ذكر لهم القلايا، المقالي، ولا يمل من الحديث عن الطعام

ويَوَدُّ لو مُسِخَتْ «ربيعةُ» كلُّها وبنُو «إيادٍ» صَحْفَةً وثَريدا

يود ابنك لو مسخت قبائل ربيعة وقبيلة إياد صحفة، قصعة، وثريداً

وإذا تَرَبَّعَ في المجالسِ خِلْتَهُ ضَبُعاً وخِلْتَ بَني أَبيهِ قُرودا

يتربع في المجالس كالضبع المفترسة، وحوله أبناء قومه كالقرود

وإذا تَبَسَّمَ ضاحكاً شَبَّهْتَهُ شَرِقاً تَعَجَّلَ شُرْبَهُ مَزْؤُودَا

مزؤوداً: مذعوراً

لا أَصْبحَتْ بِالخيرِ عينٌ أَبصَرَتْ تلكَ المَناخِرَ والثَّنايا السُّودَا

الثنايا: الأسنان

٣٦ منتهى الشماتة

وقال لما فُلج أحمد بن أبي دؤاد:

لم يبقَ منكَ سوى خَيالِكَ لامعاً فوق الفراشِ مُمَهَّداً بِوِسادِ

لم يبق من عزك القديم سوى شبحك لامعاً، أي بادياً، فوق فراشك وقد سوي بالوسائد

فَرِحَتْ بِمَصْرَعِكَ البريَّةُ كلُّها مَن كان منهُمْ مُوقِناً بِمَعادِ

فرح البشر كلهم بقرب هلاكك.. قد فرح المؤمنون الموقنون بالآخرة والبعث

كم مَجلِسٍ للَّهِ قد عطَّلْتَهُ كي لا يُحَدَّثَ فيه بِالإسْنادِ

عطلت مجالس أهل السنة الذين يروون الأحاديث بأسنادها

ولكَمْ مَصابيحٍ لنا أطفأْتَها حتى نَحيدَ عن الطريقِ الهَادي

أطفأت مصابيح الهداية بتعريضك أهل السنة للمحنة

ولكم كَريمَةِ مَعْشَرٍ أَرْمَلْتَها ومحدِّثٍ أَوْثَقْتَ في الأَقْيَادِ

الأقياد: القيود

إن الأَسَارَى في السجونِ تَفَرَّجُوا لـمَّـا أَتَـتْـكَ مـواكـبُ الـعُـوَّادِ

تفرجوا: استبشروا بالفرج، لما أتتك مواكب العائدين كناية عن اشتداد مرضك

وغَدا لِـمَصْرَعِكَ الطبيبُ فلم يَجِدْ لِـدواءِ دَائِـكَ حـيـلـةَ الـمُـرْتـادِ

فَـذُقِ الـهَـوانَ مـعـجَّـلاً ومـؤجَّـلاً والـلَّـه ربُّ الـعـرشِ بِـالـمِـرصَـادِ

لا زالَ فـالِـجُـكَ الـذي بِـكَ دائـبـاً وفُـجِـعْـتَ قـبـلَ الـمـوتِ بِـالأولادِ

ليبق بك الفالج مستمراً، وليفجعك الله بأولادك قبل موتك، وكما يقول صاحب مروج الذهب فإن ابن أحمد بن أبي دؤاد المعروف بأبي الوليد، وهو من مهجوي ابن الجهم، مات قبل أبيه بعشرين يوماً. كان ذلك سنة ٢٤٠هـ

٣٧ سيوفهم تفني وتغني وتفقر

وخرج إلى الشام في قافلة، فخرجت عليهم الأعراب في خساف فهرب من كان في القافلة من المقاتلة، وثبت هو فقاتلهم قتالاً شديداً، فرجع الناس إليه وثبتوا ولم يحظ الأعراب بشيء. فقال في ذلك:

ولـمَّـا رأيـتُ الـموتَ تهفُـو بنودُهُ وبـانـتْ عـلامـاتٌ لـه لـيـس تُـنْـكَـرُ

لما رأيت الموت تهفو بنوده، أي تتحرك راياته، وبانت علاماته التي لا شك فيها

وأقبلـتِ الأعـرابُ مِـن كـلِّ جـانـبٍ وثـارَ عـجـاجٌ أسـودُ الـلـونِ أَكْـدَرُ

وأقبل الأعراب من كل جانب وثار عجاج، غبار، أسود

بِـكـلِّ مُـشـيحٍ مُـسْـتَـمـيتٍ مُـشَـمِّـرٍ يَـجُـولُ بـه طِـرْفٌ أَقَـبُّ مُـشَـمِّـرُ

جاءوا بكل مشيح، منحرف نحو الجنب استعداداً للطعن، يجول به طرف، أي فرس، أقب، أي نحيل، مشمر، أي مستعد

بِأرضِ «خُسَافٍ» حين لـم يَكُ دَافعٌ ولا مـانـعٌ إلَّا الـصَّـفـيـحُ الـمُـذَكَّـرُ

في تلك الأرض حيث لا شيء يدفع الأذى عن المرء إلا الصفيح المذكر، السيف المصنوع من حديد ذكر

فقَلَّلَ في عـيـنَيَّ عُظْمَ جُموعِهِمْ عـزيـمـةُ قـلـبٍ فـيـهِ ما جلَّ يَـصْـغُـرُ

ما قلل في عيني كثرتهم عزيمة قلبي الذي يصغر بالنسبة له كل جليل

بِـمُـعْـتَـرَكٍ فـيـه الـمـنـايـا حَـواسِـرٌ ونـارُ الـوَغـى بِـالـمَـشْـرَفِـيَّـةِ تُـسْـعَـرُ

هذا في معركة المنايا فيه حواسر، كاشفة عن رأسها وبادية للعيان، ونار الحرب تشتعل بالمشرفية، السيوف

فَما صُنْتُ وجهي عن ظُبَاتِ سيوفِهِمْ ولا انْحَزْتُ عنهُمْ والقَنا تَتَكَسَّرُ

لم أحفظ وجهي من ظبات، شفرات، سيوفهم، ولا انحزت، ابتعدت جانباً، بينما الرماح تتكسر في أتون المعركة

مَنَعْتُهُمُ مِن أن يَنالُوا قُلامَةً وكنتُ شَجَاهُمْ والأَسِنَّةُ تَقْطُرُ

منعتهم من نيل حتى قلامة، شيء حقير، من متاعنا، وكنت شجاهم، شوكة في حلقهم، بينما أسنة الرماح تقطر دماً

أَبَتْ لي قُرومٌ أَنجبَتِنيَ أن أُرى وإن جلَّ خطبٌ خاشعاً أتضَجَّرُ

أبت لي قروم، سادة، أنجبتني أن أُرى خاشعاً ذليلاً أتضجر من خوض الحرب

أولئكَ آلُ اللَّهِ فِهْرُ بنُ مَالِكٍ بِهِمْ يُجْبَرُ العَظْمُ الكَسيرُ ويُكْسَرُ

والسادة الذين أنجبوني هم آل فهر، قريش، الذين يجبر بهم العظم الكسير، يُصلَح بهم ما اختل من الأمور، ويكسر العظم، فهم يكسرون عظم أعدائهم

هُمُ المَنْكِبُ العالي على كلِّ مَنْكِبٍ سيوفُهُمُ تُفني وتُغني وتُفْقِرُ

٣٨ الأم واحدة والآباء كثر

واجتمع مع قوم في مجلس، فعربد عليه بعضهم، فغضب وخرج، واتصل الشر بينهم حتى تقاطعوا وهجروه وعابوه واغتابوه. فقال يهجوهم:

بَني مُتَيَّمَ هل تَدْرُونَ ما الخبرُ وكيفَ يُسْتَرُ أمرٌ ليس يَسْتَتِرُ

حَاجَيْتُكُمْ مَنْ أَبوكُمْ؟ يا بَني عُصَبٍ شَتَّى، ولكنَّما لِلعاهِرِ الحَجَرُ

حاجيتكم، أي حزَّرتكم، وطرحت عليكم أُحجيَّة، من هو أبوكم؟ يا بني عصب شتى، يا أبناء جماعات مختلفة، طبعاً لا تعرفون، والأب العاهر له الحجر (وبحسب تفسير الحديث الشريف «الولد للفراش وللعاهر الحجر»: العاهر الذي هو الأب البيولوجي له الإهمال ولا حق له في الولد)

قد كان شيخُكُمُ شيخاً له خطرٌ لكنَّ أُمَّكُمُ في أمرِها نَظَرُ

أبوكم المعلَن له خطر، له مكانته، لكن أمكم في أمرها نظر، أي لعلها علقت بكم من غيره

ولم تَكُنْ أُمُّكُمْ ـ واللَّهُ يَكْلُؤُها ـ مَحجُوبةً دونَها الحُرَّاسُ والسُّتُرُ

يكلؤها: يحفظها

كانتْ مُغَنِّيَةَ الفِتيانِ إن شَرِبُوا وغيرَ ممنوعَةٍ منهُمْ إذا سَكِرُوا

وكانَ إخوانُهُ غُرّاً غَطارِفَةً لا يُمْكِنُ الشَّيْخَ أن يَعصِيَ إذا أَمَرُوا

كان إخوان شيخكم، أصحاب أبيكم، غراً غطارفة، سادة نبلاء، ولا يستطيع أن يعصي لهم أمراً

قـومٌ أَعِـفَّـاءُ إِلَّا فـي بُـيـوتِـكُـمُ   فإنَّـه في مَثلِها قد تُخْلَعُ العُذُرُ

هم أعفاء إلا في بيوتكم، ففي هذه البيوت قد تخلع العذر، يُترك الحياء بالتأكيد، و«قد» هنا توكيد لا شك

فأصبحَتْ كَمُراحِ الشَّوْلِ حَافِلَةً   مِنْ كُلِّ لاقِحَةٍ في بَطْنِها دِرَرُ

أصبحت أمكم كمراح الشول، كالناقة الحامل في مبركها، حافلة، أي مليئة، وفي بطنها من كل تلقيح ذكري درر، جمع درة وهي اللبن، ويقصد مني الفحول

فَجِئْتُمْ عُصَباً، مِن كلِّ نَاحِيَةٍ   نوْعٌ، مَخانيثَ في أعنَاقِها الكَبَرُ

ولدتم جماعات مختلفي الأنواع، وإنكم لمخنثون وفي أعناقكم الكبر، أي الطبل الصغير الشبيه بالدربكة الذي يتحلى به المخنثون

فَوَاحِدٌ كِسْرَوِيٌّ في قَرَاطِقِهِ   وآخَرٌ قُرَشِيٌّ حينَ يُخْتَبَرُ

فأحدكم كسروي الهيئة فارسي في قراطقه، أثوابه، وآخر عربي الهيئة كأنه من قريش

ما عِلْمُ أُمِّكُمْ مَن حَلَّ مِئْزَرَها   ومَنْ رَمَاها بِكُمْ يا أَيُّها القَذَرُ

قومٌ إذا نُسِبُوا فالأُمُّ وَاحِدَةٌ   واللَّهُ أَعْلَمُ بِالآباءِ إذ كَثُرُوا

لم تَعْرِفُوا الطَّعْنَ إلَّا في أَسَافِلِكُمْ   وأنتُمُ في المَخَازي فِتْيَةٌ صُبُرُ

تصبرون على المخازي لأنكم تعودتم عليها

أَحْبَبْتُ إِعْلامَكُمْ أَنِّي بِأَمْرِكُمُ   وأمرِ غيرِكُمُ مِنْ أَهْلِكُمْ خَبِرُ

خبر: خبير

تَفَكَّهُونَ بِأَعراضِ الكِرامِ وما   أنتُمْ وذِكْرُكُمُ السَّادَاتِ يَا عُرَرُ

عرر: جمع عُرَّة، وعرة قومه أدناهم وأحقرهم

هَذا الهِجاءُ الذي تَبقَى مَيَاسِمُهُ   على جِبَاهِكُمُ مَا أَوْرَقَ الشجرُ

مياسمه: علاماته المشبهة مِيسم الإبل بحديدة النار

٣٩ لا فرار من الشعر

وقال يهجو أبا أحمد بن الرشيد وكان مدحه فلم يعطه شيئاً:

يـا أبـا أحـمـدَ لا يُـنـ   ـجـي مِـن الـشـعـرِ الـفِـرارُ

لِـبـنـي الـعـبـاسِ أَحـلا   مٌ عِـظـامٌ وَوَقـارُ

أحلام: عقول

ولـهـم فـي الـحـربِ إقـدا   مٌ ورأيٌ واصْـطـبـارُ

ولَـــهُـــمْ أَلـــسِـــنَـــةٌ تَـبـــ ـــري كـمـــا تَـبـري الـشِّـفـارُ
ولِـعِـطْـفَـيْـكَ عـن الـمـجـــ ـــدِ شِـمــــاسٌ وازْوِرَارُ

لعطفيك، لجانبيك، شماس، نفور، وازورار، ميل، عن المجد

إن تـكـنْ مِـنـهُـمْ بِـلا شَـكٍّ ـ فَـلِـلْـعُـودِ قُـتَـارُ

قتار: دخان

ولِـصَـفْـوِ الـمـاءِ أَقْـذَا ءٌ ولِـلْـخـمـرِ خُـمَـارُ

الخمار: صداع الخمر

٤٠ وارحمتا للغريب

وقيل هذا آخر شعر قاله:

وارَحْمَتَا لِلغَريبِ في البلدِ النَّـ ـا زحِ مـاذا بِـنـفـسِـهِ صَـنَـعـا
فـارقَ أحـبـابَـه فـمـا انـتَـفَـعُـوا بـالـعـيشِ مِن بعدِه ولا انتَفَعا
كـان عـزيـزاً بِـقُـرْبِ دَارِهِـمُ حـتـى إذا مـا تَـبـاعَـدُوا خَـشَـعـا

خشع: ذلَّ

يـقـولُ فـي نَـأْيِـه وغـربَـتِـه: عَـدْلٌ مِـن الـلَّـهِ كـلُّ مـا صَـنَـعـا

٤١ الأشراف لا تعتدي على الأشراف

وجرت بينه وبين أبي طالب الجعفري وحشة ثم أرسل أبو طالب يعتذر إليه، فكتب إليه علي بن الجهم:

لـم تُـذِقْـنـيِ حَـلاوَةَ الإنـصـافِ وتَـعَـسَّـفْـتَـنـيِ أَشـدَّ اعـتِـسَـافِ

تعسفتني: ظلمتني

وتـرَكْـتَ الـوفـاءَ جَـهـلاً بـمـا فـيــ ـهِ فـأَسْـرَفْـتَ غـايـةَ الإسـرافِ
غـيرَ أَنِّـي إذا رجعتُ إلى حقِّ ـ بَـنـيِ هَـاشِـمِ بْـنِ عـبـدِ مَـنـافِ
لم أَجِدْ لي إلى التَّشَفِّي سبيلاً بِـقَـوافٍ ولا بِـغـيـرِ قَـوافِ
لِيَ نـفـسٌ تَـأْبـى الـدَّنِـيَّـةَ والأَشـ ـرافُ لا تـعـتـدِي عـلـى الأشـرافِ

دعك من المعنى، وإنه لمعنى شريف، وانظر في صياغة هذا البيت وفي إحكام صنعته. اسمعه مثلما تسمع الموسيقى. وانظر إلى البيت الذي قبله.. انظر إلى معناه وإلى هذا التكرار الجميل لكلمة قواف، ثم يأتي تكرار الأشراف.. ألا ترى البيتين يرقصان رقصاً!

٤٢ لست متروكاً

وقال يهجو عمر بن الفرج الرخجي:

جمعتَ أمريْنِ ضاعَ الحزمُ بينَهما ... تيهَ المُلوكِ وأفعالَ المَماليكِ

أَرَدْتَ شكراً بِلا بِرٍّ ومَرْزِئَةٍ ... لقد سَلَكْتَ طريقاً غيرَ مَسْلوكِ

أردت أن أشكرك، أي أن أمدحك، بلا بر وعطاء من جانبك وبلا مرزئة، بدون خسارة تخسرها من مالك، وهذا طريق لا يسلكه المرء مع الشاعر

ظَنَنْتَ عِرضَكَ لا يُرمَى بِقارِعةٍ ... وما أَراكَ على حَالٍ بِمَتْروكِ

القارعة: المصيبة

٤٣ التفضل والتجمل

يمدح المتوكل:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَها تَتَحَمَّلُ ... ولِلدهرِ أيامٌ تَجُورُ وتَعْدِلُ

تجور: تنحرف، تعدل: تسير مستقيمة

وعَاقِبَةُ الصبرِ الجميلِ جميلةٌ ... وأفضلُ أخلاقِ الرجالِ التَّفَضُّلُ

خير أخلاق الرجال التفضل، أي إعطاء الآخر فوق ما يستحق كرماً ونبلاً.. والنبيل حقاً ليس من يقايضك قيراطاً بقيراط، بل الذي يتفضل ويسخو بماله وبوقته وببشره

ولا عارَ أنْ زَالَتْ عن الحُرِّ نِعمَةٌ ... ولكنَّ عاراً أن يَزولَ التجَمُّلُ

التجمل: الصبر على المكروه، وأن يقسو الكريم على نفسه فلا يظهر الشكوى بل يوسع صدره لشكاوى الناس

ومَا المالُ إلَّا حَسرةٌ إن تَركتَهُ ... وغُنْمٌ إذا قَدَّمْتَهُ مُتَعَجَّلُ

إن تركت المال في كيسك فهو حسرة في قلبك، وإن خرجت عنه للآخرين فهو غنيمة لك.
وقد رأيت في مقدمتنا معايب لا تحصى في شخصية علي بن الجهم، لكنه كان يتوق توقاً شديداً إلى أخلاق النبلاء ويحسن وصفها

ولِلخيرِ أهلٌ يَسعَدُونَ بِفعلِهِ ... ولِلناسِ أحوالٌ بِهِمْ تَتَنَقَّلُ

ولِلهِ فينا عِلْمُ غيْبٍ وإنَّما ... يُوفِّقُ مِنَّا مِن يَشاءُ ويَخْذِلُ

وأَقْوَمُ خلْقِ اللَّهِ لِلَّهِ بِالذي ... يُحِبُّ ويَرضَى «جعفَرُ المتوكِّلُ»

فَتىً جمعتْ فيه المَكارِمُ شَمْلَها ... فما فاتَه منها أخيرٌ وأَوَّلُ

أَبَى اللَّهُ إلّا أنَّه خيرُ خلقِهْ　　وأَعْدَلُهُمْ فيما يَقولُ ويَفعلُ
عنَايَتُهُ بِالدينِ تَشهدُ أنَّه　　بِقَوْسِ رسولِ اللَّه يَرمي ويَنْصُلُ

يرمي بقوس الرسول، يسير على سنته، وينصل، يثبت عود سهمه في النصل الذي هو حديدة مدببة في الرأس

إذا ما رأى رأياً تيقَّنْتَ أنَّه　　بِرَأْيِ ابنِ عَبَّاسٍ يُقاسُ ويُعدَلُ

آراؤه في الدين تقاس وتعدل، تقارَن وتوازَن، بآراء عبد الله بن عباس المعروف بسعة علمه

له المِنَّةُ العظمَى على كلِّ مسلمٍ　　وطاعتُه فرضٌ مِن اللَّهِ مُنزَلُ
أعادَ لنا الإسلامَ بعد دُروسِهِ　　وقامَ بأمرِ اللَّهِ والأمرُ مُهمَلُ

دروسه: اندثاره

وآثَرَ آثارَ النبيِّ محمدٍ　　فقال بما قال الكتابُ المُنَزَّلُ
وأَلَّفَ بين المسلمينَ بِيُمْنِهِ　　وأَطْفَأَ نيراناً على الدينِ تُشْعَلُ
يُعَاقِبُ تأديباً ويعفُو تَطَوُّلاً　　ويَجْزِي على الحُسْنَى ويُعطِي فيُجْزِلُ

إذ يعاقبني المتوكل فعقابه من باب تأديب الرئيس للمرؤوس ولا عار في ذلك، ويعفو تطولاً، تفضلاً منه

ولا يُتْبِعُ المعروفَ مَنّاً ولا أذىً　　ولا البخلُ مِن عاداتِه حين يُسْأَلُ
يُضِيءُ لِأَبصارِ الرجالِ كأنَّهُ　　صَباحٌ تَجَلَّى يَزحَمُ الليلَ مُقبلُ
تَأَمَّلْ ترى للهِ فيه بَدايِعاً　　مِنَ الحُسنِ لا تَخفَى ولا تَتَبَدَّلُ
فَنَضْرَةُ وجهٍ يَقْصُرُ الطَّرْفُ دونَه　　وطَرْفٌ وإن لم يَألَفِ الكُحْلَ أَكْحَلُ

وجهه ناضر وفيه هيبة تغض طرف، عين، الناظرين إليه، وله طرف أكحل بلا كحل: عين كحلاء كحلاً ربانياً

ومُعْتَصِمِيُّ الخَلْقِ لِلسيْفِ والقَنَا　　عليه بَهاءٌ حين يَبدُو ويُقْبِلُ

خلقه، أي جسمه وخِلقته، يشبه جسم المعتصم، وكان جسيماً قوياً، وبهي الإقبال وهو يتحلى بسلاحه

إذا نحن شَبَّهْنَاكَ بِالبدرِ طالِعاً　　بَخَسْناكَ حَظّاً أنتَ أَبْهَى وأَجمَلُ
ونَظْلِمُ إن قِسْناكَ بِاللَّيْثِ في الوَغى　　فإنكَ أَحْمَى للذِّمارِ وأَبْسَلُ

أنت تحمي الذمار، الشرف، أكثر من الليث وأنت أبسل منه بَسالةً

ولستَ بِبَحْرٍ، أنتَ أعذبُ مَوْرِداً　　وأَنفعُ للرَّاجِي نَداكَ وأَشْمَلُ

ولا وَصْفَ إلّا قد تجاوزتَ حَدَّهُ   ولا سَيْبَ إلّا سَيْبُ كَفِّكَ أفضلُ

السيب: العطاء

رعاكَ الذي اسْتَرْعاكَ أمْرَ عبادِهِ   وكافاكَ عنّا المُنعِمُ المُتَفَضِّلُ

كافاك: كافأك

٤٤ تهديد غير مبطَّن

أطلقه طاهر بن عبد الله أمير خراسان من السجن بأمر المتوكل، فمكث علي بن الجهم في خراسان زمناً، وقال للأمير قبل رحيله عائداً إلى بغداد:

أطاهرُ إنِّي عن خُراسانَ راحلٌ   ومُستَخْبَرٌ عنها فما أنا قائلُ؟

سيسألونني في بغداد عن خراسان، فماذا سأقول لهم عنك وعن سخائك أم بخلك؟

أأصدُقُ، أم أَكْنِي عن الصدقِ؟ أيّما   تخيَّرتَ أدَّتْهُ إليكَ المَحافِلُ

أأقول الصدق أم ألتف على الحقيقة بكلام ممغمغ؟ الأمر عائد إليك فإن أكرمتني قلت ذلك صراحة وإلا فإنني سأقول كلاماً يفهم سامعه أنك بخلت. . وعلى كل حال سيصلك كلامي، إذ ستردد شعري مجالس الأدب

وسَارتْ به الرُّكْبانُ واصْطَفَقَتْ به   أكفُّ قيانٍ واجْتَبَتْهُ القَبائلُ

سيسير المسافرون الراكبون الإبل حاملين شعري من بلد إلى بلد، وستغنيه القيان، المغنيات، ويصفقن وهن يغنينه، وستجتبيه القبائل، ستختاره لكي تضمه إلى الأشعار التي تتردد في مجالسها

ألَا مُنصفٌ إن لم نَجِدْ متفضِّلاً   علينا، ألَا قاضٍ من الناسِ عادلُ

إن لم نجد من يتفضل ويعطي فوق الكفاية فعلى الأقل نريد من ينصفنا ويعطينا ما نستحق لا غير

فلا تَقْطَعَنْ غيظاً علَيَّ أناملاً   فقبْلَكَ ما عَضَّتْ علَيَّ الأنامِلُ

لا تعض على أناملك لشدة الغيظ إن قلت فيك كلاماً أصف فيه بخلك ـ هذا إن بخلت ـ، وقبلك كثيراً ما عض القوم أناملهم لشدة وقع كلامي

أطاهرُ إن تُحْسِنْ فإنِّيَ محسِنٌ   إليكَ، وإن تَبخَلْ فإنِّيَ باخِلُ

٤٥ أنا والسُّرى

كم قد تَجَهَّمَنِي السُّرَىٰ وأزالَني   ليلٌ يَنوءُ بِصدرِه مُتطاوِلُ

كثيراً ما أرهقني السرى، سير الليل، وأزالني من بلدي الليل الطويل الذي ينوء بصدره، يثقل علي كأنه جاثم بصدره عليّ

وهَزَزْتُ أَعناقَ المَطِيِّ أَسومُها ... قَصْداً ويَحْجُبُها السوادُ الشاملُ

وهززت أعناق الإبل وأنا أحثها على السير وأسومها قصداً، أكلفها سيراً نحو مقصدي، بينما الليل يشملنا

حتى تولَّى الليلُ ثانِيَ عِطْفِهِ ... وكأنَّ آخرَه خِضابٌ ناصِلُ

وتولى الليل وانصرف ثانياً من جنبه، كما ينصرف المرء فيثني جسمه ويولينا ظهره، وآخر الليل سواد وبياض كصبغة الشعر الناصلة قد نبت الشعر أبيض تحت الصبغ

وخرجتُ مِن أَعجازِهِ وكأنَّما ... يهتَزُّ في بُرْدَيَّ رُمْحٌ ذَابِلُ

وخرجت من أعجاز الليل، أواخره، قائماً نحيلاً لطول السفر كأنني الرمح الذابل، الجاف المشذب

٤٦ ذنبي وحرمتي

وكتب إلى طاهر بن عبد الله من الحبس:

إن كان لي ذنبٌ فَلِي حُرْمَةٌ ... والحقُّ لا يدفَعُهُ الباطلُ

وحُرمَتِي أَعْظَمُ مِنْ زَلَّتي ... لو نالني مِن عدلِكُمْ نائلُ

ولِي حقوقٌ غيرُ مَجهولةٍ ... يعرفُها العاقلُ والجاهلُ

وسِيرةُ الأَمْلاكِ مَنقُولَةٌ ... لا جَائِرٌ يَخْفَى ولا عادلُ

سيرة الملوك تتناقلها الناس، ولا يخفى الظالم ولا العادل

وقد تَعَجَّلْتَ الذي خِفْتُهُ ... منكَ ولم يَأْتِ الذي آمُلُ

عجِلْتَ عليَّ بالعقاب، وكنت أخشى ذلك، ولم يأتني منك الخير، وكنت آمله

٤٧ ليل الجريح

وقال ليلة وفاته وهو جريح:

أَزِيدَ في الليلِ ليلُ ... أم سالَ بِالصبحِ سيلُ؟

هل زاد طول الليل عن المعهود، أم ذهب سيل جارف بالصبح فلم يعد يأتي؟

يا إِخوَتي بِدُجَيْلٍ ... وأينَ مِنِّي دُجَيْلُ

دجيل: المحلة التي كان يسكنها ابن الجهم في بغداد

٤٨ تبرير المصلوب

حبس المتوكل علي بن الجهم ثم نفاه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله بن طاهر بأن يصلبه إذا وردها يوماً إلى الليل. فلما وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بها ثم أخرج فصلب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل فقال:

لم ينصِبُوا بِالشَّاذِياخِ صَبيحَةَ الـ   إثْـنـيْـنِ مَـغـمُـوراً ولا مـجـهـولا

لم يصلبوا رجلاً مغموراً أو مجهول المكانة، وكان الصلب عقاب اللصوص، وعقاب كبار المتمردين على الدولة أيضاً

نَصبُوا بِحمدِ اللَّهِ مِلءَ عيونِهِمْ   شَـرفـاً ومِـلءَ صـدورِهِـمْ تَـبـجـيـلا

مـا ازدادَ إلَّا رفـعـةً بِـنُـكُـولِـهِ   وازْدَادَتِ الأعـداءُ عـنـه نُـكـولا

ازداد هذا المصلوب رفعة بما ناله من تنكيل، وازداد أعداؤه خوفاً منه وإحجاماً عنه.. والشرح من محقق الديوان

هـل كـانَ إلَّا الـليـثَ فـارَقَ غـيِـلَـهُ   فـرأيـتَـهُ فـي مَـحْـمَـلٍ مَـحـمـولا

كان كأنه الأسد فارق غابته، فجيء به محمولاً مرفوعاً!

لا يـأمَـنُ الأعـداءُ مِـنْ شَـدَّاتِـه   شَـدَّاً يُـفَـصِّـلُ هـامَـهُـمْ تَـفـصِـيـلا

هامهم: رؤوسهم

مـا عـابَـه أن بُـزَّ عـنـه لِـبـاسُـهُ   فـالـسـيـفُ أَهْـوَلُ ما يُـرى مَـسلولا

العري لم يعبه، فالسيف يكون مخيفاً أكثر وهو عار من غمده

إن يُـبْـتَـذَلْ فـالـبـدرُ لا يُـزْرِي بـه   أن كـان لـيـلـةَ تِـمِّـهِ مَـبـذُولا

إن ابتذلوني، أي أبرزوني، فالبدر ليلة تمامه بارز مبذول لكل ذي عينين

أو يَـسـلُـبُـوهُ الـمـالَ يُـحْـزِنْ فَـقْـدُهُ   ضـيـفـاً أَلَـمَّ وطـارِقـاً ونَـزِيـلا

إن سلبوني مالي فهذا يحزن الضيف الذي يلم بي، يأتيني، وينزل عندي لأنه لا يجد قرى أو عوناً

أو يَـحْـبِـسُـوهُ فـليـسَ يُـحْـبَـسُ سَـائِـرٌ   مِـنْ شِـعْـرِهِ يَـدَعُ الـعـزيـزَ ذلـيـلا

إن حبسوني فلن يحبسوا شعري السائر، السريع الانتشار، الذي يذل العزيز إن هجي به

إن الـمـصـايِـبَ، ما تَـعَـدَّتْ دِيـنَـهُ،   نِـعَـمٌ وإن صَـعُـبَـتْ عـلـيـهِ قـلـيـلا

والـلَّـهُ لـيـس بِـغـافـلٍ عـن أمـرِه   وكـفـى بِـربِّـكَ نـاصـراً ووكـيـلا

لـن تـسـلـبُـوهُ ـ وإن سـلـبْـتُـمْ كـلَّ مـا خَـوَّلْـتُـمُـوهُ ـ وَسَـامَـةً وقَـبُـولا

لن تسلبوني ـ وإن سلبتم كل ما خولتموني، أي منحتموني من عبيد وخدم ـ لن تسلبوني الوسامة في الشكل وحسن القبول لدى الناس

هـل تَـمـلِـكُـونَ لِـديـنِـهِ ويَـقـيـنِـهِ وجَـنـانِـه وبَـيـانِـه تَـبـديـلا

الجنان: القلب

لـم تَنْقُصُوهُ وقـد مـلـكْـتُـمْ ظُـلْـمَـهُ مـا الـنَّـقْـصُ إلَّا أن يـكـونَ جَـهُـولا

لئن ملكتم ظلمي، استطعتم أن تظلموني، فلم تنقصوا قدري

كـادتْ تـكـونُ مـصـيـبـةً لـو أَنـكُـمْ أوضـحْـتُـمُ ذنـبـاً عـلـيـه جـلـيـلا

كانت ستكون مصيبة حقاً لو أثبتُّم عليَّ ذنباً حقيقياً

إن كـان سَـفَّ إلـى الـدَّنـيـئَـةِ أو رأى غـيـرَ الـجَـمـيـلِ مِـنَ الأمـورِ جـمـيـلا

كأن أكون سففت، نزلت، إلى فعلة خسيسة، أو ارتكبت ما لا يجمل بالشريف ارتكابه

لـو تُـنْـصِـفُ الأيـامُ لـم تَـعْـثُـرْ بـه إذ كـان مِـن عَـثَـراتِـهِـنَّ مُـقـيـلا

لو أنصفني الزمن لما عثر بي هذه العثرة، أي السقطة،
خاصة أنني كنت أقيل الناس عثرات الأيام

ولَـتَـعْـلَـمُـنَّ إذا الـقـلـوبُ تَـكَـشَّـفَـتْ عـنـهـا الأَكِـنَّـةُ مَـن أَضَـلُّ سـبـيـلا

ستعلمون إذا انكشفت الأكنة، الستور، عن القلوب وتبين الحق، من هو الذي كان على ضلال: أنا أم الذين سعوا بي

٤٩ سؤال السؤول

أَعـاذلَ لـيـس الـبـخـلُ مِـنِّـي سَـجِـيَّـةً ولـكـنْ رأيـتُ الـفـقـرَ شَـرَّ سـبـيـلِ
لَـموتُ الفتَى خيرٌ مِنَ البخلِ لِلفتَى ولَـلْـبُـخْـلُ خـيـرٌ مِـن سؤالِ بَـخـيـلِ
لَـعَـمْـرُكَ مَـا شَـيءٌ لِـوجْـهِـكَ قِـيـمَـةٌ فـلا تَـلْـقَ مـخـلـوقـاً بِـوجْـهِ ذَلـيـلِ
ولا تَـسْـأَلَـنْ مَـن كـانَ يـسـألُ مَـرَّةً فَـلَـلْـمَـوْتُ خيـرٌ مِن سُؤال سَؤُولِ

٥٠ خضوع

لـيـسَ عِـنـدي وإن تـغـضَّـبْـتَ إلَّا طَـاعَـةٌ حُـرَّةٌ وقـلـبٌ سَـلـيـمُ

لئن غضبت علي فلن تجد مني إلا الطاعة الحرة، الخالصة، والقلب السليم، الخالي من الحقد

وانتظارُ الرِّضا فإن رِضَا السَّا ... داتِ عِزٌّ وعَتْبُهُمْ تَقْويمُ

وستجدني منتظراً رضاك عني، فرضا السادة عز لمن هو دونهم،
وعتب السادة هو بمثابة التقويم والتأديب

٥١ رثاء أبي تمام

غَاضَتْ بَدائِعُ فِطْنَةِ الأَوهامِ ... وعَدَتْ عليها نكبةُ الأيامِ

غاضت، جفت، بدائع فطنة الأوهام، العقول، وعدت عليها وآذتها نكبات الأيام، أي الزمن

وغَدا القريضُ ضَئيلَ شَخْصٍ باكياً ... يشكو رَزِيَّتَهُ إلى الأقلامِ

أصبح القريض، أي الشعر، متضائلاً باكياً يشكو رزيته، مصيبته، إلى الأقلام

وتأوَّهَتْ غُرَرُ القَوافي بعدَه ... ورَمَى الزمانُ صحيحَها بِسَقامِ

أَوْدَى مُثَقِّفُها ورائِضُ صَعْبِها ... وغَديرُ رَوضَتِها أبو تَمَّامِ

أودى، مات، مثقف القوافي، مقومها، ومروض صعابها وغدير روضتها أبو تمام.. وكان أبو تمام
صديقاً لعلي بن الجهم وله فيه شعر مودة

٥٢ إلى شقيق الروح

العينُ بعدَكَ لم تنظُرْ إلى حَسَنِ ... والنفسُ بعدَكَ لم تَسْكُنْ إلى سَكَنِ

كأنَّ نَفسيِ إذا ما غَبْتَ غَائبةٌ ... حتى إذا عُدْتَ لِي عَادتْ إلى بَدني

٥٣ البلاء

قال لما هجاه مروان الأصغر في مجلس المتوكل:

بَلاءٌ ليس يُشْبِهُهُ بَلاءٌ ... عَداوَةُ غيرِ ذي حَسَبٍ ودِينِ

يُبيحُكَ منهُ عِرْضاً لم يَصُنْهُ ... ويَرتَعُ منكَ في عِرْضٍ مَصُونِ

إذا قعدت على كيس فحم فستضيره قليلاً ويضيرك كثيراً

٥٤ لا أريد معروفاً يذلني

لَلُبْسُ ثَوبَيْنِ بَالِيَيْنِ ... وطَيُّ يومٍ ولَيْلَتَيْنِ

طي يوم وليلتين: جوع يدوم هذا الزمن

أَيْسَرُ مِن مِنَّةٍ لِقَوْمٍ ... أَغُضُّ منها جُفونَ عَيْني

٥٥ المحبَّرة في التأريخ

وهي قصيدة طويلة، ومن أول ما نُظم في التأريخ، واجتزأنا بقليل:

الحمدُ للَّهِ المُعيدِ المُبْدي حمداً كثيراً وَهْوَ أهلُ الحمدِ

المعيد المبدي، من أسماء الله الحسنى، فهو بدأ الخلق وهو يعيده يوم القيامة

أخبَرني قومٌ مِن الثِّقاتِ أُولو عُلومٍ وأُولو هَيئاتِ

أنَّ الذي يفعلُ ما يَشاءُ ومَنْ له العِزَّةُ والبَقاءُ

أَنْشَأَ خَلْقَ آدمٍ إنشاءَ وقَدَّ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَّاءَ

قدَّ: قطع

مبتدئاً ذلكَ يومَ الجُمْعةْ حتى إذا أكملَ منه صُنْعَهْ

أَسْكَنَهُ وزَوْجَهُ الجِنانا فكان مِنْ أمرِهِما ما كانا

غَرَّهُما إبليسُ فاغترَّا بِه كما أبانَ الله في كتابِهِ

دَلَّاهُما المَلْعونُ فيما صَنَعا فَأُهبِطا منها إلى الأرضِ معا

دلاهما، أي أنزلهما، إبليس بسبب ما صنعا من إطاعتهما له

وبَايَعَ الناسُ الإمامَ جَعفَرا خليفةَ اللَّهِ الأعَزَّ الأَزْهَرا

بعد ثلاثينَ وميتَيْ عامِ وبعدَ حَوْلَيْنِ سوى أيامِ

بويع للمتوكل سنة ٢٣٢هـ، قبل انقضاء هذه السنة بستة أيام بحسب المسعودي في مروج الذهب، فعلى هذا يكون توليه بعد ثلاثة أحوال سوى أيام لا «بعد حولين سوى أيام»

قد سَكَّنَ اللَّهُ به الأَطْرافا فما تَرى في مُلْكِهِ خِلافا

ثم تَولَّى قَتْلَهُ الفَراغِنَةْ وسَاعَدَتْهُمْ عُصْبَةٌ فَراعِنَةْ

الفراغنة: قوم من فرغانة، في أوزبكستان اليوم، وساعدتهم جماعة فراعنة، متجبرين

وبايَعوا مِن بعدِهِ للمُنْتَصِرْ فأصبحَ الرابحُ منهُمْ قد خَسِرْ

المنتصر ابن المتوكل وتواطأ مع القتلة

فعاشَ في السُّلْطَانِ سِتَّةَ اشْهُرِ أَخرَجَهُمْ مِن مُلْكِهِ والعَسْكَرِ

عاش المنتصر في الحكم ستة أشهر حاول فيها إخراج قتلة أبيه من مواقعهم خوفاً على نفسه منهم

ثم أَتاهُ بَغْتَةً حِمَامُهْ سبحانَ مَن يُعاجِلُ انتقَامُهْ

يعاجل انتقامُ الله الظالمين

٥٦ عيون المها

عيونُ المَها بين الرُّصَافَةِ والجِسْرِ جَلبْنَ الهوى مِن حيثُ أَدري ولا أَدري

الرصافة: على الجانب الشرقي لدجلة ببغداد، والجسر جسر على دجلة

أَعَدْنَ لِيَ الشوقَ القديمَ ولم أَكُنْ سَلَوْتُ ولكنْ زِدْنَ جَمراً على جَمْرِ

سَلِمْنَ وأَسْلَمْنَ القلوبَ كأنَّما تُشَكُّ بِأَطْرافِ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

يدعو لهن بالسلامة مع أنهن أسلمن القلوب، أسلمنها للعدو، فهي تتألم كأنما تشك بأطراف المثقفة السمر، الرماح

وقلنَ لنا نحن الأَهِلَّةُ إنَّما نُضِيءُ لِمنْ يَسْري إلَيْنا ولا نَقْري

نحن الأهلة، جمع هلال، نضيء لمن يسري، يسير ليلاً، ولا نقري، لا نطعم الضيف.. أي أننا من أهل «شم ولا تذق»

فلا بَذْلَ إلَّا ما تَزَوَّدَ ناظِرٌ ولا وصلَ إلَّا بِالخَيالِ الذي يَسْري

ما نبذله للعاشق هو ما يتزوده بعينيه فقط، أو خيالنا يأتيه في أحلامه

أَحِينَ أَزَلْنَ القلبَ عن مُسْتَقَرِّهِ وأَلْهَبْنَ ما بينَ الجوانِحِ والصَّدْرِ

صَدَدْنَ صُدودَ الشَّارِبِ الخمرَ عندما زَوَى نفسَه عن شُربِها خِيفَةَ السُّكْرِ

بعد أن زلزلن القلب صددن عنه مثلما يصد شارب الخمر ويزوي نفسه عنها ويبتعد خيفة أن يسكر

أَلَا قبلَ أن يَبدُو المَشيبُ بَدَأْنَني بِيأْسٍ مُبينٍ أو جَنَحْنَ إلى غَدْرِ

ليتهن بدأنني، قبل أن أشيب، بإشعاري باليأس من وصالهن أو ملن إلى الغدر، ففي الشباب يجد المرء متسعاً للعثور على بديل، وعند المشيب هي الحسرة لا غير

فإنْ حُلْنَ أو أَنْكَرْنَ عهداً عهِدنَهُ فغيرُ بَديعٍ لِلغَواني ولا نُكْرِ

حلن: تحولن، غير بديع: غير غريب ولا منكر عليهن الغدر

ولكنَّهُ أَوْدَى الشبابُ وإنَّما تُصادُ المَها بينَ الشَّبِيبَةِ والوَفْرِ

أودى الشباب ومات، والمها، بقر الوحش أي النساء الجميلات الأعين، تصاد في وقت يجتمع للمرء فيه الشباب والوفر، أي الغنى

كَفَى بِالهوى غَيّاً وبِالشَّيْبِ زَاجِراً لو انَّ الهوى مِمَّا يُنَهْنَهُ بِالزَّجْرِ

الهوى نفسه غي، والشيب يزجر المرء ويردعه عن التمادي في العشق.. ولكن ليت العشق ينهنه، يُردَع، بالزجر!

أمَـا ومَـشـيـبٍ رَاعَـهُـنَّ لَـرُبَّـمـا   عَـمَرْنَ نِياماً بين سَحْرٍ إلى نَحْرِ

لئن كان شيبي راعهن، أبعدهن وثناهن عني، فكثيراً بقيت الحسان نائمات بين سحري ونحري،
بين صدري وأعلى الصدر

وبِتْنا على رغمِ الحسودِ كأنَّنا   خَليطانِ مِن ماءِ الغَمامَةِ والخَمْرِ

بتنا متعانقين اختلط جسمانا كما يمتزج ماء المطر بالخمر

خَليلَيَّ ما أَحْلَى الهوى وأَمَرَّهُ   وأَعْلَمَني بِالحُلْوِ منهُ وبِالمُرِّ

بما بَيْنَنا مِن حُرْمَةٍ هل رأيتُما   أرقَّ مِن الشكوى وأقسى مِن الهَجْرِ

وأَفضحَ مِن عينِ المُحِبِّ لِسِرِّهِ   ولا سِيَّما إنْ أَطْلَقَتْ عَبْرةً تَجري؟

أهناك ما هو أكثر فضحاً لسر المحب من عينه، وخصوصاً إذا أطلقت دمعة؟

وما أَنْسَ لا أَنْسَى ظَلُومَ وقَوْلَها   لِجَارَتِها مَا أَوْلَعَ الحُبَّ بِالحُرِّ

قالت لجارتها ما أشد ولع وتعلق الحب بقلب الرجل الحر

فقالتْ لَها الأُخرى فما لِصَديقِنا   مُعَنًّى وهل في قَتْلِهِ لَكِ مِن عُذْرِ؟

قالت لها: ما له معنى متعَب؟ وهل لك عذر في قتله بصدودك عنه؟

عِديهِ لعلَّ الوَصْلَ يُحْيِيهِ واعْلَمي   بأنَّ أَسيرَ الحبِّ في أَوْثَقِ الأَسْرِ

عديه: أعطيه وعداً باللقاء

فقالتْ أُدَاري الناسَ عنه وقلَّما   يَطيبُ الهوى إلَّا لِمُنْهَتِكِ السِّتْرِ

هي تحاول إبعاد الناس عن كشف سر عشقه، ولكن الهوى لا يطيب إلا لمن يتمادى فيه ويحلو له
أن ينهتك ستره وينكشف أمر عشقه

وأَيقَنَتا أن قد سَمِعْتُ فقالَتا   مَنِ الطارقُ السَّاري إلينا ولا نَدري؟

فقلتُ فَتىً إن شِئتُما سَتَرَ الهوى   وإلَّا فَخَلَّاعُ الأَعِنَّةِ والعُذْرِ

خلاع الأعنة والعذر، متهور

على أنه يَشكو ظَلُومَ وبُخْلَها   عليه بِتَسليمِ البَشاشَةِ والبِشْرِ

يشكو أنها تبخل عليه بالسلام والبشاشة

فقالتْ هُجينا، قلتُ قد كانَ بعضُ ما ذَكَرْتِ لعلَّ الشَّرَّ يُدفَعُ بالشَّرِّ

فقالتْ كأنَّا بالقَوافي سَوائِراً يَرِدْنَ بنا مِصْراً ويَصْدُرْنَ عن مِصْرِ

كأن القصائد التي ستهجونا بها سائرة منتشرة
من مصر إلى مصر، من بلد إلى بلد

فقلتُ أَسأتِ الظنَّ بي لَسْتُ شَاعِراً وإن كانَ أحياناً يَجيشُ به صَدري

صِلي واسْأَلي مَن شئتِ يخْبِرْكِ أنَّني على كلِّ حَالٍ نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ

ومَا الشعرُ مِمَّا أَسْتَظِلُّ بِظِلِّهِ ولا زَادَني قَدْراً ولا حَطَّ مِن قَدْري

وما أنا مِمَّنْ سَيَّرَ الشعرُ ذِكْرَهُ ولكنَّ أَشْعارِي يَسيرُ بِها ذِكري

ولِلشعرِ أَتْباعٌ كثيرٌ ولم أَكُنْ له تَابعاً في حالِ عُسْرٍ ولا يُسْرِ

ولا كُلُّ مَن قَادَ الجِيَادَ يَسُوسُها ولا كُلُّ مَن أجرَى يُقَالُ له مُجْرِ

مع أن للشعر أتباعاً جعلوه محور حياتهم فليس كل شاعر بشاعر حقاً، كما أنه ليس كل من قاد الخيل قادراً على سياستها والقيام عليها، ولا كل من أجرى الخيل، سابَقَ بها، يسمى مجرياً.. وفي الشطر الأول فخر بأنه يقود الخيل ويركبها لكنه يترفع عن خدمتها

ولكِنَّ إحسَانَ الخَليفةِ جعفرٍ دعاني إلى ما قلتُ فيهِ مِن الشعرِ

فسارَ مَسيرَ الشمسِ في كلِّ بِلْدَةٍ وهَبَّ هُبوبَ الريحِ في البرِّ والبحرِ

سار شعري في كل مكان كأنه الشمس، وهب كالريح

ولو جَلَّ عن شُكْرِ الصَّنيعَةِ مُنْعِمٌ لَجَلَّ أميرُ المؤمنينَ عنِ الشُّكْرِ

فَتىً تَسْعَدُ الأَبْصارُ في حُسْنِ وَجهِهِ كما تَسْعَدُ الأيدي بِنَائِلِهِ الغَمْرِ

النائل الغمر: العطاء الجزيل

به سَلِمَ الإسلامُ مِن كلِّ مُلْحِدٍ وحَلَّ بِأهلِ الزَّيْغِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

الزيغ: الضلال

إِمَامُ هُدىً جَلَّى عنِ الدينِ بعدَما تعادَتْ على أَشْيَاعِهِ شِيَعُ الكُفْرِ

هذا الإمام، المتوكل، جلى عن الدين، أي كشف وجهه الحقيقي، بعدما تعادت، تكالبت، على أشياعه، أنصاره، شيع الكفر، جماعات الضلال

وفَرَّقَ شَمْلَ المالِ جُودُ يَمينِهِ على أنه أبْقَى له أجمَلَ الذِّكْرِ

إذا ما أجالَ الرأيَ أَدْركَ فكْرهُ   غرائبَ لم تخْطُرْ بِبالٍ ولا فِكْرِ

ولا يَجمعُ الأموالَ إلَّا لِبَذْلِها   كما لا يُساقُ الهَدْيُ إلَّا إلى النَّحْرِ

الهدي: الماشية تُهدى لتنحر في موسم الحج

ومنْ قالَ إن البحرَ والقَطْرَ أَشْبَها   نَداهُ فقد أَثْنَى على البحرِ والقَطْرِ

ولو قُرِنَتْ بِالبَحْرِ سبعةُ أَبْحُرٍ   لما أَدْركَتْ جَدوَى أَنامِلِهِ العَشْرِ

الجدوى: العطاء

وإن ذُكِرَ المجدُ القديمُ فإنما   يَقُصُّ علينا ما تَنَزَّلَ في الزُّبْرِ

المتوكل عليم بما ورد في الزبر، كتب الدين القديمة

فإن كان أَمْسى جعفرٌ مُتَوكِّلاً   على اللَّهِ في سِرِّ الأمورِ وفي الجَهْرِ

لقد شكرَ اللَّهُ الخليفةَ جعفراً   وأعطاهُ مِمَّا لا يَبيدُ على الدهرِ

ووَلَّى عُهُودَ المسلمينَ ثَلاثةً   يُحَيَّوْنَ بِالتَّأييدِ والعزِّ والنصرِ

أَغَيْرَ كتابِ اللَّهِ تَبْغُونَ شَاهِداً   لَكُمْ يا بَنِي العباسِ والمَجْدِ والفَخْرِ

أتطلبون شاهداً غير كتابِ الله وغير المجد والفخر؟

كفاكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ فَوَّضَ أَمْرَهُ   إِلَيْكُمْ وَأَوْحَى أنْ أَطِيعُوا أُولي الأَمْرِ

ولن يُقبَلَ الإيمانُ إلَّا بِحُبِّكُمْ   وهل يَقبَلُ اللَّهُ الصَّلاةَ بِلا طُهْرِ

ومَن كان مَجهولَ المكانِ فإنَّما   مَنازِلُكُمْ بين الحَجُونِ إلى الحِجْرِ

منازلكم القديمة في مكة بين هذين المكانين

وما زَالَ بيتُ اللَّهِ بين بُيوتِكُمْ   تَذُبُّونَ عنهُ بِالمُهَنَّدَةِ البُتْرِ

الكعبة بين بيوتكم وتذبون عنها، تدافعون عنها، بالمهندة البتر، بالسيوف القاطعة

سَقَيْتُمْ وأَطْعَمْتُمْ وما زال فضلُكُمْ   على غيرِكُمْ فضلَ الوَفاءِ على الغَدْرِ

سقيتم وأطعمتم، لكم السقاية والرفادة للحجيج، وفضلكم على غيركم مطلق كفضل الوفاء على الغدر

وُجوهُ بَني العباسِ للمُلْكِ زينةٌ   كما زيِنَتِ الأَفلاكُ بِالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
ولا يَسْتَهِلُّ المُلْكُ إلَّا بِأَهْلِهِ   وهل تَرْجِعُ الأيامُ إلَّا إلى الشَّهْرِ

يستهل: يبدأ

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

أبو تمام
(١٨٨هـ ـ ٢٣٢هـ)

أيها القارئ، بعد عشرة أيام تنقضي سنة ١٤٣٢ هجرية. فهل سمعت أحداً احتفل في هذه السنة بمرور ألف ومئتي عام على وفاة أبي تمام؟ أنا وأنت فقط. (كُتبت هذه المقدمة للمختار من شعر أبي تمام عام ٢٠١١).

ستجد ـ إن فتشت ـ من يقدِّم أبا تمام، حبيب بن أوس الطائي، على كل شعراء العرب، وستجد من يجعله ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً. وستجد من ينفي عنه التقدم في الشعر ويلصق به الحكمة، لكن الإجماع يكاد ينعقد على أنه من أهم شعراء العرب، وعلى أنه الشاعر المحترف الذي اكتمل على يديه تحول الشعر إلى صناعة؛ وفي هذا من القدح ما فيه، فأبو تمام ـ أكثر من المتنبي والبحتري وابن الرومي ـ هو المسطرة التي ظل شعراء العرب يقُصُّون عليها أشعارهم ألفاً ومئة سنة.

أقدم إليك فصلاً ضافياً يضم أكثر من مجرد مختارات من أشعار أبي تمام. في كتابي هذا أرحلُ معك في شعر أبي تمام، ونخوض فيه خوضاً.

طُبع ديوان أبي تمام مرات كثيرة، وشرحه في القديم والحديث شراح كثر. وبلغ بكل أولئك الناسخين والشارحين الكسل أن لم يتزحزح أي منهم ـ فيما أعرف ـ عن الترتيب الذي وضعه الصولي للأشعار. كما لم يكلف أي منهم نفسه عناء شرح الديوان شرحاً يحسن أن نسميه شرحاً، إن هي إلا نتف من التعقيبات المتفرقة.

ولأن شعر أبي تمام أصعب شعر، وأعقد شعر، وأغمض شعر، ففي وسعك القول إن ديوان أبي تمام بقي مغلقاً. وما صنعتُه هنا أنني اخترت أطايب الديوان، وصنفت ما اخترته تصنيفاً يسير مع مراحل حياة الشاعر، وشرحت

الأبيات شرحاً وافياً سهلاً، واضعاً شرح كل بيت تحته. وجعلت كلمات الشرح تسير بموازاة كلمات البيت، حتى لو رَكِبتُ في سبيل ذلك الركاكة، ووقفت عند كل كلمة صعبة مفسراً معناها بمرادف وضعته بين قوسين.

لماذا أبو تمام في ربيع طويل؟

بدأت أخط هذه المقدمة فور فراغي من اختيار ألف ومئتين وثمانية وستين بيتاً من ديوان أبي تمام، فكنت أكتب الفقرة بعد الفقرة، وأنا في هذه الأثناء عاكف على ما اخترته من أبيات، أشكلها وأضبط نهاياتها حتى تستقيم على وجه الورقة بلا اعوجاج، ثم أشرحها.

ثم إذا بالربيع العربي يربِّط أيدينا جميعاً، ويجعلنا غير قادرين على التركيز في شيء سواه.

انقطعتُ عن المقدمة نحو سنة، شهدت فيها ثورتي تونس (قد يصلح يوم ١٤ يناير/جانفي ٢٠١١ يوم ذكرى لها)، ومصر التي جعلوا يوم بدئها (٢٥ يناير ٢٠١١) يوماً مذكوراً. والتقطت القلم من جديد والثورات مشتعلة في بلدان أخرى. وانتصرت ثورة ليبيا بثمن باهظ دفعه شعبها، وثمن مؤجل سيدفعه، وأنا أحاول أن أتخلص من هذه المقدمة ومن كل ما يتبعها سريعاً.

ستلاحظ في الفقرات المقبلة تخليطاً كثيراً، فهي مرآة لذهني الموزع بين عمل أرتزق منه، وهو عمل صحافي شديد الالتصاق بالثورات العربية، وبين أحلامي كرجل يتمنى لقومه من أهل هذه البلاد العربية مستقبلاً أفضل.

عجزت عن التفكير في أبي تمام، وفي هذا الشعر العتيق المصنوع المفبرك، المحبوك حبكاً، والمقدم في رقاع الذل لنيل ذهب الخلفاء والولاة.

رأيت أبناء الوطن العربي يتقاربون، ورأيت وسائل الإعلام الأجنبية تتذكر مصطلح «العالم العربي» بعد دهر مضى عليها وهي لا تقول إلا «الشرق الأوسط». ورأيت مراسلي الفضائيات يفزعون إلى ما درسوه في المدارس من شعر قديم يستشهدونه على ما يمر من أحداث جسام.

وآخر بيت سمعته استعمله المراسل كي يصِم وفود المحاورين الذين يلتقي بهم أولو الأمر في مصر بأنهم لا يمثلون الجماهير الشابة المتظاهرة، قال المراسل: (وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى/ وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا). ويبدو على هذا

البيت أنه من أبيات العصر الباهت في الشعر العربي، العصر الذي جاء بعد انهيار الشعر، وانتثار عقد الدولة العربية الإسلامية.

رأيت نفسي أعود إلى أبي تمام.

نحن نستعذب فكرة أننا أصحاب إرث قديم. نجد في حلوقنا لذة إذ نستشهد ببيت عتيق.

وانظرْ إلى شعر أبي تمام، على كل ما ذكرناه عنه من أنه مصنوع محبوك مفبرك إلخ، ألا ترى شباباً وفتيات يقولون كلما حنُّوا إلى حب قديم: (نقل فؤادك حيث شئت من الهوى/ ما الحب إلا للحبيب الأول)؟

فهذا لأبي تمام.

وللرجل نظرات في الحياة وفي اليأس والرجاء وفي الشقاء والكدح وضعها في أبيات تقتحم القلب، وإن له لشخصية متميزة.

ما نحتاج إليه ليس أن نطلِّق تراثنا بالثلاث، بل أن نضعه في مكانه. وألا نتخيل أنه معوق للنهوض والتنمية.

يقولون للضيف عندنا إذا شبع من الطعام، ثم جاءت الكنافة فأراد أن يرفع يده عنها: «كلُّ عيشٍ لَهُ كُرَيْش». أي أن لكل لون من الطعام معدة خاصة به، فإذا امتلأت معدة الهريسة والكشري والمقلوبة، ظلت معدة الكنافة فارغة تنتظر حصتها.

ولعل موقفاً كهذا من التراث أن يكون معقولاً: لنفرغ مئة بالمئة من طاقتنا للعلم، ولنلق بكل أصناف الروحانيات في معدة أخرى من معد عقولنا. وهذا شبيه بالطفل نظنه غير قادر على تعلُّم لغتينِ في آن معاً، ثم نُفاجَأ بأنه قادر على تعلم لغات عديدة معاً دون أن تُدخل إحداها «الضيم على الأخرى» كما قال الجاحظ.

على أنني لا أدعو إلى إحياء الشعر العمودي كي يهزم القوالب الشعرية الجديدة، ولست أدعو إلى القديم دون الجديد. فقط أريده حاضراً في مدارسنا حضوراً جميلاً، وقليلاً.

ومدارسنا تحتفل بالشعر القديم مثلما احتفلت حكوماتنا عبر إعلامها الرسمي بأخبار القضية الفلسطينية: كلمة حق أريد بها باطل. وإليك التفصيل:

كي تتجنب كل دولة من الدول العربية اشتغال وسائل الإعلام الرسمية فيها بإخفاقاتها الداخلية ـ من فقر وفساد وخضوع لإملاءات صندوق النقد الدولي، ومن ديون، وتدمير للاستثمارات الاستراتيجية كالصناعة والزراعة لصالح استثمارات خدمية كالقرى السياحية ـ درجت على تخصيص مساحة واسعة للقضية الفلسطينية يتم فيها توجيه سيل من الشتائم إلى إسرائيل. فبهذه الطريقة تحرف تلك الأنظمة الأنظار عما يجري محلياً، وتضرب عصفوراً آخر بهذا الحجر إذ تستعيض عن اتخاذ مواقف حقيقية من القضية الفلسطينية بالشتم والاستنكار.

ومؤلفو المناهج الدراسية الرسميون، القابضون مرتباتهم من وزارة المعارف، يكثرون من الشعر القديم في الكتب المدرسية كي يطغى على الأدب الجديد، فهُم من جهة قوم محافظون لا يحترمون الشعر الجديد، وهم من جهة أخرى يسايرون الأنظمة التي لا تحب الأدب الجديد الجريء. وفي بعض الدول العربية ـ بل عليَّ أن أعمم وأقول في كل الدول العربية ـ يعمد مؤلفو مناهج اللغة العربية والأدب العربي إلى أشعار عمودية ضعيفة لشعارير معاصرين، أشعارٍ ضعيفة في المبنى والمعنى صاغها ناسٌ أطفالٌ فكرياً، بعضهم ضعيف في عربيته لا يقيم الوزن إلا بارتكاب كل الجوازات، ثم يستر ضعفه وركاكته بكلمات صعبة ينزعها من بطن القاموس نزعاً فتبدو في قصيدته بشعة كأنها العجوز الدردبيس في «الكوفي شوب»، وبعضهم إمَّعة في عقله وفي سلوكه يقول الرأي وهو يتلفت يميناً وشمالاً، ومعظمهم يجمع الركاكة والفهاهة إلى الضحالة والتفاهة؛ وقد يدرك مؤلفو الكتب المدرسية، وقلما يدركون، أن هذا الشعر العمودي المعاصر ضعيف، ولكنهم سعداء بأنه يؤدي رسالة تربوية: فهو شعر ديني، أو اجتماعي، يحض على التقوى أو على تماسك الأسرة؛ يعمدون إليه فيملأون به كتب المدارس.

لست أشك طرفة عين في أن الوطن العربي محتاج إلى نهضة كبيرة وحقيقية. نهضة في الصناعة وفي الزراعة؛ ونهضة في مكافحة الأمية، ونهضة في الثقافة العالية: وأعني بها توسيع النخب لكي يكون في كل بلد آلاف المستنيرين الواقعيين القادرين على قراءة جداول الإحصاءات قراءة صحيحة، والمندمجين مع الدنيا في معارفها، والشاعرين بضرورة البحث عن مصادر بديلة للطاقة، والمطلعين على التطور العلمي والتقني في العالم، هذا بالإضافة إلى

تخصصاتهم، إذ قد تجد أحد أفراد هذه النخب عاملاً أو طبيباً أو معلماً أو ربة منزل أو نقابياً أو محامياً. فما أكثر المتخصصين في بلادنا وما أقل المثقفين الأحرار. تجد الواحد منهم طبيباً بارعاً في تخصصه، وتناقشه في سياسة أو في أدب أو في فكر فتراه مرعوباً بفعل دوغمات استقرت في عقله. والأدب معول ثقافي مهم، يهدم طبقات الكلس المترسبة في العقول، ويفتح الطريق للأكسجين.

المطلوب في البلدان الناطقة بالعربية أن تتعب كثيراً لتنهض نهضة عاقلة. فأما النهضة المباركة التي شهدها الوطن العربي في أوائل القرن العشرين، بعد انتهاء الحكم العثماني فكانت ضعيفة؛ وأما نهضته في الأربعينات والخمسينات بعد التخلص من الشكل المباشر للاستعمار فكان فيها من العواطف أضعاف ما فيها من عناصر النهوض الحقيقية، وهي مباركة أيضاً. لكننا مللنا من النهضات المباركة، ونريد نهضة «غير مباركة»، نريد نهضة طويلة النفس.

وماذا يصنع أبو تمام هنا؟

لا شيء متميزاً. لا أبو تمام، ولا البحتري. هذا كله ترف يرافق النهضات، وهو من لوازم الحضارة. الناس في كل الدنيا يدرسون تراثهم القديم لمجرد التسلية في الغالب. لست أزعم لك أن مئات الكتب التي صدرت ولا تزال تصدر عن شكسبير تؤثر في الصناعة الحاسوبية في بلاد الإنجليز. ولكنني أؤكد أن كل إنجليزي يحفظ من شكسبير عشرات الأبيات، وأن صحافتهم تستعمل شكسبير يومياً في التعبير عن عواطف ومواقف شتى. وفي انتفاضة مصر الحاضرة سمعت مراسلة تستعمل بيت أبي الطيب المتنبي: «نامت نواطير مصر عن ثعالبها/ فقد بشمن وما تفنى العناقيد». (كنت ظننت الثعلب لا يأكل إلا الدجاج، ثم كشفت في «غوغل» فإذا هو يأكل كل أنواع الفواكه مع تفضيله اللحم).

يزعجني أنني عاكف على الكتابة عن أبي تمام وشعره. أريد أن أكتب عن التنمية في الوطن العربي، وأن أستكشف الطرق المفضية إلى تقوية مثل هذه التنمية. ولكن هذا قد لا يكون مفيداً جداً لأنني غير متخصص في شيء.

لذا أكمل كتابتي عن أبي تمام.

ما زال العالم العربي مشتعلاً: ليبيا قتلت القذافي، وفي جوفها مرجل

يغلي بالتناقضات، واليمن يحاول جاهداً بدء حربه الأهلية، أو منعها ـ الأمر يعتمد على المكان الذي تنظر منه إلى الوضع ـ، وسوريا تستولي على مقدمة نشرات الأخبار منذ أزيد من ستة أشهر وقد وصل عدد قتلى الأحداث فيها إلى ثلاثة آلاف، والبحرين غير هادئة، ولا الأردن، ولا المغرب، وفي مصر يستمر التوتر بين المجلس العسكري وشباب الثورة والإخوان المسلمين، والتيارات الليبرالية الضعيفة. وتونس أجرت انتخابات جمعيتها التأسيسية وفاز إسلاميو حركة النهضة بأكثر من أربعين في المئة، وهي مرشحة أكثر من غيرها للسير على طريق الاستقرار.

والسودان الذي فقد ثلث أرضه في مطلع العام يعيش قلقاً في الثلثين الباقيين، ويعالج مسائل جديدة قد تؤدي إلى ما ينسيه حروبه الجنوبية التي امتدت عقوداً. والصومال مر بمجاعة كبيرة في الصيف. والجزائر هادئة، كأنما لأنها دفعت الفاتورة في حرب أهلية بشعة في التسعينات، والعراق ما زال منذ ثماني سنين يدفع فاتورة تاريخه الطويل، ودول الخليج ترتجف.

وأبو تمام؟

هو شاعر البلاط الذي لبس قناعاً طول عمره. لا أدعوك إلى تقييمه لا فكرياً ولا خلقياً، فصاحبنا كتلة من الكذب في مواقفه. لا أعرف شاعراً ذكر كلمة «الإسلام» أكثر منه، ولم يكن مؤمنا ولا تقياً ولا مصلياً ولا صواماً، وأغلب الظن أن تحوله عن النصرانية كان تحولاً نفعياً بحتاً. كان كتلة من الكذب في شعره: وإلا فماذا تسمي هذا الإغراق في الصناعة؟

كان مستجدياً أبشع استجداء، يمدح بأبيات يلصق فيها خده بالتراب كي يداس، ثم في آخر القصيدة يطلب المال بقحة، فإذا لم يعط مالاً عاتب كالمومس المقتضية، ثم يأتي الهجاء. يا لاشمئزازي منه وهو يراوح بين المدح والوعيد! يا لقرفي منه وهو يذكر السبايا ويتلمظ تلمظ المغتصِب.

لكنه إنسان: سافل، نعم، (والأفضل كلمة وضيع)، وشبِق إلى المال والشهرة، وفنان. وما بالنا نمضي في هذا الهذر. ألا نفعل مثلما فعل الأقدمون فنقيم الشعر تقييماً فنياً، وننسى كل الاعتبارات الأخلاقية؟

نعم، يحسن بنا أن نفعل. ولأننا نفعل، نكتب عن أبي تمام، وندرس شعره.

الشاعر ذو الأسلوب الملتوي

أساير لك أبا تمام، أمشي معه في النظم كلمة فكلمة. أذهب معه إلى مكان الجريمة، وأطلب إليه تمثيلها.

كيف لي أن أفهم أصعب وأعقد وألْغَز شاعر عربي دون اللجوء إلى أدوات كهذه.

فأما الشارحون القدامى فلا كبيرَ تعويل عليهم: التبريزي جاء ببعض ما يُحسن من تحليل نحوي، وعدا في الشرح على كثير مما سبقه إليه المرزوقي. والصولي أفادنا في مناسبات القصائد مستفيداً من المعاصرة. والشراح المحدثون استناموا إلى السرقة من القدامى. ولئن كان القديم يسرق ذكياً، إذ إن كتابه لن يُنسخ إلا بضع عشرات من النسخ، وقد يموت الشارح ولما يكتشف أحد سرقاته، فإن المحدثين يسرقون أغبياء وهم يرون الكتب التي سرقوا منها مطبوعة ومنثورة بأيدي الناس.

هؤلاء الشراح المحدثون قوم اشتروا شهادات جامعية، نالوا بها وظائف جامعية تقوتهم وتدفع الجوع عن أولادهم، ثم ألحت عليهم شهوة أن يظهروا أمام تلامذتهم بمظهر المؤلفين الذين يضعون أسماءهم مسبوقة بحرف الدال على أغلفة الكتب، فشرحوا أشعار القدماء سارقين، غير مفكرين كبير تفكير في معاني الشعر.

لم نعثر على شرح معاصر لأبي تمام ينقع الغلة، وينفي العلة. فعبد السلام هارون شرح همزيات أبي تمام فقط في ستين صفحة، ورغم علو كعبه في فهم الشعر واللغة القديمة فلم يقدم نموذجاً في شرحه. ذلك أن أبا تمام شاعر قديم ذو طرائق في التعبير مختلفة عن طرائق القدماء. وبطرس البستاني شرح مقاطع قليلة من قصائد قليلة. وههنا موضع التنويه بهذا المتأدب الذواقة ذي الحس الجميل العميق. كنت أتمنى لو ترك «مدرسة الحكمة»، وترك طلابه، وتفرغ لدواوين الشعراء، فهو نافذ الفهم، صادق، جميل العبارة في شرحه. وقد عثرت على شرح للبناني آخر هو ملحم إبراهيم الأسود، ظفرت بالجزء الأول من شرحه لديوان أبي تمام وهو مطبوع سنة ١٩٢٨، ولعله لم يُصدر سوى نصف الديوان لأن عمر فروخ في ثبت المراجع (في «تاريخ الأدب العربي») لا يذكر سوى الجزء الأول لشرح الأسود. على أنه أفضل من شروح الدكاترة الذين تدفقوا علينا في الزمن الأخير. كان ملحم الأسود صادقاً ومجتهداً: أخذ عن قدماء الشارحين، وأي ضير في ذلك، لكنه لم ينسخ نسخاً غبياً.

ولإيليا الحاوي كتاب طريف اسمه «أبو تمام: فنه ونفسيته وشعره»، طرافته أنه يقع في ستمئة وخمسين صفحة، وأنه كان يمكن أن يكون مئة صفحة. ولو أنفق الحاوي شطر جهده في هذا الكتاب في شرح الديوان شرحاً وافياً عوضاً عن ذلك الشرح الذي نشره في كتاب آخر وحشر فيه كل غلطة مطبعية ممكنة وملأه بـ «عدم الشرح» ـ أقصد بتجنب الأماكن الوعرة، والاكتفاء بإعطاء المعنى العام ـ لكان أدى لديوان أبي تمام خدمة جليلة. لكن كتابه الأول ممتع؛ أحببت فيه حماسة المؤلف الشديدة وهو يدافع عن أبي تمام وحداثته. وأحببت لغة الكاتب وجرأته.

جملة القول أن ديوان أبي تمام بحاجة إلى شرح جديد كامل.

أعود إلى شرح التبريزي المشهور الذي طبعه محمد عبده عزام سنة إحدى وخمسين. لقد قرأت شعر أبي تمام أول ما قرأته بهذا الشرح. وكانت قراءتي تلك في لندن، واستعرت الشرح جزءاً بعد جزء من مكتبة «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية» التي كان عزام يعمل بها وقت إصداره تحقيق شرح التبريزي. ولعل تلك النسخة التي استعرتها هي عين النسخة التي قدمها عزام إلى المكتبة. فأما عمله كمحقق فهو في النهاية من الجودة، وأما ما أضافه إلى التبريزي فيكاد يكون عدماً. ولا نطالب المحقق بأن يزيد في الشرح؛ حسبه أن يحقق وأن يدقق، وفي هذا من النصب ما حدثنا أهل التحقيق عنه كثيراً.

والتبريزي في شروحه المختلفة (الحماسة وديوان أبي تمام والمفضليات والمعلقات الخ) تخطف بصره النكت النحوية، وهو يهبط من سماء القصيدة إلى أفق البيت، ثم ينحط إلى دركة اللفظة. فيشرح شرحاً لغوياً فيه نفع، وفيه زيغ. على أنه في شرحه لديوان أبي تمام زاد واحدة: فهو يشرح بيتاً ويترك أبياتاً، ويشرح واضحاً ويدع غامضاً، فكأنه من شراحنا المعاصرين.

ولم أر شرح الصولي أنفع من شرح التبريزي، فهو مجتزأ. بدأه صاحبه نشطاً يشرح من القصيدة أبياتاً كثيرة، لكنه بعد بضع قصائد فتر وأصبح يشرح بيتاً هنا وبيتاً هناك. وإذا صلح هذا مع بعض الشعراء فلا كذلك مع أبي تمام. أبو تمام اللغز فقير إلى شرح مستفيض.

ما كان أحوجنا إلى شرح من أبي العلاء لأبي تمام. وقد وصلتنا بعض آراء أبي العلاء من تلميذه التبريزي، ومن شذرات في كتابه «ذكرى حبيب».

وأحسن من شرح أبا تمام الأعلم الشَّنْتَمَرِيّ. وعندما قرأت شرحه المطبوع في المغرب في جزأين (ط١: ٢٠٠٤) رأيته منكباً على المعنى تاركاً النكت البلاغية والنحوية. فما أشبه طريقته بما ارتضيناه لأنفسنا. على أن الأعلم الشنتمري صنع صنيع كل شراح أبي تمام القدامى، فبدأ شرحه نشطاً يأخذ كل بيت وحده، ولم يتجاوز بضع عشرات من الصفحات حتى أخذ يلخص الثلاثة الأبيات والأربعة والخمسة تلخيصاً. ونسخة الشنتمري من الديوان ناقصة نقصاً كبيراً، ويقول طابع الشرح إنها تستند إلى نسخة الإفليلي المستندة إلى قراطيس كتبها أبو تمام بخطه وجلبها أبو علي القالي إلى الأندلس مضيفاً إليها ما رواه عن ابن درستويه. على أننا تعقبنا رواية هذا الشرح للأبيات التي وقع خلاف في بعض كلماتها فيها فلم نجدها أفضل مما ورد في الشروح المشرقية.

كنت أتمنى، وقد كتبت ما كتبت أعلاه، أن أشمر لشرح ديوان أبي تمام كاملاً. لكنني ـ أنا الناعي على الكسالى كسلهم، وعلى الجهلة جهلهم ـ لا أملك ما يكفي من الوقت، ولا ما يكفي من العلم ولا أي قدر من الدربة في علاج المخطوطات لكي أتصدى لهذا الأمر. أنا رجل أحب الشعر وأختار منه الرائق المدهش، وأشرح ما أختار، وحسب. ولأنني ملأت عقلي بمعلومات كثيرة غير نافعة في مجال اللغة القديمة والشعر القديم لم يبق في ذاكرتي حيز كاف؛ ولأنني لحقت لقمتي في ميادين الصحافة عشرات السنين، ولأنني قليل الصبر، تجدني ناقص الأداة مضطراً إلى القواميس والشروح القديمة أتكئ عليها جميعاً. وتجدني أصطنع أداة أخرى أحسبها طريفة لفهم الشعر القديم:

أساير الشاعر: أسير معه منذ ما قبل النظم إلى ما بعد تمام التحكيك. أراه فوق ناقته قاصداً الممدوح. وأراه يفكر في المعاني، وأشهد جبريله يلقنه أبعاض أبيات، وأشاهده مغمض العينين رافعاً رأسه إلى أعلى كفرخ حمامة أعمى يريد أن يلتقط كل إلهامةٍ تسقط عليه من السماء فيُلبسها كلمات. وأدخل في عقله، وأجادله في كل كلمة يختارها، وأفهم عنه لماذا آثرها على سواها. وأراه صاغ البيت وارتضى له قافية. كل هذا يحدث وأنا أقرأ القصيدة. ثم أكر كرة أخرى فأنفي من القصيدة أبياتاً كثيرة هي كلام. وأستخرج الأبيات التي هي شعر. ثم أسعى في الربط ما بين الأبيات التي هي شعر، فأضطر إلى اقتباس أبيات كلامية هنا وهناك حتى تستقيم القصيدة. ثم أعود لأستذكر رحلتي مع الشاعر وهو ينظم ويستلهم. وأشرح شعره بكلام أقصد أن يكون مفهوماً لقارئ

القرن الحادي والعشرين. وقد أخالف القدماء في شرحهم. فأما إذا كان الشارح شاعراً فذاً ـ وهذا نادر جداً ولم يقع لي غير مرة واحدة ـ فلست أخالفه.

هذه المرة كانت مع أبي العلاء المعري. فقد شرح المعري شعر المتنبي. ومن حسن حظ الأدب أنَّ شرح المعري وصلنا. وقد شكك بعض النقاد في نسبة هذا الشرح إلى المعري بعض تشكيك. وها أنا أقول لهم: دعكم من كل هذا. دعكم من مقارنة النسخ الخطية، وحشد الحجج، واقرأوا شرح المعري للمتنبي تروه شرح رجل يعرف الشعر. ولا أتذكر أنني خالفت المعري في شرحه على المتنبي (وهو شرح كامل لكل بيت) إلا في بيت واحد زعمت لنفسي ولقرائي أنه شرحه متسرعاً. وذلك البيت هو:

إن التي سفكت دمي بجفونها لم تدر أن دمي الذي تتقلد

وكنت كتبت عن المتنبي، وفي سياق شرحي لذلك البيت قلت إن الشروح الستة لديوان المتنبي التي كنت فارشَها أمامي قد أساءت فهم البيت.

وأعود بك إلى أبي تمام

أعود إلى بيت اضطرب فيه الشارحون. وأبين لك طريقتي في الفهم وفي الشرح.

يصف أبو تمام غيمة مدرارة وأرضاً عطشى:

(ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب)

تلبدت السماء بالغيوم، ورأى أبو تمام غيمة عظيمة أخذت تسحُّ سحاً؛ مطر جاء في غير أوانه، وقد عم الجفاف واقشعر وجه التراب يبساً. قال أبو تمام «ديمة» والديمة هي الغيمة التي «يدوم» مطرها. وقال «سمحة القياد» يريد أن يصفَ الغيمة بالسماحة والكرم (والسمح من الرجال هو الذي يسمح بماله): إنها غيمة سلسة. نعم هي سلسة سلاسة عجيبة في إدرار المطر، ولكن كلمة «القياد» جاءت فوراً بعد «سمحة»، فالغيمة «سمحة القياد»، إنها مأمورة بقائد هو الريح. والغيمة سكوب تسكب المطر. والثرى المكروب من الجفاف مستغيث بهذه الغيمة. يرى أبو تمام في ذهنه صورة التراب الجاف وقد ارتفعت منه يدان تستغيثان، وتطلبان المطر.

(ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب)

الثرى يريد أكبر قدر ممكن من الماء من هذه الغيمة العابرة التي جاءت في أوان الجفاف. الثرى مقيم في مكانه لا يستطيع أن يسير ويلحق هذه الغيمة التي تسح وهي ماشية ومنصرفة عنه.

ثم يأتي البيت الثاني (وهو موطن الشاهد):

(لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب)

يقول أبو تمام: لو أن بقعة أرض تستطيع المشي لإدامة نعمة المطر وإعظامها (الاستكثار منها) لخف المكان الجديب الجاف وركض مع الغمامة سائراً تحتها أنى توجهت.

انتهى شرحنا.

ونظرت في ما شئت من الكتب التي اقتبسَتْ هذه الأبيات، والأبيات مشهورة، ورأيت أن الذين شرحوا هذا البيت الثاني قليلون، وأن كل من شرحه جعل كلمة الإعظام تعني (التبجيل). فالأرض العطشى تريد أن تمشي مع الغيمة لكي «تبجلها» حسبما يريدون.

ولست أرى ذلك. بل أرى أن كلمة (إعظام) تعني التكثير والازدياد.

فأما إن قلت لي إن البحتري عندما سرق هذا المعنى جعل المنبر يسير باتجاه الخليفة اشتياقاً، وإن قلت لي إن البلاذري الذي سرق معنى البحتري جعل البُرد يظن ما ظنه تبجيلاً، فهذا كله لا يجعل سير الثرى عند أبي تمام بغرض التبجيل. لا، ولا أقول إن البحتري أساء فهم بيت أبي تمام. بل لعله فهمه كما فهمتُه، وسرقه ومال به إلى معنى التبجيل، فالشاعر يسرق روح المعنى لا تفاصيله.

ولي في هذا السياق كلمة أخيرة: عندما أَلتقي بأبي تمام في الحياة الأخرى قد يقول لي: أنت واهم. عندئذ سأقول: كان هذا مبلغ اجتهادي. لكن، من يدريك، فقد تلمع عينا شاعرنا، ويقول لي: يا صاح، قد والله قصدت التبجيل، ولكنك أرشدتني إلى معنى أجمل وأقرب إلى سياق كلامي.

هاك حكايتين على هذا:

نظم شوقي لعبد الوهاب أغنية قال فيها عن البلبل:

مجروح من ساقه، ومن طوقه ما دِري بالشوك من شوقه

فخلط عبد الوهاب بين القاف والكاف فجعلها (ما دري بالشوق من شوقه) فصفق شوقي طرباً، وقال له: هذه أحلى. البلبل لشدة شوقه لم يدر بأنه مشتاق، أبقِها كذلك. وهكذا سمعناها من عبد الوهاب.

والثانية:

كان شوقي يتمشى في «المنتزه» بالإسكندرية، وعبد الوهاب يحاول اللحاق به، فشوقي يسير هائماً مسرعاً وهو ينظم. ثم وقف شوقي، وكان يعالج نظم قصيدة يرثي بها حافظ إبراهيم، وقف وقال لعبد الوهاب: اسمع المطلع:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي (يا منصف الأموات والأحياء)

فسكت عبد الوهاب. فأطرق شوقي. ثم قال: بل نجعلها: (يا منصف الموتى من الأحياء). وهذه، ولا شك، أوقع وأجمل.

ماذا عن أبي تمام؟

قد شرحت لك في الأسطر السابقة أن الذي قادني إلى هذا الفهم لبيت الديمة مسايرتي أبا تمام في تفكيره. ولا أزعم أنني فتحت فتحاً، فكل شارح يصنع ذلك. كل شارح يحس بالمعنى ويفهمه، ثم يفصله. لكن رجلاً كأبي تمام بحاجة إلى أن تتيقظ معه، فهو قين لغة، وصيقل معان، وهو من عبيد الشعر الذين لا ينفع معهم أن تلْمح معنى البيت لمحاً، وتمضي في تسطير شرحه.

مرهِق هذا الشاعر، وقد عبده القدماء. وقضوا بضع مئات من السنين يفضلونه على المتنبي. وبضع مئات أخرى ـ بعد أن غدا المتنبي قديماً بما يكفي لنيل شرف التقديم ـ متحيرين أي الشاعرين أسبق. وجاء العصر الحديث ففضل ناسه المتنبي لأنه ثائر، وكان العرب في النصف الأول من القرن العشرين ثائرين يظنون أنفسهم على أعتاب نهضة كبيرة فعبدوا أبا الطيب، وأطاحوا بأبي تمام عن عرش الشعر. ثم جاء الحداثيون، ورأوا في غرابة أبي تمام شيئاً، رأوا كلماته المثقلة بالمعاني الظاهرة والباطنة، رأوا الكلمة عند أبي تمام تشع بالمعاني، وأطياف المعاني، وتحتمل الكثير من التفسيرات. أعجبهم أن كلمته باب صغير وراءه دهليز، ووراء الدهليز دهاليز. وانشغلوا به. وتعلموا من النقاد الفرنسيين (ولا أتكلم على إيليا الحاوي وحده) أن الشعر ليس فقط الصرخة

النابعة من القلب، بل هو أيضاً الشعور الهادئ المستكنّ في العقل، فأعادوا إلى أبي تمام الاعتبار.

هذا شاعر العقل، شاعر العبارة الذكية. شاعرٌ يحب أن يلعب باللغة وبالمعاني، ويلهو بالمحسنات، وهو الأستاذ الحقيقي للمتنبي.

قال المتنبي لجلسائه عند الوزير المهلبي (فيما روي لنا): مَنْ أبو تمامكم هذا؟ قالها إنكاراً لا استنكاراً، وهذا أسخف. هو ينكر أنه يعرف أبا تمام! قدْكَ يا أبا الطيب! والله لنشم ريح أبي تمام في كل قصيدة قلتها.

فأما أن أبا تمام أستاذ البحتري فهذه معروفة. طريقة البحتري غير طريقة أبي تمام. البحتري سرق خمسمئة بيت من أبي تمام (كيلا نغضب صاحب «الموازنة» المؤثر للبحتري نجعلها مئة فقط، وفي هذا كفاية)، ولكنه صاحب ديباجة حلوة سلسة. وليس له من التفكيك والتركيب ما لأستاذه. وأحسَنَ شيخ المعرة في قوله «إن أبا تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر: البحتري». ونُلحقه هو بالحكيمين. كل شعرائنا حكماء، وكلهم سفهاء. ولا أدري أيوجد شعر لا يكثر تردده بين السفاهة والحكمة!

أكتب هذا الكلام بعد أن قرأت أبا تمام، سوى قراءة لندن الأولى تلك قبل عشرين سنة، قراءات أخرى في شروح وكتب أخرى، وبعد أن عشت معه في حارة دمشقية، وفي دكان حائك، وسعيت معه في طرقات الفسطاط وقعدت معه في ناحية من جامع عمرو، وقرأت معه شيئاً من كتب اللغة التي كانت ترد مصر في ذلك الزمن من بغداد، أو التي كان يكتبها علماء مصر، ورافقته على ناقته العجفاء متنقلاً بين ممدوحيه. ورأيته رجل سفر، فقد الإحساس الذي يحسه معظم الناس بالمكان، واهتزت الأرض تحت قدميه، وصار المكان بالنسبة إليه موقعاً افتراضياً.

أبو تمام نفسه شخصية افتراضية

كان أبو تمام يعيش في «سكند لايف» على هيئة ما. ونراه يحذر أحد ممدوحيه من منحه عقاراً، فهو يريد المال. لكنه كان يفرق المال تفريقاً على الناس. على أنه في ختام حياته طلب بريد الموصل فأُعطيَه. واستقر في الموصل سنتين، وصار له بها قبر. لستَ بحاجة إلى جهد كبير وأنت تلتمس قلق المتنبي عند أبي تمام. هو قلِق جداً، وجوْبه الفيافي فيه سعي للمال، لكنه

ليس ذلك السعي الساذج الذي يحدثنا عنه أصحاب الكتب المدرسية عندما يقولون إن شاعرنا كان مداحة نواحة، يركض وراء الدرهم. لعل أبا تمام كان يجشم جسمه عناء الأسفار هارباً من السؤال الوجودي القبيح: ما مصيرنا؟ فصاحبنا لم ينعم باليقين، ولم يكن صاحب صلاة ولا صوم. ها هو المتنبي مرة أخرى يطل برأسه. وصاحبنا أبو تمام متعصب في شعره للإسلام تعصباً عجيباً. في تعصبه سياسة، وفيه إرغام الذات على ارتداء الانتماء الجديد.

ولا قبل لي بالمضي في هذا الحديث دون أن أحدد موقفاً من دين أبي تمام، وأشرح نصرانيته وإسلامه. وسيأتي ذلك.

استطراد

لكنني الآن أمضي في قولي إنني أكتب هذا الكلام كله بعد قراءة الرجل وسيري معه، وبعد قراءتي ما كتبه الصولي والبديعي عنه في القديم، وما قاله ياقوت وغير ياقوت ممن نقل عن الكتب القديمة. وبعد قراءة مئات الصفحات مما كتبه الحداثيون عن الرجل. وبعد أن غسلت يدي مما كتبه بعض اللاهثين وراء التدكتر.

أهيب بك أن تقرأ شعر أبي تمام الذي اخترته لك، وأن تزلّ بعينك سطراً لتنظر في شرحي عليه كلما نشطتَ لذلك، فلن أضن بما يعن لي من أفكار وتأويلات لمعاني شعره ومعاني حياته.

كان انتقاء أبيات من أبي تمام أمراً صعباً. ما أكثر ما أخذت أبياتاً جافة سقيمة كي أسند بها أبياتاً لامعة. وما أكثر ما اخترت أبياتاً ضعيفة لأن معارك نقدية عنيفة دارت حولها. قد تيسر لأبي تمام نقاد من أهل اللغة والنحو أعجبوا بأبيات لصعوبتها، أو أولعوا بها لتعقدها، فهي المرقاة التي يتخذونها لإبراز فحولتهم في ميادين اللغة والنحو. وهذه الميادين ليست ميادين الشعر.

وكل شعر أبي تمام مشهور معروف. ولأنه سرق كثيراً وسرق منه الكثير، فأبياته كلها موضع جدل في الكتب القديمة. ولكنني حاولت ألا أختار إلا ما يحتوي على شعر وخيال.

إذا أردت أن تطل على أجمل وأحلى ما قال الرجل من شعر فهذا على مبعدة صفحات منك، وأما إن كنت تريد درس عيوبه فلن تجد إلا قليلاً من الأبيات السخيفة هنا، اذهب إلى الآمدي صاحب الموازنة وستجده يطلق على

شعر أبي تمام ـ وعلى مدى ألف وخمسمئة صفحة ـ قطيعاً من كلاب الصيد.

وستجد عندي بعض تعقيده وسخفه، ليس أنني قصدت إلى تضمين ذلك، بل هو مكثر في الرديء إكثاراً، وهو يخلط الرديء بالجيد خلطاً عجيباً. ما أصدق البحتري عندما قال: «جيده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه».

حياة أبي تمام ـ المصادر

أبو تمام شخص افتراضي. مثل الذين تصادفهم في غرف الشات. يقول لك الواحد إنه رجل مهيب ذو شنب شنيب، ويكون في الواقع مراهقاً قريبَ عهد بالحليب.

نأخذ بقول الأب لويس شيْخو أخذاً ذريعاً، فشيخو لا مصلحة كبيرة له في نسبة هذا المارق إلى المسيحية، لأنه ارتد عنها ارتداداً ونطق في شعره بالحط من قدر الصليب. والأب شيخو يغصّ بأقل من هذا. ونأخذ برواية هلموت ريتر في دائرة المعارف الإسلامية، فهو يلخص أقوال القدماء وينتخب منها. على أننا ألممنا بما قال صاحب «الأغاني» وياقوت والبديعي صاحب «هبة الأيام» والصولي صاحب «أخبار أبي تمام»، وبأقوال من أخذوا عنهم من المحدثين (أقصد المحدثين الذين نحترم علمهم كعمر فروخ، وليس أولئك البائسين من غربان الجامعات النُعَّق).

نأخذ بذلك كله ثم نمضي في افتراضنا الذي لا يخرج في أي جزء من أجزائه عن أقوال القدماء والمحدثين. فنحن لا نزعم أننا وقعنا على مخطوط نادر، ولا أننا ضربنا في الرمل فعرفنا ما لم يعرفه غيرنا. على أننا نستدرك: فدرسنا لشعر أبي تمام جعلنا نأخذ رواية ونترك رواية. وتلفيقنا لروايتنا من الروايات المتضاربة إنما يسنده، ويسد خلله، ما استقيناه من شعر الرجل من فهم لنفسيته. هذا بقدر ما تيسر لنا من فهم، ومن وقت.

حياة أبي تمام (١٨٨ ـ ٢٣٢)

نشأ أبو تمام ولداً مسيحياً في قرية جاسم بين دمشق وطبريا، في منطقة من هذا الشرق المعقد، هي أشد تعقيداً من سائره. فعلى مقربة من هذا المكان انهزم الروم عند نهر اليرموك، وتبع فلولهم خالد بن الوليد حتى لحقوا بآسيا الصغرى (تركيا الحديثة)، وبقيت عائلات رومية في دمشق، وعلى الأخص في

قراها، فالناس الذين ترتبط حياتهم بالزراعة يفضلون البقاء في الأرض عند حدوث هزيمة عسكرية تغير وجه التاريخ والمجتمع كتلك الهزيمة؛ يفضلون أن يتأقلموا مع الحكام الجدد، وقد يغيرون دينهم إذا استقر الوضع سنوات طويلة للحكام الجدد، أو إذا مارس هؤلاء الحكام الاضطهاد الديني. والحكام المسلمون آنذاك كانوا معنيين ببسط نفوذ الدولة الجديدة، ولم يضطهدوا الناس اضطهاداً دينياً بل ساروا فيهم سيرة غريبة على ذلك الزمن، إذ فرضوا ضريبة مقابل الإعفاء من الخدمة في الجيش، تلك هي الجزية، وأضيف إليها فيما بعد الخراج. ولكن، ظلت العائلات المسيحية على مسيحيتها، وحتى المسيحيون العرب (من تغلب وبكر وتنوخ) فالكثير منهم بقي على دينه في سوريا كلها. وكان في تلك المنطقة الوعرة جبالها، الخصبة سهولها، الواقعة بين دمشق وطبريا اختلاط عرقي وديني ساعد في المستقبل على استيطان حركات وعقائد أخرى.

كان تدوس النصراني شاباً متعثر الحظ من شبان قرية جاسم، لا يملك أرضاً زراعية، بل يشتغل في مزارع الناس بالأجر. وكان كبير القرية من قبيلة طيء المشهورة. وقد اشترى من دمشق جارية سوداء نوبية، كان استرقَّها من استرقَّها وباعها من باعها صغيرة، ووصلت في قافلة إلى دمشق واشتراها كبير قرية جاسم، وأتى بها إلى بيته للخدمة. فإذا هي حادة المزاج حادة الذكاء، لكنها خرقاء لا تحسن عملاً. وعندما بلغت زوَّجها كبير القرية (ولعله كان نصرانياً) من تدوس النصراني بمهر ضئيل. فولدت له ولداً سماه «حبيباً»، اختار اسماً حبيباً إلى قلوب نصارى المنطقة، لكنه يجوز في المسلمين أيضاً. وولدت له «سهماً»، اختار له اسماً بعيداً عن الأسماء الرومية، كاسمه تدوس، لكنه ليس من الأسماء الإسلامية.

ونزح تدوس بأسرته إلى دمشق وعمل فيها في دكان خمار. لا، لم يملك حانة، فلو أنه ملك حانة لجعل ابنه حبيباً يساعده فيها. لكنه اشتغل عند خمار، وشغَّل حبيباً عند حائك. وعاش حبيب صباه في حارة دمشقية، وتعلم أن يكون محترساً، وأن يكون ابن سوق.

لكنه اشتعل حباً باللغة العربية حتى قبل الهجرة إلى دمشق. وما زال في تلك المنطقة بجنوب دمشق، التي قضى فيها أبو تمام طفولته، من ينطقون العربية أحلى نطق ويخرجون حروفها أجمل مخرج حتى يوم الناس هذا، بل في

تلك المنطقة قرى يقترب حديث أهلها في أيامنا هذه من الفصحى اقتراباً لا تجده في أي مكان في هذا العالم.

لم يعرف حبيب من لغة سوى العربية. وعشقها وهو يسمعها في حلقات المسجد الأموي، وكان لدمشق عراقة لم تكن لبغداد. فهي، وإن خملت وقبعت في الظل بعد بناء بغداد على يدي المنصور قبل خمسين سنة، ما زالت مدينة كبيرة. وسنرى المتوكل بعد بضعة عقود يزورها مفكراً في اتخاذها عاصمة بدلاً من سامراء، غير أنه بدا له. كانت دمشق تختزن تراث تسعين سنة هي عُمْر الدولة الأموية، وتراث مئات السنين قبل الإسلام، إذ مرت بها حضارات عربية وسريانية ورومانية ويونانية تركت في نفوس أهليها تحضراً تتبدل اللغات ويبقى كامناً.

حبيب صبي أسمر داكن السمرة، اختلطت في سحنته ملامح أمه النوبية بملامح أبيه الرومي فإذا هو جائز في العرب بسحنته المحيرة. طويل نحيل، لا يهمه الطعام. حاد الذكاء قوي الحفظ، لا يدخل أذنيه بيت شعر ويخرج.

تعلم في دمشق أيضاً أن العرب هم الكبراء، وأن بقية الناس فعلة. ولعله سمع كثيراً عن نفوذ الفرس في بغداد، ولعله سمع أيضاً أن الخليفة العربي هارون الرشيد نكبهم نكبة كبرى قبل سنة أو سنتين من ولادته. ثم إن عدداً من كبار قادة الجيوش هم من العرب: من طيء ومن شيبان ومن بكر بن وائل. والجو في الشام أعرب منه في العراق.

كان يرى أباه إذا سأله سائل: ممن الرجل؟ يقول: من طيء. وصار حبيب يقول للداته إنه من طيء. وصنع عمود نسب يصله بجد القبيلة، صنعه على عجل فجاء ناقصاً ستة أجداد.

لم يكن الدين من همِّ تدوس الأب، فلقمة العيش جعلته مسيحياً بالاسم فقط. ولم ينتبه الولد حبيب إلى أن الإنسان عندما يولد يجب أن يكون على دين معين. ترعرع في حارته الدمشقية ولداً طائياً، دينه الشعر العربي. انحفرت في ذاكرته لمزات بعض اللامزين في جاسم وهو صغير، ثم في دمشق. كان يعرف حق المعرفة أن أباه نصراني، وأن أمه جارية تربت في كنف طيء. لكنه لبس وجهاً من حجر قابل به العالم. فهو لا يتكلم إلا الفصحى، وإن فاتته حلاوة الصوت؛ إذ كان صوته أجش، وكانت في لسانه حبسة.

كان واضحاً لحبيب أن اللغة والشعر مستقبله. فرأى دكان الحائك سجناً، ورأى دمشق سجناً. ولم يكن يعرف عن بغداد إلا أنها ذلك البلد البعيد. لكنه سمع عن مصر من أمه. لم تكن تتذكر حقاً عن مصر إلا خيالات وأطيافاً (فقد جاءت إلى الشام وهي في السادسة من عمرها)، لكنها عرفت من الناس أنها قادمة من بلد فيه نهر عظيم هو النيل، وفيه خير كثير، وليس فيه برودة جاسم ولا وعورة منطقتها، جعلوها ترسم لمصر في ذهنها صورة بديعة، نقلتها إلى ولدها.

وتيسرت قافلة ذات يوم، وكان صديق حبيب ذاهباً فيها، وأصر حبيب على الالتحاق بها زميلاً لصديقه على ناقته. وانتهى في الفسطاط. ورأى حلقات الدرس في جامع عمرو بن العاص عامرة، فتخلف عن القافلة وهي قافلة، وأقام يسقي الطلبة الماء مقابل جراية ضئيلة، أرغفة قليلة؛ ثلاث سنين وهو يسمع الدروس، وينتقل من حلقة إلى حلقة. وبدأ يقرزم، واتصل بعياش بن لهِيعة أحد قادة الشرطة، فلم يعطه ما يرضيه، فعاتبه وألح عليه، ولكنه لم يحصل على ما كان يؤمل. أمضى على هذه الحال ثلاث سنوات يقرأ كتب الشعر، ويهاجي شعراء مصر قاعداً على باب عياش.

في مصر أتم أبو تمام خروجه من شخصيته الواقعية، ودخوله في شخصيته الافتراضية. وهو الآن عربي طائي مسلم؛ وسنراه عما قليل شديد المحاماة عن دولة الإسلام. والإسلام بالنسبة إليه قومية أكثر مما هو دين.

بعد ست سنوات في مصر رجع حبيب إلى الشام شخصاً راسخاً في إطاره الجديد. واتخذ اللباس العربي، وتمسك به طول عمره، على ما في ذلك من غرابة في أسواق وقصور بغداد وسامراء وخراسان التي سيرتادها عما قليل. لكنه رجل انعقد منه العزم على أن يعيش حياته في جِلد فصَّله لنفسه.

لم يمكث في دمشق، ولم يرد أن يمكث فيها وفي ذكرياتها التي تعيد إلى ذهنه جلده الأصلي، بل انطلق إلى حمص المزدهرة سياسياً وأدبياً، وزار شاعرها ديك الجن، وهو أسن منه بعشرين أو بثلاثين سنة، وعرض عليه شعره.

وديك الجن شاعر رقيق الدين وكانت له معرفة بأبي نواس، ولقي تقديراً من دعبل، ودعبل أسن من ديك الجن بنحو عشر سنوات، ولكنه عاش طويلاً ليصبح خصماً لتلميذ ديك الجن أبي تمام.

في حمص تسلى أبو تمام بهجاء عياش بن لهيعة الموظف المصري بأبيات أجود كثيراً من أبياته القديمة في مدحه؛ لعله فضْلُ ما بين الصدق والكذب.

كل ما مر عن حياة أبي تمام محض افتراء مني.

فلم أقرأ في أي مكان أن أمه نوبية، ولم أحقق أن أباه كان خماراً أم عطاراً، على أنني أستبعد أن يشتغل بالعطارة رجل قروي حديث عهد بالمدينة، فهذه مهنة تتعاطاها فيما أقدِّر أسرة راسخة القَدم في حياة المدينة، فأنا أختار الرواية التي قالت إنه كان خماراً. ولم يقل لي أحد إن أبا تمام ذهب إلى مصر في قافلة تجارية. هذا محض افتراء، لكنه ممكن. ثم إنه حقاً ذهب إلى مصر، وحقاً أقام فيها ست سنوات. عرفت أنه أسمر طويل، وأنه يتكلم الفصحى بصوت أجش وأن في لسانه حبسة، وأنه يحرص على الزي العربي البدوي المستغرب. وعرفت أنه سقى الماء في جامع عمرو بالفسطاط، وأنه قال في مصر شعراً. وأنه ذهب إلى حمص والتقى بديك الجن. وكل ما سوى ذلك من عندي. وما سوى ذلك قليل من حيث الحقائق الظاهرية، فأما من حيث نفسيته فنصيب الإفتاء في كلامي أكبر.

ذهبت مع لويس شيْخو وعمر فروخ إلى أن شاعرنا نصراني. وخالفت شيخو وأبا الفرج الأصفهاني في أنه عربي قح من طيء. ومن عندي جعلت هذا الشاب الذكي يتقمص شخصية صنعها لنفسه، وجعلته يعيش الدور.

ولعل عمر فروخ وهلموت ريتر على صواب في أن أبا تمام ذهب إلى مصر شاباً لا صبياً. وأنه عاش مدة في حمص قال فيها شعراً قبل مصر. ولكنني قررت أن أجعله يذهب إلى مصر صغيراً: فهذا أخلق بمن يسقي الماء لطلبة العلم في جامع عمرو، وثمة من نص على أنه رثا من رثا من آل حميد بعد عودته من مصر، وثمة من قال إنه ذهب مع أبيه إلى مصر. وينقل الصولي في «أخبار أبي تمام» عن البحتري أن أبا تمام قال: «أول شعر قلته: تقي جمحاتي لست طوع مؤنبي، ومدحت بها عياش بن لهيعة وأعطاني خمسة آلاف درهم». وعياش بمصر. وإذا كان أبو تمام قد قعد بحمص للشعراء يأتون إليه ويعرضون شعرهم (وكان من بينهم البحتري) فلا بد أنه كان شاعراً ذا مكانة وصيت، على أن للقائه بالبحتري قصة أخرى تناقض هذه، فقد قيل إنه لقيه أول مرة في مجلس أبي سعيد الثغري.

أن يكون بدأ بحمص صغيراً ثم رحل إلى مصر، ثم عاد إلى حمص فأمر

لا ندفعه. القرائن في الاتجاهين كثيرة. ولكنني رأيت شعره في التشوق للشام وهو مقيم بمصر شعر شاب رقيق، بينما شعره في آل حميد شعر شاعر قد استكمل أداته، واستحكمت فيه مزايا وعيوب الشاعر المحترف.

أقول هذا وأنا على ثقة من أن مزيداً من الدرس خليق بأن يوقفنا على سلسلة زمنية (كرونولوجيا) دقيقة لحياة أبي تمام وشعره. ونترك هذا لأهل الاختصاص الجامعي، شرط ألا يكونوا مثل ذلك الشارح الدكتور الذي سود أربعاً وسبعين صفحة في شرح حياة وفن أبي تمام في مقدمة الديوان أتحفنا فيها ببعض الآراء النقدية من قبيل: «عارض فيها أبو تمام قصيدة أبي فراس الحمداني: أراك عصي الدمع. .» وأبو تمام «يحاكي ما في الروميات. .» و«في ظني أن طول ألفته لشعر أبي فراس قد علمته صياغة مثل هذه المواقف» ويذكر شعراً لأبي فراس الحمداني يزعم أن أبا تمام قلده.

فإذا علمتَ أن أبا فراس ـ الذي طالت ألفة أبي تمام لشعره! ـ ولد بعد موت أبي تمام بتسعين سنة، رأيت كيف يعبث ويعيث ويغِث ويُرِث هؤلاء الدكاترة، بينما نحن، هواة الأدب، ننتظر شيئاً من التحقيق والتدقيق يأخذون ثمنه معاشات من جامعاتهم، ولا يكتبون لنا إلا هذا الهراء.

في دار الخلافة

عندما ذهب أبو تمام إلى بغداد وجد نفسه من ناحية الدين والتدين والمعتقد. نهاية الجملة. فبغدادُ تلك كانت عاصمة الدنيا. وكانت تمور بالفكر والفلسفة والاعتزال، وتتوهج بالاسترخاء الحضاري. الحرب مستمرة على الثغور، لكنها حرب مناوشات اعتيادية ما فتئت دائرة منذ عقود طويلة، والدولة الإسلامية قوية تكسب في المناوشات أكثر مما تخسر. وفي بغداد والبصرة والموصل حياة مستقرة، والخليفة قوي متمكن يتربع على عرش تؤيده عناصر القوة من عرب وفرس وترك. الاسترخاء مستمر ولما يبدأ الترهل، ولما يبدأ الاضطراب في مراكز القوى. مات قبل سنوات قلائل أبو نواس، وشاخ أو مات صحبُه الفُتَّاك. ولكن مجالس اللهو لم تمت. ولن يعيش أبو تمام ليحضر عصر التهتك المقبل في بلاط المتوكل. لكن بغداد، ثم سامراء، ظلت في زمنه تعيش استرخاء سياسياً وحياةَ ترف لذيذة كأنها نومة الضحى يوم الجمعة.

كان الوزراء والكتاب، وحتى أمراء الحرب، يفهمون الشعر ويتذوقونه،

وعندما وصل أبو تمام إلى بغداد كان الخليفة المأمون من كبار متذوقي الشعر. أسماء كبيرة في الدولة: القاضي أحمد بن أبي دؤاد، الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، القائد أبو دلف العجلي، ومن هم دون هؤلاء من طبقة الكتاب أيضاً، كلهم كانوا يفهمون الشعر، وينقدونه بذائقة فاحصة، وبعضهم كان يقرضه. تعيش في وجداناتهم أشعار الجاهلية ويقدسونها، ويعجبون كيف أن تلك الجزالة غدت عصية على التقليد. لكنهم مع ذلك تذوقوا بساطة أبي نواس واختراعاته في جانب المعاني. وأصغوا إلى ما ابتدعه مسلم بن الوليد من توسع في البديع، وهتفوا له، واستعدت ذائقتهم لجرعة أكبر من البديع، فجاءهم أبو تمام شحمة على فطيرة. رحبوا في مجالسهم بهذا الشاعر الشاب الذي بلغ السابعة والعشرين، ويقول شعراً مختلفاً، وتباهوا بفهم دقائق أبياته.

شاعر الخليفة

قال في المأمون قصيدة بالشام والمأمون قافل من غزوة رومية، ولكنه لقي الزجر على باب الخليفة فازدجر. وقال قصيدتين أخريين أو ثلاثاً لم تصادف عند المأمون أذناً مصغية. ثم مات المأمون، وجاء المعتصم، الخليفة شبه الأمي الذي لا يتذوق الشعر، ولا يتقن سوى الحرب. لكن القدر كان قد ابتسم لأبي تمام فباضت حمامته على الوتد. كان لا بد للخليفة من شعراء، فأخواه اللذان سبقاه في الخلافة كان لهما شعراء رفعوا ذكرهما، وأبوه الرشيد كان له شعراء. حسناً، فليكن للمعتصم شعراء. أوصل القاضي أحمد بن أبي دؤاد أبا تمام إلى المعتصم فمدحه، وبعد حين رافقه في حملته التي ظفر فيها بعمورية وأحرقها، وأنشد قصيدته المشهورة «السيف أصدق أنباء». وصنع في الخليفة قصائد أخرى، ومدح وزراءه وقواد جيوشه بعشرات القصائد.

قبل الاتصال بالخليفة وبعده ارتحل أبو تمام في الأقاليم.

سافر إلى أرمينيا، وإلى خراسان (وخراسان هي نيسابور وطوس الموجودتان اليوم شمال شرق إيران، وهِرات وبلخ الموجودتان اليوم شمال غرب أفغانستان، وبخارى وسمرقند في أوزبكستان، ومرو في تركمانستان)، وسافر إلى منطقة الجزيرة في شمال شرق سوريا الحاضرة منتجعاً أميرها التغلبي.

كان يذرع الدولة الإسلامية المترامية الأطراف بلا توقف. ولو رافقتْك الخريطة، وأنت تقرأ ديوانه، لملأتها بالخطوط المتقاطعة.

عشر سنوات وأبو تمام يعيش على ظهر ناقته، مثلما يعيش بعض رجال الأعمال اليوم في الطائرة.

الحركية وورشة صناعة الشعر

قد نريد أن نضيف إلى ما أسلفنا، من أن الرجل كان قلقاً لا يجد في نفسه حاجة إلى الارتباط بمكان بعينه، أمراً آخر هو أنه كان ذا طبيعة حركية.

يقسم بعض التربويين المعاصرين الناس إلى فئات فيما يتعلق بطريقة اكتسابهم المعارف: فهناك «البصَري» الذي يكتسب المعلومات عبر عينيه، فهو إذا رأى المعلومة ممثلة في لوحة أو خريطة أو فلم تلفزي كان سريعاً إلى فهمها والاحتفاظ بها، وهناك «السمعي» الذي ترن الكلمات والأصوات في أذنيه ويختزنها، وهناك «الحركي»: وهو ذلك الشخص الذي يجلس في الاجتماع فلا يترك القلم من يده، يكتب كلمات ويرسم رسومات، وهو لا يستوعب درسه إلا إذا لخصه على الورق، ثم لا يضيره بعد ذلك إن رمى بالورق، فالمهم عنده أن يصنع شيئاً وهو يفكر؛ وهذا الشخص كثير الحركة: إذا انشغل ذهنه قام ومشى، وإذا لم يجد شيئاً يصنعه قضم أظفاره، أو ابتدع طرائق للعبث بجسمه.

ونظن أن أبا تمام كان من هذا النوع «الحركي». لم يكن يقرأ شعر القدماء ويحفظه إلا وبيده قلم. وقيل لنا إنه ترك عدة مجموعات شعرية انتخبها من شعر الأقدمين. وقدر لإحداها أن تصبح أشهر مجموعة منتخبات شعرية عرفتها اللغة العربية، وأن تكون أم هذا الباب من أبواب التأليف الأدبي: تلك هي الحماسة.

لم يكن من هم أبي تمام دفع مجموعاته المنتخبة إلى الوراقين ليصنعوا منها النسخ. فقد كتبها لنفسه، لأنه لم يكن يحسن أن يقرأ الشعر القديم قراءةَ حفظٍ ودرس وتبصر إلا وهو يكتب على الورق. وإلا فماذا كان يدعو أبا تمام، وهو أهم وأشهر شعراء عصره، وأروجهم سوقاً، وأقلهم ثباتاً في بلد بعينه، إلى أن يجمع في كراريس «أشعار القبائل»، و«نقائض جرير والأخطل»، و«فحول الشعراء»، و«الوحشيات»، و«الاختيار من شعر الشعراء»؟ يخبرنا التبريزي في مقدمة شرحه على الحماسة أن آل سلمة، الذين دوَّن أبو تمام حماسته الأشهر وهو ضيف عليهم، احتفظوا بالحماسة: «إن كتاب الحماسة بقي في خزائن آل سلمة، يضنون به ولا يكادون يبرزونه لأحد، حتى تغيرت أحوالهم». وعلى هذا

فإن أبا تمام لم يأخذ «الحماسة» معه عندما ودع آل سلمة، بل تركها زاهداً في الورق، وحمل في عقله ألفاظ ومعاني ذلك الشعر القديم.

فلا تَسلُكنَّ أبا تمام في المؤلفين، إن هو إلا رجل حركي كان يدرس الشعر القديم مثلما يدرس التلميذ فصول كتابه استعداداً للامتحان، فلا يعرف يدرس إلا وهو يلخص مادة الكتاب.

ومن حسن طالعنا أن أبا تمام كان يلخص تلخيصاً، ولا ينسخ نسخاً. كان في تلخيصه ينتخب أجمل الأبيات وأقواها. كان يدخل في عقل الشاعر، ويعيد نظم القصيدة معه، وقد يُصلح الأشعار، ويغير كلمة هنا وكلمة هناك. وانتقده الأقدمون على هذا الصنيع، وأقره كثيرون عليه. وطارت شهرة عبارة التبريزي: «أبو تمام في حماسته أشعر منه في شعره». كان أبو تمام يدخل في ورشة تدريبية بين الحين والحين يشذب فيها علمه بالشعر. فالشعر عند صاحبنا صنعة. ليس أنه لم يكن يعرف قيمة الإلهام، وقيمة الانخراط في الحدث والشعور به؛ فهو، ولا شك، رأى كيف جاءت قصيدته في فتح عمورية آية في القوة والبلاغة والحرارة؛ وهو، ولا شك، عرف أن مصدر ذلك المعايشة، (كان فخوراً بهذه القصيدة يكثر من إنشادها). على أنه لم يستغن عن الصنعة، وفي قصيدة عمورية نفسها كثير من الصنعة. ثم إنه كان يمدح الناس للمال ويضطر إلى شعر كثير ليس صادراً عن شعور حق، فهنا لا بد من الصنعة. ومن أدوات الصنعة تلك المحسنات البديعية التي أفرط فيها. ومن أدواتها ترصيع القصيدة بالمعارف التاريخية والأدبية. وأبو تمام من أكثر الشعراء احتفالاً بأخبار الشعراء القدامى في شعره. فهو يذكر الشعراء القدامى ويشير إليهم وإلى شعرهم. وللأحداث التاريخية في شعره مكان يستلفت النظر.

بشخصيته المصطنعة التي حدثناك عنها لم يكن في مقدور أبي تمام أن يستدعي إلى ورشته الشعرية عنصراً مهماً هو البراءة. فالرجل الذي صب نفسه في قالب من صنع يديه بعيد عن البراءة. قسا وجفا صاحبنا. قسا على نفسه أولاً. وعاشر الناس بعينين مفتوحتين. فلم يغف في أحضان مجتمع حانٍ، ولم يكن ابن المدينة الذي يشكو ويئن ويفرح ويحزن كابن الرومي البغدادي الذي كتب قصيدة من ١٨٢ بيتاً يحتج بأعلى صوته مستجيراً من فظيعة من كبرى الفظائع: وهي أن الممدوح طلب منه القدوم من بغداد إلى سامراء (١٢٠ كم)، وابن الرومي يريد أن يمكث في بغداد ويرسل قصيدة المدح بالبريد إلى سامراء.

ولم يكن أبو تمام ابن القرية الذي يجمع المال لكي يشتري البيوت لأولاده كما فعل البحتري. أبو تمام أشبه بالمتنبي في قلقه وفي تنقله. وهو أقل منه حرارة، وأكثر احتفالاً بالصنعة.

شاعر له لغته

وفي غياب التدفق، وحضور الصنعة، ميز شاعرنا نفسه باستخراج المعاني الدقيقة وإلباسها حلة من اللفظ المختصر. كان يحشر في الكلمتين والثلاث جملة من المعاني. ولا يندر في شعره أن يصطرع معنيان وأكثر على عبارة، فلا تعرف ما الذي قصده الشاعر. ولعل أدب كل لغة محتاج في مرحلة من مراحله إلى أديب يدق أعناق الألفاظ ويجددها ويلبسها معاني غير ما ألفه أهل اللغة، فتصبح له لغته الخاصة كما يقولون. شكسبير صنع بالإنجليزية هذا الصنيع، («سكَّ نحو ألفي لفظة، ومنحنا ما لا يحصى من العبارات، ولم يلعب أحد بأي لغة من اللغات لعب شكسبير بالإنجليزية» والكلام لبيل برايسون، وبعضهم جعل ما اخترعه شكسبير من الألفاظ ألفاً وستمئة كلمة). وعبد الوهاب صنع بموسيقانا شيئاً شبيهاً. وأنت لو سمعت الموسيقى المصرية في مطلع القرن العشرين لرأيتها تجمدت على أنماط معلومة، ومقامات وأجناس تلتقي وتفترق في هيئة يسهل توقعها. وجاء عبد الوهاب، وعبث بالمقامات عبثاً ذريعاً وهو عارف ما يفعل، متقن كل ما سبقه من فنون النغم، وصاغ لغة موسيقية جديدة.

سترى أبا تمام ضمن شعراء النصرانية، وستراه ضمن شعراء الشيعة، وستراه مبجلاً عند السلفيين لأجل عمورية ولأجل شماتته بالأفشين المتهم بالزندقة. ولكن الوصف الأدق هو أن الرجل كان شاعر السلطان.

وسوى ذلك، فأبو تمام عرف الشذوذ مع الغلمان مثلما عرفه تلميذه البحتري وخليفته الأول المأمون، لكن شعره لا يفيدنا كثيراً في مدى تعلقه بهذا الأمر. ونعرف أنه كان يشرب الخمر، ولكننا لا نصدق أنه كان سكيراً، حتى وإن أُخبِرنا أنه فقد وعيه في مجلس شراب وكسر الآنية.

أبو تمام مسودة المتنبي

عالج أبو تمام اللغة علاجاً عجيباً، وحشر في الكلمة من المعاني فوق ما تحتمل، وراكم الضروب البديعية، من طباق وجناس على الأخص، مراكمة

تجعل البيت أحجية. وأسرف في لعبة «التداعي الحر»: يترك اللفظ يجره إلى معنى، فلفظ، فمعنى. وجاء البحتري فتعلم منه وتبعه في كثير من هذه الأمور، ولكنه لم يسرف إسرافه. وجاء المتنبي فاقتدى بأبي تمام في صنعته ولم يسرف إسرافه، وكان مثله قلقاً وجواب آفاق، فقال شعراً يشبه في نواحٍ منه شعر أبي تمام في الشكل وفي المضمون. وجاء أبو العلاء المعري فاستعملَ كل سخافة لفظية ممكنة في سقطه ولزومياته، وأعجز كل من أتى بعده، أو كاد. وسنرى أن هذا اللعب بالألفاظ أنهك الشعر العربي وسلبه عافيته مئات السنين بعد أبي العلاء، فعرفت العربية من ضروب البديع أنواعاً لا أحسب أن لغة أخرى من لغات العالم جمعتها. وعليك بمقامات الحريري وبالمنظومات المسماة البديعيات أمثلةً.

أبو تمام هو من فتح هذا الباب على مصراعيه، ولنقل ـ احتراساً من المبالغة ـ إن مسلم بن الوليد شق الباب شقاً من قبل.

لكنه شاعر مهم

سوف تصادفك عقبات وأنت تقرأ شعره. ولكنك لن تنفذ إلى روح الشعر العربي العباسي المتأخر، وشعر السنوات الألف التي فصلت أبا تمام عن أحمد شوقي إلا إذا عرفت شعر أبي تمام. وهذه المختارات التي أقدمها إليك مشروحة شرحاً معاصراً لا تمثل كل سخافات أبي تمام وألاعيبه. فأنا اخترت أجود شعره. على أن الرجل آلى ألا يترك بيتاً إلا وضع فيه شيئاً من طريقته. فاقرأ هذه المختارات فهي خير شعر أبي تمام، وهي تمثله تمثيلاً طيباً.

وأنبهك إلى الحذف المعنوي وإلى الالتفات. فأما الحذف المعنوي ـ وهو أعم من «الحذف» المذكور في كتب البلاغة ـ فهو أن الرجل يقول لك عبارة صغيرة، ويستند إلى معرفتك بتقاليد الشعر العربي وحياة العرب لتفهم أضعاف هذه العبارة. يقول لك مثلاً:

حتى إذا مَخَضَ اللَّهُ السِّنينَ لها مَخْضَ البَخِيلةِ، كانتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

وعليك أن تفهم ما يلي: ظل رب الكون يهز سني هذا الدهر مثلما تهز البخيلة كرشة الخروف المملوءة باللبن الحليب؛ تهزها كثيراً لأنها بخيلة تريد ألا تترك شيئاً من الزبدة؛ وبعد هذا جاءت عمورية ووقعت بأيدينا فكانت زبدة الحقب.

وأما الالتفات فهو كقوله في بيتين متتاليين لا يفصل بينهما فاصل:

(مضى) طاهرَ الأثوابِ لم تبقَ روْضةٌ غداةَ ثوى إلّا اشتهتْ أنها قبرُ
(عليكَ) سلامُ اللّهِ وقْفاً فإنني رأيتُ الكريمَ الحرَّ ليس له عُمْرُ

فهو في البيت الأول يتكلم عنه، ويقول «مضى». ثم نراه في البيت الثاني يخاطبه ويقول «عليك سلام الله». وهذا أمر مألوف في الشعر القديم، ولكن كثرته تتعب القلب. وقد تمر بك في هذه المختارات أبيات كهذين البيتين، فلا تحسب أنني قصصت أبياتاً فيما بين البيتين كان من شأنها أن تجعل السياق مطرداً. كنت أختار بعناية شديدة، ولا أقطع سياقاً حتى لو كلفني الأمر اختيار أبيات ضعيفة كي يستقيم المعنى.

على أنني في الشرح اجتهدت أن أزيل اللبس، وأعوضك بعبارات سهلة عما في القصائد من حذف والتفات.

ما الذي أعجب القدماء في أبي تمام؟

أولاً نعود إلى التذكير بما أعجب المحدثين: أعجبوا بتثويره للغة، وبتحميله الألفاظ فوق ما تحتمل، فكأنه أضاف إلى المعجم العربي معاني جديدة أُلحقت بالألفاظ المعروفة. هو قد وسع طاقة اللغة التعبيرية. وهنا موضع يحسن فيه اقتباس عبارة لأدونيس، قال إن أبا تمام «أفرغ الكلمات من معناها المألوف، وخلصها من الحتمية وأسلمها إلى الاحتمال». ولا أرى رأيه في النصف الثاني من العبارة، على جمال صياغته. أرى أن أبا تمام ألبس الكلمات حتميات جديدة. وأما تحيرنا في فهم معانيه فمرده إلى ما عنده من حذف معنوي، وما عندنا من قصور عن متابعته كي نحقق الفهم، فنكتفي بلمح المعنى من وراء ستر. والتحليق في الخيال، مع الوصول بالإيجاز إلى الغاية التي ما بعدها غاية يوهمان المرء بأن أبا تمام يستعمل الكلمة استعمالاً قلقاً.

فأما القدماء فأحسبهم افتتنوا به لشيئين: معانيه المبتكرة، وجزالته.

ففي العصر العباسي الزاهر، أخذ الشعراء يولدون المعاني الجديدة. ونقصد بكلمة «المعاني» التشبيهات الجديدة والصور الطريفة. ومثال ذلك قول أبي تمام الذي مر بنا: (حتى إذا مخض الله السنين لها/ مخض البخيلة جاءت زبدة الحقب). وقول أشجع السلمي: (وعلى عدوِّك يا ابن عم محمد/ رصدان: ضوء الصبح والإظلام// فإذا تنبه رعته، وإذا غفا/ سلت عليه سيوفَك الأحلام). وقول المتنبي: (بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها/ وقوف شحيح ضاع في

الترب خاتمه). أخذ النقاد يجعلون للمعاني أنساباً، ونشأ ما يمكن أن نسميه بحق «علم السرقات» في نقد الشعر. صاروا يدرسون ديوان الشاعر درساً دقيقاً، ويستخرجون منه المعاني، أي الصور والأفكار، ويعرضونها على محفوظهم، ويا لمحفوظهم في ذلك الزمن الذي لم يكن فيه إنترنت! كانوا يحفظون من الشعر فوق ما يتصور عقلنا المستطيعُ بغيره. ثم كانوا يصنفون المعاني أصنافاً، ويبوبونها أبواباً. ثم يأتون إلى المعنى المحدد، فيقولون إن الشاعر أخذه من فلان، وفلان أخذه من فلان حتى يصلوا بالمعنى إلى شاعر جاهلي. فإذا وقع للشاعر المحدث معنى طريف لم يسبقه إليه أحد راحوا يبحثون عن معنى في باب آخر استلهمه الشاعر وقلَبه قَلْباً، فيقولون إنه أخذه وعدل به عن وجهه. ويختلفون في الأمر ويسفه بعضهم بعضاً بحسب عصبياتهم. فكان الناقد منهم يتعصب لشاعر وصاحبه يتعصب لشاعر آخر، وتقوم المعارك الأدبية الطريفة.

هذا الآمدي في «الموازنة بين الطائييْن»: أبي تمام والبحتري يناصر البحتري مناصرة خفية. ويرد في كتابه على من زعم أن البحتري سرق مئات المعاني من أبي تمام. وفي عصر المتنبي وبعده رسخ علم السرقات، وسودت فيه أوراق كثيرة، فالمتنبي والبحتري، وأبو تمام قبلهما، من كبار السراق. كان أبو تمام صاحب قريحة جيدة. وكان دارساً للشعر القديم، وأما أنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة كما زعموا فما لا يقبله عقلنا المعاصر، ولا عقل أي عصر. وكان صانعاً للشعر. سرق الكثير واعياً، والكثير غير واعٍ. لكنه اجتهد في صناعة معانٍ جديدة. فإذا كان منفعلاً بموضوعه جاءت معانيه المبتكرة حارة تلبس ثوباً جميلاً، وإذا كان شديد الاتكاء على نفسه ـ كما وصفه أحد معاصريه ـ جاءت معانيه جافة تلبس ثوباً ضيقاً يزعجها ويقيد حركتها، وكانت صعبة على الفهم، نائتة على السمع.

قال بعض القدماء إن لأبي تمام مئة وخمسين بيتاً سائرة على كل لسان، لا تجد أحداً إلا يحفظها، وأضاف أنه ليس لشاعر قديم ولا محدث مثل ذلك.

وهذه السيرورة ليست ابنة المعاني المبتكرة فحسب، هي ابنة القريحة الطيبة. فالسائر من شعر أبي تمام يكون أو لا يكون ذا معنى مبتكر، لكنه في معظم الأحوال سهل رائق. أنشِد معي: (وإذا أراد الله نشر فضيلة/ طُويت، أتاح لها لسان حسود).

وثمة من شعر أبي تمام ما سار في كتب الأدب سيرورة كبيرة لغثاثته

وصعوبته. صرنا نحفظ له أبياتاً من الصعب المرذول لأن النقاد أسرفوا في تقريعه عليها. ولا تخلو مختاراتنا من أمثال هذه الأبيات. هذه واحدة: (هن عوادي يوسف وصواحبه/ فعزماً، فقدماً أدرك السؤل طالبه)، القطعة رقم ١٠٨، والبيت مطلعها.

تلك واحدة أحب القدماء أبا تمام لها: المعاني الجديدة.

وأما الثانية فهي الجزالة. وما نقصده بالجزالة ـ فأما كتب المدارس فالله وحده يعرف ما الذي تقصده عندما تصف القصيدة بالجزالة ـ ما نقصده نحن هو قوة التعبير، وإيجازه، وشبهه باللغة العربية العتيقة. كل هذا هو الجزالة. والشعر الجزل هو كالحطب الجزل: والحطب الجزل هو الحطب القاسي الذي يدوم اشتعاله مدة طويلة.

لقد خرج أبو العتاهية وأبو نواس عن الجزالة خروجاً مستفظعاً. جاءوا بشعر سهل سلس؛ معانيه قريبة إلى الفهم. وبشار الذي عاش شطر عمره في العصر الأموي كان يمسك بالجزالة بيد وبالرقة بيد.

اسمعوا هذه الحكاية عن بشار وأبي العتاهية في مجلس المهدي:

«قال أشجع السلمي: أذِن المهدي للناس في الدخول عليه فدخلنا، فأمرنا بالجلوس، فاتفق أن جلس بجنبي بشار بن برد، وسكت المهدي فسكت الناس، فسمع بشار حِسًّا فقال لي: من هذا؟ فقلت: أبو العتاهية، فقال: أتراه ينشد في هذا المحفل؟

فقلت: أحسبه سيفعل، فقال: فأمره المهدي أن ينشد، فأنشد:

ألا ما لسيدتي ما لها أدلاً فأحمِل إدلالها

قال: فنخسني بشار بمرفقه وقال: ويحك! أرأيت أجسر من هذا؟ ينشد مثل هذا الشعر في مثل هذا الموضع. حتى بلغ أبو العتاهية إلى قوله:

أتته الخلافة منقادةً إليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

فقال لي بشار: انظر ويحك يا أشجع، هل طار الخليفة عن سريره (يقصد سروراً بالشعر)؟ قال أشجع: فوالله ما انصرف أحد عن هذا المجلس بجائزة غير أبي العتاهية.» (سقنا هذه القصة في شرحنا للمختار من شعر العتاهي، لكننا هنا أردناها لتشهد على شيء، فاحتملْها منا).

قد بدأ العتاهي قصيدته بنسيب على طريقة القدماء، لكنه نسيب سهل مخنث. وعندما مدح الخليفة ظل على سهولته في اللفظ، وكانت ألفاظه على قدِّ معانيه على نحو أعجب بشاراً.

وانقضى زمن بشار، وجاء زمن أبي العتاهية وأبي نواس، ورق الشعر. واستعذب الخلفاء والوزراء هذا الشعر الجديد. كانت بغداد لعهد المهدي فالهادي فالرشيد ترقص الفالس في حلبة الازدهار الإمبراطوري. وفي الوقت نفسه كان أهل اللغة والنحو يدرسون اللغة العربية والشعر القديم، ويجمعون أشعار القدماء جمعاً حثيثاً. كان العصر عصر دراسة، وعصر تجميع وتقنين. ونشأ عن جهود هؤلاء الدارسين تجميد اللغة العربية. وسنرى ابن فارس بعد سنوات يقول، في كتابه «الصاحبي»، إن ألفاظ العربية محدودة لا تتغير ولا تتجدد، فالله علم آدم كل الألفاظ، وبالعربية، وبقيت على حالها، وكل ما هو جديد فهو إما فاسد وإما أن له في العربية أصلاً. بهذا النوع من التفكير خاض الدارسون في العربية وفي شعر العربية.

في الشعر كان وضع القوانين أصعب. كان منهم من أوعزت إليه روحه السمحة بقبول كل شعر جميل: أعني الجاحظ. ليس أنه لم يكن ابن عصره في تقديس الشعر القديم، لكنه كان يستعذب أشياء كثيرة لأبي نواس وأبي العتاهية. وقد ضمن الجاحظ كتابيه الكبيرين «الحيوان» و«البيان والتبيين» أبياتاً لأبي تمام في أكثر من عشرين موضعاً، وهذا برهان على تقديره العالي له، والمرء ـ وخصوصاً في ذلك العصر ـ لا يحفل بشعر المعاصرين حفله بشعر القدماء، فإذا عرفت أن الجاحظ كان أسبق مولداً من أبي تمام بنحو ثلاثين سنة تبين لك أنه كان يعرف قدر الشاعر الشاب، ويحله مكاناً عالياً.

وكان من أهل النقد واللغة المتشدد الذي رفض كل جديد. كانوا يريدون من الشعر أن يشهد على ألفاظ اللغة، لأنهم أهل لغة لا شعر. وكانوا ذوي مكانة عند الخلفاء. وتأثر الشعراء بتشددهم وبنفوذهم، وانحرف الشعر عن سهولته.

تأثر أبو تمام بهذا الجو الأكاديمي الجاف وجاراه. ولأنه من كبار الحافظين للشعر القديم، وكبار العارفين بألفاظ اللغة، فقد استطاع أن يأتي بشعر مختلف. شعر قلد فيه جزالة القدماء تقليداً.

سكَّ أبياتاً تَقُولُها هي جاهلية في أسلوبها. ولم يعزب عن إدراك أهل النقد

واللغة ما في شعر أبي تمام من جزالة، فأقبلوا عليه. وتوجعوا كثيراً لما فيه من مغايرة لطريقة القدماء وخروج عن عمود الشعر: من إغراق في البديع، ومن تعقيد في المعنى، فهم يعشقون جزالته، وينقبضون عن محسناته البديعية. وما حكي عن ابن الأعرابي ذو دلالة:

كان تلميذه الطوسي يقرأ عليه الأراجيز القديمة فأدخل فيها أرجوزة أبي تمام: (وعاذل عذلته في عذله/فظن أني جاهل من جهله) زاعماً أنها من شعر قديم، فأمره ابن الأعرابي أن يكتبها، فشرع في كتابتها، ثم توقف وقال لأستاذه إن الأرجوزة لأبي تمام فقال ابن الأعرابي كلمته المشهورة: خرِّق خرِّق!

وأجمل نقد قرأته لشعر أبي تمام، في أوجز عبارة، ما كتبه المستشرق الألماني هلموت ريتر في دائرة المعارف الإسلامية، وهاك ترجمته:

«تضم قصائد أبي تمام، علاوة على وثبات الخيال البارعة التي هي أساس شهرته، الكثير من المنغصات. فإلى غرامه بالمفردات الشاذة كان مولعاً بالتراكيب المفتعلة التي كثيراً ما تكون ملتوية معقدة، وقد أرهق فهمها الشارحين العرب. ومما يزعج القارئ التشخيص غير الموفق للأفكار المجردة، والاستعارات البعيدة المصطنعة وغير المقنعة، فهي تتلاحق بيتاً بعد بيت إلى أن يعثر القارئ بتعبير شعري رائع. يضاف إلى هذا نزعة مؤسفة إلى الجناس والطباق كثيراً ما يضحي من أجلها بوضوح وجاذبية عبارته.» اهـ ريتر.

وهلموت ريتر هذا ـ والحديث ذو شجون ـ مستشرق ألماني ولد عام ١٨٩٢ ودرس العربية على بروكلمان، المستشرق الخطير، ولبث في ألمانيا حتى الرابعة والثلاثين من العمر متخصصاً في العربية والفارسية والتركية. ثم رحل إلى إستانبول، ودرس التراث التركي درساً عنيفاً وتخرج على يديه كوكبة من الأكاديميين الأتراك (كان يفرض على طلابه أن يتعلموا لغة جديدة في كل سنة. . فتأمل). ولا نستطيع أن نثمن جهوده في مجال التراث التركي، غير أنه مكث في تركيا أربعين سنة ولا نشك في أنه ترك أثراً عظيماً هناك، على أننا نعرف أنه تغلغل في اللغة العربية والأدب العربي بعمق مدهش من شواهده تحقيقه «أسرار البلاغة» للجرجاني. وريتر ليس سوبرماناً، ولا هو أذكى من الأكاديميين العرب ـ ثكِلْتُهم ـ لكنه امتلك المنهجية، وامتلك حرية الفكر، ولم يكن مكبلاً بالوساوس، وامتلك النشاط.

عزيزي القارئ،

قد أثقلت عليك، في الفقرات السابقة التي كتبتها منجمة على مدى سنة. فأغض عما فيها من تكرار، فإنني اجتهدت في التخلص منه فوفقت حيناً، وأخفقت حيناً.

قد رتبت الأشعار على نحو يساعدك في تتبع سيرة أبي تمام بعض الشيء.

جعلت أشعاره المصرية والحمصية في باب، ثم أشعاره في ولاة الأقاليم في باب، ثم أشعاره في دار الخلافة في باب.

ولا يقوم هذا الترتيب بالتسلسل الزمني كل القيام وإن كان يراعيه بعض المراعاة. فشاعرنا مدح المأمون والشاعر في مطلع شبابه، ولكننا ضممنا هذا الشعر إلى الباب الثالث حتى يكون مدحه للخلفاء قريباً بعضه من بعض. وجعلنا قصائد كل أمير أو والٍ أو خليفة متتابعة. وجعلنا أشعاره في الأفشين وبابك في موضع واحد لأنها تروي قصة واحدة.

ولم نرتب القصائد هنا على الأحرف، مع ما في هذا من اليسر علينا، ففهرس قوافٍ يغني، وقد زودنا الكتاب به. وقد تركنا في رأس كل قصيدة السطر الذي يضيء مناسبتها مثلما ورد في شروح القدامى. ولم نسرد من الأحداث التاريخية إلا ما لا بد منه لفهم معنى أو إزالة لبس.

وستجد فهرساً للأغراض، يرشدك بنظرة إلى كل ما يحتويه الباب من شعر في الفخر، أو في الغيوم والأمطار، أو في الغزل، أو في الجهاد. وثمة فهرس للقصائد بعناوينها، يحمل أيضاً وصفاً موجزاً ويدلك على كبريات القصائد، ومشهوراتها.

لم آلُ في تدقيق هذه المجموعة جهداً، والكمال لمن خلقنا ناقصين.

١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١
٢٠ ذي الحجة ١٤٣٢

١ فيضان حسب الطلب

قال يمدح عَيَّاش بنَ لَهِيعَة بمصر، ويعاتبه (وعياش صاحب شرطة مصر، وهو رجل يماني النسب، كأبي تمام في نسبه الذي ارتضاه لنفسه، وسليل أسرة من القضاة والعلماء، وكان ذا أدب وفقه):

وحَيـاةُ الـقَـريـضِ إحيـاؤُكَ الـجُـو دَ، فإنْ ماتَ الجُودُ، ماتَ القَريضُ

القريض: الشعر

كُن طَويلَ النَّدىَ، عَرِيضاً، فقدْ سا رَ ثَـنـائـي فيكَ الـطـويـلُ الـعَـريـضُ

إنَّـمـا صـارتِ الـبُـحـورُ بُـحُـوراً أنَّـهـا كُلَّـمـا استُفِيضَـتْ تَفِيضُ

البحور: الأنهار، وكانوا يستفيضون النيل (يطلبون فيضانه) بالدعاء أو بشعوذات فرعونية بقيت حتائذ. وقيلت القصيدة في مصر بلد النيل، وكانوا ـ وما يزال كثيرون في مصر ـ يسمون النيل . بحراً، وكان شعراء العرب القدامى يصفون الفرات بالبحر

٢ لو كنت حبلى لولدت

وقال يعاتب عياش بن لَهِيعَة:

قَـتَـلَـتْـهُ سِـرَّاً، ثـم قـالـتْ جَـهْـرَةً قـولَ الـفـرزدقِ: لا بِـظَـبْـيٍ أَعْـفَـرِ

المحبوبة قتلت حبيبها سراً بهجرانها إياه، وقالت شامتة قول الفرزدق: فلتلحق المصيبة به لا يَفدِيَنَّه منها حتى أهون شيء كظبي أعفر (لونه كلون التراب). وبيت الفرزدق: أقولُ لهُ لما أتَاني نَعِيُّهُ/ بِهِ لا بِظَبْيٍ في الصَّرِيمَةِ أعفَرَا

نَظَرَتْ إليهِ، فَما اسْتَتَمَّتْ لَحْظَها حـتـى تَـمَـنَّـتْ أنَّـهـا لـم تَـنْـظُـرِ

يبدو أنها صُدمت لهول منظره، ونحوله الشديد

ورأتْ شُحوباً، رابَها، في جسمِهِ؛ مـاذا يَـرِيـبُـكِ مِـنْ جَـوَادٍ مُـضْـمَـرِ

رابها: أثار ريبتها واستغرابها؛ يفاخر بنحوله وكثرة أسفاره، فهو كالحصان المضمَّر النحيل

مـا إنْ يَـزالُ بِـجَـدٌ حَـزْمٍ مُـقـبِـلٍ مُـتَـوَطِّـئَـاً أعـقـابَ رِزْقٍ مُـدْبِـرِ

يقول الشاعر عن نفسه: ظل بجدٍّ (بحظّ) أساسه الحزم المقبل (الإيجابي) متوطّئاً (ماشياً) في أعقاب (خلف) رزق مدبر (فارّ). يقول: أنا بكل عزم ألاحق رزقاً يفر مني، وحظي ليس حظاً، بل هو إصراري

كـم ظَـهْـرِ مَـرْتٍ مُـقْـفِـرٍ جَـاوَزْتُـهُ، فَـحَـلَـلْـتُ رَبْـعـاً مِـنْـكَ لـيـسَ بِـمُـقْـفِـرِ

ما أكثر ما عبرت ظهر مرت (أرضٍ صحراوية) قفرة، كي أحل في ربعك غير المقفر أيها الممدوح

الفِطْرُ والأَضْحَى قد انْسَلَخَا، ولي أَمَـلٌ بِـبـابِـكَ صَـائِـمٌ لـم يُـفْـطِـرِ

انسلخا: مضيا

عَـامٌ ولـم يُـنْـتِـجْ نَـداكَ، وإنَّـمـا تُـتَـوَقَّـعُ الـحُـبْـلَـى لِـتِـسْـعَـةِ أشـهـرِ

يُنْتِج (يَلِد)

جِشْ لي بِبَحْرٍ واحدٍ، أُغْرِقْكَ في مَدْحٍ أجيشُ له بِسَبْعَةِ أبْحُرِ

جش: تدفق

قَصِّرْ بِبَذْلِكَ عُمْرَ مَطْلِكَ تَحْوِ لي حَمْداً، يُعَمَّرُ عُمْرَ سَبْعَةِ أَنْسُرِ

قصِّر المماطلة بالبذل، تحو لي (تأخذ مني) حمداً شعرياً يعمَّر عمر سبعة نسور. ويضرب المثل بنسور لقمان السبعة التي وعده الله بحياة بقدر أعمارها جميعاً على التعاقب

كم مِنْ كثيرِ البَذْلِ قد جَازَيْتُهُ شُكْراً، بِأَطْيَبَ مِنْ نَدَاهُ وأَكْثَرِ

ما أكثر الأسخياء الذين جازيتهم بمدح أطيب من سخائهم

شَرُّ الأوائلِ والأواخِرِ ذِمَّةٌ لم تُصْطَنَعْ، وصَنِيعَةٌ لم تُشْكَرِ

أسوأ شيء عند الأولين والآخِرين ذمة (عهد) لم يصطنع (لم يُرعَ)، وصنيعة (معروف) لم تُشكَر

٣ كل أمري فيك منتقض

وقال يعاتب عياش بن لهيعة:

ذُلُّ السؤَالِ شَجىً في الحَلْقِ مُعْتَرِضُ مِنْ دونِهِ شَرَقٌ، مِنْ خَلْفِهِ جَرَضُ

شجى (شوكة)، الجرض (غصة الموت)

مَا ماءُ كَفِّكَ، إنْ جَادَتْ وإن بَخِلَتْ، مِنْ ماءِ وَجْهِي، إذا أَفْنَيْتُهُ، عِوَضُ

ماء كفك (عطاؤك) سواء جدت أم بخلت، لا يعوض ماء وجهي (كرامتي) إذا فقدته

مَنْ أَشْتَكِي، وإلى مَنْ أَعْتَزِي، ونَدَى مَنْ أَجْتَدِي؛ كُلُّ أمْرِي فِيكَ مُنْتَقِضُ

أعتزي (أنتسب)، منتقض (مبعثر، مفكك)

٤ المَطُول والملحِف

وقال يعاتب عياشاً:

لا تنسَ تسعةَ أشْهُرٍ أَنْضَيْتُها دَأَباً، وأَنْضَتْنِي إليكَ ونَيِّفَا

أنضيتها: أتعبتها

بِقَصائدٍ لم يَرْزَ بَحْرَكَ وِرْدُها، ولَوِ الصَّفَا وَرَدَتْ، لَفَجَّرَتِ الصَّفَا

قصائد لم يرز (لم ينقص) وردها (ورودها الماء وشربها) بَحْرَك شيئاً، لأنك لم تعطني شيئاً عليها، ولو وردت قصائدي الصفا (الصخر) لفجرت منه ماء

إنِّي أَخافُ بِلَحْظَتي عُقْبَاكَ أنْ   تُدْعَى المَطُولَ، وأنْ أُسَمَّى المُلْحِفَا

إني أخاف بلحظتي (بانتظاري) عقباك (نتيجتك) أن تسمى المطول (المماطِل) وأن أسمى أنا الملحف (الملحّ)

٥ البِشر روض، والعطاء غدير

وقال يعاتب عياش بن لهيعة:

ليس يَدري إلّا اللطيفُ الخبيرُ   أيَّ شَيْءٍ تُطْوَى عليهِ الصدورُ

ويقولونَ: إنَّكَ المرءُ، بالغَيْـ   ـبِ مُحَامٍ عَنِ الصديقِ نَصُورُ

يقولون إنك تدافع عن الصديق وتنصره في غيبته

فإذا جئتُ زَائِراً حَجَبَتْ وَجْـ   ـهَكَ عَنِّي كَآبَةٌ وبُسُورُ

ولكنني آتيك فيحتجب وجهك عني بكآبة وبسور (عبوس)

فَتَطَّلَقْ، مَعَ العِنَايَةِ؛ إنَّ الـ   ـبِشْرَ، في أَكْثَرِ الأمورِ، بَشِيرُ

فتطلق (افرد وجهك) مع العناية (البذل)، فالبشر (البشاشة) بشير بالخير

إنَّ في البِشْرِ رَوْضَةً، فإذا كا   نَ بِبَذْلٍ: فَرَوْضَةٌ وغَدِيرُ

٦ لا رضيتم

وقال يهجو عياش بن لهيعة:

أَشْكَيْتُمُوني، فَلمَّا أنْ شَكَوْتُكُمُ   غَضِبْتُمُ؛ دامَ ذاكَ السُّخْطُ والغَضَبُ!

أشكيتموني (اضطررتموني إلى الشكوى) فلما شكوتكم غضبتم، فلا رضيتم

بَنِي لَهِيعَةَ! مَا بَالِي وبَالُكُمُ،   وفي البِلادِ مَنادِيحٌ ومُضْطَرَبُ

مناديح: بدائل، مضطرَب: مجال للحركة

عَيَّاشُ! مَا لَكَ في أُكْرُومَةٍ أَرَبٌ،   ولا لأُكْرُومَةٍ في سَاقِطٍ أَرَبُ

أرب: حاجة

يا أَكْثَرَ الناسِ وَعْداً، حَشْوُهُ خُلُفٌ،   وأكثرَ الناسِ قولاً، كُلُّهُ كَذِبُ

٧ ظلمتك

وقال يهجو عياش بن لهيعة:

أَعَيَّاشُ ارْعَ، أَوْ لا تَرْعَ، حَقِّي   وَصِلْ، أو لا تَصِلْ، أبداً وَسِيلي

وسيلي: قرابتي (يشير إلى اشتراكهما في النسب اليماني)

وأَعْكَفْتُ المنَى في ذاتِ صَدري عُكُوفَ اللَّحْظِ في الخَدِّ الأسِيلِ

جعلت الأماني مخزونة في صدري لا تتحرك مثلما يثبت النظر في الخد الأسيل (الطويل) متمعناً في جماله

فَصِرْتُ أَذَلَّ مِنْ مَعْنىً دَقيقٍ بِهِ فَقْرٌ إلى ذِهْنٍ جَلِيلِ

فصرت ذليلاً كمعنىً شعريٍّ دقيق لم يتيسر له ذهن جليل لكي يصوغه

فمَا أَدْرِي عَمَايَ عَنِ ارتِيَادي دَهَانِيَ، أَمْ عَمَاكَ عَنِ الجَمِيلِ

لا أدري! هل الذي دهاني هو عماي عن ارتياد المكان الصحيح،
أم عماك أنت عن صنع المعروف

مَتَى طَابَتْ جَنىً، وزَكَتْ فُرُوعٌ إذا كانتْ خَبِيثاتِ الأُصولِ؟

الجنى: الثمر، الفروع: الغصون، الأصول: الجذور

نَدَبْتُكَ لِلْجَزيلِ، وأنتَ لَغْوٌ؛ ظَلَمْتُكَ؛ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الجَزيلِ

ندبتك: دعوتك، الجزيل: العظيم، لغو: ساقط من الحساب

٨ الغيرة على الأرغفة

وقال يهجو عياشاً:

صَدِّقْ أَلِيَّتَهُ، إنْ قال مُجْتَهِداً: لا والرَّغِيفِ! فَذَاكَ البِرُّ مِنْ قَسَمِهْ

صدق أليته (قَسَمَه) إن قال مجتهداً (متحمساً): لا والرغيف!
فعندئذ يكون صادقاً في الحَلف

فإنْ هَمَمْتَ به، فافْتِكْ بِخُبزَتِه، فإن موقِعَها مِنْ لَحْمِهِ ودمِهْ

إن هممت بإيذائه فافتك بخبزته

قد كان يُعجِبُني لو أنَّ غَيْرَتَهُ على جَرَادِقِهِ كانتْ على حُرَمِهْ

الجَرادق: الأرغفة

٩ جردت في ذمِّيك خيل قصائد

يهجو عياش بن لهيعة:

عَيَّاشُ إنَّكَ لَلَئِيمُ، وإنني، مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبي، لَلَئِيمُ

أنت لئيم، وأنا صرت مثلك عندما قصدتك

السُّحْتُ أَطيبُ مِنْ نَوالِكَ مَطْعَماً والـمُـهْـلُ والـغِـسْـلـيـنُ والـزَّقُّـومُ

السحت: المال الحرام، المهل والغسلين والزقوم: هذا كله شراب وطعام أهل النار، ولا حاجة بنا إلى شرحه، وقد اختلف المفسرون فيه

نَـجِـسٌ تُـدَبِّـرُ أمـرَهُ شِـيَـمٌ لـه شُـكُـسٌ، يُـدَبِّـرُ أَمْـرَهُـنَّ الـلُّـومُ

شيمٌ شُكس: صفات نكدة، اللوم: اللؤم

ومَـنـازِلٌ لـم يـبـقَ فـيـهـا سَـاحـةٌ إلَّا وفـيـهـا سَـائـلٌ مـحـرومُ

عَـرَصَـاتُ سُـوءٍ، لـم يَـكُـنَّ لِـسَـيِّـدٍ وَطَـنـاً، ولـم يَـرْتَـعْ بِـهِـنَّ كـريـمُ

عرصات: ساحات

لما بَدا لِيَ مِنْ صَميمِكَ ما بَدا، بل لم يُصَبْ لكَ، لا أُصيبَ، صَميمُ..

لما بدا لي من صميمك (أصلك) ما بدا، بل لم يصب (لم يُعثَر) لك، «وإن شاء الله عمره ما يُعثَر»، على أصل..

جَـرَّدْتُ في ذَمِّـيكَ خيـلَ قَـصـائـدٍ جَـالَـتْ بـكَ الـدنـيـا، وأَنْـتَ مُـقـيمُ

عندئذ جردت (خصصت مفرزة من الجند والخيل) في ذمي إياك خيلاً من القصائد، جالت بك الدنيا وأنت قاعد في مكانك

١٠ أيدٍ صخور وأعراضٌ قوارير

يهجو عياش بن لَهِيعة:

صَـرِّدْ ونَـكِّـدْ وزَنِّـدْ، أنـتَ مَـعْـذُورُ، أُسْـدُ الشَّـرَى ليسَ تَـنْـمِيها الخَـنَـازِيرُ

صرد: خفف العطاء، زند: ضيِّقْ، أسد الشرى: أسود تستوطن مكاناً اسمه «الشرى»، تنميها: تنجبها

أُنْظُرْ إِلَـيْـهِـمْ، كفانا اللّهُ أَمْرَهُمُ: أَيْـدٍ صُـخـورٌ، وأَعْـراضٌ قَـواريـرُ

انظر إلى هؤلاء الأمراء: أيديهم صلبة كالصخر فلا يعطون شيئاً، وأعراضهم هشة كالقوارير (كالزجاج)

١١ القبر المقبور

يهجو عياش بن لَهيعَة بعد موته:

أَعْـزِزْ بِـعَـيَّـاشٍ عَـلَـيَّ مُـغَـيَّـبـاً؛ في غـيـرِ حُـفْـرَتِـه الـحِـجَـا والـخـيـرُ

أعزز علي (ما أصعب الأمر علي) إذ عياش مغيب في قبره؛ تلك حفرة يوجد الحجا (العقل) والخير (الفضل) في غيرها، أي أنه لم يكن عاقلاً ولا فاضلاً

وأَرَى نَكيراً صَدَّ عنكَ، ومُنْكَراً ظَنّاً بِأَنَّكَ مُنْكَرٌ ونَكيرُ
وتَضَوَّرَ القبرُ الذي أُسْكِنْتَهُ حتى ظَنَنّا أنه المقبورُ

تضور: تلوى من الألم

١٢ الغريب.. والعجيب

يهجو يوسف السراج الشاعر المصري:

سمعتُ بكلِّ داهِيَةٍ نَآدٍ ولم أَسْمَعْ بِسَرّاجٍ أَديبِ

سمعت بكل داهية نآد (عظيمة) ولكنني لم أسمع بسراج (صانع سروج) أديب،
فتلك من كبريات الدواهي

أَمَا لو أنَّ جَهْلَكَ كانَ عِلْماً إذنْ لَنَفَذْتَ في عِلْمِ الغُيوبِ
ومَا لَكَ بِالغَريبِ يَدٌ، ولكنْ تَعاطِيكَ الغَريبَ مِنَ الغَريبِ

الغريب: فرع في الدراسات اللغوية والدينية يتناول غريب اللغة، أي ألفاظها المهجورة، وغريب الحديث وغريب القرآن. وعلى ذكر الدراسات فإن الدكتور محمد عبده عزام (ولم يضع لقب دكتور على غلاف كتابه) سها في هذا البيت فرواه «تعاطيك الغريب هو الغريبُ»، وهذه رواية نسخة من النسخ، وهي بالطبع غلط سخيف يمكن لأي تلميذ أن يصححه. سها عزام فنسخها كما هي، ولم يقع في الغلطة محقق شرح الصولي؛ ولكننا ابتلينا بدكتورين آخرين نسخا الغلط بلا أدنى تفكير. بكلمة واحدة: ديوان أبي تمام بحاجة إلى تحقيق، وإلى شرح، ونحن في عملنا هذا نرسل التنبيه إثر التنبيه على وجود هذه الثغرة، ولكننا نعترف بأننا لم نراجع المخطوطات، بل اعتمدنا على أولئك الناسخين الذين يسمي الواحد منهم نفسه محققاً لكي يوافونا بنص الديوان، وانظر ماذا يفعلون! ولست أشك طرفة عين في أنني سهوت في شرحي لهذه المجموعة في أكثر من موضع؛ لكن السهو شيء، والإهمال شيء

١٣ الشامي المغترب في مصر

يصف تعذر الرزق عليه بمصر:

أَصِبْ بِحُمَيّا كأسِها مَقتَلَ العَذْلِ تَكُنْ عِوَضاً، إنْ عَنَّفُوكَ، مِنَ التَّبْلِ

أصب بحميًا (بشدة) الخمر مقتل العذل (اللوم)، تكن هذه الخمر عوضاً لك من التبل (الانتقام) إن عنفوك ووبخوك على سلوكك. يقول: اقتل اللوم بشربك الخمر فهي انتقامك من لومهم، فأنت تسكر ولا تدرك توبيخهم فكأنك قتلته

وكأسٍ كَمَعْسُولِ الأماني شرِبتُها ولكنها أَجْلَتْ، وقد شَرِبَتْ عَقلي

أجلت: انكشفت، بمعنى فرغت الكأس

إذا عُوتِبَتْ بالماءِ، كان اعتذارُها لهيباً، كوَقْعِ النارِ في الحَطَبِ الجَزْلِ

يعاتبون الخمرة بالماء (يمزجونها)، فتعتذر عن عتابهم بلهيب (لونها يتوهج)، كاللهيب الذي يبدو عندما تتقد النار في الحطب الجزل (الصلب)

إذا هِيَ دَبَّتْ في الفتَى، خالَ جسمَه، لِما دَبَّ فيهِ، قَرْيَةً مِنْ قُرَى النَّمْلِ

دبيب الخمر في الجسم يجعلك تشعر هكذا، تنميل في كل الجسم

إذا ذَاقَها، وَهْيَ الحَياةُ، رأَيْتَهُ يُعَبِّسُ تَعبِيسَ المقَدَّمِ للقَتْلِ

يذوق الفتى الخمر، أول رشفة، فتقبض مرارتها ومُزوزتُها قسمات وجهه، ويعبس كأنما جيء به ليقتل

إذا اليَدُ نالَتْها بِوِتْرٍ تَوَقَّرَتْ على ضِغْنِها، ثم اسْتَقَادَتْ مِنَ الرِّجْلِ

إذا نالت اليد الخمرةَ بوتر (سببت لها ما يوجب الثأر) توقرت الخمرة (ادّعت الوقار) على ضغنها (رغم حقدها) ثم استقادت (انتقمت) من الرِّجل. يقول: يدك ترتكب جريمة في الخمرة بمزجها، ومزج الخمرة قتل لها في عرف شعراء العرب، فتمكث الخمرة برهة كاتمة حقدها، ثم تدب في جسمك، وتنتقم من رجليك إذ تجعل مِشيتك صعبة

سَقَى الرائِحُ الغَادِي المهَجِّرُ بَلْدَةً سَقَتْنِيَ أَنْفَاسَ الصَّبَابَةِ، والخَبْلِ

سقى السحاب الرائح (المقبل ليلاً) الغادي (المقبل صباحاً) المهجر (المقبل في الهاجرة أي ظهراً)، سقى بلدة (وسنعرف لاحقاً أن هذه البلدة هي موطنه في الشام) كانت سقتني أنفاس الصبابة (العشق) والخبل (جنون الغرام)

سَحَابٌ، إذا أَلْقَتْ على خِلْفِهِ الصَّبَا يَداً، قَالَتِ الدُّنيا: أَتَى قَاتِلُ المَحْلِ

هذا سحابٌ إذا ألقت ريح الصبا يدها على خِلفه (ضرعه/ثديه) فكأن الريح تريد أن تحلبه، عندئذ تقول الدنيا أتى قاتل المحل

إذا ما ارْتَدَى بِالبَرْقِ، لم يَزَلِ النَّدَى له تَبَعاً، أو يَرْتَدِي الرَّوْضُ بِالبَقْلِ

يرتدي السحاب حلة بلمعان البرق فيه، فيظل الندى، أي المطر، متواصلاً إلى أن يرتدي الروض بالبقل، أي العشب

ترى الأرضَ تَهْتَزُّ ارتياحاً لِوَقْعِهِ كما ارتاحتِ البِكْرُ الهَدِيُّ إلى البَعْلِ

ترتاح الأرض لوقع المطر كما ترتاح ـ يزعم أبو تمام ـ البكر (العذراء) الهديُّ (المهداة إلى زوجها) للبعل (للزوج)

فلم يُبْقِ مِنْ أَرْضِ البِقَاعَيْنِ بُقْعَةً وجادَ قُرَى الجَوْلانَ بِالمُسْبِلِ الوَبْلِ

لم يبق المطر بقعة بأرض البقاعين إلا رواها، وجاد (أمطر/و«الجوْد» المطر) قرى الجولان بالمسبل (المنساب)، الوبل (الهاطل)

البقاع في لبنان الآن بقاع شمالي وبقاع جنوبي، وكانا في عصر أبي تمام بقاع لبنان وبقاع بعلبك

بِنَفْسِيَ أَرْضُ الشَّامِ، لا أَيْمَنُ الحِمَى، ولا أَيْسَرُ الدَّهْنَا، ولا وَسَطُ الرَّمْلِ

يفدي أرض الشام، دون غيرها من بلاد العرب

ولم أَرَ مِثْلي، مُسْتَهَاماً بِمِثْلِكُمْ، له مِثْلُ قلبي، فيهِ ما فيهِ، لا يَغْلي

لم أر مثلي مستهاماً (مغرماً) بمثلكم، وله قلب كقلبي، وفيه من الشوق ما فيه، ولا يغلي غلياناً

نَأَيْتُ: فلا مَالاً حَوَيْتُ، ولم أُقِمْ فَأُمْتَعَ، إذْ فُجِّعْتُ بِالمالِ والأَهْلِ

نأيت (بعُدت) فلا مالاً حويت (حُزت)، ولم أقم (أمكث) فأستمتع بمكوثي (في مصر) بعد أن فجعت (حزنت) بعدم المال ومفارقة الأهل

بَخِلْتُ على عِرضي بِمَا فيهِ صَوْنُهُ رَجَاءَ اجْتِنَاءِ الجُودِ مِنْ شَجَرِ البُخْلِ

ولو أَنَّني أَعْطَيْتُ يَأسي نَصِيبَهُ، إذنْ لأَخَذْتُ الحَزْمَ مِنْ مَأْخَذٍ سَهْلِ

لو أعطيت اليأس نصيبه من الاعتبار (لو يئست باكراً من الارتزاق في مصر)، لكنت حازماً

١٤ فما يهتدي إلا لأصغرها الشعر

يفخر بقومه عند انصرافه من مصر:

بكَتْهُ بِمَا أَبْكَتْهُ أيامَ صَدْرُها خَلِيٌّ، وما يَخْلُو له مِنْ جَوىً صَدْرُ

عندما عزم على الرحيل بكته المحبوبة بدموع كانت أبكته بمثلها عندما كان صدرها خلياً، وكان هو آنذاك عاشقاً وفي صدره جوى (ألم)

وقالتْ أَتَنْسَى البدرَ؟ قُلْتُ، تَجَلُّداً: إذا الشمسُ لم تَغْرُبْ، فَلا طَلَعَ البَدْرُ

قالت: أتنسى البدر (تعني نفسها)، فقال تجلداً (متصنعاً الصبر): إذا الشمس لم تغرب، فلا طلع البدر (إذا كان طموحي موجوداً فلا أبالي بالنساء)

وَمَا الدَّمْعُ ثَانٍ عَزْمَتي، وَلَوَ انَّهَا سَقَى خَدَّها، مِنْ كُلِّ عينٍ لَهَا، نَهْرُ

جَمَعْتُ شَعَاعَ الرأْيِ، ثم وَسَمْتُهُ بِحَزْمٍ، له في كُلِّ مُظْلِمَةٍ فَجْرُ

جمعت شَعاع الرأي (ما تفرق منه)، ثم وسمته (ختمت عليه) بحزم يضيء كل مظلمة (ليلة مظلمة) ويحيلها فجراً

وصَارَعْتُ عَنْ مِصْرٍ رَجَائِي، ولم يَكُنْ لِيَصْرَعَ عَزْمِي غيرَ مَا صَرَعَتْ مِصْرُ

صارعت رجائي في تحصيل المجد بمصر، وما كان عزمي ليصرَع غيرَ الرجاء الباطل الذي صرعته مصر في صدري

وما القَفْرُ بِالبيدِ القَواءِ، بَلِ التي نَبَتْ بي، وفيها ساكِنُوها، هِيَ القَفْرُ

ليس القفر هو البيداء القواء (الخالية)؛ بل البلد التي نبت بي (لفظتني)، بينما ساكنوها فيها، **هي** القفر الحقيقي. بعد مئة سنة سيقول المتنبي مثل ذلك

ومَنْ قَامَرَ الأيامَ عَنْ ثَمَراتِها، فَأَحْجِ بِهَا أنْ تَنْجَلي، ولَهَا القَمْرُ

ومن قامر الأيام (لعب معها القمار ليفوز بخيراتها)، فأحج بها (حريٌّ بالأيام) أن تنجلي ولها القمْر (أن تنكشف ولها الفوز)

مَقامَاتُنا وَقْفٌ على الحِلْمِ والحِجَا، فَأَمْرَدُنا كَهْلٌ، وأَشْيَبُنا حَبْرُ

مقاماتنا (مواقفنا) وقف على الحلم والحجا (مخصوصة برجاحة العقل)؛ فأمردنا (فتانا الذي لم تظهر لحيته) كهل في رجاحة عقله، وأشيبنا حبر (عالم كبير)

أَلَنَّا الأَكُفَّ بِالعَطاءِ، فجاوَزَتْ مَدَى اللِّينِ، إلَّا أنَّ أَعْرَاضَنا الصَّخْرُ

ألنَّا أكفنا بالعطاء (جعلناها لينة تعطي الآخرين) حتى الغاية القصوى، بيد أن أعراضنا صخر

إذا زينَةُ الدنيا مِنَ المالِ أَعْرَضَتْ، فَأَزْيَنُ منها، عِندَنا، الحَمْدُ والشكرُ

أَبَى قَدْرُنا في الجُودِ إلَّا نَباهَةً، فليسَ لِمَالٍ عندنا أبداً قَدْرُ

لِيُنْجِحْ بِجُودٍ مَنْ أرادَ، فإنَّهُ عَوَانٌ لِهَذا الناسِ، وهْوَ لَنا بِكْرُ

ليُنجحْ بجود (ليحقق مجده بالسخاء) من أراد، فالسخاء عوان للناس (مستعمَل غير جديد/ والعوان المرأة التي سبق لها الزواج)، وهو بكر لنا (أي أننا نحن بدأناه/ والبكر العذراء)

جَرى حَاتِمٌ في حَلْبَةٍ منه، لو جَرى بها القَطْرُ شَأْواً، قِيلَ أيُّهُما القَطْرُ

جرى حاتم الطائي في حلبة من الجود لو جرى بها القطر (المطر) شأواً (شوطاً) لساوى حاتماً ولم يزد عليه

فتىً، ذَخَرَ الدُّنيا أُناسٌ، ولم يَزَلْ لها بَاذِلاً، فانظُرْ: لِمَنْ بقِيَ الذُّخْرُ

الناس ذخروا الدنيا (اكتنزوا المال) وحاتم بذله، فبقي لحاتم وحده كنزٌ من السمعة الطيبة

فَمَنْ شاءَ فَلْيَفْخَرْ بِمَا شاءَ مِنْ نَدىً؛ فليسَ لِحَيٍّ، غَيْرَنا، ذلكَ الفخرُ

جمعنا العُلى بالجُودِ بعدَ افتراقِها إلَيْنا، كما الأيامُ يجمعُها الشَّهْرُ

جمعنا بجودنا أطراف المعالي إلينا

بِنَجْدَتِنا أَلْقَتْ بِنَجْدٍ بَعَاعَها سَحَابُ المنَايَا، وَهْيَ مُظْلِمَةٌ كُدْرُ

ولنا نجدة (معونة في الحرب) وبنجدتنا ألقت سحب الموت في نجد بعاعها (وابلها)، وهي سحب سود مكدرة اللون

بِخَيْلٍ لِزَيْدِ الخَيْلِ، فيها فَوَارِسٌ إذا نَطَقُوا في مَشْهَدٍ خَرِسَ الدهرُ

حدث هذا بخيل لزيد الخيل (فارس طيء المشهور) وهذه الخيل فيها فوارس (فرسان) ينطقون بالسيوف والرماح في مشهد الحرب، فيخرس الدهر

مَساعٍ يَضِلُّ الشعرُ في كُنْهِ وَصْفِها فَما يهتَدِي، إلَّا لأَصْغَرِها، الشِّعْرُ

هذه مساعٍ (أمجاد) يضل (يضيع) الشعر في كنه وصفها (حقيقة صفتها)، وكل ما قيل فهو وصف لأصغرها فقط

١٥ مجد طيِّء

وقال يصف قومه ويفتخر بهم:

أَلا صَنَعَ البينُ الذي هُوَ صانِعُ فإِنْ تَكُ مِجْزَاعاً، فَمَا الدهرُ جَازِعُ

أُسِيءُ على الدَّهرِ الثَّنَاءَ، فقد قَضَى عَلَيَّ بِجَوْرٍ صَرْفُهُ المتَتَابِعُ

أسيء الثناء (أعيب)

وعَاوٍ عَوَى، والمجْدُ بيْني وبينَه له حَاجِزٌ دُوني، ورُكْنٌ مُدَافِعُ

وعاوٍ عوى (رب هاجٍ يهجوني)، ومجدي حاجز يحول بيني وبينه، ويدفعه عني بلا تعب من جانبي

أَنَا ابنُ الذينَ اسْتُرْضِعَ الجودُ فِيهِمُ، وسُمِّيَ فِيهِمْ، وهْوَ كَهْلٌ ويَافِعُ

استرضع الجود فيهم (كان عندهم رضيعاً) واتَّخذ عندهم اسمه، وظل فيهم يافعاً وكهلاً

سَما بِيَ أَوْسٌ في السَّماءِ، وحَاتِمٌ وزَيْدُ القَنا، والأَثْرَمَانِ، ورَافِعُ

ارتفع بي إلى السماء هؤلاء الأجداد

وكانَ إِياسٌ ـ ما إِيَاسٌ ـ وعَارِقٌ، وحَارِثَةٌ، أَوْفَى الوَرَى، والأَصَامِعُ

الأصامع: حي من طيء

نُجُومٌ طَوَالِعٌ، جِبَالٌ فَوارِعٌ غُيوثٌ هَوامِعٌ، سُيولٌ دَوَافِعُ

فوارع: عالية، غيوث هوامع: أمطار هاطلة، سيول دوافع: متدفقة. يتجمل أبو تمام بهذا الزحاف الجاهلي الذي لم يعد أحد يركبه في العصر العباسي. لكن الرجل يحب أن «يتبدَّى»، نسبة إلى البادية؛ ويريدنا أن نحلف بالله العظيم أننا نصدق نسبته إلى قبيلة طيء. وسنجده في الطويل أحياناً، وفي البسيط كثيراً، يركب هذا الزحاف المستكره المهجور. وقد أسرع محقق «هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام» إلى «تصحيح» الكلمتين اللتين وقع فيهما الزحاف فجعلهما «طواليع» و«هواميع». وقال في الحاشية إن البيت مكسور. ولا نرى إلا أن شاعرنا كبر وهلل عندما جاءته هذه السجعة الداخلية المزدوجة (التجزئة بحسب مصطلح صفي الدين الحلي)، ولما رآها تقتضيه زحافاً عتيقاً كبر وهلل مرة أخرى

مَضَوْا، وكَأَنَّ المَكْرُمَاتِ لديْهِمُ، لِكَثْرَةِ ما أَوْصَوْا بِهِنَّ، شَرائِعُ
فَأَيُّ يَدٍ في المجدِ مُدَّتْ، فلمْ تَكُنْ لها راحَةٌ مِنْ جُودِهِمْ وأَصَابِعُ
هُمُ اسْتَوْدَعُوا المعروفَ مَحْفُوظَ مالِنا، فَضَاعَ، وما ضَاعَتْ لديْنَا الوَدائِعُ

وضعوا مالنا المحفوظ وديعة عند المعروف، فضيع المعروف المال لسخائنا، ولكننا لا نضيع ودائع الناس وحقوقهم

بَهَالِيلُ، لو عايَنْتَ فَضْلَ أَكُفِّهِمْ لأَيْقَنْتَ أنَّ الرِّزْقَ في الأرضِ واسِعُ

بهاليل: سادة كرام، ترى فضل أكفهم (ما ينفقون) فتحسب أن الرزق واسع في الدنيا

إذا طَيِّءٌ لم تَطْوِ مَنْشُورَ بَأْسِها فَأَنْفُ الذي يُهْدي لَهَا السُّخْطَ جَادِعُ

إذا لم تطوِ طيء بأسها، بل نشرته، فهي تجدع أنف من يسبب لها السخط (تقطعه إذلالاً له).
والأنف الجادع: أي المجدوع

بِكُلِّ فَتىً: ما شابَ مِنْ رَوْعِ وَقْعَةٍ، ولكنَّهُ قد شِبْنَ منهُ الوَقَائِعُ

تصنع طيء ذلك بفتيان لا يشيبون من روع وقعة (خوف معركة)، ولكن المعارك تشيب من شجاعتهم

إذا ما أَغارُوا، فاحْتَوَوْا مالَ معشرٍ، أغارتْ عليْهِمْ، فاحتَوَتْهُ، الصَّنَائِعُ

يغيرون غازين فيحتوون مال القبائل (المال هو الإبل)،
ثم تغير عليهم الصنائع (المعروف) فتسلبهم المال

فَتُعْطِي، الذي تُعْطِيهِمُ الخيلُ والقَنَا، أَكُفٌّ لإرْثِ المَكْرُمَاتِ مَوانِعُ

أكفهم الحامية لإرث المكارم تعطي الناس المال الذي أعطتهم إياه الخيل الغازية والقنا (الرماح)

يَمُدُّونَ بالبِيضِ القَواطِعِ أيْدِياً، وهُنَّ سَوَاءٌ والسيوفُ القَواطِعُ

يمدون بالبيض القواطع (بالسيوف) أيدياً هي في عزمها كالسيوف

إذا أَسَرُوا، لم يَأْسُرِ البأسُ عفوَهُمْ، ولم يُمْسِ عَانٍ فيهِمُ وهْوَ كَانِعُ

يأسرون الرجال في الحرب، ولكن عفوهم ليس أسيراً، ولا يبيت العاني (الأسير) فيهم كانعاً (منقبض النفس)

إذا أَطْلَقُوا عنهُ جَوامِعَ غُلِّهِ تَيَقَّنَ أنَّ المَنَّ أيضاً جَوامِعُ

إذا أطلقوا عنه جوامع غله (قيوده) أصبح متيقناً أن المن (الإحسان) هو أيضاً جوامع (قيود)..
والمرء يقيد أخاه، أو خصمه، بإحسانه إليه

ألا إنَّ نَفْسَ الشِّعْرِ مَاتَتْ، وإنْ يَكُنْ عَدَاها حِمَامُ الموتِ، فَهْيِ تُنَازِعُ

عداها (تجاوزها)

سأَبْكِي القوافيِ بالقوافيِ، فإنَّها عليها ـ ولم تَظْلِمْ بِذَاكَ ـ جَوازِعُ

جوازع: حزينة

كَشَفْتُ قِناعَ الشِّعْرِ عن حُرِّ وجهِهِ وطَيَّرْتُهُ عن وَكْرِهِ، وهْوَ وَاقِعُ

كشفت القناع عن حر وجه الشعر (صفحة وجهه البارزة)، وطيرت الشعر عن وكره بعد أن كان واقعاً (هابطاً غير محلق)

بِغُرٍّ يَراها مَنْ يَرَاها بِسَمْعِهِ، فَيَدْنُو إليْها ذوُ الحِجَا، وَهْوَ شَاسِعُ

بغر: بقصائد غراء، الحجا: العقل

يَوَدُّ وِدَاداً أَنَّ أعضاءَ جسمِهِ، إذا أُنشِدَتْ، شَوقاً إليْها، مَسَامِعُ

١٦ أدركتني حرفة الأدب

ما يَحْسِمُ العقلُ، والدنيا تُسَاسُ بِهِ، مَا يَحْسِمُ الصبرُ في الأحداثِ والنُّوَبِ

النوب: المصائب

الصبرُ كاسٍ، وبَطْنُ الكَفِّ عَارِيةٌ؛ والعقلُ عَارٍ، إذا لم يُكْسَ بِالنَّشَبِ

الصبر يكون كاسياً (لابساً/ مستوراً) حتى وبطن الكف عارية من المال، والعقل يظل عارياً بدون النشب (المال)

ما أَضْيَعَ العقلَ إنْ لم يَرْعَ ضَيْعَتَهُ وَفْرٌ، وأَيُّ رَحىً دَارَتْ بِلا قُطُبِ

ضائع هو العقل (الذكاء والفهم والكياسة) إن لم يرعَ (يحفظ) ضيعته (قريته) وفر (مال)، ورحى الطاحونة لا تدور بغير قطب (محور)

كم ذُقْتُ في الدَّهرِ مِنْ عُسْرٍ ومن يُسُرٍ، وفي بَنِي الدهرِ مِنْ رَأْسٍ ومِنْ ذَنَبِ

أُغْضِي، إذا صَرْفُهُ لم تُغْضِ سَوْرَتُهُ عَنِّي، وأَرضَى إذا ما لَجَّ في الغَضَبِ

أغضي (أتغاضى) عندما لا تتغاضى سوْرة (هجمة) الدهر عني، وعندما يلجُّ (يبالغ) الدهر في الغضب فإنني أرضى

وإنْ بُلِيتُ بِجِدٍّ مِنْ حُزُونَتِهِ سَهَّلْتُهُ، فَكَأَنِّي مِنْهُ في لَعِبِ

إن كان الدهر جاداً في حزونته (وعورته)
فإنني أسهِّل الأمر فيبدو كأنني في لعب (مزاح)

مُقَصِّرٌ خَطَرَاتِ الهَمِّ في بَدَنِي، عِلْماً بِأَنِّيَ مَا قَصَّرْتُ في الطَّلَبِ

أقصِّر بذلك خطرات (جولات) الهم في بدني، علماً بأنني حاولت، وما قصرت

مـاذا عَـلَـيَّ، إذا مـا لـم يَـزُل وَتَـرِي   في الرَّمْيِ، أَنْ زُلْنَ أَغْراضِي فَلَمْ أُصِبِ؟

ماذا عليَّ (ما ذنبي) إذا لم يزل (لم ينقطع) وتر قوسي وأنا أرمي، ولكن أغراضي (الأهداف) نفسها زالت، فلذلك لم أصب؟

فـي كـلِّ يـومٍ أَظَـافـيـرِي مُـفَـلَّـلَـةٌ   تَسْتَنْبِطُ الصُّفْرَ لِي مِنْ مَعْدِنِ الذَّهَبِ

مفللة: مثلَّمة، تستنبط: تستخرج، الصفر: النحاس، معدن الذهب: خاماته في منجمه. يقول: أحفر منجم الذهب وتتثلم أظافري، ولا يخرج لي إلا النحاس

إذا قَـصَـدْتُ لِـشَـأْوٍ، خِـلْـتُ أَنِّيَ قـد   أَدْرَكْـتُـهُ، أَدْرَكَـتْـنـي حِـرْفَـةُ الأدبِ

إذا قصدت لشأو (لغاية) أظن نفسي أدركته (حققته)، أدركتني (لحقت بي) حرفة الأدب (لعنة الاشتغال بالأدب)

مـا آبَ مَـنْ آبَ لـم يَـظْـفَـرْ بِـبُـغْـيَـتِـهِ؛   ولـم يَـغِـبْ طَـالِـبٌ لـلـنُّـجْـحِ لـم يَـخِـبِ

بعبارته الملتوية يقول شاعرنا: الذي رجع غير ظافر ببغيته (طلبه) فكأنه ما آب (رجع)؛ والذي طلب النجح (تحقيق المبتغى) وأنجزه بلا خيبة فكأنه ما غاب عن أهله ولا تجشم عناء السفر. يقول: العائد فاشلاً كأنه لم يعد إلى وطنه، والذي نجح فكأنه لم يغترب ولم يواجه المشقات. وبعبارة أوجز: الناجح كأنه ما غاب، والفاشل كأنه ما آب

١٧ منَّا أميرها

هلِ اجْـتَـمـعـتْ عُـلْـيَـا مَـعَـدٍّ ومَـذْحِـجٍ   بِـمُـلْـتَـحَـمٍ، إلَّا ومِـنَّـا أَمـيـرُهـا؟

هل اجتمعت عليا معد ومذحِج (أشرف قبائلٍ معد العدنانية ومذحجٍ اليمانية) بملتحم (بمعركة) إلا وأميرها من قبيلتنا طيء؟

بلِ اليَمَنُ اسْتَعْلَتْ لَدَى كلِّ مَوْطِنٍ،   وصَـارَ لِـطَـيْءٍ تـاجُـهـا وسَـريـرُهـا

السرير (العرش)

مُـحَـرَّمَـةٌ أَكْـفَـالُ خَـيْـلِـيَ فـي الـوَغـى   ومَـكْـلُـومَـةٌ لَـبَّـاتُـهـا ونُـحُـورُهـا

محرمة (محمية من الإصابة) أكفال خيلي (مؤخراتها) لأنني لا أفرُّ، ومكلومة (جريحة) لباتها (صدورها) ونحورها (ما فوق الصدر) لأنني دائماً أواجه الأعداء

١٨ الرئيس والمرؤوس

وقال يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي، وكتب بها إليه:

إِيـهـاً دمـشـقُ! فـقـد حَـوَيْـتِ مَـكـارمـاً   بِـأَبـي الـمُـغـيـثِ، وسُـؤدَداً قُـدْمُـوسـا

إيهاً دمشق (زيدينا يا دمشق)، فقد ضممت، بوجود أبي المغيث، مكارمَ وسؤدداً قدموساً (قديماً)

وأرى الزمانَ غَدا عليكِ بِوَجْهِه جَذلانَ بَسَّاماً، وكان عَبوسا

نظر الزمن إليك بوجهه جذلان (فرحاً) باسماً، وكان من قبل عبوساً

لم يَشعُروا حتى طَلَعْتَ عليْهِمُ بَدراً، يَشُقُّ الظُّلْمَةَ الحِنْدِيسا

لم يشعروا إلّا وقد طلعتَ عليهم مثل البدر الذي يشق الظلمة الحنديس (الشديدة)

ما في النجومِ سوى تَعِلَّةِ باطِلٍ قَدُمَتْ، وأُسِّسَ إفكُها تَأسِيسا

قراءة العرافين حركات النجوم هي منذ القدم تعلة باطل (سبب باطل لوقوع الأحداث المقبلة)، وإفكها (كذبها) مؤسس تأسيساً في الأذهان

إن الملوكَ هُمُ كواكِبُنا التي تَخْفَى وتَطْلُعُ، أَسْعُداً ونُحُوسا

الملوك (الولاة) هم كواكبنا التي تجلب السعد أو النحس. وكانوا يمدحون الوالي بأنه مسبب للخير وللشر معاً، وبأنه يمنح ويمنع

فِتَنٌ جَلَوْتَ ظَلامَها، منْ بَعدِ ما مَدُّوا عُيوناً نحوَها، ورُؤُوسا

تلك كانت فتناً جلوت (أزلت) ظلامها، من بعد ما مدوا نحو الفتن عيونهم ورؤوسهم، فكلٌّ يريد أن يستفيد من الأوضاع المضطربة

كم بينَ قومٍ: إنما نَفَقاتُهُمْ مَالٌ، وقومٍ ينفقونَ نُفوسا

ما أكبر الفارق بين قوم ينفقون من مالهم، وبين قوم ينفقون نفوسهم ويخاطرون في المعارك

سارَ ابنُ إبراهيمَ، مُوسى، سِيرةً سَكَنَ الزمانُ لها، وكانَ شَمُوسَا

سيرته الحسنة هدَّأت الأحوال، وكان الزمان قبله شموساً (معانداً)

أَلْوَىً، يُذِلُّ الصَّعْبَ إن هُوَ سَاسَهُ، ويَلِينُ جانبُه إذا ما سِيسا

الممدوح ألوى (شديد)، يذل البعير الصعب إن ساسه (روَّضه)، ـ يقصد أنه يجعل الخصم ذلولاً منقاداً للطاعة ـ ولكن الممدوح في الوقت نفسه يلين لمن يكون رئيساً له فهو منضبط

مَنْ لم يُقَدْ، فَيَطِيرَ في خَيْشُومِه رَهَجُ الخَميسِ، فَلَنْ يَقودَ خَمِيسا

من لم يكن جندياً مَقوداً، ولم يجرب كيف يطير رهج الخميس (غبار الجيش) في خيشومه (أنفه)، فلن يستطيع قيادة جيش

١٩ المدّاح المحترف

يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي:

الآن جُرِّدَتِ المدائحُ، وانتهَى فَيْضُ القَرِيضِ إلى عُبابِ الوَادي

الآن جردنا قصائد المدح (استللناها كالسيوف)، وانتهى (وصل) فيض القريض (الشعر) إلى عباب الوادي (خضم الوادي/أي إلى الممدوح الذي هو وادي الجود)

وتَبَجَّسَتْ لِلجُودِ مِنْ نَفَحاتِهِ   قُلُبٌ يَكَدْنَ يَقُلْنَ: هَلْ مِنْ صَادِ؟

تبجست (تفجرت) للكرم من نفحاته (عطاياه) قُلُبٌ (آبار) تكاد لغزارة مياهها تقول: هل بقي من صاد (عطشان) لم يشرب بعد؟

لم أُبْقِ حَلْبَةَ مَنطِقٍ إلَّا وقد   سَبَقَتْ سوابقَها إليكَ جِيَادي

لم أترك حلبة منطق (قول) إلا وقد سبقتْ سوابقَ هذه الحلبة (جيادَها السابقة) جيادي أنا (قصائدي)

أَبقَيْنَ في أعناقِ جودِكَ جَوْهَراً   أَبْقَى من الأَطواقِ في الأَجْيادِ

هذه القصائد هي جواهر في أعناق كرمك، وستدوم أكثر من أطواق الأجياد (الرقاب). فطوق عنق الحمامة خِلقة ولا يزول كباقي الأطواق

٢٠ صحراء عليها باب

يهجو أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي:

فَاضَ اللِّئَامُ، وغَاضَتِ الأَحْسَابُ   واجْتُثَّتِ العَلْيَاءُ، والآدابُ

غاضت: نشفت؛ الأحساب: الأمجاد، اجتُثت: اقتُلعت

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ حِجَابَهُ،   ما بَالُ لاشَيْءٍ عليه حِجَابُ؟

هب (افرِض) أن من عنده سلطة يريد وضع حاجب على بابه، فما بال الذي يملك «لاشيء» قد وضع عليه حجاباً؟

ما إنْ سَمِعْتُ، ولا أَرَانيَ سَامِعاً،   أبداً بِصَحْراءٍ عليها بابُ

مَنْ كانَ مفقودَ الحياءِ، فوجْهُهُ،   مِنْ غيرِ بَوَّابٍ، له بَوَّابُ

٢١ أمدحك مع الخلق وأهجوك وحدي

وقال يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي، ويعتذر إليه:

أَتاني معَ الرُّكْبانِ ظَنٌّ ظُنِنْتُهُ،   لَفَفْتُ له رأسي حَيَاءً منَ المجدِ

جاءني مع الركبان (الوافدين) ظن (تهمة) ظُنِنتها (اتُهِمتُ بها) فغطيت وجهي خجلاً من مجدك

وكيفَ! وما أَخْلَلْتُ بعدَكَ بالحِجَا،   وأنتَ، فَلَمْ تُخْلِلْ بِمَكْرُمَةٍ بَعدي؟

وكيف يكون ذلك، وأنا ما أخللت (قصرت) بالحجا (التعقل)، وأنت لم تخلل بالمكارم؟

أَأُلْبِسُ هُجْرَ القولِ مَنْ لو هجوْتُهُ   إذنْ لَهَجَاني عنه معروفُه عِندي؟

فهل يمكنني أن أُلبس (أكسو) هجر القول (القول المعيب/الهجاء) شخصاً لو هجوته لكان معروفه إليَّ هجاء لي

كريمٌ متى أمدحْهُ أمدحْهُ والوَرى معي، ومتى ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وحدي

ولو لم يَزَعْني عنكَ غيرَكَ وازعٌ لأَعْدَيْتَني بالحِلمِ، إنَّ العُلَى تُعْدي

لو لم يزعني (يردعني) عن ذلك الهجاء المزعوم وازع (رادع) سواك، لكان كافياً أنك نقلت إليَّ عدوى الحلم، والعلى (المكارم) تعدي

أَرُدُّ يَدي عن عِرْضِ حُرٍّ ومَنْطِقي، وأَمْلأُها مِنْ لِبْدَةِ الأَسَدِ الوَرْدِ

خير لي أن أضع يدي في لبدة (فروة رأس) الأسد الورد (الضارب للحمرة) من أن أمس بها عرض رجل حر، أو أن أتعرض له بمنطقي (بقولي)

٢٢ رياض الباطل

يهجو موسى بن إبراهيم الرافقي:

كم مِنْ لَئيمٍ قد غَزَتْهُ قصائِدي ودَأَبْنَ فيه، فَمَا ظَفِرْنَ بِطائِلِ

غزوته بالقصائد محاولاً نيل عطائه، عبثاً

لا خَفَّفَ الرحمنُ عنِّيَ، إنَّني أَرْتَعْتُ ظَنِّيَ في رِياضِ الباطِلِ

أرتعت ظني: جعلته يرتع ويرعى

ما أَنْسَلَتْ حَوَّاءُ أَحْمَقَ لِحْيَةً مِنْ سَائِلٍ يَرجوُ الغِنَى مِنْ سَائِلِ

سائل: مستجدٍ

٢٣ السلام عليك، يا أبا تمام!

وقال في سياق مدح أبي نصر سلميان بن نصر، وقالها في حمص:

كُلُّ فَدْمٍ أَخافُ حينَ أَراهُ مُقْبِلاً أَنْ يَشُجَّني بالسَّلامِ

فدم: غبي، يشجني: يجرح رأسي

رافِعاً كَفَّهُ لِبِرِّي، فَلا أَحْـ ـسَبُهُ جاءَني لِغَيْرِ اللِّطَامِ

لبري: للإحسان إليَّ بطرح السلام، اللطام: الصفع

٢٤ ما كل رؤيا تصدق

وقال يهجو عتبة بن أبي عاصم، شاعر أهل حمص:

أَخَرِسْتَ إذْ عايَنْتَني، حتى إذا مَا غِبْتَ عنْ بَصَري، ظَلِلْتَ تَشَدَّقُ

عندما رأيتني سكتَّ، حتى إذا ما ابتعدتُ عنك ظللت تتشدق (تتفاصح) بالكلام

عَيْرٌ رَأَى أَسَدَ العَرِينِ، فَهَالَهُ حتى إذا وَلَّى، تَوَلَّى يَنْهَقُ

أنت كالعير (الحمار) الذي رأى أسد العرين فهاله، فلما ولّى الأسد تولّى (بدأ) الحمار ينهق

هَيهاتَ! غالَكَ أنْ تَنالَ مآثِري إسْتٌ بِها سَعَةٌ، وبَاعٌ ضَيِّقُ

بُعْدَكَ! لقد غالك (أهلكك) قبل أن تصل إلى مآثري (أفعالي) فقحة واسعة (فأنت ممن يلاط به) وباع ضيق (قَدْر سافل)

وتَنَقُّلٌ مِنْ مَعْشَرٍ في مَعْشَرٍ، فَكَأَنَّ أُمَّكَ أو أباكَ الزِّئْبَقُ

وأعجزك عني تنقلك بين الأقوام في النسب، لأنك دعيّ

وفُسُوقُ والِدَةٍ، حَسَتْ جُرَعَ الرَّدَى، وأَظُنُّها في اللَّحدِ أيضاً تَفْسِقُ

حست جرع الردى: لعقت جرعات الموت

جَدْعاً لآنُفِ طَيِّءٍ إنْ فُتَّها، ولَوَ انَّ رُوحَكَ بالسَّمَاءِ مُعَلَّقُ

فلتُجدعْ (لتقطعْ) أنوف قبيلة طيء إن كنت ممن يفوتها ويسبقها

إنـي أَرَاكَ حَلُمْتَ أنَّكَ سالم مِنْ بَطْشِهِمْ؛ ما كلُّ رُؤْيَا تَصْدُقُ

إيَّاكَ يَعنِي القائلونَ بِقَوْلِهِمْ: «إنَّ الشَّقِيَّ بِكُلِّ حَبْلٍ يُخْنَقُ»

نُسب الشطر للمساور بن هند، والبيت بتمامه: شقيت بنو أسد بشعر مساور/ إن الشقي بكل حبل يخنق

سِرْ أَيْنَ شئتَ مِنَ البلادِ، فَلِي بِهَا سُورٌ عليكَ، مِنَ الرِّجالِ، وخَنْدَقُ

أخذنا برواية الجاحظ، في البيان والتبيين، لهذا البيت، دون روايات الديوان بنسخه المختلفة

وقَصَائدٌ تَسري إليكَ كأنها أحلامُ رُعْبٍ، أو خُطُوبٌ طُرَّقُ

خطوب: مصائب، طرَّق: قادمات ليلاً

مِنْ مُنْهِضَاتِكَ، مُقْعِدَاتِكَ، خَائفاً مُسْتَوْهِلاً، حتَّى كأنَّكَ تَطْلَقُ

قصائدي تقيمك وتقعدك وأنت خائف مستوهل (خائف)، كأنك المرأة التي تطلق قبيل الولادة

مِنْ شاعِرٍ وَقَفَ الكَلامُ بِبَابِهِ، واكْتَنَّ في كَنَفَيْ ذَرَاهُ المَنْطِقُ

اكتن: احتمى، ذَراه: كنفه وحمايته

٢٥ لا للمشاتمة

يهجو عتبة بن أبي عاصم:

نُبِّئْتُ عُتْبَةَ يَعْوِي كي أُشَاتِمَهُ اللَّهُ أكبرُ! أَنَّى اسْتَأْسَدَ النَّقَدُ

النقد: صغار الغنم

إنـي لأَعْـجَـبُ مِـمَّـنْ فـي حَـقيـبَـتِـهِ   مِـنَ الـمنِـيِّ بُـحُـورٌ، كـيـفَ لا يَـلِـدُ؟

حقيبته: هنا معناها «جوفه». . بيت منسوب إلى كثر، ولعلنا ـ غفلة منا ـ قد ضممناه في مختاراتنا إلى غير شاعر

٢٦ بلى، تموت فتستريح

يهجو عتبة بن أبي عاصم:

بـنـوُ عـبـدِ الـكـريـمِ نُـجُـومُ عِـزٍّ،   تُـرى فـي طَـيِّءٍ أبـداً تـلـوحُ

إذا كـان الـهـجـاءُ لَـهُـمْ ثَـوابـاً،   فـأخـبِـرْنـي: لِـمَـنْ خُـلِـقَ الـمديـحُ؟

ومـا لـكَ حـيـلـةٌ فـيـهِـمْ، فـتُـجْـدي   عـلـيـكَ؛ بَـلَـى، تـمـوتُ فـتَـسـتَـريـحُ

٢٧ أحيا وأمات في الصحارى

يهجو عتبة بن أبي عاصم:

فـإنَّـكَ إنْ تُـسَـاجِـلْـنـي تَـجِـدْنـي   لِـرَأسِـكَ جَـنْـدلاً، ولِـفـيـكَ تُـرْبـا

الجندل: الصخر

تَـجِـدْ صِـلّاً تَـخَـالُ بِـكُـلِّ عُـضْـوٍ   لَـهُ مِـنْ شِـدَّةِ الـحـركـاتِ قَـلْـبـا

الصل: الثعبان

أخَـا الـفَـلَـوَاتِ، قـد أَحْـيَـا وأَرْدَى   رِكـابـاً فـي صَـحَـاصِـحِـهـا، ورَكْـبَـا

تجدني أخا (قرينَ) الفلوات (الصحارى)، الذي أحيا في صحاصحها (براريها) ركاباً (إبلاً) ورَكْباً (وراكبين) بالوصول بها وبهم إلى الأمان، وأردى (أمَاتَ) إبلاً وأصحاباً لم يتحملوا المشقات

٢٨ نحن مادة السَّمَر

يمدح عمر بن عبد العزيز الطائي من أهل حمص:

يـا هـذهِ أَقْـصِـري، مـا هـذهِ بـشـرُ   ولا الـخَـرائـدُ مـن أتْـرابِـهـا الأُخَـرُ

يا هذه العاذلة أقصري (كُفِّي) فهذه الفتاة ليست من البشر لحسنها النادر، وكذا الخرائد (الحسان) من أترابها (صاحباتها)

لـولا الـعـيـونُ وتـفَّـاحُ الـخـدودِ إذَنْ   ما كـان يـحـسُـدُ أعـمَـى مَـنْ لـهُ بَـصَـرُ

بالشِّعرِ طُولٌ إذا اصطكَّتْ قصائدُهُ في مَعْشَرٍ، وبهِ عن مَعْشَرٍ قِصَرُ

يطيل الشاعر في مدح من يستحقون المدح. وينقل شرف الدين المستوفي (في الصفحة ٤٨ من الجزء الثاني من مخطوطته «النظام») عكس ذلك في الشرح: فالشعر يكون أطول من بعض الناس لأنهم دونه في القامة، ويكون قصيراً عن القوم الكرام. وهذا - فيما نرى - بعيد. لكنه يخيرنا بين المعنيين؛ وقد اخترنا

هَلْ أَوْرَقَ المجدُ إلَّا في بَني أُدَدٍ، أَو اجْتُني مِنْهُ، لَوْلا طَيِّءٌ، ثَمَرُ؟

المجد يورق عندهم

لولا أَحَادِيثُ، بَقَّتْهَا مآثِرُنَا، من النَّدَى والرَّدَى لم يُعْجِبِ السَّمَرُ

لولا ما تركت مآثرنا للناس من الأحاديث عن الكرم وقتل الأعداء ما كان السمر يعجب الناس

٢٩ فافعل ما تشاء

يُعَرِّض ببعض بني حميد، بعد مقتل محمد بن حميد، ولم يصرح بهجائه، لأنه كان مدحهم، ولأنه طائي، وثمة شك في نسبة هذه الأبيات:

إذا جَارَيْتَ في خُلُقٍ دَنيئاً فأنتَ ومَنْ تُجَارِيهِ سَواءُ

رأيْتُ الحُرَّ يَجْتَنِبُ المخازي ويَحْميهِ عنِ الغَدْرِ الوفَاءُ

ومَا مِنْ شِدَّةٍ، إلَّا سيأْتي لها مِنْ بعدِ شِدَّتِها رَخاءُ

لقد جرَّبتُ هذا الدهرَ، حتى أفادتْني التَّجَارِبُ والعَنَاءُ

إذا ما رأْسُ أهلِ البيتِ وَلَّى بَدا لَهُمُ مِنَ الناسِ الجَفَاءُ

يعيشُ المرءُ، ما استَحْيا، بِخَيْرٍ ويَبْقَى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحَاءُ

في النبات يبقى الغصن مورقاً نضراً ما بقي له لحاؤه، وكذا فالمرء يظل بخير ما بقي مستوراً بالحياء

فلا واللَّهِ، ما في العيشِ خيرٌ، ولا الدنيا، إذا ذهبَ الحياءُ

إذا لم تخشَ عاقِبَةَ الليالي، ولم تَسْتَحْيِ، فَافْعَلْ ما تشاءُ

٣٠ انتجاع الموت

يرثي بني حميد بن قحطبة:

أيُّ القلوبِ عليْكُمْ ليس يَنْصَدِعُ وأيُّ نَوْمٍ عليْكُمْ ليس يَمْتَنِعُ؟

يَنْتَجِعُونَ المنايا في مَنابِتِها، ولم تَكُنْ قبلَهُمْ في الدهرِ تُنْتَجَعُ

ينتجعون المنايا (يزورون الموت وكأنهم يذهبون للرعي)

لو خَرَّ سيْفٌ مِنَ العَيُّوقِ مُنْصَلِتاً ما كان إلّا على هامَاتِهِمْ يَقَعُ

لو خر (سقط) سيف من العيوق (نجم في السماء) منصلتاً (مجرداً من غمده) ما وقع إلا على رؤوسهم. فهم محترفو حرب لا يموتون حتف أنوفهم

إذا هُمُ شهِدوا الهَيْجاءَ هَاجَ بِهِمْ تَغَطْرُفٌ في وُجُوهِ الموْتِ يَطَّلِعُ

الهيجاء: الحرب، تغطرف: اعتزاز، يطلع: يبرز

وأَنْفُسٌ تَسَعُ الأرضَ الفضاءَ، ولا يَرْضَوْنَ أو يَجْشِمُوها فوقَ مَا تَسَعُ

نفوسهم كبيرة، ومع ذلك لا يرضون إلا أن يجشموها (يحملوها) فوق طاقتها

يَوَدُّ أعدائِهِمْ لو أَنَّهُمْ قُتِلوا، وأَنَّهُمْ صَنَعُوا بعضَ الذي صَنَعُوا

أعداؤهم يتمنون لو أبدوا مثل شجاعتهم حتى لو كان القتل هو الثمن

عَهدي بِهِمْ تَسْتَنيرُ الأرضُ إنْ نَزَلوا فيها، وتجتمعُ الدنيا إذا اجتمعوا

ويضحكُ الدهرُ مِنْهُمْ عَنْ غَطَارِفَةٍ كأنَّ أَيَّامَهُمْ مِنْ أُنْسِها جُمَعُ

يضحك الدهر منهم (يضحك بسببهم) عن غطارفة (سادة)،
وأيامهم مليئة بالأنس، فكأنها كلها يوم جمعة

فِيمَ الشَّمَاتَةُ إعْلاناً بِأُسْدِ وَغىً، أَفْنَاهُمُ الصَّبْرُ إذْ أَبْقَاكُمُ الجَزَعُ

فلماذا تشمتون بهم علانية وهو أسود الوغى (الحرب)، لقد صبروا حتى الموت، وأنتم عشتم لأنكم فررتم خوفاً

٣١ ثم انثنى فتقطعا

يرثي أبا نصر محمد بن حميد الطائي:

أَصَمَّ بكَ النَّاعِي، وإن كان أَسْمَعَا وأَصبحَ مَغْنَى الجُودِ، بَعْدَكَ، بَلْقَعا

الناعي (ناقل خبرك) أصمنا بالخبر (جعلنا صماً لهول الخبر)، لكننا سمعناه، وأصبح مغنى (مكان) الجود بعدك بلقعاً (قفراً)

فتىً، كلما ارْتَادَ الشُّجاعُ مِنَ الرَّدَى مَفَرّاً غَدَاةَ المأْزِقِ، ارتَادَ مَصْرَعا

إذا ساءَ يومٌ في الكَريهَةِ منظراً تَصَلَّاهُ، عِلْماً أنْ سَيَحْسُنُ مَسْمَعا

الكريهة: الحرب، تصلاه: اصطلى بناره

فَإِنْ تَرْمِ عَنْ عُمْرٍ تَدَانَى به المدى فَخَانَكَ، حتَّى لم تَجِدْ فيهِ مَنْزَعا..

فإن كنت ترمي بقوسك، ووتره عمرك الذي وصل مداه، وخانك الوتر ولم يبق فيه منزع (مدى لمزيد من الشد)..

فما كُنْتَ إلَّا السيفَ لاقَى ضَرِيبَةً فَقَطَّعَها، ثم انْثَنَى فَتَقَطَّعا

فما كنت إلا سيفاً لاقى ضريبة (ضحية السيف المضروبة به) فقطعها، ثم تقطع هو.
هذا أقصى ما استطعنا فهمه. وفي أبي تمام تشحنك المفردات بمشاعر ومعان تؤلف فيما بينها صورةً أو تصنع جواً. ولا تحاول أن تفسرها بالبحث عن مقابل موضوعي دقيق فتفسدها، فأنت معه كالمتفرج على آلاف الصبية في ستاد الأولمبياد يحملون لوحات ملونة تصنع صورة ضخمة، ثم تتموج وتتحرك بشكل عجيب، فإذا اقتربت فقدت جمال المنظر. لقد ظن عبد السلام هارون بأبي تمام شراً، وحسبه غير دقيق في استخدام اللغة، ثم درسه من كثب فغير رأيه، ووصل به الاقتناع بأبي تمام أن شرح همزياته في كتاب مستقل ونشره، خطوة أولى لشرح الديوان، لكنه مات وترك سبعة وعشرين حرفاً نعالج منها ما نعالج. وافتتن إيليا الحاوي بأبي تمام افتتاناً، فشرح ديوانه شرحاً رديئاً فيه العمومية المفرطة وفيه نسخ لأوهام من سبقه واجتهاداتهم، وفيه إسقاط بيت هنا وبيت هناك من باب الغفلة، وفيه مئات الأغلاط المطبعية، ومع كل هذا الذي قلناه فإيليا الحاوي رجل يعرف الأدب العربي القديم معرفة حسنة ويتذوقه؛ ثم وضع إيليا كتاباً ضخماً عن أبي تمام فيه هيام بهذا الشاعر «الحداثي». والحق أن أبا تمام شاعر متفرد؛ ومع أنني وصمته في المقدمة بعيوب كثيرة، فهو شاعر يجعل المعنى يتوقد في المفردة، ويردفها بغيرها على نحو يزيد المعنى بهاء وإن لم يزده وضوحاً، وما ينتهي البيت إلا وقد تكونت في قلبك حالة نفسية متكاملة صاخبة، وتكونت في عقلك صور شتى تنظر إليها معاً فتفهم، وتحاول التحقق منها فرادى فلا تجد شيئاً خطيراً. أبو تمام شاعر الإيحاء. وقد أزعج هذا النقاد القدماء كثيراً، فتعقبوه وعابوه وتسقطوا أخطاءه، لكن المؤلفين ظلوا يقتبسون في كتبهم أبياتاً كثيرة له. وظل شعره حياً. وكما ذكرت في ملاحظة سابقة، فإن الله لم يوفق أحداً إلى شرح ديوان أبي تمام شرحاً تقليدياً حرفياً يصل بقارئه إلى الفهم الدقيق للمفردة ومعناها ثم يضعها في مكانها من البيت. وسبب ذلك لغة الرجل المتفجرة، واحتمالاتها الكثيرة، ومَوَران هذه المفردات بالمعاني وظلال المعاني. وقد حاولت في هذه المختارات التي لا تتعدى العشرين بالمئة من ديوان الرجل أن أشرح الشرح الحرفي كي يصل القارئ إلى الصورة الكاملة والحالة النفسية بعد تمام الفهم، ووصلت إلى هذا البيت فذكرني بأن أبا تمام صعب وبأنه مختلف، وانظر إلى البيت الأخير، فكيف نشرحه؟ هل نصور لك بطلاً أسطورياً نزل الميدان كي يفني الأعداء وعندما أفناهم انتهى مبرر وجوده فوق الأرض فقرر الوفاء للأسطورة فتبخر في الجو مفنياً نفسه لكي يتحول إلى ذكرى أسطورية رائعة، بطل لا يشيخ، بطل حياته صراع، بطل هو سيف لا إنسان، بطل يمثل لك مفهوماً: مفهوم أن كل الحياة فوق الأرض صراع. هو رمز لسر الحياة، وسر المجتمع الإنساني: رمز للصراع؟ لا بل نشرح البيت بكليمات بسيطة ونترك لك أن تستمتع به. فعلنا مثل هذا في عشرات الأبيات المشحونة بأمثال هذه اللوحات النفسية. شرحناها شرحاً لغوياً، وتركناك معها لتعيش حياتك. وأمامي في عطلتي الحالية من عملي ستة أيام، فإن لم أجد شيئاً أصنعه فسوف أكر راجعاً على كثير من الأبيات التي شرحتها شرحاً لغوياً ظاهرياً فأضيف إليها بعض التفلسف، وأحليها بتأملاتي في مغازيها. قد أجد من يقول لي: عافاك الله، الأمر أهون مما تظن!

٣٢ قتيل الحفاظ

يرثي محمد بن حميد، وأخاه قحطبة:

هيْهاتَ! لا يأتِي الزمانُ بمثلِهِ، إنَّ الزمانَ بمثلِهِ لَبَخيلُ

يا ليتَ شِعري بِالمكارِمِ كلِّها، ماذا، وقد فقَدَتْ نداكَ، تقولُ؟

يا يومَ قحطبةٍ لقد أبقيْتَ لِي حُرَقاً، أَرَى أيامَها ستَطولُ

لما رأَى جمعاً قليلاً في الوَغى؛ وأُولو الحِفَاظِ مِنَ القَليلِ قَليلُ..

رأى أصحابه في الحرب قلة، وأولو الحفاظ (الذين يحفظون الشرف) قليل من القليل

لاقَى الكريهَةَ، وهْوَ مُغْمِدُ رَوْعِهِ فيها، ولكنْ سَيْفُهُ مسلولُ

لاقى الحرب وقد أغمد (خبأ) روعه (خوفه)، ولكنه استل سيفه

ومشَى إلى الموتِ الزُّؤَامِ، كأنَّما هُوَ، في محبَّتِهِ إليهِ، خليلُ

الموت الزؤام: السريع

٣٣ عبث

يرثي بعض بني حميد في مرثية أبي الفضل الحميدي:

لو يعلمُ الناسُ عِلمي بالزمانِ، وما عاثَتْ يَداه؛ لما ربَّوْا ولا وَلَدُوا

٣٤ الموت ولا المذلة

يرثي جعفراً الطائي:

رحِمَ اللّهُ جَعْفَراً، فلقدْ كا نَ أَبِيّاً، شَهْماً، وكانَ رحيما

مَثَّلَ الموتَ بين عينيْهِ، والذُّلَّ ـ ، فَكُلاًّ رآهُ خَطْباً عظيما

ثم سَارَتْ بِهِ الحَمِيَّةُ قُدْماً فَأَمَاتَ العِدَى، وماتَ كريما

٣٥ كذا فليجل الخطب

يرثي محمد بن حميد الطوسي الطائي الذي قتل في خلافة المأمون وهو يحارب الخُرَّمية:

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ، ولْيَفْدَحِ الأمرُ فليسَ لِعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

هكذا فلتكن المناحات، وليكن الأمر جليلاً وفادحاً، ولا عذر لعين لم تبك على الميت

تُـوُفِّـيَـتِ الآمـالُ بـعـدَ مـحـمَّـدٍ،   وأصبحَ في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ

ماتت آمال الناس بعد محمد بن حميد، وانشغل السفْر (المسافرون) عن بدء سفرهم أو إكماله

ومـا كـانَ إلَّا مـالَ مَـنْ قَـلَّ مـالُـهُ،   وذُخْراً لـمن أَمْسَى ولـيس لـه ذُخْرُ

كان محمد مالاً للفقير، وذخراً (كنزاً مذخوراً) لمن ليس له كنز

وما كـان يَدري مُجْتَدي جُودِ كَفِّه   إذا مـا اسْتَـهَـلَّـتْ أنَّه خُلِـقَ الـعُـسْرُ

المجتدي (المستجدي) من كف محمد إذا ما استهلت (أمطرت) بالمال كان ينسى أن في الدنيا عسراً (فقراً)

ألا في سبيلِ اللَّهِ من عُطِّلَتْ له   فِجاجُ سبيلِ اللَّهِ، وانـثَـغَرَ الثَّغْرُ

مات في سبيل الله هذا الذي تعطلت بموته الفجاج (الطرق الجبلية) المؤدية إلى الجهاد، وانثغر الثغر (اختلت الحدود مع الأعداء)

فـتـىً كـلَّـمـا فـاضـتْ عـيـونُ قـبـيـلـةٍ   دماً، ضَحِكتْ عنه الأحاديثُ والذِّكْرُ

تبكيه القبائل دماً، ولكن سُمعته ضاحكة

فـتـىً دهـرُهُ شَـطـرانِ فـيـمـا يَـنُـوبُـه: ففي بأسِه شَطْرٌ، وفي جُودِه شَطْرُ

فتى كان دهره مقسوماً شطرين (نصفين) نصف للبأس (الشجاعة والقسوة) ونصف للسخاء

فتىً ماتَ بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ مِيتَةً   تقومُ مَقامَ النصرِ، إذْ فاتَهُ النَّصْرُ

وما مـاتَ حتى ماتَ مَضْرِبُ سيفِه   من الضَّربِ، واعتَلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ

ما مات حتى تثلم سيفه من الضرب،
واعتلت (مرضت وتلفت) القنا (الرماح) السمر

وقد كانَ فَوْتُ الموتِ سهلاً، فَرَدَّهُ   إليه الحِفَاظُ المرُّ، والخُلُقُ الوَعْرُ

كان فوت (تجنب) الموت سهلاً، ولكن الحفاظ (حفظ الشرف) المرّ ردَّه إلى الموت ومنعه من الفرار، وكذا خلقه الوعر (الشديد)

ونَـفْـسٌ تَـعـافُ الـعـارَ، حتَّـى كـأنَّـه   هُوَ الكفرُ يومَ الرَّوْعِ، أو دونَه الكُفْرُ

ومما ردَّه إلى الموت أيضا في يوم الروع (يوم المعركة)
نفس تعاف العار فكأنه الكفر

فأَثْبَتَ في مستنقعِ الموتِ رِجْلَه   وقالَ لها: مِنْ تحتِ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ

عرف أن الموقف موقف النهاية فثبَّت رِجْله في هذا المستنقع وقال لها تحت أخمصك يوم الحشر، أي أنه وعد نفسه بالجنة

غدا غُدْوَةً والحَمْدُ نَسْجُ رِدائِه، فلم يَنْصَرِفْ إلّا وأكفانُه الأجْرُ

غدا غدوة (صباحاً) وهو يرتدي رداء من الحمد (الشعور بالكرامة)، وما انصرف عن موقفه ذاك إلا وهو مكفن ليس بثوب بل بأجر وثواب لأنه شهيد

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً، فما أَتَى لها اللَّيلُ، إلَّا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

لبس كفناً أحمر من دمه، وما جاء الليل إلا والكفن من سندس (حرير) أخضر، لباس أهل الجنة

كأنَّ بَني نَبْهانَ يومَ وَفاتِه نجومُ سَماءٍ خَرَّ مِنْ بينِها البَدْرُ

كأن قومه نجوم فقدت قمرها

يُعَزَّوْنَ عن ثاوٍ تُعَزَّى به العُلَى، ويَبْكي عليه الجُودُ والبأسُ والشِّعْرُ

يعزيهم الناس عن ثاو (مقيم بلا حراك)، والعلى (الأمجاد) أيضاً تُعزَّى به لأنها فقدته

وأنَّى لهمْ صبرٌ عليه، وقد مضى إلى الموتِ، حتَّى استُشْهِدا هُوَ والصَّبْرُ!

كيف لهم أن يصبروا عليه وقد كان مثالاً للصبر، فلما استشهد مات الصبر نفسه معه

فتىً كانَ عَذْبَ الرُّوحِ لا مِنْ غَضاضَةٍ، ولكنَّ كِبْراً أنْ يُقالَ: به كِبْرُ!

كان أنيساً ولكن ليس من غضاضة (ذل)؛
ومن الكِبْر (الإثم) القول إنَّ به كِبْراً (تكبراً)

أَمِنْ بعدِ طَيِّ الحادثاتِ محمَّداً يكونُ لأثوابِ النَّدى أبداً نَشْرُ؟

إذا شَجَراتُ العُرْفِ جُذَّتْ أصولُها ففي أيِّ فَرْعٍ يوجَدُ الوَرَقُ النَّضْرُ؟

إذا جذت (قطعت) شجرات العرف (المعروف) من أصولها (جذورها)،
فكيف يكون على الفروع ورق؟

لئنْ أُبغِضَ الدَّهرُ الخَؤونُ لِفَقْدِه لَعَهدي به مِمَّنْ يُحَبُّ له الدَّهْرُ

لئن أُلبِسَتْ فيه المصيبةَ طيِّءٌ لَمَا عَرِيَتْ منها تميمٌ ولا بَكْرُ

كذلكَ ما نَنْفَكُّ نفقِدُ هالِكاً يشارِكُنا في فقْدِه البَدْوُ والحَضْرُ

مضىَ طاهرَ الأثوابِ؛ لم تَبْقَ روضَةٌ، غَداةَ ثَوى، إلا اشتهَتْ أنَّها قبرُ

طاهر الأثواب: عفيف، ثوى: همد

عليكَ سلامُ اللَّهِ وَقفاً، فإنَّني رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليس له عُمْرُ

وقفاً (مخصصاً بك)

٣٦ حوار مع ميت

يرثي محمد بن حميد:

مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ أَخْلَقَتْ رِمَمُهْ   أُرِيقَ ماءُ المعالي مُذْ أُرِيقَ دَمُهْ

أخلقت: اهترأت، رممه: بقايا جثته

رأَيْتُهُ بِنِجادِ السيفِ مُحْتَبِياً،   كالبدرِ حينَ انْجَلَتْ عن وجهِهِ ظُلَمُهْ

رأيته جالساً يسند ظهره بحمائل السيف، فكأنه البدر وقد انجلى عن وجهه الغمام، والاحتباء أن تضع مقعدتك على الأرض وتجمع ظهرك إلى ركبتيك بشال أو نحوه

في روضةٍ قد عَلا حافَاتِها زَهَرٌ،   عَلِمْتُ عندَ انْتِبَاهِي أنها نِعَمُهْ

رأيته (أبو تمام يتخيل أنه رآه) في روضة يحفها الزهر، ولكنني عندما انتبهت (صحوت من نومي) فسَّرتُ الزهر بأنه معروفه الذي أنعم به على الناس

فقلتُ، والدَّمْعُ، مِنْ حُزْنٍ ومِنْ فَرَحٍ،   يجري، وقد مَلأَ الخَدَّيْنِ مُنْسَجِمُهْ:

منسجمه: سائله

ألم تَمُتْ يا شَقِيقَ النَّفْسِ مُذْ زَمَنٍ؟   فَقَالَ لي: لَمْ يَمُتْ مَنْ لَمْ يَمُتْ كَرَمُهْ

٣٧ مزاحفة الأيام

يمدح نوح بن عمرو السكسكي من كندة:

يومَ الفراقِ! لقد خُلقْتَ طويلا   لم تُبقِ لي جَلَداً ولا مَعْقُولا

يا يوم الفراق لم تبق لي جلداً (صبراً)، ولا معقولاً (عقلاً)

قالوا: الرَّحِيلَ، فَمَا شَكَكْتُ بِأَنَّها   نَفسِي عن الدنيا تريدُ رَحيلا

الرحيلَ: قرأها كَمْ شئت من الطبعات ومن الكتب بالضمة،
وقرأتُها بالفتحة على تقدير «نريد»، إغراءً

أَتظُنُّني أَجِدُ السَّبِيلَ إلى العَزَا؛   وَجَدَ الحِمَامُ إذن إليَّ سبيلا!

أتظنني أجد طريقة للعزاء (النسيان)؟ فليجد الحمام (الموت) إذن طريقه إليَّ لو فعلت

رَدُّ الجَمُوحِ الصَّعْبِ أسْهَلُ مَطْلَباً   مِنْ رَدِّ دَمْعٍ قد أصابَ مَسِيلا

إن ردَّ الجموح الصعب (الحصان الهائج) إلى هدوئه، أسهل من رد (منع) دمع قد أصاب (وجد) مسيلاً (طريقاً)

إنـي تَأَمَّلْتُ النَّوَى، فوجَدْتُها   سيْفاً عليَّ، مَعَ الهَوى، مَسلُولا

لا تَأْخُذيني بالزَّمانِ، فليسَ لي تَبَعاً، ولستُ على الزمانِ كفيلا

لا تأخذيني بالزمان (لا تعاتبيني بذنب الزمان) فالزمان ليس تابعاً لإرادتي، ولست كفيلاً بتغيير صروفه

مَنْ زَاحَفَ الأيامَ، ثُمَّ عَبَا لَهَا غيرَ القناعَةِ، لم يَزَلْ مَفْلُولا

من زاحف الأيام (من حارب أحداث الأيام زاحفاً بجيشه عليها) ثم عبا لها (جهز لها) سلاحاً سوى القناعة لم يزل (ظل) مفلولاً (مهزوماً)

مَنْ كانَ مَرعى عزمِه وهمومِه روضُ الأماني، لم يَزَلْ مَهزولا

من كان روضُ الأماني (أحلام اليقظة) المرعى الذي ترتاده همومه (طموحاته) سيظل مهزولاً في مثل ذلك المرعى

لو جازَ سلطانُ القُنُوعِ وحُكْمُهُ في الخلقِ، ما كانَ القليلُ قليلا

لو جاز (نفذ) سلطان القنوع (قوة القناعة) في البشر لما وجدوا المال القليل قليلاً

الرزقُ: لا تَكْمَدْ عليهِ، فإنَّهُ يأتي، ولم تَبعثْ إليه رسولا

تكمد: تحزن

لا تَدْعُوَنْ نُوحَ بنَ عَمْروٍ دعوةً لِلخَطْبِ، إلَّا أنْ يكونَ جَليلا

لا تستنجد بنوح بن عمرو في الخطوب (المشكلات) الصغيرة بل في الكبيرة. (جاء رجل إلى سيد من سادات العرب وقال له: أريد منك خدمة صغيرة، فأجابه: اذهب والتمس لها رجلاً صغيراً. ومن أدب الإنجليزي أنه يقصدك في معاملة يومية بسيطة فيبدأك بالقول: هل لك أن تسدي إليّ معروفاً كبيراً؟ ثم يطلب تأجيل الاجتماع ربع ساعة، مثلاً)

لو أنَّ طُولَ قَناتِهِ يَومَ الوَغَى مِيلٌ، إذنْ نَظَمَ الفَوارِسَ مِيلا

يقول: لو كان طول رمحه ميلاً لشكَّ في الرمح أجسام الفرسان، مثلما تشكُّ قطع اللحم في سيخ الشيّ، ميلاً كاملاً. الميل: قياس روماني من ألف خطوة، وجعله قدماء العرب ثلث فرسخ، نحو ثلاثة كيلومترات؛ وفيه أقوال أخرى. البيت غير موجود عند التبريزي والصولي والحاوي، وأورده محيي الدين الخياط؛ وتنسبه بعض المصادر لبكر بن النطاح، وخلو النسخ الموثوقة منه يعزز هذه النسبة

٣٨ ولا عذرٌ لطائيٍّ لئيمِ

يمدح بعض بني عبد الكريم الطائيين:

ومِمَّا ضَرَّمَ البُرَحَاءَ: أنِّي شَكَوْتُ، فما شَكَوْتُ إلى رَحيمِ

ضرم (أشعل)، البرحاء (الشِّدَّة)

وليلٍ بِتُّ أَكْلَؤُهُ، كَأنّي سَلِيمٌ، أو سَهِرْتُ على سَلِيمِ

رب ليل بت أكلؤه (أرقبه) كأني سليم (ملدوغ)، أو ساهر على شخص ملدوغ. وكانوا يسهرون على من لدغته أفعى حتى لا ينام فيسرع سريان السم فيه

فأُقسِمُ: لو سألتِ دُجَاهُ عنّي لقد أنْبَاكِ عن وَجْدٍ عظيمِ

دجاه (ظلامه)، أنباك (أخبرك)

أَنَخْنَا في ديارِ بني حبيبٍ بَناتِ السَّيْرِ، تحتَ بني العَزِيمِ

بنات السير (الإبل)، بنو العزيم (نحن، ذوو العزيمة القوية)

لكلٍّ مِنْ بَني حَوَّاءَ عُذْرٌ، ولا عُذْرٌ لِطائِيٍّ لَئيمِ

أَحَقُّ الناسِ بِالكَرَمِ امْرُؤٌ لم يَزَلْ يَأْوِي إلى أَصْلٍ كَرِيمِ

٣٩ من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقال في أبي الحسن علي بن مر:

قومٌ إذا هَطَلَتْ جُوداً أَكُفُّهُمُ عَلِمْتَ أنَّ النَّدَى، مُذْ كانَ، في اليَمَنِ

كم وَقْعَةٍ لكَ، ما يَنْفَكُّ يَذْكُرُها خَلِيفَةُ اللَّهِ، في سِرٍّ وفي عَلَنِ

وقعة: معركة

لم يبقَ مِنْ شَجَرِ البَغْيِ، التي غُرِسَتْ بِجَانِبِ الشَّامِ، مِنْ جِذْمٍ ولا فَنَنِ

جذم: جذر، فنن: غصن

وكلُّ شَيْءٍ له شَيْءٌ يَكُونُ به فَسَادُهُ؛ وفَسَادُ الكلبِ في السِّمَنِ

أي أن العصاة أكلوا من مال الدولة وسمنوا فكان في ذلك فسادهم

لِي حُرْمَةٌ بِكَ، فاحفَظْها، وجَازِ بِهَا يا حَافِظَ العهدِ، والعُوَّادِ بِالمنَنِ

المنن: المعروف العواد: الزائرون

أَوْلَى البَرِيَّةِ حقّاً أنْ تُرَاعِيَهُ، عندَ السُّرُورِ، الذي آسَاكَ في الحَزَنِ

آساك: واساك

إنَّ الكرامَ إذا ما أَسْهَلُوا ذَكَرُوا مَنْ كانَ يَأْلَفُهُمْ في المنزلِ الخَشِنِ

أسهلوا: تحسنت أحوالهم

٤٠ الكبيرة للكبير

وقال في مرض إلياس بن أسد:

اللَّهُ عافاكَ مِنْها عِلَّةً عَرَضاً   لم تَنْحُ أظْفَارُها إلَّا عَلى الكَرَمِ

عافاك الله من مرض عارض لم تنح (تتجه) أظفاره إلا إلى الكرم المتمثل فيك

إنَّ الرِّيَاحَ إذا ما أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ   عِيدانَ نَجْدٍ، ولم يَعْبَأْنَ بِالرَّتَمِ

العيدان: النخلات، الرتم: نبات دقيق الساق

قد يُنْعِمُ اللَّهُ بِالبَلْوى، وإنْ عَظُمَتْ،   ويبْتَلِي اللَّهُ بعضَ القومِ بِالنِّعَمِ

٤١ عندما يفكر الدهر

وقال يمدح أبا المستهل محمد بن شقيق الطائي:

تَحَمَّلَ عنهُ الصَّبْرُ يومَ تَحَمَّلُوا   وعَادَتْ صَبَاهُ في الصِّبَا وَهْيَ شَمْأَلُ

تحمَّل: حمل متاعه على الجمال متأهباً للرحيل، الصبا: ريح طيبة، الشمأل: ريح تشتت السحاب، وهي مذمومة. يقول: رحل صبْرُ العاشق يوم رحيل الأحباب، وأصبحت رياح الشباب المنعشة رياحاً ذميمة

بِيَوْمٍ كَطُولِ الدهرِ في عَرْضِ مِثْلِهِ   وَوَجْدِيَ، مِنْ هذا وهَذَاكَ، أطولُ

كان يوم الرحيل طويلاً عريضاً، وكان وجدي (حزني) أكبر من طوله ومن عرضه

تَحَمَّلْتُ ما لو حُمِّلَ الدهرُ شَطْرَهُ   لَفَكَّرَ دَهْراً: أيُّ عِبْأَيْهِ أثقَلُ

تحملت من الأسى ما لو حمل الدهر شطره (نصفه) لقضى دهراً يفكر أي العِبأين (الحملين) أثقل: عبء كونه دهراً، أم العبء الجديد. لمن يقرأون الشروح المختلفة ويحققون، ويهمهم التنقير: شرح هذا البيت المرزوقي، وسرق شرحه التبريزي، وسرقه الحاوي، وسرقه صبحي، وشرحه شرف الدين المستوفي، وعلق على البيت بكلام كثير الآمدي ولم يشرح العبأين. وجاءت حاشية غفل في نسخة من النسخ، وفيها شرح يوافق ما ذكرناه (أوردها محقق شرح الصولي خلف رشيد نعمان في الهامش). وأما الشرح الذي تهافت عليه القوم ففطير. لنفترض أن «مبدعه» سها، ألا وقفة ثوان معدودات قبل السطو؟ جاء في الشرح الفطير: (الدهر وقف حائراً أمام النصفين لكي يختار أخفهما). فهل يقوم هذا بقوله «عِبأيْه»؟ ثم إن الدهر فكَّرَ «بعد» أن حمل النصف، وليس «قبل». ورأينا الشنتمري قد فهم البيت كما فهمناه فاطمأن القلب. والله أعلم

لِيَهْنِ امْرَأً أَثْنَى عليكَ بأنَّهُ يقولُ، وإنْ أَرْبَى، فلا يَتَقَوَّلُ

هنيئاً لمن يثني عليك، فمهما قال حتى لو أربى (زاد في المدح)
فهو لا يتقول (لا يفتري)

ولا شَكَّ أنَّ الخيرَ مِنْكَ سَجِيَّةٌ، ولكنَّ خيرَ الخيرِ عنديَ المعجَّلُ

٤٢ الأفاعيل

وينسب إلى أبي تمام القول:

ودهرٌ أَسَاءَ الصُّنْعَ، حتى كأنما يُقَضِّي نُذُوراً في مَساءَتِيَ الدَّهرُ

كأن الزمن يفي بنذر نذَره على نفسه وهو أن يسيء إليّ

فَعلْتُمْ بِأبناءِ النبيِّ ورَهْطِهِ أَفَاعِيلَ، أدناها الخيانةُ والغدرُ

ومِنْ قبْلِهِ أخْلَفْتُمُ لِوَصِيِّهِ بِدَاهِيَةٍ دَهْيَاءَ ليس لها قَدْرُ

وصي النبي: علي بن أبي طالب

وشُدَّ به أَزْرُ النبيِّ محمَّدٍ، كما شُدَّ مِنْ مُوسى بِهَارُونِهِ الأَزْرُ

٤٣ الليث يفترس الكلب

يهجو مَقران المباركي:

رجَا أنْ يُنَجِّيهِ خَساسَةُ قَدْرِهِ ولم يَدْرِ أنَّ الليثَ يفترسُ الكَلْبَا

رجا هذا الرجل أن ينجيه شيء هو خساسة قدره، ولكنني مبتعد للنزول إلى مستواه،
فالأسد يفترس الكلب

٤٤ حزناً على السيدة الحنون

يهجو مَقران المباركي:

إمرَاةُ مَقْرانَ مَاتَتْ بعدَمَا شابا فَحَسَّتِ السَّلَعَ الفِتْيَانَ، والصَّابَا

بموتها حسَّت (شرَّبت) الفتيان السلع (شجر ثمره مُرّ)
والصاب (نبات عصارته بيضاء مُرَّة)

لم يبقَ خَلْقٌ ببابِ الشامِ نعرِفُهُ بالفَتْكِ، مُذْ هَلَكَتْ، إلَّا وقد تابا

الفتك (التجرؤ على المحارم)

يا نَكبَةً هَشَمَتْ أَنْفَ السُّرورِ بِها، ومِيتَةً أَبْقَتِ العُزَّابَ عُزَّابا

النكبة بها (بموتها) هشمت أنف سرور أولئك العزاب، فقد ظلوا عزَّاباً بعد موتها. هذا فن من الشعر حذق فيه أبو تمام، وعلمه تلميذه البحتري. أنشد أبو تمام تلميذه البحتري أبياتاً يصف فيها الفرس، ويصف حوافره الصلبة، وختم بالقول: «أيْقَنْتَ، إنْ لم تَثَبَّتْ، أنَّ حافِرَهُ/مِنْ صَخْرِ تَدْمُرَ أو مِنْ وجهِ عُثمانِ». ثم قال له: ما هذا الشعر؟ فقال البحتري: لا أدري. قال أبو تمام: هذا الاستطراد. فالشاعر يوهمنا بأنه يصف الفرس ثم يختم القطعة بالقول إن حافر الفرس في صلابته يشبه وجه عثمان. وصلابة الوجه تعني: الوقاحة. و«الاستطراد» في الشعر غيره في النثر. ففي النثر هو الخروج من موضوع إلى موضوع. أما في الشعر فهو ما مر بك. ويكون أقوى ما يكون إذا خرج الشاعر إلى الهجاء. فهنا يكون أشبه شيء بالنكتة. (انظر القطع: ٤٥، و٤٦، والبيت الأول من ٤٨، والقطعة ٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد)

٤٥ فيما يقال..

يهجو مَقران المباركي:

يا زوجةَ المِسْكينِ مَقْرانَ التي عَظُمَتْ على المُتَظَرِّفِينَ وفَاتُها

المتظرفين، بالظاء المعجمة، قراءتي. وما بيدي من طبعات راوح بين متطرقين ومتطرفين. فإذا أنكرت أن يفعل المتظرف ما يرميه به أبو تمام فاسمع أبا نواس يضرب المثل بـ «تيه مغن وظرف زنديق»

خَلَتِ القُبورُ بِظَبْيَةٍ، عَهْدي بها، فيما يُقالُ، لذيذَةٌ خَلَواتُها

تَرَكَتْ على المِسْكينِ عِدَّةَ صِبْيَةٍ مِثْلَ الفِراخِ، تُخُرِّمَتْ أُمَّاتُها

تخرمت (ماتت) أماتها (أمهاتها/تستعمل لغير العاقل)

لو كانَ أَحْصَنَ بابَه، أو دَارَهُ، قَلَّتْ بَنُوهَا عندَهُ، وبَنَاتُها

هذا أسلوب الاستطراد في الشعر، (انظر القطع: ٤٤، و٤٦، والبيت الأول من ٤٨، والقطعة ٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذه القطعة)

٤٦ يا ذا القرنين

يهجو محمد بن يزيد الأموي الشاعر:

يا ابْنَ تلكَ التي بِحَرَّانَ، لَمَّا نَبَتَتْ، أَنْبَتَتْ غُصُونَ السِّفَاحِ

أي أن السفاح (الزنا) ولد معها

لا تَهُولَنَّكَ الكِبَاشُ، فقد أُعْـ ـطِيتَ ما شِئْتَ مِنْ أَدَاةِ النِّطَاحِ

أي أنك ذو قرنين مثل الكبش. والقرنان رمز للرجل المخدوع عن حريمه، أو الديوث.
(انظر القطع: ٤٤، و٤٥، والبيت الأول من ٤٨، والقطعة ٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذه القطعة)

٤٧ أشْرجْتَ وأنْحفْتَ

يهجو محمد بن يزيد:

أَشْرَجْتَ قَلبَكَ مِنْ بُغْضِي على حُرَقٍ أَضَرَّ مِنْ حُرُقَاتِ الهَجْرِ في الجَسَدِ

أشرجت: خيَّطت، أي أنك كتمت في قلبك الغيظ الشديد مني

أَنْحفْتَ جِسْمَكَ، حتى لو هَمَمْتُ بِأَنْ أَلْهُو بِصَفْعِكَ يوماً، لم تَجِدْكَ يَدي

٤٨ العقاب الجماعي للبشرية

يهجو ابن الأعمش:

لو يَقْدِرُ المِسْكِينُ، مِمَّا بِهِ، لاسْتَدْخَلَ الفَيْشَةَ بِالعَرْضِ

لو يقدر المهجو، مما به من إدمان على اللواط، لطلب إدخال الفيشة (ذلك الشيء) ليس بالطول ولكن بالعرض.. فتأمل، (انظر القطع: ٤٤، و٤٥،و٤٦، و٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذا البيت)

لِتَعْلَمَنْ أنَّ الرَّدَى كُلَّهُ حَتْمٌ على الرَّاتِعِ في عِرضي

قد بلغه علمٌ بذلك في البيت السابق

كَوْنُكَ في صُلْبِ أبينَا الذي أَهْبَطَنا جَمْعاً إلى الأرضِ

كونك موجوداً في صلب أبينا (أي: في صلب آدم، وسينجبك أحد أحفاده) هو الذي جعلنا نهبط من الجنة. النسخة الموسومة بالحرف «ر» تريد أن تزيدنا علماً: فالرجل الذي كان في الجنة هو آدم، فوضعت كلمة «آدم» مكان كلمة «الذي» في البيت، وليذهب علم العروض إلى الجحيم؛ وقد اعتمدها عزام بدون إشارة هامشية، واعتمدها بعده الدكاترة الناسخون، رغم إشارة بعضهم في الهامش إلى الرواية التي أوردناها هنا (وهي رواية الصولي) والتي بها يقوم البيت معنىً ومبنىً. وعلى ذكر العروض يحسن بأحد الدكاترة أن يراجع الكامل المرفل، وِيعلم أنه لا يكون إلا مجزوءاً؛ فأما ما وسمه بالكامل المرفل فهو تام لكنه أحذ في ضربه وعروضه، وقد يكون مضمراً في الضرب أو لا يكون، هذا في موضع آخر فأما هذه القطعة فهي من السريع

٤٩ أيها الدميم

قال في ابن الأعمش:

كُحِلْتُ بِقُبْحِ صورَتِهِ، فَأَضْحَى ... لَهَا إِنْسَانُ عَيْنِي في السِّيَاقِ

اكتحلت عيني بصورته القبيحة فأضحى إنسان عيني (بؤبؤها) في السياق (في النزع الأخير)

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوانِي ... لَمَا جُهِّزْنَ إلَّا بِالطَّلاقِ

مساو (مساوئ)

قَبُحْتَ، وزِدْتَ فوقَ القُبْحِ، حتَّى ... كأنَّكَ قد خُلِقْتَ مِنَ الفِرَاقِ

٥٠ رحمها الله

يهجو معدان:

لا تَرْكَنَنَّ إلى الدنيا وزُخْرُفِها ... فإنَّ أوطانَها ليستْ بأوْطَانِ

وامْهَدْ لِنفسِكَ مِنْ قبلِ المماتِ، ولا ... يَغْرُرْكَ كَثْرَةُ أصحَابٍ وإخوانِ

لو أَنَّهُمْ نَفَعُوا خَلقاً لِحُرْمَتِهِ ... لَدَافَعُوا الموتَ عنْ إمراةِ مَعْدَانِ

الخلاصة: زوجة معدان كانت كثيرة الأصحاب والإخوان، رحمها الله. (انظر القطع: ٤٥، و٤٦، والبيت الأول من ٤٨، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذه القطعة)

٥١ واجاريتاه

يرثي جاريةً له:

أَلم تَرَنِي خَلَّيْتُ نفسِي وشَانَهَا ... ولم أَحْفِلِ الدنيا، ولا حَدَثَانَها

حدثانها: مصائبها

لقد خَوَّفَتْنِي النَّائبَاتِ صُروفُها، ... ولو أَمَّنَتْنِي ما قَبِلْتُ أمانَها

وكيفَ على نارِ اللَّيالي مُعَرَّسِي! ... إذا كانَ شَيْبُ العَارِضَيْنِ دُخَانَها

كيف يكون على نار الليالي (عذاب الزمن) معرسي (نزولي وإقامتي)، وشيب العارضين (السالفين) بكل قسوته هو مجرد دخان تلك النار. ولك أن تتخيل الشيب في أوائله رمادياً كالدخان في لونه

أُصِبْتُ بِخَوْدٍ، سوفَ أَغْبُرُ بعدَها ... حَليفَ أَسىً، أَبْكِي زماناً زمانَها

خود: فتاة ناعمة، أغبر: أصبح، حليفَ أسى: ملازماً للحزن

يقولونَ: هل يبكِي الفتَى لِخَرِيدَةٍ ... متى ما أَرادَ اعْتَاضَ عَشْراً مَكانَها؟

خريدة: لؤلؤة

وهل يَسْتَعِيضُ المرْءُ مِنْ خَمْسِ كَفِّهِ؟ ولو صَاغَ مِنْ حُرِّ اللُّجَيْنِ بَنانَها

خمس كفه: أصابعه الخمس، حر اللجين: الفضة الخالصة

٥٢ كان الذي خفت أن يكونا

يرثي ابناً له (وفي نسبة القصيدة شك):

كانَ الذي خِفْتُ أن يَكونا إنَّا إلى اللَّهِ راجِعُونا

حينَ انتَهى، واسْتَوى شباباً وحَقَّقَ الرَّأْيَ والظُّنونا

أُصِبْتُ فيهِ، وكانَ عِندي على المصيبَاتِ أنْ يُعينا

كان مفروضاً أن يعينني على المصائب، لا أن يكون موته أحدها

كنتُ عزيزاً به كثيراً، وكنتُ صَبَّاً بهِ ضَنينا

كنت به عزيزاً، وكنت به كثيراً، أي صاحب عزوة وكثير الأنصار

دَافَعْتُ، إلَّا المَنُونَ، عنهُ؛ والمرءُ لا يَدْفَعُ المَنُونا

يَشْخَصُ، طَوْراً بِنَاظِرَيْهِ، وتَارَةً يُطْبِقُ الجُفُونا

ثم قَضَى نَحْبَهُ، فَأَمْسَى في جَدَثٍ للثَّرى دَفينا

بُنَيَّ يا وَاحِدَ البَنينا! غَادَرْتَني مُفْرَداً حَزينا

هَوَّنَ رُزْئي بِكَ الرَّزَايا عليَّ في الناسِ أَجْمَعينا

بموتك لم أعد أهتم لأية مصيبة أخرى

٥٣ لله ألحاظه والموت يكسرها

للَّهِ أَلحَاظُهُ، والموتُ يَكْسِرُها كأنَّ أجفانَهُ سَكرىَ مِنَ الوَسَنِ

شكوتُ لله عذابي وأنا أرى ألحاظه (نظراته) والموت يكسرها؛
كأن أجفانه بها سُكْرٌ من الوسن (النعاس)

يَرُدُّ أنفَاسَهُ كُرْهَاً، وتعطِفُها يَدُ المنِيَّةِ عَطْفَ الريحِ للْغُصُنِ

يا هَوْلَ ما أبصَرَتْ عَيْنيِ، وما سمعتْ أُذْني؛ فلا بَقِيَتْ عيني، ولا أُذُني

لم يبقَ مِنْ بَدَني جُزْءٌ عَلِمْتُ بِهِ إلَّا وقد حَلَّهُ جُزْءٌ مِنَ الحَزَنِ

٥٤ أصبحت الأرض إذن سماء

يصف المطر:

أَلا تَــــرى مَـــا أَصْــــدَقَ الأَنْــــوَاءَ

أصدق: أقوى، الأنواء: الأمطار

قَـــد أَفْــنَــتِ الــحَــجْــرَةَ والــلأْوَاءَ

الحجرة: سنة القحط، اللأواء: الشِّدَّة

فَـلَـوْ عَـصَـرْتَ الـصَّـخْـرَ صَـارَ مَـاءَ

مِـنْ لَـيْـلَـةٍ بِـتْـنَـا بِـهَـا، لَـيْـلَاءَ

إِنْ هِـــيَ عَـــادَتْ لَـيْـلَـــةً عَـدَاءَ

عداء: على التوالي

أَصْـــبَــحَـــتِ الأَرْضُ إِذَنْ سَـــمَـــاءَ

٥٥ غيمة

وقال يصف غيثاً:

لَــمَّـــا بَــدَتْ لِــلأَرْضِ مِــنْ قَــريــبِ

تَــشَــوَّفَــتْ لِــوَبْــلِــهَــا الــسَّــكُــوبِ

تشوفت الأرض (تطلَّعت) لوبلها (مطرها) السكوب (المدرار)

تَــشَــوُّفَ الــمــرِيــضِ لــلــطَّــبِــيــبِ

وطَــرَبَ الــمُــحِــبِّ لِــلْــحَــبِــيــبِ

وفَـــرْحَـــةَ الأديـــبِ بـــالأديـــبِ

وخَــيَّــمَــتْ صَــادِقَــةَ الــشُّــؤْبُــوبِ

صادقة: قوية، الشؤبوب: الزخ والتدفق

فَـقَـامَ فـيـهـا الـرعـدُ كـالـخـطـيـبِ

وحَـنَّـتِ الـريـحُ حـنـيـنَ الـنِّـيـبِ

حنين النيب: أنين النياق

كـأَنَّـمـا تَـهْـمـي عـلـى الـقُـلُـوبِ

كأن هذه الغيمة تهمي (تمطر) على القلوب لشدة فرحنا بهطولها

٥٦ اليأس من الناس

اِصـبِـري أَيَّـتُـهَـا الـنَّـفْـ ـسُ، فـإنَّ الـصَّـبْـرَ أَحْـجَـى

أحجى: أوْلى

نَـهْـنِـهـي الـحُـزْنَ، فـإنَّ الـ ـحُـزْنَ، إنْ لـم يُـنْـهَ، لَـجَّـا

نهنهي: خففي عنك، إن لم ينه: إن لم يُمْنَعْ، لجَّ: ألحَّ

والـبَـسـي الـيـأسَ مِـنَ الـنَّـا سِ، فـإنَّ الـيـأسَ مَـلْـجَـا

ملجا: ملجأ

٥٧ برق ومطر

يصف المطر:

يـا سَـهْـمُ! لِـلْـبَـرْقِ الـذي اسْـتَـطَـارا

يا سهم (اسم أخي أبي تمام) عجباً للبرق الذي يتطاير. وذكر أبو تمام أخاه سهماً في شعره أربع مرات فيما أحصينا

بـاتَ، عـلـى رَغْـمِ الـدُّجَـى، نَـهَـارا

حـتـى إذا مـا أَنْـجَـدَ الأَمْـصَـارا

وَبْـلاً جَـهَـاراً، ونَـدَىً سِـرَارَا

يمطر الأرض بالوابل علانية، وبالندى سراً

آضَ لـنـا مَـاءً، وكـانَ نـارا

هذا البرق آض (صار) لنا ماء وكان ناراً

أرضَـى الـثَّـرَى، وأَسْـخَـطَ الـغُـبَـارا

أرضى المطر التراب، وأسخط الغبار لأنه أهبطه وأنهى وجوده

٥٨ أقرَضَني ثم اقتضى

أَسْـخَـطَـنـي دَهْـرِيَ بـعـدَ الـرِّضَـا وارْتَـجَـعَ الـعُـرْفَ الـذي قـد مَـضَـى

لـم يَـظْـلـمِ الـدهـرُ، ولـكـنَّـهُ أَقْـرَضَـنـيِ الإحسـانَ، ثـم اقْـتَـضَـى

اقتضى: طلبَ ردَّ الدين

٥٩ هده الغرام

أَعْـطَـاكَ دَمْـعُـكَ جَـهْـدَهُ   فَـشَـكـا فـؤادُكَ وَجْـدَهُ
حَـمَّـلْـتَ جِـسْـمَـكَ في الـهَـوى   مـا لـم يُـطِـقْـهُ، فَـهَـدَّهُ
يـا شَـامِـتـاً بـيَ إذْ رَأى   هَـجْـرَ الـحـبـيـبِ وصَـدَّهُ
لا تَـشْـمَـتَـنَّ، فـإنَّـهُ   مَـوْلـىً يُـؤَدِّبُ عَـبْـدَهُ

مولى: سيد

٦٠ نزهة اليد

لا شَيْءَ أَحسنَ منهُ لَيْلَةَ وَصْلِنا   وقـد اتَّـخَـذْتُ مِـخَـدَّةً مِـنْ خَـدِّهِ
وفَمي علـى فمِهِ، يُسَامِرُ ريقَهُ،   ويَـدي تَـنَـزَّهُ فـي حَـدائِـقِ جِـلْـدِهِ

٦١ كأنها من خده تعصر

وقَـهْـوَةٍ كَـوكَـبُـهـا يَـزْهَـرُ   يَـسْـطَـعُ مـنـهـا الـمِـسْـكُ والـعَـنبرُ

قهوة: خمرة، يزهر: يلمع، يسطع: يفوح

ورْدِيَّـةٍ يَـحْـتَـثُّـهـا شَـادِنٌ   كَـأَنَّـهـا مِـنْ خَـدِّهِ تُـعْـصَـرُ

يحتثها: يسرع بها، شادن: ولد الظبية. احتثاث الخمر شيء رأيناه عند أبي نواس الذي قال: إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم/يحثونها حتى تفوتهم سكرا//وقال: قالوا شمطت فقلت ما شمطت يدي/عن أن تحث إلى فمي بالكاس//. ولم أجد في اللسان ولا في التاج ولا في القاموس ولا في الصحاح، ولا في تنبيه ابن بري عليه، شيئاً في مادة «حث» يتعلق بالخمر. ولكن دوزي التقط فعل «حث» وقال فيه: «وحين يكون الشارب أو الكأس مفعول حث فإن معناه يكون أعجله إعجالاً متصلاً بحيث إن الكؤوس تتابَعُ مسرعة»، ثم يقول ناقلاً: «بدأت القيْنة تغني فصار من الغريب أن حثَّ شربه هو عليه وأظهر الطرب» وينقل: «ممن دينه حث الكأس». اهـ رينهارت دوزي. ولعلنا بعد هذا نقول إن الحث هو الموالاة في الشراب، فالساكر يشعر بدبيب الخمر، فيطلب المزيد سعياً لاستتمام النشوة، فهذا هو الحث. وأما عندما تغدر به الخمر وتفقده وعيه فباب آخر

٦٢ عذبت قلب الشاعر

أَغْمِدْ عَنِ المُهَجاتِ سَيْفَ النَّاظِرِ   فـلـقـد فَـتَـرْنَ مِـنَ الـلِّـحَـاظِ الـفَـاتِـرِ

أغمد سيف الناظر (العين) عن المهجات (القلوب)، فلقد فترت قلوبنا (ضعفت) من اللحاظ (النظر) الفاتر. يقول: أيتها الحسناء أدخلي سيف عينيك في غمده وارحمينا

كيفَ اعْتَدَلْتَ مَعَ اعْتِدَالِ الغُصْنِ في حَرَكَاتِهِ، وفَعَلْتَ فِعْلَ الجَائِرِ
اعتدل قوامك فكان كالغصن ولكن فعلك هو فعل الجائر الظالم (طباق بين العادل والظالم)

يا شاعِراً في طَرْفِهِ وبهائِهِ وجَمالِهِ، عَذَّبْتَ قلبَ الشاعِرِ

٦٣ الوجه والقفا

ونسبت لأبي نواس:

يا أبا جعفرٍ! خُلقتَ بَديعاً فاقَ حُسْنَ الوجوهِ حسنُ قَفاكا
يا أبا جعفرٍ! هلِ النَّأْيُ يُنْجِي مِنكَ؟ هَيهاتَ! بل يَزيدُ هَلاكا

٦٤ محاسنه في وجنتيْك

بَعَثتُكَ رَائداً، فسرقتَ منه محاسِنَهُ بِلَحْظَةِ ناظِريْكا
بعثتك أيها الرسول رائداً تفتح لي الطريق فسرقت محاسن المحبوب بنظرك إليه

وجئتَ تقولُ: لم أرَهُ، وهَذي محاسِنُه تَلُوحُ بِوَجْنَتَيْكا
وزعمت أنك لم تره، ولكنني أرى محاسنه في وجنتيك

٦٥ ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال:

البَيْنُ جَرَّعَنِي نَقيعَ الحَنْظَلِ والبينُ أثْكَلَني، وإنْ لم أُثْكَلِ
نقيع الحنظل: الماء المر الذي نُقِع فيه الحنظل

ما حَسرتِي أنْ كِدْتُ أقضِي، إنَّمَا حَسَراتُ نَفسيَ أنَّني لم أفعلِ
نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيثُ شئتَ مِنَ الهَوى ما الحُبُّ إلَّا لِلْحَبيبِ الأوَّلِ
كمْ مَنْزِلٍ في الأرضِ يَأْلَفُهُ الفَتى وحنينُهُ أبداً لأوَّلِ مَنْزِلِ

٦٦ في دعوة الأحلام

إسْتَزارَتْهُ فِكْرتِي في المنامِ فَأَتَانِي في خُفْيَةٍ، واكْتِتَامِ
استزارته فكرتي (طلبت منه أفكاري وعقلي الزيارة)

يا لها لَذَّةً تَنَزَّهَتِ الأرْ وَاحُ فيها سِرّاً مِنَ الأَجْسامِ
هي متعة تنزهت الأرواح فيها، سراً من (مع التكيم على) الأجسام

مَجْلِسٌ لم يكنْ لنا فيهِ عَيْبٌ غيرَ أنَّا في دَعْوَةِ الأحلامِ

٦٧ تكسير أبصار

أَليسَ عَجيباً أنَّ بيتاً يَضُمُّني وإيَّاكَ، لا نَخْلُو ولا نَتَكَلَّمُ
إشَارَةُ أَفْوَاهٍ، وغَمْزُ حَواجِبٍ وتَكْسِيرُ أَبْصَارٍ، وطَرْفٌ يُسَلِّمُ

٦٨ زدني ألما

أنتَ في حِلٍّ، فَزِدْني سَقَمَا أَفْنِ صبري، واجعلِ الدمعَ دَمَا
وارضَ لي الموتَ بِهَجْرِيكَ، فإنْ لم أَمُتْ شوقاً، فَزِدْني ألما
مِحْنَةُ العاشِقِ في ذُلِّ الهَوى، وإذا استُودِعَ سِرّاً كَتَمَا
ليسَ مِنَّا مَنْ شَكَا عِلَّتَهُ؛ مَنْ شَكَا ظُلْمَ حَبيبٍ ظَلَمَا

٦٩ تساكتْنا

لِخَدَّيْهِ دَقَائِقُ لو تَرَاها إذَنْ لَسَأَلْتَ عنها في المعاني

دقائق: تفاصيل دقيقة، في المعاني: في علم المعاني بما فيه من تعقيدات

تَساكَتْنَا، وقَلبَانا جميعاً بِأَلْفَاظِ الهوى يَتَكَلَّمَانِ

تساكتنا: تبادلنا السكوت

٧٠ قتيل العيون

بَلِيَ الجسمُ، لَكِنِ الشَّوْقُ حَيٌّ ليسَ يَبْلَى، وليسَ تَبْلَى الشُّجُونُ
إن لِلَّهِ في العِبَادِ مَنايا سَلَّطَتْها على القلوبِ العيونُ!

٧١ مكانك مصون

لَعَمْري لَئِنْ قَرَّتْ بِقُرْبِكَ أَعْيُنٌ لقد سَخَنَتْ بِالبَيْنِ منكَ عُيونُ
فَسِرْ أو أَقِمْ، وَقْفٌ عليكَ مَحَبَّتي مَكَانُكَ مِنْ قَلبي عليكَ مَصُونُ

٧٢ الأصل في بدني

الحُسْنُ جُزْءٌ مِنْ وَجْهِكَ الحَسَنِ يَا قمراً مُوفِياً على غُصُنِ

موفياً: مشرفاً ومعتلياً

إنْ كنتَ في الحسنِ واحداً، فأنا، يا واحدَ الحُسْنِ، واحدُ الحَزَنِ
كلُّ سَقَامٍ تَرَاهُ في أَحَدٍ فَذَاكَ فَرْعٌ، والأَصْلُ في بَدَني
كَوامِنُ الحبِّ، قبلَ كونِكَ في أَفْئِدَةِ العاشِقينَ، لم تَكُنِ

٧٣ اقشعرارهن من الشيب

أرى أَلِفَاتٍ قد كُتِبْنَ على رَاسي بِأَقْلامِ شَيْبٍ، في مَهَارِقِ أَنْقَاسِ
أرى أحرف الألِف (شعرات بيض) قد كتبن على رأسي في مهارق (أوراق) أنقاس (مسودة بالحبر).
في هذا التشبيه الورقة سوداء والحبر أبيض

فإنْ تَسْأَلِيني: مَنْ يَخُطُّ حُروفَهُ؟ فَأَيْدي اللَّيَالي، تَسْتَمِدُّ بِأَنْفاسي
الذي يخط هذه الحروف هو أيدي الليالي (المصائب)
وهي تستمد (تستقي المداد، أي الحبر) من أنفاسي

جَرَتْ في قُلوبِ الغَانياتِ، لِشَيْبَتي، قُشَعْرِيرَةٌ، مِنْ بَعدِ لِينٍ وإِينَاسِ
كانت الفتيات الحسان يأنسن بي والآن تجري قشعريرةُ اشمئزازٍ في قلوبهن مني

٧٤ الفعل لمالك والشهرة للغيوم

يمدح مالك بن طوق التغلبي:

بَنَى بِهِ اللَّهُ، في بَدْوٍ وفي حَضَرٍ، لِوَائِلٍ سُورَ عِزٍّ غيرَ مُنْهَدِمِ
لو كانَ يَأْمُلُ عَمْرٌو مثلَهُ شَبَهاً مِنْ صُلْبِه، لم يَجِدْ لِلْمَوْتِ مِنْ ألم
لو كان عمرو بن كلثوم الفارس الشاعر الجاهلي، يأمل أن يكون في ذريته المقبلة رجلاً يشبهه كمالك بن طوق، لمات مستريحاً بلا ألم

ولا أَرَى دِيمَةً أَمْحَى لِمَسْغَبَةٍ منهُ؛ على أَنَّ ذِكْراً طَارَ لِلْدِّيَمِ
لا غيمةَ أكثر محواً لمسغبة (لجوع) من مالك بن طوق، ولكن..
للأسف استأثرت الديم (الغيوم) بالذكْر (الشهرة)

٧٥ صادق معك، كاذب مع غيرك

يمدح عمر بن طوق التغلبي:

نَفَقَ المديحُ بِبابِه، فكسوتُه عِقداً من الياقوتِ غيرَ مُثَقَّبِ
نفق المديح (راجَ) ببابه (عنده) فكسوته قصيدة كأنها عقد ياقوت لكنها تتميز بأن ياقوتها غير مثقوب
فهي عبارة عن أبيات شعر

غَـرُبَـتْ خـلائِـقُـه، وأَغْـرَبَ شـاعـرٌ   فـيـهِ، فـأحـسَـنَ مُـغْـرِبٌ فـي مُـغْـرِبِ
خلائقه (صفاته) غريبة بسموها، وشعري غريب بجودته

لـمـا كَـرُمْـتَ نـطـقـتُ فـيـكَ بـمـنـطـقٍ   حـقٍّ، فـلـم آثَـمْ ولـم أَتَـحَـوَّبِ
لأنك كريم حقاً فلم أتجاوز الحق في مدحك، لذا ليس عليَّ إثم الكذب ولا حوبه (إثمه أيضاً)

ومتى امتدحْتُ سواكَ كنتُ متى يَضِقْ   فـي وصفِه صِـدقُ الـمَـقـالـةِ أكـذِبِ
تعليق عمران القفيني: (هذا البيت هدم معنى سابقه. ما الذي يقنعني أنه لم يكذب في البيت السابق، وقد أقرّ أنه كذاب أشِرٌ ههنا؟ في كل واد يهيمون)

٧٦ أتيتك مضطراً

يمدح مالك بن طوق ويستبطئه:

قفْ بـالطُّـلـولِ الـدَّارسـاتِ «عُـلاثَـا»   أَمْـسَـتْ حِـبَـالُ قَـطـيـنِـهِـنَّ رِثَـاثَـا
قف يا «علاثة» (غلام أبي تمام) بالطلول الدارسات (الممحوة) التي أصبحت حبال قطينهن (ساكنيهن) رثاثاً (رثة مهترئة). أي أن الصلة انقطعت بين المكان وساكنيه فغدا أطلالاً

قَسَمَ الزمانُ ربوعَها: بين الصَّبا   وقَـبـولِـهَـا ودَبُـورِهـا، أثْـلاثـا
قسم الزمان ربوع هذه الديار ما بين الرياح الثلاث: الصبا والقبول والدبور، فلكل ريح ثُلُث في التخريب

عَمْرُو بنُ كُلْثُومِ بنِ مَالِكٍ الذي   تـركَ الـعُـلَـى لِـبَـنـي أَبـيـه تُـراثَـا
عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة الذي ورَّث أحفاده المجد..

أَلْـقَـى عـلـيـه نِـجَـارَه، فـأَتَـى بـه   يَـقـظَـانَ، لا وَرَعـاً ولا مُـلْـتَـاثـا
عمر بن كلثوم ألقى بنجاره (بأصله الطيب) على الممدوح، فأنجبه متيقظاً، وليس ورعاً (جباناً)، ولا ملتاثاً (بطيئاً بليداً)

وَزَعُوا الـزَّمَـانَ وَهُـمْ كُـهـولٌ جِـلَّـةٌ   وَسَـطَـوْا عـلـى أَحْـدَاثِـه أحْـدَاثَـا
هؤلاء الأحفاد وزعوا الزمان (ردعوا الزمان عن الإتيان بشر) وهم كهول أجلاء، وتحكموا في سير أحداثه وهم أحداث (ناشئون)

يَا مَالِكُ ابْنَ المالِكِينَ! أَرَى الذي   كُـنَّـا نُـؤَمِّـلُ مِـنْ عـطـائـكَ رَاثَـا
راثَ (أبطأ)

لـولا رَجـاؤُكَ كـنـتُ ذا مَـنْـدُوحَـةٍ   عن «بَـرقَـعِـيـدَ» وأرضِ «بَـاعِـيـنَـاثـا»
لولا ترقبي عطاياك لكنت ذا مندوحة (مستغنياً) عن القدوم إلى برقعيد وباعيناث

والكـامِـخِـيَّـةُ لـم تـكـنْ لـيَ مـنـزِلاً،   فَـمَـقـابِـرُ الـلَّـذَّاتِ مِـنْ قَـبْـرَاثـا

ولا كنت نزلت بـ«الكامخية»، ولا قبرت لذَّاتي في «قبراث»

لـم آتِـهَـا، مِـنْ أيِّ وَجْـهٍ جـئـتُـهـا،   إلَّا حَـسِـبْـتُ بـيـوتَـهـا أَجْـدَاثـا

أجداث (قبور)

بَـلَـدُ الـفِـلاحَـةِ، لـو أتَـاهـا جَـرْوَلٌ،   أعـنـي الـحُـطَـيْـئَـةَ، لاغْـتَـدى حَـرَّاثـا

هذه بلد فلاحة لا شيء آخر فيها، ولو أتاها الشاعر الحطيئة جرول بن أوس، الذي قال في شعره إنه لم يمتهن الحراثة، لغدا حراثاً

تَـصْـدَا بِـهـا الأَفْـهَـامُ بـعـدَ صِـقَـالِـهـا،   وتَـرُدُّ ذُكْـرانَ الـعُـقـولِ إِنَـاثـا

يصيب الصدأ العقول في هذه الأرض، والعقل الذكر (السديد) يتحول إلى عقلٍ أنثى

أرضٌ خَـلَـعْـتُ الـلَّـهْـوَ، خَـلْـعِـيَ خَـاتِـمِـي،   فـيـهـا، وطَـلَّـقْـتُ الـسـرورَ ثَـلاثـا

٧٧ الغباء والتغابي

يمدح مالك بن طوق التغلبي (ويشفع لديه في قبيلة من تغلب شقت عصا طاعته):

لا جُـودَ في الأقـوامِ يُـعـلَـمُ، مـا خَـلا   جُـوداً حـلِـيـفـاً فـي بـنـي عَـتَّـابِ

لا يوجد كرم نعرف عنه إلا الحليف (الملازم) في بني عتَّاب (فرع من تغلب، وهم قوم الممدوح)

مـتـدفِّـقـاً صَـقَـلـوا بـه أحـسـابَـهُـمْ؛   إن الـسَّـمـاحَـةَ صَـيْـقَـلُ الأحـسـابِ

جودهم متدفق وبه صقلوا أحسابهم (شرفهم العريق)، فالسماحة (السماح ببذل المال) صيقل، والصيقل هو الصاقل، الأصل الطيب

لِـلـجـودِ بـابٌ فـي الأنـامِ، ولـم تَـزَلْ   يُـمـنَـاكَ مِـفـتـاحـاً لِـذاكَ الـبـابِ

فأَقِلْ «أُسَامَةَ» جُرْمَهـا، واصْـفَـحْ لـهـا   عـنـه، وهَـبْ مـا كـانَ لـلـوهَّـابِ

أَقِلْ قبيلة أسامة (وهي جزء من بني تغلب أيضاً) جرمها (اجعلها تنهض من عثرتها)، وسامحها، وامسح ما فعلته بلحيتك الطيبة

لا رِقَّـةُ الـحَـضَـرِ الـلَّـطِـيـفِ غَـذَتْـهُـمُ،   وتَـبـاعَـدُوا عـن فِـطـنـةِ الأعـرابِ

فهم لا يتمتعون برقة أهل المدن، وليس فيهم ما في الأعراب من فطنة ونباهة

فـإذا كَـشَـفْـتَـهُـمُ وجـدْتَ لـديْـهِـمُ:   كَـرَمَ الـنـفـوسِ، وقِـلَّـةَ الآدابِ

نفوسهم كريمة، لكن عندهم قلة أدب جعلتهم يخالفون أوامرك

لـيـسَ الـغَـبِـيُّ بِـسَـيِّـدٍ فـي قـومِـه،   لـكـنَّ سـيِّـدَ قـومِـه الـمُـتَـغَـابـي

السيد يكون فاهماً ما يدور حوله، ولكنه يتصنع عدم الفهم أريحيةً منه وسماحاً

فاضْمُمْ أقَاصِيَهُمْ إليكَ، فإنه لا يَزْخَرُ الوادي بِغيرِ شِعَابِ

ضُمَّ تحت كنفك أقاصيهم (من ابتعد منهم عن طاعتك) فهم سند لك، والوادي لا يزخر ويتدفق بدون شعاب (روافد)

والسهمُ بالرِّيشِ اللُّؤامِ، ولنْ تَرى بيتاً بِلا عَمَدٍ ولا أَطْنابِ

السهم يصبح جيداً بالريش اللؤام (المتلائم)، والبيت (الخيمة) لا تقوم بلا أعمدة وبلا أطناب (حبال). يقول: لا يكتمل السؤدد إلا بلوازمه الفرعية، فالسهم الجيد محتاج إلى الريش الذي يلائم بعضه بعضه (والقبيلة المذكورة تلائم الممدوح لأنها من تغلب مثله)

يا خاطباً مِدَحي إليه بِجُودِه؛ ولقد خَطَبْتَ قليلةَ الخُطَّابِ

مدحي (قصائدي المدحية) كالعذارى، وأنت خطبتها إليك بكرمك؛ ولا يقدر على خطبتها سوى القليلين لأنها غالية

خُذْها ابْنَةَ الفِكْرِ المهَذِّبِ في الدُّجى والليلُ أسوَدُ رُقْعَةِ الجِلْبابِ

خذ هذه القصيدة فهي وليدة فكر مهذِّب لها في الدجى (يشذبها في ساعات الليل، ساعات الإبداع) عندما يكون الليل حالك الثوب. والمهذِّب بكسر الذال قراءتي، وخالفت فيها التبريزي والصولي والأسود اللبناني، وكلهم فَتَح

بِكْراً تُوَرَّثُ في الحَياةِ، وتَنْثَني في السِّلْمِ وَهْيَ كثيرةُ الأَسْلابِ

قصيدتي العذراء هذه (الجديدة المخصصة لك) يمكن لك توريثها لأولادك وأنت حي، فهي تكسبهم جميعاً مجداً وحسنَ ذكر، وتعود عليهم بأسلاب (غنائم) كثيرة دون حرب، وهذه الغنائم هي السمعة الطيبة. كذا قرأتُ البيت: بفتح الراء من (تورَّث)، وخالفت التبريزي والصولي والأسود الذين كسروها جميعاً. والشاعر العربي لا يتباهى بأن قصيدته عادت عليه بالمال الكثير، بل بأنها ستُكسِب الممدوح صيتاً وستبقى على الأجيال. والله أعلم

ويَزيدُها مَرُّ اللَّيالي جِدَّةً، وتَقَادُمُ الأيامِ حُسْنَ شَبابِ

وقصيدتي خالدة على مر الأيام

٧٨ وليس لي عمل زاك فأدخلَها

يمدح مالك بن طوق:

قل لابنِ طَوْقٍ، رَحَى سَعْدٍ إذا خَبَطَتْ نَوائِبُ الدهرِ أعلاهَا وأَسْفَلَها..

قل لمالك بن طوق: إذا ضربت مصائب الدهر رحى الطاحون في قبيلة سعد (رمز المنعة للقبيلة/ والرحى هي القبيلة القوية) من شقها الأعلى وشقها الأسفل..

أَصْبَحْتَ حَاتِمَهَا جوُداً، وأَحْنَفَها حِلْماً، وكَيِّسَها عِلْماً ودَغْفَلَها

.. عندئذ فأنت كحاتم الطائي في الجود، وكالأحنف بن قيس في الحلم، وكزيد بن الكيِّس و«دغفل النسَّابة» في علمهما بالأنساب

ما لِي أَرَى الحُجْرَةَ الفَيْحَاءَ مُقْفَلَةً عنِّي، وقد طالما اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلَها!

لماذا تبقى الحجرة الفيحاء (الواسعة) مقفلة دوني، مع أنني كثيراً ما استفتحت (حاولت فتح) مقفلها (حالتها وهي مقفلة) بما أقوله من شعر المدح

كأنها جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مُعْرِضَةً، وليس لِي عَمَلٌ زَاكٍ فَأَدْخُلَها

معرضة: مائلة، زاك: طيب

٧٩ إفراط الحزن لا يليق بالسادة

يمدح مالك بن طوق، ويعزيه عن أخيه القاسم بن طوق:

أَمَالِكُ! إِفْراطُ الصَّبَابَةِ تَارِكٌ جَنَاً، واعْوِجَاجاً في قَناةِ المَكَارِمِ

الصبابة: الحزن، جنا: انحناء

تأمَّلْ رُوَيْداً! هلْ تَعُدَنَّ سالماً، إلى آدَم، أم هَلْ تَعُدُّ ابنَ سَالمِ؟

لا أحد من الآن ورجوعاً حتى آدم سلم من الموت

مَتى تُرْعِ هَذا الموتَ عيْنَاً بَصيرَةً تَجِدْ عَادلاً منهُ شبيهاً بِظَالم

تُرْعِ الأمر عينك: تجعل عينك ترعاه وتراقبه

خُلِقْنَا رِجَالاً للتَّصَبُّرِ والأَسَى، وتِلْكَ الغَواني لِلْبُكَا والمآتِمِ

٨٠ السمح السخي

يرثي القاسم بن طوق:

فتىً لم تكنْ تَغْلي الحُقُودُ بصدرِهِ وتَغلي لأَضْيافِ الشتاءِ مَراجِلُهْ

مراجله: قدوره، فهو يطعم الأضياف

٨١ إن الألمعي منجِّم

يمدح مالك بن طوق حين عزل عن الجزيرة:

حَسَدُ القرابةِ لِلْقَرابَةِ قَرْحَةٌ أَعْيَتْ عَوانِدُها، وجُرْحٌ أَقْدَمُ

قرحة: جرح، أعيت عواندها: أعجزت جروحها الأطباء

تِلْكُمْ قُرَيْشٌ: لم تَكُنْ آراؤُها تَهْفُو، ولا أحلامُها تتقَسَّمُ

لم تكن آراء قريش تهفو (تخطئ)، ولم تكون أحلامهم (عقولهم) تتشتت

حتى إذا بُعِثَ النبيُّ محمدٌ   فيهِمْ، غَدَتْ شَحْناؤُهُمْ تَتَضَرَّمُ

شحناؤهم تتضرم: أحقادهم تشتعل

لما أَقامَ الوَحْيُ بينَ ظُهورِهِمْ   ورأَوْا رسولَ اللّهِ أحمدَ منهُمُ..

عَزَبَتْ عُقولُهُمُ؛ وما مِنْ مَعْشَرٍ   إلّا وَهُمْ، مِنْهُمْ أَلَبُّ وأَحْزَمُ

عزبت عقولهم (ابتعدت عنهم)، وأصبح كل معشر ألب (أعقل) منهم وأكثر حزماً

إن تَذْهَبُوا عن مَالِكٍ، أو تَجْهَلُوا   نُعْمَاهُ، فَالرَّحِمُ القَرِيبَةُ تُعْلَمُ

كانتْ لَكُمْ أخلاقُهُ مَعْسُولةً،   فتَرَكْتُموها وَهْيَ مِلْحٌ عَلْقَمُ

حتى إذا أَجَنَتْ لكُمْ، دَاوَتْكُمُ   مِنْ دائِكُمْ؛ إنَّ الثِّقَافَ يُقَوِّمُ

حتى إذا أخلاقه أجنت لكم (تغيرت عليكم)، داوتكم من أحقادكم، والثقاف (برْي الرمح) يقوّم

فَقَسَا لِتَزْدَجِرُوا، ومَنْ يَكُ حازِماً   فَلْيَقْسُ أَحيانا، وحِيناً يَرْحَمُ

لتزدجروا: ليكون في فعله زجر لكم وتقريع

وأَخافَكُمْ كَيْ تُغْمِدُوا أَسيافَكُمْ،   إِنَّ الدَّمَ المغْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ

أخافكم كي توقفوا التهور بينكم، فالدم المغتر (الأقارب المتهورون) يحرسه الدم (يحميهم من تهورهم أقارب آخرون)

ولقد جَهَدْتُمْ أنْ تُزِيلُوا عِزَّهُ،   فإذا أَبَانٌ قد رَسَا، ويَلَمْلَمُ

عملتم على إزالة عزه فإذا هو راسخ راسٍ مثل جبل «أبان» و«يلملم»

ولقد عَلِمْتُ، لَدُنْ لَجَجْتُمْ، أنه   ما بعدَ ذَاكَ العُرْسِ إلّا المأْتَمُ

قد علمت عندما لججتم (عاندتم) أنه سيكون بعد عرس العصيان مأتم

عِلْمَاً طَلَبْتُ رُسُومَهُ فَوجَدْتُها   في الظَّنِّ، إنَّ الألمعِيَّ مُنَجِّمُ

معرفتي هذه طلبت رسومها (بحثت عن أصلها في آثارها). فوجدت ذلك في الظن، أي أنني اهتديت إلى ذلك بمجرد التفكير، والشخص الذكي يتنبأ بما سيكون، فكأنه منجم

٨٢ غفلات الشباب

يمدح أبا سعيدٍ محمد بن يوسف الثغري:

مِنْ سَجَايا الطُّلُولِ أَلّا تُجِيبا   فَصَوَابٌ مِنْ مُقْلَةٍ أن تَصُوبا

من سجايا (صفات) الطلول ألا تجيبك وأنت تسألها عن الأحباب، ولذا من الصواب أن تصُوب مقلتك (تمطر بالدمع)

فَاسْأَلَنْها، واجعَلْ بُكَاكَ جواباً، تَجِدِ الشوقَ سائلاً ومُجِيبا

ومع ذلك فاسأل الأطلال، وليكن الجواب منك بكاءً،
فبهذا تجد أن السائل والمجيب هما شوقك لأحبابك

قد عَهِدْنا الرُّسومَ وَهْيَ عُكَاظٌ لِلصِّبا، تَزْدَهِيكَ حُسْناً وطِيبا

عهدنا الرسوم (الأطلال) وهي عكاظ (مزدحمة كسوق عكاظ) للشباب، تزدهيك (تفتنك) بحسنها وطيبها

أَكْثَرَ الأرضِ زائِراً ومَزُوراً وصَعُوداً مِنَ الهَوى وصَبُوبَا

عهدناها أكثر أماكن الأرض ازدحاماً بمن هو زائر ومن هو مزور، وأكثر البقاع صعوداً (تلة) مما فيها من الهوى والحب وصبوباً (منخفضاً) فتلك الأطلال كانت مسارح للحب، فيها وعورته وعذابه، وفيها سهولته وجماله

وكَعَاباً كأَنَّمَا أَلْبَسَتْها غَفَلاتُ الشبابِ بُرْدَاً قَشِيبا

وكانت الأطلال أكثر البقاع كعاباً (فتيات) ألبستهن غفلات الشباب (براءة الفتيات)
برداً قشيباً (ثوباً جديداً)

بَيَّنَ البَيْنُ فَقْدَهَا. قَلَّمَا تَعْرِفُ فَقْداً لِلْشَّمْسِ حتَّى تَغِيبا

بيَّن لي البين (الفراق) فقْد أولئك الفتيات (قيمتهن).
وأنت قليلاً ما تدرك قيمة الشمس إلَّا بعد أن تغيب

لَعِبَ الشيبُ بِالمفَارِقِ، بل جَدَّ - فأَبْكَى تُمَاضِراً ولَعُوبا

لعب الشيب بمفارق رأسي، بل هو جاد لا لاعب، فقد أبكى «تماضرَ» و«لعوبَ» أسفاً

خَضَبَتْ خَدَّها إلى لُؤْلُؤِ العِقْدِ دَمَاً أنْ رَأَتْ شَوَاتِي خَضِيبا

الحبيبة خضبت (لونت) خدها بدمع ممزوج بالدم وصل حتى عقدها لأنها رأت شواتي (جلدة رأسي) خضيباً (مخضوبة: مصبوغة لستر الشيب)

كلُّ دَاءٍ يُرْجَى الدَّوَاءُ لهُ، إلَّا - الفَظِيعَيْنِ: مِيتةً ومَشِيبا

لو رأى اللَّهُ أنَّ لِلْشَّيْبِ فَضْلاً جاوَرَتْه الأبْرارُ في الخُلْدِ شِيبا

إذن ففي الجنة ستسود شعورنا! شكراً أبا تمام على المعلومة. هل يكتسي الأصلع شعراً أيضاً؟

كلَّ يومٍ تُبدِي صُروفُ الليالِي خُلُقاً مِنْ أبي سَعِيدٍ رَغِيبا

رغيب: مرغوب فيه

سَبقَ الدهرَ بالتِّلادِ، ولم يَنْتَظِرِ النَّائِباتِ حتَّى تَنوبَا

يسبق الدهر (مصائب الزمن) ببذل التلاد (المال الموروث)،
ولا ينتظر أن تأتي الحاجة الماسة حتى يعطي

فإذا ما الخطوبُ أَعْفَتْهُ كانتْ   راحَتَاهُ حَوادِثاً وخُطُوبَا

فإذا لم تأت خطوب (مصائب)، كانت يداه حوادثَ ومصائب على الأعداء

وصَلِيبُ القَناةِ والرَّأْيِ والإسْـ   ـلامِ، سَائِلْ بِذاكَ عنه الصَّلِيبا

قناته صلبة (عزيمته قوية)، وكذا رأيه وتمسكه بالإسلام، واسأل الصليب
(فقد لقي منه الروم حرباً شرسة)

لقدِ انْصَعْتَ، والشِّتَاءُ لهُ وَجْـ   ـهٌ يَراهُ الكُمَاةُ جَهْماً قَطُوبا

لقد انصعت (مضيت) والشتاء ذو وجه قطوب (مكفهر) كما يراه الكماة (المسلحون)

في لَيالٍ تَكادُ تُبْقي بِخَدِّ الشَّـ   ـمسِ، مِنْ رِيحِها البَلِيلِ شُحُوبا

في ليال تترك في خد الشمس شحوباً من ريحها البليل (الباردة المحملة بالمطر)

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ في أَخْدَعَيْه   ضَرْبَةً غادَرَتْه عَوْداً رَكُوبا

ضربت الشتاء في أخدعيه (عرقين في العنق) ضربة غادرته (جعلته) عوداً (جَمَلاً) ركوباً (مذلَّلاً).
أي أنك طوعت فصل الشتاء للحرب

وأَرَادُوكَ بالبَيَاتِ، ومَنْ هَـ   ـذَا يُرَادي مُتَالِعاً وعَسِيبَا

أرادوك بالبيات (أرادوا خداعك والهجوم ليلاً)، ومن ذا الذي يرادي (يرجم بالحجارة) متالعاً
وعسيباً (هذين الجبلين الكبيرين)، فأنت أكبر من خدعة كهذه

فَرَأَوْا قَشْعَمَ السِّياسَةِ قد ثَقَّـ   ـفَ مِنْ جُنْدِهِ القَنَا والقُلُوبا

رأوا قشعم (نسراً مسنّاً محنكاً) السياسة (سوْس الناس وقيادتهم) قد ثقف (قوَّم) من جنوده القنا
(الرماح) والقلوب أيضاً

أَنْضَرتْ أَيْكَتي عَطايَاكَ، حتى   صارَ سَاقاً عُودي وكانَ قَضِيبا

عطاياك جعلت أيكتي (روضتي) ناضرة،
وصار عودي ساقاً مخضرة بعد أن كان قضيباً عارياً من الورق

مُمْطِراً لي بِالجَاهِ والمالِ، لا أَلْـ   ـقاكَ إلَّا مُسْتَوْهِباً، أو وَهُوبا

أنت تمطر لي إما بجاهك أو بمالك: فأراك تستوهب لي المال (تطلب من الآخرين إعطائي)،
أو تهبه إياي

فإذا مَا أَرَدْتَ كُنتَ رِشَاءً،   وإذا ما أردْتَ كُنتَ قَلِيبا

فأنت إما رشاء (حبل الدلو) ـ أي واسطة للعطاء ـ أو قليب (بئر)

٨٣ السيوف المغيظة

يمدح أبا سعيد الثغري:

قَلُّوا، ولكنَّهُمْ طابُوا، فأنجَدَهُمْ جيشٌ من الصبرِ، لا يُحْصَى له عَدَدُ

قل عددهم ولكنهم كانوا صادقين، فكان الصبر جيشاً لهم: جيشاً بلا جنود فلا عدد له كي تحصيه

إذا رأوْا لِلمنايا عارِضاً لَبِسُوا من اليقينِ دُرُوعاً ما لها زَرَدُ

إذا رأوا للمنايا عارضاً (سحاباً ماطراً) لبسوا لاتقائه دروعاً من اليقين (الإيمان) ليس لها زرد (حلقات)

نَأَوْا عنِ المُصْرِخِ الأدنى، فليس لَهُمْ إلَّا السيوفَ، على أعدائِهِمْ مَدَدُ

ابتَعَدوا عن المصرخ (المنجد) الأدنى لتوغلهم في أرض العدو، فلم يعد لهم مدد (نجدة) إلا السيوف

وَلَّى مُعَاوِيَةٌ عنهُمْ، وقد حَكَمَتْ فيه القَنا، فأَبى المقْدارُ والأَمَدُ

هرب معاوية (اسم بابك الخرمي/أو اسم أخيه)، وقد حكمت فيه القنا (الرماح) بالموت، ولكن المقدار (القدر) والأمد (مدة العمر) منحاه عمراً ففر سالماً

نَجَّاكَ في الرَّوْعِ ما نَجَّى سَمِيَّكَ في صِفِّينَ، والخَيْلُ بِالفُرسانِ تَنْجَرِدُ

نجاك يا معاوية في الحرب ما نجى سميك (المماثل لك في الاسم: معاوية بن أبي سفيان) في معركة صفين عندما كانت الخيل تنجرد (تعدو) بالفرسان

إن تَنْفَلِتْ، وأُنُوفُ الموتِ رَاغمةٌ، فاذهبْ فأنتَ طَليقُ الرَّكْضِ يَا لُبَدُ

فلئن هربت رغم أنف الموت الذي يطلبك، فأنت طليق الركض (ناجٍ بسبب الفرار) يا لبد (يا طويل العمر: ولبد هو سابع نسور لقمان، إذ قيل للقمان: اتخذ سبعة نسور تعش بقدر عمرها، فكان يتخذ نسراً بعد نسر، وكان سابعها «لبد» أطولها عمراً، وبموته مات لقمان)

لا يومَ أَكْثَرَ منهُ مَنْظراً حَسَناً، والمَشْرَفِيَّةُ في هامَاتِهِمْ تَخِدُ

المشرفية: السيوف، تخد: تركض

كأنها وَهْيَ في الأَوْدَاجِ وَالِغَةٌ، وفي الكُلَى، تَجِدُ الغَيْظَ الذي نَجِدُ

كأن السيوف وهي في الأوداج (عروق العنق) والكلى والغة (شاربة) تحس بالغيظ الذي نجده في صدورنا من هذا العدو

كأنَّ بَابَكَ بِالبَذَّيْنِ بَعدَهُمُ نُؤْيٌ أقامَ خِلافَ الحَيِّ أو وَتَدُ

كأن بابَك الخرمي في البذَّين (اسم مكان) بعد المعركة نؤي (قناة الخيمة: يحفرون قناة تدور حول الخيمة لكي ينزل فيها المطر، ولا يدخل الخيمة)، أو وتد بقي موجوداً بعد رحيل الحي (القوم). أي أن وضع بابك صار مهترئاً كبقايا المنزل بعد رحيل أهله

بِكُلِّ مُنْعَرَجٍ من فارسٍ بَطَلٍ، جَنَاجِنٌ فِلَقٌ فيها قَناً قِصَدُ

في كل منعرج (طريق منعطِف) جناجن فلق (عظام صدر مفلقة) لفارس بطل، وفيها قنا قصد (رماح مكسرة)

لما غَدا مُظْلِمَ الأحشاءِ من أَشَرٍ أَسْكَنْتَ جَانِحَتَيْهِ كَوكَباً يَقِدُ

لما أصبح الفارس مظلم الأحشاء (القلب) من أشر (بطرٍ بالنعمة) أسكنت جانحتيه (جانبي صدره) كوكباً يقد (كوكباً متقداً: سنان الرمح)

يَوْمٌ به أخذَ الإسلامُ زِينتَه بِأَسْرِها، واكتسى فخراً به الأَبَدُ

لم تَبْقَ مُشركةٌ إلّا وقد علِمَتْ، إنْ لم تَتُبْ، أنّه لِلْسَّيْفِ ما تَلِدُ

فافْخَرْ، فما مِنْ سماءٍ للنَّدَى رُفِعَتْ إلّا وأفعالُكَ الحُسْنى لها عَمَدُ

عمد: أعمدة

واعذِرْ حسودَكَ فيما قد خُصِصْتَ به؛ إن العُلى حَسَنٌ في مثلِها الحَسَدُ

٨٤ مداراة الرؤساء

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري:

غَدا الهمُّ مُخْتَطّاً بِفَوْدَيَّ خِطَّةً طَرِيقُ الرَّدَى، منها إلى النَّفْسِ، مَهْيَعُ

أصبح الهم وقد اختط في فوديَّ (سالِفيَّ) خطة (طريقاً/يعني الشيب)، وهذا الطريق يمر منه الردى (الموت) إلى المرء، وهو طريق مهيع (واسع)

له منظرٌ في العينِ أَبْيَضُ ناصِعٌ، ولكنه في القلبِ أسودُ أَسْفَعُ

أسفع: مسودّ

ونحنُ نُزَجِّيهِ، على الكُرْهِ والرِّضَا؛ وأَنْفُ الفتى مِنْ وجهِهِ، وَهْوَ أَجْدَعُ

نحن نزجيه (نتماشى معه) رضينا أم أبينا؛ وأنفك منك وإن كان أجدع (هذا مثل معناه: عليك أن ترضى بقسمتك، والأجدع المشروم)

لقد آسَفَ الأعداءَ مجدُ ابنِ يوسُفٍ وذو النَّقْصِ في الدنيا، بِذي الفضلِ، مُولَعُ

مجد الرجل أحزَنَ أعداءه، والناقص مولع (مُغرىً/ مناكِفٌ) بذي الفضل

هُوَ السَّيْلُ: إنْ واجهْتَهُ انْقَدْتَ طَوْعَهُ، وتَقْتَادُهُ مِنْ جَانِبَيْهِ فَيَتْبَعُ

إن عاندته فهو كالسيل يقودك ويجرفك، وإن داريت السيل وجئته من الجانبين استقيت من مائه، وكذا الرئيس فلا تواجهه مواجهةً، بل احرص على مداراته كي يلبي رغباتك. كثيرون من مدراء الدوائر في أيامنا يظنون أنفسهم من ولاة العصر العباسي فيعاندون الموظفين ويعطلون مطالبهم إذا واجهوهم بصراحة، ويفضلون الموظف المتملق. ومثل هؤلاء رؤساء وملوك لا يزالون يحكمون شعوباً عربية بعقلية الوالي العباسي

ولم أرَ نَفْعاً عند مَنْ ليس ضائِراً، ولم أرَ ضُرَّاً عند مَنْ ليس يَنفَعُ

الزعيم الذي ينفعك هو من له سطوة، فينفع المقربين ويضر الأعداء

رأى البُخْلَ مِنْ كُلٍّ فَظيعاً، فَعَافَهُ على أنَّهُ، منهُ، أَمَرُّ وأفظَعُ

قد رأى الممدوح البخل فظيعاً من كل الناس، ولأنه كريم فالبخل مستفظع منه أكثر من غيره

وكُلُّ كُسُوفٍ في الدَّرَارِيِّ شُنْعةٌ، ولكنه في الشمسِ والبدرِ أشنعُ

فكل كسوف في الدراري (النجوم) بشع، ولكن الكسوف في الشمس والبدر أشنع، لما لهما من بهاء

مَعَادُ الوَرى بعدَ المَمَاتِ؛ وسَيْبُهُ مَعَادٌ لنَا قبلَ المماتِ ومَرْجِعُ

معاد الورى (مبعث الناس) يكون بعد موتهم، ولكن سيبه (عطاءه) هو لنا كالبعث، ولمَّا نَمُتْ

٨٥ رأيٌ كالشعلة، شعلةٌ كالسيف

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري:

قَطَبَ الخُشُونَةَ واللِّيَانَ بنفسِهِ فَغَدا جَليلاً في القلوبِ لطيفا

قطب (مزج) داخل نفسه خشونة وليناً، فأصبح في قلوب الناس مبجلاً؛ لكن، محبوباً في الوقت نفسه

هَزَّتْهُ مُعْضِلَةُ الأُمورِ، وهَزَّها، وأُخيفَ في ذاتِ الإلهِ، وخيفا

هزته الأمور المعضلة (الجسيمة)، لكنه هزها أيضاً بالتصدي لها،
وهو يخاف الله ويتقيه، والناس يهابونه

يَقْظَانُ أَحْصَدَتِ التَّجارِبُ حَزْمَه شَزْراً، وثُقِّفَ عزمُهُ تثقيفا

أحصدت التجارب (أحكمت فتل الحبل) حزمه شزراً (فتلاً)، وثُقِّف عزمه تثقيفاً (شُذِّب)

واسْتَلَّ مِنْ آرائِهِ الشُّعَلَ التي لو أنَّهُنَّ طُبِعْنَ كُنَّ سُيوفا

٨٦ أمدحك بسهولة

يمدح أبا سعيد الثغري:

سيَّرْتُ فيكَ مَدائحي، فتركتُها غُرَراً تَروحُ بها الرُّوَاةُ وتَغْتَدي

أذعتُ في مدحك قصائد غراء يرويها الرواة رواحاً وغُدُوَّاً (مساءً وصباحاً)

ما لي إذا ما رُضْتُ فيكَ غَريبةً جاءَتْ مَجِيءَ نَجِيبَةٍ في مِقْوَدِ!

ما لي كلما رضت (حاولت ترويض) غريبة (قصيدة صعبة كالفرس الصعبة الترويض) جاءتني
كالنجيبة (الفرس الأصيلة) وبعنقها المقود

وإذا أَرَدْتُ بِهَا سِواكَ فَرُضْتُها، واقْتَدْتُها بِثَنائِهِ، لم تَنْقَدِ!

ولِرَاحَتَيْهِ دِيمَتَانِ: فَدِيمَةٌ لي بِالوِدَادِ، ودِيمَةٌ بِالعَسْجَدِ

لراحتيك سحابتان واحدة تمطرني وداداً، وواحدة عسجداً (ذهباً)

٨٧ دفاعاً عن الاغتراب

يمدح محمد بن يوسف، أبا سعيد الثغري:

سَرَتْ تَسْتَجِيرُ الدمعَ خوفَ نَوى غَدِ وعادَ قَتاداً عندَها كلُّ مَرْقَدِ

سرت (أمست) تستعين بالدمع خوفاً من فراق الغد، وأصبح مرقدها قتاداً (شوكاً)

وأنقذَها من غَمرَةِ الموتِ أنَّه صُدُودُ فِراقٍ، لا صُدودُ تَعَمُّدِ

وأنقذها من غمرة الموت (هجمة الموت) أن صدودي هو لوجوب مفارقتي البلد، وليس صدوداً متعمداً عن المرأة

هيَ البَدْرُ، يُغنيها تودُّدُ وجهِها إلى كلِّ مَنْ لاقَتْ، وإنْ لم تَوَدَّدِ

هي بدر، وفي وجهها تودد وبشاشة طبيعية تواجه بها الناس، وتغنيها عن التودد المصطنع

ولكنني لم أحْوِ وَفْراً مُجَمَّعاً ففزتُ به، إلّا بِشَمْلٍ مُبَدَّدِ

لكنني لم أحو (لم أنل) وفراً مجمعاً (مالاً) إلا بتبدد الشمل وبالرحيل

ولم تُعطِني الأيامُ نوماً مُسَكَّناً أَلَذُّ به، إلا بِنَومٍ مُشَرَّدِ

ولم يهدأ بالي، ولم أنم، إلا بعد السهر في طلب المعالي

وطولُ مُقَامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيباجَتَيْهِ. فاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

طول مكث الرجل في الحي (مع القوم) مخلق لديباجتيه (يُبلي خديه: يجعله خاملاً مملولاً). فاغترب تتجدد

فإنِّي رأيتُ الشمسَ زِيدتْ محبَّةً إلى الناسِ، أنْ ليستْ عليهِمْ بِسَرْمَدِ

سرمد: أبدية

حَلفتُ بِربِّ البِيضِ تَدْمَى متونُها، ورَبِّ القَنا المُنْآدِ والمُتَقَصِّدِ

حلفت برب (بصاحب) البيض (السيوف) التي يسيل الدم من متونها (نصالها)، وبرب القنا (الرماح) المنآد (المعوج لكثرة الطعن به) والمتقصد (المكسَّر)

لقد كَفَّ سيفُ الصَّامِتِيِّ محمدٍ تَبارِيحَ ثَأْرِ الصَّامِتِيِّ محمدِ

لقد كف سيف محمد الصامتي (الممدوح محمد بن يوسف) تباريح (آلام) ثأر محمد الصامتي (محمد بن حميد)، وكلاهما ينتسبان إلى جد واحد هو «الصامت»

عَطَطْتَ، على رَغْمِ العِدَا، عَزْمَ بَابَكٍ   بِصَبْرِكَ، عَطَّ الأَتْحَمِيِّ المُعَضَّدِ

عططت (شققت) عزم بابك (معنوياته)، عط الأتحمي المعضد (كشق القماش المخطط)

فَإِلَّا يَكُنْ وَلَّى بِشِلْوٍ مُقَدَّدٍ   هُنَاكَ، فَقَد وَلَّى بِعَزْمٍ مُقَدَّدِ

فلئن لم يكن فر بشلو مقدد (بعضو ممزق) فقد فر بعزم ممزق

وقد كانتِ الأَرْماحُ أبْصرْنَ قلبَه   فَأَرْمَدَها سِتْرُ القَضاءِ المُمَدَّدِ

لقد رأت الرماح موضع قلبه واتجهت نحوه، ولكن ستراً من القضاء والقدر أرمدها (أصابها بالرمد، فلم تعد ترى)

رَآكَ سَديدَ الرَّأْيِ والرُّمْحِ في الوَغَى   تَأَزَّرُ بالإِقْدَامِ فيه وتَرْتَدي

رآك بابك سديد الرأي (حكيماً) وسديد الرمح، وتتأزر بالإقدام في الوغى (الحرب) وترتدي (تلبس الشجاعة إزاراً ورداء)

وليس يُجَلِّي الكَرْبَ رَأيٌ مُسَدَّدٌ   إذا هُوَ لم يُؤْنَسْ بِرُمْحٍ مُسَدَّدِ

لا بد للحكمة من رمح مسدد يؤنسها ويعينها

وكانَ بَعيدَ القَعْرِ مِنْ كلِّ مِاتِحٍ   فغَادَرْتَهُ يُسْقَى، ويُشْرَبُ باليَدِ

كان العدو كالبئر البعيدة القعر على كل ماتح (مستقٍ) فتركته قريباً كماء بئر يمكن شربه باليد دون حاجة إلى دلو. يقول: كان يبدو أن النيل من بابك مستحيل، فجعلته يبدو سهلاً

فَمَهْمَا تَكُنْ مِنْ وَقْعةٍ، بَعْدُ، لا تَكُنْ   سِوى حَسَنٍ مِمَّا فعلْتَ، مُرَدَّدِ

فالمعارك المقبلة ستكون مجرد تكرار لهذه

مَحَاسِنُ أَصْنافِ المغَنِّينَ جَمَّةٌ،   وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلَّا لِمَعْبَدِ

والمهم من الرجال السابق. فالمغنون المجيدون كثر،
ولكن السابق الذي رسم لهم الطريق هو «معبد»

إِليكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيلٍ، كأنَّه   قدِ اكْتَحَلَتْ منه البلادُ بِإِثْمِدِ

جئناك وقد هتكنا جنح ليل (خرقنا جناح الليل) كأنه قد كَحَّل البلاد بالإثمد (الكحل)

تَقَلْقَلُ بي أُدْمُ المَهارَى وَشُومُها   على كلِّ نَشْزٍ مُتْلَئِبٍّ وفَدْفَدِ

تقلقل (تهتز) بي المهارى (الإبل) الأدم (الداكنة) والشوم (السود) على كل نشز (مرتقى) متلئب (مرتفع) وفدفد (صحراء)

تُقَلِّبُ في الآفاقِ صِلًّا، كأنَّما   يُقَلِّبُ في فَكَّيْهِ شِقَّةَ مِبْرَدِ

هذه الإبل تقلِّبني في البلاد؛ وإنني لصل (ثعبان)؛ وإنني لأقلِّب في فمي لساناً كشقة (قطعة) المبرد

تَلافَى جَداكَ المُجْتَدِينَ فأصْبَحُوا ولم يَبْقَ مَذْخُورٌ، ولم يَبْقَ مُجْتَدِ

تلافى جداك المجتدين (أدرك عطاؤك السائلين)، فأصبحوا ولم يبق عندك شيء مذخور (مدَّخر)، ولم يبق فيهم مجتد (سائل فقير)

إذا مَا رَحىً دَارَتْ، أَدَرْتَ ـ سَمَاحَةً ـ رَحَى كلِّ إنجَازٍ على كلِّ مَوْعِدِ

إذا ما دارت الرحى (حجر الطاحون) فأنت تدير لسماحتك (كرمك) رحى الإنجاز على كل موعد (وعد). فأنت تطحن الوعود وتلغيها بتحقيقها

٨٨ سله كيف نجا

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي، ويذكر وقعته بالخرمية:

لما قَرَا الناسُ ذاكَ الفَتْحَ قلتُ لَهُمْ: وَقائِعٌ حَدِّثوا عنها، ولا حَرجَا

عندما قرأ الناس رسالة البشير بنصرك قلتُ لهم: حدثوا بما علمتم، ولا حرج عليكم، فهو صحيح

أضاءَ سيفُكَ، لما اجْتُثَّ أصْلُهُمُ، ما كانَ مِنْ جانِبَيْ تلكَ البِلادِ دَجا

أضأت بسيفك ـ عندما اجتثت أصلهم (قطعت أصل الأعداء) ـ ما كان قد دجا (أظلم) في جانبي البلاد

لما أَبَوْا حُجَجَ القُرْآنِ واضِحَةً كانتْ سيوفُكَ في هاماتِهِمْ حُجَجَا

بِيضٌ وسُمْرٌ، إذا ما غَمْرَةٌ زَخَرَتْ لِلمَوْتِ، خُضْتَ بِها الأرواحَ والمهَجَا

بيض (سيوف) وسمر (رماح) إذا غمرة زخرت للموت (سيل طما/ مصيبة مميتة وقعت) فإنك عندئذ تخوض بأسلحتك أرواح الأعداء ونفوسهم

إنْ يَنْجُ منكَ أبو نَصْرٍ فَعَنْ قَدَرٍ تَنْجُو الرِّجالُ، ولكِنْ سَلْهُ كيفَ نَجَا

لئن استطاع أبو نصر (أحد قادة الأعداء/ وقيل هو بابَك نفسه) أن ينجو فإنما هذا من صنع القدر، لكن اسأله كيف نجا! لقد نجا مذعوراً تاركاً سلاحه

قد حلَّ في صخرةٍ صمَّاءَ مُعْنِقَةٍ فانْحِتْ بِرَأْيِكَ في أَوْعَارِها دَرَجَا

اعتصم القائد الهارب بصخرة صماء معنقة (عالية)؛ فانحِت برأيك (بتدبيرك) في هذا المرتقى الوعر درجا يوصلك إليه. وكانت لبابك قلعة حصينة

وغَادِهِ بِسيوفٍ طالما شُهِرَتْ فَأَخْلَفَتْ مُتْرَفاً ما كانَ قبلُ رَجَا

وغادِهِ (بَكِّر إليه) بسيوف كثيراً ما شهرت (جُرِّدت) فأخلفت ظن المترف (الذي لا قبل له بالحرب) فيما كان يرجوه من النجاة

وشُزَّبٍ مُضْمَراتٍ طَالما خَرَقَتْ مِنَ القَتَامِ الذي كانَ الوَغَى نَسَجَا

وبكِّر إليه أيضاً بشُزَّبٍ مضمَرات (خيل نحيفة) كثيراً ما خرقت (مزقت) القتام (الغبار) الذي نسجه الوغى (الحرب)

٨٩ كم ترك الأول للآخر

يمدح أبا سعيد الثغري:

لا زِلْـتَ مـن شُـكـرِيَ فـي حُـلَّـةٍ   لابِـسُـهـا ذُو سَـلَـبٍ فَـاخِـرِ

أدعو أن تظل لابساً حلة (ثوباً) من مدائحي، ولابسها ذو سلب (ثوب) فاخر

يـقـولُ مَـن تَـقْـرَعُ أسـمـاعَـهُ:   كَـمْ تَـرَكَ الأَوَّلُ لـلآخِـرِ

يقول من يسمع قصائدي: ما أكثر ما ترك الأول (الشعراء الأقدمون) للآخِر (للشعراء المعاصرين) من معانٍ!

٩٠ أمد إليك آمالاً طوالا

يعاتب أبا سعيد ويستبطئه:

إذا مـا الـحـاجـةُ انـبـعَـثَـتْ يـدَاهـا   جعلـتَ الـمـنـعَ مـنـكَ لَـهـا عِـقَـالا

حاجتي كالناقة التي انبعثت يداها (تحركت قُدُماً)؛
وجعلتَ أنت منعك عقالاً (رباطاً) لها يكفها عن السير

فـأيـنَ قَـصـائِـدٌ لـيَ فـيـكَ تَـأْبَـى،   وتَـأْنَـفُ، أنْ أُهَـانَ، وأَنْ أُذَالا

مِـنَ الـسـحـرِ الـحـلالِ لِـمُـجْـتَـنـيـهِ،   ولـم أَرَ قـبـلَـهـا سِـحْـراً حـلالا

فـلا يَـكْـدُرْ غـديـرُكَ لـي، فـإنِّـي   أَمُـدُّ إلـيـكَ آمـالاً طِـوالا

٩١ إعصار على حيطان القسطنطينية

يمدح أبا سعيد الثغري:

لا أَنْـتَ أَنْـتَ، ولا الـدِّيَـارُ دِيـارُ   خَـفَّ الـهـوى، وتَـولَّـتِ الأوْطَـارُ

تغير كل شيء، ورحل شبابك يا أبا تمام، وخف الهوى (رحل) وتولت (ذهبت) الأوطار (الرغبات). رواية الصولي «أنتَ» بتاء مفتوحة، وقد اخترناها على رواية التبريزي التي يخاطب فيها مؤنثاً، فالشاعر يرى نفسه ويخاطب نفسه. والحبيبة رحلت من زمن بعيد فلا وجه لتخيل أنها تغيرت، بل الوجه أن يظل يراها الشاعر شابة، لأن صورتها ثبتت في خياله على ما كانت. وقد لحق بالتبريزي أحد الدكاترة، ولكن إيليا الحاوي وإبراهيم الأسود ومحيي الدين الخياط فتحوها مع الصولي

قد صَرَّحَتْ عنْ مَحْضِهَا الأَخْبَارُ،   واستـبـشَـرَتْ بـفُـتـوحِـكَ الأَمـصَـارُ

يمدح: صرحت الأخبار عن محضها (كشفت عن حقيقتها، كما يكشف اللبن الحليب عن حقيقته بانقشاع الرغوة)، واستبشرت نواحي البلاد بفتوحك

قُدْتَ الجِيادَ، كأنّهنَّ أجادِلٌ، بِقُرى «دَرَوْلِيَةٍ» لها أوْكارُ

قدت الخيل كأنها أجادل (صقور) لها أوكار في الجبال التي تقع فيها قرى درولية

حتّى الْتَوى، مِنْ نَقْعِ قَسْطَلِها على حِيطَانِ قُسْطَنْطِينَةَ، الإعْصَارُ

قدت الجياد حتى تلوى من نقع قسطلها (غبار/غبارها) إعصار وصل سور القسطنطينية

إلّا تَكُنْ حُصِرَتْ، فقد أَضْحى لهَا، مِنْ خوفِ قَارِعَةِ الحِصارِ، حِصَارُ

فلئن لم تكن القسطنطينية قد حوصرت فعلاً،
فقد أصبح خوفها من قارعة (مصيبة) الحصار حصاراً

خَشَعُوا لِصَوْلَتِكَ التي هِيَ عندَهُمْ كَالموتِ يأتي ليس فيهِ عَارُ

خشعوا هناك لصولتك (لهجمتك)، وهي بالنسبة لهم شبيهة بالموت: فيه ألم ولكن ليس فيه عار،
لأنه مكتوب لا مفر منه

فالمشْي همسٌ، والنداءُ إشَارةٌ خَوْفَ انتقامِكَ، والحَدِيثُ سِرارُ

فأصبح مشيهم همساً (الهمس: صوت المشي الخفيف)، وأصبحوا ينادون بعضهم بالإشارة خوف
انتقامك، وأصبح حديثهم سراراً (وشوشة)

٩٢ شجاعة الصدر والقفا

يمدح أبا سعيد الثغري:

هل اجتمعتْ أحياءُ عدنانَ كلُّها بِمُلْتَحَمٍ، إلّا وأنتَ أميرُها؟

ما تجتمع قبائل عدنان في ملتحم (معترك) إلا وأنت أميرها (والأمير الممدوح من طيّء اليمانية،
وعدنان غير يمانية)

بكَ اليَمَنُ اسْتَعْلَتْ على كُلِّ مَوْطِنٍ، فصارَ لِطَيٍّ تاجُها وسَريرُها

السرير: العرش

مُحَرَّمَةٌ أكْفَالُ خَيْلِكَ في الوَغى، ومَكْلُومَةٌ لَبّاتُها ونُحُورُها

أنت لا تنهزم فأكفال خيلك (مؤخراتها) محرمة لا تصاب، ولكن لباتها (صدورها) ونحورها
(صدورها) مكلومة (مجروحة)

حرامٌ على أرماحِنا طَعْنُ مُدْبِرٍ وتَنْدَقُّ في أعلى الصُّدورِ صُدورُها

ورماحنا لا تطعن المدبر (الفار)، ولكنْ ندق صدور الرماح
(أعاليها) في صدور الأعداء

٩٣ حقن ماء الوجه

يمدح أبا سعيد الثغري:

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجهي في صحيفَتِهِ رَدَّ الصِّقَالِ بَهاءَ الصَّارِمِ الخَذِمِ

الصقال: الصقل؛ الصارم، والخذم: السيف القاطع

وما أُبالي، وخَيْرُ القولِ أَصْدَقُهُ، حَقَنْتَ لي ماءَ وجْهي، أَوْ حَقَنْتَ دَمي

٩٤ الثلمة بين الرأيين

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف وقد غاب عنه:

مَتى كان سَمْعي خُلْسَةً لِلَّوائِمِ؟ وكيفَ صَغَتْ للعاذِلاتِ عَزائِمي؟

منذ متى كان سمعي خلسة (نهباً متاحاً) للوائم (العاذلات)، وكيف صغت (مالت) للعاذلات عزيمتي؟

إذا المَرءُ أَبْقَى بينَ رَأْيَيْهِ ثُلْمَةً تُسَدُّ بِتَعْنيفٍ، فليس بِحَازِمِ

إذا المرء ترك ثغرة بين رأيين يكون محتاراً بينهما ـ وبالطبع سيملأ الناس هذه الثغرة بالتعنيف والتدخل في شؤونه ـ فليس حازماً

فَتىً فَيْصَلِيُّ العَزْمِ، يَعْلَمُ أنه نَشَا رَأْيُهُ بينَ السُّيُوفِ الصَّوَارِمِ

يمدح: هذا الفتى عزمه منسوب للفيصل (السيف)، ورأيه نشا (ارتفع) ما بين السيوف القواطع

أَساءَتْ يَداهُ عِشْرَةَ المالِ بِالنَّدَى، وأَحْسَنَتَا فِينا خِلافَةَ حَاتِمِ

أساء عِشرة الأموال فهو يبددها، وهو خير خلف لحاتم الطائي

٩٥ بشق النفس

يمدح أبا سعيد الثغري وقد قدم من مكة:

إنَّ عَهْداً لو تَعلَمانِ ذَميما أنْ تَنامَا عن لَيْلَتي، أو تُنِيمَا

أيها الصديقان إنه لذميم (معيب) في العهد (رابطة الأخوة بيننا) أن تناما أنتما وأنا أقاسي ليلتي الصعبة، أو حتى أن تتركا أحداً ينام، بل شاركاني السهر والحزن

كنتُ أَرْعَى البُدُورَ، حتى إذا مَا فَارَقوني، أَمْسَيْتُ أرعى النُّجُوما

كنت أرعى (أراقب) البدور (وجوه الأحبة)، وصرت بعد فراقهم أراقب نجوم السماء ساهراً

أَصبحَتْ روضةُ الشبابِ هَشِيماً وغدتْ رِيحُهُ البَلِيلُ سَمُوما

هشيماً: يابسة العشب، ريحه البليل: نسيمه المنعش، السموم: ريح حارة سافية

شُعْلَةٌ في المفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْني، في صَميمِ الفؤادِ، ثُكْلاً صَميما

الشيب مثل الشعلة في المفارق (الرأس) وقد استودعتني (تركت لي) في صميم قلبي إحساساً بثكل (فقد) الشباب

حَلَّمَتْني - زَعَمْتُمُ - وأَرَانيِ، قبلَ هذا التَّحْليمِ، كنتُ حَليما

شعلة الشيب تزعمون أنها حلمتني (جعلتني حليماً وقوراً)، لكنني حليم من يومي

لن ينالَ العُلى خُصوصاً مِنَ الفِتْـ ـيَانِ مَنْ لم يَكُنْ نَدَاهُ عُمُوما

نَشَأَتْ مِنْ يَمينِهِ نَفَحَاتٌ، مَا عليْها ألَّا تَكونَ غُيُوما

يتكلم عن الممدوح: ارتفعت من يده نفحات (هبات ريح)، فلم لا تتحول إلى غيوم (عطايا سخية)؟

قد بَلَوْنَا أبا سعيدٍ حديثاً، وبَلَوْنَا أبا سعيدٍ قديما

فعلِمْنا أنْ ليس، إلَّا بِشِقِّ النَّـ ـفْسِ، صارَ الكريمُ يُدْعَى كريما

طَلَبُ المجدِ يُورِثُ المرءَ خَبْلاً وهُموماً تُقَضْقِضُ الحَيْزُوما

السعي للمجد يورث المرء خبلاً (جنوناً)، وهموماً تقضقض (تكسِّر) الحيزوم (الصدر)

فتَراهُ، وَهْوَ الخَلِيُّ، شَجِيّاً وتَراهُ، وَهْوَ الصَّحيحُ، سَقيِما

الخلي: الفارغ البال، الشجي: المهموم

تَيَّمَتْهُ العُلى، فليس يَعُدُّ الـ ـبُؤْسَ بُؤْساً، ولا النَّعِيمَ نعيما

أَجْدَرُ الناسِ أنْ يُرَى وَهْوَ مَغْبُو نٌ؛ وهَيْهَاتَ أنْ يُرَى مَظْلُوما

هو أحرى الناس أن تراه مغبوناً (يحب - لسخائه - أن يتغافله الناس ويأخذوا أمواله)، لكنه أبيٌّ يرفض أن يُظلم

وإذا كانَ عَارِضُ الموْتِ سَحّاً خَضِلاً بِالرَّدَى، أَجَشَّ هَزِيمَا..

إذا كان عارض (سحاب) الموت سحاً (هاطلاً)، خضلاً (ندياً) بالردى، أجش (راعداً) هزيماً (راعداً)..

واكْتَسَتْ ضُمَّرُ الجِيَادِ المذَاكي مِنْ لِبَاسِ الهَيْجَا دَمَاً وحَمِيمَا

واكتست ضمر الجياد (الخيول النحيلة) المذاكي (المكتملة النمو) من لباس الهيجاء (المعركة) دماً وحميماً (عرقاً)..

في مَكَرٍّ تَلُوكُها الحَرْبُ فيهِ، وَهْيَ مُقْوَرَّةٌ تَلُوكُ الشَّكيِما

والخيل في مكر (معترك) تلوكها الحرب، بينما هي مقورَّة (ضامرة نحيلة) تلوك الشكيم (الحدائد في أفواهها)..

قُمْتَ فيهَا بِحُجَّةِ اللَّهِ، لمَّا أنْ جعلتَ السيوفَ عنكَ خُصوما

عندئذٍ قاتلت وقمت بحجة الله (بنصر دينه وإثبات صحته)، وذلك عندما جعلت السيوف خصوماً عنك (نوَّاباً عنك في مجال الحِجاج والاحتكام)

٩٦ وداع فصيام

يمدح أبا سعيد الثغري ويذكر غمه بفراقه:

لأُوَدِّعَنَّكَ، ثم تَدمَعُ مُقلتي ... إنَّ الدُّموعَ هِيَ الوَداعُ الثاني

وأَصومُ بعدَكَ عن سِواكَ، وأَغْتدي ... مُتَقَلِّداً صَوْمَيْنِ في رمضانِ

٩٧ الهيق

وقال يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

لبِسْنَ ظِلَّيْنِ: ظِلَّ أَمْنٍ من الدَّ ـ ... هْرِ، وظِلّاً مِنْ لَهْوِهِ ودَدِهْ

هؤلاء الفتيات المنعمات الغنيات يتفيأن بأمن من الزمن، وباللهو والدد (اللعب)

فَهُنَّ يُخْبِرْنَ عنْ بُلَهْنِيَةِ الـ ... ـعَيْشِ، ويَسْأَلْنَ مِنْهُ عن جَحَدِهْ

ويستطعن إخبارك عن بلهنية العيش (العيش الرغد) فهن يعرفنه، لكنهن يسألن عن جَحَد العيش (العيش القاسي) لجهلهن به

سَأَخْرِقُ الخَرْقَ بِابْنِ خَرقَاءَ، كالـ ... ـهَيْقِ إذا ما اسْتَحَمَّ في نَجَدِهْ

سأخترق الخرق (الصحراء) بجمل ابن خرقاء (ناقة سريعة) كالهيق (النعامة) إذ يستحم في نجده (عرقه)

والنعامة لا تعرق، بل تلهث كالكلب إذا احترَّت. والجمل لا يعرق عرقاً نراه، بل ينز قليلاً تحت فروته عند اشتداد الحر ولا يُرى له عرق، فضلاً عن الاستحمام به. ولو كان يستحم في عرقه لما كان سفينة الصحراء، ولا ضُرب به المثل في تحمل العطش. ما اقتبست لك البيت إلا كي يوصلنا إلى الممدوح. وكنت أحب أن ألتمس العذر لأبي تمام فأجعل ابن الخرقاء هذا حصاناً (فمن معاني الخرقاء: الأرض الخلاء)، والحصان يعرق، ولكن الأمر لم يستقم لي لأن شاعرنا مضى في وصف سنام الجمل فقطع علينا الطريق. وتناول البيتَ الآمدي ـ وهو الناقد المتحامل على أبي تمام المفتش عن عيوبه ـ وجعل الاستحمام استجماماً بالجيم، ولكنه شرح النجد بالعرق، وقال: ابن خرقاء: يريد بعيراً. ولم ير في المعنى، مع ذلك، ما رأينا من خلل. لا بل عقَّب على البيت وإخوة له قائلاً: «وهذه معان صحيحة، ولكن النسج لا حلاوة له، ولا طُلاوة عليه.» ويندر من الآمدي أن يجد لأبي تمام معاني صحيحة، فإن وجد هذا المعنى صحيحاً فهو يفتح نافذة على الشك في نقدنا نحن. وسأكون مسروراً أن يتعقبني أحد في هذا فيرشدني إلى ما قد يكون غاب عني. (لاحقاً لهذا التحليل الطويل وجدت من يتعقبني، ها هي ملاحظة عمران القفيني: «تعال نتفاوض: ألا يكون هذا من «الإحالة» التي يعيب بها النقاد على الشعراء مبالغاتهم؟ أي أن هذه التي لا تعرق في الصحراء: النعامة والجمل، سأمتطيها حتى تستحم في عرقها وصولاً إلى الممدوح. أو ربما سأقطع صحارى لا قبل لجمل ولا لنعامة بقطعها وصولاً إليه، حتى أنها استحمت بعرقها من طول الطريق أو صعوبتها؟»)

إلـى الـمُـفَـدَّى أبـي يَـزيـدَ الـذي   يَـضِـلُّ غَـمْـرُ الـمُـلـوكِ فـي ثَـمَـدِهْ

قاصداً أبا يزيد الذي يضيع غمر الملوك (ماؤهم الغامر أي عطاؤهم الكثير) في ثمده (مائه القليل). فقليل عطائه أكثر من كثير عطائهم

ظِـلٌّ عُـفَـاةٍ، يُـحِـبُّ زائـرَه   حُـبَّ الـكـبيـرِ الـصـغـيـرَ مِـنْ وَلَـدِهْ

هو ظلٌّ يستظل به العفاء (الفقراء)، ويحب زائريه حب الأب المتقدم في السن أصغر أولاده

إذا أَنَـاخُـوا بِـبَـابِـه أخـذُوا   حُـكْـمَـيْـهِـمُ مـن لِـسـانِـه ويَـدِهْ

إذا أناخ الوافدون إبلهم في بابه أخذوا حكمهم (ما شاءوا) من لسانه ترحيباً، ومن يده مالاً

٩٨ القصيدة المغرورة

يمدح خالد بن يزيد بن مزيدٍ الشيباني:

مَضَوْا وهُمُ أوتادُ نَجْدٍ وأرضِها،   يُرَوْنَ عِظَاماً كلَّما عَظُمَ الخَطْبُ

انصرمت أيامهم وكانوا أوتاد نجد (ركائزها)، وكنا نراهم عظاماً على مستوى الحدث

وما كان بينَ الهَضْبِ، فَرْقٌ، وبينَهُمْ؛   سوى أَنَّهُمْ زالوا، ولم يَزُلِ الهَضْبُ

لم يكن بينهم وبين الهضاب الراسخة فرق إلا أنهم ماتوا وبقيت الهضاب

فَيَا وَشَلَ الدنيا بِشَيْبانَ لا تَغِضْ،   ويا كوكبَ الدنيا بِشيبانَ لا تَخْبُ

يا وشل الدنيا (ما تبقَّى من مائها) لا تغض (لا تجف) بشيبان (بجفاف شيبان، فهم كل ما تبقى من خير في الدنيا)، ويا كوكب الدنيا لا تخبُ (لا تخمد) بشيبان (بخمود شيبان)، فخمودهم خمود للدنيا

فما دَبَّ إلَّا في بُيوتِهِمُ النَّدى   ولم تَرْبُ إلَّا في حُجُورِهِمُ الحربُ

فما دب (مشى) الكرم إلا في بيوتهم، ولم تربُ (تكبر وتترعرع) الحرب إلا في حجورهم (أحضانهم)

أُولاكَ بَنُو الأَحْسَابِ، لولا فَعالُهُمْ،   دَرَجْنَ، فلم يُوجَدْ لِمَكْرُمةٍ عَقْبُ

أولاك (أولئك) بنو الأحساب (الشرف)، ولولا فعالهم (أمجادهم) لدرجن (لدرجت الأحساب، أي انقرضت)، ولما لقيتَ عقِباً (جيلاً جديداً) للمكارم

لَهُمْ يومُ ذي قَارٍ، مَضَى وَهْوَ مُفْرَدٌ   وَحِيدٌ مِنَ الأَشْباهِ، ليسَ له صَحْبُ

حاربوا في يوم ذي قار ضد الفرس في الجاهلية، وكان فريداً لا شبيه له ولا قرين

به عَلِمَتْ صُهْبُ الأعاجِمِ أنَّه   به أَعْرَبَتْ عنْ ذاتِ أَنْفُسِها العُرْبُ

علمت الأعاجم الصهب (الشقر) في هذا اليوم أن العرب تريد أن تعرب عن بأسها وحقيقة مشاعرها الاستقلالية

هُوَ المشهدُ الفَصْلُ الذي ما نَجَا به لِكِسرى بنِ كِسْرى لا سَنَامٌ ولا صُلْبُ

كان مشهداً فاصلاً ولم ينج فيه لكسرى ابن الأكاسرة لا سنام ولا صلب (فَقَدَ كسرى كل شيء: فسنام الجمل يذوب مع طول الرحلة ويعود للنمو بالراحة والجمام، لكن كسرى فقد السنام والظهر نفسه أيضاً)

أقولُ لأَهْلِ الثَّغْرِ: قد رُئِبَ الثَّأى، وَأُسْبِغَتِ النَّعْمَاءُ، والْتَأَمَ الشَّعْبُ

أقول لساكني الثغر (مناطق الحدود) لقد رئب الثأى (رُتِقَ الخرق)، وأسبغت النعماء (وزعت الأموال)، والتأم الشَّعب (التحم الكَسْر)

فَسِيحُوا بِأَطرافِ الفضاءِ وأَرْتِعُوا؛ قَنا خالدٍ، مِنْ غيرِ دَرْبٍ، لَكُمْ دَرْبُ

فاسرحوا وأرتِعوا (اجعلوا مواشيكم ترتع)، فقنا خالد (رماحه) هي دربكم (جبلكم) إذا لم يكن لكم جبل يقيكم عدوان الروم. والدرب هو الممر الجبلي المفضي إلى بلاد الروم، واستعارها لكل جبل

فتىً عِندَهُ خيرُ الثَّوابِ وشَرُّهُ، ومنه الإباءُ المِلْحُ، والكَرَمُ العَذْبُ

عنده الثواب والعقاب، وإباته ملح (مالح)، وكرمه عذب

أَشَمُّ شَرِيكِيٌّ، يَسِيرُ أمامَه، مَسيرةَ شهرٍ، في كتائبِه الرُّعْبُ

أشم شريكي (منسوب إلى «شَرِيك» أحد أجداده) يسبقه الرعب مدة شهر قبل وصوله إلى الأعداء. جاء في الحديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»

ولما رأى تُوفِيلُ راياتِكَ التي إذا ما اتْلأَبَّتْ لا يُقَاوِمُها الصُّلْبُ

لما رأى توفيل (توفلس قائد الروم) راياتك التي إذا اتلأبّت (تلاحقت) لا تستطيع الرايات الموسومة بالصلبان أن تقاومها..

تَوَلَّى، ولم يَأْلُ الرَّدَى في اتِّبَاعِه، كأنَّ الرَّدَى في قَصْدِه هائِمٌ صَبُّ

.. تولى (انصرف) ولم يأل (لم يتوان) الردى (الموت) في اللحاق به، فكأن الموت هائم به صب (محب) له

غَدَا خائِفاً يَستنجِدُ الكُتْبَ، مُذْعِناً، عليكَ، فلا رُسْلٌ ثَنَتْكَ، ولا كُتْبُ

خاف وصار يستنجد عليك الكتب (رسائل الحوار وطلبات التفاوض)، ولكن هذا لم يَثْنِكَ (لم يردَّك عن عزيمتك)

وما الأَسَدُ الضِّرْغَامُ يوماً بِعَاكِسٍ صَرِيمَتَه إنْ أنَّ، أو بَصْبَصَ الكَلْبُ

الأسد لا يعكس (يغير) صريمته (عزمه) إذا صدر من الكلب أنين أو بصبص (حرك ذنبه مستعطفاً)

جُعِلْتَ نظامَ المَكْرُمَاتِ، فَلَمْ تَدُرْ رَحىَ سُؤْدَدٍ إلَّا وأنتَ لها قُطْبُ

أنت نظام (عقد) المكرمات (الفضائل) تجمعها جمعاً، وإذا دارت رحى سؤدد (حجر طاحون السيادة) فأنت لها القطب الذي هو محور دورانها

وسيارةٍ في الأرضِ، ليسَ بِنَازِحٍ   على وَخْدِهَا حَزْنٌ سَحِيقٌ ولا سَهْبُ

ورب قصيدة (هي قصيدتي هذه) سيارة (تسير على كل لسان بكل بلد)، وليس بنازح (ببعيد) على وخدها (سيرها السريع) حزن سحيق (جبل بعيد) ولا سهب (سهل)

إذا أُنْشِدَتْ في القَومِ ظَلَّتْ كأنَّها   مُسِرَّةُ كِبْرٍ، أو تَدَاخَلَها عُجْبُ

عندما يجري إنشادها تكون القصيدة نفسها فخورة وكأنها مسرة كبر (مخفية زهواً وإعجاباً بنفسها) أو كأنه تداخلها عجب (دخل قلبها الغرور). هذا تشخيص طريف وأيم الحق

٩٩ خرَّ صريعاً بين أيدي القصائد

يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

يقول أناسٌ في «حَبينَاءَ» عايَنُوا   عِمَارَةَ رَحلي مِنْ طَرِيفٍ وتَالِدِ:

يقول هؤلاء الذين عاينوا (رأوا) في «حبيناء» عمارة رحلي (حمولة جملي) التي فيها الطريف (الجديد) والتالد (الموروث)

أَصادَفْتَ كَنْزاً أم صَبَحْتَ بِغَارةٍ   ذَوِي غِرَّةٍ حَامِيهِمُ غيرُ شَاهِدِ؟

يقولون: أصادفت كنزاً، أم صبحت بغارة (هجمت صباحاً) أناساً ذوي غرة (غافلين) وفرسانهم الذين يحمونهم غائبون؟

فقلتُ لهُمْ: لا ذا، ولا ذاكَ دَيْدَني،   ولكنني أقبلتُ من عِنْدِ خالدِ

ديدني: عادتي

جَذَبْتُ نَدَاهُ غُدْوَةَ السبتِ جَذْبةً   فَخَرَّ صَرِيعاً بين أيدِي القَصَائِدِ

فألبَسَنِي من أمَّهَاتِ تِلادِهِ   وألبستُه من أمَّهاتِ قَلائِدي

تلاده: ماله القديم، قلائدي: قصائدي. للآمدي صاحب «الموازنة» في هذه الأبيات أسطر نقدية ما زالت تضحكني كلما قرأتها وهاكها بحرفها: «ومن رديء خروجه لفظاً ومعنىً قوله: «يقول أناس في حبيناء عاينوا/ عمارة رحلي من طريف وتالد// أصادفت كنزاً أم صبحت بغارة/ ذوي غرة حاميهم غير شاهد// فقلت لهم لا ذا ولا ذاك ديدني/ ولكنني أقبلت من عند خالد» وهذا من معاني العوام أن يقولوا لمن رأوا حاله قد حسنت: على من أغرت، أو أي كنز وجدت. وما ظننت مثل هذا يُنظَم شعراً. وقوله: «أقبلت من عند خالد» كلام كالفارغ. وإنما كان ينبغي لمن ابتلاه الله بهذا المعنى أن يقول في جوابهم: نعم كنز خالد، وأغار على ندى خالد. ولكنه، لعمري، بيَّن المعنى في البيت الثاني، وعرفهم سبب عمارة رحله بأن قال: «جذبت نداه غدوة السبت جذبة/ فخر صريعاً بين أيدي القصائد». وهذا، وأبيه، معنى متناهٍ في برده وغثاثته وركاكته، ولَشتيمةُ الممدوح عندي بالزِّنى أحسن وأجمل من جذب نداه حتى يخر صريعاً. ولو لم يُعلمنا أن ذلك كان غدوة السبت كيف كان يتم بَرْدُ المعنى؟ وحبيناء اسم موضع، في غاية القبح والهجانة. فإنهم وإن كانوا قالوا ما قالوا في هذا الموضع فإنه لم يك مضطراً إلى ذكره، كما أنه لم يك مضطراً إلى ذكر غدوة السبت» اهـ الآمدي

١٠٠ الخلود الدنيوي

يمدح خالد بن يزيد بن مزيدٍ الشيباني:

راحتْ غَوانيِ الحيِّ، عنكَ غَوَانِياً ... يَلْبَسْنَ نَأْياً تارةً وصُدودا

أصبحت غواني الحي (حسانه) مستغنيات عنك، يبدين النأي (البعد) والصدود

أَحْلَى الرجالِ مِنَ النساءِ مَواقِعاً ... مَنْ كانَ أَشبَهَهُمْ بِهِنَّ خُدودا

أكثر ما تحب المرأة في الرجل أن يكون شاباً ناعم الخدين مثلها

فاطْلُبْ هُدوءاً بالتَّقَلْقُلِ، واسْتَثِرْ ... بِالعِيسِ مِنْ تحتِ السُّهادِ هُجُودا

فاطلب الهدوء (العيش الهانئ) بالتقلقل (التنقل)، وعليك أن تستثير ـ بالعيس (بالإبل) التي ترحل بك ـ الهجود (النوم الهادئ) من تحت السهاد (السهر). الراحة تأتيك بأن تسافر، والنوم الهادئ تنتزعه من سهرك (وكانوا يسيرون ليلاً طلباً للبرودة، فيقضون ليلهم ساهرين سائرين فوق الإبل)

نَسَبٌ كأنَّ عليهِ مِنْ شمسِ الضُّحَى ... نُوراً، ومِنْ فَلَقِ الصباحِ عَمُودا

يمدح خالد بن يزيد الشيباني: نسبه مشرق، كأنَّ عليه من فلق الصباح (انشقاق الفجر) عموداً (ضوء الفجر)

وإذا رأيتَ أبا يزيدٍ في نَدىً، ... وَوَغىً، ومُبْدِئَ غارَةٍ ومُعِيدا

أَيْقنتَ أنَّ مِنَ السَّمَاحِ شجاعةً ... تُدْمِي، وأنَّ مِنَ الشجاعةِ جُودا

إذا رأيته في السخاء وفي الحرب أدركت أن السماح (الكرم) تخرج منه شجاعة تدمي العدو، وأن الشجاعة يرافقها الجود

وإذا سَرَحْتَ الطَّرْفَ حولَ قِبَابِه ... لم تَلْقَ إلَّا نِعْمَةً وحَسُودا

إذا أجلت نظرك حول بيوته رأيت نعمة على الناس بسببه، ورأيت من يحسده على عظمته

ومتى حَلَلْتَ به أنالَكَ جَهْدَهُ، ... ووَجَدْتَ بعدَ الجَهْدِ فيه مَزِيدا

أنالك: أعطاك، جهده: أقصى استطاعته

أبقى يزيدُ ومَزْيَدٌ وأَبُوهُما ... وأَبُوه، رُكْنَكَ في الفَخَارِ شَديدا

يا خالد: أبوك يزيد وجدك مزيد وأبوهما، أي أبا جدك، وأبوه أي جد جدك أبقوا لك ركناً شديداً من المجد تفخر به

سَلَفُوا يَرَوْنَ الذِّكْرَ عَقْباً صَالِحاً ... ومَضَوْا يَعُدُّونَ الثَّناءَ خُلودا

مضوا وهم يعدون الذكر (حسن السيرة) عقباً صالحاً (مثل الأحفاد الصالحين)، ويعتبرون ثناء الناس عليهم خلوداً

١٠١ حُطَّ الرحل والظن

يرثي خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

لِتَبْكِ القَوافي شَجْوَهَا بعدَ خَالدٍ ... بكاءَ مُضِلَّاتِ السَّمَاحِ نَواشِدِ

لتبك القصائد شجوها (حزنها) بعد خالد بكاء من ضاع منه السماح (الجود) فهو ينشده (يبحث عنه). يقول: القصائد مضلات الجود (قد ضيعنه فهن يبحثن عنه بعد موت خالد)

تَقَلَّصَ ظلُّ العُرْفِ في كلِّ بلدةٍ ... وأُطْفِئَ في الدُّنْيا سِراجُ القَصائِدِ

العرف: المعروف

ويا شَائِماً بَرقاً خَدُوعاً، وسامعاً ... لِرَاعِدَةٍ دَجَّالَةٍ في الرَّوَاعِدِ..

يا شائماً (مرتقباً) برقاً خادعاً من سحابة لن تمطر،
ويا سامعاً لسحابة راعدة لكنها كاذبة ولن تمطر..

أَقِمْ، ثم حُطَّ الرَّحْلَ والظَّنَّ، إنَّه ... مضتْ قِبْلَةُ الأَسفارِ مِنْ بعدِ خالدِ

أقِم (امكث ولا ترحل)، وأنزل رحلك (متاعك) أرضاً، وكذلك أنزِل ظنك (رجاءك) أرضاً، فبموت خالد لم يعد هناك قبلة للمسافرين لكي يقصدوها طلباً للعطاء

فَيَا وَحْشَةَ الدُّنيا، وكانتْ أَنِيسَةً، ... ووَحْدَةَ مَنْ فيها لِمَصْرَعِ واحِدِ

١٠٢ يا كاسري كسرى!

يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي:

على مثلِها من أَرْبُعٍ ومَلاعِبِ ... أُذِيلَتْ مَصونَاتُ الدُّموعِ السَّواكِبِ

على مثل هذه الأطلال من الأربُع (الربوع، الأماكن) والملاعب (الأماكن التي تلعب فيها الريح) أذيلت (أهينت) الدموع السواكب (المنهمرة) التي كانت مصونة من قبل. يقول: لستُ أول من يبكي على الأطلال، فقد بكى على مثلها أناس قبلي

ورَكْبٍ يُسَاقُونَ الرِّكَابَ زُجَاجَةً ... مِنَ السَّيْرِ، لم تَقْصِدْ لها كَفُّ قَاطِبِ

رب ركب (مسافرين) يساقون (يشربون ويسقون) الركاب (الإبل) من زجاجة (كأس) هي عبارة عن السير، وهذه الزجاجة لم تتناولها يد قاطب (مازج لها بالماء). يقول: نحن نتساقى مع إبلنا كؤوس السير فنسكر تعباً لكن: بالسير لا بالخمر

فقد أَكَلوا منها الغَوارِبَ بِالسُّرَى، ... فَصارتْ لها أشباحُهُمْ كالغَوارِبِ

لقد أكل المسافرون غوارب الإبل (أسنمتها) بالسرى (سير الليل)، وصارت أشباحهم (أجسامهم المهزولة) وهم يركبون إبلهم كأنها أسنمة لها. وسنام الجمل يذوب مع قلة الأكل وشدة التعب.
على بعد ما بين طرفة بن العبد وأبي تمام فكلاهما عايش الناقة وسافر عليها

إذا العِيسُ لاقَتْ بي أبا دُلَفٍ، فقدْ تَقَطَّعَ ما بَيْني وبينَ النَّوائبِ

إذا العيس (الإبل) جعلتني ألاقي أبا دلف، فقد انقطع ما بيني وبين المصائب لأنه سيكفيني شرها

هنالِكَ تَلْقى الجُودَ حيثُ تقطَّعتْ تَمائِمُهُ، والمجدَ مُرْخَى الذَّوائبِ

عند أبي دلف تلقى الجود، فعنده ترعرع الجود وقطعت عنه تمائمه (أزيلت الأحراز والحُجُب والتعاويذ من عنقه كما تزال من عنق الصبي عندما يكبر)، وتلقى المجدَ مرخى الذوائب (منسدل الخصلات شاباً يافعاً)

تكادُ عطايَاهُ يُجَنُّ جنونُها إذا لم يُعَوِّذْها بِنَغْمَةِ طَالبِ

تكاد عطاياه (أمواله المجهزة للإعطاء) تجن جنوناً إذا لم يعوذها (يضع عليها تعويذة، تميمة) هي عبارة عن نغمة طالب (سؤال طالب للعطاء)

إذا حرَّكَتْهُ هَزَّةُ المجْدِ غَيَّرَتْ عَطاياهُ أسماءَ الأماني الكَواذِبِ

إذا اهتز الممدوح تمهيداً للعطاء فإن عطاياه تغير أسماء الأماني الكاذبة (مثل أمنية، ورجاء، واحتمال) وتجعلها حقائق (مثل فوز، وظفر، ونجاح). والإنسان الكريم إذا عزم على دفع مبلغ كبير اهتز جسمه، كأنه بجسمه يريد أن يمنع عقله من التراجع عن نيته، وما أكثر ما وصف الشعراء اهتزاز الممدوح طرباً أو كرماً. الأريحي يهتز كتفاه ويبذل، والشحيح يجمد جسمه ويصمت عقله بوجل في مواقف النجدة

تكادُ مَغانِيهِ تَهَشُّ عِراصُها، فتَرْكَبُ مِنْ شَوْقٍ إلى كُلِّ راكبِ

مغانيه (بيوته) تكاد عراصها (ساحاتها) تهش (تبسط أساريرها فرحاً)، فكأن هذه الساحات تريد أن تركب الناقة لتصل إلى الفقير بدل أن يركب هو الناقة ليصل إليها

يَرى أَقْبَحَ الأَشياءِ أَوْبَةَ آيِبٍ كَسَتْهُ يَدُ المأمُولِ حُلَّةَ خَائِبِ

أقبح شيء عند الممدوح أن يرى أوبة (رجْعة) الزائر وقد كسته يد المأمول (الممدوح) حلة (لباس) الخيبة

وأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ تُفَتِّحُهُ الصَّبَا بَياضُ العَطايا في سَوادِ المطَالِبِ

أجمل من نَوْر (زهر الشجر) الذي تفتحه ريح الصبا، العطايا البيض التي تصادف مطالب (حاجات) سوداً. فالعطايا بيض مشرقات ومطالب الناس سود لشدة الفقر والحاجة

إذا أَلْجَمَتْ يوماً لُجَيْمٌ، وحَوْلَها بنو الحِصْنِ، نُجْلُ المحْصَنَاتِ النَّجَائِبِ..

إذا ألجمت قبيلة لجيم خيلها (وضعت اللجام على فم كل حصان استعداداً للحرب)، ومعهم بنو الحصن من أقاربهم، وهؤلاء هم نُجل (أنجال) النساء المحصنات (الطاهرات) النجائب (أمهات النجباء).. فعندئذٍ..

فإنَّ المنَايا والصَّوارِمَ والقَنا أقارِبُهُمْ في الرَّوْعِ دونَ الأَقَارِبِ

.. فإن المنايا (الموت للأعداء) والصوارم (السيوف) والقنا (الرماح) تصبح جميعاً أقاربهم أكثر من الأقارب المعروفين

يَمُـدُّونَ مِـنْ أَيْـدٍ عَـواصٍ عَـواصِـمٍ   تَصُـولُ بِـأَسْـيـافٍ قَـواضٍ قَـواضِـبِ

يمدون ما شئت من الأيادي العواصي (الأبيّة) العواصم (المجيرة الحامية) التي تصول بسيوف قواض (تقضي بإرادتها، وتجبر الأعداء على حكمها) قواضب (قاطعة)

إذا الخيلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الحربِ صَدَّعُوا   صُدُورَ العَوالِي في صُدُورِ الكَتَائِبِ

إذا الخيل جابت قسطل الحرب (غبارها) صدعوا (كسَّروا) صدور العوالي (أطراف الرماح) في صدور الكتائب (في صدور جنود الكتائب)

إذا افْتَخَرتْ يوماً تميمٌ بِقَوْسِها،   وزَادَتْ على مَا وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ..

إذا افتخرت قبيلة تميم بقوس حاجب بن زرارة (وكان كسرى طلب رهناً من سيد تميم لشأن كان بينهما، فأعطاه قوسه، فضحك أصحاب كسرى، فقال لهم: خذوها، فإنه لا يتركها. فأخذوا القوس. ثم إن حاجباً وفى، واستردَّ قومه القوس)، وإذا زادت تميم بعض الزيادة على مناقبها (فضائلها) الحقيقية التي وطدتها (رسختها)..

فأَنْتُمْ بِذِي قَارٍ أَمَالَتْ سيوفُكُمْ   عُروشَ الذينَ استَرْهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِ

.. فأنتم في موقعة ذي قار أطحْتم إطاحةً بعرش كسرى الذي أخذ قوس «حاجب» رهينة

وقد مر بك في القطعة ٩٨ أن بني شيبان هزموا كسرى في ذي قار،
فاعلم أنه كان معهم بنو عجل أيضاً

مَحاسِنُ مِنْ مَجْدٍ متى تَقْرِنُوا بها   مَحاسِنَ أَقْوَامٍ تَكُنْ كالمعَايِبِ

محاسنكم عظيمة، إذا قورنت بمحاسن غيركم تبدو محاسن الغير صغيرة كأنها العيوب

مَكارِمُ لَجَّتْ في عُلُوٍّ، كأنَّها   تُحَاوِلُ ثَأْراً عندَ بعضِ الكواكِبِ

مكارمكم لجت (تمادت) في العلو، وكأنها تريد إدراك ثأر عند بعض الكواكب

وقد عَلِمَ الأَفْشينُ، وَهْوَ الذي به   يُصَانُ رِدَاءُ المُلْكِ عن كُلِّ جَاذِبِ،

قد علم القائد الأفشين، وهو الذي يصان (يحفظ) به الملك عمن يريد اجتذابه لنفسه واغتصابه..

بأنَّكَ، لمَّا اسْحَنْكَكَ الأمرُ، واكتَسى   أَهَابِيَّ تَسْفي في وُجُوهِ التَّجارِبِ،

.. علم بأنك ـ لما اسحنكك الأمر (ادلهم واسودَّ الموقف) ـ واكتسى الأمر أهابيَّ (أتربةً) تسفي (تثور وتهب) في وجوه التجارب. فالموقف صعب وفيه غبار يعمي عيون التجارب، ولا ينفع الإنسان طول خبرته في مثل هذه المواقف..

تَجَلَّلْتَه بالرَّأْيِ، حتَّى أَرَيْتَه   به مِلءَ عَيْنَيْه مَكانَ العَوَاقِبِ

تجللت الموقف بالرأي (علوت على الموقف بالحكمة والبصر الثاقب)، حتى أريْت الأفشين برأيك الثاقب ملء عينيه مكان (العواقب) النتائج المحتملة

سَلَلْتَ له سَيْفَينِ: رَأْياً ومُنْصُلاً وكلٌّ كَنَجْمٍ في الدُّجُنَّةِ ثَاقِبِ

سللت لخدمة القائد الأفشين سيفين: أحدهما رأيك، وثانيهما نصل سيفك الحقيقي، وكلاهما لامع كالنجم الثاقب (المشتعل)

إليكَ أَرَحْنا عَازِبَ الشِّعْرِ، بَعْدَمَا تَمَهَّلَ في رَوْضِ المعاني العَجَائِبِ

هذا الشعر العازب (السارح يرعى في الخلاء) أرحناه (جعلناه يعود مساء) إليك بعد أن تمهل (رعى مرتاحاً) في روض المعاني، وجمع لك أجملها

غَرائِبُ لاقَتْ في فِنائِكَ أُنْسَها مِنَ اليومِ، فَهْيَ الآنَ غيرُ غَرائِبِ

هذه معان شعرية غريبة وجديدة، وفي جوارك أصبحت أنيسة غير غريبة. واعلم أن «غرائب الإبل» هي التي تضل وتأتي قوماً غير قومها، فهم يضربونها لتبتعد عنهم وتبتعد معها شبهة السرقة؛ واستئناس الوحشي من الحيوان هو تدجينه. وأبو تمام يشبه معانيه المصنوعة العجيبة ـ وإنها لكذلك ـ بالإبل الشاردة، ولكنها تأتنس بالممدوح، وتصبح داجنة عنده لأنه يستحقها

ولو كانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ ما قَرَتْ حِياضُكَ منهُ في العصورِ الذَّوَاهِبِ

لو كان الشعر يفنى لأفناه ما قرت (جمعت) حياضك (أحواضك) منه في السنين المنصرمة. يقول: لكثرة ما مدحك الشعراء لم يتركوا معنى إلا طرقوه، ولو كان الشعر يفنى لفني بسبب ذلك..

ولكنَّهُ صَوْبُ العقولِ، إذا انجَلَتْ سَحَائِبُ منهُ أُعْقِبَتْ بِسَحائِبِ

ولكن الشعر صوب (مطر) العقول، فإذا انقشعت غيومه أُعقبت (أُردفت) بغيوم جديدة

١٠٣ الطرف القُلقُل

وقال لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي:

عَجَبٌ، لَعَمْرِي، أنَّ وَجْهَكَ مُعرِضٌ عنـي، وأنتَ بِوَجْهِ نَفْعِكَ مُقْبِلُ

عجيب أن تبتعد بوجهك عني، مع أن منفعتك مقبلة عليّ

بِـرٌّ بَـدأْتَ بِـهِ، ودَارٌ بـابُـهـا لِلخَلْقِ مفتوحٌ، ووجهُكَ مقفَلُ

هذا برٌّ بدأت به (قدمته قبل السؤال)، ودارك مفتوحة لكل الناس ووجهك مقفل لا يبش

أَوَلا تَـرى أنَّ الـطَّـلاقَـةَ جُـنَّـةٌ مِنْ سُوءِ ما تجني الظُّنونُ، ومَعْقِلُ؟

ألست ترى أن الطلاقة (البشاشة) جُنَّةٌ (وقاية) ومعقل (حصن) ضد الظنون السيئة وما تجنيه؟

حَلْيُ الصَّنيعَةِ أن يكونَ لِرَبِّها لَفْظٌ يُحَسِّنُها، وطَرْفٌ قُلْقُلُ

حلي (زينة) الصنيعة (العطية) أن يكون لربها (صاحبها) لفظ يحسنها (كلام يزيدها جمالاً) وطرف (نظرٌ) قلقل (متذبذب). فالمضيف الكريم البشوش لا يركز نظره في وجه ضيفه فيحرجه، بل يردد النظر إليه مرة بعد مرة. وقال التبريزي إن أبا تمام لم يسبق إلى استعارة هذه اللفظة. ولعمري، إنه لبيت دقيق المعنى

إنْ تُعْطِ وَجْهاً كاسِفاً، مِنْ تَحتِهِ كَرَمٌ، وحِلْمُ خَليقَةٍ لا تُجْهَلُ..

إن تعط الناس وجهاً كاسفاً (حزيناً)، وتحته كرم، وحلم خليقة (سماحة طبع)
معروفة عنك وغير مجهولة..

فَلَرُبَّ سَارِيَةٍ عليكَ مَطِيرَةٍ، قد جَادَ عَارِضُها، وما يَتَهَلَّلُ

فرب سارية (غيمة) ماطرة جاد (هطل) عارضها (سحابها)،
بدون أن يتهلل (يبتسم/أي يرسل البرق قبل المطر)

١٠٤ السكوت وعد

يعاتب أبا دلف وقد حجبه، وقيل هي في عبد الله بن طاهر:

يا أَيُّهَا المَلِكُ النَّائي بِرُؤْيَتِهِ، وجُودُهُ لِمُرَجِّي جُودِهِ كَثِبُ

رؤيته صعبة، وسخاؤه لراجيه كثِب (قريب)

ليس الحِجَابُ بِمُقْصٍ عنكَ لي أَمَلاً؛ إنَّ السماءَ تُرَجَّى حينَ تَحْتَجِبُ

الحجاب (وجود الحُجَّاب، وإغلاق الأبواب) ليس مقصياً (مبعداً) أملي فيك، فالسماء عندما
تحتجب بالغيوم ترجَّى (يرتجى منها المطر)

ما دونَ بابِكَ لي بابٌ أَلُوذُ بِهِ ولا وراءَكَ لي مَثْوىً ومُطَّلَبُ

ليس قبل بابك ولا بعده باب ألوذ به، وليس لي مثوى (إقامة) أو طلب عند أحد سواك

يا خَيْرَ مَنْ سَمِعَتْ أُذْنٌ بِهِ، ورأَتْ عَيْنٌ، ومَنْ وَرَدَتْ أبْوابَهُ العَرَبُ

أَمَّا السُّكُوتُ، فَمَطْوِيٌّ على عِدَةٍ؛ وفي كَلامِكَ غُرُّ المالِ يُنْتَهَبُ

سكوتك مطوي على عدة (وعد)، وعندما تتكلم وتأمر بالعطاء فكلامك يجعلنا ننهب المال نهباً

١٠٥ تهديد بالرحيل الغاضب

يعاتب أبا دلف:

أبا دُلَفٍ! لم يَبْقَ طَالِبُ حَاجَةٍ مِنَ الناسِ غيري؛ والمَحَلُّ جَدِيبُ

لم يبق طالب حاجة إلا أخذها سواي، والمكان جديب وبنا حاجة

يَسُرُّكَ أَنِّي أُبْتُ عَنْكَ مُخَيَّباً؟ ولم يُرَ خَلْقٌ، مِنْ جَدَاكَ، يَخيبُ

أبت: رجعت

وأَنِّيَ صَيَّرْتُ الثَّنَاءَ مَذَمَّةً، وقَامَ بِهَا في العَالمينَ خَطيبُ؟

أَقَمْتُ شُهوراً في فِنَائِكَ خَمْسَةً لَقىً، حَيْثُ لا تَهْمي عَلَيَّ جَنُوبُ

أقمت لقىً: مكثت مهمَلاً، تهمي: تمطر، جنوب: ريح الجنوب

فإنْ نِلْتُ مَا أَمَّلْتُ فيكَ، فإنَّني جَديرٌ، وإلّا فالرَّحيلُ قَريبُ

١٠٦ قطعة من الجاه

قال لإسحق بن أبي ربعي كاتب أبي دلف، وقد شفَّعه في أمر:

إنَّ الأميرَ بَلاكَ في أحوالِهِ فرآكَ أَهْزَعَهُ غَداةَ نِضالِهِ

بلاك (جربك) الأمير في حالات شتى، فوجدك أهزعه (السهم الأخير في كنانته) صبيحةَ نضاله

آسَيْتَهُ في المكْرُمَاتِ، ولم تَزَلْ رُكْناً لِمَنْ هُوَ مُمْسِكٌ بِحِبَالِهِ

آسيته (أشبهته) في المكرمات، وظللت ركناً لمن هو متمسك بالولاء للأمير

فَغَدَوْتَ محبوباً إلى أضيافِهِ، وغَدَوْتَ مَقْلِيَّاً إلى عُذَّالِهِ

مقلياً: مكروهاً

فَمتى النُّهوضُ بِحَقِّ شُكْرِكَ إنْ جَنَتْ بالغَيْبِ كفُّكَ لي ثِمَارَ فِعَالِهِ؟

فمتى سأنهضُ بشكرك (سأقوم بشكرك) إذا جنتْ (قطفت) لي كفك، بالغيب (وأنا غائب) ثمار الأمير وعطاياه؟ هذا شكر مشروط. فهو يسأل: متى سأتمكن من شكرك، لكن بشرط أن تستطيع تحقيق مطلبي، عندما تكلم الأمير بشأني بينك وبينه، في غيابي؟

فَلَقيتُ بينَ يَدَيْكَ حُلْوَ عطائِهِ ولَقيتَ بينَ يَدَيَّ مُرَّ سُؤَالِهِ

وعندئذ أكون قد لقيت من يدك عطاء الأمير وهو حلو، ولقيت أنت عندي سؤال الأمير، والسؤال مرٌّ وكريه دائماً

وإذا امْرُؤٌ أَسْدَى إليكَ صَنيعَةً مِنْ جَاهِهِ، فكأنَّها مِنْ مَالِهِ

١٠٧ خائفٌ على عنقي

يمدح إسحق بن أبي ربعي:

يا مِنَّةً لكَ، لولا مَا أُخَفِّفُها بِهِ مِنَ الشكرِ، لم تُحْمَلْ ولم تُطَقِ

منَّة: معروف

بِاللَّهِ أَدْفَعُ عَنِّي حَقَّ فَادِحِها، فإنني خَائفٌ منها على عُنُقي

فادحها: ثقيلها

١٠٨ وركب كأطراف الأسنَّة

يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب:

هُنَّ عَوادي يُوسُفٍ وصَوَاحِبُهْ؛ فَعَزْماً، فقِدْماً أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

النساء عوادي النبي يوسف (صارفاته عن عزمه)، وصواحبه (المذكورات معه). فلا تلتفت للنساء وتخويفهن إياك من الرحيل ومحاولة صرفك عن همتك، واعقد عزماً؛ فقدماً (دوماً، منذ القِدَم) أدرك السؤل (الأمنية) من يطلبه. يقول أبو تمام إن النساء هن من عرفناهن في قصة يوسف، فقد حاولت زليخا إغواءه، ثم اجتمعت النساء ينظرن إلى جماله وقطعن أيديهن، (ويذكِّرنا بحديث النبي إذ وافته المنية، فراجعته عائشة وحفصة في شأن من يصلي بالناس فقال: «إنكنَّ لأنتنَّ صواحب يوسف»). لست تدري وأنت تفسر أبا تمام ما الذي يشير إليه. ليس بالضرورة أن يكون المعنى في بطن الشاعر، فشاعرنا ممتلئ بالثقافة العربية الإسلامية، والكلمة تقفز إلى ذهنه ثم تستقر في بيته وقد تكون آتية من أكثر من مكان، فلا غرو أن يتنازع البيت أكثر من معنى. وهذا البيت لم يلق قبولاً من أبي العميثل مسؤول الشعراء في حاشية الأمير، في قصة طويلة، ملخصها أنه قال لأبي تمام: لم لا تقول ما يُفهم؟، فقال له أبو تمام: ولم لا تفهم ما يقال؟ (والتعليق منسوب لأبي سليمان الضرير في رواية أخرى) وأما الشطر الثاني فقد استرذله الآمدي، وأتى بأربعة بدائل كلهنَّ فيما أرى أجود منه. هذا، ولم نذكر الخرم في أول البيت

أَعاذِلتِي! ما أخشَنَ اللَّيلَ مَرْكَباً. وأَخْشَنُ منهُ في المُلِمَّاتِ راكِبُهْ

أيتها اللائمة لي على السفر! ألا فاعلمي أن الليل مركب خشن (ناقة صعبة)، وأخشن من الليل وأقسى منه من يركبه في الملمات (في الأزمات)

ذَرِيني وأَهوالَ الزَّمانِ أُفَانِها، فَأَهْوالُه العُظمى تَليها رغائِبُهْ

أتركيني مع أهوال الزمان كي أفانيَها (أحاربها حرب فناء)، فأهوال الزمان تأتي بعدها رغائبه (مسراته)

ألم تَعْلَمِي أنَّ الزَّمَاعَ على السُّرَى أخو النُّجحِ، عندَ النَّائباتِ، وصَاحِبُهْ؟

الزماع (التصميم)، على السرى (سير الليل)، أخو النجح (مرافق للإنجاز)

دَعيني على أَخلاقِيَ الصُّمِّ للَّتي هِيَ الوَفْرُ، أوْ سِرْبٌ تُرِنُّ نَوادِبُهْ

اتركيني على أخلاقي الصم (التي لا تسمع اللوم) لتحقيق الغاية التي هي الوفر (الغنى)، أو أموت ويأتي سرب من النسوة تُرِنُّ نوادبه (تنوح نادباته)

وقَلْقَلَ نَأْيٌ مِنْ خُرَاسَانَ جَأْشَها، فَقُلْتُ: اطمَئِنِّي، أَنْضَرُ الرَّوْضِ عازِبُهْ

قلقل نأي من خراسان جأشها (هز خبر جاءني من خراسان، بوجوب الذهاب إليها، قلبها)، فقلت لها: اطمئني، فإن أنضر روض عازبه (بعيدُهُ). فالروض البعيد عن المواشي يكون نضراً نامي العشب، وكذا خراسان فهي بعيدة لا يغشاها الشعراء كثيراً، وفيها للشاعر المادح خير كثير

وركْبٍ كأطرافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسُوا   على مِثْلِها، والليلُ تَسْطُو غَياهِبُهْ

رب ركب (مسافرين) نخيلين، فكأنهم أطراف أسنة الرماح، وقد عرّسوا (قضوا الليل) على مثلها (على ظهور نياق هزيلة لطول الرحلة فهي أيضا مثل أطراف الأسنة)، وكانت غياهب الليل (ظلماته) تسطو (تهجم). فهؤلاء القوم مسافرون يقضون الليل فوق ظهور الجمال لاجتهادهم في السير، والسير الليلي فيه اجتناب للحر

لأَمْرٍ عليْهِمْ أنْ تَتِمَّ صُدُورُه،   وليسَ عليْهِمْ أن تَتِمَّ عَواقِبُهْ

لقد ركبوا الجمال من أجل أمر عليهم (واجبهم) أن تتم صدوره (مقدماته)، وأما عواقبه (نتائجه) فليست بيدهم. طبعاً هي بيد الممدوح الذي يرجى منه أن يكون سخياً

على كلِّ رَوَّادِ المِلاطِ، تَهَدَّمَتْ   عَريكَتُهُ العَلياءُ، وانضَمَّ حَالِبُهْ

سافرنا على ظهر كل جمل رواد الملاط (متحرك الأكتاف، إذ يسير حثيثاً)، وقد تهدمت (اهترأت) عريكته العلياء (سنامه)، وانضم حالبه (لهزال الجمل تتقارب عروق بطنه)

رَعَتْهُ الفَيافي، بعدَ أنْ كانَ حِقْبَةً   رَعاها، وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ ساكِبُهْ

رعت الفيافي (الصحراء) جسم هذا الجمل وأنهكته، فكأنها أكلته، وكان الجمل حقبةً من الزمن يرعى عشب الفيافي في زمان انسكاب المطر

إلى مَلِكٍ لم يُلْقِ كَلْكَلَ بَأْسِه   على مَلِكٍ إلَّا ولِلذُّلِّ جَانِبُهْ

سافرنا إلى ملك (أمير أو قائد/وكل صاحب سلطة عصرئذٍ «ملك») لم يضع كلكل بأسه (صدر جبروته) على قائد آخر، إلا وألحقَ الذل بجانب ذلك القائد

سَما لِلْعُلى مِنْ جانِبيْها كِلَيْهِما   سُمُوَّ عُبَابِ الماءِ جَاشَتْ غَوارِبُهْ

ارتفع هذا القائد للمجد من كلا طرفي المجد مثلما يرتفع الماء عالياً وقد جاشت (اصطخبت) غواربه (أمواجه). والتعبير بالمثنى «من جانبيها» يعني الإحاطة فكأنه يقول: من الشرق والغرب، أو من اليمين واليسار

فَنَوَّلَ حتى لم يَجِدْ مَنْ يُنِيلُهُ،   وحاربَ حتى لم يَجِدْ مَنْ يُحَارِبُهْ

نول (أعطى) حتى لم يبقَ من هو بحاجة للعطاء، وحارب حتى أفنى الأعداء

ويومٍ أَمَامَ المَلْكِ دَحْضٍ وقَفْتَهُ   ولو خَرَّ فيه الدِّينُ لانهالَ كاثِبُهْ

رب يوم دحض (زَلق) وقفت فيه أمام المَلْك (هنا تعني الخليفة) مدافعاً عنه، ولو كان الدين قد خر (سقط) في ذلك اليوم لانهال كاثبه (كثيبه)

جَلَوْتَ به وَجْهَ الخِلافَةِ، والقَنَا   قدِ اتَّسَعَتْ بينَ الضُّلُوعِ مَذَاهِبُهْ

جلوت بهذا اليوم وجه الخلافة (بيضت وجهها)، وكانت الرماح قد اتسعت مذاهبها (ممرَّاتها) بين ضلوع المتحاربين

فلو نَطَقَتْ حَرْبٌ لَقالَتْ مُحِقَّةً: ألا هَكذا فَلْيَكْسَبِ المجدَ كاسِبُهْ

لو كان للحرب أن تتكلم لقالت، وهي على حق، هكذا يكون كسب المجد

ويـا أيُّهـا السَّـاعـي لِيُـدرِكَ شَـأْوَهُ تَـزَحْـزَحْ قَصِيًّاً؛ أَسوأُ الظنِّ كَاذِبُهْ

يا من يسعى لإدراك شأو (مدى) هذا القائد، وراءَكْ. . تزحزحْ بعيداً، فأسوأ الظن (الأماني) ما كان كاذباً

١٠٩ مطلع الجود

وقال في عبد الله بن طاهر وقد خرج إليه:

يقولُ في «قُومَسٍ» صَحْبِي، وقد أخَذَتْ مِنَّا السُّرَى، وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ

يقول صحبي ونحن في «قومس»، وقد نالت منا السرى (سير الليل)، وخطا المهرية القود (الإبل الكريمة الطويلة الأعناق)

أَمَطْلَعَ الشمسِ تَنْوِي أن تَؤُمَّ بِنا؟ فَقُلْتُ: كَلَّا، ولَكِنْ مَطْلَعَ الجُودِ

يقولون: هل تؤم بنا (تقودنا إلى) مكان طلوع الشمس (إلى اللانهاية)؟ فقلت لهم: كلا، بل مطلع الجود

١١٠ الشواهد والشمائل

وقال يرثي ابني عبد الله بن طاهرٍ وكانا صغيرين:

نـجـمـانِ شـاءَ الـلَّـهُ ألَّا يَـطْـلُـعـا إلا ارتِـدَادَ الـطَّـرْفِ، حـتـى يَـأْفُـلا

طلع هذا النجمان بقدر طرفة العين، ثم أفلا

إن الـفَـجـيـعَـةَ بـالـرِّيَـاضِ نَـواضِـراً لأَجَـلُّ مـنـهـا بـالـريـاضِ ذَوَابِـلا

لـو يُـنْـسَـآنِ، لَـكَـانَ هـذا غَـارِبـاً لِـلْـمَـكْـرُمـاتِ، وكـانَ هـذا كَـاهِـلا

ينسآن: يؤجلان، الغارب: الظَّهر، الكاهل: أعلى الظهر ما بين الكتفين

لَهَفي على تلكَ الشَّواهِدِ فيهِما، لـو أُمْـهِـلَـتْ حتـى تـكـونَ شَـمَـائِـلا

واحسرتا على الشواهد (البشائر) على نجابة الولدين، لو كان الزمن أمهلها حتى تصبح شمائل (صفات)

إنَّ الـهِـلالَ إذا رأيـتَ نُـمُـوَّهُ أَيْـقَـنْـتَ أنْ سـيَـكُـونُ بـدراً كـامـلاً

١١١ إخفاء المعروف سرقة

يمدح أبا زيد كاتب عبد الله بن طاهر، ويشكر سعيه له في حاجة:

وأَخَفُّ ما جَشَّمَ امْرُؤٌ، وسَعَى له يَوماً لِذِي النُّعْمَى، الثَّنَاءُ الصَّادِقُ

جشم: تجشم وتحمل (أقل واجبك علينا أن نثني عليك)

أأرى الصَّنيعَةَ مِنْكَ، ثم أُسِرُّهَا!   إنّي، إذنْ، لِيَدِ الكِرَامِ لَسَارِقُ

الصنيعة: المعروف، أسرها: أخفيها، اليد: المعروف

١١٢ التضاد

يمدح عبد الحميد بن غالب، والفضل بن محمد بن منصور، وإبراهيم ابن وهب، كتاب عبد الله بن طاهر:

والحادثاتُ، وإنْ أصَابَكَ بُؤْسُها،   فَهُوَ الذي أنْباكَ كيف نعيمُها

١١٣ كل غانية هند

يمدح محمد بن الهيثم بن شُبانة:

إذا انصرَفَ المحزونُ قد فَلَّ صبرَه   سؤالُ المَغاني، فالبكاءُ له رَدُّ

إذا انصرف (أصبح) الحزين قد هزم صبره سؤال المغاني (الديار) عن الأحباب الراحلين، فالجواب الوحيد هو أن يبكي. أخذنا برواية الصولي لكلمة «رد»، بفتح الراء

فلا تَحْسَبا هِنْداً لها الغدرُ وحدَها   سَجِيَّةُ نفسٍ. كلُّ غانِيةٍ هندُ

رقيقُ حَواشي الحِلْمِ، لو أنَّ حِلْمَهُ   بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ في أنه بُرْدُ

يمدح: هذا الرجل حليم، فكأن حلمه ثوب حواشيه (أطرافه) رقيقة، ولو لمست حلمه لما ماريت (جادلت) في أنه حقاً برد (ثوب)

وذو سَوْرَةٍ تَفْري الفَرِيَّ شَباتُها؛   ولا يَقْطَعُ الصَمْصَامُ ليسَ له حَدُّ

على أنه ذو سورة (هجمة) تفري الفري (تفعل الأفاعيل) شباتها (نصلها)؛ ولا يقطع الصمصام (السيف) الذي ليس له حد. فالسيف أيضاً ناعم لامع فيه رقة، ولكن له حداً قاطعاً

فقد نزلَ المُرتادُ منه بِمَاجِدٍ   مواهبُه غَوْرٌ، وسُؤْدَدُهُ نَجْدُ

لقد نزل المرتاد (طالب العطاء) منه بماجد، أي نزل بمن هو ماجد، مواهبه غور (عطاياه أرض مطمئنة فياضة)، وسؤدده نجد (سيادته هضبة لا ينالها العدو)

١١٤ الحب المنكوح

يمدح محمد بن الهيثم بن شُبانة:

وقالتْ: نِكَاحُ الحُبِّ يُفْسِدُ شَكلَه،   وكمْ نَكَحُوا حُبّاً وليس بِفَاسدِ!

هي ترى أن المعاشرة الجسدية تفسد الحب، ويقول لها شاعرنا إن الاثنين يسيران معاً

سَآوي بهذا القلبِ مِنْ لوعةِ الهوى إلى ثَغَبٍ من نُطْفَةِ اليأسِ بَارِدِ

سألجأ بقلبي، للتخفيف من لوعة الهوى، إلى ثغب (جدول ماء)
بارد هو عبارة عن نطفة (قطرة) اليأس

وأَرْوَعَ لا يُلقي المقَالِدَ لامرئٍ، فَكُلُّ امرئٍ يُلقي له بِالمقَالِدِ

رب أروع (شجاع) لا يلقي المقالد (يسلم المفاتيح/يسلم أموره) لأحد، بل الناس تكل إليه أمورها

يَصُدُّ عن الدُّنيا إذا عَنَّ سُؤْدَدٌ، ولو بَرَزَتْ في زِيِّ عَذراءَ نَاهِدِ

يصد عن ملذات الدنيا إن عنَّ (وردَ) واجب يعزز السؤدد (الشرف)، ولو برزت إليه الدنيا مغرية
كأنها عذراء ناهد (ارتفع صدرها)

إذا المرءُ لم يَزْهَدْ، وقد صُبِغَتْ له بِعُصْفُرِها الدنيا، فليس بِزاهِدِ!

إذا المرء لم يزهد في الدنيا، وقد صبغت له ملابسها بالعصفر (تزيناً)، فليس زاهداً حقيقياً. يقول:
الزهد أن تزهد والدنيا مؤاتية؛ وكان الكبراء العباسيون عندما يريدون الجلوس للشرب والفرح
يلبسون ثياباً معصفرة صفراء

أذابَتْ ليَ الدنيا يَمينُكَ، بَعدما وَقَفْتُ على شُخْبٍ مِنَ العيشِ جَامِدِ

جعلتْ يمينك الدنيا (النعمة) تذوب لي مثلما يذوب في الفم التمر أو حتى الدسم، بعد أن وقفتُ
على (نلت) الشُخبَ (دفقة من حليب الناقة وقت حلبها)، وكان قليلاً كأنه جامد

أَفَضْتَ على أهلِ الجَزيرةِ نِعمَةً إذا شُهِدَتْ لم تُخْزِهِمْ في المشَاهِدِ

جَعلتَ صميمَ العدلِ ظِلاً، مَدَدْتَه على مَنْ بِها مِنْ مسلمٍ أو مُعَاهِدِ

المعاهد: الذمي

سَأَجْهَدُ حتى أُبْلِغَ الشعرَ شَأْوَه، وإنْ كانَ لي طَوْعاً، ولستُ بِجَاهِدِ

سأتعب نفسي حتى أَبلغ بالشعر شأوه (غايته) في مدحك،
على أن الشعر الجيد يأتيني طوعاً بلا تعب

فإنْ أنا لم يَحْمَدْكَ عَنِّيَ صَاغِراً عَدُوُّكَ فاعْلَمْ أنني غَيْرُ حَامِدِ

فإن لم يجعل شعري عدوك يحمدك صاغراً (مجبراً)، بروايته هذا الشعر العظيم، فلا والله لا أكون
وفيتك حقك. سيأتي البحتري ويسرق هذا المعنى ويجيد كل الإجادة، ويزيد زيادة:

لَيُوَاصِلَنَّكَ رَكْبُ شِعْرٍ سَائِرٍ يَرْوِيهِ فيكَ، لِحُسْنِهِ، الأعداءُ

فَتَظَلُّ تَحْسُدُكَ الملوكُ الصِّيدُ بي، وأَظَلُّ يَحْسُدُني بِكَ الشُّعَراءُ

١١٥ كاش، لو سمحت

يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة:

عَـفَـتْ آيـاتُـهُـنَّ، وأيُّ رَبْـعٍ يـكـونُ لـه عـلـى الـزَّمَـنِ الـخِـيارُ؟

عفت (امَّحت) آيات الديار (علاماتهن/معالمهن)، وهل هناك ربع له الخيار (يملك خياره) فيصمد على مرور الزمن؟

أثَـافٍ كَـالـخُـدُودِ لُـطِـمْـنَ حُـزْنـاً، ونُـؤْيٌ مِـثْـلَـمـا انـفَـصَـمَ الـسِّـوَارُ

هذه أثاف (حجارة الموقد المسودَّة) تشبه الخدود التي لطمتها النسوة حزناً، فاختلط الكحل بالدمع فاسودَّت؛ وهذا نؤي (قناة تدور حول الخيمة لمنع المطر) قد اندثر بعضه فصار شبيهاً بسوار قد انفصم

وكـانَـتْ لَـوعَـةٌ، ثـم اطْـمَـأنَّـتْ، كَـذَاكَ لِـكُـلِّ سَـائِـلَـةٍ قَـرَارُ

كانت (حدثت) لوعة بقلبي ثم هدأت، وكل شيء سائل له استقرار بمكان منخفض فلا يعود يسيل. ههنا مضرب مثل، فإن تجعل السائلة الدمعة تكن ضيَّعت أبا تمام

مَضَى الأَمْلاكُ فانْقَرَضُوا، وأَمْسَتْ سَـرَاةُ مُـلُـوكِـنَـا وَهُـمُ تِـجَـارُ

الأملاك (الملوك) الحقيقيون انقرضوا، وأصبح سراة ملوكنا (الأشراف منهم) تجاراً يكنزون المال، ولا يبذلونه

وُقُـوفٌ فـي ظِـلالِ الـذَّمِّ تُـحْـمـى دَراهِـمُـهـا، ولا يُـحْـمَـى الـذِّمَـارُ

واقفون تحت معرَّة الذم: فالدراهم مصونة، والذمار (الشرف) غير مصون

فـلـوْ ذَهـبَـتْ سِـنَـاتُ الـدَّهْـرِ عـنـهُ وأُلْـقِـيَ عـنْ مَـنَـاكِـبِـهِ الـدِّثَـارُ..

لو ذهبت سنات (غفوات) الدهر عنه، وخلع عن مناكبه (جوانبه) الدثار (الغطاء)..

لَـعَـدَّلَ قِـسْـمَـةَ الأرزاقِ فـيـنـا، ولـكِـنْ دهـرُنـا هَـذا حِـمَـارُ!

لقسم الأرزاق بالعدل، لكن الدهر حمار (بليد)

نَـؤُمُّ أبـا الـحـسـيْـنِ، وكـانَ قِـدْمَـاً فـتـىً أعـمـارُ مَـوْعِـدِهِ قِـصَـارُ

نؤم (نقصد) أبا الحسين، وهو من قديم رجلٌ أعمار وعوده قصيرة، لأنه يفي بها فلا تعود مجرد وعود

لَـهُ خُـلُـقٌ نَـهَـى الـقُـرآنُ عـنـهُ وذاكَ عـطـاؤُهُ الـسَّـرَفُ الـبِـدَارُ

ومن أخلاقه (خصاله) خلق نهى عنه القرآن، وهو الإسراف والبدار (الإسراع) في العطاء

ولـم يَـكُ ذاكَ إصْـراراً، ولـكِـنْ تَـمـادَتْ فـي سَـجِـيَّـتِـهـا الـبِـحَـارُ

وهذا ليس إصراراً على مخالفة الشرع، ولكن البحار (الأنهار) تتمادى في سجيتها (طبيعتها)

أرى الـدَّالِـيَّـتَـيْـنِ عـلـى جَـفَـاءٍ   لَـدَيْـكَ، وكُـلُّ واحِـدَةٍ نُـضَـارُ

أرى قصيدتيَّ الداليتين (وقد سبقتا في مجموعتنا هذه) مجفوتين (منبوذتين) عندك،
وكل واحدة منهما نضار (ذهب)

إذا مـا شِـعْـرُ قَـوْمٍ كـانَ لَـيْـلاً   تَـبَـلَّـجَـتَـا كـمـا انْـشَـقَّ الـنَّـهَـارُ

تبلجتا (أشرقتا)

أَغَـرْتَـهُـمَـا، وغَـيْـرُهُـمـا مُـحَـلَّـىً   بِـجُـودِكَ، والـقَـوافـي قَـدْ تَـغَـارُ

جعلت القصيدتين تغاران إذ القصائد الأخرى عليها الحلي من كرمك.
والقوافي - تَرَى - تغار مثل النساء

وكـانَ الـمَـطْـلُ، فـي بَـدْءٍ وعَـوْدٍ،   دُخَـانـاً لـلـصَّـنِـيـعَـةِ وَهْـيَ نَـارُ

المطل (المماطلة) هو كالدخان للصنيعة (الإحسان)، والإحسان نفسه هو النار،
فالمطل مؤذٍ كالدخان

نَـسِـيـبُ الـبُـخْـلِ مـذُ كَـانـا، وإلَّا   يَـكُـنْ نَـسَـبٌ فَـبَـيْـنَـهُـمـا جِـوارُ

المطل نسيب (صهر) للبخل منذ وُجدا، وإن لم يكن نسيبه فجاره الملازم له

لِـذلِـكَ قـيـلَ: بـعـضُ الـمـنـعِ أَدْنَـى   إلـى كَـرَمٍ، وبـعـضُ الـجُـودِ عَـارُ

بعض المنع أدنى (أقرب) إلى الكرم إذا كان منعاً صريحاً بلا تسويف،
وبعض الجود عار إن كان مصحوباً بالتسويف

فَـدَعْ ذِكْـرَ الـضِّـيـاعِ، فَـبـي شِـمَـاسٌ   إذا ذُكِـرَتْ، وبـي عـنـهـا نِـفَـارُ

اترك الكلام عن منحي ضيعة، فبي شماس (صدود) ونفار (صدود)
لدى قولك إنك ستمنحني أرضاً

ومَـا لـيَ ضَـيْـعَـةٌ إلا الـمـطَـايَـا،   وشِـعْـرٌ لا يُـبـاعُ ولا يُـعَـارُ

وضيعتي (عزبتي) هي في الواقع المطايا (الإبل) وشعري

ومـا أَنـا والـعَـقَـارَ، ولـسـتُ مـنـهُ   عـلـى ثِـقَـةٍ، وجُـودُكَ لـيِ عَـقَـارُ

وما شأني والعقار! إنني لا أثق به، وعقاري الحقيقي هو سخاؤك

١١٦ السواد الأعظم

يمدح ابن شبانة أبا الحسين محمد بن الهيثم:

إنْ شِـئْـتَ أنْ يَـسْـوَدَّ ظـنُّـكَ كُـلُّـه   فَـأَجِـلْـهُ فـي هـذا الـسَّـوَادِ الأَعْـظَـمِ

ليس الصَّدِيقُ بِمَنْ يُعيرُكَ ظَاهِراً مُتَبَسِّماً، عنْ باطِنٍ مُتَجَهِّمِ

١١٧ ثقل الشكر وثقل تركه

يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة من أهل مرو:

ولو أَنِّي استطعْتُ لَقامَ عني بِشُكْرِكَ مَنْ مَشَى فوقَ الترابِ

فمهما شكرت فإنني لن أفيك حقك

فأَشْفِيَ مِنْ صَميمِ الشكرِ نَفْسي وتَرْكُ الشكرِ أثقلُ لِلْرِّقَابِ

فعندئذ سأشفي نفسي من صميم (قلب) الشكر، فإن عدم شكر النعمة يجعلها ثقيلة على الإنسان، كأنها قيد في رقبنه/ وقد قرأنا أشفي منصوبة على السببية ولم نشايع الصولي والتبريزي والأسود في ضبطهم، والله أعلم

١١٨ ظهور العيس أوطاني

يمدح محمد بن حسان الضبي:

ما اليومُ أولَ توديعٍ ولا الثاني البينُ أَكْثَرَ مِنْ شوقي وأحزاني

أكثَرَ: كثَّر، زاد. يقول: أكثر من مرة ودعت الأحباب واكتويت بنار الوداع

دعِ الفراقَ، فإن الدهرَ ساعَدَهُ فصارَ أَمْلَكَ مِنْ روُحي بِجُثْماني

الفراق، وساعَدَهُ الدهر، صار أشد تحكماً بجسمي من روحي

خَليفةُ الخَضْرِ؛ مَنْ يَرْبَعْ على وَطَنٍ في بَلدةٍ، فَظُهُورُ العِيسِ أوْطاني

أنا خليفة النبي الخضر المشهور بأسفاره التي لا تنقطع؛ هناك من يربع (يمكث) في وطن معين، أما أنا فأوطاني ظهور العيس (الإبل)

بالشامِ أهلي، وبغدادُ الهوى، وأَنا بالرَّقَّتَيْنِ، وبِالفُسْطاطِ إخواني

بالرقتين: هناك رقة في ثلاث دول عربية فيما نعرف، ولعله قصد بلدتين بهذا الاسم في ديار بكر، والفسطاط هي أصل قاهرة اليوم

وما أَظنُّ النَّوَى تَرضَى بِمَا صَنعتْ حتى تُطَوِّحَ بي أَقصَى خُراسانِ

وليسَ يَعْرِفُ كُنْهَ الوصلِ صاحِبُهُ حتَّى يُغَادَى بِنَأْيٍ، أو بِهِجْرانِ

لا يعرف العاشق حقيقة الوصل حتى يغاديه (يصبّحه) نأي أو هجران

١١٩ كذلك قدرة الضعفاء

يمدح محمد بن حسان الضبي (وكان والياً على مظالم الجزيرة وقنسرين ثم الموصل وأرمينية):

«قَدْكَ. اتَّئِبْ. أَرْبَيْتَ في الغُلَوَاءِ.» كم تعذِلونَ، وأنتُمُ سُجَرائي؟

تقولون لي: «قدك (حسبك/كفى) اتئب (استح) فقد أربيت (بالغت) في الغلواء (التمادي)»، إلى متى ستظلون تعذلونني (تلومونني) بهذه الكلمات وأنتم سجرائي (أصدقائي)؟ خالفنا في تفسيرنا: التبريزي، والصولي، والأعلم الشنتمري، وعبد السلام هارون، ومحيي الدين الخياط، وإبراهيم الأسود، واثنين من الدكاترة. وجميعهم رأى أن أبا تمام يخاطب صديقاً له ويقول له: يكفيك، واستحِ، وبالغت كثيراً، ثم يلتفت ويخاطب جماعة أصدقاء قائلاً: إلى متى اللوم، وأنتم أصحابي؟ ورغم أن هذا النوع من الالتفات مألوف عند أبي تمام، والبيت التالي فيه التفات وهو يعزز ما ذهب إليه الأفاضل جميعاً، فإنني أراه وضع في البداية كلماتهم الموجهة إليه، ثم عاتبهم. فذلك مثل قول الولد لأبيه: «اسكت، اقعد، ادرس.. إلى متى هذه الأوامر؟» والله أعلم

لا تَسقِني ماءَ المَلامِ، فإنني صَبٌّ قدِ استعْذَبْتُ ماءَ بُكائي

لا تلمني فأنا صب (عاشق) استعذبت (تلذذت) ماء بكائي (دمعي). قيل: أراد رجل أن يسخر من أبي تمام، فجاء بكوب وقال له: اسكب لي شيئاً من «ماء الملام». فرد عليه أبو تمام: إيتني أولا بريشة من جناح الذل. فأفحمه. يشير أبو تمام إلى الآية: «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة.» انس كل النكات التي أطلقها الناس على عبارة (ماء الملام)، وانس رد أبي تمام الذي وصفوه بالمفحم؛ وانظر إلى عبارة (ماء بكائي)، فأي فن في وصف الدموع بماء البكاء؟ ستقول لي: إنه قالها كي يوازن بها ماء الملام. فلماذا قال «ماء الملام» أصلاً؟ أنا أقول لك: قالها لكي يأتي بعدها بماء البكاء. وههنا السخف حقاً. مثال ذلك: أن يذهب المرء إلى الدكان، ويشتري قنبلة يدوية، ثم يقتل بها ذبابة مزعجة. نسأله لماذا اشتريت قنبلة، فيقول: كي أقتل الذبابة. ونسأله: لماذا قتلت الذبابة؟ فيقول: لأنني اشتريت قنبلة. هو سخيف لأنه قال ماء الملام، سخيف لأنه قال ماء البكاء، سخيف لأنه اشترى كلمة الماء أصلاً، فهي ليست اللفظة المناسبة لقتل الذبابة. والتشبيه القرآني، الذي احتج به أبو تمام، بعيد كل البعد عن هذا، وهو بليغ وجميل: تشبه الآية الإنسان بطائر يخفض جناحه لأبويه تذللاً، فلا يرفرف ولا يحلق أمامهما، وهذا التذلل ليس من ذل بل من رحمة لهما في كبرهما. لكن، أبا تمام كان موصوفاً بالجواب السريع اللاذع. وما كل من أفحم كان محقاً. ما أتينا بهذا البيت، وسودناه، إلا لأن معركة نقدية حامية الوطيس دارت عليه

ومُعَرَّسٍ لِلغيثِ تخفُقُ فوقَه راياتُ كلِّ دُجُنَّةٍ وَطْفاءِ

رب معرس (موضع) للمطر، تلوح فوقه رايات كل دجنة (غيمة داكنة) وطفاء (ذات ذيول متدلية)

صَبَّحتُه بِسُلافَةٍ، صبَّحتُها بِسُلافةِ الخُلَطاءِ والنُّدماءِ

صبحت هذا الموضع بسلافة (بخمر صافية)، وصبحت هذه الخمر بسلافة الخلطاء، أي بأصفى الرفاق والندماء

بمُدامةٍ تغدو المُنى لِكؤوسِها خَوَلاً، على السَّرَّاء والضَّرَّاءِ

هذه الخمر تصبح المنى خولاً (خدماً) لكؤوسها، فالمنى تطوف حول كؤوس الخمر، وتعطي الشاربين الفرح، سواء أكانوا مسرورين قبلها أم حزانى

راحٌ، إذا ما الرَّاحُ كُنَّ مَطِيَّها، كانتْ مطايا الشوقِ في الأحشاءِ

راح (خمر) إذا كانت الراح (الأكُفّ) مطياً لها (نياقاً تركبها الكؤوس)، فإن الخمر تصبح مطايا (نياقاً) تحمل الشوق، وتبثه في الأحشاء (القلوب)

عِنَبيَّةٌ، ذهبيَّةٌ، سَبَكتْ لها ذهبَ المعاني صاغَةُ الشعراءِ

خمر من العنب، وهي ذهبية اللون، وطالما صاغ الشعراء لها الشعر الحافل بالمعاني الشبيهة بالحلي الذهبية الثمينة

أَكَلَ الزمانُ، لِطولِ مُكْثِ بقائِها، ما كان خامَرَها من الأقْذاءِ

مع تعتيق الخمر ومكوثها طويلاً، أكل الزمان كل ما خامرها (خالطها) من أقذاء (شوائب)

صَعُبَتْ، وراضَ المزجُ سَيِّءَ خُلْقِها، فتعلَّمَتْ من حسنِ خُلْقِ الماءِ

هذه الخمر صعبةٌ كالفرس الجامحة الصعبة، ولكن مزجها بالماء روَّضها. تعليق عمران القفيني: يا سلام!

خَرقاءُ يَلعبُ بالعقولِ حَبابُها، كتَلَعُّبِ الأفعالِ بالأسماءِ

خرقاء (عابثة) هذه الخمر ويلعب حبابها (فقاقيعها) بالعقول، مثلما تلعب الأفعال بالأسماء فتؤدي إلى نصبها ورفعها إلخ

وضعيفةٌ، فإذا أصابتْ فرصةً قَتلتْ، كذلك قدرةُ الضعفاءِ

وكأنَّ بهجتَها، وبهجةَ كأسِها، نارٌ ونورٌ قُيِّدَا بِوِعاءِ

أو دُرَّةٌ بيضاءُ بِكْرٌ أَطْبَقَتْ، حَبَلاً، على ياقوتةٍ حمراءِ

كأن الكأس الزجاجية درة بيضاء، لكنها حبلى تحمل في أحشائها ياقوتة حمراء هي الخمر

لما رأيتُكَ قد غَذَوْتَ مودَّتي بالبِشْرِ، واستحْسَنْتَ وجهَ ثنائي..

لما رأيتك قد غذوت (كافأت) مودتي لك بالبشر (بالترحاب)، واستحسنت مديحي لك..

أَنْبَطْتُ في قلبي لِوَأْيِكَ مَشْرَعاً ظَلَّتْ تحومُ عليه طيْرُ رَجائي

أنبطت (حفرت) في قلبي لوأيك (لوعدك) مشرعاً (مورد ماء)، وأخذت طيور الرجاء، رجائي بالثواب، تحوم على هذا المورد

فَثَوَيْتُ جاراً لِلحَضيضِ، وهِمَّتي قد طُوِّقَتْ بِكواكبِ الجَوْزاءِ

وثويت أنا (مكثت) مجاوراً للقاع، ولكن همتي (طموحي) عالية وتلتف حول عنقها كواكب الجوزاء

يَسِّرْ لِقولِكَ مَهْرَ فِعلِكَ، إنه يَنوي افْتضاضَ صَنيعةٍ عَذراءِ

وفر لوعدك مهراً هو فعلك، وهذا الفعل سيكون عبارة عن صنيعة (جائزة) عذراء لم يسبق لأحد أن أعطى مثلها.. يحث الممدوح على إعطائه جائزة كبيرة

١٢٠ ضميره يتبسم

يمدح محمد بن حسان الضبي:

لم يَنْأَ عنِّيَ مَطْلَبٌ، ومحمدٌ عَوْنٌ عليهِ، أو إِليْهِ سُلَّمُ

لم يبعد عني مطلب (حاجة) إذا كان محمد معيناً لي عليه، أو سلماً إليه (واسطة لتحقيقه)

مِمَّنْ إذا مَا الشعرُ صَافَحَ سَمْعَهُ يَوماً رأيْتَ ضَميرَهُ يَتَبَسَّمُ

إذا سمع الشعر فوجهه يشرق بنشوة تخرج من أعماقه

١٢١ الحسناء الخجول

يمدح أبا العباس نصر بن منصور بن سيار:

فَلا دمعَ ما لم يَجْرِ في إِثْرِهِ دمٌ، ولا وَجْدَ ما لم تَعْيَ عن صِفَةِ الوَجْدِ

البكاء الحقيقي هو ما صحب الدم فيه الدمع، والوجد (الحزن الذي «يجده» الإنسان في قلبه) هو ما تعيا (تعجز) عن صفته (وصفه)

تُعَصْفِرُ خدَّيْها العيونُ بِحُمرةٍ إذا وَرَدَتْ كانتْ وَبالاً على الوَرْدِ

العيون الناظرة إلى هذه الفتاة تعصفر (تصبغ) خديها بحمرة الخجل، وهذه الحمرة المحببة إذا وردت (جاءت) كانت وبالاً (مصيبة) على الورد، فحمرة الورد يتضاءل حسنها بجانب حمرة خدي الفتاة

إذا أَزْهَدَتْنِي في الهوى، خيفَةَ الرَّدَى، جَلَتْ لِيَ عن وجهٍ يُزَهِّدُ في الزُّهْدِ

كلما جعلتني هذه الفتاة أزهد في الهوى وأتركه مخافة الموت عشقاً، كشفت عن وجه يجعلني أزهد في زهدي، وأغير رأيي

١٢٢ الليل الطويل

يمدح نصر بن منصور بن سيار:

أَفْنَى، وليلي ليس يَفْنَى آخِرُهْ هاتَا مَوارِدُهُ، فأينَ مَصَادِرُهْ؟

هاتا: هذه، الورود: القدوم نحو الماء، والصدور: الرجوع بعد سقي الإبل. يقول: رأيت الليل يقبل، ولكن هيهات أن يدبر

لا شيءَ ضَائِرُ عَاشِقٍ، فإذا نَأَى　　عنه الحبيبُ فكلُّ شيءٍ ضائِرُ

١٢٣ ترمي بأشباحنا

يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

لستُ مِنَ العِيسِ، أو أُكَلِّفَها　　وَخْداً يُدَاوِي المريضَ مِنْ وَصَبِهْ

لست من العيس (فسروها فقالوا: لست بصاحب هذه النياق) إن لم أجشِّمْها وخداً (سيراً سريعاً) يداوي المريض من علته (يداويني من فقري). أفهم أن يحلف المرء فيقول «لست من طيء إن لم..» فهو ينفي نفسه عن قبيلته ما لم يفعل كذا وكذا، أما أن ينفي نفسه عن العيس فذلك خروج بالتعبير عن طريقته. هكذا أنقدُه على طريقة الآمدي، وإن لم يتعرض الآمدي للبيت بنقد، مع أنه أورده

تَرْمي بأشباحِنا إلى مَلِكٍ　　نأْخُذُ مِنْ مالِه ومِنْ أَدَبِهْ

النياق ترمي بأشباحنا (توصل أجسامنا المهزولة من طول السفر) إلى ملك (صاحب ولاية، وكل من يملك أمراً سموه في تلك الحقبة ملكاً) نأخذ من ماله ومن أدبه. وقد عرف العصر العباسي وزراء مثقفين كثراً ورأينا ابن الرومي والبحتري وأبا تمام، ومن بعدهم المتنبي، يمدحون الملوك بعلمهم، وليس فقط بسخائهم

نَجْمِ بني صَالحٍ، وَهُمْ أَنْجُمُ الـ　　ـعَالَمِ: مِنْ عُجْمِهِ ومِنْ عَرَبِهْ

رَهْطُ الرَّسولِ الذي تَقَطَّعُ أَسْـ　　ـبَابُ البَرايَا غداً سوى سَبَبِهْ

بنو صالح رهط (قوم) الرسول الذي ستتقطع أسباب (واسطات/ شفاعات) الخلق كلهم سوى شفاعته

مُهَذَّبٌ، قُدَّتِ النُّبُوَّةُ والـ　　إسْلامُ، قَدَّ الشِّرَاكِ، مِنْ نَسَبِهْ

مهذب (مثقف) قدت (قُطعت) النبوة والإسلام من نسبه، كما يقد الشراك (الشريط) من قطعة الجلد

من ذا كَعَبَّاسِهِ، إذا اصطَكَّتِ الـ　　أَحْسَابُ، أمْ مَنْ كَعَبْدِ مُطَّلِبِهْ؟

من مِن الناس يشبه العباس أو عبد المطلب عمَّي النبي ـ وهما من أجداد الممدوح فهما عباسه وعبد مطلبه ـ إذا اصطكت الأحساب (قورن فيما بين مناقب الناس)

١٢٤ الطامسة الصوى

يمدح حُبيش بن المعافى قاضي نَصِيبين ورأس عين:

نسائلُها أيَّ المواطنِ حَلَّتِ　　وأيَّ دِيارٍ أَوْطَنَتْها وأَيَّتِ

نسأل المحبوبة أين حلت، وأيَّ ديارٍ أوطَنَتِ المحبوبةُ (اتخذت وطناً)

وماذا عليها لو أشارتْ، فَودَّعَتْ،　　إلينا بأطرافِ البَنانِ، وَأَوْمَتِ؟

أومت (أومأت/ أشارت)

عليها سلامُ اللّهِ أنّى اسْتَقَلَّتِ، وأنّى استقرَّتْ دارُها، واطمَأنَّتِ

استقلت (ارتفعت فوق البعير ورحلت)

ومَجْهُولَةِ الأعلامِ طَامِسَةِ الصُّوَى إذا اعتَسَفَتْها العِيسُ بالرَّكْبِ ضَلَّتِ

رب صحراء مجهولة الأعلام (المعالم) طامسة (=مطموسة) الصوى (جمع صُوَّة: صخور مميزة يستدل بها على الطريق)، إذا اعتسفتها العيس (سارت فيها الإبل على غير هدى) بالركب (براكبيها) ضلت الطريق

إذا ما تَنادَى الرَّكْبُ في فَلَوَاتِها أجابتْ نِدَاءَ الرَّكْبِ فيها، فَأَصْدَتِ

إذا نادى المرتحلون في فلواتها (أراضيها المقفرة) بعضهم بعضاً أجابت الصحراء نداءهم فأصدت (صنعت صدى)

تَعَسَّفْتُها والليلُ مُلْقٍ جِرانَه وجَوْزَاؤُه في الأُفْقِ حينَ استَقَلَّتِ

تعسفتها (سرت فيها على غير هدى) والليل قد ألقى جرانه (عنقه/أي تقدم وحل)، وجوزاء الليل قد ظهرت في الأفق حين استقلت (هنا معناها: ارتفعت)

بِمُفْعَمَةِ الأَنْسَاعِ، مُوجَدَةِ القَرَا أَمُونِ السُّرَى، تَنْجُو إذا العِيسُ كَلَّتِ

لقد سرت بناقة مفعمة الأنساع (ممتلئة السيور الجلدية التي تشُدُّ الرحل على الناقة/أي أنها ناقة سمينة)، موجدة القرا (قوية الظهر) أمون السرى (مأمونة في السير الليلي)، تنجو (تسير) إذا العيس كلت (الإبل تعبت)

إلى خَيرِ مَنْ ساسَ الرعيةَ عدلُه ووَطَّدَ أعلامَ الهدى فاستَقَرَّتِ

أعلام الهدى (جبال يُهتدى بها). فالممدوح قد ثبَّت للناس مناهج الحق كأنها الجبال التي يعرف بها السائر في الصحراء طريقه

أَقَرَّ عَمُودَ الدينِ في مُسْتَقَرِّهِ وقد نَهِلَتْ منه اللَّيالي وَعَلَّتِ

ثبت عمود الدين (والعمود هو الأساس وسط الخيمة، فإذا استقر استقر كل شيء) في موضعه، بعد أن نهلت الليالي وعلت منه (بعد أن شرب منه الزمن مرة أولى ثم مرة ثانية/أي بعد اضطرابه)

وأحْيَا سبيلَ العدلِ بعدَ دُثُورِه وأَنْهَجَ سُبْلَ الجُودِ حينَ تَعَفَّتِ

دثوره (اندثاره)، أنهج (أوضح النهج أي الطريق)، تعفت (امَّحتْ)

ويَجْزِيكَ بالحُسنَى إذا كنتَ مُحْسِناً ويَغْتَفِرُ العُظْمى، إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

العظمى (الزلة الكبيرة) إذا النعل زلت (إذا انزلقت قدمك/كناية عن ارتكاب خطأ، أو الوقوع في الفقر)

يمدح أبا عبد الله حفص بن عمر الأزدي:

أَنَخْتُ، إلى ساحاتِهِمْ وجَنَابِهِمْ، رِكَابي، وأَضْحَى في دِيارِهِمُ وَفْدي

أنخت إبلي في جوارهم، وغدا وفدي (قُدومي) حاصلاً في ديارهم

إلى سيفهِمْ حَفْصٍ، وما زال يُنتضَى لَهُمْ مِثْلُ ذاكَ السَّيْفِ مِنْ ذلكَ الغِمْدِ

أنخت إبلي إلى سيفهم حفص، وقد ظل يُنتضَى (يُسل) لهؤلاء القوم سيف كهذا السيف، من غمد كذلك الغمد (يقول: ظلوا يتوارثون السيادة أباً عن جد)

فَلَمْ أَغْشَ باباً أَنْكَرتْني كلابُهُ، ولم أَتَشَبَّثْ بالوَسيلَةِ من بُعْدِ

فلم أغش (آتِ) باباً أنكرتني كلابه (فأنا لست غريباً، ثم إن كلاب الكريم لا تنبح الضيف لألفتها الأضياف)، ولم أتشبث بواسطة بعيدة للتقرب فأنا قريب منهم

فأصبحتُ: لا ذُلُّ السُّؤالِ أصابَني، ولا قَدَحَتْ في خَاطري رَوْعَةُ الرَّدِّ

لم أشعر بذل للسؤال (طلب الرفد)، ولا قدحت (خطرت) ببالي روعة الرد (خشية الصد)

وأنتَ، وقد مَجَّتْ خُراسَانُ دَاءَها وقد نَغِلَتْ أطرافُها نَغَلَ الجِلْدِ..

أنت، وقد مجت (لفظت) خراسان داءها (أي ظهرت مشكلاتها)، ونغلت (تلفت) نواحيها كما يتلف ويتهرَّأ الجلد..

ليالِيَ باتَ العِزُّ في غَيْرِ بيتِهِ وعُظِّمَ وَغْدُ القومِ في الزمنِ الوَغْدِ

. حدث هذا ليالِيَ (في زمن) انتقل العز فيه إلى من ليسوا له بأهل، وعندما أصبح السفلة مبجلين في هذا الزمن السافل

ورامُوا دَمَ الإسلامِ، لا من جَهالةٍ ولا خَطَأٍ، بل حاوَلُوهُ على عَمْدِ

.. وعندما راموا (طلبوا) إراقة دم الإسلام ليس جهلاً، ولا خطأً، بل عمداً..

ضَمَمْتَ إلى قحطانَ عدنانَ كلَّها ولم يَجِدُوا، إذ ذاك، مِنْ ذَاكَ مِنْ بُدِّ

أنت عندئذ ضممت كل العرب، القحطانية والعدنانية، تحت لوائك، وما وجدوا بداً من التوحد

وما كنتُ ذا فقرٍ إلى صُلْبِ مالِهِ، وما كانَ حَفْصٌ بِالفقيرِ إلى حَمْدي

وما كنت ذا فقر (محتاجاً) إلى ماله، ولا هو محتاج إلى حمدي (مدحي)

ولكنْ، رأى شُكْري قِلادَةَ سُؤْدَدٍ، فَصَاغَ لها سِلْكاً بَهِيّاً مِنَ الرِّفْدِ

رأى شكري (مدحي له) قلادة سؤدد (عقد سيادة ومجد)، فصاغ لهذا العقد سلكاً (الخيط الذي تنظم فيه الجواهر/ولم يكن أيامها سلوك كهرباء) هو عبارة عن الرفد (العطاء)

فَما فاتَني ما عندَهُ مِنْ حِبائِهِ، ولا فَاتَهُ مِنْ فاخِرِ الشِّعرِ ما عِندي

الحباء: العطاء

١٢٦ صاعاً بصاع

يمدح مهدي بن أصرم:

أَقِلِّي، قد أَضَاقَ بُكَاكِ ذَرْعِي، وما ضاقَتْ بِنازِلَةٍ ذِراعي

خففي من بكائك أيتها الزوجة، فقد ضاق به ذرعي، ولكن ما ضاقت بأية نازلة (مصيبة) ذراعي (لم أفقد الصبر على المصائب)

أآلِفةَ النَّحيبِ! كَم افْتِراقٍ أَظَلَّ، فكانَ داعِيَةَ اجتماعِ!

كم افتراق أظل (ما أكثر ما رمى الفراق ظله) فكان داعية (سبباً) لعودة اللقاء

وليستْ فرحةُ الأَوْبَاتِ إلَّا لِمَوْقُوفٍ على تَرَحِ الوَدَاعِ

الأوبات (الأوبة: العودة)، موقوف على (مخصوص بـ)، ترح (حزن)

تَوَجَّعُ أنْ رأتْ جسمي نحيفاً، كَأَنَّ المجدَ يُدْرَكُ بالصِّراعِ

تتوجع هذه المرأة لنحافتي، ولكن المجد لا يدرك
(يتم إحرازه) بالصراع (إلقاء الخصم أرضاً)

بِمَهْدِيِّ بنِ أَصْرَمَ عادَ عُودي إلى إيراقِهِ، وامْتَدَّ بَاعي

بهذا الممدوح عاد عودي (غصني) إلى إيراقه (اكتسائه بالورق)، وامتد باعي (اتسع رزقي)

أَطالَ يَدي على الأيامِ، حتى جَزَيْتُ صُروفَها صَاعاً بِصَاعِ

جعل يدي طويلة في مخاصمة الأيام (الأحداث)، فصرت أرد لها الصاع بالصاع

إذا أَكْدَتْ سَوامُ الشِّعْرِ أَضْحَتْ عَطاياهُ، وَهُنَّ لها مَراعِ

إذا افتقرت سوام الشعر (المواشي/يشبه القصائد بالمواشي) فإن عطايا الممدوح تصبح كالمرعى، ويعود الشّعر ناضراً قوياً

ولم يَحْفَظْ مُضاعَ المجدِ شيءٌ، مِنَ الأَشياءِ، كالمالِ المُضَاعِ

المجد الذي ضيعه أهله لا يحفظه شيء كما يحفظه تفريق المال على الناس، ففي هذا استعادة للمجد بالسخاء

فلو صَوَّرْتَ نفسَكَ، لم تزِدْها على ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّباعِ

١٢٧ مات شاباً

يرثي محمد بن الفضل الحميري:

إنَّ رَيْبَ الزمانِ يُحْسِنُ أنْ يُهْـ ـدي الرَّزَايا إلى ذَوِي الأَحْسَابِ

الرزايا: المصائب، الأحساب: الأمجاد

أَنْزَلَتْه الأيامُ عن ظهرِها، مِنْ بعدِ إثباتِ رِجلِه في الرِّكابِ

كان قد وضع رجله في ركاب الفرس (الأنشوطة التي تساعد الفارس في اعتلاء الفرس)، ولم يكد يفعل ذلك حتى جاءه الموت. يقول: مات شاباً

حينَ سَامَى الشَّبابَ، واغْتَدَتِ الدُّنْـ ـيا عليهِ مَفتوحَةَ الأبوابِ

سامى (علا ووصل)

قَصدتْ نحوَهُ المنِيَّةُ، حتَّى وَهَبَتْ حُسْنَ وجهِه للترابِ

١٢٨ ساعات الدهر تفترسنا

يرثي هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي:

لَنِمْنَا، وصَرْفُ الدهرِ ليس بِنَائِمِ خُزِمْنَا له قَسْراً بغيرِ خَزائِمِ

لنمنا (والله لقد نمنا) ولكن مصائب الدهر لا تنام، وقد خُزمنا للدهر (ذللنا له) بغير خزائم (بدون الحلقات التي تجعل في أنف البعير بغرض تذليله)

أَلَسْتَ تَرى سَاعاتِه، واقْتِسَامَها نُفُوسَ بَنِي الدنيا اقْتِسَامَ الغَنَائِمِ

هذه المشاعر الوجودية سنراها أقوى عند المتنبي، ثم سيوصلها أبو العلاء إلى غاية الغايات

إذا فُقِدَ المفقودُ مِنْ آلِ مَالِكٍ تَقَطَّعَ قلبي رَحْمَةً لِلْمَكَارِمِ

رحمة لـ (شفقة على)

١٢٩ إني انتجعتك

يعاتب جعفر بن دينار:

مَلِكٌ، إذا مَا الشعْرُ حَارَ بِبَلْدَةٍ، كانَ الدَّليلَ لِطَرْفِهِ المتَحَيِّرِ

ملك (حاكم) إذا تحير الشعر فهو الدليل الذي يهديه، لأنه سخي يحب الشعر ويثيب عليه

إنِّي انْتَجَعْتُكَ يا أبا الفضلِ الذي بالجودِ قَرَّبَ مَوْرِدي مِنْ مَصْدَري

انتجعتك (قصدتك سائلاً)، وبجودك تقرب بين موطني ومورد رزقي

وأَعُوذُ باسْمِكَ أنْ تَكُونَ كَعَارِضٍ لا يُرْتَجَى، وكَنَابِتٍ لم يُثْمِرِ

العياذ باسمك أن تكون كعارض (سحاب) لا رجاء منه أن يمطر، وكنبات لا ثمر له

١٣٠ التصدق بالخمر

يعاتب أبا علي موسى القمي في نبيذ أهداه إليه:

فَاجَأْتَنَا كَدْرَاءَ، لم تُشْبَ مِنْ تَسْـ ـنِيمِ جِرْيَالِهَا، ولا سَلْسَبِيلِ

فوجئنا بخمرك كدراء (غير صافية)، لم تسب (تؤخذ) من تسنيم (عين صافية في الجنة) جريالها (خمرها)، ولا من سلسبيل (عين صافية في الجنة)

وَهْيَ نَزْرٌ، لو أنَّها مِنْ دُمُوعِ الصَّـ ـبِّ لم تَشْفِ مِنهُ حَرَّ الغَلِيلِ

نزر: قليلة، الغليل: الاحتقان

وكَأَنَّ الأَنَامِلَ اعْتَصَرَتْها، بعدَ كَدٍّ، مِنْ ماءِ وَجْهِ البَخِيلِ

اِحْتِسَاباً بَذَلْتَها؟ أم تَصَدَّقْـ ـتَ بِهَا رَحْمَةً على ابنِ السَّبِيلِ؟

احتساباً: لوجه الله

١٣١ يكون غلاماً لغلمانه

يعاتب يحيى بن عبد الله:

أبا جعفرٍ، وأُصولُ الفتى تَدُلُّ عليهِ بِأَغْصَانِهِ

أصول الإنسان تدل على قيمته بواسطة أغصانه (الناس المقربين إليه)، فالأغصان هي التي نراها وتدل على الجذور

أَليسَ قبيحاً بِأَنَّ أَخَاكَ رَجَاكَ لِحَادِثَ أَزْمَانِهِ

فَتَأْمُرُ أَنتَ بِإِعْطَائِهِ، ويَأْمُرُ فَتْحٌ بِحِرْمَانِهِ

فتح، خادمك، يمنعني ما أمرت لي به

ولستُ أُحِبُّ الشَّرِيفَ الظَّرِيفَ يَكونُ غُلاماً لِغِلْمَانِهِ

١٣٢ صدقت، ولكن..

ما ابْيَضَّ وجْهُ المرءِ، في طَلَبِ العُلَى، حتَّى يُسَوِّدَ وجهَهُ في البِيدِ

وصَدَقْتَ: إنَّ الرِّزْقَ يطلُبُ أَهْلَهُ، لكنْ بِحِيلَةِ مُتْعَبٍ مَكْدُودِ

حقاً الرزق المقدر لك مقدر لك، لكنه لا يأتي إلا بحيلة صاحب الرزق المتعب المكدود (المتعب)

١٣٣ جدع الأنوف

لَيس جَدْعُ الأُنوفِ جَدْعاً، ولكِنْ بعضُ مَنْ نَصْطَفيهِ جَدْعُ الأُنوفِ

جدع (قطع) الأنوف ليس هو الجدع الحقيقي، بل بعض من نصطفيه (نصادقه) هو جدع الأنوف (أي الذل)

لَوْ بِأُسْدِ العَريفِ نيطَتْ عُرَى المنِّ ـ لَذَلَّتْ رِقَابُ أُسْدِ العَريفِ

لو نيطت (علقت) عرى (حلقات) المن (التعيير بالعطاء) بأسود منطقة العريف لذلت رقابها

١٣٤ شكوى الغريب

يصف سوء مطلبه بنيسابور ويشكو الدهر:

صَريعُ هَوىً، تُغَاديهِ الهُمومُ بِنَيْسَابُورَ ليس لهُ حَميمُ

صريع غرام تغاديه (تباكره صباحاً) الهموم، وليس له في نيسابور حميم (صديق)

غَريبٌ، ليس يُؤْنِسُهُ قريبٌ، ولا يَأْوي لِغُرْبَتِهِ رَحيمُ

فقد فَارقْتُ بِالغَرْبِيِّ دَاراً بِأَرْضِ الشَّامِ، حَفَّ بِهَا النَّعيمُ

الغربي: لم أعرفها، سوى أن الشام تقع غرباً عندما يكون المرء في نيسابور

هِيَ الوطنُ الذي فَارَقْتُ فيهِ، وفَارَقَنيِ، المسَاعِدُ والنَّديمُ

وكنتُ بِهَا المُمَنَّعَ، غَيْرَ وَغْدٍ ولا نَكِدٍ، إذا حَلَّ العَظيمُ

الممنع (المحمي)، العظيم (البلاء الكبير)

إذا أنَا لم أَلُم عَثَراتِ دَهْرٍ أُصِبْتُ بها الغَدَاةَ، فَمَنْ أَلُومُ

١٣٥ أشعر الثقلين

يصف حجةً حجها:

وقد أَمَّمْتُ بَيْتَ اللَّهِ نِضْواً علَى عَيْرَانَةٍ حَرْفٍ سَعُومِ

أممت (قصدت) بيت الله نضواً (مهزولاً) على عيرانة (ناقة شديدة كالبعير) حرف (ناقة ضامرة) سعوم (سريعة)

وبَدَّلَها السُّرَى بِالجَهْلِ حِلْماً وقَدَّ أَديمَهَا، قَدَّ الأَديمِ

جعلها السرى (سير الليل) هادئة وكانت جهولاً (مستثارة)، وهذا السير قدَّ أديمها (شقق جلدها) قدَّ الأديم (كقطعك الجلد المدبوغ)

طَواها طَيُّهَا المَوْمَاةَ وَخْداً   إلى أَجْبَالِ مَكَّةَ والحَطِيمِ

طواها (أهزلها) طيها الموماة (قطعها الصحراء) وخداً (جرياً)
قاصدة جبال مكة والحطيم (بناء قرب الكعبة)

أقولُ لها، وقد أَوْحَتْ بِعَيْنٍ   إليَّ، تَشَكِّيَ الدَّنِفِ السَّقِيمِ..

أقول لها وقد أوحت (أومأت) بعينها كما يشتكي الدنف (المريض)..

بِكُورِكِ أَشْعَرُ الثَّقَلَيْنِ طُرّاً،   وأَوْفَى الناسِ في حَسَبٍ صَمِيمِ

بكورك (على سرجك) يركب أشعر الثقلين (الإنس والجن) طراً (جميعاً)، وأوفى الناس مع حسب صميم (نسب متين)

فَمَرَّتْ مِثْلَمَا يَمْشي شَهِيدٌ   سَوِيّاً في صِرَاطٍ مُسْتَقِيمِ

يبدو أن الناقة فهمت كلامه.. فعندئذ مرت مسرعة
كالشهيد الذي يقطع الصراط المستقيم سوياً (معتدلاً)

١٣٦ العصر الذهبي

يمدح المأمون:

أهلاً وسهلاً بالإمامِ ومَرْحباً،   سَهُلَتْ حُزُونَةُ كلِّ أمرٍ قَرْدَدِ

حزونة: وعورة، قردد: أرض مرتفعة

في دَوْلَةٍ لَحَظَ الزَّمانُ شُعاعَها   فارتَدَّ مُنْقَلِباً بِعَيْنَيْ أَرْمَدِ

رأى الزمان (بمصيباته ومشكلاته) شعاع دولتكم فتراجع وفي عينيه رَمَد

من كانَ مولِدُهُ تَقدَّمَ قبلَها،   أو بعدَها، فكأنه لم يُولَدِ

وأَرى الأمورَ المشْكِلاتِ تَمَزَّقَتْ   ظلماتُها عن رأيِكَ المتوقِّدِ

عن مثلِ نَصْلِ السيفِ، إلا أنَّه   مُذْ سُلَّ أوَّلَ سَلَّةٍ لم يُغْمَدِ

تمزقت المشكلات عن رأيٍ هو مثل نصل السيف، غير أنه منذ استُلَّ أول مرة لم يعد إلى غمده بل ظل مسلولاً

لو يَعلَمُ العَافُونَ كمْ لَكَ في النَّدَى   مِنْ لَذَّةٍ أو فَرْحَةٍ لم تُحْمَدِ

لو عرف العافون (الفقراء) مقدار الفرح الذي ينتابك عندما تعطيهم المال لم يشكروك

١٣٧ الإمام العادل

قال في المأمون:

لم يُذكَرِ الجُودُ إلَّا خُضْتَ وادِيَهُ   ولا انْتُضِي السيفُ إلَّا خافَكَ القَدَرُ

ما ضَرَّ منْ أصبحَ المأمونُ سائِسَهُ   أنْ لم يَسُسْهُ أبو بكرٍ ولا عُمَرُ
وما على الأرضِ، والمأمونُ يملِكُها   أنْ لا تُضِيءَ لنا شمسٌ ولا قمرُ

١٣٨ فكأنها وكأنهم أحلام

يمدح المأمون:

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقالَ: سلامُ   كمْ حَلَّ عُقدةَ صبرِهِ الإلْمامُ

هذه دمن (أطلال) المحبوبة، وقد أَلَمَّ بها العاشق (زارها) وسلم عليها،
وهذا الإلمام حل العقدة عن صبره، كما يحل المرء عقدة القربة،
فتدفق الصبر ولم يبق لدى العاشق صبر

نُحِرَتْ رِكابُ القومِ، حتَّى يَغْبُرُوا   رَجْلَى؛ لقد عَنُفُوا عَلَيَّ ولامُوا

أدعو الله أن تُنحَر ركاب (إبل) أصحابي الذين وقفوا معي بالأطلال حتى يغبروا (يصبحوا) رجلى
(مترجلين يسيرون على أقدامهم)، فقد كانوا عنيفين في لومي وتقريعي

ولقدْ أراكِ، فهلْ أراكِ بِغِبْطَةٍ   والعيشُ غَضٌّ، والزمانُ غُلامُ؟

وإنني لأنظر إليك أيتها الديار الخربة! فهلا رأيتك بعين أخرى سعيدة إذ أنت عامرة، وإذ العيش
غض (طري)، والزمان غلام (أي عندما كنت شاباً وكان الزمان شاباً مثلي)؟

أعْوامَ وَصْلٍ، كانَ يُنْسِي طولَها   ذِكْرُ النَّوَى، فَكأنها أَيَّامُ

هلا رأيتك أيتها الديار في أعوام وصل المحبوبة، وكانت أعواماً طويلة، وكان ذكر النوى (الفراق)
ينسيني طولها، فكأنها كانت أياماً فقط

ثم انقضَتْ تلكَ السِّنُونَ، وأَهلُها   فكأنها، وكأنَّهُمْ أحلامُ
اللَّهُ أكبرُ! جاءَ أكْبَرُ مَنْ جَرَتْ،   فَتَحَيَّرَتْ، في كُنْهِهِ الأوْهامُ

الله أكبر! جاء أكبر من جرت في كنهه الأوهام فتحيرت
(من سعت العقول لإدراك حقيقته، فتحيرت)

مَنْ شَرَّدَ الإعْدَامَ عن أوطانِهِ   بِالبَذْلِ، حتى اسْتُطْرِفَ الإعْدَامُ

جاء الذي شرد (طرد) الإعدام (الفقر) عن أوطانه (أماكن وجوده) ببذل المال،
حتى لقد استطرف (عُدَّ نادراً) الفقر

وتَكَفَّلَ الأيْتَامَ عن آبائِهِمْ   حتى وَدِدْنَا أننا أيْتَامُ

١٣٩ شماتة الأعداء

قال يمدح خالد بن يزيد الشيباني. وأراد المعتصم معاقبته فألغى قراراً بتوليته على الحرمين، فاستأذن خالد في التوجه إلى مكة للحج فأذن له. ثم شفع فيه أحمد بن أبي دؤاد، فرضي المعتصم عنه وخلع عليه، ولكنه لم يمنحه ولاية الحرمين. فحسنت حاله، واستقر في العراق، ولم يقصد مكة، لا حاجاً ولا والياً:

قد كان خطبٌ عاثرٌ، فأقالَه　　رأيُ الخليفةِ كوكبِ الخلفاءِ

أقاله: يعني أقالك منه، أي عفا عنك

فخرجتَ منه كالشهابِ؛ ولم تزلْ،　　مُذْ كنتَ، خَرَّاجاً من الغَمَّاءِ

الغماء: المصيبة

ما سرَّني بِخِدَاجِها من حَجَّةٍ　　ما بينَ أَندَلُسٍ إلى صنعاءِ

سررت بخداج (إجهاض) هذه الحَجَّة إلى مكة أكثر من سروري لو كنت ملكت البلاد بين الأندلس وصنعاء. قد جعلها الصولي «حُجة» بضم الحاء، وفسَّر أنها حُجة خصم الممدوح الذي كاد له عند المعتصم. ونقل التبريزي تفسير الصولي دون تغيير. وقد ذكر شرف الدين المستوفي أن الأصح حَجة بفتح الحاء وقال إن الصولي صحَّف. وهي «حَجة» أيضاً في نسخة الإسكوريال التي أطنب محمد عبده عزام محقق شرح التبريزي في وصفها بالدقة. ونعود للصولي فإنه بعد أن فسرها ذلك التفسير، راح يشرح قصة خالد والحجة التي لم يحجها إلى مكة. وعاد وفسر البيت على ضوء هذا مناقضاً نفسه. وأبى التبريزي إلا أن يصنع صنيعه فقد عاد في ذيل شرحه للبيت ونقل رواية «حَجة» بفتح الحاء وفسرها التفسير الصحيح وناقض نفسه. هذا هذا؛ أما شارحو الديوان المحدثون من الدكاترة فنقلوا الغلط واكتفوا به. وأورد التفسير على وجهه ملحم الأسود اللبناني؛ وزاد عبد السلام هارون أن جعلها «حِجة» بكسر الحاء مفسراً أنها المرة من الحج على غير قياس. وكتاب هارون صدر قبل طبع شرحي الصولي والتبريزي. وأغلب الظن أنه استقى المتن من طبعة محيي الدين الخياط، و«حجة» عند الخياط غير مشكولة. وهي غير مشكولة في طبعة شاهين عطية ١٨٨٩. وإنما أوردنا عليك هذا كله حتى تطمئن نفسك إلى أننا نخدم الأبيات قدر الاستطاعة، وعندما ترانا لا نورد كل هذه التفاصيل والاختلافات بين الشروح في أبيات أخرى ستسعد لأننا أسقطنا عنك المؤنة، وسيبقى في قلبك الاطمئنان

أجرٌ. ولكنْ، قد نظرتُ فلم أجِدْ　　أجراً يَفي بشماتَةِ الأعداءِ

قد فاتك أجر (ثواب) الحج. ولكنْ، لا ثواب يفي (يوازي) بشماتة الأعداء

١٤٠ السيف أصدق أنباءً

يمدح المعتصم، ويذكر انتصاره على الروم في موقعة عمورية:

اَلسيفُ أَصْدَقُ أَنباءً من الكتبِ ۝ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

السيف أصدق من «الأنباء» التي نقلها المنجمون من كتبهم، وحد السيف هو الحد الفاصل بين الخبر الحقيقي وبين اللعب (كلام العرافين). قارن أبو تمام بين أنباء ينقلها السيف وهي صحيحة قطعاً لأن السيف فاعل، وبين أنباء في كتب العرافين. والتقط حقيقة أن السيف والكتب يجوز عليهما حمل الأنباء، لكن، كلاً بطريقته. وصنع جناساً تاماً بين حد السيف، والحد الفاصل بين صدق وكذب، وزاد بجناس ناقص مع كلمة الجد. وبدأ هذا المطلع بكلمة اَلسيف، وهمزتها همزة وصل، ولكنك مضطر إلى قطعها، وفي الشطر الثاني تصنع الشدَّات إيقاعاً فيه تقطيع حادّ يشبه وضع حدود فاصلة بسيف قاطع. هذا بيت يمكن الكلام كثيراً على قوته وتأثيره. وكل شطر في البيت يتضمن حكماً قائماً بذاته يحسن السكوت عليه، وهذا من محاسن الشعر في رأي نقادنا القدماء، ولكنه هنا بالفعل أمر مستحسن لأن المناسبة تحتاج إلى القطع والبت. والطباق بين الجد واللعب ظاهر

بِيضُ الصَّفائِحِ، لا سودُ الصَّحَائِفِ، في ۝ مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

الصفائح البيض (السيوف)، وليس الصحائف السود (أوراق العرافين)، هي التي في متونها (نصالها) جِلاء (كشف) الشكوك. مضى أبو تمام في مقارنة. السيف بالكتب، فالتقط كلمتي «الصفائح» و«الصحائف» وصنع منهما جناساً. وجاء بكلمة «متون» وهي كلمة مشتركة أيضاً فالكتاب له متن والسيف له متن

والعلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامعةً ۝ بين الخميسَيْنِ، لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

المعلومة الحقيقية قابعة في سنان الرماح اللامعة كالشهب وهي تتحرك فيما بين الخميسين (الجيشين) المتقاتلين، وليست المعلومة قابعة في الشهب السبعة (الكواكب السبعة في عرف ذلك الزمان). التقط أبو تمام تشبيهاً مطروقاً لأسنة الرماح بالشهب، لكنه زاد فقارنها بالشهب (الكواكب) السماوية السبعة المعروفة آنذاك. سترى في القصيدة عشرات الشواهد على الصناعة اللفظية ـ المعنوية، وهي قادرة على أن تقوي المعنى وترفع الشعر، وقادرة أيضاً على تبديد حرارته وجعله مفتعلاً. ولأبي تمام من كلٍّ نصيب. غير أنه في هذه القصيدة جمع بين الأستاذية في الصنعة والتدفق الشعري كما لم يفعل في أي قصيدة أخرى له

أينَ الرِّوايةُ؛ بل أين النجومُ؛ وما ۝ صاغُوه من زُخْرُفٍ فيها، ومن كَذِبِ؟

أين رواية المنجمين، وأين نجومهم، وأين ما صاغوه من كلام مزخرف كاذب؟

تَخَرُّصاً، وأحاديثاً ملفَّقَةً ۝ ليستْ بِنَبْعٍ إذا عُدَّتْ، ولا غَرَبِ

صاغوه تخرصاً (كذباً) وصاغوه أحاديث ملفقة (مركبة من هنا وهنا)، وهي ليست بنبع (شجر صلب) ولا غرب (شجر ضعيف). يقول: ليست أحاديث صحيحة، ولا ضعيفة، بل مجرد أكاذيب

عَجائباً زَعَموا الأيامَ مُجْفِلَةً عنهُنَّ في صَفَرِ الأَصْفَارِ، أو رَجَبِ

زعموا أن هناك عجائب ستجفل عنها الأيام (ستنصرف الأيام وتمضي، فتكشفها)، وذلك في شهر صفر الأصفار (صفر ذاك الذي علمتموه بنحسه المعروف) أو في رجب

وخَوَّفوا الناسَ من دَهْيَاءَ مُظْلِمةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذَّنَبِ

خوفوا الناس من دهياء (مصيبة) عندما يبدو الكوكب الغربي ذو الذنب (مذنب «هالي» فيما قيل، ورأينا هذا المذنب يظهر في هذا الوقت في شعر علي بن الجهم معاصر أبي تمام)

وصيَّروا الأَبْرُجَ العُليا مرتَّبَةً ما كانَ منقلِباً، أو غيرَ مُنقَلِبِ

وجعلوا أبراج السماء مرتبة، فبعضها سموه منقلباً وبعضها غير منقلب، ورتبوا لها أدواراً في التأثير في سير الأحداث. أخذنا برواية (مرتَّبة) بفتح التاء، فبها استقام لنا السياق، وبغيرها لم يستقم

يقضُونَ بالأمرِ عنها، وهْيَ غافِلةٌ ما دارَ في فَلَكٍ منها، وفي قُطُبِ

يتكلمون باسم النجوم وهي لا تدري بهم، سواء الدائرات منها في فلك (مدار) أو ما كان جزءاً من قطب تدور حوله نجوم أخر

لو بَيَّنَتْ قَطُّ أمراً قبلَ موقِعِه لم تُخْفِ ما حَلَّ بالأوثانِ والصُّلُبِ

لو كانت الأبراج تكشف المستقبل لكانت كشفت للمنجمين ما حل بالتماثيل والصلبان في عمورية من تدمير قبل أن يقع

فتحُ الفُتوحِ تَعالى أن يُحيطَ به نَظْمٌ من الشعرِ، أو نثرٌ من الخُطَبِ

هذا فتح عظيم، تعالى (جل) عن أن يصفه بالتفصيل الشعر أو النثر

فَتحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السماءِ له، وتبرُزُ الأرضُ في أثوابِها القُشُبِ

فتح تتفتح له أبواب السماء بهجة، وتتزين الأرض بأثواب قشيبة (جديدة) من العشب والزهر

يا يومَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ، انْصَرَفَتْ مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعسُولَةَ الحَلَبِ

يا هذا اليوم لقد انصرفت (رجعت) الأماني بعدك وقد تحققت، فكأنها ضروع الناقة الحافلة الممتلئة بالحليب المعسول (الحلو المذاق)

أَبْقَيْتَ جَدَّ بني الإسْلامِ في صَعَدٍ، والمشركينَ ودَارَ الشِّرْكِ في صَبَبِ

يا هذا اليوم لقد أبقيت جد (حظ) المسلمين في صعد (مكان عال)، وأبقيت المشركين ودار الشرك (بلادهم) في صبب (مكان منخفض)

أُمٌّ لَهُمْ، لو رَجَوْا أن تُفتَدى جَعلوا فِداءَهـا كـلَّ أمٍّ بَـرَّةٍ وأَبِ

عمورية أم لهم (معقل مهم، ومكان تاريخي)، ولو كان لديهم أي رجاء في إنقاذها لافتدوها بكل أم برة (بارة) وكل أب

وبَـرْزَةُ الـوَجْهِ قـد أَعْـيَـتْ رِيَـاضَـتُـهـا كِسرى، وصَدَّتْ صُدوداً عن أَبي كَرَبِ

برزة (جميلة) الوجه أتعب ترويضها كسرى، وصدت عن أبي كرب (ملك اليمن) فلم يستطع امتلاكها. بدأ أبو تمام يشبهها بالفتاة

بِكْرٌ، فما افْتَرعَتْها كَفُّ حادِثةٍ، ولا تَـرَقَّـتْ إليـهـا هِـمَّـةُ الـنُّـوَبِ

عذراء، لم تفترعها (تفتض بكارتها) حادثة (نكبة)،
ولا تجرأت أن تترقى إليها همة النوب (تطلُّعات المصائب)

مِن عهدِ إسكَنْدَرٍ، أو قبلَ ذلكَ، قد شابَتْ نواصي اللَّيالي، وهْيَ لم تَشِبِ

منذ القدم شابت نواصي (سوالف) الليالي السود فابيضت،
ولكن عمورية شابة لم يحل برأسها الشيب

حتى إذا مَخَضَ اللَّهُ السِّنينَ لها مَخْضَ البَخِيلةِ، كانتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

ظل رب الكون يهز سني هذا الدهر مثلما تهز البخيلة القِربة المملوءة باللبن الحليب؛ تهزها كثيراً لأنها بخيلة تريد ألا تترك شيئاً من الزبدة؛ وبعد هذا جاءت عمورية ووقعت بأيدينا فكانت زبدة الحقب (الأزمان). مخض بدون شدة فانتبه، وكل محققي الشروح زينوها بالشدة، والمخْض يستدعي مَخَضَ. قد صفق النقاد لهذا البيت، ولم يستطع أحد فيما علمت أن يجد له أباً عند القدامى، وقال التبريزي «هذه استعارة لم تستعمل قبل الطائي»

أَتـتْـهُـمُ الـكُـرْبَـةُ الـسـوداءُ سَـادِرةً منها، وكانَ اسمُها فَرَّاجَةَ الكُرَبِ

جاءت للروم الكربة (المصيبة) السوداء سادرة (هوجاء) من عمورية، وكانوا يتفاءلون بها ويسمونها فارجة المصائب

جَـرى لـهـا الـفَـأْلُ بَـرْحَـاً يـومَ أَنْقِـرَةٍ إذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحَاتِ والرُّحُبِ

جرى لها الفأل برحاً (كان طالعها سيئاً) بعد يوم أنقِرة التي غودرت وحشة الساحات والرحب (الساحات). فقد هزم الروم أولاً قرب أنقرة وهجرها أهلها

لما رأتْ أختَها بالأمسِ قد خَرِبَتْ كان الخرابُ لها أَعْدَى مِنَ الجَرَبِ

كـم بين حيطانِها من فارسٍ بطلٍ قـانـيِ الـذَّوائِـبِ مـن آنـي دَمٍ سَـرِبِ

داخل أسوار عمورية أبطال كثر، تلطخت ذاوئبهم (خصال شعرهم) بالدم القاني (الأحمر) الآني (الحار) السرب (المتدفق)

بِسُنَّةِ السيفِ والـخَطِّيِّ، من دَمِه، لا سُنَّةِ الدينِ والإسلامِ، مُخْتَضِبِ

هذا البطل الرومي شعره مختضب (مصبوغ) بدمائه، وذلك على سنة (شرع) السيف والخطي (الرمح)، وليس مختضباً بالحنَّاء على سنَّة الدين الإسلامي

لقد تَركْتَ، أميرَ المؤمنينَ، بها للنارِ يوماً ذليلَ الصخرِ والخَشَبِ

تركت أيها المعتصم بعمورية يوماً ذا خشب وصخر ذليلين بتهدم البيوت، المبنية بالخشب والحجارة. فهو يوم خشبه وحجارته ذليلة. ويجوز لك أن تجعل كلمة «يوماً» زائدة، وهذا أشبه بالشعر القديم

غادَرْتَ فيها بَهِيمَ الليلِ وهْوَ ضُحَىً يَشُلُّهُ وَسْطَها صُبْحٌ من اللَّهَبِ

تركت الليل البهيم (الأسود) وهو ضحى منير، والذي يشل (يطرد) الليل وسط عمورية صبح صناعي سببه اللهب لا الشمس

حتى كأنَّ جَلابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ عن لونِها، أو كأنَّ الشمسَ لم تَغِبِ

فكأن جلابيب (ملابس) الليل رغبت عن لونها (كرهت لونها)، أو كأن الشمس لم تغرب في ذلك اليوم

ضَوْءٌ من النارِ، والظلماءُ عاكِفةٌ وظُلمةٌ من دُخَانٍ في ضُحَىً شَحِبِ

النار تضيء رغم الظلمة العاكفة (الماكثة)، والظلام إنما يأتي من الدخان وسط هذا الضحى الشاحب

فالشمسُ طالعةٌ من ذا، وقد أَفَلَتْ والشمسُ واجِبَةٌ من ذا، ولم تَجِبِ

الشمس طالعة من ذا (من اللهب)، مع أنها في الواقع أفلت (غربت)؛ والشمس واجبة (غاربة) من ذا (من الدخان)، لكنها لم تجب (لم تغرب) بسبب اللهب

تَصَرَّحَ الدَّهْرُ، تصريحَ الغَمامِ، لها عن يومِ هَيْجاءَ منها طَاهِرٍ جُنُبِ

تصرح (تكشَّف) الزمن مثلما يتكشف الغيم وتصفو السماء، ورأينا يوم هيجاء (حرب) طاهراً لكنه أيضاً جنب (هذا اليوم لحقته الجنابة بالجماع)..

لم تَطْلُعِ الشَّمسُ فيهِ يومَذاكَ على بَانٍ بأهلٍ، ولم تَغْرُبْ على عَزَبِ

عندما طلعت الشمس لم يكن في جنودنا أحد قد بنى بأهل (اتخذ زوجة)، وعندما غربت الشمس كان كل جندي قد فارق العزوبة وتزوج البنات المسبيات تعرضن للسبي وللاغتصاب بحسب أعراف ذلك الزمان. وربما أيضاً بحسب أعراف هذا الزمان. فالجنود الغائبون عن النساء مدة طويلة ـ عمورية تبعد ١٢٠٠ كم عن سامراء ـ فعلوا ما وصفه أبو تمام مفتخراً به. وفي حرب البوسنة فعل الجنود بالنساء ذلك. ولعل من أول واجبات الفقيه المسلم الجديد، الذي نرجو أن يبعثه الله، أن يفتينا فتوى معقولة في هذا الأمر غير المعقول. نقرأ هذا الشعر ونقدر أنه قيل في زمن غابر، ولكن هذه الحيوانية في الإنسان تظل مصدر توتير لنا. لكننا نعود ونقول: لن نقيس الشعر بمقاييس الأخلاق. ولن نرضى أن يسرف الغرب المجرم في تعييرنا بتفاصيل كهذه. فجريمة الغرب في الكونغو ـ ولا أريد تسمية بلد عربي ـ يقشعر لها البدن. لأجل معادنها الثمينة يصنع الغرب هناك الحروب الأهلية وغير الأهلية، والنتيجة مقتل خمسة ملايين إنسان. لا تشعر بالتقزز من ملحمة أبي تمام هذه بأكثر مما يجب، فالعرب في الجاهلية كانوا يسبون نساء بعضهم بعضاً. والروم كانوا يسبون المسلمات أيضاً

مـا رَبْـعُ مَيَّةَ، مَعْمُوراً، يُطِيفُ بـه   غَيْلانُ أَبْهَى رُبىً من رَبْعِها الخَرِبِ

ليس ربع (موطن) «مية» إذ هو معمور آهل بسكانه ويطيف (يطوف) به غيلان (ذو الرمة الشاعر، حبيب مية) ليس هذا الربع بأجمل في عينيْ غيْلان من عمورية إذ هي خربة محترقة في عيون جنودنا، فما أحلى خرابها وانتصارنا عليها

ولا الخدودُ، وإنْ أُدْمِينَ من خَجَلٍ،   أشهى إلى ناظرٍ من خدِّها التَّرِبِ

ولا الخدود المحمرة من خجل، فكأنها دامية، أشهى منظراً من خد عمورية المغبر

سَمَاجَةٌ غَنِيَتْ مِنَّا العُيونُ بها   عن كل حُسْنٍ بدا، أو مَنظرٍ عَجَبِ

هذه سماجة (قبْح) استغنت به عيوننا عن كل جمال أو منظر عجيب

وحُسنُ مُنْقَلَبٍ تبدو عواقِبُه،   جاءتْ بشاشَتُه عن سوءِ مُنْقَلَبِ

وهذا حسن منقلب (نتيجة طيبة) تظهر عواقبه (نتائجه)، وجماله ناشئ عن سوء منقلب الروم

لو يعلمُ الكفرُ كم من أعصُرٍ كَمَنَتْ   له المنيَّةُ بينَ السُّمْرِ والقُضُبِ

لو يعلم الكفر كم من عصور مرت والمنية (الموت) كامنة له بين السمر (الرماح) والقضب (السيوف) تنتظر البروز

تدبيرُ معتصِمٍ باللَّهِ، منتقِمٍ   للَّهِ، مرتَقِبٍ في اللَّهِ، مرتَهِبِ

ما حدث تدبير رجل معتصم بالله (محتَمٍ بالله)، مرتقب لأمر الله، ويرهب عذاب الله

ومُطْعَمِ النَّصْرِ، لم تَكْهَمْ أسنَّتُهُ   يوماً، ولا حُجِبَتْ عن رُوحِ مُحْتَجِبِ

وهو تدبير مطعَم النصر (الذي أطعمه الله نصراً) ولم تكهم أسنته (لم تخطيء) ولا حُجِبت عن روح جندي العدو المحتجب بدرعه وترسه

لم يَغْزُ جَيشاً، ولم ينْهَدْ إلى بَلَدٍ،   إلا تقدَّمَهُ جيشٌ من الرُّعُبِ

ينهد: ينهض

لو لم يَقُدْ جَحْفَلاً يومَ الوَغى، لغَدا،   من نفسِه وحدَها، في جَحْفلٍ لَجِبِ

لجب: كثير الضجيج، أي أنه جيش كبير

رمَى بكَ اللَّهُ بُرْجَيْها فَهَدَّمَها؛   ولو رَمَى بكَ غيرُ اللَّهِ لم تُصِبِ

لا أدري إن كان أحد قد فطن لهذا البيت وقت انهدام البرجين الكبيرين في نيويورك في حادي عشر سبتمبر أيلول عام ٢٠٠١. وها قد كادت تمر سنوات عشر على تلك الجريمة البشعة (وأنا أكتب في يناير كانون الثاني ٢٠١١)، ولكن القلب غير مطمئن إلى هوية الفاعلين. وأستحسن هنا الاستدلال بالنتائج على الأسباب: فما سعت واشنطن إلى تحقيقه وما حققته فعلاً في أعقاب، وبذريعة، تلك الفعلة يدل بعض الدلالة على أن لها ضلعاً

مِن بعدِ ما أَشَّبُوهَا واثِقِينَ بِها. والله مِفتاحُ بابِ المَعْقِلِ الأَشِبِ

لقد تهدمت عمورية من بعد ما أشبوها (حصنوها) ووثقوا بها. ولكن الله يفتح باب المعقل الحصين

وقالَ ذُو أمرِهِمْ: لا مَرْتَعٌ صَدَدٌ للسَّارِحِينَ، وليسَ الوِرْدُ مِنْ كَثَبِ

قال رئيس الروم: لا يوجد مرتع (مرعى) صدد (قريب) للمسلمين عند عمورية ليسرحوا بمواشيهم، وليس الورد (مورد الماء) من كثب (قريب)، لذا فلن يتمكنوا من حصارها وسيذهبون عنها

أمَانِياً سلبَتْهُمْ نُجْحَ هاجِسِها ظُبَى السيوفِ، وأَطْرافُ القَنا السُّلُبِ

كانت هذه أمنياتهم ولكنْ، سلبتهم نُجح (تحقُّقَ) هذه الهواجس ظبى السيوف (نصالها) وأسنة القنا (الرماح) السلب (الطويلة)

إنَّ الحِمامَيْنِ، من بِيضٍ ومن سُمُرٍ، دَلْوَا الحياتيْنِ من ماءٍ ومن عُشُبِ

إن الموتين: من بيض (سيوف) ومن سمر (رماح)، هما مثل دلوين لحياتين: حياة بالماء وحياة بالعشب. أي أن المسلمين حققوا بأسلحتهم أسباب الحياة، ونالوا الماء والعشب لمواشيهم بالنصر

لَبَّيْتَ صوتاً زِبَطْرِيَّاً، هَرَقْتَ له كأسَ الكَرى، ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

أيها المعتصم لقد لبيت صوت المرأة العربية في زِبَطْرَة التي صرخت وامعتصماه، وقد هرقت (أرقت) في سبيل ذلك كأس الكرى (النوم) فسهرت وأنت تقطع المسافة الطويلة وتسير ليلاً، وأرقت أيضاً رضاب الخرد (الفتيات) العُرُب (المتحببات للأزواج) فلم تعاشر النساء. ومن عادات العرب الغضاب أن يحلفوا ألا يمسوا النساء إلا بعد خوض المعركة. وقيل: عندما نقل إلى المعتصم خبر المرأة التي صرخت «وامعتصماه» كانت بيده كأس فوضعها، وسار من فوره ليتجهز للزحف، وحُفظت له الكأس ليشربها بعد عودته

عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المسْتَضامَةِ عن بَرْدِ الثُّغُورِ، وعن سَلسَالِهَا الحَصِبِ

حرارة الثغور (المواقع الحدودية) المستضامة (المظلومة) عداك (صرفك) عن برد الثغور (أفواه النساء)، وعن سلسالها (مائها العذب) الحصب (الذي يترقرق بين الحصى). يشبه ثغور النساء وما فيها من ريق وأسنان بجدول يترقرق فيه الماء بين الحصى

أَجَبْتَهُ مُعْلَمَاً بالسيفِ مُنْصَلِتاً ولو أجبتَ بغيرِ السيفِ لم تُجِبِ

أجبت صوت المرأة وأنت معلَم (واضع علامة كالريشة التي كان الفارس الشجاع يضعها على رأسه في الحرب) وعلامتك كانت السيف، وكان السيف منصلتاً (مسلولاً)، ولو كنت أجبت جواباً بغير السيف لما كان مقنعاً

حتى تركتَ عمودَ الشركِ منقَعِراً ولم تُعَرِّجْ على الأوتادِ والطُّنُبِ

تركت (جعلت) عمود الشرك منقعراً (مقتلَعاً) ولم تذهب للأوتاد والطنب (حبال الخيمة). فأنت قصدت أكبر مدنهم كمن يريد هدم الخيمة فيقتلع عمودها، ولا يأبه بأوتادها وحبالها

لما رأى الحربَ، رَأْيَ العينِ، تُوفِلِسٌ؛ والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المعنَى من الحَرَبِ. .

لما أدرك قائدهم توفلس أنها الحرب الحقيقية؛
والحرب مشتقة من الحرب (سلب الأموال). .

غَدَا يُصَرِّفُ بالأموالِ جِرْيَتَها، فَعَزَّهُ البحرُ ذو التيَّارِ والعُبُبِ

. . أصبح يبذل المال (محاولاً إغراء المعتصم به) ويريد أن تجري الحرب على هواه بأمواله،
ولكن غلبه التيار والعباب (تيار الزحف الجارف)

قد رأينا تفسير الصولي لجريتها، وتفسير التبريزي المشتق منه، وفسرْنا بما فتح الله علينا

هيهاتَ! زُعْزِعَتِ الأرضُ الوَقُورُ به عن غزوِ مُحْتَسِبٍ، لا غَزْوِ مُكْتسِبِ

الأرض الوقور (الثابتة) تزعزعت من تحت توفلس، فالغازي محتسب ثواب ربه، وليس مكتسباً
للمال

لم يُنفِقِ الذهبَ، المُرْبي بِكَثْرَتِهِ على الحَصَى، وبِه فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

والمعتصم الذي أنفق في تجهيز الجيش المال المربي (الزائد)
عن الحصى كثرةً ليس مفتقراً للذهب

إنَّ الأُسُودَ، أُسُودَ الغَابِ، هِمَّتُها يومَ الكَريهَةِ في المسْلُوبِ، لا السَّلَبِ

مسعى الأسود يوم الكريهة (الحرب) يكون لنيل روح الشخص المسلوب نفسها وليس لنيل السلب
(الثياب والمال)

وَلَّى، وقد أَلْجَمَ الخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تحتَها الأحشاءُ في صخبِ

ولى (فرَّ) قائدهم وقد ألجم (أخرس) الخطي (الرمح) منطقه (كلامه)، فأسكته السلاح سكتة كانت
تحتها أحشاؤه تصطخب من القلق والرعب

أَحْذَى قَرابِينَهُ صِرْفَ الرَّدَى، ومَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطاياهُ إلى الهَرَبِ

أحذى (أعطى) قرابينه (المقربين منه) صرف الردى (الموت الصافي)، ومضى يحتث (يحث) أنجى
مطاياه (أسرع خيله) هارباً

مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأرضِ يُشْرِفُهُ من خِفَّةِ الخوفِ، لا من خفَّةِ الطَّرَبِ

موكلاً (معنياً) بيفاع الأرض (المرتفع من الأرض) يشرفه (يعتليه) ليراقب هل يلحق به أحد بسبب
خوفه، لا بسبب شعوره بالطرب لنجاته

إنْ يَعْدُ من حَرِّها عَدْوَ الظَّلِيمِ، فقد أَوْسَعْتَ جَاحِمَها من كَثْرَةِ الحَطَبِ

إن يركض من حر المعركة ركض الظليم (ذكر النعام) فإنك مكثت تملأ جاحمها (جحيمها) بالحطب
الذين هم جنوده. .

تِسْعُونَ ألفاً، كَآسَادِ الشَّرَى، نَضِجَتْ جُلودُهُمْ، قبلَ نُضْجِ التِّينِ والعِنَبِ

قتلت حرقاً تسعين ألف نسمة من أبطال الروم، ونضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب اللذيْن قال المنجمون إن الحظ لن يبتسم للمعتصم إلا عند موسم نضجهما

يا رُبَّ حَوْبَاءَ لَمَّا اجْتُثَّ دابِرُهُمْ طابَتْ، ولو ضُمِّخَتْ بالمِسْكِ لم تَطِبِ

رب حوباء (نفْس) طابت (استراحت) لما تم اجتثاث الأعداء، ولو كانت ضمخت (لطخت) بالمسك لما طابت. والعربي إذ يذهب للحرب يقسم لا يمس الطيب ولا النساء إلا إذا ظفر. فالمعتصم كان غير متطيب بالطيب. وطيبه الحقيقي كان قتل الروم

ومُغْضَبٍ رَجعَتْ بِيضُ السيوفِ به حَيَّ الرِّضَا عن رَدَاهُمْ، مَيِّتَ الغَضَبِ

ورب مغضب (غاضب)، هو المعتصم، جعلته السيوف البيض يعود وقد أصبح رضاه حياً وغضبه ميتاً بقتل العدو

والحربُ قائمةٌ في مأْزِقٍ لَجِجٍ، تَجْثُو الرجالُ به صُغْراً على الرُّكَبِ

الحرب مشتعلة في مأزق (مضيق من الأرض) لجج (ضيق)، تجثو فيه الرجال (تقعي) على ركبهم صعراً (مائلين بأجسامهم) لشدة القتال. يتخيل المحاربين إذا اشتدت المبارزة ووقع أحدهم فواصل المبارزة وهو على ركبتيه وجسمه يميل يمينا ويساراً. هذا ما فتح الله به علينا وللشراح أقوال وروايات كثيرة

كم نِيلَ تحتَ سَناها من سَنا قَمَرٍ، وتحتَ عارِضِها من عارِضٍ شَنِبِ

كم نال جنودنا تحت سنا (ضوء هذه الحرب المحرقة) من سنا قمر (من فتاة مضيئة الوجه)، وكم نالوا تحت عارض الحرب (غمامتها الماطرة بالموت) من عارض شنب (أسنان عذبة لفتاة سبية)

كم كان في قَطْعِ أسبابِ الرِّقَابِ بِها إلى المُخَدَّرَةِ العَذراءِ من سَبَبِ

وكم قد كان في قطع أسباب (عروق) الرقاب في هذه الحرب من سبب (وسيلة) للوصول إلى عذراء مخدرة (مستورة)

كم أحرَزَتْ قُضُبُ الهِندِيِّ، مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ، من قُضُبٍ تَهْتَزُّ في كُثُبِ

وكم قد أحرزت قضب الهندي (السيوف) وهي مصلتة (مسلولة) ومهتزة من فتيات هن كالقضب (الأغصان) التي تهتز في الكثب (في كثبان الرمل). يشبه جسم الفتاة بجذع نحيل كالغصن يتمايل فوق أرداف كبيرة ككثيب الرمل

بِيضٌ إذا انْتُضِيَتْ من حُجْبِها رَجَعَتْ أَحَقَّ بِالبِيضِ أبْدَاناً من الحُجُبِ

بيض (سيوف) إذا انتضيت (سحبت) من حجبها (أغمادها) رجعت (أصبحت) أحق بالبيض أبداناً (الفتيات البيض أجساماً) من الحجب (من الستور التي تحتجب وراءها النسوة)

خَليفةَ اللَّهِ! جازَى اللَّهُ سعيَكَ عن جُرثُومَةِ الدِّينِ والإسلامِ والحَسَبِ

يا خليفة الله، أثابك الله عن سعيك (دفاعك) عن جرثومة الدين (أصله)، وعن الحسب (ذلك أنهم قالوا إن المرأة العربية التي صرخت «وامعتصماه» كانت هاشمية ذات حسب ونسب)

بَصُرْتَ بالرَّاحَةِ الكبرَى، فَلَمْ تَرَها تُنَالُ إلَّا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

إن كان بين صُروفِ الدهرِ من رَحِمٍ مَوْصُولةٍ، أو ذِمَامٍ غيرِ مُنْقَضِبِ..

إن كان بين صروف الدهر (أحداثه) رحم (نَسَب) أو ذمام غير منقضب (حرمة غير مقطوعة)..

فبينَ أيامِكَ اللاتي نُصِرْتَ بها، وبينَ أيامِ بَدْرٍ، أقربُ النَّسَبِ

.. فبين أيام نصرك هذا وبين أيام معركة بدر قرابة

أَبْقَتْ بني الأَصفرِ المِمْرَاضِ، كاسْمِهِمُ، صُفْرَ الوُجوهِ، وجَلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ

أيام نصرك أبقت (جعلت) بني الأصفر الممراض (الروم، وهم أبناء جدهم المسمى «الأصفر» وهو كثير المرض) جعلتهم صفر الوجوه من الرعب مثل اسمهم، وهذه الأيام جلَّت (بيضت) أوجه العرب. يقول: جعلتهم أيام نصرك صفر الوجوه مثل اسمهم، فاسمهم بنو الأصفر الممراض، وأيام نصرك بيضت أوجه العرب

١٤١ دنيا معاش للورى

يمدح المعتصم:

رَقَّت حَواشي الدهرِ، فَهْيَ تَمَرْمَرُ وغَدا الثَّرى في حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

صارت أطراف الزمن تتمرمر (تتموج) لما نحن فيه من نعمة وسرور، وأصبح التراب يتكسر (يتشقق) في حليه (في زينته/بسبب ما يخرج منه من نبات)

مَطرٌ يذوبُ الصَّحْوُ منهُ، وبعدَهُ صَحْوٌ يكادُ من الغَضَارَةِ يُمْطِرُ

مطر يلغي الصحو، ثم يأتي صحو يكاد من الغضارة (الخصب) يمطر، فالدنيا طرية والمطر متقطع لكنه ليس بقليل

ما كانتِ الأيامُ تُسْلَبُ بَهْجَةً لو أنَّ حُسْنَ الروضِ كان يُعَمَّرُ

يا صاحبَيَّ! تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُما تَرَيَا وُجُوهَ الأرضِ كيفَ تَصَوَّرُ

يا صاحبي! تقصيا نظريكما (انظرا بعيداً) تريا كيف تتخذ وجوه الأرض في الرياض المختلفة صوراً شتى

تَرَيَا نهاراً مشمِساً قد شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَى، فكأنَّما هُوَ مُقْمِرُ

النهار مشمس، وبوجود الأزهار البهيجة وشمس الربيع اللطيفة والنبات المتكاثف (حيث تكتسي الأشجار ورقاً)، فكأن النهار مقمر لا مشمس وإنما جعله مقمراً لوجود الأزهار التي هي كالنجوم. والذي التقط العلاقة بين القمر النهاري وبين وجود الأزهار من بين الشراح هو الأعلم الشنتمري، ومنه التقطناها، ونزيد فنقول: النجوم توصف بأنها «زُهْر» ولعل قوله «زَهرُ الربى» جعل عقله الباطن يفكر بالنجوم الزُّهر فجاء إليها بقمر

دُنـيَـا مَـعَـاشٌ لِـلْـوَرَى، حـتـى إذا حـلَّ الـربـيـعُ فـإنَّـمـا هِـيَ مَـنْـظَـرُ

هذه الدنيا معاش للناس (مخلوقة ليعيشوا فيها)، فإذا حل الربيع أصبحت لوحة تتمتع فيها العين. . هذا بيت عن ديوان

أَضْحَتْ تَصُوغُ بطونُها لظُهورِها نَـوْرَاً تـكـادُ لـه الـقُـلُـوبُ تُـنَـوِّرُ

أصبح بطن الأرض يصوغ لظهرها نوْراً (براعم وأزاهر) تجعل القلوب تنور (تزهر). كأنه جعل في باطن الأرض مصنعاً ينتج الأزاهير

مِنْ كـلِّ زاهِـرَةٍ تَـرَقْـرَقُ بـالـنَّـدَى، فـكـأنَّـهـا عَـيْـنٌ إلـيـكَ تَـحَـدَّرُ

الأزهار يترقرق فيها الندى، فكأن كل زهرة عين إليك (ناظرة إليك) تحدَّر (تبكي وينحدر دمعها)

تبدو ويَحْجُبُها الجَمِيمُ، كأنها عَـذراءُ، تـبـدو تَـارةً وتَـخَـفَّـرُ

تبدوة الزهرة ثم يحجبها الجميم (خضرة النبات) مع تحرك الأغصان، فكأنها عذراء تبدو ثم تتخفر (تخجل وتتوارى)

حتَّى غَدَتْ وَهَداتُها ونِجَادُها فِئَتَيْنِ في خِلَعِ الربيعِ تَبَخْتَرُ

حتى أصبحت وهدات الأرض (سهولها) ونجادها (رباها) فئتين (شكلين مختلفين/فنبات السهول مختلف عن نبات الربى العالية) وكلتاهما تتبختر في خلع (ملابس) الربيع

مُصْفَرَّةٌ مُحْمَرَّةٌ، فكأنها عُصَبٌ تَيَمَّنُ في الوَغَى وتَمَضَّرُ

أصبحت الأرض مصفرة محمرة بألوان الأزهار فكأنها عصب (جماعات) تتيمن وتتمضر (فرايات اليمن صفر، ورايات مضر حمر)

في الأرضِ، مِنْ عَدْلِ الإمامِ وجُودِهِ ومِنَ النَّباتِ الغَضِّ، سُرْجٌ تُزْهِرُ

عدل الإمام وكرمه، والنبات الغض (الطري) هذه سرج (مصابيح) تزهر (تلمع كالنجوم الزاهرة)

سَكَنَ الزَّمانُ: فلا يَدٌ مَذمُومَةٌ لِلْحَادثاتِ، ولا سَوَامٌ يُذْعَرُ

سكن الزمان (كفَّ شروره المعتادة)، وقصُرَت يد الحادثات (المصائب)، وحتى السوام (المواشي) لم يعد ذئب يذعرها

نَظَمَ البلادَ، فأصبحتْ وكأنها عِقْدٌ، كَأَنَّ العدلَ فيه جَوْهَرُ

الإمام (الخليفة) نظم البلاد كأنها عقد، وكأنَّ عدله جواهر العقد

١٤٢ إلَّا أنها لم تُقاتِلِ

أبو تمام يشهد للأفشين بالشجاعة:

لقد لَبِسَ الأَفْشِينُ قَسْطَلَةَ الوَغَى مُحِشّاً بِنَصلِ السيفِ، غَيْرَ مُوَاكِلِ

لبس القائد «الأفشين» قسطلة (غبار) الوغى (الحرب) لبساً، لبسها مُحِشّاً (محركاً الجمر بالمحش/ الحديدة التي يحرك بها الجمر) ولكنه يُحِشُّ بنصل السيف لا بحديدة، ولبس غبار الحرب غير مواكل (غير متكل على غيره بل مباشراً الحرب بنفسه)

ومُحِشاً بضم الميم قراءتنا، وانفردنا بها (ومن قرأ بكسر الميم أو بإبدال الحاء خاء أعنت نفسه في تعليق الجار والمجرور بعدها)

وسارتْ به، بين القنابِلِ والقَنا، عزائِمُ كانتْ كالقَنا والقَنابِلِ

القنابل (جماعات الخيل المندفعة)، القنا (الرماح)

قد ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ أعلامِهِ ضُحَىً بِعِقْبانِ طيرٍ في الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ

كان يرفع رايات العُقاب (راية سوداء من صوف قيل إنها راية الرسول) وكانت تطير فوقها وتظللها عقبان حقيقية تنتظر وقوع قتلى لكي تنهل (تشرب) من الدم

أقامَتْ مع الرَّاياتِ، حتى كأنها مِنَ الجيشِ، إلَّا أنها لم تقاتِلِ

أقامت (مكثت) العقبان مع الرايات، فكأنها جزء من الجيش، إلا أنها لم تقاتل

عشِيَّةَ صَدَّ البَابَكِيُّ عَنِ القَنَا صدودَ المُقَالي، لا صُدودَ المُجَامِلِ

حدث هذا عشية (عندما) صد البابكي (بابَك الخرمي) عن الرماح صدود المقالي (الكاره) لا صدود المجامل (الذي يفعل الفعل الجميل ويكره قتل الأعداء)

تَحَدَّرَ مِنْ لِهْبَيْهِ يرجُو غنيمةً بِسَاحَةِ لا الوَاني ولا المتَخاذِلِ

تحدر (نزل) من لهبيه (المضيقين بين الجبال) راجياً الغنيمة، لكنه نزل بساحة الأفشين الذي لم يكن وانيا (بطيئاً) ولا متخاذلاً (متراجعاً)

فكانَ كَشَاةِ الرمْلِ؛ قَيَّضَهُ الرَّدَى لِقَانِصِهِ، مِنْ قبلِ نصبِ الحَبائلِ

فكان بابَك كشاة الرمل (البقرة الوحشية). وقد قيضه الردى (يسَّره الموت) لقانصه، قبل أن ينصب القانص حبائله (شبكته)

وعاذَ بأَطرافِ المَعاقِلِ مُعْصِمَاً وأُنْسِيَ أن اللّهَ فوقَ المَعاقِلِ

عاذ (التجأ) بابَك بمعاقله (حصونه) معصماً (طالباً الحماية) ناسياً أن الله أقوى من الحصون، فهو عدو الله

فَوَلَّى، ومَا أبْقَى الرَّدَى مِنْ حُمَاتِهِ   لـه غَـيْـرَ أَسْـآرِ الـرمَـاحِ الـذَّوَابِـلِ

هرب وما أبقى له الموت من أصحابه الذين يحتمي بهم سوى أسآر (بقايا) الرماح الذوابل (الجافة الدقيقة). يقول: لم يبق منهم سوى البقية التي أخطأتها الرماح. أخذنا بشرح الخارَّزنجي للبيت الذي اقتنع به شرف الدين المستوفي. والمستوفي هذا عالم جليل صادق. يفهم الشعر أدق فهم، ويعرض للشروح المختلفة وينسب كل شرح إلى صاحبه. إنه من القلة الذين لا يسرقون أفكار واجتهادات الناس. ولم يطبع - فيما نعلم - كتابه عن أبي تمام والمتنبي، ولكن محققي الشروح الأخرى ينقلون عنه في الحواشي. ونحن ننقل بين الفينة والفينة شيئاً من أقواله من الجزء الثاني من كتابه الموجود بصورته المخطوطة على النت في موقع «ودود»

أَمَـا وأبـيِـه - وَهْـوَ مَـنْ لا أَبـا لَـهُ   يُـعَدُّ - لقدْ أَمْسَى مُضِيءَ المقَاتِلِ

وأحلف بأبيه - وليس له أب ذو قيمة أصلاً - أنه صار مكشوف المقاتل، فكأن المواضع التي يمكن أن يؤتى منها غدت مضيئة وواضحة للعيان

١٤٣ الأفشين واصطياد بابك

يمدح الأفشين:

لم يُقْرَ هذا السيفُ هذا الصَّبْرَ في   هَـيْـجَـاءَ إلَّا عَـزَّ هـذا الـدِّيـنُ

لم يقر (يُطعَم) سيفك ما عندك من صبر في الحرب إلا رأينا الدين يزداد عزاً

مَلِكٌ تُضِيءُ المَكْرُمَاتُ، إذا بَدا   لِـلْـمُـلْـكِ مـنـهُ غُـرَّةٌ وجَـبـيـنُ

لانَـتْ مَـهَـزَّتُـهُ، فَـعَـزَّ؛ وإنَّـمـا   يَـشْـتَـدُّ بَـأْسُ الـرُّمْـحِ حيـن يَـلـيـنُ

لان الممدوح وسهُل اهتزازه للمكارم فازداد عزاً؛ وأجود للرمح أن يكون ليناً

وتَـرى الـكـريـمَ يَـعِـزُّ حـيـنَ يَـهُـونُ   وتَـرى الـلَّـئِـيـمَ يَـهُـونُ حيـنَ يَـهُـونُ

لـو أَنَّ هَـذا الـفَـتْـحَ شَـكٌّ لاشْـتَـفَـتْ   منهُ القُلوبُ، فَكَيْفَ وَهْوَ يَقينُ؟

وأَخَذْتَ بَابَكَ حَائِراً دونَ المنَى؛   ومُـنَـىَ الـضَّـلالِ مِـيَـاهُـهُـنَّ أُجُـونُ

بابَك: قائد العصيان بابَك الخُرَّمي؛ أجون: معكرة

ورَجَا بِـلادَ الرُّوم، فـاسْـتَـعْـصَى بـه   أَجَـلٌ أَصَـمُّ، عَـنِ الـنَّـجَـاءِ حَـرُونُ

حاوَل اللحاق ببلاد الروم ولكن أجله الذي لا يسمع أمانيه استعصى به (منعه)، فهذا الأجل مثل الحصان الحرون (العنيد) الممتنع عن النجاء (الركض)

هَيْهَاتَ! لـم يَعْلَمْ بِأَنَّكَ لو ثَوَى   بـالـصِّـينِ، لـم تَبْعُدْ عليكَ الصِّينُ

ثوى: أقام

١٤٤ الظفر ببابك الخرمي

وقال يمدح المعتصم ويذكر فتح الخرمية (أصلها ٨٨ بيتاً وهي من ملاحمه):

آلَتْ أمورُ الشِّركِ شرَّ مَآلِ وأَقَرَّ، بعد تَخَمُّطٍ وصِيَالِ

آلت أمور الشرك شر مآل (مصير)، وأقر الشرك بالوحدانية وبسلطة الدولة بعد تخمط (هياج) وصيال (اندفاع)

غَضِبَ الخليفةُ للخلافةِ غَضْبةً رَخُصَتْ لَهَا المُهَجاتُ، وَهْيَ غَوالِ

المهجات (القلوب)، غوال (غالية)

لمَّا انْتَضَى جَهْلَ السيوفِ لِبَابَكٍ أَغْمَدْنَ عنهُ جَهَالَةَ الجُهَّالِ

عندما انتضى (استل) الخليفة جهل السيوف (غضبها) لبابك الخرمي المنشق عن الدولة أغمدت هذه السيوف عن الخليفة (أخْفَتْ) جهالة الجهال من أنصار بابك وغيرهم من العصاة

فَلِأَذْرَبَيْجَانَ اخْتِيالٌ، بعدما كانتْ مُعَرَّسَ عَبْرةٍ ونَكَالِ

فاختالت أذربيجان مسرورة بعد أن كانت معرس (موضع) عَبرة (تأديب) ونكال (تنكيل)

أَطْلَقْتَها مِنْ كَيْدِهِ، وكأنما كانتْ بِهِ مَعقُولةً بِعِقَالِ

أطلقتها من كيد بابك، وكان قد قيدها تقييداً بثورته

قد أُتْرِعَتْ منهُ الجَوَانِحُ رَهْبةً بَطُلَتْ لَدَيْها سَوْرَةُ الأبْطالِ

أترعت (امتلأت) جوانح (أعضاء) بابك رهبة أبطلت سورة (هجمة) الأبطال من رجاله

لو لم يُزَاحِفْهُمْ، لَزَاحَفَهُمْ له ما في صُدُورِهِمُ مِنَ الأَوْجَالِ

لو لم يزحف الخليفة رداً على زحف رجال بابك، لزحفت عليهم الأوجال (الرعب) الذي في قلوبهم من بطش الخليفة

يا يومَ أَرْشَقَ! كنتَ رَشْقَ مَنِيَّةٍ لِلْخُرَّمِيَّةِ صَائِبَ الآجالِ

يا يوم معركة «أرشق»، لقد كنت كرشقات سهام تحمل الموت للخرمية (أصحاب بابك الخرمي)، وكانت سهاماً مسددة صائبة تأتي بآجالهم

أسْرَى بنو الإسلامِ فيهِ، وأدْلَجُوا بِقُلوبِ أُسْدٍ في صُدورِ رِجَالِ

في هذا اليوم (المعركة) أسرى المسلمون (ساروا ليلاً)، وأدلجوا (ساروا قبيل الفجر) بقلوب أسود

ما طَالَ بَغْيٌ قَطُّ إلَّا غَادَرَتْ غُلَوَاؤُهُ الأَعْمَارَ غيرَ طِوَالِ

ما طال البغي (الظلم) واستمر إلا غادرت (جعلت) غلواؤه (تماديه) أعمار أهله قصيرة

أُبْنَا بِكُلِّ خَرِيدَةٍ، قد أُنْجِزَتْ فيها عِدَاتُ الدهرِ بعدَ مِطَالِ

أُبنا (رجعنا) بكل خريدة (بفتيات جميلات)، وبنيلها أُنجزت لنا عدات (وعود) الدهر بعد طول مماطلة

خَاضَتْ مَحَاسِنَها مخاوفُ، غادرتْ ماءَ الصِّبا والحُسْنِ غيرَ زُلالِ

وهذه الفتيات خاضت المخاوف في محاسنهن (مثلما يخوض المرء في ماء البركه فيعكرها)، وهذه المخاوف غادرت (جعلت) ماء الصبا والحسن في وجوههن غير زلال (غير صاف)

أُعْجِلْنَ عن شَدِّ الإزَارِ، وربما عُوِّدْنَ أنْ يَمْشِينَ غيرَ عِجَالِ

عندما تم سبي هؤلاء النسوة جاء الأمر على عجل فلم يشددن أزرهن (أرديتهن)، وكن قبلئذ يمشين الهوينا غير مستعجلات

مُسْتَرْدَفَاتٍ فوقَ جُرْدٍ أُوقِرَتْ أكْفَالُها مِنْ رُجَّحِ الأكْفَالِ

مستردفات فوق جرد (راكبات على أرداف الخيل)، وقد أوقرت (أُثقلت) أكفال الخيل من الفتيات الراجحات الأكفال (الكبيرات المؤخرات)

ونَجا ابنُ خَائِنَةِ البُعُولَةِ، لوْ نَجا، بِمُهَفْهَفِ الكَشْحَيْنِ والآطَالِ

ونجا ابن خائنة البعول (الأزواج/أي ابن الزانية)، هذا لو كان نجا حقاً، بمهفهف الكشحين (بحصان خفيف الخاصرتين) والآطال (الخواصر أيضاً)

لاحظ أن أبا تمام، وقد ذكر الأرداف الثقيلة في البيت السابق، راح هنا يذكر الحصان الرشيق، فشاعرنا يعشق الطباق (إيراد المعنى وعكسه) إدماناً

ما زالَ مَغْلُولَ العزيمةِ، سَادِراً حتى غَدَا في القَيْدِ والأَغْلالِ

ظل مغلول (مقيد) العزيمة، سادراً (حائراً)، حتى أصبح فعلاً مقيداً وتم القبض عليه

ما نِيلَ حتى طارَ مِنْ خوفِ الرَّدَى كلَّ المَطَارِ، وجَالَ كُلَّ مَجَالِ

ما نيل (أُخذ أسيراً) حتى طار خائفاً، وتجول في البلاد

والنَّحْرُ أَصْلَحُ للشَّرُودِ، ومَا شَفَى مِنْهُ كَنَحْرٍ بعدَ طُولِ كَلالِ

والنحر (الذبح) أصلح للجمل الشرود الكثير الفرار، وليس شيء يشفي الغليل من هذا الجمل كذبحه بعد طول التعب في ملاحقته

لاقَى الحِمَامَ بِسُرَّ مَنْ رَاءَ التي شَهِدَتْ لِمَصْرَعِه بِصِدْقِ الفَالِ

لقي بابَك الحمام (الموت) بسر من راء (سر من رأى)، التي كان اسمها فألاً طيباً بمصرعه لأن هذا المصرع سَرَّ من رآه

قُـطِـعَـتْ بـه أَسْـبَـابُـهُ لـمَّـا رَمَـى   بِـالـطَّـرْفِ بـيـنَ الـفـيـل والـفَـيَّـالِ

وقد قطعت به أسبابه (حباله التي يتعلق بها بهذه الدنيا) عندما رمى بصره بين الفيل وقائده الفيال (فقد أُركب على فيل للتشهير به وعرضه على الناس، والتشهير به سيعقبه قتله، ولا مجال بعدها لاستبقائه). وللقارئ أن يرى في بابك الخرمي رأي أبي تمام شاعر الدولة؛ وله أن يرى فيه رأي المتدينين في زمننا، من أنه إباحي وعدو للإسلام، وخائن اتصل بالروم للاستقلال عن الدولة الإسلامية؛ وله أن يرى فيه شعوبياً حريصاً على تراث قومه المتآكل بتأثير توليفة ثقافية مركزية فيها عناصر تركية وعربية وفارسية. على أننا نقرأ هذه القطعة من التاريخ في شعر أبي تمام وهمنا متجه إلى الناحية الفنية، واعلم ـ حفظك الله ـ أن المعتصم سيقتل القائد الأفشين بعد قليل متهماً إياه بالزندقة. واعلم أن مؤرخينا القدامى كانوا أصدق من المعاصرين المشحونين بأحقاد عجيبة وتعصب سخيف، فقد وصف القدامى ما جرى بدقة وتفصيل، فأما المعاصرون فيوردون الأحداث مفرقة وسط أكوام من العبارات المائجة الممتلئة بالغضب للدين، فلا تفهم منهم إلا أن عليك أن تلعن فلاناً وأن تتعصب ضد فلان

١٤٥ قتل الأفشين

وقال يمدح المعتصم ويذكر إحراق الأفشين (خيذر بن كاوس) وصلبه:

الـحـقُّ أبْـلَـجُ، والـسـيـوفُ عَـوَارِ   فَـحَـذارِ مِـنْ أَسَـدِ الـعَـريـنِ، حَـذارِ

الحق أبلج (واضح) والسيوف عوار (عارية مسلولة)، فاحذروا أسَد العرين

يـا رُبَّ فِـتْـنَـةِ أُمَّـةٍ قَـدْ بَـزَّهـا   جَـبَّـارُهـا فـي طـاعـةِ الـجـبَّـارِ

رب فتنة حدثت في الأمة بزها (غلبها) جبار الأمة (المعتصم) طاعةً لله

جَـالَـتْ بِـخَـيْـذَرَ جَـوْلَـةُ الـمِـقـدارِ   فـأحَـلَّـهُ الـطُّـغْـيـانُ دارَ بَـوَارِ

المقدار (القضاء)، بوار (هلاك)

كـم نِـعـمَـةٍ لـلـهِ كـانـتْ عـنـدَه،   فَـكـأنَّـهـا فـي غُـربـةٍ وإِسَـارِ

كُـسِـيَـتْ سَـبـائِـبَ لُـؤْمِـه، فَـتـضـاءَلَـتْ   كَـتـضَـاؤُلِ الـحَـسـنـاءِ فـي الأَطْـمَـارِ

كسيت نعمة الله عنده سبائب (أثواب) لؤمه، فتضاءلت النعمة (أصبحت قميئة) مثلما تتضاءل الحسناء في الأطمار (الملابس الرثة)

صَـادَى أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ بِـزِبْـرِجٍ   فـي طَـيِّـهِ حُـمَـةُ الـشُّـجَـاعِ الـضَّـاري

صادى (دارى) الأفشين المعتصم بزبرج (خداع) في طيه حمة الشجاع الضاري (زبانى الثعبان الشرس)

مَـكْـراً بَـنـىَ رُكْـنَـيْـهِ، إلَّا أنَّـه وَطَـدَ الأسـاسَ عـلـى شَـفِـيـرٍ هَـارِ

مكر مكراً وبنى ركنيه (أي أركانه، وأبو تمام كثيراً ما يعبر بالمثنى عن الشمول)، غير أنه وطد (ثبت) أساس بنائه على شفير هار (حافة منهارة)

حتَّـى إذا مَـا الـلَّـهُ شَـقَّ ضـمـيـرَه عـن مُـسْـتَـكِـنِّ الـكـفـرِ والإصْـرارِ

فإذا ما شق الله ضميره عن الكفر المستكن (الكامن) والإصرار عليه

ونَـحا لـهـذا الـدِّيـنَ شَـفْـرَتَـهُ، انْـثَـنى والـحـقُّ مـنـه قَـانِـئَ الأَظْـفـارِ

وعندما نحا (وجَّه) الله للدين شفرته (نصله القاطع)، انثنى (غدا) الأفشين وقد أصبح الحق قانئ (محمر) الأظفار من دمه

ما كانَ، لـولا فُحْشُ غَدْرَةِ خَيْذَرٍ، لِيَـكُـونَ فـي الإسـلامِ عَـامُ فِـجَـارِ

لولا غدرة خيذر (الأفشين) الفاحشة ما كان ليكون في الإسلام عام فِجَار (كعام الفجار في الجاهلية الذي وقعت فيه الحرب في الأشهر الحرم)

مـا زالَ سِرُّ الـكـفـرِ بـيـنَ ضُـلُـوعِـه حتى اصْطَلَى سَرَّ الزِّنَادِ الـوَاري

ظل سر الكفر كامناً في قلبه حتى اصطلى سَرَّ (حَشْوَ) الزناد (أداة قدح الشرر) الواري (المشتعل). ويصر الشارحون الستة الذين ننظر في شروحهم، ونحن نكتب هذا، على أن «سر» الثانية مكسورة السين كالأولى، وهذا لا معنى له؛ ولا نظنهم التفتوا إلى هذا المعنى الدقيق لـ«سَرّ» رغم وجوده في المعاجم، ورغم أن البيت يوجِّه الذهنَ إليه

نـاراً يُسَـاوِرُ جِـسْـمَـهُ مِـنْ حَـرِّهـا لَـهَـبٌ، كـمـا عَـصْـفَـرْتَ شِـقَّ إِزَارِ

اصطلى ناراً يساور (يواثب ويهاجم) جانبَ جسمه من حرها لهب مثلما تعصفر (تصبغ بالعصفر الأصفر) شق إزار (النصف الطولي للثوب)

طَـارَتْ لـهـا شُـعَـلٌ، يُـهَـدِّمُ لَـفْـحُـهـا أركـانَـه هَـدْمـاً بِـغَـيـرِ غُـبَـارِ

لـلـهِ مِـنْ نَـارٍ رَأَيْـتُ ضِـيـاءَهـا ضـاقَ الـفـضـاءُ بِـهِ عَـلـى الـنُّـظَّـارِ

الضوء المتولد من هذه النار أضاء الفضاء فملأه كله في أعين الناظرين

مَـشْـبُـوبَـةٍ، رُفِـعَـتْ لأَعْـظَـمِ مُـشْـرِكٍ، مـا كـانَ يَـرْفَـعُ ضَـوءَهـا لـلـسَّـاري

موقدة هذه النار لمشرك لم يكن يوقد ناراً للساري (السائر ليلاً) لكي يهتدي وينال الطعام الواجب تقديمه للضيف

صَـلَّـى لَـهـا حَـيَّـاً، وكَـانَ وَقُـودَهـا مَـيْـتـاً، ويَـدْخُـلُـهـا مـعَ الـفُـجَّـارِ

هذا من بدائع التقسيم، فالبيت كعقد: لؤلؤته الأولى الصلاة أثناء الحياة، والثانية الوقود في الموت، والثالثة الدخول بعد البعث.. والسلك الناظم هو.. النار.. ولا تنس التسلسل: حياة، فموت، فبعث. هذا الجواهرجي أبو تمام في أمثل حالاته

وكَذاكَ أَهلُ ٱلنارِ في الدنيا، هُمُ، يومَ القيامةِ، جُلُّ أهلِ النارِ

أهل النار (المجوس)

يا مَشهداً صَدَرَتْ بِفَرْحَتِه إلى أمصارِها القُصوى بنُو الأَمصارِ

صدرت (رجعت)

رَمَقُوا أَعَالِيَ جِذْعِهِ، فكأنما وَجَدُوا الهلالَ عشيةَ الإفطارِ

رأوا أعالي جذعه (الخشبة التي صلب عليها) ففرحوا كأنهم رأوا هلال شوال المؤذن بعيد الفطر

واستَنْشَقُوا منهُ قُتاراً، نَشْرُهُ مِنْ عَنْبَرٍ ذَفِرٍ ومِسْكٍ دَاري

استنشقوا منه قتاراً (رائحة الشواء) نشره (عبيره) كأنما هو من العنبر الذفر (النفاذ) والمسك الداري (المجلوب من دارين)

قد كانَ بَوَّأَهُ الخليفةُ جانباً من قلبِه حَرَمَاً على الأقدارِ

كان الخليفة بوأه (أنزله) مكاناً من قلبه آمناً لا يصل إليه حتى القضاء والقدر

فسقَاهُ مَاءَ الخَفْضِ غيرَ مُصَرَّدٍ، وأَنَامَهُ في الأمنِ غيرَ غِرَارِ

وسقاه ماء الخفض (الرفاهية) غير مصرد (غير مقلل وغير بعيد عن الإرواء)، وجعله ينام في حضن الأمن نوماً غير غرار (غير قصير)

فإذا ابنُ كافِرَةٍ يُسِرُّ بِكُفْرِهِ وَجْداً، كوجْدِ فَرَزْدَقٍ بِنَوَارِ

فإذا هذا الرجل يسر (يخفي) بكفره وجداً (غراماً) كغرام الفرزدق بزوجته نوار

يا قَابِضاً يَدَ آلِ كَاوُسَ، عادِلاً أَتْبِعْ يَميناً مِنْهُمُ بِيَسَارِ

أيها الخليفة الذي قبض يد هذه العائلة، وقوض نفوذها، اقبض على اليد الأخرى. وإنك لعادل فيما تفعل

واعْلَمْ: بِأَنَّكَ إنما تُلْقِيهِمُ في بعضِ ما حَفَرُوا مِنَ الآبَارِ

لو لم يَكِدْ للسَّامِريِّ قَبِيلُهُ ما خَارَ عِجْلُهُم بِغَيْرِ خُوَارِ

لولا أن قبيل (قوم) السامري كادوا له (دبروا له) لما خار عجلهم (أصدر صوته، وهو الخوار) بدون خوار (ذلك أنهم أعطوه ذهب نسائهم ليصنع العجل المثقوب الذي يصدر صوتاً كالخوار لمرور الريح فيه، وما هو بخوار حقيقي)

وثَمُودُ لو لم يُدْهِنُوا في رَبِّهِمْ لم تَدْمَ نَاقَتُهُ بِسَيْفِ قُدَارِ

وقوم ثمود لو لم يدهنوا (ينافقوا) في ربهم لما دميت ناقة ربهم، التي أرسلها لهم لتشبعهم لبناً، وذبحت بسيف «قدار بن سالف»

ولقد شَفَى الأَحشاءَ مِنْ بُرَحائِها أن صارَ بابَكُ جارَ مازَيَّارِ

شفى الأحشاء (القلب) من برحائها (عذابها) أن صار بابك المصلوب جذعه منذ سنتين (٢٢٣هـ) جاراً لمازيار (وهو قائد آخر قبض عليه مع الأفشين عام ٢٢٥هـ)

ثانِيهِ في كَبِدِ السماءِ، ولم يَكُنْ لاثْنينِ ثانٍ إذْ هُمَا في الغَارِ

صار ثانياً له في كبد (وسط) السماء. ولكن «الاثنين» صاحبي الغار ليس لهما «اثنين» آخرين يكونان زوجاً ثانياً، فشتان بين الرسول وأبي بكر في الغار أثناء الهجرة، وبين هذين الاثنين

وكأنما انْتَبَذا، لِكَيْمَا يَطْوِيا عن «نَاطِسٍ» خبراً مِنَ الأخبارِ

كأنهما انتبذا (ابتعدا) كي يطويا (يخفيا) حديثهما عن ناطس (شقي ثالث كان مصلوباً في مكان الصلب هذا)

سُودُ الثِّيابِ، كأنما نَسَجَتْ لَهُمْ أيدِي السَّمُومِ مَدَارِعاً مِنْ قَارِ

وهؤلاء المصلوبون الثلاثة كانت ثيابهم مسودة، فكأنما نسجت لهم ريح السموم مدارع (ثياباً) من قار (قطران)

بَكَرُوا وأَسْرَوْا في مُتُونِ ضَوَامِرٍ قِيدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرْبِطِ النَّجَّارِ

كأنهم خرجوا باكراً راكبين متون ضوامر (ظهور خيل مضمرة نحيلة) لكنها خيل جُرَّت لهم بقيودها من مربط النجار لا من مربط سائس الخيل (فهي أعواد خشبية لا خيول)

لا يَبْرَحُونَ؛ ومَنْ رَآهُمْ خَالَهُمْ أَبَداً على سَفَرٍ مِنَ الأسْفَارِ

غير أنهم لا يبرحون (لا يتحركون) وإن كان من رآهم ظنهم يزمعون سفراً

فاشْدُدْ بِهارُونَ الخِلافَةَ، إنَّه سَكَنٌ لِوَحْشَتِها، ودَارُ قَرارِ

اشدد ساعد الخلافة بابنك هارون (الواثق) فهو يسكن وحشتها (واستوحشت بعد خيانة وإعدام القائدين الأفشين ومازيار)، ويأتي لها بالاستقرار

بِفَتَى بني العبَّاسِ، والقَمَرِ الذي حَفَّتْهُ أَنْجُمُ يَعْرُبٍ ونِزارِ

هو قمر تحيط به نجوم (كبار القوم) من يعرب (قبائل اليمن) ونزار (قبائل عدنان)

لِيَسِيرَ في الآفاقِ سِيرةَ رَأْفَةٍ ويَسُوسَها بسكِينةٍ ووَقَارِ

فالصِّينُ مَنْظومٌ بِأنْدَلُسٍ، إلى حِيطانِ رُومِيةٍ، فَمُلْكِ ذَمَارِ

وكان المعتصم ينوي غزو الأندلس وضمها إلى ملكه ومات عن ذلك. وذمار مملكة يمنية، وروميه هي القسطنطينية، وقد وصل المعتصم قريباً من أسوارها فعلاً

ولقد عَلِمْتَ بِأَنَّ ذَلكَ مِعْصَمٌ ما كنتَ تَتْرُكُه بِغَيْرِ سِوارِ

وإنك قد علمت أن الخلافة معصم (رسغ اليد) وكنت لا بد أن تحليه بسوار هو الواثق

فالأرضُ دَارٌ أَقْفَرَتْ، ما لم يَكُنْ مِنْ هَاشِمٍ رَبٌّ لِتِلْكَ الدَّارِ
سُوَرُ القُرَانِ الغُرُّ فِيكُمْ أُنْزِلَتْ، ولَكُمْ تُصَاغُ مَحَاسِنُ الأَشْعَارِ

القران: القرآن

١٤٦ اقتتال القوافي

يمدح المعتصم بالله:

بالقائِمِ الثَّامِنِ المسْتَخْلَفِ اطَّأَدَتْ قَواعِدُ الملْكِ، مُمْتَدّاً لها الطِّوَلُ

بالخليفة القائم (الحالي)، وهو ثامن بني العباس في الخلافة، اطأدت (توطدت) دعائم الملك، وامتد لها الطول (الحبل) أي دامت زمناً طويلاً

يَهْنِي الرَّعِيَّةَ أنَّ اللَّهَ، مُقْتدِراً، أَعطاهُمُ، بِأبي إسحَقَ، مَا سَأَلُوا

هنيئاً للرعية! فالله باقتداره أعطاهم في شخص أبي إسحق (المعتصم) أمانيهم

لو كانَ في عاجِلٍ مِنْ آجِلٍ بَدَلٌ، لَكانَ في وَعْدِهِ مِنْ رِفْدِهِ بَدَلُ

لو كان العاجل ينوب عن الآجل، لكان مجرد وعده يكون بديلاً من رفده، ذلك أنه إذا وعد فلا مجال للخلف. يسأل الآمدي في «الموازنة»: ولماذا لا يكون في العاجل بدل من الآجل؟ ولو أردنا أن نسأل أبا تمام عن كل معنى معقد له لما غادرنا بيتاً في ديوانه إلا وعلقنا عليه الأسئلة تعليقاً

تَغَايَرَ الشِّعْرُ فيهِ، إذْ سَهِرْتُ له، حتى ظننتُ قوافيهِ ستقتَتِلُ

غارت الأبيات بعضها من بعض وأنا سهران أنظم فيه الشعر، وظننت القوافي ستقتتل لتقعد في أماكنها. وحق «قوافيه» أن تكون «قوافيَه» بالنصب مفعولاً أول لظن، ولكنْ: الضرورة شيء خبره من نظم الشعر: تأتي الكلمة البديعة التي تكون قافية مجلجلة في آخر البيت، ثم يأتي البيت الذي يليه فيطلب الكلمة نفسها، ويصطرع عليها البيتان؛ أو تأتي كلمات كثيرات كل منها رائع ويصلح لموضع القافية، وتتصارع القوافي للحلول في نهايات الأبيات. وقد يصنع الشاعر قائمة بالكلمات المناسبة للقافية، والويل للكلمة التي فاتها قطار القصيدة، ولم تجد لها مكاناً. لم أر شاعراً عبر عن هذا بأوجز وأحلى من أبي تمام هنا (لهذا البيت قصة، وقصصناها في شرحنا لقصيدة البحتري ذات الرقم ١٠٤ في هذا الكتاب)

شَرِسْتَ، بل لِنْتَ، بل قانَيْتَ ذاكَ بِذا، فأنتَ، لا شَكَّ، فيكَ السهلُ والجبلُ

كنت شرساً، بل ليناً؛ لا، بل قانيت (خلطت) بينهما، ففيك الصفتان

ومَشْهَدٍ بينَ حُكْمِ الذُّلِّ مُنقطِعٌ صَاليهِ، أو بِحِبَالِ الموتِ مُتَّصِلُ..

رب مشهد حربي صاليه (المكتوي بناره) منقطع (منكسر) محكوم عليه بالذل إذا جبُن، أو يكون شجاعاً وعندئذٍ يصبح قريباً من الموت

جَلَّيْتَ، والموتُ مُبْدٍ حُرَّ صَفحَتِهِ،   وقد تَفَرْعَنَ في أَوْصَالِه الأَجَلُ

هذا المشهد جليته (كشفته) بينما الموت كاشف عن حُرِّ صفحته (البارز من وجهه) وقد تفرعن (طغى كفرعون) الموت في أوصال (مفاصل) هذا الموقف. تعليق عمران القفيني: (وقتها قامت قيامة أبي تمام، فضحوه على «تفرعن» لأنها «ليست فصيحة»، ثم مضى زمن طويل وأصبحت الكلمة سائرة لا يخطر ببال أحد أنها لا تستقيم والقياسَ ولا حتى السماع. سيأتي زمن يا صديقي يترك فيه الناس ما نتسلى به أنا وأنت من غريب اللغة وفصيحها. وهذا الكلام.. إني ـ وحياتك ـ أراه قريباً). المؤلف: موافق

آلُ النَّبِيِّ، إذا ما ظُلْمَةٌ طَرَقَتْ،   كانوا لنا سُرُجاً، أَنْتُمْ لها شُعَلُ

آل النبي هم سرج (مصابيح) الظلمات، وأنتم (يا بني العباس) الشعلة نفسها

يَستَعذِبونَ مَنايَاهُمْ، كأَنَّهُمُ   لا يَيْأَسُونَ مِنَ الدنيا إذا قُتِلوا

١٤٧ وقفنا على جمر الوداع

يمدح المعتصم:

أَجَلْ! أَيُّهَا الرَّبْعُ الذي خَفَّ آهِلُهْ   لقد أَدرَكَتْ فيكَ النَّوَى ما تُحَاوِلُهْ

نعم، أيها الربع (المكان) الذي خف (رحل) آهله (سكانه)، لقد أدركت النوى (حقَّق الفراق) ما تحاوله فيك (ضدك)، فها قد أصبحتَ مقفراً خرباً

وَقَفْتُ، وأَحْشائي مَنَازِلُ للأَسَى   بِهِ، وَهْوَ قَفْرٌ قد تَعَفَّتْ مَنَازِلُهْ

وقفت بهذا الربع وجوفي قد أصبح منزلاً للحزن، والربع نفسه قفر قد تعفت (امَّحت) منازله

أُسَائِلُكُمْ: ما بَالُهُ حَكَمَ البِلَى   عليهِ؛ وإلَّا فاتْرُكوني أُسَائِلُهْ

فيا أصحابي! لماذا حكم البِلى (التلف) على هذا الربع؛ وإلّا (إلّا تجيبوني: إن لم تجيبوني) فاتركوني أسأله!

وَقَفْنَا على جَمْرِ الوَدَاعِ عَشِيَّةً،   ولا قَلْبَ إلَّا وَهْوَ تَغْلي مَرَاجِلُهْ
وفي الكِلَّةِ الصَّفْراءِ جُؤْذُرُ رَمْلَةٍ   غَدا مُسْتَقِلّاً، والفِرَاقُ مُعَادِلُهْ

وداخل الكلة (الستر) التي تجلل الهودج جؤذر رملة (فتاة شبيهة بصغير البقرة الوحشية التي تعيش في الصحراء) أصبح مستقلاً (راكباً)، والفراق معادله (راكب يعادله على الجهة الأخرى). فالفتاة ركبت البعير وركب معها الفراق. ولو شاء أبو تمام لجعل الفراق يبقى في الربع وكفى النقاد القدامى ما خاضوا فيه من قول في هذا البيت

أَتَتْكَ أَميرَ المؤمنينَ، وقدْ أَتَى   عَلَيْها المَلا: أَدْمَاثُهُ وجَرَاوِلُهْ

أتتك ناقتي يا أمير المؤمنين بعد أن أتى عليها وأنهكها الملا (الأرض الواسعة) بأدمائه (سهوله) وجراوله (حجارته)

رَعَى اللَّهُ فيهِ للرَّعِيَّةِ رَأْفَةً   تُزَايِلُهُ الدنيا، وليستْ تُزَايِلُهْ

عند الخليفة رأفة بالرعية قد حرسها الله، وهذه الرأفة تبقى معه طول عمره

وقَامَ، فقامَ العدلُ في كلِّ بلدةٍ   خَطيباً، وأَضْحَى المُلْكُ قَد شُقَّ بَازِلُهْ

شق بازل البعير: برز نابه، أي كبر وترعرع

وجَرَّدَ سيفَ الحقِّ، حتى كأنَّهُ   مِنَ السَّلِّ مُودٍ غِمْدُهُ وحَمَائِلُهْ

جرد السيف على الأعداء بالحق، وظل مسلولاً حتى ظن المرء أنه مود (منعدم) غمده (جرابه) وحمائله (سيوره التي بها يعلق)

وكَمْ نَاكِثٍ لِلعهْدِ قد نَكَثَتْ بِهِ   أمانيه، واسْتَخْذَى لِحَقِّكَ باطِلُهْ

فَأمْكَنْتَهُ مِنْ رُمَّةِ العفْوِ رَأْفَةً   ومَغْفِرَةً، إذْ أَمْكَنَتْكَ مَقَاتِلُهْ

فأمكنته من الإمساك برمة (حبل) العفو بعد أن تمكنتَ منه

وحَاطَ له الإقْرارُ بالذَّنبِ رُوحَهُ   وجُثْمَانَهُ، إذْ لم تَحُطْهُ قبائِلُهْ

وحاط (حمى) له اعترافه بالذنب روحه وجسمه، إذ لم تحمه قبائله

إذا مَارِقٌ بِالغدرِ حاول غَدْرَةً   فَذَاكَ حَرِيٌّ أنْ تَئِيمَ حَلائِلُهْ

تئيم: تترمل، حلائله: أزواجه

فإنْ بَاشَرَ الإصْحَارَ، فالبِيضُ والقَنا   قِرَاهُ، وأَحْواضُ المنايا مَناهِلُهْ

فإن بدأ بالإصحار (الخروج إلى الصحراء عاصياً) فالبيض (السيوف) والقنا (الرماح) قراه (طعامه)، وأحواض الموت مناهله (مواضع شربه)

وإنْ يَبْنِ حِيطَاناً عليهِ، فإنَّما   أولئِكَ عُقَّالاتُهُ، لا مَعاقِلُهْ

عقالاته: العُقَّال داء يصيب الفرس فيعطله عن السير

بِيُمْنِ أبي إسحَقَ طَالتْ يدُ العُلى،   وقامتْ قناةُ الدِّينِ، واشتدَّ كاهِلُهْ

كاهله: ظهره

هُوَ اليَمُّ: مِنْ أيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ   فَلُجَّتُهُ المعروفُ، والجُودُ سَاحِلُهْ

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتى لو انَّهُ   ثَنَاها لِقَبْضٍ لم تُجِبْهُ أَنامِلُهْ

ولو لم يَكُنْ في كَفِّهِ غيرُ رُوحِهِ   لجادَ بِهَا، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهْ

عَطَاءٌ لو اسْطَاعَ الذي يَسْتَمِيحُهُ   لأَصْبَحَ، مِنْ بينِ الوَرى، وَهْوَ عَاذِلُهْ

يستميحه: يطلب عطاءه. يقول: إن عطاءه كبير حتى ليكاد المحظوظ بنيله يعذله (يلومه) على إسرافه فيه

١٤٨ المشكاة والنبراس

يمدح أحمد ابن الخليفة المعتصم:

مـا فـي وُقـوفِـكَ سـاعـةً مِـنْ بَـاسِ   نَـقـضـي ذِمَـامَ الأَرْبُـعِ الأَدْراسِ

لا بأس بوقوفك ساعةً عند أطلال الحبيبة لقضاء ذمام (عهود) الأربُع (المنازل) الأدراس (الدارسة، الممحوة الأثر)

فلعلَّ عـينَكَ أنْ تُعِـينَ بِـمائِـهـا؛   والـدمـعُ مـنـه: خَـاذِلٌ ومُـوَاسِ

خاذل: مقصر عن النجدة، مواسٍ: الذي يواسي

بَـدْرٌ أطـاعـتْ فـيـكَ بـادرةَ الـنـوى   وَلَـعاً، وشـمـسٌ أُولِـعَـتْ بِـشِـمَـاسِ

الحبيبة بدر، وقد أطاعت فيك (ضدك) بادرة (مصيبة) النوى (الفراق) وَلَعاً (كيْداً)؛ يقول: هي بدر وقد أطاعت الفراق ففارقتك، وهي شمس، وقد أولعت (أُغرمت) بالشماس (العناد)

وإذا مَشَتْ تَركتْ بِصَدرِكَ ضِعْفَ ما   بِـحُـلِـيِّـهـا مـن كَـثْـرَةِ الـوَسْـوَاسِ

عندما تمشي المحبوبة تترك في قلبك من الوسواس (القلق) ضعف ما يصدره حليها من الوسواس (خشخشة الأساور والعقود)

قـالـتْ، وقـد حُـمَّ الـفِـراقُ، فَـكـأْسُـه   قد خُـولِـطَ الـسَّـاقِـي بـهـا والـحَـاسـي:

قالت لي، وقد حم (قُدِّرَ) الفراق، وكأس الفراق قد خولط (جُنَّ) بسببها الساقي والشارب معاً (المفارق والماكث كلاهما حزين). جعلها في هذا البيت حزينة أيضاً

لا تَـنْـسَـيَـنْ تـلـكَ الـعُـهـودَ، فـإنـمـا   سُـمِّـيـتَ إنـسـانـاً لأنَّـكَ نـاسـي

قالت: لا تنسَ عهودنا.. تناقض؟ في البداية نراها معاندة ومولعة بالصدود، ثم إذا هي قد جنت للفراق، وتوصيه بحفظ العهد. مَن خَبِرَ الحسان يعرف أن هذا من شأنهن، فلا تناقض

إن الـذي خَـلَـقَ الـخـلائِـقَ قَـاتَـهـا   أَقْـواتَـهـا لِـتَـصَـرُّفِ الأَحْـراسِ

الله يؤتي المخلوقات أرزاقها لتصرف الأحراس (بسبب تقلب الدهور)، فتقلب الدهر إحسانا لناس وظلماً لناس يسبب الرزق لكل الناس

فالأرضُ معروفُ السَّماءِ قِرىً لها،   وبـنـو الـرَّجَـاءِ لَـهُـمْ بـنـو الـعـبـاسِ

فالأرض ـ وهي من مخلوقات الله ـ يعطيها الله قراها (رزقها) من معروف السماء (المطر)، وبنو الرجاء (الناس/والناس دوماً على رجاء وترقب) ليس لهم إلا بنو العباس

الـقـومُ ظِـلُّ الـلَّـهِ، أَسْـكَـنَ ديـنَـه   فيهِمْ، وهُمْ جَبَلُ المُلوكِ الرَّاسي

بنو العباس ظل الله على الأرض. هم حماة الدين، والجبل الراسي الراسخ الذي يحتمي به الملوك (والملوك في القاموس العباسي هم الولاة وحكام الأقاليم، وكل من يملك قراراً)

أَبْلَيْتَ هذا المجدَ أبعَدَ غَايةٍ   فيهِ، وأكرمَ شيمةٍ ونُحَاسِ

أبليت أيها الممدوح بلاء حسناً في المجد فوصلت إلى أبعد مدى، وحققت الأمل من أكرم شيمة (خصلة) ونحاس (طبيعة)

إِقدامُ عَمْروٍ، في سَماحَةِ حَاتِمٍ،   في حِلْمِ أَحْنَفَ، في ذَكاءِ إِياسِ

لك شجاعة عمرو (بن معديكرب الزبيدي)، وسماحة (سخاء) حاتم (الطائي)، وحلم الأحنف (بن قيس)، وذكاء القاضي إياس (بن معاوية). تقول القصة التي رواها كل من كتب عن أبي تمام، منذ الصولي حتى يومنا هذا: بعدما أنشد أبو تمام هذا البيت، اعترض أحدُ جلساء الأمير، وقال: كيف تشبه الأمير بهؤلاء السوقة (يقصد بالسوقة أنهم ليسوا أمراء)؟ فأكمل أبو تمام إنشاده.. بقية القصة في البيتين التاليين..

لا تُنْكِروا ضَربي لهُ مَنْ دونَه   مَثلاً شَروداً في النَّدَى والبَاسِ

لا تنكروا أنني أضرب له مثلا شَروداً (سائراً) مشبِّهاً إياه في الندى (الكرم) والبأس (الشجاعة) بمن هو دونه في القدر. وهنا يطلب الشاعر ألا ينكر المنكرون عليه ضرب أمثلة للأمير ممن هم دونه في المنزلة..

فاللَّهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنورِهِ   مَثلاً مِنَ المِشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ

فالله ضرب لنوره مثلاً من المشكاة (التجويف في الجدار) والنبراس (المصباح الموضوع فيها).. «الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح..» الآية. خير مثال على ضرب المثل ممن هو أدنى لمن هو أعظم أن الله شبه نوره بنور مصباح! تتمة القصة التي بدأناها قبل بيتين: عندما أنهى أبو تمام إنشاد قصيدته، نظروا في الرقعة التي بيده، فلم يجدوا البيتين السابقين. فعجبوا لحدة ذهنه وسرعة بديهته، فقد ارتجل البيتين، وإنهما لَمِن فاخر الشعر، ارتجالاً. ولما خرج أبو تمام من المجلس، قال الكندي الفيلسوف: هذا الرجل قد استفرغ ذهنه حتى جاء بهذين البيتين، ولا أراه يعيش بعدهما طويلاً (عبارة صاحب «العمدة»: هذا رجل ينحت من قلبه). وفعلاً مات أبو تمام بعد أربعين يوماً. من شبه المؤكد أن القصة بكاملها مصنوعة، رغم أنها - بل لأنها - طريفة، فأبو تمام ارتحل بعد هذه القصيدة إلى الموصل وعاش بها سنتين قبل أن يموت

غَلَبَ السرورُ على هُمُومِيَ بالذي   أظهرتَ مِنْ بِرِّي، ومِنْ إِينَاسي

إيناسي: تبديد قلقي

١٤٩ صاحب القلادة الجديد

يمدح الواثق ويهنئه بالخلافة، ويرثي أباه المعتصم بالله:

لا قَدْحَ في عُودِ الإمَامَةِ بعدَمَا   مَتَّتْ إليكَ بِحُرْمَةٍ وذِمَامِ

لا عيب في الخلافة بعد أن متت إليك (ارتبطت بك) بعهد يحرُمُ نقضه

هَيْهَاتَ! تلكَ قِلادَةُ اللَّهِ التي ... ما كانَ يتْرُكُها بِغَيرِ نِظامِ

هيهات أن ينالها عيب، فهي قلادة الله (عِقده) التي لا يتركها تنتثر

لَسْنَا مُريدي حُجَّةٍ نَشْفِي بِها، ... مِنْ رِيبةٍ، سُقْماً مِنَ الأسْقَامِ

لا نبحث عن حجة لنشفي أي سقم (خلل) نرتاب في وجوده

الصُّبْحُ مشهورٌ بِغيرِ دَلائلٍ، ... مِنْ غيرِه ابْتُغِيَتْ، ولا أَعْلامِ

الصبح لا يشكك فيه أحد، ولا يحتاج دليلاً عليه يُطلب من غير نفسه، ولا أعلاماً (جبالاً: وهي عند العرب معالم يستدلون بها في صحاريهم)

١٥٠ في بعض القلوب عيون

يمدح الواثق بالله:

جعلَ الخلافةَ فيهِ رَبٌّ قَوْلُهُ، ... سُبحانَه، للشيءِ: كنْ، فَيَكُونُ

ولقد رَأيْناها له بِقلوبِنا؛ ... وظُهُورُ خَطْبٍ، دُونَهُ، وبُطُونُ

رأينا الخلافة لا تصلح إلا له؛ في وقت كانت بعيدة جداً عنه، ودونه (بينه وبينها) ظهور الخطب (الأمر) وبطونه.. أي أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الخلافة لن تكون له

ولِذاكَ قِيلَ: مِنَ الظُّنونِ جَلِيَّةٌ ... صِدْقٌ، وفي بعضِ القُلوبِ عُيونُ

جلية: حقيقة (ألسنا نقول جلية الأمر؟)

جَاءَتْكَ، من نَظْمِ اللِّسانِ، قِلادَةٌ ... سِمْطَانِ، فيها اللؤْلؤُ المكْنُونُ

قصيدتي كقلادة مزدوجة من سمطين (سلكين)، وفيها اللؤلؤ المكنون (الذي كان مخبأً في محاراته)

إنْسِيَّةٌ، وَحْشِيَّةٌ، كَثُرَتْ بِها ... حَرَكَاتُ أهلِ الأَرْضِ وَهْيَ سُكُونُ

قصيدتي فيها المأنوس من الألفاظ وفيها الوحشي (الغريب)، ويرويها الناس ويتناقلونها وهي سكون (ساكنة)

أَمَّا المعاني: فَهْيَ أَبْكارٌ إذا ... نُصَّتْ، ولكِنَّ القَوافيَ عُونُ

المعاني أبكار (عذارى/ مبتكرة) إذا نُصَّت (فُحص عنها)، ولكن القوافي عون (سبق لها الزواج/ استعملها قبلي الشعراء)

أَحْذَاكَها صَنَعُ اللسانِ، يُمِدُّهُ ... جَفْرٌ، إذا نَضَبَ الكَلامُ، مَعِينُ

أحذاكها (أعطاكها) صنع اللسان (حاذق اللسان)، يُمِدُّه جفر (بئر) يظل معيناً (غزيراً) عندما ينضب الكلام (يجف)

ويُسِيءُ بالإحْسَانِ ظَنّاً، لا كَمَنْ هُوَ، بِابْنِهِ وبِشِعْرِهِ، مفتونُ

وهذا الشاعر يسيء الظن بأشعاره، لأنه يسعى دائماً للأفضل، وليس ممن هو مفتون (معجب) بشعره افتتانه بأولاده

١٥١ السيل حرب للمكان العالي

يمدح الحسن بن رجاء:

كُفِّي وَغَاكِ، فإنني لكِ قَالِ ليستْ هَوادِي عَزْمَتي بِتَوالِ

كفي عني وغاك (صخبك/ والوغى على الأصل الصخب) فإنني قالٍ لك (هاجر)، فهوادي (طلائع) عزيمتي ليست بالتوالي (المتأخرة في ذيل القافلة)

يقول: عزيمته مثل طلائع الركب المتقدمة، لا مثل التوالي التي في الخلف

أَنا ذُو عرفتِ، فإنْ عَرَتْكِ جَهَالَةٌ فأنا المقيمُ قِيامَةَ العُذَّالِ

أنا ذو (الذي/ بلغة طيء) عرفت، فإن عرتك (تداخلتك) جهالة بي، فاعلمي أنني شديد على العذال (اللائمين)

لا تُنْكِري عَطَلَ الكريمِ مِنَ الغِنَى فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العَالي

العَطَل: الخلو من المكياج والإكسسوارات، والفتاة العاطل هي التي لم تلبس الأساور ولم تتزين، مستغنية بجمالها. يقول: لا تنكري أن يكون الكريم الأصل فاقداً الغنى، فالسيل (المال) حرب (عدو) للمكان العالي. يقول: السيولة المالية تهرب من الكريم مثلما ينزلق ماء السيل عن الأماكن المرتفعة

وتَنَظَّرِي خَبَبَ الرِّكَابِ يَنُصُّها مُحْيِي القريضِ إلى مميتِ المالِ

ترقبي خبب الركاب (سير الإبل) ينصها (يحثها على السير) محيي القريض (الشعر) إلى مميت المال (الممدوح الذي يُفني الأموال ببذلها)

لما بَلغْنَا ساحةَ الحسنِ انقضَى عنَّا تَعَجْرُفُ دولةِ الإمْحَالِ

انقضى عنا (زال) تعجرف (قسوة) دولة الإمحال (عهد الفقر)

ورأيتَني، فسألْتَ نفسَكَ سيْبَها لِي، ثم جُدْتَ، وما انتظرتَ سُؤَالِي

سيبها: عطاءها

كالغيثِ، ليس له، أُرِيدَ غَمامُهُ أوْ لم يُرَدْ، بُدٌّ مِنَ التَّهْطَالِ

أنت كالمطر الذي ينزل سواء أراده الناس أم لا

١٥٢ ابتسام الرأي والأدب

يمدح الحسن بن سهل:

أَبْدَتْ أسىً أنْ رأَتْني مُخْلِسَ القُصَبِ وآلَ ما كانَ مِنْ عُجْبٍ إلى عَجَبِ

حزنت هذه المرأة عندما رأتني مخلس (مختلط) القُصَب (الخصلات) ـ أي شابَ شعريَ الشَّيْب ـ وقد آل (تحول) عجبها (إعجابها بي) إلى عجب (تعجب)

سِتٌّ وعِشرونَ تَدعُوني فَأَتْبَعُها إلى المشيبِ، ولم تَظْلِمْ ولم تَحُبِ

ست وعشرون سنة تجرني نحو الشيب، ولم تظلمني ولم تحُب (والحوب هو الظلم)، فالسنوات ليست هي سبب الشيب بل الهموم

ولا يُؤَرِّقْكَ إيماضُ القَتيرِ به فإن ذاكَ ابتِسامُ الرَّأْيِ والأدبِ

لا تأرَقْ لإيماض (لمعان) القتير (الشيب) برأسك، فالشيب كأنه ابتسام الرأي (الحكمة) والأدب

١٥٣ أنا والشعر

يعاتب أبا القاسم بن الحسن بن سهل:

أَإِيَّايَ جَارَى القَوْمُ في الشِّعْرِ! ضَلَّةً! وقد عَايَنُوا تلكَ القَلائِدَ مِنْ نَظْمي

أيجارونني في الشعر؟ أضلهم الله! بعد أن رأوا تلك القلائد التي هي قصائدي

طَلَعْتُ طُلُوعَ الشمسِ من كلِّ تَلْعَةٍ وأَشْرَفْتُ إِشْرَافَ السِّمَاكِ على الخَصْمِ

طلعت عليهم من وراء كل تلعة (تلة) طلوع الشمس، وأشرفت على خصمي كالسماك (نجم بعيد)

ومَا أَنا بِالغَيْرَانِ، مِنْ دُونِ جَارِهِ، إذا أنا لم أُصْبِحْ غَيُوراً على العِلْمِ

لا أكون غيوراً على جاري (المستجير بي) حامياً له، إن لم أكن غيوراً على العلم

لَصِيقُ فُؤَادي، مُذْ ثَلاثُونَ حِجَّةً، وصَيْقَلُ ذِهني، والمرَوِّحُ عَنْ هَمِّي

العلم (والشعر عندهم علمُ نحوٍ وصرفٍ ومفردات) لصيق بقلبي منذ ثلاثين سنة، وهو صيقل (صاقِلُ) ذهني، ومخفف همي

١٥٤ أخو الأسفار

يمدح الحسن بن سهل:

وغَرَّبْتُ حتى لم أَجِدْ ذِكْرَ مَشرقٍ وشَرَّقْتُ حتى قد نسيتُ المغَارِبا

خُطُوبٌ إذا لاقَيْتُهُنَّ رَدَدْنَني جَريحاً، كأنِّي قد لَقيتُ الكتائبا

وكنتُ امْرَأً أَلْقَى الزَّمانَ مُسالِماً، فَآلَيْتُ لا أَلْقَاه إلا مُحَارِبا

آليت: حلفت

١٥٥ حلاوة القصائد

يعاتب محمد بن سعيد كاتب الحسن بن سهل:

لم تُسْقَ، بعدَ الهوى، مَاءً على ظَمَأٍ كَماءِ قَافِيةٍ يَسْقِيكَها فَهِمُ

باستثناء الهوى، ليس شيء يرويك ريَّ الشارب وهو ظمآن،
مثل قصيدة تسمعها من شاعر فهم (ذكي)

مِنْ كُلِّ بيتٍ، يَكادُ الميْتُ يَفْهَمُهُ حُسْناً، ويَحْسُدُهُ القِرْطَاسُ والقَلَمُ

ما لي وما لَكَ شِبْهٌ حينَ أُنْشِدُهُ، إلَّا زُهَيْرٌ، وقد أَصْغَى لَهُ هَرِمُ

أنا وأنت «كزهير بن أبي سلمى» وهو يمدح «هرم بن سنان»

١٥٦ الإخوة والإخوان

يمدح سليمان بن وهب، ويشفع في سليمان بن رزين بن أبي دعبل الخزاعي:

ذو الوُدِّ مِنِّي، وذُو القُربَى بِمَنْزِلَةٍ وإِخْوَتي أُسْوَةٌ، عِندي، وإِخْوَاني

الإخوة: الأشقاء؛ الإخوان: الأصدقاء

عِصَابَةٌ جَاوَرَتْ آدابُهُمْ أَدَبي، فَهُمْ، وإنْ فُرِّقُوا في الأرضِ، جيراني

أَرْواحُنا في مكانٍ واحدٍ؛ وغَدَتْ أَبْدانُنا في شَآمٍ، أو خُراسانِ

١٥٧ قلبي لكم، وقلبي لغيركم

يمدح سليمان بن وهب:

كلُّ شِعْبٍ كنتُمْ به، آلَ وَهْبٍ، فَهْوَ شِعبي، وشِعْبُ كلِّ أديبِ

شعب: طريق

لم أَزَلْ باردَ الجوانِحِ مُذْ خَضْـ ـخَضْتُ دَلْوِي في ماءِ ذاكَ القَلِيبِ

ظللت بارد الجوانح (مرتوياً)، منذ خضخضت (حركت) دلوي في ماء ذاك القليب (البئر). يقول:
منذ نلت عطاءكم وأنا مرتوٍ

إن قلبي لكُمْ لَكَالكَبِدِ الحَرَّ ـى، وقلبي لِغيرِكُمْ كالقلوبِ

قلبي حارٌّ من حبكم كأكباد العاشقين، ولغيركم.. عادي

١٥٨ يا فصيح، يا بليغ

يمدح الحسن بن وهبٍ ويصف غلاماً أهداه له:

وإذا رأيْتُكَ، والكلامُ لآلِئٌ تُومٌ فَبِكْرٌ في النِّظامِ وثَيِّبُ

إذا رأيتك والكلام يتساقط من فمك مثل اللآلئ التوم (التومة اللؤلؤة الكبيرة)، فمنها في النظام (العقد) لؤلؤة لم تثقب من قبل فهي بكر، ومنها لؤلؤة مثقوبة فهي ثيب (المرأة التي سبق لها زواج)..

فكأنَّ قُسّاً في عُكَاظٍ يَخْطُبُ، وكأنَّ ليْلى الأَخْيَلِيَّةَ تَنْدُبُ

.. فكأنني إذ ذاك أرى قس بن ساعدة يخطب في سوق عكاظ، أو كأنني أرى ليلى الأخيلية تندب حبيبها توبة بن الحمير

وكُثَيْرُ عَزَّةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسُبُ، وابنُ المقفَّعِ في اليَتِيمةِ يُسْهِبُ

وكأنني برؤيتك تتكلم أرى كثير عزة (كثيِّر عزة) يوم بين (فراق) ينسب (يتغزل)، وابن المقفع في رسالته «اليتيمة» يسهب في القول

١٥٩ أفسدتك النعمة

يعاتب الحسن بن وهب:

أَلْهَتْكَ، عنْ حَاجَةٍ ضَيَّعْتَ حُرْمَتَها، وِلايةٌ؛ ودَوَاعِي النَّفْسِ تُتَّهَمُ

منصب الولاية ألهاك عن حاجاتنا، ودواعي النفس (ما يدعو النفس إلى قلة المروءة) هي السبب الذي نتهمه (نظنه)

أَنْشَبْتَ نفسَكَ في ظَلْمَاءَ مُسْدِفَةٍ، وأَفْسَدَتْكَ على إِخْوانِكَ النِّعَمُ

أنشبت (ورطت) نفسك في ظلماء مسدفة (كثيفة)، وأفسدتك النعمة على أصحابك

دنيا! ولكنَّها دنيا سَتَنْصَرِمُ، وآخِرُ الحَيَوانِ الموتُ والهَرَمُ

ستنصرم: ستنتهي، الحيوان: كل حي

١٦٠ أسير كرم آبائه

يمدح الحسن بن وهب، ووجه بها إليه من الموصل:

وابْنُ الكريمِ مُطَالَبٌ بِقَديمِهِ غَلِقٌ، وصَافِي العَيْشِ لابْنِ الزُّمَّلِ

غَلِقٌ: أسير تعذَّر فداؤه، الزمل: الضعيف

والحمْدُ شَهدٌ، لا تَرى مُشْتَارَهُ يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقيعِ الحَنْظَلِ

مشتار العسل: جانيه من خلاياه، نقيع الحنظل: ماء الحنظل المرّ: يقول إن السمعة الطيبة عسل، ولكن لا بد قبل الحصول عليه من تجرع ماء الحنظل أي بذل الجهد الكبير

١٦١ صاحب الحُظوة

يمدح الحسن بن وهب:

تَشَكَّى الأَيْنَ مِنْ نِصْفٍ سَرِيعٍ   إذا قَامَتْ، ومِنْ نِصْفٍ بَطِيِّ

تتشكى هذه المرأة عند قيامها الأين (التعب) من نصف سريع (نصفها الأعلى) ومن نصف بطيء (مؤخرتها الكبيرة)

ومَحْدُودِ الذَّرِيعَةِ سَاءَهُ مَا   تَرَشَّحَ لي مِنَ السَّبَبِ الحَظِيِّ

رب شاعر محدود الذريعة (محروم من الواسطة/ قيل قصد بذلك دعبلاً الشاعر) وقد ساءه ما ترشح لي (وصلني) من السبب الحظي (العلاقة والحظوة)

يَدِبُّ إليَّ في شَخْصٍ ضَئِيلٍ،   ويَنْظُرُ مِنْ شَفَا طَرْفٍ خَفِيِّ

يأتيني متضائلاً، وينظر إليَّ بحسد من شفا (طَرَف) طَرْفٍ (نظر) خفي. يقول: ينظر إلي بطرف عينه حاسداً

ويُتْبِعُ نِعْمَتي بِكَ عينَ ضِغْنٍ،   كما نظرَ اليتيمُ إلى الوَصِيِّ

الضغن: الحقد

رَجَاءَ أَنَّهُ يُورِي بِزَنْدِي   إِلَيْكَ، وأَنَّهُ يَفْرِي فَرِيِّي

يتمنى أن يوري (يشعل ناره) بزندي (بأداة إيقادي/ ولاعتي)، ويتمنى أن يفري فريي (يفعل فعلي)

وذاكَ له إذا العَنْقاءُ صارتْ   مُرَبَّبَةً، وشَبَّ ابنُ الخَصِيِّ

هذا يحدث إذا صارت العنقاء (الطائر الخرافي) مربية (داجنة)، وإذا كبر ابن الخصي (والخصي لا يولد له). أبو تمام يتسلى بمبالغة مضاعفة، فالعنقاء مستحيلة أصلاً، ولكنه يريدها مثل الدجاجة؛ وابن الخصي غير ممكن أصلاً، ويريده أن يشب ويترعرع

أَرَى الإخوانَ، ما غُيِّبْتَ عَنْهُمْ،   بِمَسْقَطِ ذَلكَ الشِّعْبِ القَصِيِّ

عندما تغيب أيها الأمير عن الإخوان الشعراء فهم نكرات كأنهم قاعدون في مسقط (آخِر) ذلك الشعب (الطريق) القصي

ومَرْدُودٌ صَفَاؤُهُمُ علَيْهِمْ،   كما رُدَّ النِّكَاحُ بِلا وَلِيِّ

ولا أريد صفاءهم (صداقتهم) بل أردُّه رداً مثلما يردُّ الفقيه الزواج لعدم وجود وليّ (فالحسن بن وهب وليُّهم الذي يبرر وجودهم في مجلس الأدب)

وإنَّ لَهُمْ لإحْسَاناً، ولكنْ   جَرَى الوَادي، فَطَمَّ على القَرِيِّ

بعضهم شعراء محسنون، ولكن أنا سيل الوادي الذي يطم على القريّ (يغمر الجدول الصغير).
رغم أنه مات عن أربع وأربعين سنة فإن أبا تمام حقق في حياته شهرة عظيمة، يكفي أن معاصره الجاحظ (وهو أسنُّ منه بنحو ثلاثين سنة) ينقل أبياتاً له كثيرة في «الحيوان» و«البيان والتبيين» في نحو عشرين موضعاً

وهَلْ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الفتحِ يَسْعَى كَصاحِبِ هِجْرَتَيْنِ مَعَ النبيِّ؟

هل الذي أسلم بعد فتح مكة متأخراً كمن أسلم باكراً وهاجر مرة إلى الحبشة ومرة إلى يثرب، ورافق النبي

١٦٢ انزلاق النظر

يمدح الحسن بن وهب، ويصف فرساً حمله عليه:

دِمَنٌ لَوَتْ عَزْمَ الفؤادِ، ومُزِّقَتْ فيها دموعُ العينِ كلَّ مُمَزَّقِ

هذه الدمن (أطلال المحبوبة) ثنت عزمي عن المضي في السير واستوقفتني، وتمزقت (تفرقت) فيها دموع العين

تَأبىَ مع التَّصْريدِ إلَّا نائِلاً إلَّا يَكُنْ ماءً قَراحاً، يُمْذَقِ

تأبى المحبوبة مع التصريد (قطع شرب المرء قبل الري) إلا أن تعطينا نائلاً (وصلاً) مغشوشاً: فهو إما ماء قراح (صاف)، أو في أحسن الحالات حليب ممذوق (ممزوج بماء). وهم يعيبون على المرء أن يقدم لضيفه ماء صافياً، فالضيف يريد لبناً

نَزْراً، كما اسْتَكْرَهْتَ عائِرَ نَفْحَةٍ مِنْ فَارَةِ المسْكِ التي لم تُفْتَقِ

ونوالها نزر (قليل)، فهو كما استكرهت (اجتلبت بالإكراه) عائر نفحة (شمَّة ضالة) من فارة المسك التي لم تفتق (الجلدة التي تحتوي المسك قبل فضها)

يقول: وصلها قليل جداً فهو مثل تنسُّمِك شمَّة من فارة مسك قبل فتقها. ويعدون هذا البيت من معاني أبي تمام المبتكرة التي لا يمارِي أحد في سبقه إليها

صافِي الأَديمِ، كأنما أَلْبَسْتَهُ مِنْ سُنْدُسٍ بُرْداً، ومِنْ إِستَبْرَقِ

يصف الفرس: صافي الأديم (الجلد)، كأنه يلبس بُرداً (ثوباً) من سندس وإستبرق (من الديباج)

إِمْلِيسُهُ إِمْلِيدُهُ، لو عُلِّقَتْ في صَهْوتَيْهِ العَينُ لم تَتَعَلَّقِ

إمليسه إمليده (هذا الفرس أملس، وأملد: ناعم)، وكأن العين تنزلق عن صهوتيه (جانبي ظهره) لملاسته

١٦٣ شاب رأسي

يمدح أحمد بن أبي دؤاد:

شابَ رَأْسِي، ومَا رأيتُ مَشيبَ الرَّ ـ أْسِ إلَّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفؤادِ

من فضل (بسبب)

وكَذاكَ القلوبُ، في كُلِّ بُؤْسٍ ونعيمٍ، طَلائعُ الأَجْسادِ

فالقلب، في الخير والشر، يسبق الجسد، فهو كطليعة الجَيْش التي تسبقه للاستطلاع

طَالَ إِنْكارِيَ البَياضَ، وإنْ عُمِّـ ـرْتُ شيئاً أَنْكَرْتُ لونَ السَّوَادِ

مدةً طويلة والبياض بشعري قليل فأنا أنكره (أستغرب وجوده)، وإن طال عمري قليلاً سأرى السواد في رأسي غريباً

١٦٤ تنصُّل من غير جرم

قال يمدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي، ويعتذر إليه مما نسب إليه من الافتخار على مضر، وأبو تمام ينسب نفسه إلى طيء اليمانية:

لقد أَنْسَتْ مَساوِئَ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُؤَادِ

وما سافرتُ في الآفاقِ، إلَّا ومن جَدْوَاكَ راحِلَتي وزَادي

جدواك: عطاؤك

مقيمُ الظَّنِّ عِندَكَ والأماني، وإن قَلِقَتْ رِكابي في البِلادِ

ظني (أملي) مقيم عندك، وإن قلقت (تقلقلت وتحركت) ركابي (إبلي) في البلاد

أَتاني عَائِرُ الأَنْباءِ تَسْري عَقَارِبُهُ بِداهِيَةٍ نَآدِ

جاءني عائر الأنباء (النبأ المنتشر) وعقارب هذا النبأ تسري وتحمل معها داهية نآداً (موجعة)

نَثَا خَبَرٍ كأنَّ القلبَ أمسى يُجَرُّ به على شَوْكِ القَتَادِ

الداهية هي نثا خبر (انتشار خبر) أصبح القلب بسببه كأنه يجر على شوك نبات القتاد الشائك

بِأَنِّيَ نِلْتُ مِنْ مُضَرٍ. وخَبَّتْ إليكَ شَكِيَّتي خَبَبَ الجَوَادِ

والخبر هو أنني انتقصت من مضر. وقد خبت (أسرعتْ) إليك شكواي من ظلم ناقلي الخبر إسراع الفرس في عدوه/ هذا هو المعنى الذي ألمحه

وما رَبْعُ القَطِيعَةِ لي بِرَبْعٍ ولا نَادي الأذى مِنِّي بِنَادِ

النادي: المجلس

وأينَ يَجُورُ عن قَصْدٍ لِساني وقلبي رَائحٌ بِرِضَاكَ غَادِ؟

وكيف يجور (يتحول) عن قصد (عن السبيل المستقيم) لساني بينما قلبي دائم الرضا مِنْك

وغيري يَأكُلُ المَعروفَ سُحْتاً وتَشْحُبُ عندَهُ بِيضُ الأَيادي

سواي يأكل المعروف سحتاً (ينال الأعطيات مالاً حراماً بلا شكر عليه)، وتصبح الأيادي البيض (الإحسان) شاحبة عنده (متغيرة اللون مكدرة بالنكران)

تَـثَـبَّـتْ. إنَّ قَـوْلاً كـانَ زُوراً أَتـى الـنُّـعْـمـانَ قـبـلَـكَ عـنْ زِيـادِ

فاستوثق من الخبر. فقديما جاء الملكَ النعمان خبرٌ كاذب عن زياد (النابغة الذبياني)

إلـيـكَ بَـعـثـتُ أبـكـارَ الـمـعـانـي يَـلـيـهـا سَـائـقٌ عَـجِـلٌ وحَـادِ

بعثت إليك قصيدة معانيها أبكار (عذارى لم يقلهن شاعر من قبل) يليها (يتبعها) سائق يسوقها ومعها حادٍ (منشد) يحدوها

شِدَادَ الأَسْرِ، سَالـمـةَ الـنَّـوَاحـي مـن الإقْـوَاءِ فـيـهـا والـسِّـنَـادِ

هذه المعاني هي أبيات شعر شديدة الأسر (قوية)، وسالمة من عيوب الشعر كالإقواء والسناد

يُـذَلِّـلُـهـا بِـذِكْـرِكَ قِـرْنُ فِـكْـرٍ إذا حَـرَنَـتْ فَـتَـسْـلَـسُ فـي الـقِـيـادِ

يذلل هذه الأبيات (يروضها)، إذا حرنت (استعصت)، شاعر هو قرن فكر (صاحب تمحيص للشعر) فيصبح قيادها سلساً

مُـنَـزَّهَـةً عـن الـسَّـرَقِ الـمـوَرَّى مُـكَـرَّمَـةً عـن الـمـعـنـى الـمُـعَـادِ

أبيات منزهة عن السرقة المموهة، ومرتقية عن أن تكون معانيها مكررة

تَـنَـصَّـلَ ربُّـهـا مـن غَـيـرِ جُـرْمٍ إلـيـكَ، سـوى الـنَّـصِـيـحَـةِ والـوِدَادِ

رب هذه الأبيات (صاحبها) تنصل من ذنبٍ لم يرتكبْه أصلاً، وليس لديه سوى النصح والود

ومَـنْ يَـأذَنْ إلـى الـوَاشـيـنَ تُـسْـلَـقْ مَـسـامِـعُـهُ بِـأَلْـسِـنَـةٍ حِـدادِ

ومن يأذن (من يعطِ أذنه) للواشين يسلقوا سمعه بألسنتهم الحادة

١٦٥ فائدة الحسود

يمدح أحمد بن أبي دؤاد، ويعتذر إليه، ويستشفع بخالد بن يزيد:

ظَعَنوُا فكـانَ بُكَـايَ حَوْلاً بعدَهُـمْ ثـمَّ ارْعَـوَيْـتُ، وذاكَ حُـكْـمُ لَـبـيِـدِ

ظعنوا (رحلوا) فكان بكائي بعدهم سنة، ثم ارعويت (امتنعت)، وذاك حكم لبيد الشاعر القائل: ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

أَجْـدِرْ بِـجَـمْـرةِ لَـوْعـةٍ إطـفـاؤُهـا بـالـدَّمْـعِ أن تَـزدَادَ طُـولَ وُقُـودِ

ما أجدر جمرة اللوعة التي يكون إطفاؤها بالدمع أن تتقد أكثر

يـا أحـمـدَ بـنَ أبـي دُؤَادٍ حُـطْـتَـنـي بِـحِـيَـاطَـتـي ولَـدَدْتَـنـي بِـلَـدُودِي

يا أحمد بن أبي دؤاد قد حطتني (رعيتني) بما يناسب قدري، ولددتني (داويتني) بلَدودي (بالدواء المناسب)

لـمَّـا أَظَلَّـتْـنـي غَـمَـامُـكَ أصـبـحـتْ   تـلـكَ الـشـهـودُ عـلـيَّ وَهْـيَ شُـهُـودي

لما أظلتني غمامات رضاك أصبح الذين يشهدون ضدي عندك يشهدون معي

مِنْ بعدِ أنْ ظَنُّوا بأنْ سَيَكونُ لِي   يـومٌ بِـبَـغْـيِـهِـمُ كـيـومِ عَـبـيـدِ

وكانوا يظنون أن بغيهم سيجعل لي يوماً كيوم عبيد بن الأبرص
(الذي جاء الملك في يوم بؤسه فكان نصيبه القتل)

نَـزَعُـوا بِـسَـهْـمِ قَـطـيـعـةٍ يـهـفُـو بـه   ريشُ الـعُـقـوقِ، فـكـانَ غـيـرَ سَـدِيـدِ

نزعوا (شدوا وتر القوس) بسهم قطيعة (وأرادوا أن يرسلوا من قوسهم سهم الوقيعة) ويهفو (يطير)
بهذا السهم ريش هو العقوق، فكان السهم طائشاً

وإذا أرادَ الـلَّـهُ نـشـرَ فَـضـيـلـةٍ   طُـوِيـتْ، أتـاحَ لَـهَـا لِـسـانَ حَـسُـودِ

لـولا اشْـتِـعـالُ الـنـارِ فـيـمـا جـاوَرَتْ   مـا كـانَ يُـعْـرَفُ طـيـبُ عَـرْفِ الـعُـودِ

العَرف (الرائحة الذكية)

لـولا الـتَّـخَـوُّفُ لِـلـعـواقِـبِ لـم تَـزَلْ   لِـلـحـاسِـدِ الـنُّـعْـمَـى عـلـى الـمَـحْـسُـودِ

لولا التخوف للعواقب (النتائج الوخيمة) لظل الحاسد أعلى قدراً من المحسود لأنه هو الذي يظهر
فضل المحسود بحسده إياه

خُـذْهَـا مُـثَـقَّـفَـةَ الـقَـوافـي، ربُّـهَـا   لِـسَـوابِـغِ الـنَّـعْـمـاءِ غـيـرُ كَـنُـودِ

خذ هذه القصيدة مثقفة القوافي (محككة ومشذبة)، ربها (صاحبها) غير كنود (غير جاحد) لسوابغ
النعماء (للنعم الكثيرة)

كـالـطَّـعْـنـةِ الـنَّـجـلاءِ مِـنْ يَـدِ ثَـائِـرٍ   بِـأَخـيـهِ، أو كـالـضَّـرْبَـةِ الأُخْـدُودِ

هذه القصيدة مثل الطعنة النجلاء (الواسعة) من يد ثائر بأخيه (آخذ بثأر أخيه)، أو هي كالضربة
الأخدود (التي تصنع أخدوداً أي شقاً)

كـالـدُّرِّ والـمـرجـانِ، أُلِّـفَ نَـظـمُـه   بِـالـشَّـذْرِ فـي عُـنُـقِ الـفَـتـاةِ الـرُّوُدِ

قصيدتي كالدر (اللؤلؤ الكبار) والمرجان (اللؤلؤ الصغار) المنظوم مع الشذر (قطع الذهب الصغار)
في عقد يزين عنق الفتاة الرود (الناعمة)

يُعطِي بِهَا البُشْرى الكريمُ، ويَحْتَبِي   بِـرِدَائِـهـا فـي الـمـحْـفِـلِ الـمـشـهـودِ

الكريم يعطي من يبشره بهذه القصيدة حُلواناً، ويحتبي بها كالرداء في المحافل (والاحتباء أن تجمع
ظهرك إلى ساقيك بردائك وأنت جالس، فكأنك مُسنِد ظهرك)

١٦٦ المهم رضاك أنت

يمدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد:

معشرٌ أصبحوا حُصُونَ المعالِي، ودُروعَ الأَحسابِ والأَعْراضِ

كَمْ ظَلامٍ عن العُلَى قد تجلَّى بكَ، والمكْرُمَاتُ عنكَ رَوَاضِ

كَمْ مَعَانٍ وَشَّيْتُها فيكَ قدْ أمْـ ـستْ، وَأضْحَتْ ضَرائِراً لِلرِّياضِ

ما أكثر المعاني التي وشيتها (زينتها) في مدحك ثم أصبحت ضرائراً (منافسات) للرياض في جمالها

بِقَوافٍ هِيَ البَواقي على الدَّهْـ ـرِ، ولكنْ أَثْمَانُهُنَّ مَواضِ

لقد زينت هذه المعاني ضمن قواف (قصائد) هي البواقي (الخالدات)، ولكن أثمانهن من العطايا مواض (ذاهبات)

ما أُبَالي، بعدَ انبِساطِكَ بِالمعـ ـروفِ، مَنْ كان منهُمُ ذا انقِباضِ

١٦٧ بناء الجار قبل الدار

يمدح أبا الوليد أحمد بن أبي داؤد الإيادي:

بَوَّأْتُ رَحْلِي في المرَادِ المُبْقِلِ فَرَتَعْتُ في إِثْرِ الغَمَامِ المسْبِلِ

بوأت رحلي (أنزلت متاعي) في المراد المبقل (في المرعى الذي نبت فيه البقل) ورتعت في إثر (عقب) الغمام المسبل (الهاطل)

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلِّها أَنِّي ابْتَنَيْتُ الجَارَ قبلَ المنزِلِ

أفناء: ساحات

هَتَكَ الظلامَ أبو الوليدِ بِغُرَّةٍ فتحتْ لنا بابَ الرجاءِ المقْفَلِ

مزق الممدوح ستر الظلام بغرة (بوجه مشرق) فتحت لنا باب الرجاء المقفل

بِأَتَمَّ مِنْ قمرِ السماءِ، وإنْ بَدَا بَدْراً، وأَحْسَنَ في العُيونِ وأَجْمَلِ

مزق الممدوح الظلام بوجه هو أتم استدارة من القمر ـ حتى والقمر بدر تام الاستدارة ـ، والممدوح عندنا أجمل من البدر

١٦٨ الحمد لله على السلامة

وقال في علة أحمد بن أبي دؤاد:

لا نَالَكَ العَثْرُ مِنْ دهرٍ، ولا الزَلَلُ ولا يَكُنْ للعُلَى في فَقْدِكَ الثَّكَلُ

العثر/ والزلل: السقوط، لا يكنْ: أدعو الله أن لا يكون

تضاءَلَ الجُودُ مُذْ مُدَّتْ إليكَ يَدٌ مِنْ بَعضِ أَيْدِي الضَّنَى، واسْتَأْسَدَ البَخَلُ

الضنى: المرض، استأسد البَخَل: ظهرت شراسة البُخل

لم يَبْقَ في صدرِ رَاجِي حاجَةٍ أَمَلٌ إلّا وقد ذَابَ سُقْماً ذَلِكَ الأَمَلُ

بيْنَا كذلكَ، والدنيا على خَطَرٍ، والعُرْفُ فيكَ إلى الرَّحمَنِ يَبْتَهِلُ

العرف: المعروف

سُقْمٌ أُتِيحَ لَهُ بُرْءٌ، فَذَعْذَعَهُ؛ والرمحُ يَنْآدُ حِيناً، ثم يَعتَدِلُ

ذعذعه: هزه هزاً عنيفاً، ينآد: يعوَجُّ

وحَالَ لَوْنٌ، فَرَدَّ اللَّهُ نَضْرَتَهُ والنَّجْمُ يَخْمُدُ شيئاً، ثم يشتَعِلُ

حالَ: تغير وتحوَّل

١٦٩ شريعة الشعر

يمدح أحمد بن أبي دؤاد:

ينالُ الفتى من عَيْشِه، وهْوَ جاهِلٌ ويُكْدِي الفتى في دهرِه، وهْوَ عالمُ

ينال الفتى كفايته من الرزق رغم أنه جاهل، ويكدي (يفتقر) الفتى رغم أنه عالم

ولو كانتِ الأرزاقُ تَجرِي على الحِجَا هَلَكْنَ إذنْ، من جهْلِهِنَّ، البَهائمُ

لو كانت الأرزاق توزع بحسب الحجا (وفرة العقل) لهلكت البهائم لجهلها

فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ، ولا المجدُ في كفِّ امْرِئٍ والدَّراهِمُ

وكما لا يمكن للقاصد (المسافر) أن يتجه شرقاً ويتجه غرباً في وقت واحد، كذلك لا يجتمع المجد والمال في كف المرء

ولم أرَ كالمعروفِ: تُدعَى حقوقُه مَغارِمَ في الأقوامِ، وَهْيَ مَغانِمُ!

لم أر كالمعروف (إعطاء المال): يزعم بعضهم أن بذله بحق للناس هو مغارم (مخاسر مالية)، بينما هو غنيمة تعود على السخي بالسمعة الطيبة

ولا كَالعُلَى: ما لم يُرَ الشِّعرُ بينَها، فَكَالأرضِ غُفْلاً ليس فيها مَعَالِمُ

ولم أر كالعلى (الأمجاد): فإذا لم يكن الشعر شاهداً على الأمجاد كانت كالأرض الغفل (الجرداء) ليس فيها معالم

وما هُوَ إلا القولُ يَسرِي فتغتَدِي لهُ غُرَرٌ في أَوْجُهٍ، ومَوَاسِمُ

ما إن يسري القول (الشعر) حتى يصبح له غرر (الغرة: بياض محمود في وجه الفرس)، وله أيضاً مواسم (الميسم: علامة تكوى كيّاً على جلد البعير ليعرف صاحبه). يقول: الشعر يبيض وجوه قوم، ويسود وجوه قوم

يُرى حِكْمَةً ما فيهِ، وَهْوَ فُكاهَةٌ؛ ويُقضَى بِمَا يَقْضِي به، وَهْوَ ظالمُ!

يكون الشعر مجرد فكاهة فيصر الناس أن يروا فيه حكمة؛ ويظلم الشعر قوماً في هجاء، فيكون قوله فيهم حُكماً قاطعاً. هذه قيمة الشعر وأثره. وفسر المرزوقي الشطر الأول كما يلي: «ترى الكلمة فيه يكون ظاهرها مزحاً فتوجد في الحقيقة حكمة» وهذا تفسير من لم يقرأ البيت على وجهه. وأبو تمام إنما يقول: إن حقيقة الشعر تكون الفكاهة، ولكن الناس يعتبرونه حكمة لشدة تأثيره في نفوسهم. وأما التبريزي فقد سرق تفسير المرزوقي على جاري عادته، فقال: «أي ترى الكلمة فيه يكون ظاهرها مزحاً فتوجد في الحقيقة حكمة»

له مِنْ إيَادٍ قِمَّةُ المجدِ حيثُما سمَتْ، ولهَا منه البِنَا والدَّعائِمُ

للقاضي أحمد بن أبي دؤاد قمة المجد في قبيلة إياد حيثما سمت (في المكان العالي الذي سمت إليه)، وهو دعامتها وراعيها

أخذْتَ بأعْضَادِ العُرَيْبِ، وقد خَوَتْ عُيونٌ كَليلاتٌ، وذَلَّتْ جَماجِمُ

أخذت بأعضاد (بأيدي) العريب (العرب) وقد خوت (فرغت) عيونهم الكليلة (المتعبة) من بريق المجد، وذلت رؤوسهم، لأن العناصر الأخرى من فرس وترك بدأت تغلب على الدولة

فأَضْحَوْا: لو اسْطَاعُوا لِفَرْطِ محبَّةٍ لقد عُلِّقَتْ، خَوفاً عليكَ، التَّمَائمُ

فأصبح العرب لو استطاعوا لعلقوا عليك التمائم (الحُجُب والرُقى)

ولو عَلِمَ الشيخانِ، أُدٌّ ويَعْرُبٌ، لَسُرَّتْ إذنْ تلكَ العِظامُ الرَّمائِمُ

لو علم جَدَّا العرب «أدّ» و«يعرب» بنصرك للعرب لسرت عظامهما البالية

فما بالُ وجهِ الشعرِ أغْبَرَ قَاتِماً؟ وأَنفُ العُلى، من عُطْلَةِ الشعرِ، راغِمُ؟

فما بال الشعر مهملاً؟ ولماذا يبقى أنف العلى راغماً (ذليلاً) من عطلة الشعر (لأنه عاطل، غير محلّىً بالقصائد)؟

تَدارَكْهُ. إنَّ المكْرُماتِ أَصَابِعٌ، وإنَّ حُلَى الأشعارِ فيها خَواتِمُ

تداركه: أنجِدِ الشعر

إذا أنتَ لم تحفظْهُ لم يَكُ بِدْعَةً، ولا عَجباً، أن ضَيَّعَتْه الأعاجِمُ
فقد هَزَّ عِطْفَيْهِ القريضُ تَوَقُّعاً لِعَدلِكَ مُذْ صارتْ إليكَ المظالم

هز عطفيه: هز خصريه، المظالم: ديوان المظالم

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشعرُ ما دَرَى بُغَاةُ النَّدى من أينَ تُؤْتَى المكارمُ

لولا أخلاقيات سنها الشعر (جعلها سنة وشرعاً) لما عرف بغاة الندى (الراغبون في بذل مالهم) كيف يحصلون على المكارم

١٧٠ المطر على جثة عطشان

يعاتب ابن أبي دؤاد ويستبطئه وعداً له عليه:

وَمَا نَفْعُ مَنْ قد ماتَ بالأمسِ صَادِياً إذا ما سماءُ اليومِ طَالَ انْهِمَارُها

صادياً: عطشان

وخيرُ عِدَاتِ المرءِ مُخْتَصَراتُها، كما أنَّ خَيْراتِ اللَّيالي قِصَارُها

١٧١ هذا هو التهديد

يهجو أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد:

أَتَدْري أَيَّ بَارِقَةٍ تَشِيمُ ومَهْلَكَةٍ إلَيْها تَسْتَنِيمُ

بارقة (غيمة فيها برق) تشيم (تنظر)، مهلكة (مصيبة)، تستنيم (تطمئن)

فإنَّكَ لم تُعَوَّدْ مِنْ سُهَادي إذا ما عَانَقَ السِّنَةَ النَّؤُومُ

أنت لم تتعود على سهادي (سهري) بينما يعانق السنة (النوم) النؤوم. يقول: أنت لا تعرفني عندما أسهر وينام النائمون..

ومِنْ تَقليبِ قلبِي عنْ لساني إذا باتتْ تُقلِّبُهُ الهمومُ

ولا تعرف كيف يقوم قلبي بتقليب المعاني على لساني إذا بات يتقلب مهموماً

فما أنتَ اللَّئيمُ، إذنْ، ولكنْ زَمانٌ سُدْتَ فيهِ هُوَ اللَّئيمُ
أَتَطمَعُ أنْ تُعَدَّ كريمَ قومٍ وبَابُكَ لا يُطيفُ به كَريمُ؟
لَنِمْتَ، ونَامَ عِرْضُكَ، والقَوافي سَواخِطُ، لا تَنامُ، ولا تُنيمُ

لنمت: والله لقد نمت

١٧٢ ديمة سمحة القياد

يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

دِيمَةٌ سَمحةُ القِيادِ سَكوبُ مُستَغِيثُ بها الثَّرَى المكروبُ

هذه ديمة (سحابة) سمحة القياد (سلسة في حركتها) سكوب (ماطرة). ويستغيث بها الثرى (التراب) المكروب (المصاب بالجفاف)

لو سَعَتْ بُقْعَةٌ لإعْظَامِ نُعْمَى لَسعَى نحوَها المكانُ الجَدِيبُ

لو أنه يعقل أن تسير بقعة من الأرض، لسار وراء هذه السحابة المكان الجديب (المقفر) لإعظام النعمى (لتكثير نصيبه من نعمة الماء). وقد فسر الشراح البيت على أن إعظام تعني «تعظيم وشكر» ولا وجه لذلك، وإن كانت كلمة «إعظام» توحي بهذا المعنى. ومن قال إن أبا تمام يقصد إلى القريب؟ لا تنس أن السحابة سلسة في سيرها، وهي تروي المكان وتسير عنه، فجدير بالمكان أن يفكر في اللحاق بها ليشرب أكثر، أما أن يسير المكان فقط ليشكرها فليس مما يستدعي السير. فليشكرْها المكان قاعداً في محله ما شاء له، فلماذا يسير؟ وقد تتبعنا هذا البيت المشهور وتفسيره في كل موطن ـ مثلما تتبع المكانُ الجديب السحابة ـ فلم نجد شارحاً وقع على المعنى الذي بسطناه لك، والذي نظنه هو المعنى

لذَّ شُؤْبُوبُها، وطَابَ فَلَوْ تَسْـ ـطِيعُ قامتْ فعانَقَتْها القلوبُ

لذ (طاب) شؤبوبها (زخُّها) فلو استطاعت قلوب الناس
لغادرت صدورهم كي تعانق هذه السحابة

فَهْيَ ماءٌ يجرِي، وماءٌ يَلِيهِ، وعَزَالٍ تُنشَا، وأُخْرَى تَذُوبُ

فالسحابة ماء يجري، ثم ماء آخر بعده، إنها مثل عزالٍ (الأفواه السفلى للقِرَبِ) تُنْشَا (تُرفَع) وأخرى تذوب (تسكب الماء). حار الرواة في «تُنشا» فجعلوها تهمي (هذه القراءة عند الصولي وأخذها إيليا الحاوي)، ولم يشرح البيت التبريزي. وشرحه ـ وليته أغفله ـ الأسود. ولمن يحب الاستقصاء ها شرحُنا مفصلاً:

العزلاء: هي الفتحة السفلى للقربة، ويجعلونها لإفراغ القربة من الماء عندما يصلون إلى بئر عذبة ويريدون التخلص مما في قربهم من ماء قد تغير طعمه. وجمعها عَزَالٍ. تُنشا: أي تُنشأ، سُهِّلَت همزتها: ومعناها تُرْفع. (وإليك عبارة ابن فارس في «مقاييس اللغة» ـ وإنما نأخذ المعنى عنه لأن ابن فارس يدل على معنى الجذر في مهده ـ يقول: «النون والشين والهمزة أصل صحيح يدل على ارتفاع في شيء وسموّ، ونَشأ السحاب ارتفع. وأنشأه الله رفعه.» اهـ). ولسان ابن منظور لَهِجٌ بها المعنى. وعليك أن تتخيل سَفْراً وردوا بئراً واستيقنوا من عذوبة مائها، ثم راح كل منهم يفك الوِكَاء (السير الجلدي) عن فم قربته، ثم الوِكَاء السفلي عن عزلائها (فتحتها السفلى) كي يتدفق الماء الآسن بقوة وبسرعة؛ نرى الرجل منهم يرفع القربة إلى الأعلى ويهزها بعض الهز حتى يتخلص من مائها، بينا آخر قد أوشكت قربته تفرغ. وهكذا قربة وراء قربة، والماء يتدفق. ويتخيل شاعرنا أن سحابته الماطرة تزخ زخات متوالية، لا تكاد الزخة تهدأ حتى تأتي زخة أخرى كقوم واقفين وكل منهم يفرغ قربته

كَشَفَ الروضُ رأسَه، واسْتَسَرَّ الـ ـمَحْلُ منها، كما اسْتَسَرَّ المرِيبُ

أطل الروض برأسه (خرجت براعمه مع المطر)، واستسر المحل (اختبأ) كأنه الشخص المريب (المطلوب بجناية)

فـإذا الـرَّيُّ بـعـدَ مَـحْـلٍ؛ وجُـرجَـا نُ لـدَيْـهـا يَـبْـريـنُ أو مَـلْـحُـوبُ

فإذا بالري (الارتواء) قد حل بعد المحل (الجدب). وإذا بـ«جرجان» لدى هطول هذه السحابة وكأنها «يبرين» أو «ملحوب» الغنيتان بالكلأ. وقد هام التبريزي والصولي وإيليا الحاوي في صحراء التأويلات. ولسنا نشك في أن إتيان أبي تمام ببلدتين في فارس ومكانين في بلاد العرب هو بعض ألاعيبه، غير أن المعنى هو ما ذكرنا، لا ينطق البيت بغيره

أيُّـهـا الـغَـيْـثُ حَـيَّـهَـلًا بِـمَـغْـدَا كَ، وعـنـدَ الـسُّـرَى، وحـيـنَ تَـؤُوبُ

أيها المطر حيَّهلاً بمغداك (مرحبا بقدومك صباحاً)، وعند السرى (مساء)، وحين تؤوب (حين تأتي ليلاً)

لأَبـي جَـعْـفَـرٍ خَـلائِـقُ تَـحْـكِـيـ ـهِنَّ؛ قد يُشْبِهُ النَّجِيبَ النَّجِيبُ

للممدوح خلائق (صفات) تحكيهن أيها المطر (تشبههن)، فالمطر يشبه الممدوح في السخاء؛ ولا عجب فقد يشبه النجيب النجيب

أنـتَ فِـيـنـا فـي ذا الأوانِ غَـريـبٌ، وَهْـوَ فـيـنـا فـي كـلِّ وقـتٍ غـريـبُ

أنت أيها المطر غريب إذ تأتي في غير وقتك، وأبو جعفر في كل وقت غريب فهو يفعل من المكارم ما لا يفعل غيره

يَـأْخُذُ الزَّائِريـنَ قَـسْراً، وَلـو كَـفَّ ـ دَعَـاهُـمْ إلـيـهِ وادٍ خَـصِـيـبُ

يصر على استضافة الزائرين، ولو لم يصرَّ لدعاهم إلى زيارته واديه الخصيب بسخائه

غـيـرَ أنَّ الـرَّامـي الـمـسَـدِّدَ يَـحْـتَـا طُ، مَـعَ الـعِـلْـمِ أنـه سَـيُـصِـيـبُ

فمع أنهم سيأتون على كل حال فهو يأخذهم قسراً، مثل رامي السهم المسدد (المصوب تصوباً صحيحاً) يأخذ حيطته ويدقق التصويب رغم اطمئنانه إلى أنه سيصيب

١٧٣ وصف القلم

وقال أبو تمام في محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وصديق أبي تمام. وهو أديب، وسنراه يرثي أبا تمام بأبيات عذبة بعد سنوات:

مَـتـى أنـتَ عـن ذُهْـلِـيَّـةِ الـحَـيِّ ذَاهِـلُ وقـلـبُـكَ مـنـهـا مُـدَّةَ الـدهـرِ آهِـلُ؟

متى ستذهل (ستنسى) المرأة المقيمة في حي بني ذُهَل، وقلبك آهل (مملوء) منها طول الزمن؟

مِنَ الهيفِ، لو أنَّ الخَلاخِلَ صُيِّرَتْ لَهَا وُشُحَاً، جَالَتْ عليْها الخَلاخِلُ

هذه الفتاة من الهيف (جمع هيفاء أي رشيقة) ولو أن الخلاخيل في رجليها صيرت وشحاً (جمع وشاح يلف كتفها وخصرها) لجالت (تحركت) عليها الخلاخيل لدقة خصرها

أبـا جـعـفـرٍ! إنَّ الـجـهـالـةَ أمُّـهـا   وَلُـودٌ، وأمُّ الـعِـلْـمِ جَـدَّاءُ حَـائِـلُ

الجهالة منتشرة فأمها كثيرة الأولاد، وأم العلماء جداء (صغيرة الصدر) حائل (غير حبلى)

أرى الحَشْوَ والدَّهْمَاءَ أضحَوْا كأنَّهُمْ   شُـعُـوبٌ تَـلاقَـتْ دُونَـنَـا وقَـبـائِـلُ

الحشو والدهماء: الرعاع

غَـدَوْا وكَـأَنَّ الـجـهـلَ يـجـمَـعُـهُـمْ بِـهِ   أَبٌ، وذَوُو الآدابِ فـيـهِـمْ نَـواقِـلُ

أصبح الرعاع مجتمعين متلاحمين وكأن الجهل أب لهم جميعاً فنسبهم لذلك واحد، بينما أهل الأدب بين الرعاع نواقل (متنقلون بين القبائل لا نسب لهم)

لَـكَ الـقَـلَـمُ الأَعـلَـى الـذي بِـشَـبَـاتِـه   تُـصَـابُ مِـنَ الأمـرِ الـكُـلَـى والـمَـفـاصِـلُ

أيها الوزير لك القلم الأعلى قدراً الذي تصاب بشباته (بسنه) الكلى والمفاصل (فهو يفعل فعل سن الرمح)

لَـهُ الـخَـلَـوَاتُ الـلَّاءِ لَـوْلا نَـجِـيُّـهَـا   لَـمَـا احْـتَـفَـلَـتْ لِـلْـمُـلْـكِ تلكَ المَحافِلُ

لقلمك خلوات تختلي به فيهن، ولولا نجيها (المناجاة بين سن القلم ووجه الورقة في هذه الخلوات) لما احتفلت (اهتمت) المحافل والمجالس بالملك

لُـعَـابُ الأَفـاعـي الـقَـاتِـلاتِ لُـعَـابُـهُ،   وأَرْيُ الـجَـنَـى اشْـتَـارَتْـهُ أَيْـدٍ عَـوَاسِـلُ

لعاب قلمك (حبره) كلعاب الأفاعي، أو هو كالأري (العسل) الذي تشتاره (تجنيه) الأيدي العواسل (التي تجمع العسل)

لَـهُ رِيـقَـةٌ طَـلٌّ، ولَـكِـنَّ وَقْـعَـهـا،   بِـآثـارِهِ فـي الـشـرْقِ والـغـربِ، وَابِـلُ

ريق قلمك كالطل (الندى) ولكن أثره في كل مكان مثل وابل المطر

فَـصِـيـحٌ إذا اسـتَـنْـطَـقْـتَـهُ وَهْـوَ رَاكِـبٌ،   وأَعْـجَـمُ إنْ خـاطـبـتَـه وَهْـوَ رَاجِـلُ

إذا طلبت من قلمك أن ينطق وهو راكب أصابعك فهو فصيح، وإن كان راجلاً (مترجلاً) فهو أعجم (لا ينطق)

إذا مَا امْتَطَى الخَمْسَ اللِّطَافَ، وأُفْرِغَتْ   عليهِ شِعَابُ الفِكْرِ، وَهْيَ حَوافِلُ..

إذا ركب قلمك الأصابع الخمس اللطاف (الدقيقة) وأُفرغت عليه شعاب الفكر (جداول أفكارك)، وهي حوافل (زاخرة مملوءة)..

أَطَـاعَـتْـهُ أطْـرافٌ لـهـا، وتَـقَـوَّضَـتْ   لِـنَـجْـوَاهُ، تَقْوِيضَ الخِيامِ، الجَحَافِلُ

عندئذ تطيعه أطراف الأصابع، وتتقوض (تتهدم) لنجواه (لهمساته فوق الورق) جحافل الجنود مثلما تتقوض الخيام

إذا استغْزَرَ الذِّهْنَ الذَّكِيَّ، وأَقْبَلَتْ   أَعاليهِ في القِرْطَاسِ وَهْيَ أَسَافِلُ. .

إذا استغزر القلم (طلب المدد الغزير) من الذهن الذكي، وأقبلت أعالي القلم لتصبح أسافل على القرطاس (الورق)، أي عندما يصبح سن القلم، وهو أعلاه، منكساً للأسفل استعداداً للكتابة. .

وقَدْ رَفَدَتْهُ الخِنْصَرَانِ، وشَدَّدَتْ   ثَلاثَ نَواحِيهِ الثَّلاثُ الأَنامِلُ. .

وعندما ترفد القلم (تدعمه) الخنصران (الإصبع الصغير والمجاور له)، وعندما تشد على جهاته الثلاث الأناملُ الثلاث الباقية. لعلك تحسب القلم مستديراً وليست له ثلاث جهات؟ قد أصبت. ولكن، عندما تمسكة بأناملك الثلاث تصبح له ثلاث جهات

رأيْتَ جليلاً شَأْنَهُ، وَهْوَ مُرْهَفٌ   ضَنىً؛ وسَمِيناً خَطْبَهُ، وَهْوَ نَاحِلُ

عندئذ سترى شأنه عظيماً رغم أنه مرهف (رفيع) ضنىً (تَعَباً)، وسترى خطبه (أثره) سميناً رغم نحوله. رفعت كل الروايات التي بأيدينا «شأنه»، و«خطبه»، على الفاعلية للصفة المشبهة، وفي هذا حرمان «رأى» القلبية من أحد مفعوليها بارزاً، واعتبارُ الصفة المشبهة نائبةً مناب مفعولين، وهذا الوجه البعيد، أو اعتبار المفعول الأول مستتراً بعد «رأى» كأنه قال «رأيته جليلاً شأنُه»، وهو الوجه القريب. كأنهم وقفوا بوجل أمام من قال إن الصفة المشبهة رافعة فاعلها حتماً، ومن منع تأخر ما أصله الفاعل في مفعولي «رأى» عما أصله المفعول، ولا نرى المنع مع توفر القرينة. وقد قرأنا البيت بإضمار فاعل الصفة المشبهة، وإبراز المفعول الأول المؤخر لرأى القلبية. ذلك أن الذهن يترقب مفعولاً ثم لا يجده، ولا بد للمرء من العود إلى البيت وقراءته مرتين أو ثلاثاً قبل أن تنجلي له الصورة القريبة «رأيته جليلاً شأنَه». ورأينا قراءتنا توصل إليك المعنى سائغاً من المرة الأولى، والله أعلم

أرى ابنَ أبي مَرْوَانَ: أمَّا عَطاؤُهُ   فَطَامٍ، وأمَّا حُكْمُهُ فَهْوَ عَادِلُ

عطاء الممدوح طام (طافح كثير غير معتدل)، وحكمه عادل ليس فيه زيادة ولا نقصان

هُوَ المرءُ: لا الشُّورَى اسْتَبَدَّتْ بِرَأْيِهِ،   ولا قَبَضَتْ مِنْ راحَتَيْهِ العَوَاذِلُ

الشورى لا تجعله متردداً بل يظل له رأي قاطع، والعواذل (اللائمون له على جوده) لا يقبضون يده عن السخاء

أبا جَعْفَرٍ! إنَّ الخَليفةَ، إنْ يَكُنْ   لِوُرَّادِنَا بَحْراً، فإنَّكَ سَاحِلُ

الخليفة هو البحر (يقصد النهر) للواردين منا، وأنت ساحل هذا البحر

ولو حَارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقَاحَهَا،   ولَكِنْ حُرِمْتُ الدَّرَّ، والضَّرْعُ حَافِلُ

لو حاردت (امتنعت من الحلب) شول (مجموعة نياق قليلة اللبن) لعذرت لقاحها (ناقاتها)، ولكنني حرمت الدَّرَّ (اللبن) وضرع الناقة حافل (ممتلئ لبناً)

مَنَحْتُكَها تَشفي الجَوى، وَهْوَ لاعِجٌ   وتَبْعَثُ أَشْجَانَ الفَتَى، وَهْوَ ذَاهِلُ

منحتك هذه القصيدة التي تشفى الجوى (الحزن) وهو لاعج (محرق)، والتي تبعث (تحيي) أشجان الفتى وهو ذاهل (ناسٍ) عن الحزن

فَكَيفَ إذا حَلَّيْتَها بِحُلِيِّها تَكُونُ، وهَذا حُسْنُها وَهْيَ عَاطِلُ؟

فكيف تكون قصيدتي لو أنك حليتها بما يناسبها من الحلي (أي العطايا)، وهي حسناء جداً الآن وهي عاطل (بدون حلي)؟

أكابِرَنا عَطْفاً علَيْنا، فإنَّنا بِنَا ظَمَأٌ مُرْدٍ، وأَنْتُمْ مَنَاهِلُ

مرد (مميت)، مناهل (موارد الماء)

فلما قرأ محمد بن عبد الملك الزيات هذه القصيدة استحيا من جفائه، لكنه احتج على صديقه الشاعر بأنه مدح غيره ممن هم دونه، وبأن إكثار مدحه الناس زهده فيه، فقال ابن الزيات:

رأَيْتُكَ سَمْحَ البَيْعِ سَهْلاً، وإنَّمَا يُغالي، إذا مَا ضَنَّ بالشَّيْءِ، بَائِعُهْ

رأيتك سمح البيع (متساهلاً)، ويجب على البائع أن يغالي (يرفع سعر) الشيء إذا كان حقاً يضن به (يقدره عالياً)

فأمَّا الذي هَانَتْ بَضائِعُ بيْعِهِ، فُيُوشِكُ أنْ تَبْقَى علَيْهِ بَضَائِعُهْ

والذي تهون عليه بضائعه يوشك أن يراها كاسدة وباقية عنده، يقول: كذلك الأشعار إن مدحت بها الكثيرين زهدنا فيها، وكسدت

فقال أبو تمام وكتبها إليه:

أبا جعفرٍ إنْ كنتُ أَصْبَحْتُ شاعِراً أُسَاهِلُ في بَيْعي له مَنْ أُبَايِعُهْ

فقد كُنْتَ قبلي شاعِراً تاجِراً بِهِ تُسَاهِلُ مَنْ عادَتْ عليكَ منافِعُهْ

فَصِرْتَ وزيراً، والوِزَارَةُ مَكْرَعٌ يَغَصُّ بِهِ بعدَ اللَّذاذَةِ كَارِعُهْ

بعد أن كنتَ شاعراً صرت وزيراً، والوزارة مكرع (مشرب) يلذه كارعه (الشارب منه) حيناً ثم يغص به

وكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قد رَأَيْنا مُسَلَّطٍ، فَعادَتْ، وقد سُدَّتْ عليْهِ مَطَالِعُهْ

كثيراً ما رأينا وزيراً متسلطاً ثم بعد ذلك سدت عليه مطالعه (انسدت الأبواب في وجهه وعزل)

ولِلهِ قَوْسٌ لا تَطِيشُ سِهَامُها ولِلهِ سَيْفٌ ليسَ تَنْبُو مَقاطِعُهْ

عقب محمد عبده عزام محقق «شرح التبريزي على ديوان أبي تمام» تعقيباً طيباً على هذه القطعة الأخيرة، فشك في أنها لأبي تمام، فلا يجترئ المرء هذا الاجتراء على رجل كابن الزيات الذي نعرف كيده وبطشه. وقد يزيدني شكاً في القطعة الأخيرة أن ابن الزيات لاقى فعلاً هذا المصير فقد قتله المتوكل شر قتلة، فكأن الأبيات وُضعت وضعاً بعد مقتل ابن الزيات لتكون كأنها النبوءة. ويحكي لنا الجاحظ أن ابن الزيات اتخذ تنوراً من حديد فيه مسامير بارزة إلى الداخل يضع الناس فيه ويعذبهم حتى الموت. ثم إن المتوكل وضعه في تنوره وقتله بعد أن أذاقه سوء العذاب. وكان ابن الزيات ـ وهذا ما يقلل من شكنا في أن القطعة الأخيرة قيلت له ـ شاعراً رقيقاً يحب الشعراء، وكان لأبي تمام صديقاً، وكانت في أبي تمام جرأة على الوزراء المتأدبين، عليها هنا في مجموعتنا شواهد (القصائد رقم: ١١٥، و١٣٠، و١٥٩، و١٧٠، و١٨٠)

١٧٤ الخوض في لجة اللؤم

يمدح إسحق بن إبراهيم المصعبي:

والـدهـرُ ألأمُ مَـنْ شَـرِقْـتَ بِـلُـؤْمِـهِ، إلَّا إذَا أَشْـرَقْـتَـهُ بِـكَـرِيـمِ

الدهر ألأم ما وقف في حلقك وشرقت به، والحل أن تُشْرِقه (أن تجعله هو يشرق) بشخص كريم يكف أذاه عنك

ولـقـد نَـكُـونُ، ولا كـريـمَ نَـنـالُـهُ حـتَّـى نَـخُـوضَ إلـيـهِ أَلْـفَ لَـئـيـمِ

مثلما تفتح آلاف المحارات وترميها حتى تأتي المحارة التي تضم لؤلؤة، نحن نخوض في بحر طام من أبيات أبي تمام المفتعلة؛ لماذا يا ترى؟ لكي نعثر على بيت رائع كهذا يتحدث عن الخوض في ألف لئيم قبل العثور على كريم

١٧٥ وليّ الأمر

قال في إسحق بن إبراهيم:

وَلِـيـتَ الـمـسـلـمـيـنَ فـلـمْ تُـضَـيِّـعْ أمـورَهُـمُ الـصـغـارَ، ولا الـكِـبـارَا

إذا مـا كـان جـارُكَ مُـصْـعَـبِـيًّـاً فـلا ضَـيْـراً تـخـافُ، ولا افـتِـقَـارَا

١٧٦ الويل للذهب وللفضة

يمدح إسحق بن إبراهيم، ويذكر إيقاعه بالمحمرة بأصحاب بابك، وكانوا تواعدوا إلى موضع علم به، فوقف لهم فيه، فكل من جاء قتل وحُزَّت أذنه، حتى وجَّه إلى المعتصم بستين ألف أذن:

ألا إنَّ الـنَّـدَى أَضْـحَـى أمـيـراً عـلـى مـالِ الأمـيـرِ أبـي الـحـسـيـنِ

إذا يـدُهُ بِـنَـائِـلِـهِ اسْـتَـهَـلَّـتْ فَـوَيْـلٌ لـلـنُّـضَـارِ ولِـلُّـجَـيْـنِ

استهلت: أمطرت، بنائله: بعطائه، النضار: الذهب، اللجين: الفضة

نَـوالُـكَ رَدَّ حُـسَّـادي فُـلُـولاً، وأَصْـلَـحَ بـيـنَ أَيَّـامـي وبَـيْـنـي

١٧٧ لات حين تنصُّل

يمدح إسحق بن إبراهيم، قائد شرطة بغداد:

مَشَـتْ قلوبُ أُنـاسٍ في صُدورِهِـمُ لـمـَّا تَـرَاءَوْكَ تـمشـي نَحْوَهُمْ قُدُمَا

تحركت قلوب بعض الناس داخل صدورهم، خوفاً، لما تراءوك (رأوك) متجهاً نحوهم

أَمْطَرْتَهُمْ عَزَماتٍ: لو رَمَيْتَ بها، يومَ الكَرِيهَةِ، رُكْنَ الدَّهْرِ لانْهَدَما

يوم الكريهة (المعركة)

راحَ التَنَصُّلُ مَعقُوداً بألْسُنِهِمْ لما غَدَا السيفُ في أعْنَاقِهِمْ حَكَما

كانُوا على عَهْدِ كِسرى في الزمانِ، ولن يَسْتَشْرِيَ الخَطْبُ إلّا كُلَّما قَدُمَا

في الزمان؟ لعل هؤلاء العصاة كانوا في بلد لم يحكمه كسرى (في الشام مثلاً) ولذلك قال «في الزمان» أي أنهم كانوا على زمان كسرى، لكن لم يثوروا على كسرى نفسه؟ والله أعلم

في كلِّ جَوْشَنِ دهرٍ مِنْهُمُ فِئَةٌ تُرْحِي رَحَى فِتْنَةٍ قد أَشْجَتِ الأُمَما

في جوشن (صدر) كل عصر فئة من هؤلاء العصاة ترحي (تدير) رحى (حجر طاحون) فتنة أشجت (أقلقت) الأمم

حتَّى إذا أَيْنَعَتْ أَثْمَارُ مُدَّتِهِمْ أَرْسَلَكَ اللَّهُ للأعْمَارِ مُصْطَرِمَا

حتى إذا أينعت (نضجت) أثمارهم وبرز عصيانهم جلياً، أرسلك الله لكي تصطرم (تقطع) أعمارهم

أَطَعْتَ ربَّكَ فيهِمْ؛ والخليفةَ قد أَرْضَيْتَهُ، وشَفَيْتَ العُرْبَ والعَجَما

تَرَكْتَهُمْ سِيَراً، لو أنَّها كُتِبَتْ لم تُبْقِ في الأرضِ قِرْطَاساً ولا قَلَما

جعلتهم في خبر كان، مجرد سير (أخبار) لكنها كثيرة ومليئة بالتفاصيل

سَمَّاهُمُ البَطَرُ الأُسْدَ الغِضَابَ، فَلَمْ تَهْجَعْ سيوفُكَ حتى صُيِّروا نَعَما

بطرهم (جحودهم النعمة) جعلهم في عيون الناس شجعاناً، فلم تهجع (تنم) سيوفك حتى جعلتهم نعماً (مواشي مذللة)

وَلَّتْ شياطِينُهُمْ عن حَدِّ مَلْحَمَةٍ كانتْ نجومُ القَنا فيها لَهُمْ رُجُما

هربت شياطينهم عن معركة كانت فيها أسنة الرماح كالنجوم، وكانت لهم رجماً (شهباً يرمي بها الله الشياطين)

١٧٨ كلمات تنهمر من عينيها

وقال يعرِّض بإسحق بن إبراهيم المصعبي لأنه حجبه:

بَسَطَتْ إليَّ بَنَانَةً أُسْرُوعَا تَصِفُ الفِراقَ، ومُقْلَةً يَنْبُوعا

أشارت إليَّ ببنانة (أنملة) كالأسروع (كالدودة) فكأنَّ هذه الإصبع النحيلة تصف الفراق (تنبئ عما سيفعله الفراق بجسمي من نحول) وكانت مقلتها ينبوعاً من الدمع. هذا هو المعنى الذي لمحته، ولم أوفق إلى خير منه. وتشبيه أصابع الفتيات بالأساريع (الديدان) سنة سنها امرؤ القيس في معلقته، وحُق للآمدي أن يستثقل هذا من أبي تمام

كـادَتْ لِعِـرْفَـانِ الـنَّـوَى أَلـفَـاظُـهـا، مِـنْ رِقَّـةِ الـشَّـكْـوَى، تَـكُـونُ دُمُـوعـا

لمعرفتها بوشك الفراق كادت كلماتها أن تكون دموعاً

ومُـحَـجَّـبٍ حَـاولـتُـهُ، فـوجَـدْتُـهُ نَجْمَاً على الرَّكْبِ العُفَاةِ شَسُوعَا

رب أمير محجوب حاولت الاتصال به فوجدته نجماً شسوعاً (بعيداً) عن الركب (المقبلين من سفر) العفاة (الفقراء)

لـمـَّا عَـدِمْـتُ نَـوالَـهُ، أَعْـدَمْـتُـهُ شُكـرِي، فَرُحْنَا مُعْدِمِينَ جَميعا

المعدِم: الفقير

١٧٩ الشكوى فائض البلوى

يستبطيء إسحق بن إبراهيم:

شَكَوْتُ، وما الشَّكوَى لِمِثْلِيَ عَادَةً، وَلَكِنْ تفيضُ النفسُ عند امتلائِها

١٨٠ وسائل شعر

يعاتب ويمدح إسحق بن إبراهيم بن مصعب المصعبي الخزاعي (صاحب شرطة بغداد لعهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وله حملات مهمة خارج بغداد وتوفي سنة ٢٣٥):

إنِّـي، وإنْ كـانَ قَـوْمٌ مَـا لَـهُـمْ سَـبَـبٌ إلَّا قَـضَـاءٌ كَـفَـاهُـمْ دُونِـيَ الـسَّـبَـبا . .

الذين فازوا بالعطايا لم يكن لهم سبب، واسطة، بل كان لهم حظ، بقضاءٍ وقَدَر، وكفاهم القضاء السبب، عوضهم القضاء عن وجود واسطة، دوني (أي بخلافي، فأنا صاحب واسطة هي أدبي الغزير وقربي من الممدوح). .

لَمُضْمِرٌ غُلَّةً في القلبِ، يُضْرِمُها أَنِّي سَبَقْتُ، وتُعْطِي غيْرِيَ القَصَبَا

إني لمضمر في قلبي غلة (حقداً) يضرمها (يشعلها) أنني أنا السابق، ومع ذلك يأخذ القصبة غيري. وكانوا في سباق الخيل يغرسون في الأرض قصبة فمن سبق نزعها وعاد بها، ومن هنا قولنا «فاز بقصب السبْق»

ونَـادِبٌ رِفْـعَـةً قـد كـنـتُ آمُـلُـهـا لـديـكَ؛ لا فِـضَّـةً أَبْـكـي ولا ذَهَـبـا

أندب (أبكي) رفعة شأنٍ كنت آمل الحصول عليها عندك، فلم أكن أطمع في فضة ولا في ذهب

اِحْفَظْ وَسَائِلَ شِعْرٍ فِيكَ، ما ذهبَتْ خَـواطِـفُ الـبـرقِ إلَّا دُونَ مـا ذَهـبَـا

احفظ وسائل شعر (أشعار كانت وسائل لنيل العطية) قلتها فيك، وقد انتشرت بمدحك في الآفاق أكثر من انتشار البرق الخاطف

فلا تُضِعْها؛ فما في الأرضِ أَحْسنُ مِنْ نَظْمِ القَوافي إذا ما صَادَفَتْ حَسَبَا
يَغْدُونَ مُغْتَرِبَاتٍ في البِلادِ، فما يَزَلْنَ يُؤْنِسْنَ في الآفاقِ مُغْتَرِبا

هذه الأشعار تغترب في البلاد، وتؤنس في الآفاق (المناطق القصية) الغرباء

أَدعوكَ دعوةَ مظلومٍ وسيلَتَه. إن لم تَكُنْ بي رحيماً، فارحَمِ الأَدبا

أدعوك دعوة شخص مظلوم وسيلتَه (مظلوم حقَّه، وقد أنكرت عليه الوسيلة التي بها يتوسل، أي تجاهلت قصائده). وقد قرأنا البيت قراءتنا، وللصولي والتبريزي فيه كلام

١٨١ ليتني كنت ترابا

أقول لِنَفسي حينَ مَالَتْ بِصَغْوِهَا إلى خَطَراتٍ قد نَتَجْنَ أَمانِيا:

أقول لنفسي حين مالت بصغوها (بميلها) إلى خطرات (أفكار) قد نَتجن (وُلدن) على شكل أمنيات: . .

هَبِيني مِنَ الدنيا ظَفِرْتُ بكلِّ ما تَمَنَّيْتُ، أَوْ أُعْطِيتُ فوقَ أَمَانِيا

افرضي، يا نفسي، أنني نلت كل ما أتمنى، وزيادة

أليس اللَّيالي غَاصِبَاتِي بِمُهْجَتي؟ كما غَصَبَتْ قَبْلي القُرُونَ الخَوالِيا

أليست الليالي ستغصبني (تسلبني) روحي؟ ككل من مضى قبلي؟

فيا ليتَني، مِنْ بعدِ مَوْتي ومَبْعَثي، أَكُونُ رُفَاتاً: لا عَليَّ، ولا لِيَا
أَخَافُ إِلَهي، ثم أرجو نَوَالَهُ، ولكنَّ خوفي قَاهِرٌ لِرَجَائِيا
ولولا رَجَائي، واتِّكَالي على الذي تَوَحَّدَ لي بِالصُّنْعِ كَهْلاً ونَاشِيَا. .

الصنع: الإحسان، ناشياً: ناشئاً

لمَا سَاغَ لي عَذْبٌ مِنَ الماءِ بارِدٌ، ولا طابَ لي عَيْشٌ، ولا زِلْتُ بَاكِيا
على إثْرِ ما قد كانَ منِّي صَبَابَةً لَيَالِيَ فيها كنتُ للهِ عَاصِيَا

صبابة: شغفاً

١٨٢ إخْوة في الأدب

يمدح علي بن الجهم الشاعر، وقد جاء علي يودعه لسفرٍ أراده علي، وكان له صديقاً:

وإذا فَقَدْتَ أخاً، ولم تَفقِدْ له دَمعاً ولا صَبراً، فلستَ بِفاقِدِ

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخَاءِ، فإننا　　نَغدو ونَسري في إخاءٍ تالِدِ

إن يكد (يفشل) مطرف الإخاء (الصداقة الجديدة)، فنحن نغدو ونسري (نذهب صباحاً ونعود مساء) في صداقة تالدة (قديمة)

أو يَخْتَلِفْ ماءُ الوِصالِ فماؤُنا　　عذبٌ تَحَدَّرَ من غَمامٍ واحدِ

وإذا اختلف ماء الوصال (ها قد جعل للوصال ماء)، فماؤنا تحدر (انصب) من غمام واحد

أو يفترقْ نَسَبٌ، يُؤَلِّفْ بينَنا　　أدبٌ أقَمْناهُ مَقامَ الوالِدِ

وإذا اختلفنا نسباً ألَّف بيننا (جمعنا) الأدب الذي جعلناه في مقام الوالد (النسب)

١٨٣ الشعر والكيمياء

يعاتب علي بن الجهم ويطلب إليه انتجاز وعد من عثمان بن إدريس بن بدر الشامي:

بِأَيِّ نُجُومِ وَجْهِكَ يُسْتَضَاءُ　　أَبا حَسَنٍ! وشِيمَتُكَ الإبَاءُ

نريد أن نستضيء بك، وننتفع نفعاً لا يضرك ولا ينقص منك شيئاً، نريدك واسطة فقط؛ ونحن نعلم أن خلقك الإباء ولهذا صعب عليك التوسط

أَتَتْرُكُ حَاجَتي غَرَضَ التَّوَاني؟　　وأَنْتَ الدَّلْوُ فيها، والرِّشَاءُ

أتترك حاجتي عرضة للتواني (للكسل)، وأنت لها كل شيء: الدلو والرشاء (الحبل)

تَأَلَّفْ آلَ إِدْرِيسَ بْنِ بَدْرٍ؛　　فَتَسْبِيبُ العَطاءِ هُوَ العَطاءُ

تألف القوم (اجعل قلوبهم ودودة لنا)، فالواسطة لتسبيب العطاء هي كالعطاء نفسه

وخُذْهُمْ بالرُّقَى، إنَّ المهَارِيَ　　يُهَيِّجُها على السَّيْرِ الحُدَاءُ

وخذهم بالرقى (التعاويذ/يقصد الكلام اللطيف)، فالمهاري (الإبل الأصيلة) يحثها الحداء (الغناء الموقع) على السير

فإمَّا جَازَ مِنِّي الشعرُ فِيهِمْ،　　وإمَّا جَازَ مِنْكَ الكِيمِياءُ

فإما أن ينفع شعري في تليينهم، أو ينفع منك الكيمياء (التحايل)

١٨٤ ملتقى الدموع

يمدح إسماعيل بن شهاب ويشكره:

دِمَنٌ طالما الْتَقَتْ أَدْمُعُ المزْ　　نِ عليها، وأدمُعُ العُشَّاقِ

أطلال المحبوبة يسقيها دمع المزن (السحاب) وتسقيها دموع العشاق، فيلتقي المطر والدمع فيها

حَفِظَ اللَّهُ، حيثُ يَمَّمَ، إسما عيلُ، وَلْيَسْقِهِ مِنَ الغيثِ سَاقِ

ليحفظ الله إسماعيل أين يمم (حيثما توجَّه)، وليسقه الغيث

قد سَقَتْنِي الأَيَّامُ مِنْ يدِها سُمّـ ـاً، لِفَقْدِي لَهُ، بِكأسٍ دِهَاقِ

كأس دهاق (ممتلئة)

وَشَجَتْ بينَنا الأُخُوَّةُ؛ إنَّ الـ ـوُدَّ عِرْقٌ زَاكٍ مِنَ الأعْراقِ

وشجت (تشابكت)

لو تَرَى ذَبَّهُ هُنَالِكَ دُونِي لم تَلُمْنِي في حُبِّ أهلِ العِرَاقِ

ذبه دوني: محاماته عني

١٨٥ سال بك السيل

يهجو عبد الله الكاتب:

اِقْطَعْ حِبالِي، فقدْ بَرِمْتُ بِكا وخَلِّنِي، حَيثُ شِئْتَ، مِنْ يَدِكا

أَنتَ كثيرُ الألوانِ مُشترَكٌ فاطْلُبْ خليلاً سِوايَ مُشْتَرَكا

أنت شخص متلون، ومشترك (لا تخلص الود للصديق، بل تشارك في أسراره الآخرين)

فاذهبْ، إلى حيثُ شِئتَ، مُنْطَلِقاً سَالَ بكَ السَّيْلُ حيثما سَلَكا

١٨٦ فوق الشرك

يهجو عبد الله الكاتب:

هلِ اللَّهُ لو أَشْرَكْتُ كانَ مُعَذِّبِي بِأَكْثَرَ مِنْ أَنِّي لِجَاهِكَ آمِلُ

١٨٧ ما أضيق الغمد بغير نصله

يهجو صالح بن عبد الله الهاشمي:

وسُوقَةٍ في قولِهِ وفعلِهِ

سوقة: سوقي

بَذَلْتُ مَدْحِي فيهِ، بَاغِي بَذْلِهِ

طالباً بذله (عطاءه)

فَجَذَّ حَبْلَ أَمَلِي مِنْ أَصْلِهِ

جذَّ: قطع

مِنْ بَعْدِ ما اسْتَعبَدَني بِمَطْلِهِ

مطله: مماطلته

يَا واحداً مقتدِراً بِعَدلِهِ
أَلْبَسْتَهُ الغِنَى فَلا تُمَلِّهِ

جعلته غنياً فلا تمله (لا تجعله يتمتع طويلاً)

مَا أَضْيَقَ الغِمْدَ بِغيرِ نَصْلِهِ

ما أضيق (ما أشد ضيق وانزعاج) الغمد عندما يدخل فيه نصل غير نصله الأصلي

والشِّعْرَ، ما لم يَكُ عِنْدَ أَهْلِهِ

وكذا الشعر ما أشد انزعاجه عندما يكون عند من لا يستحقونه

١٨٨ إن كنت ممن يفكر

وقال في الوعظ والزهد:

وقد يَسْتُرُ الإنْسَانُ بِاللَّفْظِ فِعْلَهُ فَيُظْهِرُ منهُ الطَّرْفُ ما كانَ يَسْتُرُ

الطرف: النظر

تَذَكَّرْ، وفَكِّرْ في الذي أنتَ صَائِرٌ إليهِ غَداً، إنْ كُنْتَ مِمَّنْ يُفَكِّرُ
فَلا بُدَّ يوماً أنْ تَصِيرَ لِحُفْرَةٍ بِأَثْنَائِها تُطْوَى، إلى يَوْمَ تُنْشَرُ

بأثنائها: في داخلها، تنشر: تُبعث يوم القيامة

تم الشرح في ثاني أضحى عام ١٤٣٢، الموافق للثامن من نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠١١

فهارس أبي تمام

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

القطع المنتخبة بأسمائها وأوصافها

الأرقام أرقام القصائد لا الصفحات

فهرس الأغراض (أبو تمام)

الأرقام أرقام القصائد لا الصفحات

(المدح المباشر مستثنى من هذا الفهرس، لأنه موجود في معظم القطع)

البُحْتُرِيّ
(٢٠٦هـ ـ ٢٨٤هـ)

سماه أهله الوليد. وكَنَّوْه صغيراً ـ على عادتهم ـ فكان أبا عبادة؛ كنية بدوية، سنراه يتظرف في بغداد ويجعلها أبا الحسن، ثم يعود إليها لأن أبا عبادة أميز.

فاسمه على هذا: أبو عُبادَة، الوليد بن عُبيْد بن يحيى البُحْتُرِيّ. جده الأعلى (بُحْتُر)، وهو من قبيلة طَيِّء. وإذ ينقسم العرب إلى عاربة من اليمن، ومستعربة من الشمال، فطيِّء من العرب العاربة، من عرب اليمن؛ وقد رحلوا إلى الحجاز قبل الإسلام، وشَعّوا شمالاً وشرقاً، وفي كل مكان. ومن العرب العاربة الأوس والخزرج، ومنهم الغساسنة والمناذرة، وحتى يوم الناس هذا يحلو لبعضهم تقسيم العرب إلى قيس ويمن.

حدثني رجل مسيحي يبيع العَرَق والفستق في بلدة بيرزيت الفلسطينية قال إنهم من القيس، وإن أهالي قرية كذا من اليمن. وعجبت كيف بقيت هذه القسمة موجودة في النفوس لا تعبأ بالدين، ولا بالاحتلال. وكانت حماتي رحمها الله، وهي مقدسية، تسمي الحلوى التي تصنعها من طبقة من الحليب المعقود، فوقها طبقة من عصير البرتقال، المعقود أيضاً، بـ «قيس ويمن»، ذلك أن راية القيس كانت حمراء وراية اليمن بيضاء. فلا نعجب إذا رأينا البحتري يتحدث عن «حمِيَّة شعبٍ جاهلي»، ويفتخر بقومه افتخاراً جاهلياً.

ولد البحتري في قرية زَرْدَفْنَة القريبة من مَنْبِج بشمال سوريا اليوم. ولد سنة ٢٠٦، وتوفي في منبج سنة ٢٨٤. ولئلا يغير النظام الحاسوبي مواضع خانات الأرقام هاكها بالحروف: ولد سنة مئتين وست، وتوفي سنة مئتين وأربع وثمانين، فيكون عاش ثمانياً وسبعين سنة قمرية أي ستاً وسبعين سنة من السنين

التي نقيس بها أعمارنا اليوم. (فإن أنقصتَ سنة من تاريخ مولده وزدت مثلها على تاريخ وفاته وصلت به إلى ثمانين سنة قمرية. وهذا شيء قال به بعض من أرخ حياة البحتري).

وصنعته الوحيدة، التي لم يعرف غيرها، الشعر. كان وهو صغير يسير في طرقات البلدة ينشد الشعر، يقوله لأهل السوق «لأصحاب البصل والباذنجان».

مزاجه مزاج البدوي الذي سكن قومه قرية، واستقروا فيها وزرعوا وعرفوا حياة الفلاحة.

تعلم في كتَّاب قريته القرآن والعربية والتقط عدوى الشعر المزمنة صغيراً فيما يبدو، ربما من شيخ الكتَّاب الذي كان ينشد الأولاد القصائد. وساعدته لهجة القبيلة القريبة من الفصحى. ولعله حضر مجالس القاضي والفقيه صبياً، يجلس صامتاً، فعرف عن ماضي القبيلة. وكانت القرى والبلدات في بلاد الشام، ولا تزال، مسكونة بناس من أصول قبلية متقاربة.

أربعة أوطان

امتلأ البحتري بالولاء لقبيلة طيء. فهي وطنه أولاً، ومنبج وطنه ثانياً، والعروبة وطنه الثالث؛ على أنه كان قابلاً الموالي قَبولاً حسناً يمدح الوزراء والقُواد من ذوي الأصل الفارسي بلا حرج، ويشيد بماضي الفرس مرتاحاً، غيرَ متخذ موقفاً عروبياً ضد شعوبية ذلك الزمن؛ ذلك أن وطنه الرابع هو الإسلام، رغم ما كان في الرجل من رقَّة دينٍ لازمته عمره، وكان مبعثها البداوة لا الزندقة.

لعله كان لأبيه أرض يفلحها في زردفنة، ثم تركها سريعاً وعاش في منبج. فالبحتري لا يذكر في شعره زردفنة هذه. ومنبج هي الجغرافيا التي يحن إليها، ويَعُدُّها المكان الذي يجب أن تستقر فيه عظامه. ولعل الأسرة رحلت إلى حلب، على بعد مئة كيلومتر، والبحتري فتى يافع. وفي حلب عشق عَلْوَة، ولَها معها.

كان فتى ذكياً، ذا مزاج عامي. عرف شظف العيش في صغره، فبخل في كبره. وعرف قدر الدرهم فصانه. ولكنه انجرف في حبه للشعر انجرافاً منعه من التفكير في زراعة أو حرفة. ولعل مما صرفه عن الزراعة أن الأسرة انصرفت

عن هذا الأمر في طفولته الباكرة؛ ولعل مما صرفه عن الحرفة أن العرب تحتقر المهنة، وليس من شك في أن البحتري قرأ وحفظ صبياً الكثير مما قاله جرير والفرزدق في هذا المعنى. ثم إن الشعر كان رائجاً في ذلك الزمن. فما إن بلغ البحتري الثانية عشرة من عمره حتى كان يسمع في مجالس قومه ذكر شاعر القبيلة أبي تمام الذي غدا أشهر شاعر في الدنيا. وكان علي بن الجهم آنذاك يأخذ عطايا الخلفاء ويتولى لهم الأعمال. وكان الناس يرددون أشعار دِعْبِل ويعجبون بتمرده وسلاطة لسانه. وليس من شك في أن ديك الجن، الذي لزم بلدته حمص، كان من المذكورين في مجالس القوم. ولعلهم خاضوا في قصته من محبوبته التي قتلها، مثلما خاض فيها نقاد الأدب مئات السنين، وكانت القصة في صبا البحتري طازجة، والأشعار التي قيلت فيها متداولة. ولم تكن قد مرت على وفاة أبي نواس، والبحتريُّ فتىً واعٍ، سوى سنوات قلائل، وأقل منها على وفاة أبي العتاهية.

بداية الطريق

تدرج البحتري في المدح. قد لا تريد أن تأخذ على محمل الجد أنه مدح بائعي البصل والباذنجان، فلنبدأ من الكُتَّاب والقُواد والأثرياء في منبج وحلب وحمص. سَنَّ البحتري أسنانه عليهم. وامتطى الشعر للوصول إلى المال. لكنه كان أيضاً يقول الشعر في هذه السن الطرية في التغزل بعلوة الحلبية، وهي فتاةُ صباه، وكانت تغني في حفلات الأغنياء تصحبها أمها زريقة التي تشتغل في النهار في غسل ثياب الناس. وهذا افتراض من جانبنا له في شعر البحتري وأخباره أساس.

وعلوة وزريقة هاتان من البشر الذين كان يستنسخهم العصر العباسي من أمهات بلا آباء خارج نطاق القبائل، ويرميهم في سوق الخدمة والغناء والدعارة.

في تلك الفترة افتخر البحتري بقبيلته التي قال لها الله في الحرب «كوني حجارة أو حديدا». وقال شعراً جميلاً في الفخر. ثم التقى بشاعر طيء الكبير، وشاعر شعراء العرب في زمنه أبي تمام. لعله التقى به في حمص، ورواية المرزباني هي أقرب الروايات إلى العقل، وأجودها سنداً وأقربها عهداً، والمرجع كتابه «الموشح».

البحتري وأبو تمام

لقي البحتري أبا تمام في حمص، فشجعه أبو تمام وأثنى على شعره، ووضع رجله على أول طريق التكسب، وعلمه أشياء صغيرة وثمينة. كان أبو تمام ذا بصر بالشعر، قد اتخذه شهوة وصناعة وفناً، وحياة. وقُدِّر للبحتري أن يكون في هذه شبيهاً بأبي تمام. فهو ناقد للشعر جيد، وقد عاناه طول عمره المديد وسارت له نقدات حارقة، أُحِبُّ منها قوله في رد حكم نقدي لثعلب: «ليس هذا من عِلْم ثعلبٍ وأضرابه، ممن يحفظ الشعر ولا يقوله، فإنما يعرِفُ الشعرَ من دُفع إلى مَضايقه». وأَحَبَّ النقاد القدامى كلمة له في المقارنة بينه وبين أبي تمام؛ قال البحتري: «جيِّده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه».

وعندما قال له أحدهم: يقول القوم إنك أشعر من أبي تمام، قال البحتري: «والله ما ينفعني هذا القول، ولا يضر أبا تمام، والله ما أكلت الخبز إلا به، ولَوَدِدتُ أن الأمر كان كما قالوا، ولكنِّي واللَّهِ تابع له آخذٌ منه لائذٌ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه.» وهذه عبارة بليغة جداً لا يقولها المرء بل يكتبها. وأغلب ظني أنها من صياغة النقاد اللاحقين. على أن أخبار اعتراف البحتري لأستاذه بالتفوق والإمامة متواترة. وانظر في ديوان البحتري تجدْه سرق عشرات المعاني من أبي تمام ـ قيل سرق منه معاني خمسمئة بيت ـ (ساعد على هذا وفاة أبي تمام المبكرة، فالبحتري عاش بعده خمسين سنة مشغول اليدين بتناول ما لذ وطاب من ديوان أستاذه).

اتصل البحتري بأبي تمام سبع سنوات تقريباً، لكنه لم يلتقه فيها سوى مرات قليلة فيما نقدر. ومرة تكفي. الشاعر لا يحتاج إلى أن يتعلم الشعر تدريساً وتلقيناً، بل تكفيه الكلمة العابرة، ويكفيه التشجيع إن كان لديه الميل، ويكفيه المثال يحتذيه. وقد رأيت في زمني دكاترة ـ عدمتُهم ـ يحملون شهادات في الأدب العربي لا يذوق الواحد منهم شعراً ولا يقيم بيتاً.

شاعر متفرد

لم يأكل التكسب بالشعر عقل البحتري تماماً. وإلا لما عددناه شاعراً كبيراً. كان يحب شعره كثيراً ويفتخر به: (فإذا ما بَنيتُ بيتاً تبخترتُ كأني بَنيتُ ذاتَ العمادِ). وله في وصف الذئب قصيدة مهمة. خذ منها قوله «كلانا بها ذئب»، واعرف للرجل قدره في الشعر، ولا يحملك الهوى على أن تعصف به،

وتسقطه من حسابك، كما صنع بعض النقاد الذين يشتطون في رفع الشاعر أو في إسقاطه، وكأن الله لم يخلق بين سمائه وأرضه فضاء واسعاً.

أما الأقدمون فسُرُّوا بديباجة البحتري. فهو يسوق الكلام سوقاً عربياً، لا يصوغ في شعره المعاني الفلسفية ولا يجعل البيت لغزاً من الألغاز. جاء متوسطاً بين شاعرين معاصرين له صنعا بعض ذلك: أبي تمام قبله بسنوات قليلة، وابن الرومي بعده بسنوات قليلة في الميلاد. وقد عرفهما كليهما، وتأثر بهما. ولكن طبيعته وتربيته لم تتيحا له أن يقلد أياً منهما في التعمق وفي تجريح وجه الشعر بالتعمل. أحبه الأقدمون، وظلوا يختلفون في شأنه وشأن أبي تمام: أيهما أفضل. وكأنه سباق لا بد فيه من معرفة الفائز الأول حتى نعطيه الكأس. وقال الآمدي صاحب الكتاب الضخم في الموازنة بين الشاعرين الطائيين إن البحتري أفضل. قالها في ألفي صفحة. وقال كثيرون غيره العكس.

نعود إلى قصة البحتري: التقى بأبي تمام في حمص، فقال له الشاعر المشهور: قم فأنت شاعر. فاكتسب ثقة بنفسه. وتدرج في المدح.

استطراد

نقول شيئاً قلناه أكثر من مرة في أكثر من كتاب سابق. (ملاحظة استطرادية داخل الاستطراد: كنت أنوي نشر مختاراتي لكل شاعر على حدة في كتاب مستقل، وعدلت عن هذا، فصرت أضم شعراء كل عصر في كتاب كبير). نقول: الشاعر بجيده لا برديئه. فنحن نُعنِّي النفس بدراسة الخمسة عشر ألف بيت التي قالها البحتري، ثم نأخذ في الموازنة. ونتعب في مقابلة القصيدة الحسنة بالقصيدة الرديئة، والبيت الجيد بالبيت الضعيف؟ ثم نهمل الضعيف وننظر في الجيد، فإذا كان عالياً سررنا به واستمتعنا، واخترناه، ولا يندر أن نترك الكثير من الجيد، ولا سيما في ديوان كبير كديوان البحتري، فالغرض انتقاء الدرر الثمينة. اسمع ما يقول البحتري لممدوحه: (ليواصلنك ركب شعر سائرٍ/ ترويه فيك لحسنه الأعداء/ / فتظل تحسدك الملوك الصِّيد بي/ ويظل يحسدني بك الشعراء). هذه ديباجة بديعة، وأما المعنى. . فطبعاً من أبي تمام.

إلى العراق

قطع البحتري الثلاثين كيلومتراً التي تفصل منبج عن نهر الفرات، وعبره ثم سار نحو مئتين من الكيلومترات إلى رأس العين. وجال في هذه المنطقة ـ منطقة

الجزيرة الفراتية ـ متكسباً بشعره، لا يهمه التنقل ولا شظف العيش، فهو قد تربى في كنف القِلَّة. وصل إلى القادة والزعماء الطائيين بسهولة لأنه طائي، ووصل إلى غيرهم مع اتساع شهرته. ووصل إلى الموصل، ثم انحدر إلى بغداد ووصل إلى علي بن يحيى المنجم. وقبل أن يبلغ البحتري الثلاثين من العمر أوصله هذا الأخير إلى الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل. ثم وصل إلى المتوكل.

وما كررنا كلمة (وصل) في الفقرة المنصرمة إلا لنقول لك إن الرجل كان وصولياً. فرش البحتري في بغداد بساطاً من كرامته وسار عليه إلى بلاط المتوكل، وافاه وهو في بداية خلافته. وقال في ثلاث عشرة سنة قصائد كثيرة في المتوكل. كلها في ديوانه. وقليل فيها المدح الجميل. وظل البحتري يمدح الفتح بن خاقان الوزير أو يعاتبه أو يعتذر إليه، وأشعاره في الوزير خير من أشعاره في الخليفة، وقد طرب ابن المعتز كثيراً لشعر الاعتذار الذي قاله البحتري للفتح بن خاقان الوزير.

ظل البحتري يمدح كبار رجال الدولة في بغداد غيرَ مكتفٍ بأنه الشاعر المقرب للخليفة. المهم أن يدفعوا الإتاوة التي فرضها عليهم أبو عبادة. وكان يتجرأ فيشتد في مخاطبتهم وتقريعهم، وهم بالطبع يخشون معرة لسانه، ويحسبون له حساباً لأنه «واصل» ويحضر مجلس الخليفة. لهذا تراه لا يتورع عن قدح من يحرمه.

وكان البحتري على ارتباط مستمر بمنبج. لم ينس قط وهو بالعراق أنه رجل شامي. وفي منبج كان يشتري الأراضي ويبني البيوت شأن المغتربين في دول الخليج في الستين سنة الفائتة.

في هذه السنوات الذهبية من حياة البحتري ببغداد كان لاهياً ساكراً حاضراً مجالس الغناء. لم يكن متكبراً. ولم يترفع عن معاشرة الناس. ظل ابن بلد.

لم يكن قارئ كتب فلسفية، ولا صبوراً على مجالس العلم. على أنه ما كان يستطيع ـ في بغدادٍ تلك ـ أن يهرب من الثقافة، فهي تلقاء وجهه أيان ذهب. وبالتأكيد فقد أقبل على كتب الشعر، يردد النظر فيها عند الوراقين، ويستعير الكتب ويعيدها. ولم يكن يعتني باقتنائها لأنه بخيل ولأنه مقيم ظاعن، ولأنه تربى بدوياً. لعل استعارته الكتب دون شرائها هي ما دفعه إلى تدوين الأبيات الجميلة حتى يحتفظ بها. ونظن أن كتابه الموسوم بحماسة البحتري نشأ هكذا، ثم إنه نسخَهُ للفتح بن خاقان.

وصف البحتري عظمة موكب المتوكل، ووصف بركته المترامية الأطراف. وذكر في شعره الأحداث السياسية في معرض مدحه للخليفة.

وفي سنة ٢٤٧ قتل المتوكل ذبحاً بالسيف. تآمر عليه مع القادة ولده المنتصر، فقتله الأتراك في مجلسه، وقتلوا معه الفتح بن خاقان وزيره عندما وقع عليه يحميه بجسده. وأما البحتري فقيل إنه كان حاضراً المجلس وإنه اختبأ وراء باب. لكنه عاش بحمد الله لكي يصف المشهد بقصيدة بديعة.

بعد المتوكل حج البحتري، وذهب إلى منبج قبلها أو بعدها. ثم عاد إلى بغداد. ومدح المنتصر الذي تولى الخلافة بعد مقتل أبيه. كانت ولاية المنتصر ستة أشهر. ومات (٢٤٨هـ) وجاء المستعين من عمومته خليفةً، فمدحه البحتري. وعُزل المستعين وجاء المعتز (٢٥٢هـ) فمدحه البحتري وهجا المستعين المعزول. وأرسل المعتز بعد عدة أشهر رجلاً إلى سجن المستعين فذبحه ذبحاً.

وجاء المهتدي بالله (٢٥٥هـ) فمدحه. كان البحتري آنذاك في الخمسين من عمره. مضى عصره الذهبي مع الخلفاء بذهاب المتوكل. لكنه حريص على بغداد وعلى ما تدره عليه من مال، وحريص على الخلفاء، مهتم بما يكسبه من حضوره مجالسهم من مكانة اجتماعية. وقد ظل يفتخر طول عمره بأنه جليس الخلفاء.

وجاء المعتمد على الله سريعاً (٢٥٦هـ) فمدحه. وبقي المعتمد في الخلافة أكثر من عشرين سنة. وحدثت في أيامه ثورة الزنج، وكان خراب البصرة. وكان مغلوباً على أمره، وهذا الخليفة هو صاحب البيت الشهير الذي اقتبسه شوقي: (وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً/ وما من ذاك شيء في يديه). لم يكن للمعتمد سيطرة على أموال الدولة كما كان الأمر في عهد المعتز. كان يأخذ مصروفه من أخيه الموفق طلحة القائد المسيطر على الأمور. على هذا ليس مستغرباً ألا نجد للبحتري مدحاً كثيراً في المعتمد مع أنه بقي في الخلافة فوق العشرين سنة. ظل البحتري يمدح القادة والوزراء والكتاب. هذه حرفته، وهو يمارسها.

هذا يذكرني بصاحب محل في بلدي نابلس كان وكيلاً لشركة سبيني الإنجليزية التي تصنع الحلوى والبسكوت. وعندما احتل اليهود المدينة سنة ٦٧ جاء الرجل ببضاعة من عندهم ليبيعها، فانتقده الناس لأن البسكوت مادة كمالية

ويمكن الاستغناء عنها، فلماذا يستوردها من العدو؟ فقال لهم: بالنسبة لكم هي كذلك، وبالنسبة لي هي تجارتي التي لا أعرف سواها.

ونظن البحتري كان ـ لو اقتضى الأمر ـ يرجع إلى أصحاب البصل والباذنجان يمدحهم.

على أننا لا نسرف على الرجل، فله في الشعر غير هذا المدح الباهت الرديء البارد؛ ففي هذه الفترة من هبوط الخلافة ذهب أبو عبادة مع ولده أبي الغوث يحيى في زيارة إلى إيوان كسرى على بعد كيلومترات قليلة جنوب بغداد، وقعد على حجر هناك وقال لولده افتح باطية النبيذ واسقنا شربة. وشرب. وقال قصيدة بادَ إيوانُ كسرى وستبيد القصور الرئاسية التي تلته، والقصيدة حية. قال السينية العظيمة. ليس فيها مدح لأحد، بل هي شعر رائق وحسب. هناك، في نحو سنة ٢٧٠هـ، قال البحتري أعظم قصيدة له. وقد اقتبسناها لك كاملة وتنوَّقنا في شرحها. وكلما بلغ كارهو البحتري ومنتقدوه هذه القصيدة عضوا على شفاههم، وسكتوا. فهي من الشعر الذي يخلد به الشاعر طول الزمن. اسمعه يقول في البيت الثاني: (وتماسكتُ حين زعزعني الدهر)، هذا كلام قوي وبليغ جداً.

كان البحتري قد جاوز السبعين بسنوات عندما رثا العلاء بن صاعد (القطعة رقم ١٨٩) قائلاً إن هذه الدنيا متقلبة فكأنها ليست من صنع واحد حكيم بل من صنع اثنين: أحدهما حكيم والآخر أخرق. وفي هذا ما يدل على قلة دين، وفيه استهتار. ثار العامة في بغداد على البحتري بتحريض من بعض الفقهاء. فقال شاعرنا لولده أبي الغوث: قم بنا نذهب إلى منبج حتى تهدأ هذه الثائرة. فذهبا. وظل البحتري هناك. وشكا من شعوره بالغربة في موطنه بعد عودته. قد كان يجالس الخلفاء في بغداد وها هو يقول لوالي منبج: أيها الأمير!

عُزل المعتمد، ومات سريعاً بعد عزله، وكان أخوه المتسلط الموفق قد مات قبله بقليل، فتولى الخلافة المعتضد ابن الموفق (٢٧٩هـ) وكان البحتري قد مدحه قبل توليه الخلافة بقليل بقصيدة ربما كان أرسلها من منبج. كان المعتضد جباراً قاسياً كأبيه. وكان عادلاً، وشديداً في الدين تقياً. ولم يفد عليه البحتري بل بقي في منبج شيخاً غنياً ذا خدم وعبيد، يحس بمرارة. في قلبه حسرة لما باع من ماء وجهه في بغداد. ولكنه مستمتع بالثروة، باقٍ على بخله. يعتني

بالأراضي والبيوت كي ينالها الوارثون. وهو في غير حاجة إلى مدح من أحد لذا لا يعطي أحداً. هو سيد المديح، وسيد الزمارين في بلاطات الخلفاء. وإذا راق مزاجه قال شعراً وجدانياً يعرف هو قيمته، ويحبه.

وَصَلَنا ديوانه سالماً

نعم، كان يحب شعره، ويحرص على تدوينه وجمعه، ويجد في ذلك مساعدة من ولده (أبي الغوث يحيى بن الوليد) الذي كان راوية ممتازاً لشعر أبيه، شديد الغيرة عليه، يأبى تغيير كلمة فيه حتى لو تبين له أن في البيت خللاً عروضياً. وحفظ لنا شعر البحتري أيضاً علماء بغداد. فنسقه الصولي ونسقه حمزة الأصبهاني. وبين أيدينا ديوان كامل نظيف. لا تقدح فيه أسطورة أن البحتري طلب من ولده إحراق قصائد الهجاء حتى لا يتضرر بها عقبه. فتلك قصة ينفيها وجود هجاء كثير في الديوان، ولا نظن أن أبا الغوث قالها إلا دفعاً لتهمة أن البحتري ضعيف في الهجاء. وهذه تهمة ظل النقاد يرددونها. ولا أراها صحيحة. كان البحتري مقبلاً على المدح إقبالاً شديداً لما فيه من فائدة. ولم تكن أبياته المدحية عظيمةً، والجميل البارع في قصائده المدحية ما فيها من وصف. وكان كثير المعاتبة. وله شعر جميل في التقريع والتهديد بالهجاء، وهذا لغرض انتفاعي أيضاً: فهو يهز العصا للممدوح المتأخر عن دفع المال. فأما الهجاء المحض فلم يكن من شأن البحتري. كانت نفسيته متوازنة، وكان يحاول الحفاظ على علاقاته في غربته البغدادية حتى يستمر في استدرار المال من الناس. ولعل التهمة بضعف هجائه قد جاءته من مقارنته بمعاصريْه ابن الرومي ودعبل، فقد كانا هجاءين خطيرين. وينطلق النقاد في إلصاق تهمة الضعف في الهجاء بأبي عبادة من قصة له مع ابن الرومي.

هجاه ابن الرومي عدة مرات، فأرسل إليه البحتري هدية، ثم اجتمعا وتناشدا. وحذر ابن الرومي البحتري ـ الذي يكبره بخمس عشرة سنة ـ من الهجاء قائلاً إنه لن يبلغ فيه مبلغاً مهماً، وهكذا ترك البحتري الهجاء لابن الرومي. هذه الواقعة مروية في الكتب القديمة على نحو يشعرك بأنها حدثت فعلاً، ولكنها لا تعني أن البحتري ترك الهجاء آخذاً بنصح زميله.

مات البحتري في منبج بالسكتة في عام ٢٨٤هـ.

كان قوالاً فصيحاً. قيل كان قذر الثوب، زري الهيئة. وهذه خصلة

شخصية واجتماعية في آن معاً. فالبحتري غير أنيق خلقة. والبشر اثنان: أنيق بالولادة، وزريٌّ بالولادة. الأنيق يظل أنيقاً حتى لو افتقر، والزري الهيئة يبقى زريًّا حتى لو اغتنى. هذا عن الجينات. وأما الأساس الاجتماعي لقلة أناقته ولقذارة ملبسه فهو أنه تربى في أحضان الفقر الريفي. وحياة الريف غير حياة المدينة، وفقراء الريف أبعد عن الأناقة ونظافة الملبس من مياسيره، ومن فقراء المدن. وكان فيه سذاجة. لا نرجعها إلى نشأته الريفية إلا قليلاً. فابن الرومي المديني البغدادي القح كان ساذجاً بطريقته. لكن البحتري كان على بعض الجفاء في معاملة الناس وفي اقتضائهم، وفي مطالبتهم باستحسان شعره. وكانوا يضحكون لذلك ويستثقلونه في آن.

عملنا في هذا الكتاب

إن كنت تدرس البحتري لإعداد بحث عنه فاعلم أن كتابنا هذا لا يضم شعر البحتري كله، ولا نصفه، ولا ربعه، بل أقل. كتابنا يضم (٨٪) ثمانية بالمئة من شعر البحتري فقط. يضم أبدع وأرق ما قاله ابن منبج العظيم. لكنك أيها الدارس ستجد عندنا من الشرح ومن التدقيق ما نرجو أن يرضيك.

وأما إن كنت محباً للشعر القديم، غير آبه بتلك الأوراق التي توزعها الجامعات على من يدفع القسط السنوي، وتسميها شهادات، فقد وصلتَ إلى بئر عذبة.

قد تخيرت لك من الخمسة عشر ألف بيت التي تركها لنا البحتري نحو ألف بيت. وشرحتها لك شرحاً بسيطاً سلساً بلغة معاصرة كالتي تقرأها في الجريدة. وقصصت عليك مناسبات القصائد بحسب ما جاء في الكتب القديمة. وقد أشركك في رأي يعن لي هنا أو هناك، قد أستطيب بيتاً فأهتف بك أن انظر فيه ملياً وتأمل بديع صنعه. وما ذاك إلا رغبة في التواصل معك، والتحدث إليك.

استطراد ثانٍ

يا قارئ! أنا تعبان معك. أكتبُ مسدود النَّفْس. كنت كتبت لك كتاباً عن أحمد شوقي في خمسمئة صفحة سميته (شاعر الألف سنة) مخضت لك فيه العشرين ألف بيت التي قالها أحمد شوقي وتخيرت زبدة الزبدة وشرحت شرحاً

ذريعاً. ثم كتبت كتاباً عن المتنبي في ثلاثمئة صفحة سميته (عصارة المتنبي)، عصرت لك فيه روح أبي الطيب، وصنعت كما صنعت مع شوقي. ولم يقرأ كتابيَّ أحد. ولم يقل فيهما أحد شيئاً. فإن كنت تظن أنني أكتب لنفسي أو للأجيال المقبلة فاعلم أن لا. لتذهب الأجيال المقبلة إلى سقر. وبعد أن أضع رأسي على طوبتي لن يهمني أقال فيَّ الناس خيراً أم شراً، أداسوا على قبري أم وضعوا عليه الورد.

وها أنا أعود وأقدم لك البحتري مختصراً مشروحاً شرحاً أزعم أنه واف بالغرض. وكنت قلت إنني أخطط لتقديم دواوين كثيرة من الشعر القديم بهذه الطريقة. والآن فترت همتي. كنت أريد أن أختصر حقبة شعرية هي أطول وأعظم حقبة شعرية عرفها البشر. حقبة تمتد ألفاً وخمسمئة سنة من التراث الشعري العربي العمودي.

ذلك أن الشعر العمودي مات بالسكتة قبل ستين سنة. وصدرت على مدى هذه السنوات الستين شهادات وفاة تثبت أن قلبه توقف عن النبض. واستبدل به العرب شعراً آخر. خرجوا من ثوبهم القديم ولبسوا ثوباً جديداً. كان لشعر التفعيلة عصره الذهبي. وولّى. وجاء شعر آخر منثور. ونهض الشعر العامي بقوالبه المتعددة: القديمة المعتمدة على الأشطار المتساوية، أو الجديدة التي استفادت من الشعر الحديث مفاوَتةً بين شطر وشطر في الطول، وتوزيعاً حراً للقوافي. تجرأ الشعر العامي الآن في كل بلد عربي، وعزز شرعيته. في العراق تسمع قصائد رنانة تحكِي الوجع اليومي وتترجم المشهد السياسي، وفي الخليج يعيش الشعر النبطي أياماً زاهية، وفي مصر وفلسطين ولبنان وسوريا وبلاد الغرب شعر عامي حار.

التقيت قبل نحو شهر في الدوحة ـ وأنا أكتب لك في مارس آذار ٢٠١٠ ـ بالشاعر الشعبي الحمصي عمر الفرا صاحب (ما أَرِيدَكْ) وقرأ لي قصيدة سياسية بالفصحى، ونُبذاً من جديده بالعامية. رأيته جالساً في الردهة ينتظر سيارة تُقِلُّه إلى مكان احتفال ضمن مهرجان في الدوحة، فجلست إليه وحييته وآنسته حتى تأتي سيارته، لم يهن علي أن يجلس شاعر وحده ينتظر. رأيت فيه البحتري. صناعته الشعر، وهو يحفظ كل شعره، ويعيب على الشاعر ألا يحفظ كل ما قال.

العرب يعيشون سنوات الحيرة بين العامية والفصحى. وقد تظل هذه الحقبة

معنا بضعة قرون، فنحن بطيئون في حسم الأمور. والمشكلة عميقة وذات رؤوس كثيرة. وها أنا ذا أكتب إليك بالفصحى، ولا أدري لو قرأ كلامي قارئ بعد مئة سنة أكان سيفهم كثيراً من هذه الأسطر.

المهم في كل هذا أن الشعر العربي العمودي عاش حقبة مذهلة في طولها وفي ثرائها. ألفاً وخمسمئة سنة ونحن نقول الشعر على نظام ثابت: ستة عشر بحراً وشطران متساويان، وقافية تختم الشطر الثاني.

الطريف أن شاعرنا الذي نخصص له هذا الكتاب ـ البحتري ـ هو الذي أوحى بتسمية «الشعر العمودي». فقد قال أبو عبادة عندما سئل عن الفرق بينه وبين أبي تمام: (كان أغوَصَ على المعاني مني، وأنا أقْوَم بعمود الشعر منه).

وما عناه البحتري بعمود الشعر: تقاليده الموروثة، فأبو تمام خرج عن هذا الأساس واستولد المعاني وجدد في طريقة صوغها، وابن الرومي في العصر نفسه خرج عن طريقة القدماء في التعبير كثيراً، وقبلهما كان لأبي نواس خروجه المشهور. فجاء البحتري وراعى عمود الشعر، واحترم تقاليده. وفي زمننا نستعمل تعبير الشعر العمودي اسماً لكل شعر موزون مقفى على بحور الخليل. والسلام.

لقد انتهى الشعر العمودي. وأصبح في مقدورنا أن ننظر إلى كل هذا التراث الهائل من علُ.

لم ننقطع عن ذلك التراث انقطاعاً مطلقاً. ولم يكن الشعر العامي منقطعاً عن الشعر العمودي. رأيت صديقي الشاعر الشعبي الخليجي ينظر إليَّ نظرة في غاية الذكاء والحدة وأنا أنشده أبياتاً من الشعر العمودي، واستعادني بيتاً عويصاً فأعدته عليه، وعرفت من نظرته أنه فهم وأنه يريدني أن أتابع. علّمتني نظرته تلك أن الشعر شعر. وأن الشاعر يحب الشعر كله. وعلمتني أيضاً أن العربي يحب الشعر، وأن الشاعر الشعبي يحب الفصيح ويتعلم منه ويزيد عليه من روحه. وكثير من شعراء الفصحى في لبنان قالوا الزجل. وفي مصر، شوقي مثال ساطع. وفي الأندلس قالوه.

على أن الشعر العمودي مات. والشعر العربي الآن يتخذ معايير جديدة ويضطرب في اتخاذها كثيراً. نعيش معمعة. ما زال أحمد مطر يقول شعر التفعيلة ويبقيه حياً. وقد استقرت معايير هذا اللون من الشعر. أقصد المعايير

الشكلية. فأما في معاني الشعر فإن محمود درويش المتأخر هاجر إلى الرمز والإيحاء، واقترب من شعراء النثر في هذا الأمر، ولو عاش لكان هجر التفعيلة أيضاً فيما نقدر.

لأننا في معمعة شعرية، في فترة انتقالية كما يقولون، فإنه مريح للقلب أن يجمع المرء دواوين القدماء والمحدثين من أهل العمودي، ويضعها حوله مثلما يتحصن المقاتل بأكياس الرمل؛ شيء يُشعر بالاستقرار.

وقد أدمنت قراءة هذه الأشعار. وقدمت البسيط المفهوم منها في الإذاعة والتلفزيون سنوات طويلة. وآلمني أنَّ تطور اللغة جعل الكثير من هذا الشعر عصياً على الفهم، فقلت: أنتقي زبدتَه وأشرحه للناس.

(استطراد متأخر: أكتب هذا الاستطراد في يوليو تموز ٢٠١٦، وكنت شاركت على مدى الأشهر الماضية في برنامج تلفزي اسمه «فصاحة» بثه تلفزيون قطر. كنت عضو لجنة تحكيم، شاركني فيها الأستاذان أحمد الشيخ وعبد الله العذبة.

سافرنا جميعاً إلى تونس والتقينا بـ ١٨٩ شاباً وفتاة واختبرناهم جميعاً، وسافرنا إلى عُمان والتقينا بعشرات الشباب والفتيات هناك، ثم ثوينا في الدوحة نستقبل العشرات ونمتحنهم. . كل هذا قبل أن يرسو اختيارنا على ستة وثلاثين شاباً وفتاة قام عليهم البرنامج، وبعد إحدى عشرة حلقة، طول الحلقة منها بين الساعة والنصف والساعتين، فاز محمد ياسين صالح بالنصف مليون ريال قطري، وفازت زينب المحمود بثلاثمئة ألف، وفازت غادة تهيمش بمئتي ألف، وفاز أحمد الكلباني بجائزة طيبة. وفزنا نحن أعضاء لجنة التحكيم بلذة الاستماع إلى فصحاء العرب في هذا الزمن. والشاهد في حكايتي كلها أننا، بعد استعراضنا نحواً من ثلاثمئة من شباب العرب، أصبنا بصدمة. فبرنامجنا برنامج نثر، وهو يسعى جاهداً إلى تمييز نفسه عن برامج شبيهة كانت مخصصة للشعر، كنا نريد أن نبرز فصاحة الفصحاء في النثر لا في الشعر. فإذا شباب العرب يتدفقون بالشعر تدفقاً، رغم أنفنا وأنف البرنامج. ووجدنا الكثيرين ممن يتقنون صوغ معانيهم في شعر عمودي. . أكثر بكثير ممن يقولون شعر التفعيلة.

كانت معانيهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم قريبة القرب كله من طريقة شعراء التفعيلة، وكانت في أشعارهم رقة وشموخ وتمرد الشعر الجديد، لكن معظم ما سمعناه كان شعراً عمودياً. ونظن أن السبب في هذا قرب عهدهم بما حفظوه

في المدارس من الشعر العمودي، ونظن أنهم سيعدلون بشعرهم إلى التفعيلة، وربما إلى قصيدة النثر بعد حين).

رجع الكلام إلى البحتري

تعلَّم البحتري من معاصره علي بن الجهم شيئاً: اجتمع بابن الجهم يوماً، واستعرضا قصيدة لأشجع السلمي فانتقدها ابن الجهم قائلاً: أشجع (يُخلي). ولم يفهم البحتري المقصود بكلمة يُخلي، واستحيا أن يسأل. ذهب إلى بيته، وأمرَّ على ذهنه شعر أشجع. فرآه عادياً لا يكاد يمر فيه بيت بديع. فعلم أن هذا هو المراد بكلمة (يخلي). والكلمة تقال لرامي السهام يضل سهمه عن الهدف فيقال إنه أخلى.

على أن البحتري لم يعرف كيف يجعل شعره محكماً مكتنزاً. هو نفسه يخلي كثيراً. تمر بك أبيات كثيرة مغسولة ليس فيها معنى بديع ولا لفظ شريف. وتمر بك قصائد كاملة باردة أو فاترة. ثم يمر بك بيت يجعلك تقف إن كنت قاعداً. وتمر بك قصيدة تجعلك تترنم بأبياتها. ولم يسلم من ذلك أي من الشعراء المداحين. ونعود فنقول: الشاعر بجيده لا برديئه.

طبعات الديوان

قرأت ديوان البحتري بصفحاته التي تزيد عن ثلاثة آلاف ومئتين في طبعة حسن كامل الصيرفي الثالثة (واستفاد في هذه الطبعة من ملاحظات عبد السلام هارون الكثيرة التي بلغت أن ملأت كتاباً نشره هارون). والديوان محقق تحقيقاً ممتازاً لا يدانيه تحقيق لديوان، وأُلحقت به الملاحق والفهارس الكثيرة التي تجعلك تصدِّق ما قال المحقق في المقدمة من أنه أنفق السنين في عمله. وقد فسر الصيرفي بعض الألفاظ، ولكنه ظل يهرب من المعاني الصعبة. ولا نلومه، فهو محقق لا شارح.

وانتفعت بشرح محمد ألتونجي (١٩٩٣) الذي أقر بجهد الصيرفي. ومتن ألتونجي مطابق لمتن الصيرفي. غير أنه شرح معاني الأبيات، وفي شرحه علة: يشرح لك البيت بكلام عام يهمل المعاني الدقيقة، ولا يندر أن يقع في شرحه بعيداً. في هذا الشرح قدر من الكسل. إنه في معظم الأحوال يلخص مغزى البيت ولا يشرحه. ولو كرس ألتونجي من وقته للشرح ما كرسه الصيرفي

للتحقيق لكان بين أيدينا الآن شرح لديوان البحتري يشابه ما بأيدينا من شروح للمتنبي. ولا نلوم ألتونجي كثيراً، فطبعته مضبوطة بالشكل ضبطاً جيداً ومماثلاً لضبط الصيرفي.

وأما طبعة دار صادر فكنت قرأت شعر البحتري القراءة الأولى فيها، وعندما رجعت إليها هذه المرة، لم أجدها تضيف شيئاً. ومثلها في هذا طبعة الجوائب وطبعة هندية، والطبعات البيروتية والمصرية المشتقة منهما. حمانا تضييع الوقت في كل ذلك حسن كامل الصيرفي، فطبعته جوف الفرا، تحتوي كل ما عداها وتزيد زيادة وافرة.

إذن ما فضيلة كتابنا هذا؟

له فضيلتان: الاختيار والشرح. فقد تعمقت روح البحتري. عشت معه، وعشت مع نقاده، مع الآمدي في كتاب الموازنة بين الطائيين بأجزائه الثلاثة، ومع المرزباني وأبي الفرج الأصفهاني وابن خلكان وياقوت وابن الأثير، والقاضي الجرجاني في اختياراته. وقرأت ما كتب المحدثون عن البحتري: مارون عبود، والمقدسي، وشلق، وشرف الدين. ولطه حسين فصل طيب عن شاعرنا، ولزكي مبارك موازنة مدرسية بين سينية البحتري وسينية شوقي. ورأيت رسالتين جامعيتين عن البحتري أُسدِلُ على صاحبيهما ستر الله، وأحتسب عنده الساعات التي قضيتها وأنا أفتش فيهما عن رأي أو معلومة مفيدة.

ولم أُعِد قراءة حماسة البحتري، وكنت قرأتها قبل نحو من ثلاثين سنة. لم أرد أن أجدد معرفتي بذوق البحتري في الشعر، فموضوعي هو شعر الرجل وكيف تذوَّقَه الناس في عصره وبعد عصره. على أنني تصفحت الكتاب بطبعة شيْخو حتى لا يكون فاتني فيه شيء. واستفدت، عرفت شيئاً عن ثقافة الرجل الشعرية.

أقول، عشت في جو البحتري زمناً. ثم أقبلت على شعره، أقرأه من جديد بذوق أرهفته آراء القدامى والمحدثين دون أن تستولي عليه. قد فات زمنٌ أن يستولي على ذوقي أحد. واخترت لك ما قاله البحتري من قلْبه، واخترت ما قاله بفن وصنعة. اخترت ألف بيت تزيد قليلاً، هي خير ما قال شاعرنا.

هذا عن الاختيار.

ثم إنني شرحت الأبيات التي اخترتها شرحاً مفصلاً. ثم رتبت الشعر كله ترتيباً زمنياً. فأنت تقرأ كتابي هذا وتمضي مع البحتري وتراه شاباً فرجلاً

فشيخاً، واستعنت في هذا بتواريخ تقريبية اجتهدها محقق الديوان الصيرفي. على أن محققنا تحير في المقطعات الغزلية فرماها في صبا البحتري رمْيَ الثمامة.

وقد شكلتُ الأبيات وطبعت الشروح بنفسي على الحاسوب، ثم راجعت كل ذلك مرات كثيرة إلى أن أصبحت أشتهي أجدُ غلطة. لكنها موجودة. لا بد أنها موجودة. فإن عثرت عليها ففرحتك بلقياها مكافأتك. وبعد هذا وضعت لكل قطعة عنواناً حتى يكون لها اسم تتسمى به، ثم رقماً لأجعله المعتمد في الفهرسة. على أنني تركت السطر الذي يصف كل قصيدة على حاله في معظم الأحيان. ثم كتبت هذه المقدمة.

وسأمضي الآن إلى فهرسة الكتاب. وستجد في ذيله فهرساً للقوافي، وكشافاً لأغراض الشعر، وفهرساً عاماً لمحتويات الكتاب.

الدوحة ١٩ مارس/ آذار ٢٠١٠

ملحق بالمقدمة:

ضحك إليَّ الزمن في سبتمبر أيلول ٢٠١٥، عندما بعثت إلى صديقي اللغوي المدقق أحمد عبد الرحيم نسخة من مختاراتي البحترية، فأعادها إلي بعد أيام قلائل وبها إشارات بثلاثة ألوان. أشار إلى أخطاء في النحو، وفي الصرف، وفي الرسم، وفي التاريخ، وعارضني في فهم أبيات كثيرة. أعاد إلي النسخة وبها نحو من ألف إشارة. كل هذا بعد أن ذكرت لك في المقدمة أعلاه أنني راجعت كثيراً إلى أن «أصبحت أشتهي أجد غلطة».

كثير من تلك الإشارات كان يتعلق بخلاف بيننا في رسم التنوين أو الكسرة تحت الياء، لكن كثيراً منها كان يتعلق بأخطاء في النحو والإملاء والمعلومات يجب أن تصحح.

قد صححتها.

وقد تعلمت أن أضبط أكثر، وأن أتواضع أكثر. وحملت هماً: فسوف أسير في عملي من الآن فصاعداً ببطء أكبر وشبح أحمد عبد الرحيم ماثلٌ أمامي، فإن تفضل ووضع أقلامه الثلاثة في أشغالي المقبلة فهذا هذا، وإلا سأظل أراها تتقافز أمامي، كسيوف الرشيد المسلولة على أعناق أعدائه، إن أفلتوا منها في صحوهم رأوها في منامهم. ولن يرى القارئ ما صححه لي صاحبي، فهذا قد استتر، ولكنه سيرى أثره في تذوق بعض الأبيات، فقد استجاد أبياتاً بعينها

لم أكن سودتها، فأنا أسودها ذاكراً له يده البيضاء على هذا الباب.

ملحق آخر: ابتسم لي الزمن ثانية في أواسط عام ٢٠١٦ فقرأ هذا الباب ـ وكل أبواب هذا الكتاب ـ صديقي الشاعر عمران القفيني، فكان لهذا الباب قلم رابع تعقب ما بقي فيه من أخطاء.

أقول: إذا كانت أخطائي بهذا القدر، فلماذا لا أريح نفسي وإياكم، وأترك هذا العناء كله؟ على أنني اخترت أن أجتهد. اخترت أن أتعلم من صديقين يصغرني أحدهما بعشرين، والثاني بثلاثين.. ليتها كانت من الأشهر.. هي من السنين. ولعلي أفتخر أنني شخت وما زلت أتعلم. على أن ما سأنجزه من أبواب وكتب من بعد سيكون أفضل ضبطاً.. قد تعلمت كثيراً.

١ أمجاد بحتر

قال البحتري في صباه الباكر:

تُحَمِّلُنِي الأيَّامُ ما لا أُطِيقُهُ وتَحْمِلُنِي منها على مَرْكَبٍ وَعْرِ

الزمن يحمّلني ما لا طاقة لي به، ثم يجعلني أركب بعيراً صعباً هو مصائب الزمن. فأنا على هذا حامل الصعب، محمول على الصعب في آن معاً

بَنو بُحْتُرٍ قَومِي، ومَنْ يَكُ بُحْتُرٌ أَبَاهُ يَكُنْ في مُنْتَهَى المَجْدِ والفخرِ

وما نحنُ إلا كالقَضاءِ، فإنَّنا ضربْنَا جميعَ الناسِ بالخيرِ والشرِّ

بنو بحتر مثل القضاء يصيبون الناس بالخير وبالشر. وكان الشاعر القديم يفتخر بأن قومه نفّاعون ضرّارون، المهم أن يكونوا ذوي أثر، ولهم احترام وهيبة

أَبَدْنَا جُموعَ الرومِ حينَ تَنازَعَتْ فَوَارِسُنا الهيْجَاءَ في وَقعةِ الجِسرِ

أبدنا جموع الروم إبادة بعد أن تداول فوارسنا (فرساننا) الهيجاء (الحرب) في وقعة (معركة) الجسر. لا بد أن تكون هذه وقعةَ الجسرِ المشهورةَ في زمن عمر (سنة ١٣ ـ ١٤هـ)، فالبحتري يذكر الوقعة في قصيدة له أخرى ويصرح فيها باسم «عمر»: (وولِيُّ فتحِ الجسرِ إذ أُغرِيَ به//عمرٌ، وفاعلُ تلكُمُ الفَعَلاتِ)، ووقعة الجسر تلك حارب فيها رجال من طيء، قبيلة البحتري. وغريب هنا أمران: أولهما أن وقعة الجسر كانت مع الفرس لا مع الروم، وثانيهما أن العرب هُزموا فيها، فلا موضع للفخر. على أن هناك موضعاً قرب منبج، بلدة البحتري، اسمه (جسر منبج)، ومنبج على حدود دولة الروم. ها مسألةٌ لمؤرخ أدب يحلها ويكتب فيها مقالاً، أو أطروحة، فتاريخ الأدب في جامعات العرب قد آل إلى أوراقٍ تافهة يكتبها تلامذة خائبون وينالون عليها الدرجات الرفيعة، ثم يحتلون كراسي التدريس في الجامعات ليعيدوا إنتاج خيبة أساتذتهم، هابطين عنهم دركة. ولعلك تريد أن تنصب (فوراسنا) على المفعولية فتكون الهيجاء قد تنازعتهم وطحنتهم في وقعة الجسر مع الفرس

سَمَوْنَا لـهـمْ فـي عُـصْـبـةٍ بُـحْـتُـرِيَّـةٍ   يَكُرُّونَ؛ ليْسوا يَعْرِفونَ سِوَى الكَرِّ

سمونا (برزنا) للأعداء في عصبة (جماعة) يكرون (يهجمون)، ولا يعرفون سوى الهجوم

لَنَا حَسَبٌ لو كان لِلْشَّمْسِ لم تَغِبْ   ولِلْبَدرِ ما اسْتَولَى المَحَاقُ على البَدْرِ

لنا حسب (مجد) لو كان للشمس مثله لما غابت في الليل، ولو كان للبدر مثله لما لحق به المحاق

فَـأَبْـخَـلُـنَـا بـالـمـالِ نِـدٌّ لِـحَـاتِـمِ   وأَجْبَنُنَا في الرَّوْعِ أَشْجَعُ مِنْ عَمْرِو

أبخلُ شخص في فرع بحتر من قبيلة طيء ندٌّ (مساوٍ) لحاتم الطائي المشهور بجوده، وأكثرنا جبناً أشجع في الروع (الحرب) من عمرو بن مَعْدِيكَرِب الفارس المشهور

٢ مخصوص بالهوى

طافَ الهَوى بَينَ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمُ   حتَّى إذا مَرَّ بي مِنْ بَيْنِهِمْ، وقَفَا

قد قلتُ لمَّا رأَيْتُ الموتَ ينزِلُ بي   وكاد يَهتِفُ بي نَاعِيَّ، أو هَتَفا:

إنِّـي لأَعْـجَـبُ مِـنْ قَـلْـبٍ يُـحِـبُّـكُـمُ   ومـا يَـرى مِـنْـكُـمُ وُدّاً ولا لُـطُـفَـا

٣ الهدف بناتهم

لَـعَـمْـرُكَ مـا يَـنْـفَـكُّ يَـخْـطِـرُ بـيْـنَـنـا   مع الرُّومِ حَرْبٌ بِالقَنَا والمَنَاصِلِ

القنا (الرماح)، المناصل (السيوف)

نُـقَـارِعُـهُـمْ بِـالـمـوتِ دونَ بَـنـاتِـهِـمْ   مُقَارَعَةَ الأُسْدِ الغِضَابِ البَواسِلِ

كان السبي فاشياً بين الطرفين في حروب تلك الأزمنة. وقد سبى الروم النساء المسلمات، ولعلهم باعوهن رقيقاً، ولكن المؤرخ والشاعر العربيين صمتا عن ذلك

٤ الدَّلّ

وقدْ وَثِقَتْ بالوَصْلِ مِنْكَ، فَأَصبَحَتْ   تَـزِيـدُكَ بُـعْـداً كُـلَّـمَـا زِدْتَـهـا قُـرْبَـا

٥ يأس وانتظار

سـأَرْحَـلُ عـنـكَ مُـعْـتَـصِـمـاً بِـيـأسٍ   وأَقْـنَـعُ بـالـذي لـيِ فـيـهِ قُـوتُ

سأرحل عنك أيها الأمير معتصماً بيأس (مستعيناً بشعور اليأس من عطائك)، وسأقنع بمجرد الحصول على قوتي

وآمُـــلُ دَوْلَـــةَ الأيَّـــامِ حَـــتَّـــى تـجـيءُ بـمـا أُؤَمِّـلُ، أَوْ أمـوتُ

وسآمل دولة الأيام (تبدل الأيام) حتى تأتيني بآمالي أو يأتيني الموت. واختار المعري في «عبث الوليد» رفع (تجيءُ) فرفعناها. تعليق عمران القفيني: رفعها المعري حتى يرفع أموت معطوفة عليها فلا يقع إقواء

٦ غربة العاشق

أَنـا فـي أُسْـرَتـي وأهـلـي كـأنِّـي بَـيْـنَـهُـمْ، حـيـنَ لا أراكِ، غـريـبُ

أعيش بين أبناء أسرتي ومع أهلي كالغريب عندما لا أراك أيتها المحبوبة

مِـنْ قُـروحٍ نَـبَـتْـنَ فـي كَـبِـدٍ، جَـا دَ عَـلـيْـهـا مِـنَ الـبُـكَـا شُـؤْبـوبُ

هذا بسبب قروح (جراحات) نبتت بكبدي التي جاد (أَمْطَرَ) عليها شؤبوب (زخٌّ) من الدمع

فَـأَهِـيـنـي أو أَكْـرِمـي، فَـلَـعَـمْـري مَـا لأُنْـثَـى سِـواكِ عِـنْـدي نَـصـيـبُ

أهينيني بحبك أو أكرميني، فليس لأنثى غيرك نصيب في قلبي

٧ عذِّبوا

قال في عَلْوَة حبيبة الصِّبا:

فإنْ ساءَكُمْ ما بي مِنَ الضُّرِّ، فارحَمُوا وإِنْ سَرَّكُمْ هـذا الـعـذابُ، فَـعَـذِّبـوا

٨ عندما يحدِّث الحديد الحديد

قال يفتخر بنفسه وبقومه، وهذه عندنا (الفخرية الكبرى):

إنَّـمـا الـغَـيُّ أَنْ يَـكُـونَ رَشِـيـدا فَـانْـقُـصَـا مِـنْ مَـلَامِـهِ، أَوْ فَـزِيـدَا

الغي (الضلال) بالنسبة لهذا العاشق هو أن يكون رشيداً (عاقلاً)، فانقصا أيها العاذلان في لومه أو زيدا (أكثِرا منه)، فهذا لا يهمه

خَـلِّـيَـاهُ وَجِـدَّةَ الـلَّـهْـوِ، مَـا دَا مَ رِدَاءُ الـشَّـبـابِ غَـضّـاً جَـديـدَا

خلياه (أتركاه) مع جدَّة اللهو (اللهو الذي جاء جديداً إلى حياته) ما دام رداء (ثوب) الشباب غضاً (طرياً) وجديداً

إنَّ أيَّـامَـهُ مِـنَ الـبِـيـضِ بِـيـضٌ مَـا رَأَيْـنَ الـمَـفَـارِقَ الـسُّـودَ سُـودَا

أيام هذا العاشق بيضاء سعيدة مع الفتيات الحسان البيض ما رأين (ما دمن يرين) مفرق رأسه الأسود ما زال أسود. الفتيات يحفظن الود شرط ألا يهجم الشيب على رأس الفتى

أيُّها الدَّهْرُ! حَبَّذَا أنتَ دَهْرَاً؛ قِفْ حَمِيداً، ولا تُوَلِّ حَمِيدَا

ما أجملك أيها الزمن! قف وأنت في أزهى حالاتك، ولا تول (لا تنصرفْ) عندما تصل إلى الذروة. ما أكثر ما يردد البحتري هذا المعنى. كلما رأى الزمن حلواً طلب منه أن يقف. وقد أبدع شاعر الكلثومية اليتيمة جورج جرداق عندما ختم كلثوميته بقوله: ملء قلبي شوق، وملء كياني/هذه ليلتي، فقف يا زماني

كلَّ يَوْمٍ تَزْدادُ حُسْناً، فَمَا تَبْـ ـعَثُ يَوماً إلَّا حَسِبْنَاهُ عِيدَا

ما أجمل هذا البيت رديفاً للذي قبله، فاقرأهما معاً وترنم

إنَّ في السِّرْبِ، لَوْ يُساعِفُنَا السِّرْ بُ، شُموسَاً يَمْشِينَ مَشْياً وَئِيدَا

السرب: سرب الجميلات، يساعفنا: يحِنُّ علينا و«يُعَبِّرنا»، وئيداً: بطيئاً

رُحْنَ، واللَّيلُ قد أَقامَ رُوَاقاً، فَأَقَمْنَ الصَّباحَ فيهِ عَمُودَا

رحن (روَّحن بالتعبير العامي، أي انصرفن مساء)، وقد عقد الليل فوق الرؤوس رواقاً (سقفاً) من الظلمة، وبظهورهن كنَّ مثل عمود الصبح (الضوء الساطع في الصبح، بخلاف الضوء الخفيف الذي يسمونه الفجر الكاذب)

بِمَهاةٍ مِثْلِ المَهاةِ، أَبَتْ أنْ تَصِلَ الوصْلَ، أوْ تَصُدَّ الصُّدُودَا

رحن وبرفقتهن مهاة (المحبوبة التي تشبه بقرة وحشية) وهي مثل المهاة حقاً، وقد رفضت أن تصلنا وصلاً حقيقياً، كما أنها لا تصد صدوداً تاماً

ذاتُ حُسْنٍ، لوْ اسْتَزادَتْ مِنَ الحُسْـ ـنِ إلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا

حسناء، لو طلبت زيادة في الحسن (الجمال) لما أصابت (لما وجدت) زيادة تضيفها إلى حسنها

فَهِيَ الشَّمْسُ بَهْجَةً، والقَضِيبُ الـ ـغَضُّ لِيناً، والرِّئْمُ طَوْقاً وجِيدَا

القضيب (الغصن)، الغض (الطري)، الرئم (الغزال)

يا ابنةَ العَامِرِيِّ! كيفَ يَرَى قَوْ مُكِ عَدْلاً أَنْ تَبْخَلِي، وأَجُودَا؟

أجود (أكون جواداً كريماً)

إنَّ قَومِي قَوْمُ الشَّرِيفِ قَديماً وحَديثاً، أُبُوَّةً وجُدُودَا

قومي هم قومُ مَنْ كان قديمه وحديثه شريفاً، هم قوم من كان شريف الآباء والأجداد. لِمَن النحوُ مِنْ هَمِّه: الشريف هنا صفة مشبهة عاملة. والأسلوب يشبه قولك: هؤلاء الرجال هم أبناء العظيم أباً، والأسلوب معوج بعض الشيء. فلو أنه قال أنا الشريف قديماً وحديثاً لكان أقرب إلى الذهن

ذَهَبَتْ طَيِّءٌ بِسَابِقَةِ المجـ ـدِ على العالَمينَ بَأساً وجُودَا

قبيلة طيء نالت سابقة المجد (الأولية، والأسبقية) على كل الناس في البأس (القوة) وفي الكرم

مَعْشَرٌ أَمْسَكَتْ حُلومُهُمُ الأر ضَ، وكادتْ مِنْ عِزِّهِمْ أنْ تَمِيدَا

حلومهم (عقولهم الراجحة) راسخة كالجبال وقد ثبَّتت الأرض في مكانها، ولكن هذه الأرض كادت من عزهم (قوتهم) أن تميد (تتزعزع). والعربي في صحرائه يرى كثبان الرمل تتحرك ويتخيل أن الجبال هي التي تمسك الأرض، ويشبهون الحلوم أو الأحلام (العقول الرزينة) بالجبال. وعندما تجرأ أبو تمام وشبَّهَ الحلوم بشيء غير الجبال قامت عليه قيامة النقاد القدامى

نَزَلُوا كاهِلَ الحِجازِ، فَأَضْحَى لَهُمُ ساكِنُوهُ طُرّاً عَبِيدَا

نزل قومي من طيء كاهل (ظهر) الحجاز، قادمين من اليمن، وجعلوا سكانه طُرّاً (جميعاً) عبيداً لهم

مَنْزِلاً قَارَعُوا عَلَيْهِ العَمَالِيـ ـقَ، وعَاداً في عِزِّها، وثَمُودَا

اتخذوا الحجاز منزلاً (بلداً) وقارعوا (نافسوا) عليه العماليق (القوم الكبار الأجسام الذين قيل إنهم سكنوا الجزيرة قبل العرب)، ونافسوا قوم عاد وقوم ثمود

ولُيُوثٌ مِنْ طَيِّءٍ وَغُيُوثٌ لَهُمُ المجدُ طَارِفاً وتَلِيدَا

الليوث (الأسود)، الغيوث (الأمطار)، الطارف (الجديد)، التليد (الموروث)

فإذَا المَحْلُ جاءَ، جَاءُوا سُيُولاً وإذا النَّقْعُ ثارَ، ثارُوا أُسُودَا

المحل (القحط) النقع (الغبار، يقصد غبار المعركة)

يَحْسُنُ الذِّكْرُ عَنْهُمُ والأَحادِيـ ـثُ، إذا حَدَّثَ الحَديدُ الحَديدَا

ذِكرهم والحديث عنهم حسن، ولا سيما عندما يتكلم الحديد مع الحديد (عندما تشتبك السيوف في المعركة)

عَدَلُوا الهَضْبَ مِنْ تِهامَةَ أَحْلا ماً ثِقَالاً، ورَمْلَ نَجْدٍ عَدِيدَا

عدلوا (ساووا) الهضب (المرتفعات) من جبال تهامة بأحلامهم الثقيلة (عقولهم الراجحة)، وساووا حبات رمل نجد في كثرة عددهم

مَلَكُوا الأرضَ قبلَ أنْ تُمْلَكَ الأَرْ ضُ، وقَادُوا في حَافَتَيْها الجُنودَا

قبل أن يملك الفرس والروم الأرض ملكها بنو طيء، وقادوا الجنود في حافتيها. [أرض البحتري قطعة مستوية لها حافتان. ولم يُلْقِ أبو عبادة بالاً للفرغاني الذي كوَّر الأرض قبل سنَيِّهات قلائل (في عصر المأمون، عندما كان عمر البحتري ١١ سنة، كتب الفرغاني كتابه «الحركات السماوية وجوامع علم النجوم»). وائتم بأرقام الفرغاني (سموه ألفراغانوس باللاتينية) بعد بضع مئات من السنين كولومبوس خالطاً بين الميل العربي والميل الروماني. وفي كتاب لنا بعنوان «جولة في خريطة العالم السياسية» أوردنا أن يحيى بن أبي منصور قاس، في عهد المأمون أيضاً، محيط الكرة الأرضية بدقة مدهشة]

وجَرَوْا، عِنْدَ مَوْلِدِ الدَّهْرِ، في السُّؤْ دَدِ والـمَـكْـرُمَـاتِ شَـأْوَاً بَـعـيـدَا

قبيلة طيء، كما يخبرنا البحتري، كانوا ثَمَّ عند مولد الزمان، وجروا في حلبة (ميدان الخيل) السؤدد (السيادة) والمكرمات شأواً (شوطاً) بعيداً

سَائِلِ الدَّهْرَ مُذْ عَرَفْنَاهُ: هَلْ يَعْـ ـرِفُ مِنَّا إلّا الـفَـعَـالَ الـحَـمِـيـدَا؟

سائل (اسأل) الزمن منذ أن عرفناه، هل رأى منا سوى الفعال الحميد (الأمجاد)

قَدْ، لَعَمْرِي، سُدْنَاهُ كَهْلاً وشَيْخَاً وشَـبِـيـبَـاً ونَـاشِـئَـاً وَوَلِـيـدَا

كانوا سادة الزمن في كل مراحله

نُحْنُ ـ أَبْناءَ يَعْرُبٍ ـ أَعْرَبُ النَّا سِ لِسَـانـاً، وأَنْضَـرُ الـنَّـاسِ عُـودَا

نحن ـ أعني أبناء يعرب (ويعرب جد العرب العاربة القحطانيين/ وطيء قبيلة قحطانية يمنية) ـ أعرب (أفصح) الناس لساناً، وأنضر الناس عوداً (غصناً). في البيت فخر قحطاني على العدنانيين، والكتب المدرسية تجعله فخراً عربياً عاماً

وكَـأَنَّ الإلـهَ قـالَ لـنَـا: فـي الـ ـحَرْبِ كونُوا حِجَارَةً أو حَديدَا

من الآيتين: (وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنَّا لمبعوثون خلقاً جديدا/ قل كونوا حجارة أو حديدا)، وأخذ أبو عبادة أخذاً حلواً. **هذه القصيدة**: هذا البحتري في أفصح حالاته، وأخذنا معظم أبيات هذه القصيدة. وفيها عربيته الصافية القوية الفخمة، وفيها حرارة شاعريته وتدفق عصبيته، وفيها أيضاً ما أخذه من أبي تمام من الخروج إلى المجاز، وجعْل اللغة ترقص. وفيها خيال وشطح معجبان. وإن يكن حقاً أنه قالها وهو في السادسة عشرة من عمره، وهذا ينقله الصيرفي عن مصدر قديم ويطلب إلينا تصديقه، فتلك العجيبة الثامنة. البحتري شيطان شعر وفصاحة. ثم إن أبا الغوث بن الوليد (ابن البحتري) قال للصولي ـ الذي رواها في كتابه «أخبار البحتري» ـ: (من أول أشعار أبي قوله وهو حدث يفتخر: إنما الغي أن يكون رشيدا)، فهي من أوائل أشعاره، وكان زمانئذ (حدثاً). والحدث هو الشاب والغلام، في وصف صاحب اللسان

٩ اعصِ.. واخضع

اِقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرا إنْ بَرَّ عِندكَ فيما قالَ، أو فَجَرا

اقبل معاذير (أعذار) المعتذر، سواءٌ أبرَّ (أصدَقَ) أم فَجَرَ (كذب)

فقد أطاعَكَ مَنْ أرضاكَ ظَاهِرُهُ   وقد أجَلَّكَ مَنْ يَعصِيكَ مُسْتَتِرا

فمجرد تظاهره بالسعي لإرضائك يعني أنه مطيع لك، والذي يخالفك في السر يجلك ويجد في نفسه هيبتك. ويروي الصيرفي البيت واضعاً كلمة «أضلك» مكان أجلك. ويصر عليها. وقد وجدها «أجلَّك» في كتاب «عين الأدب والسياسة» فعلق في الحاشية: «هذا تحريف وصوابه «أضلك» فأي ضلال في فهم الشعر هذا! وتابعه في هذا الضلال محمد ألتونجي. ولم ترد الأبيات لا في طبعة هندية للبرقوقي، ولا في طبعة الجوائب. على أنها وردت في كتب كثيرة منها السمط والعقد مع اختلاف في الرواية، فبعضهم جعل «أطاعك» في المصراع الثاني، وهذا يقوم بحق الذوق الأدبي. ولم يتعرض لهذه الهنة عبد السلام هارون في نقده للصيرفي، فهو وقف دون حرف الراء بكثير في نقد تحقيق الديوان. ونحن اخترنا ألا نأخذ الصيرفي بأغلاطه التي أخذه بها هارون. انظر المزيد عن نقد هارون في أثناء شرحنا القصيدةَ المقبلة

خَيْرُ الخَلِيلَيْنِ مَنْ أَغْضَى لِصَاحِبِه   ولو أَرَادَ انْتِصاراً مِنْهُ لانْتَصَرا

خير صاحبيك الذي يغضي (يتغاضى) عن ذنبك، في حين أنه لو أراد الانتقام لوسعه ذلك. «خير الخليلين»: أسلوب في التعبير يفترض وجود نوعين متضادين من الجنس نفسه، كأن تقول: (شر الأميرين المتعجل بالعقاب)

١٠ الفرح بالإبداع

إنْ تَرَيْنِي تَرَيْ حُسَاماً صَقِيلاً   مَشْرَفِيّاً مِنَ السُّيُوفِ الحِدَادِ

مشرفياً (سيفاً)، الحِداد (الحادَّة)

ثَانِيَ اللَّيْلِ، ثَالِثَ البِيدِ والسَّيْـ   ـرِ، نَدِيمَ النُّجُومِ، تِرْبَ السُّهَادِ

ثاني الليل (أي مصاحباً للَّيل، فالليل أوَّل وأنا ثانيه)، وثالث البيد (الصحارى) والسير، وجليس النجوم في ليل الصحراء، وترب (قرين) السهاد (السهر)

كُلِّمَ الخَضْرُ لي، فَصَيَّرَنِي بَعْـ   ـدَكِ عَيْناً على عِيَارِ البِلادِ

كَلَّم بعضُهم الخَضِرَ (النبي الجوال المستور) لي (بشأني/ توسط لي) فجعلني بعد فراقِكِ أيتها المحبوبة عيناً (رقيباً) على عيار البلاد (نظام البلاد). يقول: إنه صار بعد انقضاء الهوى جوالاً كثير الأسفار. ولعمري لَلإخفاق في الحب يزعج المرء إلى غربة بعد غربة. خص عبد السلام هارون في نقداته المئة والأربع والتسعين على تحقيق الصيرفي لديوان البحتري هذا البيت بنقدةٍ. يريد هارون أن يكون معنى عيار البلاد (كثرة الانفلات والمجيء والذهاب في الأرض). وله سند في لسان العرب، وهو لم يقصر في تعضيد رأيه بأكثر مما جاء في لسان العرب، على أنه لم يجعلني أرى المعنى الذي أراد، وإن شككني. وقد كتب عبد السلام هارون مئة صفحة في نقد الجزء الأول من تحقيق الصيرفي لديوان البحتري. وهذه الصفحات المئة شاهد على فحولة هارون، وتمكنه من أدب العربية ولغتها على نحو يرفعه درجات فوق من عاصره. وقد عاش ومات لا يعرفه سوى قلة من مدمني العربية وحَرَسها المخلصين. وله في التحقيق والتأليف مئة وواحد وعشرون كتاباً ليس كمثلها شيء. وما مضى هارون إلا وقد حقق لنا جل المتوفر من كتب الجاحظ. وكنت أتمنى لو كان حقق كتب الشعر، لأنه كان في الشعر علامة قل نظيره

لَـيْـلَـةً بِـالـشَّـآمِ، ثُـمَّـتَ بِـالأَهْـ ـوَازِ يَـوْمـاً، ولَـيْـلَـةً بِـالـسَّـوَادِ

أقضي ليلة بالشام، ثم يوماً في الأهواز (في إيران، على حدود عراق اليوم)، وليلة بالسواد (ما بين النهرين بالعراق)

وَطَنِي حَيْثُ حَطَّتِ العِيسُ رَحْلِي، وذِرَاعِـي الـوِسَـادُ، وَهْـيَ مِـهَـادِي

شردني هواك المبتور فصرت بلا وطن؛ وطني أي مكان تحط الجِمال فيه رحلي (متاعي) عن ظهورها، ووسادتي ذراعي، وذراعي هي مِهادي (فراشي) أيضاً

لـي مِـنَ الـشِّـعْـرِ نَـخْـوَةٌ واعْـتِـزَازٌ وهُـجُـومٌ عـلـى الأُمـورِ الـشِّـدَادِ

رأسمالي شعري، وبه تقوى نفسي وأُقْدم على الأمور الصعبة

فـإذا مَـا بَـنَـيْـتُ بَـيـتـاً تَـبَـخْـتَـرْ تُ، كَـأَنِّـي بَـنَـيْـتُ ذَاتَ الـعِـمَـادِ

فإذا قلت بيتاً من الشعر تبخترتُ معتزاً به كأنني بنيت ذات العماد (إرم ذات العماد: مدينة ذات جمال أسطوري وصفها القرآن، وخسفها الله خسفاً) لا يفوتنك ما في هذا البيت من جمال. يجعل البحتري بيت الشعر يُبنى بناء، لا يُقال قولاً. وفي هذا البيت تعبير عن لذة الخلق. يصحو الشاعر من نومه ملهوفاً على أبيات قالها في الليلة الفائتة، يسترجعها في ذاكرته، أو في ورقته، وينبض قلبه بحب المولود الجديد نبضاً يعرفه المبدع الفنان. لعل هذه اللهفة هي الخط الفاصل بين الفنان والحرفي

أَوْ كَـأَنِّـي أَحُـوكُ حَـوْكَ زِيَـادٍ أَوْ كَـأَنِّـي أَبـو دُؤَادَ الإِيَـادي

كأني أحوك (أنسج) القصيد حوك زياد (النابغة الذبياني)،
أو كأني أبو دؤاد الإيادي (الشاعر الجاهلي)

لـي مُـعِـيـنَـانِ: هِـمَّـةٌ واعْـتِـزَامٌ تِـلْـكَ مِـنْ طَـارِفِـي، وذا مِـنْ تِـلادي

لي مساعدان: همة (طموح) وعزم؛ فالطموح هو طارفي (جديدي، أي مما اكتسبته أنا)، والعزم تلادي (موروثي)

لـي نَـديـمـانِ: كَـوكـبٌ وظَـلامٌ، لا يَـخُـونَـانِ صُـحْـبَـتـي ووِدَادي

لـي مِـنَ الـدَّهـرِ كُـلَّ يَـومٍ عَـنَـاءٌ: فُـرْقَـتـي مَـعْـشَـرِي، وقِـلَّـةُ زَادي

كل يوم يعاني من الغربة ومن الفقر

١١ لذة الشهرة

إنَّ شِـعْـرِي سـارَ فـي كُـلِّ بَـلَـدْ واشْـتَـهَـى رِقَّـتَـهُ كُـلُّ أَحَـدْ

قُـلْـتُ شِـعْـراً فـي الـغَـوانـي حَـسَـنـاً تَـرَكَ الـشِّـعْـرَ، سِـواهُ، قَـدْ كَـسَـدْ

١٢ سيوف بلا رجال

قال يرثي قومه:

أَبَـعْـدَ «مُـبَـشِّـرٍ» و«أبـي عُـبَـيْـدٍ» و«مَعْيُوفِ» الـمَكَـارِمِ والـمَعَـالـي
وبَـعـدَ أبـي «أَبـي الـعَـطَّـافِ» أرْجُـو وفَـاءَ الـدهـرِ، أو عَـهْـدَ الـلَّـيـالـي؟
وَرِثْـتُ سُـيوفَـهُـمْ، ومَضَـوْا كِـرامـاً، ومَـا نَـفْـعُ الـسـيـوفِ بِـلا رِجَـالِ؟

التسويد لصديقي ومصححي «أحمد عبد الرحيم»، وأنا: موافق

١٣ لا أستطيعها

ونَـدِيـمٍ حُـلْـوِ الـشَّـمَـائِـلِ كـالـدِّيـ ـنارِ، مَحْضِ النِّجَارِ، عَذْبٍ مُصَفَّى

الشمائل (الصفات)، كالدينار (حتى الآن بعضهم يشبّه الشخص الجيد بالليرة الذهب)، محض النجار (خالص الأصل)

لـم أَزَلْ بِـالـخِـدَاعِ أَسْقِـيـهِ، حَـتـى وَضَـعَ الـكَـأْسَ مَـائِـلاً يَـتَـكَـفَّـا

يتكفّا (يتمايل)

قلتُ: عبدَ العزيزِ! تَفْدِيكَ نفسي، قالَ: لبَّيْكَ، قلتُ: لَبَّيْكَ أَلْفَا
هَاكَها. قال: هَاتِها. قلتُ: خُذْها قـال: لا أَسْتَطِيعُها، ثم أَغْفَى

هاكها (خذها)

لم يقل أحد في أدب المنادمة أجمل ولا أرق ولا أحلى من هذه الأبيات.
ورغم الظاهر من نثرية الحوار فالموقف كله يغلي بالشعر غلياناً. هذا شاعر يصف موقفاً مع صديق أو ربما حبيب له. وأغلب ظني أن البحتري ينقل ما حدث نقلاً كما لو بكاميرا فيديو. وسَبَكَ الموقف سبكاً بديعاً

١٤ تمرين في الاستطراد

يمدح مالك بن طوق التغلبي:

فَـتَـىً شَـقِـيَـتْ أمـوالُـه بِـسَـمَـاحِـهِ كَـمَـا شَـقِـيَـتْ بَـكْـرٌ بِـأَرْمَـاحِ تَـغْـلِـبِ

هذا الفتى أمواله شقيت (تعذبت) من سماحه (كرمه) كما شقيت قبيلة بكر برماح قبيلة تغلب، والممدوح تغلبي. وقد اتكأ البحتري على المدح ليخرج إلى هجاء طرف آخر، وهذا أسلوب الاستطراد في الشعر ـ كما سماه أبو تمام وبصَّر البحتريَّ به

١٥ حيَّ على الرحيل

يمدح مالك بن طوق:

مـا لـيِ ولِـلأيَّـامِ! صَـرَّفَ صَـرْفُـهـا   حـالـيِ، وأكْـثَـرَ فـي الـبِـلادِ تَـقَـلُّـبـيِ

صرف صرفها (بدلت حوادثها)، تقلبي (تنقُّلي)

فـأكُـونُ طَـوْرَاً مَـشْـرِقـاً لِـلـمَـشْـرِقِ الـ   أَقـصـىَ، وطَـوْراً مَـغـرِبـاً لِـلـمَـغْـرِبِ

أكون في أقصى المشرق فأكون شرقاً له، وأكون كالمغرب بالنسبة للمغرب/ يقول إنه يذرع البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب

وإذا الـزمـانُ كَـسـاكَ حُـلَّـةَ مُـعْـدِمٍ   فَـالـبَـسْ لـهُ حُـلَـلَ الـنَّـوَى، وتَـغَـرَّبِ

إذا ألبسك الزمان حلةَ (ثوبَ) معدِم (فقيراً)، فالبس حلل (أثواب) النوى (الفراق)، وتغرَّبْ

كان أبو تمام حبب المرء في الرحيل قائلاً: (ألم تر أن الشمس زيدت محبة/إلى الناس أنْ ليست عليهم بسرمد)، وهذا البحتري يتدرب على معاني أبي تمام، وليس معه شمسه. ستشرق شمس البحتري فيما بعد، وسيؤسس لنفسه طريقة. امض في المطالعة

١٦ مجد مرفوع مع رفع السماء

يمدح أحمد بن إبراهيم الأزدي:

الـلَّـهُ أكْـسَـبَـكَ الـمَـحَـامِـدَ مُـكْـمِـلاً   لَـكَ كُـلَّ إنْـسَـانِـيَّـةِ الإنْـسَـانِ

رَفَـعَ الـسَّـمَـاءَ ومَـجْـدَ فَـخْـرِكَ، قَـبْـلَ أنْ   يَـبْـدا بِـوَضْـعِ الأرْضِ والـمِـيـزَانِ

يبدا: يبدأ، جاء في الذكر: «والسماء رفعها ووضع الميزان» الرحمن ٧

إنِّـي أتَـيْـتُ مُـوَدِّعَـاً؛ وأقُـولُ: لـو   لـم آتِ فَـضْـلَـكَ طَـالِـبـاً، لأتَـانـيِ

١٧ خير المجانين

يهجو دحمان بن نهيك:

أُمْـرُرْ على (حَلَبٍ) ذَاتِ الـبَـسـاتِـيـنِ   والـمَـنْـظَـرِ الـسَّـهْـلِ، والـعَـيْـشِ الأفَـانِـيـنِ

مـا كـانَ فـي عُـقَـلاءِ الـنَّـاسِ لـيِ أمَـلٌ   فـكـيـفَ أمَّـلْـتُ خَـيْـراً فـي الـمَـجَـانِـيـنِ؟

لا تَـفْـخَـرَنَّ، فَـلَـمْ يُـنْـسَـبْ أبُـوكَ إلـى   بَـهْـرَامِ جُـورٍ، ولا بَـهْـرَامِ شُـوبِـيـنِ

يستعرض البحتري معرفته بتاريخ الفرس: بهرام جور هو بهرام الخامس الساساني الذي انتهى حكمه عام ٤٣٨م، وبهرام شوبين هو بهرام السادس الذي حكم سنةً انتهت في عام ٥٩١م، لكنه كان قائداً مهماً قبل اغتصابه الملك

١٨ أنا والذئب والصحراء

إذا جُزْتَ صَحْرَاءَ الغُوَيْرِ مُغَرِّباً   وجَازَتْكَ بَطْحَاءُ السَّوَاجِيرِ يا سَعْدُ

إذا تخطيت صحراء «الغوير»، وأصبحت وراءك بطحاء السواجير
(مسيل الماء عند نهر الساجور قرب منبج) يا سعد..

فَقُلْ لِبَنِي الضَّحَّاكِ: مَهلاً، فإنَّني   أَنا الأُفْعُوَانُ الصِّلُّ، والضَّيْغَمُ الوَرْدُ

.. فقل لبني الضحاك (قبيلة الحسن بن رجاء): إنني أنا، البحتري، الأفعوان الصل (الثعبان الخبيث)، والضيغم الورد (الأسد المحمر اللون)

يَوَدُّ رِجَالٌ أَنَّني كنتُ بَعضَ مَنْ   طَوَتْهُ المنايَا، لا أَرُوحُ ولا أَغْدُو

بعض أعدائي يودون أن الموت طواني وأصبحت لا رواح ولا مجيء لي على ظهر الأرض

ولَيلٍ كَأَنَّ الصُّبْحَ في أُخْرَياتِهِ   حُشَاشَةُ نَصْلٍ ضَمَّ إِفْرِنْدَهُ غِمْدُ

ورب ليل كأنه في أواخره حشاشة نصل (بقية سيف) بقيت ظاهرة تلمع
وقد دخل معظم إفرند السيف (صفحته) في الغمد. يشبه بداية الشروق بنصل سيف
خرج قليلاً من غمده

تَسَرْبَلْتُهُ، والذِّئْبُ وَسْنَانُ هَاجِعٌ   بِعَيْنِ ابنِ لَيْلٍ ما لَه بِالكَرَى عَهْدُ

هذا الليل تسربلته (لبسته)، بينما الذئب وسنان (ناعس) هاجع (راقد) بعين ابن ليل (لص) ليس له عهد قريب بالكرى (النوم). فالذئب نائم بعين لص، أي نصف نائم وآخذ حذره

وأَطْلَسَ مِلءِ العَيْنِ يَحْمِلُ زَوْرَه   وأَضْلاعَهُ، مِنْ جَانِبَيْهِ شَوًى نُهْدُ

ورب ذئب أطلس (مغبر اللون كالتراب) يملأ العين مهابة، يَحمل زورَه (أعلى صدره) وأضلاعَه (عظام قفصه الصدري) شوى (قوائم) نهد (مرتفعة). [أظن هذا هو المعنى]

لَهُ ذَنَبٌ مِثْلُ الرِّشَاءِ يَجُرُّهُ   ومَتْنٌ كَمَتْنِ القَوْسِ أَعْوَجُ مُنْأَدُّ

له ذنب مثل الرشاء (الحبل) يجره جراً على الأرض،
ومتن (ظهر) كمتن القوس أعوج منأدّ (معوج)

طَوَاهُ الطَّوَى حتى استَمَرَّ مَرِيرُهُ   فَمَا فيهِ إلَّا العَظْمُ والرُّوحُ والجِلْدُ

طواه الطوى (أرهقه الجوع)، حتى استمر مريره (اشتد عزمه)،
فلم يبق فيه إلا العظم والجلد.. والروح. وإضافة (الروح) إلى العظم
والجلد من بدائع البحتري

يُقَضْقِضُ عُصْلاً في أَسِرَّتِها الرَّدَى كَقَضْقَضَةِ المَقْرُورِ أَرْعَدَهُ البَرْدُ

يقضقض عصلاً (يقعقع بأنيابه المعوجة)، وفي أسرَّة هذه الأنياب (في حُزوزها) يقبع الردى (الموت)، وهو في قعقعته بأنيابه يشبه المقرور (البردان) الذي يرتعش من البرْد. لو كان طه حسين نقد هذا البيت لقال: «واسمعه يصف ذئباً يحرّق أنيابه واسمعه يشبهه بإنسان مقرور، خَصِرٍ، تصطك أسنانه اصطكاكاً متصلاً متتابعاً لا يكاد ينقطع، وردِّد على نفسك أو على جليسك إن كان لك من تجالس كلمة واحدة؛ أو قلها في قلبك واجعل أذنك تسمعها أو كأنها تسمعها؛ لا إخالك إلا عرفت الكلمة التي إليها أقصد وإياها أعني. إنها كلمة (كقضقضة). انظر في حروفها كيف تخرج من كل مخرج يخرج منه حرف، وتأمل هيأتك وأنت تجاهد فمك في إخراجها جهاداً. وأنا زعيم لك أنْ ستحسُّ في جسمك رِعدة المقرور»، نعتذر عن محاكاة طه، فهو في حديث الأربعاء وقف قبل عصر البحتري بقليل، وإن قال إن خير ما قاله البحتري كان في مدح المتوكل

سَمَا لي، وبي مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ مَا بِهِ، بِبَيْدَاءَ لم تُحْسَسْ بِهَا عِيشَةٌ رَغْدُ

سما لي (برز إليَّ) - وبي مثل ما به من شدة الجوع - في بيداء لم يشعر الناس فيها قط بعيشة رغد (هنيئة)

كِلانَا بِهَا ذِئْبٌ يُحَدِّثُ نفسَهُ بِصَاحِبِه، والجَدُّ يُتْعِسُهُ الجَدُّ

كلانا في هذه البيداء ذئب يحدث نفسه بصاحبه (يبيِّت الغدر بصاحبه)، والجد (الحظ) يتعسه الجد (يغلبه حظ مضاد له)، أي أن المسألة مسألة حظ: من سيقتل الآخر ويفوز بلحمه؟

عَوَى ثُمَّ أَقْعَى، فارتَجَزْتُ، فَهِجْتُهُ فَأَقْبَلَ مِثْلَ البرقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ

عوى الذئب ثم أقعى على قائمتيه الخلفيتين، فارتجزت (قلت أشطاراً حماسية من الرجز)، فهجته (هيجته)، فأقبل علي سريعاً كالبرق، عاوياً بصوت كالرعد

فَأَوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ تَحْسَبُ رِيشَهَا على كَوكَبٍ يَنْقَضُّ واللَّيْلُ مُسْوَدُّ

فأوجرته خرقاء (ألقمته حربة غير صائبة) كأنها - والريش بذيلها - كوكب يهوي في سواد الليل

فَمَا ازْدَادَ إلَّا جُرْأَةً وصَرَامَةً، وأَيْقَنْتُ أنَّ الأمرَ مِنْهُ هَوَ الجِدُّ

فزاده ذلك جرأة وصرامة، وتأكدت أنه جاد في مهاجمتي

فأَتْبَعْتُها أخرى، فَأَضْلَلْتُ نَصْلَها بِحَيْثُ يكونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ

فأتبعت الحربة الأولى بأخرى صائبة، فانغرس نصلها في مكان اللب (الفَهْم) والرعب والحقد (أي في القلب)

فَخَرَّ، وقد أَوْرَدْتُهُ مَنْهَلَ الرَّدَى، على ظَمَأٍ؛ لَوْ أَنَّهُ عَذُبَ الوِرْدُ

فخر (فوقع) صريعاً - بعد أن جعلته يرد منهل (مورد) الموت - على ظمأ (عطشان)؛ لو أنه عذُبَ الورد (ليته كان وَرَدَ ماء عذباً بعد هذا العطش، لا بل قد سقيته الموت)

وقُمْتُ فَجَمَّعْتُ الحَصَى، واشْتَوَيْتُهُ عليْهِ، ولِلرَّمْضَاءِ مِنْ تحتِهِ وَقْدُ

شويته بعدئذ على الحصى، والرمضاء (الحصى الحارة) متّقدة تحته

ونِلْتُ خَسيسَاً منه ثمَّ تَرَكْتُهُ، وأَقْلَعْتُ عنه وهْوَ مُنْعَفِرٌ فَرْدُ

نلت خسيساً (قليلاً) من لحمه لسد جوعي وتركته، ثم أقلعت عنه (فارقته) وهو منعفر بالتراب ومتروك وحده

لقد حَكَمَتْ فينَا اللَّيالي بِجَوْرِها وحُكْمُ بَنَاتِ الدَّهْرِ ليس لَهُ قَصْدُ

هذا حكم الليالي (الزمن) فينا وهو حكم جائر (ظالم)؛ وحكم بنات الدهر (مصائب الزمن) ليس فيه قصد (عدل)

قارن خليل شرف الدين قصيدة البحتري هذه في وصف الذئب بقصيدة الشاعر الفرنسي ألفرد دو فيني (مصرع الذئب). وهي قصيدة رومنسية قصصية بلغت في الطول خمسة أضعاف قطعة البحتري هذه. ليفرح دو فيني في قبره إذ نقارن قصيدته بقصيدة أحد كبار شعرائنا. ولنترك لكل ناس شعرهم، فالشعر لا يترجم. علموا أولادكم الشعر العربي الجديد وبعض القديم، ولا تنسوا هذه القصيدة. وإذا علمتموهم شعر الأقوام الآخرين في المدارس المستوردة فغايتهم فيه أن يكونوا أضيافاً في بيتِ خالٍ لا يستطيعون مزاحمته بأبٍ جَلْدٍ كما قال الحماسي. من لنا أن نزاحم الإنجليز في تذوقهم شكسبير؟ ومن قال إن شكسبير خير من المتنبي؟ أو أن دو فيني خير من البحتري؟ في الشعر قعقعة ألفاظ لا يحسها سوى أبناء اللغة. واترك ـ من فضلك ـ بيتَ «كقضقضة» السابق، وخذ بيت: عوى ثم أقعى، في هذه القصيدة، وانظر بعينك إلى هذا المشهد المتلاحق، ورَهْ كيف أن الألفاظ تتوالى وتساهم بصوتها ـ وليس فقط بمعناها ـ في خلق المشهد

١٩ التنازع في الرئاسة

يرثي قومه:

إنَّ التَّنازُعَ في الرِّئَاسةِ زَلَّةٌ لا تُستَقالُ، ودَعْوَةٌ لم تُنْصَرِ

التنازع في الرئاسة زلة (سقطة)، لا تستقال (لا تقال عثرتها، لا قيامَ منها)، ودعوة لا تجد أنصاراً

أَفْنَى أَوائِلَ جُرْهُمٍ إِفْرَاطُهُمْ فيهِ، وأَسْرَعَ في مَقَاوِلِ حِمْيَرِ

أفنى قبيلة جرهم البائدة هذاً التنازع، وأسرع في (أي في إفناء) مقاول قبيلة حمير (رؤسائها)

٢٠ الانسحاب في الوقت المناسب

يمدح أبا الخطاب الطائي:

رَفعتْ مِنَ السَّجْفِ المُنِيفِ، وسَلَّمَتْ بأنامِلٍ فيهِنَّ دَرْسُ خِضَابِ

رفعت السجف المنيف (الستار العالي)، وسلمت بأنامل فيهن درس خضاب (بقايا حناء)

وتعجَّبَتْ مِنْ لَوعَتي، فَتَبسَّمَتْ عن واضِحَاتٍ، لَوْ لُثِمْنَ، عِذَابِ

تبسمت عن واضحات (أسنان بيض)، ولهن طعم عذب لو لُثمن (قُبِّلْن)

لو تُسْعِفِينَ، ومَا سألْتُ مَشَقَّةً، لَعَدَلْتِ حَرَّ هَوىً بِبَرْدِ رُضَابِ

لو تساعدين ـ وما سألتُ مشقة (ما طلبتُ طلباً صعباً) ـ لخففتِ حرارة الهوى في قلبي ببرد الرضاب (اللعاب) من فمك

ولَئِنْ شَكوْتُ ظَمَايَ، إنَّكِ لَلَّتي قِدْمَاً جَعَلْتِ مِنَ السَّرابِ شَرابي

لئن شكوت ظمأي، فأنتِ سابقاً جعلتِ شرابي سراباً (يعني: كانت وعودك كاذبة كالسراب)

ولَقد عَلمْتُ، وللمُحِبِّ جَهالةٌ، أنَّ الصِّبا، بَعدَ المَشيبِ، تَصَابِ

أنا علمت ـ رغم جهالة العاشق ـ أن الصبا (اللهو)، بعد مشيب الرأس، هو من التصابي

وأَمَا لَوَ انَّ الغَدْرَ يَجْمُلُ في الهَوى لَسَلَوْتُ عنكِ وفيَّ بعضُ شَبابي

لو كان يجمل (يليق) بي الغدر في الحب لسلوت عنك (نسيتك) في وقت كانت لديَّ فيه بقية من الشباب

٢١ مطر على خربة

يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

فُؤادٌ مَلاهُ الحزنُ حتى تَصَدَّعا، وعَيْنَانِ قالَ الشَّوقُ: جُودَا معاً معَا

لِمَنْ طَلَلٌ جَرَّتْ به الرِّيحُ ذَيْلَها وحَنَّتْ عِشَارُ المُزْنِ فيه فَأَمْرَعا

لمن هذا الطلل (بقية الدار) الذي جرَّت به الريح ذيلها فعلاه التراب، وحنَّتْ عشار المزن (الغيوم التي تشبه النياق الحوامل في شهرها العاشر، وحليبها يدر غزيراً)، فأمرع (صار خصباً). وحنين الناقة على ولدها يأتي بعده الحليب مدراراً. يشبه الغيوم بالنياق في آخر أيام حملها وقد امتلأت ضروعها بالحليب

لِلَيْلاكَ، إذْ لَيْلى تُعِلُّكَ رِيقَها وتَسْقِيكَ مِنْ فِيها الرَّحِيقَ المُشَعْشَعَا

هذا الطلل لليلاك، إذ كانت ليلى تسكن هنا وتعلك (تُرشِفك) ريقها، وتسقيك من فمها ما يشبه الرحيق (الخمر) المشعشع (الممزوج بالماء)

٢٢ الوطن.. الحضن الدافئ

يمدح أبا الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

يا بَرقُ أَسْفِرْ عنْ (قُوَيْقَ)، (فَطُرَّتَيْ حَلَبٍ)، فَأَعْلَى القَصرِ مِنْ (بِطْيَاسِ)

يا برق أسفر عن (اكشِف) هذه المناطق، والطرة (جانب الوادي). والبرق إذ يلمع ليلاً يكشف الأشياء؛ معظمنا لم يعد يرى هذا إلا في الأفلام

أَرْضٌ إذا اسْتَوْحَشْتُ ثم أَتَيْتُهَا   حَشَدَتْ عَلَيَّ، فَأَكْثَرَتْ إِينَاسِي

إذا أحسست بالوحشة والغربة في قلبي وجئت هذه الأماكن حشدت علي وآنستني (والمرء يأنس إذ يحتشد حوله الأهل بعد أوبته من غربته، ومن لذيذ الاختصار واللمْح أن جعل البحتري الأرض «تحشد عليه». أليس هو القائل: والشعر لمح تكفي إشارته/وليس بالهذر طُوِّلتْ خُطَبهْ (القصيدة ١٦٥»

اليومَ حَوَّلَني المَشِيبُ إلى النُّهَى   وذَلَلْتُ لِلْعُذَّالِ بعدَ شِمَاسِ

اليوم نقلني الشيب إلى النهى (التعقل)، وذللت (انْصَعْتُ) للعذال (الناصحين اللائمين) بعد شماس (تمرد)

ورَفَعْتُ مِنْ نَظَري إلى أَهْلِ الحِجَا   ولَوَيْتُ عنْ أهلِ الغَوَايَةِ راسي

ورفعت نظري متطلعاً إلى أهل الحجا (العقل)، ولويت رأسي مبتعداً عن أهل الغواية (الاستهتار)

٢٣ عبث الزمن

يمدح سعيد بن محمد:

إن الخُطوبَ طَوَيْنَني ونَشَرْنَني   عَبَثَ الوَليدِ بِجَانِبِ القِرْطَاسِ

طوتني الخطوب (المصائب) ونشرتني كعبث الطفل الوليد بالقرطاس (الورقة). والورقة المفردة في زمنهم تكون ملفوفة، كما نراها في المسلسلات التاريخية، وأتخيل أن الطفل من شأنه أن ينشرها ثم يتلذذ وهو يراها تكر راجعة إلى حالتها الأسطوانية مرة بعد مرة. وقد أوحى هذا البيت إلى المعري ـ وهو رجل في قلبه عبث كثير رغم قناع الكآبة الذي اتخذه ـ بأن يسمي كتابه في نقد شعر البحتري «عبث الوليد»، فأصاب المعري عدة عصافير بهذا الحجر، فاسم البحتري «الوليد»، ورأى المعري في شعره أنه رقيق وأنه يعد كالعبث إذا قيس بشعر المتنبي، وثالثة: أن المعري سلخ من بيت البحتري كلمتين أسمى بهما كتابه

ما شِبْتُ مِنْ طُولِ السِّنِينَ، وإِنَّمَا   طُولُ المَلامَةِ فِيكِ شَيَّبَ رَاسي

٢٤ كان البكاء طويلا

يمدح أبا جعفر محمد بن علي بن عيسى القمي:

ذاكَ (وَادي الأَرَاكِ) فَاحْبِسْ قَليلا   مُقْصِراً مِنْ مَلامَتِي، أوْ مُطِيلا

احبس ناقتك يا صاحبي (أجبِرْها على الوقوف) سواء أختصرت في لومي أم أطَلْت

إنَّ بينَ (الكَثِيبِ) (فَالجَزْعِ) (فَالآ   رَامِ) رَبْعاً لآلِ هِنْدٍ مُحِيلا

فيما بين هذه الأماكن ربع (منزل) محيل (خَرِب) لأهل المحبوبة هند

وخِلافُ الجَميلِ قَوْلُكَ لِلْذَّا ... كِرِ عَهْدَ الأَحْبَابِ: صَبْراً جَمِيلا

ومن غير الجميل (المناسب) أن تقول لمن يتذكر أحبابه: اصبر صبراً جميلاً، بل اتركه ولوعة قلبه

لا تَلُمْهُ على مُوَاصَلَةِ الدَّمْـ ... ـعِ، فَلُؤْمٌ لَوْمُ الخَلِيلِ الخَلِيلا

لا تلمه على الاستمرار في ذرف الدموع، فلؤم من الخليل (الصاحب) لوم خليله

عَلَّ ماءَ الدُّمُوعِ يُخْمِدُ نَاراً ... مِنْ جَوَى الحُبِّ، أَوْ يَبُلُّ غَلِيلا

لعل الدمع يخمد ناراً سببها جوى (حرقة) الحب أو يبل غليلاً (عطشاً)

لم يَكُنْ يَوْمُنَا طَوِيلاً «بِنَعْمَا ... نَ»، ولَكِنْ، كانَ البُكَاءُ طَوِيلا

لكل شاعر عندي بيت أسميه المدهش لأنه يدهشني إدهاشاً. أبو نواس أدهشني إذ قال: (من كف ذات حر في زي ذي ذكر/لها محبان لوطي وزنَّاء)، وبدوي الجبل أدهشني إذ قال: (الخالدان، ولا أعُدُّ الشَّـ /ـمسَ، شعري والزمانُ)، وإبراهيم بن هرمة أدهشني ببيته: (أسألُ الله سكرة قبل موتي/ وصياحَ الصبيان يا سكرانُ). وهذا بيت البحتري الذي أدهشني

٢٥ الأضحية الحمارية

وقال لأبي جعفر القمي يستهديه أضحيةً:

جُعِلْتُ فِدَاكَ، لي خَبَرٌ طَرِيفٌ؛ ... وأَنْتَ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ خَبِيرُ

غَداةَ النَّحْرِ يَنْحَرُ كُلُّ قَوْمٍ، ... ولا شَاةٌ لَدَيَّ ولا بَعِيرُ

بلَى عِندي حِمَارٌ لي، فَقُلْ لي: ... أَتُقْبَلُ مِنْ مُضَحِّيهَا الحَمِيرُ؟

لَئِنْ لم تَفْدِهِ، تَفدِيكَ نَفْسِي، ... بِذِبْحٍ، فَهْوَ في غَدِهِ نَحِيرُ

ذِبح (أضحية)، نحير (منحور، مذبوح)

٢٦ يرويه فيك لحسنه الأعداء

يمدح أبا جعفر محمد بن علي بن عيسى القُمِّيَّ الكاتب:

ليسَ التي ضَلَّتْ تَمِيمٌ وَسْطَهَا «الدَّـ ... هْنَاءَ»، لا بَلْ صَدْرُكَ الدَّهْنَاءُ

ليست الصحراء التي قيل إن قبيلة تميم تاهت فيها هي الدهناء، بل صدرك أنت الدهناء (صحراء واسعة بنجد). يقول: صدرك أيها الممدوح واسع

مَلِكٌ أَغَرُّ، لآلِ طَلْحَةَ نَجْرُهُ، ... كَفَّاهُ أرْضٌ سَمْحَةٌ، وسَمَاءُ

القمي الممدوح ملك أغر (بارز/وأصل «الأغر» الحصان ذو الغرة البيضاء)؛ ونجره (أصله) يعود لآل طلحة، وكفَّاه معطاءان كالأرض السمحة (الخيرة)، وكالسماء الممطرة

أَحْشَمْتَني بِنَدَى يَدَيْكَ، فَسَوَّدَتْ   ما بيْنَنا تِلْكَ اليَدُ البَيْضاءُ

أحشمتني (أخجلتني) بكرم يديك، فسوَّدَت العلاقةَ ما بيننا هذه اليدُ البيضاء (المعروف) لشدة الإحراج

وقَطَعْتَني بالجُودِ، حتى إنَّني   مُتَخَوِّفٌ ألَّا يكونَ لِقَاءُ

وقطعتني، إذ وصلتني بالجود الغامر، حتى إنني أخاف ألا يحدث بيننا لقاء آخر

صِلَةٌ غَدَتْ في النَّاسِ وهْيَ قَطِيعَةٌ،   عَجَباً، وَبِرٌّ راحَ وَهْوَ جَفَاءُ

صلتك هذه غدت معروفة بين الناس بأنها سببت القطيعة، فيا للعجب،
والبر (أي المعروف) أصبح جفاءً

لَيُوَاصِلَنَّكَ رَكْبُ شِعْرٍ سَائِرٍ   يَرْوِيهِ فيكَ، لِحُسْنِهِ، الأعداءُ

ليواصلنك (والله سيصلك تكراراً) ركب شعر (قافلة قصائد) سائر (شعر مشهور يسير بين الناس)
ويروي هذا الشعر، لجماله، حتى أعداؤك

حتى يَتِمَّ لكَ الثَّناءُ مُخَلَّداً   أَبداً، كما تَمَّتْ ليَ النَّعْمَاءُ

حتى يكون الثناء عليك خالداً لخلود شعري، مثلما صارت نعمتك عليَّ تامة

فَتَظَلُّ تَحْسُدُكَ الملوكُ الصِّيدُ بي،   وأَظَلُّ يَحْسُدُني بِكَ الشُّعَراءُ

وستظل الملوك الصيد (الكرام) تحسدك بي (بسببي)، ويظل الشعراء يحسدونني بسببك. إن قال أحد إن شعر المدح لا خير فيه فأنشد له هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة. وإذا قالت الكتب إن لشعر البحتري ديباجة وعذوبة وإنه سلاسل الذهب إلخ، فهذه الأبيات برهان وأنموذج. وأصل المعنى من أبي تمام، ولكن البحتري امتلكه بهذه الديباجة

٢٧ العدو الكامن، والصديق النافر

يمدح إبراهيم بن الحسن بن سهل:

ومُكَايِدٍ لي بِالمَغِيبِ رَمَيْتُه   بِصَرِيمَةٍ كالنَّجْمِ في مُنْقَضِّهِ

رب مكايد لي بالمغيب (متآمر عليَّ في غيبتي) قد رميته بصريمة (بقطيعة)
كأنها النجم في منقضه (انقضاضه)، أي مثل الشهاب الهاوي، الذي يرجم الله به الشيطان،
بحسب التفسير الحرفي للآية

أَمْضَيْتُ ما أَمْضَيْتُ فيه، ولو ثَنَى   بِإِشَارةٍ أَمْضَيْتُ مَا لم أُمْضِهِ

اتخذت فيه القرار الحاسم، ولكنه لو كان ثنى بإشارة (رجع عن غوايته) لكنت اتخذت قراراً آخر أكثر تسامحاً [كذا فهمت البيت]

وعِتَابِ خِلٍّ قد سَمِعْتُ، فَلَمْ أَكُنْ جَلْدَ الضَّمِيرِ على اسْتِماعِ مُمِضِّهِ

ورب عتاب سمعته من خل (صاحب) فلم أكن جلد الضمير (قاسي الوجدان) لأحتمل الممض (الجارح) من هذا العتاب، فلذلك رددت رداً قاسياً

أَنَبَوْتُ عَنْكَ بِزَعْمِهِمْ؟ ومَتَى نَبَا في حَالَةٍ بَعْضُ امْرِئٍ عَنْ بَعْضِهِ

أنبوتُ عنك (هل هجرتك) كما يزعمون؟ ومتى استطاع ـ في كل الحالات ـ أن ينبو (يهجر) جزء من الإنسان عن سائر الأجزاء!. يقول: هيهات أن أهجرك فأنت جزء مني

٢٨ عندما سَكِرت الرماح

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي:

حَجَبُوهَا حتى بَدَتْ لِفِراقٍ كانَ داءً لِعاشِقٍ ودَواءَ

حجبوها حتى بدت (ظهرت) لفراق (في يوم رحيلهم)، فكان الفراق داء لقلبي لكنه كان أيضاً دواء لأنه أتاح لي رؤيتها ساعة ركبتُ للرحيل

أَضحَكَ البَيْنُ يومَذَاك وأَبْكَى كلَّ ذي صَبْوَةٍ؛ وسَرَّ، وسَاءَ

وهكذا أضحَكَ الفراق وأبكى ـ في الوقت نفسه ـ كل ذي صبوة (غرام)؛ وسرّني وساءني في آن معاً

ووَشَتْ بي إلى الوُشاةِ دُموعُ الـ ـعَينِ، حتى حَسِبْتُها أعداءَ

وشت بي (فضحت سري) للوشاة (النمامين) دموعي، حتى حسبت هذه الدموع أعداء لي

كيفَ نُثْني على ابنِ يوسُفَ. لا، كيـ ـفَ سَرَى مَجْدُهُ، ففاتَ الثَّناءَ؟

يسأل الشاعر نفسه: كيف نثني على ابن يوسف؟ ثم يقول: لا، بل الأجدر بنا أن نتعجب كيف سرى (مشى) مجده، فسبق كل ثناء

جادَ حتى أَفْنَى السُّؤَالَ، فلمَّا بادَ مِنَّا السُّؤالُ، جادَ ابْتِدَاءَ

جاد (كَرُم) حتى لم يعد هناك محتاج يسأل ويستجدي، فعندما باد (اختفى) سؤالنا واستجداؤنا، جاد (أعطى) ابتداء (مبتدئاً بلا سؤال من طرفنا)

أحسَنَ اللَّهُ في ثوابِكَ عَنْ ثَغْـ ـرٍ مُضَاعٍ، أحسَنْتَ فيهِ البَلاءَ

أحسن الله مكافأتك عن ثغر (موقع حدودي) مضاع (مهمل بلا حماية)
أحسنتَ فيه البلاء (قتال الأعداء)

لم يَكُنْ جَمعُهُمْ على المَرْجِ إلَّا زَبَداً، طارَ عَنْ قَنَاكَ جُفَاءَ

لم تكن جموع الأعداء على المرج (السهل) سوى زبد (رغوة)، وطار هذا الزبد عن قناك (رماحك) جُفاءً (فَضَلاتٍ وزوائدَ)

حِينَ أَبْدَتْ إِلَيْكَ (خَرْشَنَةُ) العُلْـ   ـيا مِنَ الثَّلْجِ هَامَةً شَمْطَاءَ

عندما أظهرت لك مدينة خرشنة العليا من ثلوجها ما يشبه الهامة الشمطاء
(الرأس الذي شابه شيب)..

ما نَهاكَ الشتاءُ عنها، وفي صَدْ   رِكَ نارٌ لِلحقدِ تُنْهي الشتاءَ

.. عندئذ لم ينهَكَ (لم يمنعك) الشتاء عن مهاجمتها، ففي صدرك نار الحقد التي تُنهي الشتاء

طالعتْكَ الأبْنَاءُ مِنْ شُرَفِ الأَبْـ   ـراجِ زُرْقاً إذْ تَذْبَحُ الآبَاءَ

برز لك أبناء القوم من شُرُفات أبراج المدينة زُرْقاً (زارقين بعيونهم أي ينظرون من أطراف عيونهم لأنهم مائلون بوجوههم خوف السهام/هذا المعنى الذي لمحته) ورأوْك تذبح آباءهم خارج أسوارها

في نَواحي (بُرْجَانَ) إذْ أنْكَرُوا التَّكْـ   ـبيرَ، حتى تَوَهَّمُوهُ غِنَاءَ

حدث هذا في نواحي منطقة برجان حيث الروم لا يعرفون التكبير (قولة الله أكبر) فتوهموا تكبير
الجنود (ظنوه) غناء

حيثُ لم تُورِدِ السيوفَ على خِمْـ   ـسٍ، ولمْ تُصْدِرِ الرِّمَاحَ ظِمَاءَ

وهناك لم تجعل سيوفك تصل بطيئة، على خمس (كالإبل التي تأتي الماء خامس يوم من أيام العطش)، ولم تصدر أنت الرماح (تُرجِعْها من المورد) ظمأى، بل جعلتها ترتوي من دمائهم

يَتَعَثَّرْنَ في النُّحورِ وفي الأوْ   جُهِ، سُكْراً، لَمَّا شَرِبْنَ الدِّمَاءَ

تتعثر رماحك كيفما اتفق في النحور (أعالي الصدور) وفي الوجوه،
كأنها سكرانة مما شربت من دماء

وأَزَرْتَ الخيولَ قَبْرَ (امْرِئِ القيْـ   ـسِ)، سِرَاعاً، فَعُدْنَ مِنْهُ بِطَاءَ

وأزرت الخيول (جعلتها تزور) قبر امرئ القيس الشاعر (وقيل مات ودفن هناك) مسرعة للقاء
العدو، ولكنها مكثت مدة في الحرب فعادتْ من بلادهم بطاء (بطيئة)

وجَلَبْتَ الحِسَانَ حُوّاً وحُوراً   آنِسَاتٍ، حتى أَغَرْتَ النِّسَاءَ

وجلبت الحسان حواً (سمراوات الشفاه) وحوراً (بيضاً) وآنسات (فتيات)، حتى لقد غارت زوجات
المسلمين من هؤلاء السبايا

٢٩ القمر الضائع بين وجوههن

اِسْتَوَى الحُبُّ بَيْنَنا، فَغَدا الدهـ   ـرُ قَصيراً، واللَّهْوُ غيرَ قصيرِ

نادر أن يتساوى مقدار الحب بين العاشق والعاشق؛ لكنه تساوى بيننا، فأصبح الدهر سريع الجريان
قصيراً، فأما اللهو فغير قصير

أَنـخـيـلٌ «بِـعَـالِـجٍ»، أم سَـفِـيـنٌ عَـائِـمـاتٌ، أم أُولَـيَـاتُ خُـدُورِ؟

هل هذه نخلات رشيقات، أم سفن عائمات تمشي وتتهادى ببطء، أم هن أوليات خدور (ذوات ستور/ أي نساء)؟

ضَعُفَ الدهرُ عَنْ هَوانَا، وما الدهـ ـرُ عـلـى كُـلِّ دَوْلَـةٍ بِـقَـديـرِ

ضعف الدهر فلم يستطع أن يُنَكِّد هوانا؛ والدهر، الموصوف بأنه قاهر كل دولة، لم يقهر دولة العشق هذه المرة

حَسُنَتْ ليلةُ الكَثِيبِ، فكانتْ لِـيَ أُنْـسـاً، ووَحْـشَـةً لِـلْـغَـيـورِ

بقدر ما لقيت من أنس في ليلة الكثيب (عندما التقيت محبوبتي على كثيب الرمل) وجد الغيور الحاسد وحشة في قلبه

ضَـلَّ بدرُ الـسَّـمَـاءِ، أو كـادَ، لَـمَّـا وَاجَـهَـتْـهُ وُجُـوهُ تـلـكَ الـبُـدُورِ

٣٠ المُعِمُّ المُخْوِل

يمدح إبراهيم بن الحسن بن سهل:

مَلِكٌ، إذا افتَخَرَ الشَّريفُ بِسُوقَةٍ، عَـدَّ الـمُـلُـوكَ خُـؤولَـةً وعُـمُـومـا

إذا كان أشراف الناس يفتخرون بسوقة (بناس عاديين) فهذا الملك يعُدُّ ضمن أسلافه من جهتي الأم والأب ملوكاً سابقين. أبوه وعمه كانا قائدين مشهورين في الدولة العباسية، كما أن أصولهم الفارسية القديمة أصول شريفة

نَـزَلُـوا بِـأَرْضِ الزَّعْـفَـرانِ، وغَـادَرُوا أَرْضـاً تَـرُبُّ الـشِّـيـحَ والـقَـيْـصُـومـا

هم نازلون بأرض فارس التي ينبت فيها الزعفران، تاركين أرضاً تربُّ (تنبت) الشيح والقيصوم (النباتين الصحراويين). هم فُرس لا عرب

وابْنُ الذي ضَمَّ الطَّوَائِفَ، بعدَمَا افْـ ـتَرَقَتْ؛ فَعَادَتْ جَوْهَراً مَنْظُوما

وإبراهيم الممدوح هذا ابن الحسن الذي ضم طوائف المسلمين بعد فتنة الأمين والمأمون، فرجعت الخلافة إلى وحدتها

وَرَدَ الـعـراقَ، ومُلْكُها أَيْدِي سَبَا، فَـاسْـتَـارَ سِـيـرَةَ أَرْدَشِـيـرَ قَـدِيـمَـا

كان الحسن بن سهل ورد العراق من خراسان مع المأمون، والحُكم يومئذ أيدي سبا (تعبير معناه: مشتَّت)، فاستار (سار) سيرة أردشير (الملك الفارسي القديم)

٣١ العثور على الشوق التائه

يمدح أبا سعيدٍ محمد بن يوسف الثغري الطائي:

أَخَذَتْ ظُهُورُ (الـصَّـالِـحِـيَّـةِ) زِيـنـةً عَـجَـبَـاً، مِـنَ الـصَّـفـراءِ والـحـمـراءِ

أخذت ظهور (هضاب) الصالحية زينة عجباً (مُعْجِبة) مكونة من الأزهار الصفر والحمر

نَسَجَ الرَّبيعُ لِرَبْعِها دِيباجَةً   مِنْ جَوْهَرِ الأَنوارِ، بِالأَنْواءِ

نسج الربيع لربع الصالحية (موقعها) ديباجة (سجادةً حريريةً) مكونةً من الأنوار (نوَّار النباتات) الذي يشبه الجواهر؛ وأداة النسج هي الأنواء (الأمطار)

فاشْرَبْ على زَهْرِ الرِّياضِ، يَشُوبُهُ   زَهْرُ الخُدُودِ وزُهْرَةُ الصَّهباءِ

فاشرب الخمر على مرأى زهر الحدائق الذي يشوبه (يتخلله) زهر خدود الحسان، وزُهرة الصهباء (صفاء الخمر). وكانوا يشربون الخمر في مجلس مزين بالرياحين والأزهار

مِنْ قَهْوَةٍ تُنْسي الهُمومَ وتَبْعَثُ الشَّـ   ـوقَ الذي قد ضَلَّ في الأحْشَاءِ

اشرب.. من قهوة (خمر) تنسي الهموم وتثير الشوق الكامن الذي كأنه ضل وضاع في الأحشاء (باطن الإنسان/قلبه)/[«ضل في الأحشاء» هذه.. بديعة]

يُخْفي الزُّجاجةَ لونُها، فكأنَّها   في الكفِّ قائمةٌ بِغَيْرِ إناءِ

لون الخمر يخفي الزجاجة (الكأس)، فكأن الخمر قائمة في الكف بدون إناء [أكثَرَ القدماء لومَ البحتري على هذا المعنى، وقالوا: لو كان الذي في الزجاجة دبساً لتلونت الزجاجة بلونه، فما الغريب في هذا؟ على أننا نراه معنى جميلاً مطروقاً سيق في لفظ خفيف جميل]

إنَّ الأميرَ محمداً لَمُهَذَّبُ الـ   أفعَالِ، في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ

ما زِلْتَ تَقْرَعُ بابَ (بَابَكَ) بِالقَنَا   وتَزُورُهُ في غَارَةٍ شَعْوَاءِ

أيها الأمير ظللت تقرع باب بابك الخُرَّمِيّ (الخارج على الدولة) بالقنا (بالرماح)، وظللت تزوره مغيراً عليه غارةً شعواء (متشعبة واسعة)..

حتى أخذْتَ، بِنَصْلِ سيفِكَ عَنْوَةً،   منهُ الذي أَعْيَا على الخُلَفَاءِ

حتى أخذت منه، بقوة السيف، ما أعيا (أعجز) الخلفاء

٣٢ نضوب الدمع

يمدح أبا سعيدٍ محمد بن يوسف الثغري:

فِيمَ ابْتِدَارُكُمُ المَلامَ وُلُوعَا؟   أَبَكَيْتُ إلَّا دِمْنَةً ورُبوعا؟

لماذا ابتداركم (بدؤكم) اللوم ولوعاً به وإقبالاً عليه؟ فهل بكيت سوى دمنة (خربة) ومنازل مهجورة؟

عَذَلُوا، فَما عَدَلُوا بِقَلْبيَ عَنْ هَوىً   وَدَعَوْا، فَمَا وَجَدُوا الشَّجِيَّ سَمِيعا

عذلوا (لاموا) فما عدلوا بقلبي (مالوا بقلبي) عن هواه، ودعوني للنسيان فما وجدوا الشجي (الحزين) سميعاً لدعوتهم

يا دَارُ، غَيَّرَها الزمانُ وفَرَّقَتْ عنْها الحوادثُ شَمْلَها المَجْمُوعا،
لا تَخْطُبي دَمْعي إليَّ، فلم يَدَعْ في مُقْلَتيَّ جَوَى الفِراقِ دُمُوعا

٣٣ الوشاح الجوال

يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم:

أمْزُجُ كأسي بِجَنَا رِيقِه وإنَّما أمْزُجُ راحاً بِرَاحْ

أمزج كأسي بجنا (بقِطاف) ريق المحبوب. وريقه راح (خمر) كالخمر التي في كأسي

إنْ لانَ عِطْفَاهُ قَسَا قَلْبُهُ أَوْ ثَبَتَ الخَلْخَالُ جَالَ الوِشَاحْ

لئن كان عطفاه (جانباه) ليِّنين فقلبه قاس. ولئن ثبت الخلخال في أسفل ساق المحبوب (لأن ساقه ممتلئة) فإن وشاحه (الوشاح هو أشبه شيء بذلك الشريط الذي تتخذه ملكات الجمال مائلاً على جسومهن) يجول على جسمه لرشاقته

٣٤ بين شراب وطبيخ

يمدح الحسن بن وهبٍ، وكان الواثق نكب آل وهب وأخذ منهم ألف ألف دينار:

لَنَا في الدَّهْرِ آمَالٌ طِوَالٌ نُرَجِّيهَا، وأعمارٌ قِصَارُ
وأهْوِنْ بالخُطُوبِ على خَلِيعٍ إلى اللَّذَّاتِ ليس لَهُ عِذَارُ

ما أهون الخطوب (البلايا) على خليع (مستهتر) يلحق لذاته، ليس له عذار (تعبير معناه: متهتك)

نَزَلْنا مَنزلَ الحَسنِ بنِ وَهْبٍ وقدْ دَرَسَتْ مَغَانِيهِ القِفَارُ

نزلنا منزل (محلة) الحسن بن وهب وقد درست (امَّحت) مغاني هذا المنزل (محاسنه) وصار قفراً (خراباً)

تَلَقَّيْنَا الشِّتَاءَ بِه، وَزُرْنَا بَنَاتِ اللَّهْوِ إذْ قَرُبَ المَزَارُ

هناك استقبلنا الشتاء، وزرنا بنات اللهو ـ وكان في ذلك الزمن دور للمحترفات ـ لقربهن من المكان

أقمْنَا؛ أكْلُنا أكْلُ اسْتِلابٍ هُنَاكَ، وشُرْبُنا شُرْبٌ بِدَارُ

مكثنا هناك، وأكْلُنا أكلٌ سريع كأنه انتهاب، وشربنا شرب متواصل سريع نبادره بِداراً

تَنَازَعْنَا المُدَامَةَ وَهْيَ صِرْفٌ وأعْجَلْنَا الطَّبَائِخَ وَهْيَ نَارُ

لقد تنازعْنا الخمرة وهي صافية، واستعجلنا فأكلنا ما في القدور من طبيخ وهو حار كالنار

ولـم يَـكُ ذاكَ سُـخْـفـاً، غَـيْـرَ أَنِّـي رَأَيْـتُ الـشَّـرْبَ سُـخْـفُـهُـمُ الـوَقَـارُ

وهذا ليس سخفاً، فأنا أرى الوقار للشَّرب (شاربي الخمر) هو السخف الحق

رَضِينَا، مِنْ (مُخَارِقَ) و(ابنِ خَيْرٍ)، بِـصَـوْتِ الأَثْـلِ إذْ مَـتَـعَ الـنَّـهَـارُ

رضينا من مخارق وابن خير (بدلاً منهما، وهما مغنيان) بصوت شجر الأثل إذ تحركه الريح عندما متع (توسَّط) النهار

تُـزَعْـزِعُـهُ الـشَّـمَـالُ، وقـد تَـوَافَـى عـلـى أنـفـاسِـهـا قَـطْـرٌ صِـغَـارُ

تحركه ريح الشمال، وقد توارد على أنفاس (هبات) هذه الريح رذاذ خفيف

غَـداةَ دُجُـنَّـةٍ لِـلْـغَـيْـثِ فـيـهـا خـلالَ الـرَّوْضِ حَـجٌّ واعْـتِـمَـارُ

حدث هذا غداة (صبيحة) دجنَّة (ليلة معتمة) كان للغيث فيها صخب في الروض كصخب الحجاج والمعتمرين

كـأنَّ الـرِّيـحَ والـمَـطَـرَ، الـمُـنَـاجِـي خَـواطِـرَهَـا، عِـتَـابٌ واعْـتِـذَارُ

كأن الريح والمطر اللذين يناجيان خواطر الغصون (أي الغصون التي تخطر وتتحرك) عتاب واعتذار

أصَـابَ الـدهـرُ دولـةَ آلِ وَهْـبٍ ونَـالَ الـلَّـيـلُ مِـنْـهُـمْ والـنَّـهـارُ

أنزل الدهر مصيبة بدولة آل وهب، ونال منهم الليل والنهار (الزمن)

أَعَـارَهُـمُ رِدَاءَ الـعِـزِّ حـتـى تَـقَـاضَـاهُـمْ، فَـرَدُّوا مَـا اسْـتَـعَـارُوا

أعارهم الدهر ثياب العز ثم تقاضاهم إياها (استردها منهم) فردوها

ومـا كـانـوا فَـأَوْجُـهُـهُـمْ بُـدُورٌ لِـمُـخْـتَـبِـطٍ، وأَيْـدِيـهِـمْ بِـحَـارُ

وما كانوا (طيلةَ وجودهم في السلطة) كانت أوجههم بدوراً يهتدي بها المختبط (الساري ليلاً) وأيديهم كانت بحاراً (سخية بالعطاء)

٣٥ واعُمُرا

عَـادَيْـتُ مِـرْآتِـي، فَـآذَنْـتُـهـا بِـالـهَـجْـرِ، مـا كـانـتْ ومَـا كُـنْـتُ

عاديت مرآتي فآذنتها (أبلغتها) بالهجر طول حياتي وطول حياتها.
كأن مرآته حبيبة وهو يريد أن يهجرها

كـانَـتْ تُـرِيـنـي الـعُـمْـرَ مُـسْـتَـقْـبَـلاً وَهْـيَ تُـرِيـنـي الـفَـوْتَ مُـذْ شِـبْـتُ

كانت تريني وجهي شاباً والعمر مقبلاً علي، والآن أصبحت المرآة تريني الفوت (الذهاب) منذ حل بي المشيب

وَاعُمْرَا، نَوْحَاً لِفِقْدَانِهِ، سِيَّانِ عِنْدِي شِبْتُ أَمْ مُتُّ

واعمرا (حسرة على العمر)، أنُوح لذهابه، ويتساوى عندي حلول الشيب والموت

٣٦ هكذا التعزية!

قال يعزي أبا نهشلٍ محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسي عن ابنته:

ظَلَمَ الدهرُ فِيكُمُ، وأَساءَ فَعَزاءً (بَنِي حُمَيْدٍ)، عَزاءَ

ظالم هذا الدهر فيما أصابكم به يا بني حميد من وفاة ابنتكم، فأنا أعزيكم. وانتظر بقية القصيدة لترى كيف يعزيهم!

يا (أبا القاسم)، المقَسَّمُ في النَّجـ ـدةِ والجودِ والنَّدَى أَجْزاءَ

يا أبا القاسم، وأنت مقسَّم النفس بين النجدة (النخوة) والكرم..

والهِزَبْرُ الذي، إذا دارتِ الحر بُ بهِ، صَرَّفَ الرَّدَى كيفَ شاءَ

.. ويا أيها الهزبر (الأسد) الذي، عندما تدور الحرب بك، تُوَجِّه الردى (الموت) نحو أعدائك كيفما شئت..

الأَسَى واجبٌ على الحُرِّ: إمَّا نِيَّةً حُرَّةً، وإمَّا رِياءَ

الحزن واجب على الحر، إما حقيقةً،
وإما رياء (بإظهار الحزن دون وجود حزن حقيقي)

وسِفَاهٌ أنْ يَجْزَعَ المرءُ مِمَّا كانَ حتماً على العِبادِ قَضاءَ

وسفاه (حُمْقٌ) أن يجزع (يتهيج حزناً) الإنسان من حَتْمٍ (محتوم) على كل الناس (الموت)

أَتُبَكِّي مَنْ لا يُنَازِلُ بالسَّيـ ـفِ مُشِيحاً، ولا يَهُزُّ اللِّوَاءَ؟

هل تُبَكِّي (تَبْكي) شخصاً لا يحارب بالسيف مشيحاً (مُقْدِماً)، ولا يرفع لواء (راية الحرب)؟ يقول: هل تبكي امرأة؟

والفَتَى مَنْ رأى القبورَ، لِمَا طَا فَ بِهِ مِنْ بناتِهِ، أَكْفَاءَ

الفتى (الرجل الحقيقي) هو الذي يعتبر القبور الأكفاء الحقيقيين لمن طافَ حوله من بناته.
والكفء، في اعتبار فقهاء ذلك الزمن، الرجل المناسب مالاً ونسباً وديناً للزواج من امرأة بعينها.
عمران القفيني يقول: يرجى شتم البحتري على هذا البيت. قد فعلنا

لَسْنَ مِنْ زينةِ الحياةِ، كَعَدِّ الـ ـلَّهِ مِنْهَا الأموالَ والأبْنَاءَ

البنات لسن من زينة الحياة، كما عدَّ الله في الآية زينة الحياة الدنيا
فكانت المال والبنين فقط

قـد وَلَـدْنَ الأعـداءَ قِـدْمـاً، وَوَرَّثْـ ـنَ الـتِّـلادَ الأَقـاصِـيَ الـبُـعَـدَاءَ

زوَّجْنا بناتنا قدماً (قديماً) لغرباء وجاء أبناؤهن أعداءً لنا، وهن يورِّثن نصيبهن من التلاد (الميراث) للأزواج الأقاصي (الغرباء)

لَـمْ يَئِـدْ كُـثْـرَهُـنَّ (قَـيْـسُ تَـمِـيـمٍ) عَـيْـلَـةً، بـل حَـمِـيَّـةً وإبَـاءَ

ولم يقم قيس بن عاصم (رئيس قبيلة تميم) بوأد كثرهن (معظمهن: قيلَ وَأَدَ ثمانيَ بنات، وقيل اثنتيْ عشرة بنتاً في الجاهلية) عَيْلَةً (فقراً)، بل حميَّة (حفاظاً على الشرف) وإباء (رفضاً للذل)

وَشُعَيْبٌ مِنْ أَجْلِهِنَّ رأى الوَحْـ ـدَةَ ضَعْفاً، فَاسْتأْجَرَ الأنبِياءَ

والنبي شعيب كان عنده بنتان، ولا ذكور، ولكنه مع ذلك شعر بالوحدة والضعف، فاستأجر النبي موسى

واسْتَزَلَّ الشَّيْطانُ آدمَ في الجنَّـ ـةِ لـمَّـا أغْـرَى بـه حَـوَّاءَ

استزلَّ الشيطان آدم: أوقعه في الزلل (الخطأ)

ولَعَمْرِي، مَا العَجْزُ عِندِيَ إلَّا أنْ تَبيتَ الرجالُ تَبكي النِّساءَ

عجزٌ من الرجل أن يبكي امرأة ماتت

٣٧ احتجاج للشيب

قال يمدح الشيب:

بَكَرَتْ تُعَيِّرُنِي (نَوارُ) سَفَاهةً وَضَحَ المَفَارِقِ، وابْيِضَاضَ المِسْحَلِ

بكرت (جاءت) نوار تعيرني، لسفاهتها، وضح المفارق (بياض مفرق الرأس) وبياض المسحل (السالف)

وَيْكُمْ! بَياضُ الصُّبْحِ أَحْسَنُ مَنْظراً، في العينِ، مِنْ ظَلْماءِ ليلٍ أَلْيَلِ

ويكم! (ويحكم) البياض في العين (إذ تراه العين) أجمل من السواد

والصَّارِمُ المَصْقُولُ أَحْسَنُ حَالَةً، يومَ الوَغَى، مِنْ صَارِمٍ لم يُصْقَلِ

الصارم (السيف) المصقول اللامع، يكون أفضل في الوغى (الحرب) من سيف صدئ

والشَّمْسُ، لولا ضَوْؤُها، ما اسْتُحْسِنَتْ والبدرُ، لولا نُورُهُ، لم يَجْمُلِ

وكذا الشمس والقمر جمالهما في ضوئهما

٣٨ قاهر الروم

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الصامتي:

نَكْرَهُ العَاجِزَ الضَّعِيفَ إذا جا ءَ؛ وكُنْتَ القَوِيَّ، فينَا، الأَمِينَا

ثَبَّتَ اللَّهُ وَطْأَةً لَكَ، أَمْسَتْ جَبَلاً رَاسِياً على المُشْرِكِينا

رُبَّمَا وَقْعَةٍ شَمَلْتَ بِها الرُّو مَ، فَبَاتُوا أَذِلَّةً خَاضِعِينا

ربما (ربَّ)

قَدْ أَمِنَّا أَنْ يَأْمَنُوكَ، على حَا لٍ، ولو صَيَّرُوا النُّجُومَ حُصُونا

قد أمنا (تأكدنا) أنهم لن يأمنوك (لن يكونوا في أمان منك) مهما كان، حتى لو جعلوا النجوم حصوناً لهم

فَزَّعُوا بِاسْمِكَ الصَّبِيَّ، فَعَادَتْ حَرَكَاتُ البُكَاءِ مِنْهُ سُكُونَا

يخوفون باسمك الصبي عندهم، فإذا بكى الولد ذكروا له اسمك، كما نذكر اليوم للولد الغول، فيكف عن البكاء خوفاً

وتَوَافَتْ خَيْلاكَ مِنْ أرضِ (طَرْسُو سَ) و(قَالِي قَلا)، (بِأَرْدَنْدُونا)

جاءت طائفتان من خيلك من طرسوس وقالي قلا لتحل في أردندون

عَابِسَاتٍ يَحْمِلْنَ يوماً عَبُوسَاً لأُنَاسٍ عنْ خَطْبِهِ غَافِلِينَا

الخيل عابسة لشدة تعبها، وهي تحمل نذيراً عابساً للأعداء الغافلين عما سيحل بهم

مَا أَطَاقُوا دَفْنَ الذي أَظْهَرُوهُ؛ كَبُرَ الحِقْدُ أَنْ يَكُونَ دَفِينا

لم يستطع الأعداء إخفاء حقدهم لأنه كبير

بَعْضَ بَغْضَائِكُمْ! فَلَيْسَ مُفِيقَاً، أَوْ يَرُدَّ الأَدْيَانَ، بِالسَّيْفِ، دِينا

بعضَ بغضائكم (خففوا من كرهكم)! فلن يُفيق (يكف) أبو سعيد إلا عندما يرد (يحول) الأديان بالسيف ديناً واحداً، بأن يدخل الجميع في الإسلام

ولَعَمْرِي! مَا ماءُ زَمْزَمَ أَحْلَى عِنْدَهُ مِنْ دَمٍ «بِزَارِمِّينَا»

الدم المراق في تلك المعركة في زارمِّين أطيب عنده من ماء زمزم

يَجْعَلُ البِيضَ، حِينَ يَأْسِرُ، أَغْلا لاً لأَسْرَاهُ، والمَنَايَا سُجُونَا

يجعل أبو سعيد البيض (السيوف) بمثابة أغلال (قيود) للأسرى ـ أي يقتلهم ـ، ويجعل الموت لهم سجناً

٣٩ الجود عند المقدرة

يمدح الحسن بن وهب:

يا صَيْقَلَ الشِّعْرِ، المُقَلَّدُ بالذي يُخْتَارُ مِنْ قَلْعِيِّهِ ويَمَانِه

يا صيقل (صانع السيوف) الشعر المقلَّد (المتخذ قلادة: عقداً) بأجود الشعر المختار. والقلعي واليماني نوعان من السيوف. يقول: أنت شاعر وعارف بالشعر الجيد وتتقلد القصائد المختارة الجميلة التي يمدحك بها المادحون كما يتقلد صانع السيوف أفضل الأنواع

إِسْمَعْهُ مِنْ قَوَّالِهِ تَزْدَدْ بِهِ عُجْبَاً، وطِيبُ الوَرْدِ في أَغْصَانِه

اسمع الشعر من قائله (صاحبه) يزدد إعجابك به، لأنه طازج. والورد على غصنه أطيب منه مقطوفاً

أَحْسَنْتُ فيهَ مُبَرِّزاً، فَجَفَوْتَني وتَبَرُّ أَقْوَاماً على اسْتِحْسانِه

أنا أحسنت في الشعر وبرَّزت (تفوقت) فجفوتني (أبعدتني) وفي الوقت نفسه تكافئ الناس على استحسانك الشعر

والأَرْضُ تَبْذُلُ في الرَّبيعِ نَبَاتَها، وكَذَاكَ بَذْلُ الحُرِّ في سُلْطَانِه

الأرض تكون معطاء في الربيع، وكذلك الرجل الحر يكون معطاء في زمن سلطانه

واعْلَمْ بِأَنَّ الغَيْثَ ليسَ بِنَافِعٍ لِلْنَّاسِ، ما لم يِأْتِ في إِبَّانِهِ

والغيث (المطر) لا ينفع الناس إلا إذا جاء في إبانه (وقته)

٤٠ لستَ من أكفائه

يهجو أحدهم في معرض مدحه يوسف بن محمد الثغري:

ومُؤَمَّرٍ صارَعْتُهُ عَنْ عُرْفِهِ فَوَجَدْتُ (قُدْسَ) مُعَمَّماً بِعَمَائِهِ

رب مؤمر (صاحب إمارة) صارعته عن عرفه (جاهدت للحصول على مال منه)، فوجدته جامداً كجبل قدس المعمم عند قمته بعمائه (بغيومه)

جِدَةٌ يَذُودُ البُخْلُ عَنْ أطرافِهَا، كالبَحْرِ يَدْفَعُ مِلْحُهُ عنْ مائِهِ

لديه جدة (غنى) يذود البخل عن أطرافها (يحميها البخل)،
مثل ماء البحر الذي يحميه ملحه من أن نشربه

خَطَبَ المديحَ، فقلتُ: خَلِّ طريقَه لِيَجُوزَ عنكَ؛ فَلَسْتَ مِنْ أَكْفَائِهِ

طلب هذا البخيل مديحي كمن يخطب عروساً، فقلت له: اترك طريق المدح، فلست كفئاً له (والرجل يخطب المرأة إذا كان لها كفئاً من حيث المال والنسب والدين)

٤١ رقيب اللُّقَم

يهجو بعض بني حُمَيْد:

جَـزْلُ الـرَّقَـاعَـةِ، فَـدْمٌ، يَـدَّعـي أَدَبـاً   ولـيـسَ يَـفْـرُقُ بـيـنَ الـتِّـيـنِ والـطِّـيـنِ

جزل الرقاعة (كثير الحماقة) فدم (غبي) يدعي الذوق الأدبي، لكنه لا يفرق بين التين والطين

جَهْمٌ عَبُوسٌ، على ظَهْرِ الخِوَانِ لَهُ   تَفْرِيقُ لَحْظٍ كَأَطْرَافِ السَّكَاكِينِ

جهم (عبوس)، يكون له على المائدة إذ يدعو الناس تفريق لحظ (توزيع نظرات) كأنها أطراف السكاكين. رجل بخيل يرشق ضيوفه بنظرات حادة وهم يأكلون

٤٢ الغزو بجيش القوافي

يعاتب إبراهيم بن الحسن بن سهلٍ على عربدةٍ كانت منه عليه:

أَمَـا اسْـتَـحْـيَـيْـتَ مِـنْ مِـدَحٍ سَـوَارٍ   بِـوَصْـفِـكَ في الـتَّـهَـائِـمِ والـنُّـجُـودِ؟

ألم تستحيِ من مِدَحٍ (قصائد مدح) سوار (سارياتٍ مسافرات) تسافر ـ حاملة وصفك ـ في التهائم (المرتفعات) والنجود (الأغوار)؟

تَـوَدُّ بِـأَنَّـهـا لَـكَ فِـيَّ عُـجْـبـاً   بِجَوْهَرِهَا الـمُـفَـصَّـلِ في الـنَّـشِـيـدِ

أنت تودُّ لو أنك أنت قلت هذه القصائد في مدحي أنا، فأنت تضحي بمدح ذاتك لإعجابك بهذه الدرر التي يُبرز روعتها الإنشاد. [هذا المعنى الذي لمحته]

بَـنَـتْ لكَ مَعْقِلاً في الشِّعْرِ ثَبْتاً،   وأَبْـقَـتْ مِـنْـكَ ذِكْـراً في الـقَـصِـيـدِ

على أن قصائدي بنت لك حصناً ثابتاً في دنيا الشعر، وتركت لك ذكراً منقوشاً بالشعر

وتَـبْـدَهُـنـي إذا مَـا الـكَـأْسُ دَارَتْ   بِـنَـزْقَـاتٍ تَـجِـيءُ عَـلـى الـبَـرِيـدِ

وتبدهني (تفاجئني) إذا دارت الكأس بنزقات (عربدات) يشيع ذكرها ويذهب بها البريد إلى كل مكان. [هذا المعنى الذي لمحته]

ومَـا لـي قُـوَّةٌ تَـنْـهَـاكَ عَـنِّـي   ولا آوِي إلـى رُكْـنٍ شَـديـدِ

وليس لي قوة تنهاك (تكفُّك) عني، ولا ظهر لي يسندني من أذاك

سـوى شُـعَـلٍ يَـخَـافُ الـحُـرُّ مِـنْـهـا   لَـهِـيـبـاً غَـيـرَ مَـرْجُـوِّ الـخُـمُـودِ

اللهم إلا شُعلاً ناريةً (أبيات هجاء) يخاف منها الحر الحريص على سمعته لهيباً لا يرجى له انطفاء

ولـو أنِّـي أشـاءُ ـ وأنـتَ تُـرْبِـي   عَـلَـيَّ ـ لَـثُـرْتُ ثَـوْرَةَ مُـسْـتَـقِـيـدِ

ولو شئت ـ رغم أنك تربي (تزيد) عني في البأس ـ لثرت ثورة مستقيد (طالب للقصاص)

ظَلَمْتَ أَخاً لَوِ التَمَسَ انتِصَاراً غَـزَاكَ مِـنَ الـقَـوافـي فـي جُـنُـودِ

ظلمت أخاً (صاحباً) لو التمس (طلب) انتصاراً (انتقاماً) لغزاك بجنود هي عبارة عن أبيات الهجاء

٤٣ العراق أنْت

مودِّعاً أبا نهشل:

لا أُطِيقُ السُّلُوَّ عَنْكَ، ولو أنَّ ـ فُـؤَادي مِـنْ صَـخْـرَةٍ مَـرْمَـرِيـسِ

السلو (النسيان)، مرمريس (ضخمة)

لَيسَ حُزْني على العِرَاقِ، ومَا يُلْـ ـبِسُـهَا الـدَّهـرُ مِـنْ نَـعِيـمٍ وَبُـوسِ

بوس (بؤس)

مـا تُـرَابُ الـعِرَاقِ بِـالـعَـنْـبَـرِ الـوَرْ دِ، ولا مَـاءُ دِجْـلَـةٍ بِـمَـسُـوسِ

فتراب العراق ليس من العنبر الورد (الوردي اللون)، ولا ماء دجلة المسوس (الترياق الشافي)

غَيْرَ أَنِّي مُخَلِّفٌ، مِنْكَ، في آ خِرِ بَغْدَادَ، فَضْلَ عِلْقٍ نَفِيسِ

لكنني خلفت (تركت ورائي) في بغداد منك (أي ممثلا بك) فضل علق نفيس (بقية جوهر ثمين)، أي أنك جوهرة غالية على قلبي

٤٤ نفوسنا تتبعك

قال في وداع سليمان بن وهب:

وذي رَاحَـةٍ مِـثْـلِ صَـوْبِ الـغَـمَـا مِ، لـيـسَ لـه فـي الـعُـلا مُـؤْنِـسُ

رُبَّ صاحبِ راحةٍ (كفٌّ) تشبه صوب الغمام (مطرَ الغيم)، يجلس في العلا (المجد) وحيداً ليس معه أحد يؤنسه، لأنه لا يوجد من هو في علوّه

تَـحَـمَّـلَ نَـحْـوَ بـلادِ الـشَّـآ مِ، يَـحْـمِـلُـهُ مَـهْـمَـهٌ أَمْـلَـسُ

تحمَّل (زم متاعه للرحيل) نحو الشام، وحَمَلَه مهمه أملس (صحراء جرداء)

إذا مَـجَّـهُ بَـلَـدٌ بَـسْـبَـسٌ تَـلَـقَّـمَـهُ بَـلَـدٌ بَـسْـبَـسُ

في ترحاله كان يمجه (يقذفه) بلد بسبس (مقفر) ليتلقفه بلد بسبس آخر

أَقُـولُ لـه عِـنْـدَ تَـودِيـعِـنـا وكُـلٌّ بَـحـاجَـتِـهِ مُـبْـلِـسُ:

أقول له عند الوداع، وبينما كل شخص مبلس (قلق ومشغول) بحاجته (بشأنه)، فهو رجل راحل وهمومه أمامه، وأنا مقيم ولي شغل يشغلني مختلف عن شغله هو، أقول له..

لَئِنْ قَعَدَتْ عنكَ أجْسامُنا ... لقد سافَرَتْ مَعَكَ الأَنْفُسُ

.. لئن بقينا بأجسامنا، فإن أنفسنا (أرواحنا) تسير معك

هذا شأن من يودع عزيزاً، فهو يتابعه بقلبه؛ فأما من يودِّع غير عزيز فهو يترقب انتهاء لحظة الوداع ليعود إلى شأنه ويسقط من حسابه - ولو إلى حين - الشخص المرتحل

٤٥ رابعها لا ثالثهما

يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

يا نَديميَّ بِالسَّواجِيرِ مِنْ وُدِّ - ... ابْنِ مَعْنٍ وبُحْتُرِ بْنِ عُتُودِ

يا صاحبيَّ في منطقة السواجير (قرب نهر الساجور عند منبج بشمال سوريا)

أُطْلُبَا ثَالِثاً سِوَايَ، فَإِنِّي ... رَابِعُ العِيسِ والدُّجَى والبِيدِ

اتركاني وابحثا عن ثالث لكما، فأنا رابع العيس (الجمال) والدجى (الليل) والبيد (الصحارى).
يقول إنه رجلُ سَفَرٍ ومغامرة

٤٦ القنفذ

يمدح يوسف بن محمد بن يوسف:

ومُحْتَرِسٍ، مِنْ أينَ رُمْتَ اغتِرَارَه ... وَجَدْتَ لَهُ سَهْماً إِلَيْكَ مُفَوَّقا

هذا رجل محترس؛ من أي جهة رمت (أردت) اغتراره (خداعه) رأيته قد سدد إليك سهماً مفوقاً (مفلوجَ الذيل كي يثبت فيه الوتر، أي جاهزاً للإطلاق)

٤٧ مع السلطان.. ضد الخارجي

يمدح أبا سعيدٍ محمداً الثغري، ويذكر قتاله محمد بن عمرٍو الشاري الخارجي:

أَأَفاقَ صَبٌّ مِنْ هَوَىً، فَأُفِيقا؟ ... أم خَانَ عهداً، أم أَطَاعَ شَفِيقا؟

أفاق (كفَّ)، صب (عاشق)، الشفيق (المشفِق عليه)

إنَّ السُّلُوَّ، كَما تقولُ، لَرَاحَةٌ ... لو راحَ قلبي لِلسُّلُوِّ مُطِيقَا

مثلما تقول أيها المشفق فإن السلو (النسيان) راحة، هذا لو أطاق (احتمل) قلبي السلو

غَدَتِ الجَزيرةُ في جَنَابِ محمدٍ ... رَيَّا الجَنابِ، مَغارِباً وشُرُوقا

الجزيرة (منطقة في شمال شرق سوريا) ريا الجناب (مرتوية الأنحاء)

رَفَعَ الأميرُ أبو سَعيدٍ ذِكرَها ... وأقامَ فيها للمَكارِمِ سُوقا

يَسْتَمْطِرونَ يَداً يَفِيضُ نَوالُها فَيُغَرِّقُ المحْرومَ والمرْزُوقا

الناس يستمطرون (يطلبون المطر والخير) من يده التي يفيض نوالها (عطاؤها) فيعم المحروم والمرزوق

كُنَّا نُكَفِّرُ مِنْ أُمَيَّةَ عُصْبَةً طَلَبوا الخِلافةَ، فَجْرَةً وفُسُوقا

كنا نكفر جماعة من بني أمية سعوا لأخذ الخلافة فجرة (كذباً) وفسوقاً

ونَلُومُ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ كِلَيْهِما ونُعَنِّفُ الصِّدِّيقَ والفَارُوقا

ونلوم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، ونوبخ أبا بكر الصديق وعمر الفاروق، وكل هؤلاء يعدهم الشيعة مخطئين في مسألة حق آل البيت في الخلافة

وهُمُ قُرَيْشُ الأَبْطَحَيْنِ إذا انْتَمَوْا طَابُوا أُصُولاً فِيهِمُ وعُرُوقا

نلومهم مع أنهم من قريش الأبطحين (قريش ساكنة البطاح، ونسبها أعلى من بطون قريش الأخرى)

ونقولُ تَيْمٌ قَرَّبَتْ وعَدِيُّهَا أَمْراً بعيداً، حيثُ كانَ، سَحِيقا

وكنا نقول إن تيماً (فرع أبي بكر الصديق) وعديًّا (فرع عمر بن الخطاب) قربا الخلافة مع أنها بعيدة بعداً سحيقاً عن استحقاقهم

حتى غَدَتْ جُشَمُ بْنُ بَكْرٍ تَبْتَغي إِرْثَ النبيِّ، وتَدَّعِيه حُقُوقا

والآن تريد قبيلة جشم بن بكر (قبيلة محمد الشاري الطامع في الخلافة) إرث النبي وتراه حقها، فيا للمسخرة!

جَاءُوا بِرَاعِيهِمْ لِيَتَّخِذُوا به عَمْداً، إلى قَطْعِ الطَّرِيقِ، طَرِيقا

جاءوا برجل منهم هو راعي إبل أو غنم وجعلوا مطالبته بالخلافة طريقة لقطع الطريق والنهب

وأَقامَ يَنْفُذُ في الجزيرةِ حُكْمُه ويَظُنُّ وَعْدَ الكاذِبِينَ صَدُوقا

وأقام بالجزيرة متسلطاً، وهو يظن وعد حلفائه بمساندته صدقاً

حتى إذا مَا الحَيَّةُ الذَّكَرُ انْكَفَا مِنْ «أَرْزَنٍ» حَنِقاً، يَمُجُّ حَرِيقا

حتى إذا ما انكفأ (رجع) الحية الذكر (الرجل القوي المدبر) من منطقة أرزن وهو حنق (غاضب) يمج (ينفث) النار..

غَدَرَتْ أَمَانِيه به، وتَمَزَّقَتْ عَنْه غَيَابَةُ سُكْرِهِ تَمْزِيقا

.. عندئذ غدرت أماني المنشقّ به، وتمزقت غيابة سكره (يقصد غيابه عن وعيه سكراً/والغيابة في المعجم القعر)

طَلَعَتْ جِيَادُكَ مِنْ رُبَا الجُودِيِّ، قد حُمِّلْنَ مِنْ دُفَعِ المَنُونِ وُسُوقا

طلعت جيادك (خيولك) من ربا جبل الجودي (جبل يقع جنوب شرق تركيا الحديثة)، وهي محملة وسوقاً (أحمالاً) من دفع المنون (زخات الموت)

يَطْلُبْنَ ثَأْرَ اللَّهِ عندَ عِصابةٍ خَلَعُوا الإمامَ، وخَالَفُوا التَّوْفِيقا

الإمام (الخليفة)

٤٨ ترفع عن الشتم

يمدح أبا نهشلٍ محمد بن حميدٍ الطوسي ويعاتبه:

لآلِ حُمَيْدٍ مَذْهَبٌ فيَّ، لم أَكُنْ لأَذْهَبَه فِيهِمْ، ولو جَدَعُوا أَنْفي

لآل حميد طريقة في معاملتي ما كان يمكن أن أتبعها معهم ولو جدعوا أنفي

ولم أَرْمِ إلَّا كانَ عِرْضُ عَدُوِّهِمْ مِنَ الناسِ قُدَّامي، وأَعْراضُهُمْ خَلْفِي

لم أكن أرمي بسهامي (بشعري وهجائي) إلا وأعراض أعدائهم أمامي أرميها، وأما أعراضهم هم فهي خلفي أحميها

جَعَلْتُ لِساني دونَهُمْ، ولَوَ انَّهُمْ أَهَابُوا بِسَيْفي كان أَسْرَعَ مِنْ طَرْفي

جعلت لساني دونهم (حامياً لهم)، ولو أهابوا (طلبوا) أن أنصرهم بالسيف لكان سيفي أسرع من طرفي (نظري). أي أنني كنت نصرتهم بأسرع من رمشة العين

رَجَعْتُ إلى حِلْمي، ولو شِئْتُ شُرِّدَتْ نَوافِذُ تَمْضي في الدِّلاصِيَّةِ الزُّغْفِ

وبعد أن دافعت بالهجاء عن هؤلاء القوم رجعت إلى حلمي (مسامحتي)، ولو شئت لشُرِّدتْ (لأطلقت) سهام نوافذ (نافذة) تمضي (تدخل) في الدلاصية الزغف (الدرع الواسعة). يقصد لو شئت لأسرفت في الشتم، ولكن..

أَبَى لي العُبَيْدُونَ الثَّلاثَةُ أَنْ أُرَى رَسِيلَ لَئِيمٍ في المُبَاذَاةِ والقَذْفِ

..أبى لي العبيدون الثلاثة (أسلافه ومنهم أبوه عبيد) أن يراني الناس رسيل (شريك) لئيم في المباذاة (تبادل البذاءات) والقذف (الشتم)

وأَجْبُنُ عَنْ تَعريضِ عِرْضي لِجَاهِلٍ وإنْ كنتُ في الإقدامِ أَطْعَنُ في الصَّفِّ

أنا جبان عن تعريض عرضي لجاهل (سفيه)، وإن كنت في الحرب أطعن صف الأعداء

ولما تَبَاذَيْنا فَرَرْتُ مِنَ الخَنا بِأَشْياخِ صِدْقٍ، لم يَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ

لما تباذينا (تبادلنا الشتم البذيء) هربت من الخنا (الفحش) منقذاً من العار ذكرى أشياخ صدق (أسلاف ذوي مكانة)، كانوا شجعاناً لا يفرون من الزحف

وإنِّي لَئِيمٌ إنْ تَرَكْتُ لأُسْرَتي أَوَابِدَ تَبْقَى في القَرَاطِيسِ والصُّحْفِ

سأكون لئيماً لو تركت لأحفادي أوابد (قصائد خالدة) يقولها الأعداء في هجائنا وتبقى في القراطيس والصحف (الأوراق)

وَإِنِّـي لأَسْـتَـبْـقـي وِدَادَكَ لِـلَّـتـي تُلِمُّ، وأَرْضَى مِنْكَ دونَ الذي يَكْفي

يا أبا نهشل: إنني أبقي على الود معك لوقت الملمات، وأما بالنسبة للعطايا والمكافآت المالية فأنا أرضى منك بأقل مما يكفي حاجتي

وأَسْأَلُكَ النِّصْفَ احْتِجازاً؛ ورُبَّمَا أَبَيْتُ، فلَمْ أَسْمَحْ لِغَيْرِكَ بِالنِّصْفِ

أسألك النصف (أن تنصفني فلا تزيد عن الحد الأدنى) احتجازاً (فضاً للخلاف)، ومن غيرك لا أقبل بالحد الأدنى

فلا تَجْعَلِ المَعْرُوفَ رِقّاً، فَإِنَّنا خُلِقْنا نُجُوماً ليس يُمْلَكْنَ بِالعُرْفِ

فلا تجعل معروفك عبودية لي، فنحن نجوم لا يملكنا المال

٤٩ تقويم الأضلاع

يمدح يوسف بن محمد بن يوسف:

مـا أَحْـسَـنَ الأَيَّـامَ! إلَّا أَنَّـهـا يا صاحِبَيَّ! إذا مَضَتْ لـم تَرْجِعِ

كانوا جَمِيعاً، ثم مَزَّقَ شَمْلَهُمْ بَيْنٌ، كَتَقْوِيضِ الجَهَامِ المُقْلِعِ

بين (فراق)، كتقويض (كتشتيت) الجهام (السحاب غير الماطر) المقلع (المتبدد)

ووراءَهُـمْ صُـعَـدَاءُ أَنْـفـاسٍ، إذا ذُكِرَ الفِراقُ أَقَمْنَ عُوجَ الأَضْلُعِ

وبعد ذهابهم كنت أزفر الأنفاس الحرى التي تكاد لشدتها تقوم أضلاع صدري المعوجة. أخذ المعنى إيليا أبو ماضي في قوله: (لقد تُوشِكُ الحُمَّى، إذا جَدَّ جِدُّهَا//تُقَوِّمُ مِنْ أَضْلاعِيَ المُتَأَوِّدَا)

مَدَّتْ وِلايَـةُ يـوسُـفَ بْـنِ مُـحـمـدٍ سُـوراً عـلـى ذاكَ الـفَـضـاءِ الـبَـلْـقَـعِ

ولاية هذا الرجل كانت بمثابة سور أحاط بالفضاء البلقع (الأرض الواسعة الفارغة) فحمى البلاد من الأعداء

وأَعِـنَّـةُ الإسـلامِ فـي يَـدِ حَـازِمٍ قـد قَـادَهـا زمـنـاً، ولـم يَـتَـزَعْـزَعِ

أعنة (مقاود، حبال تقاد بها الإبل الخ)

وَلْـتَـهْـنِـكَ الآنَ الـوِلايَـةُ، إنَّـهـا طَـلَـبَـتْـكَ مِنْ بَـلَـدٍ بَعيدِ الـمَـنْـزِعِ

هنيئاً لك الولاية، فهي التي طلبتك وكنت في بلد بعيد المنزع (المرمى، الموقع)

لـم تُـعْـطِـهـا أَمَـلاً، ولـم تَـشْـغَـلْ بِـهَـا فِـكْـراً، ولـم تَـسْـأَلْ لـهَـا عَـنْ مَـوْضِـعِ

لم تكن الولاية ضمن أمنياتك، ولم تكن تفكر فيها

ورأيـتَ نفسَكَ فوقَـهـا، وَهِـيَ الـتي فـوقَ الـعَـلِـيِّ مِـنَ الـرِّجـالِ الأَرْفَـعِ

وصَلَتْكَ حينَ هَجَرْتَها، وتَزَيَّنَتْ بِأَغَرَّ وافي السَّاعِدَيْنِ سَمَيْدَعِ

أنت هجرت المنصب وهو جاءك. وتزين المنصب بك وأنت رجل أغر (بارز) وافي الساعدين (قوي) سميدع (شريف)

٥٠ نحن محاويج للمباهيج

أمَّا فؤادي! فَعِنْدَ اللَّهِ حِسْبَتُهُ فقد تَقَسَّمَهُ الغُرُّ المَبَاهِيجُ

عند الله حسبة قلبي (ثوابه عن معاناته/وفي الدين أن الذي يعاني يؤجر حتى لو لم يصنع خيراً) فقد اقتسم قلبي الغر (البيض) المباهيج (الحسان)

الغَانياتُ اللواتي قد رُزِقْنَ غِنَىً عَنَّا، ونَحْنُ إلَيْهِنَّ المَحَاوِيجُ

هؤلاء الحسان رَزَقهن الله غنى عنا (هكذا يظن أبو عبادة)، وأما نحن فنحتاج إليهن

٥١ الشيب الأسود

يمدح أبا أيوب:

وفُتُوَّةٍ جَمَعَ التُّقَى أطرافَها ونَدىً أحاطَ بِجَانِبَيْهِ السُّؤْدَدُ

هذه فتوة (شباب مع شهامة) ولكنها محاطة من أطرافها بالتقوى، وندى (كرم) وهو محاط من جانبيه بالسؤدد (السيادة)

وشَبِيبَةٍ فيها النُّهى، فإذا بَدَتْ لِذَوي التَّوَسُّمِ، فَهْيَ شَيْبٌ أسْوَدُ

وشبيبة (شباب) فيها النهى (العقل)، فإذا رآها ذوو التوسم (أهل الفراسة) عرفوا أنها شبيبة عاقلة، فكأن أصحابها شابوا ولكن.. شيباً أسود. أرأيت كيف يلوي البحتري اللغة ليّاً حتى يختصر المعنى ويجعله يرقص داخل عبارة ترقص

٥٢ وما عليَّ إذا لم تفهم البقر

يمدح علي بن مُرٍّ الطائي:

في الشَّيْبِ زَجْرٌ لهُ، لَوْ كانَ يَنْزَجِرُ، وَوَاعِظٌ مِنْهُ، لولا أنه حَجَرُ

يخاطب نفسه كأنه يخاطب شخصاً غائباً: في الشيب زجر (ردع) له لو كان يرتدع، وفي الشيب واعظ ذاتي له، ولكن هذا الرجل حجر لا يتعظ

اِبْيَضَّ ما اسْوَدَّ مِنْ فَوْدَيْهِ، وارْتَجَعَتْ جَلِيَّةُ الصُّبْحِ مَا قد أَغْفَلَ السَّحَرُ

ابيض ما كان مسوداً من فوديه (سالفيه)، واسترجعت جلية الصبح (انجلاء الصباح) ما كان أغفله السحر (قبيل الفجر). يقول إن بقايا شعرات سود كانت ما زالت باقية على سوادها، ثم طلع عليها فجر المشيب فبيَّضها

وَلِلفَتَى مُهْلَةٌ في الحُبِّ واسِعَةٌ   مَا لم يَمُتْ في نَواحِي رأسِهِ الشَّعَرُ

للفتى مهلة طويلة لكي يعشق، ولكن قبل أن يموت الشعر (يبيضَّ) في جوانب رأسه

قالتْ: مَشِيبٌ وعِشْقٌ رُحْتَ بَيْنَهُما،   وذاكَ في ذاكَ ذَنْبٌ ليس يُغْتَفَرُ!

قالت له العاشقة: أنت معلق بين مشيب وعشق، والعشق مع وجود الشيب ذنب لا يغتفر

عَزَّى عنِ الحَظِّ أنَّ العَجْزَ يُدْرِكُهُ،   وهَوَّنَ العُسْرَ عِلْمي فيمَنِ اليُسُرُ

عزاني عن قلة حظي أن المحظوظ سيؤول يوماً إلى عجز عندما يسن، وهون علي العسر (الفقر) علمي في أي الناس يحل الغنى. فالأغنياء هم السفلة، لذلك لست آسفاً على فوات الغنى

لم يَبْقَ مِنْ جُلِّ هذَا النَّاسِ بَاقِيَةٌ   يَنالُها الوَهْمُ إلَّا هذه الصُّوَرُ

لم يبق من معظم هؤلاء الناس بقية ينالها الوهم (يتصورها العقل) إلا هذه الصور الزائفة

بُخْلٌ وجَهْلٌ، وحَسْبُ المَرْءِ واحِدَةٌ   مِنْ تَيْنِ حتى يُعَفَّى خَلْفَهُ الأَثَرُ

فيهم بخل وجهل، وتكفي المرء واحدة من تين (هاتين) حتى يعفَّى (يزال) خلفه أثر أقدامه لئلا يكُرَّ عائداً

إذا مَحَاسِنِيَ اللاتِي أُدِلُّ بِها   كانتْ ذُنوبِي، فَقُلْ لي: كيف أَعْتَذِرُ؟

إذا كانت محاسني اللاتي أدل بها (أفخر بها) معدودة في الذنوب،
فكيف أعتذر (كيف أجد تسويغاً لمطالبي)

أَهُزُّ بِالشِّعْرِ أَقْواماً ذَوِي وَسَنٍ   في الجَهْلِ، لو ضُرِبُوا بالسَّيْفِ مَا شَعَرُوا

أهز بشعري (أبعث النخوة) أناساً ذوي وسن (نعاس) نائمين في جهلهم، لو ضربوا بالسيف لما شعروا لتحجر مشاعرهم

عَلَيَّ نَحْتُ القَوافِي مِنْ مَقَاطِعِها   ومَا عَلَيَّ إذا لم تَفْهَمِ البَقَرُ

عليَّ نحت القوافي من أماكن قطعها في الصخر، ولا ذنب علي إن لم تفهم البقر شعري أخذنا رواية «الموازنة» لهذا البيت لأنها أحلى

٥٣ بغال البشر

يخاطب سعيد بن معاوية:

أُشَرِّقُ أم أُغَرِّبُ يا سَعيدُ   وأَنْقُصُ مِنْ زَمَاعِي، أم أَزِيدُ؟

زماعي: عزمي

تَقَاذَفُ بِي بِلادٌ عن بِلادٍ   كأَنِّي بينَها جَمَلٌ شَرُودُ

البلاد تتقاذفني كما يتجول الجمل الشرود (الفار) بين الخيام، وكل قوم يضربونه ليبتعد عنهم درءاً لشبهة السرقة

وخَلَّفَني الزمانُ على أُناسٍ وجوهُهُمُ وأَيْدِيهِمْ حَدِيدُ

تركني الزمان لكي أرى ناساً وجوههم كشرة وأيديهم جامدة بخلاً

لَهُمْ حُلَلٌ حَسُنَّ، فَهُنَّ بِيضٌ وأَفعالٌ سَمُجْنَ، فَهُنَّ سُودُ

لهم حلل (ثياب) حسنَّ (جَمُلْنَ) فهن بيض، ولهم أفعال سمجة (قبيحة) فكأنها سوداء

وأخلاقُ البِغَالِ؛ فَكُلَّ يَومٍ يَعِنُّ لِبعضِهِمْ خُلُقٌ جَديدُ

ولهم أخلاق البغال. ونقل لنا الجاحظ: «البغل كثير التلون.. وهو مع هذا قتَّال لصاحبه»، وصنع في كتابه المعروف قائمة بمن قتلتهم بغالهم

وأكثرُ ما لِسَائِلِهِمْ لَديْهِمْ إذا ما جاءَ قولُهُمُ: تَعُودُ

أكثر شيء لديهم يعطونه لسائلهم (المستعطي منهم) قولهم: تعودُ (فوت علينا بُكرة)

أُناسٌ لو تَأَمَّلَهُمْ لَبِيدٌ بَكَى الخَلْفَ الذي يَشْكُو لَبِيدُ

أناس لو تأملهم الشاعر لبيد لبكى وترحم على الخلْف (الجيل الجديد الطالح) في زمنه الذين هجاهم لسوئهم إشارة إلى بيت لبيد بن ربيعة، وقد أَسَنَّ كثيراً: (ذهب الذين يُعاش في أكنافهم/ وبقيت في خلْف كجلد الأجرب)، فلبيد يتأفف من معاصري شيخوخته لأن الأكارم من السلف ماتوا ولم يبق سوى ناسٍ متعفنين رديئين كجلد البعير الأجرب. والبحتري يقول: هؤلاء الناس في زمني أنا لو رآهم لبيد لبكى على المتعفنين شوقاً إليهم، فمعاصِرِيَّ أردأ بكثير

ألا لَيْتَ المَقَادِرَ لم تُقَدَّرْ ولم تَكُنِ الأَحَاظي والجُدُودُ

ليت الأقدار لم تقدَّر بشكلها الحالي، وليتَ لم تكن موجودة الأحاظي (الحظوظ) والجدود (جمع الجَدِّ وهو الحظ). ذلك أن الحظوظ في نظره هي التي ترفع بعضاً وتخفض بعضاً

فَنَنْظُرَ أَيُّنا يُضْحي ويُمْسي له هذي المَوَاكِبُ والعَبِيدُ

فلو حدث ذلك لرأينا من الذي يكون له هذه المواكب والعبيد

فَلَوْ كانَ الغِنَى حَظّاً كَريماً لأَخْطَأَهُ النَّصَارَى واليَهودُ

لو كان الغنى شيئاً مشرفاً لما وجدنا أغنياء بين النصارى واليهود

٥٤ فقر الأنبياء

قال ضمن معاتبته يوسف بن محمد:

مَنْ كانَ يَحْمَدُ أو يَذُمُّ زمانَهُ هَذا، فَمَا أَنا لِلزَّمانِ بِحَامِدِ

فَقْرٌ كَفَقْرِ الأنبياءِ، وغُربةٌ، وصَبابَةٌ؛ ليسَ البَلاءُ بِوَاحِدِ

صبابة (اشتياق)

٥٥ الهجاء بعد المديح

يهجو ابن بنت أبي منصور الكاتب:

زَنَتْ زَمَاناً فَلَمَّا عَنَّسَتْ هَرَمَاً قَادَتْ على كُلِّ قَوَّادٍ وخَمَّارِ

زنت (فَعَلت الزنا) وهي شابة، فلما كبرت وهرمت بلا زواج قادت (صارت قوادة تضارب بنشاطها) على كل خمار وقواد

فهي لم تكتف بالقيادة (أي قيادة النساء للرجال والعكس، بيعاً للجنس وشراء) بل قادت على الخمارين والقوادين فضاربت عليهم في صناعتهم

لَرَهْزَةٌ مِنْ غَوِيٍّ في مَضارِطِها أشْهَى إلى قلبِها مِنْ ألفِ دينارِ

الرهز (الهزُّ والدفْع)، الغوي (الضال)، مضارطها (اختر الفتحة الأنسب لمعنى الكلمة)، وقد أسرف البحتري، ومعاصره ابن الرومي في هجاء أمهات الناس، وأوردوا هذا المعنى: أن المومس تلتذ الجنس، ومما يخبرنا به علماء الاجتماع في زمننا نقلاً عن المحترفات أنهن لا يجدن في الجنس مع الرجال المشترين له أي متعة

جَاءَتْ بِنَغْلٍ وَقَاحٍ بارِدٍ وَضِرٍ ذِي مَوْلِدٍ نَجِسٍ مِنْ غَيْرِ تَطْهَارِ

وولدت نغلاً (ابن زنا) وقاح (وقح) بارد (ثقيل الدم) وضر (وسخ)، وقد ولدته في فراش النجاسة من غير تطهار (طهارة)، لا يريدها البحتري أن تكون اغتسلت بعد النفاس؟ هذا المعنى الملموح

وليسَ يَصْلُحُ، إنْ كَشَّفْتَ هِمَّتَهُ، إلَّا لِفَاحِشَةٍ، أو حَمْلِ مِزْمَارِ

لا يصلح هذا الرجل - إذا كشفت (اختبرت) همته (طموحه) - إلا لتفعل فيه الفاحشة، أو لعزف المزمار

مَازَحْتُهُ، غيرَ ذي عِلْمٍ بِخِسَّتِهِ، في نَظْمِ مَمْدَحَةٍ مِنْ حُرِّ أَشْعَارِي

نظمت فيه قصيدة مدح على سبيل المزاح، وأنا لا أعلم مدى خسته (حقارته)

فأَظْهَرَ التِّيهَ مِنْ جَهْلٍ، وَقَابَلَنِي بِسَيِّءٍ لم يَكُنْ مِنْ حَقِّ مِقْدارِي

فأظهر التيه (التكبر) لجهله، وقابلني بالسوء

يا ابْنَ التي ضَرَطَتْ مِنْ تَحْتِ (بَائِكِها) ضَرْطَ الحِمَارِ ضَغَا مِنْ كَيٍّ بِيطارِ

يا ابن التي فعلت كذا تحت كذا (صحِّف الباء)، فعل الحمار ضغا (نهق) عندما كواه البيطار (الطبيب البيطري)

إحْدَى النَّوادِرِ مِنْ قِرْدٍ تَعَرُّضُهُ، مِنْ غَيْرِ مَقْدِرَةٍ، لِلْقَسْوَرِ الضَّارِي

إن من النوادر (العجائب) التي نراها من القرد أن يتعرض (يتصدى) بغير مقدرة منه للقسور الضاري (للأسد المفترس)

٥٦ مددت يدي.. لكن للصديق

قال في أبي مسلمٍ الكَجِّي وأسد بن جهور:

أَهْوَى الثَّراءَ، وكمْ مِنْ ثَرْوةٍ كَسَبَتْ   لِيَ العَداوةَ مِنْ رَهْطِي ومِنْ وَلَدي

رهطي (قومي)

حتى لأَنْكَرْتُ مَنْ قد كنتُ أعرِفُهُ   مِنَ الأخِلَّاءِ، واسْتَوحَشْتُ مِنْ بَلَدي

الأخلاء (الأصدقاء)

وكَمْ أَضَقْتُ، وما أَشْفَقْتُ مِنْ بُلَغٍ،   ولا مَدَدْتُ، إلى غيرِ الصَّديقِ، يَدي

كثيراً ما أضقت (افتقرت)، ولكنني ما أشفقت (خفت) من العيش على بُلَغ (تصبيرات)، وما مددت يدي إلا لصديق

٥٧ توليد الذهب من الحديد

يمدح مُرَّ بنَ علي الطائي:

أقِيمُوا بَنِي الدَّيَّانِ مِنْ سُفَهَائِكُمْ   فقد طَالَ عن قَصْدِ السَّبيلِ مَحِيدُها

أقيموا (قوّموا) يا بني الديان اعوجاج سفهائكم، فقد طال محيدهم (انحرافهم) عن قصد السبيل (الطريق القويم)

أمَا آنَ أَنْ يَنْهَى عنِ الجَهْلِ والخَنَا   قِيَامُ المنايَا فِيكُمُ وقُعُودُها؟

أما حان الوقت كي ينهاكم عن الجهل (الطيش)
والخنا (البذاءة) استفحال القتل فيكم

قَرَابَتَكُمْ، لا تَظْلِمُوها، فَتَبْعَثُوا   عليْكُمْ صُدُوراً ما تَمُوتُ حُقُودُها

احفظوا أقرباءَكم ولا تظلموهم، لئلا تبعثوا (تثيروا) عليكم صدوراً لا يموت فيها الحقد، ولا تنسى الإساءة

لها الحَسَبُ الزَّاكِي الذي تَعْرِفُونَه   وفيها طَرِيفَاتُ العُلا وتَلِيدُها

قرابتكم فيها الحسب الزاكي (السمعة الطيبة) وفيها من المعالي طريفها (مكتَسَبها) وتليدها (موروثها)

فلا تَسْأَلُوها عن قَديمِ تُرَاثِها   فَعَسْجَدُها مِمَّا أَفادَ حَديدُها

ولا تسألوا هؤلاء الأقارب عما ورثوه من خير، فعسجدهم (ذهبهم) اكتسبوه بحديدهم. أي أنهم نالوا الأموال بالسيف

٥٨ قتيل الكلاب

يرثي حُمَيْداً الطوسي:

ولَـمَّـا رَأَوْا بَـعْـضَ الـحـيـاةِ مَـذَلَّـةً عَـلَـيْـهِـمْ، وعِـزَّ الـمَـوْتِ غَـيْـرَ مُـحَـرَّمِ

أَبَوْا أَنْ يَذُوقُوا العَيْشَ، والذَّمُّ واقِعٌ عَـلَـيْـهِ، ومَـاتُـوا مِـيـتَـةً لـم تُـذَمَّـمِ

رفضوا أن يذوقوا العيش وصفة الذم واقعة عليه (ملتصقة به)، وماتوا ميتة شريفة غير مذمومة

سلامٌ على تِلْكَ الخَلائِقِ، إنَّها مُـسَـلَّـمَـةٌ مِـنْ كُـلِّ عَـارٍ ومَـأْثَـمِ

ولا عَجَبٌ لِلأُسْدِ أَنْ ظَفِرَتْ بِها كِلابُ الأَعَادِي مِنْ فَصِيحٍ وأَعْجَمِ

فَحَرْبَةُ وَحْشِيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى، وحَتْفُ عَلِيٍّ في حُسَامِ ابْنِ مُلْجِمِ

وحشي، وهو من العبيد، قتل حمزة عم النبي بحربته؛، وابن ملجم قتل علياً بسيفه، فلا عجب أن يُقتَل الشريف بيد الوضيع

أَبَـا مُـسْـلِـمٍ لا زِلْـتَ بـيـنَ مُـوَدِّعٍ مِنَ المُزْنِ مَسْكُوبِ الحَيَا، ومُسَلِّمِ

لا زلت (أبقاك الله) بين نوعين من المزن (السحاب): مودع ذاهب بعد أن سكب الحيا (الماء)، ومسلم (قادم يطرح السلام لكي يهطل). وكانوا يدعون للميت بالسقيا

ومَا جَدَثٌ فيهِ ابْتِسَامُكَ لِلْنَّدَى، إذا أَظْلَمَتْ أَجْدَاثُ قَوْمٍ، بِمُظْلِمِ

والجدث (القبر) الذي يضم الابتسامة ـ التي كانت ترتسم على وجهك وأنت تعطي الناس ـ قبر مضيء، في حين قبور الآخرين مظلمة. التسويد من أحمد عبد الرحيم

٥٩ قعي إن شئت أو طيري

حُلِّي سُعَادُ غُرُوضَ العِيسِ، أو سِيري وأَنْجِدي في التِماسِ الحَظِّ، أو غُورِي

فكي يا سعاد غروض العيس (حبال النياق) وانزلي بالمكان، أو سيري وارحلي؛ وأنجدي (اصعدي الهضاب) في التماس (طلب) الحظ، أو غوري (انزلي الوديان)

كُـلُّ الـذي نَـتَـرَجَّـاهُ ونَـأْمُـلُـهُ مُـضَـمَّـنٌ فـي ضَـرُوراتِ الـمَـقَـادِيرِ

فكل شيء بقدر محتوم

فَـمَـا يُـقَـرِّبُ تَـقْـرِيـبِـي شَـواسِـعَـهَـا ولا يُـبَـاعِـدُ مَـا أَدْنَـيْـنَ تَـأْخِـيـرِي

لا يقرب تقريبي (التقريب: السير السريع على الناقة) شواسع المقادير (النائي منها)، ولا يباعد ما أدنته (قربته) الأقدار تأخيري

تَغْدُو الكِلابُ ولا فَضْلٌ يُعَدُّ لَها   سِوَى الذي بَانَ مِنْ نَقْصِ الخَنَازِيرِ

كذا هي الحظوظ: فضيلة الكلاب هي معرفتنا أنها أقل نقصاً (عيباً) من الخنازير، ليس أن الكلاب ذات فضل حقاً

قد قُلْتُ لِلرَّخَمِ المَرْذُولِ مَكْسَبُهَا: خَسَّ الجَدَا، فَقَعِي إنْ شِئْتِ، أو طِيرِي

قلت للرخم (نوع طيرٍ يأكل المستقذرات) ذات الطعام المرذول (الحقير): لقد خسَّ (قلَّ) الجدا (العطاء)، فقعي (اهبطي واقعةً) أو طيري، فلا يهمني الأمر. يقول: هؤلاء الشعراء الذين يمدحون الكبراء لقاء دريهمات قليلة لا يهمونني، ولن أنافسهم في مكسبهم الخسيس

٦٠ بدر ينير النَّقَرَى

يعاتب علي بن يحيى المنجم، ويستبطئ الفتح بن خاقان:

ومَا منَعَ الفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ نَيْلَهُ   ولكِنَّها الأَقْدَارُ تُعْطِي وتَحْرِمُ

النيْل (العطاء)

سَحَابٌ خَطَانِي جَوْدُهُ، وَهْوَ مُسْبِلٌ   وبَحْرٌ عَدَانِي فَيْضُهُ، وَهْوَ مُفْعَمُ

سحاب خطاني (تخطاني) جَوْده (مطره)، وهو مسبل (هاطل)؛ وبحر (نهر) عداني (تعداني) فيضانه مع أنه مفعم (مليء)

وبَدْرٌ أَضَاءَ الأرضَ شرقاً ومَغْرِباً   ومَوْضِعُ رِجْلي منهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

أَأَشْكُو نَدَاهُ بعدَما وَسِعَ الوَرَى؟   ومَنْذَا يَذُمُّ الغَيْثَ إلَّا مُذَمَّمُ!

٦١ هيبة اللقاء

يمدح الفتح بن خاقان، ويصف دخوله إليه وسلامه عليه:

ولَيْلَةَ هَوَّمْنَا على العِيسِ، أَرْسَلَتْ   بِطَيْفِ خَيَالٍ يُشْبِهُ الحَقَّ بَاطِلُهْ

في الليلة التي هومنا (نعسنا) فيها فوق العيس (الجمال) أرسلت المحبوبة طيفها الذي هو باطل وخيال ولكنه أشبَهَ الحق لشدة شعوري به

فَلولا بَيَاضُ الصُّبْحِ طالَ تَشَبُّثي   بِعِطْفَيْ غَزالٍ، بِتُّ وَهْناً أُغَازِلُهْ

ولولا طلوع الصباح لبقيت متشبثاً بعطفي (جانبي) غزال بت وهناً (ليلاً) أغازله في أحلامي

وقد قُلْتُ لِلْمُعْلِي إلى المجدِ طَرْفَهُ:   دَعِ المجدَ، فالفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ شَاغِلُهْ

قلت للرافع طرفه (نظره) باتجاه المجد يريده: اترك المجد فهو من نصيب الفتح بن خاقان وحده

سِنَانُ أميرِ المؤمنينَ، وسَيْفُهُ   وسَيْبُ أميرِ المؤمنينَ، ونَائِلُهْ

هو سنان (طرف رمح) الخليفة وسيفه، وهو سيبه (عطاؤه)، ونائله (عطاؤه)

وما السَّيْفُ إلا بَزُّ غَادٍ لِزينَةٍ، إذا لم يَكُنْ أَمْضَى مِنَ السيفِ حَامِلُهْ

ليس السيف سوى بز (ثوب فاخر) لرجل غاد لزينة (ذاهب لحفل)
إذا لم يكن حامل السيف أمضى من سيفه. يقول: السيف مجرد زينة كالثوب الفاخر،
ولكنه يصبح سيفاً حقاً إذا كان حامله شجاعاً

ولما حَضَرْنا سُدَّةَ الإذْنِ أُخِّرَتْ رِجالٌ عَنِ البابِ الذي أنا دَاخِلُهْ

لما حضرنا إلى سدة الإذن (القاعة الخارجية التي يؤذن لنا فيها بالدخول على الأمير) كنت من المتقدمين، وبعضهم أُخِّر عني

فَأَفْضَيْتُ، مِنْ قُرْبٍ، إلى ذي مَهَابةٍ أُقَابِلُ بَدْرَ الأُفْقِ حِينَ أُقَابِلُهْ

فأفضيت (وصلت) قريباً من رجل ذي هيبة، كأنني أقابل البدر إذ أقابله

فَسَلَّمْتُ، واعْتَاقَتْ جَنَانِيَ هَيْبَةٌ تُنَازِعُني القولَ الذي أنَا قَائِلُهْ

طرحت السلام، ثم اعتاقت جناني (أعاقت قلبي) هيبته،
فصارت هيبته تجاذبني كلامي وتمنعني الإفصاح

فلَمَّا تَأَمَّلْتُ الطَّلاقَةَ، وانْثَنَى إلَيَّ بِبِشْرٍ، آنَسَتْني مَخَايِلُهْ

فلما تأملت (رأيت) الطلاقة (الانشراح) في وجهه، آنستني (شرحت صدري) مخايله (ملامحه)

دَنَوْتُ، فَقَبَّلْتُ النَّدَى في يَدِ امْرِئٍ جَمِيلٍ مُحَيَّاهُ، سِبَاطٍ أَنَامِلُهْ

اقتربت وقبلت يده فكأنني قبلت الندى (الكرم)، وهو جميل الطلعة،
وسباط أنامله (طويلة أصابعه/ كناية عن الكرم)

٦٢ في بغداد العاصمة

قال البحتري (ولعله قالها في أول سنواته ببغداد):

اِخْلَعْ بِبَغْدَادَ العِذَارا وذَعِ التَّنَسُّكَ والوَقَارَا

اخلع العِذار (تهتَّكْ، وصِعْ)

فلقد بُلِيتَ بِعُصْبَةٍ مَا إِنْ يَرَوْنَ العَارَ عَارَا

ففيها ابتُليتَ بعصبة (بجماعة) لا يرون العار عاراً

لا مُسْلِمِينَ، ولا يَهُو دَ، ولا مَجُوسَ، ولا نَصارَى

هم على دين أبي نواس رحمه الله!

٦٣ قل لي ماذا أفعل

قال، وهي من أوائل ما مدح به الفتح بن خاقان:

لَكَ النَّعْمَاءُ، والخَطَرُ الجَليلُ ومِنْكَ الرِّفْدُ، والنَّيْلُ الجَزيلُ

الخطر (القدر)، الرفد (العطاء)

أُمِرْتُ بِأَنْ أُقِيمَ على انتظارٍ لِرَأْيِكَ، إنَّهُ الرَّأْيُ الأَصِيلُ

أمرني أفراد حاشيتك أن أنتظر

ورَاقَبْتُ الرَّسُولَ، وقُلْتُ يَأْتِي بِتِبْيَانٍ؛ فَمَا جاءَ الرَّسُولُ

فليسَ، بِغَيْرِ أَمْرِكَ، لِي مُقَامٌ، ولا، عَنْ غَيرِ رَأْيِكَ، لي رَحِيلُ

وقد أَوْقَفْتُ عَزْمِيَ والمَطَايا فَقُلْ شَيئاً، لأَفْعَلَ مَا تَقُولُ

أوقفت عزمي والمطايا (الدواب) رهن إشارتك، فقل لي أأرحل أم أبقى؟

٦٤ الإنذار الأخير

يعاتب الحارثي الشاعر:

وما أنَا بِالظَّمْآنِ فِيكَ إلى التي أَرَى بَيْنَ قُطْرَيْها لِجَنْبِكَ مَصْرَعا

لست شديد التوق إلى حرْبة يكون بين طرفيها مصرعك [كذا فهمت المعنى]

أَغَارُ على ما بَيْنَنا أَنْ يَنالَهُ لِسَانُ عَدُوٍّ لم يَجِدْ فيكَ مَطْمَعا

أغار على الود الذي بيننا أن يتناوله لسان عدو لم يكن يطمع في إلحاق الأذى بك سابقاً

مَلَكْتُ عِنَانَ الهَجْرِ أَنْ يَبْلُغَ المَدَى ونَهْنَهْتُ قَوْلَ الشِّعْرِ أَنْ يَتَسَرَّعا

أمسكت بعنان (بحبل) الهجر ومنعته أن يبلغ مداه، ونهنهت (خففت) من الشعر حتى لا يتسرع بهجائك

فَإِنْ تَدْعُني لِلْشَّرِّ أُسْرِعْ، وإِنْ تُهِبْ بِصُلْحِي فقد أَبْقَيْتُ لِلْصُّلْحِ مَوْضِعا

فإن فعلت ما يدعوني إلى الشر (المهاجاة) سأسرع، وإن تُهِبْ (تبادر) بالصلح فإنني تركت للصلح موضعاً

٦٥ الخميس الخامس

قال في علي بن يحيى المنجم:

مَا أَنْصَفَتْ بغدادُ حين تَوَحَّشَتْ لِنَزِيلِها، وَهِيَ المَحَلُّ الآنِسُ

توحشت (أصبحت موحشة)

لـم يَـرْعَ لـي حَـقَّ الـقَـرَابَـةِ طَـيِّءٌ   فـيـهـا، ولا حَـقَّ الـصَّـدَاقَـةِ فَـارِسُ

لم يراعِ حق القرابة أبناء قبيلة طيء (وهي قبيلة البحتري)، ولا حق الصداقة فارس (الفُرس)

أَعَـلِـيُّ! مَـنْ يَـأْمُـلْـكَ بَـعْـدَ مَـوَدَّةٍ   ضَـيَّـعْـتَـهـا مِـنِّـي، فَـإِنِّـيَ آيِـسُ

يا علي! إن كان هناك من يأمل خيرك بعد تضييعك مودتي، فإنني أنا آيس (يائس) ولا آمل خيرك

وَاعَدْتَني يومَ الـخَميسِ، وقَدْ مَضى   مِنْ بَعدِ مَوْعِدِكَ الخميسُ الخَامسُ

قَـدَّمْـتَ قُـدَّامـي رِجـالاً، كُـلُّـهُـمْ   مُـتَـخَـلِّـفٌ عَـنْ غـايَـتـي مُـتَـقـاعِـسُ

لبيت طلبات رجال آخرين، وكلهم متخلف عن غايتي (منخفض عن قدري)، متقاعس (متقهقر، أي أدنى مرتبة)

وأنـا الـذي أَوْضَحْتُ، غَيْرَ مُدَافَعٍ،   نَـهْـجَ الـقَـوافـي، وَهْـيَ رَسْـمٌ دَارِسُ

وأنا الذي أوضحت غير مدافَعٍ (بلا منازع) نهج القوافي (طريق الشعر)، بعد أن كانت رسماً دارساً (معالم ممحوَّة)

وشُـهِـرْتُ فـي شَـرْقِ الـبـلادِ وغـربِـهـا   فَـكـأَنَّـنـي فـي كـلِّ نـادٍ جَـالِـسُ

٦٦ عليه اعتمادي

وقال يمدح الفتح بن خاقان:

كَـفَـانـي نَـائِـبـاتِ الـدَّهْـرِ أَنّـي   على الفَتْحِ بنِ خَاقَانَ اعتِمادِي

ولـي هَـمَّـانِ مِـنْ ظَـعْـنٍ ولَـبْـثٍ   وكُـلٌّ قـد أَخَـذْتُ لـهُ عَـتَـادِي

لي نية في الظعن (الرحيل) ونية أخرى في اللبث (الإقامة)، وللحالين أخذت استعدادي

فَـإِنْ أُوطِـنْ، فَـقَـدْ وَطَّـدْتَ رُكْـنـي   وإِنْ أَرْحَـلْ، فـقـد وَفَّـرْتَ زَادِي

فإن أوطن (إن أُقِمْ) فأنت قد وطدت ركني بعطاياك، وإن أرحل فقد زودتني ما يكفيني

٦٧ تفاوت الرجال

يمدح الفتح بن خاقان وابنه أبا الفتح:

ولـم أَرَ أَمْـثـالَ الـرِّجـالِ تَـفـاوَتَـتْ   إلى الفَضْلِ، حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ

لم أجد مثل الرجال في التفاوت في الفضل، فالرجل الواحد قد يكون بألف رجل

ولَنْ تَسْتَبِينَ، الدَّهْرَ، مَوْضِعَ نِعْمَةٍ   إذا أَنْتَ لم تُدْلَلْ عليْها بِحَاسِدِ

ولن تعرف الدهرَ (طولَ الدهر) مكان النعمة عند شخص إلا إذا حسده حاسد فدلك عليها. هذا بيت سرق فيه البحتري معنى أستاذه أبي تمام، فوقع دونه. وما أكثر ما سرق من أبي تمام

٦٨ المنعم المحسود

يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم:

قلبٌ مَشُوقٌ عَنَاهُ البَثُّ والكَمَدُ   ومُقْلَةٌ تَبْذُلُ الدَّمعَ الذي تَجِدُ

قلب مشتاق عناه (أتعبه) البث (البوح) كما أتعبه الكمد (الكتمان)، وعين تريق الدمع الذي يتيسر لها

تَدنُو سُلَيْمَى، ولا يَدنُو اللِّقاءُ بِها،   فَيَسْتَوِي في هَوَاها القُرْبُ والبُعُدُ

تقترب سليمى مكاناً ولكن اللقاء بها لا يكون ميسوراً، فلهذا يتساوى عندي قربها وبعدها

آلَيْتُ لا أَجْعَلُ الإعْدَامَ حادِثَةً   تُخْشَى، وعِيسى بنُ إبرَاهِيمَ لي سَنَدُ

آليت (حلفت) أن لا أجعل من الإعدام (الفقر) حادثة (معضلة) أتخوف من حلولها ما دام عيسى بن إبراهيم سنداً لي

ولا يُؤَخِّرُ شُغْلَ اليومِ يَدْخَرُهُ   إلى غَدٍ؛ إنَّ يومَ الأعْجَزِينَ غَدُ

ولا يؤخر إنجاز ما يجب إنجازه اليوم ولا يدخره (يخبئه) للغد؛ والتأجيل للغد حيلة الأكثر عجزاً من الناس

مُحَسَّدٌ بِخِلالٍ فِيهِ فَاضِلَةٍ؛   وليس تَفْتَرِقُ النَّعْماءُ والحَسَدُ

محسد (محسود) بخلال (بصفات) فيه فاضلة (متميزة)؛ والنعمة دائماً مقرونة بحسد الحاسدين لصاحبها

٦٩ التصدق بالمديح

قال يخاطب محمد بن نصر بن منصور بن بسام:

رأيتُكَ تَهوَى اقْتِنَاءَ المَدِيحِ   وَتَجْهَلُ مِقْدارَ إيجابِهِ

إيجابه (ما يوجبه عليك من دفع مقابل)

وكيفَ تُرَجِّي وُصولاً إليهِ   ولم تَتَوَصَّلْ بأَسبابِهِ؟

كيف تأمل الوصول للمديح، ولم تتوصل بأسبابه (تحصل على لوازمه)

لئنْ كنتُ أَمنَحُهُ الأكرَمِينَ   فما أنتَ أولُ أَربابِهِ

أربابه (أصحابه)

وإنْ أَتَطَلَّبْ بهِ نَائِلاً   فَلَسْتَ مَلِيّاً بِإطْلابِهِ

إن أتطلب (أطلب) بالمديح الذي أقدمه نائلاً (عطاءً)، فأنت يا هذا لست مليّاً (جديراً) بإطلابه (بتحقيقه)

وإنْ أتَـــصَـــدَّقْ بـــه حِـــسْـــبـــةً   فـــإنَّ الـــمَـــسَـــاكـــيـــنَ أوْلَـــى بِـــهِ

وإن كنت أتصدق به حسبة (لوجه الله)، فالمساكين أولى به منك

٧٠ صحراء بسبعة أبواب

لـــن تَـــرانـــي لـــكَ الـــعـــيـــونُ بِـــبَـــابِ   لـــيسَ مِـــثْـــلي يُـــطِـــيـــقُ رَدَّ الـــحِـــجَـــابِ

لن أقف ببابك بعد الآن منتظراً إذن الدخول، فلستُ ممن يحتمل ردَّ الحجاب إياه خائباً

يـــا أَمـــيـــراً عـــلـــى جَـــرِيـــبٍ مِـــنَ الأر   ضِ، لَـــهُ سَـــبْـــعَـــةٌ مِـــنَ الأبـــوابِ

أنت أمير على جريب (أرض يكفيها جراب من البذور لزراعتها)، ومع ذلك لك سبعة أبواب، باباً وراءَ بابٍ، مغلقة تمنع الوصول إليك

جَالِساً في الخرابِ يُحْجَبُ عنهُ؛   مَـــا سـَــمِـــعْـــنَـــا إِمَـــارةً فـــي خَـــرَابِ

يجلس في خراب ويُحْجَبُ عنه (يحجُبُ الحجَّابُ الناسَ عن لقائه)، فما هذه الإمارة في الخراب؟

٧١ تغيَّرَ بعدما أثرى

قال معاتباً:

وَذي ثِـــقَـــةٍ تَـــبَـــدَّلَ حـــيـــنَ أَثْـــرَى،   ومِـــنْ شِـــيَـــمـــي مُـــرَاقَـــبَـــةُ الـــثِّـــقَـــاتِ

رب صاحب أثق به تبدل حين صار ثرياً، ومن شيمي (صفاتي) مراقبة الثقات (الاهتمام بأهل الثقة). المراقبة هنا معناها الاهتمام الإيجابي وليس الفرجة السلبية

فَـــقُـــلْـــتُ لَـــهُ: عَـــتَـــبْـــتَ بِـــغَـــيْـــرِ جُـــرْمٍ   فِـــراراً مِـــنْ مَـــؤُونَـــاتِ الـــعِـــدَاتِ

فقلت له: قد عتبت علي ولا جرم (ذنب) لي، وعتبك هو طريقة لكي تتهرب من مؤونات العدات (مستلزمات الوعود التي كنتَ قدمتها)

فَـــعُـــدْ لِـــمَـــوَدَّتـــي، وعَـــلَـــيَّ ألَّا   أَبُـــثَّـــكَ حَـــاجَـــةً حـــتـــى الـــمَـــمَـــاتِ

فارجع لمودتي، ولك عليَّ ألّا أبثك (أبلغك) حاجة من حاجاتي حتى الموت

٧٢ مصير العاشق

يمدح أبا نوحٍ عيسى بن إبراهيم:

لو زارَ، في غَيْرِ الكَرَى، لَشَفَاكَ مِنْ   خَبَلِ الغَرامِ، ومِنْ جَوَى بُرَحَائِهِ

لو زار المحبوب بجسمه، وليس في الكرى (في النوم، وأنت تحلم به)، لشفاك من خبل (جنون) الغرام، ومن جوى (ألم) برحائه (آلامه)

فَدَعِ الهَوَى، أوْ مُتْ بِدَائِكَ؛ إنَّ مِنْ شـأنِ الـمُـتَـيَّـمِ أنْ يَـمُـوتَ بِـدَائِـهِ

فاترك الحب، أو مت بالداء الذي سببه لك؛
ومن شأن المتيم (طبيعي للعاشق) أن يموت بداء العشق

٧٣ الغزل بالأصابع

قال البحتري لأبي صالح بن عمار يداعبه:

مُـنْـعِـظُ الـطَّـرْفِ، لا يَـزَالُ يُـوَالـيِ لَـحَـظَـاتٍ يُـحْـبِـلْـنَ قَـبْـلَ الـنِّـكَـاحِ

منعظ (منتصب، كما متاع الرجل) الطرف (العين)، يوالي (يكرِّر) لحظات (نظرات) يحبلن (يؤدين إلى الحَبَل) قبل حصول الجماع. فصاحبه هذا نظراته فيها انتصاب

ومُـغِـيـرٌ عـلـى الأَصَـابِـعِ بـالـلَّـمْـ ـسِ لَـهـا فـي أَسَـافِـلِ الأَقْـدَاحِ

ويشن غارات على أصابعها يتلمسها بأصابعه في أسفل القدح. لا بد أن أبا عبادة صنع ذلك بنفسه أو رآه، فصعْبٌ اختلاق موقفٍ كهذا

٧٤ سمن على عسل

يمدح الفتح بن خاقان:

وجَدْتُ نَفْسَـكَ مِنْ نَفْـسي بِمَنْزِلَةٍ هِيَ الـمُـصَـافَـاةُ بينَ الـمـاءِ والـرَّاحِ

يشبهون سهولة الامتزاج بين روحين بسهولة الامتزاج بين الماء والخمر. ولو خلطت زيتاً بماء لطَفَا الزيت لخفته، فأما الخمر والماء فكثافتهما متقاربة. وأرى أنهم يعنون بالراح، وبالخمر أيضاً، ضرباً من المشروب أقرب إلى العرق والويسكي (نسبة الكحول في كل منهما نحو ٤٠٪)؛ ولهذا فهم يتغنون بمزجها، فأما النبيذ (نسبة الكحول من ١٢،٥٪ ـ ١٤٪) فلا يخلطه بالماء عاقل

٧٥ السر المفضوح

يمدح الفتح بن خاقان:

عَـلاقَـةُ حُـبٍّ كُـنـتُ أَكْـتُـمُ بَـثَّـهـا إلى أنْ أذاعَـتْـهـا الـدموعُ الـهَـوَامِـعُ

الهوامع (الهاطلات)

إذا العينُ رَاحتْ وَهْيَ عَيْنٌ عَلى الجَوَى فـلـيـس بِـسِـرٍّ مَـا تُـسِـرُّ الأَضَـالِـعُ

إذا عين المرء راحت (أصبحت) وهي عين (جاسوس) تفضح ما يكنه قلبه من الجوى (الحزن) فلا يعود سراً ما تسر (تخفي) الأضالع (الضلوع)

٧٦ القفل المستعصي

يهجو السيبي (وبها مدح الحسن بن مخلدٍ):

لَنا مَواقِفُ في أَفْناءِ عَرْصَتِهِ تُهانُ أَخطارُنا فِيها وتُطَّرَحُ

لنا وقوف في أفناء عرصته (في نواحي ساحته) تهان أخطارنا (أقدارنا) فيها وتُطّرح (تُرمى)

نَغْشاهُ، لا نَحْنُ مُشْتاقونَ مِنْهُ إلى أُنْسٍ، ولا هُوَ مَسْرُورٌ بِنا فَرِحُ

نغشاه (نأتي إليه) ليس لشوقنا إلى أنسه، ولا هو يفرح بنا

إذَا طَلَبْنَا بِلِينِ القَوْلِ غُرَّتَهُ ظَلْنَا نُعَالِجُ قُفْلاً ليسَ يَنْفَتِحُ

إذا قلنا له كلاماً ليناً لتنبسط لنا غرته (وجهه/ليهش لنا) فإنما نعالج قفلاً عصياً، أي نتحايل عليه

أَعيَا عَلَيَّ، فَلا هَيَّابَةٌ فَرِقٌ مِنَ الهِجاءِ، ولا هَشٌّ فَيُمْتَدَحُ

أعيا علي (أعجزني)، فلا هو هيابة (خواف) فرِق (خواف) من الهجاء، ولا هو هش (منشرح) فيليق به المدح

٧٧ الأهزوجة المشؤومة

يمدح المتوكل على الله:

عَنْ أيِّ ثَغْرٍ تَبْتَسِمْ؟ وبِأَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ؟

أيها المحبوب ما هذا الثغر (الفم) الجميل الذي تطلق منه الابتسامة؟ وما هذا الطرف (النظر) الذي ترمقنا به فتحتكم (تملي ما تشاء)

أَفْدِيهِ مِنْ ظُلْمِ الوُشَا ةِ، وإنْ أساءَ، وإنْ ظَلَمْ

قُلْ لِلخَلِيفَةِ جَعْفَرِ الـ مُتَوَكِّلِ بْنِ المُعْتَصِمْ:

يا بَانِيَ المَجْدِ الذي قد كانَ قُوِّضَ فانْهَدَمْ

اِسْلَمْ لِدِينِ محمدٍ فإذا سَلِمْتَ فقد سَلِمْ

قصيدة مشهورة لقصتها. هذه القصيدة في بساطتها وجمال نغمها تذكرني بقصيدة أبي العتاهية التي أنشدها المهدي (أتته الخلافة). وقصة قصيدة البحتري أنه كان يلقيها وهو يميل ذات اليمين وذات الشمال مختالاً معجباً بنفسه (وكانت هذه طريقته في الإنشاد). فلما فرغ منها بدأ يعيدها. فغمز الخليفة المتوكل شويعراً يقال له أبو العنبس، فقام أبو العنبس وبدأ يقول: (من أي سلح تلتقم//وبأي كف تلتطم) والسلح هو ما يخرج من الدبر. وراح يردد أبياتاً على هذا الوزن، والكل يضحك. وانصرف البحتري غاضباً وأبو العنبس يصرخ في إثره (وعلمتُ أنك تنهزم). ونال أبو العنبس جائزة البحتري. شكا البحتري إلى صديق له ما جرى، وسأله: أأذهب إلى منبج بغير إذن؟ فهوَّن الصديق عليه، وقال له: الملوك تمزح بأكثر من هذا. وأخذه إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل فهون عليه وأعطاه مالاً

٧٨ قبلة على خوف

لِي حَبِيبٌ قد لَجَّ في الهَجْرِ جِدًّا وأَعَادَ الصُّدُودَ مِنْهُ، وأَبْدَا

لجَّ (بالَغ)، أعاد وأبدأ (عاد وزاد)

ذُو فُنونٍ، يُرِيكَ في كُلِّ يومٍ خُلُقاً مِنْ جَفَائِهِ مُسْتَجَدًّا

وبِنَفْسِي أَفْدي، على كُلِّ حالٍ، شادِناً لو يُمَسُّ، بِالحُسْنِ أَعْدَى

شادناً (غزالاً صغيراً)، لو يمس لأعدى بالحسن (لو أمكن لَمْسُ المحبوبة لجعَلَتْ من يلمسها جميلاً بالعدوى لشدة جمالها)

مَرَّ بِي خَالِياً، فَأَطْمَعَ في الوَصْـ ـلِ، وعَرَّضْتُ بالسَّلامِ، فَرَدَّا

مر بي خالياً (وحدَه)، فأطمعني (جعلني أطمع) في وصله، وعرَّضت بالسلام (طرحت السلام خفية)، لكنه ـ ويا للمفاجأة الحلوة ـ رد علي السلام

وثَنَى خَدَّهُ إِلَيَّ على خَوْ فٍ، فَقَبَّلْتُ جُلَّناراً وَوَرْدَا

الجلنار: زهر الرمان

٧٩ المنافسون الحاسدون

يمدح الفتح بن خاقان:

وإنِّي، وإنْ بَلَّغْتَنِي شَرفَ العُلا وأَعْتَقْتَ مِنْ ذُلِّ المَطامِعِ أَخْدَعي

رغم أنك أوصلتني إلى شرف (مرتَفَع) العلا وحررت أخدعي (يعني عنقي) من ذل المطامع المالية

فَما أنَا بِالمغْضُوضِ فِيما أَتيْتَه إِلَيَّ، ولا المَوْضوعِ في غيرِ مَوضِعي

رغم ذلك فلستُ بالمغضوض (المحتقَر) بسبب ما أتيتَه إليَّ (أعطيتنيه)، ولست آخذاً فوق استحقاقي

وقد نافَسَتْنِي عُصْبةٌ: مِنْ مُقَصِّرٍ ومُنْتَحِلٍ مَا لم يَقُلْهُ، ومُدَّعِ

والمنافسون لي من الشعراء هم بين مقصر عن التجويد، ومنتحل لمعاني الآخرين، ومدَّعٍ ليس بشاعر أصلاً

٨٠ المُضيئة للمصباح

وقال يصف مغنية (في قصيدة يمدح بها أبا مسلم البصري):

فَأَضاءَتْ تحتَ الدُّجُنَّةِ لِلْشَّرْ بِ، وكادَتْ تُضِيءُ لِلْمِصْباحِ

الشرْب (الشاربون)

وأشــارتْ مَـعَ الـغِـنَـاءِ بـألـحـا ظٍ مِراضٍ، مِنَ التَّصابي، صِحَاحِ

أشارت بغمز من ألحاظ مراض (نظرات مسترخية)، وذلك من التصابي (دلال الصبايا)، ولكن نظراتها صحيحة بيولوجياً. يقول: نظراتها مريضة مسترخية من الدلال، وعيناها ليس فيهما علة جسمية

فَطَـرِبْـنَـا لَـهُـنَّ قـبـلَ الـمَـثَـانـي وسَـكِـرْنـا مِـنْـهُـنَّ قـبـلَ الـرَّاحِ

طربنا من نظراتها قبل طربنا من المثاني (الموسيقى)، وسكرنا بنظراتها قبل أن نسكر من الراح (الخمر)

٨١ الكريم لئيماً

يهجو البحبحاني المغني:

إذا رَامَ الـتَّـخَـلُّـقَ، جَـاذَبَـتْـهُ خَـلائِـقُـهُ إلـى الـطَّـبْـعِ الـقَـدِيـمِ

إذا رام (أراد) التخلق (التطبع بغير طبعه) جذبته خلائقه (أخلاقه) إلى الطبع القديم

تُـعَـرْبِـدُ غَـيْـرَ مُـحْـتَـشِـمٍ، وتَـشْـدُو فـلا تَـأْتـي بِـلَـحْـنٍ مُـسْـتَـقِـيـمِ

أيها المغني أنت تعربد غير خجلان، وتغني ولا يستقيم لك اللحن

فَتُخْطِئُ في الغِنَاءِ على المُغَنِّي وتُخْطِئُ في النِّدَامِ على النَّدِيـمِ

مخطئ في غنائك، ومخطئ في كلامك فلست تعرف حرمة الندام (المنادمة على الشراب). ولم أفهم مقصده في (على المغني)

نَـهَـيْـتُـكَ عَـنْ تَـعَـرُّضِ عِـرْضِ حُـرٍّ فَـإنَّ الـذَّمَّ مِـنْ شَـأْنِ الـذَّمِـيـمِ

مَـتَـى أَحْـرَجْـتَ ذَا كَـرَمٍ تَـخَـطَّـى إلَـيْـكَ بِـبَـعْـضِ أَخْلاقِ الـلَّـئِـيـمِ

إذا أحرجت الكريم تجاوز عادته وآذاك بأفعال هي في الأصل من أفعال اللئام

٨٢ المطرب البغيض

يهجو أحمد بن أبي العلاء المغني:

مُـغَـنِّـيـكَ لِـلْـبُـغْـضِ فـيـهِ سِـمَـةْ تَـلُـوحُ عـلـى خِـلْـقَـةٍ مُـبْـهَـمَـةْ

في مغنيك سمة (علامة مكوية بالحديد المحمَّى) هي خاتم رسمي بالبغض (كونه بغيضاً كريهاً)، وهذه العلامة تبدو في خلقته المبهمة (المختلطة)

تَــزِيــدُ الإهَــانَــةُ فــي شَــأْنِــه صَـلاحَـاً، وتُـفْـسِـدُهُ الـتَّـكْـرِمَـةْ

يُـرَعِّـشُ لَـحْـيَـيْـهِ عِـنْـدَ الـغِـنَـاءِ كَـأَنَّ بِـه الـنَّـافِـضَ الـمُـؤْلِـمَـةْ

يرتعش حنكاه وهو يغني كأنه يعاني النافض (الحُمَّى الرعاشية)

وأَنْــفٍ إذا احْــمَــرَّ فــي وَجْــهِــه   وقَــامَ تَــوَهَّــمْــتَــهُ مِــحْــجَــمَــةْ

مِحْجمة (كأس زجاج للحجامة ينزل فيه الدم فيحمر الكأس)

إذا صَــاحَ سَــالَــتْ لَــهُ مَــخْــطَــةٌ   على العُودِ، وانْقَلَعَتْ بَلْغَمَةْ
يُبَظْرِمُهُ القَوْمُ، مِنْ بُغْضِه،   جَهَاراً؛ وقَلَّتْ لَهُ البَظْرَمَةْ

لأنه بغيض يبظرمه القوم (يقولون له عُضَّ بظر أمك) جهاراً، وهذا قليل عليه

هِرَاشٌ نُعَانِيهِ طُولَ النَّهَارِ   فَمَجْلِسُنَا مَعَهُ مَلْحَمَةْ
يَجِيءُ بِمَا هُوَ أَهْلٌ له   فَلَوْلا الحَيَاءُ كَسَرْنَا فَمَهْ

كسرنا فمه: كسرنا أسنانه

٨٣ لَمَشى إليك المنبر

يمدح المتوكل، ويصف موكبه يوم العيد، والبداية غزل:

أُخْفِي هَوىً لَكِ في الضُّلُوعِ، وأُظْهِرُ؛   وأُلَامُ فـي كَـمَـدٍ عَـلَـيْـكِ، وأُعْـذَرُ

خفي هواك أيتها المحبوبة حيناً وأظهره حيناً؛ ويلومونني في الكمد (التكدر) البادي عليَّ بسببك، ويعذرونني حيناً

وأَرَاكِ خُنْتِ على النَّوَى مَنْ لم يَخُنْ   عَهْدَ الهَوى، وهَجَرْتِ مَنْ لا يَهْجُرُ
وطَلَبْتُ مِنْكِ مَوَدَّةً لم أُعْطَها؛   إنَّ المُعَنَّى طَالِبٌ لا يَظْفَرُ

المعنَّى (الموجَع)

هلْ دَيْنُ عَلْوَةَ يُسْتَطَاعُ، فَيُقْتَضَى؟   أم ظُلْمُ عَلْوَةَ يَسْتَفِيقُ، فَيُقْصِرُ؟

هل تستطيع المحبوبة «علوة» أن تقضي ديْنها (وعدها) وتفي به؟ أم هل ـ على الأقل ـ يفيق ظلمها من جنونه ويقصر (يكفّ)

بَيْضَاءُ يُعْطِيكَ القَضِيبُ قَوامَهَا   ويُرِيكَ عَيْنَيْهَا الغَزَالُ الأَحْوَرُ

علوة بيضاء. وأنت ترى القضيب (الغصن) فيعطيك (يمثل لك) قوامها، وترى الغزال الأحور (ذا العينين الواسعتين الصافيتين) فترى فيه عينيها

تَمْشِي فَتَحْكُمُ في القلُوبِ بِدَلِّهَا   وتَمِيسُ في ظِلِّ الشَّبَابِ فَتَخْطِرُ

تميس (تتمايل)

وتَمِيلُ مِنْ لِينِ الصِّبَا فَيُقِيمُهَا ... قَدٌّ يُؤَنَّثُ تَارَةً، ويُذَكَّرُ

تتمايل هذه الغندورة الحلبية سكرى بخمر شبابها، ثم تعتدل بقد جميل هو قدُّ أنثى في مقاييسه، وقدُّ غلام في رشاقته. وكانوا يحبون الفتاة الرسحاء (الخفيفة من وراء) الرشيقة ويقولون إنها غلامية. والبحتري من هؤلاء الذين أشبهوا أبا نواس في ميلهم للولدان. وكان لأبي عبادة مع الغلمان قصص شتى، وإن لم ينجرف في الأمر انجراف النواسي

إنِّي، وإنْ جَانَبْتُ بعضَ بَطَالَتِي ... وتَوَهَّمَ الوَاشُونَ أنِّيَ مُقْصِرُ،

رغم أنني جانبت (هجرت) بعض بطالتي (استهتاري)، ورغم أن الواشين (النمامين) توهموا أنني مقصر (منقطِع عما كنت فيه)..

لَيَشُوقُنِي سِحْرُ العُيُونِ المُجْتَلَى ... ويَرُوقُنِي وَرْدُ الخُدودِ الأحمرُ

.. مع ذلك يشوقني سحر العيون المجتلى (البادي للرائي) وتروقني حمرة الخدود

اللَّهُ مَكَّنَ للخليفةِ جَعفَرٍ ... مُلْكاً يُحَسِّنُهُ الخليفةُ جعفرُ

الآن ينتقل إلى مدح الخليفة جعفر المتوكل: لقد مكَّن له الله ملكاً وهو يحسِّنه (يجعله أكثر حسناً بكونه على رأس هذا الملك). للشاعر ما ليس لأحد: له أن يخاطب الخليفة باسمه مجرداً

نُعْمَى مِنَ اللَّهِ اصطَفاهُ بِفضلِها ... واللَّهُ يرزُقُ مَنْ يشاءُ ويَقْدُرُ

الله اصطفى (اختار) المتوكل لنيل فضل هذه النعمة

بالبِرِّ صُمْتَ، وأنتَ أفضلُ صائِمٍ، ... وبِسُنَّةِ اللَّهِ الرَّضِيَّةِ تُفْطِرُ

مصحوباً بعمل الخير كان صيامك رمضان أيها الخليفة، والآن على سنة الله تحتفل بعيد الفطر. لا أدري إن غاب عني شيء من المعنى؛ أليس كل صوم يكون براً، وأليس كل فطر يكون بسُنَّة الله؟ كذا البحتري، يقول أبياتاً حلوة اللفظ رشيقة، والمعنى قد يكون عادياً أو ـ كمثل هذا البيت ـ نافلاً. لم أره في هذا البيت أتى بشيء، إلا بالديباجة البحترية المشهورة. هذا يذكرني بالمذيعين الذين يصرون على «أسعد الله اوقاتكم.. بالخير» وكأن السادة المستمعين لا تكون أوقاتهم سعيدة إلا بركوب الكبائر، فالمذيع يؤكد أنه يدعو لهم بسعادة مشروطة بالخير

فانْعَمْ بِيَومِ الفِطْرِ عَيْناً، إنَّهُ ... يَومٌ أَغَرُّ مِنَ الزَّمانِ مُشَهَّرُ

فيوم الفطر هذا أغر (وضيء) ومشهر (بارز بين أيام الزمان)

أَظهَرْتَ عِزَّ المُلْكِ فيهِ بِجَحْفَلٍ ... لَجِبٍ يُحَاطُ الدِّينُ فيه ويُنْصَرُ

أبرزت عز الخلافة بجحفل (جيش) لجب (صخَّاب لكثرة جنوده) يحاط (يُحمى) به الدين وينصر

خِلْنَا الجبالَ تسيرُ فيه، وقد غَدَتْ ... عُدَداً يَسيرُ بِهَا العَدِيدُ الأَكْثَرُ

خلنا (توهمنا) الجبال تسير مع الجيش وقد غدت الجبال عدداً (سلاحاً وعتاداً)، ويسير بها الجنود الكثر

فالخيْلُ تَصْهَلُ، والفَوارِسُ تَدَّعِي والبِيضُ تَلْمَعُ، والأَسِنَّةُ تَزْهَرُ

الخيل تصهل، والفوارس تدعي (الفرسان ينتسبون إلى قبائلهم أو شعوبهم بفخر)، والبيض (الخُوَذ) تلمع، والأسنة (رؤوس الرماح) تزهر (تتلألأ)

والأرضُ خَاشِعَةٌ تَمِيدُ بِثِقْلِها والجَوُّ مُعْتَكِرُ الجَوانِبِ أَغْبَرُ

والأرض خاشعة من هذا الحشد تميد (تميل) بما أثقل ظهرها، والجو معتكر مغبرٌّ، وقال المؤرخون إن ذلك اليوم كان حقاً بهذه الصفة أثناء ذلك الاستعراض العسكري

والشَّمْسُ مَاتِعَةٌ تَوَقَّدُ في الضُّحَى طَوْراً، ويُطْفِئُها العَجَاجُ الأَكْدَرُ

الشمس كانت ماتعة (مرتفعة) متوقدة في وقت الضحى (قبيل الظهر)، ولكنها كانت أحياناً تغيم بسبب العجاج (الغبار) الأكدر (القاتم)

حَتَّى طَلَعْتَ بِضَوْءِ وَجْهِكَ، فانجَلَى ذاكَ الدُّجَى، وانْجَابَ ذاكَ العِثْيَرُ

حتى طلعت على الحشد بضوء وجهك فانجلى الظلام، وانجاب (زال) العثير (الغبار)

وافْتَنَّ فِيكَ النَّاظِرونَ: فَإِصْبَعٌ يُومَا إِلَيْكَ بِها، وعَيْنٌ تَنْظُرُ

فتنتَ الناظرين فهذه إصبع يُومَأُ (يشار) بها إليك، وتلك عين تنظر

ذَكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النَّبِيَّ، فَهَلَّلُوا لَمَّا طَلَعْتَ مِنَ الصُّفُوفِ، وكَبَّرُوا

خطر ببال الجمع النبيُّ عندما طلعت عليهم فهللوا (قالوا لا إله إلا الله)، وكبروا (قالوا الله أكبر)

حتى انتَهَيْتَ إلى المُصَلَّى لابِسَاً نورَ الهُدَى يَبْدُو عليكَ ويَظْهَرُ

ومَشَيْتَ مِشْيَةَ خَاشِعٍ مُتَواضِعٍ للهِ، لا يُزْهَى، ولا يَتَكَبَّرُ

يزهَى (يتكبر)

فَلَوَ انَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فوقَ مَا في وُسْعِهِ، لَمَشَى إِلَيْكَ المِنْبَرُ

إذ أنت تمشي نحو المنبر وَدَّ المنبر لو مشى هو نحوك ليلاقيَك، لو كان ذلك مستطاعاً. بيت أعجب الأقدمين كثيراً. وأخذ البحتري معناه من بيت أبي تمام: (لو سعت بقعة لإعظام نعمى/لسعى نحوها المكان الجديب) يقول أبو تمام إن المكان المجدب لو استطاع أن يمشي للازدياد من نعمة المطر لمشي في اتجاه تلك الغيمة الماطرة ولحقها. وتفنن الشعراء في الإتيان بالمعنى نفسه في قوالب مختلفة فقال البلاذري يمدح المستعين بعد أن تحداه المجلس في الإتيان بمعنى البحتري في بيت أحسن من بيت البحتري: (ولو أن بُردَ المصطفى إذ لبستَه/يظنُّ، لظن البردُ أنك صاحبُهْ)، وثَنَّى البلاذري ببيت جميل رقيق: (وقال، وقد أُعطيتَه ولبستَه:/نعم هذه أعطافُه ومناكبُهْ)

أُيِّدْتَ مِنْ فَصْلِ الخِطَابِ بِخُطْبَةٍ تُنْبِي عَنِ الحقِّ المُبِينِ وتُخْبِرُ

وُفِّقت من فصل الخطاب (الخطب التي تبدأ بالتحميد ثم بعبارة أما بعد) إلى خطبة تنبي (تبلِّغ) عن الحق

وَوَقَفْتَ في بُرْدِ النَّبيِّ مُذَكِّراً   بِاللَّهِ، تُنْذِرُ تارةً وتُبَشِّرُ

ووقفت وأنت ترتدي برد النبي (الثوب الموروث عن النبي فيما زعموا)، وذكَّرْتَ الناس بالله، وسقت إليهم الوعد والوعيد. هذه القصيدة أحبها القدماء، ومؤلفو كتب المدارس أيضاً، حباً جماً لجمال ألفاظها وسلاستها. لم لا

٨٤ مشاور السيف

يمدح يوسف بن محمد:

رَأَيْتُ أبا يعقوبَ، والناسُ: ذو حِجَاً   يُؤَمِّلُهُ، أو ذو ضَلالٍ يُحَاذِرُهْ..

الناس في شأن أبي يعقوب نوعان: ذو حجا (عقل) يرجو خيره، وذو ضلال يحذر أذاه، وقد رأيته..

إذا وَقَعتْ بالقربِ منه مُلِمَّةٌ   ثَنَى طَرْفَهُ نَحْوَ الحُسَامِ يُشَاوِرُهْ

رأيته إذا اقتربت منه ملمة (مشكلة) انثنى بعينه نحو السيف يشاوره في أمرها، فهو يسارع إلى الحسم

وما كان (بُقْراطُ بنُ آشُوطَ) عندَهُ   بِأَوَّلِ عَبْدٍ أَسْلَمَتْهُ جَرائِرُهْ

القائد الأرمني «بقراط بن آشوط» ليس أول أسير لأبي يعقوب أسلمته جرائره (أدت ذنوبه إلى تسليمه لعدوه)

وقد شاغَبَ الإسلامَ خمسينَ حِجَّةً   فلا الخوفُ ناهِيهِ، ولا الحِلْمُ زَاجِرُهْ

فقد ظل يناوش الدولة الإسلامية خمسين سنة لا هو خائف، ولا حلم المسلمين (تغاضيهم) عنه زاجره (ناهيه)

ولمَّا التَقَى الجَمْعَانِ لم تَجْتَمِعْ له   يَداهُ، ولم يَثْبُتْ على البِيضِ نَاظِرُهْ

عندما التحم الجيشان اضطربت يدا القائد الأرمني، ولم يثبت على البيض (السيوف) ناظره (بصره)، أي زاغ بصره رعباً

ولم يَرْضَ مِنْ (جُرْزَانَ) حِرزاً يُجِيرُهُ   ولا في جبالِ الرومِ رَيْداً يُجَاوِرُهْ

لم يرض هذا القائد الأرمني من «جرزان» حرزاً يجيره (معقلاً يحميه)، ولا رضي ريداً (جرفاً جبلياً) في جبال الروم يجاوره (يأوي إليه)

فجاءَ مَجِيءَ العَيْرِ، قادَتْهُ حَيْرَةٌ   إلى أَهْرَتِ الشِّدْقَيْنِ تَدْمَى أظافِرُهْ

بل جاء إليك مثلما يجيء العير (حمار الوحش) لشدة حيرته نحو الأسد الأهرت الشدقين (الواسع الفم) الدامي الأظافر

فإنْ أَدْرَكَتْهُ بالعراقِ مَنِيَّةٌ   فَقَاتِلُهُ عندَ الخليفةِ آسِرُهْ

فإن قرروا في العراق قتله، فإن الذي تمكن منه وقتله، عند الخليفة (بالنسبة للخليفة)، هو الذي أسره

بِتَدبِيرِكَ المَيمونِ أُغْلِقَ كيدُهُ عليه، وكَلَّتْ سُمْرُهُ وبَواتِرُهْ

بتدبيرك الميمون (المبارك) أغلق صندوق كيد هذا العدو عليه، وكلت (ضعفت) سمره (رماحه السمر) وبواتره (سيوفه القاطعة) عن نصره

ولم يَبْقَ بِطْرِيقٌ له مِثْلُ جُرْمِهِ (بِأَرَّانَ) إلّا عازِبُ اللُّبِّ طَائِرُهْ

لم يبق في «أران» بطريق (قائد رومي) له مثل جرمه (ذنبه) إلا وهو عازب اللب (شارد العقل) وطائر القلب

كَسَرْتَهُمُ كَسْرَ الزُّجَاجَةِ بَعْدَهُ؛ ومَنْ يَجْبُرُ الوَهْيَ الذي أنتَ كاسِرُهْ؟

بعد أسرك بقراط ذاك كسرتهم مثلما تكسر الزجاجة، ومن يستطيع جبر (إصلاح) الوهي (الشرخ) الذي صنعتَه؟

وقد عَلِمَ العَاصِي، وإنْ أَمْعَنَتْ به مَحَلَّتُهُ في الأرضِ، أنَّكَ زائِرُهْ

وقد علم كل عاصٍ آخر، مهما أمعنت به محلته (ابتعدت منطقته)، أنك قادر على القدوم إليه

٨٥ المكرمات وجديس وجرهم

يمدح الفتح بن خاقان:

لَقَدْ جَشِمَ الفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ خُطَّةً مِنَ المجدِ، ما يَسْطِيعُها المُتَجَشِّمُ

جشم (تكفل) الفتح بن خاقان بخطة مجد (أمر مجيد) لا يسطيعها (يستطيعها) المتجشم (المتكلف غير ما في طبعه)

رَبَا في حُجُورِ المُلْكِ، يُغْرِيهِ بِالحِجَا خَلائِفُ مِنْهُمْ مُرْشِدٌ ومُقَوِّمُ

حجور (أحضان)، الحجا (العقل)، خلائف (خلفاء)

فَآضَ كمَا آضَ الحُسَامُ، تَرَادَفَتْ عليهِ القُيُونُ، فَهْوَ أَبْيَضُ مِخْذَمُ

آض (أصبح) كالسيف الذي ترادف عليه (توالى عليه) القيون (الحدادون)، فأصبح مصقولاً أبيض مخذماً (قاطعاً)

ولو بَلَغَ الجَانِي أَقَاصِيَ حِلْمِهِ لأَعْقَبَ بَعدَ الحِلْمِ مِنْهُ التَّحَلُّمُ

لو وصل الجاني إلى أقصى موقع في حلم (صفح) الفتح بن خاقان، لأعقب (لتلا) بعد وصول الحلم مداه التحلم (تكلف الحلم). يقول: لو كانت الجناية مما لا يحتمله صفح الفتح فإن التحلم سيأتي بعد الحلم لينقذ الجاني

أَرَى المَكْرُمَاتِ استُهْلِكَتْ في مَعاشِرٍ وبَادَتْ، كَمَا بَادَتْ جَدِيسُ وجُرْهُمُ

المكرمات انتهت وانقرضت كانقراض قوم جديس وقوم جرهم

ومُشْرِقَةٍ في النَّظْمِ غَرَّا، يَزِيدُهَا بَهَاءً وحُسْناً أَنَّها لَكَ تُنْظَمُ

ورب قصيدة مشرقة غراء (بيضاء الجبين كالفرس ذات الغرة البيضاء)، يزيدها جمالاً أنها منظومة في مدحك

٨٦ ليلة مع الحبيب

بَرَّحَ بي حُبُّكَ المُعَنِّي وغَرَّني مِنْكَ ما يَغُرُّ

برَّح بي حبك (أوجعني) المعنِّي (المؤلم)، واغتررت بك

تَذْكُرُ كَمْ لَيْلَةٍ لَهَوْنا في ظِلِّهَا، والزَّمانُ نَضْرُ؟

غَابَ دُجَاهَا، وأيُّ لَيْلٍ يَدْجُو عَلَيْنا وأَنْتَ بَدْرُ؟

دجاها (سوادها)

تَمْزُجُ لي رِيقَةً بِخَمْرٍ؛ كِلا الرُّضَابَيْنِ مِنْكَ خَمْرُ

٨٧ الأموال الفضيحة

قال في ضرب صالح بن وصيف «أحمدَ بن إسرائيل» و«أبا نوح»:

نَهَيْتُكُمْ عَنْ صَالحٍ، فَأَبَى بِكُمْ لَجَاجُكُمُ إلَّا اغْتِرَاراً بِصَالِحِ

نهيتكم أيها الناس عن اتهام صالح فأبى لكم لجاجكم (عنادكم) إلا اغتراراً (انخداعاً) بأن صالحاً غافل عنكم

فقد ظَهَرَتْ أموالُكُمْ، بَعْدَ سَتْرِها وبعدَ تَخَفِّيهَا، ظُهُورَ الفَضَائِحِ

والآن ظهرت أموالكم ـ التي كنتم تسترونها ـ كما تظهر الفضائح

ذَخَائِرُ ذِيدَ الحَقُّ عنها، وأُرْتِجَتْ عليها مَغَالِيقُ الصُّدورِ الشَّحَائِحِ

إنها ذخائر (مدخرات) ذيد (أبعد) الحق عنها، وأرتجت (أغلقت) عليها مغاليق (أقفال) الصدور الشحائح (البخيلة)

أبا الفضلِ! لا تَعْدَمْ عُلُوّاً مَتى اعتَدَى لِسَانُ عَدُوٍّ، أَوْ صَغَا قلبُ كَاشِحِ

يا أبا الفضل! لا حُرمت من العلو كلما اعتدى عليك لسان عدو، وكلما صغا (أشاح) عنك قلب كاشح (مبطن العداوة)

تقَطَّعَتِ الأَسبابُ بِالقومِ، وانتَهَوْا إلى حَدَثٍ مِنْ نَبْوَةِ الدَّهرِ فَادِحِ

تقطعت الأسباب بالقوم (تفرقوا) وانتهوا (آل بهم المآل) إلى حدث فادح من نبوة الدهر (المصيبة)

فـلـم تَـبْـقَ إلّا سَـطْـوَةٌ مِنْ مُـطَـالِـبٍ   بـأَضْـغَـانِـهِ، أوْ نِـعْـمَـةٌ مِنْ مُـسَـامِـحِ

وكل ما بقي بالنسبة لهم سطوة رجل يطلب الاشتفاء من أضغانه (أحقاده)، أو نعمة رجل يسامحهم

إذا أنتَ لم تُضْرِبْ عنَ الحِقْدِ لم تَفُزْ   بِـذِكْـرٍ، ولـم تَـسْـعَـدْ بِـتَـقْـرِيـظِ مَـادِحِ

إذا لم تضرب (تكف) عن الحقد، فلن تفوز بالذكر (السمعة الحسنة)،
ولن تسعد بتقريظ (بمديح) مادح

ولَنْ يُرْتَجَى في مَالِكٍ غيرِ مُسْجِحٍ   فَـلاحٌ، ولا فـي قَـادرٍ غَـيـرِ صَـافِـحِ

ولن يرتجى فلاح من رجل ذي نفوذ لكنه غير مسجح (متسامح)، ولا فلاحَ أيضاً لرجل قادر لا يصفح. وهذا كلامٌ النثر أليق به من الشعر. فالبحتري يخاطب صالح بن وصيف كي يصفح عن المخطئين، ولكن ديباجة البحتري الجميلة تجعل المرء يصغي إليه

٨٨ الشرب على غير عطش

مرَّت بالبحتري الجارية بُرهان ومعها كوز ماء. سألها: لمن تأخذينه؟ فقالت: لستي قبيحة. وقبيحة هي جارية المتوكل الأثيرة، فأخذ الكوز وصبه في حلقه عابثاً. فعرف المتوكل الخبر (بحسب رواية أبي الفرج) فقال للبحتري: قل في هذا شعراً. فقال:

مَـا قَـهْـوَةٌ مِـنْ رَحِـيـقٍ كَـأْسُـهـا ذَهَـبٌ   جَـاءَتْ بِها الحُورُ مِنْ جَنَّاتِ رِضْوَانِ

قهوة (خمر)، رحيق (خمر)، رضوان (اسم حارس الجنة)

يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْ مَاءٍ، بِلا عَطَشٍ،   شَـرِبْـتُـهُ، عَـبَـثـاً، مِـنْ كَـفِّ بُـرْهَـانِ

٨٩ الملك فيه وفي بنيه

وقال يمدح المتوكل (٢٤٠هـ): وقيل إن المتوكل وهبه خاتماً كان بيده، فنظر البحتري إلى يد الخليفة الأخرى وفيها خاتم، وأطرق، فسأله المتوكل: ماذا بك؟ فقال: أفكر بأبيات أستخرج بها الخاتم الآخر. ثم قال هذا الشعر، وأخذ الخاتم الثاني. والقطعة تنسب أيضاً إلى علي بن الجهم:

بِـسُـرَّ مَـنْ رَا لَـنَـا إمَـامٌ   تَـغْـرِفُ مِـنْ بَـحْـرِهِ الـبِـحَـارُ

بسر من را (بسامراء) لنا إمام (خليفة) كريم كالبحر، بل إن البحر يحتاج إلى أن يغرف منه

خَـلـيـفَـةٌ يُـرْتَـجَـى وَيُـخْـشَـى   كـأَنَّـهُ جَـنَّـةٌ ونَـارُ

كِـلْـتَـا يَـدَيْـهِ تَـفِـيـضُ سَـحَّـاً   كـأَنَّـهَـا ضَـرَّةٌ تَـغَـارُ

كل يد من يديه تفيض سحاً (هطولاً) كأن كل يد ضرة للأخرى وتغار منها

فَلَيْسَ تَأتِي اليَمِينُ شَيئاً   إلّا أَتَتْ مِثْلَهَا اليَسَارُ
فَالمُلْكُ فيه وفي بَنِيهِ   مَا بَقِيَ اللّيْلُ والنَّهَارُ

ما بقي (طيلة بقائه). أين بنو العباس اليوم؟ يقول عبود الشالجي في كتابه (موسوعة العذاب) إنه لا يُعرَف في العراق اليوم سوى عائلتين تنتسبان إلى بني العباس، واحدة ببغداد وواحدة بالبصرة

٩٠ مذهولون بأبهة الخلافة

يمدح المتوكل، ويذكر وفد الروم عليه:

عَرِّجْ على حَلَبٍ فَحَيٍّ مَحَلَّةً   مَأنُوسَةً، فيها لِعَلْوَةَ مَنزلُ

يحيي في حلب محلة (حيًّا) مأنوسة (معمورة بأهلها، وليست خربة كالأطلال التي يحييها الشعراء عادة)، وفي هذا الحي يوجد منزل علوة

وأَعِزُّ، ثم أَذِلُّ ذِلَّةَ عَاشِقٍ،   والحُبُّ فيه تَعَزُّزٌ وتَذَلُّلُ
إنَّ الرَّعِيَّةَ لم تَزَلْ في سِيرةٍ   عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا المُتَوَكِّلُ
اللَّهُ آثَرَ بالخلافَةِ جَعْفَراً   ورَآهُ نَاصِرَهَا الذي لا يُخْذَلُ

آثر (خصَّ)

هِيَ أَفْضَلُ الرُّتَبِ التي جُعِلَتْ له   دُونَ البَرِيَّةِ، وَهْوَ مِنْهَا أَفْضَلُ
لا يَعْدَمَنْكَ المُسْلِمُونَ، فإنَّهُمْ   في ظِلِّ مُلْكِكَ أَدْرَكُوا مَا أَمَّلُوا
فَادَيْتَ بِالأَسْرَى، وقد غَلِقُوا، فَلا   مَنٌّ يُنَالُ، ولا فِدَاءٌ يُقْبَلُ

غلقوا (احتُبسوا بلا فداء)، منٌّ (عفو)

ورَأَيْتُ وَفْدَ الرُّومِ، بعدَ عِنَادِهِمْ،   عَرَفُوا فَضَائِلَكَ التي لا تُجْهَلُ
لَحَظُوكَ أَوَّلَ لَحْظَةٍ، فَاسْتَصْغَرُوا   مَنْ كان يُعْظَمُ فِيهِمُ ويُبَجَّلُ

من النظرة الأولى إلى طلعتك استصغر أفراد وفد الروم رؤساءهم الذين كانوا حتّائذ مبجلين في عيونهم

حَضَرُوا السِّمَاطَ، فَكُلَّما رَامُوا القِرَى   مَالَتْ بِأَيْدِيهِمْ عُقُولٌ ذُهَّلُ

حضروا السماط (المائدة) فكلما راموا القرى (التمسوا الطعام)، مالت أيديهم لأن عقولهم ذاهلة من عظمة المشهد

تَهْوِي أَكُفُّهُمُ إلى أَفْواهِهِمْ   فَتَجُورُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وتَعْدِلُ

تتجه أكفهم إلى أفواههم ثم تضل الطريق، وتعدل (تنحرف)، لذهولهم

وَبِوُدِّ قَوْمِهِمُ الأُلَى بَعَثوا بِهِمْ   لو ضَمَّهُمْ بِالأَمْسِ ذاكَ المَحْفِلُ

وكان بودّ الروم في القسطنطينية الذين أرسلوا هذا الوفد أن يكونوا هم في هذا المحفل بدلاً من رُسُلهم

٩١ الحب الأخير

يمدح الفتح بن خاقان:

ولمَّا تَزايَلْنَا مِنَ «الجَزْعِ»، وانْتَأَى   مُشَرِّقُ رَكْبٍ مُصْعِداً عَنْ مُغَرِّبِ

لما تزايلنا عن (فارقنا) موضع «الجزع»، وانتأى (ابتعد) الركب (القافلة) المشرّق، وهو صاعد هضبةً، عن الركب المغرِّب..

تَبَيَّنْتُ أنْ لا دَارَ مِنْ بَعْدِ «عالِجٍ»   تَسُرُّ، وأنْ لا خَلَّةً بَعْدَ زَيْنَبِ

تبينت (تأكدت) أن لا دار ستسرني بعد «عالج»، ولا خلة (صاحبة) ستسرني بعد زينب

٩٢ دماء ودموع وحمية جاهلية

يمدح المتوكل، ويذكر صلح بني تغلب:

مُنَى النَّفْسِ في أَسْمَاءَ لو تَسْتَطِيعُها،   بِهَا وَجْدُهَا، مِنْ غَادَةٍ، وَوُلُوعُها

منايَ منحصرة في أسماء لو أنني أستطيع الوصول إليها. ووجدُ نفسي وولوعها هو بأسماء، ويا لها من غادة

وقد رَاعَني منها الصُّدودُ، وإنَّما   تَصُدُّ لِشَيْبٍ في عِذَارِي يَرُوعُها

راعني صدودها، وسببه الشيب في عذاري (سالفي)

حَمَلْتُ هَواهَا يومَ (مُنْعَرَجِ اللِّوَى)   على كَبِدٍ قد أَوْهَنَتْها صُدُوعُها

أوهنتها صدوعها (أضعفت كبدي الشقوق التي فيها)

وكنتُ تَبيعَ الغَانِياتِ، ولم يَزَلْ   يَذُمُّ وَفَاءَ الغَانياتِ تَبِيعُها

تبيع (ملاحق)

وحسناءَ لم تُحْسِنْ صَنيعَاً، ورُبَّما   صَبَوْتُ إلى حَسْناءَ سِيءَ صَنِيعُها

صبوت (اشتقت)، سيء (ساء)

عَجِبْتُ لَها: تُبْدِي القِلَى، وأَوَدُّهَا؛   ولِلْنَّفْسِ: تَعصِيني هَوَىً، وأُطِيعُها

عجبت لأسماء تبدي القلى (الصدود) وأستمر في حبي لها، وعجبت لنفسي تعصيني عندما أريد الفكاك من هذا الحب.. وأطيعها

أَسِيتُ لأَخْوالِي (رَبِيعَةَ) إذْ عَفَتْ مَصَانِعُها منها، وأَقْوَتْ رُبُوعُها

أسيت (تألمت) لأخوالي من قبيلة ربيعة إذا عفت (خربت) مصانعها (مبانيها)، وأقوت ربوعها (أقفرت منازلها)

بِكُرْهِيَ أنْ بَاتَتْ خَلاءً دِيَارُها، ووَحْشاً مَغَانِيها، وشَتَّى جَمِيعُها

أنا كارهٌ أن أصبحت ديار ربيعة مهجورة، ومغانيها (منازلها العامرة) موحشة، وجميعها (اجتماع شملها) شتى (متفرقاً)

إذا افْتَرَقُوا عَنْ وَقْعَةٍ جَمَعَتْهُمُ لأُخْرَى دِماءٌ مَا يُطَلُّ نَجِيعُها

إذا انتهت وقعة (معركة) اجتمعوا ليخوضوا غيرها بسبب دماء أريقت في المعركة الأولى يريدون الثأر لها، ما يطل (لا يذهب هدراً) نجيعها (دمها)

تَذُمُّ الفَتاةُ الرُّودُ شِيمَةَ بَعْلِها إذا باتَ دونَ الثَّأْرِ وَهْوَ ضَجِيعُها

الفتاة الرود (الناعمة) تذم شيمة (خُلُق) بعلها إذا بات معها قبل أن يأخذ الثأر

حَمِيَّةُ شَعْبٍ جَاهِلِيٍّ، وعِزَّةٌ كُلَيْبِيَّةٌ أَعْيَا الرِّجَالَ خُضُوعُها

هذه حمية شعب جاهلي الطبع، وعزة كليبية (كاعتزاز كليب، وائل أخي المهلهل وقتيل جساس، بنفسه) أعيا الرجال إخضاعها

وفُرْسانُ هَيْجَاءٍ تَجِيشُ صُدورُها بِأَحْقَادِها، حتى تَضِيقَ دُروعُها

هؤلاء فرسان هيجاء (حرب) تجيش صدورهم بأحقادها (تضطرم بالحقد) فيكاد الحقد يخرج من الدروع التي يلبسونها

تُقَتِّلُ مِنْ وِتْرٍ أَعَزَّ نُفوسِها عليها، بِأَيْدٍ مَا تَكادُ تُطِيعُها

هؤلاء الفرسان يقتلون من وتر (لغرض الثأر) أناساً من أقاربهم عزيزين عليهم، يقتلونهم بأيدٍ لا تكاد تطيعهم في عملهم هذا

إذا احْتَرَبَتْ يَوماً، فَفاضَتْ دِمَاؤُها تَذَكَّرَتِ القُرْبَى، فَفاضَتْ دُموعُها

إذا احتربت الفرسان يوماً ففاضت دماؤها تذكرت صلة القرابة ففاضت دموعها

شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرَ أَرْحَامٍ مَلُومٍ قُطُوعُها

شواجر أرماح (رماح مشتبكة) تقطع صلات الرحم المتشابكة، التي يلامونَ على قطعها

فَلَوْلا أَميرُ المؤمنينَ وطَوْلُهُ لَعَادَتْ جُيُوبٌ والدِّمَاءُ رُدُوعُها

لولا أمير المؤمنين وطوله (قدرته) لعادت الجيوب (الملابس) والدماء ردوعها (زعفرانها)، فالملابس كانت تتطيب بالدم بدلاً من الزعفران قبل تدخُل الخليفة

ولا عُـذْرَ إلَّا أنَّ حِـلْـمَ حَـلِـيـمِـهـا تَـسَـفَّـهَ فـي شَـرٍّ جَـنَـاهُ خَـلِـيـعُـهـا

وليس للمتقاتلين من عذر سوى أن الحليم دخل في السفاهة والحماقة بسبب جنايات جناها الخليع (المستهتر المنشق عن القبيلة)

ومُشْفِقَةٍ تَخْشَى الحِمامَ على ابْنِها لأوَّلِ هَـيْـجَـاءٍ تَـلاقَـى جُـمُـوعُـهـا

ورب امرأة مشفقة (خائفة) على ابنها من الموت في أول مرة يدخل فيها الحرب..

رَبَطْتَ بِصُلْحِ القوْمِ نَافِرَ جَأْشِهـا، فَقَرَّتْ حَشَاها، واطْمَأَنَّتْ ضُلُوعُها

.. ربطتَ، أيها الخليفة بالصلح الذي عقدته، جأش هذه المرأة النافر (قلبها المضطرب)، فاستقر حشاها (قلبها) واطمأنت (سكنت) ضلوعها

٩٣ بين أطلال سُعدى

قِفِ العِيسَ، قد أَدْنَى خُطَاهَا كَلالُهَا وسَلْ دارَ سُعْدَى، إنْ شَفاكَ سُؤالُها

قف (أوْقِف) العيس (الإبل) فقد أدنى خطاها كلالها (جعل خطواتها متقاربةً تعبُها)،
واسأل بقايا دار سعدى عن الحبيبة الراحلة، إن كان في مجرد السؤال شفاء لنفسك؛
فأما الجواب، فلا جواب

وما أَعْرِفُ الأطلالَ مِنْ بَطْنِ (تُوضَحٍ) لِـطُـولِ تَـعَـفِّـيـهـا، ولَـكِـنْ إخَـالُـهـا

لا أكاد أتعرف على بقايا الديار في هذه المنطقة لطول تعفيها (خرابها)،
لكن إخالها (أخمن مكانها تخميناً)

إذا قلتُ: أَنْسَى دارَ ليلى على النَّوَى، تَصَوَّرَ في أَقْصَى ضَمِيري مِثَالُها

كلما قلت إنني سأنسى دار ليلى (يغيِّر الشاعر اسم محبوبته في القصيدة الواحدة.. عادي) مع النوى (الفراق)، تمثلتْ صورتها في أعماق قلبي

تَـمَـنَّـيْـتُ لـيـلـى بـعـدَ فَـوْتٍ، وإنَّـمـا تَـمَـنَّـيْـتُ مِـنْـهـا خُـطَّـةً لا أنـالُـهـا

فوت (فوات الأوان)، خطة (أمر)

٩٤ السقوط من الحظوة

يعاتب الفتح بن خاقان، ويعتذر إليه:

عَـذِيري مِـنَ الأَيَّـامِ رَنَّـقْـنَ مَـشْـربـي ولَـقَّـيْـنَـنِـي نَـحْـساً مِـنَ الطَّـيْـرِ أَشْـأَمـا

عذيري (عبارة شعرية معناها: منذا الذي يقبل عذري) فالأيام (الزمن) رنقن (كدَّرن) مشربي،
ولقَّينني (جلبن عليَّ) نحساً أشأم من نحس الطير (إذ تتجه شمالاً، وهذا نحس)

وأَكْسَبْنَنِي سُخْطَ امْرِئٍ بِتُّ مَوْهِناً أَرَى سُخْطَهُ لَيْلاً مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِما

وأكسبتني الأيام سخط رجل، هو الفتح بن خاقان، بت موهناً (ليلاً)
وأنا أرى سخطه يزيد الليل سواداً

تَبَلَّجَ عَنْ بَعضِ الرِّضا، وانْطَوَى على بَقِيَّةِ عَتْبٍ شَارَفَتْ أَنْ تَصَرَّما

تبلج (أشرق) وجه الفتح عن قليل من الرضا عليَّ، ثم انطوت نفسه على بقية عتاب شارفت (كادت) أن تتصرم (تنقضي)

إذا قُلْتُ يوماً: قد تَجَاوَزَ حَدَّها تَلَبَّثَ في أعقَابِها، وتَلَوَّما

كلما قلت قد تجاوز الفتح حدَّ بقية العتاب، إذا به يتلبَّث (يبطئ) في أعقابها (أواخرها)
ويُنحي عليَّ باللوم

وأَصْيَدَ إنْ نَازَعْتُه اللَّحْظَ، رَدَّهُ كَلِيلاً، وإنْ رَاجَعْتُه القَوْلَ جَمْجَما

رب أصيد (عزيز) إن نازعته اللحظ (اصطادت عيني عينه مرة بعد أخرى) رد لحظه كليلاً (ضعيفاً)
وانصرف بنظره عني، وإذا راجعته بالقول فيما بيننا جمجم (تمتم)

ثَنَاهُ العِدىَ عَنِّي، فَأَصبحَ مُعْرِضاً وأَوْهَمَهُ الوَاشُونَ، حَتَّى تَوَهَّمَا

ثناه العدى عني (صرفه الأعداء) فأعرض، ودس له الواشون الأوهام حتى علقت بقلبه

وقد كانَ سَهْلاً واضِحاً، فَتَوَعَّرتْ رُبَاهُ؛ وطَلْقاً ضَاحِكا، فَتَجَهَّما

كان سهل المعاملة معي واضحاً (مكشوفاً)، فأصبحت رباه وعرة، وكان ضاحكاً لي فتجهم (كشر)

يُخَوِّفُني مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ، ولا خَوْفَ إلَّا أَنْ تَجُورَ وتَظْلِما

يخوفني قوم من سوء رأيك فيَّ؛ والخوف الحقيقي هو أن تجور (تظلم)، وهذا بالطبع غير وارد..

أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ، مِنْ غَيرِ حَادِثٍ تَبَيَّنَ، أو جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّما

أعيذك (أُجِلُّكَ) أن أخشاك دون أن يكون بدر مني حادث أو جرم، فأنت لا تظلم بلا سبب

أَلَسْتُ المُوَالِي فيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ هِيَ الأَنْجُمُ، اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا؟

ألستُ الموالي (المواصِل) فيك قصائد المدح التي تشبه النجوم

فَلَو أَنَّنِي وَقَّرْتُ شِعْرِي وَقَارَهُ وأَجْلَلْتُ مَدْحِي فيكَ أَنْ يُتَهَضَّمَا،

يُتهضم (يُظلَم)

لأَكْبَرْتُ أنْ أُومِي إِلَيْكَ بِإِصْبَعٍ تَضَرَّعُ، أَوْ أُدْنِي لِمَعْذِرةٍ فَما

لوجدتها كبيرة أن أومي (أشير) إليك بإصبع تتضرع (تتوسل)، أو أن أدني (أقرِّب) الاعتذار من فمي

وكانَ الذي يَأْتِي به الدَّهْرُ هَيِّناً عَلَيَّ، ولو كانَ الحِمَامَ المُقَدَّما
ولكان كل ما يأتي به الزمن هيناً عليَّ حتى لو كان الموت العاجل

ولكِنَّنِي أُعْلِي مَحَلَّكَ أَنْ أَرَى مُدِلًّا وأَسْتَحْيِيكَ أَنْ أَتَعَظَّما
ولكنني مع ذلك أتضرع، لأن مقامك أعلى من أن أُدِلَّ عليك (أتمادى عليك)، وأستحيي منك أن أتعظم (أستكبر)

أَعِدْ نَظَراً فيمَا تَسَخَّطْتَ؛ هَلْ تَرَى مَقَالاً دَنِيَّاً أو فَعَالاً مُذَمَّمَا؟
راجع نفسك في الذي أغضبك، فهل رأيتني قلت قولاً دنيئاً فيك، أو فعلت فعلاً ذميماً

رَأَيْتُ العِراقَ أَنْكَرَتْنِي؛ وأَقْسَمَتْ عَلَيَّ صُروفُ الدهرِ أَنْ أَتَشَأَّمَا
تنكرت لي العراق، وحلفتْ عليَّ مصائب الزمن لأذهبن إلى الشام

وكانَ رَجَائِي أَنْ أَؤُوبَ مُمَلَّكاً، فصارَ رَجائِي أَنْ أؤوبَ مُسَلَّمَا
كنت أرجو أن أرجع إلى موطني بالشام وأنا ذو أملاك، فصار أقصى رجائي أن أعود سالماً

وأَكْبرُ ظَنِّي أَنَّكَ المَرْءُ لم تَكُنْ تُحَلِّلُ بِالظَّنِّ الذِّمَامَ المُحَرَّمَا
أكبر ظني أنك ذلك المرء الذي لا يحلل بمجرد الظن الذمام (العهد والعشرة) الذي يحرُمُ نقضه

ولم أَعْرِفِ الذَّنْبَ الذي سُؤْتَنِي لَهُ فَأَقْتُلَ نَفْسِي حَسْرَةً وتَنَدُّمَا
لم أعرف سبب سخطك عليَّ حتَّى أقتل نفسي حسرة وندماً

أُذَكِّرُكَ العَهدَ الذي ليس سُؤْدَداً تَنَاسِيهِ، والوُدَّ الصَّحِيحَ المُسَلَّما
أُقِرُّ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلاً إِلَيْكَ، عَلَى أَنِّي إِخَالُكَ أَلْوَمَا
إنني أقر بذنب لم أجنه ولا أعرفه، وأتنصل منه تقرباً إليك، وأغلب ظني أنك أنت أولى باللوم مني

ومِثْلُكَ إِنْ أَبْدَا الفَعَالَ أَعَادَهُ وإِنْ صَنَعَ المَعْروفَ زَادَ وتَمَّمَا
ومثلك إذا أبدأ (بدأ) بفعل طيب كرره، وإن صنع المعروف أكمله وزاد عليه

٩٥ الموت ولا الشيب

حَلَفْتُ لهَا بِاللَّهِ يومَ التَّفَرُّقِ وبِالوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا المُتَعَلِّقِ
حلفت لها بوجد قلبي المتعلق بها

وبِالعهدِ، مَا البَذْلُ القليلُ بِضَائعٍ لَدَيَّ، ولا العَهْدُ القديمُ بِمُخْلِقِ
حلفت لها بأن البذل القليل (العطاء القليل منها) لا يضيع لدي، والعهد القديم لا يخلق (يهترئ)

وإِنّـي، وإنْ ضَـنَّـتْ عَـلَـيَّ بِـوُدِّهَـا،   لأَرْتَـاحُ مِـنْـهـا لِـلْـخَـيـالِ الـمُـؤَرِّقِ

أرتاح لطيفها الذي يأتيني فيؤرقني (يذهب بنومي)

أَجِدَّكَ! مَا وَصْلُ الغَوَانِي بِمُطْمِعٍ،   ولا القَلْبُ مِنْ رِقِّ الغَوَانِي بِمُعْتَقِ

أجدَّك (تعبير للقسم معناه: وحياتِكَ) ليس وصل الغواني مما يُطمِع (يجعلني أطمع في الوصل)، ولا القلب من رق (عبودية) الغواني (الحسان) بمعتَق (متحرر)

وَدِدْتُ بَياضَ السَّيْفِ، يومَ لَقِينَني،   مَكَانَ بَياضِ الشَّيْبِ كَانَ بِمَفْرِقي

ليت بياض صفحة السيف ـ يوم لقيتني الحسان ـ كان بمفرق رأسي بدلاً من بياض الشيب

وصَدَّ الغَواني عندَ إِيماضِ لِمَّتي   وقَصَّرْنَ عَنْ: «لَبَّيْكَ» ساعةَ مَنْطِقي

صدت النساء عني عند إيماض (إشراق) لمتي (شعري) ببياض الشيب، ولم يعدن يقلن لبيك عندما أكلمهن

إذا شِئْتَ أَلَّا تَعْذِلَ، الدهرَ، عَاشِقاً   على كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الحُبِّ، فَاعْشَقِ

تعذل (تلوم)، الدهرَ (طول الزمن)، كمد (حزن)

٩٦ دمشق الجميلة

يمدح المتوكل عند قدومه إلى دمشق: (٢٤٤هـ)

الـعـيـشُ فـي لَـيـلِ دَارَيَّـا إذا بَـرَدَا   والـرَّاحُ نَـمْـزُجُـهـا بـالـمـاءِ مِـنْ بَـرَدَى

العيش الحقيقي إنما هو في ليل داريَّا (قرية بغوطة دمشق) عندما يبرد الجو في هذا الليل، ونحن في هذه الأثناء نمزج الخمر بماء بردى (نهر دمشق)

قُـلْ لـلإمـامِ الـذي عَـمَّـتْ فَـوَاضِـلُـهُ   شرقاً وغرباً، فَما نُحْصِي لها عَدَدا:

الإمام: الخليفة المتوكل على الله، فواضله: خيراته (وهي في الأساس الأموال التي يجمعها له جنوده وولاته بحد السيف من الفلاحين الفقراء ويوزعها على أعوانه وشعرائه بحمق)

الـلَّـهُ وَلَّاكَ عَـنْ عِـلْـمٍ خِـلافَـتَـهُ   والـلَّـهُ أعـطـاكَ مـا لـم يُـعْـطِـه أحـدا

قل للمتوكل إنّ الله ولاه الخلافة عالماً بقدرته عليها وحقه فيها

ومـا بَـعَـثْـتَ عِـتَـاقَ الـخـيـلِ في سَـفَـرٍ   إلا تَـعَـرَّفْـتَ فـيـه الـيُـمْـنَ والـرَّشَـدَا

عتاق الخيل (الخيل الأصيلة)، اليُمن (البركة). ما أرسلت الخيل في سفر إلا وأنت تعرف أن في السفر خيراً

أمَّا دِمَشْقُ فقد أبْدَتْ محاسِنَها وقد وَفَى لَكَ مُطْرِيها بِمَا وَعَدا

أبدت دمشق محاسنها، ووفى لك مطريها (مادحها) بوعده. وكان القوم وصفوا للمتوكل جمال دمشق، فها هو يتبين صدق وصفهم. وخطر للمتوكل أن يجعل دمشق عاصمته، ثم غير رأيه

إذا أَرَدْتَ مَلأْتَ العَيْنَ مِنْ بَلَدٍ مُسْتَحْسَنٍ، وزَمَانٍ يُشْبِهُ البَلَدا

ما أجمل المكان والزمان

يُمْسي السَّحابُ على أَجْبالِها فِرَقاً ويُصْبِحُ النَّبْتُ في صَحْرائِها بَدَدا

الغيوم تمسي (تكون في المساء) متفرقة فوق جبالها، والنبات يصبح صباحاً وهو في صحراء دمشق بدداً (متفرقاً). ذلك أن الغيوم تمطر وتجعل النبت ينمو في الصحراء

فَلَسْتَ تُبْصِرُ إلَّا واكِفاً خَضِلاً أو يانِعاً خَضِراً، أو طائراً غَرِدا

الواكف الخضل (المبتل النديّ)، اليانع الخضر (الطري الأخضر). باختصار: الماء والخضرة والجمال

٩٧ أُنبِّيك عن عيني وطول سهادها

قال يذكر جارية له ماتت بدمشق:

أَنَبِّيكِ عَنْ عَيْني، وطولِ سُهَادِها، وحُرْقَةِ قَلبِي بالجَوى، واتِّقَادِها

أنبيك (أخبرك) عن طول سهاد (سهر) عيني، وعن حرقة قلبي بالجوى (الهجران) واتقاد هذه الحرقة

وأنَّ الهُمومَ اعْتَدْنَ بَعْدَكِ مَضْجَعِي وأنتِ التي وَكَّلْتِني باعتِيادِها

وأن الهموم اعتدن (أتين) بعد فراقك مضجعي (فراشي)، وأنت كنت حملتِني الهموم في حياتك لعشقي لك

٩٨ حيرت قلبي معك

يمدح الفتح بن خاقان ويعاتبه:

يُريبُنِيَ الشيءُ تأتي به وأُكْبِرُ قَدْرَكَ أنْ أَسْتَرِيبا

يريبني (يجعلني مرتاباً متخوفاً) الشيء - الذي - تأتي به (تفعله)، ولكنني أجلُّك عن إبداء شكوكي

أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قد سَخِطْتَ ومَا كنتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبا

متحير البحتري في الفتح بن خاقان، فهو لا يعرف لسخط الوزير سبباً؛ يكذب ظنه، ولكنه يعلم في قرارة نفسه أن ظنه لا يكذبه

ولو لم تَكُنْ ساخطاً لم أكُنْ أَذُمُّ الزمانَ وأشكو الخُطوبا

سخطك عليَّ هو السبب الوحيد لذمي الزمان وشكواي من الخطوب (المصائب)

ولا بُـدَّ مِـنْ لَـوْمَـةٍ أنْـتَـحـي   عـليـكَ بِـهـا، مـخطِئـاً أو مُـصِـيـبـا

ولا بد من لومة أنتحي عليك بها (أوجهها لك)،
سواء أصبتُ أم أخطأت، فأنت تحيرني

أَيُـصـبِـحُ وِرْدِيَ فـي سـاحَـتَـيْـ   ـكَ طَرْقاً، ومَرْعَايَ مَحْلاً جَدِيبا؟

أيصبح وردي (مائي الذي أرِدُه) في ساحتيك (يقصد: عندك) طَرْقاً (مكدراً ملوثاً)، ويصبح مرعاي الذي أرعى فيه لديك ممحلاً مجدباً؟

ولـو كـنـتُ أعـرفُ ذَنـبـاً، لَـمَـاَ   تَـخَـالَـجَـنـي الـشَّـكُّ فـي أنْ أتُـوبـا

لو عرفت ذنباً اقترفته لما تخالجني (داخلني) الشك في وجوب التوبة

سـأَصـبِـرُ حـتـى ألاقـيِ رِضَـا   كَ، إمَّـا بَـعـيـداً، وإمَّـا قـريـبـا

سيأتيني رضاك في النهاية أكان بعيداً عني أم قريباً مني. هذه من قصائد البحتري للفتح بن خاقان التي تخلط الاعتذار بالعتاب خلطاً طريفاً. وقد أعجب القدماء بهذه القصائد، وعدها ابن المعتز من أجمل ما قيل في هذا الباب منذ اعتذارات النابغة للنعمان. ولم أر القدماء نوهوا بهذا الخلط بين الاعتذار والعتاب مع تأكيد المحبة. فأحببت أن أكتب في هذا كلمة. والواقع أن قضية الخلط هذه موجودة في غرضين آخرين ـ وفي قصائد أخرى للبحتري ـ ذانك الغرضان هما المدح والهجاء. تراه يمدح أحدهم فيخرج إلى العتاب، ومنه إلى لسعات هجاء لا تخفى، كأنه يريد أن يذيقه بعض ما يمكن أن يصيبه إن هو تأخر في دفع المستحقات. وهذا شأن بشري طبيعي. ترى الموظفة تدخل على مديرها بوجه مختلط تصعب قراءته، وتقول له: يا سيد الكل، جئت أطرح السلام، ودائرتنا ـ ما شاء الله ـ أحسن دائرة بوجودك. ودعك عن كل ما يقولون. يتدخل المدير ويقول: وما هذا الذي يقولون؟ ومن هم؟ تقول له: لا، ليس له قيمة. أنا مثلاً، صحيح أنني لم أنل ما أستحق من زيادة، ولكنني أعرف أنك تخطط على المدى البعيد. هنا ينشغل عنها المدير بتفحص شاشته وصندوق رسائله، فتمضي إلى القول: لقد رأيت أمس في الندوة عضو مجلس الإدارة فلاناً. وهو أيضاً يسمع عما سماه تجاوزات. لكنني أكدت له عدم وجود شيء كهذا. ملخص الأمر أن تلك الموظفة تعطي مديرها موشحاً يخلط الطاعة بالتمرد، والمدح بالعتاب بالتهديد. الناس فيهم كثير من هذا. ولا أقول الكرام من الناس. فالكرام يكاشفون، ولا يسترون إلا ما يقدمونه من خير. والبحتري لم يكن من كرام الناس. كان جشعاً لا يشبع

٩٩ الحلال المخلوط

في العشق ضمن مدح للمتوكل:

غَـادَةٌ بِـتُّ أَحْـمِـلُ الـلَّـوْمَ فِـيـهـا،   وعَـنَـاءُ الـمُـحِـبِّ طُولُ الـمَـلامِ

أُنِّثَتْ ثم ذُكِّرَتْ فَبِها دَلٌّ ـ فَتَاةٍ رُوُدٍ، وقَدُّ غُلام

فيها من صفات الفتاة الرود (الناعمة) الدلال، ولها من الغلام قده الرشيق. وكان بعض أهل ذلك الزمن في بغداد يحبون الفتاة التي ضمرت أكفالها فكأنها غلام في قدها؛ أما قدماء الشعراء فكانوا يمدحون اكتناز العجيزة

ولِحُسْنِ الحَلالِ فَضْلٌ، إذا مَا شَابَهُ، في العُيُونِ، ظَرْفُ الحَرَامِ

الحلال يكون فيه فضل (زيادة) إذا شابه (اختلط به) قليل من الحرام الظريف

١٠٠ لست من أنداده

وقال في مدح المتوكل:

قَدْ قلتُ للغَيْمِ الرُّكَامِ، ولَجَّ في إبْرَاقِه وأَلَحَّ في إرعَادِهِ

قلت للغيم المتراكم، وقد لجَّ (استمر) في إبراقه وألَحَّ في إرعاده

لا تَعْرِضَنَّ لِجَعْفَرٍ مُتَشَبِّهاً بِنَدَى يَدَيْهِ، فَلَسْتَ مِنْ أَنْدَادِهِ

لا تعرضن (لا تتعرض) لجعفر (للمتوكل) متشبها بكرم يديه، فلستَ نداً له

١٠١ واهب «البدور»

قال يمدح المتوكل:

تَنَاءتْ دارُ عَلْوَةَ، بعدَ قُرْبٍ، فهل رَكْبٌ يُبَلِّغُها السَّلاما؟

وَرُبَّتَ ليلةٍ قد بِتُّ أُسْقَى بِعيْنيْها وكَفَّيْها المُداما

ربت (رب)

قَطعْنَا الليلَ، لَثْمَاً واعْتِناقاً وأفنيْناهُ، ضَمَّاً والتِزاما

لثما (تقبيلاً)، التزاماً (معانقة)

لَئِنْ أَضْحَتْ مَحَلَّتُنا عِراقاً مُشَرِّقَةً، وحِلَّتُها شَآما

الحلة والمحلة (المكان الذي يقيم به القوم)

فلم أُحْدِثْ لها إلّا وِدَاداً، ولم أَزْدَدْ بِها إلا غَراما

خِلافَةُ جَعْفَرٍ عَدْلٌ وأَمْنٌ وحِلْمٌ لم يَزَلْ يَسَعُ الأَناما

إذا وَهَبَ البُدُورَ رأَيْتَ وَجْهاً تَخَالُ بِحُسْنِه البَدْرَ التَّماما

البدور (أكياس النقود، وقيل البدرة الواحدة ألف درهم). يمنح المال وهو مبتسم

غَـنِـيٌّ أَنْ يُـفَـاخِـرَ أو يُـسَـامِـي جَـلِـيـلٌ أَنْ يُـفَـاخَـرَ أو يُـسَـامَـى

غني (مستغنٍ) أن يفاخِر أحداً أو أن يساميه (يعلو فوقه)، وهو جليل القدر عن أن يفاخره أحد أو يعلو عليه

١٠٢ الفتح يواجه الأسد

يمدح الفتح بن خاقان، ويذكر منازلته الأسد:

ومـا نَـقَـمَ الـحُـسَّـادُ إلَّا أَصـالَـةً لَـديْـكَ، وفِـعْـلاً أَرْيَـحِـيَّـاً مُـهَـذَّبَـا

ما نقم الحسادُ (اغتاظوا من) إلا أصالةً لديك (رأياً ثاقباً)، وإلا فعلاً أريحياً (فيه انشراح للمعروف) مهذباً (متمدِناً حضارياً). والرجل المهذب في شعر القدماء هو الذي ليس فيه جفاء الأعراب، بل عنده إتيكيت السلوك الحضري

وقَدْ جَرَّبُوا بالأمسِ مِنْكَ عَزِيمةً فَضَلْتَ بِها السَّيفَ الحُسامَ المُجَرَّبَا

وقد رأوا بأعينهم مؤخراً عزيمتك التي فضَلت بها الحسام (تفوقت على السيف) المجرب

غَدَاةَ لَقِيتَ اللَّيْثَ، واللَّيْثُ مُخْدِرٌ يُـحَـدِّدُ نَـابـاً لِـلِّـقـاءِ ومِـخْـلَـبَـا

حدث هذا صبيحة لقائك الأسد وهو مخدر (قابع في خدره، مَخْبَأه) يحدد (يشحذ) نابه ومخلبه لهذا اللقاء

يُحَصِّنُهُ، مِنْ نَهْرِ (نَيْزَكَ)، مَعْقِلٌ مَـنِـيـعٌ تَـسَـامَـى غـابُـهُ وتَـأَشَّـبَـا

كان يحصِّن الأسدَ معقل منيع (حصن حصين) هو عبارة عن نهر نيزك، وهذا الحصن تسامى (ارتفع) غابه (قصبه) وتأشب (صار منيعاً). ونهر نيزك قناة جرَّها المتوكل إلى منطقة الحير في سامراء. وكانت بها غابة كبيرة فيها الوحوش على أنواعها فيما يشبه حديقة حيوان. ونهر نيزك كان يصب في بركة ضخمة سنرى البحتري يصفها في قصيدة مشهورة (رقم ١٠٤ هنا)

إذا شـاءَ غَـادَى عَـانَـةً، أو عَـدَا عـلى عَـقَـائِـلِ سِـرْبٍ، أو تَـقَـنَّـصَ رَبْـرَبَـا

إذا شاء هذا الأسد غادى (أغار صباحاً) عانةً (سرباً من حمر الوحش)، أو عدا على (هاجم) عقائل سرب (إناثه)، أو تقنص (اصطاد) ربرباً (بقرة وحشية)

يَـجُـرُّ إلـى أَشـبـالِـهِ كُـلَّ شَـارِقٍ عَـبِـيـطاً مُـدَمَّـىً، أوْ رَمِـيلاً مُـخَـضَّـبَـا

يجر الأسد إلى أشباله كل شارق (صباح) عبيطاً مدمىً (ذبيحاً ملطخاً بدمه)، أو رميلاً مخضباً (ذبيحاً ممرغاً بالرمل وملطخاً بدمه)

ومَنْ يَبْغِ ظُلْماً في حَرِيمِكَ يَنْصَرِفْ إلـى تَـلَـفٍ، أوْ يَـثْـنِ خَـزْيَـانَ أَخْـيَـبَـا

والذي يريد أن يظلم حريمك (من هم في جوارك وحرمك، أي هذه الحيوانات) يؤول إلى تلف (هلاك)، أو يثني (يرتدُّ) بالخزي والخيبة

شَهِدْتُ لقدْ أَنْصَفْتَهُ يومَ تَنْبَرِي لهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ البِيضِ مِقْضَبا

أشهد أنك أنصفت الأسد (أعطيته جزاءه) عندما انبريت له مصلتاً عضباً (موجهاً سيفاً) من البيض (السيوف) مقضباً (ماضياً)

فلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا عِرَاكاً، إذا الهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبَا

لم أر أسدين أشد منكما عراكاً، في حين الهيابة (الخواف الجبان) النكس (الدون من الرجال) يكذب إذ يتحدث عن شجاعة مزعومة. انتقد القدماء البحتري على هذا البيت. وقالوا: الأجدر أن يقول: إن الشجاع يكذب وأما أنت أيها الفتح فأشجع من الشجاع؛ فأما القول إنك أشجع من الجبناء فليس فيه مدح. وأنا أرى أن البحتري لا يقارن بل هو كمن يقول: أنت العظيم الشجاع، وليخسأِ الجبناء. وجاء شيء كهذا كثيراً في شعر العرب

هِزَبْرٌ مَشَى يَبْغي هِزَبْراً، وأَغْلَبٌ مِنَ القومِ يَغْشَى باسِلَ الوَجْهِ أَغْلَبَا

هزبر (أسد) مشى يريد هزبراً مثله، وأغلب من الناس (ذو رقبة غليظة/ ووصف العرب القدماء سادتهم بهذا الوصف) يغشى (يداهم) باسل الوجه (مكشر الوجه) أغلب (غليظ الرقبة/ و«الأغلب» من أسماء الأسد على كل حال)

فَأَحْجَمَ، لمَّا لم يَجِدْ فيكَ مَطْمَعاً وأَقْدَمَ، لمَّا لم يَجِدْ عنكَ مَهْرَبَا

أحجم الأسد عندما وجد أنه لا سبيل للطمع في قهرك، لكنه عاد فتقدم إذ لم يجد عنك مهرباً

فلم يُغْنِهِ، أنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً ولم يُنْجِهِ، أنْ حَادَ عنكَ مُنَكِّبَا

فلم يفده تقدمه، ولا نجَّاه أن حاد (انحرف) عنك منكباً (متجنباً). وقد وضعنا فاصلة (،) في الشطر الأول، ومثلها في الثاني بغير حاجة ماسة يحوجها توصيل المعنى، لكننا أردنا أن ندلك على طريقة البحتري في تقسيم أبياته. وكثيراً ما وضعنا أمثال هذه الفواصل لنكشف صنعة البحتري في هذا التقسيم المتوازن المتناظر الجانبين. فكأنه الخطاط محمد حسني، الذي كانت لوحاته آيات في التوازن و«التوزيع» بتعبير الخطاطين، فإذا نظرت إلى اللوحة عن بعد رأيت فيها هندسة تروق العين. ووصف بعض القدماء شعر البحتري بأن تقسيماته أحسن من تقسيمات إقليدس

حَمَلْتَ عليهِ السَّيْفَ، لا عَزْمُكَ انْثَنَى ولا يَدُكَ ارتَدَّتْ، ولا حَدُّهُ نَبَا

حملت عليه السيف (هجمت) فلا عزمك تراخى، ولا يدك رجعت بالخيبة، ولا حد السيف نبا (انحرف)

١٠٣ لِدات أبي ثم لداتي

يفتخر ويعاتب قوماً من أهل بلده:

أَبُنَيَّ! إنِّي قد نَضَوْتُ بَطَالَتي فَتَحَسَّرَتْ، وصَحَوْتُ مِنْ سَكَراتي

يا بنيَّ! أنا نضوت (خلعت) بطالتي (عبثي) فتحسرَتْ (انحسرت وزالت)

نَظَرَتْ إليَّ الأَرْبَعونَ فَأَصْرَخَتْ شَيْبِي، وهَزَّتْ لِلْحُنُوِّ قَنَاتي

نظرت إليَّ الأربعون سنة (وهي عمري) فأصرخت شيبي (جعلته يصرخ/والشيب عند بعض شعرائنا القدامى يعلن عن نفسه بالصراخ)، وهزت هذه الأربعون للحنو قناتي (جعلت قامتي تهتز، وجعلتها محنية). كان الفرزدق قال: والشيب ينهض في الشباب كأنه/ليل يصيح بجانبيه نهار.. وللفرزدق في هذا «الصياح» عند النهار مسوغ إذ هو يلمح إلى صياح الديك في النهار، وصراخ «البحتري» من باب آخر، ولعله يقصد بأصرخت: أنجدت.. ولم نجد لها وجهاً

وأَرَى لِدَاتِ أَبِي تَتَابَعَ كُثْرُهُمْ فَمَضَوْا، وكَرَّ الدَهْرُ نَحْوَ لِدَاتي

وأرى لدات أبي (مجايليه/المولودين وقت مولده) قد تتابع كثرهم (أكثرهم) نحو الموت، وكر الدهر (هجم) نحو لداتي أنا

ومِنَ الأقارِبِ مَنْ يُسَرُّ بِمِيتَتي سَفَهاً، وعِزُّ حياتِهِمْ بِحَياتي

من أقاربي من سيسرون بموتي لأنهم سفهاء، فحياتي تجلب العز لهم

إنْ أَبْقَ، أَو أَهْلِكْ، فقد نِلْتُ التي مَلأَتْ صُدورَ أَصادِقي وعُدَاتي

سواء أبقيت أم هلكت فإنني نلت الأماني التي ملأت صدور أصادقي (أصدقائي) بالسرور، وصدور عداتي (أعدائي) بالغيظ

وغَنِيتُ، نَدْمَانَ الخَلائِفِ، نَابِهاً ذِكْرِي، ونَاعِمَةً بِهِمْ نَشَوَاتي

غنيت (تمتعت) وأنا نَدمان (نديم) الخلائف (الخلفاء)، وذكري نابه (صيتي منتشر)، ونشواتي (جلسات الخمر) ناعمة بهم (لذيذة مع الخلفاء) يقول: تمتعت وأنا نديم للخلفاء، أجالسهم على الخمر، وتمتعت بالشهرة

وشَفَعْتُ في الأَمْرِ الجليلِ إِلَيْهِمُ بَعْدَ الجَلِيلِ، فَأَنْجَحُوا طَلَبَاتي

وكنت أشفع للخلفاء في الأمر المهم بعد الأمر المهم، وأنجحوا (أنْفَذوا) طلباتي

وَصَنَعْتُ في العَرَبِ الصَّنائِعَ عِنْدَهُمْ مِنْ رِفْدِ طُلَّابٍ، وفَكِّ عُنَاةِ

وصنعت الصنائع (حققت الخدمات) للعرب لدى الخلفاء، ومن ذلك رفد الطلاب (تزويد طالبي الحاجات) وفك العناة (إطلاق الأسرى). والعرب أيامئذ هم بدو الشام، ومنهم البحتري، وبدو العراق؛ وكانوا مستضعفين فقراء مع تغلُّب العنصر الفارسي ثم التركي في عاصمة الخلافة. وكانوا يقتتلون أو يتمردون على الدولة، ويتعرضون للأسر في الحالتين. وعند شاعرنا وصف طيب لنزاعاتهم اخترنا منه قطعة على حرف العين (القصيدة رقم ٩٢) هي من أجمل شعره وأكثره حرارة

جَدِّي الذي رَفَعَ الأَذَانَ (بِمَنْبِجٍ) وأَقامَ فيها قِبْلَةَ الصَّلَواتِ

جدي هو الذي أدخل الإسلام في منبج (مدينة بشمال سوريا)، وأقام محراباً للصلاة يتجه للقبلة

١٠٤ وصف بِركة المتوكل

يمدح المتوكل، ويصف البركة:

مِيلُوا إِلَى الدَّارِ مِنْ لَيْلَى نُحَيِّيها نَعَمْ، ونَسْأَلُها عَنْ بعضِ أَهْلِيها

ميلوا (عرجوا) إلى الدار، دار ليلى نحييها، ونسألها عن بعض أهليها (عن ليلى التي رحلت عنها)

يا دِمْنَةً جَاذَبَتْهَا الرِّيحُ بَهْجَتَهَا تَبِيتُ تَنْشُرُها طَوْراً، وتَطْوِيها

يا دمنة (خِرْبة) جاذبتها الريح بهجتها (أخذت الريح تشد بهجتها منها، فالريح تشد والدار تشد ويتجاذبان حتى فقدت الدار بهجتها)، والريح تنشر الرمل على آثار الدار الخَرِبة ثم تطويه، فكأنها تنشر الديار ثم تطويها

قَد أَطْرُقُ الغَادَةَ الحَسْنَاءَ مُقْتَدِراً على الشَّبَابِ، فَتُصْبِينِي وأُصْبِيها

قد أطرق الغادة الحسناء (أزورها ليلاً)، وأنا ممتلئ بطاقة الشباب، فتصبيني (تستهويني) وأصبيها

في لَيْلَةٍ، لا يَنَالُ الصُّبْحُ آخِرَهَا، عَلِقْتُ بِالرَّاحِ أُسْقَاهَا وأَسْقِيها

لطول الليلة لا يكاد الصبح يصل بها إلى نهايتها؛ وأنا متعلق بالخمر، والمحبوبة تصبُّ لي، وأنا أصب لها

عَاطَيْتُها غَضَّةَ الأَطْرَافِ مُرْهَفَةً، شَرِبْتُ مِنْ يَدِها خَمْراً، ومِنْ فِيها

عاطيتها (أخذت وأعطيت الخمر) مع غضة الأطراف مرهفة (فتاة ناعمة الأطراف، كأنه ينظر بعين خياله إلى أصابعها وهي تناوله القدح)، وشربت الخمر من يدها، ومن فمها أيضاً

يا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤْيَتُها، والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها

يا من رأى البركة الحسناءَ رؤيتُها (التي تحسُنُ رؤيتُها)، ورأى الفتيات، إذ بدت مغانيها (أماكنها، وقال بطرس البستاني إنه كان للجواري مقصورات للاغتسال حول البركة)

بِحَسْبِها أَنَّها، مِنْ فَضْلِ رُتْبَتِها، تُعَدُّ واحِدَةً، والبَحْرُ ثانِيها

يكفي البركة أنها، لعلو منزلتها، تعتبر واحدة (الأولى)، والبحر (نهر دجلة) يأتي ثانياً بعدها

ما بَالُ دِجْلَةَ كَالغَيْرَى تُنَافِسُها في الحُسْنِ طَوْراً، وأَطْوَاراً تُبَاهِيها؟

ما بال دجلة غيرى تنافس البركة في الحسن وتباهيها؟

أَمَا رَأَتْ كَالِئَ الإسلامِ يَكْلَؤُها مِنْ أَنْ تُعَابَ، وبانِي المجدِ يَبْنِيها؟

ألم تر دجلة كالئ (حامي) الإسلام يحمي بركته من أن يلحق بها عيب (ذلك هو المتوكل على الله)

كَأَنَّ جِنَّ سُلَيْمَانَ الذينَ وَلُوا   إِبْدَاعَها، فَأَدَقُّوا في مَعَانِيها

كأن الجن الذين سُخّروا لسليمان وبنوا له القصور هم الذين وَلُوا (تَوَلَّوْا) إنشاء البركة، فأدقُّوا (تفننوا) في معانيها (في رموزها، فهي رمز لعظمة الخليفة)

فَلَوْ تَمُرُّ بِهَا بِلْقِيسُ عَنْ عُرُضٍ   قالتْ: هِيَ الصَّرْحُ، تَمْثِيلاً وتَشْبِيها

لو مرت الملكة بلقيس بالبركة عن عرض (من جانبها) لقالت إن البركة هي الصرح (القصر الزجاجي الذي بناه سليمان). وكانت بلقيس ظنت أرضية البهو، عندما وردت على سليمان، مغمورة بالماء فرفعت طرف ثوبها، ولكن الأرض كانت من زجاج و.. جافة

تَنْحَطُّ فيها وُفُودُ المَاءِ مُعْجَلَةً   كالخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيها

تنحط (تنصب هابطةً) في البركة المياه وافدة من دجلة كأنها الوفود المعجلة (التي وراءها من يستعجلها)، وهي تشبه خيل السباق عندما تخرج مندفعة إذ يفلت الشخص الذي يجريها لها الحبل إيذاناً ببدء السباق

كَأَنَّما الفِضَّةُ البَيْضَاءُ، سَائِلَةً   مِنَ السَّبَائِكِ، تَجْرِي في مَجَارِيها

كأن الفضة البيضاء ـ وهي سائلة من سبائكها عند الصائغ ـ تجري في قنوات المياه القادمة من دجلة إلى البركة

إذا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبْدَتْ لَها حُبُكاً   مِثْلَ الجَوَاشِنِ، مَصْقُولاً حَوَاشِيها

إذا مرت ريح الصبا فوق البركة أظهرت حبكاً (تموجات) مثل الجواشن (الدروع) التي صقلت حواشيها (أطرافها)، شبه سطح الماء المتموج بالدرع المنسوجة من حلقات الحديد

فَرَوْنَقُ الشَّمْسِ، أَحْيَاناً يُضَاحِكُها   ورَيِّقُ الغَيْثِ، أَحْيَاناً يُبَاكِيها

رونق الشمس (ضوءُها) يضاحك البركة أحيانا وينعكس فوقها، وريق الغيث (أول المطر) أحياناً يباكيها (يقطر على سطحها فتستجيب لقطراته)

إذا النُّجُومُ تَراءَتْ في جَوانِبِها   لَيْلاً، حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِّبَتْ فِيها

لا يَبْلُغُ السَّمَكُ المَحْصُورُ غايَتَها   لِبُعْدِ مَا بَيْنَ قَاصِيها ودَانِيها

واسعة هذه البركة فلا يكاد السمك المحصور فيها يصل إلى آخرها. لست أعرف سرعة ذلك السمك ولا حيويته، على أن (الأغاني) يخبرنا أنه بلغ من اتساع هذه البركة أنْ كان المتوكل يعبث بالشاعر الماجن أبي العبر فيأمر بأن يُقذف به بالمنجنيق من شاطئ البركة فيقع فيها. لا بد أنها كانت كبيرة

يَعُمْنَ فِيها بِأَوْسَاطٍ مُجَنَّحَةٍ،   كالطَّيْرِ تَنْفُضُ في جَوٍّ خَوَافِيها

تعوم الأسماك ووسط جسمها مجنح بالزعانف، فكأنها الطير التي تنفض في الجو خوافيها (ريشاتها)، وخوافيها حقها النصب بفتحة على الياء واضطر الشاعر. (كنت في نحو العشرين من العمر عندما عهد إليَّ بإخراج الكتاب السنوي للجامعة، وكنت في السنة الثانية. وجدت صورة لفتاة من الخريجات، كانت الفتاة محجبة، فلما أخذت لها صورة لنشرها في الكتاب السنوي خلعت الحجاب. فإذا هي نور على نور. فكبَّرت الصورة وجعلتها في صفحة وحدها، وكتبت تحتها «طيف أتاني في المنام وقالا.. هيهاتَ أن يخفي الحجاب جمالا». ومرت أربعون سنة. وجاءني الصديق خالد سليم، وهو لغوي مدقق، وأنشدني هذا البيت. فابتسمت، فاستفسر. فقلت له: هذا البيت لي. وقصصت عليه قصته. ولم يترك القصة تمر كنادرة طريفة جاءته بعد أربعين سنة، فقال: «أن يخفي» حقها أن تكون «أن يخفيَ» بفتحة على الياء. فأفسد عليَّ بيتي. على أنني أقول: المضارع الواوي واليائي أهمل نصبه الشعراء كثيراً، ويقع فيه المذيعون ليل نهار. وثمة بيت فيه معنى من أبدع المعاني وسأقص قصته: اجتمع الناس وفيهم أبو الشيص الشاعر ببغداد يتناشدون الأشعار. فإذا شاب في أخريات المجلس ينشدهم، ومر في إنشاده بيت يصف فيه شعره: (تغاير الشعر فيه إذ سهرت له/حتى ظننت قوافيه ستقتتل)، فكأن أبيات الشعر غار أحدها من الآخر وأصبحت كلمات القافية تقتتل لكي تحل في مواضعها. عندما مر هذا البيت عقد أبو الشيص خنصره. ثم انفض المجلس. وعلق أحد الحاضرين: للآن ما دريت أعقد أبو الشيص خنصره لروعة البيت أم لأن الشاب المنشد لم ينصب كلمة (قوافيه) اضطراراً. وللآن لا ندري لم عقد أبو الشيص خنصره. لكننا ندري أن ذلك الشاعر الشاب كان أبا تمام

لَهُنَّ صَحْنٌ رَحِيبٌ في أَسَافِلِها   إِذَا انْحَطَطْنَ، وبَهْوٌ في أَعَالِيها

للسمك صحن (قاع) واسع في أسفل البركة إذا انحططن (هبطن)، ولهن بهو (صالة) في الأعلى

صُوْرٌ إلى صُورَةِ الدُّلْفِينِ، يُؤْنِسُها   مِنْه انْزِوَاءٌ بِعَيْنَيْهِ، يُوَارِيها

الأسماك صوُر (مائلات) تنظر بخوف إلى تمثال الدلفين بجانب البركة، ولكنها تطمئن إذ ترى عينيه منزويتين إلى الجهة الأخرى، فهذا الانزواء كأنه يواري الأسماك عنه. كل الطبعات تصر على أنها (يوازيها) بالزاي، وأنا أقرأ (يواريها) بالراء. وقراءتي تجعل للبيت معنى جميلاً. وأما يوازيها فليست بشيء. إذا لقينا البحتري في جنة أو في نار فسوف نسأله أي الوجهين يختار، ويغلب على ظني أنه سيقول: أنستني أهوال الموقف كل شعري

تَغْنَى بَسَاتِينُها القُصْوَى، بِرُؤْيَتِها،   عَنِ السَّحَائِبِ مُنْحَلّاً عَزَالِيها

تغنى (تستغني) بساتين البركة القصوى (البعيدة) بمجرد رؤيتها للبركة عن الغيوم التي انحلت عزاليها (العزالي: فتحات القِرَب السفلية، فإذا أرادوا إفراغ القربة من مائها لملئها بماء جديد فكوا فمها، وفكوا عِزلاتَها، فينزل الماء من العزلاة سريعاً)//مرة أخرى بعضهم أراد بدل (برؤيتها) (بريِّتِها). أي أن البركة تروي البساتين البعيدة. وهذا ليس شعراً بل زراعة وبستنة. فأما أن تكون البساتين ـ البعيدة ـ تكتفي بمجرد رؤية البركة وتستغني عن المطر فهذا، أي نعم، شعر

كَأَنَّها حِينَ لَجَّتْ في تَدَفُّقِها يَدُ الخَلِيفَةِ، لَمَّا سَالَ وَادِيها

قنوات البركة عندما لجت (تلاطمت) متدفقة بالمياه كأنها يد الخليفة المتدفقة بالمال

وزَادَها زِينَةً، مِنْ بَعْدِ زِينَتِها، أَنَّ اسْمَهُ، حِينَ يُدْعَى، مِنْ أَسَامِيها

زاد القنوات جمالاً فوق جمالها أن اسم الخليفة هو بعض أسمائها (واسمه جعفر، وجعفر بعض أسماء الجدول، ومعنى جعفر «النهر الصغير»)

مَحْفُوفَةٌ بِرِيَاضٍ، لا تَزَالُ تَرَى رِيشَ الطَّوَاوِيسِ تَحْكِيهِ ويَحْكِيها

البركة محفوفة (محاطة) برياض. وأنت ترى ريش الطواويس فتجده يحكيها (يشبهها)

إذا مَسَاعِي أَمِيرِ المؤمنينَ بَدَتْ لِلْوَاصِفينَ، فَلا وَصْفٌ يُدَانِيها

مساعي (أمجاد)

إنَّ الخِلافَةَ، لَمَّا اهْتَزَّ مِنْبَرُها بِجَعْفَرٍ، أُعْطِيَتْ أَقْصَى أَمَانِيها

بتولي جعفر الخلافة نال هذا المنصب كل ما يتمنى من عز وقوة

أَبْدَى التَّوَاضُعَ لَمَّا نَالَها، رِعَةً مِنْهُ، ونَالَتْهُ فَاخْتَالَتْ بِهِ تِيها

لما نال جعفر المتوكل على الله الخلافة أبدى التواضع رعة (ورعاً وتقوى)؛ وأما الخلافة فعندما نالت جعفراً اختالت (تكبرت) تيهاً (غروراً)

مَا ضَيَّعَ اللَّهُ، في بَدْوٍ ولا حَضَرٍ، رَعِيَّةً أَنْتَ، بِالإِحْسَانِ، رَاعِيها

وأُمَّةٍ كَانَ قُبْحُ الجَوْرِ يُسْخِطُها دَهْراً، فَأَصْبَحَ حُسْنُ العَدْلِ يُرْضِيها

رب أمةٍ كان الجور (الظلم) يغضبها، أصبحت راضية بعدلك. وقبل المتوكل كان أخوه الواثق شديداً، وكان كثير الإهانة للمتوكل، بل كان يأمر الوزير ابن الزيات بتوبيخه، وجاء المتوكل فقتل ابن الزيات بعد بضعة أشهر تعذيباً، ورجع عن سياسة أخيه في مسألة خلق القرآن فاستراح أهل السنة. ولكنه شدد على الطالبيين فامتعض الشيعة من حكمه. وفي أيام المتوكل كان الشعراء يقدحون في أخيه الواثق والمتوكل راضٍ مسرور (علي بن الجهم: أنا المتوكلي هوى ورأياً/ وما بالواثقية من خفاء)

مَا زِلْتَ تُرجَى لِعَافِينَا، فَكَيفَ وقد قَابَلْتَنَا ولَكَ الدُّنْيَا بِمَا فِيها؟

كنت رجاء لعافينا (فقيرنا) يرجوك رجاءً قبل الخلافة، فكيف الآن وأنت تقابلنا ولك الدنيا وما فيها؟ «قابلْتنا» هذه قلقة، وأحسن منها (أتيتنا) لو كان قالها، لكن لم ترد لا عند الصيرفي ولا الجوائب ولا البرقوقي

أَعْطَاكَهَا اللَّهُ عَنْ حَقٍّ رَآكَ لَهُ أَهْلاً، وأَنْتَ بِحَقِّ اللَّهِ تُعْطِيها

أعطاك الله الدنيا (متاع الدنيا والأموال) وهي حق لك، وأنت أهل له، وأنت تمنح الأموال للناس بالحق

١٠٥ فساد العمال

قال في رجل كان يتولى بريد الرقة واسمه نهشل:

أَمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ! أَمَـا غِـيَـاثٌ   نُـؤَمِّـلُـهُ؛ فـقـد طَـالَ الـقُـنُـوطُ؟

غياث (إعانة)

أَبَـى عُـمَّـالُـنَـا إلَّا فُـسُـوقـاً   لِـكُـلٍّ مِـنْ أَحِـبَّـتِـهِـمْ شُـروطُ

المقربون للولاة يشترطون.. وشروطهم واضحة من البيت التالي..

فَـمِـنْ وَالٍ يُـلاطُ بِـه فَـتَـخْـزَى   رَعِـيَّـتُـه، ومِـنْ وَالٍ يَـلُـوطُ

تخزى (يصيبها العار). وكان اللواط في ذلك الزمن منتشراً
وكان مجتمع الطبقة الحاكمة متساهلاً بشأنه

١٠٦ إما عدل وإما عفو

يمدح المتوكل:

شَـرَفـاً بَـنـي الـعـبـاسِ إنَّ أَبَـاكُـمُ   عَـمُّ الـنَّـبـيِّ وعِـيـصُـهُ الـمُـتَـفَـرِّعُ

فلتشرُفوا شرفاً يا بني العباس، فأبوكم (جدكم الأعلى) هو عم النبي، وعيصه (شجرته العظيمة) المتفرع، أي العالي. يقصد أن العباس من «أصول» النبي، والعم من الأصول. سيقول شوقي بعد ألف سنة (شَرَفاً أبا العباسِ، هذا مُلْكُ مصـ رَ وذي خزائِنُهُ، وذلكَ دَسْتُهُ) في مدح الخديوي توفيق، وكان شوقي من المفتونين بالبحتري

وأَرَى الخلافَةَ، وَهْيَ أَعْظَمُ رُتْبَةٍ،   حَـقّـاً لَـكُـمْ، وَوِرَاثَـةً مَـا تُـنْـزَعُ

الخلافة حق لكم بالوراثة. وكان الشعراء في عهد هارون الرشيد قد استنفدوا هذا المعنى وقرروا أن بني العم أحق بالوراثة من بني البنت؛ أي أن العباسيين، بني العباس عم النبي، أولى بالخلافة من العلويين أبناء بنت الرسول فاطمة (مروان بن أبي حفصة: أنى يكون وليس ذاك بكائن/لبني البنات وراثة الأعمام). وهذه مساهمة بسيطة من البحتري، رغم ما قيل من أنه كان يميل شيئاً ما إلى آل البيت. إن كان مؤسفاً أن يدور نقاش كهذا في عصر زاهر كالعصر العباسي، فاقرأ ما يكتبه شبابنا الناهض في منتديات الإنترنت عن حق الخلافة بين الشيعة والسنة وستحمد العصر العباسي وتغفر له سيئاته؛ اقرأ الشتائم التي يتبادلها أبناء الطوائف والأديان، واقرأ وراءها كمية الحقد الدفين

مَـا زالَ لـي مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ مَوْئِلٌ   آوِي إليـه مِـنَ الـخُـطُـوبِ، ومَـفْـزَعُ

ما زال لي من حسن رأيك (رضاك) موئل (ملجأ) من المصائب، ومفزع (ملجأ)

فَعَلامَ أَنْكَرْتَ الصَّديقَ، وأَقْبلَتْ   نَحْوِي رِكَابُ الكَاشِحِينَ تَطَلَّعُ؟

فلماذا أنكرت من هو لك صديق، وجاءتني ركاب الكاشحين
(وفود المبطني العداوة) يتطلعون إليَّ بشماتة

وأقامَ يَطْمَعُ فِي تَهَضُّمِ جَانِبِي   مَنْ لم يَكُنْ مِنْ قَبْلُ فِيهِ يَطْمَعُ؟

وأقام (صار) يطمع في تهضم جانبي (انتقاص حقي) من لم يكن يجرؤ على ذلك وأنت عليَّ راضٍ

إلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ، فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ   أَو كانَ لِي ذَنْبٌ، فَعَفْوُكَ أَوْسَعُ

إن لم يكن لي ذنب فعدلك واسع، وإن كان لي ذنب فعفوك أوسع. استشهد ابن زيدون في رسالته الجدية بهذا البيت. وسترانا في كتب خمسةٍ نورد فيها زبدة الشعر العربي لا نلتفت إلى الأندلس. كانوا مقلدين. ويجعل الأكاديميون في زمننا ابن زيدون على رأس شعراء الأندلس، وقد لزمناه مدة، وخلصنا إلى أنه مقلد، وله فلتات قليلات كقوله (يقرع السن على أن لم يكن.. زاد في تلك الخطى إذ ودعك) أي أنه نادم لأنه لم يسر مع المحبوب خطوات إضافية ساعة الوداع. وقصيدته التي لا تمل كتب المدارس من تعذيب الطلبة بها (أضحى التنائي) ليست سوى تمرينٍ في التناظر النصفي.. فكل شطر قد حلف يميناً بالله أن يكون عكس الشطر المقابل له.. شيء يغثي النفس. هذا شيء ليس بحَسَن، ولا حتى في الزخرفة. لأمر ما أحب ابن زيدون هذا البيت المتناظر نصفياً للبحتري. وعند أبي عبادة كثير من التقسيم.. لكنه خفيف على القلب

١٠٧ المتوكل القتيل

قال يرثي المتوكل:

مَحَلٌّ على (القَاطُولِ) أَخْلَقَ دائِرُهْ   وعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهرِ جَيْشاً تُغَاوِرُهْ

هذا الموقع على نهر القاطول (قصر الجعفري الذي فيه قتل المتوكل) قد أخلق (بليَ) دائره (ما دثر وتهدم من بنائه)، وعادت صروف (مصائب) الزمن وكأنها جيش يغاوره (يشن الغارات عليه). اضح من هذا المطلع أن رثاء المتوكل جاء بعد مدة طويلة من قتله، فالقصر متهدم. وفي هذه المدة مات المنتصر ابن الخليفة الذي تآمر على أبيه، وزال الخطر عن البحتري. وأما ما قاله بعض النقاد (ثعلب، ونقلنا كلامه من زهر الآداب) من أن البحتري «صرح تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب» فلا يستقيم مع ما عُرف عن البحتري من جبن. والأمثل أن البحتري قال الرثاء الحار ضمن هذه القصيدة يوم مقتل المتوكل آملاً أن يتولى المعتز الخلافة، ثم آل الأمر سريعاً إلى المنتصر، فحبس البحتري القصيدة. وبعد زمن طويل أضاف إليها وصف أطلال قصر الجعفري، ثم أظهرها. ويقول زكي مبارك في «الموازنة بين الشعراء» إن البحتري كان في قصيدته هذه «من أشجع الناس وأوفاهم..» ويورد كلمة ثعلب. أما الشجاعة فلم يذكرها أحد للبحتري قبل زكي مبارك. وأما الوفاء فنحب أن نورد عليك ما قاله شارل بِللا في دائرة المعارف الإسلامية: «خلافاً لكل توقع لا يبدو أن البحتري رثا أبا تمام الذي كان أول من شجعه، وكان أبرز من تعلم البحتري على

يديه، وهذه أولى بوادر النكران والانتهازية؛ وسيقدم البحتري لاحقاً الدليل الساطع عليهما.» (ط ١٩٨٦ ليدن، ص١٢٩٠، ج١). ولعل المحصلة هي أن البحتري لحق به الغم بعد مقتل المتوكل فحج البيت، ثم عاد سريعاً ليمدح ابنه، المتآمر على قتله، المنتصر. ومات المنتصر بعد ستة أشهر من مقتل أبيه. وروى الصولي في أخبار البحتري أنه سأل ابن المعتز: أكان البحتري يجسر أن يقول لما قتل المتوكل في يوم المنتصر: لنعم الدم المسفوك.. [وروى ثلاثة أبيات] فقال [ابن المعتز]: إنما عمل هذه الأشعار في أيام المعتز، يتقرب بها إليه.» وملاحظة الصيرفي محقق الديوان مهمة إذ يقول: «والأبيات التي ذكرت هنا فيها حرارة متصلة بالحرارة التي تصهر القصيدة كلها. ولو كان قد نظمها في أيام المعتز لفترت حرارتها.» إن كافة الأدلة موجودة في كلمات القصيدة، وكلما أمعن المرء فيها استخرج براهين جديدةً على الأوقات التي نظمت فيها شذراتها

كأَنَّ الصَّبَا تُوفي نُذُوراً إذا انْبَرَتْ تُـرَاوِحُـهُ أذيـالُـهـا وتُـبَـاكِـرُهْ

ريح الصبا، التي تمر على هذا الموقع مرة بعد مرة، مصممة على تهديمه، فكأنها توفي نذراً نذرته بأن تخرّب القصر، وأذيال هذه الريح تراوح القصر وتباكره (تأتيه بكرة وعشياً)

ورُبَّ زمـانٍ نـاعِـمٍ ثَـمَّ عَـهْـدُهُ تَـرِقُّ حَـواشِـيـهِ، ويُـونِـقُ نـاضِـرُهْ

ورب زمان ناعم (رغد) ثَم (هناك) كان عهده، وكان زماناً ترق حواشيه (تهنأ أيامه) ويونق ناضره (تسر القلب نضارته)

تَـغَـيَّـرَ حُـسْـنُ الـجَـعْـفَـرِيِّ، وأُنْـسُـهُ وقُوِّضَ بَادي الجَعْفَرِيِّ، وحَاضِرُهْ

انقلب حال قصر الجعفري، وتقوض (انهدم) باديه وحاضره (أي كل شيء فيه). البدو والحضر هم كل الناس بحسب مفهوم ذلك الزمان. فإذا قلت البادي والحاضر فكأنك تقول الأخضر واليابس، أي كل شيء، ومن أتى بالنقيضين فقد شَمَل

تَـحَـمَّـلَ عـنـه سـاكِـنـوهُ فُـجَـاءَةً فـعـادَتْ سَـواءً دُورُهُ ومَـقـابِـرُهْ

تحمل (رحل) ساكنو القصر فجأة بعد مقتل المتوكل، فأصبحت سواء (متساوية) الدور والمقابر فيه

إذا نـحـنُ زُرنَـاهُ أَجَـدَّ لَـنـا الأسَـى وقـد كـان قـبـلَ الـيـومِ يَـبْـهَـجُ زائِـرُهْ

إذا زرناه الآن أجدَّ (جدد) لنا الأسى (الحزن)، وكان في أيام عزه يَبهَج (يبتهج) زائره

ولـم أنسَ وَحْشَ القصرِ إذْ رِيعَ سِرْبُه وإذْ ذُعِـرَتْ أطـلاؤُهُ وجَـآذِرُهْ

لم أنس الوحوش هناك إذ ريع سربها (أُخيفت فنفرت)، وإذ ذعرت الأطلاء (صغار الظباء) والجآذر (صغار المها). وقيل إن ذلك الموضع كان فيه شبه حديقة حيوان، وكان فيها من كل الحيوانات حتى الأُسود. ولا أرى تفسيراً للبيت غير ما فسرت

وإذْ صِيحَ فيه بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ، عـلـى عَـجَـلٍ، أسـتَـارُهُ وسَـرائِـرُهْ

لم أنس عندما صاح القوم بالرحيل، فهتكت (خلعت) بسرعة الستائر، وما كان أكثرها في الجعفري، لحجْب النساء، وسرائره (ما يخفيه من أسرار) هتكت أيضاً. وقال لنا بعض المؤرخين إن المتوكل كان لديه أربعة آلاف جارية، وزادوا بأنه وطِئهن كلَّهن

ووَحْشَتَهُ، حتى كأنْ لم يُقِمْ به   أَنِيسٌ، ولم تَحْسُنْ لِعَيْنٍ مَناظِرُهْ

ولم أنس وحشة القصر، فكأنه لم يكن منزلاً للأنيس (البشر)، وكأنه لم يكن قط جميلاً

كأَنْ لم تَبِتْ فيه الخلافَةُ طَلْقَةً   بَشَاشَتُها، والمُلْكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهْ

وكأن الخلافة لم تكن مقيمة فيه طلقة (سعيدة) ذات بشاشة، والملك زاهراً

ولم تَجْمَعِ الدنْيا إليهِ بهاءَها   وبَهْجَتَها، والعَيْشُ غضٌّ مَكَاسِرُهْ

وكأن جمال الدنيا لم يكن يجتمع في ذلك القصر، هذا عندما كان الزمان غض المكسر (طري العود/أي كان زمناً حلواً). بالطبع، كان الخراج يجبى من الفلاحين في البلاد ويصب في حضن الخليفة لينفق على نسائه وشعرائه. كانت حقاً تُجمَعُ الدنيا لتصب في الجعفري. وإذا بدت لك عزيزي القارئ هذه الملاحظة اشتراكية فاسمع الجواهري، وكان شيوعياً، يتوجع للجعفري عندما زار أطلاله: (ولقد شجتني عبرة رقراقة/حيرانة في العين عند دخوله). على أننا لا نحاكم عصراً بمعايير عصر آخر

فَأَيْنَ الحِجَابُ الصَّعْبُ حيثُ تَمَنَّعَتْ   بِهَيْبَتِها أبوابُه ومَقَاصِرُهْ؟

أين الحجاب الصعب (منع القاصدين من الدخول إلا بإذن شديد)؟، وكان هذا الحجاب يسبغ على أبواب القصر ومقاصره (غرَفه) هيبة كبيرة

وأينَ عَميدُ النَّاسِ في كُلِّ نَوْبَةٍ   تَنُوبُ، ونَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وآمِرُهْ؟

وأين عميد الناس (مرجعهم) في كل نوبة (مشكلة) تنوبهم (تعرض لهم)، والذي كان ينهى ويأمر الزمن، فيطيعه الزمن؟

تَخَفَّى له مُغْتَالُهُ تحتَ غِرَّةٍ،   وأَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لو يُجَاهِرُهْ

تخفى له مغتاله تحت غرة (خدعة)، وأولى بالقاتل أن يكون شجاعاً فيجاهر الخليفة وينازله ولا يتآمر. أبا عبادة! إذن لا يعود هذا اغتيالاً!

فما قَاتَلَتْ عنه المَنُونَ جُنودُهُ   ولا دافَعَتْ أَمْلاكُهُ وذَخائِرُهْ

لم تتصد جنود الخليفة للمنون (الموت) دفاعاً عنه، ولا دافعت عنه ممتلكاته وكنوزه

ولا نَصَرَ المُعْتَزَّ مَنْ كانَ يُرْتَجَى   له؛ وعَزِيزُ القَوْمِ مَنْ عَزَّ نَاصِرُهْ

ولم ينصر الأميرَ المعتزَّ ابنَ المتوكل من كان يرتجى أن ينصره، (ولذلك فاز المنتصر ابنه الآخر بالخلافة، ثم عزل أخويه المعتز والمؤيد عن ولاية العهد)؛ والعزيز هو من يجد له سنداً قوياً

تَعَرَّضَ رَيْبُ الدَّهْرِ مِنْ دونِ «فَتْحِهِ»   وغُيِّبَ عنهُ في خُرَاسانَ «طَاهِرُهْ»

اعترض ريب الدهر (المصيبة) لفتحه (الفتح بن خاقان وزير المتوكل الذي قتل معه)، وكان قائده طاهر بن الحسين غائباً في خراسان

ولـو عَـاشَ مَـيْـتٌ، أو تَـقَـرَّبَ نَـازِحٌ   لَـدَارَتْ مِـنَ الـمَـكْـرُوهِ ثَـمَّ دَوَائِـرُهْ

ولو عاش له الفتح، أو كان طاهر قريباً، لكانت الدوائر دارت ثَمَّ (هناك) على المعتدين

ولـو لِـعُـبَـيْـدِ الـلَّـهِ عَـوْنٌ عَـلَـيْـهِـمُ   لَـضَـاقَـتْ عـلـى وُرَّادِ أَمْـرٍ مَـصَـادِرُهْ

ولو وجد عبيد الله، أخو الفتح، أنصاراً لضاقت على المهاجمين الواردين طريق الصدور (العودة) بعد تنفيذ خطتهم

حُـلُـومٌ أَضَـلَّـتْـهـا الأمَـانـي، ومُـدَّةٌ   تَـنَـاهَـتْ، وحَـتْـفٌ أَوْشَـكَـتْـهُ مَـقَـادِرُهْ

حلوم (عقول) أضلتها الأماني، فكل ما قلتُ في الأبيات السابقة أمنيات مستحيلة؛ هذا أجَلٌ تحقَّق وعُمْر وصل منتهاه، وحتف (موت) أوشكته مقادره (أسرعت به أقداره). التسويد من أحمد عبد الرحيم، وكتب: «هذا بيت قصيد القصيدة»

ومُغْتَصَبٌ لِلْقَتْلِ لم يُخْشَ رَهْطُهُ   ولـم يُـحْـتَـشَـمْ أسـبَـابُـهُ وأَوَاصِـرُهْ

هذا الخليفة الذي قتل غصباً (بغير رضا الفقهاء ولا مشورة أحد) لم يخش قاتلوه رهطَه (قومه) ولم يحتشموا (يراعوا) أسبابَه (مرجعيته وأحقيته) وأواصره (أقاربه). وزراء وكبراء وقواد كثر قتلوا في العشرين سنة التي سبقت مقتل المتوكل وفي عشرات السنين التي تلته، وكانت مؤسسة الخلافة حريصة دائماً على نيل صك فقهي بقتلهم، سواء برضا الفقهاء الحقيقي أم بختلهم. واضطر الخلفاء في عدة نوبات إلى قتل الكبراء بالعطش، يقدمون لهم الطعام الفاخر ويمنعونهم الماء، ويحرصون على ألا يظهر على الجثة أثر لتعذيب. وسيموت بالتعطيش ابن المتوكل المعتز بالله بعد سنوات قليلة. لعل البحتري استعمل كلمة (مغتصب) ليشير إلى أن قتل المتوكل كان اغتصاباً وخروجاً عن مألوف

صَـرِيـعٌ تَـقَـاضَـاهُ الـسُّـيُـوفُ حُـشَـاشَـةً   يَـجُـودُ بِـهـا والـمـوتُ حُـمْـرٌ أَظَـافِـرُهْ

صريع (ملقى أرضاً) تتقاضاه السيوف حشاشة (تأخذ منه السيوف بقية روحه)، وهو يجود بروحه بينما الموت يطل عليه بأظافر حمر

أُدَافِـعُ عـنـهُ بِـالـيَـدَيْـنِ، ولـم يَـكُـنْ   لِـيَـثْـنِـي الأعَـادِيَ أَعْـزَلُ الـلَّـيْـلِ حَاسِـرُهْ

البحتري هنا يتكلم عن نفسه، فقد حضر المقتلة. ويقول إنه دافع القتلة بيديه، ولكن لم يكن ليثنيهم (يردهم) رجل أعزل في تلك الليلة وحاسر (لا يلبس خوذة). قيل: بل اختبأ البحتري خلف الباب

ولو كان سَيْفِي ساعةَ القَتْلِ في يَدِي   دَرَى القَاتِلُ العَجْلانُ كيف أُسَاوِرُهْ

لو كان سيفي ـ يقول أبو عبادة ـ في يدي ساعة قتلوا المتوكل لعرف القاتل المستعجل كيف أساوره (أواثبه، وأبارزه)

حَـرَامٌ عَـلَـيَّ الـرَّاحُ بَـعْـدَكَ، أو أَرَى   دَمـاً بِـدَمٍ يَـجْـرِي عـلـى الأرضِ مَـائِـرُهْ

أحرم على نفسي الراح (الخمر) بعدك، حتى أرى دم قاتليكَ يجري على الأرض مائره (المائر: المترقرق) مقابل دمك

وهل أرتَجي أنْ يَطْلُبَ الدَّمَ وَاتِرٌ، يَدَ الدَّهرِ؛ والمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَاتِرُهْ؟

وهيهات أن يطلب الدم واتر (قاتل) يد الدهر (طول الزمن)؛ والموتور (المطالِب بالثأر) في حالتنا هذه هو الواتر (القاتل)

أكانَ وَلِيُّ العَهدِ أضْمَرَ غَدْرَةً؟ فَمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلِّيَ العَهْدَ غَادِرُهْ

فهل كان ولي العهد (المنتصر) قد أضمر (بيَّت) غدراً؟ وعجيب أن يولَّى العهد من يغدر، سوَّدنا هذا البيت، وإن لم نجد فيه معنى لافتاً، إكراماً لطه حسين الذي كان شديد الإعجاب به

فَلا مُلِّيَ البَاقي تُراثَ الذي مَضَى ولا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ

فلا مُلِّيَ (استمتع) الباقي تراث من مضى، ولا حملت منابر الخطباء في المساجد الدعاء له، وكانوا يدعون في آخر خطبة الجمعة للخليفة. وفي هذه الأبيات ما يبعث على الظن بأن البحتري قال الشعر في عهد المنتصر المتآمر على أبيه. ولعله قالها فعلاً قبل موت المنتصر، ثم بعدئذ أضاف إليها الأبيات الأولى السابقة في وصف خراب القصر، ثم أذاع القصيدة في الناس بعد انقضاء عهد المنتصر

ولا وَأَلَ المَشْكُوكُ فيه، ولا نَجَا مِنَ السَّيْفِ نَاضي السَّيْفِ، غَدْراً، وشَاهِرُهْ

ولا وأل (نجا) المشكوك في أنه المجرم، ولا نجا من السيف من نضاه (سلَّه) وشهره غدراً

لَنِعْمَ الدَّمُ المَسْفُوحُ لَيْلَةَ جَعْفَرٍ هَرَقْتُمْ وجُنْحُ اللَّيْلِ سُودٌ دَيَاجِرُهْ

نعم الدم دم الخليفة جعفر المتوكل الذي هرقتم (أرقتم)
بينما جنح الليل سُود دياجره (ظلامه)

كَأَنَّكُمُ لم تَعْلَمُوا مَنْ وَلِيُّهُ ونَاعِيهِ تَحتَ المُرْهَفَاتِ وثَائِرُهْ

كأنكم لم تعلموا من وليُّ ذلك الدم (المطالب به)، ومن سينعاه في ظل السيوف المرهفة (الحادة) وثائره (الآخذ بثأره)

وإنِّي لأَرْجُو أنْ تُرَدَّ أُمُورُكُمْ إلى خَلَفٍ مِنْ شَخْصِهِ لا يُغَادِرُهْ

وأرجو أن يعود أمر الخلافة إلى امرئ يكون فعلاً خليفة للمتوكل لا يغادر خطه (يقصد ابنه المعتز الذي كان ولي عهد ثم خلعه المنتصر المتآمر)

مُقَلِّبِ آرَاءٍ تُخَافُ أَنَاتُهُ إذا الأَخْرَقُ العَجْلانُ خِيفَتْ بَوادِرُهْ

هذا المرجو للخلافة متأنٍّ، ولكن أناته مرهوبة لما سيتمخض عنها من أفعال، وليس كالأخرق الذي يخاف المرء من بوادره (غضباته). هذه الأبيات الأخيرة تشي بأن أجزاء شتى من هذه القصيدة إنما قيلت بعد تولي المعتز. وكأن البحتري قصد إلى الإيهام بأنه قال القصيدة كلها بُعيْد مقتل المتوكل، ولكن شعره دل عليه

١٠٨ مدح القاتل

يمدح الخليفة المنتصر بالله:

وما أَنْسَ لا أَنْسَ عَهْدَ الشَّبابِ وعَلْوَةَ إذْ عَيَّرَتْني الكِبَرْ

مهما نسيت فلن أنسى عهد الشباب وعلوة، إذ عيرتني بالتقدم في السن

ولا بُدَّ مِنْ تَرْكِ إحدَى اثنَتَيْـ ـنِ: إمَّا الشَّبابِ، وإمَّا العُمُرْ

في نهاية المطاف يجب على المرء أن يترك الشباب ويكبر، أو يترك العمر ويموت

حَجَجْنَا البَنِيَّةَ شُكْراً لِمَا حَبَانا بِهِ اللَّهُ في المُنْتَصِرْ

حججنا البنية (الكعبة) شكراً لما حبانا (منحنا) به الله في شخص «المنتصر» الخليفة

تَطَوَّلَ بالعَدْلِ لَمَّا قَضَى وأَجْمَلَ في العفْوِ لَمَّا قَدَرْ

تطوَّل (تفضل) بالعدل، وكان له عفو جميل عندما تمكن له الأمر

تلافَى الرَّعِيَّةَ مِنْ فِتنةٍ أَظَلَّهُمُ لَيْلُهَا المُعْتَكِرْ

جنَّب الناس الفتنة التي أظلهم (خيم عليهم) ليلها المعتكر (الدامس). هذا بعد مقتل والده المتوكل. قال من شئت من المؤرخين إن للمنتصر اليد الطولى في تدبير قتل والده. كان أبوه المتوكل يقول له ساخراً: (سميتك المنتصر وسماك الناس لحمقك المنتظر، وصرت الآن المستعجل) يشير إلى أنه مستعجل موتَ أبيه لكي يخلفه

سَدادٌ فَتَلْتَ بِهِ يَوْمَذَا كَ حَبْلَ الخِلافَةِ حتى اسْتَمَرّ

كان عندك سداد (حكمة) فتلت به حبل الخلافة حتى استمر (قَوِيَ)

وسَطْوٌ ثَبَتَّ بِه قائِماً على كَاهِلِ الْمُلْكِ حتى اسْتَقَرّ

وعندك سطو (بطش) جعلك تثبت على كاهل (كتف) الملك حتى استقر. رأينا البحتري بعد موت المنتصر (الذي مات بعد توليه بستة أشهر) يقول قصيدة طويلة يرثي بها المتوكل ويتهم المنتصر بالتآمر لقتله. مطلعها: (مَحَلٌّ على القَاطُولِ أَخْلَقَ دائِرُهْ/ وعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهرِ جَيْشاً تُغَاوِرُهْ). وقد اخترنا منها هنا قدراً صالحاً، ووضعناها قبل هذه لأن الظن أنه قال قسماً منها فور مقتل المتوكل ولكنه لم يظهرها إلا بعد موت المنتصر (انظر القصيدة ١٠٧)

١٠٩ لا سؤال ولا جواب

يمدح محمد بن عبد الله بن طاهر:

وَقفْنا على دَارِ البخيلةِ فانْبَرَتْ بَوَادِرُ قد كانتْ بِها العينُ تَبخَلُ

وقفنا على دار المحبوبة التي كانت بخيلة بوصلها، فانبرت (خرجت) بوادر (بدايات الدموع) كانت العين بخيلة بها من قبل

فلم يَدْرِ رَسْمُ الدارِ كيف يُجِيبُنا، ولا نحن مِنْ فَرْطِ الجَوَى كيف نَسْأَلُ

رسم الدار (بقايا الدار المهجورة)

١١٠ لا فائدة منك

قال لعلي بن يحيى الأرمني:

ولـم أَرَ مِثْلي قِيدَ بِالمَطْلِ والمُنَى ولا مِثْلَ نَفْسي لِلدَّنيئةِ ذَلَّتِ

لم أر مثلي قيد (تم اقتياده) بالمطل (المماطلة) والأماني،
ولا مثل نفسي التي ذلت للعطايا الدنيئة (القليلة)

وقد كانَ عندِي لِلصَّنيعةِ مَوْضِعٌ لَوَ انَّ سَماءً مِنْ نَداكَ استَهَلَّتِ

وقد كان عندي للصنيعة موضع (كنت جديراً بوضع الإحسان عندي) لو أن سماء نداك (كرمك) استهلت (أمطرت)

تَركنَاكَ، لا يُبْكَى الرَّجاءُ الذي انْقَضَى ولا تُنْدَبُ الآمَالُ حينَ اضْمَحَلَّتِ

تركناك ونحن لا نبكي رجاءنا الذي مضى، ولا نندب (نتحسر على) الآمال التي اضمحلت

وما فيكَ لِلرَّكْبِ المُرَجِّينَ مَرْغَبٌ فَتُلْقَى، ولكِنَّ الرَّكائِبَ كَلَّتِ

وليس فيك للركب (المسافرين) الراجين للعطاء مرغب (رغبة) فيأتوا للقائك؛ ولكنهم ظلوا مقيمين في بلدك لأن الركائب (الإبل) كلت (تعبت). فهم يستريحون فقط استعداداً للرحيل عنك. أخي القارئ لا تستطل الشرح، فوالله ما أركب الركاكة والتطويل إلا من أجلك؛ على أنني أقول لك: لا تقرأ الشرح إلا بعد أن تقرأ البيت مرة ومرة، فالشعر والفصاحة موجودان في البيت، ولسنا نشرح هذا الشرح الفاضح المفصل إلا لتعزيز جمال الشعر في نفسك، ولننقلك من حال الاستمتاع بإيقاع البيت إلى حال الاستمتاع بإيقاعه وبمعناه معاً. وكائن رأينا صاحباً يتغنى ببيت شعر، ويقول يا سلام! متعجباً من جماله، وهو يفهم منه عكس ما أراد الشاعر. ولا بأس. لا بأس أن يترنم المرء بما يريد أن يترنم به، وأن يطرب على طريقته مخطئاً أم مصيباً. على أن معاني الشعر العربي القديم واضحة المعالم، وخير لنا ألا نغالي في القوة الإيحائية للَّفظة

١١١ اشتغل بها عنهم

وقال يهجو الشاعر علي بن الجهم:

إذا مَـا حُـصِّـلَـتْ عُـلْـيَـا قُـرَيْـشٍ فَلا فـي الـعِـيـرِ أنـتَ ولا الـنَّـفـيـرِ

إذا ما حصلت (غُرْبِلَتْ) عليا قريش (أي قريش العليا، وليس الفروع الأدنى منها) عندئذ لا نراك في العير ولا في النفير (لا شأن لك بالأمر). وعلي بن الجهم قرشي من بني سامة، وليسوا من قريش العليا، وفي نسبهم بعض مغمز

لأَيَّـةِ حَـالَـةٍ تَـهْـجُـو عَـلِـيَّـاً ... بِـمَـا لَـفَّـقْـتَ مِـنْ كَـذِبٍ وزُورِ؟

وكان علي بن الجهم يطعن على علي بن أبي طالب وعلى العلويين في زمن المتوكل الذي عادى العلويين

أَمَا لَكَ في اسْتِكَ الوَجْعَاءِ شُغْلٌ ... يَـكُـفُّـكَ عَـنْ أَذَى أَهْـلِ الـقُـبُـورِ؟

استك الوجعاء (الاست والوجعاء بمعنى، وكلاهما: فتحة الدبر). يهجوه بأنه يُلاطُ به

١١٢ تفنن في التعذيب

يهجو علي بن الجهم:

يـا ثَقيلاً عـلى الـقـلوبِ، إذا عَنَّ ـ ... ـلَـهَـا أَيْـقَـنَـتْ بِـطـولِ الـجِـهَـادِ

أيها الثقيل على القلوب، الذي إذا عنَّ (ذُكر) أيقنت القلوب بطول الجهاد (المعاناة)

يـا رُكُـوداً فـي يـومِ غَـيْـمٍ وَصَـيْـفٍ ... يـا وُجُـوهَ الـتُّـجَّـارِ يـومَ الـكَـسَـادِ

أنت مثل الركود (الجو القابض للنفس) في يومِ غيم في فصل الصيف، وأنت مثل وجوه التجار في يومِ الكساد

خَـلِّ عَـنَّـا، فـإنَّـمَـا أنـتَ فِـيـنـا ... وَاوُ عَـمْـرٍو أَوْ كـالـحَـدِيـثِ الـمُـعَـادِ

«افرقنا» يا هذا، فأنت لا قيمة لك كحرف الواو غير المنطوق في كلمة «عمرو»، أو كالحديث المكرر

امْضِ، في غَيْرِ صُحْبَةِ اللَّهِ مَا عِشْـ ... ـتَ، مُـلَـقَّـىً فـي كُـلِّ فَـجٍّ وَوَادِ

اذهب ولا صحبتك سلامة الله طول عمرك، ولتكن ملقَّىً (منكوباً) في كل فج (طريق) وواد

يَـتَـخَـطَّـى بِـكَ الـمَـهَـامِـهَ والـبِـيـ ... ـدَ دَلـيـلٌ أَعـمَـى كَـثـيـرُ الـرُّقَـادِ

وليصحبك في المهامه (الصحارى) دليل أعمى، كثير النوم والسهو. لم يكتف أن جعل دليله أعمى حتى جعله غافلاً لا يهتدي

خَلْفَكَ الـثَّـائِرُ الـمُـصَـمِّـمُ بِـالـسَّـيْـ ... ـفِ، ورِجْـلاكَ فـوقَ شَـوْكِ الـقَـتَـادِ

وليكن خلفك طالباً رأسَك ثائر (طالب ثأر) يحمل سيفاً، ولتكن رجلاك فوق نبات القتاد الشوكي. هذا هجاء من لون نادر. فيه تقليل شأن، وفيه اشمئزاز من المهجو، وفيه دعاءٌ عليه مبالغ فيه كثيراً بقصد السخرية، وفيه تصوير كثير وفن. وعلي بن الجهم رجل فيه صلف، وكان شاعراً مهمّاً ومقلاً معاصراً للبحتري، ومزاحماً له عند الممدوحين. وابن الجهم ـ على شاعريته القوية ـ كان رجلاً صلب الوجه (أي وقحاً) بحسب تعبير القدماء. وقد أخرج ديوانه خليل مردم بك، واخترنا منه أبياتاً كثيرة، في باب سابق في هذا الكتاب. وهو، بعد، صاحب (عيون المها بين الرصافة والجسر)

١١٣ تأليب

من قصيدة يمدح بها الخليفة المستعين، يهجو أحمد بن الخصيب:

لابْنِ الخَصِيبِ الوَيْلُ، كيف انْبَرَى   بِـإِفْـكِـهِ الـمُـرْدِي وإِبْـطَـالِـهِ؟

الويل لأحمد بن الخصيب كيف ظهر بإفكه (كذبه) المردي (المميت) وإبطاله (تعطيله الخيرات). وكان ابن الخصيب وزيراً للمنتصر ثم للمستعين بعده، وسريعاً ما نكبه المستعين ونفاه إلى إقريطش (جزيرة كريت). وكان ابن الخصيب وزيراً متجبراً كثير الشر، قيل: رفسَ رجلاً جاءه بشكوى في صدره فقتله

فَـأَنْـزَلَ الـلَّـهُ بـه نِـقْـمَـةً   غَـيَّـرَتِ الـنِّـعْـمَـةَ مِـنْ حَـالِـهِ

يا نَاصِرَ الدِّينِ! انتَصِرْ مُوشِكاً   مِـنْ كَـائِـدِ الـدِّيـنِ ومُـغْـتَـالِـهِ

أيها المستعين انتصر (انتقم) موشكاً (مسرعاً) من الذي يكيد للدين ويغتاله

فَـهْـوَ حَـلالُ الـدَّمِ والـمـالِ، إِنْ   نَـظَـرْتَ فـي بَـاطِـنِ أَحْـوَالِـهِ

فدمه حلال وماله حلال للمصادرة إن تعمقت في باطنه، إذ يبطن الغدر والفسق. تعليق أحمد عبد الرحيم: «أهذا شعر؟»

والـرَّأْيُ كـلُّ الـرَّأْيِ فـي قَـتْـلِـهِ   بـالـسَّـيْـفِ، واسْـتِـصْـفَـاءِ أَمْـوَالِـهِ

والرأي الحصيف قتله واستصفاء (مصادرة) أمواله. نقل المرزباني في الموشح عن أحمد بن أبي طاهر بسند يطمئن إليه القلب: «ما رأيت أقل وفاء من البحتري ولا أسقط، رأيته قائماً ينشد أحمد بن الخصيب مدحاً له فيه، فحلف عليه ليجلسن، ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه... ثم نَكَب المستعينُ أحمدَ ابن الخصيب بعد هذا بشهور، فلعهدي به [بالبحتري] قائماً ينشده: ما الغيث... كان ابنُ العلجة فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس، نزحه الله، ثم ختم القصيدة بقوله: والرأي كل الرأي في قتله...». تعليق أحمد عبدِ الرحيم على القصيدة: «قطعة لا جمالَ، ولا شعرَ فيها البتة!»

١١٤ أحلى من النوم والأمنيات

يمدح الخليفة المعتز بالله:

أَيُّـهَـا الآمِـرِي بِـتَـرْكِ الـتَّـصَـابـي!   رُمْـتَ مِـنِّـي مَـا لـيـسَ مِـنْ إِمْـكَـانـي

ونَـدِيـمٍ نَـبَّـهْـتُـهُ، وُدَجَـى الـلَّـيْــ   ـلِ وضَـوْءُ الـصَّـبَـاحِ يَـعْـتَـلِـجَـانِ

نبهت نديمي من نومه بينما عتمة الليل وضوء المصباح يعتلجان (يتصارعان)

قُمْ نُبَادِرْ بِهـا الصِّيَامَ، فَقَدْ أَقْـ ـمَرَ ذَاكَ الـهِـلالُ مِـنْ شَـعْـبَـانِ

قم نبادر بها الصيام (نسابق بالخمر الصيام) فهلال شعبان صار قمراً، أي أن شعبان انتصف ولم يبق على رمضان سوى نصف شهر

بِنْتُ كَرْمٍ، يَدْنُو بِها مُرْهَفُ القَدِّ ـ غَـرِيـرُ الـصِّـبَـا، خَـضِـيـبُ الـبَـنَـانِ

بنت كرم (خمرة) يقترب بها ليسقينا شخص مرهف القد (رشيق القوام) غرير الصبا (بريء لصغر السن) خضيب البنان (على رؤوس أصابعه الحناء) فهو إذن بنت

أُرْجُـوَانِـيَّـةٌ، تُـشَـبَّـهُ فـي الـكَـأْ سِ بِـتُـفَّـاحِ خَـدِّهِ الأُرْجُـوَانـي

الخمر أرجوانية (حمراء)

بَـاتَ أَحْـلَـى لَـدَيَّ مِـنْ سِـنَـةِ الـنَّـوْ مِ، وأَشْهَى مِنْ مُفْرِحَاتِ الأَمَاني

بات الحبيب وهو أحلى عندي من سنة النوم (الإغفاء) ومن الأماني المفرحة

١١٥ فما يكلَّم إلا حين يبتسم

يمدح المعتز بالله:

لـلَّـهِ مُـعْـتَـمِـدٌ عـلـى الـلَّـهِ اكْـتَـفَـى بِـالـلَّـهِ والـرأيِ الأَصـيـلِ الأَوْثَـقِ

طَلْقٌ، فَإِنْ أَبْدَى العُبُوسَ تَطَأْطَأَتْ شُوسُ الرِّجَالِ، وخَفَّضَتْ في المَنْطِقِ

طلق (باسم) فإن عبس تطأطأت رؤوس شوس الرجال (الرجال ذوو النظرات الحادة الغاضبة)، وخفضوا أصواتهم لهيبة الخليفة

١١٦ خلف الدجاج

وقال يمدح المعتز، ويهجو المستعين (وكان المعتز يرى أن المستعين خرب الملك خراباً لا ينجبر بعده، وكان يحب أن يسمع ثلبه، وأدرك البحتري ذلك فتقرب إلى المعتز به، وكان المعتز يذوق الشعر، ويرى في البحتري زيادة في أبهة خلافته):

بَكَى المِنبرُ الشرقيُّ، إذْ خَارَ فوقَه على الناسِ ثَوْرٌ، قد تَدَلَّتْ غَبَاغِبُهْ

بكى المنبر الشرقي (مركز الخلافة في بغداد أو سامراء) عندما خار (صوَّت الثور، وصوته هو الخُوار) من فوقه ثور تدلت غباغبه (جلدة ما تحت العنق في الثور)

ثَقيلٌ على جَنْبِ الثَّريدِ، مُرَاقِبٌ لِشَخصِ الخِوَانِ يَبْتَدي فَيُواثِبُهْ

وهو ثقيل في جلوسه على الثريد، ويراقب الخوان (المائدة) بشغف ثم يبدأ فيواثبه (يصارعه). «يواثبه» كلمة جرتها القافية، ولكنها تصنع صورة حلوة لرجل يأتي المائدة لكي يخوض مع طعامها مباراة مصارعة: يثب على الطعام، والطعام يثب عليه

إذا ما احْتَشَى مِنْ حَاضِرِ الزَّادِ لم يُبَلْ أَضَاءَ شهابُ المُلْكِ، أم كَلَّ ثَاقِبُهْ

فإذا حشا جوفه من الطعام الحاضر أمامه لم يبل (لم يبالِ) أأضاء شهاب الملك (ازدهرت الخلافة) أم كل ثاقبه (أم ضعف بَريقه الثاقب المشتعل)

ولـم يَكُـنِ الـمُـغْـتَـرُّ بِـالـلَّـهِ إذْ سَـرَى لِـيُـعْـجِـزَ، و(الـمُـعْـتَـزُّ بِـالـلَّـهِ) طَـالِـبُـهْ

هذا المغتر بالله (الذي غره تأخُّر جزاء الله) لم يكن إذ سرى (مشى) في طريقه المعوج ليُعجز الناس عن إصلاح الأمر، خصوصاً وأن المعتز بالله يطلبه ويتعقبه

رَمَى بـالـقـضـيـبِ عَنْوَةً وَهْوَ صَاغِرٌ وعُـرِّيَ مِـنْ بُـرْدِ الـنَّـبِـيِّ مَـنَـاكِـبُـهْ

رمى المستعين، الخليفة المخلوع، بالقضيب (صولجان الخلافة) عنوة (غصباً عنه) وهو صاغر (ذليل)، وعُرِّيت من برد النبي (من عباءة النبي المتوارثة) مناكبه (أكتافه). انظر التعليق اللاحق بالبيت الثالث قبل الأخير من القصيدة (٨٣) وفيه بيتان للبلاذري يصف فيهما لبس المستعين لبرد النبي، وفيه كلمة (مناكبه)، وبيتا البلاذري منسوجان على منوال بيت للبحتري، وهنا يأخذ البحتري من البلاذري العبارة

وقد سَرَّنـي أنْ قِـيـلَ: وُجِّـهَ مُـسْـرِعـاً إلى الـشَّـرقِ تُـحْـدَى سُـفْـنُـهُ ورَكَـائِـبُـهْ

سرني أن قيل إنه أرسل إلى الشرق تحدى (تُساق) سفنه وركائبه (إبله)

إلى (كَسْكَرٍ) خَلْفَ الدَّجَاجِ، ولـم تَكُـنْ لِتَنْشَبَ، إلَّا في الدَّجاجِ، مَخَالِبُهْ

وأُرسل إلى كسكر (الواقعة بين البصرة والكوفة، والمشهورة بالفراريج)، وهو لا يصلح إلا لأكل الدجاج. تكملة القصة أن الخليفة المعتز بعث برجل ليذبح عمَّه المستعين.. وذبحه

١١٧ في العجلة السلامة

قال يمدح المعتز بالله ويعتذر للموالي:

عاجِلْ بِنا الرَّاحَ والرَّيْحَانَ مُبْتَكِراً فـلـيس يَـحْـسُـنُ إلَّا فـيـهِـمـا الـعَـجَـلُ

الراح (الخمر) وكانوا يشربونها في مجلس يزينونه بالرياحين

واشْرَبْ على دَوْلَةِ المُعْتَزِّ، إنَّ لها حَظَّاً مِنَ الحُسْنِ، لم تَسْعَدْ به الدُّوَلُ

اشرب نخب دولة المعتز بالله. كانوا يشربون على الخبر المفرح والقصيدة الجميلة والأغنية الرائقة

أمَّا الـمَوالـي فَـجُـنْـدُ الـلَّـهِ، حَـمَّـلَـهُـمْ أنْ يَنْصُروكَ، فقد قَامُوا بِمَا احْتَمَلُوا

الموالي (أنصار وقواد الخليفة غير العرب)

بَـقَـاؤُهُـمْ عِـصْـمَـةُ الـدُّنْـيـا، وعِـزُّهُـمُ سِـتْـرٌ عـلـى بَـيْـضَـةِ الإسْلامِ مُـنْـسَـدِلُ

بقاء هؤلاء القادة عصمة (حماية) في هذه الدنيا، وعزهم ستر منسدل (نازل) على بيضة الإسلام (تعبير يقصد به حماية ما هو هش وجاذب للأعداء)

١١٨ العدو في ثوب صديق

كم مِنْ أَخٍ لَكَ لَسْتَ تُنْكِرُهُ   مَا دُمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ في يُسْرِ

كُثُرٌ هم الإخوان الذين لا تستنكر من تصرفاتهم شيئاً ما دمت غنياً

مُتَصَنِّعٍ لَكَ في مَوَدَّتِهِ   يَلْقَاكَ بِالتَّرْحِيبِ والبِشْرِ

يكون الواحد منهم متصنعاً في حبه لك، يلقاك بالترحيب والبشر (الانشراح)

فإذا عَدَا ـ والدَّهْرُ ذُو غِيَرٍ ـ   دَهْرٌ عَلَيْكَ، عَدَا مَعَ الدهْرِ

فإذا عدا (هجم) عليك الزمن، والزمن ذو غِيَر (تقلُّب)، عدا (هجم) هذا الصديق عليك مع الزمن

١١٩ الحلاف المهين

سَأَلُونِي اليَمِينَ، فَارْتَعْتُ مِنْهُمْ   لِيَقَرُّوا بِذَلِكَ الارْتِيَاعِ

طلبوا مني أن أحلف اليمين، فارتعت (خفت) منهم مراءاة فقط، لِيَقَروا (ليطمئن بالهم) من ارتياعي، ويشعروا أنني رجل أرى اليمين شيئاً عظيماً

ثُم أَمْرَرْتُها كَمُنْحَدِرِ السَّيْـ   ـلِ تَهاوَى مِنَ المكانِ اليَفَاعِ

ثم أطلقت اليمين لتمرَّ من فمي كالسيل المنحدر الذي يهوي من مكان مرتفع

١٢٠ الدين أنتم

وقال يمدح المعتز:

قد لَبِسْتُ الهَوى، وإنْ كانَ ضُرّاً   وتَحَمَّلْتُهُ، وإنْ كانَ ثِقْلا

وتَذَلَّلْتُ، جَاهِداً، لِمَلِيكي   وقَلِيلٌ مِنْ عاشِقٍ أَنْ يَذِلَّا

أَصْبَحَتْ رُتْبَةُ الخِلافَةِ لِلْمُعْـ   ـتَزِّ بِاللَّهِ مَنْزِلاً ومَحَلَّا

جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَها في يَدَيْهِ   ورَآهُ لَهَا مَكَاناً وأَهْلا

لابِسٌ حُلَّةَ الوَقَارِ: ومِنْ أُبَّـ   ـهَةِ السَّيْفِ أَنْ يَكونَ مُحَلَّى

مَنْ أَبَى حُبَّكُمْ فَلَيْسَ مِنَ اللـ   ـهِ، ولوْ صَامَ أَلفَ عَامٍ وصَلَّى

١٢١ مدح المعتز

سَلاهَا: كيف ضَيَّعَتِ الوِصَالا   وبَتَّتْ مِنْ مَوَدَّتِنا الحِبَالا؟

بتَّت (قطعت)

وَلِي كَبِدٌ تَلِينُ على التَّصَابي   وتَأبَى في الهَوى إلّا اشْتِعَالا
وقد عَلِمَ الوُشَاةُ ثَباتَ عهْدِي،   إذا عَهْدُ الذي أهواهُ حَالا

حالَ (تحول)

وأنّي لم أزَلْ كَلِفاً بِلَيْلَى   على كُرْهِ الوُشَاةِ، ولنْ أزَالا

كلف (مشغوف)، على كره (رغم أنف)

أميرَ المؤمِنينَ! وأنتَ أرْضَى   عِبادِ اللّهِ، عِنْدَ اللّهِ، حَالا
إذا الخُلَفَاءُ عُدُّوا يومَ فَخْرٍ   وبَرَّزَ مَجْدُهُمْ، فَسَمَا وطَالا

سما (ارتفع)

غَدَوْتَ أجَلَّهُمْ خَطَراً وذِكْراً   وأعْلاهُمْ وأشْرَفَهُمْ فَعَالا

خطراً (أهميةً)

ومَا حَسُنَتْ نَواحي الأرضِ حتى   مَلَكْتَ السَّهْلَ منها والجِبَالا
بِوَجْهٍ يَمْلأُ الدُّنْيا ضِيَاءً   وكَفٌّ تَمْلأُ الدُّنْيا نَوَالا

نوالاً (عطاءً)

فُتُوحٌ يَدَّرِكْنَ مِنَ النَّوَاحي   كما ادَّرَكَ السَّحَابُ إذا تَوَالى

يدَّركن (يتتابعن)

وجاءَكَ بِالرَّغَائِبِ مَالُ مِصْرٍ   فَلَمْ أرَ مِثْلَهَا ظَفَراً ومَالا

الرغائب (النفائس)

يُحَسِّنُ مِنْ مَدِيحي فيكَ أنّي   مَتى أعْدُدْ عُلاكَ أجِدْ مَقَالا

ما يجعل مديحي أجود أنني أجد مادة للقول فأمجادك كثيرة. التسويد لأحمد عبد الرحيم

ولَسْتُ أُلامُ في تَقْصِيرِ شُكْرِي   وقد حَمَّلْتَني المِنَنَ الثِّقَالا

لست ملوماً إذا قصرت في الشكر فإنك حملتني عبئاً كبيراً بإحسانك الكثير الذي لا يوازيه شكر

لقد نَوَّهْتَ بي شَرْقاً وغرباً   وقد خَوَّلْتَنِي جَاهَاً ومَالا

نوهت بي (جعلتني مشهوراً)، خولتني (جَعلت في خدمتي) الجاه والمال

ومَا ألْفٌ بِأكْثَرِ مَا أُرَجِّي   وآمُلُ مِنْ نَدَاكَ إذا تَوَالى

والألف ليست أقصى ما أرجو وآمل من نداك، أي كرمك

١٢٢ الزفرة

وبكَتْ، فاستَثارَ مِنّي بُكَاها ... زَفْرَةً ما تُطِيقُها أَضْلاعي

١٢٣ جيوش ملأن الأرض

يمدح المعتز بالله:

أقامَ قناةَ الدِّينِ بعدَ اعوجاجِها ... وأَرْبَى على شَغْبِ العَدُوِّ المُشَاغِبِ

أقام قناة الدين (جعل رمح الدين مستقيماً)، وأربى (فاقَ) في الشدة على ما أبداه العدو من شغب

أخُو الحزْمِ قد ساسَ الأمورَ، وهَذَّبَتْ ... بَصِيرتَه فِيها صُروفُ النَّوائبِ

إنه أخو حزم (ذو حزم) وقد ساس الأمور (أدارها)، وقد أدت صروف النوائب (تفاصيل المصائب) إلى تشذيب بصيرته (رأيه)

إمامُ هُدَىً، عَمَّ البَرِيَّةَ عدلُهُ ... فأَضحَى لَدَيْهِ آمِناً كُلُّ راهِبِ

إمام يهتدي به الناس وقد عمَّ (شمل) البرية (الخلق) عدله، فأصبح كل راهب (خائف) آمناً في ملكه

تَدارَكَ، بعدَ اللَّهِ، أنفُسَ مَعْشَرٍ ... أَطَلَّتْ على حَتْمٍ مِنَ الموتِ واجِبِ

تدارك (أنقذ) ـ بفضل الله ـ أرواح أناس كانت موشكة على موت محتم

وقالَ: لَعَاً لِلعاثِرِينَ، وقد رأَى ... وُثُوبَ رِجَالٍ فَرَّطُوا في العَواقِبِ

وقال للعاثرين (المتعثرين بأغلاطهم) لعاً (كلمة تقال لمن يتعثر. كما نقول اليوم: «الله» أو «اسم الله عليك»)، وهو يرى وثوب (تمرد) رجال فرطوا في العواقب (تجاهلوا نتائج أفعالهم)

تَجَافَى لَهُمْ عنها، ولو كانَ غَيْرُهُ ... لَعَنَّفَ بِالتَّثْرِيبِ، إنْ لم يُعَاقِبِ

تجافى لهم عنها (غفرها لهم)، ولو كان غيره في مكانه لعنَّف المذنبين بالتثريب (بالتوبيخ)، هذا إن لم يعاقبهم

ولولا تَلافِيكَ الخِلافَةَ لانبَرتْ ... لَهَا هِمَمُ الغَاوِينَ مِنْ كلِّ جانبِ

لولا تلافيك الخلافة (إنقاذك إياها) لتصدت لهذه الخلافة همم الغاوين (طموحات الضالين) من كل جانب

فما زِلْتَ حتى أذعَنَ الشرقُ عَنْوةً ... ودانَتْ على صُغْرٍ أعالِي المَغَارِبِ

ظللت مصمماً حتى أذعن الشرق (مناطق الدولة شرقي العراق) بالقوة، ودانت (أذعنت) على صغر (بِذُل) أعالي المغارب (مناطق الدولة غربي الشام)

جُيوشٌ مَلْأنَ الأرضَ، حتى تَرَكْنَها   وما في أَقَاصِيهَا مَفَرٌّ لِهَارِبِ
مَدَدْنَ وراءَ (الكَوْكَبِيِّ) عَجَاجَةً   أَرَتْهُ نَهاراً طَالِعَاتِ الكَواكِبِ

مدت هذه الجيوش وراء الكوكبي (متمرد علوي على الدولة) عجاجة (سحابة غبار) جعلته يرى في النهار الكواكب الطالعة (لمعان السيوف والأسنَّة وسط الغبار مثل الكواكب)

وقدْ أَفِنَ (الصَّفَّارُ) حتى تَطَلَّعَتْ   إليهِ المَنايَا في القَنا والقَواضِبِ

وقد أفن (حَمُق) الصفار (يعقوب الصفار المتمرد) إلى أن رأى المنايا (الموت) في القنا (الرماح) والقواضب (السيوف)

حَنَوْتَ عليهِ بعدَ أنْ أَشْرَفَ الرَّدَى   على نَفْسِ مُزْوَرٍّ عنِ الحقِّ نَاكِبِ

حنوت عليه (ضممته برفق) بعد أن كاد الموت يقضي على نفسه، وهو المزور (المبتعد) عن الحق الناكب عنه (المجتنب له)

تَأَنَّيْتَهُ حتَّى تَبَيَّنَ رُشْدَهُ   وحتى اكتفَى بالكُتْبِ دونَ الكتائِبِ

تأنيته (ترفقت به) إلى أن عرف رشده، وصار يكتفي بالكتب (بالرسائل)
ولم يعد يلجأ للكتائب

بِلُطْفِ تَأَتٍّ منكَ ما زالَ ضامِناً   لنا طاعةَ العَاصِي وسِلْمَ المُحَارِبِ

فعلت هذا بلطف تأتٍّ منك (بالمحاسنة والإقناع)، وهذا التأنِّي يضمن لنا دوماً طاعة العاصي (المخالف) وسلم (مسالمة) المحارب

فعادَ حُسَاماً عنْ وَلِيِّكَ ذَبُّهُ   وَحَدَّ سِنَانٍ في عدوِّكَ ناشِبِ

فعاد (فأصبح) العاصي حساماً، ذبه (دفاعه) عن وليك (نصيرك)، وأصبح العاصي حدَّ سنان (رأس رمح) ناشب (منغرس) في قلب عدوك

١٢٤ فراق من أجل اللقاء

بِوُدِّيَ لو يَهوَى العَذُولُ، ويَعْشَقُ   فَيَعْلَمَ أَسبابَ الهَوى، كيفَ تَعْلَقُ

أسباب (حبال)

أَرى خُلُقاً، حُبِّي لِعَلْوَةَ دائماً   إذا لم يَدُمْ بالعَاشِقِينَ التَّخَلُّقُ

حبي لعلوة صار كأنه خلق (طبع من طباعي)،
وليس مجرد تطبع زائل كحال العاشقين الآخرين

فَأَحْسِنْ بِنَا والدَّمْعُ بِالدَّمْعِ واشِجٌ   تَمَازُجُهُ، والخَدُّ بالخَدِّ مُلْصَقُ

أحسِن بنا (ما أجملنا) ودمعي مختلط بدمعها، وخدي على خدها

ومِنْ قُبَلٍ، قَبْلَ التَّشَاكي وبَعْدَه، نَكادُ لَها، مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ، نَشْرَقُ

هذه الـ «ومن» في أول البيت أسلوب بحتريّ. انظر قوله: (ومن شجر رد الربيع لباسه..)، وستأتيك بعد بضع صفحات (القصيدة ١٣٠). المعنى: كانت بيننا قُبَلٌ قبلَ أن نتبادل الشكوى وبعده، ومن شده الوجد (الشوق) نكاد نشرق بقبلاتنا

فلو فَهِمَ الناسُ التَّلاقيَ، وحُسْنَهُ لَحُبِّبَ مِنْ أجْلِ التَّلاقي التَّفَرُّقُ

١٢٥ بقي منها تذكُّرها

يمدح المعتز بالله ويذكر علوة:

كَمْ لَيْلَةٍ فيكِ بِتُّ أَسْهَرُها ولَوْعَةٍ في هَوَاكِ أُضْمِرُها

وحُرْقَةٍ والدُّمُوعُ تُطْفِئُهَا ثم يَعُودُ الجَوَى فَيُسْعِرُها

يسعرها (يوقدها)

يَا عَلْوَ! عَلَّ الزَّمَانَ يُعْقِبُنَا أَيَّامَ وَصْلٍ نَظَلُّ نَشْكُرُها

يا علو (يا علوة)، يعقبنا (يكافئنا)

بَيْضَاءُ رُودُ الشَّبابِ، قَدْ غُمِسَتْ في خَجَلٍ ذَائِبٍ يُعَصْفِرُها

رود الشباب (ناعمة)، يعصفرها (يجعلها صفراء محمرة خجلاً، ونبات العصفر أصفر مشوب بحمرة)

مَجْدُولَةٌ هَزَّهَا الصِّبا، فَشَفَى قَلْبَكَ مَسْمُوعُها ومَنْظَرُها

مجدولة (قوامها متناسق)

لا تَبْعَثُ العُودَ تَسْتَعِينُ به ولا تَبِيتُ الأَوتَارُ تَخْفُرُها

لا تبعث في طلب عودٍ لتستعين به في غنائها، ولا تريد من أوتاره أن تخفرها (تحرسها) من النشاز

اللَّهُ جارٌ لها، فَمَا امْتَلأَتْ عَيْنيَ إلَّا مِنْ حيثُ أُبْصِرُها

الله يحميها! فلا يملأ عيني إلا رؤيتها

إنَّ قُوَيْقاً له عَلَيَّ يَدٌ بِالأمسِ بَيْضَاءُ، لستُ أَكْفُرُها

نهر قويق له علي يد بيضاء (معروف)، ولست أجحدها

ولَيْلَةَ الشَّكِّ، وَهْوَ ثالِثُنا، كانتْ هَنَاتٌ واللَّهُ يَغْفِرُها

في ليلة الشك (الليلة التي يرقب فيها الناس هلال رمضان) كان نهر قويق هو الثالث معي أنا وعلوة، وقد حدثت هنات (أمور بسيطة) والله يغفرها. ما أجمل هذا الاستقبال لرمضان! وهي - بعدُ - هَنات، ثم إن رمضان لم يدخل!

أيـامُ لَـهْـوٍ فـي جَـانِـبَـيْ حَـلَـبٍ لـم يَـبْـقَ مِـنْـهـا إلّا تَـذَكُّـرُهـا

لم يبق من أيام اللهو في حلب إلا الذكرى

١٢٦ عشيرتي

أَقْرِي الحَوادِثَ، إنْ حَلَلْنَ، تَجَلُّدَاً؛ وأَعُدُّ شَأْنَ عَشِيرَتِي مِنْ شَانِي

أقري (أقدم الطعام للضيف). إذا حلت الحوادث (المصائب) فإنني أقدم لهذا الضيف النازل تجلداً (صبراً)؛ وأنا أعد ما يهم عشيرتي شأناً من شؤوني

قَوْمٌ تَرى أَرْمَاحَهُمْ، يومَ الوَغى، مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ الكِتْمَانِ

قومي تندق رماحهم في الحرب في مواطن الكتمان (في القلوب)

١٢٧ أنطقَ القوافي

وقال يمدح يونس بن بغا:

سَيِّدٌ أَنْطَقَ القَوافِيَ بِنُعْمَا هُ، وكانَتْ، مِنْ قَبْلُ، ذَاتَ وُجُومِ

عطاياه أنطقت الشعراء بالقصائد، وكانت القصائد قبل ذاك واجمة (ساكتة)

١٢٨ زبدة قريش

يمدح الخليفة المهتدي بالله، وهو أزهد خلفاء بني العباس:

قَضَى اللَّهُ أَنِّي مِنْكِ ضَامِنُ لَوْعَةٍ تَقَضَّى اللَّيالي، وَهْيَ بَاقٍ مُقِيمُها

قضى الله عليَّ بأنني ضامن (مضمر) لوعة في قلبي منكِ (بسببكِ)، تقضَّى (تنقضي) الليالي واللوعة باقية مقيمة. باق مقيمها معناها (مقيم مقيمها)، وهذا أسلوب قديم في الشعر العربي للوصول إلى القافية، أعان الله الشعراء

أَمِيلُ بِقَلْبِي عنكِ، ثم أَرُدُّهُ وأَعْذِرُ نَفْسِي فيكِ، ثم أَلُومُها

إذا المُهْتَدِي بِاللَّهِ عُدَّتْ خِلالُهُ حَسِبْتَ السَّمَاءَ كَاثَرَتْكَ نُجُومُها

خلاله (مزاياه)، كاثرتك (فاخرتك بالكثرة)

لقد خَوَّلَ اللَّهُ الإمَامَ محمداً خُصُوصَ مَعَالٍ، في قُرَيْشٍ عُمُومُها

خول الله الخليفة (أعطاه) الأمجاد المخصوصة الفريدة التي عمومها في قريش. فقريش ذات مجد، ولكن المهتدي له زبدة هذا المجد

بَنُو هاشِمٍ في كلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ كِرَامُ بَنِي الدنيا، وأَنتَ كَرِيمُها

بنو هاشم (وهم فرع من قريش) هم أكرم الخلق، وأنت كريم بني هاشم الأول

تَـدَارَكَ مَـظْـلُـومُ الـرَّعِـيَّـةِ حَـقَّـهُ وخَـلَّـى لـه وَجْـهَ الـطَّـرِيـقِ ظَـلُـومُـهـا

أدرك المظلوم من الرعية حقه، وأما الظلوم (الظالم) فقد اضطر إلى ترك طريق الظلم

وقد أَعْطَتِ الرُّومُ الذي طُولِبَتْ به (بِإِبْرِيقَ) لـمَّـا خُبِّرَتْ مَنْ غَرِيمُها

والروم رضيت بشروط الصلح في منطقة (إبريق) عندما علمت أنك أنت غريمها (خصمها)

هَـجَرْتَ الـمَـلاهِـيَ حِـسْـبَـةً، وتَـفَـرُّداً بِـآيـاتِ ذِكْـرِ الـلَّـهِ يُـتْـلَـى حَـكِـيـمُـهـا

هجرت الملاهي (اللهو) حسبةً (احتساباً للثواب عند الله) وكي تخصص الوقت كله لذكر الله. كان الخليفة المهتدي العباسي زاهداً حقاً، لذا لم يدم حكمه سوى سنة.. وقُتل بعصر الخصيتين

١٢٩ نهر بين النهرين

يمدح سليمان بن عبد الله بن طاهر، وكان السلطان أقطعه (المخرم) ببغداد فقال فيه البحتري هذا الشعر، وسأله إقطاع ناحيةٍ منه يبني بها منزلاً فأقطعه ألف ذراع في ألف ذراع:

شَفِيعِي أَميرُ المؤمنينَ، وعُمْدَتِي سُلَيْمانُ، أَحْبُوهُ القَرِيضَ المُنَمْنَمَا

أحبوه القريض المنمنم (أهديه الشعر المنسَّق)

قَصَائِدُ، مَنْ لم يَسْتَعِرْ مِنْ حُلِيِّها تُخَلِّفْهُ مَحرُوماً مِنَ الحَمْدِ، مُحْرِمَا

من لم يستعر بعض أبياتي كي يتحلى بها يظل محروماً من الحمد مُحْرِماً
(لابساً ثوب الإحرام الذي لا زينة فيه)

وكَمْ لَبِسَتْ مِنْكَ العِراقُ صَنِيعَةً يُشَارِفُ مِنهـا الأُفْقُ أَنْ يَتَغَيَّمَا

أنعمت على العراق حتى لقد إن أفق السماء يشارف (يكاد) أن يظهر فيه الغيم (والغيم بركة)

ثَـلَّـثْـتَ فُـرَاتَـيْـهـا بِـجُـودٍ سَـجِـيَّـةٍ. وَجَـدْنَـاكَ أَوْلَـى بِـالـتَّـدَفُّـقِ مِـنْـهُـمـا

كنت ثالث الفراتين (دجلة والفرات) بجود سجية (كرم طباع). وقد وجدناك أولى بالتدفق من هذين النهرين لكثرة عطاياك

١٣٠ أتاك الربيع

وقال يمدح الهيثم بن عثمان الغنوي:

أَلَـسْـتَ تَـرَى مَـدَّ الـفُـرَاتِ، كَـأَنَّـه جِبَالُ (شَرَوْرَى) جِئْنَ في البَحْرِ عُوَّمَا؟

ألا ترى مد الفرات وفيضانه كأنه جبال شروری وقد حملها البحر (النهر) عائمة فيه؟

ولـمْ يَـكُ مِـنَ عـادَاتِـهِ، غَـيـرَ أَنَّـهُ   رَأَى شِـيـمَـةً مِـنَ جَـارِهِ، فَـتَـعَـلَّـمـا

ولم يكن هذا من عادة الفرات، ولكنه رأى شيمة (طبعاً) من جاره الهيثم هي الفيضان بالعطايا فتعلم منه

ومَا نَوَّرَ الرَّوْضُ الشَّآمِيُّ؛ بَلْ فَتىً   تَـبَـسَّـمَ مِـنْ شَـرْقِـيِّـهِ فَـتَـبَـسَّـمـا

وليس هذا النوار نوار روض شامي، بل إن ابتسام هذا الفتى شرق الشام (أي في العراق) أعدى الرياض فتبسمت

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ، يَختالُ ضَاحِكاً   مِنَ الحُسْنِ، حتَّى كادَ أَنْ يَتَكَلَّما

جاءك الربيع الطلق (الباسم) يختال (يتبختر) من شدة جماله، حتى كاد أن يتكلم لقوة ما فيه من تعبير

وقَد نَبَّهَ النَّوْرُوزُ في غَلَسِ الدُّجَى   أَوَائِـلَ وَرْدٍ كُـنَّ بِـالأَمْـسِ نُـوَّمَـا

نبه النوروز (عيد الربيع) في غلس الدجى (في ساعات الليل) أوائل ورد (براعم) كانت أمس مضمومة نائمة فخرجت في آخر الليل زهوراً نراها مع إشراقة الصبح

يُـفَـتِّـقُـهـا بَـرْدُ الـنَّـدَى، فَـكَـأَنَّـه   يَـبُـثُّ حَـدِيـثاً كـانَ أَمسِ مُـكَـتَّـمـا

يفتق الندى البارد النوار، فكأن الندى يشيع حديثاً كان بالأمس سراً مكتوماً. يشبه بروز الأزهار بشكل يلفت الأنظار بقوة لما فيها من ألوان وبهجة، بشيوع السر الذي كان من قبل مكتوماً ثم إذا به يملأ المجالس

ومِـنْ شَـجَـرٍ رَدَّ الـرَّبِـيـعُ لِـبَـاسَـهُ   عَـلَيْهِ، كَـما نَـشَّرْتَ وَشْيَاً مُنَمْنَمَا

وهذا شجر أعاد له الربيع أوراقه، فكأنها مع الزهر وشي منمنم (قماش مطرز). هذه الـ «ومن» تبدو معلقة، ولها عند البحتري مثيلات. وقد تكون معطوفة على «من الحسن» قبل بيتين. أي أن الربيع يختال ضاحكاً من شجر ارتدى لباساً جديداً من الورق.

أَحَلَّ، فَـأَبْـدَى لِـلـعُـيـونِ بَـشـاشَـةً   وكـانَ قَذَىً لِلْعَيْنِ، إِذْ كـانَ مُحْرِمَا

أحل الشجر (خلع لباس الإحرام البسيط ولبس الملابس المزركشة)، فأبدى للعيون بشاشة بعد أن كان منظره قذى للعين يؤذيها وهو محْرِم

ورَقَّ نَـسِـيـمُ الـرِّيـحِ، حـتـى حَـسِـبْـتَـه   يـجِـيءُ بِـأَنْـفَـاسِ الأَحِـبَّـةِ نُـعَّـمـا

رق النسيم حتى حسبناه يحمل أنفاس الأحباب نعَّماً (وهم مسروورون/ وهذا غير الزفرات الحرى المعتادة في الأحبة)

١٣١ الرعاع

وقال يهجو قوماً من غَنِيّ:

بَـنِـي عُـثْـمَـانَ أَنـتُـمْ فـي «غَـنِـيٍّ»   رَعَـاعٌ، وَهْـيَ فـي «قَـيْـسٍ» رَعَـاعُ

أنتم رعاع (حثالة) عشيرة غني، وهم رعاع قبيلة قيس

مَتَى يُقْرَى السَّدِيفُ بِسَاحَتَيْكُمْ ومُرُّ المَاءِ عِنْدَكُمُ يُبَاعُ؟
منذ متى يقرى (يقدم للأضياف) السديف (شحم السنام) في دياركم، وأنتم الذين تبيعون الماء المرَّ بيعاً؟

١٣٢ التقي السَّاطي

وقال يمدح المهتدي بالله:

عَلِمَ اللَّهُ سِيرةَ المُهْتَدِي بِالـ ـلـهِ فَاخْتَارَهُ لِمَا يَخْتَارُ
علم الله أن الخليفة المهتدي سيكون تقياً فاختاره للخلافة

ولديهِ، تحتَ السَّكِينةِ والإخـ ـبَاتِ، سَطْوٌ على العِدَى واقْتِدارُ
ولديه، تحت السكينة (الوقار) والإخبات (الخشوع) سطو (بطش) على الأعداء وقدرة

١٣٣ الوصل

وقال يتغزل ضمن قصيدة يمدح بها الخليفة المعتمد على الله:

جَائِرٌ في الحُكْمِ، لوْ شاءَ قَصَدْ أَخَذَ النومَ، وأَعطانيِ السَّهَدْ
جائر (ظالم)، قصد (عدل)، السهد (السهر)

كيف يَخْفَى الحُبُّ مِنَّا، بَعدمَا قامَ وَاشٍ بِهَوانا وقَعَدْ؟
واش (نمام)، قام بهوانا وقعد (اشتغل بنا وبحبنا)

لستُ أَنْسَى ليلتي مِنْهُ، وقَدْ أَنجَزَتْ عَينَا بَخِيلٍ مَا وَعَدْ
لن أنسى ليلتي تلك منه (مع المحبوب)، وقد أنجز البخيل (يقصد حبيبته، وما أكثر ما وصفوا المحبوبة بالبخل) وعده. فهي في تلك الليلة أعطته ما أراد. وكلمة تنبيه: كان البحتري ممن يتعشق الغلمان، ولكن شعره يشي بأن ذلك لم يكن متمكناً من نفسه، كان فقط يجاري تقليعة العصر

عَلِقَتْ كَفٌّ بِكَفٍّ بيْنَنا واعْتَنقْنَا، فَالتَقَى خَدٌّ وَخَدّ
وتَشاكَيْنَا مِنَ الحُبِّ جَوَىً مَلأَ الأَحشاءَ نَاراً تَتَّقِدْ
تشاكينا: تبادلنا الشكوى، جوى: حزن

١٣٤ هارب من الفراق

وقال في أبي جعفر بن سهلٍ المروزي، وتفارقا بلا وداع، فكتب إليه:

اللَّهُ جارُكَ في انْطِلاقِكْ تِلْقَاءَ شَامِكَ، أو عِرَاقِكْ
لا تَعْذُلَنِّي في مَسِيري يومَ سِرْتُ، ولم أُلاقِكْ

إنِّـــي خَـــشِـــيـــتُ مَـــوَاقِـــفــاً لِـلْـبَـيْـنِ تَـسْـفَـحُ غَـرْبَ مَـاقِـكْ

خشيت مواقف البين (الفراق) التي ستسفح (تُريق) غرب ماقك (دمع عينك)

وعَـــلِـــمْـــتُ أنَّ بُـــكـــاءَنـــا حَـسَـبَ اشْـتِـيـاقِـي واشْـتِـيـاقِـكْ

وذَكَـرْتُ مـا يَـجِـدُ الـمُـوَدِّ ـعُ عـنـدَ ضَـمِّـكَ واعـتِـنـاقِـكْ

فـــتَـــرَكْـــتُ ذاكَ تَـــعَـــمُّـــداً وخـرجْـتُ أهـرُبُ مِـنْ فـراقِـكْ

النكتة في هذه الأبيات موجودة هنا: أهرُبُ من فراقك

١٣٥ أصبحت العراق عراقي

يمدح إبراهيم بن المدبر:

حُـفِـظَ الـقَـرِيـضُ فَـمَـا يُـضَـيَّـعُ حَـقُّـه أَبَـداً، وأَنْـتَ لـه مِـنَ الـعُـشَّـاقِ

القريض (الشعر)

هَـا إِنَّـهُ وعَـطَـاؤُكَ الـجَـمُّ الـلُّـهَـى أَخَـوَانِ: ذَا فَـانٍ، وهـذا بَـاقِ

ها إن الشعر يؤاخي ويلازم عطاءك الجم (الكثير) اللهى (العطاء)، والعطاء يفنى والشعر خالد

أُثْنِي عَليْكَ بِمَا بَسَطْتَ به يَدِي وحَلَلْتَ مِنْ أَسْرِ الزمانِ وِثَاقِي

أثني عليك بالعطاء الذي جعلت به يدي مبسوطة لأعطي الآخرين، وحللت به وثاقي (قيدي) الذي أسرني به الزمان

كُنْتُ الغَريبَ، فَمُذْ عرفتُكَ عادَ لي أُنْسِي، وأَصْبَحَتِ العِراقُ عِرَاقي

١٣٦ تجاربي

وجَرَّبْتُ حتى ما أَرَى الدهرَ مُغْرِباً عَلَيَّ بِصَرْفٍ لم يكنْ في تَجارِبي

مغرباً (آتياً بشيء غريب)، صرف (موقف صعب). هذا البيت يتنازعه أكثر من شاعر

وما غَرَّنِي حُسْنُ المَبَادِي، لأَنَّهُ مِنَ الدهرِ مَحْتومٌ بِسُوءِ العَوَاقِبِ

المبادي (بدايات الأمور)، سوء العواقب (النتائج السيئة)

١٣٧ انحدار وارتفاع

يمدح إبراهيم بن المدبر:

فَدَتْكَ أَكُفُّ قَوْمٍ مـا استَطـاعُوا مَـسـاعِـيَـكَ الـتـي لا تُـسْـتَـطَـاعُ

لتفدِكَ أكف الناس الذين لم يستطيعوا من مساعيك (أمجادك) ما استطعت أنت

عَلَوْتَهُمُ بِجَمْعِكَ ما أَشَتُّوا مِنَ العَلْيا، وحِفْظِكَ مَا أَضَاعُوا

تفوقت عليهم بأنك جمعت من المجد ما فرقوا، وحفظت منه ما ضيعوا

دَنَوْتَ تَواضُعاً، وبَعُدْتَ قَدْراً فَشَأْنَاكَ: انْحِدَارٌ وارْتِفَاعُ

لتواضعك فأنت قريب، ولعظمتك فأنت عالٍ، فهذان متناقضان فيك: انحدار وارتفاع

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى وَيَدْنُو الضَّوْءُ منها والشُّعَاعُ

فأنت في هذا كالشمس بعيدة فلا تُسامَى (لا يعلوها شيء)، ولكن ضوءها قريب يغمرنا

١٣٨ اجعلها مزدوجة

يمدح إبراهيم بن المدبر:

ومَا زالتِ العِيسُ المَراسِيلُ تَنْبَرِي فَيُقْضَى، لدى آلِ المُدَبِّرِ، حَاجُها

ظلت العيس (الإبل) المراسيل (السهلة في سيرها) تنبري (تهزل ويبريها طول السير) ـ وعليها راكبوها ـ فيقضي آل المدبر حاجاتها

أُناسٌ، قَدِيمُ المَكْرُمَاتِ وَجَدْتُها لَهُمْ؛ وسَريرُ العُجْمِ فِيهِمْ وتَاجُها

أناس لديهم المكرمات (الأمجاد) القديمة، وفيهم سرير (عرش) العجم وتاجهم

إذا خَيَّمُوا في الدَّارِ ضَاقَتْ رِبَاعُها وإِنْ رَكِبُوا في الأرضِ ثارَ عَجَاجُها

وهم كثر (والقدماء يفتخرون بكثرة العدد) تضيق بهم رباع الدار (ربوع المحلة التي ينزلون بها)، وإن ركبوا الخيل ثار عجاج الأرض (غبارها)

مَلِيُّونَ أَنْ تُسْقَى البِلادُ غِيَاثَها بِأَوْجُهِهِمْ حتى تَسِيلَ فِجَاجُها

مليُّون (جديرون) أن تُسقَى البلاد بالمطر ببركة وجوههم حتى تسيل فجاجها (وديانها)

فإنَّ على بَغدادَ ظِلَّ غَمَامَةٍ بِجُودِ أبي إسحَقَ، يَهْمِي انْثِجَاجُها

وفوق بغداد غمامة (غيمة) ـ تتمثل بكرم أبي إسحق ـ يهمي (يهطل) انثجاجها (زَخُّها)

يَدٌ لَكَ عِندي قد أَبَرَّ ضِيَاؤُهَا على الشَّمْسِ حتى كادَ يَخبُو سِرَاجُها

لك عندي يد (معروف) أبَرَّ (زاد) ضوءُها على ضوء الشمس حتى كاد يخبو سراج الشمس لسطوع معروفك

هِيَ الرَّاحُ تَمَّتْ في صَفاءٍ ورِقَّةٍ فلمْ يبقَ لِلمَصْبُوحِ إلّا مِزَاجُهَا

هذه النعمة منك هي مثل الراح (الخمر) صافية ورقيقة (والخمر الجيدة فيها رقة، وليست كثيفة ولا لزجة، فاعلم!)، ولم يبق للمصبوح (الشارب الخمر صباحاً) إلا مزج الخمر بالماء. يقول: نعمتك عظيمة، ولم يبقَ سوى القليل لكي تكون تامة

فإنْ تُلْحِقِ النُّعْمَى بِنُعْمَى، فإنَّهُ يَزِينُ اللآلي في النِّظَامِ ازْدِواجُها

فإن تلحق النعمى (المعروف) بنعمى أخرى فهذا يتممها، فاللآلئ في النظام (العقد) تزداد حسناً بازدواجها (بأن تكون مضاعفة فكل لؤلؤة في الجانب الأيمن تقابلها مثيلة لها في الأيسر). سيأخذ أحمد شوقي بعد ألف سنة الشطر الثاني ليهجو المويلحي. في كتابنا الرابع من هذه السلسلة الخمسية سنعرض لشعر شوقي، أما هذا فالكتاب الثاني

١٣٩ قبل أن يتلون الألوانا

أمّا العُدَاةُ فقد أَرَوْكَ نُفُوسَهُمْ فَاقْصِدْ بِسُوءِ ظُنُونِكَ الإخْوَانا

قد عرفتَ يا بحتري الأعداء وكشفوا لك صفحتهم، فالآن كن سيء الظن بالإخوان (الأصدقاء)

وأَخِفُّ عَنْ كَتِفِ الصديقِ نَزَاهَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَلَوَّنَ الألْوَانا

إنني أخفف حضوري عند الصديق متنزهاً مترفعاً، قبل أن يتلون ويتغير عليّ

وأَخٍ أَرَابَ، فلم أَجِدْ في أَمْرِهِ إلّا التَّمَاسُكَ عنه، والهِجْرَانَا

ورب أخ أراب (صار مريباً) فلم أجد من سلوك سوى التّماسك (الانقباض عنه) والابتعاد عنه

أَغْبَبْتُه أنْ أَسْتَمِيحَ له يَداً أَوْ أَنْ أُعَنِّيَ فِيَّ مِنْهُ لِسَانا

أغببته (أقللت رؤيته) فلم أستمح يده (لم أطلب معروفه) ولم أكلفه بأي كلام في الاعتذار

وأَرَاهُ، لَمَّا لم أُطَالِبْ نَفْعَهُ، أَنْشَا يَضُرُّ تَغَيُّباً وعِيَانا

وأراه الآن ـ وأنا لا أكلفه أي عطاء ـ قد أنشأ (بدأ) يسعى في ضرري تغيباً (في غيبتي) وعياناً (وفي حضوري)

وكَمَا يَسُرُّكَ لِينُ مَسِّي رَاضِياً فَكَذَاكَ، فَاخْشَ خُشُونَتِي غَضْبَانا

مثلما تسرك ليونتي في وقت الرضا فعليك أن تخشى خشونتي عندما أغضب

١٤٠ مرسل الريح

قال في ريح خرجت من وهب بن سليمان في حضرة الوزير:

أَبِيني لَنا أَيُّهَا الوَاسِعَةْ أَعَاصِيَةٌ أنتِ أم طَائِعَةْ؟

يكلم البحتري فقحة وهب. يسألها: أأنت عاصية له أم مطيعة؟

فقد أنْكَرَ الناسُ ما قد جَنَيْتِ فهل أنتِ في مِثْلِها رَاجِعَةْ؟

فقد أنكر الناس الجناية التي بدرت منك، فهل ستعودين إلى مثلها؟

أَيَـا وَهْـبُ! لِـمْ هَـتَـفَـتْ بِـالـوَزِيـرِ؟ لَـعَـلَّـكَ بَـيَّـتَّـهـا جَـائِـعَـةْ

يا وهب! لماذا تركتها تهتف في حضرة الوزير؟ هل جعلتها تبيت جائعة (قصده أن الرجل لم يستدخل شيئاً من دبر)

فَـجَـاءَتْ تَـظَـلَّـمُ مِـنْ ظَـالِـمٍ إلـى مُـنْـصِـفٍ أُذْنُـه سَـامِـعَـةْ

فجاءت تتظلم (ترفع شكواها) لمن ينصفها ويسمع منها

١٤١ قف يا زماني

يمدح أبا الحسين محمد بن صفوان العقيلي:

لـلـهِ أيّـامُـنـا مَـا كـانَ أحـسَـنَـهـا لـو أنَّ دهـراً تَـوَلَّـى ذَاهـبـاً وَقَـفـا

لله تلك الأيام ما كان أحسنها، لو أن الزمن الذي انقضى قد توقف ولزم حاله الأولى

لا تُـكْـذَبَـنَّ! فَـمـا الـدُّنـيـا بِـرَاجِـعَـةٍ مَـا فـاتَ مِـنْ لَـذَّةِ الـدُّنـيـا ومَـا سَـلَـفـا

لا يكذبن عليك أحد! فليست الدنيا راجعة (مُرْجِعة) ما فات (ذهب) من ملذاتها

١٤٢ تفريط الطبيب

يمدح أبا المعمر الهيثم بن عبد الله:

أَمَـا (لِـرَبِـيـعـةِ الـفَـرَسِ) انْـتِـهـاءٌ عَـنِ الـزَّلْـزَالِ فِـيـهـا، والـحُـرُوبِ؟

ألا تنتهي هذه القبيلة عن الزلزال (المصائب) فيها والحروب؟

وكـانـوا رَقَّـعُـوا أَيَّـامَ سِـلْـمٍ عـلـى تـلـكَ الـقَـوَارِحِ والـنُّـدُوبِ

وكانوا جعلوا بضعة من أيام السلم رُقَعاً تغطي تلك القوارح (الجروح) والندوب (آثار الجروح)

إذا مَـا الـجُـرْحُ رُمَّ عـلـى فَـسـادٍ تَـبَـيَّـنَ فـيـهِ تَـفْـرِيـطُ الـطَّـبـيـبِ

ولكن الجرح إذا رم (تم ترميمه) على فساد (دون تنظيف)، فسيظهر تفريط (إهمال) الطبيب

يُـشَـقُّ الـجَـيْـبُ، ثـم يـجـيءُ أمـرٌ يُـصَـغَّـرُ فـيـهِ تَـشْـقـيـقُ الـجـيـوبِ

يُشق الجيب (يمزَّق القميص/وفي المصيبة كانوا يمزقون أقمصتهم)، ويأتي بعدئذ أمر أخطر مما سبق، يصبح تمزيق الأقمصة هيناً بالنسبة إليه

وفـي حَـرْبِ الـعَـشـيـرةِ مُـؤْيِـدَاتٌ تُـضَـعْـضِـعُ تَـالِـدَ الـعِـزِّ الـمَـهِـيـبِ

في الحرب العشائرية مؤيِدات (مصائب) تضعضع تالد (موروث) العز المهيب

١٤٣ قتيل القرود

يرثي أخا الصابوني قاضي أنطاكية، وكان قَتَلَه سيما الطويل حاكمها:

ونُنْكِرُ أَنْ تَطَرَّقَنَا المنايَا، كأَنَّا قد خُلِقْنَا لِلْخلودِ

تطَرَّقنا (تعترض طريقنا)

ومَا بَرِحَتْ صُرُوفُ الدَّهرِ حتى أَرَتْنا الأُسْدَ قَتْلى لِلقُرودِ

ما زالت صروف الدهر (مصائبه) تتنابنا حتى أرتنا الأسود قتلى بيد القرود

١٤٤ يا صاحب البريد

يهجو ابن أبي قماش:

دَهَتْكَ بِعِلَّةِ الحَمَّامِ فَوْزٌ ومَالَتْ في الطَّريقِ إلى سَعِيدِ

دهتك (خدعتك) بعلة (بحجة) الحمام فوز زوجتك، ومالت في طريقها إلى سعيد. قالت لزوجها إنها ذاهبة للحمام العمومي!

أَرَى أَخبارَ بَيْتِكَ عَنْكَ تُطْوَى، فَكيفَ وَلِيتَ أَخبارَ البَرِيدِ؟

أخبار بيتك تطوى (تحجب) عنك، فكيف وليت (توليت) ديوان البريد!

١٤٥ الحمار المرزوق

يمدح صاعد بن مخلد، ويهجو يعقوب بن أحمد بن صالح بن شيرزاد:

وإِخَاءٍ منهُ لو يُعْرَضُ لِلْـ ـبيْعِ في سُوقِ الثُّلاثَا مَا نَفَقْ

لا أحد يريد إخاءه (صداقته)، فلو عرضت صداقته للبيع في هذه السوق الأسبوعية - لا أدري لعلها سوق للماشية - ما نفقت (ما بيعت)

لا تَعَجَّبْ أنْ تَرَى خَاتِمَهُ وعَلَيْهِ: «الجَحْشُ بِاللَّهِ يَثِقْ»!

لا تعجَّب (تتعجب) أن ترى خاتمه منقوشاً عليه عبارة «الجحش بالله يثق». وكانوا في القديم يتخذ كل أحد شعاراً ينقشه على خاتمه

لو صَفَرْنَا عَبَّ في الماءِ، ولو مَرَّ مُجْتَازاً على الأُتْنِ نَهَقْ

هذا المهجو له إحساس الحمار، فلو صفرنا له كما نفعل للحمار عب في الماء (شرب)، ولو كان مجتازاً (ماراً) على الأتن (إناث الحمير) لنهق

إنْ مَشَى هَمْلَجَ، أو صَاحَ إلى صَاحِبٍ عَشَّرَ، أو ماتَ نَفَقْ

وهذه هي المفردات اللائقة به: هملج (مشى رويداً، وهي للحمار والبغل)، عشَّر (نهق عشراً)، نفق (مات، وتستعمل للحيوان)

تُخْطِئُ الدنيا المقاديرَ، ففي الـ ـجَوِّ مَنْ لم يَكُ في قَعْرِ النَّفَقْ

الدنيا تخطئ في فهم مقادير الناس (أقدارهم) فيكون أحدهم في أعالي الجو بينما مقداره لا يجيز له أن يكون حتى في قعر النفق

كانَ يُحْيِي مَيِّتاً مِنْ ظَمَأٍ فَضْلُ مَا أَوْبَقَ مَيْتاً مِنْ غَرَقْ

كان يمكن أن يحيي الميتَ من العطش فضلُ (بقية) الماء التي أوبقت (أهلكت) الآخر غرقاً.
يقول: بعض يموت عطشاً وبعض يموت غرقاً، فيا لسوء التوزيع. وكان يمكن للمياه التي غرقت هؤلاء أن تروي أولئك. (أكتب هذه الإضافة في ٢٠ أغسطس آب ٢٠١٠، وقد بلغ قتلى الفيضان في باكستان ألفاً وخمسمئة، بينما الناس في النيجر يموتون عطشاً)

١٤٦ إذا جحد الله والمرسلين..

يهجو أحمد بن صالح وولده:

عُلَيْجٌ يَدِينُ بِأَنَّ لا إِلَهَ وأَنْ لا قَضَاءَ، وأَنْ لا قَدَرْ

عليج (علج حقير/العلوج هم العوامُّ من غير العرب) يدين (يعتقد) بعدم وجود الله، ولا يؤمن بقضاء ولا بقدر

وشَتَّامَةٌ لِصِحَابِ النَّبِيِّ - يُزْجَرُ عنهُمْ فَمَا يَنْزَجِرْ

وهو شتامة (كثير الشتم) للصحابة، ويُزجر (يعنَّف) عن شتمهم فلا ينزجر

إذا جَحَدَ اللَّهَ والمُرْسَلِينَ فَكَيفَ نُعاتِبُهُ في عُمَرْ؟

وهو ينكر الله والأنبياء فكيف نعاتبه في عدم احترام عمر بن الخطاب؟

١٤٧ أرميهم باسمك

يمدح إسماعيل بن بلبل الوزير:

وإِنِّي لَمَرْفُودٌ على كُلِّ تَلْعَةٍ بِنَصْرِ ابْنِ خَالٍ، يَحْمِلُ السَّيْفَ، أو عَمّ

إنني مرفود (حاصل على العون) فوق كل تلعة (ربوة) إذ ينصرني أبناء الخؤولة والعمومة بسيوفهم

ومَا أَبْهَجَتْنِي كَبْوَةُ الجَحْشِ، إذْ كَبَا لِفِيهِ، لَوَ انَّ الجَحْشَ أَقْلَعَ عَنْ ظُلْمِي

وما كنت أبتهج لكبوة (سقطة) الجحش إذ سقط لفيه (على فمه، على وجهه) لو أنه كان كفَّ عن ظلمي

فَلَوْلا أَبُو الصَّقْرِ الأَغَرُّ وَجُودُهُ، رَضِيتُ قَلِيلي، واقْتَصَرْتُ على قِسْمِي

لولا أبو صقر الأغر (المشرق) ولولا جوده لرضيت بالقليل واقتصرت على ما قسم الله لي من الرزق

كَأَنَّكَ مِنْ جِذْمٍ مِنَ النَّاسِ واحِدٍ، وسَائِرَ مَنْ يَأْتِي الدَّنِيَّاتِ مِنْ جِذْمِ

كأنك، يا أبا الصقر، مخلوق من جذم (أصل) من بين هؤلاء الناس، وسائر الذين يقدمون على الدنيات (أفعال السوء) من أصل مختلف

وكم ذُدْتَ عَنِّي مِنْ تَحامُلِ حَادِثٍ وسَوْرَةِ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ

كثيراً ما ذدت عني (دَفَعْت عني) تحامل حادث (وطأة مصيبة) وسورة (هجمة) أيام صعبة حزت لحمي ووصلت إلى العظم

أُحَارِبُ قَوْماً لا أُسَرُّ بِسُوئِهِمْ، ولَكِنَّنِي أَرْمِي مِنَ النَّاسِ مَنْ تَرْمِي

إنني أحارب أناساً لا عداوة بيني وبينهم، ولست أُسَرُّ بأن يلحق بهم السوء، وذلك نصرة لك، فأنا أرمي بأسهمي من ترمي أنت

١٤٨ مشغول بقطع الأرزاق

يمدح أبا الصقر إسماعيل بن بلبل ويهجو أحمد بن صالح بن شيرزاد:

وَصَلْنَ الغَوَانِي حَبْلَهُ وَهْوَ نَاشِئٌ وقَارَضْنَهُ الهِجْرَانَ والشَّيْبُ واخِطُهْ

وصلت الغواني حبله (بادلته الحسان الغزل) وهو ناشئ (شاب)، وقارضنه الهجران (تعاملن معه بالهجر) والشيب واخطه (والشيب متسلل إلى رأسه)

لَعَمْرُكَ مَا فِي شِيرَزَادَ ولا ابْنِهِ مَكَانٌ تُدَانِيهِ العُلا أو تُخالِطُهْ

ليس في هذا الرجل ولا في ابنه موضع يقترب منه المجد

يَبِيتُ مُعَنَّى النَّفْسِ، مِنْ لُؤْمِ أَصْلِهِ، بِأَنْ يَقْبِضَ الرِّزْقَ الذي اللَّهُ بَاسِطُهْ

للؤم أصله يبيت شيرزاد معنَّى النفس (مُتْعَباً نفسياً) وهو يفكر كيف يقطع الرزق الذي بسطه الله لأحد الناس

١٤٩ أتعبت شكري

يمدح إسماعيل بن بلبل:

أتعَبْتَ شُكْرِي، فَأَضْحَى مِنْكَ في نَصَبٍ فاذهَبْ، فَمَا لِيَ في جَدْوَاكَ مِنْ أَرَبِ

جعلتَ شكري في نصب (تعب)، فاذهب فما لي في جدواك (عطائك) أرب (غرض)

لا أَقبَلُ، الدهرَ، نَيْلاً لا يَقومُ بِه شُكْرِي، ولَوْ كانَ مُسْدِيهِ إلَيَّ أبي

لا أقبل الدهرَ (طول الدهرِ) نَيْلاً (عطاءً) لا يقوم به شكري (لا يوازيه شكري)، حتى لو كان مسديه (مقدمه) إلي والدي

١٥٠ عمري شباب وزماني ربيع

قال في وداعه أبا غانم الشاه ابن ميكال عند خروجه إلى البصرة:

رُكْنِي بِآلاءِ أَبِي غَانِمٍ ثَبْتٌ، وكَهْفِي في ذَرَاهُ مَنِيعْ

ركني (دعامتي) بسبب آلاء (نِعَم) أبي غانم ركن ثابت، وكهفي (يقصد حمايتي) في ذراه (في كنفه) منيع (حصين)

كم أَدَّتِ الأَيَّامُ لِي ذِمَّةً مَحْفُوظَةً في ضِمْنِه مَا تَضِيعْ

كم أدى الزمن إليَّ ذمة (أمانة) كانت محفوظة في كفالته لا ضياع لها

وكم لَبِسْتُ الخَفْضَ في ظِلِّهِ عُمْرِي شَبَابٌ، وزَمَانِي رَبِيعْ

كثيراً ما تمتعت بالخفض (الدعة) في ظله. عمري شباب وزماني ربيع (هذا الشطر الثاني شعر رائق جداً)

١٥١ ابن أصل

يمدح إسماعيل بن بلبل:

لا تُلْحِقَنَّ إلى الإساءَةِ أُختَها شَرُّ الإساءَةِ أنْ تُسيءَ مُعَاوِدَا

وارْفَعْ يَديْكَ إلى السَّماحَةِ مُفْضِلاً إنَّ العُلا في القومِ لِلأعلى يَدَا

مفضلاً (متكرِّماً)

ويَسُرُّنِي أنْ ليسَ يَكْرُمُ شِيمَةً، مِنْ مَعْشَرٍ، مَنْ ليسَ يَكْرُمُ والِدَا

شيمةً (خُلُقاً)

١٥٢ أشق الأفعال

يمدح بني مخلدٍ وكاتب ابن لَيْثَوَيْهِ:

ثَقُلَتْ وَطْأَةُ الزمانِ على جَا نِبِ وَفْرِي، وأقسَمَتْ لا تَخِفُّ

الوفر (الغنى)

وأَشَقُّ الأفعَالِ أَنْ تَهَبَ الأَنْـ ـفُسُ ما أُغْلِقَتْ عليْهِ الأَكُفُّ

من أصعب الأشياء على النفوس أن تهب (تمنح) مالاً حصل في كيسها

يَفْسُدُ الأمرُ، ثم يَصْلُحُ مِنْ قُرْ ب؛ ولِلْماءِ كَدْرَةٌ ثم يَصْفُو

من قرب (من أهون سبيل)

١٥٣ استرقاق بالجود

يمدح ابن الفراث:

كُلَّمَا قلتُ: أَعْتَقَ المَدْحُ رِقِّي، رَجَعَتْنِي له أَيَادِيه عَبْدا

كلما ظننت أن مدحي له خلصني من عبوديتي لإحسانه رجعتني (أرجعتني) أياديه (أعطياته) عبداً له

١٥٤ اغتنم الفرصة

وقال لصاعدٍ، وقد طالبه بإقطاع:

بيْنَنا حُرْمَةٌ وعَهْدٌ وثيقُ وعلى بَعضِنا لِبَعْضٍ حُقوقُ

فاغتَنِمْ فرصةَ الزمانِ، فَمَا يَدْ ري مُطِيقٌ لَها، مَتَى لا يُطِيقُ

لا يدري المطيق للفرصة (الذي يستطيع استغلالها) متى تفلت منه

١٥٥ كل شيء بقدر

لن تَنالَ المَزْوِيَّ عَنْكَ بِتَدْبِيـ ـرِ، ولن تَصْعَدَ السَّمَاءَ بِحِيلَةْ

المزوي عنك (الممنوع عنك)

وإذا ما اعْتَبَرْتَ ظَاهِرَ حالي كان خَطْباً مِنَ الخُطُوبِ الجَلِيلَةْ

١٥٦ لعنه الله من كار

وقال يستبطئ جماعةً من كتاب الجبل، وكان أنفذ إليهم بغلامه نصرٍ لتنجُز رسومه فأبطأ عليه:

وَصَدَّتْ (رَبِيعَةُ) عَنْ شاعرٍ يُسَمِّي (رَبيعةَ) أَخْوَالَهُ

فَلا بُورِكَ الشِّعْرُ مِنْ صَنْعَةٍ ومَنْ قِيلَ فيه، ومَنْ قالَهُ

١٥٧ الكنيف

يهجو أبا أحمد بن المنجم:

بَلَوْتُ أبا أحمدٍ مَرَّةً فأَلْفَيْتُ منه بَخِيلاً سَخِيفَا

بلوت (جربت)، ألفيت منه (ألفيته)

ولـــولا الـــضَّـــرُورَةُ لـــم آتِـــهِ   وعـنـدَ الـضَّـرُورَةِ آتـي الـكَـنِـيـفَـا

الكنيف (المرحاض)

١٥٨ النجيب حقاً

يمدح إسحاق بن إسماعيل نوبخت:

وأَرَى الـنَّـجـابَـةَ لا يـكـونُ تـمـامُـهـا   لِـنَـجـيـبِ قـوم لـيـسَ بِـابـنِ نَـجـيـبِ

النجابة (الذكاء والنجاح) لا تتم لشخص إلا إذا كان أبوه نجيباً أيضاً

١٥٩ خوش تعزية

يعزي أبا الحسن بن الفرات عن ابنته:

ومِـنْ نِـعَـمِ الـلَّـهِ، لا شَـكَّ فِـيـهِ،   بَـقـاءُ الـبَـنِـيـنَ، ومَـوْتُ الـبَـنَـاتِ

لِـقَـوْلِ الـنـبـيِّ عـلـيـهِ الـسَّـلا   مُ: دَفْـنُ الـبَـنَـاتِ مِـنَ الـمَـكْـرُمَـاتِ

والحديث يتردد في الكتب ولكنه في رأي الثقات ضعيف، وقال ابن الجوزي إنه موضوع. [انظر مثالاً آخر لتعزية البحتري في الأنثى (القصيدة ٣٦)]

١٦٠ الداهية الأريب

يمدح إسحاق بن إسماعيل بن نوبخت:

أَحْكَمْتَ مَا دَبَّرْتَ بِالتَّبْعِيدِ، والتَّـ ـ   ـقْرِيبِ، والتَّصْعِيبِ، والتَّسْهِيلِ

لقد ضبطت أمورك بكثير من الحيلة وباتباع طرق شتى مع أناس شتى

لولا التَّبَايُنُ في الطَّبَائِعِ لم يَقُمْ   بُـنْـيَـانُ هـذا الـعَـالَـمِ الـمَـجْـهُـولِ

التباين (الاختلاف) في طبائع الناس هو أساس العالم

١٦١ الخِذلان

وما زالَ خَذْلُ الدهرِ حتى تَوَقَّعَتْ   يميني، غَداةَ النَّصْرِ، خَذْلَ شِمَالي

ظل خذل (خذلان، وعدم مساعدة) الزمن يريني عجائبه حتى توقعتْ يدي اليمنى غداة النصر (وقت الحاجة للنُّصْرة) أن تخذلها يدي اليسرى

عـلـى أنَّ لـيِ سُـلْـطـانَ رَغْـبٍ ورَهْـبَـةٍ   أَصُـولُ بـه فـي الـعِـزِّ كـلَّ مَـصَـالِ

لكن لي سلطان ترغيب وترهيب بشعر المدح والهجاء، وأنا أصول وأجول كل مصال (صولان) في ميدان العز بسبب سلطة شعري

١٦٢ صديق الكلب ضاربه

يمدح محمد بن بدر:

الأرضُ أوْسَعُ مِن دَارٍ أُلِطُّ بهـا، والنـاسُ أكثَرُ مِن خِلٍّ أُجَاذِبُهُ

الأرض أوسع من دار أُلِط بها (ألتصق بها)، والناس أكثر من مجرد خل أجاذبه (صديق آخذ وأعطي معه)

أُعاتِبُ المرْءَ، فيمَا جاءَ، واحِدَةً ثم السَّلامُ عليهِ، لا أُعَاتِبُهُ

أعاتب المرء فيما جاء (فيما فعل) مرة واحدة، ثم أكف عنه ولا أعود لعتابه

ولو أَخَفْتُ لئيمَ القومِ جَنَّبَني أَذَاتَهُ؛ وصديقُ الكَلْبِ ضارِبُهُ

ولو كنت أخيف اللئيم وأهدده بالهجاء لجنَّبني أذاه، كالكلب الذي يصادق من يضربه

١٦٣ حبذا لو يقف الزمان

يمدح علي بن محمد بن الفياض:

شَطَّ مِنْ ساكِنِ (الغُوَيْرِ) مَزَارُهْ وطَوَتْهُ البِلادُ، فَاللَّهُ جَارُهْ

شط (ابتعد) مزار (مكان) سكان «الغوير» لرحيلهم، وقد طوتهم البلاد فالله الآن جارهم، فقد أصبحوا بعيدين ولم يعودوا جيراني

كُلَّ يَوْمٍ عَنْ (ذي الأَرَاكِ) خَلِيطٌ يَلْتَوِي وَصْلُهُ، وتَعْفُو دِيَارُهْ

في كل يوم يرحل عن وادي «ذي الأراك» خليط (قوم) فيلتوي وصلهم (يتعذر اللقاء بهم)، وتعفو ديارهم (تمَّحي آثار مخيماتهم)

يَبْتَغي المَرْءُ وَقْفَةَ العَيْشِ، والعَيْـ ـشُ سِجَالٌ كَثِيرَةٌ أَطْوارُهْ

يتمنى المرء أن يقف الزمن وَقفةً لينعم بلذة اللحظة الهانئة، ولكن العيش سجال (متقلب) كثير الأطوار

لَيْتَ شِعْرِي عَنِ اللَّئيمِ إذا لِيـ ـمَ عَلى فَرْطِ بُخْلِهِ، ما اعتِذَارُهْ؟

ليم (تلقَّى اللوم). بيت وجدناه رائقاً في القصيدة وسط حشف كثير فألصقناه في ذيل القطعة

١٦٤ كل ممنوع..

ليس يَحْلُو وُجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْغِيـ ـهِ التِمَاساً، حتَّى يَعِزَّ طِلابُهْ

ليس حلواً وجودك الشيء (عثورك عليه) الذي تريده وتلتمسه (تطلبه) إلا إذا عز طلابه (صعب مناله)

١٦٥ كلفتمونا حدود منطقكم

وقال يهجو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (وهو من كبراء الدولة، وكان شاعراً، وقد هجا البحتري، فرد عليه البحتري بهذه القصيدة. وبحسب شرح طويل في ذيل تحقيق الصيرفي للديوان فإن ابن الرومي والأمير تعاونا في هجاء البحتري). وفي القصيدة أدناه ينال البحتري من ابن الرومي وتطويله في الشعر دون أن يسمِّيَه:

لا الـدَّهْـرُ مُـسْـتَـنْـفَـدٌ، ولا عَـجَـبُـهْ   تَـسُـومُـنَـا الـخَـسْـفَ كُـلَّـهُ نُـوَبُـهْ

الدهر ليس مستنفَداً (منتهياً) وكذلك أعاجيبه، وتسومنا ألوانَ الخسف (ترغمنا على الذل) نوب الدهر (مصائبه)

نـالَ الـرضـا مـادِحٌ ومـمـتَـدَحٌ   فـقُـلْ لـهـذا الأمـيـرِ مـا غَـضَـبُـهْ؟

المادح والممدوح راضيان، فعلام غضب هذا الأمير؟

ونـحـنُ مَـنْ لا تُـطَـالُ هَـضْـبَـتُـهُ   وإنْ أَنَـافَـتْ بِـفَـاخِـرٍ رُتَـبُـهْ

نحن من لا تطال هضبته (لا أحد يبلغ شرفنا)، مهما أنافت (ارتفعت) بالفاخر (الذي يفخر علينا) رتبه

لـو أَعْـرَبَ الـنَّـجـمُ عـن مَـنـاقِـبِـهِ   لـم يَـتَـجـاوَزْ أَحـسـابَـنَـا حَـسَـبُـهْ

لو أن النجم نفسه كشف مناقبه (محاسنه)، لما تجاوز حَسَبُه (مجده) أحسابنا

لولا غَرامي بالعفوِ قد لَقِيَ الظَّـ ـ   ـالـمُ شـرّاً، وسـاءَ مُـنْـقَـلَـبُـهْ

لولا حبي للعفو للقي الظالم جزاء ظلمه، وساء منقلبه (عوقب نتيجة فعله)

وخِيـرَتـي عَـقْـلُ صـاحِـبـي، فَـمَـتَـى   سُـقْـتُ الـقَـوافـيَ فَـخِـيـرَتـي أَدَبُـهْ

خيرتي (ما يهمني فأختارُه) عقل صاحبي، ولكنني إذا قلت شعراً فالذي يهمني ما عنده من فهم للأدب

كَـلَّـفْـتُـمُـونـا حُـدودَ مـنـطِـقِـكُـمْ   والـشـعـرُ يُـغـنـي عـنْ صِـدْقِـهِ كَـذِبُـهْ

أيها النقاد والمتحذلقون بشأن معاني الشعر قد كلفتمونا حدود (تعريفات) المنطق؛ والشعر يغني فيه الكذب عن الصدق (فيه خيال ووهم كثير)

ولـم يَـكُـنْ ذُو الـقُـرُوحِ يَـلْـهَـجُ بـالـ   ـمـنـطـقِ: مـا نـوعُـهُ ومـا سـبـبُـهْ؟

ولم يكن ذو القروح (لقب امرئ القيس) يلهج (يتكلم) بالمنطق والفلسفة، والأسباب والنتائج

والـشِّـعْـرُ لَـمْـحٌ تَـكـفـي إشـارَتُـهُ   ولـيـسَ بـالـهَـذْرِ طُـوِّلَـتْ خُـطَـبُـهْ

الشعر لمح تكفي إشارته (تلميح بالمعنى وليس استقصاء منطقياً)، وليس بالهذر (اللغو) المطول. ولو فتحت ديوان ابن الرومي ـ وهو المعرَّضُ به في هذه القصيدة ـ لوجدت قصائده تطول حتى تبلغ المئتي بيت والثلاثمئة

واللفظُ حَلْيُ المعنَى، وليس يُرِيـ ـكَ الصُّـفْـرُ حُـسْـناً يُـرِيـكَـهُ ذَهَـبُـهْ

اللفظ حلية للمعنى. وليس يريك الصفر (نوع من النحاس) ذلك الجمال الذي يريك إياه الذهب. بيت ملتوي المعنى حصيلته: أن اللفظ والمعنى كليهما مهم، فالذهب فيه خواص دفينة، وعليه رونق ظاهري ليسا كلاهما في النحاس

١٦٦ المدح المجاني

يمدح علي بن محمد بن الحسين بن الفياض كاتب ابن كنداج:

أَبَـعْـدَمَـا أَعْـلَـقَ الأَقْـوَامُ مِـيسَـمَـهُـمْ بِصَفْحَتِي، وقَتَلْتُ الأَرْضَ عِرْفَانا؟

هل بعد أن وضع كل قوم على وجهي ميسمهم (حديدتهم المحماة بالنار علامة الملكية)، وبعد أن قتلت الأرض معرفة بها..

يَرْجُو البَخِيلُ اغْتِرَارِي، أو مُخَادَعَتِي، حتى أَسُوقَ إِلَيْه المَدْحَ مَجَّانا؟

.. أبعد ذلك يرجو البخيل اغتراري (خداعي) لكي أمدحه مجاناً؟ نعم، قد مدح البحتري بائعي البصل والباذنجان وهو صغير، ومدح صغار القواد، ونال العطايا بالدراهم القليلة، وتدرج إلى أن مدح سبعة خلفاء ضمن العشرات الذين مدحهم، فهذا التاجر الماهر في سوق المدح لم يعد يغتر بالبخلاء

١٦٧ اللياذ بالله

يمدح ابن الفياض:

كُـلُّ مَـاضٍ أَنْـسَـاهُ، غَـيْـرَ لَـيَـالٍ مَـاضِـيَـاتٍ لَـنَـا (بِـبَـارَى) و(بِـنَّـا)

مُـغْـرَمٌ بِـالـمُـدَام، أُتْـرِعُ كَـأْسـاً سَـاطِـعَـاً ضَـوْءُهـا، وأُنْـزِفُ دَنَّـا

أُترع (أَمْلأُ)، أُنزف دناً (أُفرغ دناً/ والدن خابية الخمر الكبيرة)

حَيْثُ لا أَرْهَبُ الزمانَ، ولا أُلْـ ـقِي إلى العَاذِلِ المُكَثِّرِ أُذْنا

يَزْعَمُ البِرَّ في التَّشَدُّدِ، والأَسْـ ـمَحُ أَحْجَى لأَنْ يُبَرَّ ويُدْنَى

العاذل يزعم أنه مخلص في تشدده باللوم، ولكن الشخص السمح أحجى (أجدر) أن يبر (يُحْسَنَ إليه) وبأن يكون صديقاً مقرباً

لم تَلُمْنِي أَنِّي سَمَحْتُ، ولَكِنْ، لُمْتَ أَنِّي أَحْسَنْتُ بِاللّهِ ظَنَّا

فيا أيها المتشدد! أنت لا تلومني لسماحتي وتساهلي في شرب الخمر، ولكنك تلومني لأنني أحسن الظن بالله وغفرانه. وهكذا الشاربون الساكرون، يزعمون أن الله لا شغل له إلا أن يغفر لهم، والمتشددون المتوعدون يزعمون أن الله لا شغل له إلا عد الكؤوس على شاربيها

١٦٨ ماوية وكثيبها

يمدح عبدون بن مَخْلَد:

خَـيَـالُ مَـاوِيَّـةَ الـمُـطِـيـفُ أَرَّقَ عـيْـنـاً لَـهَـا وَكِـيـفُ

وَكِيف (هطول دمع)

أَكْـثَـرَ لَـوْمـي عـلـى هَـواهـا رَكْـبٌ عـلـى دِمْـنَـةٍ وُقُـوفُ

لامني على حبها الركب (الراكبون إبلهم) الذين وقفوا معي لتحية الدمنة (الخربة)

يَـرْتَـجُّ مِـنْ خَـلْـفِـهـا كَـثِـيـبٌ يَـعْـيَـا بـه خَـصْـرُهـا الـضَّـعِـيـفُ

ماوية هذه يرتج من خلفها كثيب (مؤخرة شبيهة في كبرها بكثيب الرمل)، وهذا الكثيب يعيا به (يتعَب بسببه) خصرها الضعيف

واهْـتَـزَّ فـي بُـرْدِهـا قَـضِـيـبٌ مُـعْـتَـدِلٌ قَـدُّهُ قَـضِـيـفُ

واهتز داخل بردها (ثوبها) قوامُها الشبيه بالقضيب (الغصن) المعتدل القضيف (النحيل)

أَصْـبـحَ فـي الـحـارِثِ بـنِ كَـعْـبٍ طَـوْدٌ عَـلـى مَـذْحِـجٍ مُـنِـيـفُ

أصبح في (ممثلاً بـ) الحارث طودٌ (جبل) منيف (مشرف) على قبيلة مذحج

تُـرْجَـى الـرَّغِـيـبـاتُ فـي ذَرَاهُ ويُـؤْمَـنُ الـحـادثُ الـمَـخُـوفُ

الرغيبات (العطايا)، ذراه (كنفه)

لِـلّـهِ عَـبْـدُونُ! أيُّ فَـذٍّ! تَـخِـفُّ عَـنْ وَزْنِـهِ الأُلُـوفُ

فذ (متفرد) يوزن بألوف الناس

تَـرَى أَجِـلَّاءَ كُـلِّ قـومٍ وَهُـمْ عـلـى رِفْـدِهِ عُـكُـوفُ

على رفده عكوف (عاكفون على عطائه)

١٦٩ الإيوان: الزيارة الصغرى

يمدح عبدون بن مخلد:

لا جـديـدُ الـصِّـبـا، ولا رَيْـعَـانُـهْ رَاجِـعٌ، بَـعْـدَمَـا تَـقَـضَّـى زَمَـانُـهْ

ريعانه (أوّله)

يَـذْهَـبُ الـبَـرْقُ حَـيْـثُ شَـاءَ بِـلُـبِّـي إنْ بَـدا الـبَـرقُ، أو بَـدا لَـمَـعَـانُـهْ

والبرق يذكِّر العاشق بحبيبته التي رحلت في أيام البرق والرعد لأن قومها بدو رُحَّل يلحقون المطر

وإذا صَــحَّــتِ الــرَّوِيَّــةُ يَــوْمــاً   فَـسَــواءٌ: ظَـنُّ امْـرِئٍ، وعِـيَــانُــهْ

إذا صحت الروية (التدبر) تساوى ظن المرء وعيانه (تقديره للأمور يصبح دقيقاً كأنه يراها عياناً)

إنْ تَغَطَّى عَنْكَ الأَصَادِقُ، تُبْدِي   شِـدَّةُ الـدهـرِ، عَـنْـهُـمُ، ولِـيَـانُـهْ

إذا تغطى عنك الصادقون ولم تعد تميز بين الناس،
فالذي يبرزهم تقلب الزمن بين شدة وليان (لين)

يُعْرَفُ السَّيْفُ بِالضَّرِيبَةِ يَلْقَا   ها، ويُنْبِي عَنِ الصَّدِيقِ امْتِحَانُهْ

السيف تُعرف جودته بالضريبة (المضروبة/العنق مثلاً)
وينبي (يخبر) عن حقيقة الصديق امتحانه في الأزمات

وإذا مَــا أَرَابَ دَهْــرٌ، فَـمِـنْ أَعْــ   ـدَاءِ شَــاجٍ بِــرَيْــبِــهِ إخْــوانُــهْ

إذا ما أراب (أصاب) الدهرُ أحداً أصبح من أعداء هذا الشاجي (الحزين) إخوانُه (أصحابه)

فَـالْـهُ عَـنْ نَـبْـوَةِ الأَخِـلَّاءِ، إذْ كـا   نَ عَـتِـيـداً فـي كُـلِّ عُـودٍ دُخَـانُـهْ

فاله (فعليك أن تلهو وتنسى) عن نبوة الأخلاء (انحراف الأصدقاء)، ولا تفكر في ذلك فعتيد (موجود) في كل عود دخانه. نظرية القدماء أن الدخان الذي سيتصاعد من العود عند حرقه موجود في داخله كامن ينتظر الفرصة للظهور

حَفِظَ اللَّهُ، حَيْثُ أَصْبَحَ عبدُ الـ   ـلَّـهِ، أَوْ حَـيْـثُ أَصـبـحَـتْ أَوْطَـانُـهْ

ليحفظه الله أينما حل. يبدو أن عبد الله هذا سافر قبل قدوم البحتري عليه بقليل فلم يتمكن من لقائه (ولك في عبد الله النصب والرفع على اعتبارين متقاربين)

غِبْتُ عنهُ، فَغَابَ عَنِّي سُرُورِي   إنَّـمَـا يَـجْـمَـعُ الـسُّـرورَ مَـعَـانُـهْ

معانه (منبعه)

نِـيَّـةٌ عُـقِّـبَـتْ بِـحِـرْمَـانِ حَـظٍّ،   رُبَّ نَـاءٍ يـنْـأَى بِـهِ حِـرْمَـانُـهْ

نويت مقابلته وحرمت منها، والنائي (البعيد) إنما ابتعد به حرمانه المقدور

سَعِدَ الشَّاهِدُ المُقِيمُ، وَمِنْ أَسْـ   ـعَـدِ قَـوْمٍ بِـوَابِـلٍ جِـيـرانُـهْ

الشاهد الذي حضر يسعد بالعطية، كالقوم الذين يكون وابل المطر قريباً منهم فيستفيدون منه

زَوْرَةٌ قُـيِّـضَـتْ لإِيـوَانِ كِـسْـرَى   لـم يُـرِدْهـا كِـسْـرَى، ولا إِيـوَانُـهْ

قيضت (تهيَّأت). لعل موقع هذه القصيدة بعد قصيدته السينية في إيوان كسرى (رقم ١٨٥). أم هي زيارة أولى للإيوان؟

١٧٠ الخضاب بالمقراض

يمدح علي بن محمد بن الحسين بن الفياض كاتب ابن كنداج:

لـيـس يـرضَـى عَـنِ الـزمـانِ مُـرَوٍّ فـيـه، إلّا عَـنْ غَـفْـلَـةٍ أو تَـغَـاضِ

مروٍّ (متأمل)

والبَوَاقي على اللَّيالي - وإنْ خا لَفْنَ شَيئاً - فَمُشْبِهاتُ المَوَاضي

الأوقات المقبلة - وإن اختلفت قليلاً - فهي تشبه ما مضى

وإذا ما امتَعَضْتُ مِنْ وَلَعِ الشَّيْـ ـبِ بِرأسي لم يَثْنِ منهُ امتِعاضي

شَـعَـرَاتٌ أَقُـصُّـهُـنَّ، ويَـرْجِـعْـ ـنَ رُجُوعَ السِّهَامِ في الأَغْرَاضِ

أقص الشعرات البيض ويرجعن للطلوع، كأنهن سهام في الأغراض (الأهداف).
للبيت ثلاثة تفسيرات عند المرتضَى كما نقل الصيرفي. وأختارُ تفسيراً منها: الغرض هو الهدف المنصوب للتدرب على الرماية، وهو - كما في حانات بلاد الإنجليز - مصنوع من الفلين أو ما أشبهه، ويرمي الرامون سهامهم، ثم ينزعونها ثم يرمونها، وتظل تقع على هذا الهدف غير مقلعة عنه

وأَبَـتْ تَـرْكِـيَ الـغُـدَيَّـاتُ والآ صَالُ حتَّى خَضَبْتُ بِالمِقْرَاضِ

لم يتركني كر الزمن غُديَّاتٍ وآصالاً (صباحات ومساءات) وبقيت حياً، وصرت أخضب شعري بالمقراض (بالملقط). أي أنه بدل أن يصبغ شعره صار ينزع الشعرات البيض بالملقط. وقولته (حتى خضبت بالمقراض) فيها خيال وصنعة. ونقل عن البحتري قوله: «مكثت في (خضبت بالمقراض) أربعين سنة حتى أتممتها»

١٧١ الدنيا وأحوالها

يمدح صاعد بن مَخْلد:

يُفَاوِتُ مِنْ تَأليفِ شِعْبِي وشِعْبِها تَنَاهِي شبابي، وابتداءُ شبابِها

المعنى الذي ألمحه: يباعد شعبي (طريقي)
من طريقها أن شبابي وصل إلى نهايته بينما شبابها في أوله

مَتى تَسْتَزِدْ فَضلاً مِنَ العُمْرِ تَغْتَرِفْ بِسَجْلَيْكَ مِنْ شَهْدِ الخطوبِ وصابِها

إذا نِلتَ فضلاً (زيادة) من العمر فسوف تغترف بسجليك (بِدَلْوَيْك) من شهد الأحداث ومن صابها (مُرِّها)

يُـسَـرُّ بَـعُـمْـرانِ الـدِّيـارِ مُـضَـلَّـلٌ وعُـمْـرانُـها مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خرابِها

الذي يسره كون الديار عامرة مضلل (مخطئ)،
فالعمران مستأنف بعد خراب سابق، وبالطبع سيتبعه خراب

ولـم أرْتَضِ الـدنـيـا أوانَ مـجـيـئِـهـا   فَـكـيـفَ ارتِـضَـائِـيـهَـا أوانَ ذهـابِـهـا؟

لم أرتض (لم أرْضَ) الدنيا أوان مجيئها (عندما كنت شاباً) فكيف ارتضائي إياها وهي ذاهبة؟

١٧٢ البضاعة وصلت

قال لبعض ولد يزيد بن المهلب:

ولا مَجْدَ إلَّا حِينَ تُحْسِنُ عَائِداً،   وكُلُّ فَتَىً في النَّاسِ يُحْسِنُ بَادِيَا

المجد الحقيقي أن تكرر الإحسان، فكل إنسان يبدأ بالإحسان مرة،
المهم ألا يندم عليها وأن يكررها

ومَا لَكَ عُذْرٌ في تَأَخُّرِ حَاجَتِي   لَدَيْكَ، وقد أَرْسَلْتُ فِيها القَوَافِيا

ليس لك عذر الآن بعد أن مدحتك. يجب تسديد الحساب

١٧٣ ارتقاب المكروه

أَجِدَّكَ! مَا المَكْرُوهُ إلَّا ارتِقَابُهُ،   وأَبْرَحُ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ

واللَّهِ إن المكروه الحقيقي هو توقعه، وأبرح (أسوأ) مما حل حقاً ما يتوقع المرء حلوله. قال أحمد شوقي: (قد قال من علّمه اختبارُهْ/ السعيُ للموت ولا انتظارُهْ)

١٧٤ القبول بالحد الأدنى

يعاتب العلاء بن صاعد:

شَرْطِيَ الإنصافُ لو قيلَ: اشْتَرِطْ   وعَدُوِّي مَنْ إذا قالَ قَسَطْ

شرطي الإنصاف فقط ولا أريد زيادة، وعدوي من يقول قولاً ثم يقسط (يظلم)

أَدَعُ الفَضلَ فلا أَطْلُبُهُ   حَسْبِيَ العَدْلُ مِنَ النَّاسِ فقطْ

أنا أترك طلب الفضل (الزيادة فوق الحق) وأريد فقط العدل

وَسَطُ الإخْوَانِ لا يَدْخُلُ لِي   في حِسَابٍ، وأَخُو الدُّونِ الوَسَطْ

الوسط من الصحاب لا يدخل في حسابي، فالوسط هو أخو الدون (مثل المنحط)

والمُعَنَّى مَنْ تَمَنَّى خَالِياً   نَقْلَ أَخْلاقِيَ مِنْ بَعْدِ الشَّمَطْ

المعنّى (المتعَب) هو الذي يتمنى خالياً (بينه وبين نفسه) نقل أخلاقي (أن أغير طباعي) بعد الشمط (اختلاط بياض الشعر بسواده)

١٧٥ الحازم بالبديهة

إذا المَرْءُ لم تَبْدَهْكَ بِالحَزْمِ والحِجَا قَرِيحَتُهُ، لم تُغْنِ عنكَ تَجارِبُهْ

إذا المرء لم تبدهك (تطالعك فوراً) قريحته (بديهته) بالحزم والحجا (العقل) ـ أي أنه كان حازماً وعاقلاً على البديهة وبطبعه ـ فلا تغني عنه كثرة تجاربه

١٧٦ قسمة المدح والذم

يمدح عبدون بن مَخْلَدٍ، ويعتذر إليه:

حَارَبَتْنِي الأَيَّامُ، حتَّى لقد أَصْـ ـبَحَ حَرْبِي مَنْ كُنْتُ أَعْتَدُّ سِلْمِي

حربي (عدوي)، سلمي (مسالماً لي)

غَيرَ أَنِّي أُدَافِعُ الدهرَ عنِّي باحْتِقاري لِصَرْفِه المُسْتَذَمِّ

أدافع الدهر عني (أصد الزمن عني) باحتقاري لصرفه المستذم (لأحداثه المذمومة)

وحَديثي نَفْسِي بِأَنْ سَوْفَ أُكْفَى حَيْفَ قَاضِيَّ، واسْتِطَالةَ خَصْمي

وأصد الزمن بحديثي نفسي (بأن أقول لنفسي) أنني سوف أُكفَى حيْف قاضيَّ (سوف أجد ما يحميني من ظلم القاضي الذي يفصل بيني وبين خصمي)، واستطالة (استقواء) خصمي

إنْ أَخَسَّتْ تِلْكَ الحَقَائِقُ حَظِّي، أَجْزَلَتْ هذهِ الأَمَانِيُّ قِسْمي

إن أخست (قللت) الحقائق الواقعة حظي، فإن أمنياتي قد أجزلت (كثَّرت) قسمي (نصيبي)

وإذا مَا أَبَى الحَبِيبُ مُؤَاتَا تِي تَبَلَّغْتُ بِالخَيالِ المُلِمِّ

إذا رفض الحبيب مؤاتاتي (مطاوعتي) تبلغت (تصبرت بالقليل)،
والقليل هو خيال المحبوب الذي يزورني ليلاً

مِنْ عَطاءِ الإلَهِ بَلَّغْتُ نَفْسِي صَوْنَها، ثم مِنْ عَطاءِ ابْنِ عَمِّي

مما أعطاني الله وصلت بنفسي إلى صونها (حفظها)، وكذلك من عطاء ابن عمي (يقصد الممدوح)

كُلَّما قُلْتُ: أَيْبَسَ المَحْلُ أَرْضي، وَلِيَتْنِي غَمَامَةٌ مِنْهُ تَهْمي

كلما ظننت أن المحل (القحط) سيجعل أرضي يابسة، وليتني (لحقتني) غمامة منه تهمي (تهطل)

فَلَهُ مِنْ مَدائِحي حُكْمُهُ الأَوْ فَى، وَلِي مِنْ نَوَالِهِ الغَمْرِ حُكْمي

له من قصائد المدح حكمه الأوفى (بقدر ما يريد)، ولي من نواله الغمر (عطائه الكثير) ما أشاء

بِأَبي أنتَ عَاتِباً، وقَلِيلٌ لَكَ مِنِّي أَبي، فِدَاءً، وأُمِّي

بأبي أنت (أفديك بأبي) أيها العاتب علي، وقليل لك أن أفديك بأبي وبأمي أيضاً

لُمْتَنِي أَنْ رَمَيْتُ في غَيرِ مَرْمَىً؛ وعَزِيزٌ عَلَيَّ تَضْيِيعُ سَهْمِي

لمتني لأنني رميت بلا هدف (أي مدحت غيرك)؛ وفعلاً، عزيز علي تضييع سهمي سدى

إنْ أكُنْ حُبْتُ في سُؤَالِ بَخِيلٍ، فَبِكُرْهِي ذَاكَ السُّؤَالُ ورُغْمِي

إن كنت حبت (ظلمت نفسي) إذ سألت بخيلاً عطاءً، فإن ذلك كان بكرهي ورغمي (رغماً عني)

والذي حَطَّنِي إلى أنْ بَلَغْتُ الـ ـمَاءَ، مَا كانَ مِنْ تَرَفُّعِ هَمِّي

الذي حطني (أنزلني) حتى بلغت الماء واستطعت أن أشرب هو ترفع همي (علو طموحي)، فالطموح الكبير جعلني فقيراً ومحتاجاً إلى النزول لكي أنال ما أبل به رمقي

ثم حَالَتْ حَالٌ، تُكَلِّفُنِي قِسْـ ـمَةَ حَمْدِي، بينَ الرِّجَالِ، وذَمِّي

ثم تغيرت الأحوال فصرت أقسم مدحي وذمي بين الرجال، أمدح بعضهم وأهجو بعضهم

فَعَلامَ التَّثْرِيبُ واللَّوْمُ، إذْ عِلْـ ـمُكَ فِيما أقولُه مِثْلُ عِلْمِي؟

فعلام (على ماذا) التريب (اللوم) وأنت تعلم الحال مثلما أعلمها أنا

وكَأنَّ الإعْرَاضَ عَنِّي قَضَاءٌ فَاصِلٌ عَنْ ألِيَّةٍ مِنْكَ حَتْمِ

كأن إعراضك عني جاء بقضاء وقدر فاصل (صادر) عن ألية (قَسَم) منك محتوم

حِينَ لا مَلْجَأٌ سِوَاكَ أُرَجِّيـ ـهِ تَجَهَّمْتَنِي، ولَسْتَ بِجَهْمِ

حينما لم يعد لي ملجأ سواك أرجوه تجهمتني (كشرت في وجهي)، مع أنك لست كَشِراً

وإذا مَا سَخِطْتَ والمُخُّ رَارٌ، رَقَّ عَنْ أنْ يُطِيقَ سُخْطَكَ عَظْمِي

وإذا ما سخطتَ وغضبت والمخ رار (حشو العظم جاف ذاهب/كناية عن المحل والهزال جوعاً) فعندئذ سيكون عظمي أرق من أن يحتمل سخطك

١٧٧ زيارة قصيرة

يمدح أحمد بن علي الإسكافي:

دَعِ المَطِيَّ مُنَاخَاتٍ بِأرْحُلِها لم يُنْضَ عَنْهُنَّ تَصْدِيرٌ ولا حَقَبُ

اترك المطي (الإبل) مناخات (بارِكات) بأرحلها (بمتاعها من كسوة وحبال)، لم يُنْضَ عنهن (لم يُخلَع عن الإبل) تصدير (حبل يشد إلى صدر البعير) ولا حقب (حبلُ مؤخرة البعير)

فَمَا تزيدُ على إلْمامَةٍ خُلُسٍ بِأحْمدَ بنِ عليٍّ، ثم تَنْقَلِبُ

فأنت لن تزيد عن إلمامة خلس (زيارة خاطفة)، ثم تنقلب (ترجع) بعدها

قَضَاءَ حقٍّ، ومَا نَقضِي بِطَاقتِنا مِنْ ذلكَ الحقِّ، إلَّا بعضَ مَا يَجِبُ

نقضي الحق (الواجب)، ولسنا نقضي إلا بعض الواجب.. بحسب طاقتنا

١٧٨ اجعلها ألفاً

يعاتب بعض إخوانه ويستبطئه:

دَاعَبَنِي بِالمَطْلِ مُسْتَأْنِياً وَعَدَّهُ مِنْ فِعْلِهِ ظَرْفَا

داعبني بالمطل (المماطلة) مستأنياً (طالباً مني التمهل)، وهو يعد ذلك ظرفاً منه. مثل الذي تطلب منه حاجة فيمازحك ويقول لك: خلها للغد، ويضحك ويمرح لأنه يملك تنفيذها ولكنه يداعبك ويتظارف عليك. ستجد أمثال هؤلاء الناس في كل مكان، وهم في الطبقة الوسطى بين اللئام والكرام، والحر يراهم أثقل على صدره من اللئام

قد كُنْتَ مِنْ أبعَدِهِمْ هِمَّةً عندي، ومِنْ أَجْوَدِهِمْ كَفَّا

كنت أعتبرك أكبر الناس همة (قدراً) وأجودهم

المِئَةُ الدِّينَارُ مَنْسِيَّةٌ في عِدَةٍ أَشْبَعْتَهَا خُلْفَا

المئة الدينار منسية، وهذا وعد أشبعته إخلافاً

إنْ كنتَ لا تَنْوِي نَجَاحاً لها فكيف لا تَجْعَلُها ألْفا؟

إن كنت لا تنوي نجاحاً (تحقيقاً) للمئة الدينار، فليكن وعدك لي بألف دينار

هَلْ لَكَ في الصُّلْحِ، فَأُعْفِيكَ مِنْ نِصْفٍ وتَسْتَأْنِفَ لي نِصْفَا؟

هل لك في حل بيننا؟ ادفع لي نصف المئة فقط وأنا راضٍ. لمن يسأل عن نصب (وتستأنفَ): على العطف على محل (فأعفيكَ)، التي وجب انتصابها بفاء السببية، ولكن أبا عبادة أعفاها من الفتحة ضرورة. وعدم تحلية المضارع اليائي أو الواوي بفتحة عندما يكون في محل نصب شنشنة وجدناها عند أبي تمام والمتنبي والبحتري وعند أحمد شوقي في مواضع قليلة. وهي ليست نادرة في شعر الأقدمين. أما عند المعاصرين فحدث ولا حرج. انظر في مختاراتنا هذه بيت السينية ففيه واو يبدو غير ذات فتحة (يتظنى من الكآبة أن يبـ/ـدوُ لعيني مصبح أو ممسي) (القصيدة ١٨٥)

أو تَتْرُكَ الوُدَّ على حالِهِ وتَسْتَوِي أقدَامُنا صَفَّا

أو حل آخر: نبقي الود على حاله بيننا، ولكننا نصبح نِدَّيْن متساويين، فلا أحد متفضل على الآخر. ولمن يفكر في إدانتنا لأننا نختار مثل هذا الشعر الذي فيه مقايضة ومتاجرة بالشعر نقول: ويحك، هذه المعاتبات والمتاجرات أثمن من قصائد المدح الفخيمة العظيمة. ههنا تبرز النفوس، وههنا نرى طمع الشاعر وضيقه، وحرصه على نصف كرامته، فهو قد فقد نصفها على باب الممدوح، ويحاول أن يقبض ثمن النصف الباقي. هذه عواطف ومخاوف ومطامع ومواجع بشرية. وما الشعر إن لم يكُنْها؟

١٧٩ القوافي قوارير الأمجاد

يمدح محمد بن العباس الكلابي:

عَجِبْتُ لِحَيْرَتي وضَلالِ رَأْيي؛ وكنتُ أُرادُ للرَّأْيِ الرَّشيدِ

عجبت لضلالي، وكنت في الماضي أُطلَب لكي أزود الناس بالرأي السديد

ومِنْ قَصْدي لِرَأْسِ العينِ أَسْعَى إلى حَظِرٍ بِعَقْوَتِها زَهِيدِ

وعجبت من ذهابي لبلدة «رأس العين» ساعياً للحظِر (شجر شائك) بعقوتها (بساحتها) زهيد (قليل النفع). ورأس العين قرية في الطريق بين منبج والموصل، وهي الآن في شمال سوريا على الحدود مع تركيا

وبعضُ السَّعْيِ لِلْمُرتَادِ حَيْنٌ وبَعْضُ الصُّنْعِ في بَعضِ القُعُودِ

بعض السعي يكون من الحين (الموت)، وبعض الصنع (الرشاد) يكون في المكوث في المكان

غُلِبْتُ على الصَّوَابِ، وصَفَّدَتْني ضَرُوراتُ المطامِعِ والجُدُودِ

صفدتني (قيدتني)، الجدود (الحظوظ)

وما تَرْكي لِمَنْبِجَ واختِياري لِرَأْسِ العَيْنِ فِعْلٌ مِنْ مُرِيدِ

لم يكن تركي لمنبج وذهابي لرأس العين بإرادتي

ومَا الخَابُورُ لي بَدَلاً رَضِيّاً مِنَ السَّاجُورِ، لو فُكَّتْ قُيودِي

الخابور (نهر يمر برأس العين)، الساجور (نهر بمنبج)

أَلا إِنَّ ابنَ عَبَّاسٍ حَبَاني بِنُعْمى أَظْهَرَتْ بُؤْسَى حَسُودِي

الممدوح ابن عباس حباني (منحني) بنعمى أبرزت بؤسى (حزن) حسودي

مَنَاقِبُ لا يَزالُ الشِّعْرُ فيها طَوالَ الدَّهْرِ في شُغْلٍ جَديدِ

له مناقب (مزايا) يظل الشعر مشتغلاً في وصفها طول الزمن

وأَلْفَيْتُ القَوافِيَ كالأَوَاخي ضَمِنَّ غَوابِرَ الشَّرَفِ التَّليدِ

وقد وجدتُ القوافي (القصائد) كالأواخي (الذمم) تضمن بقاء غوابر الشرف (ما سلف من مجد) التليد (الموروث) وتجعله يستمر مذكوراً

تُضَيَّعُ في الحَدِيثِ على أناسٍ إذا قَدُمَتْ، وتُحْفَظُ في النَّشِيدِ

غوابر الشرف هذه تتلاشى في الحديث (في الكلام المنثور) بالتقادم ويفقدها الورثة، ولكن النشيد (الشعر) يحفظها

وَلَـمْ يَـدْخَـرْ لأُسْـرَتِـهِ كَـرِيـمٌ   عَـتـاداً مِـثْـلَ قـافِـيَـةٍ شَـرُودِ

لم يدَّخِر الكريم لأسرته من عتاد مثل قافية شرود (قصيدة سائرة ومشتهرة)

أبـا مُـوسـى! ومَـا بِـكَ مِـنْ نُـبُـوٍّ   عَـنِ الـحـقِّ الـمُـلِـمِّ، ولا جُـمُـودِ

يا أبا موسى! وليس بك نبو (ابتعاد) عن الحق الملم (الذي جاء وقت إحقاقه) ولا جمود (إهمال)

فـأيْـنَ بِـحَـاجَـتـي عَـنْ وَشْـكِ نُـجْـحٍ   وقـد أَوْشَـكْـتَ حـاجَـاتِ الـوُفُـودِ؟

فأين وشك النجح (سرعة التنفيذ) عن حاجتي؟، وأنت قد أوشكتَ (سارعت بتلبية) حاجات الوفود (الوافدين عليك)

يُـدَافِـعُ (مُـسْـلِـمٌ) عَـنْـهـا، ويَـكْـنـي   عَـنِ الإِقْـرَارِ فـيـهـا، بِـالـجُـحُـودِ

ووكيلك «مسلم» يصدني عن نيل حاجتي، ويكني (يلمح تلميحاً) عن الإقرار فيها (بدلاً من الإقرار بشأنها) بالجحود (بنكرانها). فالوكيل يلمح بالنكران تلميحاً

يُـحِـيـلُ عـلـى سَـعِـيـدٍ؛ واعْـتِـمَـادِي   عـلـى مِـئَـتَـيْـكَ لا مِـئَـتَـيْ سَـعِـيـدِ

وهو يحيلني على أخيك سعيد، وأنا معتمد على مئتي الدينار التي وعدتني بها أنت لا التي وعدني بها سعيد

١٨٠ عافى الله من عافى

يمدح أبا جعفر الطائي:

تَصْدُقُنا المَنْعَ سُعْدَى حينَ نَسْأَلُها   نَـيْـلاً، وتَـكْـذِبُـنـا بَـذلاً وإِسْـعَـافـا

حيت تمنعنا من الوصل تكون سعدى صادقة، وحين تتكلم عن البذل والإسعاف تكذب

قَضَى لنا اللَّهُ بَلْوَى في نَواظِرِها   تَقْضِي علَيْنا، وعَافَى اللَّهُ مَنْ عَافى

قضى علينا الله أن نُبتلى ببلوى تقضي علينا، والبلوى موجودة في عينيها الجميلتين. وعافى الله بعض الناس ممن لم يلاقوها، أو لم يقعوا في أسرها

١٨١ الطريق الطريق

يمازح علي بن جبير التميمي من أهل رأس العين:

زائـرٌ زَارَنـيِ، لِـيَـسْـأَلَ عـن حَـا   لِي، كَما يَسْأَلُ الصَّديقُ الصَّديقا

كيف حَالِي، وقد غَدا ابْنُ جُبَيْرٍ   لِيَ، دُونَ الجِيرانِ، جَاراً لَصِيقا؟

غـادِيـاً رائِـحـاً عَـلَـيَّ، فَـمَـا يَـتْـ   ـرُكُـنـي أَنْ أُرِيـحَ، أَوْ أَنْ أُفِـيـقـا

يَقْتَضِينِي الغَدَاءَ، والشَّمْسُ لم تَبْـ ـزُغْ طُلوعاً، ولم تَبَلَّجْ شُروقا

يقتضيني (يطالبني بـ)

مِعْدَةٌ أَوَّلِيَّةٌ كَرَحَى البُرِّ ـ تُلَقَّى حَبّاً، وتُلْقِي دَقِيقا

معدته أولية (لعل معناها: شديدة، ولعل فيها تصحيفاً) مثل مطحنة القمح، تلقّى (تلقّم) الحب وتلقيه طحيناً

ويَدٌ لا تَزالُ تَرْمي بِأَحْجَا رٍ مِنَ اللَّقْمِ تُعْجِزُ المَنْجَنِيقا

ويده ترمي في فمه باللقم التي يعجز عن حجمها المنجنيق

صَاحَ بُلْعُومُهُ، فَخِلْنَا المُنادِي صاحَ في حَلْقِه: الطَّريقَ الطَّريقَا

وهو يأكل تجشأ من حلقه فظننا منادي الزعيم يصيح أمام موكبه: الطريق الطريق (افتحوا الطريق)

وكَأَنَّ الفَتى يَطُمُّ رَكَايَا قد تَهَوَّرْنَ، أو يَسُدُّ بُثُوقَا

كأنه إذ يأكل يطم (يردم) ركايا (آباراً)، مهدومة، أو يسد بثوقاً (انهدامات في الأرض)

وإذا جِيءَ بِالخِوَانِ تَخَوَّفْـ ـتُ وأَشْفَقْتُ أنْ يَموتَ خَنِيقا

إذا حضر الخوان (السفرة) خفتُ عليه أن يموت اختناقاً لشدة أكله. تعليق أحمد عبد الرحيم: «قطعة رديئة جداً»

١٨٢ العيش المؤبد

يمدح صاعد بن مَخْلد وابنه أبا عيسى:

عَيْشٌ لَنا (بِالأَبْرَقَيْنِ)، تَأَبَّدَتْ أَيَّامُهُ، وتَجَدَّدَتْ ذِكْرَاهُ

تأبدت (خلدت)

والعَيْشُ مَا فَارَقْتَه فَذَكَرْتَهُ لَهَفاً، ولَيْسَ العَيْشُ مَا تَنْسَاهُ

١٨٣ يا علوَ لو شئتِ

يا عَلْوَ لو شِئْتِ أَبْدَلْتِ الصُّدُودَ لنا وَصْلاً، ولانَ لِصَبٍّ قلبُكِ القَاسي

علو (علوة الحلبية حبيبته)

أَمُدُّ كَفِّي لأَخْذِ الكَأْسِ مِنْ رَشَإٍ وحَاجَتِي كُلُّهَا في حَامِلِ الكَاسِ

رشإ (غزال). التسويد لأحمد عبد الرحيم

بِبَرْدِ أَنْفَاسِهِ أَشْفِي الغَلِيلَ إذا دَنَا فَقَرَّبَهَا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

الغليل (العطش)

١٨٤ قتل القتيل

يمدح أبا عيسى العلاء بن صاعد:

أَقـولُ: أَزِيـدَ مِـنْ سُـقْـمٍ فُـؤادِي؟ وهـل يَـزْدادُ مِـنْ قَـتْـلٍ قَـتـيـلُ؟

هل زيد (ازداد) قلبي من السقم؟ هذا مستحيل فقد وصل غاية السقم، وهل يزداد القتيل من القتل؟

لـنـا فـي كُـلِّ دَهْـرٍ أَصْـدِقـاءٌ تَـعُـودُ عِـدىً، وحَـالاتٌ تَـحُـولُ

تحول (تتحول)

ومَا فُقِدَ الجَمِيلُ لِقُرْبِ عَهْدٍ فَنَسْأَلَ عنهُ، بَلْ نُسِيَ الجَمِيلُ

ويَـلْـؤُمُ سائلُ البُخلاءِ، حِرْصـاً وإشْـفَـاقـاً، كَـمَـا لَـؤُمَ الـبـخـيـلُ

الذي يطلب المال من البخلاء لئيم مثلهم فهو حريص على العطية مشفق من الحرمان منها

١٨٥ وصف إيوان كسرى

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي وتَـرَفَّـعْـتُ عَـنْ جَـدَا كُـلِّ جِـبْـسِ

صنت نفسي عما يدنسها، وترفعت عن جدا (عطاء) كل جبس (لئيم)

وتَمَاسَكْتُ، حِينَ زَعْزَعَنِي الدهْـ ـرُ التِمَاسَاً مِنْهُ لِتَعْسِي، ونُكْسِي

وتماسكت عندما زعزعني الدهر (عصف بي) التماساً منه (سعياً منه) لتعسي ونكسي (إضعافي)

بُلَغٌ مِنْ صُبَابَةِ العَيْشِ عِنْدِي، طَفَّفَتْهـا الأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسِ

كانت عندي بلغ (بقايا) من صبابة العيش (من قليل المال)، طففتها الأيام (بددها الزمن) تطفيف بخس (إنقاص)

وبَـعِـيـدٌ مَـا بَـيْـنَ وَارِدِ رِفْـهٍ، عَـلَـلٍ شُـرْبُـهُ، وَوَارِدِ خِـمْـسِ

الفرق كبير بين بعير يرد الماء ليشرب وورود رفه (يرد في أي وقت يشاء) ويكون شربه عللاً (مضاعفاً)، وبين وارد خِمس (وارد الماء في اليوم الخامس بعد عطش أربعة أيام)

وكَـأَنَّ الـزمـانَ أَصْـبَـحَ مَـحْـمُـو لاً هَـواهُ مَـعَ الأَخَـسِّ الأَخَـسِّ

صار ميل الزمان باتجاه أخس الناس. تخير القاضي عبد القاهر الجرجاني من أشعار البحتري ما مقداره خمسون صفحة، (ضمن طرائف الميمني ٢ في طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)، ولم يعجبه في هذه القصيدة سوى هذا البيت. وأما ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقد أتى على أبياتها، رغم أن ترجمته للبحتري جاءت في خمس صفحات فقط

واشْتِرائي العِرَاقَ خُطَّةُ غَبْنٍ، بَعْدَ بَيْعي الشَّآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ

شرائي العراق (ذهابي إليه) خطة غبن (أمر غلبت فيه) بعد بيعي الشام (مفارقتي الشام) بيعة وكس (بيع خسارة). فهو خسر عندما باع الشام وخسر عندما اشترى العراق

لا تَرُزْنِي مُزَاوِلاً لاخْتِبَارِي، عِنْدَ هَذِي البَلْوَى، فَتُنْكِرَ مَسِّي

لا ترزني (تتفحصني، كما يروز المرء شيئاً بيده ليقدر وزنه) مزاولاً (ساعياً) لاختبار أحوالي في وقت البلاء هذا، فإنك إذّاك ستنكر مسي (ملمسي)

وقَدِيمَاً عَهِدْتَنِي ذَا هَنَاتٍ، آبِيَاتٍ، عَلَى الدَّنِيَّاتِ، شُمْسِ

وكنتَ تعهدني في الماضي صاحب هَنات (مزايا) آبيات على الدنيات (رافضات للقليل الخسيس)، شُمْس (متمردة)

ولَقَدْ رَابَنِي نُبُوُّ ابْنِ عَمِّي، بَعْدَ لِينٍ مِنْ جَانِبَيْهِ، وأُنْسِ

رابني (شكّكني) نبو (تغير مشاعر) ابن عمي بعد أن كان جانبه ليناً، وكان يأتنس بي (ربما قصد «بابن عمه» عبدون بن مخلد. وقد وصفه في قصيدة أخرى على النون بابن عمه)

وإذا مَا جُفِيتُ كُنْتُ حَرِيَّاً أَنْ أُرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي

إذا ما جفيت (أحسست بالجفاء والتجهم لي) كنت حرياً (جديراً) أن لا أبيتَ في المكان نفسه، بل أنصرف فوراً

حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمُومُ، فَوَجَّهْـ ـتُ إلى أَبْيَضِ المَدائِنِ عَنْسِي

حضرت رحليَ الهمومُ (أسرعت الهمومُ ركضاً وحُضراً بمتاعي)، فوجهت عنسي (إبلي) إلى أبيض المدائن (القصر الأبيض في المدائن قرب بغداد)

أَتَسَلَّى عَنِ الحُظُوظِ، وآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ، دَرْسِ

أتسلى عن حظي الرديء، وآسى (أتعظ) بمحل لآل ساسان الفرس درْسٍ (خَرِب)

ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي، ولقد تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسِي

ذكرتني بهم المصائب المتتالية؛ وقد تذكرنا الخطوب لكنها أيضاً قد تنسينا

وَهُمُ خَافِضُونَ في ظِلِّ عَالٍ، مُشْرِفٍ يُحْسِرُ العُيُونَ، ويُخْسِي

تذكرتهم إذ هم خافضون (متنعمون) في ظل قصر عالٍ، مشرف (مرتفع) يحسر العيون (يتعب النظر لعلوِّه)، ويخسي (يخسيء البصر: يتعبه)

مُغْلَقٍ بَابُهُ على جَبَلِ (القَبْـ ـقِ)، إلى دَارَتَيْ (خِلاطٍ) و(مَكْسِ)

باب هذا القصر مغلق على جبل القبق (أي كأنه يضم داخله جبل القبق الكبير)، إلى (أي إضافة إلى) دارتي «خلاط ومكس» (فهو عال ضخم، وواسع أيضاً كأن في جوفه كل تلك المناطق)

حِلَلٌ، لم تَكُنْ كَأَطْلالِ سُعْدَى   في قِفَارٍ مِنَ البَسَابِسِ، مُلْسِ

حلل (أماكن) لم تكن (ليست) مثل أطلال سعدى (اسم بدوي لفتاة) في البسابس المقفرة الملساء (الصحارى الجرداء)

ومَسَاعٍ، لَوْلا المُحَابَاةُ مِنِّي،   لم تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عَنْسٍ وعَبْسِ

ومساع (أمجاد) عظيمة للفرس؛ ولولا المحاباة من جانبي لقلت إن مسعاة (مفاخر) قبيلتي عنس وعبس لا تقارن بها

نَقَلَ الدهرُ عَهْدَهُنَّ عَنِ الجِدَّ ـ   ةِ، حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لَبْسِ

هذه الأمجاد نقل الزمن عهدهن عن الجدة (صارت قديمة)،
حتى غدون (أصبحن) أنضاء لبس (نياقاً مهزولة في الظلام). يشبه الإنجازات المادية للفرس (قصر كسرى بعد خرابه) بنياق مهزولة لكثرة سيرها لدى رؤيتك إياها عند اللَّبْس (اختلاط الظلام)

فَكَأَنَّ (الجِرْمَازَ)، مِنْ عَدَمِ الإنْـ   ـسِ وإِخْلاقِهِ، بَنِيَّةُ رَمْسِ

كأن الجرماز (اسم أطلقه القدماء على ذلك الأثر فيما يبدو) من عدم الإنس (عدم وجود البشر)، ومن إخلاقه (خرابه) بنية رمس (بناء قبر). الجرماز: يقول الصيرفي محقق ديوان البحتري، ويتابعه إحسان عباس في تحقيقه لمعجم الأدباء لياقوت، إن كرمازي بالفارسية تعني القصر، والصيرفي ينقلها عن القدماء. ويقول معجم لغت نامه دهخدا (أوسع معاجم اللغة الفارسية) إن الجرماز مبنى كان موجوداً بجانب الإيوان ولم يبق منه شيء. ويحيلنا المعجم الفارسي (وراجَعَهُ لي مشكوراً الصديق الإيراني حسين شهيدي ـ إضافة لاحقة في يوليو تموز ٢٠١٦: توفي الصديق حسين في أبريل/نيسان ٢٠١٤ ـ) إلى معجم البلدان وإلى تاج العروس، فتأملْ!

لو تَرَاهُ عَلِمْتَ أنَّ اللَّيَالي   جَعَلَتْ فيهِ مَأْتَماً، بَعدَ عُرْسِ

كأن الليالي (الزمن) جعلت فيه مأتماً بعد أن كان بهيجاً كأن فيه عرساً

وَهْوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ،   لا يُشَابُ البَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ

ولكنه مع ذلك ينبيك (يخبرك) عن عجائب قوم لا يشاب (يختلط) البيان (القول) في شأنهم بأي التباس، فعظمتهم لا شك فيها

فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا   كِيَّةَ، ارْتَعْتَ بَينَ رُومٍ وفُرْسِ

فإذا رأيت صورة مرسومة على الجدار للحرب في أنطاكية ارتعت
(أحسست بخوف) وأنت ترى جنود الروم والفرس. وتلك حرب بين الإمبراطوريتين
وقعت قبل الإسلام بنحو سبعين سنة

والـمَـنَـايَـا مَـوَاثِـلٌ، وأَنُـوشِـرْ   وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ، تَحْتَ الدِّرَفْسِ

وترى المنايا (الموت) مواثل (حاضرات)، وترى كسرى أنوشروان يزجي (يرسل) صفوف العسكر وهو تحت الدرفس (الراية الضخمة). أنوشروان (وتعني الروح الخالد) أعظم ملوك الأسرة الساسانية/وهو كسرى الأول العادل الذي روى العرب الكثير من قصص عدله وحكمته، وقد حكم أقل بقليل من خمسين سنة، بدأها بما سمي الصلح الدائم مع الرومان، وختمها بمساع للصلح معهم، وفيما بين الصلحين أنهك الطرفان قواهما حرباً وضرباً، كما يصف البحتري. قال أحمد شوقي في مقدمة نثرية لقصيدته التي يعارض بها هذه البحترية إن هذا البيت قد انعقد الإجماع على أنه البديع الفرد من أبياتها، وساءله زكي مبارك في كتابه الموازنة: ومن هو الذي عقد هذا الإجماع؟

في اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلى أَصْـ   ـفَرَ، يَـخْـتَـالُ فـي صَـبِـيـغَـةِ وَرْسِ

تراه في لباس أخضر مصفر، يختال في صبيغة (لباس مصبوغ) ورس (نبات يستعمل للصبغ)

وعِـرَاكُ الـرِّجَـالِ بـيـنَ يَـدَيْـهِ،   في خُفُوتٍ مِنْهُمْ، وإِغْمَاضِ جَرْسِ

ويمثلُ لعينيك عراكُ الرجال بين يديه في خفوت منهم (بصمت)، وإغماض جرس (خفوت صوت)، ذلك أنك ترى اللوحة الجدارية فحسب. وهي صامتة «تماماً» بالطبع، ولكن البحتري لشدة انفعاله بها تخيل أن الصوت فيها.. خافت

مِنْ مُشِيحٍ، يُهْوِي بِعَامِلِ رُمْحٍ   ومُلِيحٍ، مِنَ السِّنَانِ، بِتُرْسِ

فهذا رجل مشيح (مقبل مائلاً جسمه مستقيماً رمحه) بعامل رمح (برأس رمح)، وذاك رجل مليح (ملوِّح) بترسه ليتقي به السنان (سن الرمح)

تَصِفُ العَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا   ءٍ، لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ

العين تراهم وكأنهم جد أحياء، ولكن يتكلمون بالإشارة، وهذا سبب انعدام الصوت

يَغْتَلي فِيهِمُ ارْتِيَابِيَ، حتَّى   تَتَقَرَّاهُمُ يَدَايَ بِلَمْسِ

يغتلي (يزداد) ارتيابي حتى تتقراهم (تَتَتَبَّعهم) يداي باللمس لأتأكد أنهم مجرد صور منقوشة نافرة

قد سَقَاني، ولم يُصَرِّدْ، أَبُو الغَوْ   ثِ، عَلَى العَسْكَرَيْنِ، شَرْبَةَ خَلْسِ

لقد سقاني ولم يصرد (يقلل) ابني أبو الغوث، وأنا أشاهد العسكرين، شربة خلس (شربة خمر سريعة)

مِنْ مُدَامٍ، تَقُولُها هِيَ نَجْمٌ   أَضْوَأَ اللَّيْلَ، أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسِ

سقاني من مُدام (خمر) تقولها (تحسبها) نجماً أضاء الليل، أو مجاجة (بصقة) من الشمس

وتَرَاهَا، إذا أَجَدَّتْ سُرُوراً   وارْتِيَاحاً لِلشَّارِبِ المُتَحَسِّي،

وترى الخمر إذا أجدت (جددت) السرور والارتياح لشاربها المتحسي (المتمزمز عليها)..

أُفْرِغَتْ في الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبِ   فَهْيَ مَحْبُوبَةٌ إلى كُلِّ نَفْسِ

.. تراها وكأنما هي عصارة قلوب الناس تم إفراغها في الكأس الزجاجية، ولذلك فكل قلب يحبها لأن فيها منه شيئاً

وتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى أَبَرْوِيـ   ـزَ مُعَاطِيَّ، والبَلَهْبَذَ أُنْسِي

لقد توهمت وأنا أشرب أن كسرى أبرويز (خسرو بيرويز بالفارسية، هو عظيم الفرس الذي كتب إليه النبي يدعوه إلى الإسلام) هو معاطيَّ (الشارب معي، يعطيني خمراً وأعطيه)، وتخيلت أن البلهبذ (مغنّي كسرى المشهور) أنسي (أنيسي)

حُلُمٌ مُطْبِقٌ على الشَّكِّ عَيْنِي،   أَمْ أَمَانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وحَدْسِي؟

أهذا حلم يجعل عيني تنطبقان على شك، أم هي أمنيات غيرن ظني وحدسي (جعلن تفكيري يختل)

وكَأَنَّ الإيوَانَ، مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ   ـعَةِ، جَوْبٌ في جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ

كأن الإيوان (المجلس، المفتوح بلا باب من جهة واحدة) بنقوشه والصنعة العجيبة التي فيه جوب (ترس) في جنب أرعن (جبل) جلس (راسخ) هو القصر نفسه

يُتَظَنَّى، مِنَ الكَآبَةِ، أَنْ يَبْـ   ـدُو لِعَيْنَيْ مُصَبِّحٍ، أَوْ مُمَسِّي،

يتظنى (يلوح) من كآبته، وهو يبدو لعيني الشخص في الصباح أو في المساء..

مُزْعَجاً بِالفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إلْفٍ   عَزَّ، أَوْ مُرْهَقاً بِتَطْلِيقِ عِرْسِ

.. يلوح وكأنه مزعَج بالفراق (مضطر للرحيل) عن أنس إلف (أليف، وليف) عزَّ (أصبح عزيزاً ممتنعاً)، أو كأنه مرهق (مكتئب) بعد طلاق عرس (زوجة)

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي، وبَاتَ الـ   ـمُشْتَرِي فيهِ، وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ

عكس الزمن حظه، فبات المشتري واقعاً فيه وهو كوكب نحس. (هذا اليوم الذي أدقق فيه الشرح، ٥ يوليو تموز ٢٠١٦، شهد حلول مركبة فضاء ـ «المسبار جونو» ـ في مدار حول كوكب المشتري.. نرجو ألَّا يلحقها نحسه المزعوم، وعند بعضهم أن المشتري كوكب سعد، وزحل عندهم كوكب نحس)

فَهْوَ يُبْدي تَجَلُّداً، وعَلَيْهِ   كَلْكَلٌ، مِنْ كَلاكِلِ الدهرِ، مُرْسِ

فالقصر يظهر تجلداً (صبراً) بينما يقعي فوقه كلكل (صدر) من كلاكل الدهر الراسية. وكانوا إذا أرادوا تصوير الهم الجاثم فوق القلب تخيلوا ناقة تقعد بصدرها فوق الإنسان. مؤكد أن الحداثيين سيعجبهم هذا البيت لما فيه من تشخيص. وهو حلو، فالبحتري يتكلم عن القصر وعن حظه التعس ويشفق عليه كأنه إنسان

لم يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيـ   ـبَاجِ، واسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ

لم يعبه (يلحق به العار) أنه بز (انتُزع) من بسط الديباج (الحرير)، واستل (انتُزع) من ستائر (الدمقس). وهل فرق بين أن يُنتزع القصر منها أو تُنتزع هي من القصر؟

مُشْمَخِرٌّ، تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ رُفِعَتْ في رُؤُوسِ (رَضْوَى) و(قُدْسِ)

فهو مشمخر (عالٍ) وتعلو شرفاته المرفوعة كأنها مبنية على رؤوس الجبال كجبل رضوى وجبل قدس

لابِسَاتٌ مِنَ البَيَاضِ، فَمَا تُبْـ ـصِرُ مِنْهـا إلَّا فَلائِلَ بُرْسِ

وشرفاته مرتدية اللون الأبيض، فلا ترى منها إلا فلائل برس (شلل قطن)

لَيْسَ يُدْرَى: أَصُنْعُ إِنْسٍ لِجِنٍّ سَكَنُوهُ، أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإنْسِ

لا تدري هل هو بناء بناه الإنس ليسكنه الجن (لوحشته وخلوه)، أم بناه الجن للبشر (لعظمته)، والجن فيما نقل من أخبار النبي سليمان بناءون مهرة

غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لم يَكُ بَانِيهِ، في المُلُوكِ، بِنِكْسِ

على كل حال فهو يشهد أن من بناه من الملوك لم يكن نكساً (ضعيفاً)

فَكَأَنِّي أَرَى المَرَازِبَ، والقَوْ مَ، إذا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي

إذ أنظر إلى المجلس أتخيل المرازب (قادة الفرس/المرزبان هو القائد الحدودي)، وأتخيل القوم (الناس العاديين) موجودين فعلاً، هذا عندما أصل بخيالي إلى آخر حسي (إلى الحد بين الحقيقة والوهم)

وكَأَنَّ الوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى، مِنْ وُقُوفٍ، خَلْفَ الزِّحَامِ، وخُنْسِ

كأنني أرى الوفود ضاحين (جالسين في الشمس قبل الدخول على كسرى) حسرى (كاشفي الرؤوس)، بعضهم واقفون خلف الزحام، وبعضهم خنس (بعيدون عن الجمع)

وكَأَنَّ القِيَانَ، وَسْطَ المَقَاصِيـ ـرِ، يُرَجِّحْنَ بينَ حُوٍّ ولُعْسِ

وكأني أرى القيان (المغنيات) وسط المقاصير (الغرف)، متأرجحات بين الحواء واللعساء (كلاهما بمعنى التي في شفتيها سُمرة)

وكَأَنَّ اللِّقَاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْـ ـسِ، وَوَشْكَ الفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ

وكأنه لقاء سريع مقتضب حدث قبل يومين وانتهى قبل يوم. نترك لأهل اللغة تفسير الفرق بين (أول من أمس) وبين (أول أمس)

وكَأَنَّ الذي يُرِيدُ اتِّبَاعاً طَامِعٌ في لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ

ولقرب عهدهم فكأن المتخلف عن ركبهم والذي يريد اللحاق طامع أن يلحق بركبهم بعد أربعة أيام ليصل صبح اليوم الخامس

عَمَرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْراً فَصَارَتْ لِلتَّعَزِّي، رِبَاعُهُمْ، والتَّأَسِّي

رباعهم (ديارهم) كانت عامرة ملأى بالسرور دهراً ثم صارت مكاناً للتعزي (ليعزي المرء نفسه عن ظلم حاق به) والتأسي (الاتعاظ)

فَـلَـهَـا أَنْ أُعِـيـنَـهـا بِـدُمُـوعٍ   مُـوقَـفَـاتٍ عـلى الـصَّـبَـابَـةِ حُـبْـسِ

لهذه الديار عليَّ عهدٌ أن أساعدها بدموع عيني الموقفات (المكرسات) الحبس (المخصصات) للصبابة (للشوق)

ذاكَ عِـنْـدِي، ولـيـسَـتِ الـدَّارُ دَارِي   بِـاقْـتِـرابٍ مِـنْـها، ولا الجِـنْـسُ جِـنْـسِـي

هذا شأني والموطن ليس موطني (فموطني الشام غير قريب منها)،
ولا الجنس جنسي (فهم فرس وأنا عربي)

غـيـرَ نُـعْـمَـى لأهْـلِـهـا عـنـدَ أَهْـلِـي   غَـرَسُـوا مِـنْ ذَكـائِـهَـا خَـيْـرَ غَـرْسِ

سوى النعمى (المساعدة) التي قدمها أهل هذه الدار لأهلي، فقد غرسوا من ذكائها (بركتها) أطيب غرس. والمساعدة المذكورة هي إمداد الفرس أهلَ اليمن بالعسكر لصد الاحتلال الحبشي الذي استمر سبعين سنة، والعون الفارسي الذي استجلبه سيف بن ذي يزن كان قبل الإسلام بنحو خمسين سنة. والبحتري من قبيلة طيء اليمانية الأصل

أَيَّـدُوا مُـلْـكَـنَـا، وشَـدُّوا قُـوَاهُ   بِـكُـمَـاةٍ، تَـحْـتَ الـسَّـنَـوَّرِ، حُـمْـسِ

أيَّد الفرس مُلك أهل اليمن بكماة (مسلحين) تحت السنوَّر (العتاد)، حمس (أشداء)

وأَعَـانُـوا عـلـى كَـتَـائِـبِ (أَرْيَـا   طَ) بِـطَـعْـنٍ عـلى الـنُّـحُـورِ، ودَعْـسِ

وأعانونا على كتائب القائد الحبشي أرياط، وذلك بحرب كان فيها طعن في النحور (أعالي الصدور) ودعس (طعن بالمداعس أي الرماح الغليظة).

وأَرَانِـي، مِـنْ بَـعْـدُ، أَكْـلَـفُ بِـالأَشْـ   ـرَافِ طُـرًّا، مِـنْ كُـلِّ سِـنْـخٍ وَأُسِّ

وإني لأرى نفسي أكلف (أُغرم) بالأشراف طُرًّا (جميعاً) من كل سنخ (جنس) وأس (أصل)

١٨٦ بيت مالي في لساني

يمدح أبا العباس بن ثوابة:

لا تَـخَـفْ عَـيْـلَـتِـي، وتِـلْـكَ الـقَـوافِـي   بَـيْـتُ مَـالٍ مَـا إِنْ أَخَـافُ ذَهَـابَـهْ

لا تخف عيلتي (افتقاري) فالشعر بيت مال لديَّ لا يفنى

قـد مَـدَحْـنَـا إِيـوَانَ كِـسْـرَى، وجِـئْـنـا   نَـسْـتَـثِـيـبُ الـنُّـعْـمَـى مِـنَ ابْـنِ ثَـوَابَـهْ

المدح كان لقصر كسرى، وجئنا لابن ثوابة نستثيب النعمى (نأخذ ثواباً على ما قدمنا من المدح).
قالها بعد أن كان وصف إيوان كسرى بقصيدة ليس في الدنيا أحلى منها
(القصيدة السابقة مباشرة، رقم ١٨٥)

وإذا مَــا أَلَــطَّ بِــالــحــقِّ قَــوْمٌ   فَـمِـنَ الـحَـقِّ أنْ تَـنُـوبَ الـقَـرَابَـهْ

وإذا ما ألط بالحق بعضهم (منعوه)، فجدير بأقاربهم أن ينوبوا عنهم. وآل ثوابة من الفرس، فعليهم إذن أن يدفعوا ثمن مديح إيوان كسرى. حلوة هذه منك يا أبا عبادة، كنا امتدحنا كثيراً قولك تلك القصيدة البديعة التي ليس فيها شيء من المديح، فها أنت تطلب لها ثمناً. «يظل ذيل الكلب أعوج ولو وضعوه في سبعين قالباً» قولةَ عمة أبي

١٨٧ عبادة العباد

يعاتب العلاء بن صاعد:

مَـلَّـنَـا، أَمْ نَـبَـا بِـنـا، أَمْ جَـفَـانـا   أَمْ قَـلانَـا، فَـاعْـتَـاضَ مِـنَّـا سِـوَانـا؟

سَاخِطٌ، نَبْتَغي رِضَاهُ، ولا يَسْـ   ـأَلُ عَنْ سُخْطِنَا، ولا عَنْ رِضَانا

مـا لَـنَـا نَـعْـبُـدُ الـعِـبَـادَ، إذا كـا   نَ إلـى الـلَّـهِ فَـقْـرُنَـا وغِـنَـانـا؟

١٨٨ أواخر الشهوات

يمدح أبا العباس بن بسطام:

مَغَاني سُلَيْمَى بِالعَقِيقِ ودُورُهَا   أَجَدَّ الشَّجَى إخْلاقُهَا ودُثُورُهَا

مغاني (ربوع) سليمى ودورها في «العقيق» أجد (جدد) الشجى (الحزن) إخلاقها (خرابها) ودثورها (اندثارها)

وأَلحَقَني بِالشَّيْبِ في عُقْرِ دَارِهِ   مَنَاقِلُ في عُرْضِ الشَّبَابِ أَسِيرُها

وجعلني ألحق بالشيب في عقر داره (أي أشيب تماماً)، مناقل (مراحل) سرتها في عرض الشباب (وسطه)

مَضَتْ في سَوَادِ الرَّأْسِ أُولَى بَطَالَتي   فَدَعْني يُصَاحِبْ وَخْطَ شَيْبِي أَخِيرُها

مضت مرحلة بطالتي (استهتاري) الأولى أيام كان الشَّعر أسود، فدعني لأقضي أواخر أيام الاستهتار في وقتِ وَخَطَ (أسرع) الشيبُ فيه في رأسي

ومَا صَرَعَتْني الكَأْسُ حتى أَعَانَها   عَلَيَّ بِعَيْنَيْهِ الغَدَاةَ مُدِيرُها

ما صرعتني الكأس (ألقتني أرضاً) إلا بعد أن ساعدها عليَّ مديرها (ساقيها الذي يدور بها على الشاربين) بنظرات عينيه

لقد كُوثِرَتْ مِنْكَ القَوافي بِمُنْعِمٍ   يُكَايِلُها، حتى يَقِلَّ كَثيرُها

لقد كوثرت (غُلبت) القوافي (القصائد) من جانبك فأنت منعم عليَّ يكيل لي العطايا مقابل القصائد حتى تبدو القصائد قليلة بجنب العطاء

أُحِبُّ انتظاراتِ المَواعِدِ؛ والتي تَجِيءُ اختلاساً لا يدومُ سُرورُها

أحب انتظار الوعد بالعطاء. فانتظار الأعطيات حلو. وأما العطاء الذي يأتي اختلاساً (فجأة) فلا يكون السرور به طويلاً

وإنَّ جِمَامَ الماءِ يَزْدَادُ نَفْعُها إذا صَكَّ أسماعَ العِطاشِ خَرِيرُها

وجمام الماء (دفقاته الكثيرة) يزيد نفعها عندما يسمع العطاش لها خريراً قبل الشرب

١٨٩ دنياوان

يرثي أبا عيسى العلاء بن صاعد:

أُخَيَّ! مَتَى خَاصَمْتَ نَفْسَكَ فَاحْتَشِدْ لَها، ومَتَى حَدَّثْتَ نَفْسَكَ فاصْدُقِ

يا أخي إذا شددت الحساب على نفسك فاحشد لهذا التشديد كل قوتك، وكن صادقاً مع نفسك

أَرَى عِلَلَ الأَشياءِ شَتَّى، ولا أَرَى التَّـ ـجَمُّعَ إلَّا عِلَّةً لِلتَّفَرُّقِ

أرى علل (أسباب) الأحداث شتى (متفرقة)، وأرى التئام الشمل بحد ذاته سبباً للتفرق (كأن يقول المرء إن الصحة هي سبب المرض)

أَرَى العَيْشَ ظِلّاً تُوشِكُ الشَّمْسُ نَقْلَهُ فَكِسْ في ابْتِغَاءِ العيشِ كَيْسَكَ، أَوْ مُقِ

أرى العيش مؤقتاً وغير حقيقي مثل الظل الذي توشك الشمس بحركتها أن تنقله وتذهب به، فكس (كن كيّساً حكيماً في طلب الرزق) بما أوتيت من حكمة، أو مق (كن مائقاً أحمق) فلا فرق، فالعيش كله ظل زائل

أَرَى الدهرَ غُولاً لِلنُّفُوسِ، وإنَّما يَقِي اللَّهُ في بَعْضِ المَواطِنِ مَنْ يَقِي

فلا تُتْبِعِ المَاضِيَ سُؤالَكَ لِمْ مَضَى؟ وعَرِّجْ على البَاقِي فَسائِلْهُ: لِمْ بَقِي؟

لا تسأل عن الشخص الماضي (الذاهب الميت) لِمْ (لِمَ) ذهب، فهذا هو الطبيعي، بل اسأل الباقي لمَ بقي

ولم أَرَ كَالدُّنيا حَلِيلَةَ وَامِقٍ مُحِبٍّ، متى تَحْسُنْ بِعَيْنَيْهِ تَطْلُقِ

لم أرَ مثل الدنيا حليلة وامق (زوجة رجل محب لها)، عندما يراها جميلة في عينيه يقع بينهما الطلاق

تَراها عِيَاناً، وَهْيَ صَنْعَةُ واحدٍ، فَتَحْسَبُها صُنْعَيْ لَطِيفٍ وأَخْرَقِ

إنك لترى الدنيا بعينيك، وهي خلق الله الواحد، فتحسبها ـ لتبدل أحوالها ـ مِنْ خَلْقِ اثنين أحدهما لطيف (متقِن)، والآخر أخرق (مهمل). هاج العامة على البحتري بسبب هذا البيت عندما فسره لهم بعض أعداء البحتري بأنه ينم عن إيمان البحتري بالثنوية، دين ماني نبي الفرس القديم، فاضطر إلى ترك بغداد، والرجوع إلى بلده منبج. هاك ما أورده المرزباني على لسان أبي الغوث ابن البحتري: «كان أبي قد قال في قصيدته التي رثا فيها أبا عيسى بن صاعد أبياتاً وجد بها بعض أعدائه عليه مقالاً فشنع عليه أنه ثنوي ودارت في الناس. وكانت العامة حينئذٍ غالبة ببغداد، فخافهم على نفسه، فقال لي: قم بنا يا بني حتى نطفئ عنا هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا، ونعود، قال: فخرجنا وأقام فلم يعد.» اهـ المرزباني

١٩٠ آخر زمن

يمدح إسماعيل بن بلبل، وكتب بها إلى المبرِّد:

مَضَى جَعْفَرٌ والفَتْحُ، بَيْنَ مُرَمَّلٍ وبين ضَجِيعٍ بِالدِّمَاءِ مُضَرَّجِ

رحل جعفر المتوكل (الخليفة المقتول)، والفتح بن خاقان (وزيره الذي قتل معه)، بين مرمل (معفر) وبين ضجيع (مطروح أرضاً) مضرج بدمه

أَأَطْلُبُ (أَنْصَاراً) على الدَّهرِ، بَعدَمَا ثَوَى مِنْهُما في الدهر أَوْسِي وخَزْرَجي

فهل أطلب «أنصاراً» على مصائب الزمن بعد أن ثوى (اندفن) منهما (ممثلاً في المتوكل والفتح) أوسي وخزرجي (كل أنصاري على الزمن، كما أن الأوس والخزرج يشكلون كل الأنصار)

مَضَوْا أَمَماً قَصْداً، وخُلِّفْتُ بَعْدَهُمْ أُخَاطِبُ بِالتَّأْمِيرِ وَالِيَ (مَنْبِجِ)

كل أنصاري مضوا أمماً (قُدُماً) قصداً (دغري، سيده، قُبَلْ)، وخلفت (أبقيت) بعدهم لكي أخاطب بالتأمير والي منبج (أقول له أيها الأمير) فيا لتغير الزمان، بعد أن كنت أقول للمتوكل: يا أمير المؤمنين!

١٩١ البضاعة

يمدح أبا عبد الله محمد بن غالبٍ الأصبهاني:

يا أبا عبدِ اللَّهِ! عَمَّرَكَ اللـ ـهُ لِعُرْفٍ عَمَمْتَنا بِاصْطِنَاعِهْ

أطال الله عمرك لمعروف شملتنا باصطناعه (ببذله)

إنَّ هذا القَرِيضَ نَبْتٌ مِنَ القو لِ يَزِيدُ الفَعَالُ في إِينَاعِهْ

القريض (الشعر) مثل النبات لكنه نبات من كلام، والفعل (أي العطاء) يزيد في إيناعه (نضوجه)

هُوَ عِلْقٌ تَاجَرْتَني فيه بالحيـ ـلَةِ حتى غَبَنْتَني بِابْتِيَاعِهْ

الشعر علق (جوهر ثمين) ساومتني فيه وتحايلت علي، حتى غبنتني (غلبتني) في شرائك إياه. أي لم تعطني ما يكفي

١٩٢ كل مصيبة تهون

قال في غلامه:

عسى آيِسٌ مِنْ رَجْعَةِ البَيْنِ يُوصَلُ ودَهْرٌ تَوَلَّى بِالأَحِبَّةِ يُقْبِلُ

رب آيس (يائس) من رجوع الحبيب بعد البين (الفراق) يوصل (يتصل بحبيبه)، ورب دهر ذهب بالأحبة يقبل علينا ويعيدهم إلينا

فَلا تَعْجَبَنْ أَنْ لم يَغُلْ جِسْمِيَ الضَّنَى ... ولم يَخْتَرِمْ نَفْسي الحِمَامُ المُعَجَّلُ

لا تعجب إذا لم يغل (لم يقتل غيلة) الضنى (الهزال) جسمي، وإذا لم يخترم (يقتل) نفسي الموت المعجل

فَقَبْلَكَ بَانَ الفَتْحُ عَنِّي مُوَدِّعاً ... وفَارَقَنِي شَفْعاً له المُتَوَكِّلُ

فقبلك بان (فارق) الفتح بن خاقان قتيلاً، وفارقني شفعاً له (تالياً له) المتوكل الخليفة قتيلاً، رمى الفتح نفسه على المتوكل يحميه فقتل، ثم قتل المتوكل

فَمَا بَلَغَ الدمعُ الذي كنتُ أَرْتَجِي، ... ولا فَعَلَ الوَجْدُ الذي خِلْتُ يَفعَلُ

فما بلغ دمعي ما كنت أرجو أن يبلغ في البكاء عليهما، ولا قتلني الوجد (الحرقة) كما ظننت

وما كلُّ نِيرانِ الجَوَى تُحْرِقُ الحَشَا ... ولا كُلُّ أدوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

أدواء (جمع داء)

١٩٣ علام التعب

من قصيدة يرثي فيها القائد الموفق ويمدح ابنه أبا العباس المعتضد، وبعد القصيدة بأشهر يموت الخليفة المعتمد أخو الموفق فيتولى المعتضد الخلافة ٢٧٩هـ:

نَسْعَى، وأَيْسَرُ هذا السَّعْيِ يَكْفِينا، ... لولا تَكَلُّفُنَا مَا ليس يَعْنِينا

نشقى بالسعي في هذه الدنيا مع أن أقل السعي يكفينا،
إلا أننا رغم ذلك نتكلف أموراً لا أهمية لها

نَرُوضُ أَنْفُسَنَا أَقْصَى رِيَاضَتِها ... على مُوَاتَاةِ دهرٍ، لا يُوَاتِينا

نروض (نروِّض) أنفسنا ونعودها بأقصى ما نستطيع على مواتاة (مسايرة) زمن لا يسايرنا

١٩٤ غريب في موطني

يمدح جعفر بن عبد الغفار:

وأخٍ رابَنِي فأَضْرَبْتُ عنهُ؛ ... أيُّ إِخْوانِكَ الذي لا يَرِيبُ؟

رب أخٍ (صديق) رابني (شكَّكني في مودته) فأضربت عنه (أهملت إساءته). ومَنْ مِنَ الأصدقاء لا يريب (يفعل الفعلات المريبة)؟

أنا بالشَّامِ مَوطِني، غيرَ أنِّي ... بَعْدَ عهدِ العراقِ فيها غريبُ

موطني الشام (والبحتري من منبج بشمال سوريا الحديثة)، غير أنني أصبحت غريباً في وطني بعد أن قضيت زمناً في العراق. التسويد لأحمد عبد الرحيم

نَـبَـواتٌ مِـنَ الـصـديـقِ يُـرَوِّعْـ ـنَ جَنابي، كَمَا يَـرُوعُ الـمَشِيـبُ

ألاقي نبوات (تجاهلات/إهمالات) من الصديق يروعن جنابي (يُخِفْنَني) مثلما يخيفني المشيب حين أفاجَأ بانتشاره

١٩٥ غُراب الشباب

عَوِّلْ على الصَّبْرِ، واتَّخِذْ سَبَباً إلـى الـلَّـيَـالـي، فَـإِنَّـهـا دُوَلُ

عول (استند) إلى الصبر، واتخذ سبباً (طريقة) إلى الليالي (الزمن)، فالزمن يتداوله الناس يوماً لهذا ويوماً لذاك. يقول: اصبر، واجتهد واصنع أسباب النجاح، فالزمن متقلب وستأتي فرصتك فكن مستعداً لها

مَـا أَبْـعَـدَ الـمَـكْـرُمَـاتِ عَـنْ رَجُـلٍ عـلـى سُـؤَالِ الـرِّجَـالِ يَـتَّـكِـلُ

سؤال الرجال (طلب الحاجات منهم)

فَـكُـنْ عـلـى الـدَّهْـرِ فَـارِساً بَـطَـلاً فَـإِنَّـمَـا الـدَّهْـرُ فَـارِسٌ بَـطَـلُ

طَـارَ غُـرَابُ الـشَّـبـابِ مُـرْتَـحِـلاً وحَـلَّ شَـيْـبٌ فَـلَـيْـسَ يَـرْتَـحِـلُ

غراب الشباب (الشعر الأسود)

إِيَّـاكَ والـنَّـاسَ أَنْ تُـحَـمِّـلَـهُـمْ فَـوقَ الـذي الآدَمِـيُّ يَـحْـتَـمِـلُ

إِيَّـاكَ والـبُـخْـلَ عـنـدَ مَـكْـرُمَـةٍ وإِنْ رَأَيْـتَ الـرِّجَـالَ قـد بَـخِـلُـوا

وقالوا: كان البحتري من أبخل خلق الله

١٩٦ لذيذة على كل حال

وينسب إلى البحتري:

مُنَىً، إنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَعذَبَ المُنَى، وإلَّا فـقـدْ عِـشْـنَـا بِـهـا زَمَـنـاً رَغْـدَا

الأماني، ويسمونها اليوم «أحلام اليقظة»، لا غنى لعاقل عنها. البحتري أحلام يقظته واقعية: فإن تكنْ حقاً (واقعية، وتحققت) فهذا عذب جداً، وإلا (إن لم تتحقق) فقد عشنا بها زمناً رغداً (سعيداً)

١٩٧ هات عمراً للمال

ينسب إلى البحتري:

يـا جَـامِـعـاً مَـانِـعـاً، والـدَّهـرُ يَـرْمُـقُـه مُـفَـكِّـراً أَيَّ بَـابٍ فـيـه يَـطْـرُقُـه

يا جامع المال المانع لإنفاقه! الزمن يقف مفكراً من أي باب يدخل عليك لينكبك

جَمَعْتَ مَالاً، فَفَكِّرْ هَلْ جمعتَ له ، يا جَامِعَ المَالِ، أَيَّاماً تُفرِّقُه؟

جمعت مالاً، فهل جمعت عمراً كي تنفق كل هذا المال فيه؟ الجواب طبعاً عند البحتري نفسه: فقد جمع مالاً واشترى ضياعاً ودوراً خلَّفها لأولاده. وأشبهت هجرته من منبج بشمال سوريا إلى بغداد هجرتنا إلى دول الخليج في فورة النفط؛ أتيناها وقلنا لأرباب العمل فيها: طال عمرك! ثم عدنا إلى بلداننا وبنينا بيوتاً سنموت عنها وتؤول إلى أولادنا، (وأنا أكتب هذه الكلمات في الدوحة في الأول من فبراير ٢٠١٠). وقد نهض البحتري بأسرته، وأصبح أولاده وأحفاده نابهين في المجتمع، حتى لقد مدح المتنبي اثنين من أحفاد البحتري، بَخٍ بَخٍ أبا عبادة!

١٩٨ أي الرجال المهذب؟

إذا مَا صَديقي رَابَني سُوءُ فِعْلِه ولَمْ يَكُ عَمَّا رَابَني بِمُفِيقِ

رابني (أزعجني)، مفيق (كافّ)

صَبَرْتُ عَلى أَشياءَ مِنْه تَريبُني مَخَافَةَ أَنْ أَبْقَى بِغَيْرِ صَديقِ

١٩٩ شبيه الباطل

ولم أرَ مِثْلَ المَوْتِ حَقّاً؛ كَأَنَّهُ، إذا مَا تَخَطَّتْهُ الأَمَانِيُّ، بَاطِلُ

ليس شيء محتوم كالموت، وفي الوقت نفسه عندما تتخطاه (تتجاوزه) أمنيات الإنسان يصبح كأنه باطل (غير مؤكد). يقول: الموت مؤكد، ولكننا برغباتنا، أو إن شئت بتفكيرنا الرغائبي، نجعله يبدو أمراً مشكوكاً في حدوثه

٢٠٠ عرفت خيرك

وَيَرْجِعُني إلَيْكَ، وإنْ تَنَاءَتْ دِيارِي عَنْكَ، تَجْرِبَةُ الرِّجَالِ

يَرجعني إليك (يُرجعني)، وإن تناءت (بعدت) دياري عنك، أنني أجرب الرجال وأرى ما عندهم من رديء الأفعال. التسويد لأحمد عبد الرحيم

٢٠١ بلدة مثل بلدة

إذا نِلْتَ في أَرْضٍ مَعَاشاً، وإنْ نَأَتْ، فَلا تُكْثِرَنْ فِيها نِزَاعاً إلى الوَطَنْ

نزاعاً (حنيناً)

فَمَا هِيَ إلَّا بَلْدَةٌ مِثْلُ بَلْدَةٍ وخَيْرُهُمَا مَا كانَ عَوْناً على الزَّمَنْ

٢٠٢ أعطنا حقنا أو تصدق علينا

أَيُّهَذَا الأَمِيرُ قد مَسَّنَا الضُّرُّ ـ ومُدَّتْ يَدُ الخُطُوبِ إِلَيْنَا

وَلَـدَيْـنـا بِـضَـاعَـةٌ مُـزْجَـاةٌ قَـلَّ خُـطَّـابُـهـا، فَـبَـارَتْ لَـدَيْـنـا

الضر (الجوع)، مزجاة (كاسدة)، وبضاعتنا قل خطابها (مريدوها) وبارت (كسدت). لا يجيز أهل العروض للشاعر مثل هذا الزحاف في عروض البيت، لكن البحتري ارتكبه وارتكب غيره. وأبو تمام أستاذه له هنات عروضية، ذكرها القدماء في كتبهم. وكان أبو العتاهية عندما يراجعونه في شيء كهذا يقول: أنا أكبر من العروض

أَيُّـهَـذا الأَمـيـرُ أَوْفِ لـنَـا الـكَـيْـ ـلَ، بِمَا شِئْتَ، أَوْ تَصَدَّقْ علَيْنا

يقول: إن لم ترد مكافأتنا على الشعر، فتصدق علينا صدقة على الأقل. هذه الأبيات تنظم الآية: «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين» يوسف ٨٨

٢٠٣ ضحك يوم ببكاء سنة

ينسب إلى البحتري:

إذا الـمـرءُ لـم يَـرْضَ مَـا أَمْـكَـنَـهْ ولـم يَـأْتِ مِـنْ أَمْـرِهِ أَزْيَـنَـهْ

إذا المرء لم يرض بالممكن المتاح، ولم يفعل الفعل الحسن

وأُعْـجِـبَ بِـالـعُـجْـبِ، فـاقْـتَـادَهُ وتَـاهَ بِـهِ الـتِّـيـهُ، فَـاسْـتَـحْـسَـنَـهْ

وإذا أعجب بالعجب (التكبر) فقاده تكبره، وتاه (ضل) به تيهه (تكبره)، واستحسن التكبر

فَـدَعْـهُ، فـقـد سَـاءَ تَـدبِـيـرُهُ سَـيَـضْـحَـكُ يَـوماً، ويَـبْـكـي سَـنَـةْ

فاتركه عندئذ فقد ساء تدبيره، وسيسعد يوماً ويبكي سنة

٢٠٤ عاقدة اللسان

وقال في الخمرة:

مـا أُبَـالـي إذا شَـرِبْـتُ ثَـلاثـاً مَـنْ غَـدا رَاضِـياً، ولا مَـنْ جَـفَـانـي

مِـنْ سُـلافٍ عَـتِـيـقَـةٍ سَـلْـسَـبِـيـلٍ بِـنْـتِ عَـشْـرٍ، تُـجِـيدُ عَـقْـدَ الـلِّـسَـانِ

سلاف (خمر صافية)، سلسبيل (صافية)، بنت عشر (معتقة عشر سنين)، والخمرة تحسِنُ عقد اللسان فشاربها يبلع الحروف ويمطها

تَـرَكَـتْـنـي، عـلـى فَـصَـاحَـةِ نُـطْـقِـي، وأَنَـا مُـحْـوَجٌ إلـى تَـرْجُـمَـانِ

تركتني الخمرة رغم فصاحتي وأنا محتاج إلى من يترجم كلامي لصحبي كي يفهموني

هِـيَ نِـعْـمَ الـرَّفِـيـقُ لـي إِنْ دَهَـتْـنـي نَـائِـبَـاتُ الـزَّمَـانِ والأَحْـزَانِ

فـإذا مَـا أَرَدْتَ رُشْـدِيِ، فَـخُـذْ لـيِ مِـنْ صُـرُوفِ الـرَّدَى كـتَـابَ الأَمَـانِ

إذا أردتني أن أسلك سبيل الرشاد وأترك الخمرة فخذ لي من صروف (مصائب) الزمان كتاباً بالأمان، وهذا مستحيل بالطبع، فسوف إذن أواصل شربها

٢٠٥ قاطعو النور

إِنَّ الــــزمــــانَ زَمَــــانُ سَـــوّ وجَــمِــيــعُ هَــذا الــخَــلْــقِ بَــوّ

سوّ (سوء)، بوّ (جلد مسلوخ، يحشى بالتبن، ويقرب من الناقة لتظن أنه ولدها الذي ذبحوه ليأكلوه، فيدر لبنها فيحلبها بنو آدم)، والبو على هذا زائف وكذا جميع البشر في رأي البحتري

لــو يَــمْـلِـكُـونَ الـضَـوْءَ، بُـخْــ ـلاً لـم يَـكُـنْ لِـلْـخَـلْـقِ ضَـوّ

ذَهَــبَ الــكِــرَامُ بِــأَسْــرِهِــمْ وبَــقَــى لَــنَــا لَــيْــتٌ وَلَــوْ

بقى (بقي)

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

فهرس الأغراض (البحتري)

(الأرقام كلها أرقام القصائد لا الصفحات)

العشق والغزل وتوابعهما

طبائع ومشاعر

مدح وقدح، وحرب وضرب

وصف

فخر

فخر بالشعر: ١٠/ ١١/ ٢٦/ ٣٩/ ٤٢/ ٥٢/ ٦٥/ ٧٩/ ٨٥/ ١٢٩/ ١٣٥/ ١٦١/ ١٦٥/ ١٨٦

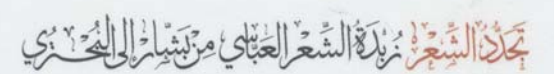
فخر بالقبيلة: ١/ ٨/ ١٢/ ٤٨/ ٥٧/ ١٠٣/ ١٢٦/ ١٤٧

فخر بالنفس: ١٠/ ١٨/ ٤٥/ ٥٦/ ٧٠/ ١٠٣/ ١٠٧/ ١٤٩ (هذه أرقام القصائد)

فهرس القوافي العام

أبواب الكتاب: ١ بشار ٢ العتاهي ٣ العباس ٤ مسلم ٥ أبو نواس ٦ دعبل ٧ ديك الجن ٨ ابن الجهم ٩ أبو تمام ١٠ البحتري





يضم هذا الكتاب ألفاً ومئتي قطعة. تكون القطعة بيتاً وتكون قصيدة كبيرة، أو أي شيء بينهما.

هي أشعار انتخبتها من دواوين عشرة شعراء حملوا الشعر العربي وانطلقوا به عالياً كي يحلق في مدار جديد. البدء ببشار، الشاعر المتهتك المتمرد، وكل شعرائي متهتكون متمردون، جزئياً أو كلياً. ظل بشار «يتخيل» أنه يحن إلى دين أجداده عبدة النار «الأرض مظلمة والنار مشرقة/ والنار معبودة مذ كانت النار»، هذا رغم نشوئه في أحضان العربية لم يعرف لغة غيرها. كان بشار رغم عماه شهوانياً - ومن قال إن الأعمى أبعد عن الشهوانية من أخيه المبصر؟ -، وعبر بشار عن شهوانيته في أشعار كثيرة نقلنا منها الكثير. يحدثنا عن فتاته: «تقول وقد خلوتُ بها: تكلم واكفني يدكا».

والمتهتك الثاني مجن سنوات قلائل ثم انعكس انعكاسة غريبة أنتجت لنا أطرف دواوين الشعر العربي. هذا أبو العتاهية. عاش طويلاً، وعاش وهو في مطلع كل صباح ومطلع كل قصيدة يذكر الموت. كان يعشق الحياة عشقاً أنساه أن يعيشها...

- كل باب مذيل بفهرس للقوافي، وفي آخر الكتاب فهرس عام للقوافي

- مرفق مع الكتاب تسجيلات صوتية من قصائد «تجدد الشعر» بصوت المؤلف عارف حجاوي، وهي مرقمة بحسب ترقيمها في الكتاب

- تم التسجيل في استديوهات مركز الجزيرة للتدريب الإعلامي. مهندس الصوت: محمد ماضي




9781287329992

القاهره - المعادي - شارع المعراج


almashriq.books@gmail.com